الدكتور حسين مؤنس

تاريخ قريش

العصر الحديث

تاريخ قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

العصر الحديث
للنشر والتوزيع
DAR EL-MANAHEL
ص.ب. 2060 - 1105 (5645 - 14)
هاتف: 814716 (01) فاكس: 314220 (1

تصدر هذه الطبعة من " **تاريخ قريش** "

تحيّة وفاء وتقدير

للمؤلّف العلاّمة الدكتور حسين مؤنس – رحمه الله –

بعد أعوام على رحيله

مقدّمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، الرحمة المهداة.

أما بعد، فهذه دراسة لقريش وتاريخها أعان الله عليها، ويسر أسبابها، فتمت بمعونته، وتيسرت بسابغ فضله، فله - سبحانه - الفضل والمنة بداية ونهاية.

وفكرة القيام بدراسة لقبيلة قريش وتاريخها، وأسباب قوتها وتفوّقها على غيرها من قبائل الجزيرة العربية قبل الاسلام وبعده، وصراعها مع الاسلام رغم طلوع رسول الله من بين أظهرها، ثم دخولها فيه ووصولها إلى رياسة دولته، وما جرى عليها بعد ذلك من تصاريف الزمان وما كان لذلك من آثار في تاريخ أمة الإسلام، هذه كلها موضوعات دارت في ذهني من زمن طويل، لأن قريشاً كانت العمود الفقري للتاريخ الاسلامي في معظم عصوره، ولا يتأتى فهم هذا التاريخ على وجهه إلا إذا درس الباحث شأن قريش - وهي كانت دائماً من أصغر قبائل العرب حجماً، وكيف ظهرت في التاريخ وكيف تمكنت من بناء نفسها وسيادة غيرها من قبائل الجزيرة، وبينها قبائل ضخمة كالشعوب، من أمثال تميم والأزد وقضاعة وعبد القيس وهوازن وغطفان، وصمودها في صراع القبائل في بحر الرمال والصخور قبل ظهور الاسلام. هذه كلها موضوعات مباحث شائقة وشاقة في نفس الوقت، ولكنها ضرورية لمن يريد أن يدرس السيرة النبوية الجميلة وموقف قريش منها وانقسامها إلى قريش الإيمان وقريش الكفر، وما كان من صراع بين القريشين، وانتصار قريش الإيمان، وهي الأقل عدداً وثروة. واندراج

قريش الكفر فيها. ثم كيف وصلت عدوة الاسلام التي دخلت الدين في السنة الحادية عشرة كما يقولون، واقتدرت رغم ذلك على الوصول إلى رياسة أمة الاسلام، واستطاعت تحويل الأمة المجاهدة إلى دولة ذات ملك وسياسة وغايات دنيوية وما كان لذلك كله من آثار بعيدة المدى في تاريخ أمة الاسلام.

ولم أكن لأقدم على ولوج هذا الباب وأنا منصرف بكليتي إلى انجاز أطلس تاريخ الاسلام وكتابة السيرة النبوية، وكل منهما مطلب يستنفد العمر الطويل، ولكن الظروف شاءت أن أكون في مدينة الرياض في خريف ١٩٨٢ ويضمني مجلس أدب وعلم مع الأخ الأستاذ علوي طه الصافي في دار الفيصل، ويقترح الصديق أن أكتب عن قريش دراسة خاصة لمجلته «في نحو عشرين صفحة» وأمضي وأشرع في العمل، وبعد حين أستأذن الأخ في أن نجعل الدراسة كتاباً صغيراً في نحو مائتي صفحة، ولا يزال الموضوع يتفتح أمامي والدراسة تستدرجني من مطلب إلى مطلب، ومن مرجع إلى مرجع، وخدعني البحث عن نفسي وعن نفسه فأجد نفسي في النهاية أمام مادة بلا نهاية، ويكون شأني معها شأن واضع أي قاموس أو معجم، فإن المشكلة مع واضع القاموس ليست: ماذا يضع فيه، بل ماذا لا يضع؟

ثم يلقاني الأخ الصديق الأديب الناشر محمد بن علي الوزير ويقول: ضع كل ما تحب وأنا بنشر ذلك زعيم، فأتشجع وأمضي حتى أصل بالبحث إلى ما ترى، وقد حررته وعدت عليه بالمراجعة والتدقيق وإعادة الكتابة مرة بعد أخرى، ودفعت به إلى المطبعة وأنا جد متخوف، فإن الميدان واسع، والموضوعات متعددة معظمها جديد على البحث والموضوع في جملته بالغ العسر، ولكني أطمع دائماً في كرم القارىء وإحسانه، وهذه على أي حال أول محاولة لمؤرخ محدث في التأريخ لقريش منذ ظهورها على مسرح التاريخ إلى يومنا هذا، ومن هنا فإن احتمالات الخطأ كثيرة، والقارىء مرجو أن يحسب حساب هذا كله وهو يقرأ هذا الكتاب، وإذا شاء أن يعتبر هذا الكتاب كله مجرد بداية لدراسة تاريخ قريش فذلك فضل

منه وأريحية. وهذه المطالب يحاولها الباحث مرة بعد مرة، ويراجع ما يقوله الناس فيه طوراً بعد طور والعلم لا يعرف شيئاً اسمه الكلمة الأخيرة وخاصة في موضوع بهذا الاتساع والأهمية.

والكتاب في ذاته ضخم، ولا يحسن أن أزيده طولاً بالاسراف في التقديم، وإنما لا يحسن بي أن أختم هذه الكلمة دون أن أتقدم بالشكر إلى الأخوين الكريمين ابراهيم الوزير ومحمد الوزير والصديق الدكتور محمود علي مكي الذي أعانني في مراجعة بعض تجارب الطبع وتلميذي محمد فخري الوصيف الذي شاركني في مهمة مراجعة الكتاب وتصحيح تجارب الطبع والإشراف على المراحل الأخيرة للفراغ منه، والله سبحانه من وراء القصد والنية.

خادم العلم

حسين مؤنس



القسم الأول

قريش قبل الإسلام

الفصل الأول

ظهورُ قُرَيش
وَأوّليَّات تاريخهَا

مدخل

من مصاعبنا الكبيرة مع الأصول العربية التي نعتمد عليها في إنشاء دراساتنا التاريخية أنها تقدم لك الكثير جداً مما لا تحتاجه. والقليل جداً مما تحتاجه، ومادتها في ذاتها غنية ووافرة ولكن هذه المادة لا تعطيك إلا جانباً ضئيلاً من الإجابة على الأسئلة التي تبحث عن جواب لها، لأن هذه الكتب لم تكتب على الحقيقة لنا بل لأبناء عصورها، وإذا كان كل كتاب يعتبر إجابة على سؤال أو أسئلة، فإن الأسئلة التي وضعت هذه الكتب للإجابة عليها ليست أسئلة عصرنا. والمادة الكثيرة التي تحسبها أنت زائدة أو ذات غناء قليل لك، إنما هي في الحقيقة مادة طيبة ونافعة وحافلة بالفوائد، وفي استطاعة الباحث الدؤوب أن يعيد قراءتها مرة بعد أخرى ليظفر بِطَلبته، وبعد الجهد الشديد والصبر الطويل تجد جواب بعض اسئلتك بين يديك أو تجد على الأقل بدايات هذه الأجوبة أو مفاتيحها وعلى أي حال فأنت مع مراجعك العربية في غابة أو بستان، فهنا كل الأشجار وعليك أن تبحث عما ينفعك منها، وهنا معظم الزهور، وعليك أن تبحث عما يروقك.

وعندما أحسست بالحاجة الى جمع أكبر قدر من المعلومات عن قريش وأصولها وتركيبها وتاريخها كنت أحسب أن المادة عن كبرى القبائل العربية وأعظمها قدراً وأهمية في تاريخ العرب على أطراف الأصابع، ولكن بدايات البحث دلتني على أن أمامي طريقاً أطول مما قدرت، والأسئلة التي طرحها على الموضوع يبدو أنها لم تخطر على بال مؤلفي الحشد الكبير من الأصول التي كنت أتوقع الجنى الوافر الميسر منها، والغابة بدت لي بلا نهاية ولا نور، فلم أحس أنني

وضعت قدمي على بداية الطريق الا بعد جهد شديد.

وقد وجدت هذه البداية في كتب المتأخرين زماناً دون السابقين، ويبدو أن الأسئلة التي تدور في أذهاننا اليوم قريبة مما كان يدور في ذهن رجال مثل أبي محمد علي بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ وابن عمر يوسف بن عبد البر النمري المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وأبي الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس الأندلسي المصري المتوفى سنة ٦٧١ هـ في الغالب فهؤلاء والكثيرون من أمثالهم كانت لديهم الأصول كلها ـ ما وصل الينا وما لم يصل ـ فكانوا في سعة من المادة والوقت يبحثون ويختارون، وابن حزم بالذات بعد أن أنفق من الجهد ما أنفق في انشاء كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل وعمد الى تأليف كتاب «جمهرة أنساب العرب» كان قد جمع علماً واسعاً حقاً واتضحت الأمور في ذهنه فيما يتصل بالسيرة النبوية وأنساب العرب على نحو مكن له من انشاء كتبه الكثيرة التي جمع فيها ما أراد جمعه من كتب السيرة وما أراد البيان عنه من أنساب العرب، وملاحظاته التاريخية الصغيرة التي يزين بها شجرات أنسابه تعطينا في أحيان كثيرة جداً مفاتيح الاجابة على أسئلة كثيرة، وبالمفاتيح تنفتح مغاليق الأبواب ويهون العسير، ولولا هذا الكتاب العظيم وما يعطينا ابن حزم في كتبه التاريخية الأخرى وخاصة كتاب جوامع السيرة لأنفقت في هذا البحث أضعاف ما أنفقت.

والذي كتبه العرب عن قريش بحر بلا ساحل، وما من كتاب عربي قديم أو نصف قديم أياً كان موضوعه الا وفيه طرف عن قريش، وليس ذلك بغريب فقريش ـ محور التاريخ العربي كله ـ وهي ذؤابة المجد العربي ومناطه، والحشد المتهيل المتجمع لك من المعلومات بعد البحث الطويل هو في الحقيقة ركام من قطع الفسيفساء عليك بعد ذلك أن تفحصها وتصنفها وتبوبها وتجمعها في صورة لها شكل مفهوم ومعنى نافع، ولا يستبعد بعد ذلك كله أن تتبين بعد العناء أن مساحات كبيرة من الصورة ظلت خلاء بلا رسم، ولا بد من تركها على حالها لأن المنهج العلمي لا يأذن للمؤرخ في أن يملأ الفراغات. والفراغات ـ أي النواحي

التي تظل مجهولة من التاريخ الذي يكتب ـ تكون في الغالب دليلاً على أمانة المؤرخ وإحجامه عن اللجوء في ملء الفراغات الى الافتراضات وهباء الكلام الذي لا يعتد به ولا غناء فيه.

وفي محاولتنا لكتابة تاريخ لقريش تلقانا ظاهرة الفراغات هذه بصورة واضحة جداً فيما يتعلق بأصل قريش وأوليات تاريخها، لأننا هنا ـ فيما يتعلق بالأصول والأوليات ـ نتلمس طريقنا في ليل التاريخ الذي تختفي فيه كل المعالم الصحيحة للطريق، وتزيدنا حيرة معالم كثيرة وضعها وألقى عليها الضوء مؤلفون من الطراز الذي يصعب عليه أن يقول لا أدري، أو قُصّاص تغنوا للناس ـ وأصحاب السلطان خاصة ـ بما يشتهون، ثم اندرجت قصصهم في كتب التاريخ، أو ناس كانت لهم أهواء سياسية وعصبية اصطنعوا لها ما يؤيدها من أحداث الماضي. وشيئاً فشيئاً نخرج من الظلام الى منطقة ظل، وعندما نقترب من أوان البعثة المحمدية نجد أنفسنا في منطقة شبه ظل نبصر طريقنا فيها، ولكن الرؤية تظل دائماً غير واضحة وغير كاملة، ولا ضير في هذا فإن المؤرخ يكتب على قدر ما تساعفه به أصوله التي يثق فيها، ولا تثريب عليه إذا هو ترك النواحي على حالها دون اعتساف ما يملأها، فربما وجد مؤرخ لاحق مادة سليمة يكمل بها الصورة دون أن يضطر إلى إزالة ما وضعه غيره على غير أساس.

أوليات تاريخ العرب: العرب البائدة

ومن البداية نجد أنه لا بد لنا لكي نجد أول الخيط من أن ندخل غابة القبائل التي ظهرت قريش من بينها، فقريش لم تكن شجرة مفردة في برية وإنما هي كانت شجرة في غابة من القبائل كباراً وصغاراً، وهذه الغابة كانت كثيفة جداً في العصر الذي بدأت قريش تتراءى لنا فيه في فترة لا تبعد أكثر من قرنين قبل البعثة المحمدية، وهي فترة الجاهلية الثانية، أو ما يمكن أن نسميه قبل

الهجرة، فالقبائل كثيرة جداً تغطي سطح الجزيرة كله ومساحات واسعة من بلاد الشام وجنوب العراق وشبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية، فلا يخف زحام الناس إلا في مناطق الرمال السائلة التي لا ينبت فيها زرع لأن الرمال تبتلع كل قطرة ماء تسقط عليها من مثل صحارى النفود والصَّمَّان والربع الخالي الذي يسمى في بعض أجزائه بالبحر الصافي، لأن الصحراء عند العرب هي بحر الرمال، ومواطن العمران فيها جزائر وهي لا تسمى واحات، لأن الواحات لا توجد إلا في صحارى مصر، لأن لفظ واح في اللغة المصرية القديمة معناه الماء، والبحر الصافي هو البحر الذي لا توجد فيه جزر.

وأصولنا تقدم لنا مادة وافرة عن القبائل العربية خلال عصر الجاهلية الثانية. وهذه المادة متفرقة في معظم كتبنا القديمة، فما في العربية كتاب قبل العصر الحديث ليس فيه ذكر لقريش أو فائدة عنها، ومن حسن الحظ أن جانباً عظيماً منها متشابه أو منقول بعضه عن بعض ولكن الخلافات بينها فيما يتصل ببدايات قريش قليلة مما يسهل المهمة أحياناً ويزيدها صعوبة في أحيان أخرى.
ونبدأ من البداية فنقول إن كلّ مراجعنا متفقة على أن تاريخ العرب قبل الإسلام - باستثناء عرب اليمن - مر في ثلاث مراحل أو طبقات: العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة، ولا خلاف بينها حول العرب البائدة، ولكن التفريق بين العاربة والمستعربة - بحسب كلامهم - غير واضح، فالعارب لغوياً هو المستعرب على وجه التقريب، وقريش نشأت في قولهم من المستعربة وهم العدنانيون الإسماعيليون.

ونلقي نظرة على رأي العرب القدامى في هذا الموضوع فنقول إن آراءهم مجتمعة على أن العرب البائدة هم أقدم من سكن وسط الجزيرة وشمالها، وأنهم انقرضوا، وبعضهم باد تماماً مثل عاد وثمود فقد قال اللّه تعالى في محكم كتابه: **﴿وأنه أهلك عاداً الأولى وثموداً فما أبقى﴾** (النجم ٥٠/٥١)، ويفهم من نص الآية على بعض التفاسير أن هناك عاداً ثانية هي بقية الأولى. وباستثناء ثمود يمكن

القول بأن بقايا تخلفت عمن باد من العرب البائدة مثل عاد وطسم وجديس وأميم وقطوراً وإرم والمؤتفكة وأهل الرّس وأصحاب الأيكة وهذه البقايا القليلة اختلطت بالعرب العاربة وذابت فيهم.

وقد قرأنا فيما كشفت عنه أبحاث الجيولوجيين ممن نقبوا عن بقايا ما قبل التاريخ في جزيرة العرب، أن الجزيرة كانت عامرة بالزروع والنباتات والشجر والوحش وحيوان الصيد في بدايات العصر الرابع من عصور عمر الأرض المعروف باسم الكواتيرناري Quaternary وهو الذي جاء بعد أحقاب الجليد المعروفة باسم البلايستوسين Pleistocene الذي جاء بعد العصر الثالث أو الترسياري Tertiary . والبلايستوسين مصطلح علمي جيولوجي مركب من لفظين (Pleistos + Kainos) ومعناهما معاً الأحدث أي العصر الأحدث ويراد بذلك أحدث عصور عمر الأرض الطويل أو أقربها إلينا، وقد دام نحو مليون سنة، وقد تغطت فيه مساحات شاسعة من النصف الشمالي من كرة الأرض بالثلوج مرة بعد أخرى حتى نصف آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية، فقد زحف الجليد من أماكنه الحالية في القطبين الشمالي والجنوبي حتى غطى المساحات التي ذكرناها. فثقلت طبقاته في بعض الأحيان حتى بلغ سمكها ثلاثين متراً وخفت طبقاته في أحيان اخرى حتى ذابت الثلوج وأصبحت المساحات المذكورة غامرة بالماء العذب، ولهذا يعرف البلايستوسين بالعصر الجليدي glacial epoch ، فأما الأحقاب التي ثقل فيها الجليد وجمد فتسمى بأحقاب الجليد glacial ages وأما التي خف فيها فتعرف باسم أحقاب الجليد البينية Interglacial ages وآخر هذه الأحقاب الثلجية البينية هي التي استمر ذوبان الجليد فيها ولم يعد إلى التجمد مرة أخرى، وقد استمر ذوبان الثلوج خلال تلك الحقبة الأخيرة بضعة مئات من آلاف السنين، ولم يكن الجليد في عصر البلايستوسين ثابتا، بل كان يتحرك جنوباً في نصف الكرة الشمالي على هيئة ثلاجات أو وديان ثلج تتحرك في بطء شديد، فصارت تلك الثلاجات سيولاً تنحدر إلى Glaciers

الجنوب أو قيعانا هـائلة الحجم مليئة بـالماء، أخـذت هذه القيعـان تصغر في الحجم بعد انسحاب الجليد إلى الشمال شيئاً فشيئاً، وخلفت وراءهـا بحيرات شاسعة الحجم كما نرى في البحيرات الواسعة شمالي الولايات المتحدة وجنوب كنـدا وبحيرات شمـال ووسط أوروبا ووسط آسيـا ويدخـل فيها بحـر الخزر (قزوين) وبحر خوارزم (آرال) وبحيرة بيكال وقد مَلُح ماء بعض هذه البحيرات بالبخر وارتفعت نسب الأملاح في الماء بل إن البحر الميِّت (بحيرة لوط أو البُحيرة المُنتِنة) بقية بحيرة من تلك البحيرات المتخلفة عن عصر ذوبان الجليد، وقـد انغمرت كل بلاد أوروبا وآسيا بهذا الماء الذائب الذي سال ودياناً وأنهاراً أو ظل مكانه في الوهاد، وسالت منه أنهار ووديان اخرى غمرت جنوبي آسيا ومنه جزيرة العـرب. وكلما انقشع المـاء وانحسر عن بقعة من الأرض نمت فيهـا النبـاتـات وطلعت الأشجار وظهر الحيوان، وبين هـذا الحشد الكبـير من الحيوان ظهـرت لنا آثار الإنسـان الذي لا بد أن يكون قد عاش على الأرض من أحقاب سحيقة في القـدم، وانسحب مع غيـره من الحيـوان والنبـات إلى الجنوب ثم عـاد إلى المواطن التي عمرت بالحياة بعد أن كانت خافية تحت الثلوج أو غامرة بالماء.

وقد دامت عصور انقشـاع الماء عن بعض اليـابس وازدهار الحيـاة بضع مئات الألوف من السنين حتى إذا كان ما بين ثلاثمائة الف ومائتين وخمسين ألفاً من السنين من عصرنا الراهن هذا بدأنا نتعرف على معالم الأرض وملامحها وآثـار الإنسان والنبات والحيوان والطير والأسماك والخلائق الأخرى التي نعرفها إلى اليوم.

وكانت تربـة الأراضي التي انقشع عنهـا الماء شـديدة الخصب لأن ركـام الثلوج والأمـواه خلَّفت عليهـا طبـاقـاً من الـطفـل Clays والصلصـال Silts والأمـلاح Salts، ويؤرخ علماء طبقات الأرض والجيـولـوجيـا لهـذه الأحقـاب بدراسة ما يعثرون عليه فيها من الكربون Carbon والكربون المشع Radio - carbons الذي يعرف بـاسم كربـون ١٣ وكلاهمـا أخشاب متفحمـة، ولهذا

الكربون المشع وما يخرج منه من إيزوتوبات الكربون المشعة Radioisotopes of Carbon وما ينبعث منها في الهواء من ثاني أوكسيد الكربون Carbon dioxide وقد جود العلماء أساليب التأريخ بدراسة الكربون المشع حتى أصبحوا يؤرخون لقشرة الأرض والأحياء التي عاشت عليها وفي قشرتها خلال المائة ألف سنة الماضية وهذا هو أبعد تاريخ نستطيع أن نؤرخ فيه للحياة في جزيرة العرب على وجه قريب من التأكيد. ومن حسن الحظ أن نفراً من العلماء درسوا ما تيسر لهم دراسته من تاريخ تربة الجزيرة العربية خلال هذه المدة. وقد تمت حفائرهم على السواحل وما قرب منها وفي أقصى الشمال والجنوب والشرق وجدير بالذكر أن أبا الريحان البيروني تنبه إلى أن مساحات شاسعة من شبه الجزيرة كانت غامرة بالماء، وقد استنتج ذلك مما كان يصادفه في تربة الجزيرة من أصداف وحفريات أحياء بحرية في مواضع من الحجاز والطريق إليه. ودون أن أخرج كثيراً عن السياق أقول إن استخدام الكربون المشع في التأريخ لطبقات الأرض يقوم على دراسة ما بقي من اشعاعه فيعرف بذلك قدر ما ضاع وتبدد، وما داموا يعرفون سرعة تبدد الاشعاع فهم يعتمدون على هذا في التأريخ، وذلك أيضاً ينطبق على المعادن المشعة مثل اليورانيوم والأيونيوم والراديوم. وخلال أحقاب ثقل طبقات الجليد وخفتها طوال عصر الجليد أو البلايستوسين هلك - حتى ندر - الكثير من صنوف الأحياء الذي كان يعيش في تلك الأقاليم من حيوان الأرض ونباتها، ومن بين ما هلك حتى ندر أو انسحب إلى الجنوب أمام طوفان الجليد، الحصان والجمل. فقبل عصر الجليد كان يعيش في الجزيرة الحصان والجمل وبعض أصناف الوعول والثيران والأسود والزواحف، قد نَدُرَت حتى اختفت حفائرها من طبقات الأرض في جزيرة العرب والشمال الأفريقي إلى ما قبل ٢٥ ألف سنة، لأن قرب الجليد وكثافة طبقاته وما كان يسيح منه وينحدر إلى الجنوب من الماء المثلوج بَرَد جو نصف الكرة الشمالي إلى درجة لم تستطع تلك الأحياء أن تعيش فيها، فهلكت جماعاتها ولم يبق منها إلا ما اعتصم بما ارتفع من القمم حتى أفاد من الشمس وما انخفض وخفي من الوهاد ليعود مرة أخرى إلى الظهور والتكاثر

عندما انقشع الماء وعاد دفء الأرض، وهو عندما عاد إلى الظهور كان صغير الحجم دقيق العظم فأول ما عثرنا عليه من حفائر الجمال جنوبي العراق وشمالي اليمن كانت صغيرة الحجم في حجم الجحش الصغير، وينطبق هذا على الحصان الذي عاد الى الظهور في حجم الكبش الكبير في صحراء جوبي شمال الصين، وهناك كان موطن ذلك الحيوان الذي سيكون له ولاستئناسه أثر ثوري في تاريخ البشر. أما الجمل فسنرى فيما يلي من هذا الحديث ما سيكون لاستئناسه من دور عظيم في تاريخ الجزيرة العربية. وعاصر عودة ظهور الابل والوعول والثيران على حفافي الجزيرة وكذلك الشياه والأعناز والوعول وبعض الكواسر منها أسود أقرب إلى القطط البرية الكبار نشأ عنها الأسد الآسيوي وهو الغضنفر أو الرئبال الذي أدركه الشعر العربي وأورد ذكره.

ولم ينته عصر الجليد أو البلايستوسين دفعة واحدة، بل إن الجليد توقف عن الذوبان وعاد إلى الثبات على جَمْده، ثم سال وجَمد مرة بعد أخرى خلال مائتين أو ثلاثمائة ألف من السنين، لأن الأحوال المناخية في جو الأرض لم تستقر إلا بعد زمن طويل، وكان باطن الأرض يتفجر بالبراكين في كل مكان، فما كانت البراكين تخمد ولا سطح الأرض يستقر، والزلازل والهزات الأرضية لا تتوقف، فهي إذا قرَّت في مكان تحركت في آخر، وما كان من الممكن أن تستقر الأرض أو جوها على حال إذا كان هذا الغطاء الجليدي الثقيل يجثم على ما ذكرناه في نصف الكرة الشمالي، وقد أخذ وقتاً طويلاً جداً في ذوبانه وانحساره إلى الشمال، هذا كله كانت تصاحبه رعود وبروق وعواصف ثلجية وأعاصير ورياح عاتية، وأعاصير دوارة Typhoons تدور وتنتقل من مكان لمكان، وهذا كله كان يخرب ما عسى أن يكون قد نما من مظاهر الحياة على أي بقعة من الأرض تستقر فيها الأحوال زماناً، وإذا كنا نتكلم عن أحقاب من عمر الأرض تطول مئات الألوف من السنين فإن فترات الاستقرار الطارئة هنا وهناك من الممكن أن تطول بضع ألوف من السنين ثم تعود القلقلة من جديد، وخلال

هذه الألوف من السنين من الاستقرار كانت تنشأ أجيال من المخلوقات من كل نوع، وكلما بعدنا عن عصر الجليد طالت فترات الاستقرار واتصلت أجيال المخلوقات دون أن يمنع ذلك من عودة التجمد والقلقلة واشتداد هياج البراكين. وشيئاً فشيئاً تطول فترات الهدوء والاستقرار النسبي واتصال الحياة، ولا يمنع ذلك من عودة التقلقل والاضطراب وهياج البراكين وانتشار الحرائق وموت الكثير من مظاهر الحياة. ويقدر العلماء أن ذلك الحال القلق استمر إلى ما قبل ٥٥ ألف عام من أيامنا هذه، وخلال العشرين أو الخمسة وعشرين ألف من السنين صاعدين مع الزمن نحو عصرنا هذا استقرت الأحوال في وسط آسيا وجنوبها نسبياً فازدهرت الحياة واتصلت الأجيال قروناً متطاولة مع هبوب العواصف وثوران البراكين بين الحين والحين، وقد عانى وسط جزيرة العرب وكل وسط وجنوب آسيا وشمال أفريقية من ذلك طويلاً، وتحطمت الحياة مرة بعد أخرى، ولكن الحياة كانت تعود إلى الإزهار بقوة كلما أتيحت لها الفرصة، فالتربة بالغة الخصوبة والمياه وفيرة وحرارة الجو تميل إلى الاعتدال، وإذا كانت البراكين والعواصف والسيول تقضي على الأحياء فهي كذلك تدفع الحياة في كيان الأرض وتحمل بذور النبات وأصول الأشجار من مكان إلى مكان، والبراكين بما تقذف من الحمم وتنشىء تربة بالغة الخصوبة، وفي أيامنا هذه يثور بعض البراكين ويقذف الحمم، فلا تكاد هذه تبرد حتى تنفجر الحياة من باطنها في سنوات قلائل، وقد شهدنا نحن ذلك بأنفسنا ورأيناه مصوراً مرة بعد أخرى.

ولا بد أن جماعات العرب البائدة عاشت في وسط الجزيرة وشمالها خلال فترات من الاستقرار فيما بين خمسين وثلاثين ألف سنة من الآن، ولا بد أن طوفان نوح وقع خلال هذه الفترة، فقضت المياه على الحياة وعادت بأمر الله، ونوح عليه السلام قاد تجديد الخلق بما حمل معه في الفلك. وبنوح بدأت رسالات السماء واتصلت إلى الخلق الجديد، وتوالى ظهور الأنبياء بالبشارات

والنُّذُر كما هو وارد في القرآن الكريم، وكلما اشتد عصيان قوم واستشرى كفرهم وفسادهم أبادهم الله أو أباد غالبهم بما رأينا من الزلازل والبراكين والصواعق والنيران والفيضانات، وأطراف من أوصاف ذلك كله واردة ـ بأجلى بيان ـ في القرآن، فقوم نوح كذبوه وأسرفوا في عصيانهم ﴿فكذبوه، فأنجيناه والذين معه في الفلك، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾ (الأعراف ٧/٦٤). وقوم عاد كذبوا أخاهم هوداً ﴿فانجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ (الأعراف ٧/٧٢). وثمود كذبوا رسالة نبيهم صالح وهددوه وأنذروه واشتدوا في غيِّهم وعقروا الناقة ﴿فأخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين﴾ (الأعراف ٧/٧٨). وقوم لوط كذبوه وعصوه ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ (الاعراف ٧/٨٣ ـ ٨٤). وأهل مَديَن استكبروا ورفضوا ما قال لهم أخوهم شعيب ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ (الأعراف ٧/٩١). وفي سورة الفرقان (٢٥/٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠) نقرأ ﴿وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً. وكُلًّا ضربنا له الأمثال وكلا تبَّرنا تتبيرا. ولقد أتوا على القرية التي أُمطرت مَطَر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا﴾.

وفي سورة ص (٣٨/١٣ ـ ١٤ ـ ١٥): ﴿وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب إن كلٌ إلا كذب الرسل فحق عقاب. وما ينظر هؤلاء إلا صَيْحة واحدة ما لها من فواق﴾. وفي سورة فصلت (٤١/١٦ ـ ١٧) نقرأ عن عاد وثمود: ﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعَذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون. وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون﴾.

وهكذا تتوارد الآيات مؤكدة ما انتهى إليه العلم بعد طول البحث والتحقيق، فمن المُجْمَع عليه بين العلماء أن هؤلاء الأقوام جميعاً كانوا يعيشون في شمال الجزيرة العربية أو في غربي نجد كما نرى في حالة أهل الرِّس، وكانت بين بعضهم قرون كثيرة كما رأينا من تعاقب الجليد والذوبان وازدهار الحياة ثم اندثارها خلال القرون التي أعقبت نهاية عصر البلايستوسين، وهنا امطار وسيول وصواعق ورياح وكلها من الظواهر الجوية في تلك الأعصر، ويكون العرب البائدة قد عاشوا في شبه الجزيرة قبل خمسين ألف إلى ثلاثين ألف سنة، ثم باد معظمهم بما رأينا وظل شمال الجزيرة ووسطها يباباً Wasteland لا يعمره إلا قليل من الناس والمخلوقات حتى دخلها العاربة.

العَرَب العَاربَة : الجَمَل :

ويمكن القول إن العرب العاربة دخلوا جزيرة العرب مع الجمل. والجمل كما قلنا حيوان قديم جداً توجد حفائره في أواخر عصر البلايستوسين وكان يعيش في الجزيرة وجنوب الشام حيواناً وحشياً، ثم نَدَرت حفرياته حتى لم تعد توجد في الشمال الافريقي. أما في الجزيرة العربية فلم نعثر له على حفريات إلا من عصر العرب البائدة أي قبل قرابة الثلاثين ألف سنة ثم ندر حتى لم نعد نجد له حفريات إلا في جنوب العراق وشمال اليمن، وقبل خمس وعشرين ألف سنة على وجه التقريب استؤنس الجمل جنوبي العراق وتبين للناس ميزاته وخصائصه، وقد كان يعيش هناك وحشياً بعيداً عن العمران. وهو بطبعه حيوان نفور شديد الخوف شديد الحياء فيما يتصل بمخاضه وحمله وولادته. وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون في «المقدمة» في كلامه عن أجيال العرب وكلامه هنا عظيم القيمة بالنسبة لأسلوب حياة العرب في العصور التي نحن بصددها وإن كان هو لا يقصدها بالذات في كلامه عن أجيال من أولئك البدو القدماء ظلت على حالها من الإيغال في التوحش والبداوة إلى أيامه في

جزيرة العرب وبلاد المغرب. وسأورد كلامه واقسمه إلى فقرات لكي نستطيع الافادة منه بعد ذلك، ونحن هنا مع قراءة جديدة لتاريخ العرب قبل الإسلام فيقتضي الأمر منا التوسع في القراءة وامعان النظر فيها نقراً، لعلنا بذلك نستطيع سوق الكلام مساقاً منطقياً متئداً نصل به إلى ما نريد من معرفة بدايات قريش وعالم العرب الذي ظهرت فيه.

قال ابن خلدون في الفصل الثاني من الباب الثاني من «المقدمة» وعنوانه: في «أن جيل العرب في الخلقة طبيعي»:

١ ـ قد قدمنا في الفصل قبلَه أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقصرون عما فوق ذلك من حاجيّ أو كماليّ، يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير مُنَجَّدة، وإنما هو قصد الاستظلال والكِنّ، لا ما وراءه. وقد يأوون إلى الغيران والكهوف.

٢ ـ أما أقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار. فمَن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفَلح كان المقام به أولى من الظُّعن، وهؤلاء سكان المدَر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم.

٣ ـ ومن كان معاشُه في السَّائمة مثل الغنم والبقر فهم ظُعَّن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم، فالتقلب في الأرض أصلح بهم، ويسمون شاوِيَّة، ومعناه: القائمون على الشاء والبقر، ولا يُبْعِدُونَ في القفرِ لفقدان المسارح الطيبة، وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة.

٤ ـ وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظُعناً وأبعد في القفر مجالاً،

لأن مسارح التُلول ونباتها وشجرها لا تستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه المِلْحَةِ والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فراراً من أذى البرد إلى دفء هوائه وطلباً لماخِضِ النتاج في رماله، إذ الإبل أصعب الحيوان فِصالاً ومخاضاً وأحوجها في ذلك إلى الدفء، فاضطروا إلى إبعاد النُجعة. وربما ذادتهم الحامية عن التلول أيضاً[1]، فأوغلوا في القفار نفرة عن الضَعة منهم[2]، فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العُجم، وهؤلاء هم العرب، وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والترك والتركمان بالمشرق إلا أن العرب أبعد نُجعة، وأشد بداوة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشاء والبقر معها. فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لا بد منه في العمران والله سبحانه وتعالى أعلم[3].

وهذه الفقرة كلها عظيمة الأهمية بالنسبة لدراستنا كلها لا بالنسبة لهذه المرحلة منها فحسب. لأن كل صور البداوة التي يصفها ابن خلدون هنا هي نفس صور الحياة العربية البدوية في العصر الذي نتكلم عنه، إذ إن البداوة ليست مرحلة من مراحل التطور الإجتماعي كما قال ابن خلدون في فقرات تالية لما نقلناه عنه هنا، وإنما هي نوع من الحضارة مستقل بذاته. وهو نتيجة ظروف محددة من الحياة في البيئة الصحراوية، فبدو العرب الذين تخلفوا في الجزيرة عن العرب البائدة لا بد أنهم عاشوا في مواطنهم في الجزيرة على صورة أهل الفَلح والشاوية العرب الذين كانوا يعيشون على أطراف بلاد الحضارة والاستقرار في بلاد العراق والشام، ولا بد أن هذا أيضاً كان أسلوب الحياة في مواطن الماء في الجزيرة، فنحن نتكلم عن عصور كانت الجزيرة فيها غنية بمواطن العشب بل

(١) يريد أن حاميات الدول أي جنودها يذودون أولئك البدو عن الأراضي المزروعة الداخلة في طاعتهم.

(٢) أي نفوراً من ضعة الخضوع لجنود الدول والأذى على أيديهم.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الشعب بالقاهرة ص ١١١ (بدون تاريخ).

النبات والشجر وحيوان المرعى من الشاء والبقر قبل استئناس الجمل. فكانت كل جماعة تعيش في مواطنها حياة بدوية مقتصرة على الضروري لحفظ الحياة كما قال ابن خلدون. وكانت تلك الجماعات تعيش حياة كاملة، أي لا تعتمد على غيرها، فهي في مواطنها في مواطن العشب في الجزيرة قادرة على مواصلة حياتها مكتفية بالضروري آمنة من العدوان لأنها قادرة على الدفع عن نفسها، ثم إن جماعاتها كانت تعيش متباعدة بعضها عن بعض، ولا مطمع لإحداها في الأخرى، فلا ثروة ولا إبل كثيرة تحمل الناس في القفار، ولا خيل يعتمدون عليها في الغارة. ولا بد أن الذين عاشوا منهم قرب مواطن العمران كانوا يعيشون على النَّسق الذي وصفه ابن خلدون فيما يتعلق منهم بأهل الفلح القليل أو المرعى القريب.

ثم كان استئناس الجمل فأحدث انقلاباً شاملاً في حياة الجماعات التي استأنسته على أطراف العراق والشام الجنوبية. لأن الجمل حيوان فريد في بابه متعدد الخصائص. فهو بحكم خوفه من غيره لقلة سلاحه الطبيعي الذي يُمكّنه من الدفع عن نفسه يُبعِد في القفر ولا يطمئن إلا في الموطن الموحش الذي لا يستطيع الحياة فيه غيره، فتعوّد الحياة على الحشائش والنباتات بما في ذلك الشوك والصُّبار، وآتاه الله القدرة على هضم ذلك، فهو يأكل من ذلك ما يتيسر له على عجل ثم يمعن في القفر حيث يجتره في أمان. وهو صبور على العطش قادر على الاستغناء عن الماء الأيام الطويلة بفضل ما ركبه الله في خلقته من الخصائص، وقدمه مهيأة للسير في الرمال المسافات الطويلة، لأنها تحولت الى خُف لا يسوخ في الرمال، فالجمل اذا وجد الماء استطاع أن يشرب ما يقرب من ١٤٠ ليترا دفعة واحدة. وهذا الماء لا يستقر في جوفه ماء زلالاً بل يتحول الى مادة هلامية تختزن في جهاز خاص في جسده من الأوعية والشراسيف، وجسده يعيش على تلك المادة بعد ذلك شيئاً فشيئاً حتى إنه اذا شرب وارتوى استطاع أن يصبر دون ماء سبعة عشر يوماً ونصفاً متوالية، والذين يتحدثون عن أن العرب كانوا اذا

أرادوا عبور صحراء لا ماء فيها سقوا الإبل حتى ترتوي ثم ساروا بها، فإذا احتاجوا الى ماء ذبحوا منها حاجتهم وشربوا ما في بطونها يتحدثون عن وهم لا عن واقع، ونحن اذا ذبحنا الجمل وفتحنا بطنه لم نجد فيه من الماء الا ما نجده في بطن غيره من الحيوان. أما الماء الكثير الذي يشربه فيتحول كما قلنا ويستودع في الجسد، وخالد بن الوليد لم يسق الجمال التي عبر بها البيداء وصار يذبح منها ويشرب هو ورجاله، وانما هو سار في دروب يوجد الماء فيها على المراحل المعقولة. وقد تتبع الباحثون هذه الدروب ووصفوها وأبطلوا تلك الأسطورة. وقد تكونت هذه الخصائص في الجمل لأن تاريخه في الخلق أشبه بالأسطورة فأصله البعيد في أمريكا الجنوبية في أعالي جبال الإنديز، وهو من عائلة اللاما والالباكا ثم سار مع الجبال صاعداً حتى وصل الى صحراوات امريكا الشمالية وتبحبح في صحراء الأريزونا ورمالها، وهناك ـ وعلى مدى مئات الألوف من السنين تكون له السنام والخُف وجهاز خزن الماء المتحول الى مادة هلامية، ثم عاود الرحالة حتى بلغ آلاسكا ومنها عبر مضيق بهرنج الى كماتشكا، ثم انحدر حتى صحراوات شمال الصين، وهناك استقر وهدأ واكتمل تكوينه وانقسم الى جمل ذي سنامين في النواحي الباردة وجمل ذي سنام واحد. والأول غزير الشعر يسمى بالبختي bac-trian نسبة الى بكتريا ذات الجبال العالية، والثاني هو جملنا المعروف dromedary ثم دخل الهند ومنها الى فارس والعراق، وعندما وصل الى حافة الجزيرة العربية وجد طِلبته وهي الرمال التي يهرب اليها ويطمئن فيها، وهناك استأنسه الإنسان وتبين فضائله.

والجمل كذلك يختزن الطعام دهناً في سنامه، فهو صبور على الطعام أيضاً، فإذا حاجه الطعام اغتذى بما لا يقدر عليه غيره، فقلت مئونته وأصبح رغم عظيم فوائده من أقل الحيوان كلفة وأكثره عطاء.

ثم إن الجمل يعطي الانسان أضعاف ما يعطيه غيره، فهو غزير اللبن تعطي اللبون منه قدر ما تعطيه البقرة الحلوب، ولبنه دسم كثير الغذاء. وأهل

البادية يكتفون بشربة منه مع قليل من التمر فيكفيهم ذلك عامة اليوم.

ويعطي الجمل صوفاً وافراً يقدر بخمسة عشر الى عشرين كيلو جراماً في السنة ينفضه عن جسده نفضاً دون حاجة الى جَزّ أو مع جزّ قليل إذا حاج الأمر، وهذا الصوف لين لطيف اللمس، يغزل ثم ينسج فيكون منه نسيج صوف يصلح للبس وصنع الخيام والبسط، فاذا كان لدى البيت البدوي عشرة من الإبل كان له منها نصف طعامه وعامة حاجته من بيوت الشعر، وكل حاجتها من الملبس وليس غريبًا في هذه الحالة أن يسمى البدو بأهل الوَبَر، والوبر هو صوف الإبل وغيرها.

فإذا احتاج البدوي إلى اللحم ذبح من الإبل وأكل. وفي تفاصيل السيرة النبوية ما يفيد أن الجمل الواحد إذا ذبح أعطى اللحم اللازم لمائة من الناس في اليوم إلى جانب القليل من اللبن والتمر.

وإذن فالجمل في ذاته، بطبعه وخلقته وخصائصه ـ أسلوب حياة، وهذا هو الذي اكتشفه الإنسان عندما استأنس الجمل في الأرض المعشوشبة جنوب غربي العراق، وعملية الاكتشاف والاستئناس هذه لا بد قد استغرقت مئات السنين، لأن الإنسان في مثل هذه الحالات يعثر على حيوان صغير ضعيف لا يستطيع الهرب، فيرق لحاله ويعنى به وينشأ معه ويغلب أن يكون الذي يفعل ذلك امرأة، فهي بطبعها تعطف على الحيوان الصغير كما تعطف على الطفل وتعتني به وتغذوه حتى يكبر ثم تبدأ خصائصه في الظهور، فإذا كانت أنثى درّت لبناً ثم يكتشف الناس وبر الجمل وفضائله، ويبحثون عن حيوان آخر مثله ويربونه ليتم تكاثره ثم يصبح هذا الحيوان الكثير الفضائل جزءاً من حياة الناس شيئاً فشيئاً ـ ومع التكاثر ـ يزداد الاعتماد على الجمال، ويتبين الإنسان أن هذه الحيوانات تستطيع الإيغال في الصحراء، ومن الممكن الدخول بها إلى موضع قفر ليس فيه إلا شيء من الماء قليل والعيش به وحده، فإن الجمال ترعى الحشائش والنباتات الخشنة وتحيلها إلى لبن وصوف ولحم، والإنسان

يعيش على ذلك كله. وعندما وصلت بعض الجماعات الإنسانية الصغيرة إلى ذلك أوغلت بجمالها في الصحراء ونزلت حيث لا يدركها أذى وعاشت مع جمالها وأعنازها وشائها، وهكذا ينشأ طراز من الحياة جديد هو طراز البداوة الظاعنة المعتمدة على الجمل أساساً والتي تستكمل مطالب حياتها من قدر جانبي من النخيل والماعز والضأن. وهذا هو طراز الحياة الذي تحدث عنه ابن خلدون في الفقرة الرابعة من الكلام الذي نقلناه عنه: طراز البداوة القائمة على الإبل أساساً، وهي البداوة التي نشأت عنها أجيال العرب العاربة. فإن الجماعات التي استأنست الجمل وعرفت خصائصه وأفادت منها وأوغلت في القفر واستقرت في بعض مواطن الماء القليل كانت طلائع العرب العاربة، فهم لم يكونوا جميعاً عرباً، بل فيهم عرب وغير عرب، وقد جمعتهم بعضهم إلى بعض الإبل وأسلوب الحياة الذي ينشأ معها ومنها، ودخلت الجزيرة التي كانت قفراً إلا من بقايا البائدة المتناثرين هنا وهناك في الشمال وعندما تكتشف الجماعات الإنسانية شيئاً كهذا فإن العملية تسرع في خطوها بعد طول بطء وينشأ منها طراز من الحياة جديد تتحدد معالمه وخصائصه مع الزمن.

كثرت الإبل إذن وزادت العناية بها، وأخذت جماعات الناس تزحف إلى الجنوب داخلة الصحراء، فقد تبينوا أن فيها مجالات واسعة للحياة اعتماداً على الإبل أساساً ثم على ما ينضاف إليها من أسباب الحياة بعد ذلك، وإذا كانت الحياة في الصحراء عسيرة قاسية فإن فيها ما يعوّض الإنسان عن لين العيش ويُسره: فيها الأرض الواسعة دون مالك يتحكم في الناس، وفيها الفيافي الرحبة التي لا سلطان فيها لملك أو مستبد أو جامع ضرائب، وفيها شعور الجماعة الصغيرة من الناس بعزتها وحريتها، هنا ـ أي في جزائر صغيرة تقوم على عيون ماء قليلة ـ تستطيع القبيلة المهاجرة أن تحط وتطلق إبلها وشياتها وأعنازها يتبعها راع أو غلام يتنقل وراءها ويحرسها ويوجهها ويعود بها آخر اليوم إلى منازل القبيلة. في أثناء ذلك ينعم رجال القبيلة بالجلوس في الظل والسَّمَر وربما

قول الشعر، فالوقت واسع لا شغل ولا خطر من عدوان ولا حاجة للمال، فالقبيلة تعيش على ما لديها وأما ما لا تملكه فهي في غير حاجة إليه. أما النساء فيقضين وقتهن في غزل الصوف ونسج القماش للملابس لبيوت الوبر أو الخيام، وفي المساء يعود الرعاة بتلك الإبل الكريمة التي تعطي لبناً وافراً لذيذاً يُشرب دافئاً ساعة خروجه من الضرع أو بارداً إذا ترك إلى الليل. وشباب القبيلة طول النهار يتبارى في المصارعة أو اللعب بالسيف، وأسلوب الحياة الجديد يتسع نطاقه ويتكامل مع الزمن، ويزداد الناس علماً بشؤون الإبل من حمل ومخاض وولادة وتدفئة وحماية ورعاية، بالولائد، وهذه تطورات تأخذ كما قلنا مئات السنين ولكن أسلوب حياة البداوة أثبت أنه أسلوب مقبول وعملي، والنظرية الأساسية التي يقوم عليها هي أن الإبل تعيش في ظروف الحياة القاسية في البرية، تغتذي بالنبات القاسي مع القليل من الماء وتقطع المساحات البعيدة دون أن تشعر بكبير تعب. وقد أثبتت الأبحاث اليوم أن الجمال أكثر الحيوان احتمالاً للألم الجسماني فالإبل تحتمل مضغ الشوك والقتاد وأعواد النبات الجافية، لا لأنها لا تشعر بالألم بل لأنها تحتمله والرحل الخشبي يوضع على سنامها ويشد بالجلد ويركب الرجل والجمل يتألم ولكنه يتحمل لأن غدته النخامية التي تقوم بين فصي المخ في قاع الرأس Pituitary gland تفرز شيئاً يساعد على احتمال الألم، فالإجهاد يبلغ بالجمل أشد مبلغ ومع ذلك فهو يحتمل ويواصل السير، وخُفُّه تتعاوره الصخور وتدميه وهو يسير، ويدركه النوم وهو سائر بحمله يغفو وهو يسير، فإذا حط شرب الماء الأجاج ومَدَّ راسه على الرمل وأخذ يجتر طعامه ونام ملء عينيه.

فإذا نحن فكرنا في الإبل وخصائصها وأسلوب الحياة الذي تعيش به أدركنا بعضاً من مغازي قول الله تعالى في سورة الغاشية (١٧/٨٨): ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ﴾. وأدركنا لماذا اختصها الله بالتساؤل في هذه الآية الكريمة، فإن خلقَ الله كله عجيب يدعو إلى التأمل وإطالة الفكرة، ولكن

الإبـل بعد الـذي بيناه من خصـائصها من أعجب العجب، فهي ليست مجـرد حيـوان بل هي أسلوب حيـاة كـامـل في أقـاليم شـاسعـة من أرض الله، وهي الفيافي والقفار.

النّخـــلة :

ومـا دمنا قـد تحدثنـا عن الجمال فلننقـل كلمات عن النخلة وهي تـاليـة للجمال في الأهمية بالنسبة لساكن الصحراء. فنخلة التمر ـ وهي التي تهمنا هنا تشبـه الجمل في خصـائصها وعـظيم منفعتهـا وقلة مؤونتهـا. والنخـل في عـالم النبات كثير، وفصائله كثيرة جداً يدخل فيها نخيل الجوز أو النـارجيل ونخيـل الموز ونخيل الزيت وكلها أشجار استوائية لا تعيش إلا بالمـاء الكثير. أمـا نخلة التمر فشجرة قـديمة جـداً ترجـع حفائـرها إلى مئـات الألوف من السنين وربما ملايينها، وقد مرت بتطور طويل حتى وصلت إلى صورتهـا المعروفـة. والنخيل كله يتميز بساق طويلة منسرحة لا فروع لها، وإنما هي تنطلق في الهواء حتى إذا استوفت طولها نشأت الغصـون تحمل الأوراق، والأوراق رفيعـة طويلة ولكنهـا قـوية سـطحها شمعي متـين، والنخلة على هـذه الصورة أجمـل الأشجـار التي خلقهـا الله، فإن أغصـانها تتفرع في صـورة هندسيـة زخرفيـة متوازنـة، وبـين الفروع التي تسمى بالسعف وعن أصولها يكون الطلع وهو مخ النخلة والجهـاز الذي ينظم حياتها كلها، وداخل هذا المخ يكون شراب لذيذ الـطعم هو أشبـه بالنخاع للنخلة.

ونخيل التمر متعدد الأنواع وأشكال التمور وأصنافها، والتمور تخرج في سبـائط تتدلى تحت ثقـل ما تحمـل من البلح، والبلح مـرحلة من مـراحـل نمـو الثمرة. ومهما اختلفت أنواع التمور وأشكالها فهي متشابهة بالنسبة لخصـائصها البيـولوجيـة، ففيها نسبـة عاليـة جداً من السكـر ومعادن نـافعة للجسـد منهـا الكلسيوم والبوتاسيوم، ولحم التمرة غني بالبـروتينات. وقـد قدر البـاحثون أن الإنسان يستطيع أن يحصل عـلى معظم حـاجته من الغـذاء من ٤٠٠ جرام من

التمـر. والنخلة الكاملة النمـو تعطي نحـو طن من التمر، والتمـر يبدأ أخضر طرياً ثم يحمر أو يصفر حتى يسود أو يأخذ لوناً يشبه لون العسل الـداكن، وهو إذا ترك على أمه جف نصف جفاف وبقي بعد ذلك طرياً بفضـل ما يتبقى فيـه من المـاء، وتفرز النخلة سـائلاً شمعيـاً لا يلبث أن يتجمد، وهـو قشر الثمـرة وغطاؤها. وقد تعود العربي أن يحمل معه قدراً من التمر ويعيش عليه أياماً على المعدل الذي ذكرناه. ولذلك قيـل في مأثـور حديث العـرب أن البدوي يعيش على الأسودين: التمـر والماء. فـأما الأسـود الأول فهو التمـر الذي يسـود لونـه عندما يـطول مكثه، ولكنـه لا يتلف أو يفقد طـاقته الغـذائية إلا بعـد عام من قطافه.

ونخلة التمـر ذات جذر طـويل يغـوص في الأرض بـاحثـاً عن المـاء إلى أعماق بعيدة، وكما أن ساق النخلة منسرح طويل فكذلك جذورها، وهي قادرة على الوصول إلى الماء بخاصية عجيبة ركبها الله في خلقتها، ولهذا فإن النخلة لا تـروى إلا وهي فسيل، فـإذا نمت وصلب عودهـا واخشـوشب السـاق تغـطى بلحاء قاس صلب لا يستطيع أي حيوان أكله، وحول اللحاء ينمو نسيـج متين يحمي اللحـاء. وتعيش النخلة ما بـين ستين وثمـانين سنـة ثم تشيخ وتبـدأ في الموت، ولكنها على طول حياتها تلد الـولائد التي تـطفر من الأرض قـربها، ولا تزال تنمو حتى إذا بلغت سن البلوغ فصلت عن الأم ونقلت إلى مكان قريب، لأن النخلة الواحدة تحتاج إلى ثمانية أمتار مربعة مجالاً لحياتها.

فإذا تأملنا هذا كله فهمنا لماذا يقـال إن النخلة هي ناقـة الأشجار، فهي صبور متينة شديدة الاحتمـال تعيش على أقـل الماء، وهي تعـطي رطَباً ثم تمـراً جنياً فيه غذاء عظيم، وكل ما فيهـا نافـع، فإن جـريدهـا نصنع منـه الاقفاص وأشياء أخرى وسعفها نصنع منه أدوات بيتية كثيـرة وخشبها متـين يصلح للبناء وعمل السقوف وأسافين البيوت. والعربي الذي يملك النخلات العشر يعد من المياسير. وكما أننا لا نستطيع تصور حياة عرب الصحراء بـدون الجمل فـإننا لا

نستطيع تصورها بدون النخيل. ومن الإنسان والجمل والنخلة معاً تتكوّن حياة كاملة. فإذا أضيف إليها الحصان اجتمعت لنا عناصر حياة الصحراء بكل خصائصها، وهي كما قلنا حياة كاملة وأسلوب معاش متكامل وطراز حضارة قائم بذاته.

البَدو البَدَاوَة ؛ الجَمَل في حَيَاةِ البَدو :

أما طراز الحياة الذي يقوم على الإبل فهو البدو والبداوة. وهو طراز من الحياة كامل لا يحتاج إلى شيء من خارجه إلا ما لا يتيسر صنعه في الصحراء مثل السلاح والآنية المعدنية أو الخشبية وأدوات ركوب الخيل، وعندما تدخل الخيل حياة البدو تُدخل معها تطوراً حاسماً في حياتهم، وسنتكلم عن ذلك في حينه من ذلك البحث. فهذا الطراز من حياة البداوة طراز كامل يتصل أجيالاً بعد أجيال دون تطور يذكر لأن الحياة في الصحراء لا تتطلب تطويراً، فهي متكاملة بذاتها على النحو الذي ذكرناه. ثم إنها من القسوة والشظف بحيث تستنفد جهد الإنسان كله، فلا يستطيع ذهنه بعد ذلك إلا القعود والحديث والتفكير المطلق دون غاية محددة. إنما هي الرمال الممتدة بلا نهاية والتلال والوهاد والصخور مختلفة الألوان والأشكال والسماء الزرقاء وهذه الابل وما يلحق بها من صغار الأنعام ولا زيادة. وهذه الحياة تقوم أساساً على الابل: هي تغتذي بنبات الصحراء القاسي، والإنسان يعيش عليها، ولهذا جعل آرنولد توينبي حضارة البداوة واحدة من الحضارات الموقوفة Arrested Civilisations، مثلها في ذلك حياة الأسكيمو في صحاري الجليد والثلج وحياة البولينيزيين Polynesians في بحار شرق آسيا الشرقية والمحيط الهادي، ولكي نقدم هنا وصفاً لإطار حياة البداوة هذه في أجمل صورها نردد قول الله سبحانه وتعالى في نفس سورة الغاشية، ومن آلاء إعجاز القرآن أن هذه الآيات سابقة على آية الابل فتكون هنا ذات وقع ومعنى حضاري عظيمين. وسبحان الله! ما يتفكر الإنسان في آي القرآن وإحكام مساقها إلا تبينت له منها آلاء وآلاء.

والآيات تعطينا مقابلة بين حياة طائفة من الناس هم البدو في الجنة في صورة يلمسونها ويحسونها، فهي قريبة جداً لأجمل ما في أذهانهم من صور نعيم الحياة فيكون ذلك أدعى الى تعميق ايمانهم، وفي القرآن صور أخرى من نعيم الجنة قريبة الفهم والتصور لجماعات أخرى، والقرآن روض المعاني وجامع الصور كلها، وهو للناس كافة، ففيه لكل عقل وفهم أبلغ الخطاب. قال اللّه تعالى:

﴿وُجوه يومئذٍ ناعَمة
لسعيها راضية
في جنة عالية
لا تسمع فيها لاغية
فيها عين جارية
فيها سُرُرٌ مرفوعة
وأكواب موضوعة
ونمارق مصفوفة
وزرابي مبثوثة
أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت﴾.

فكل ما في هذه الآيات من جميل الصور ميسور للبدوي في خبائه والقفر الذي يتأبد فيه، ثم تجيء آية الابل في آخرها فتكون كالجواب المقنع على سؤال محير. ثم تكتمل الآيات بعد ذلك بصور من اطار الحياة البدوية المتكاملة هذه:

﴿وإلى السماء كيف رُفعت
وإلى الجبال كيف نُصبت
وإلى الأرض كيف سُطِحت
فذكِّر، إنما أنت مذكر
لست عليهم بمصيطر﴾

(الغاشية ٨٨/١٨ ـ ٢٢)

وإذن فقد أدى استئناس الجمل وكشف فضائله إلى دخول جماعات من الناس جديدة في الجزيرة، وقد بدأ الدخول بطيئاً ثم اتسع مداه ثم تدفق، لأن الداخلين استكشفوا في حياة الصحراء فضائل أخرى وميزات كبرى، فهنا يعيشون أحراراً في مسارح شاسعة بلا حدود، وهنا الأرض طلقة فهي كلها أرض الله لا تباع ولا تشترى، كل خيرها شيء من الحشائش وصغار الأشجار ترعاها الابل والشياه والماعز. والإبل هنا تتكاثر دون خوف، فالبيئة ملائمة لها، والسباع التي تعيش في الصحراء سباع صغار لا تخشاها الإبل كالذئاب والثعالب وبنات آوى مما يُطرد ويذاد بالكلاب، وجزائر الصحراء فيها ماء يصل أحياناً إلى أن يكون عيوناً جارية أو ودياناً غنية بالماء. وامكانيات الزرع موجودة ولكنها قليلة، وهنا نجد صورة أخرى من البداوة هي التي يصفها ابن خلدون في الفقرة الثانية من كلامه الذي أتينا به، فهنا ظعن محدود، أي أن النازلين هنا بدو ظُعُن أيضاً ولكنهم لا يبعدون في القفر لأنهم مرتبطون بالقرية الصغيرة التي يأوون إليها آخر النهار، فهي نصف بداوة أو نصف استقرار Semi-Sedentary.

وهؤلاء الداخلون الجدد في الجزيرة هم العرب العاربة فيما نرى، فقد دخلوها كما قلنا قبل خمسة وعشرين ألف سنة على التقريب كما قلناه، وهذا توقيت مقبول يتفق مع ما ذكرناه من تطور الأرض وما عليها في هذا الجزء من العالم. وهذا هو الزمن الذي دلت الحفائر على أن الجمل عاد فظهر فيه وتكاثر في شبه الجزيرة. والحركة كما قلنا كانت حركة تاريخية سارت ببطء كما كان كل شيء على الأرض يسير فيما يتعلق بالتطورات الجيولوجية الوئيدة والتغيرات المناخية ثم إن التغيرات الاجتماعية البشرية كانت كذلك بطيئة جداً. وهذا الطراز الجديد من البداوة المرتبط بالإبل عندما عرف الناس كيف يتحملون مضانكه ويتمتعون بميزاته اتسع مداه وأصبح تياراً من الهجرة من جنوبي العراق وبلاد الشام إلى الجزيرة. والذين دخلوا الجزيرة على من كان فيها من العرب

القلائل من بقايا البائدة لم يكونوا عرباً خلصاً عندما دخلوا، ولكنهم عَرُبوا مع الزمن، وجاوروا بقايا البائدة حيث وجدوهم وصاهروهم واختلطوا بهم، وتغير طراز الحياة في البدو على أيامهم وطال عهدهم بالجزيرة فكانوا عرباً عاربة.

وقد أورد اليعقوبي نصاً عظيم القيمة لنا وإن كان فيه خلط بشأن معظم الأخبار التي يرويها هو وأمثاله من مؤرخينا القدامى عن عرب الجاهلية في عصورهم البعيدة وهم أهل الجاهلية الأولى وفيهم العرب العاربة. قال: «وانتمت قضاعة إلى مُلك حمير. وقضاعة - فيما يقال - ولد على فراش مَعَدّ، وكان مَعَدّ أول من وضع رَحْلا على جمل وناقة، وأول من زَمَّها بالنِّسع»[1] وسنعود إلى تحليل هذه الفقرة من تاريخ اليعقوبي مرة أخرى فيما بعد، ولكن الذي يعنينا منها الآن هو قوله: أن قضاعة من أبناء معد، وسنرى فيما بعد أن العكس ربما كان هو الصحيح، أي أن معد بن عدنان وعدنان نفسه من سلالة قضاعة، وسنرى بعد قليل أن أسلم الآراء في أمر قضاعة أنها من العرب العاربة الذين نحن بصدد الكلام عنهم، والربط بين معد واستئناس الجمل هنا ربط بين هذا الاستئناس وقضاعة أي العرب العاربة على ما سنراه بعد قليل وفي هذا تأييد لما قلناه واسْتَنْتَجناه من أن دخول العرب العاربة شبه الجزيرة مرتبط باستئناس الجمل واستخدامه.

مشكلة قضاعة :

ولكي نوضح هذا بعض الشيء نقول إن مشكلة قضاعة وحيرة النسابين في نسبتها إلى عدنان أو قحطان ربما كانت دليلاً على صحة ما يقوله ابن حزم من أن قضاعة قوم من العرب منفردون بأنفسهم، لا في قحطان أو عدنان، وإليك نص كلامه: «وأما قضاعة فمختلف فيه، فقوم يقولون هو قضاعة بن معد بن عدنان، وقوم يقولون: هو قضاعة بن مالك بن حمير، فالله أعلم».

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١/٢٢٣.

ووجدنا في كتب بطليموس وفي كتب العجم القديمة ذِكْرَ القضاعيين ونبذة عن أخبارهم وحروبهم، فالله أعلم: أهُم أوائل قضاعة هذه وأسلافهم أم هم غيرهم. وبلاد قضاعة متصلة بالشام وببلاد يونان والأمم التي بادت ممالكها بغلبة الروم عليها، وببلاد بني عدنان، ولا تتصل ببلاد اليمن أصلاً. إلا أن الذي يُقطع به ويَثْبُت ويُحقَّق ويوقَن هو أنه ليس على ظهر الأرض أحد يَصِلُ نسبُه بصلة قاطعة ونَقلٍ ثابت إلى اسماعيل ولا إلى إسحاق عليهما السلام. نعني ابني ابراهيم خليل الله ﷺ - فكيف إلى نوح؟ فكيف إلى آدم؟ عليهما السلام - هذا ما لا مرية فيه[1].

أما انتهاء قضاعة إلى اليمن فمن الثابت أنه كان في أيام معاوية بن أبي سفيان وسياسة بني أمية: السفيانيين أولاً ثم المروانيين بعد ذلك غيرت نظام الكثير من القبائل العربية في الشام، وقضاعة ولخم وطيّء وكل القبائل التي نظن أنها تندرج تحت العرب العاربة من عرب الشام مسها هذا التغيير، فألحقت كلب بن وبرة (وهم من قضاعة) باليمنيين، ودُوِّن منها في الديوان ٢٠٠٠ مجند كل منهم يتقاضى ٢٠٠٠ درهم، وهذا هو شَرَف العطاء أو أشرف العطاء وتزوج منهم معاوية وأنجبت له امرأته ميسون ابنه يزيد، وأصبحت كلب العماد الأقوى لمعاوية وآله وخاصة بعد أن كسبوا نصر مرج راهط. واستقر في أذهان الناس أن كلب بن وبره من اليمن، وانسحب الحكم على قضاعة، لأن بني كلب بن وبرة كانوا من أكابر القضاعيين. وليس بين أيدينا أي دليل على نسبة قضاعة إلى اليمن إلا هذا، ويدخل في قضاعة مع كلب بن وبرة: جُهينة وَبِليّ وبَهراء والقَيْن أو بالقَين وجَرْم وتَنوخ وخُشَين.

ولكن من المؤكد - كما رأينا عند ابن حزم - أن قضاعة قدماء في بلاد الشام وأن مواطنهم الأولى كانت حول دومة الجندل ويمتدون إلى تبوك ووادي القرى. ودومة الجندل وتبوك مدينتان قديمتان جداً، وهما في الغالب من انشاء

(١) ابن حزم، الجمهرة ٨ - ٩.

القضاعيين وكذلك المواضع التي كانت عامرة ونرى آثارها باقية إلى اليوم في وادي القرى. ومن المؤكد أن هذه المدن ليست من انشاء قوم نعرفهم، فهي أقدم من الانباط، فلم يبق إلا أنها من انشاء أولئك العرب القضاعيين الذين نتحدث عنهم. ومن الثابت أن قبيلتين من قبائل قضاعة كانتا في بلاد الشام منذ زمن قديم يصعب تحديده، الأولى كلب بن وَبَرة التي ذكرناها، فاسمها وارد في النصوص النبطية القديمة، والثانية هي تنوخ وموطنها غرب العراق وجنوب غربه في المنطقة التي قلنا إن الجمل استؤنس فيها ومن هنا بدأ زحف العرب العاربة إلى داخل الجزيرة، وتكون بعض بطون قضاعة من أولى القبائل الداخلة أي من أولى العاربة، وهذا في ذاته يحل لنا إشكال أوليات قضاعة ونسبتها ويعيننا على التعرف بعض الشيء على بعض قبائل العاربة، وكُتّاب العرب أنفسهم يقولون إن تنوخا فرع من قضاعة ـ وإنها وُجدت في مواطنها من زمن سحيق في القديم. واسمها نفسه مستمد من التَنَوُّخ وهو الاستقرار في موضع فهي كانت مستقرة في مواطنها في بلاد الشام، وفي مواطنها استؤنس الجمل، وكان الزحف إلى داخل الجزيرة.

ومن الثابت أن قضاعة وتنوخاً كانت في مواطنها قبل أن تدخل عليها غسّان ولخم وما إليها من القبائل التي يقال إنها يمنية أي هاجرت من اليمن، ونحن نشك اليوم في كل ما يقال عن يمنية غسان ولخم وكندة والأوس والخزرج، فليس لدينا دليل قاطع على الأصل اليمني لهذه القبائل إلا أقوال النسابة وقدماء القصاص. وجدير بالذكر أن العرب في الجاهلية لم يعرفوا هذا الانقسام الكبير الى مُضَر واليمن أو قيس وكلب، واليمنية المحققون عندنا هم السبئيّون ومن سبقهم من أصحاب الدول في اليمن، ثم كندة ثم حمير الأولى، أما ما عدا ذلك فأقوال قصاص وتصنيفات نسابة، والرأي عندنا أن العدنانية وهم سلائل العرب المسمون بالاسماعيلية وَجَدُوا في الجزيرة على ما سنرى مجموعات من القبائل القديمة فظنوها يمنية لأنهم هم أنفسهم أتوا من الشمال، والشام عند

العرب القدامى معناه الشمال أما اليمن فمعناه الجنوب. ولهذا قالوا إن خثعم يمن والأوس والخزرج يمن، والمعنى هنا أنهم كانوا في الجزيرة قبل دخول الاسماعيلية وهم المستعربة ، وما دمنا نعرف ان القبائل التي نحن بصددها ليست من البائدة فهؤلاء هم العاربة، أي العرب القدامى الذين كانـوا هناك قبـل المستعربـة، وجماعاتهم المعروفة لنا قليلة على أي حال، أشهرها وأهمها قضاعة وتَنُوخ وطيّء وربما الأزد، أما كِندة التي وجدت في شمال الجزيرة فمن الثابت انها يمنية وهي فرع من كِندة التي توجد مواطنها الأولى إلى غرب حضرموت. وقد سبق أن قلنا إن جماعات قبلية مثل قضاعة تكبر وتمتد أراضيها حتى تشمل مساحات واسعة، ثم تنكمش بعد ذلك على ما رأيناه وما سنراه وتتفرق قطعاً، وتبقى هذه القطع في أماكن متباعدة وتظل تحمل اسم أمها الأول، ومن هنا يقع الاختلاف والشك في الأصول الجغرافية للقبائل، ولكن المؤكد أن هـذه القبائـل التي نقول إنها من العاربة كانت بدواً جمّالة، فَتنوخ أهل جمال، وربما كان أصل تسمية تنوخ أنها مناخ الجمال، وقضاعة جمالة وكذلك طيىء وعلى أي حال فهذا فرض قائم على الاستنتاج في البحث عن العرب العاربة، فهم على الجملة عرب جمالة دخلوا الجزيرة مع الجمل، وامتدوا فيها من مواطنهم في الشام وجنوبي العراق، وهناك اختلطوا ببقايا البائدة، ونشأت عن ذلك جماعات قبلية كبيرة، وهذه الجماعات عاشت في شمال الجزيرة ووسطها في عصور كان نبات المرعى فيه قليلاً لا تقدر على العيش عليه إلا الجمال والماعز وما إليها. ولما كانت صادرة من بلاد استقرار أو نصف استقرار Semi - Sedentary فقد أقـامت في مواطنهـا مراكز عمـران أصبحت مدنا صحراوية مثل دومة الجندل وتبوك وبعض مواضع وادي القرى.

وربما جاء القول بأن العمالقة يدخلون في جملة العرب العاربة أو أنهم كانوا من بدو بادية الشام الذين عاشوا فيها منذ أزمان موغلة في القدم، أو من انحدر منهم الى جزيرة العرب وأصبحوا في الجزيرة عرباً عاربة لأن شمال جزيرة العرب كان يسمى في القديم بلاد عريبي ومنه جاءت تسمية العرب، فهم سكان بلاد

عربيي. ولما كان تاريخ العمالقة في بوادي الشام طويلاً فليس هناك ما يمنع من أن يكون الهيكسوس الذين غزوا مصر في أواخر عصر الدولة الوسطى منهم، ولكنهم لم يكونوا ممن استأنس الجمل لأن المصريين القدماء لم يصفوا الهيكسوس أو الرعاة بأنهم جمالة. ولا وجود لرسوم الجمال على الآثار المصرية. أما الذين تمكنوا من الايغال في جزيرة العرب من هؤلاء البدو فهم العرب العاربة على ما ذكرناه وهم على هذا الفرض أبناء عمومة العمالقة. وليس من الضروري أن يكون زحف العاربة الى داخل الجزيرة قد وقع في نفس الوقت الذي تحرك فيه العمالقة الى مصر، فهذه شعوب ضخمة وأزمان متطاولة، ونحن نستكشف أمرها كما ينظر الانسان الى التلال والجبال البعيدة التي تتراءى في الأفق، ولا يمكن التمييز بين ما تقدم منها وما تأخر.

على أي حال فهذه مجرد محاولة لحل مشكلة العرب العاربة، فعلى الرغم من أن كل مراجعنا تذكرهم الا أن مرجعاً واحداً منها لا يذكر لنا قُبيلة واحدة من قبائلهم، ونحن عندما نقول إنهم دخلوا جزيرة العرب نتيجة لاستئناس الجمل والانتفاع به فاننا نحل في نفس الوقت إشكالين لا اشكالاً واحداً: إشكال عودة الجمل الى جزيرة العرب وإشكال العرب العاربة وأوجدنا شيئاً من الارتباط والتناسق بين نتائج الأبحاث الجيولوجية ونتائج استقراء نصوص أصولنا التي نعتمد عليها، ومهما يكن الرأي فيما قلنا فنحن قد فتحنا اتجاهاً جديداً من اتجاهات التفكير في تاريخ العرب قبل الاسلام. ولنضف إلى ذلك أننا ألقينا ضوءاً على حقيقة قضاعة. وقضاعة ليست مشكلة صغيرة من مشاكل تاريخ العرب والإسلام. ويكفي أن نُعيد هنا ما ذكرناه من قبيلة كلب بن وبرة وهي كبرى القبائل التي توصف بأنها يمنية منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان إنما هي قضاعية في الأصل، وما يصدق على كلب بن وبرة قد يصدق أيضاً على غيرها من القبائل التي توصف بأنها يمنية مثل غسان ولخم والأوس والخزرج وخزاعة، وكل تلك القبائل التي لم يعرف النسابون أين يضعونها من شجرات الأنساب فألحقوها

بقحطان بخيوط «هي أوهى من نسج العنكبوت»، كما يقول ابن حزم وليس لدينا دليل واحد يُعتمد عليه على صلتها باليمن أو أصولها اليمنية. والحكاية كلها فيما يبدو افتعلت من أيام معاوية بن أبي سفيان بعد ارتباطه الوثيق ببني كلب بن وبرة وزواجه من ميسون ابنة بحدل الكلبي ثم ما كان من إنجاب ميسون ليزيد بن معاوية الذي صارت إليه الخلافة، ووقوع الخلاف بين القيسية المضرية والكلبية التي وصفت بأنها يمنية بعد موت يزيد وتأييدها لمروان بن الحكم وإقامتها للبيت المرواني بعد انتصارها في مرج راهط على الضحاك بن قيس الفهري في المحرم ٦٥ هـ. واتساع نطاق العداوة بعد ذلك بين العرب وقبل هذه الأحداث ما كان هناك وجود لخلاف واسع المدى بين شاميين ويمنيين أو كلب وقيس أو كلب ومضر أو قحطان وعدنان.

العرب المستعربة (الإسماعيلية) - الخيل:

وقبل أن نتكلم عن العرب المستعربة نقول إن هناك اتجاهاً عند نفر من أعلام مؤرخي العرب المحدثين الى القول بأن العرب العاربة جميعاً قحطانيون أي أن الذين عمروا الجزيرة بعد خلاء الكثير من نواحيها بسبب الجفاف جاء من الجنوب، ومن هنا فانهم لا يكتفون بالقول بأن لخما وغسان وخزاعة والأوس والخزرج يمنيون بل إن قضاعة وتنوخا يمنيون عندهم، وأصل هذا الرأي عند مؤرخي اليمن وخاصة الهمداني فقد قال به في كتابه الاكليل، ولكن يضعف من رجاحة هذا الرأي ما تقوله بينات الأثريين الذين كشفوا عن حفريات الجمال - وتتبعوا توغلها في الجزيرة من الشمال: من المنطقة التي كانت تسكنها تنوخ أولاً ثم من منازل قضاعة ويؤيد الأثريين في هذا أن قضاعة نفسها لم تكن يمنية أصلاً بل شامية ولم تدرج ضمن اليمنيين الا لأسباب سياسية في العصر الأموي.

ولما كانت حفريات أهل الآثار قد دلت على أن الجمل استؤنس في شمال اليمن كما استؤنس في جنوب غربي العراق، فهنا يمكن القول - دون محاولة للتوفيق بين الاتجاهين - إن جانباً من العاربة زحفوا من الجنوب، ومن هذه

القبائل كندة وخزاعة والأوس والخزرج ثم حمير فيما بعد، وبعضها زحف من الشمال مثل تنوخ وقضاعة، وبعض بطونها، وعامة المضرية وهذه كلها تدخل في العاربة وان كانت قد ألحقت فيها بعد بشجرات الأنساب العدنانية أو القحطانية. ولكن الذي نتوقف فيه ولا نستطيع تأييده لأننا نملك عليه بيّنة هو القول بأن لخماً وغسان مثلاً أصولها يمنية، فليس لدينا دليل واحد على ذلك الا ما يقوله النسابة، وما انبنى على أقوال النسابة من أشعار وأخبار كلها مختلق مفتعل.

والآن ننتقل الى المستعربة فنجد أن تحديد الأمر أيسر لأن معلوماتنا عنهم أوفر وأوضح، فغالبية مؤرخينا مجمعون على أن المستعربة هم الاسماعيلية وهم العدنانية، وان كان هناك خلاف في مساق النسب من اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام الى عدنان.

وعند كلامنا عن العرب المستعربة والاسماعيلية ينبغي أن نلاحظ أن تقسيم العرب الى قحطانية وعدنانية يرجع أصله الى شيخ نسابة العرب وهو محمد هشام بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ على اختلاف، والكلبي في كتاب النسب الكبير يذكر أن أصول العرب ترجع الى أصلين: يقطان وقيدار، ويقطان هو قحطان، وأما قيدار فهو أصل العدنانية أو الاسماعيلية.

والاسماعيلية - أولاد قيدار هذا يربطون في الروايات التي بين أيدينا بالعدنانية والخلاف في مساق النسب من اسماعيل الى عدنان، فأما أهل الاحتياط من نسابة العرب فلا يتعدون في خط الأنساب عدنان وهم يعولون في ذلك على حديث نسب الى رسول الله ﷺ خلاصته أنه كان لا يجاوز في نسبه عدنان بن أُدد ويقول كذب النسابون، قال الله عز وجل: ﴿وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ (سورة الفرقان ٣٨) والاستدلال بالآية الكريمة هنا في غير موضعه مما يدل على أن الحديث كله ضعيف بل مكذوب، لأن تمام نص الآية ﴿وقوم نوح لما كذّبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية، وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً. وعاداً وثموداً وأصحاب الرّس وقروناً بين ذلك كثيراً. وكلا ضربنا له

الأمثال، وكلًا تبّرنا تتبيرا﴾ (الفرقان ٣٧ ـ ٣٩) فالاشارة هنا الى قوم نوح وبعض من جاء بعده وكلهم من العرب البائدة ولا علاقة له باسماعيل وعدنان وما بينهما. وربما يكون هذا هو الذي جعل ابن حزم في كلامه عن العدنانيين لا يشير الى ما بين عدنان واسماعيل مع نصه على أن عدنان من نسل اسماعيل وقال: «وأما كل من تناسل من ولد اسماعيل عليه السلام فقد غبروا ودثروا، ولا يعرف أحد منهم على أديم الأرض أصلاً حاشا ما ذكرنا من أن بني عدنان من ولده فقط»[1] أما المتأخرون الذين لا يحتاطون فيما يقولون فيتكلمون عما نقل هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن التوراة فيصلون بسياقة النسب إلى آدم عليه السلام[2]، ولكنهم في سياقة النسب يذكرون أنه «ابن حمل بن قيدار بن إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل. . . » أي أنهم يجعلون قيدار من أبناء اسماعيل، ويوجز جرجي زيدان أقوال نسابة العرب في ذلك الأمر بقوله: «وأقدم ما ذكره العرب من أخبار الإسماعيلية مأخوذ أكثره عن اليهود وعليه صبغة عربية خلاصته أن اسماعيل لما نزل مكة كان فيها بقية من جُرهم، وآخرهم مضاض بن بشير فتزوج إسماعيل من بناتهم، وتعلم العربية منهم وتناسل فيهم، وأولاده هم العرب الإسماعيلية، ويسمونهم المستعربة لأنهم دخلوا في العرب وهم ليسوا منهم، كما فعل القحطانية في اليمن قبلهم. وأشهر أولاد إسماعيل قيدار توَّجَهُ أخواله وعقدوا له الملك عليهم بالحجاز، واسمه وارد في التوراة. وتناسل من قيدار أعقاب كثيرة حتى ولد عدنان. . . . ومن عدنان تناسل العرب الإسماعيلية. فعندهم أن عدنان ولد عَكاً ومَعَداً، ومَعَدٌ هو أبو القبائل العدنانية كما سنرى»[3].

وفي بقية كلام جرجي زيدان تفاصيل مما استخرجه من التوراة وكتب العهد القديم من ذكر العرب، وأهم ما فيه:

(١) ابن حزم، الجمهرة ٧.
(٢) انظر النويري. نهاية الأرب، ١٦/٣ والمراجع التي يعتمد عليها.
(٣) جرجي زيدان، تاريخ العرب قبل الإسلام. الطبعة الثانية مراجعة وتعليق صاحب هذا الكتاب. دار الهلال. القاهرة.

- جاء في سفر التكوين في أثناء قصة يوسف عليه السلام بعد أن طرحه إخوته في البئر قوله: ثم جلسوا يأكلون، ورفعوا عيونهم، ونظروا فإذا بقافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالها محملة نكعة، وبلساناً ولاذناً، وهم سائرون لينزلوا مصر - (سفر التكوين ص ٣٧ عدد ٢٥). وكان ذلك في القرن الثامن عشر قبل الميلاد وكان الإسماعيليون يحملون التجارة إلى مصر، وهم الذي اشتروا يوسف وباعوه بمصر.

- ثم جاء ذكرهم في سفر القضاة بعد ذلك الحين بخمسة قرون. وهم يحاربون الإسرائيليين، ويسمون هناك تارة بنو المشرق وطوراً الإسماعيلية (القضاة ص ٦ عدد ٣٣و ٧ عدد ١٢ و٨ عدد ٢٤ و٢٦).

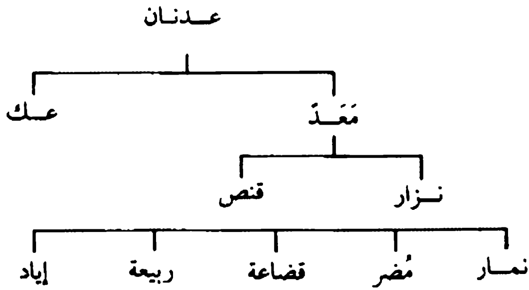
- وبعد ذلك بخمسة قرون أُخر ذُكر أولئك العرب في سفر أشعْيا باسم قيدار، وهو في التوراة ابن إسماعيل، فيراد باسمه قبيلة الإسماعيلية على الأقل. وهو يتنبأ بقرب زوال مجدهم (أشعيا. ص ٢١ عدد ١٦، ١٧).

- وأصبح الإسماعيلية في عرف التوراة من ذلك الحين قبيلتين: قيدار ونبيت. وظن بعضهم أن المراد بالنبيت والنبيط الأنباط، أصحاب بِطْرا وعارضهم آخرون.

- وبعد أشعيا بنحو القرن وبعض القرن - في القرن السادس قبل الميلاد - جاء نبوخَذْنَصَّر، الذي يسميه العرب بُخْتَنَصَّر. واكتسح شمالي جزيرة العرب وغلب على الإسماعيلية أو بني قيدار أو بني المشرق في البادية (يهوديت ص ٢ عدد ٣، نبوءة أرميا ٤٩ عـ. ٢٨. القضاة ٨ عدد ٢٤، ٢٦).

وقد استخرج جرجي زيدان من نصوص العهد القديم أن الإسماعيلية كانوا إلى ما قبل ظهور المسيح عليه السلام بزمن طويل أهل خيام ورحلة ورعي وماشية وتجارة وثروة، ثم يقول إن ذكرهم خَفِيَ بعد أيام بختنصَّر «كان بختنصر أضعفهم، فتفرقوا وذهبت شهرتهم أو خفيت أخبارهم، ثم تكاثروا

وعادوا إلى الظهور في أوائل النصرانية أو قُبيلها، وهم قبائل أمم وأمم ذات شأن، ملأوا تهامة وتفرقوا فيها إلى الحجاز ونجد وبادية الشام وغيرها في أزمان متفاوتة، القبيلة بعد القبيلة. وترجع كلها إلى خمسة أصول لكل أصل منها فروع عديدة. أما الفروع الخمسة المشار إليها فيتصل نسبها بعدنان على هذه الصورة:



(١)

وفي كلام جرجي زيدان فوائد كثيرة أهمها:

١ - إن الاسماعيلية الذين يعتبرون عرب الشمال أو أبناء عدنان شعب قديم من البدو عاش في صحاري وسط الشام وجنوبه، وكانوا رعاة ظاعنين وبعضهم كانوا يعملون بالتجارة يكسبون من ذلك مالاً وفيراً.

٢ - إنهم كانوا أقوياء مرهوبين، وإن العبرانيين كانوا يرهبونهم ويحذَرُون منهم.

٣ - وإن هؤلاء الرعاة كانوا يذهبون في متاجرهم ورعيهم إلى بعض نواحي شمالي جزيرة العرب ومصر. وكانوا يعيشون قبائل.

٤ - إنهم كانوا يسمون أحياناً بني المشرق والاسماعيلية أحياناً أخرى.

---

(١) جرجي زيدان، العرب قبل الاسلام: ١٨٩ - ١٩٠.

فأما بنو المشرق فهو تعريب خاطىء من جرجي زيدان للفظ Saracenos الموجود في النقوش اليونانية، وهو لفظ غير يوناني ومعناه غامض، فمن قائل أن أصله «شرقينوس» وهي التي جعلها جرجي زيدان بني المشرق، ومن قائل أن أصله «سَرِقينوس» ويكون معناه في زعمهم في هذه الحالة: السُرّاق، لأنهم بدو مغيرون. وعلى أي حال فإن هذا اللفظ استعمل زماناً طويلاً دلالة على العرب والمسلمين في العصور الوسطى والعصر الحديث فقالوا في الانجليزية Saracens وفي الفرنسية Sarrasins وفي الإيطالية Saraceni. وأطلق هذا اللفظ على العرب والمسلمين.

ويستوقف نظرنا من كلام جرجي زيدان قوله إن أول ذكر جاء للإسماعيلية في العهد القديم جاء في سِفر التكوين بمناسبة ذكر يوسف عليه السلام، وقوله إن ذلك كان في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

وإذا رجعنا إلى تاريخ مصر القديمة نجد أن غزو الهيكسوس لمصر كان حوالي سنة ١٦٧٥ قبل الميلاد. أي بعد ورود ذكر اسمهم في العهد القديم بقرن وربع تقريباً. والهيكسوس كانوا رعاة أي بدوا أغاروا على مصر من ناحية جنوب الشام وجزيرة العرب، وقد دام سلطانهم عليها فوق القرنين حتى تجرد الملك أحمس منشيء الأسرة السادسة عشرة وطردهم من مصر. ويستوقف نظرنا هنا أن هؤلاء الرعاة الذين عاصروا على وجه التقريب ظهور اسم الاسماعيلية في العهد القديم هم الذين أدخلوا الخيل مصر، وقبل ذلك لم يعرف المصريون الخيل، وبعدهم أصبحت الخيل جزءاً من الحياة المصرية واستخدمها الفراعنة في حروبهم، وكان دخول الخيل والعجلة الحربية بلاد مصر سبباً من أسباب التوسع المصري في بلاد الشام وانشاء ما يسمى في تاريخ مصر القديمة بعصر الامبراطورية، وسنرى بعد قليل أن العرب الاسماعيلية هم الذين جلبوا الحصان المستأنس من بلاد العراق. وكان قد أتاها من موطنه الأصلي في صحاري وسط آسيا. والأشوريون أخذوا الخيل والعجلات الحربية مما يليهم

من بلاد وسط آسيا، وعنهم أخذ الرعاة الهيكسوس الخيل والعجلات الحربية وأدخلوهما مصر. ولا تعارض بين هذا وما ذكرناه عن الهيكسوس في كلامنا عن العرب العاربة، فإن الهيكسوس هم الرعاة وقد طال مكثهم في بلاد الشام قروناً متطاولة. وفي بعض عصور قوتهم غزوا مصر واحتلوها ثم طردهم منها الملك أحمس.

فإذا رجعنا إلى حفريات الأثريين نجد أن هذا الوقت على وجه التقريب هو الذي ظهرت فيه حفائر الخيول في نواح شتى من أطراف الجزيرة العربية الشمالية. وقد انتشرت الخيول بين العرب الاسماعيلية من ذلك الحين وركبوها واشتد ساعدهم بها. وأصبحوا من ذلك الحين قوة يُخشى بأسها في بلاد الشام وما بين النهرين. ويمكن القول بأن غزوة الملك بختنصرٌ لبلاد الشام كان غرضها القضاء على قوة أولئك العرب الرعاة الاسماعيلية الذين أصبحوا قوة مرهوبة في بلاد الشام، وكانت الحروب بينهم وبين العبرانيين متصلة. وامتدوا من ناحية أخرى فأغاروا على مصر، واستقرت منهم جماعات في شبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية التي تعرف إلى الآن بصحراء العرب.

أما بالنسبة لبلاد العرب فإن استخدام الخيل أضاف إلى أولئك الاسماعيلية قوة فرسان كبيرة، وعندما تكاثرت أعدادهم وحاولوا التغلب على ما جاورهم من البلاد فطاردهم ـ على أوقات متفرقة ـ الأشوريون من بلاد ما بين النهرين والمصريون من مصر.

ووجد أولئك البدو الرعاة عندما تكاثرت اعدادهم مرة أخرى الطرق مفتوحة أمامهم للامتداد في وسط الجزيرة وجنوبها. إما بسبب مطاردة الملوك لهم أو لأنهم كانوا في عصر قوة وكثرة عدد واتجاه إلى التوسع في الأرضين.

ومن غريب ما يتفق لنا من النصوص العربية أن اليعقوبي يقول في كلامه على «ولد اسماعيل بن ابراهيم»: ذكرت الرواة والعلماء أن إسماعيل بن

ابراهيم أول من نطق بالعربية وعَمَّر بيتَ الله الحرام بعد أبيه ابراهيم، وقام بالمناسك. وأنه كان أول من ركب الخيل العِتاق. وكانت قبل ذلك وحوشاً لا تُرْكَب. وقال بعضهم إن اسماعيل أول من شق الله فاه باللسان العربي، فلما شب اعطاه الله القوس العربية، فرمى عنها فكان لا يرمي شيئاً إلا أصابه. فلما بلغَ اخرج الله من البحر مائة فرس، فأقامت ترعى بمكة ما شاء الله. ثم ساقها الله إليه. فأصبح وهي على بابه، فَرَسَنها وركبها، وانتجها: وكانت دواب الناس البراذين. وركبها اسماعيل وبنوه وولده. وفي اسماعيل يقول بعض شعراء مَعَدّ:

أبونا الذي لم تُركب الخيل قبلَه ... ولم يَـدْر شَيْخ قبله كيف تركب

ويقال إنما سميت «أجياد» مكة لأن الخيل كانت فيها. فأوحى الله عز وجل إلى اسماعيل أن يأتي الخيل فأتاها فلم تبق فرس إلا أمكنته من ناصيتها، فركبها، وركبها ولده، فكان اسماعيل أول من ركب الخيل، وأول من نفى أهل المعاصي عن الحرم، قال «أُعَرِّبه» فسميت «العربة» بذلك[1].

وهذه أخبار اسطورية الطابع، ونحن نأخذ هنا بمجملها أو دلالاتها فهنا إشارة إلى علاقة اسماعيل بالخيل، ونحن لا نستنتج من هذا أن اسماعيل هو الذي استأنس الحصان كما يريد هذا النص أن يقول، ولكننا نجد فيه توكيداً لما دلت عليه أبحاث الأثريين من أن دخول الخيل جزيرة العرب كان مرتبطاً بالاسماعيلية كما كانت عودة الجمل إلى داخل الجزيرة مرتبطة بالابل.

وتجمع الشواهد التاريخية على أن العرب الاسماعيلية أو المستعربة دخلوا الجزيرة من الشمال على أهلها من العرب العاربة، وهم دخلوها معتمدين على

(١) نص اليعقوبي هنا لا يعين حقائق تاريخية محددة وإنما هي إشارة اسطورية الطابع نأخذ نحن بمعناها في مجمله. أما التفاصيل فليس لدينا دليل على صحتها. فلا نعتقد بأن هناك علاقة بين اسم أجياد الموضع المعروف بجنوبي مكة، والخيل أو الجياد، وليس هناك كذلك ما يؤيد زعم اليعقوبي ان لفظ أعرِّبهُ معناه أطهِّره بنفي المعاصي عنه. والمعروف أن لفظ العربة ـ اسما لجزيرة العرب ـ له اشتقاقات أخرى. تاريخ اليعقوبي ١/٢٢١.

سلاح جديد كان له أثر الانقلاب في كل ناحية ظهر فيها وهو الحصان، فقد كان استئناس الحصان في صحاري منغوليا ووسط آسيا إيذاناً ببلاد امبراطوريات مناطق الأعشاب Les empires des steppes أو امبراطوريات قامت على ظهور الخيل les empires à dos des chevaux والمصطلحان من ابتكار العالم الفرنسي جْروسِّيْه Grousset وهو أول من كتب مؤلفاً جامعاً عن دول البدو الأسيويين واعتمادها على الحصان. والحصان وصل إلى غرب آسيا من أيام الأشوريين وعنهم أخذه العرب ـ الرعاة في صحاري الشام، واعتمد عليه الهيكسوس في غزوهم مصر على ما قلناه. ومن غربي آسيا الصغرى على الأغلب انتقل الحصان إلى اليونان والرومان وأصبح من القرن الرابع قبل المسيح حيواناً أوروبياً، وقد تطور هناك بحسب ظروف البيئة ومطالبها وظهر الحصان الأوروبي القوي الثقيل العظام الضخم الجسم الغليظ الأرجل. وقد عرف أهل أوروبا منذ الزمن القديم نوعين من الخيل: خيل العمل الزراعي والحمل الثقيلة البطيئة الحركة الكثيرة الطعام المعروفة باسم Caballus ومنه لفظ Cheval الفرنسي، وحصان القتال الخفيف بعض الشيء الذي يتميز بصفات قتالية عظيمة، وهو المعروف باسم equus وهو أقوى وأمضى أداة حرب عرفها الرومان. والفرسان Equestri كانوا معدودين في طبقة النبلاء بسبب قدرتهم على الحرب على ظهور الخيل وكلا هذين النوعين من الحصان يدخلان ضمن ما يسمى بالحصان الكبير The big horse نظراً لضخامة حجمه وثقل وزنه وقدرته على العمل في الحقول والمدن وشجاعته في ميادين الحروب. وعلى أي حال فإن الحصان كان دائماً أكبر معين للإنسان على بناء الدول والحضارات تبعاً لذلك، وليس هناك دولة كبرى أو صغرى أو حضارة كبيرة أو صغيرة إلا وللحصان فيها نصيب.

وهذا أيضاً ينطبق على العرب قبل الإسلام وبعده. فإن الحصان الذي دخل صحاري الشام آتياً من بلاد ما وراء النهرين أو من آسيا الصغرى وجد

في فلوات بلاد الشام ومراعيها بيئة أنشأت نوعاً جديداً من الخيل. فإن الحصان المغولي الأول والذي يعتبر أباً للخيل كلها حيوان صغير الحجم نسبياً قصير الساقين غليظ العنق، ولكنه حصان قوي متين العظام شديد الاحتمال، فلما دخل مناطق الحشائش الطويلة في شمال الشام وجزيرة العرب وجد بيئة جديدة تطور فيها مع الأحقاب، فنشأ الجواد العربي الصغير الحجم نسبياً الطويل الرجلين، الطويل العنق، القصير الشعر، العصبي المزاج، السريع الحركة، المتين العظام، الصحيح البدن، الواسع الصدر الصغير البطن، المتين الظهر، الخفيف العَجُز، الطويل الرقبة مع انحناء جميل فيها، ورأس صغير في غاية الانسجام مع الرقبة الأنيقة وانسراح الجسم كله مع لمعان الشعر وزهاء اللون. وتميز ذلك الحصان إلى جانب ذلك في معظم الحالات بالغرة، وهي الشارة البيضاوية البيضاء في الجبهة التي تمتد حتى الأنف أحياناً ثم الحَجَل وهي المنطقة البيضاء عند رسُغ القوادم والخوافي، وقد يقتصر التحجيل على ثلاث قوائم ويضاف إلى ذلك كله معرفَة جميلة تُكْمِل جمال العنق الصغير والرأس وذيل أنيق يتدلّى من آخر ظهر الحصان كأنه شعر الحسناء.

وهذا هو الحصان العربي الذي يعتبر من أفضل صنوف الخيل وأكثرها امتيازاً. فهو إلى جمال هيئته يمتاز بذكاء لا بأس به. وإذا كانت الخيل تعتبر رابعة في الذكاء في عالم الحيوان بعد الفيلة والقرود والكلاب فإن الحصان العربي يختلف مستواه من الذكاء بحسب استعماله، فهو إذا أُحسن استعماله وعومل برفق ومحبة واحترام شُحِذَ ذكاؤه وأصبح من أعون الحيوان للإنسان، فهو يتعرف من تلقاء نفسه على مواقع الماء باطنه وظاهره بغريزة صافية، وهو مطواع لصاحبه شديد التعلق به وإذا أُحسن تدريبه اقتحم النار والماء وقفز من حالق دون تردد. وقد كان العربي الجاهلي من أحسن الناس معاملة للخيل ومحبة لها وحَدْباً عليها وعناية بها ولهذا وصف الحصان العربي في الجاهلية بارفع الصور، لأنه كان صديق صاحبه ورفيقه وأكبر معين له في الحياة، ويتجلى ذلك

في الشعر العربي بأجلى بيان. وقد كانت عناية رسول الله ﷺ والعمرين بالخيل عظيمة، ويكفي أن رسول الله ﷺ جعل نصيب الفارس من الغنيمة ثلاث مرات قدر الراجل: واحد للفارس نفسه، وواحد لطعام الحصان وثالث للعناية به.

وهذا الحصان العربي شريك بحق النصف في الفتوح العربية، فمعظم انتصارات المسلمين يرجع الفضل فيها إلى أنهم كانوا ركباناً يحسنون معاملة الخيل وقيادتها والعناية بها. وقد ظهر اهتمام رسول الله ﷺ بالخيل بعد ما رأى من فتكها بالمسلمين في يوم أحد، وبعد انتصاره على بني قريظة واستيلاء المسلمين على أموالهم استعمل الرسول معظم خُمس الله ورسوله في شراء الخيل من نجد وتربيتها وانتاجها في أحماء المدينة.

وهذا الحصان العربي الذي قام بهذا الدور الكبير في تاريخ العرب والإسلام هو الحصان الذي تربى وتتطور على أيدي العرب في الشام، وعلى صهوته دخلوا الجزيرة واستقروا في شمال الجزيرة ووسطها. وقد تمكن العرب المستعربة الذين سميناهم بالاسماعيلية من التفوق على من وجدوه فيها من جماعات العاربة وانتشروا في نواحيها وتبحبحوا في مراعيها، وكثرت فيها فروعهم وقبائلهم واستعربوا أي صاروا عرباً.

ولدينا نص لليعقوبي يؤيد هذا الذي قلناه وإن كان اسطوري الطابع. قال: «وكان وَلَد جُرْهم بن عامر لما صار إخوتهم من بني قحطان بن عامر إلى اليمن فملكوا، صاروا هم إلى أرض تهامة فجاوروا اسماعيل بن ابراهيم، فتزوج اسماعيل الحَنْفَاء بنت الحارث بن مُضاض الجُرْهُمي فولدت له اثني عشر ذكراً هم: قيدار ونابت وادبيل وميشام ومسمع ودوما ومسا وحداد وتيما ويطور ونافس وقيدما. وهذه الأسماء تختلف في الهجاء واللغة لأنها مترجمة من العبرانية، فلما كملت لاسماعيل مائة وثلاثون سنة توفي فدفن في الحِجر، فلما توفي اسماعيل ولي البيت بعده نابت بن اسماعيل، ويقال وَلِيَه قيدار، وبعد

قيدار نابت بن اسماعيل. وافترق ولد اسماعيل يطلبون السعة في البلاد، وحبس قوم أنفسهم على الحرم. فقالوا: لا نبرح من حرم اللّه! ولما توفي نابت ـ وقد تفرق ولد اسماعيل ـ وَلِيَ البيت المضاض بن عمرو الجُرهمي، جد ولد اسماعيل. . . . . . وطغت جرهم وبغت وظلمت وفَسَقَت في الحرم، فسلط اللّه عليهم الذَّر، فأهلكوا به عن آخرهم. وكان ولد اسماعيل منتشرين في البلاد يقهرون من ناوأهم، غير أنهم كانوا يسلمون بالملك لجرهم للخئولة. وكانت جرهم تطيعهم في أيامهم. ولم يكن أحد يقوم بأمر الكعبة في أيام جُرهم غير ولد اسماعيل تعظيماً منهم لهم ومعرفة بقدرهم. فقام بأمر الكعبة بعد نابت: أَيَمْنَ، ثم يشجب بن أيمن ثم الهميسع، ثم أدد فعظُم شأنه في قومه، وَجَلَّ قدرُه. وأنكر على جرهم أفعالها وهلكت جرهم في عصره. ثم وَلِي عدنان بن أدد ثم مَعدّ بن عدنان. ثم افترق ولد عدنان في البلاد ولحق قوم منهم باليمن منهم عك. . .»[1].

وقد أوردنا معظم هذه العبارة لأننا سنتناولها بالتحليل والدراسة على ضوء ما عرفنا وما نعرف الآن عن تاريخ العرب. وهي عبارة غنية بالفائدة حافلة بالمعاني، وقد اختصرنا ما وجدناه مسرفاً في القصصية والأسطورية. ونلاحظ قبل أن ندخل في الدراسة أن هذا النص نموذج من طريقة معظم مؤرخي العرب في سياقة تاريخ ما قبل الإسلام، فهم يبدأون من النهاية، أي يبدأون من الحقيقة الواضحة أمامهم وهي أن محمداً ﷺ هو القمة التي انتهى إليها تاريخ العرب قبل الإسلام، ومن القمة يسيرون الى بني هاشم فبني عبد مناف بن قصي فكنانة فعدنان فأولاد اسماعيل. ثم يصوغون التاريخ كله بادئين من اسماعيل وموجِّهين للحوادث في الاتجاه الذي ينتهي بهم إلى الذروة المحمدية، وتلك هي الصياغة العكسية للتاريخ. وإذا نحن قرأنا كتب التاريخ التي كتبها المسيحيون في العصور الوسطى وجدنا التوجيه ينتهي منذ

(١) اليعقوبي تاريخ ١/٢٢١ ـ ٢٢٣.

البداية عند عيسى عليه السلام ثم الحواريين وبولس خاصة، وعندنا كتاب القديس أوغَسْطين المسمى مدينة الله Civitas Dei وهو المثال التقليدي الذي يضربه أساتذة علم التاريخ في الغرب نموذجاً للرؤية التاريخية المنظورة من النهاية التي يريد أن ينتهي إليها صاحب التاريخ أو ما يسمى باسم Retraspective view of history.

ونعود إلى الفقرة التي نحن بصددها من كلام اليعقوبي لنحللها ونستخرج ما فيها من الدلائل التاريخية على ما نحن بصدده من تتبع تاريخ العرب المستعربة.

وإليك أهم ما نخرج به من هذا النص وما مررنا به من الظروف:

١ ـ أن أولئك العرب الاسماعيلية أو المستعربة دخلوا الجزيرة من بلاد الشام. وليس من الضروري أن يكونوا جميعاً من أولاد اسماعيل، فإن هجرة اسماعيل كانت هجرة إلى داخل الجزيرة: تحرك قوم من عرب الشام إلى داخل الجزيرة فتبعتهم أقوام، وكان منهم نفر من أبناء اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام. وليس من الثابت على أي حال أن اسماعيل أقام في الحجاز بعد أن كبر، وقد يكون القوم الذين دخلوا الجزيرة وسموا بالاسماعيلية نفراً من أولاده أو المنسوبين إليهم، وعلى أي حال فقد غلب اسم الاسماعيلية على حركة هجرة العرب المستعربة من خارج الجزيرة الى داخلها.

٢ ـ وهجرة أولئك الناس من الشام إلى الجزيرة مرتبطة باستخدامهم الخيل، فقد ركبوها واعتزوا بها وغلبوا على غيرهم، وانفسح أمامهم المجال للهجرة إلى الجزيرة معتزين بالخيل.

٣ ـ ومن الواضح من النص أن أولئك المهاجرين لم يكونوا عرباً ولا كانت اسماؤهم عربية. وليس من الضروري أن يكونوا جميعاً عبرانيين بل كان

فيهم من أهل الشام وجنوبي العراق من سُريان وأنباط وبقايا الكلدانيين. فأسماء الاعلام التي أوردناها فيها العبري والسرياني والنبطي والكلداني وفيها ما لا يمكن التعرف على هويته بسبب التحريف الشديد في المخطوطات.

٤ ـ وقد مر أولئك المهاجرون في هجرتهم بمن كان في طريقهم من العرب العاربة ما بين قضاعة وتَنوخ، وبعضهم كان من فروع هذه القبائل، فاندفعوا مع المهاجرين إلى داخل الجزيرة. وكانت قضاعة ممتدة إلى بلاد الحجاز، فغلبهم أولئك المهاجرون الجُدد وتسلطوا عليهم.

٥ ـ وفريق من هؤلاء اتجهوا إلى الحجاز، ومن هؤلاء العدنانيون الذين مروا في طريقهم بأرض جذام وجهينة وبلي وبقية فروع قضاعة في الحجاز، فاختلطوا بهم اختلاطاً متصلاً يتجلى في أنساب العدنانيين الاسماعيليين وأولئك الاسماعيليون هبط نفر منهم غربي جبال السراة في الحجاز وانتشروا كذلك في شمال شبه الجزيرة ووسطها، وبعضهم استقر في شرقها، وليس من الضروري أن يكون كل أولئك الاسماعيلية المستعربة عدنانية، أي منحدرين من عدنان، فقد تكون هذه قراءة متأخرة لشجرة النسب، أي محاولة من النسابة لربط جميع الاسماعيلية أو المستعربة الى عدنان واسماعيل عن طريق مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وواضح أن هذه الأسماء كلها ليست لرجال انحدرت منهم قبائل، بل هي أسماء القبائل نفسها، بل ليس من الضروري أن تكون قد انحدر بعضها من بعض على الصورة التي يصورها لنا النسابة ويحكيها المؤرخون، فهذا الذي نراه من التفرق والتجمع ثم التجمع ثم التفرق وجماعات تختفي وجماعات تظهر انما هو نتيجة لما حكيناه من أسلوب تكوين المجموعات القبلية وتفرقها تبعاً لقانون الحياة في الصحراء، فالأغلب أن بني إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان كانوا قبيلاً آخر يختلف عن قبيل قيس عيلان المنسوب الى مضر وما تفرع منه ثم

ارتبط بعضهم ببعض لدواعي البقاء في الجزيرة أو لدواعٍ سياسية بعد الاسلام فقيل ان أبناء مضر فرعان كبيران: قيس عيلان بن مضر، والياس ابن مضر، والحقيقة أن البون بعيد بين بني الياس ومن تفرع منهم وبالذات «أولاد امرأته خندف، وبين قيس بن عيلان أوقيس عيلان ومن تفرع عنهم أو انتسب اليهم، ولأول قيام الاسلام سنجد فروع قيس عيلان معادية لدعوته التي نادى بها رجل من قريش بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر. والكلام هنا يتعلق - منطقياً - بوحدات قبلية يرتبط بعضها ببعض بعلاقات لا نعرف حقيقتها على وجه التحقيق، فهي في شجرات الأنساب روابط قرابة ودم، ولكنها في واقع الحياة ودلالات التاريخ علاقات مصالح، وما دامت علاقات مصالح فهي ليست ثوابت بل متغيرات، ومن هنا نفهم مثلاً كيف كان بنو قيس عيلان بن مضر يقفون أندادا وأعداء لقبائل قيس عيلان الياس بن مضر قبل الاسلام، ثم انضموا اليهم وأيدوهم وصاروا معهم أوائل العصر الأموي ثم صاروا أعداءهم في آخره.

وقد تكون بعض الأسماء الكثيرة الواردة في شجرات الأنساب مجموعات من العرب المعاربة انضمت الى الداخلين الجُدد واختلطت بهم اختلاط أنساب فظهرت لنا في شجرات الأنساب من جانب كنانة مع أن كل البينات تقول إنها ليست منها مثل عَضْل والهُوْن والقَارّة فهذه تبدو لنا وكأنها غريبة عن كنانة بن خزيمة وكان عداؤها لكنانة وقريش أوائل الدعوة الاسلامية عظيماً حتى إن رسول الله ﷺ دعا ربه أن يعينه عليها ومن مأثور قول رسول الله ﷺ في بعض مغازيه: اللهم على مضر، فعلى أي مضر يستعين رسول الله ﷺ بالله سبحانه؟ وهو نفسه ذؤابة مضر؟ الجواب: على بني قيس عيلان بن مضر وهو أخو الياس بن مضر.

فـرع قـيس عيـلان بن مُضَر :

والذي يعنينا هنا هو أمر كنانة، فإن قريشاً منها. وكنانة تنحدر من ـ أو تنسب نفسها إلى ـ خزيمة، وخزيمة من مدركة، ومدركة من إلياس، وإلياس هو الفرع الثاني من مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ويستوقف نظرنا أن الياس وقيس عيلان أمهما فيما يقول النسابة أَسْمى بنت سَوْد بن أسلَم بن الحارث من قضاعة، فهما مضريان من ناحية الأب وقضاعيان من ناحية الأم.

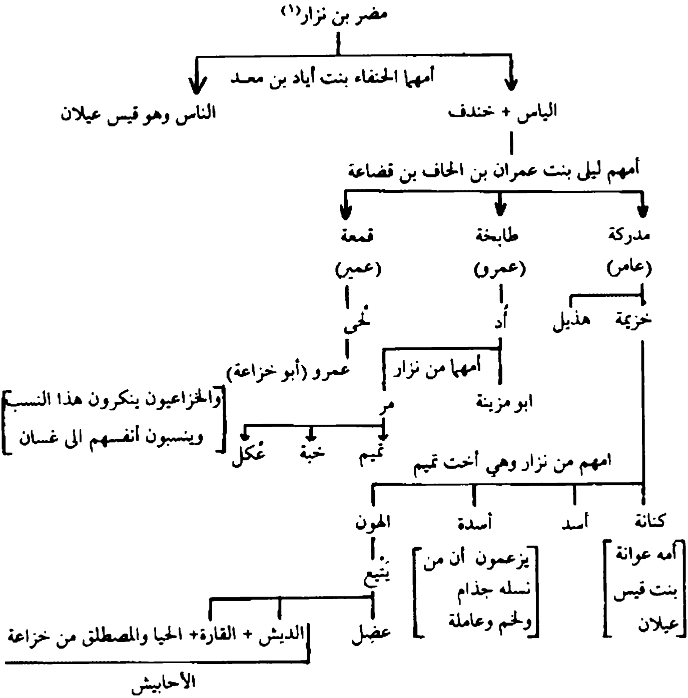
وإلياس بن مضر يتزوج فيما يقولون امرأة من قضاعة هي خِنْدِف ذات الصيت البعيد في شجرات الأنساب، فكل أولاد الياس مضريون أباً، قضاعيون أماً، وكلهم خندفيون قضاعيون من ناحية الأم. وكل المضريين كانوا فخورين بهذا النسب الخندفي حتى إن نصر بن سيار آخر عمال بني أمية على خراسان وهو من جُندع بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة يفتخر بنسبه إلى خندف:

أنا ابن خندف تنميني قبائلها ... للصالحات، وعمي قيس عيلانا[1]

ويزيدنا المصعب الزبيري معرفة بخندف القضاعية هذه، وسأورد كلامه في هذا الشأن في صورة جدول تتضح به خيوط النسب وتسلسله بأكثر مما تتضح في النص المكتوب (نسب قريش ص ٧ ـ ٨).

---

(١) ابن حزم، الجمهرة: ١٠.



وإذن فخندف القضاعية هذه كانت جذع شجرة ضخمة أنجبت من قبائل الياس بن مضر عدداً كبيراً جداً من القبائل، ونحن لا نأخذ بأقوال هؤلاء النسابة، فمن الواضح أن كلامهم هنا تجميع وتصوير لحقائق جَدَّت بعد الإسلام، سواء في حياة الرسول ﷺ أم بعده، فنحن نجد في أحفاد خندف مزينة، ومزينة ظهر أمرها في مطلع خلافة أبي بكر، فهم كانوا أول من وقفوا معه وأيدوه عند الردة، ونجد من ولدها الهون وعضل والقارة والديش مع أن هؤلاء كانت لهم أعمال ومواقف غير محمودة في معارضة الإسلام وأذى أهله

(١) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ١٠ وانظر الجدول الكبير لأنساب عدنان الملحق بهذا الكتاب.

حتى فتح مكة، وكان لا بد من تحسين صورتهم بعد انتصار الإسلام فرُبِطوا إلى شجرة النسب النبوي عن طريق خندف القضاعية. وعضل وديش والقارة والحيا والمصطلق، والاثنتان الأخريان من هذه القبائل تنتسبان إلى خزاعة وهم من الأحابيش الذين خرجوا مع قريش لقتال أمة الإسلام في المدينة في غزوة الأحزاب وهذه خطيئة تغطي عليها شجرة الأنساب بالربط بالشجرة النبوية عن طريق خندف. أما بنو المصطلق الخزاعيون فهم أصحاب ماء المُرَيسيع وهم فرع خزاعة الذي خرج على اجماع خزاعة في تأييد أمة الإسلام وأرادوا الاضرار بالتوازن القبلي الذي أقامه الرسول بالنسبة للقبائل النازلة على الطريق بين المدينة ومكة. وأقوى هذه القبائل خزاعة (وقد أخذت ناحية الإسلام) وبنو عبد مناة من كنانة بفروعهم العديدة وأهمهم بنو كعب الذين وقفوا إلى جانب قريش ضد الاسلام، فيريد الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق الخزاعيين أن يخلخل هذا التوازن جهلاً منه وسوء تقدير، فيسارع الرسول إلى توجيه ضربة بالغة العنف إلى هذا الرجل البدوي المغرور الجاهل بما يدور حوله وتكون غزوة المريسيع أو بني المصطلق، ويفيق الحارث بن ضرار وقومه من غفلتهم ويتحرج موقفهم فيبادر الرسول ببعد نظره واتجاهه العام إلى إخراج شيوخ البدو من عنادهم وغرورهم وكسبهم للإسلام بعد ذلك، فيكون زواجه من جويرية بنت الحارث بن ضرار وإطلاق أسارى بني المصطلق جميعاً لأنهم اصهار الرسول، وينضم بنو المصطلق إلى اخوانهم من خزاعة ويقفون في صف الإسلام ويحسن إسلامهم، فهم حلفاء أصهار، ويلحق بهم في الحلف أبناء عمومتهم بنو الحيا ابن المصطلق. وهذا كله يُتَرْجَم تاريخياً على أيدي النسابة عن طريق خندف القضاعية، وليس هذا بكثير ـ ولا مستغرب ـ بالنسبة لخزاعة. فإن دور خزاعة في تاريخ الإسلام عظيم مستمر حتى الحركة العباسية. وخزاعة كانت عصبا قوياً جداً من العصبات التي شدت ازر الدعوة العباسية وخاصة عن طريق أولاد بُرَيْدة بن الحُصيب الاسلمي صاحب رسول الله ﷺ، وصاحب راية أسامة بن زيد بن حارثة في سريته إلى النبي للانتقام لمقتل أبيه في مؤته، وهو

كذلك من اكابر حلفاء عليّ بن أبي طالب.

والذي يهمنا ونحن نتتبع هنا خطوة خطوة ـ خط نسب كنانة أم قريش ـ هي تلك العلاقة الوثيقة بين كنانة وقضاعة، وهي علاقة استمرت على طول تاريخ كنانة وقريش قبل الإسلام وبعده.

ونصل إلى كنانة بن خزيمة بن مدركة. وكنانة هي أم قريش وأم كل قرشي ورسول الله ﷺ ينسب إلى كنانة. وكتاب العرب يقولون إن كنانة كان رجلاً، ولكننا بناء على ما بيناه فيما سلف نقول إنها قبيلة انحدرت عن قبيلة أخرى هي خُزيمة وتلك عن قبيلة أخرى هي مدركة أو عامر. والانحدار هنا معناه تفرق القبيلة الأم بعد تجمعها نتيجة لظروف العيش في الصحراء على ما ذكرناه، ثم تجمعها مرة أخرى تحت اسم جديد هو اسم فرع من فروعها قام بعملية التجميع، وليس من الضروري أن يتم التجميع في مواطن القبيلة الأم، بل قد يحدث في مكان بعيد هو مواطن القبيلة التي قامت بالتجميع، وليس من الضروري كذلك أن تكون الفروع التي يتكون منها التجمع الجديد هي نفس فروع القبيلة الأم أو من بعض هذه الفروع، بل تدخل هنا فروع جديدة لقبائل أخرى تفرقت، وهذا ما يعبر عنه النسابون في مصطلحهم بلفظ «الدخول» فيقولون إن بني فلان دخلوا في بني فلان، والمراد به أن ذلك الفرع ترك جذع الأم وانضم إلى تكوين قبلي جديد. لأن القبائل كانت تتكون من وحدات قبلية صغيرة، ولا تزال تنمو حتى يصل حجمها إلى درجة يصعب معها المحافظة على الوحدة فتبدأ في التفرق، ثم تتجمع القبيلة المتفرقة تحت اسم جديد على يد أحد بطونها، فتأخذ اسم البطن الذي قام بالتجميع الجديد. وليس من الضروري أن يكون التجمع الجديد من نفس بطون المجموع الذي تفرق بل تدخل في تكوينه وحدات أخرى من أصول شتى. وهذه الظاهرة تسمى التجمع والتفرق Integration and desintegration.

وقد طالما حيرتنا الأسماء المزدوجة لكثير من القبائل، فيقال مثلاً: فولد الياس بن مضر مدركة واسمه عامر، وطابخة واسمه عمرو وقمعة واسمه عُمير[1] «فكيف يكون اسم الرجل مدركة ثم يقال أن مدركة هو عامر، أو أن اسمه طابخة ثم يقال إن طابخة هو عمرو، أو إن اسم الرجل قمعة ثم يقال إن قمعة هو عُمير؟ لقد قرأت عند المصعب الزبيري سطراً أظن أنه يحل لنا هذا الإشكال، قال في سياق كلامه عن فروع انمار بن نزار «ومنهم خزيمة وهم يشكر، وقد انتسبوا في الأزد، ومنهم خثعم وهو أقْيَل بن انمار بن نزار، وإنما خثعم جبل تحالفوا عنده فنسبوا إليه. وهم بالسراة على نسبهم إلى انمار بن نزار.[2]». وإذن فقبيلة أقيل بن أنمار تسمى خزيمة، لا لأن خزيمة هو أقيل بل لأن خثعم جبل تحالفوا عنده فسموا به. ونسأل: من الذين تحالفوا؟ والجواب: جماعة أقْيَل أو يشكر، وربما كانت أقيل جماعة ويَشْكُر جماعة فتحالفوا عند جبل خثعم وأطلق على الحيين معاً خثعم وأصبحا بذلك حِلفا جديداً هو الذي حمل الاسم الجديد، وانطوت تحته الجماعات التي تحالفت عنده. ومثل هذا الكلام يقال عن مدركة مثلا الذي يقال إن اسمه عامر بن إلياس بن مضر، فهذه جماعة من حلفاء جماعة إلياس بن مضر تحالفوا وأصبح اسمهم جميعاً مدركة، وقد يكون مدركة اسم جبل أو عين ماء أو سهل أو ما شئت، ولكنه أصبح من ذلك الحين عَلَماً على الناس الذين تحالفوا عنده أو تحت اسمه وقد يكون مدركة اسم طوطم أو صنم تحالفوا عنده، ومثل ذلك يقال في طابخة الذي يقال إن اسمه عمرو، وقمعة الذي يقال إن اسمه عمير، فهذه كلها أحلاف أو جماعات لقبائل ممن انقسم إليهم بنو الياس من مضر، ثم تجمعوا في وحدات جديدة ذات أسماء جديدة يربط بينها الانتساب إلى أصل واحد هو إلياس بن مضر بن نزار، وهذا يؤيد ـ ما قلناه من أن الأسماء التي لدينا في شجرات الأنساب ليست كلها أعلام أشخاص أو أعيان رجال وإنما هي في الغالب أعلام أحلاف

---

(١) المصعب الزبيري، نسب قريش ٧.

(٢) نفس المصدر: ٧.

قبلية، أو أن كلا منها جُماع نسب أي اسم تَتَجَمَّع تحته انساب كثيرة كما سنرى في حالة قريش، وهذه الأحلاف القبلية التي تسمى عند النسابة قبائل هن تجمعات يخلف بعضها بعضاً على أساس التجمع ثم التفرق ثم عودة التجمع تحت اسم جديد وهكذا، وهذا لا يعني بالضرورة أن الأعمار بينها متطاولة، أي أن التجمع الذي نسميه قبيلة يتجمع ويشتد أمره ثم يتفكك وتقوم مكانه أو من بين مفرداته جماعة أخرى يتم في أمد قصير، فقد تتجمع الوحدة القبلية وتتفرق ثم تتجمع في ثلاثة أجيال، فتكون أعمار الجماعات هنا في مثل أعمار البشر ويكون حجمها صغيراً نتيجة لذلك، وهذا يصدق على الجماعات الصغيرة، أما الكبيرة مثل قضاعة فلا بد أنها احتاجت في تجمعها إلى أجيال متطاولة، ثم تفرقت على أجيال أيضاً، وظهرت الوحدات الجديدة المنسوبة إليها مثل جهينة وبلي وكلْب بن وبرة على أجيال، وهذا يفسر لنا لماذا نجد القضاعيين لا يعرفون أصلهم معرفة الواثق، وكذلك فرعاها جُهينة وبَلي، لأن هذه التطورات تتم على أجيال تنسى معها - الأصول، وخاصة بين أقوام من البدو يعيشون على الفطرة حياة هي في الحقيقة مجرد محافظة على البقاء أو ما يسمى أو يعرف بلفظ Survival فإن قضاعة قامت في بوادي الشام، ثم امتدت إلى بوادي جزيرة العرب والحجاز، وتفرقت وقامت على بقاياها وحدات جديدة في الحجاز وشمالي الجزيرة. وبقيت من قضاعة بقية في مواطنها الأولى التي ظلت تعرف باسم ضاحية قضاعة عند دومة الجندل والقَرْيَات وما يليها شمالاً حتى بلاد كلب بن وبرة وهم أيضاً ممن نشأ عن تفرق حلف قضاعة.

وقد خصص أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر فصلاً لقضاعة في كتابه «الانباه على قبائل الرواة» بين السبب في حيرة هذا القبيل الضخم من العرب بين قيس واليمن، وبعد كلام طويل عن أصول شتى يقول ابن عبد البر: «وقال محمد بن حبيب: إنما فسد نسب قضاعة بالحرب التي كانت بالشام أيام حُميد بن حريث (بن بحدل الكلبي) وعمير بن الحباب (السلمي)، وذلك أن

خالد بن يزيد (بن معاوية بن أبي سفيان) قال لأخواله من كلب، وكان ـ مطاعاً فيهم ـ وهم سادة قضاعة: أطيعوني وحالفوا اليمن وانتسبوا إليها فإنكم تذلـون بذلك بني مـروان ومن انحط في اهوائهم من قيس وغيـرها، فـأطاعـه بعضهم وعصـاه آخرون، فكـان بعضهم يقول: حـالفنا اليمن، وبعضهم يقـول: بل نحن منهم[1].

وقبل أن ننتقل الى كنانة ونركز الكلام عليها، لا بد أن نقول إن كل ما ذكرناه من ظواهر حياة القبائل وتطورها وحقائق اسمائها ينطبق على قيس عيلان ابن مضر ـ أو من مضر ـ وهم الفرع الكبير الثاني من الاسماعيلية أو المستعربة الذي سار موازياً لأبناء إلياس بن مضر: فأبناء إلياس بن مضر دخلوا الحجاز ثم تهامة، أما من انحدروا عن قيس عيلان فقد انتشروا شرقي السراة وعمَّروا وسط الجزيرة وشمالها فيما عدا عوالي نجد، أي الأرض المرتفعة المؤدية الى قلبها، فهذه كانت بلاد كندة وبعض النسابين يقولون إنهم كانوا من جملة الزاحفين من الجنوب وإن مواطنهم الأولى كانت عند حضرموت عند موضع يسمى كِندة، وهذا فرض مقبول، ولكن من الممكن كذلك أن يكونوا شماليين أصلاً بـدلالات التاريـخ ونوع الحضارة وانتشار النصرانية فيهم، ربما من بلاد لخم، فليس لدينا بينة من التاريخ تؤيد يمنية كِندة الشمالية تأييداً قاطعاً، أما أن نستند في ذلك إلى وجود موضع في حضرموت يسمى كِندة، فلا يمكن اعتباره حقيقة تاريخية مقطوعـاً بها، وقد لا يكون أصل اسم الموضوع الموجود في حضبرموت «كِندة» أصلاً بل شيئاً قريباً منه فحرَّف رسمه النسابون والمؤرخون. وسنعود إلى قيس عيلان وندرسها بالقدر الذي يعيننا على تتبع تاريخ قريش. ولكننا لا نكتفي هنا بالإشارة الى ما يقال: من أن قيس عيلان ليس اسم الجماعة وانما نشير الى قول ابن حزم في الجمهرة تحت عنوان: هؤلاء بنو قيس بن عيلان بن مضر: «وقال قوم: انما هو

---

(١) ابن عبد البر النمري، الانباه على قبائل الرواة، طبعة مكتبة المعـارف الطايف (بـدون تاريـخ) ٦٨ ـ ٦٩.

الياس بن مضر، وأنه ولد قيساً ودهمان، وهم أهل بيت في قيس والأصح أنه قيس بن مضر وأن عيلان عبد حَضَنَه فنسب قيس اليه فولد قيسٌ خَصفة، وفيه العدد، وسعد وفيه البيت، وعمرو[1]».

فهذه عبارة تثير أكثر من مشكلة ولا يمكن فهمها وتفسيرها بعض الشيء إلا على الوجه الذي ذكرناه. فهنا نرى أن قيس عيلان اسم عام أُطلق على فريقين من ولد مضر، وهم إما أن يكونوا قد نشأوا متفرعين عن مضر بن نزار أو يكونوا أبناء إلياس بن مضر بن نزار، وهم على أي الحالين ليسوا جماعة واحدة، بل جماعتان إحداهما تسمى قيس، والثانية تسمى دهمان، ثم تحالفتا أو انضمتا في حلف قَبَلي واحد سمي قيس عيلان، وقيس عيلان هذا ليس اسم قبيل بل اسم الحلف أو جماع نسب الحِلف، واسم الحلف أتى من اسم عبد حضن قيساً، وعلى هذا فيكون عيلان هو اسم العبد الحاضن، وهذا غير مقبول على علّاته، لأن الغالب أن اسم عيلان جاء من اسم المناطق التي انتشر فيها حلف قيس وهي فيما حسب المتأخرون من الرواة بلاد الجوع على اعتبار أن عيلان مشتق من العَيْلَة أو الجوع بدليل النص التالي وهو أيضاً عند ابن حزم: «وقال حُصين بن المنذر بن الحارث بن وعلة بِحَضْرة وجوه العرب وقتيبة بن مسلم في حديث طويل: لو رآها قيس لَسُمِّي قيس شَبْعان ولم يسم قيس عيلان[2]» والغالب أن عيلان هذا اسم الموضع الذي تحالفوا عنده أو اسم الشارة التي اتخذوها للحِلف ولا علاقة لها بالشبع أو الجوع. وعند ابي العباس المبرد نص يدلنا على مقدار الشك في صحة الأنساب والأسماء، يقول: «وأما قيس فهو الناس بالنون بن مضر ويقال إن عيلان كان عبداً لمضر حضن ابنه الناس فنسب إليه قيس فقيل: قيس بن عيلان بن مضر[3]»وإذن فقيس هو في نفس الوقت

(١) ابن حزم، الجمهرة ص ٢٤٣.
(٢) ابن حزم، الجمهرة. ١٠.
(٣) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، نسب عدنان وقحطان. طبعة مكتبة المعارف ـ الطائف (بدون تاريخ) ص ٢٠.

«الناس» ونحن لا نعرف كيف يقرأ لفظ الناس هذا: هل هو إِنْاس قياساً على إلياس أو النّاس، وعلى أي حال فيمكن القول بأن الناس هذا ـ أياً كان نطقه هو اسم القبيلة التي صنعت التجمع أو الحلف، ويكون قيس عيلان هو اسم جماع النسب الذي اطلق على الحلف.

فَرع إليَاس بن مُضر: كِنَانَة ـ أول ظهُور قريش:

عند النسابة أن كنانة هو ابن خزيمة بن عامر بن إلياس بن مضر، وليس لدينا ما يمنع من قبول هذا التسلسل في النسب لأن الأصح أن يقال إن كنانة قبيلة انحدرت عن قبيلة أخرى تفرعت عن قبيلة تسمى مدركة أو عمرو وأن هذه نشأت عن بني إلياس بن مضر. وقد رأينا أن خندف أم إلياس قضاعية وكذلك كانت أم خزيمة فهي سلمى بنت أسلُم بن إلحاف بن قضاعة. وليس عندنا تفسير للفظ خزيمة ولكنه في الغالب اسم تجمع قبلي، اما اسم القبيلة التي صنعت الحلف فهو أسد لأن خزيمة تكنى ابا أسد. وبين خزيمة وقصي ـ وهو أول رجل نعرفه بعينه وصفته وعمله في شجرة النسب ـ تسعة آباء ـ فإذا نحن جرينا على ما يقوله النسابة من أن شجرة النسب شجرة آباء فهذه تسعة أجيال تحتاج إلى ثلاثمائة سنة على حساب من يقولون إن الجيل ثلث قرن، وثلاثمائة وستون سنة لمن يقولون إن الجيل ربع قرن، وهذا أمد طويل يصعب معه تذكر الأسماء فضلاً عن صفاتها، ولكن نسبة خُزيمة إلى أم قضاعة تميل بنا إلى القول بأن قبيلة خزيمة نشأت عن حلف من فرع من إلياس بن مضر وفرع من قضاعة. وقضاعة كانت أثناء هجرة الاسماعيلية قد بدأت تتفكك وتنتثر وبدأت بناتُها من الأحلاف القبلية التي نشأت عليها تظهر، فظهرت كلب بن وبرة في الشام وجُهينة وَبِليّ وغيرها في شمال الحجاز. وقد سلك هذا القبيل من العدنانية المضرية طريقاً يمر بأرض انتشرت فيها القبائل القضاعية، ومن هنا فإنه من الطبيعي أن نجد القبائل الواردة في شجرة النسب ذات طابع قضاعي واضح وفي هذه الحالة تكون كنية أبي

أسد التي تطلق على خُزَيمة خطوة نحو تعرب هذا القبيل من المستعربة.

وعندما نصل إلى كنانة نجد الأثر الكبير لصنعة النسابة في تصوير شجرة النسب النبوي، فكنانة عند النسابين رجل واضح العين ففي كتاب «الخبر عن البشر للمقريزي وفي شرح السيرة للخشني أن «أبا عمرو العدواني - والمراد ذا الاصبع - قال لابنه في وصيته: يا بُني! ادركتُ كنانة بن خزيمة، وكان شيخاً مُسِنا عظيم القدر، وكانت العرب تحج إليه لعلمه فقال - بريد كنانة - إنه قد آن خروج نبي بمكة يدعى أحمد يدعو إلى الله وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتبعوه تزدادوا شرفاً إلى شرفكم أوعِزًّا إلى عِزِّكُم، والا تتعدوا ما جاء به فهو الحق[1]» وإنه لعجيب أن يكون بين كنانة ورسول الله تسعة أجداد ثم يقول ذو الاصبع العدواني هذا أنه رأى كنانة وأن كنانة قال إنه آن خروج نبيّ بمكة، فكيف يقول: إنه آن ظهوره وبينه وبينه تسعة أجيال، أي ثلاثمائة سنة أو أربعمائة؟ وكيف يتنبأ بظهوره في مكة ومكة كانت إذ ذاك قرية لم يسمع بها إلا قليل من العرب فضلاً عن القادمين من خارجها! وهذا كلام يقوله المقريزي وهو معدود بين ذوي النظر والحس التاريخي بين المؤرخين. وأقرب إلى المنطق أن نقول إن كنانة كانت قبيلة أو اسم تجمع أو حلف قبلي.

وكنانة كانت قبيلة طويلة العمر، وقد عُمِّرت طويلا بفضل فرعين من فروعها هما النَّضر وعبد مناة. والنضر حلقة هامة من حلقات شجرة نسب عدنان، وأول ما نلقى كنانة نلقاها قرب مكة إلى غربها، ولا نعلم كيف وصلت إلى هناك ولكننا نستنتج من مصاهراتها ومصاهرات أمها خزيمة أنها مرت في هجرتها في بلاد قضاعة وفروعها التي كانت منازلها تتصل من جنوبي الشام إلى الحجاز: جهينة وبلي واسلُم وبَهْراء وخشين وسعد هذيم وما إليها من فروع

---

(١) المقريزي، الخبر عن البشر، مخطوط دار الكتب المصرية جـ ٣/٣ قسم أول، وشرح السيرة للخشني ١/٣.

قضاعة التي امتدت جنوباً بغرب، ويبدو أن منازل القضاعيين لم تتجاوز منطقة مكة جنوباً، لأننا بعد ذلك ندخل في بلاد خزاعة، وبقايا من جرهم من بقايا العاربة. واستقرت كنانة بعد طول تجوال غربي مكة.

ولا ينبغي أن يصرفنا تتبع أصول قريش عن حقيقة هامة تغيب عن القدامى في تتبعهم لخط النسب القرشي، وهي أنه في نفس الوقت الذي كانت فروع العدنانية الأخرى تتنقل فيه وهي في طريقها الذي نجدها فيه عشية البعثة المحمدية، كانت جموعها تتنقل وتتجمع وتتفرق على النحو الذي وصفناه حتى تستقر كلٌ منها في موضعها الذي سنجدها فيه أوائل القرن الخامس الميلادي، وسنحاول أن نقدر لتاريخ استقرار كنانة في الحجاز تاريخاً تقريبياً جداً عند كلامنا على قصي وتقدير التاريخ هذا أساسي في بحثنا هذا فلا تأريخ بدون حساب زمني، ولو تقريبي، ونحن إذا قدرنا أن بين كنانة وقصي ثمانية أجداد أو تسعة فمن الممكن جداً أن يكون سير كنانة في الحجاز واستقرارها قرب مكة كان في القرن المسيحي الثاني، وفي ذلك الوقت ربما لم يكن اسم مكة بتلك الصورة قد ظهر، ربما كان اسمها إذ ذاك هو الذي اثبته بطليموس: ماكورابا أو مَكُرابا أو مَقْرُبة وأن الموضع المحدد الذي كان موجوداً إذ ذاك هو «بَكُة» وهو اسم الموضع الذي رفع فيه ابراهيم عليه السلام قواعد البيت. والبيت أقدم من ذلك بكثير ولكن ابراهيم هو الذي رفع قواعده أي جدد بناءه على قول المفسرين. كانت هناك بَكّة وحولها محلة صغيرة هي ماكورابا، وكانت تنزل بها بقايا من جُرهم من قبائل العرب العاربة، ويسميها نسابة العرب جرهم الثانية، لأن جرهم الأولى في عرفهم من البائدة.

وفي موطنها الذي استقرت فيه استمرت كنانة تتجمع، ثم أخذت تتفرق وتحل محلها وحدات قبلية جديدة يذكر منها النسابة ستاً، ولكن أكبرها وأهمها النَضْر، وعبد مناة. ولا بد أن نلاحظ هنا أن كل قبيلة تتفرق يبقى اسمها أمداً طويلاً أو قصيراً على قبيل من الناس، وقد يختفي الاسم بعد ذلك، فليس

لدينا على خريطة النسب قبيلة تسمى كنانة، لا ولا نجد اسم عبد مناة، بل الذي لدينا فروع كثيرة منها أهمها من الناحية التاريخية بكر وكعب. وهذان الفرعان من بني عبد مناة هما اللذان نصادفهما أيام قصي وما بعدها.

ونتتبع فرع النضر أي قبيلة النضر في طريقنا إلى قريش فنجد أن المتأخرين من مؤرخينا يقولون لنا إنه اسم رجل، بل يزعم أبو ذر الخشني في شرحه للسيرة(1) أنه يعرف لماذا سمي النضر بهذا الاسم، فهو يقول: «النضر الذهب الأحمر، وهو النُّضار سُمِّي النضر بذلك لوضاءته واشراق وجهه» وهذا انعكاس من أضواء النبوة واشراقها على أجداده ﷺ. وهنا يعود النسابة الى التسمية المزدوجة لنفس العلم فيقولون إن اسم النضر قيس، وعلى هذا وتمشياً مع منهجنا يكون النضر هو اسم رئيس الجماعة وقيس هو اسم التجمع لها. ويقول النسابة إن امه برَّة بنت مُرّ بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر، وهي اخت تميم بن أد. وهذه أول مرة نسمع فيها عن صهر لخط النسب بهذا البُعد، فإن جماعة طابخة التي ترأسها عمرو بن إلياس بن مضر قد اختفت عنا من زمن طويل وأخذت طريقاً آخر انتهى بها إلى مواضعها المعروفة جنوب وجنوب شرقي نجد فيما يعرف بأعالي نجد، وهناك اندرجت بحكم ظروف البيئة ـ كما سنرى ـ في جملة الأعراب أو الأعاريب، ويقال إن مواطن تميم امتدت في وقت من الأوقات حتى شملت البحرين.

مشاكل تتعلق بأصل قُريش

وهنا تبدأ المشكلة الكبرى: مشكلة قريش.

فإن بعض نسابتنا يقولون لنا إن النضر هو قريش، وبعضهم الأخر يقول إن ابنه فهر هو قريش، وهم أنفسهم في حيرة من أمرهم بشأن النضر وفهر

(1) شرح السيرة لأبي ذر الخشني ١/ ٣.

وقريش جميعاً والسبب واضح، وهو أننا كلما اقتربنا من زمن النبي ﷺ خرجنا من ضباب التاريخ إلى نور الحقيقة، وتحت النور ينقشع الضباب ويجد المؤرخون القدامى أنفسهم في حرج، فهم لا يستطيعون أن يقولوا إنهم لا يعرفون حقيقة أمر هام كهذا من أمور النسب النبوي فيمضون يتلمسون المادة في القصص الشعبي، إذ لا بد أن هذه الأسماء كلها ظهرت أولاً على ألسنة القصاص، فلم يكن عند العرب قبل قُصي خاصة سجلات أو دفاتر أو حتى نقوش، وفي هذه الحالة لا بد أن ننبه إلى أن كل ما نحكيه في هذا الصدد إنما هو ما يستطيع المؤرخ العثور عليه من معالم تمكنه من تتبع الطريق الذي يختفي في ليل التاريخ، وهو يتتبعه دون أن يقرر فيه شيئاً بصورة حاسمة. وقد حكينا ما حكينا إلى الآن مع الحذر الذي لا مفر منه، وعندما نخطو على أرض صلبة يطمئن لها المؤرخ مع قصي بن كلاب سنغادر درجة من درجات هذا الشك المتعب الذي سرنا فيه إلى الآن.

مع النضر اذن يظهر اسم قريش أول ما يظهر. فقيس كما غلب على ظننا قبيل او تجمع قبلي والنضر اسم رئيسه الذي رأس ذلك التجمع.

ويؤكد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد أن النضر هو قريش ويقول: «فمن قبائل خندف قريش، واسمه النضر بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. وتفرعت قبائل قريش من بني فهر بن مالك، فيقال لهم بنو فهر، قال الحُطيئة:

وإن الذي اعطيتهم أو مَنعْتَهم لكالتمر أو أحلى لحلف بني فهر[1]

وفي هذا الخبر نقرأ مرتين عبارة «بني فهر» مما يدل على أن فهراً اسم قبيلة أو تجمع قبلي.

---

(١) المبرد. نسب عدنان وقحطان، ص ٢٢.

وعند ابن عبد البر نقرأ: «النضر بن كنانة كان يقال له القرشي»، وفي نفس الصفحة نقرأ «كان النضر بن كنانة يسمى القرشي»[1] ووصف وتسمية النضر بن كنانة بالقرشي يدل على أن الوصف كان موجوداً من قبل أو يكون قد وجد في أيامه، وفي هذه الحالة يكون حلف قريش قد تكون من بعض فروع كنانة أيام النضر أو قبله بقليل.

ويقول ابن عبد البر: «وقد اخْتُلِف في قريش، فقال أكثر الناس: كل من كان من ولد النضر بن كنانة فهو قرشي، وحجتهم في ذلك حديث الأشعث ابن قيس الكندي، قال: قَدِمت على رسول الله ﷺ في وفد كِندة فقلت: ألستم مِنَّا يا رسول الله؟ قال: لا. نحن بنو النضر بن كنانة. لا نقفوا أُمَّنا، ولا ننتفي من أبينا[2]».

وعندنا على أي حال أربعة أقوال في أول من سمى بقريش من ولد عدنان.

الأول يقول إن النضر أول من لقب بالقرشي، فهو على هذا قريش. وهذا القول يكرره ابن عبد البر مرتين إحداهما بسند من الواقدي ورواته: النضر بن كنانة كان يقال له القرشي[3]. والثاني ينسب إلى المصعب الزبيري ويكاد أن يكون أصل آراء معظم أصولنا وهو يقول: «كل من لم ينتسب إلى فهر فهو ليس بقرشي وقال علي بن كيسان: فهرهو أبو قريش، ومن لم يكن من ولد فهر فهو ليس من قريش وهذا أصح الآراء في النسبة لا في المعنى الذي من أجله سُمِّيَت قريشٌ قريشاً. والدليل على صحة هذا القول أنه لا يُعلم اليوم قرشي في شيء من كُتُب أهل النسب ينتسب إلى أب فوق فهر، دون لقاء فهر، ولذلك قال مصعب وابن كيسان والزبير بن بكار، وهم أعلم النساب بهذا الشأن وأوفق من

---

(١) ابن عبد البر، الانباه، ص ٧٦.
(٢) ابن عبد البر، الانباه، ص ٧٥.
(٣) ابن عبد البر، ص ٧٦.

ينسب علم ذلك إليه - أن فهر بن مالك جُماع قريش كلها بأسرها وذكر أبو عبد الله أحمد بن محمد العدوي في كتابه في نسب قريش قال: جُماع قريش كلها فهر والحارث ابنا مالك بن النضر بن كنانة. وزعم أن الصلت بن النضر بن كنانة ليس من انتسب إليه بقرشي . . .

وقال علي بن كيسان: وَلد النضر بن كنانة مالكاً والصلت ويخلدا، امهم امرأة من جرهم.

وقال ابن الكلبي: ولد كنانة بن خزيمة النضر، وهم قريش، ثم ذكر سائر بني كنانة أكثر من عشرة[1].

وأصل هذا الكلام عند المصعب الزبيري. قال: وقد قالوا: اسم فهر بن مالك قريش، ومن لم يلد فهراً فليس من قريش، فولد مالك بن النضر فهراً، وهو قريش وأُمُّهُ من جُرهم[2].

والثالث ورد في كتاب الإنباه «لابن عبد البر، وهو يقول إن قصي بن كلاب هو أول من سمي بقريش، وإليك الفقرات التي تهمنا من كلامه: وقال آخرون قصي كان يقال له القرشي. وذكر الواقدي أن عبد الملك بن مروان سأل محمد بن جبير بن مُطعِم: لِمَ سُمِّيت قريش قريشاً؟ فقال: لتجمُّعها في الحرم بعد تفرقها. فقال عبد الملك: ما سمعت بهذا، ولكن سمعت أن قصياً يقال له القرشي، ولم تُسَمَّ قريش قبله. وذكر الواقدي أيضاً باسناد له عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: لما نزل قصي الحرم وغلب عليه فعل أفعالاً جميلة، فقيل له القرشي. فهو أول من سمّي بذلك[3].

والرابع تردده معظم الأصول وإليك نص المصعب الزبيري فيه: فأما

---

(١) ابن عبد البر، الانباه ص ٧٥.

(٢) المصعب الزبيري: نسب قريش ١٢.

(٣) ابن عبد البر، الانباه ص ٧٦.

يخلد (ابن النضر بن كنانة وهو أخو مالك بن النضر فهو عم فهر بن مالك بن النضر) فهم في بني عمرو بن الحارث بن مالك بن كنانة، ومنهم قريش بن بدر بن يخلد بن النضر، وكان دليل بني مالك في تجارتهم، فكان يقال: قدمت عير قريش. فسميت قريش بذلك[1].

بدايات ظهور قريش وانفصالها عن كنانة من بني إلياس بن مضر:

وهذا الاختلاف كله يرجع إلى أن كنانة القبيلة بعد استقرارها في الحجاز بدأت تتفرق وتتفكك أمام ضغط القبائل التي وجدتها في منازلها الجديدة وأهمها خزاعة، وخرجت من أبنائها فروع كثيرة أهمها النضر وعبد مناة، وبنو النضر أخذوا يتحولون إلى قبيلة باسم قريش، وهذا التحول بدأ يظهر في فرع من فروع النضر هو فهر بن مالك، واستمر التحول والتجمع حول فرع من فروع فهر هو عامر ثم فرع آخر هو لؤي بن غالب بن فهر وانقسمت القبيلة التي كانت في دور التكوين إلى قسمين رئيسيين: لؤي بن غالب وعامر بن غالب، ومن هذين القبيلين نشأت نواة قريش، ولهذا فإن هذين الفرعين من فهر يقال لهما البطاح، ثم استمرت عملية التجمع وبناء القبيلة أيام مُرَة بن كعب وكلاب بن مرة، وجاء قصي، وهو أول رئيس واضح الشخصية التاريخية من رؤساء قريش، فجمع ما استطاع جمعه من فروع قريش، وخاصة فرعا كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، ودعاهم إلى خوض معركة مع خُزاعة وانتزاع مكة منهم، وتجمعوا حوله ودخلوا مكة واستقروا فيها، وكانت نواة الداخلين كعبا أو عامرا فرعي لؤي بن غالب فنزلوا البطاح أي قلب مكة، ثم تلاحق بهما بنو فهر بن النضر بن مالك وهم بقية الفروع المنحدرة من النضر بن كنانة وهؤلاء الأخيرون ظلوا في الغالب اعرابا حول مكة وأطلق عليهم اسم الفهريين، وهم منسوبون إلى قريش.

---

(١) المصعب الزبيري: نسب قريش ص ١٢.

أما قريش فكان اسم التجمع، فربما كان موضعاً، وربما كان اسم رمز لا نعرف كنهه، وربما كان اسم حيوان أو شجرة أو أي شيء، وربما كان أيضاً اسماً لمكان، ولهذا فقد اختلط الأمر على رواتنا فقالوا: «إن قريشاً هو النضر أو هو فهر أو هو قصي. ويؤيد هذا قول محمد بن حبيب النسابة أن قريشاً ليس اسم أب ولا أم ولا حاضِن أو حاضنة وإنما هو جماع نسب». وهذه هي حقيقة اسم قريش ويكون الكلام الكثير الذي نقرأه في النصوص عن معنى قريش وعلى من أُطلق أول ما أُطلق مجرد فروض أو محاولات للإجابة على سؤال ليس له مكان، فليس هناك شخص اسمه قريش وإنما هناك قبيلة تسمى قريش.

وإذا رجعنا إلى الوراء قليلاً وجدنا النسابة يجعلون لكنانة أحد عشر ولداً منهم أربعة من أم واحدة هي بَرة اخت تميم بن مُر، وستة من أم يمنية وواحد من أم قضاعية، وعلى رأس أبناء التميمية النضر الذي ينحدر منه القرشيون أما الستة أبناء اليمنية فلم يكن من بينهم واحد ذا شأن، ولكن عبد مناة ابن القضاعية هو الذي كان صنو النضر ومنافسه ومنه انحدر بنو بكر وبنو كعب فرعا عبد مناة بن كنانة، وقد ظلا يمثلان كنانة في الحجاز في وجه بني النضر الذين أصبحوا قريشاً وسادوا أهل الحجاز. وتفصيل أولئك الأبناء عند المصعب الزبيري في نسب قريش[1]. وفي كلامه عنهم يقول: عن النضر بن كنانة وإخوانه أبناء التميمية وهم فرسان»، وإذا جاز أن نستنتج شيئاً من هذه العبارة قلنا إن فرع النضر وإخوته من أبناء كنانة - أو فروعها. بتعبير أصح - كانوا فرساناً، ولهذا سادوا غيرهم وخاصة اخوتهم في القضاعية، وقضاعة كما رأينا من العرب العاربة، وقد سادها المستعربة بقوة الخيل التي دخلوا بها. وهذه الحقيقة الواحدة تؤيد ما قلناه من علاقة المستعربة بالخيل، وتفسر لنا كيف أن فرع النضر، ساد بقية فروع كنانة لأنه كان فرع فرسان.

(١) المصعب الزبيري، نسب قريش ص ١٠.

والآن وقد وصلنا إلى قصي فلا بد أن نُلقي نظرة على خزاعة التي وجدها القرشيون الكنانيون تسود مكة وإقليمها، وكان عليهم أن يخوضوا معركة معها لكي ينتزعوا مكة منهم ويتخذوها لهم قاعدة ومركز قوة.

خُـزاعَة : أصُولُها وَمُورفولوجيتها:

في دراستنا لتكوين قريش أو مُورْفُولُوجِيَّتها أخذنا فكرة عن تعقد تركيب القبائل العربية، فنحن نحسب أننا نعرف كل شيء عن تركيب قريش لأنها رهط رسُول الله ﷺ، ولكننا ما كدنا نتفحص تركيبها عن قرب حتى تبينا أن فكرتنا التقليدية عن المورْفولوجية الحقيقية لقريش يدخُل فيها وَهْمٌ كبير، وأن العوامل السياسية كان لها أثر بعيد في عمل الصورة التي وصلتنا بها القبيلة عن طريق النسابة وأصحاب التاريخ.

وهذا الكلام ينطبق على معظم القبائل إن لم يكن جميعها، وقد رأينا مثالاً معروفاً لنا جميعاً في قضاعة واختلاف الآراء في أصلها ونسبتها إلى اليمن أو معد. ولا بد لنا في هذه الدراسة من أن ندرس تكوين خُزاعة، لأن خُزاعة وثيقة الصلة بقريش وببني هاشم منها بصفة خاصة، وهذه الصلة كانت تحالفاً قَبَلِياً قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فقد تزايدت أهمية خزاعة لأنها ظلت على ولائها لفرع بني هاشم وحلفائهم، ووقفت معادية لمن عادى بني هاشم والاسلام من قريش، وكان لها ولأحلافها نتيجة لذلك دور عظيم في تطور الأحداث في العصر النبوي وبعده.

ولن ندخل هنا في مناقشات طويلة حول تعقد تركيب خزاعة، وإنما ما يهمنا هي الأسباب التي أدت إلى ذلك التعقد، لأن شجرات الأنساب كما وصلتنا إنما هي صورة لأحداث وظروف سياسية أحاطت بالقبائل قبل الإسلام وبعده، وكان لها أثر في تشكيل هذه الصور في شجرات أنساب سياسية واثنوجرافية في نفس الوقت.

والذي نستطيع قوله هو أن النواة الأولى لخزاعة يمنية، فإن أصلها فيما يقول النسابة من جماعة غسّان اليمنية التي هاجرت من الجنوب، وفي الطريق إلى الشمال اختارت بعض بطون غسان أن تنزل بين مكة والمدينة في موضع غَدير الأشطاط شمال مكة، وهذه المجموعة عُرفت باسم خزاعة، وهي مجموعة البطون الأساسية في تكوين القبيلة وهم بنو كعب وبنو مليح وبنو سعد وبنو عوف وبنو عدي وهم أبناء عامر بن لُحَي بن حارثة بن عامر. ولُحَي المذكور هنا يسمى أيضاً ربيعة.

وبعد أن استقرت هذه البطون الخمس في موطنها الذي ذكرناه انضمت اليها فيما يقول النسابة ثلاثة بطون من بني أفصى بن الياس بن مضر وهي أسلم ومالك وملكان. وتلك هي البطون التي يقال انها انخزعت أي انفصلت عن بني إلياس بن مضر ولسنا على يقين من أن انخزع معناه انفصل، ولكن هكذا يقول الرواة.

أما بقية البطون التي تراها في شجرة نسب خزاعة فيقال إنها من أبناء خِندِف وخندف هي امرأة الياس بن مضر فيما يقول النسابة وأبناؤها هم بنو إلياس بن مضر ويسمون لهذا خندِف أو الخندفيون.

وعلى هذا فتكون النواة الأساسية من خزاعة يمنية أضيف اليها نواة ثانية من بطون قمعة بن الياس بن مضر بن نزار بن مَعَد بن عدنان ثم نواة ثالثة من مضر أيضاً ولكن عن طريق خندف امرأة مضر. وخزاعة اذن قبيلة ثلاثية النواة.

وقد بينا ذلك كله على شجرة النسب التي رسمناها لأنساب تلك القبيلة وذكرنا مرجعنا في كل قول، وسنرى في سياق هذا التاريخ الأسباب السياسية التي جعلت النسابة يُدخلون هذا التعقيد كله على نسب خزاعة[1].

---

(١) ابن عبد البر: الانباه، ص ٩٨.
وانظر عن خزاعة:
ابن هشام: سيرة رسول الله (القاهرة ١٩٣٣) ١/ ٧٨.

خُـزاعَة وَقـُرَيشـــ :

لا نستطيع أن نستكمل تاريخ قريش دون أن نلم بتاريخ خزاعة في الحجاز، فتاريخ قريش شديد الاتصال بتاريخ خزاعة والتأثر به قبل الاسلام وبعده. وهذه العلاقة الوثيقة بين قريش وخزاعة كان لها الأثر الكبير في تكوين شكل شجرة نسب خزاعة، لأن قصي بن كلاب عندما عادى خزاعة واجتهد في انتزاع مكة منها أذاع القرشيون عن خزاعة أخباراً لا يرضى عنها الخزاعيون مثل قولهم إن خزاعياً وهو حُلَيْل بن حُبْشية باع الكعبة من قصي بزق خمر، وبعد أن استقر قصي في مكة وعمل هو وابنه عبد مناف على استرضاء خزاعة واجتهد القرشيون في ربط خزاعة اليهم، ومن هنا جاء ما يقوله ابن اسحاق والمصعب الزبيري من أن خزاعة عدنانون خندفيّون من أبناء مضر وامرأته خندف وهم على هذا في جملة أبناء مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ومن هذا ايضاً ما يقال من أن خزاعة ينحدرون من أفصى بن عامر بن قمعة بن الياس بن مضر، وهذا هو قول أبي عبيدة معمر بن المثنى ويتابعه فيه ابن حزم.

أما الخزاعيون فيرون أنفسهم من اليمن، ويسوقون نسبهم من حارثة بن

= البلاذري، أنساب الأشراف. الجزء الأول بتحقيق محمد حميد الله (القاهرة ١٩٥٩) ص ٣٤.
الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (القاهرة ١٩٥٦) ٢/٤٤ ـ ٤٥.
المصعب الزبيري: نسب قريش (القاهرة ١٩٥٣) ص ٧ ـ ٨ و١١.
ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، بتحقيق عبد السلام هارون، الفهرس.
القلقشندي: نهاية الأرب، في معرف قبائل العرب، بتحقيق الابياري ص ٢٤٤.
ابن الكلبي، كتاب النسب الكبير، الجزء الأول بتحقيق عبد الستار فراج، الكويت (في صفحات متفرقة).
ابن دريد، الاشتقاق، بتحقيق عبد السلام هارون (١٩٥٨) ص ٤٦٨.
الحازمي، عجالة المبتدى بتحقيق عبدالله كنون (القاهرة ١٩٦٥) ص ٥٤.
محمد بن حبيب النسابة: المنمق، ٣٤٦ ـ ٣٤٧.
أما المراجع الخاصة بتاريخ خزاعة بعد الإسلام سترد فيا بعد.

عمرو مزيقياء بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد. وابن الكلبي - وهو المسؤول الأول عن الشكل الهندسي الذي وصلت الينا به أنساب العرب قبل الاسلام خاصة - ينكر أنه كان لقمعة وهو في رأي النسابة عمير بن مضر خندف - ابن يسمى ربيعة، وأن ربيعة هذا هو لحيّ جد الخزاعيين، وهو يقول إنَّ لُحيا ابن حارثة بن عمرة مزيقياء بن عامر ماء السماء ابن حارثة الغطريف، ويسوق بقية النسب الى مازن بن الأزد.

والمتأمل في هذا الاختلاف الشديد في مساق نسب خزاعة يرى بوضوح أن النسابة وجدوا أنفسهم أمام جماعات من خزاعة تسوق نسبها الى قمعة بن مضر وخندف بن الياس بن مضر، وجماعات أخرى من خزاعة تقول انهم ينحدرون من النسب اليمني الصرف أي من حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بينما تقول جماعة منهم انهم ينحدرون من أفصى بن عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر.

وما دامت الأقوال كلها تتفق على أن جد خزاعة هو لُحي بن حارثة وأن لحيا هذا اسمه عمرو وابنه المسمى بربيعة هو ربيعة بن عمرو فاننا نستطيع القول بأن لحي بن حارثة بن عمرو مزيقياء هو اسم جد الخزاعيين الذي انفصل بجماعة من الأزديين كانوا مهاجرين من اليمن مع جماعة هي التي سميت بجماعة غسان، واستقرت هذه الجماعة - قرب مكة وهناك تحالفت مع فريقين من المضريين من فرع الياس بن مضر، جماعة تنحدر من أفصى بن عمرو بن قمعة، وجماعة تنحدر من ربيعة بن قمعة بن مضر، ومن هنا جاء القول بأن ربيعة بن قمعة هو نفسه لحي بن قمعة، ومن هذه الأصول الثلاثة أو النوى الثلاث تكون ذلك المجموع الكبير المسمى خزاعة. وخزاعة هذا قد يكون اسم مكان أو جبل أو طوطم أو ماء أو شجرة. وقد سبق أن رأينا أن قريشا نفسها تكونت من نواتين رئيسيتين احداهما عدنانية والثانية قضاعية، فهذه خزاعة قبيلة تتكون من ثلاث نويات.

وما دمنا قد وصلنا الى هذه النتيجة، فلنقص حكاية خزاعة كما يرويها

النسابة على اختلاف بينهم في مساق القصص فنقول إن الجماعة اليمنيـة التي انفصلت عن غسان وانضمت الى جماعات أخرى تحت اسم خزاعة استقرت الى جوار مكة حيث كان السلطان لقبيل قديم جداً في هـذا الموضـوع من العرب العاربة يسمى جرهم، وجرهم هذه هي بقية من فريق من العرب البائدة حمل نفس الاسم، ولهذا تسميها الروايات بجرهم الثانية.

وطلب آل لحي من جرهم الثانية أن تأذن لهم في الاستقرار الى جوار مكة حتى يجدوا مرعى مناسباً ينتقلون اليه، فرفضت جرهم، ودارت حرب بين الحيين انتهت بانتصار لحي بن عمرو أو ربيعة بن عمرو، وانضمت اليهم جماعات أخرى من العرب الذين كانوا تحت سلطان جرهم، فنشأ جمع جديد هو الذي أخذ اسم خزاعة. وهناك رواية تقول انه لم تحدث حرب «بين جرهم وتجمع لحي بن عمرو الذي أصبح يسمى في صورته الجديدة باسم خزاعة وأن الذي حـدث هو أن جرهم وخزاعة اتفقا دون حرب على أن تتزوج فهيرة بنت الحارث بن مضاض الجرهمي من ربيعة بن عمرو (الذي هو لحي على قول النسابة) وابنهما عمرو بن ربيعة بن عمرو ورث سدانة الكعبة، فهو عمرو بن ربيعة.

وهؤلاء الذين يقال لنا انهم ابناء عمرو انما هم أهم الوحدات القبلية التي تكون منها التجمع الجديد تحت اسم خزاعة، وكان تجمعهم عند مَرّ الظهران، ولا معنى هنا للقول بأن خزاعة اسم اشتق من التخزع بمعنى الافتراق، أي أن خزاعة قبيل انخزع عن جماعة غسان الأزديين. ودليلنا على ذلك قول ابن الكلبي: فولد عمرو بن ربيعة (يعني عمرو بن لحي) كعباً، بطن وعدياً بطن وعوفا وسعدا، فليس من المعقول أن ينجب رجل واحد اربعة رجال يصبح كل منهم بطناً وانما الأقرب الى المنطق التاريخي أن هذه البطون تجمعت وكونت حلفاً يسمى خزاعة وهذا الحلف هو الذي اخذ زعامة مكة وسدانة البيت من جرهم اما بالحرب أو سلماً عن طريق الصهر. وفي أثناء سلطان خزاعة في مكة انفصلت قريش عن كنانة وظهرت في صورة قبيل جديد متحالف مع خزاعة أو مع بني

كعب من خزاعة بتعبير أدق. وتقاربت لهجة الحيين حتى صارت لهجة عربية واحدة، ولهذا يقول ابن عباس: نزل القرآن بلغة الكعبين: كعب بن لؤي وكعب ابن عمرو بن لحي (من خزاعة). وذلك أن دارهم كانت واحدة.

الوَضع السّكاني في الحجاز قبل البعثة

وننتهي من هذا الباب بنظرة عامة على الوضع السكاني في منطقة الحجاز عندما ظهر قصي وبدأ عمله الكبير في تجميع قريش واحتلال مكة وانتزاع سدانة الكعبة فنقول إن خزاعة كانت القبيلة القوية في الميدان. وأقوى الخزاعيين كانوا بني كعب بن عمرو بن عامر بن لحي، وهؤلاء كانت مساكنهم ممتدة شمالي مكة وفي الطريق منها إلى المدينة المنورة، ثم كانت هناك بقايا كنانة وهي أم قريش وكانت منازلها ممتدة غربي مكة وربما إلى جنوبها وأقوى بطونها بنو عبد مناة بن كنانة.

وبقية الحجاز من المدينة فصاعداً حتى بلاد الشام كانت تسكنها بطون قضاعة التي تفرعت عنها وهاجرت من بلادها جنوباً بغرب إلى الحجاز أو إلى شبه جزيرة سيناء بعد تفرق قضاعة. هناك كانت تنزل جُهَينة وبَلِيّ وأسلَم وسعد هذيم، وبهراء ومهرة وما إليها، وقد مرت كنانة بمنازل هذه القبائل في طريقها إلى منازلها الجديدة قرب مكة وتأثرت بها تأثراً شديداً. فاختلطت الأنساب وتوالت المصاهرات حتى ليمكننا القول بأن كنانة كانت بسبب المصاهرات قضاعية ـ من ناحية الأمهات ـ بقدر ما كانت عدنانية من حيث الصلب أو الصليبية، والوحدات الرئيسية في هذه الفروع القضاعية هي من الشمال إلى الجنوب: بنو القَين وبَلي وجُهينة وبهراء وعَذرة. وقد تركت جانباً الكلام عن عرب منطقة المدينة حتى يجيء موضعها من هذه الدراسة.

وإلى شمال الحجاز وما يليه شرقاً أقبلت جماعات يهودية فاستقرت في مواضع عيون ماء كانت صغيرة ولكنها نمت مع الزمن بفضل من استقر فيها من اليهود وما قامت به من جهد في الزراعة والصناعة. ومن هنا نشأت مراكز

عمرانية في خيبر وأم القرى ثم في فدك إلى الشمال الشرقي من خيبر في مداخل نجد. وتقدم بعضها فاستقر في سهل المدينة، وهذه الجماعات ظلت على يهوديتها فلم تندرج في غمار الوثنية التي كانت هي ديانة القبائل الإسماعيلية المستعربة أما القبائل القضاعية فقد بدأ بعضها يدخل المسيحية منذ القرن المسيحي الثاني.

وإلى شرقي جبال السراة امتدت جماعات الإسماعيلية من فرع قيس عيلان بن مضر وسنتحدث عن أهم جماعاتها، ولكن يكفي أن نقول الآن إن الأراضي الرملية المعشبة الواقعة جنوبي صحراء النفوذ القاحلة امتدت فيها جماعات كبيرة من قيس عيلان أهمها غطفان (حول خيبر) وعَبْس وذبيان ولحيان ومحارب وأسد وهوازن (في محاذاة المسافة من المدينة إلى مكة)، وشرق هوازن وجنوبها امتدت بلاد تميم. وهذه القبائل كانت فروعاً من قيس عيلان وكلها ظلت أعراباً بسبب البيئة الصحراوية التي تميل إلى الجدب وقلة المطر في منازلها بل إن معظم ما كان ينزل من المطر كان يفيض في الرمال: هنا بلاد الأعراب أو أعاريب نجد فيما يعرف عند كتابنا باسم عوالي نجد أو العوالي. وبعض أولئك الأعراب أو الأعاريب دخلوا الحجاز من منافذ الجبال مثل بني سُليم بن منصور الذين استقروا عند معدن بني سُليم، وبنو هلال بن عامر بن صعصعة الذين جاوروا بني سليم وانتشرت جماعات قوية منهم في مواضع متباعدة من الصحراء، ومن هؤلاء الأعاريب سعد بن بكر الى الشرق من مكة، وهم من هوازن.

وهؤلاء الأعاريب أنشأوا فيما بعد علاقات حلف وصهر مع بطون من قريش ممن لم يسكنوا بطن مكة مع قصي بن كلاب، ولكنهم تأخروا وظلوا أعراباً أو أنصاف بدو يسكنون ظواهر مكة من بني الحارث ومحارب من فروع فهر، أما فرع غالب بن فهر، فهم نواة قريش وهم الذين انحدر منهم قصي بن كلاب وفروع قريش البطاح وصلبهم كعب بن لؤي وعامر بن لؤي كما سنرى.

وبلاد هؤلاء الأعارب كانت شديدة الفقر بطبيعتها، وأهلها كانوا يعيشون في فاقة وجوع دائمين تقريباً، ولهذا فهم ينظرون بعين الطمع الى جماعات المستقرين أو أنصاف المستقرين التي كانت تعيش في الحجاز من خيبر وفدك ووادي القرى حتى المدينة المنورة وفي تهامة في اقليم مكة. وهذه الجماعات كانت من أصول شتى وتكوين سكاني يختلف من موضع لموضع، فهم يهود مهاجرة من الشمال في منطقة خيبر وما يوازيها، وهي المنطقة التي تتيسر فيها الخيرات ومادة الحجاز، فقد كانت خيبر تسمى ريف الحجاز، والى هذه الجماعات اليهودية انضمت جماعات عربية قليلة وتهودت أم لم تتهود، وهي قضاعية، في المساحات الواقعة بين جنوب الشام والمدينة، ويمنية الأصول كما نجد في الأوس والخزرج أصحاب المدينة، وهم لم ينفردوا بها بل نزلت قبلهم ومعهم جماعات من قضاعة وعذرة وغفار ويهود، ثم جماعة خزاعة المتنوعة الأصل، وقاعدتها عند مر الظهران في حين أن ينبع كانت أكبر مراكز الجهنيين. ثم جماعة قريش ومن استقر معها في مكة من قضاعة وعذرة وخزاعة وبقايا جرهم. وحول مكة كانت منازل كنانة وخاصة بني عبد مناف منها، واذا سرنا الى الجنوب في تهامة بدأنا نلقى طلائع القبائل اليمنية من حد بيشة، وأول من نلقى من تلك القبائل في ذلك العصر خثعم.

والى الجنوب الشرقي من مكة نجد الطائف وهي منزل قبيلة ثقيف وأحلافها، وهي قبيلة مستقرة وان لم تفقد خصائص البداوة، وهي قبيلة قيسية يرتبط رجالها بالمكيين أشد الارتباط، وثقيف كانوا أهل زرع وضرع وزروع وأشجار وفواكه ونخل وكروم، وكانوا يتحصنون في مدينتهم الطائف على جبل وج، وهذا الجبل كان حصنهم وملاذهم. وقبل الاسلام لا نسمع كثيراً عن ثقيف ولكن أمرها ظهر بفضل الاسلام الذي قاومته طويلاً فلما دخلت فيه بدأت مواهب رجالها تظهر.

والخط الفاصل بين الحجاز وتهامة يمر شمال مكة بقليل.. والمتأمل لأحوال

هذا الجزء من الجزيرة خلال القرن الذي سبق البعثة المحمدية ـ وهو القرن الذي تم فيه بناء قريش وبلغت أوج قوتها وانتظامها ـ يشعر أن الحجاز وتهامة معاً كانا عامرين بالسكان وان لم تكن هناك كثافة سكانية، ولكننا نشعر أن كل موضع هناك مسكون وأن القبائل شديدة الاحساس بما يجري حولها، وسنرى بعد أن ندخل في العصر النبوي انه لم يكن من الممكن أن يتحرك انسان أو قبيل في أي بقعة من الحجاز وتهامة الا أحست به قبائل الموضع، والأخبار تنتقل في سرعة تستلفت النظر وكأنما أرصدت هذه القبائل ناساً يرقبون الطريق ويتحسسون الأخبار ويطيرونها.

ويشعر الانسان كذلك أن الاستقرار والأمن سائدين بصفة عامة، وذلك بفضل النظام الذي وضعته قريش وسنتحدث عنه، واذا قارنا أحوال الحجاز وتهامة بأحوال بقية الجزيرة خلال الجاهلية الثانية أحسسنا أن المستوى الحضاري أرفع مما في غيره من نواحي الجزيرة. وستزداد هذه الحقيقة اتضاحاً كلما سرنا في هذا البحث، وفيما عدا تسللات فروع صغيرة من قيس عيلان وأعاريب نجد من أمثال أسد ومحارب والهون والديش والقارة نجد أن الوضع الأمني يشبه ما كان عليه الحال في بلاد الدول القائمة، بل هناك مناطق كانت غاية في الأمن مثل منازل عذرة وهذيل شمالي مكة، ولا غرابة والحالة هذه أن نجد أن تلك القبائل قالت أعذب الشعر العربي وأرقه.

الفصل الثاني

بناء قريش
سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا ودينيًّا

تمهيد

والآن وقد تتبعنا خروج قريش من كنانة وانفرادها بوحدة قبلية قائمة بنفسها مستقلة عن كنانة، نعود الى الوراء قليلاً لكي نتتبع خط النسب المنحدر من لؤي بن غالب بن فهر. وقد سبق أن ذكرنا أن الأسماء الواردة في خط النسب - قبل قصي - هي في الغالب أسماء تجمعات قبلية اشتهرت في التاريخ بالأسماء التي تراها في خط النسب، وهذا لا يدخل أي تغيير في خط النسب، فالأسماء تظل على حالها ولكن طبيعتها هي التي تتغير، وقد سبق أن بينا أن كنانة لا يمكن أن يكون اسم رجل بل هو اسم تجمع قبلي. ونفس الشيء ينطبق على النضر بن كنانة، والنضر هذا فيما تقول النصوص اسمه قيس وكنيته أبو يخلد ويخلد اسم ابنه الثاني لا الأول، وابن يخلد يسمى بدر، وبدر هو قريش فكيف نفسر هذه الأحجية؟ ولماذا يكون لكل علم اسمان؟ وقد حللنا ذلك الاشكال بقولنا ان قيسا هو اسم الرجل وإن النضر هو اسم التجمع القبلي، وهذا لا يمنعنا من أن نقول مالك بن النضر، فيكون مالك منحدراً من التجمع القبلي والمسمى بالنضر.

ولا حاجة بنا والحالة هذه إلى أن نبحث في معنى «النضر»، فما دام علماً على تجمع قبلي أو جماع نسب فقد يكون أي شيء.

وبعد مالك بن النضر يجيء فهر بن مالك، وهنا وقد اقتربنا من منطقة التاريخ وخرجنا من منطقة الظلام إلى منطقة شبه الظل لا يستطيع المؤرخون الاستمرار في ذكر أسماء القبائل على أنها أسماء أشخاص، ففهر ليس اسم رجل مفرد ولا قريش كذلك، ولكن فهراً هو جُماع قريش في قول هشام الكلبي برواية الزبير بن بكار، هنا لا نشك في أننا أمام قبيلة انفصلت عن كنانة وفي ذلك يقول

النسابة: «ومن جاوز فهرا فليس من قريش» أي أن قريشا ظهرت الى الوجود قبيلة مستقلة أيام ظهور اسم فهر، وربما كان هو الرئيس الذي ظهر التجمع في أيامه. بعد ذلك يختفي اسم فهر وكذلك تختفي النسبة اليه في عمود النسب، فنحن لا نقول قصياً الفهري أو عبد المطلب الفهري، وانما انفردت باسم فهر جماعتا الحارث بن فهر ومحارب بن فهر، ومن هذين الفرعين ومن انضم اليهما تكونت مجموعة قريش الظواهر، وأما الذين لزمهم اسم قريش فهم أولاد لؤي بن غالب. وخاصة كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، وهذان الفرعان ومن انحدر منهما هم البطاح اي المجموعة التي تزعمها قصي وقام بها بعمله الكبير، فكأننا في الحقيقة من أيام لؤي بن غالب أمام مجموعتين انفصلتا عن كنانة وكلتاهما تنتسب الى فهر، ولكن واحدة منهما انفردت باسم قريش والنسبة إليها والأخرى احتفظت باسم فهر وانتسبت اليه، واذا نحن قلنا ان قريشا ظهرت وتميزت بنفسها من ذلك التاريخ في حين أن غالبية الكنانيين من فرع النضر أصبحوا هم الفهريين لم نجاوز الحقيقة بكثير بدليل أن الفهريين ـ رغم انضمام بعضهم الى قصي فيما بعد ودخولهم مجموعة قريش تحت اسم الظواهر ـ ظلوا بدوا يحومون حول مكة، وسنجد أن زعيماً من زعمائهم يسمى كرز بن جابر الفهري يعتدي على سرح المدينة أيام الرسول ﷺ ويطارده الرسول حتى قرب موقع بدر ولا يدركه فيعود.

ونتابع سيرنا مع الفرع الذي أصبح الآن يسمى قريشا ونقف عند غالب أوبني غالب بن فهر، فنجد أن اسم قريش يلزم ابنه فرعا منهم هو فرع بني لؤي، أما تيم الأدرم الذي يذكر على أنه ابن ـ أو فرع ـ من بني غالب فينفصل عن التيار ويقول عنه ابن قتيبة: بنو الأدرم من أعراب قريش ليس بمكة منهم أحد[١] ويقول الزبير بن بكار: «وبنو الأدرم هؤلاء هم أعراب مكة وهم من قريش الظواهر لا من قريش البطاح[٢]».

وهكذا نرى أن قريشاً في تكونها كانت تُسقط من تكوينها من الفروع ما

---

(١) المعارف، ص ٣٢ ـ والروض الأنف للسهيلي ١ / ٧١.

(٢) انظر: ابن حبيب، المحبر: ص ١٦٨.

ينفصل عنها ويرغب عن الدخول في جماعها. وتُدخِل أيضاً في حلفها ـ بل في صُلبها ـ مَن رغب في حلفها والانضمام إليها، وذلك لأن انفصالها عن كنانة وقيامَها بأمر نفسها وزعامة حلفها الجديد، كل ذلك أوقع النفور بينها وبين بعض أخواتها من فروع كنانة وأظهرُ مَثَل لذلك ما كان بينها وبين فرعين من فروع عبد مناة بن كنانة، فقد حالفت قريش بني بكر بن عبد مناة بن كنانة على بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة. لأن القبيلة في العصر الجاهلي لم تكن كياناً اجتماعياً تربط أفراده بعضهم إلى بعض روابط القرابة والدم وحدها، بل كانت تكويناً سياسياً مرناً يقوم على المصالح، فهي تضم إلى كيانها من يُحالفها وينفعها من القبائل والأفراد أو البطون، وتعادي، بل تفصل من كيانها من يضرها أو يخرج على إجماعها من أهل عَصَبَتها أنفسهم، وهي دائماً في تجمُّع وتفرُّق ثم تجمع، تحت نفس الأسماء أو تحت أسماء أخرى، وسنرى أمثلة من ذلك كله فيما يلي من تاريخ قريش.

وعلى طول تاريخ قريش يستمر العنصر القضاعي نشيطاً في كيانها، فكعب بن لؤي مثلاً أمه قضاعية، واسمها ماوية، وحيثما ورد اسم ماوية تبادر إلى الذهن أنه تحريف لمارية، كأنما أراد النسابون فيما يتعلق بتاريخ كنانة وقريش تخليص قبيلتي الرسول الكبرى وهي كنانة، والصغرى وهي قريش من كل أثر مسيحي.

وكلاب بن مرة اسمه حكيم وكنيته أبو زهرة. مرة أخرى نعود إلى الاسم المزدوج، ومن الواضح أن كلابا اسم تجمع صغير نشأ داخل قريش واستمر خط النسب أما الباقون فقد احتفظوا باسم فهر، وكأنما ثقُل على النسابة أن يجدوا في خط النسب لفظ كلاب، فقالوا إن اسم كلاب كان حكيماً أما كلاب فتسمية غلبت عليه لأنه كان كثير الصيد بالكلاب فكان إذا مر بكلابه قالوا: هذه كلاب ابن مرة فغلب عليه. وهذا تكلف لا معنى له. وأم كلاب كانت من بني الحارث ابن فهر بن مالك بن كنانة.

وقد تفرق الكثير من البطون التي تفرعت عن لؤي وانفصلت عن خط

النسب الذي ميز قريشاً عن غيرها. فإن اسم قريش انحصر كما رأينا في فرعين من لؤي هما كعب وعامر ابنا لؤي بن غالب، ومن هذين البطنين وفروعهما تكونت الكتلة الأساسية التي أيدت قُصياً وحملت اسم قريش ودخلت به مكة، واحتلت قلبها أو بطحاءها، وهؤلاء هم قريش البطاح أو الأبطحيون. أما بقية بطون لؤي فبعضها انضم إلى مجموعة بني الحارث وبني محارب المتفرعين عن مالك ـ وهي مجموعة فهر ـ وبعضها دخل في مجموعات قبلية أخرى، فبنو سامة بن لؤي أصبح اسمهم بني ناجية واستقروا بنواحي عمان[1]، وبنو خزيمة بن لؤي أصبح اسمهم بني عائذة ودخلوا في بني أبي ربيعة الشيبانيين، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أن بطون كنانة التي تفرعت عنها قريش كانت تنتقل على مهل من الشام جنوباً، وهذه القبائل لم تنتقل كلها إلى الحجاز دفعة واحدة بل كانت تسير في بطء كأنها نهر الثلج، وعلى طول الطريق كانت تنفصل عنها فروع وتستقر في مواطن جديدة وتدخل فيها فروع ويتغير اسمها بحسب ما يجد من الظروف.

ومُرَة بن كلاب يمثل مرحلة حاسمة في تاريخ قريش. وهو كما قلنا اسم تجمع، وفي هذه المرحلة تحدد تكوين صُلب قريش من فرعي كعب بن لؤي وعامر بن لؤي وما تفرع عنهما، وبدأت تظهر الوحدات الأساسية التي تكوّن منها صلب قريش وهم الذين سيصبحون أيام قصي قريش البطاح، ويدخل في جماعة قريش بنو سهم وبنو جمح فرعا هُصيص بن كعب، وهو فرع معادل لفرع مرة. وهنا أيضاً يظهر فرع عدي ـ رهط عمر بن الخطاب ـ وهم فرع صغير.

ومعظم البيوت التي تفرعت عن مُرة ستكون من عَصَبة قريش الأساسية، وهنا نلقى ثلاثة بيوت تستحق كل منها وقفة قصيرة منا، فهنا يظهر بيت يقظة بن مرة، وهو البيت الذي سيعرف فيها بعد باسم مخزوم. أما بيت

---

(١) في الأصل عند المصعب الزبيري: نزلوا بعمان بفتح العين وعدم تشديد الميم الى عمان الشام.

القَلَمّس اخي كلاب بن مرة فإنه يدعو للتأمل. ومن أغرب ما نقرأ عند المصعب الزبيري أن القلمس هذا ابن أخي سُرير بن مرة، وعلى هذا فلا بد أن يكون اسمه القلَمّس بن فلان بن مُرة بن كعب بن لؤي وهكذا إلى كنانة، ولكن المصعب الزبيري يقول إن اسم القلمس عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة، وهذا أمر محُيِّر، فليس لدينا بين أسماء أولاد كنانة أو الفروع التي تفرعت عنه ابن أو فرع يسمى الحارث، والذي لدينا هو الحارث بن فهر بن مالك بن كنانة، وهؤلاء دخلوا في مجموعة فهر دون أن يكون أصلهم في كنانة، ومن أين أتى عدي هذا وما نسبه؟ وكيف يذكر المصعب الزبيري هذا دون أن يستوقفه الأمر؟ وكيف يكون الرجل اسمه القلمس بن فلان بن مرة بن كعب ثم يقال لنا إنه عدي بن عامر وينتهي به إلى كنانة؟ ثم إن القَلَمُّس هذا لا بد أن يستوقف نظرنا لأنه فينا يقال لنا ابن أخي سرير بن مرة وهو أول من نسأ الشهور، وقد انقرض سرير وورث ونسأ الشهور بعده ابن اخيه القَلَمُّس واسمه عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة. والقلمس هذا هو الاسم الثاني لعدي، ولا يمكن أن يكون اسماً، خصوصاً إذا قيل لنا إنه ورث النسيء عن عمه سرير، والنسيء هذا هو حساب الأيام والشهور والأموال والربوات، والقرشيون كانوا أميين في غالبيتهم، فكان الذي يكتب ويحسب لهم في البيع والشراء وحساب الأيام والربوات القلمس هذا. ونظرة على هذا الاسم نرى أنه الصورة العربية للفظ Calamus اللاتيني ومعناه القلم، ومنه جاء لفظ القلم العربي وهو أداة الكتابة والحساب والنسيء. وسُرَير بن مرة، وهو عم قصي كان هو الذي يحسب لقريش، فلما مات ورث العمل عنه ابن أخيه: عَدِي صاحب القلمس والقلمس الكاتب بالقلم. ومن هنا فليس من الضروري أن يكون ابن أخيه لحاً، وإنما ابن أخيه في صنعة الكتابة والحساب والنسيء. وفي أيام قصي بن كلاب بن مرة وبعد أن تستقر قريش في مكة وتنتظم أمورها وتزدهر تجارتها ستزداد الحاجة إلى النُسَأة القلامس، أي أصحاب الأقلام، وسيكون لهم دور كبير نعرفه جميعاً فهم الصيارفة الكَتَبة الحَسَبَةُ المرابون.

قصي بن كلاب والبناء العسكري والسياسي لقريش
اخبار قصي حتى توليه زعامة قريش

وأخيراً نصل إلى قصي بن كلاب وهو دون شك شخصية تاريخية واضحة المعالم.

ومعه نخرج من ضباب الأساطير والقصص الشعبي إلى حقائق التاريخ. وليس من العسير أن نستبعد القصص الشعبي ونركز كلامنا على الشخصية التاريخية وما قامت به من دور تاريخي.

فالروايات التي بين أيدينا تقول أن قصياً ليس اسمه الحقيقي وإنما اسمه زيد، وإن أباه كلاباً، أنجب ولدين: زيداً هذا وزُهرة. وقصي كان الولد الأكبر ويليه زُهرة - وهو هنا اسم رجل أو قد يكون اسم البيت، وزهرة نفسه غير معروف لنا مما يوحي فعلاً بأنه اسم بيت، ولكن معظم أفراد بيت زُهرة معروفون لنا وهو على الجملة بيت سيكون دائماً حليفاً لبيت قصي قبل الإسلام، أما بعده فإن بني زهرة كانوا - إلا فيما يتعلق بعبد يغوث بن وهب بن عبد مناف ابن زهرة وابنه الأسود بن عبد يغوث - من أكابر بيوت الإسلام في عهد النبي ﷺ وبعده. ويكفي أن منهم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة أم الرسول ﷺ وهالة بنت وُهيب بن عبد مناف وقد تزوجها عبد المطلب بن هاشم في نفس الوقت الذي تزوجت فيه آمنة بنت وهب عبدَ الله، وأنجبت هالة حمزة بن عبد المطلب عم الرسول وصاحبه، بطل الإسلام المشهور.

ويبدو أن قصياً سمي بهذا الإسم من مولده، ولا داعي للقول بأنه سُمي كذلك لأنه تربى قصِياً أي بعيداً عند آل أمه وهم من قضاعة، أما اسم زيد فلا معنى له في الحقيقة، فعمرو وزيد وامرؤ كلها ألفاظ بمعنى شخص أو رجل والنحويون أنفسهم استعملوا لفظي زيد وعمرو في أمثلتهم النحوية، فهم يقولون ضرب زيد عَمْراً يريدون ضرب رجل رجلاً، وما الذي كان يحُوجهم

إلى اختيار اسم عمرو هنا ليكون مضرب المثل مع صعوبة رسمه في حالة النصب مثلاً. ولكن الذي يعنينا أكثر هنا هو ما تقوله الروايات من أن قصياً تربى في منازل فرع من فروع قضاعة هو فرع بني عذرة بن سعد هُذَيم المشهورين في عالم الشعر وإليهم ينسب الشعر العُذْري، ومنهم جَميل بن مَعْمَر صاحب بثينة، وهذه حقيقة تهمنا هنا فلنقف عندها بعض الوقت.

فإن القصة تقول إن كلاب بن مُرة والد قصي تزوج فاطمة بنت سعد بن سيل وهو خير بن حمالة بن عوف بن عثمان بن عامر (وهو الجادر) بن جُعثُمة وهو يشكر من الأزد، فولدت له زيداً وزُهرة، ثم توفي عنها فتزوجت فاطمة - أم قصي - ربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد كبير بن عذرة بن سعد (هذيم) بن سعد بن زيد بن قضاعة. وهذا هو كلام السُهيلي[1].

وعلى الرغم من أن بعض أئمة مؤرخينا مثل الطبري وابن الأثير وابن عبد البر رووا هذه الحكاية وعدَّلوا بعض الشيء في سياق نسب قصي إلا أننا لابد أن نقرر أن القصة كلها لا تستقيم، وكلاب تزوج فاطمة القضاعية ومات عنها مُخلِفاً ابنيه قُصياً وزهرة فتزوجت الأرملة رجلاً من بني عذرة القضاعيين، وكل هذا التعقيد لجأ إليه المؤرخون وأقروه ليبرروا تسمية قصي بأنه البعيد. أو الذي تربى بعيداً عن أهله قريش.

وأصحاب هذه القصة يفترضون أن كلاباً كان في مكة وأن قصياً ولد ونشأ بعيداً عنها مع أن قريشاً لم تدخل مكة إلا على يدي قصي، وقريش في أيام كلاب كانت قد وصلت في تنقلها في الحجاز إلى قريب من منازل بني سعد هذيم من قضاعة غير بعيد عن مكة.

والذي أوقع أولئك المؤرخين في هذا الخطأ هو قولهم إن فاطمة أم قصي ازدية لأنها بنت سعد بن سيل - واسم سيل في قولهم حمالة بن عوف بن عثمان

(١) السهيلي، الروض الأنف ١ / ٨٤، وانظر ابن الأثير ٢ / ٨، والطبري في أخبار قصي.

ابن عامر (وهو الجادر) بن جعثمة وهو يشكر من الأزد في قولهم، فإذا رجعنا إلى شجرة النسب وجدنا أن بني عذرة أصلهم من قضاعة، فهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن إلحاف بن قضاعة ووجدنا أن عذرة نشأت عنها ثلاثة بطون: عامر وكبير ورفاعة بنو عذرة، وهذه البطون كلها دخلت أي امتزجت ببني يَشكُر الأزديين: يقول ابن حزم: «فمن بطون بني كبير بن عذرة بنو رِزاح بن ربيعة بن حَرام بن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة، ورِزاح هذا هو أخو قصي بن كلاب لأمه»[1] لأن فاطمة أم قصي بعد وفاة زوجها تزوجت ربيعة ابن حرام بن ضنة فولدت منه رزاحاً فكان رزاح أخا لقصي لأمه، ويورد لنا ابن حزم بعد ذلك عبارة في الغاية من الأهمية بالنسبة لقصي وبنائه قريش، قال: «ومن بطون بني كبير بن عذرة بنو رزاح بن ربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة، ورزاح هذا هو أخو قصي بن كلاب لأمه، وهو الذي نصر قصي ابن كلاب على بني بكر بن عبد مناة، وهو الذي أخرج بني نهد وبني جَرْم وبني حَوْتكة من بلاد قضاعة، وهو الذي أخرج أيضاً بني عمه رِفاعة بن عذرة من جُملة بلاد بني عذرة، وبنو حُن بن ربيعة أخي رزاح بن ربيعة لأبيه وأمه وهما من قبيلة عُذْرة فبنو حُن هؤلاء أخوال قصي وهم عذريون قضاعيون ومنهم جَميل بن عبدالله بن مَعْمَر الشاعر وصاحبته بثينة أيضاً.

وهذا الكلام كله يعطينا حقائق جديدة عن أوليات قصي، فإن قُصياً نشأ في بلاد أمه فاطمة العذرية القضاعية، ولا بد أن بلاد بني عذرة في ذلك الحين لم تكن بعيدة عن مكة، فهم أبناء عم جهينة القضاعيين، وبنو جُهينة كانت منازلهم تصل إلى ذي خُشُب، وعندما كبر قصي واشتد عوده وجمع قومه بني كعب وبني عامر أولاد لؤي الذين استمر فيهم اسم قريش دخل في صراع مع بني بكر بن عبد مناة الذين كانوا يمثلون كتلة كنانة، فنصره أخوه لأمه رزاح بن ربيعة العذري القضاعي وانضم بقومه إلى قريش وحارب الاثنان معاً بعض

---

(١) ابن حزم، الجمهرة ص ٤٤٨.

بطون قضاعة مثل بني نهد وبني جَرَم وبني حوتكة ثم بني رفاعة وأخرجوهم من بلاد عذرة وتوسع قصي وقومه وحليفه حرام بن ربيعة بن جرم بن ضنة في أرض بني عبد مناة بن كنانة بعد أن انتصرا عليهم وازداد مركزه ومركز قريش ثباتاً.

لا معنى إذن للقول بأن قُصياً سمي بذلك الاسم لأنه نشأ وتربى قَصِيّا عن قومه. قصياً عن ماذا؟ حقاً إنه نشأ وتربى فعلاً في بلاد أمه العذرية ولكن عندما اشتد عوده وتنازع مع بقية كنانة استعان بأخيه لأمه وقومه القضاعيين على بني بكر بن عبد مناة بن كنانة، واستقر بقومه في موضع قريب من مكة ثم أخرج بعض بطون عذرة من مواطنها أثناء هذا الصراع الذي خاضه قصي لكي يبني جاه قبيلته قريش ويسلخها نهائياً من بدن أمها كنانة، ومن أمثلة قصور مؤرخينا قولهم إن قصياً سمي بذلك لأنه كان قاصياً عن مواطن أهله. قال النويري ناقلاً عن الرُشاطي ـ وهو من فقهاء الأندلس ـ أن قُصياً وقع بينه وبين أخيه ربيعة خلاف فعيره بالغربة، وهم يفترضون أن أهله كانوا يسكنون مكة مع أنهم لم يدخلوها إلا على يد قصي! فلما قال ذلك لأمه قالت له: يا بني، أنت أكرم منه نفساً وأباً. أنت ابن كلاب بن مرة وقومك بمكة عند البيت الحرام، فاجمع قصي على الخروج، فقالت له أمه: أقم حتى يدخل الشهر الحرام، فتخرج في حاج العرب، فلما دخل الشهر الحرام خرج مع حاج قضاعة إلى مكة، فحج وأقام بمكة[1]. وهذه غفلة من الرُشاطي والنويري، فإن قصياً وآله لم يستقروا في مكة إلا على يد قصي نفسه. وعندما كان قصي صغيراً كان يعيش في منازل قبيلته قريش إلى الشمال من مكة مجاورين لمنازل أبناء عمومتهم العذريين القضاعيين. ونلاحظ هنا أن النص يقول إن قُصياً خرج مع ركب حجاج قضاعة مما يدلنا على أن الصلة كانت وثيقة بين فروع قريش التي انتسب إليه قصي وفروع قضاعة.

---

(١) النويري: نهاية الأرب ١٦/ ٢١.

وندع هذه الأقاصيص كلها لنقول إن قُصياً بن كلاب ولد ونشأ في المنازل التي وصل إليها فرع كنانة الذي أصبح يسمى قريشاً في رحلته الطويلة من بلاد قضاعة جنوبي الشام إلى الحجاز. وكانت منازل قريش هذه وهي بطون كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد حالفت بعض بطون بني عُذرة من قضاعة مثل ضنّة قبيلة أخيه لأمه حرام بن ربيعة بن ضنة، وتمكن الاثنان من اخراج بعض بطون قضاعة من منازلها ليتوسعا فيها، وفي هذا الوقت انفصل قصي بن كلاب بقومه قريش عن كنانة وتوسع كذلك في أراضي بني عبد مناة ابن كنانة، واقترب بقومه من مكة.

الصّراع بين قصيّ وخزاعة:

في ذلك الحين كانت خزاعة سيدة مكة، وقد سبق أن ذكرنا أن الخزاعيين تفرعوا فيما يقول الرواة عن أزد شنوءة أو أزد السَراة، وأن أصلهم من اليمن، وقد رأينا في الفقرة التي ادرناها على خزاعة أننا لا نستطيع أن نقطع بهذا الأصل اليمني لخزاعة ولا نستطيع أن ننفيه أيضاً. والذي يهمنا على أي حال هنا ليس أصل خزاعة وإنما هو أمر سيطرتها على مكة، فقد غلبت الجرهميين عليها وأخرجتهم منها. وسواء أكان استيلاء خزاعة على مكة قد تم بعد حرب أم تم سلماً باتفاق الحيين فإن النصوص تذكر أن رئيس خزاعة وهو ربيعة بن حارثة تزوج فُهيرة بنت الحارث بن مضاض الجرهمي .وأنجب منها ولداً يسمي عمرو بن ربيعة وهو لُحَي بن قمعة بن مضر بن نزار على رأي أو ابن حارثة بن عمرو مزيقياء على رأي ثان أو عامر بن قمعة على رأي ثالث[1]، وكان ذلك قبل دخول خزاعة مكة وقد أصبح لعمرو بن عامر بن ربيعة (أي لُحَي) الحق في أن يرث مفاتيح الكعبة من بيت الحارث بن مضاض الجرهمي، ويبدو أن الحارث هذا لم ينجب من الأولاد إلا فُهيرة هذه، وإلا

(١) انظر جدول أنساب خزاعة والفقرة التي أدرناها على خزاعة في الفصل الأول.

فكيف صار إلى زوجها مفتاح الكعبة؟ وتقول النصوص إن جُرْهم كانت قد طغت وبغت. فأبادها الله سبحانه. وهذا طبعاً قصص فإن الله لا يعذب قوماً أو يبيدهم بآثامهم ما لم يبعث رسولاً، وذلك بنص القرآن ولم نسمع عن رسول أرسل إلى جرهم فعصته فحق عليها العذاب، ولكن الحقيقة المنطقية التي يقبلها المؤرخ هي أن الخزاعيين قضوا على الجرهميين بعد أن انتزعوا منهم مكة. ولا نستطيع القول إن جرهم بادت تماماً كما يقول الرواة، إنما المعقول أنها غُلبت على أمرها وحلت محلها خزاعة، وذابت بقايا الجُرهميين في الغالبين من خزاعة وأحلافهم، وليس من الصواب أن نركز على أهمية مفتاح الكعبة وسدانتها من الآن. لأن الحقيقة أن أهمية الكعبة وتنظيم العبادات حولها والحج المنظم إليها كل ذلك تم على يد قصي بن كلاب نفسه وخلفائه حتى عبدالمطلب بن هاشم كما سنرى. والغالب أن الكعبة كانت اذ ذاك بناء غير مسقوف يحيط بالحجر الأسود. وكان بعض العرب يحجون إلى الكعبة وهي في صورتها هذه، ومن استولى على مكة كان عليه أن يُعنى ببكة وهي الموضع الذي تقوم الكعبة والحجر الأسود في وسطه، وسنتحدث عن الكعبة والحجر الأسود فيما بعد.

وهناك رواية يرويها الزبير بن بكار تقول إن ولاية البيت قبل خزاعة كانت لمضر بن إياد. والزبير بن بكار من القائلين بأن خزاعة ترجع في نسبها إلى إياد بن مضر عن طريق عك بن معد بن عدنان. وهذه الرواية تقول إن أصحاب مكة الأولين كانوا من إياد بن نزار بن معد بن عدنان. ثم نازع إياداً مضر ابن أخيه نزار وغُلِبت إياد، ورضيت إياد أن تخرج من مكة شريطة أن نساء مضر المتزوجات من إياديين لهن الحق في أن يلحقن بمضر إذا أردن، ومن بين المضريات اللائي عُدن لمضر امرأة من خزاعة تسمى قُدامة وكانت إياد قبل مغادرتها مكة قد دفنت الحجر الأسود في موضع أخفته عن الناس قبل رحيلها لأنها لم تستطع حمله معها وكانت قُدامة الخزاعية تعرف موضع الحجر، فأبلغت به قومها وقالت لهم: قولوا لمضر إننا ندلهم على موضع الحجر إذا هم تركوا لنا ـ

أي للخزاعيين ـ سدانة البيت ووافق المضريون، وهكذا احتفظت خزاعة بسدانة البيت حتى دخول قصي مكة(1). وهناك رواية ثالثة تقول: إن الذين أخرجوا خزاعة من مكة كانوا بني عبد مناة بن كنانة وبني غُبشان الخزاعيين.

قصيّ يستولي على مكّة:

وصل قصي بقومه قريش إذن إلى قرب مكة متحالفاً مع بعض بطون بني عذرة القضاعيين ومعادياً لبني عبد مناة بن كنانة. وكان قُصي رجلاً طموحاً تنبه إلى أهمية مكة والحرم فيها، فاستقر رأيه على أن ينتزع مكة وبكة والبيت والحجر من خزاعة. وتذهب النصوص إلى أن خزاعة هي التي أفسدت ملة ابراهيم وأدخلت عبادة الأوثان إلى مكة، ويقولون إن عمرو بن ربيعة الخزاعي وهو لُحَي، هو الذي أتى بهُبَل ووضعه في الكعبة. ولكن هناك كذلك من يقولون إن الذي أتى بهبل كان خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وربما كانت هذه الرواية الأخيرة أقرب إلى القبول. لأن هُبَل إله أصله فينيقي (إلهُ بعل) وما دامت كنانة قد أتت من الشام في جملة من أتى من أولاد مَعَد بن عدنان فتكون هي التي أتت معها بهذا المعبود الوثني. ويؤيد ذلك أن ابن الكلبي يقول إن هُبَلا كان يسمى هبل خزيمة، أما عمرو بن عامر بن ربيعة الخزاعي وهو لُحَي فالغالب أنه أتى من الجنوب، ربما من اليمن أو من داخل الجزيرة حيث لا وجود لإله اسمه منسوب إلى بعل الفينيقي.

وتمكن قصي بمن اجتمع له من قريش وهم أبناء كعب وعامر بن لؤي بن غالب ومن انضم إليه من قوم أخيه رزاح بن ربيعة العذري من احتلال مكة

(1) الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام جـ ٢/ ص ٢٦. وما يليها؛ وتاريخ اليعقوبي ١/٢٣٨.
ـ محمد بن حبيب النسابة، المنمق في تاريخ قريش بتحقيق خورشيد أحمد فاروق حيدر أباد الدكن ١٩٦٤ ص ٣٤٤.
ـ القضاعي، سِمْط النجوم العوالي. القاهرة ١٣٨٠ هـ جـ ١/١٨٣.

واخراج خزاعة منها، ودخلت بطون كعب وعامر مكة واستقرت بداخلها أي ببطحائها. فسموا الأبطحيون، وانضم إليهم من حالفهم ودخل معهم من بني عذرة القضاعيين. وبطون كعب وعامر بن لؤي كانت إذ ذاك كثيرة، فهي تشمل بني مرة وبني هُصَيص وبني عَدي أبناء كعب بن لؤي، وبني كلاب بن مرة (رهط قصي) بني سُرير وبني القلمس وبني تيم بن مرة وبني يقظة بن مرة وهم مخزوم.

ويضاف إليهم بنو زهرة بن كلاب أبناء عم قصي بن كلاب. وأراد قصي أن يُكَثِّر جَمْعه فاستدعى إلى مكة بني فهر بن مالك بن النضر، وهم فروع فهر ابن مالك بن النضر التي احتفظت باسم فهر وهم:

بنو الحارث وبنو محارب بن فهر وفروعهم.

وبنو محارب وبنو الحارث هم أبناء فهر بن مالك بن النضر.

وبنو تيم بن غالب وهو تيم الأدرم. وبنو خزيمة وبنو سعد وهم بُنانة، وبنو الحارث بن لؤي.

وهؤلاء هم قريش الظواهر الذين يطلق عليهم في مجموعهم اسم فهر.

وقد نزل هؤلاء حول مكة وظلوا بدواً في مجموعهم وإن كانوا حلفاء لقريش وجزءاً منها. فالفهريون جميعاً قرشيون، ولكن القرشيين ليسوا فهريين إلّا من ناحية انحدارهم من فهر بن مالك. ولكن هذا الفريق من بني النضر بن خزيمة بدأ انفصاله بنسبه وتسميته بقريش من أيام النضر بنفسه وإن كان الانفصال قد حدث في أيام فهر بن مالك. ولزم اسم قريش لؤي بن غالب وخاصة فرعاه كعب وعامر.

ويبدو أن الحرب بين قصي ومن معه من قريش، ومن بني عُذرة القضاعيين من ناحية والخزاعيين من ناحية اخرى كانت ـ طويلة عنيفة، قال اليعقوبي: فاقتتلوا قتالاً شديداً بالأبطح (أي ببطحاء مكة) حتى كثرت القتلى في

الفريقين ثم تداعوا الى الصلح، وأن يَحْكُم بينهم رجل من العرب فيما اختلفوا فيه، فحكَّموا يعمر بن كعب بن ليث بن بكر بن كنانة فقضى بينهم بأن قصياً أولى بالبيت وأمْر مكة من خزاعة، وأنَّ كلَّ دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع يَشْدخه تحت قدميه، وإن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش ففيه الدية، فودوا خمساً وعشرين بَدَنة وثلاثين خرجاً[1]. وان يُخَلُّوا ما بين قصي والبيت ومكة، فسمي يَعْمُر الشداخ[2].

وهذا حكم في غاية القسوة على خزاعة، مما يدل على أنها غُلِبت في الحرب فكان عليها أن تترك مكة وتتحمل الغُرْم كله. والغريب أن يصدر هذا الحكم من كناني من بني كعب بن ليث بن بكر بن خزاعة، لأننا سنرى بعد، أن بني كعب كانوا من ألد أعداء بني هاشم بن عبد مناف وهم قادة قريش.

وكان قصي رجل سياسة وحرب، فعرف بعد انتصاره كيف يستفيد منه فاحتل مكة بقومه واتخذها منزلاً وكان الخزاعيون ومَنْ قَبْلَهم لا يسكنون مكة بل يكونون فيها بالنهار فقط، أما في الليل فيكونون في خيامهم. قال اليعقوبي: «ولم يكن بمكة بيت (كذا في الأصل، والأصح: مبيت)، وإنما كانوا يكونون بها نهاراً. فإذا أمسوا خرجوا، فلما جمع قصي قريشاً ـ وكان أدهى من رؤي ـ من العرب ـ أنزل قريشاً الحَرم، وجَمَعهم ليلاً، وأصبح بهم حول الكعبة فمشت إليه أشراف كنانة وقالوا: إن هذا عظيم عند العرب ولو تركناك ما تَركتك العرب، فقال: والله ما أُخرج منه فثبت[3]».

ومعنى هذه الرواية ـ إذا صدقت ـ أن قصياً وقومه كانوا أول من اتخذَ بكة ومكة من حولها سكناً ومقاماً، وليس ذلك بمُستغرب لأن المكان لم يكن به من عيون الماء شيء، وقُصي كما سنرى أوتي ملكة التعرف على مواقع الآبار،

---

(١) في الأصل: حرجاً وهو تصحيف والأصح: خرج كما أثبتناه ويراد به وعاء يوضع فيه الطعام.
(٢) اليعقوبي: تاريخ ٢٣٨/١.
(٣) اليعقوبي، تاريخ: ٢٣٨/١ ـ ٢٣٩.

وهي ملكة توجد في بعض الناس، وخاصة أهل المناطق الجافة. وسنرى أن قصياً كشف مواقع آبار في موضع مكة، ولكن حفيده عبد المطلب سيكون أكبر منه ملكة في هذا الشأن فيكشف موقع زمزم وغيرها، وجدير بالذكر هنا أن التعرف على مواضع الماء كان من الصفات التي تؤهل الرجل ليسود قومه إذا كان من طلاب السيادة ـ والرياسة ثم يقول اليعقوبي: ونحن نتابع هنا روايته لأنها مختصرة جامعة للكثير مما يتفرق في المطولات ـ وحضر الحج، فقال لقريش: لقد حضر الحج، وقد سَمِعَت العرب ما صنعتم و هم لكم معظمون ولا أعلم مَكرَمة عند العرب أعظم من الطعام فليخرج كل رجل من ماله خرجاً، ففعلوا، فجمع من ذلك شيئاً كثيراً. فلما جاء أوائل الحج نحر على كل طريق من طرق مكة[1] جَزورا، ونحر بمكة، وجعل حظيرة، فجعل فيها الطعام من الخبز واللحم، وسقى الماء واللبن، وغدا على البيت فجعل له مفتاحاً وحَجَبه وحال بين خزاعة وبينه، فثبت البيت في يد قصي ثم بنى داره بمكة وهي أول دار بنيت بمكة، وهي دار الندوة»[2].

وهذه العبارة حافلة بالمعاني، وهي تصور لنا الخطوات الكبيرة الحاسمة التي قام بها هذا الرجل الطموح البعيد النظر لبناء مجد قريش وعمران مكة، فقد كان موضع مكة غير مسكون أو مسكوناً بقليل من الناس، فعمَّره قصي بقومه ولا شك في أنه كان هناك بعض السكان في الموضع، ولكن قصة هاجر بعد ميلاد ابنها اسماعيل هناك تدل على أن الموضع كان شبه مهجور، وأن الناس كانوا لا يُلمون به إلاّ نهاراً للتبرك بالحجر الأسود وكانوا لا يلمون به كل يوم بل في بعض الأيام بدليل أن هاجر عندما سعت بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء لابنها اسماعيل لم تجد انساناً يهب لعونها. وفي أول الأمر كانت بئر زمزم معروفة ولكننا سنرى في تاريخ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي

(١) المراد على كل طريق من الطرق المؤدية إلى مكة.
(٢) اليعقوبي، تاريخ: ١/ ٢٣٩.

أن الجرهميين طَمُّوا البئر قبل خروجهم. ويفهم من قولهم أن قصياً أطعم الطعام وسقى الماء للحجاج أنه وجد مواضع للآبار. وكانت فكرته في تقديم الطعام للحاج فكرة ذكية اجتذبت الناس للحج إلى البيت ببكة ومكة وسنرى بعد قليل أن حاج البيت عندما يَكْثرون سيقوم قصي بهدم بنائه القديم وبناء مبنى جديد. وعندما تمكن قصي من مكة حال بين خزاعة ودخولها إلا بإذنه وإذن قريش وبنى لنفسه فيها داراً وأنشأ دار الندوة لكي يتشاور فيها مع قومه فيما أهمهم من الأمور وسنرى عند كلامنا على الأحابيش أن عبد مناف بن قصي سيخطو خطوة أخرى كبيرة لتدعيم مركز قريش في مكة.

ويفهم من رواية اليعقوبي أن قصياً بعد أن تمكن من أمر مكة اتجه إلى استئلاف خزاعة التي اتخذت مساكنها شمالي مكة وأخذت تمتد على الطريق منها إلى المدينة فتزوج حُبَّى بنت حُلَيل بن حُبْشية سيد خزاعة، فكان هذا أول الارتباط بين قريش وخزاعة بعد الذي كان بينهم من الحرب. وقبل أن يموت حُلَيل أقر لقصي برياسة مكة وحجابة البيت، وحُبّى انجبت لقصي أبناءه الأربعة الكبار عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبد قصي.

ولبعض المؤرخين رواية أخرى قصصية الطابع، نذكرها هنا لمجرد الإحاطة بها لا لأننا نفضلها على الرواية التاريخية التي نُتابعها الآن. وقد أوردها اليعقوبي أيضاً وقال: إن قصياً لما تزوج حُبَّى بنت حُليّل بن حُبْشيه الخزاعي وولدت له أولاده الأربعة الذين ذكرناهم «دفع حُلَيّل بن حبشية المفتاح إلى أبي غبشان وهو سليمان بن عمرو بن بوَى بن ملكان بن أفصى بن حارثة بن عمرو ابن عامر الخزاعي فاشتراه قُصي منه وولاية البيت بزق وقعود (ناقة عجوز) فقيل: أخسر (أو أخس) من صفقة أبي غبشان، ووثبت خزاعة فقالت: لا نرضى بما صنع أبو غُبشان، فوقعت بينهم الحرب، فقال بعضهم:

أبو غبشان أظلم من قصي   وأظلم من بني فهرٍ خزاعة

فـلا تُـلْحـوا قـصـيـاً في شـراه ولـوموا شيخكم إذ كـان بـاعـه[1]

ويوجز اليعقوبي بعد ذلك أهم أعمال قُصي، وسنوجزها فيما يلي من كلامه

١ ـ أن قُصياً ساد مكة وحكمها وتـولى أمر البـطون التي أيدتـه وأنزلهـا في بطن مكة أو بطحائها فعرفت هذه البطون بالابطحيين أو قريش البطاح، وكانوا متعرقين في رؤوس الجبال، فقسم بطن مكة على تلك البطون أرباعاً، ولهذا سمي قصي بالمُجَمِّع. وقريش البطاح كما قلنا هي بطون كنانة التي استمر فيها نسب قريش ومعظمها بطون كعب بن لؤي وأهمها هنا:

١ ـ كعب بن لؤي

٢ ـ عامر بن لؤي

٣ ـ مرة بن كعب

٤ ـ هُصَيْص بن كعب بفرعيهم:

٥ ـ سهم بن هُصَيْص

٦ ـ وجمح بن هُصَيْص

٧ ـ تَيْم بن مُرة

٨ ـ يقظة بن مرة، وهم مخزوم

البطون والبيوت التي انحدرت من قصي وهي:

٩ ـ بنو عبد مناف بن قصي

١٠ ـ بنو عبد الدار بن قصي

١١ ـ بنو عبد العزى بن قصي

١٢ ـ بنو عبد بن قصي

١٣ ـ ثم بنو زُهرة بن قصي ومن تفرع عنهم وهم:

١٤ ـ بنو عبد الحارث بن زهرة

---

(١) اليعقوبي، تاريخ: ١/٢٤٠.

١٥ ـ بنو عبد مناف بن زهرة بفرعيهم: وهب بن عبد منـاف بن زهرة، ووهب بن عبد بنو مناف بن زهرة.

ومن عبد مناف بن قريش يتفرع:

١٦ ـ بنو هاشم بن عبد مناف
١٧ ـ بنو المطلب بن عبد مناف
١٨ ـ بنو عبد شمس بن عبد مناف
١٩ ـ بنو نوفل بن عبد مناف

وفي أيـام قُصي اقتصـرت قـريش البـطاح عـلى البـطون من ١ إلى ١٩ وانضمت إلى قـريش البطاح بيـوت بني ضِنَّة من بني عـذرة وهم قوم حـرام بن ربيعة بن ضِنَّة أخي قصي لأمه.

ولكن هؤلاء ذابوا في جماعة قريش البطاح، ولا بد أنـه اندرج في قـريش البطاح مَن بقي في مكة من جُرهم ومن خزاعة، وسنرى فيما بعد أن بقايا قـوية من هؤلاء وأولئك ظلوا أقوياء في مكة وسيكون لهم دور في تاريخ قريش ومكة.

وعلى نداء قصي أقبلت بقيـة فروع كنـانة التي انحـدرت عن فهر وظلت تحمل النسبة الفهرية وهؤلاء هم:

١ ـ بنو محارب بن فهر
٢ ـ بنو الحارث بن فهر
٣ ـ بنو تيم بن غالب وهو تيم الأدرم
٤ ـ بعض بني عامر بن لؤي

وهؤلاء هم قريش الظواهـر، وقد ظلوا بـدواً في حين أن قـريش البطاح أصبحوا أنصاف بدو أو أنصاف حضر Semi-Sedentaries مع الزمن.

٢ ـ أن قُصياً بعد أن استقر بقومه من قريش البـطاح ببطن مكـة. بنى لنفسه في

بطن مكة بيتاً وتبعه بقية بيوت قـريش البطاح فبنـوا البيوت فـانتهى بذلـك عصر البداوة في تاريخهم.

وكان بطن مكة كثير الشجر القصير مثـل العضاة والـطَّرفاء والأذخـر، وكـان الناس يتحـاشون قـطعه، فبـدأ قُصي فقطع الشجـر بيده، وتبعـه الناس فاتسع العمران بمكة. قال اليعقوبي: وكانت قريش قبلُ متفرقةَ الدار قليلةَ العز ذليلَة البقاع، حتى جمع الله ألفتها وأكرم دارها وأعز مثواها وقسمها بين قريش.

٣ ـ فلما استقر السلطان لقصي في مكة، واستقـامت له الأمـور ونفى خزاعـة، هدم البيت، ثم بناه بنيـانا لم يبنـه أحد قبله. وكـان طول جـدرانه تسعـة أذرع، فجعله ثمانية عشر ذراعاً، وسَقفها بخشب الدُّوم وجريد النخل.

٤ ـ وبنى دار الندوة. وكان لا ينكِـح رجل من قـريش ولا يتشاورون في أمـر، ولا يعقدون لِواء للحرب، ولا يُعَذِّرون غلاماً إلا في دار الندوة.

٥ ـ وكانت قريش في حياته وبعد وفاته، يرون أمره كالدين المتبع.

٦ ـ وكان أول من حفر بمكة بعد اسماعيل بن ابـراهيم، فحُفر «العجـول» في أيام حياته وبعد وفاته، ويقال إنها في دار أم هاني بنت أبي طالب.

٧ ـ وكان قصي أول من سمى الدابة الفرس. وكانت له دابة يقال لهـا العقاب بالسوداء.

٨ ـ وكان لقصي من الولد:

عبد مناف، وكان يدعى القَمَر أو هو السيد الفُهر. واسمه المغيرة.

وعبد الدار

وعبد العزى

وعبد قصي

ويقال إن قصياً قال: سَمَّيْتُ اثنين بإلهي، وآخر بداري وآخر بنفسي.

٩ ـ وقسم قصي بين ولده:

فجعل السقاية والرئاسة لعبد مناف

والدار لعبد الدار

والرفادة لعبد العزى

وحافتي الوادي لعبد قصي

١٠ ـ وقال قصي لولده: من عظَّم لئيماً شاركه في لؤمه، ومن استحسن مستقبحاً شركه فيه، ومن لم تصلحه كرامتكم فداووه بهوانه، فالدواء يحسم الداء.

١١ ـ ومات قصي فدفن بالحجون[1].

وقد أتيت هنا برواية اليعقوبي عن أعمال قصي، لأنها تجمع أهم أعماله في إيجاز وسأضيف عند دراسة هذا النص أهم ما نجد في مراجعنا الأخرى.

والحق أن الأعمال التي قام بها قُصي هي الأساس الذي قام عليه مجد قريش ومكة بعد ذلك، فقد كان قائداً عسكرياً وسياسياً ومفكراً بعيد الغور، وكان إلى جانب ذلك يتميز بميزة اكتشاف مواضع الأبار، وكان رجل تنظيم وإدارة.

وقد أشرنا إلى أن قصياً استعان ببعض بطون قضاعة، وخاصة من بني عذرة على ما طلب من الاستيلاء على مكة، والطبري يؤيد ذلك ولكنه يقول هنا إن قصياً عندما أراد دخول مكة دخلها ببني النضر جميعاً وأحياء من قضاعة (هم من بني عذرة) والذي نعرفه أن الذين دخلوا مع قصي كانوا القرشيين من بني النضر، أما الفهريون فقد أتوا بعد ذلك وأصبحوا قريش الظواهر. ويكرر

---

(١) اليعقوبي، تاريخ: ١/٢٤٠ ـ ٢٤١.
وانظر نص الطبري: ٢/٢٥٤ وما يليها.

الطبري حكاية بيع أبي غبشان لمفتاح الكعبة وهو سليم بن عمرو بن بُوي بن ملكان بن أفصى بن عامر بن أفصى بن قمعة بن الياس بن مضر. وسنرى في كلامنا على خزاعة أن أبا غبشان خزاعي، فالقول بأنه من بني أفصى ربط مفتعل لخزاعة إلى شجرة نسب الياس بن مضر، وهي الشجرة التي انحدرت منها قريش. والحقيقة أن خزاعة مركبة الأصل كما رأينا، وعامة النسابين يجعلونها من اليمن وواضح أن حكاية بيع أبي غبشان مفتاح البيت بزق خمر وقَعُود، رواية فيها ازراء بخزاعة واظهار لامتياز قريش عليها. ويردد الطبري ذلك البيت الذي نجده في كل المراجع في تسمية قصي بالمُجَمّع:

أبوكم قصي كان يُدْعى مُجَمِّعاً   به جمع الله القبائل من فهر

والمراد بفهر هنا بقية بطون قريش من غير أبناء لؤي بن غالب.

ويذكر الطبري هنا حكاية قبيلة صوفة التي كانت تشرف على مناسك الحج وتسيء معاملة الحجيج. وحكاية صوفة هذه كلها أسطورة، لأن صوفة فيما يقول النسابة هم بنو مُرّ بن أُد بن طابخة، وطابخة هو مر بن أُد بن الياس ابن مضر، ومن بني مر بن أُد قبائل كثيرة منها تميم، ولا ندري ما الذي أتى بطابخة أي مر بن أُد بن الياس بن مضر هنا، مع أن المضرية لم يعرفوا مكة إلا على يد قصي - من أبناء النضر الذي نتحدث عنه. ومن الغريب أن كل مراجعنا تقبل هذه الأسطورة، بل إن ابن حزم يضيف هنا: «وأما صوفة فإنهم كانوا يجيزون بالحاج، لا يجوز أحد حتى يجوز والى ذلك منهم ثم انقرضوا عن آخرهم في الجاهلية فورث ذلك آلُ صفوان بن شجنة من بني سعد بن زيد مناة بن تميم[1]» وهذه حكاية مخترعة أيضاً ويطول بنا الأمر لو مضينا نناقش أقوال النسابة، ومن المؤكد أن مناسك الحج لم تنتظم على النحو الذي عرفه الجاهليون إلا على أيدي القرشيين ابتداء من قصي. بل إن عبد المطلب هو

(١) ابن حزم، الجمهرة: ٢٠٦.

الذي سيحدد بصفة دقيقة مناسك الحج في الجاهلية كما سنرى[1] أما قبل قصي فلم يكن لأي قرشي أو كناني أو عدناني أي دور في تاريخ الحج.

ويقول الطبري في روايته إن قصياً وأحلافه من كنانة وقضاعة تخيروا وقت الحج للهجوم. فعندما اشتد تعسف رجال قبيلة صوفة في تقديم أنفسهم على الناس في النفر وبلغ ضيق الناس مداه انقض قصي ومن معه وغلب صوفة على المناسك وانتزعها لنفسه وعندما رأت خزاعة وبنو بكر بن عبد مناة (من كنانة) توجسوا أن يحول بينهم وبين الكعبة، فبادؤوه الحرب التي انتهت بتحكيم يعمر ابن عوف «من بني كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناة» الذي عرف بالشداخ، فحكم لقصي على ما رويناه[2].

بذلك أصبح قصي سيد مكة ودخل البلد في ولاية قريش، وكان قصي رجلاً ذكياً فاتجه بعد نصره إلى استئلاف القبائل الضاربة حول مكة. قال ابن اسحاق برواية الطبري «فأقام قصي بمكة على شرفه ومنزلته في قومه، لا ينازَع في شيء من أمر مكة إلا أنه قد أقر للعرب في شأن حجهم ما كانوا عليه، وذلك لأنه كان يراه ديناً على نفسه لا ينبغي تغييره.

- وكانت صوفة على ما كانت عليه حتى انقرضت صوفة فصار ذلك من أمرهم إلى صفوان بن الحارث بن شحنة وراثة.
- وكانت عدوان على ما كانت عليه (وعدوان من قيس بن عيلان).
- وكانت النسأة من بني مالك بن كنانة على ما كانوا عليه.
- ومرة بن عوف على ما كانوا عليه.
- فلم يزالوا على ذلك حتى قام الإسلام، فهدم الله به ذلك كله[3].

---

(١) J. Wellhausen, Reste arabische Heidentums, p. 68
Snouck Hurgronje, Net mekkanische Feest, Leiden 1880

(٢) الطبري، تاريخ: ٢/٢٥٨.

(٣) الطبري، تاريخ: ٢/٢٥٩.

ثم يذكر ابن اسحاق إنشاء قصي لدار الندوة. ومن سياق الكلام نفهم أن دار الندوة والمشاركة فيها لم تكن قاصرة على أنصار قصي من القرشيين والقضاعيين وبني كنانة بل اشترك فيها الجميع، فكان شيوخ قبائل الموضع جميعاً يلتقون فيها للتشاور واتخاذ ما يرون من الرأي.

ويحكي ابن اسحاق عند الطبري أيضاً كيف أن قصياً عندما كبرت سنه رأى أن بِكْرَ ولده وهو عبد الدار لا يصلح لوراثة مركزه وأنه كان يفضل عليه ابنه عبد مناف فاختاره لوراثته ولكنه عوض عبد الدار خيراً فأعطاه مظاهر الديانة فجعل إليه مفتاح الكعبة وجعل له اللواء في الحرب والسقاية والرفادة، وجعله رئيس دار الندوة. ومعنى ذلك أن عبد الدار بن قصي أصبح بعد قصي شيخاً شرفياً للجماعة في حين أن السلطان الفعلي صار لعبد مناف، وهذا أيضاً دليل على ذكاء قصي وبعد نظره السياسي.

وإذن فهذا الرجل قصي بن كلاب هو الذي وضع أساس قوة قريش ومكانتها، فهو الذي أقرها في مكة ونقلها من البداوة إلى الحضارة والاستقرار، ووضع لها من عنده نظاماً شورياً فيه إنصاف للقبائل جميعاً، وهو كذلك صاحب الفضل في تنظيم أمور مكة وتقسيمها رباعاً بين بيوت أبنائه وحلفائه، ومن أكبر فضائله تلك الشورية التي سار عليها وانفرد بها من بين رؤساء العرب قبل الإسلام وتميزت بها قريش عن الكثير من زعماء العرب بعد الإسلام.

وسنرى أن كل عمل من أعمال قصي سيتممه ويكمله واحد من خلفائه وسنرى في النهاية أن قريشاً أقام بناءها قبل رسول الله ﷺ أربعة رجال: رجل سياسة وحرب وتنظيم وهو قصي ورجل سياسة وتنظيم وسلام وهو عبد مناف ورجل تجارة ومال هو هاشم بن عبد مناف، ورجل دين واتجاه روحي غالب هو عبد المطلب بن هاشم.

عَبد مناف بن قصَيّ
إكمال البناء السّياسي وَالاجتماعي لِقريش

بعد أن توفي قصي خلفه في الرياسة ابنه عبد مناف، فسار في طريقه وأكمل ما استطاع من عمله السياسي. وكان عبد مناف رجل سياسة وتعمير، فقد انتهت مرحلة الحرب وآن أن يُستكمل العمل عن طريق السياسة والاستئلاف. قال ابن سعد في طبقاته: «أخبرنا محمد بن هشام بن السائب الكلبي عن أبيه قال: لما هلك قصي بن كلاب قام عبد مناف بن قصي على أمر قصي بعده، وأمر قريش اليه واختط بمكة رباعاً بعد الذي كان قصي قطع لقومه[1].

ونقرأ عند ابن هشام: قال ابن اسحاق: ثم إن قصي بن كلاب هلك، فأقام أمره في قومه وفي غيرهم بنوه من بعده، فاختطوا بمكة رباعاً ـ بعد الذي كان قطع لقومه بها، فكانوا يُقَطّعونها في غيرهم من حلفائهم ويبيعونها، فأقامت على ذلك قريش معهم، ليس بينهم اختلاف ولا تنازع، ثم إن بني عبد مناف بن قصي: عبد شمس وهاشماً والمطلب ونوفلاً أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قُصي مماكان قصي جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأوا أنهم أولى بذلك فهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم، فتفرقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف على رأيهم، يرون أنهم أحق به من بني عبد الدار لمكانتهم من قومهم. وكانت طائفة مع بني عبد الدار، يرون ألا ينزع منهم ما كان قصي جعل إليهم»[2].

ويبدو أن قول محمد بن السائب الكلبي أن عبد مناف تولى أمر قريش

(١) طبقات ابن سعد، القسم الأول ١ /٤٢.
(٢) ابن هشام السيرة: ١ /١٣٨.

ومكة بعد أبيه قصي أصح مما يقوله ابن اسحاق من أن أبناء قصي الأربعة تـولوا أمر مكة معاً لأن اليعقوبي يقول إن عبد منـاف كان يلقب بـالقمر، وهـو السيد النهر: وهذه تسميات تدل على أنه كان أعلى من بقية إخوته مكانة. ويؤيد ذلك قول اليعقوبي بعد ذلك: وقَسّم قصي بين ولده فجعل الرفادة والرياسة (كـذا في الأصل المطبوع وهو تحريف إذ المراد السدانة) والدار لعبد الدار وحافتي الوادي لعبد قصي»[1] وهذه العبـارة الأخيرة غـير مفهومـة فنحن لا نفهم المراد(بحافتي الوادي).

ثم يورد اليعقوبي بعـد ذلك خبـراً طويـلاً نفهم منه كيف أن عبـد مناف صار بالفعل رئيس مكة بعد أبيه قصي واجتهد في اكمال عمله السياسي. قال: «ومات قصي فدفن بالحجون، ورأس عبد مناف بن قصي، وجَـلَّ قدرُه وعَـظُم شرفُه. ولما كبر أمر عبد مناف ابنه جاءته خزاعة وبنو الحارث بن عبـد مناة (من كنـانة) يسـألونـه الحلف ليعزوا بـه فعقـد معهم الحلف الـذي يقـال لـه حلف الأحابيش. وكان مُدبر بني كنانة الذي سأل عبـد مناف عقـد الحلف عمرو بن هَلَل بن معيص بن عامر. وكان تحالف الأحابيش على الـركن: يقوم رجـل من قـريش وآخر من الأحـابيش، فيضعان أيـديهـما عـلى الـركن، فيحلفـان بـالله القاتل[2] وحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً، حتى يرث الله الأرض ومن عليها[3] أو على التعاقد وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعاً ما بلَّ بحر صوفه وما قام حرى وتبير، وما طلعت شمس من مشرقها إلى يوم القيامة[4]. فسمي حلف الأحابيش. فولد عبد مناف ابن قصي هاشماً واسمه عمرو. . . وعبد شمس والمطلب ونوفلا وأبا عمرو وحية

(١) اليعقوبي، ١/٢٤١.

(٢) كذا في الأصل المطبوع وهو وصف غير مألوف او مقبول حتى للآلهة في الجاهلية.

(٣) هنا معنى اسلامي لم يعرفه الجاهليون ونظن انه مدسوس.

(٤) اليعقوبي: ٢٤١.

وتماضير وأم الأخثم وأم سفيان وهالة وقلاية، وأمهم جميعاً (الا نوفلا وأبا عمرو) عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سليم، فولدت له هؤلاء، وهي التي جَرَّت حِلف الأحابيش[1] ».

وهذه صورة طريفة عن كيفية عقد الأحلاف بين العرب في الجاهلية.

وعن الأحابيش نقرأ عند المصعب الزبيري في نسب قريش: «فأما الهُون بن خُزيمة فهم عضل وديش والقارة، بنو يَثيعَ بن الهُون: وهم وبطنان من خزاعة يقال لهما الحيا والمصطلق حلفاء لبني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وهم كلهم يقال لهم الأحابيش، أحابيش قريش لأن قريشاً حالفت بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة على بكر بن عبد مناة (بن كنانة)، فهم وأحلافهم حلفاء قريش، وإياهم عنى كعب بن مالك الأنصاري في قوله في وقعة أحد:

وجئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسر ومقَنَّع[2]

وإذن فيكون تكوين الأحابيش كما يلي:

من كنانة: عضل وديش والقارة من بني الهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة.

من خزاعة: الحيا والمصطلق حلفاء بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة.

وذلك هو بيان موضوع الأحابيش الذي أطال الكلام فيه المستشرق هنري لامانس في إحدى دراساته المقذعة المغرضة عن الإسلام والمسلمين. فقد زعم هذا الرجل أن الأحابيش هم قوة من الأحباش أو السود كانت قريش تستعين بهم في حربها لعجزها عن القتال وقد اسحنفر هذا الرجل الحاقد وبحث وفحص وخرج برأي دحضه بعد ذلك علماء كثيرون ما بين مسلمين

---

(١) اليعقوبي، تاريخ ١/٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٢) المصعب الزبيري، نسب قريش.

وغير مسلمين. فالأحابيش ليسوا أحباشاً وإنما هم بعض قبائل من العرب ومعظمهم من كنانة وخزاعة انضم بعضها إلى بعض وتحالفت للدفاع عن نفسها، وقد تنضم إليها بطون من بدو تهامة ممن انفصلوا عن قبائلهم، وهذا تفسير وصفهم بأنهم «لا نسب لهم». وعندما استقر قُصي بمكة وأقام نظامه على ما بينا، تمكن ابنه عبد مناف من أن يعقد حلفاً مع أولئك الأحابيش الذين أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم تحبَّش بعضهم إلى بعض، أي تجمعوا، والأحبوش أو الأحبوشة هي الجماعة من البدو ينضم بعضهم إلى بعض ويكونون قوة واحدة للأمن والإغارة والتعاون، ولا علاقة لهم بالأحباش أو الحبش أو السود أو الجند المرتزقة[1].

وقد استمر حلف الأحابيش مع قريش - فصار يطلق عليهم أحابيش قريش. وتقرأ في أخبار الخندق مثلاً أن قريشاً أقبلت مع أحابيشها. وهذا لا يمنع من القول بأن مكة كان فيها أحباش أو حبشة أي سود يفدون إليها من افريقية ويعيشون فيها ويخدمون أهلها في أغراض الحرب والسلم. وقد اشتهروا بإجادة الرمي بالقناة أي الحربة الطويلة.

وقد كانت جماعة الأحابيش مكوَّنة قائمة عندما أقام قصي نظامه في مكة، ولكن حلف قريش مع الأحابيش على يد عبد مناف أعطى مجموعة الأحابيش شخصية وقيمة وكياناً سياسياً، فمن الآن فصاعداً نجد الأحابيش يذكرون كوحدة سياسية عسكرية قائمة بذاتها ولها رئيس يتكلم باسمها. وسيكون الأحابيش على الجملة إلى جانب قريش لأنها اجتهدت دائماً في ربط أولئك الأشتات من القبائل البدوية الصغيرة إليها حتى لا يضطرب الأمن في منطقة

---

(١) عن الأحابيش والمناقشة في أمرهم أنظر:

J. Wellhausen, **Makka vor Mohammad**

H. Lammens,**Les Ahabish et L'organisation militaire de la Mecque au siècle de l'hégire . Journal Asiatique,** 1916, PP. 425-482.

W. Montgameny Watt, Muhammad at Mekka, Excursus A. PP. 154-157.

مكة، وسيظل الأحابيش إلى جانب قريش حتى صلح الحديبية فسيكون لرئيسهم شأن في المحادثات بين رسول الله ﷺ وأهل مكة. ثم سيدخلون في الإسلام بعد ذلك ويكون لهم دور محمود في تأييد أبي بكر عند الردة. وهم مذكورون في النصوص إلى أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان.

ونعود إلى عبارة اليعقوبي التي نناقشها منذ حين فنستنتج منها غير ما ذكرنا ما يلي:

- إن عبد مناف ورث أباه قصياً في الرياسة وإنه اتجه إلى اكمال عمل أبيه، فسمح لنفر آخر من بطون قريش الظواهر وغيرها بالاستقرار في مكة وأعطاهم احياء من مكة لكي يكثر بهم جمعه، ومعظم أولئك الداخلين انضم إلى بني قُصي واندرج مع الزمن فيهم.

- واتجه بعد ذلك إلى استئلاف خزاعة بعد ما كان من حرب قصي معها واخراجه إياها من مكة، فاستعاد عبد مناف صداقتها وعقد معها ومع بعض بطون عبد مناة بن كنانة، من فرع عمرو بن عبد مناة - حلفاً على التعاهد والتظاهر، وهذا هو حلف الأحابيش.

- واستعان عبد مناف في ذلك بأمه عاتكة بنت مرة وهي من بني سُليم بن منصور، مما نستنتج معه أن بعض بني سليم بن منصور دخلوا في حلف قريش.

- ووصف لنا اليعقوبي كيف كان العرب في الجاهلية يعقدون أحلافهم عند الكعبة. وقد سبق أن علقنا على ذلك.

وخلاصة ذلك أن عبد مناف كان رجل سياسة، فعرف كيف يستألف من كان أبوه قد عاداه من القبائل ويكسب ودها وخاصة خزاعة وبعض بني عبد مناة بن كنانة. وعندما مات عبد مناف وخلفه ابنه هاشم كان مركز قريش

قد استقر في مكة وما حولها وأصبحت صاحبة السيادة والرياسة في تهامة. ولهذا نَعُدُّ عبد مناف من مؤسسي مجد قريش.

هَاشم بن عَبد مُناف وَبناء التجَارة المكيّة :

ونتنقل الآن إلى الرجل الثالث من بناة مجد قريش وقوتها وهو هاشم بن عبد مناف. ونلاحظ أننا نتابع الآن تطور قبيلة واحدة هي قريش لا كما كان الحال قبلاً عندما كنا نؤرخ للؤي بن غالب أو لغالب بن فهر، فهناك الأسماء تشير إلى مجموعات قبلية وتفرعاتها والأسماء التي لدينا هي أسماء زعماء هذه المجموعات فنحن عندما نتكلم عن فهر مثلاً كنا نتكلم عن قبيل قديم لا نعرف زمانه على وجه التحديد، ولهذا فنحن لا نعرف كم من الزمن استلزم بناء مجموعة بني فهر واستقلالها بنفسها عن بقية كنانة وانفرادها باسم قريش تحت لواء غالب بن فهر ومن انضم إليه من الوحدات القبلية الكنانية مثل الحارث بن فهر ومُحارب بن فهر، وانفصالها عن بقية فروع مالك بن النضر التي انفردت باسم فهر.

وفي كلام اليعقوبي عن هاشم بن عبد مناف عبارة يمر بها القارىء دون أن يتفطن إلى معناها، ولكن قراءة ثانية لها ربما اعطتنا واحداً من الأسباب التي أدت إلى عقد حلف الأحابيش، قال في ذكر أولاد عبد مناف فولد عبد مناف ابن قصي هاشماً. . . . . وعبد شمس والمطلب ونوفلاً وأبا عمرو و حَيَّة وتُماضر وأم الأخشم وأم سفيان وهالة وقلابة، وأمهم جميعاً - إلا نوفلاً وأبا عمرو - عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سُلَيم، فولدت له هؤلاء، وهي التي جَرَّت حلف الأحابيش»[1] ومن أسف أن النسخة المطبوعة التي نعتمد عليها تجعل بعد ذلك بياضاً في الأصل، ولو أن الكلام اكتمل لعرفنا شيئاً جديداً عن ذلك الحلف، ولكن العبارة التي أوردناها

---

(١) اليعقوبي، تاريخ ١/٢٤١.

ذات معنى بعيد إذا صح تأويلنا: لها: فإن عاتكة المذكورة هنا تنتسب إلى بني سُلَيم بن منصور من أكبر مجموعات قيس عيلان مضر، وكانت قبائل قيس عيلان قد بدأت تنفس على بني عمومتها المنحدرة من إلياس بن مضر ما وصلت إليه من قوة واستقرار في الحجاز بعد استيلاء قصي على مكة، فبدأت بعض فروعها تتسلل إلى الحجاز من الشرق، وصاهر عبد مناف واحدة منها هي بنو سليم بن منصور ليكسبها إلى جانبه أو ليتقي أذاها، ولكن بقية قبائل بدو الحجاز شعرت بالخطر وسعت لهذا إلى الارتباط بقريش فكان حلف الأحابيش وآمنت به تلك القبائل الصغيرة، ولكن العداء والحسد بين عرب قيس عيلان على قريش ظل يتزايد حتى كان سبباً من أسباب حرب الفجار كما سنرى.

ولكننا الآن نخرج من عصر الأساطير والقصص الشعبي وندخل في عصر التاريخ ونؤرخ لقبيلة واحدة هي قريش وزعماؤها وبُناة مجدها وقوتها، وكل من سيرد ذكره من فروعها إنما هي بيوت أو عائلات لا قبائل كما يفهم البعض من النصوص، فيقظة بن مرة وهي مجموعة مخزوم - بيت لا قبيلة، وزُهرة بن كلاب بيت أو عائلة لا قبيلة، وعبد شمس بن عبد مناف بيت لا قبيلة، وكذلك هاشم بن عبد مناف، وهاشم شخصية تاريخية محددة المعالم وكذلك عبد شمس، وكل منهما رأس بيت أو عائلة من البيوت أو العائلات التي تكونت منها قبيلة قريش التي نؤرخ لها. ولا بد أن ننص على ذلك هنا منعاً للبس وتحاشياً للوقوع في الخطأ في فهم تاريخ قريش، فلا زهرة ولا عبد مناف ولا مخزوم ولا عبد شمس كانت قبائل، وإنما هي بيوت وعائلات من قريش. وهاشم عندما خلف عبد مناف في رياسة قريش أصبح رئيساً لهذه البيوت كلها، ولكن رياسته لم تكن رياسة مُلك أو سلطان أو قوة غالبة بل رياسة تفاهم وائتلاف على المعنى الخاص لرياسات القبائل كما سنحدد ذلك بتفصيل عند كلامنا على عبد المطلب بن هاشم.

ويبدو أن هاشماً لم يصل إلى رياسة قريش بعد عبد مناف دون معارضة بعض إخوته وبعض رؤساء البيوت القرشية الأخرى، وذلك طبيعي لأن رياسات القبائل لم تكن حقاً لبيت بعينه ولا هي كانت تراثاً، وإنما كان يصل إلى الرياسة من يثبت أنه أحق بها على أساس استعداده للتضحية في سبيل القبيلة وقدرته على الوفاء بالتزامات الرياسة ومسئوليتها وينبغي أن نذكر هنا أننا نؤرخ لقبيلة لا لدولة، فهنا مجموع قبلي لا يتميز فيه واحد على واحد إلا بالفضائل القبلية من شجاعة وكرم وعقل وبذل للمال وحكمة وتجربة، فالرياسة هنا رياسة ترشيح وتأييد لهذا الترشيح، فلا جيش ولا قوة عسكرية أو حق موروث تؤيد أي مرشح، فكان الرئيس إذا مات تنافس من يرون أنفسهم جديرين بالرياسة في إظهار فضائلهم التي أشرنا إلى بعضها، والقبيلة في مجموعها تؤيد ترشيح من تراه أهلاً للمسئولية، ويكون القرار في دار الندوة، وليس من الضروري هنا أن نفترض انتخاباً أو تصويتاً، بل الذي يحدث هو أن واحداً من المرشحين أنفسهم يتفوق على أقرانه ويفوز بأكبر قدر من التأييد في مكة كلها، ثم يكون اجتماع رأي الرؤساء على الفائز في دار الندوة، وعلى الفائز بعد ذلك أن يستمر في إظهار فضائله وإثبات أنه جدير بالرياسة فعلاً.

شيء من هذا حدث عندما مات عبد مناف، إذ تطلع للرياسة عدد ممن رأوا ـ أنفسهم أهلاً للمسئولية من رؤساء البيوت، وهنا نجد اثنين من إخوة هاشم هما عبد شمس والمطلب يقفان مع أخيهما هاشم ويشدان من أزره في وجه غيره من المنافسين. ومن هنا كانت رياسة هاشم قد تمت بتأييد قوي من أخويه المطلب وعبد شمس. فأما المطلب فقد وقف هو وبيته إلى جانب بيت هاشم إلى أن جاء الإسلام وبعده، ورسول الله ﷺ كان إذا جاء ذكر بيت المطلب شبك أصابعه وقال ما معناه: نحن ـ يقصد أن بني هاشم وبني المطلب يد واحدة.

وأما عبد شمس فقد وقف بقوته كلها إلى جانب أخيه هاشم. ولا صحة

لما تزعمه المراجع من أن العداوة بين هاشم وعبد شمس بدأت منذ ميلادهما وصباهما، بل قبل الميلاد، فتذكر المراجع أن هاشماً وعبد شمس كانا توأمين وأنهما نزلا من بطن أمهما وأصبع احدهما ملتصقة بجبهة الآخر أو بكعبه، وكان لا بد من الفصل بينهما بالسيف أو السلاح. فكان هذا أول دم سال بين بني هاشم وعبد شمس. فهذا نظر رجعي أي رجعة بشيء ظهر بعد الإسلام إلى ما قبله والتماس أصوله هناك. فالحقيقة أن العداوة بين هاشم وعبد شمس ظهرت بعض الشيء بعد بعثة محمد ﷺ ثم تأكدت في وقعة بدر كما سنرى؛ أما قبل ذلك فقد كان هاشم وأخواه عبد شمس والمطلب يداً واحدة. ويؤيد هذا الرأي قول الطبري: وحُدِّثْتُ عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال: كان هاشم وعبد شمس ـ وهو أكبر ولد عبد مناف ـ والمطلب ـ وكان أصغرهم ـ أمهم عاتكة بنت مرة السُّلمية ـ ونوفل ـ وأمه واقدة ـ بني عبد مناف ـ فسادوا بعد أبيهم جميعاً، وكان يقال لهم المُجيرُون، قال: ويُقال فيهم:

يا أيها الرجل المحول رحله ... ألاَّ نَزَلت بدار عبد مناف(1)

أما الذي ميَّز هاشماً وقدَّمه على إخوته للرياسة، فكان تفطُّنه إلى أهمية الناحية التجارية بالنسبة لمكة، وقد فَصَّل أمر ذلك نفر من مؤرخينا أوضحهم في هذا المعنى اليعقوبي، وسأورد هنا عبارته على تواليها لأهميتها وأقسمها إلى فقرات حتى يسهل الاستدلال بفقراتها واستخراج كل مغازيها التاريخية، قال:

١ ـ وشَرُف هاشم بعد أبيه، وجلَّ أمره، واصطلحت قريش على أن يتولى هاشم بن عبد مناف الرئاسة والسقاية والرفادة، فكان إذا حضر الحج قام في قريش خطيباً فقال: يا معشر قريش، أنتم جيران الله وأهل بيته الحرام، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله معظِّمون حرمة بيته، فهم

(1) هذا البيت هو الذي جعلنا نقرأ لفظ المجيرين الوارد في العبارة السابقة على هذا النحو. وقد قرأها وشكلها أبو الفضل ابراهيم المُجبِّرين، ولا يتفق هذا مع معنى البيت.

أضيـاف الله، وأحق الضيف بالكـرامة ضيفه[1]، وقد ميزكم (في الأصل المطبوع خيركم) الله بذلك، وأكرمكم به، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره، فاكرموا ضيفه وزواره، فإنهم يأتون شُعثاً غُبرا من كل بلد على ضوامر كالقداح، وقد أعيَوا ونَفِلوا وقملوا وارملوا، فاقروهم واغنوهم» وكانت قريش تُرافِد على ذلك.

٢ ـ وكان هاشم يخرج مالاً كثيراً، ويأمر بحياض من أدم، فتُجعل في موضع زمزم ثم يسقى فيها من الآبار التي بمكة، فيشرب منها الحاج، وكان يطعمهم بمكة ومنى وعَرفه وجَمْع. وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق ويحمل لهم المياه، حتى يتفرق الناس إلى بلادهم، فسُمي هاشماً.

٣ ـ وكان أول من سن الرحلتين: رحلة الشتاء إلى الشام، ورحلة الصيف إلى الحبشة، إلى النجاشي. وذلك أن تجارة قريش [كانت] لا تعدو مكة، فكانوا في ضيق، حتى ركب هاشم، فنزل ببصرى، فكان يذبح في كل يوم شاة، ويضع جفنة بين يديه، ويدعو من حواليه.

وكان من أحسن الناس وأجملهم، فذكر لقيصر، فأرسل إليه، فلما رآه وسمع كلامه أعجبه، وجعل يرسل إليه، فقام له هاشم، فقال له: أيها الملك: إن لي قوماً، وهم تجار العرب، فتكتب لهم كتاباً يؤمِّنهم ويؤمِّن تجارتهم حتى يأتوا بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه. ففعل ذلك قيصر وانصرف هاشم، فجعل كلما مر بحي من العرب أخذ من أشرافه الإيلاف أن يأمنوا عندهم وفي أرضهم، فأخذوا الإيلاف من مكة والشام (الأصح: من مكة إلى الشام).

---

(١) يريد ضيف الله.

٤ ـ وخرج[1] هاشم بتجارات عظيمة يريد الشام، فجعل يمر بأشراف العرب فيحمل لهم التجارات، ولا يلزمها لها مؤونة حتى صار إلى غزة فمات بها.

٥ ـ ولما هلك هاشم بن عبد مناف جزعت قريش وخافت أن تغلبها العرب، فخرج عبد شمس إلى النجاشي ملك الحبشة، فجدد بينه وبينه العهد، ثم انصرف، ولم يلبث أن مات بمكة ودفن بالحجون.
وخرج نوفل إلى العراق، وأخذ عهداً من كسرى، ثم أقبل بموضع يقال له سلمان.

٦ ـ وقام بأمر مكة المطلب بن عبد مناف[2].

فأما الفقرة الأولى من هذه العبارة ففيها اسراف في تقدير هاشم ومبالغة في تعظيم هيئته، وهي مثال للنظرة الرجعية إلى التاريخ أي النظرة إلى ما مضى من الأحداث ومن الرجال على ضوء ما كان فيها بعد، فاليعقوبي هنا يصور هاشماً على ضوء ما كان من ظهور محمد رسول الله ﷺ من أعقابه، فهو يبالغ في تجميله وتعظيم هيئته، ولعله أراد بذلك أن يرضي غرور حلفاء بني العباس ـ وهم هواشم، ولكننا نكتفي بخلاصتها، وهي أن هاشماً تنبه إلى أهمية مكة ووجود الكعبة فيها، فحفز قومه على اجتذاب الناس إليها، ولا يجتذب الناس في تلك العصور شيء في جزيرة العرب مثل الطعام والماء، فحض قومه على بذل أقصى ما يستطيعون من الأموال وحسن اللقاء والضيافة لمن يفد على مكة من زوار الكعبة، وليس معنى ذلك ـ بالضرورة أنه فعل المكارم التي يذكرها اليعقوبي، ولكن يكفي أن يعرف الناس أنهم إذا قدموا مكة وجدوا شيئاً من زاد وماء وقرى حتى يتوافدوا عليها. وقد سبقه أبوه عبد مناف وجده قصي إلى ذلك، ولكنه هو الذي وجه همه بصفة خاصة إلى اجتذاب الناس إلى مكة،

---

(١) تركت قبل ذلك فقرة طويلة من القصص الشعبي قليلة المحصلة التاريخية.
(٢) تاريخ اليعقوبي، ١/٢٤٣ ـ ٢٤٤.

ومن الطبيعي ألا يفد الناس صفر اليدين، بل كانت العادة أن يقبل كل وافد بما عنده من أدم أو تمر أو صوف أو ماشية أو خيل فيكون هناك تبادل وتقوم تجارة ويكون المكيون أصحاب السوق وأكبر المفيدين منه خاصة وأن تعظيم الكعبة كان يضفي على منطقة مكة أمناً يشجع الناس على الوفود إليها.

والفقرة الثانية تفصل أمر ما كانت قريش بتوجيه من هاشم ـ تقدمه للوافدين عليها ومن الممكن أن تكون أصناف الطعام التي يذكرها مثل الخبز واللحم والسمن والسويق وهو الدقيق تقدم لسادات العرب عند وفودهم أو حضورهم الطعام في بيوت هاشم وغيره من القرشيين.

والفقرة الثالثة هي التي تهمنا هنا في المكان الأول، فهي تقول إن هاشماً اجتهد في توسيع نطاق تجارة مكة والوصول بها إلى الشام، فإن التجارات كانت تقف عند مكة، وهاشم هو الذي فكر في الوصول بها إلى الشام، ولا بد أنه كان قد ذهب إلى بلاد الشام قبل ذلك وعرفها، ولا بد كذلك أنه أحس أن هناك طلباً على بضائع معينة يستطيع هو وقومه أن يأتوا بها إلى بلاد الشام، وهذه البضائع لا تقتصر على ما يخرج من الجزيرة مثل الأدم أي الجلود. والتمور، والصوف؛ فإن هذه الأصناف مهما عزت فان لها بدائل في بلاد دولة الروم، فلا بد، إذن أن تكون الحاجة مست إلى أنواع من البضائع يحتاج إليها الناس في بلاد دولتي الرومان ثم الروم ولا بد أن تأتيها من بعيد، وهذه البضائع هي التوابل والعطور والمسك والمُرّ واللبان والحرير مما لا تستغني عنها الكنائس في طقوس العبادة ولا يستغني عنها الملوك وسروات الناس في حياتهم كالحرير والقطن والأحجار الكريمة والعاج وهو سن الفيل واليشب وهو المعروف باسم jade وهو يأتي من الصين، و المرجان والزعفران وما إلى ذلك، وبعض هذه الأصناف توجد في بلاد العرب نفسها ـ في اليمن خاصة ـ مثل اللبان والمر، ولكن الحرير والتوابل والصندل والعود والعنبر والأحجار الكريمة واليشب تأتي من الهند والصين وبحارهما، أما العاج وبعض التوابل وريش النعام وجلود بعض

الحيوانات السمكية فتأتي من بلاد آسيا وإفريقية، وكذلك العطور والدهون وبعض أصناف الزيوت.

وكان بعض هذه الأصناف يصل إلى مكة، والباقي يمكن جلبه إليها إذا مست إليه الحاجة وهذه الحاجة هي التي لمسها هاشم في بلاد الشام وعرف أنه يستطيع موافاة التجار أو رجال الدولة البيزنطية في الشام بها، ومن ثم فطن بحسه التجاري العملي إلى أنه يستطيع أن يسد هذه الحاجة، ومن هنا فقد اجتهد في مداخلة رجال الدولة وكبار التجار لكي يعرض عليهم تزويدهم بما هم بحاجة إليه من هذه البضائع، فتكلف المظهر العظيم وجعل يذبح كل يوم شاة ويصنع طعاماً حتى يشتهر أمره ويجتذب أنظار رجال الدولة ويكسب احترامهم وثقتهم، فإن التجارة التي كان يريد أن يعرضها غالية الثمن، ونقلها يضاعف قيمتها، فلا بد أن يكون المتعهد بجلبها قادراً على ذلك.

ولا بد أن تكون الظروف قد واتت هاشماً أو دفعته إلى ذلك، ومن قديم الزمان كان معظم هذه الأشياء يصل إلى بلاد الرومان ثم الروم عن طريق بلاد فارس إما عن طريق الطرق التجارية وسط آسيا أو عن طريق البحر وموانىء الخليج الذي كان إذ ذاك يعرف باسم خليج فارس. وكانت الحروب بين دول الفرس والرومان ثم الروم هي السبب الأكبر في انقطاع وصول هذه المتاجر إلى بلاد الشام وقد حدث هذا أثناء الحروب بين البارثيين والرومان، ثم تجدد في أيام الساسانيين ومن عاصرهم من قياصرة الروم البيزنطيين، وموضع النزاع بين الأخيرين كان التنافس على سيادة بلاد أرمينية شمالي العراق، وكانت قد دخلت المسيحية وأصبحت بذلك في نطاق النفوذ البيزنطي، ثم امتدت المسيحية في شمالي الشام والعراق فزاد الاحتكاك بين الدولتين وتجددت فرص النزاع، لأن الفرس لم يدخلوا المسيحية بل عادوها، خاصة وقد استولى ملوك الساسانيين على أرمينية والموصل واضطهدوا المسيحيين، وكان ذلك في عصر الملك سابور الثاني (٣١٠ ـ ٣٧٠ م) وبهرام الخامس (٤٢٠ ـ ٤٣٨ م).

ويزدجرد الثاني (٤٣٨ ـ ٤٥٧) وبلغ ذروته في أيام جستنيان من أباطرة الدولة البيزنطية الذي تجرد لنصرة المسيحية وانفق في ذلك معظم أيام حكمه من ٥٢٧ إلى ٥٦٥ ميلادية.

فلا بد إذن أن توقف وصول متاجر الشرق إلى بلاد الدولة البيزنطية قد بدأ أيام سابور الثاني واشتد أيام بهرام الخامس ويزدجرد الثاني، وخلال حكم هذين الملكين الساسانيين المتعاقبين امتدت الحروب ١٣٥ سنة، وهنا لا بد أن تكون الحاجة قد مست، إلى بضائع الشرق، ويمكن القول بأن تلك الحاجة ظهرت بشكل واضح أثناء حكم يزدجرد الثاني (٤٣٨ ـ ٤٥٧)، وفي تلك الفترة يمكن القول بأن هاشماً وصل بلاد الشام وبدأ نشاطه الواسع في النهوض بالتجارة الملكية. وهذه الفترة تعدل من سني حكم ملوك الروم البيزنطيين فترة حكم الامبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠ م) ثم مَرْسِيان أومَرْقِيان (٤٥٠ ـ ٤٥٧ م) وكانت بالفعل فترة اشتعال الحروب بين دولتي الروم والفرس، فقد كانت هذه الحرب قد سكنت قليلاً خلال حكم الامبراطور جوفيان الذي عاد إلى المسيحية بعد جوليان المرتد (٣٦٣ ـ ٣٦٤ م) الذي ارتد عن المسيحية وعقد صلحاً مع الفُرس تنازل لهم فيه عن أرمينية. ولكن الروم زعموا أن الفرس يضطهدون النصرانية فيما خضع لهم من أرمينية، وثارت الحرب من جديد أيام ثيودوسيوس الثاني الذي ذكرناه. وأعقب ذلك قيام الدولة الأيسورية في دولة الروم على يد القائد زينون (٤٧٤ ـ ٤٧٥ ثم ٤٧٦ ـ ٤٩١ م) وهي دولة محاربة واصلت الحرب مع الجرمان في الغرب والفرس في الشرق، واستمرت حتى قيام دولة هرقل بن هرقل سنة ٦١٠ ميلادية وهي المعروفة بصراعها الطويل مع الإسلام، ومن أكبر أباطرة الدولة الأيسورية جستنيان الكبير الذي اشتهر بنصرة المسيحية والحرب الطويلة في سبيلها على الجبهةالشرقية خاصة.

وإذن فقد كان الانقطاع الطويل الحاسم للتجارة الشرقية عن الوصول

إلى أسواق دولة الروم قد وقع في الشام خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، وخلال هـذه الفترة نستطيع أن نضع حياة هـاشم بن عبد منـاف وعمله، لأنه كما رأينا من نص اليعقوبي وجد عندهم قبـولاً وترحيبـاً بما عـرض عليهم من إتيانهم لتجارة المشـرق: فقال هـاشم: أيها الملك إن لي قـوماً، وهم تجار العرب فتكتب لهم كتاباً يؤمنهم ويؤمن تجارتهم حتى يأتـوا بما يُستـطرَف من أُدُم الطائف وثيابه، ففعل قيصر ذلـك. وانصرف هـاشم فجعل كلما مـر بحي من العرب أخذ من أشرافهم الإيلاف؛ أن يأمنوا عندهم وفي أرضهم، فأخذوا الإيلاف من مكة إلى الشام.

وإذن فقد وجد هاشم الفرصة مواتية ليوسع نطاق تجارة مكة، فاتفق مع رجال الروم على أن يأتيهم بمـا تحتاج إليـه أسواقهم من بضـائع الهنـد والصين وأفريقية، وقد ذكرناها فحصل منهم على كتاب يؤمنهم ويؤمن تجارتهم مـا داموا في بلاد الروم، وهذا الكتاب هو في ذاته إذن لهـاشم ومن معه في دخـول أرض الروم وقتما شاءوا، وهذا الكتـاب أو الإذن المكتوب وهـو ما يسمى بـاذن المرور الأمن Sauf Conduit وإذن المـرور Passe-port وتسميـه بعض النـصـوص العربية بالعَصْم أو العاصم وجمعه عِصَم أي ضـمان السـلامة، فلما حصـل على ذلك الإذن أكمل عمله فصار لا يمر بقبيلة في الطريق إلا حصل من رجالها عـلى إيلاف أو ضمان أمان وسلامة المرور.

وهـذا هو مـا تنص عليه الفقـرة الرابعـة من نص اليعقـوبي الـذي نحن بصدده: «وخرج هاشم بتجارات عـظيمة يـريد الشـام، فجعل يمـر بأشـراف العرب فيحمل لهم التجارات. ولا يُلزِمهم لها مؤونـة حتى صار إلى غـزة فتوفي بها» وإذن فالايلاف اتفاق يتكون من شطرين:

الأول: المرور بأرض القبيلة آمنا من الأذى والمكروه بما معه من تجارة.

الثاني: حمل تجارات القبائل دون أن يلزمها مؤونة أي نفقة، وهذا الجزء الثاني

من الإيلاف أي إتفاق التآلف والمودة والأمن والإلف على أكبر جانب من الأهمية ذلك أن القبائل الضاربة في الصحاري لا تستغني قط عن الإتصال بالعالم الخارجي، وإذا هي انقطعت عنه تدهورت وتوحشت ولم تلبث أن تتفكك وتتلاشى.

لأن القبائل البادية ـ مهما بلغ حجمها وقوتها ـ لا تستغني عن أشياء وأدوات حيوية لها ولا يتيسر لها أن تصنعها في مضاربها، وأهم هذه الأدوات السيوف والآنية المعدنية وسروج الخيل وآلة ركوبها وماعون الطبخ. فهذه أشياء لا يمكن أن تعيش القبيلة بدونها ويستحيل عليها صنعها في مضاربها، ومن أين لها الحديد لصناعة السيوف، وإذا تيسر لها الحديد فكيف تحمِّيه وتطرقه وتصوغه سيفاً باتراً يصلح للقتال، والسيوف بطبعها بضاعة مستهلكة رغم ما يبدو من متانتها، فالسيف ليس مجرد قطعة من حديد بل هو مقبض ونصل ذو شفرة أو شفرتين وذباب وهو طرف السيف المدبب، وهذه كلها تصدأ وتثلم، ولا بد من سنها بين الحين والحين، ومع توالي السن يتآكل نصل السيف ويخف وزنه وتتناقص صرامته، ومن هنا فللسيف المستعمل عُمر، أضف إلى ذلك أن مقبض السيف لا يكون في العادة من نفس قطعة الحديد. بل هو يصنع على حدة ثم يثبت المقبض في النصل. وهذه كلها صناعة ذات فنون لا تتيسر للقبيلة في مضاربها.

وأما الآنية فإن أمرها ليس أقل شأناً وهي أصعب صناعة من السيوف، فلا بد للقبيلة من أن تحصل على الآنية والقدور بشتى أنواعها من الخارج، والآنية كذلك أدوات مستهلكة خصوصاً في مضارب البدو حيث يوضع الإناء على أثافي الأحجار ليصنع فيه الطعام، ثم ينظف بعد ذلك بالحك بالرمل أو الحجارة فيسرع استهلاكه ولا يسلم أن يثقب، ورمال الصحراء لا تصلح في الغالب لصنع جرار الفخار، وآنية الفخار مع ذلك سريعة العطب، فلا غنى للقبيلة عن الاتصال بالعالم الخارجي للحصول على الآنية.

وأما أدوات ركوب الخيل من قرابيس ومهاميز فعسيرة الصنع على مستوى كبير من الجودة في الصحراء، فهي صناعة تتكون من خشب متين ومعدن وأصناف من الجلد والحشو لا تتيسر بسهولة في الصحراء. ولا ننس هنا الدروع، فإن البدو يستطيعون صنع دروع الجلد، وهي الدرقات، ولكن كيف يصنعون دروع الحديد وهي تحتاج إلى حدادين مهرة وحديد أو نحاس أو برونز كثير.

فإذا حرمت القبيلة من هذه الأشياء فليس هناك ما ينجيها من الهلاك. قد تستطيع الاكتفاء بغزلها عن الوارد من الأقمشة، وقد تستطيع العيش إلى ما لا نهاية في خيام الصوف والجلد، وقد يستطيع الاعتماد في غذائها على التمر واللبن واللحم والماء وشيء من الدقيق، ولكن الحياة في الصحراء ليست مجرد غذاء وكساء ومأوى. إنها صراع متصل للبقاء، فليست هناك حياة وإنما نجاة متصلة من الموت أو ما يسمى باسم سيرفايفال Survival وهذا لا يتأتى إلا بالدفاع عن النفس وخوض المعارك بالسيوف والدروع والخيل والحراب والنبال والبيضات، وليس من الضروري أن تخوض القبيلة معارك البقاء كل يوم، ولكن يكفي أن تعرف القبائل الأخرى أن لديها سلاحاً وخيلاً وفرساناً ومقاتلين مستعدين أبداً إلى الطيران إلى ميدان القتال فيتحاشوا العدوان عليها وتأمن على نفسها. ويكفي أن تعرف القبيلة أن حماها لا يمكن أن ينتهك دون قصاص سريع وأن سيوف رجالها بواتر وسواعدهم قوية وضرباتهم مُصْمِية وأن فرسانها لا يشق لهم غبار لفرط سرعتهم يكفي ان يعرف الناس ذلك حتى تضمن القبيلة سلامتها. ولهذا فإن القبيلة تكسب نصراً اليوم وتعيش عليه دهراً لأن شعراءها لا يزالون يذكّرون الناس بسيوف القبيلة وقوتها وانتصارها، وهذا هو سلاح الفخر وهو امتداد كلامي للقوة العسكرية.

لهذا لا تستغني القبيلة عن مدد متصل من السيوف والآنية وأدوات ركوب الخيل بما فيها حدوة الحصان، فإذا انقطعت صلة القبيلة بالعالم الخارجي

قل عتادها من السيوف وآلة الخيل وضعفت عن الدفاع عن نفسها، ثم يهزل بنيان أبنائها الجسدي بطول الاعتماد على اللبن واللحم والتمر، فلا بد من شيء مطبوخ بين الحين والحين، واللحم نفسه لا ينضج إلا في آنية وإلا فإن الاستهلاك منه يصبح عظيم الكلفة إذا اقتصرت معالجة اللحم على الشي، فلا بد من غليه للاستفادة بالمرق وثرد الخبز فيه أو طهو الشعير أو الجشيش أو الدقيق.

وتحصل القبيلة على المدد اللازم من السلاح والآنية من القوافل المارة بأراضيها أو من أي مركز عمران مستقر قريب منها، وفي الغالب يكون هذا المركز قرية كبيرة أو صغيرة أو واحة ذات سوق دائم أو موسمي يلم به التجار أو طالبو السلع التي لا تصنع في الصحراء، ولهذا فلا غنى للقبيلة عن طريقة للاتصال المباشر بطريق من طرق التجارة مع الاعتماد على مركز مدني قريب. هذا إلى أن الاتصال بالعالم الخارجي في ذاته ضروري لمحافظة الإنسان على مستوى معقول من الحضارة وإلا استوحش وتدهور وطال شعره وتشعث واغبرت هيأته وغلبت عليه القذارة القاتلة مع الزمن كما ترى في حال بعض قبائل الدواخل في الصحاري والغابات الاستوائية أو المعتدلة أو الباردة واستمرار الحياة على مستوى معقول من التحضر مستحيل بدون الاتصال بالعالم الخارجي بواسطة الطرق إما بالوقوع عليها أو إمكانية الاتصال بها بأي سبيل. أضف إلى ذلك أن هذا الاتصال يعرِّفها بما يدور في العالم من حولها ولو عن طريق السماع المتأخر والصدى البعيد، وبدون ذلك تنقطع الجماعة عن مجرى الحياة وتنفصل عنها وتتدهور ثم تتفكك وتتلاشى أو تختفي في غيرها.

ثم إن القبائل البادية لديها كذلك ما تعطيه أو تبيعه أو تبادل به: لديها فائض الصوف والتمر والكثير من الأدم أي الجلود ولديها أيضاً ماشية تباع من غنم أو أعناز أو جمال، وأحياناً محصولات زراعية أو معادن مثل الملح أو الحديد أو التبر وما إليها مما يتحصل للقبيلة من موطنها بعلاج يسير.

ولهذا تهتم القبائل البادية ـ دون تفريط في بداوتها وتمسكها بعزة العيش في الصحراء مع شظفها وقسوتها وأخطارها ـ من الاتصال بطريق تجاري والاعتماد على مركز عمراني، ومن هنا فإن قبائل البدو تحرص أشد الحرص على تأمين القوافل المارة في أراضيها بخفارة أو دون خفارة، فإذا سمعنا عن بدو يقطعون الطرق ويعتدون على القوافل والتجار، فهؤلاء ليسوا رجال قبائل محترمة ذات كيان، بل بقايا قبائل تدهورت وتوحشت أو خلعاء قبائل ومطاريد مجتمعات بدوية أو لصوص وسراق عاديون يشبهون اللصوص في كل مجتمع، وهؤلاء جميعاً خوارج على نظام العيش المقرر في الصحراء ولا يحسب لهم حساب، والقبائل المحترمة الحريصة على سمعتها وبقائها تطارد هؤلاء السراق وتقضي عليهم كلما تيسر لها ذلك.

وهذا الذي نقوله حقيقة معروفة لكل من يعرفون حياة البداوة والصحاري. ورسول الله ﷺ عندما استولى على خيبر وفَدَكَ وتيماء قضى في نفس الوقت على كل مقاومة لقبائل غَطَفان وأسد وطيء وذبيان وما إليها، وعندما ضم مكة إلى أرض الإسلام أحست هوازن أن مصيرها في الميزان فانبرت تحارب الإسلام لأن مكة كانت مركزها العمراني، ومن هنا تبدو لنا موقعة حنين منطقية بل لم يكن منها مفر للقضاء على معارضة هوازن للإسلام ثم ضمها إليه أولاً ثم ثقيف بعد ذلك.

الأسواق والمواني وطرق التجارة :

وإذن فهذا الذي فعله هاشم من الحصول من دولة الروم على العصم وعلى الإيلاف من رجال القبائل الضاربة على الطريق إلى الشام كان عملاً بالغ الذكاء، وهو كان حجر الزاوية في بناء قريش اقتصادياً، لأن الناحيتين السياسية والعسكرية ـ وهما بناء قصي وعبد مناف كانتا أساسيتين، ولكن القاعدة الاقتصادية التي بناها هاشم ستصبح العمود الفقري في بناء قريش،

فإن المال كما هو معروف عصب القوة. وقريش انتقلت بعمل هاشم من قبيلة عادية الثروة إلى قبيلة غنية، وبالمال، تيسرت لقريش أمور السياسة واقتدرت على بناء قوتها العسكرية، وبالمال كذلك استطاعت أن تقيم الركن الرابع من أركان قوتها بعد التفوق العسكري والسياسي والمالي، وهو القيام بأمور الدين، لأن الدين في تلك العصور كان يؤمن الحياة والاستقرار والانتظام والرخاء ولكنه غالي التكاليف يتطلب النفقة والبذل على ما سنراه.

وقد تحدث عن الإيلاف والعصم وتجارة العرب وأسواقهم في الجاهلية بتفصيل الأستاذ محمد سعيد الأفغاني في كتاب مشهور عنوانه «أسواق العرب» يعتبر منذ صدوره من الأصول التي لا يستغني أحد عن الرجوع إليها في دراسات جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده، وقد اعتمدنا عليه اعتماداً رئيسياً (إلى جانب الأصول) فيما كتبنا عن عمل هاشم بن عبد مناف.

والفقرة الخامسة من كلام اليعقوبي الذي أتينا به تبين لنا كيف أن قريشاً كلها عرفت قدر ما فعل هاشم وحرصت على استمراره بل اشتركت في اكماله. قال اليعقوبي:

«ولما هلك هاشم بن عبد مناف جزعت قريش وخافت أن تغلبها العرب، فخرج عبد شمس إلى النجاشي ملك الحبشة، فجدد بينه وبينه العهد. ثم انصرف فلم يلبث أن مات بمكة ودفن بالحجون. وخرج نوفل إلى العراق وأخذ عهداً من كسرى، ثم أقبل فمات بموضع يقال له سلمان، وقام بأمر مكة المطلب بن عبد مناف[1]» ومعنى ذلك أن أبناء عبد مناف أكملوا شبكة العصم والإيلاف وقبضوا بمهارتهم وذكائهم ونشاطهم على ذلك المصدر العظيم من مصادر القوة، وعلى أيديهم تفتحت واتسعت آفاق عصر جديد في تاريخ التجارة في جزيرة العرب، فبينما كانت التجارة في الجزيرة تقتصر على عدد من

(١) اليعقوبي: ١/٢٤٤.

الأسواق الداخلية تبدأ عند هَجْر والمُشَقَّر على ساحل الخليج وتتوالى بعد ذلك في نسق من موضع إلى موضع من شرقي الجزيرة إلى جنوبها حتى عدن ثم تصعد إلى مكة معتمدة في ذلك على ملاحة غير منظمـة مراكـزها موانىء صغيرة مثـل هَجَر وصُحار وعَدَن انتقلت في الـدور الجديـد إلى طور عـالمي فاتسعت مـوانى هجر وصحار ـ والمُكَلاّ وعدن والحديدة والشعيبة، وتسـارع تجار البحـر إلى شواطىء الجزيرة قادمين من آسيا وأفريقية حاملين المتاجر المطلوبة ومن الموانىء تنتقل إلى الأسواق، ويخف إليها التجار وتتوالى الأسـواق على نسق عـلى مدار العـام حتى تكون أسواق الحجاز في ذي القعدة وذي الحجة في آخر العام القمري وهو نهاية سلسلة الأسواق وأكبرها وأهمها، وفيها يتجمع التجار من كل مكـان ليعقدوا الصفقات الكبيرة مع رجال قريش الذين أصبحوا رجال أعمال كبار، لا يقتصر تعاملهم على المبادلة والمقايضة بل عرفوا الذهب والفضة والدينار والدرهـم، وفي أسواق الحجاز ومكة نشأت الصيرفة العربية ومهر فيها القرشيون وتجمعت في مكة المتاجر والبضائع والأموال، فأصبح القرشيون مياسـير، ونشأ فيهم تجـار كبار أصحاب رؤوس أموال ضخمة، ومع التجـارة والمال تفتحت الأذهـان واتسع العلم وزادت الخبرة، واحتاج التجار إلى الكتابة والحساب فتطورت الكتابة على أيدي التجار وظهر الصيارفة المتخصصون في تجارة المال وصرف الذهب والفضة ونشأ الكتبة والحَسَبة وهم أهل النسيء، وهو حساب الزمن ومواعيد الديون ونسب الربوات، وأخذ الكتاب أصحاب القلم (القلامس) أهمية كبرى على ما ذكرنا، وأصبحت قريش قبيلة غنية وسط عالم من القبائل يعيش معظمـه على الكفـاف، وثـروات سـادات القبـائـل الأخـرى كـانت نخيـلاً وقـطعـان جمـال وشيـاه وأعنـاز مـع بعض البقـر في المـواضـع التي تصلح لحيـاة البقـر في الواحات الكبرى والصغرى وأراضي المرتفعات العالية مثـل جبلي طيء (جبـل شمـر) حيث كـانت منـازل قبيلة طيء وجـاراتهـا أسـد وعَبْس وذُبْيـان وكِنـدة وغـطفـان وهـوازن، وكلهـا قبـائـل رعـاة وظعن أو نـصف استـقـرار Semi-sedentaries، وكـل ذلـك تم عـلى مـدى نصف قـرن من أيـام هـاشم

وإخوته، لأن عجلة التقدم إذا سارت ووجدت ما يدفعها أصبحت كالسفينة هبت عليها ريح مواتية، ونفوس البشر إذا تفتحت على امكانات الغنى واليسار والرخاء اشرأبت للمزيد وشحذت الهمم وتفتحت الأذهان وآفاق التقدم، وتلك هي فترات القفزات الحضارية في تواريخ الشعوب وقصة الحضارة، فهنا، ونحن نتكلم عن قفزة التجارة والعمران معها من أيام هاشم وإخوته ثم بنيه، نحن نشهد عجلة الحضارة وقد انتظمت وسارت إلى الأمام على يد القرشيين وأصحاب الملكات التجارية من أهل الجزيرة وخاصة شعوب البحر على سواحل الخليج وجنوبي الجزيرة، وانتقلت الجزيرة كلها من حال إلى حال على يد قريش تؤيدها وتشد أزرها كبار القبائل ورجالاتها لأن التجارة حضارة فهي تبادل متاجر وخبرات ومهارات وصناعات وأفكار.

وإليك بياناً عن أسواق العرب ومواقيتها كما صارت وانتظمت في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، وهو الوقت الذي بدأت فيه قريش عصر الذروة في تاريخها قبل الإسلام، وهو عصر هاشم وإخوته ومعاصريه وحلفائهم من رجالات العرب ثم عصر عبد المطلب وسنتكلم عليه:

وفيما يلي بيان الأسواق والمواني وخط مسير التجارة ومواقيت الأسواق، والمواقيت هنا تقريبية، لأنها وردت في النصوص في مواقيت مختلفة، وقد قربناها على سبيل التيسير، وأتينا بترتيب الأسواق هنا بحسب ما هو وارد في أصولنا العربية وإن كنا نرى أن البداية المنطقية لدورة الأسواق تكون في هجر في ربيع الثاني أما سوق دومة الجندل (التي تقول الأصول العربية إنها أول سوق في العام) فتكون في ربيع الأول من العام التالي:

اسم السوق أو الميناء	الموعد التقريبي	القبيلة أو القبائل صاحبة السوق أو الدولة التي تأخذ العشور أو المكوس إن وجدت	ملاحظات
دومة الجندل	ربيع الأول وقد تمتد إلى آخره	بنو كلب بن وبرة من قضاعة وقبيل الإسلام استقل بها اكيد الكلبي	نظن أن ربيع الأول هذا يكون من العام الجديد بعد انتهاء أسواق الحجاز في ذي الحجة
هجر	ربيع الثاني	بنو عبد القيس	هنا نظن أن
المُشَقَّر	ربيع الثاني أو جمادى الأول	بنو عبد القيس	دورة الأسواق
صُحار	ميناء على ساحل البحر في عمان الأسبوع الأول من رجب	يشرف عليها الأزد وفي العصر النبوي كان متولي السوق الجلندي بن المستكبر	تبدأ كل عام
دبَا	ميناء على ساحل بحر العرب آخر رجب أو آخر يوم فيه	الأزد	
الشِّحْر	ميناء صغير في حضر موت منتصف شعبان	أصحاب حضر موت	
عدن	أوائل رمضان أو اليوم الأول منه	أصحاب السلطان في جنوب اليمن	

اسم السوق أو الميناء	تعريف به وموعده	القبيلة أو القبائل في منطقة السوق أو السلطة التي تجبي المكوس والعشور	ملاحظات
صنعاء	أول رمضان أو منتصف رمضان أو آخره	أصحاب السلطان على وسط اليمن وشماله	
حباشة	جنوبي تهامة في شهر رجب	قبائل شمال اليمن	لم تذكرها معظم المراجع
حجر اليمامة	من عاشوراء إلى آخر محرم	بنو حنيفة وتميم	
ذو المجاز	موضع بمنى على فرسخ من عرفة أو ذي الحجة ومنها يتوجه الناس إلى الحج	هذه هي أسواق الحجاز الثلاثة وكلها تحت إشراف قريش	بهذه الأسواق ينتهي موسم الحج وتنتهي دورة الأسواق
عكاظ	بين مكة والطائف من أول ذي القعدة إلى ٢٠ منه		
مجنّة	بعد عكاظ		
النطاة	بخيبر آخر المحرم	يهود خيبر	

ومن الواضح أن هذا النظام لم يوضع وينتظم على هذه الصورة دفعة واحدة. وإنما هو تكامل مع الزمن بعد أن نهضت قريش بأسواقها وجعلتها أكبر الأسواق في الجزيرة وآخرها في دورة الأسواق كل سنة. وربطتها بالحج أيام عبد المطلب، حتى يفرغ الناس من الأسواق ثم يتوجهون للحج في مكة ومناسك الحج الأخرى، وكلها تحت إشراف قريش وهي التي تفيد منها مادياً ومعنوياً.

وقد أبدى الأستاذ سعيد الأفغاني ملاحظات قيمة على أسواق العرب، ولا بأس من إيرادها ملخصة هنا.

ونحب أن ننبه قبل هذا أن بياننا هنا الذي اعتمد أساساً على بيان الأستاذ سعيد الأفغاني أضاف أسواقاً، لا ترد عند سعيد الأفغاني. وقد أتينا بالأسواق هنا على أساس ما بيناه في خريطة التجارة في جزيرة العرب قبل الإسلام في أطلس تاريخ الإسلام الذي اعتمدنا في عمله على أقصى ما استطعنا الاطلاع عليه من الأصول والمراجع العربية وغير العربية. وفيما يلي موجز لأهم ملاحظات الأستاذ سعيد الأفغاني:

نستطيع أن نقسم أسواق التجارة في جزيرة العرب قبل الإسلام إلى الأقسام التالية:

أ - أسواق عربية تقع في مناطق تسيطر عليها دول عربية، أي عربية على أطراف الجزيرة. ويدخل في هذه الأسواق أحياناً أسواق الحيرة وهجر البحرين وعُمان، فهذه كانت في كثير من الأحيان خاضعة لسلطان الفرس، وولاتهم على مواضع الأسواق كانوا يشرفون على السوق ويأخذون من الناس العشور والمكوس. وقبيل الإسلام كان سلطان فارس يمتد على أسواق العرب على الساحل الشرقي فيما عدا أسواق الحيرة التي كانت تشرف عليها دولة المناذرة، وأشرفت على أسواق دومة الجندل قبائل قضاعة وخاصة كلب بن وبرة وقد انفرد بها آل أكيدر قبيل العصر النبوي.
ويدخل سعيد الأفغاني هنا بُصرى وأذرعات وغزة وهي في بلاد غسان، وكلها خارج جزيرة العرب، ولكنها متصلة بأسواق الجزيرة، وكان العرب يترددون عليها. وكما أشرنا سابقاً يجعل الأفغاني دومة الجندل أول الدورة السنوية للأسواق كل عام. ولكننا نرجِّح أن سوق دومة الجندل يجيء بعد سوق النطاة في ربيع الأول من العام التالي.

ب ـ أسواق أنشأها العرب في بلادهم بحكم الحاجة، فصارت ـ مع الزمن ـ تمثلهم أصدق تمثيل في عاداتهم في البيع والشراء والمخاصمات وعقود الصلح وتحكيم الحكام وعقود الزواج التي تتم فيها وتقرير حقوق كل من الزوجين، ويشرف على كل سوق منها رؤساء القبيلة أو القبائل الضاربة في الاقليم. وهذه القبائل لا تعشر المتاجر أو تأخذ عليها مكساً، ولكنها كانت تتقاضى خفارات وتفيد من الأسواق فوائد عظيمة. وهذه الأسواق واردة في البيان السابق وفي خرائط أطلس التاريخ الإسلامي ومنها أسواق ذات طبيعة خاصة بسبب مواقعها الجغرافية، وهي التي تكون على البحر كعدن وصُحار ودَبا. وفي هذه يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس «ويتضاءل فيها الطابع القومي بمقدار شأنها التجاري». وهذه الملاحظة أتى بها الأستاذ سعيد الأفغاني استنتاجاً، ولكننا نعرف بحكم اطلاعنا على نظام أمثال هذه الموانى والثغور في العالم كله في تلك العصور أن الموانى تختلف في نظامها من ناحية لناحية، ففي بعضها تكون الضرائب مناصفة بين قبائل المنطقة وإحدى الدول ذات السلطان على المناطق المجاورة كما نرى في ميناء عيذاب مثلاً حيث كانت المكوس تؤدى لرئيس البُجاة ويتقاسمها مع سلطان مصر. وفي العادة يكون في مثل هذه الموانى جماعة من التجار المحليين هم الذين يتولون تنظيم السوق وتأمينه وجباية المكوس أو الضرائب وأداء جزء منها إلى القبائل المسيطرة على المنطقة أو للدول صاحبة السلطان. وأكبر مثال لذلك البندقية وغيرها من الموانى الايطالية التي تحولت الى جمهوريات تجارية لأن تجارها اشتروا الحقوق على السوق من الدول الغالبة بمبالغ سنوية تؤدى لها، ثم استقلت بنفسها وامتنعت عن أداء أموال لأحد، بل تحولت إلى قوى بحرية ذات جيوش وأساطيل مسلحة كما نرى في حالة البندقية.
وبالنسبة لموانى الجزيرة قبل الإسلام لم تتطور إلى هذا الحد، ولكن كان في كل ميناء منها جماعة من التجار المنظمين يرأسهم شيخ التجار أو الشاه بندر أي رئيس البندر، وهذا الرئيس هو الذي يتولى أمر الميناء والسوق ويشرف على

دور صناعة السفن بالاشتراك مع غيره من التجار، هكذا كان الحال في صحار ودَبَا والشِّحر والمكلا وعدن وما إليها، وإن كانت التفاصيل لدينا عن ذلك قليلة جداً.

ويضيف الأستاذ الأفغاني أنه اقتصر على ذكر الأسواق العامة دون المحلية الخاصة بكل قبيلة أو بمجموع من القبائل، فلا شك أنه كان لكل قبيلة سوقها المحلي الدوري فقد تكون السوق اسبوعية أو شهرية أو سنوية. ويضرب مثلاً بذلك سوق بدر فقد كانت سوقاً محلية يتجمع فيها تجار المنطقة كل عام في موسم معين، وهذا صحيح كما نرى في تفاصيل غزوة بدر الكبرى وغزوة بدر الموعد بصورة خاصة.

ولم نذكر هنا المدن الكبرى أو مركز العمران، فكل مدينة سوق كبيرة دائمة ومثال ذلك مكة وغزة ودومة الجندل وخيبر، وهناك أسواق صغيرة محلية، ولكنها دائمة اشتهرت بتجارات معينة، مثل دارين في منطقة الخليج. وقد اشتهرت بأنها مجمع تجار العطور، ومن أراد العطور ذهب إليها، وقد اشتهرت سوق دارين بالمسك وعطور الهند التي كانت تجلب إليها، وبلغ من ذلك أن نسبة الداري أصبحت اسماً لتاجر العطور في كل مكان وجاء في الحديث الشريف: مثل الجليس الصالح مثل الداري إن لم يحذك من عطره علقك من ريحه. ومثل هذه الأسواق يقصدها من يريد أصنافاً معينة. ومن أمثلة ذلك أيضاً رُدَينة وهي فُرضة على شط البحر في شرقي الجزيرة. وقد خفي موضعها علينا الآن، ولكنها كانت مركزاً لصقل واعداد نوع من الرماح كان يؤتى بسنانها من الهند، فقيل رماح ردينية وهناك أيضاً الرماح الخطية منسوبة إلى موضع يسمى الخط في شرق الجزيرة أيضاً.

ومن البلاد التي اشتهرت بتجارة أصناف معينة فأصبحت سوقاً دائمة الطائف حيث جادت صناعة ودبغ الجلود واشتهر البلد بأدم أو أُهَب (جلود) الطائف واشتهر البلد كذلك بزبيبه وفواكهه.

وكان بعض أصحاب النفوذ من الدول المحيطة بشبه الجزيرة ينظمون قوافل ـ تجارية خاصة بهم تسمى الواحدة منها لَطِيمة، وهي لفظة غير عربية، والغالب أنها سريانية أو نبطية وقد اختلف العرب في معنى اللطيمة فيقال انها القافلة أو التجارة التي تحملها القافلة.

وهذا يكفي عن أسواق العرب وتطور التجارة المكية في هذا المقام(١).

وسنستكمل كلامنا عن تلك النهضة الكبيرة في مكة على يد قريش وما اتصل بها من تطورات أخرى في شرق الجزيرة في سياق كلامنا عن عبد المطلب، رابع مؤسسي مجد قريش قبل الاسلام.

كلمة ختامية عن هاشم وأعماله:

ونختم كلامنا عن هاشم وإخوته وأعمالهم بالفقرة الثالثة من الطبري يسوقها عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي يتحدث عن هاشم وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل قال: «فسادوا بعد أبيهم (عبد مناف) جميعاً، وكان يقال لهم المجبِّرون» قال: ولهم يقال: «فكانوا أول من أخذ لقريش العِصَم فانتشروا من الحرم: أخذ لهم هاشم حَبْلا من ملوك الشام الروم وغسان.

وأخذ لهم عبد شمس حبلا من النجاشي الأكبر، فاختلفوا بهذا السبب إلى أرض الحبشة.

---

(١) انظر:

ـ سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والاسلام، الطبعة الثالثة دار الفكر، بيروت ١٩٧٤.

الكتاب كله هام هنا ولكن انظر بصفة خاصة باب إيلاف قريش ص ١٤٦ وما بعدها.

ـ ظافر القاسمي: الايلاف أو المعونات غير المشروطة. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، نيسان (ابريل) ١٩٥٩ ونحن لا نوافق صاحب المقال على رأيه في معنى الايلاف ـ وانظر الى جانب مراجعنا الواردة في آخر الفصل ثبت المراجع الوافي الذي أورده سعيد الأفغاني ص ٥١٥ وما بعدها.

وأخذ لهم نوفل حبلا من الأكاسرة، فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس. وأخذ لهم المطلب حبلا من ملوك حمير، فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن فجبّر الله بهم قريشاً فسموا المجبِّرين.

وقيل إن عبد شمس وهاشماً توأمان، وإن أحدهما ولد قبل صاحبه وأصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه، فَنُحِّيت عنها فسال من ذلك دم، فَتُطُيِّر من ذلك، فقيل: تكون بينهما دماء. وولي هاشم بعد أبيه السقاية والرفادة[1]».

ويلاحظ أن الطبري يستعمل كلمة الحبال في معنى العصم، وأبو الفضل ابراهيم محقق نسخة الطبري التي نعتمد عليها هنا يقول في الهامش: العِصَم - بكسر ففتح. الحبال ويراد بها العهود، والمفرد في هذه الحالة هو العِصَم ومعناه الحبَل وهو العهد.

ولا نتعجب في هذه الحالة من أن الله سبحانه وتعالى يقول في سورة آل عمران (٣/١٠٣): ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ لأن القرآن نزل بلسان عربي، مبين أي باللغة العربية التي يفهمها كل العرب، فلا بد أن كلمة الحبل بمعنى العهد كانت مفهومة تماماً لكل العرب. وكذلك فعل «اعتصم» بمعنى تمسك به كان واضحاً لكل العرب، وهذا يدل على أن استعمال الحبال بمعنى العهود التي كان الناس يتفقون على عقدها فيما بين بعضهم وبعض كما فعل هاشم وإخوته مع الملوك كانت شائعة جداً عند العرب، وكانت تجري على كل لسان، وقد استعمل كلمة الحبل بمعنى العهد رسول الله ﷺ في الصحيفة التي كتبها بين المسلمين والمؤمنين من مهاجرين وأنصار في يثرب، ومن انضم إليهم وحالفهم أي اعتصم وتمسك بالعهد من اليهود.

وننتقل الآن إلى الحديث عن عبد المطلب ودوره في بناء قريش قبل الإسلام مرجئين بقية الكلام على نتائج عمل هاشم إلى ما بعد الفراغ من

---

(١) الطبري، تاريخ: ١/٢٥٢.

الكلام عن عبد المطلب وجهوده في بناء الركن الرابع من أركان قوة قريش وهو الدين.

عَبد المطّلب بن هَاشِم وَدَوره في بنَاء الركن الرَابع مِن أركان قوّة قريش قبل الإسلام وَهو الدّين:

بعد موت هاشم تقول النصوص إن أخاه المطلب بن عبد مناف «قام بأمر مكة» وهي عبارة لا نفهم المراد منها على وجه الدقة، فما كانت مكة بدولة حتى يقوم بأمرها رجل، وإنما هي كانت مستقر قبيلة، والقبيلة ترأسها جماعة ساداتها، ورئيس القبيلة لا يقوم بأمرها، بل هو ليس رئيسها بالمعنى الدقيق، ثم إن قريشاً لم تكن مالكة لمكة ولا منفردة بأمرها وإنما هي دخلتها وانتزعت السيادة عليها من خزاعة، ولكنها لم تملكها إذ إن دخول قريش مكة لا يمنع من أنه كان بمكة ناس آخرون من قبائل أخرى لا يخضعون للرياسة القرشية فالخزاعيون الذين بقوا بمكة والقضاعيون الذين دخلوها مع قصي لم يكونوا خاضعين لقريش. إنما رياسة قريش هنا كانت زعامة قبلية شرفية، وصاحبها لا يقال فيه إنه قام بأمر مكة، وسنرى أنه عندما يقترب ابرهة من مكة سيخلي له عبد المطلب الطريق قائلاً: إن للبيت ربا يحميه، ولو كان يتولى أمر مكة فعلاً لحارب الأحباش أو لجمع قومه وتشاور معهم في الأمر، أو لتفاوض مع أبرهة على الأقل، كما فعل زعماء المكيين عندما أراد الرسول ﷺ دخول مكة للعمرة عام الحديبية، ومحمد رسول الله ﷺ عندما أزمع العمرة لم يكن يرى أنه يقتحم بلداً على أهله، بل كان يريد العمرة ويطوف بالبيت في بلد المفروض أنه مفتوح لكل العُمّار والحجاج - إنما هم القرشيون الذين اعترضوا واعتبروا دخوله مع المسلمين انتهاكاً لحرمة قبيلتهم وعندما اعتمر رسول الله وأصحابه من قابل ترك البلد زعماء القرشيين، ولكنهم لم يحاربوا، لا ولا حاربوا يوم فتح مكة، لأن حقيقة وضع قريش بالنسبة لمكة لم تكن حقيقة قبيلة تملك بلداً. وقريش قبل

الإسلام لم تكن تدير مكة أو تتولى أمورها أو تعتبر نفسها مسئولة عن مرافقها أو حماية أهلها، ولو قُتل رجل من أهل مكة من غير القرشيين فما كانت قريش لتقوم بدور ولي القتيل، وما كانت لها رياسة أو سيادة على البلد بالمعنى الدقيق لهذه الألفاظ، بل ليس لدينا دليل على أن قريشاً كانت تملك أرض مكة أو ـ الأرض من حولها، إنما ملك القرشيون دورهم، وملك كل ساكن في مكة داره، والوظائف التي كان القرشيون يتولونها لم تكن وظائف سلطة وإنما مناصب شرف ومسئوليات قبلية بعيدة كل البعد عن الوظائف الإدارية أو وظائف أعضاء المجلس البلدي مثلاً، كما كان الحال في المدن والمواني الأوروبية أول ظهور المدن في الغرب الأوروبي، ولم تكن مشيخة قريش بمجلس بلدي أو مجلس حاكم كما ذهب بعض الباحثين الغربيين، نعم إنها كانت قريبة من هذا المعنى ولكنها ليست به أصلاً.

وهذه كلها معان ينبغي أن تكون في ذهننا لنفهم على وجه الدقة حقيقة وضع قريش في مكة وعلاقتها بها قبل الإسلام، وهو وضع فريد في بابه، وعلاقات قريش بمدينة مكة تنبع من قريش بصفتها قبيلة لا بصفتها دولة أو تنظيماً إدارياً، واليعقوبي عندما يقول إن عبد المطلب قام بأمر مكة ينظر إلى الموضوع نظرة رجعية، أي أنه يرجع بصورة مكة الداخلة في دولة الإسلام ويطبقها على مكة قبل الإسلام. وعبد المطلب في الحقيقة إنما قام بأمر القبيلة واحلافها لا بأمر المدينة. والفرق بين المعنيين كبير. والمطلب بن عبد مناف عندما قام بأمر القبيلة بعد أبيه لم يرث ملكاً ولا سيادة ولا إمارة ولا سلطاناً، وإنما هو ورث مسئولية، والمسئولية لا يتنازع عليها الناس، حقاً إن تحمل تلك المسئولية كان يجلب معه سُؤدداً أو شرفاً، ولكن السؤدد هو المعنى الروحي للسيادة، والشرف يطلبه من يريده ويقوم بتكاليفه، والتكاليف هنا واضحة معروفة، فهي غرم مالي متجدد، فهي تلزم صاحبها بالرفادة والسقاية وهما عملان كانا يجتذبان الناس إلى مكة، ولكن صاحبهما كان يتحمل معظم

الغرم، أما الأرباح فكانت تتفرق في أهل مكة كلها، كل بحسب اجتهاده وملكاته ومساهمته في التجارة وقدراته على الإفادة مادياً من الحجاج، وهاشم وإخوته حوّلوا مكة إلى مركز تجاري كبير، وجمعوا من ذلك مالاً وفيراً، ولكن غيرهم من القرشيين ممن نظروا إلى الناحية التجارية والمالية وحدها كسبوا أكثر، وواحد من هؤلاء وهو جدعان بن عمرو بن كعب ثم ابنه عبد الله بن جدعان وهما من بيت تيم بن مرة جمعا من المال أضعاف ما جمع هاشم وأخوته دون أن يتحملا نفقات شرف أو تكاليف سؤدد، وبيت عبد العزى بن قصي ضاهى بيت جدعان بن عمرو في المال والغنى، وكذلك كان الحال مع بيت المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ونوفل بن عبد مناف، وهو أخو هاشم كان أغنى وأكثر مالاً من المطلب، ولكنه لم يتقدم للرياسة والمطلب نفسه لم يكد يأنس في ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم استعداداً لحمل هذا الشرف وذلك السؤدد حتى تنازل عنه له طواعية عن طيب خاطر، وعبد المطلب نفسه عندما تولى هذا الشرف وجد نفسه وحيداً وكان عليه أن يحمل معظم العبء لا يساعده في ذلك أول الأمر إلا ابنه الحارث، وكان عليه أن يجد ويجتهد حتى يحصل على المال الذي يعينه على حمل العبء، وعندما تتقدم بنا الدراسة في حياة عبد المطلب سنرى حكاية اجتهاده في حفر بئر زمزم والبحث عما كانت جرهم قد ألقته فيها قبل طمها على ضوء جديد.

قام المطلب بن عبد مناف إذن مقام أخيه هاشم، وكان المطلب من أكثر إخوة هاشم اجتهاداً في اتمام عمل أخيه مع أنه كان أصغرهم سناً فيما يقول الطبري ـ وهو الذي أخذ العِصم من الحميريين سادة اليمن. وغريب من الأمر أن عبد شمس أخا هاشم لم يتطلع للرياسة مع ما يقال من أن أمية ابنه حسد هاشماً على ما نال من سؤدد وشرف. وكان ـ أي ابنه ـ ذا مال فتكلف أن يصنع صنيع هاشم وعجز عنه، فشمت به ناس من قريش فغضب ونال من هاشم، ودعاه إلى المفاخرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، ولم تدعه قريش واحفظوه،

قال: فإني أناظرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة أو الجلاء عن مكة عشر سنين، فرضي بذلك أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، فنفّر هاشماً عليه أي حكم لهاشم على ابن أخيه، فأخذ هاشم الابل فنحرها وأطعمها من حضره وخرج أمية إلى الشام، فأقام بها عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية»[1] وإنما أخرت هذه الحكاية مع أن موضعها كان في حياة هاشم لأنني غير مطمئن إلى صحتها لأن ابن الأخ لا ينازع عمه.وأبوه موجود، وإذا كان أمية بن عبد شمس على صغر سنه إذ ذاك ذا مال، فلا بد أن أباه وهو الذي أخذ العِصم من النجاشي صاحب الحبشة أغنى من ابنه فلماذا لم يَرُدَّ ابنه أمية عن هذه الحماقة وكيف ترك الكاهن الخزاعي يستجيب لما طلبه هاشم من جلاء أمية عن مكة عشر سنين، والحقيقة فيما يبدو أن أمية قد يكون قد نَفِس على عمه مكانه فوقعت بينهما مفاخرة او تَحَدّ وتدخلت قريش للصلح، وقد يكونوا طلبوا رأي هذا الكاهن فافتى بأنَّ من عليه الحق أو المخطىء يغرم خمسين ناقة سود الحدق تنحر للناس، وخسر أمية وغرم وترك مكة ليطلب المال والغنى عن طريق التجارة في الشام، وخرج إلى الشام وليس من الضروري أن يكون قد نفي من البلد أو ظل بعيداً عنه عشر سنين، لأن معظم أولاده ولدوا ونشأوا بمكة، وعبد شمس في هذا كله مع أخيه دون ابنه، وسيظل معه وعندما يتوفى هاشم لن يطلب عبد شمس الرياسة، بل تركها للمطلب، ربما لأنه لم يشأ أن يتحمل مغارمها، ثم جاء الرواة بعد الإسلام وبعد شبوب العداوة بين بني أمية وبني هاشم، فنظروا في الحكاية وصاغوها صياغة رجعية، فجعلوا عبد شمس أولاً يولد مع هاشم وأصبع أحدهما لاصقة بجبهة الآخر فكان لا بد من الفصل بينهما بالسلاح، فكانت تلك مما زعموا أول عداوة بين بني أمية وبني هاشم إذ ذاك ثم بالغوا في تصوير ما كان بين هاشم وابن أخيه ووضعوا في ذلك كلاماً مزوّراً كثيراً. والحق أن

---

(1) الطبري ١/٢٥٣.

عداوة بني هاشم وبني أمية إنما أخذت صورتها الدموية يوم بدر، وقد تولى اثنان من أبطال بني هاشم هما عليّ بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب تحطيم بيت أمية، وهما معاً قضيا في ذلك اليوم على نحو خمسة عشر من كبراء بني أمية وأحلافهم، فكانوا أحفل الناس بالمصيبة بعد بيت مخزوم الذي تحطم بصورة حاسمة يوم بدر. وعليّ وحمزة لم يجتهدا هذا الاجتهاد في ضرب بني أمية لأنهما كانا يحملان ضغناً لبني أمية وإنما كانا يحاربان في سبيل الإسلام ويقضيان على خصومه، وهما نظرا إلى ما فعلا يوم بدر على أنه جهاد في سبيل الإسلام ونصر له، وكذلك نظر إليه رسول الله ﷺ، ولكن المصاب المكلوم ينطوي دائماً على الغيظ والحقد، وأبو سفيان بن حرب الذي لم يحارب في بدر سيتولى قيادة الجبهة المعادية للإسلام بدافع الرغبة في الثأر لا غضباً لقريش وسيكون حقد بني أمية على بني هاشم ابتداء من يوم بدر نقطة من نقط الاختلاف الجوهرية بين طبيعة بيت بني هاشم وطبيعة بيت بني أمية وموقف كل منهم في أمة الإسلام فالأولون أهل عقيدة ومبدأ والآخرون أهل عصبية وأحقاد قبلية تحولت بعد الإسلام إلى أحقاد سياسية.

قام المطلب بن عبد مناف بما كان يقوم به أخوه هاشم. والمطلب وبنوه كانوا من أصغر بيوت قريش، ولم يعرف عنهم مال ولا ذُكروا بعلو المكانة في قريش يوم ذاك. كان للمطلب أولاد كثيرون لم يظهر منهم إلا أبو الحارث عبيدة ابن الحارث بن المطلب وهو من قدماء المسلمين، اسلم قبل أن يدخل رسول الله دار الأرقم ويدعو فيها، وكان أسن من رسول الله بعشر سنين، ولم يكن في المسلمين يومئذ من يكبر رسول الله في السن إلا عبيدة هذا، وقد أقامه الرسول على ثاني سرية أرسلها، وهي السرية التي اتجهت إلى الطريق التجاري وتعرضت للعيد الذي كان فيه أبو سفيان. وتحاجز الحيان ولم يقع قتال إلا ما كان من رَمي سعد بن أبي وقاص بسهم يقال إنه أول سهم رمي في الإسلام. وقد حضر عبيدة بن الحارث بدراً وجرح فيها ومات منصرفه منها. وقد اقطع

الرسول بني المطلب خطة في المدينة بعد الهجرة واشتهر منهم ركانه بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب الذي صرعه رسول الله ﷺ والسائب بن عبد يزيد بن هشام مشهور عندنا لأنه الجد الأعلى للفقيه الكبير محمد بن ادريس الشافعي.

لا غرابة إذن أن يثقل عبء تراث هاشم بن عبد مناف على أخيه المطلب، وغريب أن عبد شمس لم يتقدم ليحتل هذا المنصب الذي طلبه ابنه، ومن الممكن أن يكون قد مات بعد وفاة أخيه بقليل لأن سياق خبر موت هاشم يفهم منه أن عبد شمس مات بعد موت هاشم مباشرة، ولكن المطلب على أي حال تحمل هذا العبء حتى تنازل عنه لابن أخيه عبد المطلب بن هاشم. وهذا التنازل في ذاته غريب لما نعلم من حرص العرب على المناصب مهما تواضعت، فكيف بمركز كهذا هو أشبه برياسة ـ ولو شرفية مكلفة ـ لقريش كلها.

وليس هذا هو الأمر الغريب الوحيد في سيرة عبد المطلب، لأن قصته كلها أشبه بالأسطورة، وخبره في حفر بئر زمزم يروى بالفعل في صورة أسطورة من القصص الشعبي، وعندما رواها د. طه حسين بأسلوبه البديع جعلها بالفعل على هامش السيرة كأنها في إحساسه ـ ليست من صلب السيرة.

ولكن جماعة رواتنا يروون القصة كلها وكأنها تاريخ صحيح، ونحن هنا نتابعهم دون أن نعلّق على هذا القصص، لأنه في الحقيقة لا يمس لباب الموضوع لأن لبابه هو عبد المطلب نفسه وما فعل بعد أن صارت له الرفادة والسقاية ثم رياسة قريش بعد ذلك.

وأم عبد المطلب فيما يقال خزرجية من المدينة، وهي سلمى بنت عمرو ابن زيد من بني غنم بن عدي بن النجار، وهذا هو اسمها عند ابن حزم[1]، ويستوقف نظرنا أن ابن حزم عندما ذكر أنساب بني عدي بن النجار لم يذكر سلمى فيهم، كأنها كانت مذكورة في أنساب قريش ولا ذكر لها في أنساب

(١) ابن حزم، جمهرة ص ١٤.

الخزرج. وقد تزوج هاشم من خزرجية أخرى هي هند بنت عمرو بن ثعلبة من بني غنم بن عوف بن الخزرج. ولم يجمع رجل من العرب في نسائه التنوع الذي نجده في نساء هاشم، فها هو قد تزوج اثنتين من الخزرج وواحدة من بني المصطلق من خزاعة وواحدة من بني سعد من قضاعة وواحدة من بني مازن ابن صعصعة من قيس عيلان وواحدة من ثقيف، فهؤلاء ست نساء أنجبن له أربعة ذكور وخمس إناث، ولم يكن لهاشم من سلمى بنت عمرو الخزرجية هذه إلا ولد واحد هو شيبة (الذي سيصبح عبد المطلب) وجارية تسمى رقية ماتت صغيرة، ولم يكن شيبة أكبر أبناء هاشم، بل كان أكبرهم عَمْراً وأمه هند بنت عمرو وهي الخزرجية الأولى، وسلمى هي الثانية[1].

فكأن هاشماً التاجر السفار، كان في نفس الوقت مزواجاً يتزوج في القبائل التي يتاجر معها، ولا نجد بين نسائه قرشية.

وكان هاشم قد رأى سلمى في السوق في المدينة وهي تبيع وتشتري، فأعجب بها وبجمالها، وكانت - فيما يقول ابن هشام «لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، إذا كرهت رجلاً فارقته[2]»، فأنجبت منه ولداً هو شيبة، وابنة هي رقية التي ذكرناها، فتركه هاشم عندها فنشأ وكبر في بني عدي بن النجار الخزرجيين في المدينة. وهذا هو السبب فيما يذكر عادة في كتب السيرة من أن بني عدي بن النجار أخوال النبي ﷺ، وهم ليسوا أخوالاً مباشرين له على الحقيقة، وإنما هم أخوال جده عبد المطلب، ولكن الأمر انسحب عليه ﷺ تجوزا، وأصبحت له أهمية خاصة فيما بعد، أي بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ونزوله في منازل بني النجار ويبدو أن العلاقة اتصلت بين بني النجار وبني هاشم، لأن عبدالله والد الرسول ﷺ أَلَمَّ بِهِم في

(١) ابن الكلبي، برواية ابن هشام في السيرة ١/١٢ وبرواية النويري في نهاية الأرب ١٦/٣٨-٣٩.

(٢) ابن هشام، السيرة ١/١٤٥.

رحلته، وعندهم توفي في المدينة.

ونشأ شيبة في المدينة في كَنَف أمه، فلما أصبح وصيفاً أي في حوالي الثانية عشرة من عمره، ظهرت منه نجابة وشفوف على إخوانه، وكان يعرف أن أباه هاشم بن عبد مناف، فلما بلغ المطلب ذلك قرر الخروج إلى المدينة ليأتي بابن أخيه حتى لا يشب بعيداً عن قوم أبيه،وللقصاصين في ذلك قصص وشعر كثير، والمهم أن المطلب ذهب بنفسه وأتى بابن أخيه إما بموافقة أمه أو خلسة منها، فلما عاد به إلى مكة أردفه خلفه على الناقة، وصار إذا سأله الناس: من هذا معك؟ قال هذا عبدي يريد هذا مِلكي، ويقال إنه كان يقول: هذا عبد ابتعته بيثرب، ومن هنا غلب عليه اسم عبد المطلب، مع أنه لم يلبث أن صارحهم بأنه شيبة ابن أخيه عمرو ـ وهو هاشم ـ نشأ عند أخواله وذهب هو فأتى به حتى لا يشب غريباً عن قوم أبيه وهم قريش.

وشب عبد المطلب ودخل مداخل الرجال وأصبح من شباب قريش الذين تتعلق بهم الآمال، والنصوص لا تذكر لنا هنا كيف ولي عبد المطلب السقاية والرفادة بعد هاشم، وكل ما تقوله هو أن عبد المطلب كان جسيماً وسيماً، طوالا فصيحاً ما رآه أحد إلا أحبه. قال الواقدي: وأقام عبد المطلب بمكة حتى أدرك، وخرج المطلب بن عبد مناف تاجراً إلى أرض اليمن، فهلك بردمان من أرض اليمن، فولي عبد المطلب بعده الرفادة والسقاية، فلم يزل ذلك بيده وهو يطعم الحاج ويسقيهم في حياض الأدم (الجلد) حتى حفر زمزم، فترك السقيَ في الحياض وسقاهم من زمزم، فكان يحمل الماء من زمزم إلى عَرَفه، فيسقيهم، والله أعلم»[1].

ومن الآن فصاعداً سنلاحظ انعكاس صورة رسول الله ﷺ وخلاله ـ كما تخيلها الرواة على جده عبد المطلب، ومن هنا أيضاً إلى وفاة عبد المطلب سنجد

---

(١) النويري، نهاية ١٦/ ٤٣.

صعوبة في العثور على خيط التاريخ وسط فيض القصص والشعر الشعبيين، وابن اسحاق هنا يفقد حاسته التاريخية، فهو يحفن من القصص والشعر الشعبيين بكلتا يديه ويضع في جعبة سيرته، وقد تعرض بسبب ذلك لنقد كثير من خصومه، ونقل عنه معظم ذلك ابن هشام، وربما زاد فيه، والنقاد هنا على حق، لأن هذا الفيض من القصص أضر في الحقيقة بصلب التاريخ، ومن أمثلة ذلك أن ابن اسحاق ـ برواية ابن هشام ـ يورد قصيدة في رثاء المطلب بن هاشم يصوره وكأنه كان أغنى الناس وأنه كان ينفق من ماله العريض في إطعام الحجيج وسقيهم، ولم يكتف بذلك بل أضاف أن الشاعر الذي قال هذا الشعر بعد أن فرغ من شعره قيل له ـ واسمه مطرود ـ دون اسم أو كنية أو نسب غير هذا ـ لقد قلت فأحسنت، ولو كان أفحل مما قلت كان أحسن، فقال: انظراني ليالي فمكث أياماً ثم قال. . . ثم يورد نص قصيدة تتخطى الصفحات الثلاث[1].

والحقيقة أن عبد المطلب كان شاباً طموحاً وكانت له مواهب كثيرة أهمها بالنسبة لنا الآن هي قدرته على التعرف على مواضع الماء تحت الأرض وهي موهبة توجد عند قليل من الناس الى يومنا هذا في بعض رجال مناطق الصحارى، وفي النواحي المصابة بالجفاف، وفي جنوب فرنسا وشمال اسبانيا الى يومنا هذا رجال ـ معروفون بذلك يستدعيهم الناس للبحث عن مواقع الماء ليحفروا فيها ويجدوا الماء، وقد اشتهر بذلك ناس في اقليم أرتوا في جنوب غرب فرنسا حيث تسمى الآبار بالأرتوازية ، وعند العرب الجاهليين كان الناس يرون شيئاً من الكهانة والعلم في الرجال الذين توجد فيهم هذه الملكة وكانوا عندهم موضع تبجيل وتقدير.

وعبد المطلب كان يتمتع بنصيب كبير من هذه الموهبة، واليه تنسب آبار كثيرة في مكة وفي الطرق إليها، تعرف على مواضعها وحفرها بنفسه ووهبها

---

(١) ابن هشام، السيرة: ١/١٤٧ ـ ١٥٠.

لقومه، فكان ذلك من ممهدات رياسته.

غير أن عمله الأكبر في ذلك المجال هو حفر زمزم، والنصوص تقول هنا إنه رأى في منامه طائفاً يأمره بحفر زمزم ويحدد له مكانها في الحجر بين صنمين لأساف ونائلة، فذهب مع ابنه الوحيد إذ ذاك وهو الحارث ـ وهذا يدل على أن عبد المطلب كان شاباً في ذلك الحين ولم يكد يحفر إلا قليلاً حتى ظهر «الطي» وهو كنز فيه تمثالا غزالين من ذهب وسيوف ـ كانت فيما يقال لجرهم، فلما اضطرت جرهم لمغادرة مكة رموا هذا الكنز في بئر زمزم وطموها. ونحن نقول إن أخبار ما فعلته جرهم لا بد قد وصلت عبد المطلب فقرر الحفر عنها، وكان من قبله يتهيبون ذلك، لأن موضع زمزم كان بين صنمين لإلهين من آلهة العرب، ولكن عبد المطلب كان شاباً واسع الذهن باسلاً لا يخاف، فتحدى قريشاً ـ كلها وحفر موضع الطي، ووجد الكنز ثم استمر يحفر حتى كشف عن ماء زمزم، وهذا العمل كان كبير الأثر في تاريخ عبد المطلب، فقد رأوا حسن طالعه بكشف الكنز ودقة علمه بالعثور على أكبر آبار مكة. فَعَلت مكانته بين الناس، وأحسن هو التصرف، فضرب بعض الذهب صفائح حَلّى بها أبواب الكعبة، ونازعته قريش في ملكية بئر زمزم، فأثبت لهم سعة علمه وحُسن طالعه وحفر بئراً أخرى في موضع مفازة معطشة كانت قوافلهم تسير فيها[1] فثبت لهم امتيازه، فاعترفوا له بحقه في ماء زمزم، فلما اطمأن إلى ذلك جعل ماءها مشاعاً بين الناس، وأخذ يسقي الحجيج منها، وكانت زمزم أكبر عين في مكة وأحسنها ماء، فلم يبق في مكة من ينازع عبد المطلب الشرف والرياسة، وتولى الرفادة والسقاية وأصبحت له في مكة مكانة تشبه مكانة أبيه هاشم وجده قصي.

وكانت معرفة عبد المطلب بمواضع المياه جانباً مما امتاز به من الميل إلى

---

(١) ابن هشام، السيرة: ١/١٥٢ ـ ١٥٣.

الدين والكهانة، فلما فتح الله عليه هذا الفتح اتجه ببعد نظره إلى الحج واهتم بمناسكه فنظمها بالاشتراك مع بقية القرشيين ووضع نظم الحج التي أعطت بيت عبد المطلب مكانة رفيعة بين قريش وانتفع القرشيون بملكاتهم التجارية في تحويل مناسك الحج إلى مَصْدَر قوة ورزق عظيم وكسب لهم.

وقد كانت في مكة آبار قليلة حفر بعضها رجال قريش بعد استقرارهم فيها، ولكنها كانت آباراً صغيرة تختص بالواحد منها القبيلة الواحدة وتملكها، فكانت لبني عبد شمس بئر تسمى الطُّوِيّ، وكانت بأعلى مكة عند البيضاء، وحفر هاشم بن عبد مناف بئر بدر على فم شِعب بني طالب، وكان هاشم قد جعلها للناس كلهم، وحفر أمية بن عبد شمس لنفسه بئراً تسمى الحفر، وحفر بنو أسد بن عبد العُزَّى بئر سُقْيَة، وحفر بنو عبد الدار بئر أحراد، وسيحفر المطعم بن عدي بئر سجله. ولا بد أنه كانت في الموضع قبل ذلك آبار أخرى، وإلا فكيف كان موضع مكة مسكوناً منذ الزمن القديم؟ ولكن هذه الآبار كلها كانت صغيرة لا تكفي الواحدة منها إلا النفر القليلين، فلما اكتشف عبد المطلب موضع زمزم وأعاد حفرها حظي البلد بمصدر ماء غزير فاتسعت أمام أهلها سبل العمران، واستطاعوا أن يمدوا باعهم في العناية بالحجاج بسقيهم الماء الوفير ولهذا تعد إعادة حفر زمزم على يد عبد المطلب خطوة كبيرة نحو نهوض مكة في ظل قريش.

وكذلك كان القرشيون قبل دخولهم مكة قد احتفروا آباراً بمنازلهم خارج البلد منها بئر ترجع إلى أيام مرة بن كعب وكلاب بن مرة، وإلى كلاب بن مرة أيضاً تنسب بئر خم، وهي المشهورة باسم غدير خُم، وحفروا بئراً أخرى تسمى الحَفر، وكان ذلك قبل دخولهم مكة كما قلنا[1].

ونسترسل بعض الشيء مع القصص الشعبي فنقول إن عبد المطلب نذر

---

(١) ابن هشام، السيرة: ١/١٥٧ ـ ١٥٨.

لله أنـه إذا أعطاه عشـراً من البنين يقفـون معه ويعـز بهم أمره لينْحَـرن آخرهم للكعبة، وبالفعل رزق تسعة أبناء آخرين غير الحارث، وكـان آخرهم عبـدالله والد الرسول ﷺ، وكان هو وأخوه الزبير شقيقين، أمهما فاطمة بنت عمـرو بن عائذ من بني مخزوم بن يقظة، فلما أراد تقريبه لهبل إله قريش ـ وكان صنمـه في جوف الكعبة ـ قامت قريش تعترض عليه مخافة أن يصبح نحر الولد وفـاء بنذر عادة جديدة يجري عليها القرشيون، وكان أشد الناس اعتراضاً بنو مخزوم، لأن عبدالله ابن أختهم، واتفق أمرهم على أن يسألوا في الأمر امرأة عرّافـة بالحجـاز كانت تسكن بالمدينة، لأن مكة في تهامة، فذهبوا إليها فوجدوها في خيبر لبعض شأنها، فذهبوا إليها واستشـاروها فـطلبت إليهم أن يُنظروهـا يومـاً حتى يأتيهـا تابعها، فلما جاءوها من الغد قالت لهم إن تـابعها قـد أتاهـا وأفتى بأن يضـرب عبد المطلب بالقداح، فإذا خرج القدح على ابنه عبد الله زاد في دية الدم عشرة من الابل، وكانت الدية عشرة من الابل حتى ذلك الحين، ففعل عبد المـطلب وما زال يزيد الابل عشراً كل مرة حتى بلغت الديـة مائـة من الابل، ثم خـرج قـدح الابل ففـرح عبد المـطلب بنجاة ولـده وأصبحت دية الـرجـل من ذلـك الحين ـ فيما تزعم القصة ـ مائة من الابل، وإنما استرسلنا مع هذه القصـة لنرى كيف كان القرشيون في ذلك الحين يلجأون إلى الكواهن والعرافـين والعرافـات في كل ما أهمهم من الأمر، وقد ذكر محمد بن حبيب النسـابة في كتـاب «المنمق في أخبار قريش» أمثلة كثيرة من هذا النوع.

ونظر عبد المـطلب بعد أن صـارت له الـرفادة والسقـاية والنـدوة في أمر الكعبة فوجد أنها محج العرب، يجتمعون فيهـا للحج والتجـارة بعد الأسـواق، ولاحظ أن العرب حريصـون على الحـج إلى هذا البيت، ثم إن منـاسك الحـج كانت موزعة بين أيدي قبائـل مختلفة، فهنـاك قبيلة تسمى صوفـة كانت تنـزل بناحية عرفات وتشرف على إقامة الحـج من هناك، ويقـال إن صوفـة من فروع إلياس بن مضر ويقال أيضاً إن صوفة من بقايا جرهم، ولكن الغـالب أنها من

قيس عيلان بن مضر، وكانت جماعة من بني عَدْوان من قيس عيلان ضاربة بناحية مُزْدَلِفة، فكانت تشرف على أمور الحجيج عند مزدلفة. ثم أن صوفة كانت تأخذ بمخرج الحجيج من مِنى بعد انتهاء الحج فلا ينطلق أحد إلا بإذنها، فضاق الناس بأمرها، فرأى عبد المطلب أن يجمع ذلك كله في يده، فاتفق مع خزاعة وغيرها من القبائل هناك على أن يتولى هو وبنوه بالاشتراك مع خزاعة الاشراف على شئون الحج كلها، وقد ذكرنا أنه كان قد ساد منطقة الحرم بمكة بما كان ينفق على الحجيج من ماله في الرفادة والسقاية وراحة الحجاج، هذا بالإضافة إلى ما كان له من رياسة دار الندوة، وهي مجمع القرشيين ودار شوراهم، لا يقررون أمراً من أمورهم إلا فيها، بل كانوا يعلنون فيها بلوغ البنات أي وصولهن إلى سن الزواج، وفيها كانت تعقد الأنكحة، وإذا أرادت قريش أن تتخذ قراراً بالحرب كان ذلك في دار الندوة، وفيها يعقد اللواء، أي لواء الحرب، وذلك كله كان يكلف عبد المطلب مالاً كثيراً، فلما عرض عليهم أمر تنظيم الحج وافقوه، وقام بتنظيم أمر المناسك والمواقف في عرفات ومزدلفة ومِنى وحراسة الطريق من العقبة وهي الجمرة الصغرى حتى مكة، وفي هذا الموضع كانت تنزل بعض بطون كنانة في المساحة المعروفة بالمُحَصَّب وتعرف أيضاً بخيف كنانة أو بطحاء مكة، فنظم عبد المطلب أمر ذلك كله بالاشتراك مع القبائل الضاربة في كل موضع، وكان عبد المطلب ذكياً فكان لا يدخل في نزاع مع قبيلة ما دام يصل في النهاية إلى ما يريد وهو الاشراف الأعلى، فتم له ما أراد ـ وضبط أمور الحج وقدم للحجاج الماء في عرفات ومزدلفة ومنى على النحو الذي كان عليه الحج قبل الإسلام، وهو قريب مما صار عليه بعد الإسلام كما نرى في كتاب الأصنام للكلبي والفرق الجسيم هنا هو أن الحج قبل الإسلام كان إلى الكعبة والأوثان التي وضعتها القبائل حول الكعبة ويقال إن عددها كان ثلاثمائة وستين صنماً، أما بعد الإسلام فقد أصبح الحج لبيت الله.

والغالب أن عبد المطلب هو الذي جعل كل قبيلة تضع عند الكعبة

صورة من وثنها أو معبودها حتى تحج إليه عند إلمامها بمكة في الموسم، وكانت كل قبيلة لها صنمها في منازلها أو قريباً منها، وكانت تطوف به وتقوم بطقوس معينة خاصة بها كما نرى في كتاب الأصنام للكلبي، فكانت فكرة عبد المطلب في وضع صور من تلك الأوثان أو رموز لها حول الكعبة فكرة صائبة، فصار الحج إلى الكعبة حجاً لقبائل العرب جميعاً بعد انتهاء الأسواق في ذي الحجة من كل عام، وإن كان هناك ما يدل على أن بعض القبائل كانت تحج في ذي القعدة، فعلا أمر عبد المطلب وازداد جاه قريش نتيجة لذلك، وانضاف إلى عناصر قوتها عنصر الدين بالإضافة إلى التجارة وحسن السياسة والاجتهاد في كسب ود القبائل مما كان قصي وابنه عبد مناف قد حققاه على ما ذكرناه، وبذلك يكون عبد المطلب قد خطا الخطوة الحاسمة في بناء مجد مكة وجاهها بين القبائل، وأظن أن هذا هو الذي أراده ابن اسحاق عندما قال بعد كلامه عن إنشاء عبد المطلب لدار الندوة قرب بيته واشرافه على ما كان يتقرر أو يعمل فيها، «فكان أمره في قومه من قريش في حياته ومن بعده كالدين المتبع لا يعمل بغيره، واتخذ لنفسه دار الندوة، ففيها كانت قريش تقضي أمورها»[1]. وفي موضع آخر يقول ابن اسحاق: «ثم ولي عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب، فأقامها للناس، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم»[2].

- ولكن قريشاً - كما سنرى - أدخلت شيئاً من التغيير في هذا النظام - ربما في أواخر أيام عبد المطلب وكان ذلك لأسباب تجارية في الغالب، والمهم لدينا أن عبد المطلب أكمل بناء قوة قريش بما نظمه من أمور الحج، فازداد اقبال الناس على مكة في الموسم. وعرفت قريش كيف تفيد أعظم الفائدة من التجارة

---

(١) ابن اسحاق، برواية ابن هشام ١/١٣٢.

(٢) ابن اسحاق، برواية ابن هشام ١/١٥٠.

ومن الدين معاً، هذا بالإضافة إلى ما كان القرشيون قد أضافوا إلى قوة بلدهم، كل بحسب ما استطاع.

وقد عمِّر عبد المطلب طويلاً، فيقال إنه توفي عن اثنتين وثمانين سنة، وكانت سن رسول الله ﷺ إذ ذاك ثماني سنوات، إذ إن عبد المطلب حضنه أي أخذه في رعايته بعد وفاة أمه السيدة آمنة بنت وهب، قال ابن اسحاق: «وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه ينبته نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته، فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء، بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله بني عدي بن النجار تزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به الى مكة. قال ابن هشام: «أم عبد المطلب بن هاشم سلمى بنت عمرو النجّارية، فهذه الخئولة التي ذكرها ابن اسحاق لرسول اللّه ﷺ[1]» فانفرد عبد المطلب برعاية رسول الله ﷺ. وظل الرسول برعاية عبد المطلب سنتين حتى توفي عبد المطلب، جاء في النويري: «وكانت وفاة عبد المطلب بن هاشم لثمان سنين من عمر رسول الله ﷺ بالحَجون وهو يومئذ ابن اثنتين وثمانين سنة، وقيل ابن مائة وعشر سنين، حكاه السهيلي قال: وهو أول من خضب بالسواد من العرب[2]» وقد رجعنا إلى نص السهيلي فوجدناه يقول إن عبد المطلب توفي عن مائة وأربعين سنة، ولم نجده يعتمد على شيء يعول عليه وقد نقل ذلك الزرقاني في شرح المواهب اللدنية ولا سند له كذلك، وفي السيرة الحلبية أقوال أخرى.

فإذا أخذنا بأقرب هذه الأقوال إلى الاحتمال قلنا إن عبد المطلب إذا كان قد توفي وسنه ٨٢ سنة، فتكون وفاته قد وقعت سنة ٥٧٩ م. لأن رسول الله ولد سنة ٥٧١ م وكانت سنه ثماني سنوات عند وفاة عبد المطلب، ويكون عبد

---

(١) ابن اسحاق، برواية ابن هشام ١/١٧٨.

(٢) انظر السهيلي، الروض الأنف ١/٥.

وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ١/١٨٩. والسيرة الحلبية ١/١١٢.

المطلب قد ولد سنة ٤٨٧ ميلادية على وجه التقريب. وتولى رياسة قريش في الغالب بعد ذلك بحوالي ٢٥ سنة، لأنه لم يكن له من الولد عندما حفر زمزم إلا الحارث، أي أنه - أي عبد المطلب - كان إذ ذاك شاباً وابنه الحارث كان يعاونه وهو بعد غلام في العاشرة مثلاً، ومعنى ذلك أن عبد المطلب عندما حفر زمزم كان في الثلاثين من عمره إذا سرنا مع أقرب التصورات إلى الاحتمال ومن الممكن أن نقول إنه تزوج في السادسة عشرة لكي ينجب ويصبح ابنه في العاشرة وهو في السادسة والعشرين من عمره والفرق قليل على أي حال.

تحقيق في تاريخ عام الفيل:

وهذا الذي نقوله يدعونا إلى أن نحاول تحديد عام الفيل. والرأي عند مؤرخينا أن عام الفيل كان عام ولادة الرسول ﷺ، وهو مستبعد لأن عام الفيل على هذا القول كان وسن عبد المطلب ٧٤ سنة على الأقل، وإذا تابعنا قول الزرقاني في المواهب من أن عبد المطلب توفي وسنه ١٠سنوات فأكثر فيكون عام الفيل كان وسن عبد المطلب ١٠٢ سنة، لأن عبد المطلب مات وسن رسول الله ثمان سنوات أي سنة ٥٧٨ ميلادية.

وقد استبعدنا أن يكون عام الفيل هو عام مولد رسول الله لأن عبد المطلب لا بد أن تكون سنه في هذه الحالة إما ٧٤ عاماً أو ١٠٢ من الأعوام، وسنرى بعد قليل أن غزو ابرهة للحجاز لا بد أن يكون قد وقع وسن عبد المطلب أقل من ذلك بكثير وواقع الحال أن غزو ابرهة - وهو ابراهام - للحجاز كان وعبد المطلب شاب.

وأراجع مع القارىء تفاصيل ما وقع لأبرهة في الحجاز لعلنا نستطيع تقدير سن عبد المطلب على وجه التقريب إذ ذاك، فإن أبرهة عندما أزمع المسير إلى الحجاز لهدم الكعبة بعد أن بنى القليس[1] وهي كنيسة نجران. وكان رجل

(١) تركت لفظ القليس دون شكل ونصوصنا تشكله هكذا: القُلَّيْس وهو فيها نظن خطأ لأن =

من أهل اليمن يسمى ذا نعز قد تعرض لجيش ابرهة فانهزم وأسر وحمله أبرهة معه، وقصد أبرهة الطائف ليهدم صنم مناة بها حاسباً أنه الكعبة، ولكن الثقفيين يرشدونه إلى كعبة مكة، ويتطوع رجل يسمى أبا رعال أو أبا رغال ليكون دليل الأحباش. وقد مات أبو رعال قرب مكة فرجمت العرب قبره.

والأخبار التي لدينا عما كان بين أبرهة وعبد المطلب وكذلك ما دار بينهما من الحديث لا تدل على أن عبد المطلب كان شيخاً مسناً في السبعينات أو الثمانينات من عمره. ونحن نتكلم هنا عن عصور بعيدة كان الرجل فيها إذا بلغ الخمسين أصبح شيخاً.

يقول الخبر الذي يرويه ابن اسحاق عن هذه الغزوة إن أبرهة عندما اقترب من مكة وصل موضعاً يسمى المغمَّس، ومن هناك بعث رجلاً من قواده يسمى الأسود بن مقصود فاجتاح نواحي مكة بخيله، وساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدهم، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بهذا الجزء من سائر الناس بقتاله، ثم عرفوا الا طاقة لهم به فتركوا ذلك. ثم أرسل أبرهة رسولاً يسمى حناطة الحميري إلى مكة وكلفه بأن يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ويقول له إن أبرهة لا يريد قتالهم ويأتيه بكبير القوم، وتحدث حناطة الحميري إلى عبد المطلب، فقال له عبد المطلب: «والله ما نريد حربه وما لنا بذلك طاقة. هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله ابراهيم عليه السلام -

= القليس كان كنيسة، والكنيسة في اللاتينية واليونانية Ecclesia (اكليسيا) وهذا قريب من رسم قِليس إذا نحن شكلناه هكذا وهو المعقول هنا. وفي بلاد الشام يذكر العرب أماكن كثيرة اسمها القِليس أو القلس، وكلها تعريبات للفظ اكليسيا ومن هذا القبيل أيضاً ما تقوله النصوص من أن اسم الفيل الذي كان مع أبرهة محمود وهذا مستغرب لأن أبرهة لم يكن ليعطي فيله الذي أتى به من الحبشة اسم محمود. ولكن هذا اللفظ قريب من اسم لاتيني للفيل الكبير momoth وهو الفيل الوحشي الكبير اما الاسم الذي عرف به اليونان الفيل المستأنس الذي نعرفه فهو elephant وهو اسمه في اللغة المصرية القديمة، ومن المعروف أن اليونان اول ما عرفوا الفيلة كان في جنوب مصر عند جزيرة الفيلة وهي إلفانتاين.

أو كما قال ـ فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يُخل بينه فوالله ما عندنا دفع عنه ـ فقال له حناطة: فانطلق معي إليه، فإنه أمرني أن آتيه بك».

وانطلق عبد المطلب مع حناطة للقاء أبرهة، وكان معه بعض بنيه مما يدل على أن ذلك وقع في منتصف حياته بعد أن أصبح له من الأبناء عدة، ولو كان عبد المطلب طاعناً في السن كما يفهم من النصوص التي تقول إن غزو أبرهة للحجاز كان عام مولد رسول الله ﷺ لما سار معه ليكلمه في أمر مائتي من الابل واكتفى بارسال بعض بنيه. ووصل عبد المطلب إلى معسكر أبرهة وسأل عن ذي نَفْر اليمنى الذي كان أسيراً في جيش أبرهة وسأله إن كان يستطيع معاونته، فقال ذو نَفْر إنه اسير لا يستطيع شيئاً، ولكن له صلة بسائق فيل أبرهة واسمه أُنَيْس، وأنه يستطيع سؤال أنيس أن يتوسط لدى أبرهة ليأذن لعبد المطلب في لقائه ليكلمه في أمر المائتي ناقة التي استاقها جيش أبرهة فوعده أنيس بذلك وأدخله على أبرهة. وهذ الموقف المتطامن جداً من عبد المطلب لا يدل على أنه كان على قدرٍ عظيم من المكانة، ثم إنه عندما لقي أبرهة لم يطلب منه إلا المائتي بعير التي استاقها جنوده، وهو لم يطلب من أبرهة مثلاً أن يرد ما استاق جنده من إبل غيره من القرشيين وأموالهم، وهو يتكلم عن نفسه لا عن قريش أو مكة، بل هو لا يسأل أبرهة أن يرد أموال حلفاء قريش من خزاعة والأحابيش. ولو أن عبد المطلب كان إذ ذاك سيد قريش كلها وأكبر شخصيات مكة لطالب بأموال قومه وحلفائهم، هذا فضلاً عن أنه لم يقل شيئاً عن الكعبة وحرمها والمفروض أن عبد المطلب كان سادنها والقائم بأمرها، وكان المفروض أن يذكرها ولو بمجرد ذكر ويجتهد في دفع الضرر عنها.

ولكن الذي ذكر البيت كان أبرهة، فقد أدهشه أن يقال له إن عبد المطلب كبير قريش وسيد البطحاء وسادن الكعبة ثم نجده يتخلى عن مسئوليته ولا يكون له هم إلا نوقه التي غنمتها قوات أبرهة، وسأله في ذلك، فكان رده «إني أنا رب الابل، وإن للبيت رباً سيمنعه» ويقول أبرهة: «ما كان ليمتنع مني» ويرد عبد المطلب: «أنت وذاك».

ويستوقف النظر أنه في حين أن عبد المطلب تخلى عن البيت لأن له ـ فيما قال ـ ربا سيحميه. تقدم رئيسان عربيان آخران هما معمر بن نفاقة بن عدي سيد بني بكر بن عبد مناة بن كنانة وخويلد بن واثلة الهذلي سيد هذيل «فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت، فأبى عليهم». يقول ابن اسحاق: واللّه أعلم أكان ذلك أم لا. فرد أبرهة على عبد المطلب الابل التي أصاب له. فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعب الجبال[1] تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُم إن العبد يمـ ... ـنع رحله فامنع حَلالك
لا يُغلبنْ صليبهم ... ومحالهم عدوا محالك

وأصحاب السيرة يسوقون الخبر هذا المساق تمهيداً لما كان من هلاك جيش أبرهة بالطير الأبابيل التي ترمي بحجارة من سجيل كما قال الله سبحانه في سورة الفيل. والقرآن هو الحق فيما قال، ولكن أصحاب السير ليسوا على حق أو منطق فيما ذهبوا إليه.

لأن عبد المطلب لم يكن نبياً أو رسولاً أو يعلم الغيب حتى يكون على ثقة مما سيحدث لجيش أبرهة. بل هو كان رجلاً وثنياً يقف في مواجهة رجل مسيحي هو أبرهة أو أبراهام، وأبرهة لم يكن يريد هدم البيت لأنه بيت اللّه الحرام الذي بناه ابراهيم عليه السلام فما كان له بذلك علم، ولو علمه وأيقن به لما فكر في هدمه وهو المسيحي الذي يعرف عن ابراهيم عليه السلام أحسن مما يعرف عبد المطلب ـ وفي العهد القديم ـ ولا بد أن يكون أبرهة على علم به

(١) أي في رؤوس الجبال وأطوائها.

إذا كان مسيحياً تقياً يبني الكنائس كما تقول النصوص. وليس من المعقول أن رجلاً يبلغ به الإخلاص للمسيحية أن يبني كنيساً في نجران ثم يقدم على هدم بيت بناه نبي الله ابراهيم الخليل. ولكن أبرهة أتى ليهدم بيتاً قيل له إنه رمز الوثنية ومجمع الأوثان.

ولكن رواتنا يسوقون الأخبار ويريدون منا أن نفهمها على طريقتهم وروايتهم للأخبار كما رأينا سقيمة لا تستقيم مع المنطق وتفسيرهم لها ساذج.

والذي نستطيع قوله ـ متمشين في ذلك مع ما جاء في القرآن الكريم ـ وهو قول الحق الوحيد في هذا المقام ـ هو أن أبرهة كان ملكاً يوسع ملكه، ويريد الناس جميعاً أن يدخلوا في دينه ويصلوا في الكنائس فأحب أن يقضي على ذلك المحج الوثني في رأيه دون أن يعلم أنه بيت الله الذي بناه ابراهيم عليه السلام فرده الله سبحانه عن ذلك بما أرسل على جيشه حفاظاً على بيته المكرم.

والمهم لدينا هنا أن عبد المطلب أوان هذه الغزوة لم يكن قد أصبح سيد قريش أو سيد البطحاء أو أكبر رجل في تهامة. إنما كان سيداً من سادات قريش إذ كان في تهامة إذ ذاك سادات عرب آخرون أكبر منه وأقوى، منهم سيد بني بكر بن عبد مناة بن كنانة وسيد هذيل، وهما اللذان تقدما لانقاذ البيت من التدمير فعرضا ثلث أموال ـ تهامة، وهو أمر لم يستطع عرضه ـ ولا عرض جزء منه ـ عبد المطلب لأنه بحسب استنتاجنا من النصوص كان لا يزال يبني مركزه ومكانته. وقد وصل إلى الرفادة والسقاية وسدانة الكعبة بعد ذلك وإنشاء دار الندوة لكي يشترك مع بقية رؤساء قريش في إكمال عمل قُصي وعبد مناف وهاشم مما جعل مكة أكبر مركز مالي ديني حضاري في الحجاز أولاً ثم الجزيرة كلها بعد ذلك.

وهذا كله وصل إليه عبد المطلب فيما بعد وعندما أتم عمله هذا كان قد

وصل إلى الشيخوخة وأصبح بمواهبه التي ذكرنا بعضها سيد قريش وصاحب المكانة الرئيسية في مكة، وهنا وهو يقترب من الثمانين - ولد رسول الله ﷺ، وكانت قد مضت على عام الفيل سنوات طوال.

وقد تتبعنا هنا الأخبار كما يرويها أوثق مؤرخينا فيما يتصل بهذا الحادث والسيرة النبوية وتاريخ قريش قبل الإسلام، أما ما يرد بعد ذلك في تاريخ مكة للازرقي وفي تفاسير المفسرين فقد جاء كله بعد ذلك وهو قد أوغل في القصص الشعبي من بعض تفاصيل ابن اسحاق. وقد تتبعنا رواية هذا الأخير والتزمناها بغاية الدقة والتزمنا كذلك المنهج التاريخي الدقيق في تفسيرها والاستخراج منها، فخرجنا بغير النتيجة التي قدروها. ولا تعارض مع عاطفة أي مسلم - فيما أظن - إن يقال أن رسول الله ﷺ لم يولد في عام الفيل، وإنما بعده بثلاثين سنة على أقل تقدير(١).

قُريش في أوج قوّتها قبل الإسلام:

نجت مكة وحرمها من التخريب على أيدي أبرهة بفضل الله سبحانه وعادت قريش تواصل صعودها، لأن أبرهة الصباح عاد إلى اليمن ببقايا جيشه

(١) ابن اسحاق، السيرة برواية ابن هشام ١/٤٤ وما بعدها - الأزرقي، أخبار مكة. وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي بتحقيق فستنفلد في كتابي:
Wüstenfeld, Chroniken der Stadt mekka.
الجزءان الأول والثاني. وقد فضلت الرجوع إلى هذه الطبعة على طبعتي القاهرة للكتابين لأنها أصح وأدق، وسيرة ابن هشام في المواضع المشار إليها آنفاً، وأنظر فهارس الأغاني طبعة بولاق الذي عمله المستشرق جويدي - وترجمه محمد مسعود، لأن الطبعات المصرية للأغاني لا فهارس لها، والعقد الفريد. طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين - وآخرين، وأنساب الأشراف للبلاذري، الجزء الأول بتحقيق محمد حميد الله، طبعة دار المعارف، وتاريخ اليعقوبي طبعة بيروت، والبكري معجم ما استعجم بتحقيق مصطفى السقا: المقدمة ومواد مكة والحجاز وتهامة، وانظر كذلك: **Henri Lammens, La Mécque à la veille de l'Hégire. Beyrouth 1910.**

ولم يحاول غزو الحجاز مرة أخرى، واستتم حكمه ٢٣ سنة وخلفه ابنه يكسوم أو يقسوم فحكم ١٩ سنة ثم خلفه مسروق فحكم ١٢ سنة.

وفي نهاية حكم مسروق نهض من أمراء حمير رجل يسمى سيف بن ذي يزن واستطاع أن يتغلب على الأحباش بمعاونة كسرى فارس الذي أرسل إلى اليمن قائداً من قواده يسمى وهدز عاون سيف بن ذي يزن على التخلص من سلطان الأحباش، ثم عاد إلى بلاده بعد أن اطمأن كسرى إلى أنه أبعد الأحباش حلفاء الروم عن اليمن.

وبعد أن استتب الأمر لسيف بن ذي يزن قضى على بقية الأحباش وأعاد سلطان حمير ولكن الحميريين لم يعودوا إلى سابق قوتهم قبل أن يغزو الأحباش بلادهم واقتصر سلطانهم على صنعاء أما بقية نواحي اليمن ومحافدها فقد استبد بالأمر في كل منها رجل من الأذواء جمع «ذو» وهو السيد أو صاحب السلطان وتلك هي نهاية الطبقة الثانية من ملوك حمير التي يذهب المؤرخون انها انتهت في حدود ٥٣٣ ميلادية أي في نحو العصر الذي نتكلم عنه[1]. وكل هذه الأحداث وقعت قبل ميلاد الرسول! ثم يصرون بعد ذلك على أن الرسول ولد عام الفيل!

وقد كانت دولة سبأ القديمة في اليمن دولة حضارة وتجارة، وإليها يرجع الفضل في فتح طرق التجارة مع الهند والصين وشرق افريقية وإنشاء أسواقها. أما دولة حمير التي جاءت بعدها وبدأت حكمها سنة ١٢٥ ق.م. فقد كانت دولة حروب وفتوح، وقد طالت أيامها وابتُلِيَتْ اليمن في عصر الطبقة الثانية من ملوكها بالتدخل الحبشي الذي أشرنا إليه ودخول المسيحية، وما أدى إليه ذلك من محاولة أبرهة بن الصباح غزو الحجاز لهدم الكعبة. وفي ذلك العصر تراخت أمور التجارة اليمنية، ثم توقفت طرق التجارة من آسيا إلى بلاد الدولة البيزنطية عن طريق وسط آسيا، فاشتدت حاجة الأسواق في بلاد الشام وبقية

(١) انظر موجز تاريخ اليمن في كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان وتعليقنا عليه ص ١٣٦ - ١٤٤.

بلاد دولة الروم وهي الدولة البيزنطية إلى بضائع آسيا وافريقية وما كانت ـ نواحي جنوب جزيرة العرب تخرجه من حاصلات مطلوبة في الأسواق مثل الصمغ واللبان والمُرّ والزباد وهو عطر يستخرج من نوع من القطط البرية لا زال بعضها يعيش إلى اليوم في جزيرة سُقُطرى، وتلك هي الظروف التي انتفع بها هاشم ابن عبد مناف وإخوته في الدخول بالتجارة المكية في عصرها الزاهر، فذهب اثنان من اخوة هاشم إلى الحبشة واليمن وعقدا العصم مع ملوك الحبشة والحميريين في اليمن والإيلاف مع القبائل العربية على الطريق من اليمن إلى مكة، فاكتمل بذلك طريق التجارة من اليمن إلى الشام وانتظمت رحلتا الشتاء والصيف المذكورتان في القرآن الكريم. ومما يستلفت النظر إلى معجزات ما في القرآن الكريم أن سياق سورة قريش يدل على أن مرحلة تنظيم الأمور الدينية كان بعد الإيلاف أي تنظيم التجارة، ومن المعروف أن وثنية قريش كانت لا تنكر أن الكعبة بيت الله وأنه سبحانه خالق السماوات والأرض ولكنهم اشركوا آلهتهم مع الله سبحانه في العبادة، فقالوا إن آلهتهم بنات الله وإنها وسطاء بينهم وبين الله وأنهم يعبدونها زلفى. وإليك سورة قريش لنقرأها ونفهمها على ضوء الحقائق التاريخية:

﴿ لإيلاف قريش
ايلافهم رحلة الشتاء والصيف
فليعبدوا رب هذا البيت
الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾

فإيلاف قريش سابق هنا على رحلتي الشتاء والصيف وهما مصدر الخير الذي أطعمهم بعد جوع وآمنهم من خوف وكان عليهم أن يعبدوا رب هذا البيت سبب تلك النعمة التي جاءتهم ولكنهم لم يعبدوه خالصاً وأشركوا به، وهذا هو التنظيم للوثنية العربية الذي أدخله عبد المطلب وسماه ابن اسحاق دين عبد المطلب، ثم جاء محمد ﷺ ليظهر دين اللّه الذي أدخله ابراهيم عليه السلام

إلى الحجاز ثم تناساه العرب ـ وأدخلوا فيه وثنيتهم وآلهتهم فصار شركاً بالله، جاء محمد صلوات الله ليزيل دين عبد المطلب ويُحل دين الله محله، وجدير بالتأمل أن محمداً الذي بعثه الله ليزيل دين عبد المطلب كان حفيده وأحب الناس إليه وتربى في كنفه وقضى السنتين الأخيرتين من حياة عبد المطلب في حجره، وكان عبد المطلب لا يحب أحداً من بنيه وحفدته حبه لمحمد ﷺ، وكأنما كان رسول الله وهو بعد بين الطفولة والصبا يشعر بذلك. قال ابن اسحق: «وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه هذا حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له. وكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً ثم يجلسه معه عليه، فيمسح ظهره ويسره ما يراه يصنع(١)».

ويريد ربك سبحانه أن يكون هذا «الشأن» هو إزالة دين عبد المطلب وإحياء دين جده ابراهيم أبي الأنبياء وأول المسلمين، وفي نشأة رسول الله ﷺ في كنف عبد المطلب ملامح من نشأة موسى في كنف فرعون، وتلك آيات من إعجاز الله في خلقه وقرآنه وتعريفه لشئون عباده، سبحانه لا رب سواه.

ونعود إلى ما وقفنا عنده من تاريخ عبد المطلب فنقول إنه واصل عمله بعد انصراف أبرهة ونجاة مكة من مَعَرة الجيش كما يقول ابن اسحاق، ولا شك أن مَهَابة البيت زادت في قلبه بعد الذي رأى من عظيم صنع الله، ولكنه استمر وثنياً مشركاً على ما كان عليه هو وقومه، يعرفون أن الله خالق الكون ولكنهم يشركون معه سبحانه آلهتهم وأكبرهم هبل، وفيهم إناث مثل نائلة ومناة والعُزَّى يسمونهن بنات الله ويستشفعون بهم وبهن عند الله. ولا شفاعة لأحد عند الله إلا باذنه وبمشيئته ورضاه كما ورد في الآية ٢٦ من سورة النجم.

ولا يتسع المجال هنا للكلام على وثنية العرب التي نظمها عبد المطلب

---

(١) ابن اسحاق، برواية النويري، نهاية الأرب ١٦/٨٨.

وجعل أمرها كالدين المتبع، فهذا لا يدخل في نطاق بحثنا هذا، والدراسات عنها كثيرة جداً، ولكننا نجتزىء من الكلام عنها بآيتين من كلام الله سبحانه فيهما غناء. وهما قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم مَنْ خَلَق السماوات والأرض وسَخَّر الشمس والقمر ليقولن الله فأنَّى يؤفكون﴾ (العنكبوت ٢٩/٦١) - وقوله سبحانه في سورة الزمر (٣٩/٣): ﴿ألا لله الدين الخالص. والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾.

كان عبد المطلب هو الذي نظم تلك العبادات الدينية، وأكمل بتنظيمه هذا بناء قوة قريش السياسية والاقتصادية والدينية فزادت مهابة قريش في أعين العرب، فقد توالى على رياستها أربعة من الموهوبين على نسق من عمود نسب واحد: قصي وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب، وكانت الظروف مواتية لقريش، فالحرب بين الفرس والروم على أشدها والتجارة بين الشرق والغرب منقطعة إلا عن الطريق من اليمن إلى الشام ومكة مركزها الأكبر، والقرشيون أذكياء مهرة عرفوا كيف ينظمون أمر هذه التجارة ويربطون بينها وبين العبادات الوثنية، فلم تعد مكة سوق الجزيرة الأكبر فحسب بل محجها الأكبر أيضاً، وقد أحسنوا سياسة أمورهم فزاد توافد الناس على بلدهم للحج والتجارة والاستمتاع وتناشد الأشعار والتعارف وتقارب الألسنة والأفكار كما سنرى بعد قليل.

وقد كان الجانب الأكبر من التجارة المكية تجارة مرور أي نقل التجارة من اليمن والحبشة إلى مكة وأسواقها، ومنها إلى الشام حسب نظام الرحلتين الدقيق. وإلى جانب الأسواق الموسمية في ذي المجاز ومجنة وعكاظ كانت مكة سوقاً دائماً لكل أصناف هذه المتاجر، وكانت تجارتهم في مكة تجارة تخصص لا تجارة دكاكين ومخازن، أي أن كل مشتغل بالتجارة في مكة كان له تخصصه والبضاعة في بيته، فهذا متخصص في العطور وذلك في الجلود أو العود أو

الصنـدل أو العاج أو الأبنـوس أو الحريـر أو القـطن أو السيـوف أو الـذهب أو الفضة وما إلى ذلك، فإذا وفد التاجر الغريب على مكة قصد المتخصص فيها في بيته فباع منه أو اشترى. وعندما نقول إن رسول الله كان يشتغل بالتجارة فهذه صورة ممارسته لها، ولم يكن صلى الله عليه وسلم بصاحب دكان كما جاء في المادة التي أداروهـا عليه في إحـدى طبعات دائـرة المعـارف البـريـطانيـة وكـما يـزعم المستشرق مكسيم رودانسون في كتابه المعروف عن الإسلام والرأسمالية.

وكان عبد المـطلب وبنو هـاشم وحلفاؤهم معهم يُلْزِمـون التجار بسلوك أخـلاقي دقيق من حسن المعاملة والأمـانة وإحسـان لقاء التـاجـر واستضـافتـه وتـأمينه وأدائـه حقه. وعـلى هذا انتـظمت أمـورهم وزادت ثـرواتهم واتسعت تجارتهم. وكان المشرفون على التجارة ونظمها وسلوكياتها بيت عبد المطلب وبنيه وخاصة بني هاشم والمطلب ابني عبد مناف وبيت زهرة بن كلاب وبيت تيم بن مرة وبيت الحارث بن فهـر وبيت أسد بن عبـد العزى. ويضيف بعض الـرواة بيت عَـديّ بن كعب، ولكن وجود بني عـدي في هـذه الجمـاعـة مختلف فيـه، ويبـدو أن الرواة أضـافوه فيـما بعد إكـراماً لعمـر بن الخطاب حتى يجتمـع بيت رسول الله وبيتا أبي بكر وعمر في جانب واحد.

وعندما كبرت سن عبد المطلب وشاخ وهَطُلَ عن العمل انتقلت الرياسة الاسمية إلى ابنه الزبير، ولم يكن بالزبير بن عبد المطلب بأس، فقد كان رجلاً ذا كفاية ولكن بيوت قريش الأخرى انجبت رجالاً غلب عليهم الطمع في مَكاسب التجارة والجشع في خيراتها وخاصة بنو عبد شمس بن عبد مناف وبيت نوفل بن عبد مناف وبيت مخزوم وهم بنو يقظة بن مرة وبيت سهم وجمح ابني عمرو بن هُصيص بن كعب.

ورجال هذه البيوت شرهت نفـوسهم إلى المكاسب وجَمـع بعض رجالها ثروات ضخمة وبهـذه الثروات ازداد جـاههم واستبدادهم وفسـادهم، فتخلوا عن أخلاقيات عبد المطلب وظلموا صغار التجار وغرباءهم، وعندما مات عبد

المطلب في حدود ٥٧٩ ميلادية (لأنه توفي ورسول الله ابن ثمان سنين) انتقلت الرياسة فعلاً إلى الزبير ابنه، وهو شقيق عبدالله والد رسول الله ﷺ ولا نظن أنه كان أكبر ولده بعد الحارث. وعجز الزبير عن كبح جماح هذا النفر من القرشيين الذين سيطروا على مكة بأموالهم واتباعهم وخالفوا كل قاعدة كان وضعها عبد المطلب وأبوه هاشم وجده عبد مناف. والبلاذري يعطينا في جزء من أجزاء أنساب الأشراف، نشر حديثاً، كلاماً طويلاً عن الزبير ولكنه لا يجيبنا عن سؤال واحد مما يهمنا من أمره، ولكنه يقول إنه أول من تكلم في حلف الفضول ودعا إليه.

ثم يعطينا البلاذري أسباب عقد هذا الحلف فيقول: «إن الرجل من العرب أو العجم كان يقدم بالتجارة فربما ظُلِم بمكة فقدم رجل من زبيد (من بني سعد العشرة) بسلعة فباعها من العاص بن وائل السهمي فظلمه فيها وجحده ثمنها فناشده اللّه فلم ينفعه ذلك عنده، فنادى ذات يوم عند طلوع الشمس وقريش في أنديتها:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الحَيِّ والنَّفَر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا آل فهر بين الركن والحرم

فقال الزبير: ما لهذا مَتْرك، فجمع إخوته، واجتمعت:

بنو هاشم

وبنو المطلب بن عبد مناف

وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي

وبنو زهرة بن كلاب

وبنو تيم بن مرة بن كعب

في دار أبي زهير عبداللّه بن جدعان القرشي ثم التيمي فتحالفوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا نصروه ورفدوه وأعانوه حتى يؤدَّى إليه حقه ويُنْصِفَه ظالمه

من مظلمته وعادوا عليه بفضول أموالهم ما بَلَّ بحرٌ صوفه، وأكدوا ذلك وتعاهدوا عليه وتماسحوا قياماً، وشهد رسول الله ﷺ ذلك الحلف فكان يقول: ما سرني بحلف شَهدته في دار ابن جدعان حُمر النعم. فسمى الحلف حلف الفضول لبذلهم فضول أموالهم[1]».

ثم يعطي البلاذري تفسيراً آخر لاسم الفضول قال: لِتَكَلُّفِهم فضولاً لا يجب عليهم وتفسيراً ثالثاً ظاهر الافتعال.

ثم يضيف انهم قاموا على العاص بن وائل السهمي حتى رد على الرجل ماله وقال الزبير في ذلك شعراً.

ثم يضيف مثالاً آخر من ظلم صغار التجار بمكة، والضحية فيه تاجر من بارق، وبارق هم بنو سعد بن عدي بن حارثة من اليمن، والمعتدي أبيّ بن خلف الجُمحي - جمح أبناء عم بني سهم - وهنا أيضاً نجد أهل حلف الفضول يأخذون للرجل حقه.

وحادثة ثالثة ضحيتها رجل من خثعم (من اليمن) والمعتدي من بني سهم ابن عمرو هصيص فقد غصب الرجل ابنته فقام أصحاب حلف الفضول بارغام السهمي على إعادة البنت لأبيها. فالعدوان في تلك الحالات الثلاث التي يذكرها البلاذري جاء من ناحية فرعي هصيص بن كعب، وهم في حساب المسعودي من قريش الظواهر[2]، وقريش الظواهر هم في الغالب أولئك الذين لزمهم اسم فهر فيما قلناه، ويؤيد ذلك أن الزَّبيدي الذي ظُلم أولاً عندما استجار بآل فهر، قوم العاص بن وائل السهمي، فلما لم يجد نصفةً استجار بآل قصي، وهم صلب قريش فانصفه أهل حلف الفضول وكلهم من صميم قريش وقال :

(١) نشر هذا الجزء من الأنساب الشيخ محمد باقر المحمودي دون أن يحدد أي جزء يكون من الكتاب، ولكنه يقع في الجزء الأول من تقسيم أجزاء انساب الأشراف الذي أورده د. محمد حميد الله في الجزء الأول من أنساب الأشراف الذي نشرته له دار المعارف في القاهرة ١٩٥٩.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، طبعة القاهرة ١٩٦٤. ٢/٥٩.

يآل قصي! كيف هذا في الحرم وحرمة البيت وأخلاق الكرم
أُظْلَم لا يمنع مني من ظلم!

فكان هذا الرجز هو الذي حرك الزبير بن عبد المطلب إلى عقد حلف الفضول على ما قلناه.

ولكن يبدو أن قيام حلف الفضول، والحلف المناهض له وهو حلف الأحلاف - كانت لهما أسباب أعمق وأبعد، فإن قريشاً في طريقها إلى التَّكَوُّن، وقع فيها الصدع الذي فرق بين جماعة قريش وجماعة فهر، ثم عمل قصي على لم الشعث عند دخوله مكة فآوى بيوت فهر المنفصلة عن قريش وجمعها وأسكنها ظاهر مكة، فكانت قريش الظواهر. فإن المسعودي يذكر حِلفاً يسميه بالمطيبين يتكون من:

بني عبد مناف بن قصي
وبني أسد بن عبد العزى بن قصي
وبني زهرة بن كلاب أخي قصي
وبني تيم بن مرة بن أخي كلاب والد قصي
وبني الحارث بن لؤي من قريش الظواهر

والظاهر أن كتلة المطيبين هنا هي كتلة ترتبط أشد الارتباط بقُصيّ، ولنا على ذلك دليل وهو انضمام بني الحارث بن لؤي إليهم، فبنو الحارث هؤلاء كانوا بيتاً مخلخلاً انضم فريق منه يسمى جشم إلى بني هزان من ربيعة. والبقية فيما يبدو انضمت إلى جماعة قصي. والمطيبون أخذوا اسمهم من جَفنة طِيب غمسوا أيديهم فيها تأكيداً للحلف. وأقرب ما يقال في هذا الحلف أن قصياً عندما استقر له الأمر في مكة وجمع قريشاً فيها عقد هو وخاصة قومه حلف المطيبين فكانوا نواة قريش وصميم قوتها. فلما حدث التخلخل أيام الزبير بن عبد المطلب وأحس

أنصاره بالخطر على مجتمعهم المكي وتقاليده قام الزبير بتوكيده في صورة حلف الفضول وهو في أحسن التفسيرات حلف أهل الفضل أو الأفاضل، ولا غرابة والحالة هذه من أن يذكر رسول الله هذا الحلف الجاهلي بالخير، مع أنه ﷺ ألغى الأحلاف والتكتلات داخل الجماعة الإسلامية بحديثه المأثور: لا حلف في الإسلام. أي لا تحالفات فرعية داخل أمة الإسلام الواحدة.

والتصدع داخل قريش بدأ بعد موت قصي، فإن كبير أولاده عبد الدار أراد أن يخلفه في الرياسة، ولكن أخاه عبد مناف تمكن من انتزاع الرياسة منه، واعتز في ذلك بعصبة أبيه قصي وهم حلف المطيبين التي ذكرناها، واعتز عبد الدار بجماعة أخرى من قريش هم:

بنو يقظة بن مرة بن كعب وهم مخزوم
بنو سهم بن هصيص بن كعب
بنو جمح بن هصيص بن كعب

وهذا هو حلف الأحلاف أو لعقة الدم الذي انضم إليه بنو عبد شمس فيما بعد. وقد تمكن عبد مناف من رأب هذا الصدع وجمع قريشاً كلها إلى جانبه. ولكن الصدع عاد فظهر أيام هاشم عندما تحداه أمية ابن أخيه عبد شمس ونافره، فانتصر عليه هاشم وتمكن من جمع الشمل وخلفه عبد المطلب فعرف كيف يُقَوِّي وحدة قريش ويرفع شأنها ويزيد جاهها بما أضافه من عنصر الدين، فأصبح أمر قريش كلها معقوداً ـ بلواء بني عبد المطلب بن هاشم. ولكن جماعة حلف الأحلاف رفعت لواء التحدي بعد عبد المطلب وقيام الزبير بالأمر فكان هذا دافعاً له لاحياء حلف المطيبين فعقد حلف الفضول، وهو توكيد لحلف المطيبين. ولكن الانكسار الحاسم في وحدة قريش كان قد تجسد وأصبح حقيقة، وقبيل مبعث رسول الله ﷺ كانت قريش فعلاً قد انقسمت إلى جماعتين: جماعة بني هاشم وأحلافهم يمثلون تقاليد عبد المطلب وقواعده

الأخلاقية والدينية، وجماعة بني عبد شمس وأحلافهم ممن ذهبوا مع الإفادة من مكاسب التجارة إلى أقصى مداها مما كاد يفسد المجتمع المكي ويعرضه للخطر، وهاتان الجماعتان تتركبان كما يلي:

حلف الفضول وهم أصلاً حلف المطيبين	الأحلاف أو لعقة الدم
بنو هاشم بن عبد مناف	بنو عبد شمس بن عبد مناف
بنو المطلب	بنو مخزوم بن يقظة
بنو زهرة	بنو سهم بن هصيص
بنو تيم بن مرة	بنو جمح بن هصيص
بنو الحارث بن فهر	بنو عبد الدار بن قصي

والغالب أن حلف المطيبين عُقِد في أيام هاشم بعد أن استقر له الأمر وتخلص من تحدي ابن أخيه أمية بن عبد شمس إياه. وفي أيام الزبير بن عبد المطلب دعت الضرورة إلى إحياء هذا الحلف لمواجهة حلف الأحلاف أو لعقة الدم، فعقد حلف الفضول من أنصار بني هاشم، وظلت جبهة الأحلاف قائمة يتزعمها بنو عبد شمس وبنو مخزوم ومن انضم إليهم. وقد اختلط أمر الحلفين - المطيبين والفضول على البلاذري فقال: «وكان هاشم بن عبد المطلب حاضراً حلف المطيبين فكيف يحضره رسول الله ﷺ إلا أن بطون المطيبين هم الذين تعاقدوا أيضاً على حلف الفضول، فأحسب هذا الحلف نسب إليهم أيضاً[1]» وقد وضحنا حقيقة ذلك.

(١) أنساب الأشراف، ٢/١٥.

انقسام قريش إلى معسكرين ودخول الفساد إليها:

وقد ضربنا أمثلة لما نال البناء الأخلاقي والمعنوي لقريش في أواخر أيام عبد المطلب وعجزه في شيخوخته عن ضبط الأمور في مكة. وقد رأينا أن الأمر استشرى بعد عبد المطلب وعجز الزبير ابنه عن الحفاظ على سلامة البناء، فاضطر إلى عقد حلف الفضول للوقوف في وجه التدهور وتخطي القواعد التي رسمها بناة قريش الذين ذكرناهم، ومن هذه الناحية استشرى الوهن في المجتمع القرشي، ولم تعد مكة بقيادة قريش ذلك المركز التجاري العمراني القائم الذي رأيناه أيام عبد المطلب.

والأمثلة التي ذكرناها كلها ترجع إلى أيام الزبير، فلما انتهت رياسة الزبير بوفاته في الغالب ـ انتقل الأمر إلى أخيه أبي طالب، ولم يكن بأقوى من أخيه الزبير، بل زاد الفساد وكثر التعدي على صغار التجار الغرباء، وتجمعت ثروات ضخمة في أيدي أولئك الذين قبضوا على زمام التجارة، ومعظمهم من حلف الأحلاف أو لعقة الدم، وهم حزب بني عبد شمس ومخزوم ومن انضم إليهم. وقد وقع ذلك في سنوات شباب رسول الله ﷺ، وقد حضر بنفسه حلف الفضول في دار عبدالله بن جدعان شيخ بني تيم بن مرة قبيل أبي بكر الصديق. ولم يكن بنو تيم بن مرة من كبار بيوت قريش بل ربما كانوا في الأصل من قريش الظواهر، ولكن عبدالله بن جدعان كان رجلاً ماهراً تجمعت له ثروة كبيرة جداً تأتت فيما قيل من كنز عثر عليه ولكن ذلك مستبعد، والغالب أن الرجل جمع تلك الثروة من التجارة وسنرى بعد قليل أن الكثيرين ممن استغلوا الناحية التجارية إلى أقصى حد استطاعوا أن يجمعوا ثروات تزيد على ما جمعه عبد الله بن جدعان.

ونلاحظ أن قيادة القوافل انتقلت من بني هاشم إلى رجالٍ آخرين من

بني عبد شمس ومخزوم وحلفائهما، ولما كان بنو هاشم يضطلعون بالمسئوليات المكلّفة مثل الرفادة والسقاية والحجابة والندوة فإن ثرواتهم كانت في تناقص في حين أن ثروات خصومهم ازدادت ضخامة عن طريق الاستبداد بأمر التجارة أولاً ثم عن طريق المظالم والقهر والعدوان على الضعفاء وأموالهم وسترد أمثلة كثيرة على ذلك في الفصل التالي الذي سنتكلم فيه عن موقف قريش من الإسلام.

ولكننا نقف هنا عند مظهر آخر من مظاهر الوهن والفساد الذي دب في كيان النظام القرشي، وهذا المظهر سيتجلى في ناحية التنظيم الديني. وكان عبد المطلب قد جمع العقائد الوثنية وغيرها ووضع أصنامها جميعا حول الكعبة وجعلها على قدم المساواة بين الأوثان وأصحابها، وأسقط الامتيازات التي كانت تتمتع بها بعض القبائل في بعض نواحي مناسك الحج مثل عرفات ومنى. وقد اعتبر عبد المطلب مواقف الحج ومواقعه كلها داخلة في الحرم حتى عرفات، أي أن أراضيها وسكانها يتمتعون بحرمة الأراضي المقدسة وأمانها، فاتجهت هذه الفئة المستبدة بأمر مكة إلى تمييز نفسها على غيرها وقصر منطقة الحرم على بطن مكة، وما عدا ذلك فقد جعلوه من الحل أي المناطق التي لا يَحْرُم فيها القتال أو العدوان أو الصيد وما إلى ذلك. ونقول: إن هذا الانحراف جاء على أيدي الجبهة المعارضة لبني هاشم، لأننا سنرى أن بني هاشم ويمثلهم أبو طالب كانوا دائماً إلى جانب العودة بمناسك الحج إلى ما كانت عليه في الزمن القديم، وسنرى أن رسول الله ﷺ في حجة الوداع التي ثُبتت فيها مناسك الحج الإسلامي بصورة دائمة أعاد لكل مواقع المناسك حتى عرفات حرمتها فيما عدا وادي عُرنة ووادي مُحَسِّر، ونص على هذه المناسك في عمله وفي خطبة الوداع وشدد في تحريم الربا والنسيء والتفرقة بين مواقف الحج.

وفي صفة حجة الوداع عند الواقدي نقرأ الخبر التالي عن ابن عباس: «إن رسول الله ﷺ وقف بالهِضاب من عرفة فقال: كل عرفة موقف إلا بطن عُرَنة

وكل المُزْدَلفة موقف إلا بطن مُحَسِّر، وكل منى مَنْحَر الا خلف العقبة. قالوا: وبعث رسول اللّه ﷺ إلى من هو بأقصى عرفة فقال: الزموا مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث ابراهيم[1]»، وهذا يدل على أن هذا الموضع من عرفة كان من بين مواقف الحج الأصيلة أيام ابراهيم عليه السلام، ولكن قريشا غيرت ذلك في الجاهلية، فقد روى الواقدي عن أحد رواته أنه رأى رسول اللّه «وقد دفع من عرفة الى جمع (المزدلفة). والنار توقد بالمزدلفة وهو ـ أي رسول اللّه ﷺ ـ يؤمها حتى نزل قريباً منها»، وأضاف «أن سليمان بن عبد الملك رأى تلك النار عند المزدلفة في حَجِّهِ فسأل رجلاً يسمى خارجة بن زيد عنها قائلاً: متى كانت هذه النار يا أبا زيد؟ قال: كانت في الجاهلية، وضعتها قريش (وقالت): لا تخرج من الحرم إلى عرفة[2]، تقول: نحن أهل اللّه! ولقد أخبرني حسان بن ثابت وغيره في نفر من قومي أنهم كانوا يحجون في الجاهلية فيرون هذه النار»[3].

وقال الواقدي بشأن ذهاب رسول اللّه إلى عرفة في حجة الوداع: «قالوا: وكانت قريش لا تشك أن رسول اللّه ﷺ لا يجاوز المزدلفة يقف بها. فقال له نوفل بن معاوية الدِّيلي، وهو يسير إلى جنبه: يا رسول اللّه: ظن قومك أنك تقف بجَمْع (المزدلفة)، فقال رسول اللّه ﷺ لقد كنت بعرفة قبل النبوة خلافاً لهم وقال جبير بن مطعم: رأيت رسول اللّه يقف بعرفة قبل النبوة، وكانت قريش كلها تقف بجمع إلا شيبة بن ربيعة، وأن موسى بن عقبة حدثني عن عمه عبداللّه بن الوليد بن عثمان بن عفان، عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: كان شيبة ابن ربيعة من بني قريش يقف بعرفه عليه ثوبان أسودان، وزمام بعيره من شعر بين غرزين أسودين حتى يقف مع الناس بعرفة، ثم يدفع بِدَفْعِهم، وكانت قريش تقول: نحن لا نتكلم مع الناس ـ يعني العرب ـ فقد كانت العرب تقف بعرفة،

---

(١) الواقدي، مغازي ١١٠٣/٣ ـ ١١٠٤.

(٢) اضاف الناشر المستر مارسدن جونز لفظ (الا) بين معقوفتين قبل لفظ تقول، ولا مجال لهذه الزيادة بل هي تفسد المعنى انظر جـ ١١٠٥/٣.

(٣) الواقدي، مغازي: ١١٠٥/٣.

وقريش بجمع تقول: نحن أهل الله[1]».

ومعنى ذلك أن قريشاً في الجاهلية ميزت نفسها بالوقوف بجَمع في حين أن بقية الناس يقفون بعرفة، وهذا التمييز لا بد أن يكون قد تم بعد عبد المطلب، بدليل أن رسول الله كان إذا حج في الجاهلية وقف بعرفة مع بقية الناس، ويدفع منها مع الناس إلى جمع وهي المزدلفة، والمراد بقريش هنا هي جماعة الذين أدخلوا التغيير على دين عبد المطلب بدليل أن الخبر يستثني من ذلك التغيير شيبة بن ربيعة بن عبد شمس وهو من كبار رجال الأحلاف، وفيهم عبد شمس.

وتفصيل هذا الخبر وارد عند ابن هشام نقلاً عن ابن اسحاق وهو وارد في المحبر لمحمد بن حبيب النسابة وفي كتاب الأصنام للكلبي وفي أخبار مكة للأزرقي، ولكن نص ابن اسحاق هنا أوضح وأكثر تفصيلاً، وهو وارد تحت عنوان حديث الحُمُس، وهو يعطينا فكرة عما أحدث نفر من القرشيين من التغيير في القواعد التي ضبطها عبد المطلب والمراد بقريش هنا جماعة المعارضين الخارجين على بني عبد المطلب، ومن هنا فإن هذا التغيير وابتداع أمر الحُمُس حدث بعد عبد المطلب.

قال ابن اسحاق تحت عنوان حديث الحُمُس:

١ ـ وقد كانت قريش ـ لا أدري أقبل الفيل أم بعده ـ ابتدعت رأي الحمس، رأياً رأوه واداروه. فقالوا: نحن آل ابراهيم وولاة الحرم، وولاة البيت قُطّان مكة ومساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف.

٢ ـ فلا تعظمون شيئاً من الحِلّ كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك

(١) الواقدي، مغازي ١١٠١/٣ ـ ١١٠٢ (انظر جـ ٣ ص ١١٠٥).

استخَفَّت العرب بحرمتكم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثلما عظموا من الحرم.

٣ ـ فتركوا الوقوف على عرفة، والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين ابراهيم ﷺ ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها.

٤ ـ إلا أنهم قد قالوا: نحن أهل الحرم، فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيرها كما نعظمها. نحن الحُمس والحُمْس أهل الحرم.

٥ ـ ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذي لهم. بولادتهم إياهم يَحِلُّ لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم.

٦ ـ وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك، قال ابن هشام: وحَدَّثني أبو عبيدة النحوي قال: إن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن دخلوا معهم في ذلك، وأنشدني لعمرو بن معد يكرب:

أعباسُ لو كانت شبار جيادنا
بتثليث ما صبأت بعدي الأحامسا

قال ابن هشام: تَثليثُ موضع من بلادهم، والشبارُ الحسان. ويعني بالأحامس بني عامر بن صعصعة. وبعباس عباس ابن مرداس السُلَمي، وكان أغار على بني زبيد بتثليث.

وانشدني اللقيط بن زرارة الدارمي في يوم جبلة:

اجذم إليك إنها بنو عبس المعشر الحلة في القوم الحمس

لأن بني عبس كانوا يوم جَبَلَة حلفاء في بني عامر بن صعصعة. . . .

٧ ـ ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن لهم حتى قالوا: لا ينبغي للحمس أن

يأتقطوا الأقط ولا يسلئـوا السَّمن وهـم حرم، ولا يـدخلوا بيتاً من شعـر، ولا يستظلوا إذا استظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرماً.

٨ ـ ثم رفعوا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الحل أن يـأكلوا من طعام جـاءوا به معهم من الحل إلى الحرم، إذا جاءوا حجاجاً أو عُمَّاراً.

٩ ـ ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس فإن لم يجدوا شيئاً طافوا بالبيت عراة، فإن تكـرم منهم متكرم من رجل أو امـرأة ولم يجد ثياب الحمس، فطاف في ثيابه التي جـاء بها من الحـل ألقاهـا إذا فرغ من طـوافه ثم لم ينتفـع بها و لا يمسهـا هو ولا أحـد من قومـه أيامـاً. فكـانت العرب تسمي تلك الثياب اللَّقى.

١٠ ـ فحملوا على ذلك العرب فدانت به، ووقفوا عـلى عرفـات وأفاضوا منها، وطـافوا بـالبيت عراة، أمـا الرجـال فيطوفـون عراة، أمـا النسـاء فتضـع إحداهن ثيابها إلا درعاً مُفْرجاً عليها ثم تطوف فيه.

ومن طاف منهم في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها فلم ينتفع بها لا هو ولا غيره. فقال قائل من العرب يذكر شيئاً تـركه من ثيـابه فـلا يقربـه، وهو يحبه:

كفى حـزنـاً كَـرى عليهـا كـأنها لقى بين أيدي الـطائفين حـريم

يقول: حريم أي لا تمس.

١١ ـ فكانوا كذلك حتى بعث الله محمـداً ﷺ فأنـزل عليه حين أحكم له دينـه وشرع له سُنَن حَجِّه ﴿ثم أفيضوا من حيث أفـاض الناس، واستغفـروا الله إن الله غفور رحيم﴾ البقرة ٢ / ١٩٩ يعني قريشاً، والنـاس العرب، فـرفعهم (كذا في الأصـل والأصوب هنـا: فَـرَجَعهم) في سنـة الحـج إلى عرفات والوقوف عليها والإفاضة منها.

١٢ ـ وأنزل الله فيما كانوا حرموا عـلى الناس من طعـامهم ولباسهم عنـد البيت

حين طافوا عراة، وحرموا ما جاءوا به من الحل من الطعام: ﴿يا بني آدم، خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا، ولا تسرفوا، إن الله لا يحب المسرفين قل: من حرمَ زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

فوضع الله تعالى أمر الحُمُس، وما كانت قريش ابتدعت منه على الناس بالإسلام حين بعث الله به رسوله ﷺ.

١٣ ـ قال ابن اسحاق: حدثني . . . . . لقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي، وأنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس من بني قومه حتى يدفع معهم منها، توفيقاً من الله له ﷺ[1].

والآن نفصل ما في هذه الفقرة الطويلة على ضوء ما ذكرنا من الحقائق فنجد فيها تفصيلاً وتوضيحاً لبعض الذي قلناه في أمر اتجاه فريق من قريش ـ هم الذين يعادون الفضول وحلفهم ـ إلى تحقيق منافع خاصة بهم من وراء الحج.

وينبغي أن نلاحظ أن شراح سيرة ابن هشام ـ القدامى منهم مثل السهيلي في الروض الأنف، والمحدثون ومنهم من نشروا سيرة ابن هشام وحققوها ذلك التحقيق الجيد المتداول بين الناس ـ لم يفطنوا إلى ما وراء هذه التفاصيل حاسبين أن قريشاً فعلت ما فعلت كفراً منها بدين ابراهيم وجهلاً وطغياناً حتى أعاد الله الأمر إلى نصابه وعاد بالحج ومناسكه إلى سنة الله التي كان عليها ابراهيم الخليل.

وهؤلاء جميعاً يضعون قريشاً كلها في الحُمُس مع أن رسول الله ﷺ وبعض قومه من بني هاشم وحلفائهم رفضوا الانسياق مع جبهة المبتدعين لهذه

(١) ابن هشام، السيرة ١/٢١١ ـ ٢٢١.

الأمور المخالفين لسنة الحج الأولى، وهي التي التزمها رسول الله ﷺ وقومه قبل الإسلام وكان التزامهم إياها جزءاً من المحافظة على التقاليد الدينية التقليدية التي ضبطها وأحكم أمرها عبد المطلب بن هاشم (انظر الفقرة ١٣) من النص الذي أتينا به.

١ - فأما الفقرة الأولى فتنص على أن قريشاً ابتدعت الحُمْس هذا من عند نفسها بدافع الأنانية والغرور، فقد زعموا أنهم سكان مكة وسادتها، ولهذا فهم أفضل من بقية العرب وأنهم أعرف الناس بشئون المناسك. فأما ما ورد في هذه الفقرة من النص من أنهم قالوا إنهم بنو ابراهيم وأهل حرمه ، فإضافة من الرواة لأن قريشاً قبل الإسلام لم تكن تقول بأنهم أبناء ابراهيم. إنما وجد هذا الإحساس عند عبد المطلب ومن كان على دينه وهم المطيبون ثم الفضول ومع ذلك فما كانت فكرة الله الواحد واضحة عند عبد المطلب، ولا كانت فكرة الانتساب إلى ابراهيم واضحة عنده. وقريش المذكورة في هذه الفقرة هم فريق قريش المبتدع - المباعد لقواعد الخلق الفاضل والمساواة بين الناس، هم المناهضون لرأي الفضول الذين أثنى رسول الله على حلفهم وقال إنه لا يعدل به حمر النعم، فكيف يقول ذلك إلا وهو يرى فيه تأييداً لما كان هو وقومه يقومون به من الالتزام - بمكارم الأخلاق والتزام سنة عبد المطلب في الحج وغيره وهذا المعنى للفظ قريش جديد هنا وهو أثر من النظرة الرجعية من جانب المؤرخين على عادتهم من العودة بما كان قبل الإسلام إلى ما كان بعده وقد نبهنا إلى هذا المعنى مرة بعد أخرى.

وإذن فقريش التي ابتدعت نظام الحمس بتفاصيله ليست قريش حلف الفضول، فإن الفضول - أي الأفاضل - لا يقولون إنهم خير من سواهم من العرب، وانهم ينبغي أن يميزوا أنفسهم بأشياء وانهم إذا ساروا في ركاب غيرهم وفعلوا فعلهم استخفت بهم العرب.

٢ ـ ولهذا فقد قصروا الحرمة كلها على مكة، ورفضوا أن يمتد نطاق حرمة مكة وكعبتها حتى عرفات. وإذا خرجوا للحج لم يتجاوزوا جمعاً وهي مزدلفة كما رأينا في كلام الواقدي الذي أوردناه عن حجة الوداع.

ثم أطلقوا على أنفسهم اسم الحُمسْ أو الأحامس، وهو لفظ لا نعرف معناه على وجه التحديد وإن كان شراح السيرة من القدامى والمحدثين يزعمون أنهم يعرفون هذا المعنى حق المعرفة وتفسيره على وجه التقريب لا التحديد في رأينا أنهم زعموا أنهم أفضل العرب وأهل الحرم والحرمة وأعرف الناس بمناسك الحج، أو أن لهم فيه مناسك أخرى يتميزون بها عن الناس (أنظر الفقرتين ٣، ٤).

وفي الفقرة الخامسة نجد هذا الفريق من القرشيين الذين قالوا بامتياز أنفسهم على غيرهم وقصر الحرمة على مكة، وما رأوا من الاقتصار من مناسك الحج على جمع دون عرفات. فإذا وصلنا إلى الفقرة الخامسة بدأنا نرى بعض الدوافع لابتداع فكرة الحمس أو الأحامس. وقد قررنا فيما سلف أن الذين ابتدعوا ذلك لم يكونوا أصحاب حلف المطيبين أو الفضول فإن محمداً ﷺ كان من هؤلاء، وقد حضر حلف الفضول وأثنى عليه. وهذا الحلف مناهض لاتجاه الانحراف عن القواعد الأساسية التي وضعها قصي وخلفاؤه لقريش في مكة وأقاموا بها مجد القبيلة بأسرها، فأدت الغيرة بنفر من خصوم هاشم وبنيه إلى تحديهم ومحاولة التقليل من شأن ما كانوا يعملون من الرفادة والسقاية ورعاية الحاج واكرام ضيوف مكة ومعاملتهم بالحسنى دون تفرقة اجتذاباً لهم واستئلافاً لقلوبهم فقوي مركز قريش كلها، فلما نزعت الجماعة المناهضة لبني هاشم وجماعتهم نزوع التحدي والتطاول بالمال وجدوا أنهم لا يثبتون لبني هاشم فسعوا إلى تكثير عددهم بأن يضموا إلى صفوفهم ناساً من غير قريش، وأدخلوهم معهم فيما زعموا لأنفسهم من تميُّز عن غيرهم، ثم جعلوا لمن ولدوا

من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذي لهم، فبولادتهم إياهم يحل لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم فدخلت معهم في ذلك بعض كنانة وخزاعة وبني عامر بن صعصعة (وهؤلاء جميعاً يسكنون الحجاز) وهذه كلها حقائق تنفعنا في فهم مواقف العرب من أهل الحجاز من الدعوة الإسلامية، فإن كفار قريش ومن لف لفهم نظروا إلى الدعوة الإسلامية على أنها دعوة هاشمية أراد بها بنو هاشم استعادة مركزهم والوقوف في وجه منافسيهم من الأحلاف أو لعقة الدم.

وفي الفقرتين ٧ و ٨ نرى جوانب من الدوافع الاقتصادية وراء القول برأي الحمس. فهم يريدون أن يستغلوا الحجاج وزوار مكة إلى أقصى حد، ويستخرجوا منهم أقصى ما يستطيعون من مال:

أ ـ فهم يحرمون على أنفسهم الزبد وهو الأقط هنا وذلك لكي يبيعوه من الحجاج كما سنرى، وكذلك لا يصفون السمن من أوشابه لكي يبيعوه بكل ما فيه ويزداد ربحهم منه، ولهذا فقد حرموا على زوار مكة القادمين من خارجها وهم الحل أن يدخلوا مكة بطعام أتوا به معهم من خارج مكة وفرضوا عليهم ألا يطوفوا إلا في ثياب يأخذونها ـ أي يشترونها أو يكترونها من الحمس أي هذا الفريق القرشي، ومن لم يشتر من غير المكيين ثياباً أو يكتريها ليطوف بها طاف عريانا، فإذا هو لبس ثياباً من مكانه أثناء الطواف كان عليه أن يلقيها بعد الطواف فلا يستعملها هو أو غيره بعد ذلك والناس في هذه الحالة مضطرون إلى شراء الثياب من القرشيين كما كانوا ملتزمين بشراء الطعام منهم وبلغ من تشددهم في ذلك أن بعض الناس ممن اضطروا إلى القاء ثيابهم العزيزة عليهم قالوا شعراً يشكون به من هذا الاستبداد.

ب ـ ولهذا كله، وعندما جاء الله بالإسلام ألغى ذلك كله فألغيت حكاية

الاقتصار في الحرم على مكة وامتدادها إلى جمع وهي مزدلفة وأمر القرشيين بأن يفيضوا من حيث أفاض الناس، وكان محمد ﷺ وقومه لم يغيروا السُّنة الأولى.

ثم ألغى القرآن الكريم تلك القيود التي وضعها هذا النفر من القرشيين، وأطلق للناس حرية المطعم والمشرب بلا قيود إلا الاعتدال لأن الله لا يحب المسرفين، ثم يسأل القرآن الكريم - في معرض البيان - «ومن الذي حرم على الناس زينة اللّه (من الملابس وما يتصل بها) وكذلك الطيبات من الرزق» ويجيب الله سبحانه - مزيداً في البيان فيقول: «قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة. كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون» أي يريدون أن يعلموا الحقائق، ويؤكد ابن اسحاق ذلك كله فيقول في ختام هذه الفقرة: «فوضع الله تعالى أمر الحُمُس، وما كانت قريش ابتدعت منه على الناس بالإسلام. حين بعث الله به رسوله ﷺ[1]». فرأي الحمس أو مذهبه هذا كله كان ابتداعاً من هذا النفر من القرشيين الذي ذهب بهم الجشع كل مذهب فلم يقنعوا بالرزق الحلال بل استبد بهم الجشع، فأرادوا من الناس ألا يأكلوا ولا يلبسوا أثناء مقامهم بمكة في أثناء الموسم إلا ما يشترونه من قريش في مكة وذهبوا مع الربا إلى غايات بعيدة ظلموا فيها الناس ظلماً بيّناً، ضللوا الناس بالنسيء أي في التغيير في تواريخ الشهور وتواريخ استحقاق الديون مبالغة منهم في استغلالهم، وغالطوا الناس في حساب الشهور ليطيلوا أمد الحج أو يقدموه أو يؤخروه كيف شاءت مطامعهم. وهذا كله بالإضافة إلى مناكر أخرى زادت في ثروات المستغلين والمرابين والمغالطين في الحساب والمطففين في الكيل، ويراد بذلك الغش في أمر القياس عامة. فكان هذا النفر المناهض للفضل وأهله وهم الفضول هم الذين أفسدوا أمر المجتمع القرشي الذي أنشأه قصي وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب. وأراد المطيبون أو الفضول أن يتمسكوا به فناهضهم

---

(١) ابن هشام. السيرة ١/٢١٦.

الآخرون، وقد رأينا أن النسيء كان في بني القَلَمَّس أي أصحاب القلم، وكان هؤلاء جميعاً في جانب المفسدين للنظام المكي القويم.

وهذا التفسير من جانبنا لكلام ابن اسحاق وما يتضمنه من معلومات عن استبداد جماعة المال في المجتمع المكي يفسر لنا اتجاه ذلك المجتمع إلى التدهور والفساد بعد أيام عبد المطلب. فأما الفساد وتزايده حقيقة يقول بها القرآن الكريم وتؤيدها كل المعلومات التي لدينا عن المجتمع المكي خلال الخمسين سنة التي سبقت البعثة النبوية، فقد لاحظنا أن الأحوال اتجهت إلى السوء عندما كبرت سن عبد المطلب وهَطل عن العمل ولم يعد قادراً على كبح جماح جماعة القبائل التي تَسَارَعَ في كيانها الفساد فدفعت المجتمع المكي كله في طريق التدهور، وقد كان ذلك المجتمع أول أمره سليماً يتميز بعلامات واضحة من الصحة والسلامة، وقد رأينا خطوات بناء ذلك المجتمع وخصائصه الأخلاقية التي نبعت من إيجابيات الخلق العربي الجاهلي من ناحية، ومن اتجاه عبد المطلب بالمجتمع المكي كله نحو الدين. ثم رأينا كيف أن تجمع مكاسب التجارة بين أيدي فريق المال مال بهم إلى الجشع فانطلقوا في طريق جمع المال ولم يعرفوا لذلك حدوداً وطوعوا كل شيء لمصالحهم المادية، ولما كثر المال بين أيديهم اتجهوا إلى القول بأنهم أفضل من غيرهم زاعمين أنهم حماة الحرم وسدنة الكعبة. ومن المعروف أن المجتمع عندما يسوده الاتجاه إلى الثراء وجمع المال تتداعى فيه النواحي الانسانية وتضعف فيه نوازع الخير والفضل ويتزايد فيه الجشع إلى المال وما يستتبعه المال من امتيازات، ويهون فيه أمر الفقراء والضعفاء ويكثر العدوان عليهم ويضعف سلطان القانون ويغلب النزوع إلى جمع المال والاستمتاع به على كل شيء آخر. ولسنا في حاجة إلى الاتيان ببراهين على ذلك ولا نتابع كذلك كلام غالبية مؤرخينا فيما يذهبون إليه من الإسراف في تشويه صورة الجاهليين ومجتمعهم ظناً منهم أن ذلك يزيد قدر الإسلام والبعثة المحمدية. وهم مخطئون في ذلك، لأن المجتمع المكي إذا كان

بهـذا الفساد البـالغ الـذي يصورونـه به وذلـك الجهل البـين الذي يجعـل أئمة الشرك من الكفار في درجـة من الغباء تجعلهم أشبـه بالعجمـاوات، فإن ذلـك يقلل من فضل الإسلام في الانتصار عليهم.

ولكننا نأتي هنا بآيات من القرآن فيها سور مُبينات عمن يسميهم في سورة المزمل «بأولي النعمة» (آية ١١).

يقـول الله تعالى في تصـوير أشكـال هؤلاء المتبطرين المفسـدين في سورة المدثر: (٧٤/١١ ـ ٢٤).

﴿ذرني ومن خلقت وحيدا
وجعلت له مالاً ممدودا
وبنين شهودا
ومهدت له تمهيدا
ثم يطمع أن أزيد
كلا إنه كان لآياتنا عنيدا
سأرهقه صعودا
إنه فكر وقدر
فقتل كيف قدر
ثم قتل كيف قدر
ثم نظر، ثم عبس وبسر
ثم أدبر، واستكبر
فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر﴾

والمفسـرون يجمعـون عـلى أن المـراد بهـذا الـوصف الـوليـد بن المغيـرة المخزومي ويقصون في ذلـك قصصاً[1]، وليس من الضـروري أن يكون المـراد

---

(١) انظر ابن كثير ٨/٢٩٢.

هنا ذلك الرجل وحده، ولكنه مثال من هذا الطراز المتعالي المتكبر المغرور بماله ومركزه من القرشيين.

واقرأ الآيات التالية عن موقف هذا النفر من الضعفاء والمساكين:

﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم
ولا تحاضون على طعام المسكين
وتأكلون التراث أكلاً لمّاً
وتحبون المال حباً جماً﴾ الفجر ١٧/٨٩ ـ ٢٠)

وعن معاملتهم للناس وغشهم إياهم في الكيل والبيع والشراء:

﴿ويل للمطففين
الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون
وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون
ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾ (سورة المطففين ٨٣/١ ـ ٥)

وفي سورة الهمزة نقرأ:

﴿ويل لكل همزة لُمزة
الذي جمع مالاً وعدده
يحسب أن ماله أخلده
كلا لينبذن في الحطمة﴾ (سورة الهمزة ١٠٤/١ ـ ٤)

وعن النسيء والنسأة وما كانوا يفعلون:

﴿إنما النسيء زيادة في الكفر، يُضل به الذين كفروا، يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله، زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾. (التوبة ٣٧/٩).

وهنا وعلى ضوء ما قلناه نفهم لماذا سأل رسول الله ﷺ الناس في أول

خطبة الوداع الثانية في منى يوم النحر عن الشهر والبلد واليوم لكي يثبت مواقيت الحج والوقوف بالمواقف[1] فلا يعود أحد إلى المغالطة في ذلك. ويؤكد هذا قوله أن الزمان قد استدار حتى عاد كهيئته الأولى. والمراد بذلك أن عصراً جديداً من عصور تاريخ الإنسانية - وهو عصر الإسلام - قد بدأ وأن الزمان عاد كما كان يوم خلق الله السماوات والأرض ليبدأ من جديد.

والآن وقد أعطينا فكرة عن ذلك الفريق من القرشيين فلنلق نظرة على أحوالهم ومعيشتهم، فمن المعروف أن التجارة في ذاتها من أكبر أبواب الرزق، فما بالك إذ لجأ التاجر إلى الغش والتزوير وغالط في الحساب وغير في المُدد وفسد ضميره فلم يتورع عن أكل أموال الناس وإنكارها! لا غرابة أن ثروات أولئك الناس بلغت مبالغ وأرقاماً عسيرة على التصديق لولا أن البيان عنها جاءنا من رواة يستبعد منهم الكذب، ثم إن كلاً منهم يؤيد كلام الآخر، وانظر مثلاً ما يقوله محمد بن حبيب النسابة في كتاب المحبر تحت عنوان «أزواد الركب» أي أولئك الذين يقومون بتزويد القوافل من مالهم، من أمثال عثمان بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة الذي كان يلقب بشارب الذهب وأبيه عمرو بن كعب الذي كان يلقب بالسيال، وعبدالله بن جدعان الذي بلغ من غناه أن الناس زعموا أنه عثر على كنز، والوليد بن المغيرة وأبي جهل عمرو ابن هشام. وابن حبيب يلقي علينا قصة تعطينا فكرة عن سعة ماله وكرمه على الناس لا من جانب الإنسانية بل من باب التعالي والغرور والتباهي بالغنى[2].

حروب الفجار وآثارها على قريش:

قلنا فيما سبق من كلامنا على الإسماعيلية العدنانية - وهم العرب

---

(١) الواقدي، مغازي ٣/١١١١.

(٢) انظر المحبر، ص ١٣٧ وما يليها.

المستعربة أنهم انتشروا في الحجاز وشمال الجزيرة ووسطها من الخليج إلى البحر الأحمر، وهناك خضعوا لسلطان حِمير، وكان لملوك حمير سلطان ضعيف رمزي على عرب وسط شبه الجزيرة، وكان هذا السلطان يتناقص مع الزمن حتى إذا كانت أواخر القرن السادس الميلادي تاقت نفوسهم إلى التخلص من بقايا هذا السلطان الحميري الذي كان يتمثل في تأمين قوافل التجارة الذاهبة من ساحل الخليج إلى الحبشة وخفارتها. وكان ملك اليمن قد ولَّى على بكر وتغلب زهير ابن جناب بن هبل الحميري المشهور في أيام العرب، والمراد بتولية ملك حمير إياه أنه اعتبره ممثلاً له لأن زهير بن جناب كان في الحقيقة قضاعياً ولم يكن حميرياً، وكان من أشراف العرب في عصره ـ وهو أواخر القرن السادس الميلادي ـ وقد تميز فيما يقول الاخباريون بعشر خصال من اجتمعت فيه لقب بالكامل وهي السيادة والشرف والخطابة والشعر والوفادة على الملوك والطب والكهانة والفروسية وكثرة الولد وشرف البيت، وقد طال عمره وأثرت عنه حكم كثيرة وأشعار أكثر وتوفي في أواخر القرن السادس الميلادي بعد مولد رسول الله ﷺ وقبل بعثه ﷺ[1].

وعاصر زهير بن جناب هذا كليباً بن وائل الفارس المشهور وكان سيد بكر ووائل أكبر قبائل ربيعة الضاربة في شرقي الجزيرة، وكانت لزهير بن جناب أرض مراع واسعة فكان يتقاضى إتاوة من القبائل التي ترعى في أرض قضاعة (المراد بعض أرض قضاعة وكانت في منطقة نفوذه) في مقابل النجعة والكلأ والمرعى، وأصابهم في بعض السنين ضيق وجدب ومحل فشكوا إلى زهير عجزهم وأبانوا عذرهم فلم يصغ إليهم ومنعهم النجعة والمرعى أو يؤدوا ما عليهم فصبروا حتى كادت ماشيتهم تهلك، وكانت هيبة الدولة قد ذهبت من نفوسهم، فلما أصابهم ذلك الظلم ـ الذي يتنافى مع ما يزعمه له الأخباريون عنه

(١) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٢٤ جـ ٢ ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

من شرف وشهامة وفروسية - ونقموا على زهير ورجاله فدسوا رجلاً منهم اسمه زبـابة من بني تيم الله وكـان فاتكـاً وأوعزوا إليـه أن يقتل زهيـراً. (الفاتـك في مصطلح الجاهليين هو القاتل المحترف الذي يقتل لقاء أجر) وأوصوه أن يقتله غيلة ويتحين فرصة بعده عن جنده، فأتاه زبابـة وهو نـائم فطعنـه ورجع إلى قومه وأخبـرهم أنه قتله، والحقيقـة أن السيف مر بجـانب البطن ولم يصب من زهير مقتلاً. فلما انصرف زبابة أوعز زهير إلى قومه أن يظهـروا موتـه ويستأذنـوا بكراً وتغلب في دفنه لأن الحادث وقع في أرضهم، فلما أذنـوا لهم في دفنه دفنـوا ثياباً ملفوفة وفروا به إلى قومهم، فجمع زهير جموعه وأزمع عقاب بكر وتغلب وسـار إليهم وهزم بكـراً ثم تغلب ووقع في أسـره كليب ومهلهـل ابنـا ربيعـة، وولـوا على أنفسهم ربيعـة والـد كليب ومهلهـل وهـاجمـوا رجـالـه واستنقـذوا الأسيرين، لكن زهيراً عاد فانتصر عليهم وألزمهم الأتاوة.

وفي أواخر القرن السادس الميلادي توفي ربيعة بن كلاب وقام بأمر القوم ابنه كليب وائل وقد أزمع الانتقام من زهير بن جناب واليمن الذين يناصرونه، فجمـع من استـطاع جمعهم من قبـائـل معـد وربيعـة وقضـاعـة ومضـر وإياد ونزار ولاقى اليمن وأنصارها في يوم خـزاز وانتصر عليهم. وكانت هذه نهاية سلطان حمير الاسمي على قبائل شبه الجزيرة.

ولكن العدنانيين لم يستتم استقلالهم بعـد ذلك لأن غلبـة البداوة عليهم حالت دون اتحاد صفوفهم، فظلوا بعد ذلك يدينون بـالطاعـة لمن جاورهم من الـدول وذلك لحـاجتهم إلى بـلاد الحضـارة ومـا لا بـد لهم الحصـول عليـه من الأدوات والآنية والسيوف وسرج الخيل ومن هنـا فقد طـاعوا لكنـدة أو لخم أو غسان حسب الظروف، وكانت تلك الطاعة اسمية لا تكلفهم إلا شيئـاً قليلاً، وأهم ما كانت تكلفهم إياه خفارة قـوافل تلك الـدول أو لطائمهـا دون مقابـل وخاصة القوافل الذاهبة إلى أسواق الحجاز والصادرة منها.

ومن هنـا نفهم لماذا رحبت تلك القبـائل بمـا عـرضـه عليهـا هـاشم من

الإيلاف، فقد ربح وربحوا، والإيلاف كان مرتبطاً بالعصم، وهي الاتفاقات مع الدول خارج الجزيرة لتيسير التبادل التجاري وفتح الأبواب أمام التجارة المكية إلى الشام حيناً وإلى العراق حيناً ثانياً وإلى اليمن والحبشة حيناً ثالثاً.

وقد اعتمدنا في هذا التلخيص المترابط على ما أورده جرجي زيدان في كتابه القيم: العرب قبل الإسلام[1]. وهو يجعل معركة خزاز أو البيضاء في أواخر القرن الخامس الميلادي ولكننا نرى أن الأوفق لتسلسل الحوادث أن تكون في بداية النصف الثاني من القرن السادس أي بعد أيام قصي بقليل وقبل أيام هاشم، لأن القول أنها كانت قبل سنة ٥٠٠ ميلادية يجعل العهد بعيداً جداً بينها وبين العصر الإسلامي وهنا يكون من العسير أن تحفظ ذاكرة العرب أخبار حروب وقعت قبل قرن ونصف من الزمان. ولهذا عدلنا التاريخ على هذا النحو.

ويتصل بيوم خزاز يوم يسمى يوم البيضاء، والغالب أنه جاء بعد عام الفيل، فهو في وقت قريب من يوم خزاز، لأن يوم البيضاء كان يوما انتصرت فيه جماعات من المعدية بقيادة عامر بن الظرب العدواني على مجموعة من القبائل اليمنية أكبرها مذحج كانت تحاول الانتجاع في أراضي العدنانيين فاجتمعوا ووقفوا في وجهها وفي وجه أي تقدم للقبائل اليمنية من الجنوب.

وإنما استطردنا مع هذه التفاصيل لننتهي إلى حرب الفجار وهي مدار هذه الفقرة من بحثنا لنقول إن حروب الفجار كانت جزءاً من حركة وعي عام وشعور بالذات شمل العدنانية جميعاً نتيجة لتكاثر عددها وازدياد قوتها وتحسن أحوالها نسبياً، وكان لانتظام التجارة واستقرار أسواقها أثر بعيد في ذلك فإن دبيب الحياة في الطرق الرئيسية التي نظم أمرها القرشيون كان حرياً أن يبعث

---

(١) جرجي زيدان تاريخ العرب قبل الإسلام، طبعة جديدة بمراجعتنا وتعليقاتنا (بدون تاريخ مكتوب عليها ولكنها كانت سنة ١٩٥٧) ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

الحياة في الطرق التجارية الثانوية التي تمر بمنازل القبائل في داخل الجزيرة، ومن المعروف أن التجارة ليست مجرد تبادل تجارة بل تبادل أفكار ومظاهر حضارية وثقافية، وانتظامها وازدهارها يؤدي إلى وعي بشري ونهوض حضاري يصل إلى آفاق لا تصدق، ومن أكبر العوامل التي أدت إلى النهضة الأوروبية كان انتظام التجارة ونهوضها ونشاطها في البحر المتوسط، وانتظام تجارة هذا البحر زاد في ثروات الجمهوريات والممالك الإيطالية وفرنسا وإسبانيا والبرتغال والجزر البريطانية وتقدم صناعة السفن وفنون الملاحة البحرية وعمل الخرائط، وهذا كله أدى في النهاية إلى كشف العالم الجديد وما أعقبه من تغير حاسم في تاريخ البشر.

ومعظم ما تذكره الكتب من أيام العرب راجع إلى تلك الفترة الزمانية، وهي في ذاتها فترة وعي القبائل وإحساسها بنفسها، وإذا نحن تأملنا تفاصيلها نجد أنها من الناحية العسكرية لا تكاد تذكر فحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان وهي الحرب الطويلة التي ظهر فيها أمر عنترة العبسي لم تسفر إلا عن خسائر لا تزيد على أصابع اليدين في الجانبين، وفي النهاية ملت القبيلتان القتال وتصالحتا وتولى الصلح بين الجانبين رجل من الحكماء ودفعت ديات قليلة وانتهى الأمر.

وحروب الفجار التي نحن بصددها جزء من ذلك الوعي العربي الهام وأسبابها - كما ترويها المراجع - تبدو نزاعات صبيانية ولكن الحقيقة أن السبب الرئيسي هو غيرة قبائل قيس عيلان من قريش لما بلغت من الثروة والازدهار بفضل التجارة، وكان شريان رئيسي من طرق التجارة، وهو الطريق من مكة إلى العراق يمر بمنازل قيس عيلان، فأرادت بعض بطونها (من هوازن) إيقاف تجارة قريش، وتعمدت حادثاً صغيراً لإثارة الحرب، فاستعانت قريش بكنانة (أمها) وأمكن في النهاية حصر القتال وإيقاف أعمال العداوة وتلك هي حرب الفجار الأولى، وإنما سميت بحرب الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم، فكانت إما في رجب أو في ذي القعدة أو ذي الحجة أو المحرم.

وحرب الفجار الثانية أيضاً كانت بين قريش وكنانة في جانب وبعض قبائل قيس عيلان في جانب يتزعمهم عروة بن عامر الكلابي وهذه الحرب مؤرخة، لأنها كانت ورسول الله ﷺ شاب في العشرين وقد حضرها وقال إنه كان يجمع السهام التي يطلقها العدو ولا تصيب ويناولها لأعمامه، وتقول الأخبار إن رجلاً خليعاً فاتكاً يسمى البراض الكناني عرض على النعمان بن المنذر بن قابوس سيد بني لخم أو ملك المناذرة كما كان يسمى أن يقود لطيمة له كانت ذاهبة إلى سوقي عكاظ وذي المجاز فكبر ذلك على عروة الكلابي سيد بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وأنف أن يجيز هذا الكناني الخليع القتال لطيمة النعمان، وتوعد البراض، ولكن البراض غدره وقتله فثارت الحرب بين بطون بني قيس عيلان من ناحية وقريش وكنانة من ناحية أخرى، وكان يرأس قريشاً في ذلك الحين - كما تقول النصوص - حرب ابن أمية سيد بني عبد شمس وهو والد أبي سفيان وكادت كنانة وقريش أن تهزما حتى هرب رجالهما واقتحموا الحرم طلباً للنجاة، ولكن حرب بن أمية نادى رجال قريش فبرز منهم عمرو وسفيان وأبو سفيان وأبو حرب وعتبة بنو أمية الأكبر بن عبد شمس وهم المسمون بالعنابس لأنهم ثبتوا ثبات الجبال في ذلك اليوم، وانضم إليهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص، وهم المسمون بالأعياص أي الذين يستعصون على أن يقودهم أو يسودهم أحد. وقد تمكن هؤلاء من كسب النصر لقريش وكنانة وارتد بنو كلاب ومن معهم من قيس عيلان منهزمين.

وفي فرار كنانة وقريش في أول هذه الحرب ولجوئهما إلى الحرم يقول شاعر يسمى خداش بن زهير، وكان اللقاء أولاً في نخلة:

يا شدة ما شددنا غير كاذبة ... على سخينة لولا الليل والحرَمُ

(ويشكل اللفظ الأخير الحُرَم) وكانت العرب تسخر من قريش وتسميها

سخينة، والسخينة لون من العصائد يعمل من الدقيق ويؤكل ساخناً، وكان العرب نادراً ما يأكلون طعاماً ساخناً، فأنكروا على قريش كثرة أكل السخينة، مع أن السخينة لم تكن طعاماً ممتازاً إنما كان يؤكل ساخناً.

وفي هذه الفجار الثانية أيضاً ظهر أمر عبدالله بن جدعان فقد زود مائة مقاتل بالخيل والسلاح من ماله سوى من ألبس من قومه وانضمّت الأحابيش إلى قريش وعلى رأسهم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وكان اللقاء الأخير في موضع يسمى شَمَطة قرب عكاظ وكذلك غير بعيد عن نخلة الشامية موضع اللقاء الأول، واجتمعت من قيس عيلان بنو سليم بن منصور وبنو عامر بن صعصعة وبقية هوازن، وكان اللقاء عنيفاً دامياً خسر فيه القيسيون ما بين مائة وثمانين قتيلاً ولم يقتل من قريش وكنانة والأحابيش أحد، ويبدو أن هذا النصر لم يتم إلا بعد لقاءات أخرى في موضع يسمى العبلاء وموضع يسمى الحريرة، وفي هذه اللقاءات قتل أبو سفيان بن أمية الأكبر وهو غير أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية الذي سيكون له دور كبير في تاريخ قريش في الإسلام، وفقدت كنانة ثمانية من رجالها. وقد استقرت قدم قريش في ذلك اليوم وثبت أمر بني أمية الأكبر، وكان لبني المغيرة وهم مخزوم دور كبير أشاد به ابن الزبعري شاعر قريش[1].

وقد اكتفيت هنا بموجز الأحداث دون استطراد مع التفاصيل لأن غالب ما لدينا منها مبالغات وقصص وأشياء وضعت بعد الإسلام، ثم إن جرجي زيدان فصّل أمرها تفصيلاً جيداً وزدنا عليه في تحقيقنا له تعليقات نافعة. والمهم لدينا هي النتيجة: فقد استقرت قريش وثبتت أقدامها وازداد جاهها، وظهرت من بين بيوتها بيوت الأحلاف المناهضين لبني هاشم، وجدير بالذكر أن بني هاشم كانت لهم الرياسة الشرفية متمثلة في الزبير ثم أبي طالب ابني عبد

---

(١) انظر النويري، نهاية الأرب جـ ١٥ ص ٤٢٣ وما بعدها. وجرجي زيدان تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٧١ وما بعدها.

المطلب، ولكن الآخرين تخطوهم وظهروا عليهم وأصبحت لهم الرياسة الفعلية في مكة وإن لم يتعرضوا لبني هاشم في رفادتهم وسقايتهم.

استبد إذن أهل القوة والمال بأمور مكة والحرم والحج، ولم يجدوا أمامهم قوة تردعهم فبسطوا سلطانهم على كل شيء وبسطوا أيديهم على الناس، فازدادوا ثراء وقوة وازداد الضعفاء بؤساً وفقراً وسادت مكة حالة من عدم الرضا والتذمر أو عدم الرضا الاجتماعي أو ما يسمى باسم Malaise وتزايدت أعداد المستضعفين وهم الذين يعيشون دون حماية من قانون أو أخلاق أو عرف اجتماعي محترم. والزعامة الفعلية القرشية لم تعد زعامة النشاط والاجتهاد والعمل لما فيه صالح الجماعة ورعاية التجارة والحج وخدمة المجتمع العربي كما كان الحال من قصي إلى عبد المطلب بل أصبح المجتمع كله في خدمة جماعة بعينها من الناس من أصحاب المال والجاه وأهملت القواعد الأخلاقية والأسس المعنوية التي قام عليها ذلك المجتمع المكي القرشي والحجازي عامة. وستعرض لهذه الحالة في الفصل التالي الذي ندرس فيه موقف قريش من الإسلام.

والآن نلقي نظرة على المجتمع المكي تحت قيادة قريش وهو في ذروته غنى وازدهاراً، ونلم بما كان للتجارة والأسواق والحج من أثر بعيد في تطور اللغة العربية والفكر العربي عامة.

المجتمع القُرشي في أوجِهِ قبْل الإسْلام:

لا تصرفنا النواحي السلبية لذلك المجتمع المكي القرشي عن الالتفات إلى نواحيه الإيجابية، فإن الغنى الذي وصلت إليه بيوت بني عبد شمس ومخزوم وسهم وجُمَح وناس أفراد من بيوت قرشية أخرى كانت له نواح إيجابية لا بد من الإلمام بها حتى تكتمل لنا صورة قريش في أوجها قبل الإسلام.

ذلك أن وفرة المال في أيدي هذا النفر من القرشيين جعلت مكة، ذلك البلد الذي يقوم بواد غير ذي زرع فعلاً ملتقى تجارات العالم وصناعته كلها، وإذا كان ـ كبار المكيين قد ظلوا من ناحية المظهر قريبين من البدو في مظهر حياتهم، فإن خيرات الدنيا كانت عندهم. حقاً إنهم لم يتخذوا القصور أو مظاهر الترف المفسد الفاسد الذي كان شائعاً في عواصم الدولتين الكبيرتين اللتين سادتا تاريخ ما يعرف بالشرقين الأوسط والأدنى وبقية أوروبا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ولكن كل شيء كان في بيوتهم: كانوا يملكون مبالغ ضخمة من دنانير الذهب ودراهم الفضة، وكانت لديهم أقبية الحرير والصوف والخز وكانت لهم الضياع والبيوت في مكة نفسها وفي الطائف وتبالة ونجران وتيماء وحوران حتى بصرى وغزة. وقد حرص كبار المكيين على أن يكون لكل منهم حائط أو بستان في الطائف حيث يقضون الصيف وما شاءوا من شهور السنة في حياة رخية يسودها الكسل والشعور بالامتياز عن الناس، وكان العباس بن عبد المطلب وهو من الهاشميين القلائل الذين دخلوا عالم التجارة وجمعوا أموالاً طائلة ويملك ضيعة في جنوب الشام تسمى بقبش أو بقيش. وكان تجار العطور من المكيين يعرفون أغلى عطور العصر وأنفسها من المسك والذُريرة والغالية، ويعطينا محمد بن حبيب في المحبر صورة دقيقة لأبي جهل عمرو بن هشام وهو في فسطاطه يطعم الناس. وقد بسط انطاعاً على الأرض وضعت عليها جفان الثريد مع اللحم ودعي الناس للأكل فدخلوا دون هرج وأصابوا ما شاءوا من الطعام[1]، وقد عاصر أولئك الأجواد القرشيين أجوادٌ من قبائل عربية غير قريش، ويلاحظ أن الكثيرين من الأجواد غير القرشيين هؤلاء كان في بعضهم ميل إلى الخير، فمثلاً كان هناك رجل من بني مجاشع يسمى صعصعة بن ناجية يشتري البنات من آبائهن ليحميهن من الوأد، وفي فصل أجواد قريش من كتاب المحبر الذي أشرنا إليه أمثلة من هذا الطراز.

(١) المحبر لمحمد بن حبيب ص ١٤٢ ـ ١٤٣، وانظر باب أجواد العرب في الجاهلية كله ابتداء من ص ١٣٧.

ورغم تميز الكثيرين من رؤساء العرب على القرشيين في فضائل الجود والكرم فإن قريشاً كانت تزعم لنفسها امتيازاً على بقية العرب بفضل وجود الكعبة في ديارهم وقيامهم بأمرها. ويحاول بعض مؤرخينا تمييز القرشيين على غيرهم بخصائص الحلم والجود والذكاء وبعد النظر، ولكن هذه كلها مبالغات سببها النظرة الرجعية التي أشرنا إليها، فكأنهم يأخذون من مجد قريش بعد الإسلام ويضيفون إليها قبل الإسلام حاسبين أن ذلك تأصيلاً لمجد قريش بعد الإسلام. يرون في ذلك تصديقاً لما قال به - في زعمهم - الرسول أن قريشاً أفضل العرب، أو أن القرشي يعدل غيره من العرب مرتين، أو أن قريشاً أولى الناس بإمامة المسلمين، وما إلى ذلك مما لم يقله الرسول ولا يمكن أن يقوله، لأن أي قول يصدر عن الرسول ينبغي أن يكون له أصل في القرآن، والقرآن لا يفضل إنساناً على إنسان إلا بالتقوى.

ولكن القرشيين فعلاً تميزوا بالبديهة الحاضرة وسرعة الجواب وحسن التصرف في الخطاب، وهذه بالذات هي الخصائص الذهنية التي تتأتى من التجارة، فإن التاجر بحكم صنعته لبق متصرف في الكلام يحسن تزيين ما يبيع، وهذا شيء يختلف تماماً عما زعمه بعض الكتاب المسلمين من أن قريشاً أرجح العرب أحلاماً أو أنهم كانوا أحلم الناس، لأن الحقيقة أن عرباً آخرين كثيرين كانوا يرجحون القرشيين في الحلم.

وتميز القرشيون كذلك في نظر الأعراب في شبه الجزيرة بأنهم كانوا أصحاب نظام سياسي قائم يقارب ما عرف بعضهم من أحوال الدول خارج شبه الجزيرة ونظمها، ورغم الخصومات التي كانت قائمة بين بيوت المكيين إلا أنهم تميزوا فعلاً بالوقوف جبهة واحدة أمام غيرهم، وهذا شعور بالتساند لم يعرفه أي قبيل آخر من العرب فقد كان القرشيون يبدون للناس قبيلاً واحداً ويهبون جميعاً للدفاع عن مصالح قبيلهم إذا دهمهم خطر وقد رأينا ذلك في حروب الفجار.

ولكن الامتياز الذي اعترف به العرب جميعاً لقريش كان امتياز الغنى والمال وقد كان بعض رؤساء العرب يملكون من الإبل والخيل والماشية فوق ما ملك كبراء قريش ولكن ثروة القرشيين كانت ذهباً وفضة وعروضاً أي أشياء ذات قيمة مالية فعلية كالأقمشة والعطور والصمغ واللبان والقرفة والتوابل وما إلى هذا من الأشياء التي كانت في تلك العصور تعدل الذهب والفضة، وثروة الابل والنخيل والماشية لا تعطي صاحبها قوة على غيره، لأنه ـ أولاً ـ لا يستطيع حمايتها من البدو إلا بالسماح لهم بأن يصيبوا منها ما تمس إليه حاجتهم عند الضرورة، وإلا فكيف يستطيع رجل أو قبيلة ـ حراسة ألف ناقة ترعى في منازل القبيلة وكيف يمكن حماية ألف نخلة مثلاً تمتد على مسافة تتراوح بين ثلاثة كيلومترات وخمسة؟ ولهذا فقد كانت ثروة الإبل والماشية والنخيل ثروة جاه وسؤدد ومجد ولكنها ليست ثروة قوة يستطيع صاحبها أن يستخدم بها الناس أو يرغمهم على طاعته، في حين أن ثروة المال ثروة «مركزة» في صورة ذهب وفضة وما يشابهها من حيث قلة المساحة التي تحتلها، فهي ثروة يمكن حمايتها والتصرف فيها واستعمالها في استخدام الناس مثلاً أو سيادتهم. وهنا حيث يوجد الذهب والفضة يوجد الظلم والاستبداد والاستغلال، ولهذا وجد الظلم في بلاد الرومان والفرس نتيجة لوجود ثروات الذهب والفضة عند الملوك والأمراء ورجال الدول والأغنياء وذوي الجاه. ولم يوجد الظلم في جزيرة العرب لعدم وجود الثروة المركزة التي يمكن خزنها وحفظها واستخدامها في استئجار الجند مثلاً.

وقد كانت قريش تملك المال، فقد قدرت ثروة الوليد بن المغيرة بما يقرب من مائة ألف دينار وثروة هشام بن المغيرة والد أبي جهل بما يقارب ذلك، وثروة أبي أحيحة سعيد بن العاص كانت تصل إلى حوالي مائتي ألف دينار إذا أضيف إليها ما كان لديه من عروض. وكانت القافلة الواحدة من كبار قوافل المكيين وواحدتها العير ـ تتكون ـ من ألف جمل محملة بالبضائع، ورأس المال المستخدم

فيها يقرب من خمسين ألف دينار في زمان كان الدينار يشتري زوجاً من الإبل، وكان الرجل وأهل بيته يحتاجون إلى ما بين درهم ودرهمين في اليوم ليعيشوا في سعة. حقاً كان كثيرون من أوساط القرشيين يشاركون في العير بالدنانير العشرة وربما الخمسة، ولكن الرجل الذي كان يملك عشرة دنانير يستخدمها في التجارة خارج مطالب حاجته كان يعد في المياسير فما بالنا بمن كان يملك الألوف إلى جانب الحوائط (البساتين) في الطائف وغيرها؟

كان القرشيون متميزين على غيرهم من العرب بالغنى من هذه الناحية، وتميزوا كذلك بكل ما يجره المال من سلبيات مثل الجشع والطمع والرغبة في زيادة المال وتثميره ولو على حساب الآخرين. من هنا عرف القرشيون بالربا والمغالطة والتطفيف والإخسار في الكيل والميزان والقياس وكان هذا يثير غضب الأعراب الذين لم تكن تنقصهم الحوافز لكراهة الأغنياء فضلاً عن المرابين والمستغلين، وهذا كان شعوراً عاماً عند كثير من العرب نحو القرشيين وجماعة المال بصفة خاصة. والبيتان التاليان مثال على ما كان يقال عن قريش:

ألهى قريشا عن المجد الأساطير　　ورشوةٌ مثلما ترشى السفافير
وأكلها اللحم محضاً لا خليط له　　وقولها ذهبت عير أتت عير

والرشوة عند الجاهليين هي كل مال حرام سواء أكان إتاوة زائدة أو ربا أو مالاً مسروقاً أو مالاً مقدماً لإفساد الخلق.

بل زعم بعض العرب أن قريشاً تتحدى الآلهة بمالها غير مقدرة لها حرمة:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها　　ليغلبن مغالب الغلاب

ولكن مركز قريش بين العرب ظل على ما هو عليه ودون تغير لأن التدهور الذي أشرنا إليه كان داخلياً لم يظهر للناس على حقيقته إلا عندما جاء

الإسلام وتهددت قريش بسبب الدعوة المحمدية بالتصدع، لأن الدعوة الإسلامية أظهرت وجوه التدهور في المجتمع المكي، وعندما كثر المسلمون أصبحت في مكة جبهة معارضة قوية ضمت المستضعفين ونفراً من الساخطين على سيطرة قريش. ووقف بنو عبد المطلب وبنو المطلب عمه إلى جانب محمد والإسلام لا إيماناً بالإسلام بل حملتهم على ذلك العصبية في الغالب، وظن أصحاب حلف الأحلاف أن الدعوة المحمدية دعوة هاشمية هدفها إعادة ميزان القوى لصالحهم فازدادوا عناداً للإسلام كما سنرى في الفصل التالي، ولكن مركز قريش داخل مكة انتابه الوهن، وكان هذا من الأسباب التي حفزت خصوم الإسلام على مزيد من التماسك، فاشتدت المعارضة للإسلام وتزايدت حتى تمكن القرشيون من إيقاف تقدم الإسلام داخل مدينتهم واطمأنوا إلى ذلك.

وظلت لقريش في مكة مكانتها في عالم العرب، ومضت قريش في طريقها زعيمة لقبائل العرب في مسائل التجارة والدين. ولم يتغير هذا الوضع تغيراً محسوساً حتى الهجرة النبوية إلى المدينة.

ونتابع دراسة بقية نتائج الزعامة القرشية بين القبائل العربية فنقول إن قريشاً عندما وصلت إلى هذه المكانة وأصبحت أغنى قبائل شبه الجزيرة وأكثرها سلطاناً في مسائل التجارة والدين أظهر رجالها كياسة ومهارة ضمنت لهم استمرار هذا التميز، فهم مثلاً لم يفخروا بمالهم على غيرهم من القبائل ولا هم استخدموا المال أو الاشراف على شئون الكعبة والحج مجالاً للفخر على غيرهم، وإنما هم استمروا يحسنون معاملة الوافدين على بلادهم من كبار أهل القبائل واكرامهم والاحتفال بهم، وفي مكة في موسم الحج وفي أسواق الحجاز كان زعماء القرشيين يجتمعون بكبار أهل القبائل على بساط المودة، وهذا مظهر من مظاهر مهارتهم التجارية، ومن أظهر الأمثلة على كياسة القرشيين أنهم عندما احتفظوا لأنفسهم بولاية الكعبة وموسم الحج تركوا ولاية سوق عكاظ والقضاء

فيه لتميم، ويسمى هذا عند محمد بن حبيب في المحبر: «عكاظ على حدة والموسم على حدة»[1] والبيان الذي يعطينا إياه محمد بن حبيب عمن تولى سوق عكاظ والقضاء فيه يلاحظ منه أنهم لم يكونوا جميعاً من تميم بل اشترك فيه ناس من مجاشع، والظاهر أن المراد بالموسم في عكاظ هو رياسة الذاهبين للحج من عكاظ، وكانت قريش كما رأينا قد اقتصرت في الحج على مزدلفة لا تتعداها إلى عرفات في حين أن بقية العرب كانوا يقفون عند عرفات، ولهذا فقد كان الناس من غير قريش في حاجة إلى رئيس للموسم يفيض بالناس من عرفات، فإذا وصل الناس إلى المزدلفة واستمروا إلى بقية مناسك الحج دخلوا الحرم وهنا تكون الرياسة لقريش.

أثر انتظام التجارة والحج في النمو الحضاري لقريش وتطور اللغة العربية:

خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين - وهما اللذان شهدا معظم الحوادث التي نتناولها في هذه الدراسة ظهرت اللغة العربية في صورتها النهائية التي ثبتت عليها بعد ذلك دون تغيير يذكر عبر القرون وذلك بفضل القرآن الكريم الذي نزل بها، فكان نزوله بها بركة عليها، فإن المسلمين حرصاً منهم على المحافظة على القرآن بألفاظه ومعانيه جعلهم يحرصون على المحافظة على اللغة العربية في صورتها التي كانت عليها أيام نزل فيها القرآن الكريم. ومن الواضح أن اللغة العربية لكي تصل إلى تركيبها الكامل لفظاً وتركيباً ونحواً لا بد أن تكون قد خلفت وراءها قروناً طويلة من التطور والتنقل من موطن لموطن حتى اكتمل نضوجها وتكوينها في الحجاز منذ بدايات القرن الخامس الميلادي، إذ إن أقدم شواهد هذه اللغة الباقية إلى اليوم لا يمكن أن ترجع إلى ما قبل القرن الخامس الميلادي.

---

(١) محمد بن حبيب، المحبر ١٨٢.

ونظراً لأن أصول اللغة العربية وتكوينها وتطورها تمت كلها في مناطق صحراوية ونصف صحراوية لا يعرف أهلها التدوين ولا تعمر فيها المدوَّنات طويلاً بسبب جفاف الجو، فان تاريخ اللغة العربية ظل إلى يومنا هذا سراً مغيباً في تضاعيف الزمن ورمال الصحاري وصخورها. وقد بذل العلماء جهوداً مضنية في تتبع أصول العربية، وفي وقت ما من القرن التاسع عشر الميلادي اجتمعت جهود عشرات من أعاظم الأثريين وعلماء الكتابات على الأحجار وغيرها (Paleographers, epigraphers) من بلاد الغرب كله وتضافرت للكشف عن سر اللغة العربية، وخلفوا لنا مؤلفات ذات قيمة علمية كبرى ولكن النتائج التي وصلوا إليها جِدّ قليلة ولا تتناسب قط مع الجهد المبذول فيها، وفي نهاية هذه الفقرة من بحثنا سنورد ثبتاً بأهم تلك الأعمال.

وأقدم ما عثرنا عليه من معالم العربية حوالى ٤٠ اسم علم وردت في نص سرياني يتكلم عن قتال دار بين الأشوريين والعرب على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة ويُذكر العرب في هذا النص باسم عريبي أو عروبو أو عُرْبي، وقد نشر هذا النص كالاغان: O'Callaghan, Aram Nahrain, 95

ويرجع تاريخ هذا النص إلى الفترة بين ٨٥٣ و٦٢٦ قبل الميلاد، ثم عُثر بعد ذلك على نصوص أخرى ترجع إلى نفس الفترة ونشرها T. Weiss Rosmarin في مجلة مدرسة الأبحاث الشرقية في لندن JSOR سنة ١٩٣٢ ص ١ - ٣٧ وأعاد نشرها وتحقيقها فريتز هومل F. Hommel: **Ethnologie und Geographie des Alten Orients,** 1926, pp. 578-589. وقد ذهب Landsberger و Bauer في بحث نشراه في مجلة الدراسات السريانية Zeitschrift der Assyriologie سنة ١٩٢٧ إلى أن أسماء الأعلام الواردة في النص آرامية وقد نقض هذا الرأي B. Moritz و Paul Haupt فذهبا إلى أن المراد بلفظ أرمو في النص هم العرب. ومن أمثلة هذه الأسماء حَمْدَان وزبيد وخَزَعِلُ

وهي صور قديمة لأسماء عربية معروفة. وهذا أول ذكر لعرب في نصوص التاريخ.

وقد عثرنا في نصوص ترجع إلى فترة قريبة من هذه على أسماء أعلام عربية في نصوص وجدت في ناحية دِدان قرب مدينة العلا الحالية، وفي نصوص لحيانية من بينها اسم مسعود. وقد جمع هذه النصوص وحققها وترجمها وعلق عليها علماء آخرون منهم:

Jaussen et Savignac, Mission archéologique en Arabic, 1904-
Winnett, Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions.
1914, PP. 363-634. مجلة Museon سنة ١٩٣٧ ص ٢٣٩ وغيرها.

وإنما أشرنا إلى هذه النصوص لأنها تتضمن أول ذكر مكتوب ومنقوش للعرب، ومن الواضح أن العرب وجدوا منذ الزمن القديم في جزيرتهم، ولكن اتصالهم بالعالم الخارجي كان قليلاً، وهذه بعض شواهده.

ومنذ القرن الرابع قبل الميلاد يكثر ذكر أسماء الأعلام العربية في النصوص النبطية وترد الأسماء كذلك في النصوص التدمرية التي ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد وتتوالى بعد ذلك النصوص التي يرد فيها ذكر لأسماء أعلام عربية وهي أشورية وأكادية وعبرانية وسريانية ويونانية ولاتينية، ويستوقف النظر في ألوف اسماء العرب التي وجدت في هذه النصوص أنها تدل على ثبات صور تلك الأسماء على مر العصور.

وقد استنتج الباحثون من تلك النصوص أن اللغة العربية القديمة كانت لغة جُرْهُم وهي إحدى قبائل العرب البائدة التي تخلفت عنها قبيلة اندرجت في عداد العرب المستعربة وكان لها ذكر في تاريخ العرب قبل الإسلام هي المسماة بجُرهُم الثانية وقد ورد ذكرها في هذا البحث. وقد أورد أبو عبيد القاسم بن

سلام المتوفى سنة ٢٢٣هـ/٨٣٨م. نحو ثلاثين شاهداً من لهجة جرهم هذه في كلامه عما دخل القرآن من الألفاظ بلهجات القبائل العربية.

وقد كانت للعرب البائدة لغة ولا شك، وقد أورد الرواة بعض ألفاظ تخلفت عن قبائل العرب البائدة تعطينا فكرة عنها، وهذه الألفاظ قريبة في مبناها من أسماء الأعلام التي وردت في النقوش الآنفة الذكر، وهذه وتلك هي كل ما بقي لنا من العربية العتيقة أو ما سماه الباحثون باسم Ur - Arabish.

وعندما دخل العاربة اتخذوا هذه اللغة وتكلموها بلهجات مختلفة، وبعض هؤلاء العاربة أوغلوا في الصحراء من الجنوب حاملين معهم لهجاتهم، وهي لهجات من العربية القديمة أو السبئية أو القتبانية وكلها متقاربة لأنها كلها من أسرة لغوية واحدة، وفي كلام ياقوت عن جبلي أجأ وسَلمى يقول: (١٣٧/١ من الطبعة الأوروبية) إن طيئاً عندما هاجرت من الجنوب استقرت في الجبلين المنسوبين إليها وإن جد هذه القبيلة المسمى طيء وجد في جبل أجأ شيخاً هرماً قال له: «نحن من بقايا صحار، غنينا بهذين الجبلين عصراً بعد عصر، أفنانا كر الليل والنهار». وطيء كما ذكرنا من جماعات العرب العاربة التي انتشرت في شبه الجزيرة بعد خلائها بفناء معظم البائدة وقد أخذوا ما وجدوه من بقايا لهجات البائدة وبنوا عليه.

ويؤخذ من كلام اللغويين العرب أن العربية القديمة كانت لها لهجتان رئيسيتان، لهجة أهل غرب الجزيرة ولهجة أهل شرقها. ولدينا شواهد من لغة قضاعة ـ وقضاعة كما انتهينا إليه في هذا البحث هي إحدى جماعات العرب العاربة ـ وهي وطيء والأزد أكبر جماعات أولئك العرب العاربة وكانوا أقرب إلى الشعوب، لأن البلاد كانت لا تزال تحتفظ بشيء من خضرتها، فالسهول كانت أراضي استب أي حشائش قصيرة أما نواحي الجبال والمرتفعات من مثل جبلَي طيء وبلاد السراة والجبل الأخضر في عمان فكانت غنية بالزروع والمياه والأشجار، ويقول ياقوت في كلامه عن جبلي طيء: «ونظر عمرو بن طيء ـ

والمفروض هنا أنه رجل - إلى بلاد واسعة كثيرة المياه والشجر والنخل والريف، فرجع إلى أبيه وأخبره، فسار طيء بإبله وولده حتى نزل الجبلين فرآهما أرضاً لها شأن». (ياقوت مادة أجا) وهذا الكلام يمكن أن يقال عن جبال السراة أو سراة غامد في منطقة عسير الحالية والجبل الأخضر في عمان وجبلي طيء وهما اليوم جبال شمَّر، فهذه وأمثالها كانت دائماً مواطن عامرة بالناس وما يقول ياقوت من أن طيئاً وجد جبلي أجا وسلمى خاليين من السكان مستبعد، والغالب أن طيئاً أقامت في الجبلين من زمن طويل لأنها من جيل العرب العاربة كما قلنا، شأنها في ذلك شأن قضاعة والأزد. وقد سبق أن نبهنا إلى أن كتاب العرب تركوا مسألة العرب العاربة مبهمة لأنهم لم يعرفوا التطور الجغرافي والسكاني لشبه الجزيرة، فقالوا دون اتفاق بينهم أو دليل إن العاربة هم مهاجرة اليمن من الجنوب وأهل اليمن عرب منذ البداية: عاصروا البائدة والعاربة وكانت لهم هجرات وامتدادات بعد استئناس الجمل وعودة العمران إلى وسط الجزيرة وشمالها ولكن ليس إلى الحد الواسع المدى الذي يريدون أن يقنعونا به، فلا قضاعة كانت يمنية ولا طيء ولا لخم ولا غسان ولا كل خزاعة كما رأينا، وقد آن الأوان فيما نعتقد لأن نتخلص من الكثير من أوهام ابن الكلبي وأمثاله فيما يتعلق بأصول القبائل العربية.

وأصول العربية ترجع بلا شك إلى اليمن. وقبائل البائدة والعاربة أخذوا بقايا العربية عند انتشارهم في الجزيرة العربية وساروا بها إلى الأمام، وقضاعة بالذات كان لها الأثر البعيد في ذلك التاريخ، فقضاعة كانت وتداً عربياً في بلاد الشام وعلى مشارف الجزيرة الشمالية، وفي بلاد قضاعة أخذت العربية ألفاظاً كبيرة من العبرية والآرامية وقد أثبت أ. كوهين في بحث نشره في الدورية اليهودية سنة ١٩١٢ أي قبل أن تقع الواقعة بيننا وبين الصهيونية بحثاً له قيمته حافلاً بتلك الشواهد:

A. Cohen, Aramaic Influence on Arabic, Jewish Quarterly Review, 1912.

حيث نجد الأصول الآرامية لبعض العبارات التي أوردها اللغويون العرب من لهجات قضاعة وطيء وعبد القيس وغيرها، وانظر:

S. Fraenkel, Aramaische Fremdwörter im Arabisch, 1886.

وقد أيدت بحوث علماء آخرين من أمثال H.Mueller وكارل برو كلمان ونولدكه الآراء التي تقول بأن اللهجة العربية التي تكونت وانتشرت بين عرب الشمال والوسط هي اللهجة الرئيسية التي نمت وازدهرت في نجد وأصبحت الأصل البعيد للعربية الفصحى، وهذه اللهجه أخذت الكثير من الألفاظ اللاتينية والسريانية والفارسية واليونانية - بالإضافة إلى الحبشية، وأدخلته في صميم اللغة الفصحى ومن أمثلة ذلك ألفاظ قنطار (في السريانية قنطيرة، وهذه من اللاتينية Centenarius أي وزن مائة رطل) ومنديل (من السريانية منديلة وهذا من اليونانية Uasndn (مديل)، ولفظ صراط من اللاتينية Strada (الطريق ومنه الإيطالية Stradc والالمانية Strasse والانجليزية Street) ، وقصر (من اللاتينية Castra وهي الحصن ثم أطلق على كل بناء بالحجارة)، وغير ذلك كثير، وكل هذه دلائل على حيوية اللغة وقوتها، فإن اللغة الحية القوية تأخذ من غيرها وتعطي ما دامت جارية على الألسن مستعملة، (وانظر في ذلك كتاب المعرب للجواليقي، بتحقيق ادوارد سخاو في ليدن، وانظر في ذلك كله كتاب فوك Fück المشهور عن العربية وقد ترجم إلى العربية لتتبع هذا التاريخ).

وقد جمع د. ناصر الدين الأسد في كتابه: «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية»(الطبعة الأولى - دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٦) وهو من أمهات الأبحاث الحديثة في تاريخ اللغة والأدب العربيين التي يمكن أن نسميها بكلاسيكيات الدراسات العربية الحديثة التي ينبغي أن نعطيها نفس الأهمية التي نعطيها لكلاسيكيات الأصول العربية مثلها في ذلك مثل الاشتقاق لابن دريد والمعرب للجواليقي والمصاحف لأبي داود السجستاني وما إليها، ومثل

كتاب ناصر الأسد هذا كتاب أسواق العرب لسعيد الأفغاني وبلوغ الأرب لمحمود شكري الألوسي وتاريخ العرب قبل الإسلام وتاريخ الأدب العربي لجرجي زيدان وتاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف بمجلداته العظيمة القيمة وأبحاث عالم الجزيرة للشيخ حمد الجاسر وتحقيقاته الكثيرة الرصينة في جغرافية الجزيرة وتاريخها وكتاب تاريخ العرب قبل الإسلام الحفيل لجواد علي، وتلك كلها وأمثالها أصول لا نزال نرجع إليها ونستنير بما فيها على طول هذا البحث.

وقد احتفظ لنا القدماء بأمثلة قيمة من لهجات القبائل التي صبت في النهاية في نهر العربية الفصحى فلدينا نماذج من لهجات عرب نجد وتميم وأسد وطيء وعبد القيس وقبائل الحجاز مثل جهينة وبلي وبهراء، وهذه الثلاثة فروع من قضاعة بالإضافة إلى ألفاظ من لهجات الأزد وهذيل. وهذه البقايا تتجمع في مجموعة لهجات قبائل الشرق من أمثال عبد القيس وبكر وتغلب وقبائل الوسط مثل تميم ومجموعة قبائل غرب الجزيرة. فأما لهجات الشرق فصبت في لهجة نجد، ولهجات الغرب صبت في لهجة كنانة ثم قريش.

ويذهب علماء اللغة إلى أن لهجات الغرب والوسط تقاربت حتى صارت في أصفى صورها عند قبائل أعاريب نجد، وقد كان علماء العربية يلتمسون النطق الصحيح للألفاظ عند النجديين، وليس المراد بذلك بالضرورة كبار القبائل، بل إن اللهجة العربية التي يفهمها أكبر عدد من العرب وجدت عند بطون من غطفان وهوازن وتميم، وجدير بالذكر أن السيدة آمنة أم رسول الله ﷺ اختارت أن تبعث بولدها الرضيع إلى منازل بني سعد بن بكر وهم من هوازن حتى تتعود أذنه النطق السليم. ومن بطون القبائل النجدية تلك كانت غالبية الوافدين على أسواق الحجاز وأعدادهم الكثيرة هي التي جعلت اللهجة النجدية أشيع اللهجات على الألسن في سوق عكاظ وإذا كانت نصوص القصائد والمعلقات الجاهلية التي وصلت إلينا أصيلة لم يدخلها تحريف كثير، فإن اللغة الفصيحة التي يفهمها كل العرب لا بد أن تكون قد تطورت هناك

من أصـول نجديـة ومؤثرات حجـازية، وقـد اشتهرت قبيلة هـذيل ـ وهي من قبائل شمال الحجاز وهـم مضريون من بني مـدركة بن اليـاس ـ بسلاسـة اللغة وحسن النطق وشاعرية الأسلوب، وديوان الهذليـين حاضر بـين أيدينـا شاهـد على ذلك. وأبو الأسود الدؤلي واضع علم النحو كان من بني عبد القيس اختار رجلاً عبقسياً من بني عبـد القيس وقال إن لهجتـه أصفى ما أعجبـه من ثلاثـين رجلاً.

وتلك اللهجة النجدية من العربية أصبحت شيئاً فشيئاً لغة عامة يفهمهـا الناس من كل القبائل أو ما يسمى باسم الكويني Koiné وهذا المصطلح يطلق على كل لهجة أو لغة تستعمل بين الناس من أصول شتى في منطقة معينة، وهذه اللهجة أصبحت شيئاً فشيئاً تسمى قرشية لأن قريشاً كانـوا أصحاب السـوق، وهم الذين كانوا ينظمونه ويتفاهمون مع أهله.

وهذه اللهجة النجدية الحجازية أصبحت بفضل الشعراء لسـاناً مفهـوماً من العرب جميعاً، فقد يكون الشاعر تميمياً أو أسدياً أو هذليـاً، فإذا نـظم ففي تلك اللغـة العامـة التي أصبحت لغة تفـاهم بين العـرب جميعـاً واستحقت أن يصفها القرآن الكريم بأنها لسان عربي مبين نزل به كلام الله حتى يكـون حجة على العرب جميعاً. والقرآن رفع شأن هذه اللهجة وجعلها هي العربية الصافية ولا يعرف العرب أصفى منها.

وإذن فالقرشيون: أولئك التجار الأذكياء العمليون عرفوا كيف ينتزعون من أعـاريب نجد شـرف وضع اسمهم عـلى هذه اللهجـة التي نشأت في بـلاد غيرهم فنسبت إليهم العربيـة الفصحى ولم يقل القـرآن إنها لسان قـريش، بل قال إنها لسان عربي مبين ولكن القرشيين بسيطرتهم السياسية على أمـة الإسلام نسبوها إلى أنفسهم، وظهر الكثيرون من المؤلفين ممن يؤيدون هذا القول. ومن المعـروف أن كل قبيلة من قبـائل العـرب تدعي جـانباً من الفخـر في بنـاء لغـة القرآن، وربما كانت قريش أقـل من غيرهـا نصيباً في صنـع هذه اللغـة، ولكن

هذا هو التاريخ وتصاريفه، بل إن الكتاب الموالين لقريش اشركوا حلفاء قريش من خزاعة في هذا الشرف، فزعم أبو عمرو بن العلاء أن القرآن نزل بلغة الكعبين: كعب بن لؤي بن غالب بن قريش وكعب بن عمرو بن عامر من خزاعة.

ولكن قريشاً فازت في النهاية بكل الثمرات، فإن نصيبها في تطوير اللغة العربية لا يرجع إلى امتيازها على غيرها من القبائل في اللغة والشعر ولكنه يرجع إلى التجارة التي جذبت العرب جميعاً إلى أسواق الحجاز وإلى الدين الذي جعل العرب جميعاً يتصورون أن القرشيين كهنة العرب وسدنة أوثانها وأهل الإشراف على كل ما يتصل بأديانهم، وعندما نزل القرآن أنكر ما فيه معظم القرشيين، وكان الأوس والخزرج وخزاعة وبطون كثيرة من قضاعة أكثر تقبلاً للإسلام من قريش، ومع ذلك فعندما تم نصر الإسلام وتقبلت قريش المكية القرآن زعمت قريش أن القرآن نزل بلغتها أو بلهجتها وهذا غير صحيح في جملته إذ الحقيقة أنه نزل بلسان عربي مبين يفهمه كل العرب، ورسول الله ﷺ عندما كان يكتب كتبه لشيوخ القبائل وسادة الناس من العرب يدعوهم لدخول الإسلام أو يقرهم على ما طلبوا من الأمان لدخول أمة الإسلام كان يكتب لهم مستعملاً المصطلح الذي يفهمونه في لهجتهم لأن المهم هو الوضوح، والوضوح هو البيان والبيان هو البلاغة، ولهذا فإن رسول الله ﷺ في حديثه وكتبه يبلغ أعلى مستوى من البلاغة. وقد جرى الباحثون على أن يعتبروا الشعر الجاهلي هو أكبر شاهد على لغة العرب قبل الإسلام وفي العصر النبوي، ولكن تبين لنا الآن أن الشاهد الأكبر هي كتب الرسول ﷺ وهي كثيرة ومتنوعة ودراستها تعطينا فكرة أصدق عن تلك اللغة لأنها كتبت بلغة تعامل، وفيها من مصطلح الحياة والمال والتعاون أكثر مما نجد في الشعر الجاهلي الذي يشوبه الانتحال والوضع. وقد درسنا لغة كتب الرسول في بحث آخر واستخرجنا منها الشواهد والبينات التي تؤيد ذلك. وقد درس معظمها قبلنا محمد حميد الله في كتابه عن

وثائق العصر النبوي والعصر الراشدي، ولكننا الآن أضفنا كتباً أخرى كثيرة وواصلنا ما قام به من جهد مشكور.

ومهما يكن من الأمر فإن قريشاً ذهبت بالمجد كله لأن الاتجاه العام بعد الإسلام كان يتجه إلى تعظيم قريش من باب المحبة لرسول الله والبر بأهله، فقال الناس إن قريشاً أبلغ العرب وخلطوا بذلك بين محمد ﷺ وقبيله، فإنه كان فعلاً أبلغ العرب، ولكن قريشاً لم تكن أبلغها ولا أشعرها ولا أعلمها، فلم يكن لقريش شاعر ذو قدر يقارن بشعراء غيرها من القبائل حتى نجم فيها عمر بن أبي ربيعة وهو شاعر كبير ولكنه في النهاية لا يعد في الفحول. وقد أجملنا في هذه السطور آراء عشرات الكتاب والباحثين الذين بذلوا جهوداً ضخمة في دراسة أصول اللغة العربية، وقد أوردنا الكثير منها في موارد هذا الكتاب.

قُريش وَالكِتابة العَربيّة :

أحصى الدكتور ناصر الأسد في كتاب مصادر الشعر الجاهلي النصوص العربية التي وجدت في كتابات على الأحجار وصورها. فالنصوص الثلاثة الأولى وجدت في سيناء وهي مؤرخة بين سنتي ٢١٠ و٢٥٣ للميلاد، والنص الرابع وجد في الحجر وهي مدائن صالح وتاريخه ٢٦٧ م. وذكر كذلك نقشاً خامساً في حوران غير مؤرخ ولكن المستشرقين إينو ليتمان والكونت دي فوج يرجحان أن تاريخه يرجع إلى ٢٧٠ م. هذه كلها نصوص ترجع إلى القرن الثالث الميلادي، وهي نصوص عسيرة القراءة ولكن أشكالها تقترب من هيئة الخط العربي وكلها دون نقط أو إعجام.

أما نقوش القرن الرابع الميلادي فأولها نقش وجد على قبر امرىء القيس بن عمرو الذي يوصف بأنه ملك العرب في النمارة في اقليم حوران بجنوب فلسطين وهو مؤرخ سنة ٣٢٨ م. وهيئة الكتابة في هذا النص قريبة من هيئات الحروف

والكلمات في الكتابات الإسلامية الأولى. وهذا النص يمثل مرحلة واضحة من مراحل تطور نشوء الخط العربي لأن الكلمات عربية وأشكال الحروف عربية تقريباً.

ومن نصوص القرن السادس الميلادي أورد د. ناصر الأسد نص خربة زبد بين قنسرين (حلب) ونهر الفرات وتاريخه ٥١٠ م، وعليه ثلاث كتابات: يونانية وسريانية وعربية، والعربية قريبة من رسم الخط العربي الكوفي.

والنص الأخير الذي يورد تاريخه ٥٦٨ م. وقد وجد في اللجأ من حوران في المنطقة الشمالية من جبل الدروز وهذا النص يضم كتابة عربية واضحة.

وقد ذكر البكري نصاً عربياً آخر مؤرخاً سنة ٥٦٠ للميلاد وقد وجد في كنيسة هند في الحيرة. وتذهب المستشرقة نبيه عبود الأمريكية(١) إلى أن الكتابة العربية الأولى اخترعها الرهبان النصارى الذين كانوا يعملون على نشر المسيحية في الحيرة والشام بين العرب كما فعل غيرهم الذين اخترعوا كتابات أخرى ليكتبوا بها ما يترجمونه من نصوص الكتاب المقدس إلى لغة القوم الذين يعيشون بينهم وهي تذهب إلى أن أول مكان كتبت فيه تلك النصوص العربية كان في الحيرة أو الأنبار، وقد عثر الباحثون على قطع من مزامير داود مترجمة إلى العربية ولكنها مكتوبة بحروف يونانية، ومن هذا النوع نصان آخران عثر عليهما وفك رموزهما المستشرق Baumstarck وكل هذه النصوص عربية قريبة جداً من الغة العربية الفصحى أو ما يسميه المستشرقون بالعربية القديمة Classical Arabic وهي نفس اللغة التي تجدها في نصوص أوراق البردى الأولى. أنظر:

---

(١) Nabia Abbot, **Rise of North Arabian Schrift**, 1939.

Graf, Sprachgebrauch der älteren Christlischen Arabische Liter-
. atur, 1905

ويذهب يوليوس فلهاوزن في كتابه القيم عن الحج قبل الإسلام وعلاقته بالحج الإسلامي .J. Welhausen, Reste Arabische Heidenlums, 2 ed. 1927 إلى أن العربية القديمة ظهرت أول الأمر بعد تطور طويل في الحيرة ويؤيد هذا القول ما يذكره أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني من أن أول شعر عربي فصيح ظهر وكتب كان في الحيرة وأول من قال هذا الشعر وكتبه زيد بن حماد العبادي وهو والد الشاعر العِبادي المشهور عدي بن زيد. ويقول الأصفهاني إن شعر عدي بن زيد لا يعد في الفصيح تماماً ومعنى هذا أن العربية الفصيحة القديمة كانت لا تزال في دور التطور، ويذهب المرزباني في شرح المفضليات المعروف باسم الموشح (القاهرة ١٣٤٣ ص ٧٣) إلى أن عدي بن زيد كان يختار ألفاظه من بين لهجات قبائل شتى وأنه كان في ذلك شبيهاً بالقرشيين الذين كانوا يستعملون في لهجتهم ألفاظاً وعبارات من لهجات القبائل، وأن قريشاً كانت تفعل هذا ليستطيع رجالها التفاهم مع رجال القبائل الوافدين على مكة وبهذا تكون قريش قد أسهمت بنصيب كبير في بناء العربية القديمة انظر: K. Vollers, . Volksprache und Schriftsprache in alten Arabien, 1906.

ومن الواضح أن معظم النصوص الشعرية التي وصلت إلينا قد أدخل عليها تعديل بعد الإسلام لتكون قريبة من الفصحى التي ثبت القرآن الكريم صورتها ومستواها. وهنا تتجلى لنا أهمية الرواة ودورهم في تطوير اللغة العربية، فإن الراوي كان رجلاً من قبيلة الشاعر يفهم شعره لأنه يعرف لهجته، وهو عندما يروي شعر صاحبه يجتهد في تقريبه من اللغة المشتركة التي قلنا إنها تسمى الكويني Koiné العربية. وهذا واضح فيما نعرف عن حماد عجرد الراوية وأبي الأسود الدؤلي فقد كانا راويتين للاشعار من شتى القبائل لإلمامها باللهجات، وتلك التعديلات التي أدخلها الرواة على شعر الشعراء

ليكون مفهوماً لأكبر عدد من العرب هو الذي فتح باب الوضع والإضافة، ومادام الراوي يعدل ويغير ويبدل فهو يضيف أيضاً ويضع من عنده، ولكن هذا الوضع لم يصل قط إلى الدرجة التي ذهب إليها طه حسين في الطبعة الأولى من الشعر الجاهلي حينما قال إن معظم الشعر الجاهلي موضوع، وهي نظرية قال بها من المستشرقين مارجوليوث، وقد عدل طه حسين نظريته وآراءه فيها بعد، ولكن الذي نخرج به هو أن ما وصل إلينا من شواهد الشعر الجاهلي وبعض العبارات التي نجدها في تفاصيل حرب البسوس مثلاً يحمل الطابع اللغوي القرشي أو المكي أو الحجازي الذي أصبح الميزة الكبرى للعربية القديمة أو الفصحى.

وفي اللغة المكتوبة قام الكتبة أو الكتاب بدور الرواة، فإن الكتابة العربية التي ولدت في الحيرة دخلت الجزيرة على أيدي دعاة المسيحية، وكانت تلك الديانة منتشرة بين عباد الحيرة واللخميين والقضاعيين والغساسنة وعرب طيء ومعظم النصوص المكتوبة التي ذكرناها وجدت في بلاد انتشرت فيها المسيحية أي في بلاد من تسميهم النصوص بنصارى العرب أو عرب الروم، وعدي بن زيد وأبوه زيد بن حماد وابنه زيد بن عدي كانوا نصارى، وكانت المسيحية تزحف ببطء في شمال شبه الجزيرة، وكانت المسيحية منتشرة بين كثير من بطون قضاعة وخاصة كلب بن وبرة وبهراء وبلي وسليح وكذلك انتشرت المسيحية بين الجذاميين وبعض الجهنيين وهذيل في شمال الحجاز، وفي منازل هذه القبائل كتب رجال الدين العربية بالخط العربي البدائي الذي أشرنا إليه، وقد ذكرنا أن بعض نصوصه وردت في الحجر من مدائن صالح، وكانت تقع في بلاد جهينة أي أنها أوغلت في الحجاز حتى قرب المدينة.

ومن تلك النواحي أخذ القرشيون الكتابة العربية وكانوا في أشد الحاجة إليها لشئون تجارتهم، وقد اهتمت بعض بطون قريش بالكتابة حتى سمي بيت من بيوت مرة باسم القلمس ومَعْناه القلم كما ذكرنا. ومن بين الكتاب ظهر

النسأة وهم الحاسبون الذين يحسبـون الشهور والأيـام والمواقيت ويكتبـون ذلك كله. وقـد أساء النسـأة استخدام الكتـابة والحسـاب فـزوروا ودلسـوا دون أن يخشوا بأساً،فقد كانوا يكتبون لقوم أميين لا يقرأون ولا يكتبون. ولكن الكتابـة انتشـرت في قريش وخـاصة بـين البطون التي اشتهـرت بالمسـاهمة في الأعمـال التجارية بنصيب أكبر من غيرهـا مثل بني هـاشم وبني عبد شمس وبني مخـزوم وبني سهم وجمح من بني هصيص. وقد اشتهر بيت أسد بن عبد العزى بكثـرة من عرف القراءة والكتابة من أبنائه.

وليست لدينا فكرة واضحة عن شكل الكتابة العربية قبيل الإسـلام وإن كان من الثابت أن قريشاً كانت أكثر قبـائل العـرب كتاباً وقراءً وستلحق بمكـة المدينة في هذا المجال ولكن ذلك سيكون بعد الإسلام وبفضله ولكن إذا كنـا سنقبل من حيث الشكل ـ بعض صور كتب الرسول ﷺ الى الملوك والرؤساء العرب فإن هذه الكتب يمكن أن تعتبر نماذج للخط العربي كما كان القرشيون يكتبونه وإن كنا نلاحظ فروقاً جسيمة بين خط كتاب الرسول ﷺ الى المنذر بن ساوي وكتابه إلى المقوقس فالثاني أقرب الى الرسم الجاري للكتابة الذي نجده في أقدم المخطوطات العربية، أما الأول فهو أقرب إلى نقش القاهرة الذي أورد د. ناصر الأسد رسمه في ص ٣١ من كتابه الآنف الذكر، وهذا النص الأخير يرجع إلى سنة ٣١ هـ في عهد الخليفة عثمان بن عفان.

ونضيـف إلى ذلـك عدداً من النصـوص نشرهـا الأستاذ محمـد حميـد الله صاحب الأبحاث والدراسات القيمة عن العصر النبوي ونـاشر مجموعـة وثائق العصر النبـوي والعصر الأموي. وقـد وجد تلك النصـوص على قمـة الـطرف الجنوبي لجبل سلع في المدينة المنورة خارج سورها الشمالي ورجح أنها ترجع إلى القـرن الخامس الهجـري أيام معـركة الخنـدق وخط هذه النصـوص يشبه خط كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر بن ساوي[١].

---

(١) انظر د. ناصر الدين الأسد. مصادر الشعر الجاهلي القاهرة ١٩٥٦ ص ٣٢. وانظر: =

ونقف عند هذا الحد من تتبعنا لتاريخ اللغة العربية والخط العربي الذي كتبت به. وحسبنا النتائج التي وصلنا إليها فيما يتعلق بقبيلة قريش ودورها في تاريخ الجاهلية.

وخلاصة كلامنا فيما يتعلق بدور قريش في تطوير العربية وكتابتها أن هذه القبيلة التي تعتبر من أصغر القبائل العربية حجماً استطاعت بفضل دورها الكبير في التجارة وديانات الجاهليين أن تكون صاحبة دور حاسم في تطور اللغة والخط، حقاً إنها لم تخترع هذه ولا ذاك ولكن مقدرتها التجارية وسيطرة رجالها على طرق التجارة والأسواق مكنتها من جمع ثروات طائلة وتحويل مدينتهم الصغيرة في ذلك الحين إلى واحدة من أكبر أسواق الدنيا. ففي مكة كانت توجد في العصر الجاهلي ـ وخصوصاً في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ـ بضائع لا توجد في غيرها من كبريات المدن في الدنيا. وقد كانت أرباح هذه التجارة عظيمة وبفضل ثروات المكيين وما تيسر لهم من سبل الاتصال بالناس خارج الجزيرة وفي شتى نواحيها اتسعت معارف القرشيين وزاد هذا العلم المتجمع لهم عن طريق قنوات عملية قائمة من الاحتكاك المباشر بالناس واقتباس العلم بالدنيا وأهلها منهم، هذا العلم زاد ذكاء القرشيين حدة، وعندما تطلع شمس الإسلام ويسطع نورها سنجد قريشاً في مستوى ثقافي وفكري وحضاري أعلى بكثير من قبائل أكبر حجماً وأوسع منازل وأقرب إلى مواطن الثقافة في العالم القديم. ومما تجدر ملاحظته أن أمة الإسلام عندما قامت في المدينة وجدت الكتاب ومعظمهم من قريش بل كان القرشيون المهاجرون هم الذين وسعوا نطاق الكتابة والقراءة بين اليثربيين، فعلى أيدي القرشيين تعلم كتاب يثرب من أمثال زيد بن ثابت وأبي بن كعب وأنس بن مالك الكتابة والقراءة وأصبحوا من نوابغ كتاب الرسول ﷺ، وعلى يد

= M. Hamidullah, **Some Arabic Inscriptions of Madinah of the Early Years of the Hijra, in Islamic Culture Quarterly,** vol XIII, n. 4, October, 1939, P. 423.

القرشيين سيتعلم مهاجرة المسلمين إلى المدينة من أمثال أبي ذر الغفاري وأبي هريرة الدوسي. وبعد معركة بدر نجد أن رسول اللّه ﷺ يكلف أسرى بدر غير القادرين على أداء الدية بأن يقوم كل منهم بتعليم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة في مقابل فديته. بل إن الرسول ﷺ وجد في مكة ناساً يسفرون له عند الروم والفرس وقبط مصر والأحباش. والقول بأن رسل النبي أصبح كل منهم وهو يعرف لغة القوم الذين ندبهم الرسول ليحملوا رسالته إليهم قول بعيد عن التصديق، وأقرب إلى المنطق منه أن نقول إن أولئك النفر كانوا يعرفون لغات الأقوام ولهذا اختارهم الرسول ﷺ لحمل رسائله.

وسنرى عند دراستنا لموقف قريش من الإسلام نواحي أخرى كثيرة تكشف عن جوانب من قوة قريش أو العوامل التي وضعتها في هذا الموضع من الصدارة، ومع أن جمهرة القرشيين لم تحسن استقبال الإسلام ولا هي أقبلت عليه إلا أن قريشاً كانت ـ من كل ناحية ـ أكثر قبائل العرب استعداداً لتلقي الرسالة، وكان فيها ـ على الأقل ـ جماعة أثبتت أنها أهل لحمل الرسالة. حقاً إنهم كانوا أقلية ضئيلة جداً، ولكن مستواهم العقلي والخلقي والإنساني كان عالياً جداً. وصدق الله سبحانه وتعالى في كلامه عن المكيين وعنادهم فقد كان بعضهم يرى أنه حقيق بأن تنزل عليه آيات كتلك التي كانت تتنزل على رسول الله ﷺ، وهذا غرور من أولئك المكيين ولكنه كذلك إحساس بالامتياز واقرأ قوله سبحانه في سورة الأنعام: ٦/١٢٣ ـ ١٢٤

﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها،
وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون
وإذا جاءتهم آية قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله
الله أعلم حيث يجعل رسالته
سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾

والمراد من الجملة الأخيرة من الآية ١٢٤ هو أن أولئك الذين يتعاظمون ويرون أنهم أهل لأن تنزل عليهم الآيات سيعرفون أنهم أصغر من أن يحملوا الرسالة، والله تعالى أعلم بحالهم وما كانت قلوبهم تنطوي عليه من الشر، وسيعذبهم الله بذلك كله.

مُورفولوجيّة قبيلة قريش قبل البعثة النَبَويّة:

بعد أن ألممنا بتاريخ قريش قبل الإسلام نقف لحظات في نهاية هذا الباب لنلقي نظرة خاصة على دواخل قريش، على تركيبها الداخلي والطريقة التي كانت تعمل بها وتحافظ على قوتها، أي أننا سنتحدث في هذه الفقرة على ديناميكية هذه القبيلة وكيف كان نظامها الذي ذكرناه يعمل بنجاح إلى حد كبير. بل سنرى أن تركيب هذه القبيلة وطريقة العمل والحركة بداخلها سيهبها قوة وصلابة تمكنها من الثبات لصدمة الإسلام خلال الفترة المكية من حياة رسول الله ﷺ وستمكن لها من المحافظة على كيانها كتلة واحدة أثناء السنوات الثمان الأولى من التاريخ الهجري، فقد صمدت كتلتها بقوة تستلفت النظر وتمسكت بموروثها، وعندما دخلت مكة في نطاق أمة المدينة دخل معظم القرشيين الإسلام بنظام يستوقف النظر كما سنرى.

وقد أكثر العرب من الكتابة في الأنساب، وما من عالم جليل من علماء العرب إلاّ وله في الأنساب كلام كثير أو قليل، ولكن كلامهم الكثير هذا يعرفنا بتفرع قبائل العرب بعضها عن بعض، ثم أقسام القبائل ثم أفراد الأقسام ثم أنساب الأفراد وهو التعريف بآبائهم وإخوتهم وأمهاتهم أحياناً.

والمصعب الزبيري في نسب قريش في كلامه عن أنساب قريش يتتبع في أحيان كثيرة أنساب النساء فيقول إن فلانة أمها فلانة وأم فلانة فلانة.

ولكن كل اهتمام مؤرخينا موجه نحو الشكل الخارجي للقبيلة

وتقسيماتها السطحية، ونادراً ما نجد عندهم لمحات تفيدنا في معرفة التركيب الداخلي للقبيلة: ما هي أساساً وكيف تتكون ومم تتكون؟ وكيف تعيش القبيلة وتعمل بصفتها كياناً اجتماعياً وسياسياً مستقلاً بذاته إلى حد ما؟ سنحاول هنا أن ندرس باختصار تحليل القبيلة وتشريحها أو أناتوميتها Anatomy of the tribe ووصف تركيبها الداخلي وأجهزتها التي تمسك بعضها ببعض أو مورفولوجيتها Tribe Morphology ونرى كيف تعمل الأعضاء الداخلية للقبيلة أو فيزيولوجيتها Tribe phisiology متخذين قريشاً مثالاً، لأنها موضوع دراستنا في هذا الكتاب، ولأنها القبيلة العربية التي نعرف عنها أكثر مما نعرف عن غيرها.

وكتابات العرب هنا وصفية خارجية ومعظمها يتعلق بالأنساب أي تسلسل أفراد القبيلة، بعضهم من بعض مع التركيز المطلق تقريباً على العَصَبات أي أنساب الذكور، ومعظم ما لدينا من المعلومات هنا يرجع إلى أصول قليلة جداً، وإليك فيما يتصل بتلك الأصول كلام أبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالله النمري الأندلسي القرطبي (المتوفى سنة ٤٦٣ هـ عن خمس وتسعين سنة) في كتاب «الإنباه عن قبائل الرواه» فمن ذلك كتاب أبي بكر محمد بن اسحاق وكتاب أبي المنذر هشام بن محمد بن الكلبي وكتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى وكتاب محمد بن عبدة بن سليمان وكتاب محمد بن حبيب وكتاب أبي عبدالله أحمد ابن محمد بن عبيد العدوي في نسب قريش وكتاب الزبير بن بكار في نسب قريش وكتاب عمه مصعب بن عبدالله الزبيري في ذلك وكتاب علي بن كيسان الكوفي في أنساب العرب قاطبة، وكتاب علي بن عبد العزيز الجرجاني وكتاب عبدالملك ابن حبيب الأندلسي، إلى فقرٍ قيدْتُها من الحديث والآثار ونوادر اقتطفتها من كتب أهل الأخبار[1]» وهذه ـ بالإضافة إلى كتاب جمهرة أنساب العرب هي أهم الأصول التي نعتمد عليها في الأنساب.

---

(١) ابو عمر يوسف بن عبد البر، الانباه على قبائل الرواه. طبعة دار الشعب بالقاهرة ص ٥٧.

أمـا تحليل تـركيب القبيلة وتقسيمها فمن أحسن مـا يصور كـلام هؤلاء النسابة فيه فهو قول ابن عبد البر النمري :

«وقال أهل النسب :
الشعوب الجماهير والجراثيم التي تفرقت منها العرب
ثم تفرقت القبائل من الشعوب
ثم تفرقت العمائر من القبائل
ثم تفرقت البطون من العمائر
ثم تفرقت الأفخاذ من البطون
ثم تفرقت الفصائل من الأفخاذ
وليس دون الفصائل شيء : فصيلة الرجل رهطه الأدنى وبنو أبيه»
(الانباه ص ٥٦ ـ ٥٧) .

ويكمل هذه العبارة مثلها للزمخشري تقول : «والشعب الطبقة الأولى من الـطبقـات الست التي عليهـا العـرب وهي الشعب والقبيلة والعمـارة والبـطن فـالشعب يجمع القبيلة ، والقبيلة تجمـع العمائـر ، والعمـارة تجمـع البـطون ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ تجمـع الفصائـل : خزيمـة شعب وكنانـة قبيلة ، وقريش عمارة وقصي بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة وسميت الشعـوب لأن القبائل تشعبت منها[1]» .

وهذا كله كلام سطحي وصفي لغوي ، فكـل الذي فيـه هو إيجاد اسم لكل فرع من الفروع التي تتشعب إليها الجماعات القبلية ومع ذلك فالكلام ليس دقيقـاً ولا كامـلاً ، فمـاذا ـ مثـلاً ـ فـوق الشعب؟ أو مـاذا نقـول في عـدنـان وقحطان؟ والمعروف إن عدنان وقحطان جذمان ، فالجذم إذن فوق الشعب ، ثم إن أحداً لم يقل أن قريشاً عمـارة لأنها قبيلة ، ثم ماذا تحت الفصيلة؟ الا يـوجد

---

(١) هامش الانباه ص ٥٦ .

هناك البيت أو «أهل بيت» وذلك ما نسميه العائلة أو الأسرة.

ثم إن ابن حزم يستعمل مصطلحي البيت والعدد ويقول: «نعني بالبيت حيثما ذكرناه الشرف وبالعدد الكثرة» وإذن ففي كل قبيلة بيت أي أسرة أو فرع فيه الشرف أي الرياسة وفرع آخر - أو فروع - تتميز بالكثرة، فقريش مثلاً بيتها في هاشم وعددها في عبد شمس.

وكما هي العادة نجد كتابنا القدامى ونسابتهم يقفون دائماً عند السطوح ولا يدخلون في الأعماق إلا نادراً، وكتاباتهم في الغالب أفقية ونادراً ما تكون رأسية. والبلاذري أراد أن يؤرخ لدولة الإسلام أفقياً فكتب فتوح البلدان درس فيه اتساع الدولة أفقياً، ثم خطر له أن يؤرخ لها رأسياً فكتب أنساب الأشراف.

وفي قواميس اللغة أن القبائل لا توجد إلا في العرب، جاء في لسان العرب والقبيلة من الناس بنو أب واحد. التهذيب: أما القبيلة فمن قبائل العرب وسائرهم من الناس. ابن الكلبي: الشعب أكبر من القبيلة ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ. قال الزجاج: القبيلة من ولد اسماعيل عليه السلام، كالسِّبْط من ولد اسحاق عليه السلام، سموا بذلك ليفرق بينهما. ومعنى القبيلة من ولد اسماعيل معنى الجماعة، يقال لكل جماعة من واحد، ويقال لكل جمع من شيء واحد قبيل. قال الله تعالى: ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ أي هو ومن كان من نسله، واشتق الزجاج «معنى لفظ قبيلة» من قبائل الشجرة، وهي أغصانها، وقال أبو العباس المبرد: أخذت قبائل العرب من قبائل الرأس لاجتماعها وجماعتها: الشعب والقبائل دونها. ويقال: رأيت قبائل من الطير أي أصنافاً، وكل صنف منها قبيلة، فالغربان قبيلة، والحمام قبيلة، قال الراعي:

رأيت ردائي فوقها من قبيلة   من الطير يدعوها أحم شحوج

يعني الغربان فوق الناقة. وكل جيل من الجن والناس قبيلة.

ويقول قبل ذلك: «القبيلة واحدة قبائل الرأس، وهي القطع المشعوب بعضها إلى بعض تصل بينها الشئون، وبه سميت قبائل العرب، الواحدة قبيلة، وكذلك قبائل القدح والجفنة إذا كانت على قطعتين أو ثلاث قطع وقبائل الرحل أحناؤه المشعوب ببعضها إلى بعض وقبائل الشجرة أغصانها وكل قطعة من الجلد قبيلة والقبيلة صخرة تكون على رأس البئر» (اللسان ٢/١٢).

وهذا كل ما نجده في معاجم العربية عن القبيلة، ومهما تبحث في أصولنا العربية فما أنت بواجد تعريفاً أوسع من هذا للقبيلة، وأنت لا تعرف علام تطلق القبيلة: هل على الناس الذين تربطهم رابطة الدم، أم على جماعة من الناس ينضم بعضهم إلى بعض ويتكاملون فيما بينهم كما تتكامل أعضاء الرأس هي وشئونها أو الجماعة من الناس الذين يتفرع أفرادها بعضهم عن بعض كما تتفرع أغصان الشجرة وهل كل صنف من الطير والحيوان قبيلة، وما هو الرابط بينها.

وهذا الاجمال في ذكر القبيلة وتعريفها يدل على أن القدماء لم يجدوا ما يدعوهم إلى الوقوف في نظام جنسهم وأصوله ونظامه، وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام هذا الطراز من الغموض الذي يكتنف التاريخ البعيد للعرب ولغتهم وكتابتهم وكان علينا أن نتقبل كل شيء عن الأصول والجذور على أنه بداية كلام لا آخر ما يقال في الموضوع لأن كل شيء يتصل بأصول العرب يهمنا ولا نستطيع الوقوف فيه عند السطوح. وكما فعلنا في بحثنا عن أصول اللغة والكتابة كان علينا أن نستنتج كل شيء من النصوص استنتاجاً، وإن كان يستوقف نظرنا ما يقوله الزجاج من أن فروع العرب سميت قبائل في مقابل الأسباط وهم أبناء اسحاق.

حتى ابن خلدون وهو المَعْنيُّ بشئون الاجتماع لا يفيدنا في هذا المجال

فهو في كلامه عن العمران البدوي يضع عنواناً هو: «في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض من ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات» (ص ١١٠) وكلامه في هذا الباب بفصوله الكثيرة قائم على أننا نعرف سلفاً ما هي القبيلة وكيف تتكون والأنساب وتفرعها وبقاءها صريحة سليمة واختلاطها وما إلى ذلك. أما إذا ذهبت تسأل عما وراء ذلك فأنت لا تجد جواباً: هل تسلسل الناس في القبيلة يكون بالعصبات فقط أي بالنسل من الذكور أو أن النسل من البنات أيضاً يدخل ضمن ما يعرف عادة بالرحم؟ وما الفرق بين الأرحام الناشئة عن خط الذكور والأرحام الناشئة عن الزوجات والبنات والأخوات البنات؟، وهل مر العرب بدور سيادة الأم في الجماعة وما يسمى باسم matriarct ثم غلب الرجال بعد ذلك ودخلت الجماعة في طور سيادة الرجال المعروف باسم patriarct كما هو الحال مع كل من نعرف من الجماعات القبلية.

والظاهر الذي يمكن التعويل عليه في هذا المجال هو أن العرب الذين يعرفهم التاريخ يظهرون فجأة في صورة جماعات قبلية رجالية أو باترياركية، وهذا هو المعقول لأن أصول العرب البعيدة تلك لا بد أن تكون قد وجدت في عصور البائدة الذين لا نعرف عنهم شيئاً، أما العاربة والمستعربة فقد رأينا أنهم دخلوا الجزيرة قبائل باترياركية ذات ماض بعيد خلفته وراءها في أوطانها الأولى، وقد رأينا الزجّاج يقول إن القبائل مصطلح لا يكون إلا في العرب وإن هذا المصطلح يقابل الأسباط عند أولاد اسحاق. وفي كلامنا عن دخول المستعربة رأينا اليعقوبي يقول إن قبائل العرب الذين انحدرت منهم قريش أي الاسماعيلية دخلوا الجزيرة بأسمائهم العبرية أو السريانية ثم عربت بعد ذلك. وقد قلت أهمية كل النظم الاجتماعية العربية التقليدية بمجيء الإسلام وحلول شريعته وأخلاقياته محل النظام الاجتماعي الذي كان سائداً قبل ذلك. وفي أطواء الكتب نعثر على بعض العادات القديمة مثل زواج الولد من امرأة

أبيه مما يترتب عليه أن يكون له إخوة وأولاد من نفس المرأة، ووراثة الأخ لكل ما يتركه أخوه المتوفى دون أولاد أو عن أولاد صغار، وكأن الأخ كان هو الوريث الشرعي في تلك الحالة. وقد نص القرآن نصاً صريحاً جداً على ترتيب القرابات وما هو محرم منها وما ليس بمحرم، ومن الذي يعتبر جزءاً من العائلة يؤذن له الدخول على نسائها دون أن يتحجبن دونه ومن لا يجوز. وكذلك فصل القرآن والسنة أمر الميراث ونظامه وحصصه وقضى بذلك على كل ما كان قائماً قبلاً.

ومن أكثر من مائة سنة كتب روبرتسون سميث كتابه المشهور عن تطور النظام الاجتماعي للعرب، فقال بوجود الطوطمية عند العرب القدماء أي ارتباط الناس بعضهم ببعض برابطة عبادة شيء أو حيوان أو نبات يسمى طوطما. والطوطمية لا تتعارض مع خطوط النسب، فإن القبيل من القبائل الأفريقية أو الاسترالية والهندية الحمراء أو المغولية كانت تترابط بروابط الدم والنسب ثم يتضخم القبيل بعد ذلك بانضمام جماعات أخرى إليه تعبد نفس معبود القبيل، ومع الزمن تصير الجماعة الطوطمية قبيلاً واحداً.

ولا بد أن العرب الموغلين في القدم عرفوا الأسرة الماترياركية التي تتكون حول الأم دون الأب وتكون السيادة فيها للأم، وهذا ظاهر في أسماء القبائل المؤنثة الاسم مثل خزاعة وكندة وقمعة وخزيمة، ومن أمثلة بقايا الطوطمية أسد وثعلب وثعلبة وكلب وما إليها. وقد أنكر الباحثون العرب آراء روبرتسون سميث من زمن بعيد غيرة على أنفسهم وترفعاً عن أن تكون أصولهم مشابهة لأصول القبائل البدائية ذات المستوى الحضاري الخفيض، ولكننا لا نرى الآن ما يدعو إلى ذلك، لأن العرب بَشَرٌ كغيرهم لا بد أنهم ساروا في تطورهم السحيق في نفس الخطوط العامة لكل الجماعات البشرية وإن كان ذلك أيام البائدة أو حتى قبلها، وربما تكون مراحل هذا التطور قد تمت قبل دخول موجات الوافدين من طبقات العرب كالعاربة والمستعربة.

وقد تكلم مونتجو مري واط في أحد ملحقات الجزء الثاني من حياة محمد ﷺ التي كتبها عن بعض ممارسات العرب الجاهليين في مسائل الزواج والعصبات والأرحام وبقايا ذلك في الإسلام، وقد تحامى الكثير من آراء روبرتسون سميث، وكلامه مفيد ولكنه لا ينفعنا في مطلبنا هنا، وقد رأينا أن نركز الكلام هنا على ما يعيننا على معرفة التركيب الداخلي لقريش وكيف كان نظام القرابات والولاء والتبني والإلحاق يعمل، وكذلك سنتناول بالكلام علاقات الناس بعضهم ببعض داخل القبيلة وخارجها. ولن نذكر من ذلك إلا ما يفيد بحثنا تاركين بقية ذلك لمن يريد أن يصرف إليه جهده، ولكننا نشير هنا إلى المراجع التالية التي تنفع القارىء في هذا المطلب(١)، هذا مع العلم بأن مؤلفي تلك الكتب يعتمدون أساساً على مراجع عربية، ولكن الخطأ يدخل عليهم من ناحية التفسير وسوء القصد وكلاهما متوفر عندهم.

وقبل أن أدخل في صميم ما يهمنا هنا من كلام ابن خلدون في الفصل الثامن من الباب الثاني من مقدمته وعنوانه: «في أن العصبية إما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه» (ص ١١٧ وما بعدها) قال:

«وذلك أن صلة الرحم (أمر) طبيعي في البشر إلا في الأقل. ومن صلتها النُّعَرَة (= الغيرة) على ذوي القربة وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك، نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جداً بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة، فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها. وإذا بعد النسب بعض الشيء فربما تنوسي بعضها، ويبقى منها شهرة، فتحمل

---

(١) Robert son Smeth. Kion ship and Marraige in pre-islamic Arabia- London 1906
G.M. Stern. Marraige in Early Islam- Leiden 1945.
W. Montgamer Watt, Muhammad at Medina, Oxford 1956
Exewrous J. Marraige and family in pre- islamic times pp. 377

على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه فراراً من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه. ومن هذا الباب الولاء والحلف، إذ نعرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه، للألفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب، وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريباً منها. ومن هنا نفهم معنى قوله ﷺ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم». بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام، حتى تقع المناصرة والنعرة، وما فوق ذلك مستغنى عنه إذ النسب أمرٌ وهمي لا حقيقةَ له. ونفعه إنما في هذه الوصلة والالتحام فإذا كان ظاهراً واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلنا وإذا كان إنما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته. وصار الشغل به مجاناً (أي بدون فائدة) ومن أعمال اللهو المنهي عنه. ومن هذا الاعتبار معنى قولهم: «النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر» بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس. وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية. فلا منفعة فيه حينئذ والله سبحانه وتعالى أعلم».

وفي الفصل التالي لهذا وهو التاسع (ص ١١٨) حيث يتكلم على سلامة الأنساب وصحتها وصراحتها عند العرب الساكنين داخل الصحراء في حياة الشظف والجوع حيث لا يرغب غريب في اللحاق بهم: «واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع. وبعدوا من أرياف الشام والعراق، ومعادن الأُدَم (مصادر ما يؤتدم به من الطعام) والحبوب، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة، لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيها شوب. وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش من حمير وكهلان، مثل لخم وجذام وغسان وطيء وقضاعة وإياد، فاختلطت أنسابهم، وتداخلت شعوبهم. ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما

نعرف. وإنما جاءهم ذلك من قبل العجم[1]».

وهذا الكلام من ابن خلدون مبني على المنطق والاستنتاج، فهو لم يعرف من تاريخ قريش القديم ما يؤكد عنده أن تكوينها كله كان من صميم مضر من فرع إلياس، وهو الفرع الذي سكن الحجاز. فقد رأينا أن كنانة أم قريش قد مرت في طريقها إلى الحجاز ببلاد قضاعة واختلطت بها وأخذت منها، ورأينا كذلك أن مضر كلها بفرعيها قيس عيلان وإلياس كانوا في الزمن السالف وقبل دخول الجزيرة يعيشون في صحاري بلاد الشام والعراق فيما يسميه ابن خلدون بالأرياف ولهذا لم يكونوا بدوا خالصين ولو كانوا بدواً خلصا لما تطلعوا إلى دخول مدينة - هي مكة - والاستقرار فيها وهم لم ينشأوا في الصحراء من الأصل ولا كانوا في بداية أمرهم بادية ظاعنة متوحشين في القفار، وإنما هم دخلوا الصحراء فأنفوا بأنفسهم من الخضوع للدول الكبيرة التي كانت تحرص على بسط سلطانها عليهم وفرض الإتاوات والمغارم عليهم. وهذا الأصل الحضري البعيد للعرب الاسماعيلية جميعاً كان له أبعد الأثر في أسلوب حياتهم فأما من أبعد في القفر منهم وسكن البوادي بعيداً عن مهاد الحضارة فهم أهل البدو حقاً لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار[2] وهؤلاء هم العرب أو الأعاريب.

ولهذا فإن قريشاً وكنانة وكل قضاعة من فرع إلياس بن مضر بدو حضر أو أنصاف حضر Semi-nomads، فهم بدو بنظامهم الاجتماعي أي بانتظامهم في صورة قبائل مترابط أفرادها بالأنساب lineages وعلاقات الرحم consanguinal kin واعتمادهم على النظام القبلي في ضمان أمنهم وسلامة أفرادهم وهذا الطراز من القبائل يدخل ضمن ما يسمى باسم Clans لا tribes وحتى قبل انفصال قريش من كنانة ودخولها مكة كانت قريش مستقرة

---

(١) ابن خلدون، المقدمة. طبعة دار الشعب ص ١١٨.

(٢) ابن خلدون. المقدمة ص ١١٤.

في موضعها إلى حد ما، ولا بد أنها قضت وقتاً طويلاً في جوار بني عذرة من بني سعد هذيم القضاعيين. ولا بد كذلك أن مقامهم طال قرب مكة وخارجها حتى استقر رأي قصي على اقتحام المدينة على خزاعة وانتزاع السلطان على المدينة منها، ولهذا فقد كانت قريش وكل كنانة من طراز الكلانات التي يطلق عليها اسم local clans أي ذات المنازل المحددة الموضع.

ومنذ البداية نلاحظ أن قريشاً لم تكن ذات نظام معين متبع في الزواج والمصاهرات فمن القبائل ما يكون فيه الزواج من داخل القبيلة فقط، فيكون خط النسب مزدوجاً bilateral lineage ومنها ما يكون الزواج فيه مطلقاً، أي أن أفرادها يستطيعون الزواج من داخل القبيلة أو خارجها exogamous وهنا يكون النسب في خط واحد هو خط الذكور unilateral agnate lineage.

وقد تتبعنا بالدراسة خط نسب قريش وانحدارها من كنانة حتى انفصالها عنها وقد رأينا صعوبة الأخذ بما يقوله النسابة من أن كل الأسماء التي ترد في خط النسب هي لرجال بل معظمها لقبائل أو كلانات، فهي أسماء جماعات أو جُماعات أنساب، وقد يكون الاسم الذي لدينا اسم الموضع الذي تم فيه الحلف وقد أوردنا فيما سبق أمثلة من ذلك، وقد عثرت عند ابن عبد البر في الإنباه على مثل آخر في آخر كلامه عن بجيلة وخثعم، فبعد أن يورد قول ابن إسحاق والمصعب الزبيري: وعن جبير بن مطعم أن خثعم وبجيلة ابنا انمار بن نزار بن معد بن عدنان، يقول في نهاية الكلام: «تحالفا لقتل ابن أنمار وجماعة معه على جبل يقال له خثعم فسموا خثعم»[1].

وبهذه المناسبة نسوق إليك مثالاً يدلك على فوضى شجرات الأنساب وقلة الجدية فيها أحياناً، فمن المعروف أن خثعم تدخل ضمن القبائل المسماة باليمنية ولكن بعض النسابة مثل ابن اسحاق والمصعب الزبيري أرادا أن

---

(١) ابن عبد البر: الإنباه على قبائل الرواة ص ١٠٥

يلحقاها بالعدنانية فقالا: «وأكثر أهل النسب يقولون إنهما ابنا انمار بن نزار بن معد بن عدنان وإنهما لحقا باليمن وانتسبا عن جهل منهما إلى أنمار بن أراش بن عمرو. . . بن كهلان بن سبأ»[1].

وعلى هذا الأساس قلنا إنه لا يمكن قبول ما يزعمه النسابة من أن خزيمة كان رجلاً تزوج امرأتين واحدة من قيس عيلان أنجب منها كنانة وأخرى من بني تميم أنجب منها أسداً وأسدة والهون وأن هؤلاء الأربعة أصبحوا قبائل وخثعم نفسه أصبح قبيلة (وحده منفصلاً عن أبنائه!) والهون وحده أنجب خمس قبائل هي ديش وعضل والقارة وهؤلاء الثلاثة بالإضافة إلى الحيا والمصطلق من بني سعد الخزاعيين يتكون منهم حلف الأحابيش الذي ذكرناهم.

ولكننا إذا صعب علينا قبول هذا القول من الرواة فإننا على الأقل نستطيع أن نفيد من الزيجات التي يذكرها الرواة في سياق النسب فنقول إن حلف خزيمة قبل أن تتفرع عنه على مر سنوات طويلة أربع قبائل هي كنانة وأسد وأسدة والهون صاهروا أبناء عمومتهم قيس عيلان، وأن بني كنانة صاهروا قضاعة من ناحية وبني تميم من قيس عيلان من ناحية أخرى، ولهم كذلك بنو ساعدة الخزرجيون رهط سعد بن عبادة والخزرج عند النسابة يمنيون.

وفي دور النضر بن كنانة ـ من أدوار تسلسل فرع قريش من كيانه الأم كنانة، وهو الدور الذي بدأ اسم قريش يظهر فيه نجد أن لدينا صهراً مع

(١) ابن عبد البر، الانباه، ص ١٠٣. وسبأ المذكور في النص هو أخو الأزد. (جمهرة ابن حزم ص ٣٨٧) وخثعم هي قبيلة أسماء بنت عميس الصحابية (ص ٣٩١) ولعل هذا هو الذي حدا بالنسابة إلى نقل قبيلتها إلى عدنان، وابن حزم نفسه يجعل خثعم مرة في أنمار من سبأ (ص ٣٩٠) ومرة في الأزد (ص ٣٣٠).

عدوان من قيس عيلان وآخر مع هذيل بن مدركة وهم الهذليون وصهرا مع جرهم، وكانت جرهم (الثانية) إذ ذاك في طريقها إلى التلاشي.

وفي دور فهر يبدأ انقسام خط مالك بن النضر إلى فرعي غالب وفهر، فغالب هم الذين يستقر فيهم اسم قريش، أما فروع الحارث ومحارب وجندلة فيستمر فيهم اسم فهر، وفروعهم هي التي ستعود إلى الحلف مع فرع قريش بعد دخول قصي مكة، وهؤلاء هم قريش الظواهر.

وفي طور لؤي بن غالب نجد أن الصهر مع قضاعة، فيذكر النسابة أن لؤيا تزوج امرأة تسمى مارية بنت كعب من بني القين، واسمها يدل على أنها كانت نصرانية، وبنو القيم من فروع قضاعة المتنصرين الذين يدخلون فيمن يعرفون بنصارى العرب، وهم غير عرب الروم وكانوا متنصِّرة أيضاً وأكبرهم غسان وهم معدودون في اليمن.

وفي هذا الطور تنفصل أربعة فروع من لؤي وتخرج من قريش وكنانة جملة، وهم الحارث بن لؤي (يدخلون في همدان اليمنيين) وسامة بن لؤي وهم بنو ناجية وهؤلاء يستقرون في عمان ـ والأرجح أن المراد هنا عَمَّان الشام بالفتح لا عُمَان الجنوب بضم العين ـ وبنو سعد بن لؤي وهم بُنَانة يدخلون في بني شيبان (بن محارب بن فهر في الغالب) وبنو خزيمة بن لؤي وهؤلاء أيضاً يدخلون في بني شيبان. ويبدو أن بني شيبان بن محارب بن فهر ـ وهم من قريش الظواهر ـ كانوا قريبين جداً من بني لؤي بن غالب لأن كعب بن لؤي يتزوج منهم، وكلاب بن مرة الذي يستمر فيه عمود النسب يصهرون في بني سرير بن الحارث من كنانة ويصهرون إلى بني سعد وهم بارق (لا نعرف من المرادون هنا)، ويصهرون كذلك إلى بعض فروع الأزد.

وعندما نصل إلى طور قريش نجد أن المصعب الزبيري لا يذكر له إلا امرأة واحدة هي حُبىٌّ بنت حليل بن حبشية وهي خزاعية كما نعرف. وعلى

الرغم من الصلة الوثيقة بين قصي وبني عـذرة فإن المـراجع لا تـذكر لـه صهراً فيهم.

وابتـداءً من عبد منـاف بن قصي يتعدد الصهـر وتكثر الـزوجات ونجـد القرشيين يتوسعون في الصهر ربما لأسباب سياسية فنجد عبد مناف يتزوج امرأة من بني هـلال بن عامـر بن صعصعة من قيس عيـلان، تسمى عـاتكـة وأمهـا تسمى مارية، فهي نصرانية في الغـالب، وهذه هي ثـاني امرأة بهـذا الاسم في صهر كنانة وقريش ومارية هذه ينتهي نسبها إلى سلول من بني معـاوية بن بكـر ابن هوازن إخوة بني سعد بن بكر الذين استرضع الرسول فيهم.

والخلاصة هنا أن كنانة وقريش حتى عبد مناف كانوا يتزوجون من خارج قبـائلهم في الغالب، ليكـثر جمعهم وأنصارهم، وبعـد استقرار قـريش في مكة نجد أن الصهر يتـوسع، فهم يتـزوجون في كـل القبائـل المحيطة بهم وخـاصة خزاعة وفـروع القضاعيين وبني هـلال بن عامـر بن صعصعة، وهـاشم يتزوج امرأة خزرجية هي سلمى من بني عدي بن النجار. وعند هاشم نجد أول مثال من زيجات القرشيين يمكن أن يوصف بأن العصمة فيه للزوجة uxorical فسلمى النجارية تشترط أن تظل في أهلهـا في المدينـة وهي تحتفظ بابنهـا منه وهـو شيبة الذي سيسمى عبد المطلب حتى يبلغ السنوات العشر فيـذهب عمه ويـأتي به. ولكن هذا النوع من الزواج كان نادراً بين القرشيين.

وهذا التعدد في الصهر والإكثار من الزيجات طلباً للإكثار من الأولاد زاد قريشاً قوة، فإن الصهـر واشجة رحم وهـو في نفس الوقت رابـطة سياسيـة بين الناس في النظم القبليـة. فلا شـك أن آل الزوجـات كانـوا يترددون عـلى مكة لزيارة بناتهم وأبناء البنات،وبخلاف ذلك نجد أن أخبار زواج القرشيات خارج مكة أو خارج نطاق القبيلة كانت قليلة، لأن ذلك كان يستدعي انتقال الزوجة إلى منازل قبيلة زوجها، والقرشيات ـ بعد أن استقر بهن المقام في مكة وتعـودن الحياة فيها ـ لم يعد من السهل عليهن أن يرتددن إلى حياة الظعن والبداوة.

ومع أن المجتمع القرشي المكي كان مجتمع رجال فهم سادته وأصحاب الكلمة فيه فإن القرشيات كن يتمتعن بمكانة محترمة، وكثير من الرجال كانوا لا يستنكرون من أن ينسبوا إلى أمهاتهم، فأبو جهل كان يسمى أيضاً ابن الحنظلية، ونوفل بن خويلد وهو المعروف بأسد قريش وأسد المطيبين كان يسمى بابن العدوية، وعمر بن الخطاب كان لا يأنف من أن يقال له ابن حنتمة. (والحنظلية أم أبي جهل هي أسماء التميمية وكانت تاجرة عطور معروفة)، واشتغال النساء بالتجارة كان أمراً معروفاً في مكة،والمثال الأكبر لذلك هي خديجة بنت خويلد أم المؤمنين. وأم الجلوس بنت مخربة خالة أبي جهل لا بد أنها كانت امرأة ذات مكانة بين كفار قريش لأنهم أودعوا صحيفة مقاطعة بني هاشم عندها. وفي الصراع بين الإسلام وكفار قريش، نجد النساء يقمن بدور كبير على الجانبين، فبنات عبد المطلب وخاصة صفية وأروى وعاتكة يقمن بدور ظاهر في مناصرة الإسلام ونشره وفي ناحية أخرى نجد نساء يقدن الحرب ضد الإسلام والمثل الكبير لذلك هي هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، وهناك كذلك أم مصعب بن عمير وأم عثمان بن طلحة فقد حاولت كل منهما عقاب ابنها على دخول الإسلام. والأمثلة هنا كثيرة جداً.

والذي يعنينا من ذلك كله هو أن المجتمع المكي في ظل سيادة قريش كان مجتمعاً مفتوحاً مطلقاً من كثير من القيود التي خضعت لها قبائل عربية أخرى معاصرة لها فقيدت حريتها وضيقت أفقها،فتميم مثلاً كانت تعيش في مساحاتها الشاسعة مقفلة على نفسها لا يصلها بالعالم الخارجي إلا التجارة التي كان يتولى القرشيون الجانب الأكبر منها، ومعظم تزاوج التميميين كان فيما بين بطونهم بعضهم وبعض لا يكادون يجاوزونها. وبينما كانت مكة بلداً مفتوحاً يفد عليه الناس من كل ناحية للحج أو للتجارة فيجدون هناك نظاماً موضوعاً لاستقبال الغرباء وإيوائهم وتقديم الطعام والماء لهم نجد أن دخول الغرباء بلاد تميم كان قليلاً جداً، وكذلك رحلاتهم إلى خارج منازلهم، وعندما يجيء الإسلام ويدخل بلادهم نجد التميميين يعيشون في شبه عزلة في منازلهم

يحسبون أنهم أذكى الناس وأبلغهم وأشهرهم .وقد دهش وفدهم عندما قدم على رسول اللّه ﷺ من مستوى التحضر والبلاغة شعراً ونثراً في المدينة. ومعظم القائمين عليه كانوا قرشيين، بل إن أهل يثرب أنفسهم كانوا يعيشون في مدينتهم شبه منعزلين، حتى دخل القرشيون يثرب مع رسول اللّه فتحرك كل شيء وتفتحت الأبواب وترقى اليثربيون في مدارج التحضر بفضل الإسلام. ومع أن رسول اللّه ﷺ ساوى بين أصحابه ولم يفضل مهاجرياً على أنصاري إلا أننا نلاحظ أن القيادة الاجتماعية والحضارية كانت في يد القلة القرشية، وما ذاك إلا لأن أولئك القرشيين كانوا أحسن نظاماً وأوسع آفاقاً وأعرف بأحوال الدنيا والناس منهم. وبعد وفاة الرسول ﷺ وما حدث في اجتماع السقيفة نرى بكل وضوح تفوق القرشيين في التقدير والتدبير والكلام على الأنصار، وهم الذين فازوا بقيادة الجماعة بعد الرسول وأحسنوا القيام عليها في أيام أبي بكر وعمر وجزء من خلافة عثمان على الأقل.

أما الفرق بين المستوى الحضاري بين قريش ومجموعات قبلية مثل غطفان وهوازن وأسد وما إليها فظاهر لا يحتاج إلى شرح طويل، والفرق في العقلية والنظرة إلى الأمور بين زعماء مكة حتى في أيام الكفر من أمثال عيينة بن حصن سيد فزارة ورخيلة بن عائذ بن مالك شيخ أشجع من ريث بن غطفان كان عظيماً جداً حتى ليحسب الإنسان أن هذا شعب وذاك شعب آخر وأن فرقاً زمنياً شاسعاً يفصل بين الاثنين. وفي أثناء المغازي والسرايا حينما يتنقل المسلمون بين رجال القبائل في منازل أقوامهم نحس أن القرشيين كانوا بالفعل أعلى حضارياً من مستوى نظرائهم ومعاصريهم درجات وكل ذلك من آثار التجارة والاتصال بالعالم، ووعي القرشيين بأنفسهم وإحساسهم بمكانهم وحسن إدراكهم لمصالحهم وما يريدون، هذا إلى تميز ظاهر في الذكاء هو نتيجة الاتصال بالدنيا والحركة والتنقل وما يؤدي إليه ذلك من حركة الأفكار.

ويستوقف النظر في مكة قبل الإسلام استقرار الأمر وانتظام سير الأمور،

فالبلد آمن من خارج ومن داخل وحوادث العدوان على الأنفس والأموال قليلة والسلام مستقر بين الوحدات القبلية أو البيوت رغم المنافسات السياسية التي لا بد منها بين تلك البيوت، يحس الإنسان دائماً أن هناك نظاماً مستقراً وأن سكان مكة ومن حولها من القبائل يتمتعون بسلام ورخاء نسبيين كأن النظام الإداري البسيط الذي ذكرناه وهو نظام تقاسم المسئوليات المدنية والجماعة مثل الرفادة والسقاية والندوة واللواء وما إليها كان في مجموعه نظاماً صالحاً وكافياً إلى حد ما للقيام بشئون مدينة مكة وما حولها.

والسبب في ذلك فيما نرى هو أن قريشاً في انتقالها من البداوة وحياة الظعن إلى الاستقرار في مدينة لم تتحول إلى مجتمع مدني بل حافظت على نظامها القبلي. والنظام القبلي العربي رغم بساطة تركيبه، نظام اجتماعي وسياسي متكامل وواف بحاجات الجماعة التي يقوم فيها. إنه نظام بسيط ولكنه ليس بدائياً وحاجات القبيلة في ذاتها قليلة والعصبية القبلية تكفي لحماية الإنسان داخل القبيلة ولحماية القبيلة كلها بين القبائل، لأن كل بيت داخل القبيلة مترابط متماسك وكاف لايقاف العدوان على أي فرد من أفراده، فإذا عجز البيت عن تسيير أموره أو تعرض للعدوان من بيت آخر تدخلت القبيلة كلها للحماية وإيقاف العدوان وإقرار السلام. والقانون البدوي عرفي ولكنه قانون كاف لحماية الناس وأموالهم، والأفراد والجماعات الصغيرة داخل القبيلة تطيعه وتنفذه بأمانة،والغش والخداع والخيانة لا تترك دون عقوبة أبداً، وثروات البيوت قليلة فهي لا تخرج عن أذواد من الماشية وبعض النخيل وشيء قليل من الزراعة السّريعة في بعض الأحيان، ويراد بتلك الزراعة شيء من الشعير والمحاصيل السريعة النمو والحصاد، والقبيلة كلها مسئولة عن ثروتها الجماعية من ذلك كله، وكل ملكية معروفة، وكل حق ظاهر، والقبيلة كلها تعيش في حالة تأهب مستمر للدفاع عن النفس أو الرحلة وشيوخ القبيلة مطاعون والخلافات بينهم تسوى دائماً على عجل ولا تترك لتعمق. وأي فرد من أفراد القبيلة يرفض النظام ويتكرر خروجه عليه يقتل أو يخلع ويعلن أمر خلعه للقبائل المجاورة

للقبيلة إعفاء لمسئولية القبيلة عنه ويصبح دمه مهدوراً إلا إذا لجأ إلى قبيلة أخرى وقبلت جواره. والمحالفات والعهود بين القبائل المتجاورة مرعية بعناية والبدوي العادي متعود على حياة الشظف قانع بما يقدر له من الرزق. ومعظم العمل تقوم به النساء، وإذا كان الرجال أو الصبيان هم رعاة الإبل والماشية خارج مضارب القبيلة فإن كل شيء عدا ذلك تقوم به النساء. والنساء يرثن المهارات الفنية البسيطة من غزل ونسج وحلب الماشية وصنع الخبز أو اختزان المئونة من التمر والزبيب وهن محفوظات محميات من العدوان.

وقريش عندما استقرت في مكة لم تتخل عن هذا النظام فاستمر يعمل بنظام فلكل عشيرة من عشائر القبائل شعبها أو حيها، وشعاب العشائر تجمعها شعاب الفصائل وهكذا. والدور كلها من اللبن فلا نسمع عن بنيان بالحجر إلا فيما يتصل بالكعبة، وإلى جانب البيوت القرشية عاشت في مكة بيوت من الأغراب عنها ولكنها حليفة، وبديل بن ورقاء الخزاعي كانت له دار بمكة، والدار هنا معناه القسم من البلد يعيش فيه الخزاعيون من أصحاب بديل وكلهم حلفاء المكيين وجيرانهم، وكان في المدينة أيضاً ثقفيون وهذليون وعذريون وكل جماعة تعيش حياتها في أمان نظام الحلف والإجارة والعرف القبلي العام.

ومهما كانت أقوال كتاب العرب فإن رجال مكة قبل الإسلام كانوا في جملتهم عقلاء أكفاء لأن نظام القبيلة وحياة الخطر التي يعيشها الناس دون حكومة لم تكن تأذن بولاية عاجز. وقد رأينا قصياً يوصي برياسة مكة قبل موته لابنه عبد مناف ولم يكن أكبر ولده إنما كان الأكبر عبد الدار، وأمثال هذه الأمور لا تتم إلا باتفاق بين الشيوخ، ولهذا نجد عبد الدار يسلم برياسة أخيه والقبيلة تعوضه عن ذلك ببعض المستويات الشرفية مثل اللواء. وبعد وفاة هاشم تصير الرياسة لأخيه المطلب ولكننا لا نلبث أن نراه يتنازل عن هذه الرياسة لابن أخيه عبد المطلب وكان شاباً ولكن الأمر هنا أمر سلامة القبيلة، والسلامة تحتاج إلى كفاية، ولهذا فإننا نجد بقية بيوت مكة تسلم برياسة عبد المطلب بعد

معارضات طفيفة. وعندما ظهر عجز أبي طالب عن سياسة أمور مكة وأهملته بيوت أصحاب المال من مخزوم وعبد شمس وهصيص نجده يسلم بالأمر ويقنع بالرياسة الشرفية والسقاية والرفادة تاركاً شئون التجارة لمن هو أقدر منه، وخصومة بني عبد شمس لبني هاشم لم تصل قط إلى العدوان السافر وحلف الفضول لم يدخل قط في صراع فعلي مع حلف الأحلاف لأن الحيين نظرا أولاً لخير قريش كلها. ورغم كل شيء فإننا نرى أن قريشاً تحرص أشد الحرص على علاقات حسن الجوار والمصلحة المشتركة بين قريش وخزاعة والأحابيش وثقيف في الطائف سارت دائماً سيراً طيباً، وإن كان بنو كعب الخزاعيون ظلوا دائماً على علاقات ود متينة مع بني هاشم الذين يتحدرون من كعب بن لؤي، والاثنان معاً كانا يعرفان بالكعبين. أما حلف الأحلاف فقد اعتز دائماً بتأييد بني بكر بن عبد مناة الكنانيين وسيظل الوضع على تلك الحال بعد مجيء الإسلام وحتى فتح مكة على ما سنراه.

وسنرى عند اصطدام قريش مع دعوة الإسلام أن القبيلة كلها تتصرف في عقل وبنظام، فكبار الشيوخ يتولون الأمر ولكنهم يدعون التصرف للجيل الذي يليهم من كهول القبائل، ولكن عندما يعجز الكهول ويتفاقم الأمر وتتهدد وحدة القبيلة ومصالح قريش سنرى أن الشيوخ يتولون الأمر بأنفسهم ويحاولون التفاهم في كثير من الروية مع محمد ﷺ وأبي طالب، وتكون لقاءات طويلة سنتحدث عنها في حينها. وعلى الرغم من اجتهاد المؤرخين بعد الإسلام في تشويه صورة قريش الوثنية ظنا منهم أن ذلك يزيد من قدر الإسلام علوا فإن حقيقة الصورة عندنا واضحة، فالنظام مستتب وهناك قانون عرفي عام متبع، ولعله يبدو غريباً أن ساكن مكة كان آمن على نفسه وماله قبل الإسلام مما أصبح عليه في العصر الأموي.

وإذا أردنا أن نصور كفاية النظام المكي قبل الإسلام نقارنه بالنظام في يثرب فبينما كانت مكة بالفعل تتمتع بنظام مستقر متماسك نجد أن يثرب

كانت مسرحاً لنزاعات وصدامات قبلية خطيرة، وواقعة بعاث الدامية وقعت قبل هجرة الرسول إلى المدينة وهي تصور قلق المجتمع اليثربي بالمقارنة مع المجتمع المكي، ثم إن وجود الجماعات اليهودية القوية في يثرب وسيطرتها على الحياة الاقتصادية للمدينة يدل على أن الأوس والخزرج كانت تنقصهما الكفاية والحكمة والنظام، وأكبر دليل على ذلك أن الوحدات القبلية داخل يثرب كانت تعيش في أمن آطامها أي حصونها وكل قبيلة تعتصم من الهيعات والاشتباكات داخل أطمها. ويبدو كذلك أن القبيلة كانت تضع ذخائرها وربما نساءها وولدانها في الأطم بالليل. ومن هذا كله لا نجد شيئاً في مكة، لأن المكيين عرفوا كيف يسيطرون على العدوان داخل بلدهم واجتهدوا في حل مشاكلهم فيما بين بعضهم وبعض وكذلك وثقوا العلاقات مع القبائل حول مكة فأمنوا في بلدهم، ولم يعودوا يحتاجون إلى الحصون.

وقد لاحظنا في كلامنا على حرب الفجار كيف أن قريشاً عرفت كيف تنظم أمورها، وعندما تحرج الأمر اختارت للقيادة بني أمية الأكبر فقاموا بواجبهم خير قيام، وقد أظهرت هذه الحرب قدر بني أمية بجماعتهم الأعياص والعنابس، وبعد هذا النصر أصبح بنو أمية بالفعل أنداداً لبني هاشم وسيكون لذلك كله أثر في موقف المكيين من الإسلام.

والخلاصة، وقبل الدخول في مجيء الإسلام وموقف قريش منه نقول إن قريشاً في مجموعها كانت قبيلة ناجحة وسط القبائل: عرفت كيف تهيء لنفسها مكاناً صدراً بين القبائل في الجزيرة كلها قبل الإسلام، وكان نظامها الداخلي يجمع بين النظام القبلي وبعض خصائص الحضر، وقد أفاد القرشيون من النظام القبلي وما تأتى عن استقرارهم في مكة من خصائص الحضر، وعرفوا كيف يسوسون بلدهم ويقومون بمسئولياتهم تجاه التجارة وتجاه الكعبة، وأفادوا من الوجهين أكبر الفائدة.

القسم الثاني

قريش بعد الإسلام

الفصل الأول

قُرَيش والإسلام في مَكّة

الفترة المكية الأولى:
من نزول الوحي إلى الخروج من دار الأرقم:

تعودنا أن نتتبع تاريخ الإسلام من داخل الجماعة الإسلامية. وتعودنا أن ندرس تطور الجماعة الإسلامية ونحن وقوف إلى جانب رسول الله ﷺ ومن معه ونحاول الآن أن ندرس هذا التطور في المعسكر الآخر أي من ناحية المكيين ونتتبع تطور نظرة القرشيين إلى الإسلام وجماعته.

خلال الشهور الأولى من البعثة وبعد انتهاء فترة الوحي وتتابعه استوثق محمد من أنه رسول الله إلى الناس، وتوالت آيات القرآن تفصل له أمر رسالته وفحواها. والقطع العشر الأولى من القرآن الكريم، وهي التي نظن أنها أوحيت إلى رسول الله ﷺ خلال الأشهر الأولى للبعثة بما في ذلك «الفترة» هي:

١) **الآيات الخمس الأولى من سورة العلق.**

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ السورة (٩٦).

٢) **والآيات السبع الأولى من سورة المدثر، وهي رقم (٧٤):**

﴿يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر﴾.

وتلك هي الآيات التي نقلت محمداً ﷺ من النبوة إلى الرسالة. أصبح نبياً رسولاً. أصبح الآن مكلفاً بحمل رسالة إلى البشر، فعليه من الآن أن ينذر

ولكي ينذر لا بد أن يتطهر ويهجر الرجز ولا يتعجل الوحي أو يستكثر منه فكل كلام الله سيأتيه بحسب تقدير الله، وعليه الآن أن يصبر على أمر الله سبحانه.

٣) سورة قريش وهي رقم ١٠٦ في المصحف:

وفيها يُذَكِّر الله سبحانه قريشاً بنعمة الإيلاف التي مهدت الطريق لرحلتي الشتاء والصيف وهي أساس رخاء قريش ونعمتهم، وعليهم لذلك أن يعبدوا الله رب هذا البيت وهو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

وتلك هي المرة الأولى التي يذكر فيها القرآن قريشاً دون أن يمس ديانتها ولكنه يأمرها بأن تعبد الله رب البيت.

٤) سورة والضحى وهي الثالثة والتسعون في ترتيب المصحف.

وكلها موجهة نحو محمد ﷺ والمسلمين تبعاً لذلك وهي تذكرهم بنعمة الله عليهم بالهدي وما تولى به محمداً من العناية، وتأمره بالرفق باليتيم والسائل والتحدث بنعمة الله.

٥) سورة «الشرح» أو «ألم نشرح لك صدرك» وهي الرابعة والتسعون في ترتيب المصحف:

وهي تذكر الرسول بما شرح الله به صدره من القرآن والهدي وكيف وضع الله عن رسوله أوزار الجاهلية وأزال من نفسه الخوف الذي اعتراه أول الرسالة، ورفع بذلك كله ذكره وبعده بأن بعد العسر يسراً وعليه لهذا أن يرغب إلى الله سبحانه.

٦) سورة العصر وهي الثالثة بعد المائة في ترتيب المصحف:

وهي من قصار السور وهي سورة تذكير من الله للإنسان بصورة عامة بأنه خاسر إلا إذا آمن وعمل صالحاً وتواصى بالحق والصبر.

٧) سورة الشمس وهي الحادية والتسعون من سور القرآن:

وهي تلفت نظر الإنسان إلى بديع خلق الله وآيات الخلق من الشمس وضحاها والقمر الذي يطلع بعد تغيبها والنهار والليل والسماء ومن بناها والأرض ومن بسطها، ثم نفس الإنسان وكيف خلقها الله خلقاً سوياً ووضع أمامها طريق الشر وطريق الخير وكيف أن الذي يزكي نفسه أي يطهرها يصلح، ومن يدنس نفسه يخيب، ثم يذكر الله الناس بما أصاب ثمود وكيف أساء إليها أشقياؤها، ويشير الله إلى الناقة التي عقروها فنزل بهم من الله عقاب شديد.

٨) سورة الماعون وهي السابعة بعد المائة في ترتيب المصحف:

وفي أول هذه الآية أول ذكر لخصوم الدعوة وبعض ضعفائها، فهناك من يكذِّب بالدين، وهذا هو الجافي القلب الذي يسيء إلى اليتيم ولا يدعو إلى اطعام المسكين، وفي المؤمنين من يسهون عن الصلاة ويراءون الناس ويمنعون تقديم العون للمحتاج.

٩) سورة الطارق وهي السادسة والثمانون في ترتيب المصحف:

وهي من أولى سور التذكير بعجيب خلق الله سواء في الكون المادي: خلق الكون والإنسان. أو سر النفس الإنسانية وما خصها به اللّه من الإيمان، وإشارة إلى قدرة الله على بعث الناس يوم البعث والنشور يوم يمتحن الله الناس بما في سرائرهم وما تنطوي عليه نفوسهم، وفي الآيات الأواخر من السورة تذكير بالسماء ذات الرجع والأرض التي تتصدع إذا شاء الله وتوكيد بأن كلام الله هذا فصل بين الضلالة والهدى وهو جد صارم وليس موضع هزل، وفي نهاية السورة إشارة إلى أن هناك من يكيدون للإسلام والمسلمين وتذكير بأن الله يكيد لهم كيداً «فأمهل الكافرين واصبر عليهم رويداً» وهذه السورة من سور عجائب الخلق وقد أكد القدامى القول في تفسير أسرارها ومعانيها، وجاء

المحدثون يرون فيها إشارات بينات إلى عجائب ما يكشف عنه العلم من أسرار الكون والنفس

١٠) سورة التين وهي الخامسة والتسعون في ترتيب المصحف:

وهي من السور التي كثر اختلاف المفسرين حولها، فهل الله سبحانه يقسم هنا بالتين أم بجبل يسمى جبل التين، وبالزيتون أم بجبل الزيتون ثم يقسم بطور سيناء، أي جبل سيناء وكل هذه تمهيدات ذات معان وأسرار تخلص منها السورة إلى البلد الأمين، ويختلف المفسرون هنا مرة أخرى، فهل المراد مكة أم غيرها. ثم حقيقة كبرى تتصل بالعقيدة الإسلامية وخصائصها، فإن الله سبحانه خلق الإنسان في أحسن صورة في الجنة ثم أهبطه إلى أسفل سافلين أي الأرض حيث ضل ضلالاً بعيداً إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات واجتهدوا في عمارة الأرض فهؤلاء لهم عند الله أجر عظيم وما شأن أولئك الذين يكذبون بالدين الا يعرفون أن الله سبحانه أحكم الحاكمين؟

١١) سورة الزلزلة وهي التاسعة والتسعون في ترتيب المصحف:

وهي من السور المنذرة التي تدعو الناس إلى الإيمان بالله عن طريق تصوير أهوال يوم القيامة مع التوكيد الواضح على أن الله سبحانه هو الذي يزلزل الأرض فتخرج أثقالها فيتساءل الإنسان عما جرى لها فيعرف أن الله سبحانه هو الذي أوحى لها. وهنا يبعث الناس ويخرجون جماعات ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة من الخير خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة من الشر شراً يره ويحاسب عليه.

١٢) سورة القارعة، وهي الأولى بعد المائة في ترتيب المصحف:

وهي شبيهة بالسابقة من حيث المضمون والغاية، فهي تصور جوانب أخرى من القيامة والبعث والحساب. وفي نهايتها ذكر للنار الحامية مصير الكافرين والمكذبين.

١٣) سورة العاديات، وهي المائة من سور القرآن بحسب ترتيب المصحف:

وهي تسير في نفس اتجاه القارعة من حيث تنبيه القلوب والعقول إلى مرور الأيام بالإنسان سريعة دون أن ينتبه، والصور التي تفتتح بها السورة تشير إلى عدو الخيل أو الجمال في الطريق إلى مناسك الحج حتى «جمع» وهي مزدلفة ثم تنبه الإنسان إلى جحوده، وهو يعلم أنه جحود وهو شديد الحب للمال وهو لا يعلم أنه إذا جاء البعث ـ كان مصيره إلى الله الذي يعرف عنه كل شيء.

وهذه السور جميعاً بكل ما فيها من تنبيه إلى الحق يهز القلوب ويبعث فيها الخوف لا تثير عند الجاهليين أي انتباه جاد، فمحمد في رأيهم إلى الآن رجل لا يدرون ماذا أصابه ولا حقيقة ما يقول، فهو يتحدث إلى من يصغي إليه، إلى الفئة القليلة التي التفت حوله، وليس عليهم في ذلك بأس، فإن الكلام الذي يتلوه محمد كلام وعظ تصوروا أنهم يسمعون مثله من الكهان، وهم لم يفكروا فيه ولماذا يفكرون؟ إن محمداً وجماعته قليلون وهو يقول إنه يدعو إلى الخير ومكارم الأخلاق، وهم يحسبون أنهم أخيار وأنهم على مكارم أخلاق وهو رجل كريم حسن المعشر طيب القلب لا يضيرهم في شيء وهم منصرفون إلى تجاراتهم وأموالهم فماذا يعنيهم من أمره؟ وربما شعر بعض كبرائهم بعدم الارتياح لرؤية نفر من الفقراء والرقيق يجلسون حول محمد إلى جوارهم في الكعبة، ولكنهم كانوا مستعدين لاحتمال ذلك ولكن سورة الليل، وهي الرابعة عشرة في ترتيب النزول والثانية والتسعون في ترتيب المصحف حملت شيئاً جديداً، ففيها إشارة وتحذير وانذار لمن بخلوا واستخفوا وكذبوا بالحسنى. وهي من هنا كانت جديرة بأن تجبر القرشيين على إعادة النظر في الكلام الذي يقول محمد إنه يتلقاه من السماء، فهو ليس كلام كهان أو سحرة وإنما كلام له معان بعيدة ومرام حقيقية تستحوذ على القلب والذين دخلوا في دعوة محمد متأثرون به تأثراً عميقاً، وقد تبدل فيهم كل شيء وأخذتهم الدعوة أخذاً وهذا

أمر لا يمكن أن يكون هيناً ولا هزلاً ، ولنقـرأ سورة الليـل هذه لنـرى مصاديق ذلك :

﴿فأما من أعطى واتقى
وصدق بالحسنى
فسنيسره لليسرى
وأما من بخل واستغنى
وكذب بالحسنى
فسنيسره للعسرى
وما يغني عنه ماله إذا تردى
إن علينا للهدى
وإن لنا للآخرة والأولى
فأنذرتكم ناراً تلظى
لا يصلاها إلا الأشقى
الذي كذب وتولى
وسيجنبها الأتقى
الذي يؤتي ماله يتزكى
وما لأحد عنده من نعمة تجزى
إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى
ولسوف يرضى﴾

فهنـا إشارات واضحـات إلى أن هناك نـاساً بخلوا واستغنـوا وكـذبـوا بالحسنى، وهؤلاء سيلقون من الله عذاباً ويعانون عسراً، والغنى منهم لن ينفعه ماله إذا تعرض لغضب الله ، وهنا إنذار بنار تتلظى لا يصلاها إلا الأشقى .

فلا بد أن الاحتكاك والتذامر بدأ بين المسلمين والكفار، بين الفقراء إلى

الله ـ وهم الأغنياء بالإيمان ـ والأغنياء بالمال ـ الفقـراء من الايمان ـ فـالأولون سيجزون أحسن الجزاء والآخرون سيلقون شر العقاب.

هنا نرى بدايات التفات كفار قريش إلى هذه الدعوة ومـا تعنيه ومـا تنذر بـه، وقد كـانوا كـما حكمنا أذكيـاء ذوي فهم وكـانـوا أغنيـاء والغني شـديـد الحساسية بماله ولماله. والذين يتلون هذا الكلام بعد محمد كان فيهم الكثيـرون من الفقـراء والضعفـاء ممن كـان المكيـون لا يكـادون يحفلون بهم أو يـرون لهم قدراً.

وهكذا، شيئاً فشيئـاً وخطوة فخطوة تثور الشكـوك والمخاوف في نفـوس القرشيين. فهذا الكلام الذي يتلوه محمد وأصحابه موجه إلى الناس أجمعين ولكنه يعنيهم بصورة خاصة ولا بد أن بعضهم كذب الدعوة وبخل بماله واستغنى، فهذا ولا شك مقصود بالانذار، والنار التي ترد فيها يتلوه محمد تنتظرهم مع أمثالهم وتتأكد هذه المعاني وتزداد المخاوف عندما تتنزل سورة الانشقاق وهي الخامسة عشرة من حيث التنزيل والرابعة والثمانون في ترتيب المصحف فنجد فيها نذيراً يرهب القلب لكل من صم أذنيه عن هذه الدعوة، وخاتمتها تقول:

﴿فما لهم لا يؤمنون
وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون
بل الذين كفروا يكذبون
والله أعلم بما يوعون
فبشرهم بعذاب أليم
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾

فها هنا ذكر لبدايات الصراع بين القرشيين والإسلام، فبعضهم يكـذب وبعضهم يزري بالمؤمنين وبعضهم يستصغر الدعوة وأهلها.

ثم تجيء سورة الأعلى وهي التاسعة عشرة من ترتيب التنـزيل والسـابعة

والثمـانون من تـرتيب المصحف وهي تستهل بـالدعـوة إلى تسبيـح الله الأعـلى الـذي خلق كل شيء وقـدر فهدى وأطلع النبـات ثم جعله هشيماً، وكـل هـذا يقرئه اللّه سبحانه لرسوله، وتنتهي السورة بآيتين تكشفانّ عن جانب من حقائق الدعوة:

﴿إن هذا لفي الصحف الأولى
صحف ابراهيم وموسى﴾

فهنا تتأكد الصلة بين دعوة ابراهيم ومـا يتلوه محمد فقـد ورد بعضه في الصحف الأولى، صحف ابراهيم وموسى، ومحمد ليس بساحر ولا كاهن ولا مجرد واعظ، بل هو نبي رسول وما يقوله كلام سماوي عظيم كمثل الصحف الأولى، صحف ابراهيم وموسى. ومثل هذا الكلام لا يمكن أن يؤخذ مأخذاً هيناً، ومحمد لا يمكن أن يقف عند مجرد القراءة بين أصحابه، ومن ثم فلا بد من اتخاذ موقف منه ومن دعوته.

إن معظم مؤرخي السيرة وعلماء القـرآن يقولـون إن بدايـة العداوة بـين المسلمين والمشركين كانت عندما أمر الله محمداً بأن ينذر عشيرته الأقربين:

﴿وأنذر عشيرتك الأقربين
واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين
فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون
وتوكل على العزيز الرحيم﴾ (الشعراء ٢٦/ ٢١٤ ـ ٢١٧).

ولكننا في دراستنا لموقف قريش من الدعوة لا زلنا بعيدين جداً عن آيات سورة الشعراء تلك، حقاً إن تلك الآيات وبعض ما سبقها ولحق بها من سورة الشعراء تعتبر السورة السادسة والعشرين في ترتيب التنزيل، ولكنها تعين مرحلة بعيدة من مراحل تطور الـدعوة، ففيهـا إشارات إلى أشيـاء كثيرة وقعت بـين

المسلمين وخصومهم وهي إذن كانت بعد أن بدأ الصراع الصريح بين الجانبين وبعد أن استقر الخوف من الدعوة فعلاً في قلوب نفر كبير من القرشيين.

فبعد سورة الأعلى التي ذكرناها وهي السادسة عشرة من حيث التنزيل تجيء «عبس وتولى» وهي السابعة عشرة في التنزيل والثمانون في ترتيب المصحف، ثم تكون سورة التكوير وهي الثامنة عشرة في التنزيل والحادية والثمانون في ترتيب المصحف ثم الانشقاق وهي التاسعة عشرة في التنزيل والرابعة والثمانون في ترتيب المصحف ثم النازعات وهي العشرون في التنزيل، والتاسعة والسبعون في ترتيب المصحف ثم الغاشية وهي الحادية والعشرون في النزول حتى نصل إلى الآيات التي ذكرناها من سورة الشعراء، وفي هذه السور كلها آيات تتحدى وأخرى تنذر وثالثة تدل على اننا قد أوغلنا بالفعل في الصراع وتحددت المواقف. ويصعب تحديد الآيات التي يمكن اعتبارها إنذاراً بتغير حاسم في موقف غلاة القرشيين، لأن المتتبع لآيات القرآن على النحو الذي ذكرناه يحس أن ثوران العواطف جاء شيئاً فشيئاً، فالقرآن يتنزل ورسول الله يقرئه أصحابه، وأصحابه يزدادون إحساساً بأنفسهم ووعياً بدينهم. وهم يجلسون إلى نبيهم حول الكعبة خاصة فيقرأون قرآنهم ملتفين حول نبيهم وهم يزدادون عدداً وجرأة يوماً بعد يوم، والقرشيون الذين نظروا إلى تلك المشاهد أول الأمر في غير اكتراث بدأوا يضيقون الآن بهذه الجماعة التي لا تكتفي بقراءة ما تقرأ في صمت، بل يتجمع بعضها إلى بعض ويقرأون جماعة وفي صوت عال، وكان القرشيون يظنون أول الأمر أنه سجع لكهان أو نجوى جماعة من الباحثين عن الحق أو الحنفاء، ولكنهم عندما أصغوا إلى لفظ القرآن ومعانيه المنبثة في السور والآيات التي ذكرنا بعضها أحسوا أن هذا الكلام يتضمن تحدياً وتهديداً لهم وإزراء بهم، فجعلوا يسخرون من المسلمين وما يقرأون، وأخذ بعضهم يكذب ما يسمع ويستصغر شأنه، وربما دخل في مناقشات مع المسلمين وعندما أنزل الله آيات سورة الكافرون وهي الخامسة

والأربعون مما أنزل من القرآن والتاسعة بعد المائة في ترتيب المصحف نجد أننا قد قطعنا بالفعل مرحلة طويلة من مراحل مسيرة الدعوة وأن الموقف قد انحسم بين الإسلام وخصومه بشكل واضح، خاصة وقد سبقتها سورة الإخلاص (الرابعة والأربعون في التنزيل، الثانية عشرة بعد المائة في ترتيب المصحف) وهي سورة التوحيد الخالص الجامع المانع. وسور أخرى مثل الهمزة والمسد والكوثر، والمدثر وأخواتها وكلها سور واضحة المعاني بينة الإشارات تدل على أن المعركة كان يحمى وطيسها يوماً بعد يوم. ثم تجيء سورة الكافرون لتحدد أن هناك دينين متعارضين غير متصالحين وهما دين الله الحق ودين الكفر، والمسلمون يرفضون رفضاً باتاً عبادة ما يعبد الكافرون وهؤلاء من ناحيتهم لن يعبدوا ما يعبد المسلمون ما دام الكافرون على موقفهم من العناد. وكل من الجانبين له دينه. هنا نشعر أن السورة فاصلة في مسار تطور انتشار الدعوة وموقف القرشيين منها، وهم يوصفون الآن بأنهم الكافرون، وهي كلمة دامغة لا يرضى عنها القرشيون.

وهذه الآيات والسور كلها ـ السابقة على ـ «الكافرون» يبدو من أسلوبها وسياقها ومعناها أنها نزلت متلاحقة في وضع متقارب لكي يبنى عليها إيمان المؤمنين ويتبين لهم منها حقيقة ما يؤمنون به ـ وفيها كذلك نذر وتحذيرات وإشارات إلى بعض الممارسات الجاهلية الخارجة عن الأخلاق مثل سورة المطففين. وكلها تنزلت في الدور الأول من الفترة المكية، التي تشمل سنتين سابقتين على دار الأرقم وثلاث سنوات في دار الأرقم لأن الخروج منها كان ـ كما سنرى ـ في الشهور الأخيرة من السنة الخامسة للبعثة[1].

---

(١) رجعت في عمل هذا الترتيب إلى أمهات ما كتب المسلمون في أسباب النزول وتوضيحه، وأهمها بحسب اعتمادنا عليها:

النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل. القاهرة ١٣٤٤ هـ.

القمي: التفسير. طهران ١٣١٣ هـ

=

وبعد هذا التتبع لنزول السور والآيات الأولى ووقعها عند المسلمين من ناحية والكافرين من ناحية أخرى، نعود الى القرشيين لنتتبع تطور موقفهم من الاسلام.

يذهب مؤرخو السيرة الى أن القرشيين لم يكترثوا للدعوة الاسلامية الا

= الرازي: مفاتيح الغيب. القاهرة ١٣٢١ هـ.
السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. القاهرة ١٢٧٣ هـ.
الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن. القاهرة ١٣٢٢ - ١٣٣٠ هـ.
طنطاوي الجوهري: الجواهر في تفسير القرآن. القاهرة ١٩١٣ هـ.
الواحدي: أسباب النزول. القاهرة ١٩٤٥م.
وكتاب تاريخ القرآن الذي ألفه بالالمانية نولدكه وشفالي واشترك معهما فيه علماء ألمان آخرون مثل برجستربسر ونشروه في ثلاثة أجزاء بيانها كما يلي:
الاسم العام للكتاب:

Theodor Noeldeck, F. Sckwally **Geschichte des Qorans**

وتفصيل الأجزاء كما يلي:
المجلد الأول عن أصول القرآن

1. Noeldecke u. Schwally, **Verber den Ursprung des Qorans,** Leipzig 1919

والمجلد الثاني عن جمع القرآن

2. Schwally. **Die Sammlung des Qorans** Leipzig 1919.

والجزء الثالث هو الذي يتضمن ترتيب آيات القرآن من حيث النزول

3. g. Brgstraesser und O. Praezel, Die **Geschichte des Qoran Texts,** Leipzig. 1939.

وهذا المجلد الثالث يقع في ثلاثة مجلدات صغار.
ويضاف إلى هذه الكتب الاستشراقية كتاب يعتبر من أهمها في ذلك الموضوع هو:

Regis Blachère, **Le Coran, traduction selon un Essai d'arrangement des Sourates.** Paris 1947 - 1951.

ويقع في ثلاثة أجزاء. والجزء الأول منها مقدمة.
وغني عن البيان أنني لم اعتمد على مؤلفات المستشرقين إلا للإفادة والاستئناس والاستطلاع، وآراؤهم في الموضوع مغرضة صادرة عن سوء نية. وهذا هو رأينا كذلك في كتاب يحتفل به المستشرقون ويولونه اهتماماً كبيراً رغم ما فيه من التعسف الظاهر والاسفاف الواضح وهو:

Richard Bell. **The Quran, With a Ciritical rearrangement of the Suras**

عندما تناول الرسول آلهتهم بما لا يرضيهم، وقال عنها انها أحجار لا تنفع ولا تضر وان عبادتها هباء يدل على غباء. ولكن الحقيقة هي أن كبار القرشيين كانوا قد بلغوا درجة من الغنى والغرور بالنفس بلغت بهم كل مبلغ، ولم يكن كبرياؤهم ليسمح لهم بأن يتحملوا من محمد ﷺ أي نقد لهم أو لآلهتهم، وهم لم ينتظروا حتى يسب محمد آلهتهم بل كان تحركهم لأذاه وأذى أصحابه قبل ذلك بكثير. وقد رأينا أن أبا جهل وجماعته من أتراب محمد ﷺ في السن لم يوفقوا في تصديهم له وكادت تقع فتنة فأسرع كبار القرشيين لتلافيها، وكانوا يصطافون في ضياعهم في الطائف، فروعتهم أخبار الفتنة بين المسلمين وخصومهم فأقبلوا وحاولوا استرضاء رسول الله وكسبه الى جانبهم ظناً منهم أنه طالب سلطان أو مال أو طامع في لعاعة من لعاعات الدنيا، فوجدوه شيئاً آخر لم يخطر على بال، وجدوا أنفسهم أمام رجل يقول انه نبي مرسل لاصلاح الدنيا وأهلها، وسمعوه يتلو القرآن، فراقهم معناه ومبناه وأحسوا أنه لا يمكن أن يكون كلام بشر. فقالوا انه ساحر ومضوا يدبرون أمرهم ليحموا أنفسهم من دعوته، وقد مس شعورهم ونال من كرامتهم الكلام الذي يقوله ولم يطيقوا عليه صبراً.

ذلك أن أولئك الناس ذهبوا مع الغنى وقوة الحياة مبلغاً بعيداً بسبب ما تحصل لهم من الأموال وما أوصلتهم اليه الأموال من سيادة على الناس. وقد تحدثنا عن التجارة المكية وما وصلت اليه من الانتظام بفضل ما وضع لها هاشم ابن عبد مناف من نظم مكنت لهم مع الزمن من أن يجمعوا من ورائها ثروات طائلة ازدادت قوتها على الناس نتيجة فقر المجتمع من حولهم. ولما كان أولئك السروات هم في نفس الوقت أصحاب السلطان في ذلك المجتمع المكي فانهم لم يجدوا من يوقفهم عند حدودهم اذا هم ظلموا أو تجبروا. ومن هنا فقد غلبت عصبة الأحلاف أو لعقة الدم على جماعة بني هاشم وأصحاب الفضول، فازدادت كبرياؤهم ولم يعودوا يحتملون من أحد نقداً، ومن هنا فان الاشارات القرآنية

التي نقدت مسلكهم ووصفتهم بالكفر والقسوة والظلم والتطفيف في الكيل وغش الناس كانت كافية لأن تثير غضبهم وتجعلهم ينظرون الى محمد ﷺ على أنه عدو والى الذي يدعو به على أنه حركة معادية.

وقلنا إن أولئك الناس وضعوا لهذه التجارة نظاماً محكماً فكان كل قرشي أو قرشية يريد المساهمة يسهم بما يريد ويدون ذلك في سجل، فإذا عاد رئيس القافلة - وكانت تسمى العير أو اللطيمة - كان أول ما يفعله هو التوجه إلى دار الندوة حيث يعطي - إذا استقام هذا التعبير الحديث هنا - بياناً عن نتائج رحلته وخاصة مقدار الربح الذي تحصل. وفي بعض الأحيان كانت الأرباح تصل إلى قدر رأس المال، أي مائة في المائة كما نقول، فمن دفع عشرة دنانير استردها عشرين، وكان ذلك ربحاً عظيماً جداً، يدل على ذكاء ومهارة وكان معظم التعامل بالدنانير الذهبية المسماة بالهرقلية ووزنها نصف وزن الجنيه الإنجليزي الاسترليني الذهبي الحالي، وكذلك بالدراهم الفارسية وكانت من الفضة. وكان الدينار الذهبي يعدل أربعة عشر درهماً من الفضة، وكان التعامل يتم أحياناً بالمقايضة أو بالعروض كالأقمشة والآنية والأسلحة وما إليها مما يمكن تقييمه مالياً او ما يمكن اتخاذه قاعدة للتبادل التجاري. وقد درس موضوع التجارة المكية الويس سبرنجر في كتابه عن محمد ﷺ وهو كتاب سيء فيه تعصب بالغ من الناحية الدينية، ولكنه فيما خلا ذلك لا يخلو من حقائق ذات أهمية وقد قدر أن قيمة التجارة والأموال التي كانت تتداول في مكة على طول العام بربع مليون دينار من الذهب، وقد بلغ من ثقة أولئك الناس بأنفسهم أن أحدهم رُوي عنه أنه قال: لقد حسبت أنني لو رفعت حجراً وجدت تحته مالاً، وكان يقال: من ليس بتاجر فليس بشيء، وعير أبي سفيان التي كانت تمهيداً لموقعة بدر كان فيها ألف جمل موسوقة بضاعة، وهذه الجمال نفسها كانت قد صدرت من قريش قبل قليل محملة ببضائع الهند والصين واليمن وحققت ربحاً عظيماً ثم عادت مرة أخرى لتقوم بعملية تجارية مماثلة.

وتظهر مستويات الأرباح التي كانت تحققها تلك التجارة في حكاية عبد الله بن جدعان شيخ بني تيم بن مرة، فقد بدأ حياته فقيراً، فلما اكتهل كان قد أصبح من أغنى أغنياء مكة، وقد زعم الناس أنه وجد كنزاً، وهذا الكنز في حقيقته كان التجارة، وعبدالله بن جدعان كان من كبار رجالها وكان حليفاً لبني عبد شمس، وخصماً بالتالي لبني هاشم، وكان كبار القرشيين ينفقون عن سخاء لكي يظهروا بمظهر التاجر الموسر الناجح الذي يوثق فيه، فكان ابن جدعان يقدم للناس الجفان المترعة ثريداً ولحماً فيأكل منها من يريد، وكذلك كان يفعل أبو جهل.

وهذا الثراء الضخم الذي وصل إليه أولئك الناس كان يغريهم بالاستزادة من الربح بأي ثمن، ومن هنا كانوا يقرضون المال دون وازع، فقد روي عن بعضهم أنه كان يقرض المائة دينار لمدة ثلاثة أو أربعة شهور ويتقاضاها مائتين أو ثلاثمائة دينار، وانتشر ذلك حتى عم الربا وتفاقم وأصبح هو القاعدة، فشقي الفقراء والمحتاجون. وكان أولئك التجار إما يكتبون بأنفسهم أو يستخدمون كتاباً حاسبين يسمون النسأة وكان الربح في هذه الحالة يسمى نسيئاً أو نسيئة، وكان النسأة يغالطون الضعفاء وخاصة الأميين فيزورون في حساب المال وحساب الشهور أو المدد ويبيحون اليوم ما يحرمونه غداً حسب هواهم، ولهذا وحماية لإنسانية الإنسان حرم الله الربا، بل أعلن الحرب على المرابين (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) ولم يرد في حق أي من الكبائر مثل تلك اللعنة على المرابين، لأن الجرائم كلها لها حدود. فالقاتل يقتل والسارق تقطع يده أو يعاقب أما المرابي فإنه يعتدي على كرامة الإنسان ويقتله حياً.

وهذا الجشع في جمع المال هو الذي أثار في مكة روحاً من التذمر والإنكار. فإن معظم الناس كانوا مساكين أو فقراء، ولا يخلو إنسان من الحاجة إلى المال في وقت ما، وهنا يقع تحت رحمة أولئك الطغاة، خاصة وأنهم - أي كبار التجار - يستهينون بالتاجر الصغير الغريب، فكانوا يأكلون أمواله أو

يسوفون في أداء الرجل حقه حتى يجوع ويعرى، وقد يؤدي الدين ببعض الناس إلى أن يصبحوا أرقاء للدائنين حتى يؤدوا ما عليهم. وكان أكثر الناس إقداماً على سوء معاملة الفقراء وصغار الأغراب رجال مثل الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبي الحكم عمرو بن هشام (أبي جهل).

وفي الناحية الأخرى وقف بنو هاشم - ربما فيها عدا العباس - وحلفاؤهم يمثلون تقاليد عبد المطلب في الإحسان الى الفقراء برعاية صغار التجار الغرباء، ولكن توفيقهم في ذلك كان قليلاً نظراً لقوة خصومهم أولاً ثم لحاجة الجبهة الهاشمية إلى شخصيات تستطيع استرداد القيادة في مكة، وهذا يفسر لنا موقف بني عبد شمس وبني مخزوم وحلفائهم من الدعوة إلى الإسلام، فقد ظنوا محمداً ﷺ يرمي في النهاية إلى إعادة القوة إلى بني هاشم، وهذا كان مفهوم أبي جهل للإسلام، ولم يستطع أبو جهل تغيير هذا الموقف إلى أن مات.

وبلغ من جشع أولئك الناس وحرصهم على أن يفيدوا من الحج أعظم فائدة مالية ممكنة، أنهم ابتدعوا ما عرف بالحُمس والحلة، وكلام مؤرخينا القدامى مهم جداً فيما يتعلق بالحمس والحلة، فهم اعتبروا هذين المصطلحين وما جرى مجراهما مثل الطُّلَس تدخل ضمن شئون الدين والوثنية الجاهلية، والحقيقة كما تتجلى لمن يقرأ بإمعان أنها من تنظيمات قريش للإفادة من الحج، فمن المعروف أن الناس كانوا يحجون بعد نهاية الموسم في عكاظ، فيقصدون بما معهم من مال إلى مكة للحج، فكان همُّ القرشيين استخراج أكبر قدر من المكاسب من الحجاج، فالحمس فيما يروي ابن سعد عن الواقدي وفيما يقول الأزرقي عن ابن اسحاق عن الكلبي عن ابن عباس هم قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب ويؤكد ذلك السكري فيقول إن الحمس هم قبائل قريش كلها وخزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشا وكل من

نزل مكة من قبائل العرب، وأما الحلة فهم بقية قبائل العرب، والطلس هم أهل اليمن وأهل حضرموت.

فماذا كان الحمس يفعلون في موسم الحج؟ فيما يقول الأزرقي عن ابن اسحاق عن الكلبي أنهم كانوا« لا يمخضون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرماً، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه وإنما يستظلون بالأدم ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها، ويطوفون في البيت وعليهم ثيابهم . . . » ومعنى ذلك أنهم كانوا لا يتمتعون بشيء من الخيرات، بل يدخرون ذلك ليبيعونه من الحجاج، وكانوا يزعمون ذلك نسكاً. أما الحلة وهم بقية العرب الوافدين على مكة فكانوا في قول السكري «يحرمون الصيد في النسك ولا يحرمونه في غير الحرم، ويتواصلون في النسك ويمنح الغني ماله أو أكثره في نسكه ولا يدخلون من باب بيت ولا يؤويهم ظل ما داموا محرمين، وكانوا يدهنون ويأكلون اللحم وأخصب ما يكونون أيام نسكهم، فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم، ثم اشتركوا في ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء، يباشرونها بأقدامهم، فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة، وكان لكل رجل من الحلة حرس من الحمس يأخذ ثيابه، فإن لم يجد ثوباً طاف عرياناً، وإنما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت. . . ».

وخلاصة هذا الكلام أن القرشيين رتبوا أنفسهم على ألا ينفقوا من أموالهم ولا يستعملوا من أطعمتهم ولا يلبسوا من الثياب الجدد إلا القليل جداً لكي يبيعوه من الحجاج، أما الحلة وهم الأعراب ـ وهم معظم الحجاج فكانوا يشجّعون على الإنفاق، حتى الطواف كان القرشيون يحفزونهم على أن يكون الطواف في ثياب جدد، ومن لا يستطيع شراء ثوب جديد اكترى ثوباً، وإلا

طاف عرياناً. وهذا هو التفسير الذي يقبله العقل بالنسبة لهذه النظم التي كانت سائدة في مكة قبل الإسلام، أما ذكرها بالصورة المبهمة التي تخلو من المعنى والتي نجدها في الأصول فأمر لا يقبله العقل، خاصة وأن القرشيين كانوا ناساً عمليين وماديين في تفكيرهم، فكل شيء كان عندهم بمنطق وحساب. وبينما كان قصي وهاشم وعبد المطلب يفرضون على القرشيين مالاً ينفق على الحجاج تقديراً منهم لجلال الحج وما يضفيه على مكة من الاحترام والتبجيل أصبح سادة مكة الجدد يبذلون أقصى وسعهم في استخراج أكبر كسب من الحجاج، مما أساء إلى مكة وقريش. وكان الفقراء فيما مضى يفيدون من الحج فيأكل الجائع منهم ويحصل المحتاج على ما تيسر له من حاجاته، فساء حال الفقراء أيام سيادة بني عبد شمس ومخزوم وأحلافهما، وذلك كله واضح في التفاصيل التي يوردها المؤرخون في مقدمات البعثة المحمدية.

ونتج عن ذلك أن كثيراً من العرب كرهوا قريشاً وعيروها بالبخل والقعود عن الكرم، بل رماها بعضهم بالجبن، وعيروا قريشاً بكثرة الطعام، فسموها سخينة لأن السخينة كانت من أحسن ما يأكل الناس قبل الاسلام وأغلاه ثمناً وكان القرشيون يكثرون من أكل أطايب الطعام من اللحوم والثرائد والعصائد والسخينة بسبب وفرة أموالهم في حين كانت غالبية العرب تتضور جوعاً.

ولكن كتلة قريش ظلت سليمة، ومحور هذه الكتلة كان بني هاشم وبني عبد المطلب وأحلافهم، وهؤلاء هم الذين حافظوا لقريش على أحسن خصائصها الخلقية والمعنوية، وعندما ضاقت بقية العرب باستغلال قريش وانفرادها بشئون المال وتجمعت بقية قبائل قيس عيلان لتكسر بالقوة احتكار المكيين، وقامت حروب الفجار، كان الذين تصدوا للقيادة هم الذين تمسكوا باللواء والقبة والأعنة وما إليها من مسئوليات الحرب، وهم بنو عبد شمس وأحلافهم، وكان هؤلاء كذلك هم المسيطرون على شئون التجارة والمال، وابلو

في هذه الحروب بلاءً عظيماً فظهر أمر الأعياص وهم أبناء أبي أحيحة العاص بن أمية، والعنابس وهم أبناء حرب بن أمية، وهنا انتقلت القوة فعلاً إلى بني عبد شمس وأحلافهم، بل أصبح لفظ الأعياص يطلق على أهل الملك والقوة بصفة عامة، وابن خلدون يستخدم دائماً مصطلح «أعياص الملك» وأما العنابس ـ أي الأسود ـ فهم حرب بن أمية وأولاده وأهمهم أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية، وقد أصبح هؤلاء جميعاً سادة أغنياء وأقوياء إلى درجة كبيرة، وزاد استبدادهم بالفقراء والضعفاء وصغار الأغراب، وكثرت مخالفتهم للأصول الأخلاقية التي وضعها الذين أسسوا مجد قريش وأسرفوا في الربا وغالطوا الناس في الحساب وظلموهم ظلماً بيناً، وعندما جاء الإسلام ليقضي على ذلك كله وقفوا من الإسلام صفاً واحداً كأنهم البنيان المرصوص. وقد أنكر الإسلام ذلك كله إنكاراً بالغاً، فدعا إلى إطعام المسكين ورعاية اليتيم وإكرام ابن السبيل (وهو الغريب المار أو الوافد) وقال بالمساواة بين الناس، فالغني والفقير متساويان، وكذلك القرشي وغير القرشي والعربي والعجمي (أي غير العربي)، وأنكر الوثنية وتقديس الأوثان والنصب وكل ما كانت تلك الطائفة قد جعلته اختصاصاً لها وامتيازاً وسبيلاً لجمع المال، ولهذا كانت مقاومة كتلة قريش للإسلام عنيفة وبغضهم له عظيماً لأنه دعا إلى هدم كل تلك النظم والقيم التي كانت كلها تدور حول الأغنياء والأقوياء وتخدم مصالحهم وتؤيد الوثنية لأنها مورد مال وكسب.

وعندما جاء الإسلام وجد نواة بناء قريش سليمة قوية، فلا زال في القرشيين من يؤمن بالمبادىء الأخلاقية ويتمسك بالبنيان المحكم السليم الذي وضعه قصي وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب وحلفاؤهم، ولهذا نجد أن الله سبحانه وتعالى يأمر نبيه كخطوة أساسية من خطوات نشر الدعوة بأن ينذر عشيرته الأقربين، وهنا لا بد أن نذكر الآية وما قبلها وبعدها مباشرة حتى يتضح لنا معناها ومغزاها، إذ إن تقطيع الآيات لا يعين قط على فهمها الفهم الكامل الصحيح: ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين، وأنذر

عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، فإن عصوك فقل إني بريء مما تعلمون﴾ (الشعراء ٢٦/٢١٣ ـ ٢١٦). فهنا نجد الدعوة موجهة إلى رسول الله بالاعتماد أولاً على عشيرته الأقربين، لا لأنهم أقاربه بل لأنهم هم الذين ظلوا متمسكين بالقواعد الأخلاقية الأولى التي وضعها قصي وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب ومن أيدوهم، لأن هؤلاء يكونون بهذا الوصف أقرب إلى فهم الإسلام والدخول فيه. والأيات تأمره في نفس الوقت بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين فقد كان هؤلاء قلة، ولكنهم كانوا قلة قوية بإيمانها رغم أن الكثيرين من أفرادها كانوا فقراء لا حول لهم في حياتهم.

وقبل أن ننتقل إلى دراسة موقف قريش من الإسلام لا بد أن نقول شيئاً عن الدور العظيم الذي قامت به أسواق الحجاز في توكيد مركز قريش، ويستتبع ذلك الكلام على دور قريش في تطوير اللغة العربيةُ. وقد سبق ان قلنا بعض هذا الكلام فيما تقدم من فصول هذا الكتاب، ولكن لا بد من ذكره الآن معدلاً بحسب ما يقتضيه تطور الأفكار في هذا البحث.

* * *

كانت أسواق العرب كما ذكرنا آنفاً نظاماً محكماً تكامل مع الزمن، وعمل على ترتيبه التجار والقبائل معاً، فكل قبيلة أو مجموعة من القبائل المتجاورة أو المتحالفة نظمت لنفسها سوقاً سنوية في منازلها، ولما كان التجار من أقدم العصور إلى يومنا هذا أكثر الطوائف تفاهماً فيما بينهم لضمان مصالحهم ـ دون أن يمنع ذلك روح المنافسة الطبيعية بينهم ـ فإنهم اجتهدوا في إقناع القبائل بجعل موعد السوق مناسباً لهم، لأنهم حريصون على أن يحضروا أكبر عدد ممكن منها، إما بصفتهم الشخصية أو عن طريق زملائهم في شتى النواحي، وإذا كانت قريش في مجموعها هي أعظم تجار مكة أو أعظم الهيئات المشتغلة بالتجارة، فقد عرفت كيف تجعل آخر أسواق العام في منطقتها حتى تربط بين التجارة والحج (في ذي الحجة ـ ومن هنا جاء اسمه، والاسم سابق على

الإسلام)، فقد حرصت على أن تكون أسواقها الثلاثة عكاظ وذو المجاز ومجنة أعظم هذه الأسواق وأحفلها بالبضائع والناس، وقد اتجهت العناية بصورة خاصة إلى سوق عكاظ بسبب قربها من مكة، فجعلتها قريش أكبر أسواق الجزيرة وأكثر الأسواق اجتذاباً للناس، فلما وفقت في ذلك أصبحت عكاظ كذلك ملتقى العرب، ولم تعد مجرد سوق تجار، بل أصبحت مناسبة للتسلية واللهو والتفريج عن النفس، وهذا هو الذي اجتذب الشعراء إليها، وهذا يفسر لنا كيف أصبحت عكاظ سوقاً سنوية للأدب والشعر وقد نتجت عن ذلك نتيجة لم تقصد إليها قريش قطعاً، ولكنها كانت نتيجة طبيعية لظروف أسواق قريش ولمكانة مكة الدينية والتجارية ثم لمهارة القرشيين في الحصول لأنفسهم ولمدينتهم مكة على أعظم المكاسب والمغانم من كل شيء.

وقد تيسر ذلك لقريش لأنها عندما استقرت في مكة وسيطرت عليها لم تفقد طبيعتها القبلية قط، فقد ظلت في حياتها وتنظيمها واتجاهات أفرادها قبيلة واحدة محفوظة الأنساب تحكمها قواعد الحياة القبلية وعاداتها وتقاليدها وأخلاقياتها، وقد كان فريق من قريش وهم قريش البطاح أو الأبطحيون - يسكنون المدينة وينزلون الدور في أحياء خصصت لهم عرفت بالرباع وعرفت امتداداتها خارج البلد بالشعاب، وظل فريق آخر من القرشيين يعيش في الخيام خارج البلد أو في ظاهرها وهؤلاء هم قريش الظواهر، وظلت قريش تستوعب في كيانها من تريد استلحاقه من قبائل العرب الصغيرة التي رأت أن مصلحتها تقضي باستلحاقها، فإما تصاهرت معها وأدخلتها في كيانها أو اكتفت بالحلف معها، وكان معظم المستلحقين من قضاعة وكنانة، وكانت العادة أن تربط القبيلة المستلحقة نفسها بنسب قريش عن طريق فهر، وهذا يفسر لنا لماذا نجد وضع بطون مثل محارب بن فهر ولؤي بن غالب بن فهر غير واضحة العلاقة بقريش وهذه القبائل المستلحقة نجدها مفردة بدون تسلسل نسبي لأن قريشاً مثلها في ذلك مثل غيرها من القبائل القوية كانت تمتص القبيلة المستلحقة فلا

يبقى منها إلا اسمها، ويقول النسابة في هذا إن محارباً مثلاً انقرضت فلا عقب لها أو أن بني عامر دخلوا في لؤي، وهكذا كانت قريش تزداد قوة عن طريق قريش الظواهر، ومن قبائل قريش الظواهر كانت قريش تعوض ما يصيب أعدادها من نقص، وأما القبائل المتحالفة التي أصبحت تبعاً لقريش فمثلها معظم خزاعة والكثير من بطون قضاعة وخاصة أسلم.

عن طريق هذا الباب المفتوح على القبيلة حافظت قريش ـ رغم استقرار معظم بيوتها ـ على خصائصها القبلية، فكان أولاد القرشيين يدربون على القتال وركوب الخيل، وكانوا يرسلون إلى البادية وهم صغار ليشبوا أقوياء أصحاء على طبيعة البدو وعن طريق هذا الباب المفتوح أيضاً ظلت أعين القرشيين مفتوحة على من حولها من القبائل، فكان القرشيون يعرفون كل كبيرة وصغيرة عما يجري في خيام هذه القبائل، وكان شيوخ القبائل معروفين للقرشيين يستقبلهم القرشيون ويصاهرونهم، ومنهم من كان له بيت في مكة إلى جانب خيامه في الصحراء، مثل بُدَيل بن ورقاء شيخ بني كعب من خزاعة فقد كان له بيت كبير في مكة، وقد عُرِف هؤلاء الرؤساء المقربون بلفظ الندماء أي الأصدقاء المقربين، فيقال إن فلاناً كان نديماً لهاشم أو لعبد المطلب، وقد عقد محمد بن حبيب النسابة فصلاً خاصاً في كتابه المحبر عن الندماء، ونظرة على أسماء الندماء وقبائلهم تؤكد للقارىء ما نقول.

وهكذا ظل أولئك القرشيون قبليين مدنيين في نفس الوقت، وبينما كان رؤساء قريش يحسبون الأموال والأرباح والربوات ويسجلون ذلك في سجلات حفظوها، وأتقن الكثيرون منهم القراءة والكتابة والحساب لهذا الغرض نجدهم لم يفقدوا قط خصائص البدو ولا هم قطعوا علاقاتهم بهم ولا أهملوا أحلافهم مع القبائل، فكان رجال الأعمال هؤلاء بدواً محاربين في نفس الوقت وعندما ندقق في أخبار السيرة النبوية وهي المناسبة الكبرى التي أتاحت لنا أكبر قدر من المعلومات عن قريش مكة، والعرب عامة نجد أن كبار السن من

القرشيين من أمثال الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبي أحيحة بن العاص كانوا يمسكون بزمام القبيلة ويكتفون بالإشراف من بيوتهم أو مواضع راحتهم في بيوتهم التي اشتروها في الطائف تاركين الجيل التالي لهم يصرف الأعمال، وعندما ظهر رسول الله ودعا بدعوته كان أنداده في السن من أبناء زعماء القرشيين هم الذين تصدوا له أول الأمر من أمثال أبي جهل وأبي سفيان وعقبة ابن أبي معيط وأمية بن خلف والأسود بن عبد يغوث والحارث بن قيس بن عدي والنضر بن الحارث بن كلدة ومن إليهم، أما كبار القوم فلم يتدخلوا إلا فيما بعد عندما بلغ الصدام بين محمد ﷺ وأولئك المعاندين من نظرائه في السن أو أبناء جيله مبلغاً أصبح يهدد بالفتنة. هنا يتدخل الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبو أحيحة العاص بن سعيد بن العاص والعاص بن هاشم وعبد الله ابن جدعان ومن في طبقتهم من سادات قريش الذين كانوا إذ ذاك في مصطافهم في الطائف فأسرعوا ليتداركوا الموقف، وقد تصرفوا بذكاء.

وأكثر ما يستوقف النظر في قريش هي روح الجماعة Ésprit de corps التي كانت تتصرف بها، فهم كتلة واحدة أمام أي عدو وأمام أي خطر، وقد أشرت فيما سبق إلى أن أكثر ما أخاف قريش من دعوة رسول الله هو أنها فرقت جماعتهم ويتجلى لنا إحساس كبار القرشيين بوحدة قريش وحرصهم على صالحها في خبر عتبة بن ربيعة عندما ذهب يفاوض رسول الله ليفهم منه ما يريد، وكان بصفته تاجراً قد ذهب يساوم محمداً ظناً منه أنه مستعد للمساومة، فلما سمع القرآن وجده كلاماً جديداً جداً عليه، وأحس بأنه كلام له عمق ومعنى وأثر في النفوس، فلما سألوه ما وراءه «قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن ظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم

أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه...» فهذه عبارة إن صدقت فإنها تدل على حرص قريش على وحدتها وتماسكها لخدمة مصالحها، فهذا الرجل لا ينصح القرشيين بقبول دعوة محمد ﷺ، ولكنه يقول لهم إنه يتوقع لهذه الدعوة النجاح، ويقول إنه من صالح قريش أن تخلي بين محمد وما يدعو إليه، فإذا غلبته العرب لم يصب قريشاً ضرر. وإذا انتصر محمد سارعت قريش إلى المشاركة في الثمرات بل جنتها كلها، وهذه العبارة تبدو لي وكأنها تصوير لما فعلته قريش مع الإسلام في الواقع، فقد خلت بين محمد والعرب، فلما انتصر عرف رجالها كيف يفوزون بمعظم ثمرات النصر.

الوليد بن المغيرة هنا يمثل العقلية القرشية أصدق تمثيل، فهي عقلية واقعية فهذا الرجل أعجب بالقرآن دون أن يفكر في الدخول في الإسلام، لأن الإسلام بدا له مغامرة وهو لا يشك في أن القرآن الذي سمعه من محمد سيكون له أثر بعيد، ولكنه - أي الوليد بن المغيرة - غير واثق من أن الدعوة ستنجح، ولهذا فقد آثر الوقوف بعيداً ونصح قومه بعدم التعرض لمحمد فلعل دعوته تنجح وتجلب على قريش خيراً كثيراً.

ذلك أن قريشاً كانت عند أولئك القرشيين أهم من أي شيء آخر، فقد عاشوا في مكة ولكنهم ظلوا قرشيين قبليين في تفكيرهم وأسلوبهم في العمل وإذا كنا لا نستطيع القول بأن قريشاً بعد سيطرتها على مكة لم تعد قبيلة بدوية خالصة مثل غطفان وهوازن، فكذلك مكة في أيدي القرشيين لم تكن مدينة بمعنى الكلمة، فقد كان القرشيون يعرفون المدن وما تتميز به من منشآت وعمائر وقصور، فقد كانوا يزورون مدن العالم القريبة منهم من طيشفون - وهي المدائن - إلى الإسكندرية، ولكنهم لم ينشئوا في بلدهم مبنى فخماً ولا اتخذ واحد منهم قصراً، وإنما ظل شيخاً بدوياً يعيش في مدينة، وقد كانت هذه هي الصفة التي غلبت القرشيين حتى بعد الإسلام، فقد أصبح معاوية مثلاً خليفة

ولكنه لم ينشيء قصراً عظيماً ولا اقتنى رياشاً رفيعاً او اتخذ مطبخاً ملوكيّاً، بل ظل يعيش بدوياً، لا يزيد طعامه على طعام قريش في الجاهلية: الثرائد والعصائد.

بهذا المزاج من القبلية والمدنية نجح القرشيون، فهم من قبائل الجزيرة شيوخ بدو يعيشون عيشة شيوخ بدو يتخلقون بأخلاقهم ويتعاملون بقواعد التعامل السائدة في الجزيرة، فإذا دخلوا بلاد الروم أو الفرس عرفوا كيف يجالسون الرؤساء والكبراء من القادة والإداريين والحكام ويكسبون احترامهم، وفيما يتعلق بفارس كان العرب يعرفون كسرى وله من بين رؤسائهم أصدقاء. وبدويتهم تلك هي التي حمتهم من الخضوع لفارس أو لدولة الروم وقد حكينا ما حدث لعثمان بن الحويرث عندما أراد أن يسود قريشاً باسم القيصر، أما إباء العرب للخضوع للفرس فيصوره يوم ذي قار، ولم يكن لقريش نصيب في يوم ذي قار ولكن القرشيين بنشاطهم التجاري الواسع وبما كان في أيديهم من عهود القبائل التي تضمن لهم سلامة المرور وما حازوه من الإيلاف الذي فتح لهم أبواب بلاد الفرس والروم والحبشة قد عاونوا معاونة فعالة في تقريب أفكار العرب بعضهم من بعض وتقريب لهجات العرب والوصول في النهاية إلى اللسان العربي المبين... الذي يفهمه العرب كافة، وبه نزل القرآن.

ذلك أن أسواق قريش كانت أعظم أسواق العرب، وعكاظ كانت ذروة لقاءاتهم وإلى جانب البضائع والتجارات كان يخف إليها الشعراء ليلقوا قصائدهم وبطبيعة الحال كانت هذه عملية طويلة وإن كنا نحن لا نعرف إلا نهايتها فقبيل الإسلام كان أعاظم شعراء العرب يخفون إلى عكاظ بقصائدهم ينشدونها أمام حكام أو نقاد ليزنوها وليختاروا أحسنها، وهذا يقتضي أن أولئك الشعراء كانوا يقولون قصائدهم بلغة عربية واحدة حتى يمكن الموازنة بينها، وهذه هي الصورة الأخيرة التي أشرنا إليها، ولكن لا بد أنه قد سبقت هذه الصورة تمهيدات طويلة، ذلك أن لهجة قريش، وهي سيدة السوق وسادنة الكعبة كان لا بد أن تكون هي اللغة المشتركة بين الوافدين على السوق، وإذا

أمكن القول بأن لغة الأسواق سهلة لا تخرج عن عبارات البيع والشراء والتعامل اليومي، وتلك هي البداية أي أن قبائل العرب الوافدين إلى عكاظ ثم على مكة كانت تتفاهم بينها بلغة مشتركة، أي ما يسمى في اليونانية بالكويني Koiné أو هي اللغة المشتركة التي كان اليونان يتفاهمون بها أول الأمر إذا تلاقوا عند نصب دلف أو في ميادين الألعاب في سهل أوليمبيا، وهذه اللغة المشتركة التي يفهمها اليونان جميعاً سواء في ذلك الأثينيون والإسبرطيون والميجاريون كانت لغة أثينا، وشيئاً فشيئاً أصبحت لغة أثينا هي اللغة اليونانية. مثل ذلك حدث بالنسبة للهجة قريش، فقد فرضت قريش لهجتها العربية على السوق وزواره، ثم تطورت هذه الكويني التجارية السوقية حتى أصبحت لغة تعبير أدبي كان لا بد أن ينشىء الشعراء فيها شعرهم لكي يفهمه النقاد والناس وينقدوه، وتنشر هذه القصائد بين العرب ويحملها العائدون من الأسواق إلى منازل قبائلهم، وعاماً بعد عام تعود الناس في نواحي الجزيرة كلها سماع هذه اللغة وفهمها، وأصبحت لغة الشعر بعد لغة الأسواق - لغة المثقفين وأهل الشعر، وشيئاً فشيئاً نشأت بين العرب لغة عربية مشتركة واحدة مفهومة بني مبينة لهم جميعاً، وذلك هو اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن ووصل به إلى ذروته بلاغة وسهولة وضبطاً. وذلك فضل كبير لقريش، وهو كان أول سبب من أسباب قوتها حتى أصبح من أكبر عناصر قوة العرب. فقد قربت اللغة المشتركة بين أفهامهم وأذواقهم، وإذا كانت تميم مثلاً تتحدث لهجتها في منازلها فإن شعراء تميم ما كانوا لينظموا إلا في لهجة قريش، والتميميون أنفسهم ما كانوا يتفاهمون مع غيرهم من قبائل العرب إلا بلغة قريش، تلك الفصحى المسنة. ويكفي أن نلفت النظر هنا إلى مراثي الخنساء بنت عمرو بن الشريد في أخويها، فقد كانت المراثي تلقى بلغة قريش في عكاظ، ومن هنا تنتقل إلى نواحي الجزيرة العربية حيث يتناشدها الناس ويفهمها منهم من يستطيع هذا الفهم ويحاوله من لا يستطيعه وفي النهاية أصبح العرب جميعاً يفهمون لهجة واحدة من العربية وإن تكلموا بلهجات شتى، ثم جاء القرآن

الكريم ونزل بلغة قريش فأصبحت لغة العرب جميعاً.

* * *

وكان لقريش كذلك فضل عظيم في إنشاء الكتابة العربية. لقد كان القرشيون بطبيعة معاملاتهم المالية والتجارية من أحوج الناس إلى الكتابة وأصل الكتابة العربية نبطي، أي أن قريشاً ـ أو غيرها من القبائل العربية التي احتاجت إلى كتابة شيء ـ كتبت ما تريد كتابته بحروف نبطية وبالفعل لدينا نقش كتابة يعرف بنقش وادي المكتب في سيناء وتاريخه سنة ٢١٠ ميلادية، وفي هذا النص نقرأ ألفاظاً عربية صريحة والنص كله مكتوب بحروف نبطية قريبة بعض الشيء من حروف اللغة العربية، وبعد ذلك اكتشف الباحثون نصاً آخر في وادي تيران في برية سيناء أيضاً، ثم اكتشف نقش النمارة في إقليم حوران، وتاريخه سنة ٣٢٨ ميلادية ومعظمه ألفاظ عربية مكتوبة بحروف نبطية معدلة وقريبة من حروف لغتنا العربية ثم نجد بعد ذلك نقشاً عظيم الأهمية في قرية زَبَد قرب قنسرين إلى جنوبي حلب، وتاريخه سنة ٥١١ ميلادية وحروفه عربية وقريبة من الخط الكوفي بالفعل، ثم يجيء النقش المعروف بنقش القاهرة لأنه محفوظ في متحف الفن الإسلامي فيها وتاريخه سنة ٦٥٥ ميلادية وهو أول نص عربي متميز بشخصيته وجدناه، وأخيراً تجيء نقوش جبل سلع في المدينة وهي مكتوبة بحروف عربية كوفية واضحة قد كشفها محمد حميد الله، وهكذا نرى أن الكتابة العربية التي نبعت في الأصل من النبطية تطورت شيئاً فشيئاً حتى وقفت على بداية الكتابة العربية في الحجاز.

ولا شك في أن الجاحظ أخطأ حين قال إن الذين كانوا يعرفون الكتابة من العرب قبل الإسلام لم يزد عددهم على عشرة أو عشرين، وكذلك لم يوفق ابن عبد ربه عندما قال في «العقد» إن العرب كانوا في الجاهلية يستعملون الحصا في العد، لأنهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون فكانوا يحسبون الأعداد

بالحصا أي قطع الحجر الصغيرة، فهذا كلام يقال في مجال تفسير لفظ «الأميين» الوارد في القرآن بمعنى من لا يكتبون ولا يقرأون فحسب، واللفظ يحمل هذا المعنى، ولكن له معاني أخرى. والعرب الذين كانوا يقومون بعمليات تجارية تقدر بآلاف الدنانير لا يمكن أن يكون قصارى معرفتهم بالحساب هو استعمال الحصا كما يعد البعض الأرقام على أصابعه، والحقيقة أنه كان في العرب كثيرون يقرأون ويكتبون ويحسبون. والحق أن معاني كلمة «أمي وأميون» في حاجة إلى مزيد من البحث، وإلا فكيف نفسر قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وإن هم إلا يظنون، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون﴾(البقرة ٢ /٧٨ - ٧٩)، فمن الواضح هنا أن تفسير الأميين بأنهم هم الذين لا يقرأون ولا يكتبون لا يعين كثيراً على تفسير هاتين الآيتين تفسيراً تطمئن إليه النفس، ولا يكون المراد بلفظ «أمي» من لا يقرأ ولا يكتب فحسب إلا فيما يتصل برسول الله ﷺ.

فإذا كانت بين العرب قبيل الإسلام جماعة تحتاج فعلاً إلى القراءة والكتابة فهي قريش بسبب اتساع أعمالها التجارية وعلاقاتها ونشاطها المتعدد النواحي الذي ذكرناه، وحتى فيما يتعلق بالناحية الأدبية، فإن لفظ المعلقات مهما كان تفسيره ومعناه، فهو يدل على أنه كانت هناك قصائد تكتب وتعلق ولن ندخل هنا في الإجابة على أسئلة مثل: تكتب على ماذا؟ وتعلق أين؟ لأن المهم عندنا الآن أن هناك شعراً كان يكتب ويعلق، وما دام يكتب ويعلق فلا بد أنه كان هناك من يكتبه ومن يقرأه، ولا بد أن القراء كانوا كثيرين وإلا فلماذا تعلق؟ وكيف يقول الجاحظ مع هذا إن عدد من يقرأ ويكتب من العرب قبل الإسلام لا يزيد على عشرة أو عشرين، وكيف يستقيم هذا وأول آيات أوحيت لرسول الله ﷺ لتكون فتحاً لباب الدعوة للدين الجديد واستلفاتاً لأسماع الناس تقول: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق،

اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾. . .

كانت قريش إذن قبيلة فريدة في بابها بين القبائل التي نعرفها في التاريخ، فهي جماعة قبلية مدنية في آن معاً، وهي جماعة سياسية متماسكة نشيطة متفتحة الذهن واعية لنفسها مدركة لما تريد وما لا تريد، وهي ـ اجتماعياً وسياسياً ـ مكونة تكويناً قوياً متيناً، ورجالها يعرف بعضهم بعضاً بقدرته ومكانته وخصاله وهي منظمة تنظيماً اجتماعياً وسياسياً واضح السمات والخطوط، وهي قبيلة غنية تولى أمرها قبيل الإسلام رجال أعمال ذوو إدراك وفهم وإحساس واضح بمصالحهم وتمسك شديد بها، وهي واسعة الاتصال بالدنيا من حولها، سواء في جزيرة العرب أم خارجها، ورؤساؤها يعرفون كيف يسوسون أمورهم، وأفرادها محترمون لهم أقدار محفوظة، يشترك في هذا صغيرهم وكبيرهم وهم ماديون أنانيون يغلب عليهم حب المال، وهم في معاملاتهم المالية لا يعرفون رحمة ولا إنسانية، وهذا هو جانب الضعف الأكبر الذي جعل المجتمع المكي يتدهور تدهوراً خطيراً قبيل انبلاج نور الإسلام وهو أيضاً جانب من جوانب القوة والتماسك، ولا يعرف التاريخ قبيلة ذات ثروة ومال ومعاملات وحسابات إلا قريش.

قريش ودورها في النهوض:

هذا ما كان من أمر اسواق الحجاز ودورها في تطوير اللغة العربية، فما الذي حدث لقريش عندما جاء الإسلام؟

الذي حدث أن عوامل قوة قريش نفعت القرشيين كأفراد ولكنها لم تنفعهم كقبيلة لقد نجح القرشيون كأفراد في قيادة الجماعة الوثنية، ولكن الصدام بين قريش والإسلام حطم عناد قريش ولكنه لم يحطم قوتها القبلية ولا اعتزاز أهلها بأنفسهم ومن أكبر أسباب تحطمها صلابة ومتانة تكوينها، فلكي ينتصر الاسلام كان لا بد من تحطيم عصبية قريش مع الابقاء على شخصية

القبيلة أو عـزة أفرادهـا. وليس من الصحيح أن محمـداً ﷺ قصـد الى تحـطيم قريش بل العكس هو الصحيح، فقد اجتهد في الحفاظ عليها، وقد كان يتمنى لو دخلت الاسلام كتلة واحدة، ولكن القبيلة كـانت صلبة التكـوين جداً، وفي تصادمها مع الاسلام تحطمت وانتثرت بيوتاً وأفراداً.

وقبل أن نختتم الكلام على الفترة الأولى من الفترة المكية وندخل في الكلام على الثانية لا بد من وقفة عند دار الأرقم التي انتهت بها تلك الفترة الأولى لنرى أثرها في تطور الجماعة الاسلامية وعلاقتها بكفار قريش.

فـترة دَارالأرقَـم :

ندر من بين مؤرخينا الأوائل من تنبه الى أهمية الفترة التي قضاها رسول اللّه ﷺ في دار الأرقم مع عظيم أهميتها في تكوين الجماعة الاسلامية الأولى في مكة. وهذه النواة ظلت على طول القرن الهجري الأول عماد الدعوة وقيادتها الدينية. والسبب هو أن أصحاب السير يكتبون السيـرة على أسـاس ما كـان من نصر الاسلام الحاسم عندما انتقلت الجماعة الاسلامية الى المدينة واتخذتها قاعدة لأمة الاسلام ومجتمعها ونظامها ونشاطها وجهادها، وتندفع صاعدة في معارج القوة والنصر، ولهذا تصغر في نظرهم تفاصيل جهاد الرسول الأولى وما أبدى من ذكاء وحسن تصرف حتى ينشيء النواة الأولى من المؤمنين.

وأسباب تفكير رسول الله ﷺ في دخول دار الأرقم ترجع الى أن الـدعوة الاسلامية لقيت لأول علم الناس بها نجـاحاً عـظيماً اذا عـرفنا أن الـداعين الى الاسلام لم يزيدوا على أفراد قلائل من المؤمنين أكبرهم أبو بكـر الصديق الـذي وهبه الله ايمانـاً عميقاً شـاملاً بـرسول الله ورسـالته، وكـان الرجـل اذ ذاك في الأربعين من عمره أو دوينها، وكان نشيطاً ذكياً واسع العلاقـات بقريش محبـوباً من جماعتها، وكان ـ مثله في ذلك مثل رسول الله ﷺ تـاجراً أميـناً مأمـوناً يحبـه

الناس ويثقون في سلامة نفسه وسريرته. هذا الى أن رسول الله ﷺ كان موضع محبة وثقة واحترام من أهل مكة كلها، وعلى أساس من هـذه الثقة فيـه وأسلوبه الرقيق في الدعوة دخل في الدعوة رجـال من جلة القوم من أمثـال أبي سلمة بن عبد الأسد (مخزوم) وأبي عبيدة عـامر بن عبـدالله بن الجراح (الحـارث بن فهر) وعبيـدة بن الحارث بن المـطلب ابن عبد منـاف، وسعيد بن عمـرو بن زيد بن نفيل (عدي بن كعب بن لؤي) ومن في طبقتهم.

وخلال السنة الأولى للبعثة اجتمع حول رسول الله ﷺ من المؤمنين ما لا يـقـل عن خمـسـين أو ستـين رجـلاً وامـرأة مـن أهـل مكـة، وكـانـوا يلقون رسول اللّه عند المسجد أو في بيته أو خارج مكة، ولدينا أخبار تدل على أن رسول الله كان يلقى بعض أصحابه أحياناً عند غار حراء، فقد كان يلم به أحياناً أثناء تجواله خارج مكة حيث يشعر أنه بعيد عن أعين الكارهين لدعوته. وهنا ينفرد أبو الفتح محمد بن سيد الناس في «عيون الأثر» بتفصيل عظيم القيمة فيما يتعلق باسلام عبدالله بن مسعود المعـروف بابن أم عبـد. وخبر اسـلام هذا الرجل ـ وكان شاباً راعي غنم لأم عبد عندما دخل الاسلام ـ وارد عند قدماء رواتنا، ولكن ابن سيذ الناس يقول ـ راويا عن عبد الله بن مسعود ـ «فبينا نحن عنده على حراء اذ نزلت عليه سورة المرسلات. فأخذتها وانها لرطبة بفيه، أو إن فاه لزطب بها، فلا أدري بأي الآيتين ختم﴿واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾أو ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾(الآيتان ٤٨ و٥٠ من سورة المرسلات وهي السابعة والسبعون)... ثم يقول ابن مسعود: فبينا نحن نيام على حراء أو على الجبل، فما نبهنا الا صوت النبي ﷺ (يقول): منعها منكم الذي منعكم منها! قلت يـا رسول الله ومـاذاك؟ قال: حية خرجت من ناحية الجبل[١] وهذه صورة أخاذة تعطينا مثالاً من حياة الجماعة الاسلامية الأولى خلال فترة ميلاد الأمة الاسلامية قبل دخول دار الأرقم.

وشاب مثل عبدالله بن مسعود دخل الدعوة وهو خارج مكة، وكان يرعى

الغنم لسيدة مكية. ولو كان بداخلها لما استمتع بتلك الحرية التي نراه عليها بعد أن آمن، ومثله في ذلك مثل الكثيرين من الضعفاء الذين دخلوا الدعوة خفية عن سادتهم أو أقاربهم من كبار المكيين. ومع أن هؤلاء المكيين لم يكونوا قد اتخذوا بعد موقف العداء من الدعوة الا انهم - بداهة - لم يكونوا ليرضون أن يدخل اتباعهم أو أولادهم في تلك الدعوة الناشئة.

ومحمدﷺ كان رجلاً مفكراً واسع الذكاء، ولم يكن يرضيه أن تسير الدعوة على هذا النحو، فهو يريد لأصحابه أن يكونوا أحراراً من الخوف أو الحرج سواء في دخولهم الاسلام أم اجتماعهم برسولهم، خاصة وأن المكيين كانوا يتجمعون معظم الوقت في فناء الكعبة يتسامرون ويتحادثون ويضايقهم أن يروا محمداً ﷺ جالساً ناحية ومن حوله أصحابه، وهو يقرأ عليهم القرآن ويملي آياته عليهم ويشرحها لهم، وكانت الصلاة اذ ذاك صلاتين: صلاة الفجر (دلوك الشمس) وغروبها (غسق الليل)، فاذا جاء وقت صلاة المغرب اصطف المؤمنون حول رسول الله، فصلى وكان هذا اثقل شيء على نفوس المكيين. فكانوا احياناً يتفوهون بما لا يليق، واحياناً يحاول بعض سفهائهم تقليد الرسول في كلامه تقليداً مشوهاً. وقد بينا في الفقرة السابقة أن تصدي القرشيين للمسلمين بالأذى وانكارهم على رسول الله ما كان يقول لم يبدأ الا عندما ذكر آباءهم وسفه أحلامهم، بل المعارضة بدأت قبل ذلك. فان الجماعة المكية كانت بدناً اجتماعياً وفنياً جاهلياً متماسكاً، وهذه الجماعة الجديدة التي التفت حول رسول الله كانت جسداً غريباً يريد أن يعيش داخل البدن القرشي المكي، فكان لا بد أن يواجه ظاهرة الطرد الاجتماعي Social rejection وهي عملية متبادلة، ان الجسد الكبير يتحرك من تلقاء نفسه للتخلص من الجسم الغريب، وفي نفس

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس، طبعة القدسي بالقاهرة منقولة كما هي بالتصوير ومنسوبة الى ما يسمى بدار الجيل في بيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٤ جـ ١ ص ٩٨.

الوقت يحاول الجسم الدخيل أن يتخلص من الجسد الكبير، ونحن اذا زرعنا كلية خارجية بدل كلية تالفة في جسم، فان الجسم يبدأ في الحال في طرد الكلية الجديدة ـ وفيها نجاته ـ وفي نفس الوقت تبدأ الكلية المزروعة في طرد الجسم الكبير نفسه. وهذا يفسر لنا بعض أسباب نفور المكيين من الجماعة الاسلامية الأولى وتفكير رسول الله ﷺ في تأمين جماعته من عوامل الطرد المتبادل هذه.

وعندما اسلم الأرقم بن أبي الأرقم واسمه عبد مناف بن أسد بن عبدالله ابن عمر بن مخزوم بدأت فكرة اختيار مكان مقفل آمن يكون مركزاً للدعوة ومأمناً للداخلين فيها. فيها يجتمعون بنبيهم ويقرأون القرآن دون حرج. ولم يكن الأرقم ابن أبي الأرقم موسراً، ولكنه كان يعيش مع أبيه الأرقم في بيت كبير على الطريق بين الصفا والمروة، ولم يكن في البيت الا الأرقم وأبوه، وأبوه هذا شيخ ضرير، والأرقم الابن متحمس للدعوة يريد أن يقدم لها شيئاً، ولا ندري كيف تم الاتفاق بينه وبين رسول الله على أن تكون داره الموضع المختار للجماعة.

وعلى أي حال فقد دخل رسول الله دار الأرقم في أواخر السنة الثانية للبعثة، وهناك وجد الرسول وصحابته حريتهم التي يتوقون اليها. ومن الواضح ـ عن تفاصيل اسلام عمر بن الخطاب أن رسول الله كان يقضي هناك معظم ساعات النهار، فقد تكاثر المقبلون على الدعوة بعد أن وجدت مأمنها، وأصبحت الجماعة تستريح إلى التجمع في تلك الدار حيث يلقون رسولهم ويسمعون منه القرآن أو يكتبون آياته ويستمعون الى تفسير الرسول لها في جلسات حرة آمنة في دار واسعة شبه خالية من السكان.

هنا دخلت الاسلام جماعات بعد جماعات. وتحدثنا النصوص عمن أسلموا بعد «دخول الرسول دار الأرقم ودعائه بها» بحسب تعبير ابن سعد الذي يتردد في سير الكثيرين من أوائل المسلمين. وهنا في هذه الدار أتى أبو بكر الرسول بنفر من أعاظم أفراد الجماعةفيهم سعد بن أبي وقاص وعثمان بن مظعون وخباب بن الأرت بن جندلة وأصله من بلاد ما وراء النهر وهو اذ ذاك مولى لبني زيد مناة بن

تميم الخزاعيين. وعمير بن أبي وقاص أخو سعد وعياش بن أبي ربيعة (مخزوم) والزبير ابن العوام بن خويلد (عبد العزى بن قصي) وعبد الرحمن بن عوف (زهرة بن كلاب) وغيرهم من قدماء المسلمين أعمدة الاسلام الأولى.

في هذه الدار نمت الجماعة الاسلامية الأولى نمواً عظيماً، وقارب عددها الثلاثمائة، ومع نمو حجمها ازداد شعور أفرادها بالقوة والعزة وزادت جرأتها على المشركين، فكان لا بد أن يتزايد رد فعل المكيين، فبدأوا في اضطهاد من قدروا على اضطهاده من المسلمين، وساورتهم الشكوك في أمر هذه الجماعة. فبدأوا يحومون حولها ليتعرفوا أخبارها.

وعندما نقرأ في خبر إسلام حمزة بن عبد المطلب أن «أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ وجارية لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك. . .» الى آخر الخبر. ينبغي أن نفهم من ذلك أن أبا جهل كان يترصد محمداً ﷺ على الطريق الى دار الأرقم وقلبه يغلي بالكراهة والحقد، وحفزه حقداً على أن يمضي يتجسس أخبار الجماعة، فلما بصر بمحمد انفجر مرجل حقده وخرج عن طوره فقال ما قال. ثم مضى أبو جهل إلى مجلس قريش عند الكعبة وملك رسول الله زمام نفسه فلم يرد على أبي جهل بكلمة ومضى الى دار الأرقم في الغالب.

وبلغ الخبر حمزة على ما نعرف فأخذته الحمية لابن أخيه، فمضى الى حيث كان أبو جهل في مجلس قريش فضربه بالقوس على رأسه فشجه وقال: «أتشتمه! فأنا على دينه أقول ما يقول فردّ ذلك ان استطعت» وتدخل بينهما نفر من القرشيين واعترف أبو جهل انه تعدى على رسول الله وسبه سباً قبيحاً. ومضى حمزة الى دار الأرقم فتم اسلامه.

كان هذا في نهاية العام الأول لدار الأرقم، الثالث للبعثة وشعر المسلمون بعد انضمام حمزة اليهم انهم يستطيعون الآن مغادرة دار الأرقم والتجمع عند الكعبة دون حرج، وكان صاحب الفكرة هو أبو جهل، فخرج المسلمون في شبه مظاهرة اسلامية وانتهوا الى مجلس قريش فكبروا وهللوا واخذوا ينشدون القرآن، فثارت ثورة المكيين فنهضوا للرد على تلك الجماعة، ووقع شجار عنيف وأحاط المسلمون برسول الله ﷺ وأخذوه الى داره، أما أبو بكر فقد احتمل الصدمة وبرك عليه نفر من المشركين وضربوه ضرباً شديداً حتى فقد الوعي، وأسرعت أم جميل فاطمة زوج سعيد بن زيد بن نفيل تداويه حتى عاد الى نفسه، فكان أول ما سأل: كيف حال رسول الله ﷺ. فطمأنته بأنه بخير، فلم يكد يستطيع المشي حتى مضى الى رسول الله ﷺ في داره.

وهكذا فشلت المحاولة الأولى للخروج من دار الأرقم. وعاد المسلمون الى ما كانوا عليه من الاجتماع في دار الأرقم حول رسول الله. ووجد رسول الله أن ينصح المستضعفين من أصحابه بالهجرة الى أرض الحبشة فبدأت الهجرة الى هناك، وكانت على دفعتين كبيرتين، ولكن تيار الهجرة كان مستمراً من ذلك الحين حتى هجرة الرسول الى المدينة.

واستمر الرسول وأصحابه يجتمعون في دار الأرقم بعد ذلك نحو سنتين، وكان الشيخ أبو الأرقم قد ضاق ذرعا بجماعة المسلمين التي كانت تملأ داره، وكان هو مشركاً لا يطيق سماع القرآن أو أحاديث المسلمين.

وفي حديث اسلام عمر بن الخطاب في آخر السنة الخامسة للهجرة ـ بخلاف ما يقوله بعض الرواة من أنه اسلم في السنة الثالثة للهجرة ـ معلومات طيبة عن دار الأرقم وحياة المسلمين فيها، فإنه لما بلغه اسلام اخته فاطمة وهي زوجة سعيد بن زيد بن نفيل اتجه الى بيتها فوجدها هناك تقرأ القرآن فشتمها وضربها حتى جرحها وسال دمها فطفقت تبكي، فرق لأخته، وطلب منها أن

تناوله الصحيفة التي كانت تقرأ فيها مع خباب بن الأرت، فطلبت اليه أن يغتسل ففعل ووعدها بألا يمسها بسوء، فلما جلس يطالع ما فيها وهدأت نفسه أخذ القرآن بمجامع نفسه، وكانت الآيات التي قرأها على بعض الآراء، أول سورة طه، وسورة الحشر على بعض الآراء الأخرى، وهنا تحرك قلب عمر ومالت نفسه للاسلام وخاصة عندما قالت له أخته فاطمة ان رسول الله ﷺ كان يدعو بأن يعز الاسلام بأحد العمرين: أبي الحكم عمرو بن هشام (أبي جهل) وعمر بن الخطاب، فسأل اين يكون محمد ليذهب اليه ويسلم، قالت هو في بيت في أسفل الصفا ـ تريد دار الأرقم ـ ووصفوه لـه فاتجـه اليه ودق البـاب، ونظر بعض المجتمعين هناك وقالوا لرسول الله إنه عمر بن الخطاب، ولم يكن رسول الله قد عرف أنه جاء ليسلم، فأمر أصحابه أن يفتحوا له، فدخل، وكان في الدار (على قول ابن اسحاق، ابن هشام ١ /٣٦٨) ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنهم ممن أقام مع رسول الله بمكة ولم يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة، فقال حمزة بن عبد المطلب، فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ ائـذن له، فـأذن له الرجل، وقام اليـه رسول الله ﷺ حتى لقيـه في الحجرة، فـأخذ بحجـزته أو بمجمع ردائه، ثم جبـذه جبذة شـديدة، وقـال: ما جـاء بك يـا ابن الخطاب، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة، قـال عمر: يـا رسول الله، جئت لأومن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله فكبر رسول الله تكبـيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد اسلم وقد عزوا في أنفسـهم باسلام عمر.

وفي رواية ابن كثير ان عمر عندمـا اسلم بعد حمـزة كلم رسول الله في الخروج من دار الأرقم، فلم يعد الاجتمـاع فيها ضـرورة، وقد عـزت الآن وقويت، ثم إن الشيخ أبو الأرقم أساء الى المسلمين مرة وغص بهم وطلب اليهم

أن يخرجوا من بيته ولعن ابنه، فخرج المسلمون جملة واحدة يتقدمهم رسول الله وأبو بكر وعمر واتجهوا الى الكعبة وأخذوا مكانهم عندها فلم يجرؤ المشركون على التعرض لهم، وقد كثروا وعزوا ولم يعودوا يخشون المشركين. وهنا تنتهي فترة دار الأرقم التي كانت ذات أثر حاسم في تأسيس نواة أمة الاسلام في المدينة. وبعد خروج المسلمين من دار الأرقم بدأت الفترة الثانية في الحقبة المكية التي ستستمر حتى وفاة خديجة رضي الله عنها وأبي طالب ثم الخروج الى الطائف. وبعودة الرسول ﷺ الى مكة تبدأ الفترة المكية الثالثة من سنة ١٠ الى سنة ١٣ هـ.

الفترة المكية الثانية :

الصراع بين الاسلام وقريش حتى موت السيدة خديجة أم المؤمنين وأبي وأبي طالب:

لدينا فيما يتصل بتطور العلاقات بين قريش والاسلام بضعة أخبار أو فقرات على أعظم جانب من الأهمية توضح لنا تطور موقف قريش، لأن مواجهة قريش للاسلام لم تأخذ من أول الأمر شكلاً واحداً جامداً، بل تغير هذا الموقف وتطور تطوراً منطقياً تمشى مع اتساع نطاق الدعوة.أفقياً ورأسياً. أي اتساع مداها من حيث الانتشار وامتداد عمقها من حيث تكامل جوانبها.

والخبر الأول يرويه ابن سعد في طبقاته عن الزهري يقول: «دعا رسول الله ﷺ الى الاسلام سراً وجهراً، فاستجاب لله تعالى من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن بالله، وكفار قريش غير منكرين لما يقول، فكانوا اذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون اليه: ان غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء، فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فعند ذلك عادوا رسول الله ﷺ وناكروه وأجمعوا خلافه[1]..

(١) الطبقات لابن سعد: ١/١٣٣. النويري ١٦/١٩٦.

ومعنى ذلك أن القرشيين لم ينكروا دعوة رسول الله أول ما علموا بأمرها، فكانت في نظرهم شيئاً غريباً. فهذا رجل يقول ان السماء تكلمه. وهو أمر غير مفهوم عندهم ولا هو يهمهم، فتركوه يدعو. ولم يحفلوا لانضمام بعضهم اليه، واستمر عدم الاكتراث هذا حتى نزلت الآيات التي تنقد أخلاقهم ومسالكهم في الحياة وتعيب آلهتهم وتمس آباءهم فأنكروا عليه وبدأوا يتحركون لمعارضته.

والخبر الثاني يرويه ابن اسحاق، وهو يقول: «فلما نادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون».

«وحدب على رسول الله عمه أبو طالب، ومنعه وقام دونه ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله، مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعْتِبُهُمْ من شيء أنكروا عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب: عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر[1]».

وهذا الخبر نستنتج منه النتائج التالية المتعلقة بموقف قريش من الإسلام:

١ - أن قريشاً لم تنفر من دعوة الإسلام طالما كانت دعوة دينية خالصة لا تمس مصالح القرشيين، فقد كان القرشيون لا يعنيهم من أمر الدين عامة إلا ما مس مصالحهم، والدين عندهم كان مصلحة وجزءا من أعمالهم

(١) رواه الطبري جـ ٢ / ٣٢٣.

الكثيرة التي تدر عليهم المال وتقوي مركزهم السياسي في جزيرة العرب، فهم لم يكن يعنيهم أن يكون الإنسان على مذهبهم في الوثنية أو كان نصرانياً أو يهودياً ما دام ذلك لا يضر بمصالحهم المادية الملموسة المباشرة.

٢ - ولكن محمداً ﷺ عندما ذكر آلهتهم وعابها، وعندما نزلت آيات القرآن تبين فساد رأي القرشيين وسوء رأيهم وهباء ديانتهم وانحطاطها وسخفها تحركوا للدفاع عن ديانتهم وآلهتهم لأنها جزء من رأس مالهم وعماد من أعمدة قوتهم.

٣ - ويستثنى من ذلك من عصم الله منهم بالإسلام، أي من دخل فيه، وهم قليلون، وجدير بالذكر هنا أننا نريد بقريش رياستهم وأصحاب الرأي فيهم وزعماء بيوتهم وهؤلاء لم يدخل منهم في الإسلام أحد، ولا يستغرب هذا على من يعرف طبيعة رؤساء القرشيين كما وصفناهم واتجاهات فكرهم أو ما كان يعنيهم وما كان لا يعنيهم.

ولنأخذ مثالاً لذلك أبا الحكم عمرو بن هشام، وهو أبو جهل فهذا الرجل كان يمثل الكهول من سادة القرشيين بعد جيل الشيوخ من أمثال الوليد ابن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبي أحيحة العاصي بن سعيد بن العاص. وأبو جهل كما يفهم من كلام محمد بن حبيب النسابة في المحبر كان فعلاً من سادات قريش، كان كريماً وسيداً كبيراً، ولولا ذلك لما تمنى رسول الله أن يفتح الله قلبه للإسلام، فقد أثر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين»، والأول منهما هو ابن الخطاب أما الثاني فأبو الحكم عمرو بن هشام وقد كان أبو جهل لا يحب محمداً وينفر من دعوته ولكنه في عدائه له لم يَتَدَنَّ قط إلى مثل ما كان يتدنى إليه رجال مثل عُقبة بن أبي معيط والأسود بن عبد يغوث وإنما كان خصماً صريحاً، لقد كان فيه حمق وحدة ولكن ذلك لا يمنع من القول بأنه كان سيداً شريفاً، وأنه كان إذا تروى في أمر نفسه اعترف

بخطئه، ودليلنا على ذلك أنه بعد أن تجرأ بالعدوان على رسول الله عندما لقيه على الصفا في الطريق إلى دار الأرقم مما أدى إلى إسلام حمزة وذهاب حمزة إلى أبي جهل - قال محمد بن إسحاق: «فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه به فشجه شجة منكرة ثم قال: أتشتمه؟ فأنا على دينه أقول ما يقول، فرُدَّ علي ذلك إن استطعت»، فقام رجال بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: «دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبّاً قبيحاً» وهذا كلام رجل يأسف على ما بدر منه ويعتذر عنه.

أما لماذا وقف أبو جهل من الإسلام هذا الموقف فلأن أبا جهل كان يمثل المجتمع الجاهلي الذي حكم القرآن بفساده، ودعا إلى تغييره، ومهما كان من مساوىء هذا النظام فقد كان أبو جهل من عمده وكان من أكبر المفيدين منه، وما دام الله يفتح عليه أو يُنِرْ بصيرته فقد ظل يؤمن بأن نظامه الجاهلي خير نظام، ولماذا يتخلى عنه وهو أساس قوته وغناه وماذا يبقى له إذا هو أسلم وتخلى عن جاهه وثروته ومكانته وجالس أمثال عبدالله بن مسعود وبلال بن رباح وخباب بن الأرَتّ وعمار بن ياسر؟

٤ - ولكن أبا طالب عم رسول الله ﷺ وقف إلى جانبه وأيده. وأبو طالب لم يفعل ذلك عن إيمان بالإسلام أو فهم له، ولكنه تولى حماية محمد ﷺ بدافع العصبية، فهو رأس بني هاشم ومحمد من بني هاشم، ويستبعد أن يكون أبو طالب قد تنبأ بانتصار الإسلام، ولكن المؤكد أن دعوة محمد قد أعجبته من حيث إنها دعوة تولاها هاشمي هو ابن أخيه، فهي مهما كانت حقيقتها ترفع من شأن بني هاشم وتقويهم في صراعهم الذي ذكرناه مع خصومهم من القرشيين وإذا كان أبو جهل قد ظل عمره كله لا يرى في دعوة محمد إلا دعوة هاشمية قبلية، فإن أبا طالب لم يبعد عن ذلك كثيراً وإن اختلفت النظرة باختلاف الموقف الذي ينظر منه صاحبه، ثم إن

أبا طالب رغم كراهته لرؤساء مكة الجدد. كان جزءاً من التنظيم الجاهلي لقريش ومكة، فهو من سادات قريش، وهو رئيس بيت بني هاشم، وهو صاحب الرفادة والسقاية أي المتولي شئون الدين وهو غير مستعد للتخلي عن شيء من ذلك في سبيل دعوة لم يرزقه الله الفهم لها ولا البصيرة لأدراك غاياتها.

٥ ـ فلما رأى رؤساء قريش أن محمداً مستمر في دعوته وأنه لا يكترث بموقفهم منها، ساروا إلى عمه أبي طالب.

أما الخبر الثالث فيرويه الطبري، وهو خبر حافل بالمعاني والحقائق لمن يريد أن يفهم نظام قريش، ومن يريد أن يفهم الفترة المكية من السيرة النبوية الشريفة، قال الطبري راوياً عن «هشام بن عروة عن عروة (ابن الزبير) أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان[1]:

١ ـ أما بعد، فإنه ـ يعني رسول الله ﷺ ـ لما دعا قومه إلى ما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه لم يبعدوا عنه أول ما دعاهم وكادوا يسمعون له.

٢ ـ حتى ذكر طواغيتهم.

٣ ـ وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه.

٤ ـ واشتدوا عليه وكرهوا ما قال.

٥ ـ وأغروا به من أطاعهم.

٦ ـ فانصفق عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل.

٧ ـ فمكث كذلك ما قدر الله له أن يمكث.

٨ ـ ثم ائتمرت به رؤوسهم أن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم.

---

(١) سأقسم العبارة إلى فقرات حتى يسهل علينا تحليلها والخروج منها بالنتائج التي تهم بحثنا هذا.

٩ ـ فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام.

١٠ ـ فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء.

١١ ـ فلما فُعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة.

١٢ ـ وكان في الحبشة رجل صالح يقال له النجاشي لا يُظْلَمُ أحدٌ بأرضه وكان يثني عليه مع ذلك بصلاح.

١٣ ـ وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش، يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً.

١٤ ـ فأمرهم رسول الله ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قُهروا بمكة وخاف عليهم الفتن.

١٥ ـ ومكث هو فلم يبرح، فمكث على ذلك سنوات.

١٦ ـ يشتدون على من أسلم منهم.

١٧ ـ ثم فشا الإسلام فيها ودخل فيه رجال من أشرافهم[1].

ففي الفقرة الأولى نرى قريشاً لم تنفر أول الأمر من دعوة الاسلام لأنها لم تر فيها خطراً على كيانها أو مساً بمصالحها وتجارتها، بل انهم ـ أي من كتلة قريش ـ كادوا يسمعون له.

وفي الفقرة الثانية نرى أن محمداً ﷺ ذكر طواغيتهم أي هاجم معبوداتهم، وبهذا يكون قد مس مصالحهم وهددها. وقد تصدى له في هذه المرحلة أنداده في السن والمركز الاجتماعي في المجتمع المكي واشتدت الخصومة بينهم من ناحية ومحمد وأتباعه من ناحية أخرى.

---

(١) الطبري، تاريخ، (المطبعة المنيرية) جـ ٢ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

وفي الفقرة الثالثة نرى تطوراً حاسماً يدخل على الموقف. فقد دخل فيه عنصر جديد وهذا العنصر يتمثل في أولئك الناس الذين قدموا من الطائف لهم أموال أنكروا عليه واشتدوا عليه وكرهوا ما قال.

واضح أن أولئك الناس يختلفون عمن كانوا يعادون رسول الله ﷺ في مكة قبل ذلك، فهؤلاء القادمون ناس لهم أموال، وكانوا في ذلك الحين في الطائف (يصطافون في الغالب). وبمجرد وصول أولئك الناس فقد دخل الصراع بين الاسلام وخصومه من القرشيين في دور جديد، فانهم أنكروا واشتدوا عليه وكرهوا ما قال. وهؤلاء الناس هم بالفعل سادة قريش الحقيقيون، والمراد بهم كبار رجال القبيلة وسادة مكة، ودليل ذلك أنه بمجرد أن أنكروا عليه وكرهوا ما قال انصفق (أي (انفضّ) عنه معظم أهل مكة لأنهم أغروا به من أطاعهم، فلا بد أن يكون أولئك الناس هم رؤساء القوم ولهذا أطاعهم الناس وتلك هي الحقيقة الرئيسية التي تهمنا هنا، فهؤلاء هم أصحاب الأموال في مدينة يحكمها المال وأهله والناس طاعة لهم، فخافهم عامة المكيين وانصفقوا عن محمد؛ إلا من حفظه الله منهم وهم قليل. ومثل تلك السيطرة التي كانت لأولئك الناس على مكة تدل على أنهم كانوا يمارسون سلطاناً منظماً على المدينة وأهلها، فإنهم بمجرد أن أغروا بمحمد ﷺ من أطاعهم انصفق عنه معظم الناس ولم يبق معه منهم إلا القليل.

وبعد ذلك بفترة ائتمروا فيما بينهم واتفقوا على أن يفتنوا عن الإسلام من تبعه من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم (الفقرة الخامسة)، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من تبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام فافتتن من افتتن وعصم الله من شاء. مما يدل على أن الإجراء الذي اتخذه أولئك الرؤساء كان إجراءً حاسماً وخطراً على جماعة الإسلام مما اضطر الرسول إلى أن يقرر إنقاذ دين من بقي على الدين بإرسالهم إلى الحبشة (الفقرة ١١) أي أن رؤساء مكة هؤلاء استطاعوا أن يخرجوا من بلدهم معظم الجماعة التي خرجت عن طاعتهم واتبعت ديناً لم يرضوا عنه دون أن يؤدي ذلك إلى انشقاق في رياسة القبيلة أي

الجماعة التي كانت تملك المال والقوة. وانصياع الناس لما يأمر به هذا النفر يدل على أنهم كانوا سلطة حاكمة فعلاً تمارس سلطاناً قوياً جداً على الناس إذا تعلق الأمر بالأموال والمصالح الرئيسية للجماعة المكية وقد رأوا بذكائهم أن دعوة محمد لم تكن بالدعوة اليسيرة التي يسهل التغلب عليها، فقد كانت دعوة رفيعة إنسانية تستهوي القلوب يؤيدها قرآن محكم إذا استمع له الإنسان تأثر به ووصل إلى أعماق نفسه ولم يملك إلا أن يقتنع به، ويتصور لنا هذا في صورة مفصلة في حديث إسلام عمر بن الخطاب، فإذا كانت هذه الرياسة قد تمكنت من أن ترغم معظم من أقنع محمد من أهلهم ورجال قبائلهم على الانصراف عن الإسلام فإن هذا دليل على أن رياسة قريش كانت رياسة فعلية، فلم يبق مع الرسول إلا القليل، وحتى هذا القليل خاف عليه رسول الله ولم يأمن عليه من البقاء في مكة، فقرر إخراجهم منها لكي يسلموا من الفتنة.

وقد أتيت بهذه الفقرة وقمت بتحليلها لكي أصور بالنص الناطق نوع السلطان الذي كان القرشيون يمارسونه على مكة، وقوة تماسكهم بعضهم مع بعض، فلم تنشق صفوفهم أمام هذه الفتنة، ولم يتزلزلوا بها وإنما الذين زلزلوا كانوا جماعة الإسلام، ولو كان السبب فيما حدث أمراً يسيراً لكان من المفهوم أن يستطيعوا التغلب عليه والمحافظة على وحدتهم أو جبهتهم ولكن السبب هنا كان قوياً جداً وهو تلك الدعوة الإسلامية الغلابة. وقد ثبتوا لها واستخدموا العنف مع أتباعها كأنهم سلطة حقيقية تستطيع أن تضغط وتعاقب وتخرج من البلد من لا تريده فيها.

وقد أتيت ببقية نص خطاب عروة إلى عبد الملك بن مروان حتى يرى القارىء كيف كانت الحبشة مجال تجارة واسعة رابحة للقرشيين. يجدون فيها رفاغاً (سعة) من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً. والحبشة كانت الميدان الذي يحصل منه القرشيون على بضائع أفريقية من زيوت وعاج وجلود وآبنوس وتوابل ورقيق، فإذا كانت تجارة مكة مع الحبشة بهذا الاتساع فكيف كانت إذن

تجارتهم مع اليمن والشام والعراق.

والآن وقبل أن نمضي في تتبع نمو الدعوة وتطور موقف قريش منها نلقي نظرة على سير الدعوة نفسها وتكوين جماعتها الأولى في هذا الدور من أدوار سيرها.

* * *

رأينا من كلام الزهري الذي رواه ابن سعد في طبقاته أن أوائل الذين دخلوا الإسلام كانوا من «أحداث الرجال وضعفاء الناس» وهذه ملاحظة لها أهميتها، فقد كان أوائل الذين آمنوا بدعوة رسول الله ﷺ يتكونون من ثلاثة أصناف من الناس:

١ ـ فهناك جماعة من يسميهم الزهري أحداث الرجال، والمراد الشباب وغالبية هؤلاء كانوا بين الخامسة أو السادسة عشرة والخامسة والعشرين (فيما عدا علي بن أبي طالب الذي كان في العاشرة عندما دخل الإسلام) ومعظم هؤلاء كانوا من أفراد بيوت مكية كريمة ولكنهم كانوا لصغر سنهم يعيشون في فراغ، لأن التقاليد المكية كانت تجعل الأهمية كلها للولد الأكبر، فهو الذي يرث أباه في المكانة ومعظم المال إذا مات، أما الابن الثاني ومن يليه فكان يعيش في سعة وفراغ معاً ومن أمثلة هؤلاء الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعمر بن الخطاب نفسه وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة عامر بن الجراح، فكل هؤلاء وغيرهم كثيرون كان لهم إخوة كبار يحجبونهم، فكان عليهم أن يعيشوا حياة فراغ، ومعظمهم كانوا ينفقون وقتهم في الصيد أو ركوب الخيل وما إلى ذلك، فلما تسامعوا بدعوة الإسلام أعجبتهم ووجدوا فيها ميداناً جديداً ينفقون فيه نشاطهم المعطل ولهذا فقد كانت الحركة الإسلامية في مجموعها حركة شباب أو حركة شابة كما نقول، ولم يكن في الجماعة الإسلامية الأولى من يكبر الرسول في السن إلا عبيدة بن الحارث بن المطلب، فكان يكبر الرسول بنحو ست سنوات. وكان من بيت المطلب حلفاء بني عبد المطلب في كل موقف.

وأما ضعفاء الناس فيراد بهم بعض الأرقاء والموالي وحلفاء بيوت قريش وهؤلاء نعرفهم جيداً، وأمثلتهم المعروفة لنا بلال بن رباح الحبشي وخباب بن الأرت وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق.

ويضاف إلى هذين الصنفين صنف الباحثين عن الحق ممن يمكن أن نسميهم الحنفاء وإن لم يكونوا جميعاً منهم وأمثلتهم عثمان بن مظعون وزيد بن نفيل، فهؤلاء كان من الطبيعي أن يجدوا في الدعوة الإسلامية طلبتهم، فما كادوا يسمعون بها حتى دخلوا فيها، وبعضهم أراد الإسراف على نفسه بالتبتل، ولكن الرسول نهاهم عن ذلك، لأن الإسلام دين اعتدال.

ونلاحظ أن معظم هؤلاء دخلوا الإسلام مع نسائهم، فزاد بذلك حجم الجماعة الإسلامية وأصبح أعضاؤها طرازاً خاصاً من أهل مكة ما بين قرشيين وغير قرشيين. وفي جماعتهم الجديدة أو حركتهم الجديدة تميزوا بالابتعاد عن الأوثان والتزام الطهارة والصدق والأخوة ومكارم الأخلاق، وكل هذه أشياء كانت لا تعجب المكيين وبدت لهم غريبة غير مستحبة خاصة وأنهم كانوا من كل بيوت قريش، فما بقي منها بيت إلا وفيه من دخل في دعوة محمد وانفصل روحياً على الأقل - عن قومه وأصبح غريباً بينهم ينظر في إنكار لكل ما كانوا يعيشون عليه وبه، وهذا أيضاً كان يثير غضب المكيين، فلم يكن من المريح لأي قرشي وثني أن يرى ابنه (أو ابنته) يتجه اتجاهاً جديداً في حياته ويباين قومه ويألف أصحابه الجدد ويجالسهم ويتبع محمداً.

وهذا بالذات كان يغيظ المكيين وخاصة أنداد محمد في السن والمكانة فهؤلاء كان من الطبيعي أن يكونوا اشد الناس انكاراً له. فهذا ابن عم لهم كان واحداً منهم وقريناً لهم وصاحباً إلى الأمس فما باله يزعم اليوم أن الله اصطفاه واختاره لرسالة تجعله - على الأقل - طرازاً من الناس يختلف عنهم، إن لم يحسوا أنه يرى نفسه أحسن منهم، فهو لا يشاركهم أسلوب حياتهم أو لهوهم

وينأى بنفسه عنهم، ويجمع حوله طائفة من الشبان والضعفاء والحلفاء والغرباء، وقد تصوروا لجهلهم بالدعوة ورفضهم أن يصغوا لها أنه يطلب بذلك مكانة أعلى من مكانتهم ولهذا فقد كان إنكارهم له عداوة في حين أن ذوي الأسنان من القرشيين من أمثال الوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة ابني ربيعة وأمية بن خلف كانوا أكبر من محمد سناً فهم ليسوا جلساءه ولا أنداده.

ولا يتسع المقام هنا لإحصاء من دخلوا الدعوة ومن عادوها في دورها الأول هذا فالأولون قريبون من الستين أو السبعين رجلاً وامرأة، وبيانهم نجده ـ مثلاً ـ عند النويري في نهاية الأرب (١٦/ ١٨٧ وما بعدها) وقد ذكرت هذا المرجع المتأخر ـ زماناً ـ لأنه جماع يحصي ما وجده في الكتب الأولى والتي كتبت بعدها، ومع أننا لا نثق في أمثال هذه البيانات لأن المسلمين غيروا وبدلوا في أسماء هؤلاء المسلمين الأول التماساً للمكانة والجاه عند الناس، ولكنك إذا تأملت البيان وجدت أنهم يمثلون كل بيوت قريش، فليس هناك بيت من قريش البطاح أو قريش الظواهر إلا وكان منه مسلمون، فكأن الإسلام لم يغادر بيتاً من بيوت المكيين إلا دخله، مما يدل على أن الدعوة وجدت قبولاً كبيراً عند الناس، ولم يكن على أحد ضير في ذلك، فهي دعوة نبيلة يفوز الإنسان منها بخير كثير دون أن يتعرض لأي ضرر، ومن كبريات ميزاتها إذ ذاك أنها تجعل للإنسان مكاناً في جماعة خيرة طاهرة تلتف حول نبي كريم كله فضل وخير ومحبة وحنو على البشر أجمعين وخاصة من استجاب لدعوته. وفي مجتمع مادي تغلب عليه الأنانية مثل المجتمع المكي الذي وصفناه كان الدخول في الإسلام يرفع الإنسان في نظر نفسه درجات ويشعره بشخصيته وقيمته ويربطه بخالق الكون سبحانه ويجعله من قراء القرآن وكلامه عذب جميل ومعانيه رفيعة فوق مستوى ما عرفه الناس بكثير، أي أن الدخول في الإسلام كان دخولاً إلى عالم جديد أو قل هو هجرة إلى دنيا جديدة. هجرة إلى الله ورسوله وهذا هو سر حماس المسلمين الأول لما دخلوا فيه وتمسكهم واعتزازهم به.

ولم يكن الإسلام قد سمي باسمه بعد، فكان الناس يدخلون في دعوة محمد أو في دين محمد، أو يتابعونه أو يقولون قوله، أما القرشيون فكانوا يقولون إن فلاناً قد صبأ أو دخل في أمر محمد. وإذا أخذنا بما كان محمد ﷺ يجيب به من كانوا يريدون الدخول في دين الله مثل عتبة بن غزوان المازني السلمي وجدنا أن الإسلام كان يقتصر على التصديق بالوحدانية ورسالة محمد ﷺ وترك الأوثان وحقن الدماء وصلة الأرحام[1]. وكانت الصلاة صلاتين، واحدة في الصباح والثانية بعد مغيب الشمس يسبق كلا منهما وضوء أو طهارة.

.. أما من تصدى لدعوة محمد وعاداه دون داع فهم أنداده في السن من معظم بطون قريش وعلى رأس هؤلاء أبو الحكم عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي وهو أبو جهل وأبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث (من بني زهرة) والحارث بن قيس (من بني عدي بن كعب بن لؤي وهم رهط عمر بن الخطاب وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة (من مخزوم) والعاصي بن وائل السهمي والنضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف والعاص بن سعيد ابن العاص (من بني عبد شمس) وعتبة بن أبي معيط (من بني عبد شمس)، ويضيف أصحاب السيرة أن معظم هؤلاء لم يكونوا أنداد رسول الله ﷺ في السن فحسب بل كان الكثيرون منهم جيرانه.. وهؤلاء وأمثالهم تصدوا لمحمد والمسلمين بمجرد أن أحسوا أن القرآن يقصد ديانتهم وآباءهم وما كانوا يعبدون. هؤلاء جعلت عداوتهم للرسول وأصحابه تتزايد حتى لجأ الرسول وجماعته إلى دار الأرقم، وفي دار الأرقم أسلم مسلمون كثيرون منهم حمزة بن عبد المطلب، وكان إسلامه في آخر العام الثالث للبعثة، وعقب إسلامه تشجع المسلمون وخرجوا من دار ابن الأرقم وأسرعوا إلى منتدى قريش حول الكعبة حيث كبروا ودعوا بإسلامهم، فتجمع عليهم المشركون وضربوهم ضرباً مبرحاً كاد أبو بكر يهلك منه. وعادوا إلى دار الأرقم حتى أسلم عمر أواخر السنة

---

(١) انظر الاستيعاب لابن عبد البر النحري ٤٤٣/١ وأسد الغابة لابن الأثير ١٢٠/٤ والنويري ١٩٢/١٦ - ١٩٣.

الخامسة للبعثة، وباسلام عمر ترك المسلمون دار الأرقم نهائياً وبدأت المواجهة الحاسمة بينهم وبين القرشيين وتحرج الموقف وهنا كان مجيء شيوخ قريش من ذوي الأسنان من الطائف، ويمثلهم الوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف السهمي، وهؤلاء هم الذين يشير إليهم خطاب عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان الذي عرضنا له بالدراسة والتحليل وفيه إشارة إلى نصح الرسول.أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فبدأت حركة الهجرة.

وبقي رسول الله في نفر قليل من المؤمنين وثبت للمحنة، وهم لم يستطيعوا إيذاءه أو إيذاء حمزة أو أبي بكر أو عمر ومن إليهم لأنهم كانوا ينتمون إلى بطون كبيرة من بطون مكة ذات السلطان والعزوة. وقد أدرك أولئك القرشيون أنهم لو آذوا رسول الله أو واحداً من كبار المسلمين من حوله لحدث صدع في بنيان قريش، وهي صاحبة السيادة على البلد، وكانوا أكيس وأبعد نظراً من أن يحدثوا ذلك الصدع.

ومع أنهم كانوا يستطيعون ترك الأمور على ما هي عليه بعد اضطرار هذا العدد العظيم من المسلمين إلى الخروج من بلدهم إلا أن خوفهم على سلطانهم دفعهم إلى محاولة التخلص من ذلك الخطر.

وهكذا يتجلى لنا جانب جديد من سياسات أولئك القرشيين، فقد وجدوا في رسول الله ودعوته خطراً حقيقياً لا بد من تلافيه فبدأ كبارهم وشيوخهم يتصلون بأبي طالب للتفاهم معه، فهذا رجل من كبارهم وقد تصوروا أنهم يستطيعون التأثير على محمد عن طريقه بعد أن فشلوا في محاولتهم الأولى إيقاف دعوة محمد بالعنف لجأوا إلى المفاوضة مع أبي طالب وقد تعودنا أن ننظر إلى أولئك القرشيين على أنهم حفنة من الأغبياء أو الحمقى، وما أظن أن ذلك يكفي لتفسير أسلوبهم في العمل، فإن القرآن نفسه لا يعطيهم هذا الوصف، وهو لا ينكر عليهم الذكاء أو القدرة ولكنه عزا عنادهم في المكان الأول إلى أن قلوبهم كانت غلفاً مغلقة دون الدعوة لأن الله طبع على قلوبهم

وأبصارهم لا ترى الحق لأن عليها غشاوة.

وهـذه الغشاوة التي حـالت بينهم وبـين النـظر السليم إلى الإسـلام هي النظام العام الذي كانوا هم سادته والمنفردين بكل خيراته وميزاته وما دام هـذا هو وضعهم فيه فكيف يسلمون بأنه نظام فاسد ينبغي استبدال غيره به وإذا كانوا يعتقدون أنهم سادة الناس وأفضل الناس، فكيف يؤيدون دعـوة تقول إن خـير الناس هم أتقى الناس لا أغنـاهم وإن أبا الحكم عمـرو بن هشام يتسـاوى مع خباب بن الأرت ذلك القين الفقير الطارىء على مكة ومجتمعها والـذي كان إلى دخوله الإسلام يعتبر في مراتب العبيد والأرقاء.

عندما ننظر إلى الموقف من هذه الزاوية نفهم لماذا نفر أبو جهـل ومن معه من دعـوة الإسلام. لقـد كان الثمن الـذي يتعين عليهم أن يـدفعـوه أكـثر ممـا يستـطيعـون أداءه. نعم أسلم رجـال مثـل حمـزة بن عبـد المـطلب وعمـر بن الخـطاب ومصعب بن عمير، ولكن هؤلاء لم يكـونوا سـادة قومهـم، إنمـا كانـوا سـادة في قومهم والفـرق كبير بـين الوضعـين، ويتجلى لنـا ذلك في مـوقف أبي طالب، فقد كان هذا الرجل يحمي رسول الله ﷺ ويحدب عليه ولكنه كان سيد قومه فلم يستطع التضحية بهذه السيادة، والسيادة في هذه الحـالة كـانت غشاوة على عينيه، وإذا كان قد رأى شيئاً في الدعوة المحمدية فهي أنها كانت في آماله سبيلاً يستعيد لبني هـاشم وبني عبد المـطلب مكانتهم في المجتمـع المكي ويعيد إليهم قـوتهم وسلطانهم وهنا نجـد أن أبا طـالب يقف في نفس الصف مـع أبي جهل، فقد كان أبو جهل لا يشك في أن الإسلام حيلة من محمد لكي يستعيـد بنو هاشم مكانتهم عن طريقها وله في ذلك كلمة مشهورة، قال: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا، فأطعمنا وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه».

وربما جاز لنا أن نقول هنا إن قريشـاً هي التي حالت بـين أولئك النـاس

ودخول الإسلام لقد كانت قريش بناء ضخماً عريقاً بناه القرشيون جيلاً بعد جيل ووصلوا بقبيلتهم إلى أن تكون أغنى قبائل الجزيرة وأكثرها تماسكاً وأحسنها بقعة وموطنا، وبينما كان رؤساء كبريات القبائل من أمثال تميم وغطفان وهوازن شيوخ جماعات بدوية فقيرة إلى حد كبير كان سادات قريش رجالاً على مستوى رفيع من الغنى والمكانة والقوة كانوا يداخلون بطارقة قيصر وأساورة كسرى ونجاشي الحبشة ويتعاملون بألوف الدنانير ثم يطالبهم محمد بأن يتركوا ذلك كله ويدخلوا عقيدة جديدة تنزع عنهم هذا العز كله وتدخلهم في مغامرة لم يستطيعوا قط أن يدركوا معناها أو مغزاها وحتى عندما بسط لهم القرآن الأمر وقربه إلى أفهامهم وخاطبهم بلغة التجار وقال على لسان نبيه: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم: تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾ (الصف ١٠ ـ ١٣).

وهذه اللغة الواضحة المنطقية لم يفهموها أو يقبلوها بالذات لأنهم تجار أغنياء وأصحاب سلطان. فإن تجاراً من طراز تجار قريش في ذلك العصر لا يبادلون شيئاً مادياً ملموساً هو في أيديهم بوعد معنوي غير ملموس ليس في أيديهم، وأما أهل السياسة والسلطان فلا يتنازلون قط عن سلطان يتمتعون به. وليست هناك شهوة هي أقوى في نفوس الرجال من شهوة السلطان والقوة والتسلط على الآخرين.

يئس إذن رسول الله ﷺ من قريش، ويئست منه قريش ولكن القلق أخذ يساور القرشيين لأن دعوة الإسلام كانت تتسع يوماً بعد يوم، لأن مكة كانت حافلة بأقوام كانوا في أشد الحاجة إلى هذه الدعوة فهم مظلومون يطلبون العدل، وهم ممتهنون يطلبون الكرامة، وهم فقراء في حاجة إلى باب من أبواب

الأمل يفتح لهم، وفيهم الكثيرون ممن كانوا لا يطمئنون إلى الوثنية الغالبة، فوجدوا في دعوة الإسلام عقيدة رفيعة تملأ القلب والنفس وتريح قلب الحائر، وكان فيهم كذلك شباب متطلع يبحث عن طريق للعمل وإظهار المواهب. ولم يكن أمامهم طريق لذلك في ظل النظام القائم الذي يجعل للابن الأكبر معظم ميراث أبيه من المال وكل ميراث أبيه من المكانة والأهمية الاجتماعية أو السياسية في ذلك المجتمع القبلي الروح والنظام كما ذكرنا، وأمثلتهم عندنا كثيرة أظهرها حمزة بن عبد المطلب وكان من أصغر أولاد عبد المطلب ولا سبيل له إلى مكانة أو قيادة مع عظيم مواهبه، وعمر بن الخطاب، كان يحجبه أخوه الأكبر زيد. فهؤلاء عندما فتح الله قلوبهم للإسلام دخلوا فيه وما لبثوا أو وجدوا فيه المكانة والرسالة التي تجعل لحياتهم معنى وقيمة.

ورأى القرشيون أنهم لو تركوا الأمور تسير على ما كانت تسير عليه فإن الإسلام سيبتلعهم ابتلاعاً، فإن الاستعداد للإقبال عليه عظيم، وأنا أعني بالقرشيين هنا رؤساء قريش وأصحاب الثروة والسلطان فيها. وهنا نجدهم يتصرفون تصرفاً قبلياً، فهم ليسوا حكومة ولا دولة، وهم لا يملكون ـ تبعاً لذلك ـ أدوات للسلطة من مثل شرطة أو أداة تنفيذية أو عسكر قائم، وإنما كانت قوتهم في تسيير أمورهم الداخلية في النظام القبلي وما له من تقاليد هي في ذاتها تقوم مقام الهيئات التنفيذية القائمة في نظم الدول، كان هذا النظام ـ مثله في ذلك مثل الدستور الانجليزي ـ يقوم على ضوابط وموازنات Checks and ba-lances تعمل بطريقة عرفية في ذلك المجتمع القبلي تحافظ على سلامته وأمنه.

فلننظر هنا كيف واجه الرؤساء المكيين مشكلة خطر الدعوة المحمدية، فهم من ناحية ضغطوا على من استطاعوا الضغط عليه من أفراد الجماعة الإسلامية حتى أخافوهم أو «زلزلوهم» كما تقول النصوص، فافتتن منهم من افتتن وبقي من عصم الله وهم قليل، وبعد أن «أخرجوا» من بلدهم عدداً من المسلمين وهم الذين هاجروا إلى الحبشة اتجهوا إلى معالجة موضوع محمد نفسه

عن طريق عمه ورئيس قبيلته وحاميه أبي طالب، وهنا نجد تصرفهم يسير وفق منطق واضح يقوم على تفكير سليم.

وهنا نورد نصاً عظيم القيمة لابن إسحاق، ونلاحظ هنا أنه أخذ فقرات من خطاب عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان دون أن يشير إليه قال:

١ - «فلما نادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستَخْفُون».

٢ - وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه.

٣ - ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله، مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء.

٤ - فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعْتِبُهم (يستمع لعتبهم ويستجيب له) من شيء أنكروا عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب: عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر.

قال ابن اسحق، وأبو البختري واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي قال ابن هشام أبو البختري: العاص بن هشام.

قال ابن اسحق: والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي.

وأبو جهل واسمه عمرو، وكـان يكنى أبا الحكم بن هشـام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي والوليد بن المغيرة ابـن عبدالله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي.

ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حـذيفة بن سعـد بن سهم بن عمرو ابـن هُصَيْص بن كعب بن لؤي.

والعاص بن وائل.

قال ابن هشام: العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤي.

قال ابن اسحاق: أو من مشى منهم.

ثم يأتينا ابن اسحق بحديث اللقاء الأول بين ممثلي قريش هؤلاء - وليس فيهم من الهـاشميين إلا أبـو لهب - وبين أبي طـالب، وستكون لهم معـه ثلاثـة لقاءات أخرى قبـل أن تقع القـطيعة بينهم وبينـه. وكل لقـاء من هذه الأربعـة يعني مرحلة من مراحل الحوار بين قريش وأبي طالب له محور يدور حوله أي أن قريشاً كانت تتقدم إلى أبي طالب بعرض وتنـاقشه فيـه، فإذا لم تفلح انصـرفت وفكرت في محور آخـر أو عرض جـديد تعـرضه عـلى أبي طالب، وهكـذا حتى أصبحت اللقـاءات والعروض أربعـة، فلما يئست قريش من أبي طـالب لجأت إلى العنف، وهذا مسلك ناس عقلاء يواجهون مشكلة ويحاولـون أن يجدوا لهـا حلاً. وهذا الأسلوب في البحث عن حل عن طريق التفاهم والحوار يكشف لنا عن عقلية القرشيين وطريقتهم في العمل، وهي طريقـة بعيدة جـداً عن الحمق والغباء.

وقـد أوردت أسماء الـرجال الـذين مشوا إلى أبي طـالب يكلمونـه ليتبين القـارىء خلفياتهم القبليـة ومراكـزهم الاجتماعيـة والآن ننظر في هـذا اللقـاء الأول لنرى ماذا كان فيه.

٥ ـ «فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً. فانصرفوا عنه».

ونلاحظ هنا أن وفد قريش الذي ذهب للقاء أبي طالب يمثل طبقاتهم جميعاً: الشيوخ والكهول والشباب، ولكن ليس فيهم واحد من السفهاء من أمثال عقبة بن أبي معيط أو النضر بن الحارث بن كلدة ومن إليهم. وابن اسحاق يحرص على أن يرينا أنهم كلهم يرجعون إلى لؤي بن غالب بن فهر أي من صميم عمود قريش، وهو عمود النسب النبوي.

وهم في كلامهم مع أبي طالب يتحدثون في رزانة وحكمة، وهم يخيرونه بين أن يكفه عنهم أو يتولوا هم الأمر بأنفسهم، ويذكرونه بأنه مثلهم: «فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه».

ولا شك في أن هذا اللقاء سر أبا طالب، فقد رأى نفسه موضع اهتمام كل القرشيين وخاصة زعماء البيوت المنافسة التي كانت قد غصبت الرياسة القبلية في مكة وما دام أبو طالب على مثل موقفهم من الإسلام أي لم يتابع محمداً فيما يدعو إليه فهو حري بأن يستجيب لهم.

ولم يفعل أبو طالب شيئاً وفي نفس الوقت زادت دعوة الإسلام انتشاراً ووضح الخلاف بين أهل مكة حول دعوة محمد ﷺ وأصبحت المشكلة تهدد وحدة قريش، قال ابن اسحاق: «ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه. ثم سرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا وأكثرت قريش من ذكر رسول الله ﷺ بينها، فتذامروا فيه، وحض بعضهم بعضاً عليه».

وهنا وأمام هذه الفتنة نجد زعماء قريش يقصدون أبا طالب مرة أخرى،

وهذا هو اللقاء الثاني بينه وبينهم ولكنهم الآن لا يحدثونه على أنه واحد منهم بل هم يخاطبونه مخاطبتهم لرجل يوشك أن يصبح خصماً لهم، فهم يهددونه وينذرونه ولكنهم مع ذلك يدعون له التصرف قبل أن يقدموا على شيء: «يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو تنازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا له، ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً باسلام رسول اللّه ﷺ لهم ولا خذلانه».

وهنا نرى أبا طالب في موقف عسير، فهو من ناحية يرى أن قومه يهددونه ويخيرونه بين أن يستعمل سلطانه على محمد فيكفه عنهم أو يحاربون حتى يهلك أحد الفريقين.

وأبو طالب يرى أنه إذا أصر على تأييد محمد فان قريشاً ستعلن عليه الحرب، وهو يشعر أنه لا يستطيع الثبات لهم، ثم أنه لا يريد أن يفقد مكانته في قريش أو في بني هاشم، ومعظمهم متعاطفون مع محمد، ويتجلى موقفه من الكلام الذي قاله لمحمد ﷺ عندما استدعاه ليتحدث معه بعد أن هددته قريش: «ان قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبق عليّ وعلى نفسك، لا تحملني من الأمر ما لا أطيق». والى هنا ولم يكن أبو طالب يدرك معنى الرسالة المحمدية ولا هو أدرك أن ابن أخيه يبشر بدين جديد، وأنه مستعد للتضحية بنفسه في سبيل رسالته، وهذا هو الذي قاله محمد ﷺ في رده المشهور على عمه: «يا عم، واللّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» ثم يقول ابن اسحاق: «فاستعبر رسول الله ﷺ، فبكى، ثم قام، فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه، فقال: اذهب يا ابن اخي فقل ما احببت، فوالله لا أسلمك لشيء ابداً».

وهنا أدرك أبو طالب أن الأمر وصل بينه وبين بقية قريش الى حد ليس بعده الا المواجهة بالعنف، وبالفعل بدأ خصوم محمد في ايذاء من يستطيعون ايذاءه ممن بقي في مكة من أصحاب محمد، قال ابن اسحاق: «فحقب الأمر وتنابذ القوم وعادى بعضهم بعضاً، قال: ثم أن قريشا تذمروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول اللّه ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يضربونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع اللّه تعالى منهم رسوله بعمه أبي طالب».

ووجد أبو طالب أنه في حاجة الى عون عشيرته من بني هاشم وأراد أن يستوثق من نصرهم اياه، قال ابن اسحاق: «وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً يصنعون في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم الى ما هو عليه من منع رسول اللّه ﷺ والقيام دونه، فاجتمعوا اليه وقاموا معه وأجابوه الى ما دعاهم اليه الا ما كان من أبي لهب».

واذن فقد حدث ما كانت قريش تخشاه ووقع شرخ خطير في بنائها وقيادتها ووقف بنو هاشم وبنو المطلب، وهم من سادتهم ـ بقيادة واحد من كبار قادتهم وهو أبو طالب، وقفوا معادين لبقية قريش وقادتها.

وآرنولد توينبي يقول إن الجماعات والدول تأخذ في التصدع عندما يقع كسر في الرأس أي في الصفوة القائدة أو بحسب تعبير a breach in the leadership وهو يضرب الأمثلة لذلك من تاريخ الرومان مثلاً عندما انقسمت الصفوة القائدة على نفسها ووقع الصراع بين الأخوين جراكوس وبقية قيادة الرومان، ووقعت الحروب بين ماريوس وسولا، وبين قيصر وبومبي وبين أوكتافيوس وأنطونيوس. هنا حدث الصدع العميق الذي وضع حداً للجمهورية الرومانية وقيام الإمبراطورية الرومانية وتحكُّم الفرد الواحد imperator في شئون الدولة وهذه هي البداية الحقيقية لتصدع دولة الرومان وتدهورها. . .

وهذا هو ما أحست به قـريش وأرادت أن تتلافـاه بهذه اللقـاءات، وقد فصلنا الكلام في واحد منها، فلنكمل الكلام عن اللقـاءين الباقيين. ماذا تم فيهما؟ ونقرأ من خلالهما أفكار قريش ونتعرف موقفها من الإسلام وكيف كانت نظرتها إليه.

واللقاء الثالث لم يكن بين أبي طالب وقريش، بل بينها وبين محمد نفسه، ويبدو أن قريشـاً عندمـا وجدت أن أبـا طالب لا يستـطيع عمـل شيء أو هو لا يريد أن يعمل. فكر الـوليد بن المغيـرة المخزومي ـ وكـان من أجلاء القـرشيين وأصحـاب السن والرأي منهم ـ أن يخلوا بمحمد ﷺ ويكلمه في رفق لعله ينتهي معه إلى حل يتراضى عليه الناس. وكان الوليد شيخـاً ذا مكانـة عاليـة وكان لا يخلو من خبث. وكان يرجو أن يجد طريقاً ينفذ به إلى نفس محمد، وهو لم يفكـر قبـل ذلك في أن يـروي أمر محمـد فيما بينـه وبـين نفسـه أو يصغي إلى القـرآن ويسمع من محمد ما يقول فلعل ذلك يعينه على الاقتراب منه ودعوته وفهمهـا، فإن هي أعجبته دخل فيها وإلا كـان له شـأن آخر، ولكنـه ذهب ليكلم محمداً بعقليته الجاهلية وبمنطق أمثاله من سروات المكيين الـذين يحسبون أن كـل شيء تجارة أو مال أو أشياء مادية.

وخبر هذا اللقاء يرويه ابن اسحاق ويجعله بعد إسلام حمزة، أي أنه كان على حسابنا ـ خلال السنة الثالثة للبعثة وقبل هجرة المسلمين إلى الحبشة، وكان محمد إلى ذلك الحين يدعو في دار الأرقم ـ وفترة دار الأرقم عـلى قصرهـا، فهي لم تزد على ثلاث سنوات ـ كانت من أبرك أدوار الفترة المكية، لأن دخول الرسول إياها ودعوته ولقاءه أصحابه فيها شجع الكثيرين على الدخول في الدعوة، فقد كانت أمامهم الفرصة ليجتمعوا برسول الله ﷺ آمنين خالين بـه فيسمعون منـه القرآن ويصغون إلى كلامه ويستفسرون منه عما يريدون ويحسون بـذلك المنـاخ العائلي الإنساني الذي كان يشمل هذه الجماعة ورسول الله في وسطها أبا حانيـا

ورسولا هاديـا وقلبا كبيـراً عظيـماً يحدث النـاس جميعاً في رفق وأنـاة، وكان من أجمل الناس هيئة وأبهاهم طلعة وأحرصهم على حسن مظهره ونظافة ثيابه، هذا إلى لـين جانب ومـودة وحـدب عـلى النـاس ورغبـة في مسـاعـدتهم عـلى حـل مشاكلهم، وهذا طراز من حياة اجتماعية لم يألفها العرب أو يعرفـوها، فـازداد الناس إقبالاً على الإسلام ليصبحوا أعضاء في تلك الحياة الجديـدة ثم للدخول في الإسلام والفوز بنعمته.

ولم يحاول الوليد بن المغيرة وأضرابه قط أن يعرفوا الدين الذي يدعو إليه محمـد والمجتمع الـذي ينشأ عن الإيمـان بهذا الـدين، وإنما هـو صم أذنيه عن القـرآن وأغلق عينيه عـما كان يستـطيع أن يـرى، ولهـذا فقـد كـان مـدخله في الحديث مع محمد مدخلاً جاهليـاً يعارض كـل المعارضـة ما يـدعو إليـه رسول الله.

فقد وجد الوليد بن المغيرة هذا محمداً في مجلس قريش منتحياً بنفسه عن الكعبة فاقترح على من كان حوله من القرشيين أن يقوم إلى محمد فيعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضاً منها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا. فأقروه على رأيه ومضى ليكلم محمداً، فلما جلس إليه كان كلامه معه جاهلياً أو قل قرشياً صرفاً فهو لا يحاول أن يفهم شيئاً مما يدعو إليه، وإنما بدأ ـ في رفق طبعاً ـ فذكره بما فعل بقومه ـ في رأيه ـ «وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم: فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضاً، قال: قل يا أبا الوليد، اسمع» وهنا يبدأ فيعرض على محمد السيادة فيهم «حتى لا نقطع أمراً دونك» أو المـال حتى يكون أكثرهم مالاً. والنص يقـول إنه عـرض عليـه الملك، وهـذا مستبعد فإن قريشاً لم تكن تقبـل الملك أو ترضـاه وبعد ذلـك يعرض عليـه أمراً مهيناً حقاً يدل على أنـه كان أبعـد الناس عن فهم محمـد: «وإن كان هذا الذي

يأتيك رئيّاً تراه لا تستطيع رده من نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نعالجك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. أو كما قال[1]. فاستمع له رسول الله هادئاً مستجمعاً نفسه ثم قال له: فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: افعل «ثم قرأ رسول الله ﷺ أول سورة فُصِّلَت وهي الثانية والسبعون في ترتيب النزول والحادية والأربعون في ترتيب المصحف: ﴿حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ ومع أننا نعلم أن مطلع هذه السورة كان نزوله فيما بعد الفترة التي نؤرخ لها الآن إلا أنها تصور تماماً المعاني التي لا بد أن يكون رسول الله قد ألقاها إلى الوليد بن المغيرة، ذلك السيد القرشي الذي كان ينتمي إلى ذروة ما كان العرب يسمونه بالشرف أي علو المنزلة في الجماعة، وهذه المعاني كانت غائبة تماماً عن ذهنه وعندما تلا عليه رسول الله ﷺ ماثلا من الأيات كانت تلك فيما نرى من النص أول مرة يستمع فيها الرجل إلى آيات من القرآن ملياً فأدرك معناها ومغزاها وأثرت في نفسه، وأدرك أنه لا يحدث رجلاً طالب مال أو سيادة أو نساء أو متاع أو رجلاً مريضاً وإنما هو رجل في الغاية من العقل وسلامة الحواس واستجماع الرأي، والمعاني التي فهمها من معاني القرآن - وهي لا تخرج عن معاني فاتحة سورة فصلت التي أتينا بها - كان لها وقع عظيم في نفسه. فلم يرد على محمد كلاماً، وعاد إلى قومه متغير الوجه، ولاحظ قومه ذلك. ولكن نتيجة لقائه مع محمد ﷺ تدل دلالة واضحة على أن هذا الرجل وأضرابه لم يكن لديهم أي استعداد للدخول في دعوة محمد، وأقصى ما كانوا مستعدين له هو مهادنة الحركة الإسلامية أو عدم التعرض لها، قال: «ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي. وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه. فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت

---

(١) ابن اسحاق برواية ابن هشام ١/ ٣١٤.

نبأ عظيم. فإن تصبه العرب فقد كُفيتُموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به!».

فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم»[1].

وهذه مقالة رجل أناني مادي جامد القلب، فهو قد عرف الآن أن محمداً ليس بساحر ولا كاهن ولا مسحور ولا طالب ملك أو جاه أو متاع. وإنما هو رجل يطلب ما هو أرفع من ذلك وأسمى: إنه صاحب رسالة عظمى. وبدلاً من أن يحاول أن يزداد علماً بها وربما دخل فيها فهو ينصح قومه بأن يدعوا محمداً وشأنه فإذا دخل العرب في دعوته أفادوا هم من ذلك لأنهم قومه، وإذا قضى العرب عليه كفاهم ذلك مشقة الصراع معه.

وخبر هذا اللقاء الثالث بين قيادة قريش المعارضة للإسلام والإسلام إما مباشرة مع محمد ﷺ أو غير مباشرة عن طريق أبي طالب، تكشف لنا عن طبيعة القرشيين وخبثهم والأنانية والحرص على أنفسهم وقبيلتهم ومراكزهم فيها بالتالي فهم لا يريدون أن يتنازلوا عن شيء ولكنهم يريدون كسب كل شيء بل نفهم من كلام هذا الرجل أنه لا يريد أن يستغل محمداً والإسلام لما فيه خيره وخير نظامه الاجتماعي. والغريب أن شيئاً من هذا سيحدث بعد الإسلام عندما استعملت قريش امة الإسلام لخيرهم.

والاجتماع الرابع كان بين محمد ﷺ وملأ قريش. وهو فيها يبدو اللقاء الأخير بين الجانبين قبل أن تكون القطيعة. وقد روى لنا خبر هذا اللقاء ابن اسحاق ورواه لنا ابن هشام في السيرة[2].

---

(١) ابن اسحاق، برواية ابن هشام ١/٣١٤.
(٢) ابن هشام، السيرة ١/٣١٥ وما بعدها.

وقبل أن يروي لنا ابن اسحاق نبأ هذا اللقاء يقول إن الإسلام «جعل يفشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين ثم اجتمعت أشراف قريش من كل قبيلة كما روى عن سعيد بن جبير وابن عباس، قالا . . .».

ويفهم من هذا الكلام أن محمداً والإسلام أصبحا محور الاهتمام والكلام كله في مكة، فقد كانت اللقاءات التي ذكرناها تزيد من تنبيه الناس للإسلام فلا يكاد الواحد منهم يستمع لكلام رسول الله حتى يدخل فيه، وقد كان الأمر أولاً أمر جماعة صغيرة تمارس عباداتها واجتماعاتها فيما بينها أما الآن فقد اتسع النطاق وتحول الأمر بالنسبة للقرشيين من مجرد حركة محدودة لا يستريح إليها القرشيون ولكنهم لا يخشونها إلى حركة واسعة النطاق تشمل الآن مئات الناس. فمعظم بيوت مكة فيها إسلام وفيها قرآن، والدعوة التي ينادي بها محمد يتسع مداها وتصل إلى معظم الناس فيجدون فيها جاذبية ويحسون نحوها بميل، والكثيرون منهم يدخلون في الدعوة وسادات قريش يرون هذا كله بعين الجزع والخوف، فالحركة الجديدة تزري بهم وبأديانهم وآلهتهم وآرائهم وتسفه أحلامهم وأحلام آبائهم ومعنى هذا أن الزمام يفلت من أيديهم. ثم إن الأمر الآن يتعلق بأديانهم وبيوتهم وأحسابهم، وتحول بذلك إلى خطر حقيقي عليهم وعلى ثرواتهم ومراكزهم وقد بذلوا ما استطاعوا مع أبي طالب ثم مع محمد، ولم يبق أمامهم إلا القيام بعمل حاسم، ولكنهم بعد أن تشاوروا في الأمر رأوا أن يتصلوا جماعة بمحمد ويتحدثوا معه في الأمر ملياً، فيحاولوا أن يعرضوا عليه الصلح، في مقابل عرض مادي فإذا لم يسمع تحدوه ـ في ظنهم ـ في صميم الرسالة الإلهية والدعوة التي يبشر وينذر بها وأعجزوه وقامت عليه بذلك الحجة الفاصلة. وأحسن القوم التدبير فيما ظنوا، ودعوا محمداً إلى المناقشة بعد غروب يوم من تلك الأيام غير بعيد من الكعبة. وكان المجتمعون يمثلون كل طوائف الجبهة القرشية. ففيهم المعتدل الذكي البعيد

النظر عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابن عمهما أبو سفيان تـرب محمد وابن جيله ـ وكان إلى الآن يقف في الصفوف الخلفية للمعارضة إذ إن دوره لم يكن قد حـان بعد ـ وكان فيهم الخصم الصريح العنيد أبو جهل، وكان هناك نفر من الجماعة التي يسميها أصحاب السيرة «المؤذين» ومثالهم زمعة بن الأسود ونُبيه ومنَبِّه ابنـا الحجاج السهميان، وحضر محمد ﷺ مبادراً فـما كان يحيـد عن أي لقاء، وهنـا تحدوه وقالوا له ما معناه إن كنت نبياً حقاً فإننا مستعدون بالتسليم لك إذا أتيتنـا بدليل مما كان الله يؤيـد به الأنبيـاء قبلك. نريـدك أن تأتينـا الساعـة بمعجزة، بشيء يؤكد ما تقول من أن الله معك ومؤيدك وناصرك، والذي طلبـوه منه وارد بـأبلغ بيـان في الآيـات ٨١ ـ ٩٣ من سـورة الإسـراء التي أنـزلت بعـد ذلـك بسنـوات، ومعظم آيـات هذه السـورة تصويـر للجدل المجهـد والتعبير السيء والتهديد الخطر الذي كان يواجه الرسـول صلوات الله عليه وهـو صامـد وحيد تقـريباً أمـام تلك العصبية العنيـدة القويـة من كفار قـريش الذين تصدوا ـ في تصورهم ـ لحماية مجتمعهم من الخطر الذي تمثل لهم في محمد ﷺ ودعوته. قال تعالى: (الاسراء ٨٨ ـ ٩٣):

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولقد صرفنا للناس في هذا القـرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا،

وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً
أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا
أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً
أو تأتي بالله والملائكة قبيلا
أو يكون لك بَيْتٌ من زخرف
أو ترقى في السماء
ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾.

وقد تصوروا أنهم بهذا التحدي المتوالي والمتصاعد في تعجيز محمد ﷺ أنهم واضعوه في حرج لا مخرج له منه. وهم في موقفهم هذا ومن قاعدتهم الوثنية على حق. فإن النبي تؤيده معجزات ربه لكي يري خصومه أن ربه ميزه وأيده ومنحه من قدرته شيئاً يقنع المكابر. وغاب عنهم أن عصر رسل المعجزات قد انتهى بمعجزات عيسى وإذا كانت معجزات عيسى بن مريم لم تفلح في دفع الناس جميعاً في طريق الهداية فلماذا تتكرر؟ لأن المعجزة ربما اقنعت من يراها تحدث أمام عينيه فما بال من لم يرها؟ أيظل الله سبحانه يرسل أنبياء بمعجزات لاقناع كل إنسان على وجه الأرض وكل جيل من أجيال البشر؟ لقد فعلت الكاثوليكية هذا واضطرهم الأمر في النهاية إلى القول بعقيدة استمرار المعجزات، زعموا أن القديسين يأتون بمعجزات وأن الكنيسة هي التي ينبغي أن تحكم في أمر ما يُدَّعى من معجزات فإذا أقرت مجالسها ذلك فالمعجزة قد وقعت وصاحبها قديس ولو كان صبية ساذجة مثل برناديت التي قالت إن مريم العذراء ظهرت لها وهي عند نبع الماء عند قرية لورد في جنوب فرنسا. والمجلس الكنسي أيد صحة ما قالته الصبية وجعلوها قديسة وقرية لورد أصبحت مزاراً مسيحياً. أما الإسلام فقد وقف الموقف الحاسم المعقول من هذا الأمر كله، وإذا كان لا بد من معجزة لإقناع البشر فهذا هو القرآن معجزة محمد ومعجزة الإسلام المتجدد على مر العصور، فإن كان هناك من يريد أن يكذب بها فليأت بمثلها، ومحمد لن يأتي بمعجزة مما طلبوا وفي يده بينة القرآن، ولهذا فإن تمام هذه الآيات يقرر هذا المعنى:

﴿قل: سبحان ربي
هل كنت إلا بشراً رسولاً
وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى
إلا أن قالوا: أبعث الله بشراً رسولا

قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا .

قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم

إنه كان بعباده خبيراً بصيرا

ومن يَهْدِ الله فهو المهتد

ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه

ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم .

كلما خبت زدناهم سعيرا﴾ (الإسراء ١٧/٩٣ - ٩٧) .

ورواية ابن اسحاق تقول إن ملأ قريش هذا طلبوا إلى محمد معجزات وبينات أخرى، وليس من الضروري أن يكون هذا كله قد وقع في هذا المجلس لأن التحدي والجدل لم يسكن قط بين محمد وخصومه خلال تلك المرحلة فقد طلبوا منه مثلاً أن يسأل ربه أن يبعث من الموت رجلاً من كبار أجدادهم مثل قصي بن كلاب «فإنه كان شيخ صِدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألناك عرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول! فقال رسول اللّه ﷺ، ما بهذا بعثت إليكم . وإنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عَلَيَّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم[1]. . . .» .

وهذا الكلام من رسول الله وضع نهاية للحديث، لأنه لم يأتهم بما طلبوا منه فهو إذن بمنطقهم الوثني ليس بنبي . فهو كما قالوا لا يفضلهم في شيء، فهو يقوم بالأسواق كما يقومون ويلتمس المعاش كما يلتمسون فكيف يعرفون منزلته من ربه إن كان رسولاً كما يزعم؟ ويقوم محمد آسفاً فيتبعه عبداللّه بن أمية بن المغيرة

(١) انظر خبر ابن اسحاق كله عند ابن هشام . السيرة ١/٣١٥ وما بعدها .

ابن خلف الجمحي وهو من أترابه في السن ويقول له إن قومه أنصفوه فلم ينصفهم، وطلبوا إليه أن يأتيهم ببينة على أنه نبي فلم يأتهم وهم لهذا لن يصدقوه أبداً وهذا فصل الخطاب بينهم، وقد قال هذا الكلام لرسول الله في لهجة بالغة الكراهة والحقد كأن قلبه كان بالفعل يتلظى غيظاً من محمد وكراهة له، ولو أنه أتاهم بكل معجزات الدنيا لما صدقوا.

وانتهى كل حوار بين محمد ﷺ وخصومه، فقد أيقنوا - فيما بدا لهم - أنهم على حق في رفضهم دعوته وإبائهم الدخول فيها، ولم يبق بعد هذا إلا الخصومة الصريحة والعداء في غير هوادة.

والمتأمل لكل هذا الحوار الطويل الذي تم على أربع مراحل ولا بد أنه استغرق شهوراً يرى أن أولئك المكيين كانوا بالفعل جبهة واحدة فيما يتصل بالدفاع عن مصالحهم.

وهم يتصرفون في عقل وروية وفي نظام أيضاً، فهم يجتهدون في تلافي الصراع الصريح بالحوار والأخذ والرد، وهم ينتقلون من مرحلة من مراحل الحوار إلى الأخرى انتقالاً منطقياً متمسكين برأيهم مثابرين عليه كأنهم رجال دولة يدافعون عن مصالحهم. وفي أثناء كلامهم مع محمد ﷺ كان اضطهادهم للأصاغر والمستضعفين من أصحابه مستمراً، وهم بهذا يمارسون ضغطاً على محمد حتى يلين معهم، وأهل الصغار والحمق منهم وفيهم رجال مثل عقبة بن أبي معيط والأسود بن عبد يغوث يؤذون النبي بدنيء الأفاعيل من مثل إلقاء الوقر أمام بيته أو إلقاء سلاء الشاة عليه وهو يصلي في حين أن المستهزئين من أمثال النضر بن الحارث بن كلدة يستهزئون به ويمسك النضر بعظم بال ويفركه ويقول ساخراً: يزعم محمد أن ربه يحيي العظام وهي رميم، وكل هذه أساليب من الضغط والتيئيس والتهوين لا تخفى أهميتها وآثارها على رجل غير محمد فكأن قريشاً جندت كل قواها لمحاربة هذه الدعوة التي رفضتها تماماً، وهي في

هذا تعطينا مثالاً من ظاهرة الـرفض الاجتماعي Social rejection وهي رفض المجتمع لكل ما تحس أنه غريب عليها ضار بنسيجه، وليس من الضـروري أن يرفض الجسم ما يضـره مما يحس أنـه غريب عن كيـانه فقط بـل هو يـرفض ما ينفعه أيضاً، كما يرفض الجسم الكلية السليمة التي تزرع فيه ويهـاجمها ويقتلهـا وفيها حياته. وهذا ما كانت قريش تفعله الآن: كانت تهاجم الإسلام وتلفـظه وهو حياة لها، ولكن الإسلام في نفس الوقت كان لا يقنع بأقل من تغيير نظامها كله وعقليتها كلها ويبني مكان ذلك نظاماً جديداً وعقليـة جديـدة. وهذا كـان عند القرشيين مستحيل القبول.

حصَار بَني هَاشِم وَبَني المطّلب في الشّعب:

يئست قـريش إذن من التأثـير على محمـد ﷺ وكفه عـما كان سـادراً فيـه بالمناقشة فلم يبق أمامها إلا العنف. وقد لاحظنا أن أهم ما كانت تحـرص عليه قـريش هو ألا يتصـدع بنيانها بحـرب داميـة بـين بني هـاشم وأنصـارهم وهم المطيبون وبقية قريش، ولهذا فقد رأوا أن خطوة جديدة هي دون الحرب ولكنها خطوة خطيرة: مقاطعة بني هاشم ومحاصرتهم في شعبهم أي حيهم.

فقـد اجتمـع رؤسـاء قـريش في نـاديهم وقـرروا حصر بني هـــاشم وبني المطلب في شعبهم أي حيهم من مكة، وقرروا مقاطعتهم اجتماعياً واقتصادياً، وقاموا هم بأنفسهم بتنفيذ ذلـك القرار، ونفـذوه بالفعـل بإحكـام وفاعليـة هما أقوى وأفعل من المحاكمة والسجن والبطش، والخبر مشهور نعرفـه بروايـة ابن اسحاق ولكن ابن سيد الناس في (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّيَر) يرويه بصورة أكمل برواية ابن اسحاق وموسى بن عقبة معاً[1]، قال:

---

(١) كان محمد بن اسحاق بن يسار المسيبي المطلبي يرى نفسه أصدق رواة السيرة ويقول: أنا بيطار السيرة ولكن مالك بن أنس ومن تبعه من الفقهاء كذبوه واتهموه بالتدليس وقالوا إن موسى بن =

١ - ثم إن كفار قريش أجمعوا أمرهم واتفق رأيهم على قتل رسول الله ﷺ وقالوا: قد أفسد أبناءنا ونساءنا فقالوا لقومه: خذوا منا دية مضاعفة ويقتله رجل من غير قريش أو تريحوننا وتريحون أنفسكم، فأبى قومه بنو هاشم من ذلك، فظاهرهم بنو عبد المطلب بن هاشم.

٢ - فأجمع المشركون من قريش على منابذتهم، واخراجهم من مكة إلى الشعب.

٣ - فلما دخلوا إلى الشعب أمر رسول الله ﷺ من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان (كذا) متجراً لقريش فكان يثني على النجاشي بأنه لا يظلم عنده أحد.

فانطلق إليها عامة من آمن بالله ورسوله.

٤ - ودخل بنو هاشم وبنو المطلب شعبهم مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمن ديناً، والكافر حمية.

٥ - فلما عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد منعه قومه أجمعوا على ألا يبايعوهم، ولا يدخلوا إليهم شيئاً من الرِّفق، وقطعوا عنهم الأسواق ولم يتركوا لا طعاماً ولا إداماً ولا بيعاً إلا بادروا إليه واشتروه دونهم.

٦ - ولا يناكحوهم.

٧ - ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

= عقبة هو شيخ المغازي. أما ابن سيد الناس فهو فقيه أندلسي الأصل مصري المولد والسكن والحياة واسمه محمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن يحيى ابن سيد الناس. توفي في القاهرة سنة ٧٣٤ هجرية وهو من أعاظم علماء القرن الثامن الهجري في العالم الإسلامي كله.

٨ ـ وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها على الكعبة .

٩ ـ وتمادوا على العمل بما فيها من ذلك ثلاث سنين .

١٠ ـ فاشتد البلاء على بني هاشم في شعبهم وعلى كل من معهم .

١١ ـ فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم قوم من قصي مِمَّن ولدتهم بنو هاشم ومن سواهم ، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة (منه) .

١٢ ـ وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فأكلت ولحست ما في الصحيفة من ميثاق وعهد .

١٣ ـ وكان أبو طالب في طول مدتهم في الشعب يأتي رسول الله ﷺ فيأتي فراشه كل ليلة حتى يراه كل من أراد به شراً أو غائلة ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها .

١٤ ـ فلم يزالوا في الشعب على ذلك إلى تمام ثلاث سنين .

١٥ ـ ولم تترك الأرضة في الصحيفة اسماً لله عز وجل إلا لحسته وبقي ما فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم .

١٦ ـ فأطلع الله رسوله على ذلك ، فذكر رسول الله ﷺ ذلك لأبي طالب ، فقال أبو طالب : لا والثواقب ما كذبتني .

١٧ ـ فانطلق في عصابة من بني عبد المطلب حتى أتوا المسجد وهم خائفون لقريش .

١٨ ـ فلما رأتهم قريش في جماعة أنكروا ذلك ، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله ﷺ برمته إلى قريش .

١٩ ـ فتكلم أبو طالب فقال: قد جرت أمور بيننا وبينكم نذكرها لكم، فأتوا بصحيفتكم التي فيها مواقفكم فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح.

٢٠ ـ وإنما قال ذلك أبو طالب خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها.

٢١ ـ فأتوا بصحيفتهم معجبين، لا يشكون أن رسول الله ﷺ يدفع إليهم فوضعوها بينهم، وقالوا لأبي طالب: قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم.

٢٢ ـ فقال أبو طالب: إنما أتيتكم في أمر هو نَصَفٌ بيننا وبينكم: إن ابن أخي أخبرني، ولم يكذبني ـ أن هذه الصحيفة التي في أيديكم قد بعث الله عليها دابة فلم تترك له فيها اسماً إلا لحسته، وتركت فيها غَدْرَكم وتظاهركم علينا بالظلم فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا: فلا والله لا نموت حتى نسلمه من عند آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم.

٢٣ ـ فقالوا قد رضينا بالذي تقول. ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق والمصدوق ﷺ قد أَخْبَر بخَبَرِها قبل أن تُفْتَح.

٢٤ ـ فلما رأت قريش صدق ما جاء به أبو طالب عن النبي ﷺ قالوا: هذا سحر ابن أخيك. وزادهم ذلك بغياً وعدواناً».

وتلي هذا الخبر رواية أخرى للجزء الأخير منها لا يختلف عما أوردناه إلا في قليل. وإنما أوردت هذا الخبر مقسماً إلى فقرات ليسهل علينا تحليله واستخراج كل ما فيه من الحقائق والمعاني التاريخية. وهذا التقسيم في ذاته جزء من التحليل أو هو الخطوة الأولى منه. والنصوص التي بين أيدينا مادة خامة ـ وقدرة المؤرخ تتبين من قدر ما يستخرج منها من الحقائق بعد أن يستوثق من أنها نصوص صحيحة تحتوي على مادة علمية يمكن الإفادة منها. وأهم ما يعنينا في

دراسة هذه الفقرات هو أن نعرف الطريقة التي كان نظام قريش يعمل بها أو ما يسمى بميكانيكية النظام أو ما يسمى باسم System Mechanism وكيف أن هذا النظام الذي يبدو لنا من أسماء وظائفه مثل الرفادة والسقاية واللواء أنه نظام شكلي أو ما يسمى في الانجليزية باسم decorum وأن تلك الوظائف كانت شكلية يحوزها أصحابها للشرف والمظهر، بل كانت وظائف أو أجهزة ذات عمل حقيقي functional . حقاً إنها لم تكن وظائف بمعنى الكلمة ولكنها كانت أجهزة Organisms تقوم بعملها بفاعلية حقيقية، وهدفها الأخير هو حماية قريش وتمكين سلطانها على مكة، وهو سلطان عام كما رأينا أي أنه لا يتركز في أشخاص معينين، بل في أن أهل مكة كلهم مشتركون فيه مسارعون إلى تنفيذه بأسلوب قبلي لا إداري، فالناس هنا يعملون لحماية كيانهم الفردي والجماعي طواعية وعن احساس بأنهم يخدمون أنفسهم لا سادة قريش فحسب، فإذا أخطأ واحد منهم أو قصر حوسب على تقصيره أو إهماله أو مخالفته. وسنرى في النهاية أنه لم يكن نظاماً جامداً خالياً من النوازع الإنسانية، لأن قريشاً كانت مترابطة الأوشاج والأرحام وكانت علاقات الصهر شاملة متشابكة لا دخل فيها لطبقية أو تفاضل، فقريش يصاهر أفخاذها بعضها بعضاً دون حرج، والقرشيون يصاهرون غير القرشيين دون شكليات، والجار يصاهر المجير والسيد يتزوج الأمة، وسنرى مصاديق ذلك بعد تحليلنا لهذا النص الطويل الحافل بالمعاني والحقائق التاريخية وقد تعود الناس أن يمروا به مسرعين ناظرين إلى نهايته أي إلى انفراج أزمة المسلمين ونهاية الحصار، وهذه النظرة الأخيرة لا تعين على إدراك قوة الإسلام وما وضعه الله سبحانه فيه من الحيوية والفضائل بحيث استطاع أن يقوض دعائم نظام قوي متماسك مثل النظام المكي القرشي، وما تميز به رسول الله ﷺ من خلال وشمائل وعقل راجح وخلق متين وعزيمة تزلزل الجبال، فهذا الرجل ـ رسول الله ﷺ أقصد ـ وقف معظم هذه الفترة وحده تقريباً أمام هذا النظام المتأصل، يحمل القرآن العظيم والإيمان الثابت في قلبه ويعمل في صبر ودأب على إزاحة هذه الصخرة من طريقه دون

أن يحطمها، لأنـه ﷺ كان يعـرف قدر القـرشيين ومـا يمكن أن يقـدمـوه من الخـدمات لـلإسلام، وكـان يدرك حقيقـة كبـرى غـابت عن معـظم مؤرخينـا القدامى والمحدثين أيضاً، وهي أن ذلـك النظام الـذي كان الإسـلام يواجهـه كان يقوم على رجال لا على وظائف، فـالرفـادة هنا ليست وظيفـة الرفـادة، بل هي شبخصية من يقوم بها، وكذلـك السقايـة واللواء، فالقـوة الحقيقية في هـذا التنظيم كانت في رجاله وصواب اختيار الناس لهم اعتماداً عـلى ما يعـرفون من مـواهبهم، ويكفي أن نـلاحظ أن رسـول الله ﷺ احتفظ لأصحـاب هـذه الوظائف ـ بما لا يتعارض مع الإسلام ـ بوظائفهم حتى بعد إسلامهم، فهو في صراعه مع قريش بعد الهجرة يحتفظ لبني عبـد الدار بـاللواء، ففي موقعـة بدر كان حامل لواء المسلمين من بني عبد الدار ويبدو أن رسول الله قد أخـذ عليهم يومذاك شيئاً، فلما كان يوم أحد أراد أن يعطي اللواء لغيرهم فغضبـوا وتمسكوا بهذه الوظيفة تمسكاً شديداً، فسلم لهم الرسول بحقهم وأعـطى اللواء مصعب ابن عمير، ومن غريب ما نلاحظ أن حامل اللواء في معسكر المشركين يوم أحد كان من بني عبد الدار أيضاً، وكذلك كان فيهم لواء المسلمين، مما يدل على أن اللواء لم يكن مجرد شيء شرفي، بل وظيفة حقيقية لها دورهـا في تنظيم قـريش، ودورهـا يعتمد عـلى أصحابهـا، لأن النظام المكي كـان نظام رجـال، لا نـظام وظائف كما قلنا، فالوظيفة بالرجل لا الرجل بالوظيفة، ومما يدل على عمق نظرة الرسول ﷺ أنه بعد أن عاد من معركة بدر ودخل المدينة ظافراً سمع سلمة بن سلامة بن وقش يقلل من أهمية النصر العظيم ويقـول في سذاجـة: إن لقينا إلا رجالاً صُلْعاً! . فقـال له رسـول الله ﷺ: يا ابن أخي، أولئـك هم «أعلى» أي أولئك هم الرؤوس المفكرة المدبـرة، أولئك هم مستقـر القوة القـرشية بـل هم القوة نفسها، وبالفعل لقـد كانت معـركة بـدر معركـة أولئك الـرجال، وكـان القرشيون يدركون ذلك تماماً، فالدور الثالث كله من معركة بدر كان معركة أبي جهل، وقد أدرك المخزوميون ذلك فقاموا دون ذلك الرجل يدفعون عنه وكأنـه «بيضتهم» حتى قتل منهم أكثر من سبعة عشر رجلاً قبل أن يصل المسلمون إليه

ويقضوا عليه. ولم تغب هذه الحقيقة عن المسلمين قط، فقد كان كل منهم يريد قتل أبي جهل حتى إننا لا نعرف في النهاية من الذي قتله منهم، فإذا قلتَ إن أبا جهل لم يقتله فلان أو فلان بل قتله الإسلام لم تَعْدُ الحقيقة، وبالفعل كان مصرع أبي جهل هو مصرع العصر الجاهلي كله، فلم يكن أبو جهل مجرد رجل، بل كان رمزاً لنظام أو روحاً له، فلما قتل انتهى النظام كله.

وهذا يبين لنا جانباً من جوانب عبقرية الإسلام وعبقرية محمد معاً، فإن الإسلام بتنظيمه الاجتماعي وقوامه القانوني وتركيزه على الفضائل الإسلامية والقوى الكبرى التي أودعها الله فيه هو الذي هدم النظام القرشي كله. ومعركة الإسلام مع النظام الجاهلي كانت أعنف وأطول مدى من معركته مع نظامي الروم والفرس، لأن نظم الفرس والروم كانت تقوم على وظائف يملؤها رئيس الدولة، وفي عصور تدهور النظم يجري شغل الوظائف على أساس الهوى أو القرابة أو الوراثة أو ربما الرُّشى، فيضعف النظام كله رغم ضخامة هيكله، ولا يصمد في الدفاع عنه إلا أصحابه والمفيدون منه، وما أقلهم في عصور التدهور. أما النظام المكي القرشي فكان نظاماً جماعياً يفيد منه معظم أفراد القبيلة. ومعظم خصومه كانوا من نزلاء مكة والطارئين عليها والملحقين بالقرشيين ما بين عبد وحليف أو أسير أو تاجر ضعيف. ولهذا طالت المعركة، وكلما زاد ضغط الإسلام زاد إحساس قريش بالخطر وزاد تماسكها، وانتهى الأمر قبيل خروج الرسول ﷺ إلى الطائف إلى تجمد النظام القرشي في مكانه بدافع الخوف. وهنا أدرك الرسول أنه لم تعد هناك فائدة ترجى من ذلك النظام، لأن الخوف يشل التفكير والحقد يوقف الذهن عن التصرف، وهذا هو الذي عناه الله سبحانه وتعالى بآيات بينات مثل قوله سبحانه ﴿أنا جعلنا قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا،وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً﴾ (الكهف ٥٧) و ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وإذا ذكرت

ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً﴾ (الإسراء ١٧/ ٤٥ ـ ٤٦) فهذه صورة أناس شلّ الخوف قواهم الفكرية، فوقفوا مذعورين متماسكين: ﴿وقالوا: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾ (فصلت ٥) أي أننا لن نغير من موقفنا هذا مهما فعلت، وكان كل ما بقي لهم أن يقولوه للرد على القرآن ورسول الله أن تصوروا أنه ساحر أو مسحور: ﴿إذ يقول الظالمون أن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ وفي سورة المدثر آيات تصور هذا الموقف ببلاغة يعجز عنها الوصف، وذلك حين يقول اللّه سبحانه: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة﴾ (٤٨ ـ ٥٠).

والقسورة: ـ أي الأسد ـ هنا هو الإسلام.

وعسى من يحسب أن في هذا الكلام زيادة لقدر القرشيين أعداء الإسلام، وليس أبعد عن الصواب من هذا الظن، فإننا عندما نقلل من أهمية القرشيين ونجعلهم جماعة من الحمقى، فإننا في نفس الوقت نقلل من قيمة نصر الإسلام وتفوق محمد ﷺ عليهم، وما قيمة التغلب على خصم حقير لا يساوي شيئاً؟ حقاً إن الرجل بأنصاره، ولكن الرجل أيضاً بخصومه، وما جعل الناس بعيدين عن إدراك قدر الفترة المكية من حياة الرسول صلوات الله عليه إلا مثل هذا التصوير البعيد عن الحقيقة، فما معنى هذا الدأب على محاورة نفر من الأغبياء والحمقى؟ لقد ظل رسول ﷺ يشد عليهم وحده حتى ضاقت عليهم الأرض، وأوقع في قلوبهم بشخصيته وخلقه وتصرفه هيبة كبرى، وتلك الهيبة هي الحماية التي أضفاها الله على رسوله فلم يجرؤ خصومه عليه، أو هل تحسب أنهم لم يقتلوه خوفاً من أبي طالب وبني هاشم؟ إن أقصى ما كان عليهم أن يؤدوه إذا هم عدوا عليه هي الدية أو الدية المضاعفة وقد عرضوها فعلاً، وما كان بنو هاشم وبنو عبد المطلب وأنصارهم بقادرين على الثبات لخصومهم

الأقوياء طويلاً. ومهما كان الأمر فقد كانوا سيقبلون الدية مهما حاربوا. كان ذلك واضحاً في كل مرحلة من مراحل الصراع، فما الذي أوقفهم عن أن يقدموا على تلك الجناية؟ هيبة محمد ورسالته في قلوبهم. حقاً إن الله عصمه من الناس ولكنه عصمه بالهيبة التي كانت له في النفوس، وهي جانب من عصمة الله إياه مرة أخرى نرى انهم كانوا حمرا مستنفرة فرت من قسورة، والقسورة هنا هذه المرة هو رسول اللّه ﷺ الذي أوتي من الشجاعة والثقة في اللّه وفي نفسه ما جعله يظل رابضاً في مواجهة أولئك القوم يطاردهم فعلاً، حقاً لقد قال اللّه سبحانه وتعالى له: «يا أيها النبي بلغ رسالتك واللّه يعصمك من الناس» ولم يكن هو يشك في أن اللّه سبحانه عاصمه، ولكن إليك خبراً يسوقه ابن كثير يوضح لك جانباً من معنى هذه العصمة، فقد كان رسول اللّه لا ييأس أبداً من استجابة المكيين لما كان يدعو إليه. كان أبو جهل يتجنب لقاءه وهو يلاحقه طمعاً في هدايته وقبل الهجرة بقليل لقي أبا جهل فقال له: أما آن لك أن تشهد ألا إله إلا اللّه وأني رسول اللّه؟ فرد عليه أبو جهل قائلاً: «أما تريد أن تقول إنك بَلّغْت. فقد بلغت!».

وهذه مقالة رجل يريد أن يتخلص من موقف يشعر فيه بضعف أو حرج، فهو لا يكابر ولا يناقش ولا يعنف وإنما يريد أن يتخلص، إنه حمار مستنفر يفر من قسورة. وقد عبر ابن إسحاق عن هذه الهيبة المحمدية تعبيراً بليغاً حين قال: «وقد كان عدو الله أبو جهل بن هشام مع عداوته لرسول الله ﷺ وبغضه إياه وشدته عليه يذله اللّه إذا رآه»[1]، ونعود إلى تحليل رواية ابن اسحاق عن حصار قريش لبني هاشم وبني عبد المطلب في شعبهم ومقاطعتهم إياهم.

ففي الفقرة الأولى نرى القرشيين من أعداء الإسلام يعرضون على بني

---

(١) ابن اسحاق برواية ابن هشام، جـ ١ ص ٣٨٨.

هاشم اقتراحاً يرون أنه معقول من وجهة النظر الجاهلية وهي أن يوعزوا إلى رجل غير قرشي بقتل رسول الله ﷺ حتى لا تكون هناك عداوات وثارات وفي نفس الوقت يقومون هم بدفع الدية إلى بني هاشم، وهم براء منهم أو منهم الدم.

ولم يكن من الممكن أن يقبل أبو طالب وبنو هاشم وبنو المطلب معه اقتراحاً مثل هذا، لأن معناه انهم يبيعون رجلاً من أبناء قبيلتهم بطريقة خسيسة مهينة ثم إن بني هاشم وبني عبد المطلب أدركوا أهمية الدعوة المحمدية بالنسبة لهم، وخاصة أولئك الذين لم يؤمنوا فقد تصوروا كما قلنا أن تلك الدعوة تعيد إليهم هيبتهم ومكانتهم، ومن ثم فإنهم لم يكونوا مستعدين للمساومة عليه. هذا في حدود المنطق العادي، ولكننا ينبغي أن ندخل هنا في حسابنا هيبة محمد في قومه وقد أشرنا إليها فيما سبق، لقد كان أبو طالب شيخهم، ولكن شخصية أبي طالب تضاءلت جداً أمام شخصية محمد، فالذين آمنوا به منهم تمسكوا به لأنه رسول الله ﷺ، والذين لم يؤمنوا تمسكوا به لأنه بدا لهم قوة كبرى تزيد قدرهم، وقد كانت هيبته في قلوبهم أجمعين عظيمة.

وتتحدث الفقرة الثانية عن اتفاق قريش على منابذة بني هاشم أي حصرهم في الشعب، ولا يظن ظان أن دخول الشعب أنه كان محظوراً عليهم الخروج منه فإن منعهم من الخروج والدخول غير متصور. ولكن القرشيين كانوا يستطيعون منع غير الهاشميين وغير المطلبيين من دخول الشعب، لا بقوة حراسة أو شرطة بل باستنكار ذلك واعتباره عملاً لا ترضى عنه القبيلة. وكان لقريش من القوة المعنوية ما يمكنها من جعل القرشيين من غير بني هاشم يتجنبون دخول الشعب تفادياً للمتاعب. أما بنو هاشم وبنو المطلب فإنّ الذين يخرجون منهم من الشعب لا يجدون من يكلمهم أو يعاملهم أو يبيعهم أو يشتري منهم شيئاً، فهم مقاطعون مقاطعة فعلية، ومن هنا فمن الطبيعي أن

نجدهم يقيمون في شعبهم أي حيهم لا يخرجون منه .

وقد نجح الحصار فعلاً وآتت المقاطعة ثمراتها بعد شهور، فندر الطعام في بيوت بني هاشم حتى جاع الأطفال والضعاف وتأذى الشيوخ، وأسوأ من ذلك أن المقاطعة أكلت أموال بني هاشم وبني عبد المطلب، فهؤلاء كانوا جميعاً تجاراً يعيشون من البيع والشراء. ولم يكونوا في جملتهم من الأثرياء ذوي رؤوس الأموال الكبيرة فبان عليهم الفقر وجاع الناس حتى كان يسمع بكاء الأطفال، مما يدل على أن الحصار والمقاطعة كانا محكمين أي أن قريشاً دون شرطة أو سجون استطاعت أن تسجن ـ جذمين كبيرين من أجذامها سجناً فعلياً وتكبدهم خسائر جسيمة هي أشبه بالمغارم المالية التي توقعها المحاكم على الناس، ومعنى ذلك أن قريشاً كانت لها بالفعل سلطة تنفيذية حقيقية تستطيع بها أن تعاقب وتؤدب من تريد عقابه وتأديبه، وإذا كان العقاب قد وقع هذه المرة بالفئة الصالحة التي كانت تريد لقريش خيراً عظيماً لم تتبينه بصائر رجالها، فإنه لا بد أنه كان كفيلاً بحماية قريش مما يرى رجالها وملؤها أنه خطر يهددها.

وفي الفقرة الثالثة نرى حديثاً عن هجرة من بقي من المسلمين الذين خاف عليهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الحبشة، ونظن أن المراد بذلك الهجرة الكبيرة الثانية إلى الحبشة التي ذكرها المؤرخون، وقد تبين لنا من الدراسة أن الهجرة إلى الحبشة بدأت بعدد كبير من المسلمين بعد وقوع المواجهة الصريحة بين المسلمين والمكيين عقب خروج المسلمين من دار الأرقم بعد إسلام عمر وتحديهم لقريش بالمجاهرة بالإيمان والصلاة وقراءة القرآن في الكعبة ثم استمرت في صورة تيار صغير متصل، فقد انفتح باب الهجرة وعرف المسلمون إلى أين يتجهون للنجاة بدينهم بعد أن أذن لهم رسول الله ﷺ في ذلك ثم كانت هذه الهجرة الكبيرة الثانية عندما اشتدت المقاطعة وخاف رسول الله على من بقي من أصحابه مكشوفاً لعدوان القرشيين، وتلك هي الموجة

الثانية الكبيرة من المهاجرين إلى الحبشة، وعددهم ٨٣ رجلاً وإحدى عشرة امرأة من قريش وسبع «غرائب» أي غريبات عن قريش وقد أورد لنا ابن هشام بياناً وافياً بهن نقله عن ابن اسحاق(١).

والفقرة الرابعة تدل على تماسك بني هاشم وبني عبد المطلب، فقد دخلوا جميعاً الشعب وتمسكوا بقومهم، فالمؤمن منهم تمسك ديناً وغير المؤمن تمسك حمية، ومن الممكن تعميم ذلك على بقية بطون قريش، فإن الجانب الآخر ـ أقصد المشركين ـ وقف متماسكاً مصراً على ما قدره من ارغام المخالفين على طاعة القبيلة والتخلي عن محمد وإسلامه، وأغلبيتهم فعلت ذلك اقتناعاً والبقية نفذته اتباعاً على سبيل التمسك بالعصبية القبلية.

وفي الفقرة الخامسة نرى كيف كانت عملية الحصار والمقاطعة تتم، فالفقرة تتحدث هنا عن تشديد قريش لإجراءات الحصر والمقاطعة، ونرى هنا كيف فعلت قريش ذلك، فهي لم تصدر إلى أفرادها قراراً بمقاطعة الهاشميين والمطلبيين بل تفاهم رجالها على ذلك ضمناً: قرره الملأ ونفذه الباقون، وبدلاً من أن يحرموا التعامل مع من اعتبروهم خصومهم، فلم تكن لديهم الأداة التنفيذية لذلك بل كانوا إذا أراد الهاشميون شراء شيء من الطعام والميرة (الرِّفَق) بادروا إلى شرائه من دونهم، وإذا أراد الهاشميون بيع شيء لم يجدوا من يشتريه منهم، فركدت سوقهم وتوقف التعامل معهم، وحرموا دخول الطعام إلى المحصورين لا بإيقاع عقوبة عليهم وإنما بتذكير من يقدم على ذلك بأنه يفعل شيئاً معادياً للجماعة ويُعَرِّضُ نفسه تبعاً لذلك للعقوبة بالمقاطعة وربما أشد.

والفقرة السادسة ترينا نوعاً آخر من أنواع العقوبات التي قررت قريش

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/٣٤٤ وما يليها. والنويري، نهاية الأرب ٦/٢٤٣ وما بعدها.

إنـزالها بتلك الفئـة التي اعتبرتهـا خارجـة على نـظامها مهـددة لسلامتهـا وأمنها وسمعتها وهو إيقـاف المعاهـدات بين بني هـاشم وبني عبد المـطلب وبين بقيـة قـريش وسكان مكـة وتلك عقوبـة قاسيـة ومهينة، لأنها تعتـبر بني هـاشم وبني المطلب أعداء ألـداء لبقية قـريش وتهينهم لأنها تعتبـرهم أدنى مقـامـاً من بقيـة القبيلة ولا ندري إن كانت تلك العقوبة قد نفذت أم لم تنفذ، ولكن وقعها لا بد أنه كان أليماً على المقاطَعِينَ على أيِّ حال.

والفقرة السابعة تبين الشروط التي وضعتها قريش لرفـع هذه العقـوبات القاسية عن بني هاشم وبني المطلب فهي لن تصـالحهم ولن تأخذهم بهم رأفـة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وهذا الشرط يبين لنـا مقدار ثقـة قريش في نفسهـا وإصـرارهـا عـلى إذلال بني هــاشم وبني المـطلب إلى أقصى درك يمكن تصوره بالنسبـة لبطنـين رفيعي القدر في أنفسهم مثـل بني هاشم وبني المـطلب ومن الواضح أن هذين الحيين مـا كان من الممكن أو حتى من المتصـور أن يلقيا مثل هذا الهوان، فإنهما كانا فريقين قويين لهما قوة وحسب وجلال ومكانة ولهذا فإن هذا الشرط من جانب قريش كان شرطاً أملاه السفه والغرور، وما كان من الممكن أن يرضخ المحاصَرُون لهذا العَنَتِ والشطط.

والفقرة الثامنة تقرر أن قريشاً كتبت بهذا القرار أو العهد كتاباً علقوه على الكعبة، وهذا هو الغالب، ولا معنى لإنكار إمكانيـة كتابتـه وتعليقه في الكعبـة بحجة أن قريشاً كانت قبيلة أمية في الغالب والواقع أن قـريشاً كـانت غالبيتهـا العظمى من الأميين، فما كانت هناك حاجة لهذه الغالبية إلى أن تكتب، ويكفي أنه كان من القرشيين من يكفيهم حـاجتهم من القراءة والكتابة.

أما ما يرد في الفقرة التاسعة من أن العمل بما في هذه الصحيفة استمر ثلاث سنوات فجائز وإن كان الأقرب إلى المنطق وحساب توقيت الفترة المكية أن مدتها كانت سنتين كما ورد في بعض الروايات.

والفقرة العاشرة تقرر أن البلاء اشتد على بني هاشم ومن كان معهم في شعبهم، أي أن سلاح الحصر والمقاطعة بلغ ذروة تأثيره وسريانه.

وإنه لما يدعو إلى التأمل كيف أن قريشاً استطاعت دون عنف ودون وجود قوة تنفيذية ظاهرة من أن تنزل عقاباً شديداً بجماعتين من جماعات قريش القوية هما بنو هاشم وبنو المطلب، فقد نال الجماعتين أذى شديد، وأثبتت العقوبة فاعليتها، فإلى جانب ما ذكرناه من أسباب الجماعتين من فقر ومقاطعة كاملة توقف دخول الناس في الإسلام خوفاً من أن يصيبهم ما أصاب من لّا يرضى عنهم ملأ قريش، ومع أن المحاصرين والمقاطَعين لم يكونوا سجناء في حيهم فقد كانوا يستطيعون الخروج والدخول إلا أنهم إذا خرجوا لم يجدوا من يبيعهم أو يشتري منهم أو حتى يكلمهم مما أدى بهم في النهاية إلى لزوم شِعبهم والشِّعْب هو الحي كما قلنا. وهذا يدل على أن سلطان قريش في مكة لم يكن مجرد رمز، وهذه حقيقة ينبغي أن ننبه عليها. وهنا يتحرك عصب آخر من عصبات تكوين قريش ويبدأ في العمل فقريش لم تكن دولة وإنما هي قبيلة، والقبيلة تكوين اجتماعي أولاً وسياسي ثانياً، وروابط القرابة بين الأفراد ووشائج الرحم والصهر بينهم هي أساس تكوينه وقوته، فالناس يعملون فيه بالولاء للقبيلة في مجموعها أولاً أو في اتجاه الخارج، ثم بعواطف القرابة والولاء للعواطف والعلاقات الفردية ثانياً ونحو الداخل. وهذا الولاء هو في نفس الوقت الولاء للقبيلة وهما أساس قوتها كوحدة سياسية واجتماعية، والقرار الذي اتخذته قريش حيال بني هاشم وبني المطلب قرار سياسي يتعارض أساساً مع العواطف القبلية العصبية الفردية أي أنه يتعارض مع التكوين الداخلي للقبيلة وتنظيمها.

ثم إنه كان قراراً ضد اثنين من أكبر البطون المكونة لقريش هما بنو هاشم وبنو المطلب، وعلاقات الصهر والقرابة بين هذين البيتين وبقية بيوت قريش كانت وثيقة فأم محمد ﷺ من بني زهرة كلاب بن مرة بن كعب بن

لؤي بن غالب بن فهر، وزوجته أم المؤمنين خديجة من بني أسد بن عبد العزي ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وحمزة بن عبد المطلب وهو أخ أصغر لأبي طالب كان ابناً لابنة عم آمنة وهي هالة بنت وهيب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وعمر بن الخطاب هو ابن حنتمة بنت مقبل من بني عدي بن كعب بن لؤي، وهو أخو فاطمة زوج سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل بن عبد العزي من بني كعب بن لؤي، وأبو سلمة بن عبد الأسد كان ابن عم لأبي جهل، فهو عبدالله بن عبد الأسد بن هلال بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة، وأبو جهل هو أبو الحكم عمرو بن هشام بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة، وعثمان بن عفان هو ابن أبي العاصي بن أمية الأكبر بن عبد شمس، فهو ابن عم لأبي سفيان بن حرب. والأرقم بن أبي الأرقم كان ابن عم لأبي جهل، يجتمع نسبهما في عبدالله بن عمر بن مخزوم، وهكذا. فلم يكن أحد من أولئك المحصورين المقاطَعين إلا قريباً لواحد أو أكثر من المقاطِعين المحاصرين.

وكان طبيعياً والحالة هذه أن يتحرك نفر من القرشيين لعون بني هاشم وبني المطلب وأقاربهم من المحصورين بشيء من الطعام، وكان أكثر الناس إقداماً على ذلك هشام بن عمرو بن الحارث العامري وكان قريباً لخديجة، فقد كان يغافل قريشاً ويدخل أحمال الطعام إلى بني هاشم في الشِّعب، فعرف القرشيون ذلك وكلموه فيه، وكان قد حمل في ليلة واحدة ثلاثة أحمال طعاماً، فلما كلموه في الصباح قال: إني غير عائد إلى شيء خالفكم! ثم عاد يغافل قريشاً حتى حمل إلى المحصورين في ليلة حملاً أو حملين من الطعام، يريد القمح فغالظوه وهموا به فتدخل أبو سفيان وقال: دعوه، رجل وصل رحمه، أما والله إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن.

وجرؤ على تخطي قرار المقاطعة ـ بدافع الرحم ـ حكيم بن حزام. وكان ابن أخٍ لخديجة فهي عمته، فحمل إليها في الليل طعاماً، فعاتبه في ذلك أبو

جهل، فتدخل أبو البختري العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزي وهو ابن عم لخديجة، وقال لأبي جهل: طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خَلِّ عن الرجل. فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ البختري لحي بعير، فضربه به فشَجَّه. ووطئه وَطْئاً شديداً(١).

وشيئاً فشيئاً بدأ القرشيون من ذوي المروءة والإحساس الإنساني يتحركون لإيقاف هذا العقاب الأليم لنفر من أبنائهم وبناتهم وأبناء عمومتهم بسبب متابعتهم لمحمد رسول الله على ما كان يدعو إليه، وكان أكبر المتحمسين لذلك المطعم بن عدي وكان كذلك قريباً لخديجة وأبو البختري العاص بن هشام الذي ذكرناه، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي وزمعة بن الأسود ابن المطلب وهو ابن عم لرسول الله ﷺ وكان عضواً ظاهراً من بيت المطلب بن عبد مناف المحاصَر المقاطَع.

وهنا يأتي تعليقنا على الفقرات الحادية عشرة وما يليها وكلها تتعلق بنقض الصحيفة فيما عدا الفقرة الثالثة عشرة التي تدور حول خوف أبي طالب على ابن أخيه محمد من أن يناله أذى أثناء الحصار، فكان يطلب إليه إن يغير مكان نومه كل ليلة، وهو خوف مفهوم، لأن محمداً ﷺ قد أصبح بدعوته فخر بني هاشم ورمز عزتها، فمن آمن به من بني هاشم كان يتبعه ويصدقه فيما قال ويعتبر نفسه من رجاله، ومن لم يؤمن به بَعْدُ منهم كان يتحمس له حَمِيَّة واعتزازاً بالقرابة والعصبية، ولا شك في أن أبا طالب كان يحرص على سلامة محمد بدافع العصبية أولاً ثم بدافع من الإحساس بأهمية ما كان يدعو إليه ابن أخيه بعد ذلك، فهؤلاء عددٌ كبير من بني هاشم رجالاً ونساءً يؤمنون به، ثم إن الدعوة في ذاتها أعطت بني هاشم أهمية كبرى بعد أن أخملهم غيرهم بعد موت

(١) ابن سيد الناس، عيون الأثر ١/١٣٠. والخبر هنا عن محمد بن اسحاق برواية ابي عمر بن عبد البر النمري بسند متين يختلف عن سند البكائي في روايته لنص ابن اسحاق وهي الرواية السائدة عند الناس وهي التي اعتمد عليها ابن هشام.

عبد المطلب، وقد سبق أن قلنا إن تحمس أبي طالب لمحمد كان تحمساً عصبياً سياسياً، فهو لم يؤمن بالإسلام وهو مَسُّ قلبه، ولكنه ظن أن الدعوة الإسلامية طريق لبني هاشم للانتصاف من خصومه واستعادة مكانتهم.

ويروي ابن سيد الناس خبر نقض الصحيفة في أسلوب له طعم القصص وقد مهدنا لنقض الصحيفة تمهيداً تاريخياً منطقياً بعيداً عن حديث الأرَضَة وأكلها لكل شيء كتبته قريش في الصحيفة إلا اسم الله سبحانه وتعالى أو أكلها لاسم الله سبحانه وتعالى لأننا في معرض التاريخ الصرف لا نحتاج إلى هذا القصص ولكننا لا نرى إنكار هذه الأخبار التي تعطي لبعض فقرات السيرة طابع المعجزات أو تصورها بصورة خارجة عن المألوف ولا ضير على من يريد أن يرددها فهي على أي حال لا تدخل في صميم التاريخ، ثم إننا هنا نتحدث عن نبوة ورسالة وسيرة نبي مرسل كريم اختصه الله برسالته السماوية، والإيمان بها عقل وعاطفة، وليس من الضروري إذن أن نستبعد الأخبار الصادرة عن فيض العاطفة وإن كانت قصصية الطابع، والقصص الذي يصدر عن العاطفة الصادقة مثل هذا الخبر يضيف إلى التاريخ عنصراً عاطفياً إنسانياً لا غنى له عنه، فمن أراد أن يأخذ بحديث الأرَضَة ودورها في نقض الصحيفة فهو وذاك. وأنا أجد في هذا الحديث وأمثاله طلاوة وتعبيراً عن عاطفة كريمة. وأنا إذ أقول ذلك لا أنكره ولكني أقول إن السياق التاريخي للحوادث لا يحتاج إليه دون أن يشكك فيه من يريدون الأخذ به. ولا محل للتشكك في تفاصيل تتصل بالنبوة، ومقامها عندنا وعند غالبية المسلمين وإنكارها على أساس أنها لا تجري مع المنطق إنكار لا معنى له. وما بال أقوام يقرأون خبر شَقِّ صدر النبي وتطهيره على يد ملكين مثلاً فينكرونه ويحتكمون فيه إلى المنطق مع أن التسليم بذلك لا يخرج في طبيعته ومعناه ومغزاه عن التسليم بنزول الوحي، وحديث جبريل وإقرائه القرآن إن أصحابنا هنا ينسون أن الموضوع كله يتعلق برسالة سماوية وبرسول اختاره اللّه لحمل هذه الرسالة وقرآن

كريم لا يشك مؤمن في أنه كلام اللّه سبحانه الذي تنزل على محمد صلوات اللّه عليه بالصورة التي وصفها لنا ﷺ دون أن يكون لدينا دليل على ذلك إلا إيماننا برسول اللّه ﷺ وصدقه وأمانته وتبيُّننا من النظر في القرآن الكريم وتأمل آياته وما فيها من الحق والحكمة والإعجاز والخير العميم للبشر أجمعين. هذا مع علمنا بأننا إذا أنكرنا الوحي والرسالة وألوهية القرآن فقد خرجنا عن نطاق الإيمان جملة ولم يعد لنا سبيل إلى الكلام في الإسلام والرسالة والرسول. أما حديث شق الصدر وتطهير القلب فهو تفسير لقول الله سبحانه إن الله اصطفى محمداً وطهره قبل أن ينزل عليه الرسالة، فإذا كانت الأحاديث الصحيحة المسندة ترينا كيف طهر الله نبيه بشق صدره على يد ملكين وإخراج الشر من صدره فما وجه العجب في ذلك، ولماذا نستنكر أن يكون تطهير الله لنبيه عليه الصلاة والسلام قد تم على الصورة التي تجمع عليها الأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري ومسلم وبقية أصحاب الصحاح والمسانيد وأصحاب كتب السنن. وقد روينا أخبار نقض الصحيفة رواية تاريخية منطقية، فإذا أراد بعض مؤرخي السيرة أن يضيفوا إلى ذلك حديث القلب والعاطفة والقصص فأي بأس في ذلك؟!

إن من أجمل خصائص سيرة المصطفى ﷺ أن رسول الله لم يعتمد في إدخال الناس في الدين على معجزات أو كرامات مع تيسر إجرائها على يديه إذا شاء ذلك رب العالمين، والقرآن نفسه يؤكد ذلك مرة بعد أخرى، لأن المعجزة أو الكرامة قد تذهل من يراها وتدفعه إلى التسليم دفعاً، فماذا يكون الحال مع من لم يروا وقوع المعجزة؟ وماذا يكون حال الأجيال التالية لمن لم يروا المعجزة أو الكرامة؟ هنا تقول المسيحية الكاثوليكية باستمرار المعجزات والكرامات بعد عيسى صلوات الله عليه ومن هنا جاءت ظاهرة القديسين عندهم، وهي ظاهرة برأ الله الإسلام منها وحماه بها اكتفاء بمعجزة واحدة كبرى هي القرآن الثابت المتواتر بصحة وسلامة إلى يومنا هذا، فمن لم يؤمن بإعجاز القرآن الخارق فهو لن يؤمن بأي شيء آخر، فأي فعل خارق يعدل القرآن في القوة والإقناع؟ وكل

معجزة قام بها نبي قبل محمد هي أدنى بكثير من معجزة القرآن نفسه بما في ذلك إحياء الموتى وشفاء المرضى وما إلى ذلك وتحول العصا إلى حية وجمع أشلاء الطير الممزق وبعثه حياً بإذن الله مما يحدثنا القرآن به عن غير محمد ﷺ من الأنبياء والمرسلين، وفي القرآن في ذلك آيات بينات لعل أقربها إلى الذهن قوله تعالى:

﴿قل: لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل

فأبى أكثر الناس إلا كفورا

وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً

أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً

أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً

أو تأتي بالله والملائكة قبيلا

أو يكون لك بيت من زخرف

أو ترقى في السماء

ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه

قل سبحان ربي: هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ (الإسراء ٨٨ ـ ٩٣)

فهنا نرى كيف كان القرشيون يتحدون محمداً ﷺ طالبين إليه أن يأتيهم بمعجزة لكي يصدقوه، وهم يشتطون في مطالبهم، بل ينصون على نوع المعجزة التي يطلبونها حتى يطلبوا إليه أن يرقى إلى السماء، وحتى لو رقي إلى السماء أمام أعينهم فهم لن يصدقوه حتى ينزل إليهم بكتاب من السماء يقرأونه، ويكون رد القرآن على هذا التحدي كله إعجازاً في ذاته فهو يأمر محمداً بأن يقول لهم ذلك القول الذي يعتبر وحده معجزة محمدية ينفرد بها الإسلام: ﴿قل هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ فما هو بصانع معجزات وإنما هو نبي، لأن معجزته الكبرى هي هذا القرآن، ولهذا فقد بدأت الآيات بقوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس

والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ أي معيناً. وهو لهذا معجزة مستمرة الحدوث والتأثير يتبينها الإنسان كلما قرأ القرآن، ومن هنا فلا حاجة لمحمد إلى معجزة أخرى. وهذا كله لا يمنع من القول بأن من يريد أن يدخل المعجزات في صميم السيرة فهو وما يريد، ومذهبه في هذا لا يتعارض مع صميم المنهج التاريخي.

إن الأمر هنا يتعلق بنبوة ورسالة، فالتصديق بها يكون بالإيمان أولاً ثم بالمنطق، وفي الآيات السابقات نرى مثالاً لذلك. فالقرآن هنا يقول لمحمد صلوات الله عليه أن يرد على المُتَحَدِّين له بأنه بشر رسول، فإذا لم يؤمنوا بالرسالة اعتماداً على ما يرون من إعجاز القرآن وصدق الرسول فلا معنى لإقناعهم بإجراء معجزة، وعبارة: «قل سبحان ربي، هل كنت إلا بشراً رسولاً»، فيها بلاغ، فمن صدقه في قوله هذا فقد آمن، وبدون هذا التصديق فلا إيمان، وما دمنا قد صدقنا بالرسالة والوحي فهذا هو المهم والأساس، والبخاري ومسلم عندما يرويان حديث شق الصدر فهما يصدران في تصديقه عن إيمانهما بصحة الرسالة، ونحن نروي السيرة النبوية دون حاجة إلى الاستشهاد بمعجزات. وليس من الضروري في هذه الحالة أن نقول إن شق الصدر مستحيل، لأن شق الصدر وإخراج العلقة للتطهير لا يختلف في طبيعته عن نزول القرآن ووحيه إلى محمد، وهذا من ذاك، وفي إمكانك أن تروي السيرة رواية سليمة دون أن تعرض لحديث شق الصدر لأن الدعوة تعتمد أساساً على القرآن الكريم وعلى شخصية محمد صلوات الله عليه وخلاله وشمائله ومنهجه في الدعوة وذكائه البعيد وخلقه العظيم وبسالته في أداء رسالته وقدرته على اجتذاب الناس وإقناع من يهديه الله منهم بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة وحنوه البالغ على المسلمين وحرصه الشديد على المحافظة عليهم في ثباته في مواجهة الخصوم مع الحلم والشجاعة، ولا شك في أن اجتماع هذه الخلال كلها في رجل واحد أمر عجيب، وحسن استخدام محمد

لهذه الخلال كلها أمر معجز حقاً وخارق لما نعرفه من خلال الناس.

ونعود إلى ما استطردنا عنه لنقول إن الحصر في الشِّعب والمقاطعة انتهيا بعوامل تتصل بنفس عوامل قيامها وهي العصبية القبلية، فإذا كان القرشيون قد قرروا المقاطعة فقد دفعهم إلى ذلك الخوف على مصير قريش، وإذا كان بعض رؤسائهم قد قرروا إيقاف المقاطعة والحصار فإن دافعهم إلى ذلك كان الخوف على مصير فريق من قريش أشرفوا على الهلاك وكان أسلوبهم في تنفيذ قرار المقاطعة قبلياً عصبياً يعتمد على الطاعة الواعية لرياسة القبيلة وهي الملأ. ولهذا كانت للقرار قوة تنفيذية وفاعلية، فقد قوطع بنو هاشم وبنو المطلب مقاطعة فعلية وسجنوا في شِعبهم سجناً أفعل من السجن وراء القضبان. .

وكان الذين نادوا بنقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة من صميم ملأ قريش، أي من كبار القوم ممن لهم قوة إبداء الرأي، وقد استندوا في ذلك إلى حجج قبلية أيضاً وإن كانت لها خلفية إنسانية. فهشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث (من بني عامر بن لؤي) كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه «فكان هشام لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه» وزهير بن أبي أمية ابن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم كانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فهو ابن عمة رسول الله ﷺ وكانت عاتكة هذه قد أسلمت سراً، وهي صاحبة الرؤيا المشهورة التي أخافت قريشاً من الهزيمة قبل بدر، وكانت اختها صفية بنت عبد المطلب مسلمة في السر كذلك، وكانت من الشخصيات ذوات المكانة الكبيرة في مكة، ولها دور كبير في نشر الإسلام بين المكيين. وكان زوجها الأول في الجاهلية الحارث بن حرب بن أمية أخا أبي سفيان وله منها أولاد، ومات عنها فتزوجها العوام بن خويلد وأنجبت منه الزبير بن العوام صاحب رسول الله ﷺ.

أما المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وهو ثالث من قاموا في

نقض الصحيفة فقد كان أبوه نوفل أخاً لهاشم جد النبي، وقد دفعه إلى التحرك خوفه على بني هاشم وهم قومه فقد قال له هاشم بن عمرو زعيم المنكرين لأمر الصحيفة: «فقد، رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه، أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً[1]» وإذن فقد اعتمد هشام بن عمرو في تحريك المطعم بن عدي على عنصر العصب، وخوفه من مغبة التهاون في أمر بني هاشم لأنه لو سكت على هذه لأسرع أعداء بني هاشم إلى القضاء على بني نوفل بن عبد مناف وهم أبناء عم بني هاشم.

وبالفعل تحرك هشام بن عمرو (من بني عامر بن لؤي) وزهير بن أمية (من بني مخزوم وأمه عاتكة بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ) والمطعم بن عدي (من بني نوفل بن عبد مناف) والبختري بن هشام، ثم انضم إليهم زمعة ابن الأسود بن المطلب بن أسد، تحركوا لنقض الصحيفة أي لكسر قرار قريش وطالبوا بشق الصحيفة، فتعرضت لهم قريش في شخص أبي جهل ممثل قريش كلها والجاهلية، «قال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لانشق (والكلام هنا موجه إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد الذي تصدى للكلام باسم المعترضين)، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب. ما رضينا كتابتها حيث كتبت. وقال البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقرُّ به. وقال المطعم بن عدي: صدقتما ، وكذب أبو جهل فما كان محمد ليرضى بأن يوقف الدعوة، وما كان على أي حال مستعداً لقبول حماية من أبي جهل، إذا كان هذا يتطلب منه التوقف عن الدعوة.

ولكنه يعود إلى مكة الآن ويريد أن يستمر في دعوته، ولهذا فقد فكر في أن يدخلها في جوار واحد من كبار أهلها، قال ابن اسحاق: إن رسول الله ﷺ

---

(1) ابن هشام: ١/ ٣٧٥.

بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف والحليف لا يجير، فبعث إلى سُهيل بن عمرو فقال إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم ابن عدي فأجابه[1]. والخبر على هذه الصورة يبعث على كثير من التساؤل فإن رسول الله ما كان يطلب الجوار من الأخنس بن شريق وهو يعرف أنه حليف أو من سهيل بن عمرو وهو من حسل بن عارم بن لؤي، وهم يدخلون في قريش الظواهر، وقريش الظواهر لا يجيرون على قريش البطاح ولكن طلب الجوار من المطعم بن عدي معقول لأن عدياً والد المطعم هو نوفل بن عبد مناف، فهو ابن عم لرسول الله ﷺ، وكان من أهل الشهامة والشرف، قال فيه ابن حزم: وكان شريفاً، وهو الذي أجار رسول الله ﷺ منصرفه من الطائف[2]. والذي يعنينا هنا في تنظيم قريش أن سلطانها على مكة بلغ من القوة بحيث لم يكن أحد ليستطيع أن يدخلها إلا في جوار رجل منها أي في حمايته، فكأن مكة كانت فعلاً مدينة قريش وهي صاحبة السلطان الأعلى فيها. بل إن بطون قريش البطاح هي نواة قريش وهي الأصل وقريش الظواهر تجيء في المرتبة الثانية.

على أي حال لم يكن رسول الله في حاجة إلى جوار أحد، وقد كانت له من الثقة في ربه وفي نفسه ما لا يحوجه إلى حماية بشر، ثم إنه وقد نفض يده من قريش ما كان ليدعو أحداً منها إلى الإسلام كي لا يزيدها خوفاً، فاتجه ببصره نحو الأعراب حول مكة وإلى الواردين عليها من الغرباء، ولم تكن قريش لتخشى شيئاً من هذه الناحية لأنه لا يمس كيانها أو يهدد وحدتها ومصالحها.

وقد أحست قريش أنها انتصرت على محمد بذلك وأمنت على وحدتها وديانتها ونظامها الاجتماعي من دعوته، فاطمأن بال رجال قريش من هذه الناحية وتركوا محمداً يخرج من مكة إلى الأسواق وإلى منازل القبائل يدعوها ثم

---

(١) ابن اسحاق في نهاية الأرب للنويري، جـ ١٦/ ص٢٨٢.
(٢) جمهرة انساب العرب: ص ١١٥.

يعود، وقد يخرج وحده أو قد يخرج معه أبو بكر، وقد بذل أبو بكر في ذلك الوجه جهداً عظيماً، وخفف عن محمد بعض ما يلقى من رفض الأعراب وقلة اكتراثهم لما يقول أو عدم استجابتهم له. . . ومن الواضح أنهم كانوا في ذلك تبعاً لقريش في الرأي. فقريش تتزعمهم فكرياً ودينياً واقتصادياً، ثم إنهم أوغل في القبلية من قريش وما دامت قريش وهي قبيلة محمد ﷺ قد أنكرت دعوته، فالأعراب أيضاً ينكرونها. وظل محمد يخرج إلى القبائل البدوية ويدعو بينها بلا نتيجة تذكر فيعود إلى مكة ويدعو من يطرأ عليها من الغرباء والحجاج، لأن الله سبحانه وتعالى ادخر الإسلام ونعمته الكبرى لقوم من أولئك الطارئين على مكة وهم أهل يثرب من الخزرج فيهم أسعد بن زرارة بن عدس وعوف بن الحارث بن عفراء ورافع بن مالك وقطبة بن عامر بن حديدة ومن إليهم من أهل العقبة الأولى ممن استمعوا إلى الرسول ﷺ وصدقوه ووعدوه بأن يحدثوا قومهم بأمره ثم يعودوا وهم بهذا اللقاء الحسن الذي هداهم الله به إلى الإسلام قد فتحوا لأنفسهم ولقومهم أبواب الخير والهداية وباب التاريخ أيضاً. وإذا كان تماسك قريش وحرصها على مصالحها قد حرمها من أن تكون حاملة راية الإسلام هذه المرة، فإن اختلاف أمر أهل المدينة كان الباب الذي فتح للإسلام أبواب المدينة ليدخلها ويستقر فيها، لأن صالح أهل يثرب وصالح الإسلام اتفقا بسبب هذا الخلاف القبلي الداخلي. فقد كانت المدينة في حاجة إلى من يلم شعثها، وكان الإسلام في حاجة إلى قوم يلتمسون راية تجمعهم وقيادة توحدهم وطريقاً جديداً يسيرون فيه، فكانت المدينة وأهلها حلا لمشكلة الإسلام، وكان الإسلام حلا لمشكلة المدينة. ومن هنا كان هذا اللقاء السعيد الذي يعتبر من أسعد لقاءات التاريخ، وبينما كانت قريش تشكر لآلهتها نصرها على محمد ودعوته كانت لا تعلم أن هذه الآلهة نفسها أو قل تمسك قريش بها قد حال بينهم وبين أن تكون قبيلتُهم السابقة الأولى إلى الإسلام وحاملة نعمته وبركته.

نساء قريش والدّعوة الإسلاميّة :

استراحت قريش إذن من ناحية محمد، ولكن عيون رجالها ظلت عليه فإذا كان هو قد اتجه بالدعوة إلى غير القرشيين أو غير المكيين، فإن الدعوة كانت تدب دبيباً رفيقاً إلى قلوب من لم تكن لديهم دوافع خاصة أو مصالح مادية تربطهم إلى النظام القديم أو تجعلهم يحرصون على بقائه، فكان الكثيرون من القرشيين يسلمون بقلوبهم، وربما اتصلوا بمحمد وأعلنوا إليه إسلامهم أو أسروه في نفوسهم مخافة القرشيين حتى تحين الفرصة لإعلانه. وقد كان لعلاقات القرابة هنا دور كبير، لأن الأقارب يتلاقون ويترابطون بوشائج الرحم، ومن وشائج الرحم تنشأ مصالح وارتباطات. وهنا نتبين أن نساء قريش كان لهن دور كبير جداً في نشر الإسلام بين القرشيين في هذه الفترة وهي السنوات الثلاث الأخيرة من الدور المكي، لأن الدعوة الإسلامية لم تجد عند هؤلاء النسوة ما يمنعهن من اعتناقها، ففيها رحمة ومودة وفيها أمل في حياة أسعد من الحياة الدنيا وفيها مثالية تجتذب القلوب الرقيقة وفيها ـ أخيراً ـ حقوق للمرأة وأبواب لحرية نفسها وملك زمامها لا وجود لها في النظام القرشي القائم.

وسنأخذ هنا مثالاً من بيت عبد المطلب الذي ينحدر منه رسول الله ﷺ لنرى كيف أن نساء قريش قمن بدور واسع المدى في نشر الإسلام بين قريش وأحلافها من أهل مكة.

ونبدأ فنعطي هنا بياناً بأولاد عبد المطلب بن هاشم وبناته وأمهاتهن، ونظراً لكثرة الأولاد فسنوردهم في جدولين:

عبد المطلب

عبد المطلب — عبد مناف — الزبير — ام حكيم — عبدالله — مرة — أمية — أروى — حمزة — المقوم — حجل — صفية

ام حكيم: البيضاء
أمية: عاتكة
حجل: المغيرة

والد الرسول ﷺ

أبو طالب — (توءمان)

أمهم : فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم

أمها فاطمـة بنت عبدالله . . . من عـدوان

أمهم : هالـة بنت أهيب من بني زهرة

أمها العبلة بنت المـطلب بن عبد مناف بن قصي.

بقية أولاد عبد المطلب

العباس — ضرار

أمهما قتيلة بنت جناب من النمر بن قاسط

الحارث (أكبر ولده) — قثم

أمهما صفية بنت جندب من عامر بن صعصعة من بكر بن هوازن أخوهما لأمهما الأسود من خزاعة

أبو لهب عبد العزي

أمه لبنى بنت هاجر من خزاعة

أمه خزاعية أخوه لأمه عوف بن عوف من زهرة بن كلاب

فعبد المطلب جد الرسول ﷺ تزوج ستاً من النساء: واحدة من بني مخزوم وواحدة من بني زهرة بن كلاب وواحدة من بني عبد مناف بن قصي، وواحدة من بني زهرة بن كلاب، وثلاث خزاعيات وواحدة من النمر بن قاسط من قيس عيلان.

وهؤلاء النسوة أنجبن له ثمانية عشر منهم أحد عشر ولداً وسبع بنات. فأما الرجال فلم يسلم منهم حتى نهاية الفترة المكية إلا واحد هو حمزة. وأما النسوة فلدينا ما يدل على أنهن جميعاً أسلمن إما قبل هجرة الرسول إلى المدينة أو قبل فتح مكة على أي حال، بل لدينا ما يدل على أن بعضهن مثل صفية وعاتكة كن عاملات نشيطات في نشر الدعوة داخل قريش نفسها. وصفية بالذات كانت تحب رسول الله ﷺ وتفخر به، وكانت سيدة قوية باسلة وثيقة الإيمان وكان أحب أخواتها إليها حمزة رضي الله عنه، وكتب السيرة كلها تذكر حزنها عليه وإصرارها على رؤيته بعد استشهاده والتمثيل بجسده في أُحُد. وهي أم الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ. وأسلمت بعدها أختها أروى وهي أم طُلَيْب بن عمير، وفي طبقات ابن سعد أنها كانت بعد إسلامها: تعضُد النبي ﷺ وتعينه بلسانها وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره(١). وأما عاتكة فهي صاحبة الرؤيا التي أرعدت القرشيين وتنبأت بمصارعهم في بدر.

وكتب الصحابة حافلة بأخبار الصحابيات من بني هاشم وبني عبد المطلب بل من بني عبد شمس ومخزوم ممن أسلمن قديماً، كما يقول أصحاب كتب السيرة. وما كن يقمن به من الجهد في الدعوة بين النساء والرجال من قرابتهن. وقد زاد إقبال أولئك القرشيات على الإسلام بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وانتشار دعوته وارتفاع شأن المدينة وأمة الإسلام بها، كأنهن كن يرين أنهن القرشيات أولى بهذه الرتبة وعلو المكانة من غيرهن، وبعد الحديبية بالذات وانفتاح الطريق بين مكة والمدينة اندفعت أولئك القرشيات في طريق

(١) طبقات ابن سعد ٨/٢٨.

الدعوة وكثـرت وفودهن عـلى المدينـة وما منهن إلا أدخلت في الإسـلام أولادها وزوجها وأهل قرابتها، وقـد كان رسـول الله يعرف ذلـك ويتوقعـه عندمـا قبل صلح الحديبية، فقد كان يعرف أن تفتح الأبواب سيقوض قوى المكيين المكابرين دون أن يشعروا، وبالفعل ما كاد الرسول صلوات الله عليه يـدخل مكـة فاتحـاً حتى نجد الغالبية العظمى من قريش قد دخلوا في الإسلام، لأن الدعوة كانت ماشية في طريقها على طريق القرشيات ما بين هاشميات وغير هاشميات.

وهذا الانتشار المستمر للإسلام لم يدع لقريش أمناً، وزاد من يقـظتهم، وكان رسول اللّه ﷺ يحس بهذه اليقظة ويعمل على حماية أصحابه من جرائرها ويتجلى لنا ذلك في حرص رسول الله على أن يتم لقاء العقبة الثانية في خفية من قريش، قال محمد بن سعد إن وفد المدينـة الذين أتـوا لهذه البيعـة سلموا عـلى رسـول الله، ثم وعدهم مِنًى وسط أيـام التشـريق ليلة النَّفْر الأول إذا هـدأت الرِّجْل أن يوافوه في الشِّعب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفـل العقبة وأمـرهم ألا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً قال: فخرج القوم بعد هَدْأةٍ يتسللون: الرجـل والرجلان، وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى الموضع معه العباس بن عبد المطلب ليس معه غيره(١) ولا يكون هذا الحذر كله إلا إذا كانـت هناك يقظة من قريش، فكأن هذه القبيلة كانت بالفعل شديـدة اليقظة دائمـة الحرص عـلى سلامتهـا، وكانت تمارس على بلدها سلطانـاً ورقابـة لا تقلان عن سلطان الـدول القائمـة ورقابتها.

ولكن يبدو أن تفاصيـل ما تم في لقـاء العقبة الثـانية غـاب عن قريش، ولكن السبب في ذلك لم يكن قلة يقظة من قريش بقدر مـا يرجـع إلى بعد نـظر محمد صلوات الله عليه. أما كبار أصحابه ممن لم يحضروا العقبة فـإن رسول الله أبلغهم خبرها، ويتجلى لنا هذا فيما يقال على لسان العباس في هذا اللقاء، وقد سبق أن شككنا في خروج العباس مع رسـول الله ﷺ في هذا اللقـاء، والغالب

(١) طبقات ابن سعد ١/ ١٤٩.

أن قـائل هـذا هو الـرسول ﷺ فهـو وحده في هـذا المقام كـان صـاحب الأمـر والتوجيه، وإذا نحن تأملنا الكلام في اجتماع العقبة تبينا أن العبـاس لم يكن له أي سلطان في قومه ليقول للمسلمين، وهو مشرك: «أخفوا جَرْسكم فإن علينا عيـونـاً، وقـدمـوا ذوي أسنـانكم فيكـونـون هم الـذين يلون كـلامنـا منكم، فـإنا نخـاف قومكم عليكم، ثم إذا بـايعتم فتفرقـوا إلى مَحَالِّكم» فهـذا حرص بالغ على المسلمين من جانب رجـل ليس مسلماً. أما من أقحم العبـاس هنا فهم الذين حرصوا في ظل الحكم العباسي على أن يجعلوا للعباس سـابقة في الإسلام، فأشركوه مـع رسول الله في مثـل هذه المشـاهد الجليلة، ومثـال ذلك قولهم إن رسول الله عندما أصلح بـين بطون قـريش التي كانت تختصم فيمن يضع الحجر الأسود مكانه، فكان رسول الله صاحب الفكـرة الحصيفة في خلع ثوبه وطلبه إلى القرشيين أن يضعوا عليه الحجر ويرفعوا الثوب جميعاً، ثم تجيء تلك الدعاية العباسية فتقول إن الحجـر عندمـا وازى موضعـه من ركن الكعبة كان العباس هو الذي حمله من الثـوب ووضعه في مكـانه وكـان ذلك أيـام عبد المطلب والأرجح أن عبد المطلب هو الذي فعل ذلك ولكن دعاة العباسيين هم الذين أعادوا صياغة الخبر على هذه الصورة. ومثل هذا كثير.

المهم لدينا أنه كان هنا احساس بأن على المجتمعين عيونـاً، والعبارة هنـا مقصودة بمعناها الكامل والعيون هنا هي عيون قريش. فكأن هـذه القبيلة كان لها من التنظيم ما يجعل لها عيوناً على الناس، يوافونها بالأخبار لتكون دائـماً على بينة من أمرها في كل حين.

ولا بد أن نذكر هنا أن هـذا الخبر الـذي أقحم فيه ذكـر العباس أصبـح نتيجة لذلك مضطربـاً لا تستقيم فقراتـه بعضها مـع بعض، مثال ذلـك: «فلما أصبح القوم غـدت عليهم جلة قريش وأشـرافهم حتى دخلوا شِعْبَ الأنصار، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنا بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه عـلى أن تبايعوه على حربنـا، وأيم الله ما حَيٌّ من العـرب أبغض إلينا إن شبت بيننـا

وبينه الحرب منكم، قال: فانبعث من هناك من الخزرج من المشركين يحلفون لهم: ما كان هذا وما علمنا. . .» وسياق الخبر هنا وبقيته يدل على أن ذلك كان في المدينة، وهو لا يصح، لأن الكلام ينص على أن هذا كان غداة ليلة العقبة، فكيف ينام قوم في مكة ويصبحون في المدينة؟ ثم إن بقية الخبر تقص كيف تتبعت قريش رجال المدينة في عودتهم إلى بلدهم بل إننا نقرأ هنا أن أهل مكة أدركوا سعد بن عبادة وضربوه، وجعلوا يده إلى عنقه بِنِسْعَة، أي بـرباط من سعف النخل أو الخوص، وكيف يجوز لقريش أن تقيد يدي سعد بن عبادة وتضربه؟ وفي النهاية نقرأ «فرحل القوم جميعاً إلى المدينة»[1] ومثل هذا الاضطراب في نسق الخبر قولهم «نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك».

ومعنى ذلك أن قريشاً عندما قررت المقاطعة والحصر استعملت الضغط على المعارضين من مَلَئِها، فوافقوا على رغمهم، وها هم الآن يقررون ذلك.

وكان رد أبي جهل عظيم المعنى بالنسبة لتنظيم قريش، قال: «هذا أمر قُضي بليل، تُشوور فيه بغير هذا المكان» أي أن قرارات قريش كانت تتخذ وتتم الموافقة عليها علناً، وفي مكان معين هو دار الندوة في الغالب، وقوله «تشوور فيه بغير هذا المكان» يعني أن هذا المكان مكان المشاورة والقرارات، فإذا بحث أمر خارج هذا المكان ـ دار الندوة ـ أو موضع آخر حول الكعبة، فهو أمر غير قانوني مخالف لما ينبغي أن تكون عليه الأمور.

المُسْتَهزِئون ـ الخُرُوج إلى الطّائف:

نقضت الصحيفة إذن فكان ذلك نصراً لبني هاشم وبني المطلب، ولكنه لم يكن نصراً للإسلام فقد ظلت قريش على موقفها وازداد أمر المسلمين ضيقاً، فإن قريشاً شددت من موقفها، وظلت رغم نتيجة الحصار محتفظة بوحدتها

(١) طبقات ابن سعد: ١/ ١٤٩ ـ ١٥٠.

وموقفها المعادي للإسلام، ولكن رجالها أيقنوا أنهم لا يستطيعون شيئاً حيال محمد ﷺ، فلجأوا إلى أساليب جديدة فقد استعملوا العنف والاضطهاد والحصار ووفقوا فيما أرادوا ولكنهم كما قلنا ظلوا يخافون محمداً والإسلام، فأرادوا أن يزيدوا أنفسهم حصانة فلجأوا إلى الاستهزاء بالإسلام وأهله، وكانت السخرية من أساليب العرب المعروفة في صراع القبائل بعضها مع بعض، وفي صراع الناس بعضهم مع بعض، ومن هنا جاء الهجاء وشعره، والنقائض وكلها أسلحة صراع تقوم على السخرية والاستهزاء لها أثرها الفعال.

وكان الاستهزاء بالدعوة وصاحبها سلاحاً ظنت قريش أنه ينال من الإسلام، لأنه يجعله هزوا وسخرية ويجعل كلام محمد مدعاة للتقليل من شأنه وكلنا نعرف فعل الرسوم الهزلية المعروفة بالكاريكاتورية في الصراع السياسي اليوم، وبطبيعة الحال كان الساخرون الذين تصدوا لذلك من أهل الفكاهة والنادرة واللسان اللاذع، وكان بعضهم من سادات قريش ومن يحسبون أنفسهم أذكياء.

وعندما نقرأ كلام أولئك الذين يسميهم القرآن الكريم بالمستهزئين يستوقف نظرنا إيغالهم في الرفض والعناد وما يجري على لسانهم من كلام، كأن المعركة مع الإسلام زادتهم تمسكاً بآرائهم، وهنا تتجلى لنا خاصية من خصائص الحياة القبلية وهي تشترك في تلك الخاصية مع الحياة القروية، وهي خاصية طرد أي غريب يطرأ عليها، مثلها في ذلك مثل الأجساد، وكلنا نعرف هذه الظاهرة البيولوجية التي تعرف في الإنجليزية باسم Rejection وجسد الكائن الحي يرفض أو يطرد أو ينفي كل كيان يحس أنه غريب عنه، وهو في هذه الحالة يطرد كل ما يحس أنه غريب ولو كان مفيداً له، فإن الجسم يطرد القلب السليم الذي يزرع في مكان قلب المريض، ويرفض الكلية السليمة مع أنها تزرع فيه لحمايته وشفائه. وقريش كانت قبيلة تعيش في ـ وحول ـ مدينة صغيرة كأنها قرية، والقرآن الكريم سماها أم القرى أي أكبر القرى، ولم يقل

أنها مدينة، والقرآن دقيق الدقة كلها في استعمالاته، فقد سمى المدينة باسمها، وهو اسم ووصف في آن واحد، وسمى مكة والطائف بالقريتين لأن الطائف أيضاً كانت قرية وقبيلة، وهذا مبحث آخر لا نريد أن نستطرد فيه هنا، والمهم لدينا أن ظاهرة الطرد هذه كانت قوية جداً في مكة لأنها قرية وقبيلة، وكانت أقوى وأظهر في الطائف، لأنها كانت قرية أصغر من مكة. وهذا يفسر لنا رفض أهل الطائف وهم قبيلة ثقيف ـ رفضوا مجرد الاستماع لرسول الله ﷺ، لأن الإسلام الذي أتى يبشر به بدا للثقفيين عنصراً غريباً جداً عن طبيعة تكوين قريتهم، فكانت ميكانيكية الطرد أشد وأقوى، ومن ثم فإن أهل الطائف رفضوا مجرد الاستماع ومارسوا الطرد حرفياً، فلم يستريحوا حتى أخرجوا رسول الله من مدينتهم بالقوة، قال ابن اسحاق: «وأغْرَوا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى حَبَلَة من عنب، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف[1]. . . ».

وهنا، رسول الله يجد نفسه خارج الطائف ـ وخارج مكة أيضاً، فكلا المجتمعين المكي والطائفي قد خاف منه ـ أو بتعبير أدق من الدعوة الإسلامية التي يقول بها ـ هنا نفهم الدعاء الذي دعا به رسول الله ﷺ ربه في ضوء جديد، فنحن نقرأ هنا الدعاء بإعجاب وتأثر بالغين لما فيه من صدق الإيمان والإخلاص التام لله سبحانه، وما ينطوي عليه من تمسكه بأداء رسالة لنبي مرسل من الله سبحانه، وكنا نحسب أن هذا قصارى ما يكون من إدراكنا لمعاني هذا الدعاء، والآن تعطينا دراستنا هذه معنى ومغزى آخرين له فهو هنا سؤال (في صورة دعاء) من الرسول إلى من أرسله (الله سبحانه وتعالى) خلاصته: الآن يا ربي قد بذلت غاية جهدي مع أهل مكة (الذين أرسلت

---

(١) سيرة النبي لابن هشام: ٢/٦١، والحبلة شجرة العنب أو قضبانها.

فيهم) وأهل الطائف (الذين أردت أن أذهب بالدعوة إليهم) فماذا أعمل؟. إنني مخلص لك الإخلاص كله، مؤمن بك الإيمان كله. وقد وصلت من أولئك الناس إلى أقصى ما استطعت الوصول إليه فماذا أعمل الآن؟ وإلى أين أتجه؟ إنني لا أبالي إلا بك، فما دمت راضياً عني غير غاضب عليَّ فما أبالي بشيء وأنت سبحانك بقوتك وحولك تستطيع أن تفتح لي سبيلاً جديداً، وأنا يا ربي طوع أمرك، ورهن مشيئتك ولن أدع هذا الأمر ما حييت، فماذا أعمل الآن؟ وإليك نص هذا الدعاء الذي يعتبر أجمل وأصدق وأخلص دعاء توجه به نبي مرسل إلى الله الذي أرسله، وسأقسمه إلى فقرات لكي تستبين المعاني التاريخية والدلالات الاجتماعية التي أشرت إليها آنفاً:

١ ـ اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس.

٢ ـ يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي

٣ ـ إلى من تكلني؟

٤ ـ إلى بعيد يتجهمني (يريد أهل الطائف)

٥ ـ أم إلى عدو ملكته أمري (يريد قريشاً).

٦ ـ إن لم يكن بك غضب عَلَيَّ فلا أبالي.

٧ ـ ولكن عافيتك هي أوسع لي.

٨ ـ أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والأخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عَلَيَّ سخطك. لك العُتْبَى حتى ترضى ولا حولَ ولا قوة إلا بك[1].

المفروض في ترتيب حوادث السيرة أن الخروج إلى الطائف كان بعد وفاة أبي طالب وخديجة، ووقوف محمد صلوات الله عليه وحده بعد هذه المرحلة الثانية الطويلة من مراحل كفاحه لنشر دعوته وقوله: «أم إلى عدو ملكته أمري؟».

---

(١) ابن هشام، السيرة ٢ /٦٢.

ويكون جواب الله سبحانه وتعالى على هـذا الدعـاء الذي تـوجه بـه إليه عبده الصادق ورسوله الأمين أبلغ برهان على صدق الرسـالة ومجيئهـا من عند الله وتأييده لهـا سبحانـه: الإسراء والمعـراج، وكأن الله سبحـانه أراد أن يقـول لنبيه: هؤلاء كذبوك ورفضوا دعوتك ووقفوا صفاً واحداً من دونك؟ لا عليـك إمْضِ في رسالتك وأنا عاصِمك من الناس، أنـا أسري بـك ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴿الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير (١)﴾ والإسراء ثابت بنص القرآن الكريم، وأما المعراج فثابت أيضاً من حديث ثابت البناني بإسناد متصل عن مسلم بن الحجاج، وهو مؤيـد ضمناً بمـا ورد في سـورة النجم من الآيـة الأولى إلى الثـامنـة عشـرة، وقـد اجتمـع رأي المفسرين على أنها تأييد وتفصيل لخبر العروج برسول الله ﷺ إلى السماء وليرجع من يشـاء الاستـزادة من ذلـك إلى كتـاب الشفـاء للقـاضي عيـاض بن مـوسى اليحصبي ففيه غناء للمستزيد.

وهكذا تكون أدنى درجـات اليأس من النـاس هي بدايـة أرفع درجـات التكـريم والتأييـد من الحق سبحانـه وتعالى، ويكـون بأس رسـول الله ﷺ من قريش فتحاً عليه من الباري، فقد وجهه ربه إلى غير القرشيين فسعى واجتهـد وسعى واجتهد، ثم كانت بداية النصر هي اللقاء الأول مع أهـل يثرب وبيعـة العقبـة الأولى وما أعقب ذلـك من آلاء كرم الله سبحـانه، وتـأييـده لـلإسـلام وأهله. ولكن هذه هي السيرة ونخشى أن تصـرفنا فتنتهـا عن حديث قـريش، فلنعد إلى ما كنا فيه.

* * *

يستـوقف نظرنـا في خبر عـودة رسول الله ﷺ إلى مكـة بعـد مـا لقي من إعراض أهل الطائف عن دعوته وإخراجهم إياه من بلدهم، قول ابن اسحـاق

---

(١) سورة الإسراء آية ١.

إن رسول الله في طريق عودته توقف بنخلة والمراد هنا نخلة اليمانيـة، فهي التي يمكن المرور بها للوارد من الطائف، وهنا يسأله زيد بن حارثة، وهو كـان رفيقه الوحيد في تلك الرحلة القاسية: كيف تدخل عليهم وهم أخرجـوك؟ والسؤال هنا لا وجه له إذا أخذناه على ظاهره، لأن الـذي نعرفـه إلى الآن هو أن محمـداً ﷺ لم يخرجه أحد، وإنما كان هو الذي خرج من تلقـاء نفسه بـاحثاً عن ميـدان آخر لنشر الدعوة، بعد أن وقفت قـريش منه هـذا الموقف الـرافض المعانـد ولم تتـرك منه خوفاً على نفسها. ولكن يبدو أنه بعد وفاة أبي طالب وانتقال ريـاسة بني هـاشم إلى عبد العـزى بن عبد المـطلب وهو عم رسـول الله، لم يكن عبـد العزى وهو أبو لهب وموقفه من الرسالة والرسول معروف مستعداً لحماية محمـد إذا هو استمر في دعوته التي تثير مخاوف المشـركين، وهـو منهم. وتذكـر بعض النصوص أن أبا لهب عندما انتقلت إليه الرياسة أعلن لمحمـد أنه يحميـه إذا هو ترك الدعوة في مكة، فخرج رسول الله يحـاول مع أهـل الطائف، والآن هـو لم يصل إلى شيء مع الثقفيين فهو مضطر إلى الرجوع إلى مكة. وكـأنه وقـد خرج قد تخلى عن حماية أبي لهب وهذا هو المعقول، وفي الأخبار كثير عند ابن سعد.

وقد شهدت هذه الفترة تطوراً حاسماً في تاريـخ قريش، وهـو صعود أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية إلى الرياسـة الفعلية لقـريش، أو بتعبير أدق إلى قيادة المقاومـة للإسـلام. وقد قلنـا هنا «صعـد»... ولم نقل «وَلِيَ» أو وُلِّيَ لأن نظام قريش كان نظاماً قبلياً لا وظائف فيه ولا رياسة، وإنما كانت الملكـات هي التي تقـدم أصحابها، وفي معظم القبـائل كـان التنافس عـلى الريـاسات مشكلة دائمـة بسبب نفور الأنـداد من الاعتراف بـالتفوق بعضهم عـلى بعض، ولكن الأمر كان ينتهي دائماً بالتسليم للأوفق والأقدر. لأن المسئولية في الحيـاة القبلية مسئولية مباشرة وواضحة وغير الكفؤ لا بد أن يفسح الطريق لغيره. وفي قريش خاصة، حيث كان الشعور بالصالح العام مرهفاً، كان الملأ يسلم بالمسئولية لمن يستحقها دون مشاحنة، وقد رأينا كيف تراجع أبو طالب عملياً ـ وحـل محله في

رياسة قريش رجال اكفأ منه في سياسة أمور القبيلة في شتى الميادين، وهؤلاء الرجال هم الذين تولوا حماية قريش مما توهموا أنه خطر الإسلام على القبيلة.

وفي أسد الغابة لابن الأثير إشارة ذات معنى ترد في ترجمة أبي سفيان بن حرب تقول: «وقيل: كان أفضل قريش رأياً في الجاهلية عتبة وأبو جهل وأبو سفيان، فلما أتى الله بالإسلام أدبروا في الرأي»[1]. وعتبة هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وقد كان ذا رأي حسن فعلاً ولكنه كان ينتمي إلى جيل ذوي الأسنان من القرشيين، مثله في ذلك مثل الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وعبدالله بن جدعان، وهؤلاء وأهل طبقتهم هم الذين كانوا يتولون أمر قريش فعلاً حتى ظهرت دعوة الإسلام، ونشأت الأزمة واحتاج الأمر إلى رياسة شابة تواجه الموقف، جيل محمد ﷺ أي أنداده في السن وبرز من بينهم أبو جهل، ولكنه لم يستطع قيادة المعارضة بالهدوء والرزانة المطلوبتين، مما جعل أصحاب الأسنان والأموال يسرعون من مصطافهم في الطائف كما ذكرنا، فتولوا الأمر وحاولوا التفاهم مع محمد ﷺ أولاً ثم مع أبي طالب ثم مع محمد مرة ثانية، ثم قادوا قريشاً في مقاطعة بني هاشم وبني المطلب، وعندما انتهت المقاطعة بدأ أمر أبي سفيان بن حرب يقوى، وكان أول ظهوره ما كان من تميزه في شئون التجارة، فكان هو الذي ينظم القوافل ويجمع الأموال، وقد يخرج بها، وقد لا يخرج. وقد أبدى في هذا الباب مهارة كبيرة، فأصبح المسئول عن هذه الناحية الهامة من نواحي الحياة المكية. وخلال الحقبة الأخيرة من الفترة المكية من البعثة النبوية نجد أن أبا سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس يتولى قيادة قريش في صراعها مع الاسلام، وسيظل في هذه المكانة حتى معركة الخندق في السنة الخامسة للهجرة.

---

(١) أسد الغابة، ترجمة أبي سفيان ٢/٤٤٨ وما بعدها.

المرحلة الثالثة الأخيرة من الفترة المكية :

بعد انتهاء مقاطعة بني هاشم وبني المطلب وخروجهم من الشعب بقليل، توفي أبو طالب، وبعد قليل توفيت خديجة رضي الله عنها أم المؤمنين. وكان ذلك بإجماع المؤرخين قبل الهجرة بثلاث سنوات، أي في سنة ١٠ من البعثة وبقي رسول الله ﷺ وحيداً وإن أحاطت به قلة من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعليٌ وزيد بن حارثة، وبدأت الحقبة الثالثة من الفترة المكية ومدتها ثلاث سنوات.

وواضح أن خديجة رضي الله عنها ماتت من أثر الجهد الذي عانته أيام الحصر والمقاطعة. وقد كانت سنها يوم تزوجت رسول الله أربعين سنة بإجماع الروايات، ومكثت معه قبل البعثة خمس عشرة سنة هي أهنأ سنوات عمرها، فقد كان ﷺ نعم الزوج ونعم السكن لزوجه، وخلال هذه الفترة أنجبت له أولاده: القاسم (وقد درج صغيراً وبه كان يكنى) ثم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وهي صغرى بناته، ويقال إنه أنجب غلاماً ثانياً يسمى الطاهر، درج أيضاً، ولم ينجب لرسول الله إلا خديجة ثم مارية القبطية.

ثم جاء الوحي ويجيء دور خديجة رضي الله عنها، ووقوفها معه وتثبيتها له. ومن عجب أن بعض مؤرخينا يتساءل إن كان أبو بكر أول المسلمين مع أن خديجة آمنت به قبل أن يعرف أنه نبي، فبمجرد أن أبلغها نبأ الوحي، عرفت أنه بشرى خير فوقفت إلى جانبه وشجعته وعملت على تثبيت فؤاده وأخذت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فطمأنه، ولازمته بعد ذلك خلال الفترة مؤيدة حانية، فلما نزلت الآيات الأولى من المدثر وبها أصبح رسول الله نبياً رسولاً ازداد إيمانها به، وكانت أولى المصليات خلفه، وهنا كان دخول أبي بكر وعلي ابن أبي طالب في الإسلام.

وكانت سن خديجة إذ ذاك خمساً وخمسين سنة، ثم قضت معه بعد البعثة

تسع سنوات وثمانية أشهر، عانت فيها معه متاعب الدعوة كلها وكانت له خير الـزوجة وأحسن الأمن والسكن، وتجـرعت معه رعب الحصر والمقـاطعـة، فلما انتهت المقاطعة كانت سن خديجة أربعاً وستين سنة وثمانية أشهر، وقد هـاضها التعب والإجهـاد، فماتت بعـد نهاية الحَصْرِ بقليـل وسنها أربـع وستـون سنـة وتسعة أشهر أو عشرة.

وأمـا أبو طـالب فقد مـات عن سن عاليـة، ربما كـانت الثمانـين، وفقد رسول الله بموته صديقاً كريمـاً وحامياً ثابتـاً، ظل إلى جـواره وإن لم تحمله نفسه على الإيمان فمات كافراً.

وبموت أبي طالب بقي رسول الله ﷺ وحده تقريباً كما قلنا، وتولى رياسة بني هـاشم عبد العـزى أبو لهب بن عبـد المطلب، وقـد تحدثنـا عن موقفـه من رسول الله ﷺ والإسلام.

وما بقي لرسـول الله ﷺ في مكة، مـدته ثـلاث سنوات من ١٠ إلى ١٣ للبعثة وهي الحقبة الرابعة والأخيرة من الفترة المكية التي تقسم كما يلي:

من سنة ١ إلى نهاية ٢ للبعثة: الحقبة الأولى، الدعوة السـرية ثم العلنيـة حتى دخـول دار الأرقم من سنة ٣ إلى نهايـة ٥ للبعثة: ومـدتها ثـلاث سنـوات انتهت آخر سنة ٥ للبعثة بعد إسلام عمر بن الخطاب وخروج المسلمين من دار الأرقم والدعوة العلنية والصراع مع قريش.

من بداية سنـة ٦ إلى ثمانيـة أشهر من السنـة التاسعـة للبعثة أي سنتـان وثمانية أشهر هي مدة الحصر والمقاطعة.

من ١٠ إلى ربيع الأول هجرية وهي الحقبة الأخيـرة التي نحن بصددهـا ومدتها ثلاث سنوات وشهران و١٢ يومـاً، وهي الحقبة التي بلغ فيهـا اضطهـاد

قـريش لرسـول الله ذروته، وفيهـا كان الخـروج إلى الطائف والعـودة منها، ثم الإسراء والمعراج، ثم الدعوة لـلأغراب داخـل مكة ولـلأعراب خـارجها حتى كان الاتصال الأول بوفد الخزرج من أهل يثـرب وبيعة العقبـة الأولى، وكانت قبـل الهجرة بسنتـين، ثم لقـاء وفـد اليثـربيـين من الأوس والخزرج ونفـر من الجهنيين وبيعة العقبـة الثانيـة قبل الهجـرة بسنتين، ثم إرسـال رسول الله ﷺ مصعب بن عمير إلى مكة وانتشـار الإسلام في يثـرب ثم هجرة رسـول الله ﷺ إلى قباء في ١٢ ربيع الأول سنة ١ للهجرة / ٢٤ سبتمبر ٦٢٣ م.

أبو سفيان صخر بن حرب وبنو عبد شمس يتولون قيادة قريش في صراعها مع الإسلام :

بعـد ذلك الفشـل في مواجهـة دعوة الإسـلام، كان لا بـد لقـريش من سياسة جديدة حياله. وتلك السياسة كان لا بد لها من زعيم جديد يسير فيها. ولم يكن قد بقي لقريش إذ ذاك من الزعماء من يصلح لهذا الأمر إلا أبـو سفيان صخر بن حرب.

وكان أبو سفيان رجلاً ذا مـواهب واضحة في شئـون المال، لأنـه بطبعـه كان رجلاً هادىء المزاج عملي التفكير واقعي النظرة، ولم يتصف قط بخصائص إنسانية أو روحية أو فكرية. ومن تصرفاته ترى أنه كان رجلاً بـارد العواطف ذا طموح إلى السلطة والمال. ونـظراً لموقفـه المناهض لـلإسلام وللشـك في صحة إسلامه بعـد فتح مكـة، فإن المـراجع لا تـطيل الحـديث عنه، وإن كنـا نحمد لأصحابها أنهم أعطوه جانباً لا بأس به من العناية، واقتصدوا في تشويه صورته على مذهبهم في الكـلام عن الصحابـة ممن لا يرضـون عنه، إذا كـان في صحة ضمائرهم شك، والاكتفاء بذكر محاسنهم، وكان من حسن حظ أبي سفيـان أنه أسلم وإن ظل إسلامه سطحياً إلى آخر حياته، ولم تفعـل المراجـع شيئاً لصقـل

صورته كما فعلت مع العباس بن عبد المطلب، لأن سلطان بني حرب بن أمية سرعان ما انتهى بعد وفاة يزيد بن معاوية، واتجهت العناية إلى بني مروان بن الحكم بن أبي العاصي، والدولة السفيانية خلت محلها الدولة المروانية، فلم يعد هناك ما يدعو إلى تجميل صورة السفيانيين، أو قل لم يعد هناك من يدفع أجر ذلك، وإلا فإننا إذا تأملنا واقع الأحداث نجد أن العباس لم يكن خيراً من أبي سفيان فيما يتصل بالموقف من الإسلام، وفي السطور التالية ستتكشف لنا حقائق أخرى تتعلق بهذا الموضوع وهو في انساب الاشراف للبلاذري.

في أكثر كتب التراجم تفصيلاً لا نجد شيئاً يشفي الغلة عن أبي سفيان ومروان بن الحكم، أكثر مما نجد في الكتب التي ألفت في الصحابة، وكلها مختصرات، وخلاصتها كلها أن أبا سفيان أسلم يوم الفتح وأن إسلامه حَسُنَ بعد ذلك، وإن كان هناك الكثيرون ممن يشككون في صحة هذا الإسلام، وشهد بعد إسلامه بعض المشاهد مع رسول الله، وفقد إحدى عينيه في حصار الطائف، واستمر يحارب في صفوف المسلمين في أيام الراشدين، حتى فقد عينه الأخرى في موقعة اليرموك، وتوفي سنة ٣٢ أو ٣٤ هـ. في خلافة عثمان عن ثمان وثمانين سنة أو نحوها، وإذا نحن حسبنا عمره على هذا الأساس وجدنا أن سِنّه كانت عند بعثة محمد ﷺ في الحادية والأربعين أو الثالثة والأربعين من العمر، فهو إذن من جيل رسول الله مثله في ذلك، مثل أبي جهل وأبي لهب عبد العزى.

ولكن الذي يهمنا هنا هو أبو سفيان قبل إسلامه، فهو إلى هذه المرحلة من دراستنا يقف في صفوف أعداء الإسلام، ولكن المراجع لا تنسب إليه خبراً واحداً عن أعمال السفاهة التي كان يرتكبها غيره من أبناء جيله، مثل عقبة بن أبي معيط وهو ابن عم أبي سفيان وشيبة بن ربيعة وهو الأخ الأصغر لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وهو أيضاً ابن عم أبي سفيان، فكأن الرجل كان ينأى

بنفسه عن هذه الصغائر رغم كفره، بل كان أهدأ من أبي جهل طبعاً وأذكى فؤاداً، ويتجلى ذلك في مقدمات موقعة بدر.

وهذا الاتزان إلى جانب الانصراف إلى المال وحسن تدبيره له ومهارته في الشئون التجارية، هي التي وصلت بأبي سفيان إلى قيادة قريش بعد هجرة رسول الله ﷺ وقيام أمة المدينة، وبداية الصراع المسلح حيناً والسياسي حيناً آخر بين الجانبين.

وسبب وصول أبي سفيان إلى القيادة - إلى جانب خصاله التي ذكرنا بعضها، ويأتي الباقي في سياق الكلام، ذلك أن رسول الله ﷺ بعد استقراره في المدينة وقيام أمة الإسلام، لجأ إلى الضغط على قريش عن طريق إيقاف تجارتها مع الشام، أي حرمانها من مورد الرزق الأساسي لها، وذلك بالسيطرة على طريق التجارة إلى الشام أولاً ثم إلى العراق ثانياً، لأنه كان يتحاشى تحطيم قريش عسكرياً، ولو أراد لفعل، ولكنه ﷺ كان يعرف قدر قريش وملكات رجالها، بل كان يعرف سبب عنادها، فاتجه بصره إلى حربها حرباً اقتصادية، ولما كان أبو سفيان هو رجل المال ومنظم القوافل وقائد معظمها، فقد أصبحت المشكلة مشكلته، أي أنه أصبح الزعيم القرشي الذي تعين عليه الخروج بقريش من تلك الأزمة، فحاول حلها بالحرب (بدر ثم أحد) ثم بالسياسة والحرب (الخندق) ثم اتجه لحلها عن طريق السياسة، وهو طريق التاجر فنجح وأنقذ قريشاً، وتفطن إلى ما كان الرسول ﷺ يسعى إليه من كسب قريش إلى الإسلام دون تحطيمها أو إذلالها أو كسر أنفها، فسار في ذلك الطريق ونجح فيه كما قلنا، وكما سنرى.

ويبدو أن أبا سفيان كان منصرفاً باهتمامه كله إلى شئون المال. فلا نلاحظ أن له دوراً واضحاً في صراع التضييق على المسلمين وربما كان السبب في ذلك أن احساسه بخطر الإسلام على قريش كان أقل من إحساس غيره،

نظراً لضخامة بيته وكثرة أفراده وانصرافهم التام إلى مصالحهم ومصالح بيتهم. وقد كاد أبناء أمية الأكبر وأمية الأصغر وعبد أمية من أبناء عبد شمس وحدهم أن يكونوا قبيلاً قائماً بذاته. وفي الجداول الملحقة بذلك الكتاب شجرة نسب أو جدول نسب عبد شمس بن عبد مناف بن هاشم وهو يوضح لك هذه الصورة.

وإنما أوردنا هذا البيان عن بني عبد شمس وفروعهم الكثيرة، لأننا وصلنا في هذا التاريخ، إلى دخول أبي سفيان ميدان الحوادث التي قدمته ورشحته للقيادة، وبتقدمه هذا يبدأ تطور بعيد المدى في تاريخ قريش، لأن قيادة أبي سفيان لقريش لم تكن أمراً خاصاً به، بل ببني عبد شمس جميعاً. ومن ذلك الحين سيظل بنو عبد شمس قوة من القوى المحركة لتاريخ قريش، فإن بني عبد شمس بن عبد مناف يدخلون الآن ميدان الزعامة في قريش ممثلين للوثنية العربية في مواجهة الإسلام، ودخولهم هذا يفتح أبواب القوة لعنصرين رئيسيين من عناصر القوة والقيادة: عنصر المال وعنصر السياسة. لقد كان المال دائماً عاملاً أساسياً في الحياة القرشية، ولكن بني هاشم وعبد الله بن جدعان سيد بني تميم بن مرة والمطعم بن عدي شيخ بني نوفل بن عبد مناف، وبقية الجيل القديم من بني عبد شمس ومخزوم وبيوت قريش التي ذكرناها كانوا يستخدمون المال للفخر والشرف والسؤدد، والسؤدد هو السيادة الشرفية المعنوية التي تستخدم المال لاجتذاب القلوب واجتلاب المحامد، فكل زعماء قريش إلى الآن كانوا أغنياء ولكنهم لم يحوِّلوا المال إلى قوة أو يترجموه إلى سيطرة على الآخرين. وأبو سفيان أيضاً كان غنياً وهو لم يصل إلى الزعامة بالمال وحده، بل بالعقل كذلك والرزانة وطول الفكرة، ولكنه لم يكن يحفل كثيراً للسؤدد أو الفخر، وهو لهذا كان يدخر ماله لأنه يعرف قدر المال. وفي كنفه نشأ ابنه معاوية وعرف ـ عندما قام النزاع على السلطان ـ كيف يستخدم ماله في الوصول إلى السلطان أي كيف يترجم المال إلى قوة، وهي حقيقة لم ينبه عليها

أحد من مؤرخينا، فالذي لا شك فيه هو أن يزيد بن أبي سفيان وأخاه معاوية ابن أبي سفيان، عندما ذهبا إلى الشام أثناء الفتح الإسلامي وبعده كانا غنيين، وقد استثمرا مالهما استثماراً طيباً في كسب الناس وجمعهم حولهم، وعندما مات يزيد عامل الشام لعمر بن الخطاب، ورث مكانه وشيئاً من ماله أخوه معاوية، وكان بنو أمية بفرعيهم قد أوعبوا في الهجرة إلى الشام والمشاركة في فتحها، فجمعهم معاوية حوله ومضى يصطنع الأنصار بالمال، ولم يقل أحد إن معاوية عدا على مال الجباية، وما كان عمر ليتهاون معه في ذلك، ولكن معاوية كان ينظر إلى ما بعد المال: إلى القوة السياسية، وقد أنفق في ذلك جانباً عظيماً من ماله في تأثيل سلطانه على بلاد الشام. وفي أيام عمر نفسه كان معاوية يتصرف في بلاد الشام تصرف الأمير المستقل العظيم المظهر، وفي أيام عثمان أصبح يتصرف تصرف الملوك، ولو أن رجلاً آخر غير علي بن أبي طالب خلف عثمان في الخلافة فإن النزاع كان لا بد واقعاً بينه وبين ملك الشام هذا، لأن بني عبد شمس بن عبد مناف بأعدادهم الكثيرة كانوا قد ضربوا في أرض الشام جذوراً عميقة، ذهبت كل مذهب، بحيث أصبح اقتلاعهم من السلطان في الشام اقتلاعاً للأرض نفسها، والمطالبة بدم عثمان لم تكن إلا ستاراً، والاعتراض على عزل عَليّ إياه عن الشام كان مجرد ذريعة وتكأة، أما الحقيقة فهي أن آل عبد شمس كانوا قد ذهبوا بالشام، ولم يكن هناك سبيل لاسترجاعه منهم إلا بالحرب، وفي هذه الحرب استشهد علي بن أبي طالب الذي تمسك بالإسلام وتولى الخلافة للإسلام، وأراد أن يزيل أولئك الملوك الذين تربعوا في قلب الدولة الإسلامية. وفي الحرب أيضاً ضاع أمر عبدالله بن الزبير وأخيه مصعب، ولم يكن عبدالله بن الزبير في مستوى عَليٍّ من حيث الالتزام بالخط الإسلامي الخالص، وإنما هو رجل من رجال الجيل الثاني من الصحابة، طلب الخلافة لذاتها ولنفسه، ولم يوهب موهبة استخدام المال لاجتلاب القوة، بل كان مقتراً شديد الحرص، فسهل على عبد الملك بن مروان إزاحته عن الطريق رغم أن غالبية المسلمين، كانوا يفضلون آل الزبير على آل مروان.

وهذا التطور البعيد المدى في مصائر قريش وأمة الإسلام معها، بدأ قبل ظهور أبي سفيان على مسرح السياسة القرشية لأن بداياته كانت مع نشوب النزاع والتنافس بين هاشم وعبد شمس ابني عبد مناف بن قصي، وقد ذكرنا ذلك وحكينا أن أمية بن عبد شمس هو الذي تصدى لعمه هاشم وتحداه، ثم خسر أمامه فنفى نفسه إلى الشام فيما يقول الرواة. أما أبوه عبد شمس فقد وقف إلى جوار هاشم وأيده لأن هذا الجيل القديم من القرشيين كان يؤمن بوحدة قريش. وأبناء عبد مناف كانوا يداً واحدة على من عداهم، أما أمية بن عبد شمس فلم يكن لديه هذا الإحساس. ولا نستطيع أن نؤكد أنه نفى نفسه إلى الشام فعلاً، فقد يكون الذي حدث هو أنه انصرف بكليته إلى التجارة مع الشام فكثرت أسفاره إليه، ولكن مكة كانت مستقره الدائم بدليل أنه لم يتزوج امرأة واحدة من نساء الشام، ولكن المهم أنه جمع مالاً كثيراً وأصبح بذلك من أهل القوة في مكة، واعتماداً على هذه القوة زادت قدرته وقدرة بني بيته، على التنافس مع بني هاشم وبني عبد المطلب، ولم يكن أحد من بني أمية الأكبر نداً لعبد المطلب ولهذا لا نسمع عن بني أمية في أيامه. ولكننا نجد بني عبد شمس بين الجماعة الذين أساءوا التصرف وتعدوا الحدود، مما أدى ببني هاشم إلى تكوين حلف الفضول، ثم نجدهم بعد عبد المطلب في حلف الأحلاف أو حلف لعقة الدم مناهضين للمطيبين وعلى رأسهم بنو هاشم، وفي أيام أبي طالب استمر تقدم هذه الجماعة وهي جماعة بني عبد شمس ومخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عبد الدار وبني تيم بن عبد مناة، أي جماعة المال.

والآن وقد اتضح أن أبا الحكم عمرو بن هشام وهو أبو جهل لم يستطع قيادة المعارضة للإسلام ومحمد صلوات الله عليه، يدخل الميدان أبو سفيان رجل المال والتجارة.

ولو نظرنا إلى جدول نسب بني عبد شمس لوجدنا أن أبا سفيان كان فعلاً واسطة هذه الوحدة القبلية الكبيرة، وأمه صفية بنت حَزن وكانت من بني

هلال بن عامر بن صعصعة، ومن أولادهم سيكون الهلاليون المشهورون في تاريخ المغرب الإسلامي، وغريب أمر بني هلال هؤلاء، فهاهم أصهار أبي سفيان بن حرب، وسيصاهرهم رسول الله ﷺ مرتين، فهم قوم أم المؤمنين زينب بنت خزيمة من عقب عبدالله بن أبي بن عبد مناف بن هلال، وهم رهط أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن من بني عبدالله بن هلال، وإذن فصفية بنت حزن أم أبي سفيان صخر بن حرب هي عمة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث. والحارث بن حرب هو أخو أبي سفيان، والحارث هذا كان زوج صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، ثم تزوجها بعده العوام بن خويلد والد الزبير، وخويلد هذا هو أبو خديجة أم المؤمنين، وهذا التداخل في الأرحام والأوشاج يعطينا فكرة ترابط القرشيين جميعاً بواسطة الصهر وترابطهم مع من حولهم من قبائل العرب، وخاصة النَّمِر بن قاسط وهلال بن صعصعة وخزاعة بالصهر أيضاً، وهذا التداخل يرينا أيضاً كيف أن أبا سفيان هذا كان وسطاً في قريش كلها، فهو قريب كل قرشي ذي مكانة، وفي الوقت الذي نتحدث عنه ربما يكون أبو سفيان قد أصبح صهر رسول الله ﷺ، فلسنا نعلم على وجه التحديد متى كان ارتداد عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان عن الإسلام، ومتى كان زواج رسول الله ﷺ منها، ولكنه لا بد أن يكون قد حدث في الوقت الذي نتحدث عنه أي قبيل الهجرة بقليل، ولكن الذي نعرفه أن أبا سفيان عندما قيل له إن محمداً قد نكح ابنتك قال: «ذلك الفحل الذي لا يجدع (أو يقرع) أنفه». مما يدل على عظيم تقدير أبي سفيان لمحمد على ما كان بينهما من الاختلاف والتعارض.

صارت رياسة قريش إذن لأبي سفيان قبل الهجرة بقليل، ولا نعني بذلك رياسة سياسية، فذلك أمر لم تعرفه القبائل العربية في الجاهلية إذ إن الرياسة كانت اعتبارية أو عرفية، بمعنى أن أبا سفيان أصبح صاحب الرأي أو منفذ ما يستقر عليه رأي الملأ في الندوة، والأمور هنا كانت تجري طواعية شبه العفو،

فنحن لا نحس بأن أبا سفيان أصبح رجل قريش إلا قبيل الهجرة، ومع ذلك فنحن نعرف ـ وسنرى ـ أن أبا جهل سيتدخل في الأمور تدخلاً يفسد تدبير أبي سفيان بعد هجرة الرسول، وسيفرض مزاجه الغاضب الجلف على الأمور، مما سيؤدي بذلك إلى معركة بدر وفيها كان حتفه ونهاية الجاهلية، وسبحانه جل وعلا يصرف الأمور بتدبير لا تحيط به البصائر، وهو سبحانه غالب على أمره.

قريش تلجأ إلى سلاح القول بأن محمداً ساحر:

وخلال الحقبة الأخيرة من الدور المكي للبعثة المحمدية بلغت قريش أكثر ما بلغت من أذاها لرسول الله ﷺ وكان ذلك في الغالب بعد موت أبي طالب وخديجة رضي الله عنها، ولا نعرف إن كان ذلك قبل خروجه إلى الطائف أو بعد عوده منها، وجدير بالذكر أن مراجعنا لا تعيننا قط على ترتيب الحوادث، فإنهم لم يدققوا بالقدر الكافي في توقيت الحوادث مع أهمية ذلك بالنسبة لنا. إنما هي تذكر الحوادث بعضها في إثر بعض، دون نظر إلى منطق التاريخ أو منطق الحوادث. ونحن هنا نبذل أقصى وسعنا في ترتيب الحوادث على نسق تاريخي مقبول. والخَبَران اللذان سنرويهما فيما يلي مُؤَرَّخين إلى حد ما. فإن بعض الروايات تقول إن الترمذي يجعل هذين الخبرين بعد وفاة أبي طالب. وتلك هي الرواية التي نقول بها هنا.

يقول الترمذي إن قريشاً اجتمعت بعد وفاة أبي طالب بثلاث، فأرادوا قتل رسول الله ﷺ فأقبل هذا يجاه وهذا يَتَلَبَّبه[1]، فاستغاث النبي ﷺ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان، فأقبل يجأ هذا ويتلتل ذا، ويقول بأعلى صوته: ويلكم! أتقتلون رجلاً إن يقول ربي الله! والله إنه لرسول الله! فقطعت إحدى ضفيرتي أبي بكر يومئذ فقال علي: والله ليوم أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون، ذلك رجل كتم إيمانه، فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا أبو بكر أظهر

(١) هذه احدى مفارقات النص الذي يرويه النويري، وهي أصح مما في المتن يتلله.

إيمانه وبذل دمه وماله لله عز وجل[1].

وظاهر أن هذا الموقف من قريش كان نتيجة لموت أبي طالب، فقد جرؤ القرشيون عليه حتى آذوه كل الأذى. ويبدو أنهم وجدوها فرصة ليتخلصوا منه وهم آمنون من غضب بني هاشم، فإن رئيسهم وهو أبو لهب من أشد الناس عداوة لرسول الله. ويستوقف نظرنا أننا لا نسمع عن موقف هنا لعمر أو لحمزة مع أن هذا هو الوقت الذي احتاج الرسول إلى وقوف أصحابه معه، ولم يعرض نفسه للأذى إلا أبو بكر كما رأينا. وكان علي بن أبي طالب إذ ذاك في حوالي العشرين من عمره. فلم يكن يُنتظَر منه الكثير في مواجهة شيوخ قريش، ولكنه اقتدر على أن يشهد هذه الشهادة الكبيرة في حق أبي بكر.

ويضيف ابن هشام رواية تقول: إن أشد ما لقي رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه، لا حُرٌّ ولا عبد، فرجع ﷺ إلى منزله فتدثر من شدة ما أصابه، فأنزل الله عليه﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾ وواضح إن أول سورة المدثر لم ينزل على رسول الله ﷺ في هذه المرحلة من الفترة المكية، أي بعد وفاة أبي طالب وخديجة، لأننا نعرف أنها ثانية ما أنزل عليه من قطع القرآن على ما ذكرناه آنفاً، فقد قلنا أن (اقرأ) جعلته نبياً، ثم جاءت الآيات الأولى من المدثر فجعلته رسولاً.

ولكننا نرى هنا أن قريشاً نجحت في أن تحصر رسول الله ﷺ وتوقف انتشار الدعوة، فهاهم الناس يجرؤون عليه ويؤذونه، وفي هذه الظروف لا يجرؤ أحد آخر على الدخول في الدعوة، وخاصة بعد حَصْر بني هاشم ومقاطعتهم وما أصابهم نتيجة لذلك. وهذه الظروف القاسية هي التي جعلت رسول الله يفكر في الخروج إلى الطائف.

ولكن قريشاً لم تطمئن، فقد كانت تحس أن كلام رسول الله وما يتلوه

(١) النويري، نهاية الأرب ٢٠٧/١٦.

من القرآن يؤثر في قلوب الناس تأثيراً عميقاً، وكانت مكة قبلة لألوف من الحجاج والأغراب، وكان محمد واسع النشاط لا يدع وفداً إلا قصده وتلا عليه القرآن ودعاه، فكيف يوقفون أثر كلامه ويطمئنون إلى أن أحداً لن يقبل منه ما يقول؟

وسر هذا الخوف من جانب قريش، هو أن مواسم الحج والتجارة إلى مكة كانت لا تزال عامرة بالناس، وكان رخاء مكة كله وثراء شيوخها معتمداً على هذه الجماعات التي تفد على المدينة من كل نواحي الجزيرة، وقريش لا تأمن أن يستمع بعض أهل هذه الوفود إلى محمد ﷺ ويتأثر بكلامه، ويكون لذلك أثره، إذ إن الكثير من القبائل كانت تكره قريشاً وتحسدها، ولا يستبعد أن يدفعها الحسد إلى الانضمام إلى الدعوة المحمدية، فتكون من وراء ذلك متاعب لقريش وهم يريدون أن يقفلوا هذا الباب ويطمئنوا، فأخذوا يفكرون في وسيلة يحاربون بها محمداً ويوقفون تأثيره على الناس. قال ابن اسحاق: «وصدرت العرب من ذلك الموسم[1] بأمر رسول الله ﷺ (والمراد هنا بخبر نبوته، وما يتلوه من القرآن، وهو خبر حَرِيٌّ بأن يستثير تطلع الناس ورغبتهم في رؤية صاحب هذه الدعوة والاستماع إليه)، فانتشر ذكره في جزيرة العرب كلها. قال ـ ابن اسحاق ـ ثم ابتدأت قريش في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم، فأغروا به ﷺ سفاءهم، فكذبوه وآذوه، ورسول اللّه ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفي به مبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم[2]» وابن اسحاق هنا غير دقيق في قوله «ثم ابتدأت قريش» لأنها لم تبدأ أذاه منذ الآن فقط، ولكن المراد أن القرشيين عندما رأوا كثرة الوفود وكلامها في أمر محمد ﷺ وما جاء به، زادت في أذاه، ولما كانوا لا

---

(١) لم يحدد النص في أي موسم كان هذا، ولكن السياق يدل على أنه كان بعد موت السيدة خديجة وأبي طالب.

(٢) ابن اسحاق برواية ابن هشام ١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠، وابن سيد الناس، عيون الأثر: ١٠١/١.

يستطيعون العدوان عليه مراعاة لحماية المطعم بن عدي إياه فقد أغروا به سفهاءهم، ففعلوا به ما ذكره وهو صابر على الأذى ماض فيما كان فيه من نقد دينهم وعيبه وتسفيه أحلامهم.

وفي إثر ذلك يروي ابن اسحاق خبراً هاماً ـ وهو بيت القصيد من هذه الفقرة من دراستنا ـ يقول فيه رواية عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عن أبي عروة وهو الزبير بن العوام عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن أبيه قال: قلت: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرونه من عداوته؟

فقال إنه حضر مجلساً لقريش في الحِجر عند الكعبة فذكروا رسول الله وما نالهم من أذاه وقالوا: ما رأينا مثلما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط: سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرّق جماعتنا وسب آلهتنا؛ لقد صبرنا منه على أمر عظيم. . ثم أهل عليهم رسول الله ومرّ بهم فغمروه بالقول وهو يطوف بالبيت، ثم مر بهم في طوافه ثانية فغمروه كما فعلوا أولاً، ثم فعلوا به ذلك ثالثة، فوقف بهم وقال: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح!» وفي رواية أبي نعيم في دلائل النبوة أنه ﷺ أشار بيده إلى حلقه. قال: قال ابن اسحاق: فأخذت كلمته القوم حتى ما منهم رجل إلا على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة ـ أي شدة في الأذى ـ ليرفؤه ـ أي يهدئه ـ بأحسن ما يجد من القول. حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً (أي غضوباً) فانصرف رسول الله إلى بيته، فنهض رجل منهم يعيرهم بجبنهم عندما واجههم الرسول بالحزم المرهب خافوا منه ومضوا يترضونه، فأدركهم من ذلك خجل، فلما كان اليوم التالي ورأوه عند الكعبة نهضوا وأرادوا أذاه بأيديهم ليُرُوه أنهم لا يخافونه، وبلغ الأمر بهم أن نهض أحدهم وأخذ يجمع رداءه أي بمخنقه وجعل يقول له: أنت الذي تقول كذا وكذا. . . ورسول الله يجيب: نعم، أنا الذي أقول ذلك. فأسرع أبو بكر

وحال بين الرجل ورسول الله وبكى وهو يقول: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ ثم انصرفوا عنه. وهذا في رأي راوي الخبر كان أشد ما رأى قريشاً نالوا من رسول الله قط[1].

ودلالة هذا الخبر هي أن قريشاً كانت فعلاً في حالة خوف دائم من محمد ودعوته فقد بذلوا أقصى ما استطاعوا في مطاردة أصحابه واضطهاد من استطاعوا اضطهاده منهم، وأوقفوا تقدم الدعوة في مكة ذاتها ولكنهم رغم ذلك ظلوا يخشون دعوته، ذلك مع عِظَم هيبته في نفوسهم وعجزهم عن مواجهته وأنه كان على استعداد لمواجهتهم بأقصى مما يواجهونه به، فهو لا يعرف الخوف ويمضي في طريقه غير هياب، وهو على استعداد لأن يخوض معهم المعركة واثقاً من أن ذلك سيكون فيه هلاكهم، وهذا ما عناه رسول الله بالذبح. وهم لا يُقْدِمون على العدوان الخطير عليه خشية ما يمكن أن يقع من الصراع والحرب والفوضى داخل مكة نفسها، وهم حريصون على ألا يحدث ذلك حتى لا تتأثر مصالحهم.

ثم اجتمعوا بعد ذلك وأخذوا يفكرون في طريقة يُنَفِّرون بها الناس منه دون اللجوء إلى العنف الدموي، فجعلوا يقلِّبون الأمر على وجوهه فاستبعدوا أن يشيعوا عنه أنه كاهن أو مجنون أو شاعر، وأخيراً قال لهم الوليد بن المغيرة: والله إن لِقولِه لحلاوة وإن أصله لعَذِق ـ أو غَدِق، أي غني بالمعنى، وإن فرعه لجناة ـ أي بالغ التأثير لحلاوته ـ وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً ـ أي اتهامه بالكهانة أو الجنون أو الشعر ـ إلا عُرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه أن تقولوا إنه ساحر. جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدموا الموسم. لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا له

---

(١) ابن هشام السيرة ١/ ٣٠٩ وشرح المواهب للزرقاني ص ١/ ٢٥١، ونهاية الأرب للنويري ٢١٨/١٦.

أمره، فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً. . ﴾ إلى قوله: ﴿إن هذا إلا قولَ البشر﴾ من سورة المدثر (٧٤/١١ ـ ٢٥).

وقد استراح القرشيون لهذا الرأي ووجدوا فيه سلاحاً فعالاً في صراعهم مع محمد ﷺ لأن كل الناس في الجزيرة كانوا يعرفون أن السحر مهارة يكتسبها بعض الناس في التأثير على عقولهم وحواسهم، فيجعلون الناس يحسون ويرون ويسمعون ما لا حقيقة له، فهي قوة تخييل مؤقتة، فإذا أحس إنسان أنه يتأثر من كلام محدثه فإن ذلك ليس بصحيح، والإحساس لا يرجع إلى أن الكلام آت من السماء أو من قوة علوية، بل إن الإحساس وهم أو توهم يحدثه الساحر في عقل سامعه أو احساسه لما يسمع من القرآن الذي لا يلبث أن يزول. ويصور القرآن طبيعة السحر في سورة الأعراف في مجال المباراة بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون: ﴿قال: ألقوا، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهَبوهم وجاءوا بسحر عظيم. وأوحينا إلى موسى أن ألْقِ عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ (الأعراف ٧/١١٦ ـ ١١٨). وإذن فسحرة فرعون سحروا أعين الناس أي جعلوا عيونهم ترى ما لا حقيقة له، واسترهبوهم، أي جعلوهم يشعرون برهبة شديدة دون أن يكون معنى ذلك أنهم بالفعل عندما ألقوا عصيهم تحولت إلى أفاعٍ أما موسى فعندما ألقى عصاه تحولت فعلاً إلى أفعى بأمر الله فلقفت ما ألقوا فوقَع الحق وبطل ما كانوا يعملون.

وقد حرصوا على أن يقولوا لكل من يجالس محمداً أنه ساحر يؤثر بكلامه في مشاعر سامعيه دون أن يكون هذا الكلام حقيقة من الله. وكان لهذا الكلام أثر فعال في زوار مكة، وتأثر سير الدعوة في مكة بذلك كثيراً.

وقد روعت قريش كما رأينا لما كان من الاتفاق بين محمد ﷺ وأهل

يثرب، ولكن الأمر لم يفتها، فقد علمت بأمره ولكنها لم تفعل إلا القليل. وما كان بيدها أن تفعل أكثر من ذلك، فإن بقية جماعة المسلمين قد أخذت تهاجر إلى المدينة كما هاجرت جماعات إلى الحبشة، ولم يكن هناك ما يدل على أن هذه الجماعة المهاجرة سيكون لها شأن كبير في مهجرها الجديد، ولعل الكثيرين من القرشيين استراحوا لذلك، ولكن شيئاً ما في نفوس أهل الفطنة من أولئك التجار الحاسبين المهرة ألقى في روعهم أن شيئاً ما سيحدث، فتركز اهتمامهم على مراقبة محمد، فما دام هو تحت أعينهم في المدينة فلن يحدث أي شيء، أما إذا انتقل إلى يثرب فهنا قد يكون الخطر، لأن اليثربيين قد يتجمعون حوله، وهم ـ أي القرشيين ـ بعقليتهم البدوية لم يستبعدوا أن يلتف اليثربيون حوله ويؤيدوه ويدخلوا في دعوته وتنشأ عن ذلك متاعب، ولكن أحداً منهم ما كان ليتوقع شيئاً كبيراً، ولكنهم بطبعهم البدوي متخوفون، شأن صاحب المال، ويتجلى لنا هذا التخوف من جانب قريش من تفاصيل ما حدث بعد اجتماع العقبة الثانية في خبر رواه ابن سعد، وقد سبق أن أشرنا إليه وشككنا في صحته ولكننا قد نشك في الخبر بنصّه وتفاصيله أحياناً، ولكننا نقبله بمغزاه ومجمله وهنا ـ في ذلك الخبر الذي يسوقه ابن إسحاق رواية اخرى له تختلف عن رواية ابن سعد. في هذا الخبر نقرأ أن معبد بن كعب بن مالك (الأنصاري) يقول: «فلما أصبحنا غدت علينا جِلة قريش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج: إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم» وواضح أن الخبر وصل إلى قريش محرفاً، فإن القوم لم يبايعوا محمداً على حرب قريش، بل كانت المبايعة على الحماية فقط والنصرة على من يعتدي على محمد وأصحابه في يثرب، ولكن وساوس قريش ذهبت بها هذا المذهب، وهو أمر معقول في تلك الظروف.

وعلى أي حال فما نظن أن حركة هجرة كهذه من مكة إلى المدينة كان

يمكن أن تخفى على قريش، ولكن قريشاً كما قلنا لم يكن يهمها أن يهاجر من بلدتهم من يشاء الهجرة ما دام محمد نفسه باقياً في مكة. حتى خبر احتيال أبي جهل وأخيه هشام على عَيَّاش بن ربيعة (وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما) واسترجاعه إلى المدينة والضغط عليه حتى افتتن عن دينه، حتى مثل هذا الخبر يمكن الشك فيه، بل إن سياقه مضطرب، وسنده عن نافع عن ابن عمر.

ونلاحظ هنا أن كل رجال قريش من أعداء الإسلام كان لهم عدوان باللسان على الأقل على رسول الله ﷺ، إلا أبا سفيان صخر بن حرب فليس لدينا خبر يتضمن عدواناً منه بالفعل أو القول على رسول الله أو الإسلام، ومرد ذلك فيما نحسب هو أن الرجل كان عملياً لا ينصرف إلى ما لا طائل وراءه، نعم إنه سيقود قريشاً في أُحد وسيقودها في الخندق، ولكن ذلك شيء آخر، فهذه حرب حقيقية بين جبهتين متعاديتين: جبهة مكة وجبهة الإسلام في المدينة، فأما في أُحُد فقد كانت مكة قد انكسرت في بدر انكساراً خطراً على مصيرها، وكان لا بد من الرد، ثم إن قيادة أبي سفيان هنا لم تكن سيئة بحال، وأما في الخندق فقد أعد أبو سفيان العدة وخرج ومعه أحلاف أقوياء، ولم يكن في حسبانه أنه سيلقى عَبقريةً تفوق كل ما كان يتوقع، وقد عبر أبو سفيان عن ذلك تعبيراً صريحاً كما سنرى. وبعد الخندق وتأكد أبي سفيان أن جماعة المدينة قوة معنوية ومادية لا تقاس إليها كل قوى الجزيرة بحال، وأن على رأسها قائداً هو الغاية في الإيمان بقضيته والتفاني واليقظة والذكاء والبسالة، بعد ذلك نجد أن أبا سفيان يتجه في مواجهته لأمة الإسلام اتجاهاً عاقلاً يدل على ذكاء وحسن تصرف، وهو في تصرفه هذا كان يسير في الطريق الذي رسمه رسول الله ﷺ، طريق استسلام مكة دون حرب حتى تدخل بقية قريش الإسلام بقواها كاملة عزيزة الجانب محفوظة الكرامة، فتكون قوة للإسلام.

حتى فيما يتعلق بهجرة الرسول ﷺ وأبي بكر إلى المدينة، وهي هجرة أشبه بالهروب المدبر المحسوب، لا نجد لأبي سفيان فيها أي تدخل يذكر، كأن

الأمر لم يكن يعنيه. كانت قريش قد تبينت بتوالي هجرات الصحابة أن هناك شيئاً خطيراً يجري وأن محمداً يدبر بإحكام، فاستيقظت فيها كل ملكات الحذر والترقب، وأذكت العيون على رسول الله حتى لا يفلت من يديها. وهنا وقريش ترى أن حركة الإسلام تأخذ شكلاً من الممكن أن يصيبها منه شر، هنا يكون تفكير رؤسائها في قتله والخلاص منه جملة. وهنا نجد أن ملأ قريش ـ بما فيهم أبو سفيان ـ يجتمعون ويتشاورون، فقد أدركوا بفراستهم أن ما يجري في المدينة من الممكن أن يأتيهم منه ضرر، ولا شك في أنهم علموا بما أدركه مصعب بن عمير من نجاح في عمله داعيةً للإسلام في يثرب ولا نزاع في أن مصعباً يعتبر ـ بعد رسول الله ﷺ ـ أكبر داعية للإسلام، فقد ذهب ليدعو للإسلام في بلد غريب عليه، ولكنه كان رجلاً عميق الإيمان، إذ هو من أولئك الشبان الذين أنشأهم الإسلام نشأة أخرى، فقد كان قبل الإسلام من أكثر شباب قريش تنعماً بالحياة، قال فيه محمد بن اسحاق: بلسان سعد بن أبي وقاص: «وكان مصعب بن عمير أنْعَمَ غلام بمكة وأجلهم صلة مع أبويه، ثم رأيته جهد في الإسلام جهداً شديداً حتى لقد رأيت جلده يتحشف كما يتحشف جلد الحية [1]»وكانت أمه ـ وهي خناس بنت مالك بن المُطَرِّف من بني عامر ـ من الموسرات، وكذلك كان أبوه هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، فلما ندبه الرسول ﷺ بعد بيعة العقبة الثانية ليذهب إلى المدينة ليُعَلِّم أهلها الإسلام اجتهد في ذلك اجتهاداً شديداً حتى لقب بالمقرىء، وبلغ من نجاحه أنه لم يعد هناك بيت في المدينة إلا وفيه إسلام. ثم تبعه في الهجرة بقية المهاجرين وفيهم عمر وحمزة ومن في طبقتهم، وأخذت جماعة الإسلام في المدينة هيئة وكياناً قبل هجرة الرسول إليها، فكان ذلك قميناً بأن يثير مخاوف قريش فاشتدت رقابتهم على رسول الله ﷺ مخافة أن يفلت منهم، ثم رأوا أن يحسموا الأمر بقتله، وكان صاحب الرأي في ذلك أبو جهل، وكان من رأيه أن تنتخب كل قبيلة شاباً

(١) ابن الأثير في أسد الغابة ١٨٢/٥.

ليضربوا محمداً بسيوفهم ضربة واحدة مجتمعين، ليتفرق دمه في القبائل ولا يستطيع بنو هاشم حربهم جميعاً ويرضون بالعقل، فيعقلوه جميعاً.

وكان ذلك ممكناً لا في هذه المناسبة فقط، بل في أي وقت مضى منذ بدأت العداوة بين رسول الله ﷺ وقريش، ولكن الله أنجى رسوله وخرج به من مكة على النحو الذي نعرفه ووصل به إلى المدينة على النحو الذي ترويه كتب السيرة لكي يقوم ببناء أمة الإسلام في المدينة.

وبقيام أمة الإسلام في المدينة تغير الموقف بالنسبة لقريش. وكان عليها أن تواجه تحدياً لم يكن ليخطر لأحد من رجالها على بال. ومن حسن حظ مكة أن كان على رأسها في ذلك الحين أبو سفيان صخر بن حرب.

الفصل الثاني

قُرَيش وَأُمَّة الإسلام في المدينة

الدور الأول من الصراع بين قريش والإسلام
من الهجرة إلى موقعة بدر :

من بداية استقراره في المدينة وشروعه في إقامة أمة الإسلام، كان رسول الله يعرف أن قضية جزيرة العرب وادخالها في الإسلام كانت قضية قريش وادخالها في الإسلام. لقد كانت الجزيرة تعج بالقبائل ما بين كبيرة وصغيرة: كانت هناك قبائل كبرى تسكن مساحات شاسعة من الأرض وتتعدد بطونها وأفخاذها، حتى لتكاد تكون شعوباً: هناك إلى شرقي الحجاز كانت غطفان وهوازن، وكل منهما تعدل قريشاً عشرات المرات حجماً وعدداً، وإلى شرقيهما كانت منازل تميم، وهم البدو الخُلّص، وكانوا قبائل وبطوناً شتى، ويصفهم ابن حزم بأنهم «قاعدة من أكبر قواعد العرب». وإلى شمالهم على أطراف نجد الغربية كندة وغيرها من قبائل العالية ومنهم باهلة وسُلَيم بن منصور وليث بن بكر بن عبد مناة وهلال بن عامر بن صعصعة ومن إليهم من بطون قيس عيلان ، وكانت تميم في البداية تمتد حتى البحر ، ولكنها انحسرت إلى الداخل وحل محلها عبد القيس وبكر وتغلب وغيرها، وهم بدو أعراب ينتشرون على طول الطريق من الحجاز الى العراق، وإلى الشرق كانت منازل بكر وتغلب ثم عبد القيس وهذه القبائل التي ذكرناها كانت جماعات قوية فيها بيوت وأعداد ورجال سيغيِّرون وجه التاريخ بعد الإسلام. وكانت هناك كذلك طيء ولخم وجذام في شمال وسط الجزيرة، وبعضها من المجموعة التي تسمى باليمنية الأصل. وكانت قبائل قوية ذات خطر، وهناك قبائل أخرى صغيرة

الحجم ولكنها مرهوبة الجانب مثل عبس وذبيان ولحيان وغيرها كثير، أما شمالي المدينة فكانت هناك جهينة وبقية بطون قضاعة مثل بلي والقين وعذرة وخشين، وكانت بطون قضاعة تمتد من الحجاز إلى الشام جماعاتٍ متوالية.

ووسط هذا البحر من قبائل وسط الجزيرة، وشمالها، عاشت قريش في قاعدتها مكة، وهي من أصغر قبائل الجزيرة ولكنها كما رأينا كانت أظهرها وأبعدها صيتاً وأكثرها صلة بمعظم القبائل وبالعالم الخارجي، ومن هنا فقد كان رجالها أوسع العرب علماً وأبعدهم تأثيراً، ولهذا فقد كان رسول الله ﷺ يعرف أن قريشاً إذا انضمت لأمة الإسلام تبعتها في ذلك معظم قبائل شبه الجزيرة.

وبحلول رسول الله ﷺ في المدينة تحولت جماعة المسلمين شيئاً فشيئاً وبسرعة لم يكن أحد يتصورها، إلى أمة واحدة ذات عقيدة واحدة. ومثل أعلى واحد، فأصبحت خلال العام الأول من الهجرة وحدةً دينية فكرية واجتماعية لم تعرف لها جزيرة العرب مثيلاً من قبل. وليس هنا مكان تفصيل كيف تم ذلك، ولكن الذي يهمنا هنا هو النتيجة. كان هناك اليهود ومن لم يدخلوا الإسلام من أهل المدينة، ولكن كتلة البلد وخيرة رجالها دخلوا في الإسلام ونهضوا بأمر أمته، وتوالى نزول آيات القرآن تهديهم وتعلمهم وتنوِّر بصائرهم فأصبحوا في أيسر الزمن أعلى أهل الجزيرة ثقافة وفكراً وأرفعهم روحاً معنوية. ولم تكن المدينة قبل الإسلام مدينة واحدة، بل كانت قرى منتشرة في سهل المدينة مثل قُباء ويثرب وراتج والسُّنح وحُسَيكة، فربط الإسلام بينها ودفع الناس إلى تعمير الغامر من الأرض وهو كان أغلب أرض سهل المدينة، فتزايد عمران البلد وتزايد سكانها بالهجرة إليها. وأدخل الرسول صلوات الله عليه المؤاخاة بين المهاجرين من قريش وغيرهم وأهل المدينة، وشرع معهم في إنشاء الصحيفة، وهي الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ومن شاء الدخول في حلف أمة الإسلام من يهود ومن كان نازلاً بالمدينة من

قبائل جهينة وبطون قضاعة، يبين فيه قواعد التعامل والتعاون بين الوحدات القبلية التي تؤلف الأمة، ثم إن رسول الله كان يقوم فيها هادياً ومعلِّماً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه، فكان بالفعل سراجاً منيراً، خرج بهم من ظلمات الجاهلية وأنشأهم الإسلام نشأة أخرى. وفي نهاية العام الأول للهجرة كانت المدينة قد أصبحت أقوى وحدة دينية وسياسية وفكرية واجتماعية في شبه الجزيرة، واتجهت إلى احتواء بقية الحجاز ومكة وقريش.

وقد أكدت معركة بدر (١٩ رمضان ٢ هـ ١٥ مارس ٦٢٤م) مكانة المدينة في الحجاز، واتجهت أبصار قبائل شبه الجزيرة جميعاً نحو القوة الجديدة الصاعدة، ولم تؤثر معركة أحد (١٠ رجب سنة ٣ هـ /٢٣ مارس ٦٢٤م) أثراً بعيداً في صعود المدينة، ولكن فشل الأحزاب في دخول المدينة وارتدادهم عنها منهزمين في ذي القعدة سنة ٥ هـ/ ابريل ٦٢٧ م) حسم الأمور وأثبت أن أمة الإسلام في المدينة أقوى قوة في الجزيرة كلها، وهبطت مكانة قريش وتدهورت مكانتها الاقتصادية نتيجة للحصار المضروب عليها.

ومن الواضح أن رسول اللّه ﷺ ـ عندما قامت أمة المدينة ـ رسم خطته كاملة للتغلب على قريش، بمعنى أننا لا ينبغي أن ننظر إلى غزواته وسراياه واتفاقاته مع القبائل في الحجاز وخارجه على أنها أعمال مفردة منفصل بعضها عن بعض، بل كانت كلها حلقات من سلسلة واحدة أو سياسة واحدة وُضعت بإحكام حتى تنتهي حتماً بوضع قريش في موضع لا تستطيع معه إلا التسليم أو الاستسلام. حقاً إنه يبدو لنا أن موقعة بدر قد نتجت عن تهور أبي جهل وأمثاله من القرشيين المبغضين للإسلام ورسوله وإصرارهم على تحدي المدينة، والاحتفال بنجاة العير وتنبيه الأذهان إلى أن طريق التجارة مفتوح، ولكن ذلك الاحتفال وخروج قريش بالقيان والدفوف وضربها خيامها خارج سهل بدر، ونحرها الجُزر، كل ذلك لم يعن أن طريق التجارة قد فتح، وأن مكة تستطيع أن تواصل تجارتها كما كانت قبلاً، لأن عير أبي سفيان إذا كانت قد أفلتت فإن

الطريق ظل مقفلاً، والعير التالية كـان لا بد أن تقـع في أيدي المسلمـين إلا إذا رافقهـا جيش كبير، وفي هـذه الحالـة كان لا بـد من وقـوع صـدام مسلح بـين الجانبين، وموقعة بدر كان لا بد أن تقع على أي حال، إمـا في التاريـخ والمكان اللذين وقعت فيهما أو في مكان وزمان آخرين. كانت لقاء محتوماً ولا مفـر منه. وكان لا بد أن تنتصر فيـه أمة الإسـلام لأنها خرجت إلى تلك الـواقعة بسـلاح جـديد لم يكن يـدخل في حسبـان قريش، هـو سلاح الإيمـان والتفاني ووحـدة الإيمان والاستعداد وبيع النفس في ميدان العقيدة والشرف، وأسـاطين قـريش الذين خرجوا إلى الميدان يختالون كبراً وثقة في أنفسهم لم يكن لديهم شك في أن النصر في أيديهم، ويتجلى لنا هذا مما يذكـر على لسـان عمير بن وهب الجُمَحي وأبي أسامة الجشمي، وكانا في جيش المشركين وكانا من أهل المعرفة بالحرب واحتمـالاتهـا، وكـلام أبي أسـامـة الجشمي هنـا أبلغ وأدل عـلى طبيعـة قـوة المدينة التي كان على القرشيين لقاءها، قال بعد أن طاف حول جيش المسلمين من بعيد واستوثق من أنه لا كمين لهم ولا مدد. قال يصف المسلمين: «والله ما رأيت جَلَداً ولا عدداً، ولا حلْقة (سلاح كثير) ولا كراعاً لكن والله رأيت قوماً لا يريدون أن يؤبـوا إلى أهليهم، قومـاً مستميتين ليست لهم منعـة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجف (= التروس)»[(١)] وتلك هي الناحية التي لم يرها أبو جهل بنظرته الجاهلية الصرفة، ولكن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس رآها، وتوقع الهزيمة ونصح قريشاً بالعودة إلى المدينة، ولكن أبا جهل أصر على اللقاء. والذي فات قريشاً ولم ينبه عليه مؤرخ، هو أن قريشاً القبيلة الجاهلية سارت إلى بدر على طريقة الجاهليين: جحفل من الناس يسير بغير نظام معتمداً على المبارزات الفردية عند اللقـاء. ففوجئت بـأنها تلاقي جيشـاً مدربـاً نظامياً يقف رجاله صفوفاً متراصة يلي بعضها بعضـاً. وقد دَرَّب الـرسول أمتـه على هذا الطراز الجديد من الحرب خلال المغازي والسرايا الثمـانية التي سبقت

---

(١) الواقدي، مغازي ١/٦٢.

معركة بدر. وكل الغزوات والسرايا الثمانية السابقة على بـدر من سَرِيـة سيف البحر، إلى سرية نَخلة كانت كلهـا تؤدي إلى بدر، ونَخلة بـالذات كـانت على أبـواب مكة ومـدخل حـرمها، وقـد قصد رسـول الله ﷺ من بعث عبدالله بن جحش وأصحابه إليها إلى اشعار قريش بأن مكة نفسها في متناول المدينة، وهو صلوات الله عليه لم يأمر عبدالله بن جحش أميرها بـالقتال، ولكن القتـال كان احتمالاً كبيراً جداً، وواقد بن عبدالله، أحد رجـال سريـة نخله، عندمـا فوق سهمـه إلى عمرو الحضـرمي وقتله في بدايـة الشهر الحـرام مخالفـاً بـذلـك أمـر الرسول، كان يشعر أنه لا يخالف بعمله هذا حتمية الظروف، فالقتال بين أمـة الإسلام وقريش كان واقعاً لا محالة والمسألة مسألة وقت وظروف، وكان رسـول الله ﷺ يعرف ذلك معرفة تامة، ثم لم تلبث أن نزلت الآيات التي أحلت القتال في الشهر الحرام دفاعاً عن النفس ﴿يسألونك عن الشهر الحـرام قتال فيـه. قل قتال فيه كبير. وَصَدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحـرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتـل. ولا يزالـون يقاتلونكم حتى يـردوكم عن دينكم إن استطاعوا. ومن يـرتدد منكم عن دينـه فيمت وهو كـافر، فـأولئك حبـطت أعمـالهم في الـدنيـا والآخـرة، وأولئـك أصحـاب النـار هم فيهـا خالدون﴾(1) والآية تدل على أن هناك حـالة حـرب قائمـة دائمة بـين المسلمين وبـين من يصدون عن سبيـل الله ويكفرون بـه ويصـدون عن المسجـد الحـرام ويحولون بين المؤمنين وبينه.

الدور الثاني من الصراع بين قريش والإسلام من بدر إلى أحد:

الذي يهمنا هنا هو أن قريشاً وجدت نفسها في ظرف لم تكن تتوقعه قط: فطريق تجارتها مقطوعة، ثم إن الكثير من قبائل الحجاز مالت إلى حلف المـدينة أو وقفت عـلى الحياد. وللمـرة الأولى منـذ أيـام قُصي وقفت قـريش وحـدهـا،

---

(1) البقرة ٢/٢١٧.

فبمجرد استقراره في المدينة عرف رسول الله كيف يجتذب جهينه إلى صفه ويجعلها من حلفائه في الحجاز، فقد كانت منازلها تمتد من ينبع إلى قرب تيماء واستشعرت قريش الخوف، وبعد هزيمتها في بدر وقتل الكثير من رؤسائها وكبار مَلئها، وفي مقدمتهم أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، أحست قريش أن الدنيا من حولها تغيرت، وفي هذه الظروف صار مصير قريش كله بين يدي أبي سفيان بن حرب.

وقد أحب أبو سفيان أن تشعر قريش بأن مِلَاكَ الأمر بيده فقام بغارة السَّوِيق (٥ ذو الحجة سنة ٢هـ / ٣٠ مايو ٦٢٥) وهي غارة سريعة قُتِل فيها اثنان من الزراع خارج المدينة وعاد سريعاً، وبلغ من سرعته في العودة، أن كان أصحابه يلقون جُرُب السويق (أي غرارات الدقيق) ليتخففوا منها ويستطيعوا العودة إلى مكة قبل أن يدركهم أهل المدينة، وما نحسب أن أبا سفيان إلا أراد بهذه الغارة أن يؤكد بها رياسته، مخافة أن يصير الأمر إلى رجل غيره من زعماء قريش، فلا يستطيع قيادة الأمور في الاتجاه الذي كان يتصور أنه الصحيح.

وبعد ذلك كانت سرية القَرَدَة، والقردة على الطريق من مكة إلى العراق، وكان هدفها قطع طريق التجارة العراقية على قريش، وكان الذي فكر في سلوك طريق العراق ثم الانحراف إلى الشام بعد خيبر، لكي يتخلص من سيطرة المدينة على طريق الشام صفوان بن أمية، ونص الواقدي هنا عظيم الأهمية والدلالة فنورده هنا بنصه، وسنقسمه إلى فقرات على عادتنا في مناقشة مثل هذا النص الذي نرى أنه جدير بالدراسة المتئدة:

١ ـ حدثني محمد بن الحسن بن أسامة بن زيد عن أهله قالوا: كانت قريش قد حَذِرت طريق الشام أن يسلكوها.

٢ ـ وخافوا من رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا قوماً تجاراً.

٣ ـ فقال صفوان بن أمية: إن محمداً وأصحابه قد عَوَّروا علينا متجرنا فما نرى

كيف نصنع بأصحابه، لا يبرحون الساحل.

٤ - وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك.

٥ - وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا، ونحن في دارنا هـذه، ما لنـا بها من نَفَـاق (يريد ما لنا من سوق تنفق فيه متاجرنا)إنما نزلناها على التجارة، إلى الشام في الصيف، وفي الشتاء إلى أرض الحبشة.

٦ - قـال لـه الأسـود بن عبـد المطلب: فَنَكِّب عن السـاحـل، وخُـذ طـريق العراق.

٧ - قال صفوان: لست بها عارفاً.

٨ - قال أبو زمعة (الأسود بن عبـد المطلب) فـأنا أدلـك على أخـبر دليل بهـا يسلكها وهو مغمض العينين إن شاء الله[١].

وكان هذا الدليل هـو فرات بن حِبّـان العجلي. فـاتفق صفوان مـع هذا الرجل على أن يكون دليله على قافلة يخرج بها إلى الشام، فيسلك طريق العراق حتى يخرج من منطقة المدينة فينثني غرباً حتى يلقى أحد طـرق الشام ويسلكـه. وبالفعل أعد صفوان قافلة فيها فضة كثيرة. ويبدو أن قريشاً أرادت أن تشتري بذلك المال أزواداً تستعين بها على الحصار. وسلكت القافلة طريق ذاتِ عِرق. فُنمي الخبر إلى محمد صلوات الله عليه فأسرع بانتداب زيد بن حـارثة وإرساله في مائة فارس أدركوا القافلة عند ذات قَرَد أو القَرَدَة على ذلك الـطريق «وأفلت أعيان القوم، ولكن المسلمين استولوا على البضائع وأسروا رجلين وقدموا بالعير على النبي ﷺ. فخمَّسها، فكان الخمس يومئذ عشرين ألف درهم، وقَسَّم مـا بقي على أهل السرية، وكان في الأسرى فُرات بن حِبان (الدليل) فأتى به فقيـل له: أسلم. إن تسلم نتركك من القتل. فأسلم فتركه من القتل»[٢].

وهذه السرية تغير الكثير من مفهوماتنا التقليـدية عن مغـازي رسول الله

(١) عبارة إن شاء الله على لسان أبي زمعة بن عبد المطلب تبدو غريبة هنا: الواقدي ١/١٩٨.
(٢) الواقدي، المغازي: ١/١٩٨.

وسراياه، فها نحن نرى أنها أدت في مجموعها إلى ذلك الحين (قبل أحد) إلى سيطرة المسلمين تماماً على طريق التجارة المكية إلى الشام ثم العراق. ولولا أن رسول الله ﷺ سار في مغازيه على خطة محكمة مرسومة مقدماً لما وصل في الزمن القصير إلى إيقاف التجارة المكية، فإن الأمر لم يكن مجرد إيقاف التجارة، بل رمت الخطة كذلك إلى كسب قبائل الساحل إلى جانب المدينة وإخراجها من حلف مكة، مما انتهى إلى حصرها على بلدها على النحو الذي وصفه صفوان ابن أمية. وعندما أرادت قريش أن تتسلل إلى الشام عن طريق العراق بادر، الرسول بإيقاف هذه الطريق أيضاً، مما يدل على أن أمة المدينة كانت لها الأرصاد والعيون من أصدقائها والداخلين في حلفها، فكانت الأخبار تصل إلى رسول الله في أقصر وقت فيبادر إلى العمل. ويكون عمله حاسماً يوفي على الغاية المطلوبة.

وسرية القَرَدَة وما وقع فيها ترينا كيف أن غزوة أحد لم يكن منها مفر، فقد كانت قريش أمام أحد خيارين ولا ثالث لهما: إما الاستسلام (ولم يكن أوانه قد آن بعد) أو خوض معركة أخرى هدفها تحطيم قوة المدينة وفتح طريق التجارة.

فلما عجزت قريش عن فتح طريق آخر للتجارة إلى الشمال والشمال الشرقي، أدرك أبو سفيان أنه قد جاء وقت العمل. وكان هذا الرجل قد احتبس أموال العير التي نجا بها قبيل معركة بدر وجعلها في دار الندوة لا يحركها، وكان الكثير من أصحابها ممن قتل أو أسر في بدر. فلما فشلت محاولة الذهاب إلى الشام اجتمع الباقون من ملأ قريش إلى أبي سفيان وطلبوا إليه التصرف في تلك الأموال وعرضوا عليه أن يُعَد بها جيش يسير إلى المدينة. وكان هذا ما يريده أبو سفيان، ويشهد بذلك قوله:

« ـ وقد طابت أنفس قريش بذلك قالوا: نعم، قال: فأنا أول من أجاب إلى ذلك، وبنو عبد مناف معي، فأنا والله الموتور الثائر. قد قتل ابني حنظلة

ببدر وأشراف قومي». واتفق رأيهم على أن تباع المتاجر التي كانت في العير وترد رؤوس الأموال إلى أصحابها وتستخدم الأرباح في تجهيز الجيش. ولم تكن الأرباح قليلة فقد كان المكيون يربحون للدينار ديناراً، فإذا كانت هذه العير ثمنها خمسون ألفاً كما تقول النصوص فإن أرباحها كانت خمسين ألفاً من الذهب العين «بحسب نص الواقدي»، وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا متعة كل ما كان لهم في العير. فهذا يبين أن القوم ردوا رؤوس الأموال إلى أصحابها من الضعفاء واستخدموا الباقي مع الربح في تجهيز العير وفيهم نزلت: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾[1] الآية.

وهذا التصرف من أبي سفيان يدل على فكر سليم وتدبير صحيح، فقد كان الرجل يعرف أنه مقبل على معركة حاسمة وأنه محتاج فيها إلى أموال، فتحصلت له الأموال للسلاح والعدة. فلما استوثق أبو سفيان من عزيمة قريش على المسير واطمأن إلى أن الرياسة له، أخذ يشاور ملأ قريش في أمر الحملة، ولدينا بيان بمن كان مع أبي سفيان في هذا التدبير، وهم يمثلون معظم بيوت قريش، وانضم إليهم بنو عبد مناة بن كنانة بن خُزيمة والأحابيش وثقيف. وبعثت قريش ناساً إلى قبائل العرب لدعوتها إلى الاشتراك في حرب المدينة، وتحمس رجالها حتى قرروا أن يخرجوا بنسائهم لِيُحفِظنهم ويذكِّرْنهم قتلى بدر وقال: «فإن العهد حديث ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه»[2]. وهذا كلام صفوان بن أمية بن خلف بن وهب ابن حُذافة بن جُمح، وكان هو الشخصية الثانية في قريش يومذاك. . . وخرجت قريش وأحلافها في ثلاثة آلاف مقاتل معهم ٣٠٠٠ بعير وفيهم ٧٠٠ دارع و٢٠٠ فارس، وهذا جيش ضخم نظن أنه أكبر قوة عسكرية عرفها العرب حتى ذلك الحين، ومثل ذلك الجيش الضخم يحتاج إلى قيادة وإدارة، وكانت

(١) الأنفال: ٣٦.

(٢) الواقدي، المغازي ١/٢٠٢.

للجيش ثلاثة ألوية . . لواء لقريش ولواء للأحابيش ولواء لبقية من انضم إلى قريش غير هؤلاء، وحدث خلاف بشأن لواء قريش، «فإن أبا سفيان تردد في اعطائه لبني عبد الدار فغضبوا وأغلظوا لأبي سفيان بعض الاغلاظ» فترك لهم اللواء .

وقد عرف أبو سفيان كيف يقود هذا الجيش الكبير حتى وصل به إلى ظاهر المدينة يوم الخميس لخمس ليال خلون من شوال، وكانت الوقعة لسبع خلون من شوال (سنة ٣ هـ /٢٣ مارس ٦٢٥ م) وكان أهل المدينة قد زرعوا العِرض شعيراً، والعرض أرض مزروعة تمتد من الجُرف شمال المدينة حتى الوطاء أسفل أحد، فرعت جمال القرشيين الشعير كله في يومين، وفي يوم اللقاء، لم يكن في العرض عود واحد أخضر .

وقبل أن يصل المشركون كان النبي ﷺ قد نذِر بهم، فأسرع إلى العمل على عادته، ومشاورة أصحابه وقتاً طويلاً فيما إذا كانوا يقاتلون في المدينة أو يخرجون للقائهم خارجها . وكان هو أول الأمر يرى تحصين المدينة ورفع النساء والولدان في الآطام والقتال في شوارع البلد، وقد رأى ذلك حرصاً منه على ألا يتعرض المسلمون لقتال ذلك العدد الضخم في لقاء مَكشوف، ولكن شباب الأنصار من أمثال محمد بن مسلمة وأسيد بن الحضير وسعد بن الربيع وسعد ابن خيثمة، أصروا على الخروج للقاء العدو في الميدان، وأنفوا أن تُدْخَل عليهم المدينة، ووجد الرسول فيهم حماساً عظيماً فقرر ألا يخذلهم واستعد استعداداً تاماً، فأحسن تنظيم رجاله بعد التشاور معهم، ورسم لهم خطة العمل فقرر أن يخرج بمن يريد الخروج معه ويجعل ظهره إلى أحد ويجعل تل عينين القليل الارتفاع بينه وبين المشركين، ويقف بالمسلمين إلى غَربيٍّ عينين متأخرين عنه قليلاً ويجعل الرماة على التل حتى يردوا خيل المشركين . وكانت الخيل إذ ذاك تُقابل الدبابات التي تهاجِم بمدافعها اليوم، والسهام التي يرمي بها الرماة للدبابات كانت تقوم مقام المدافع المضادة اليوم . وقد لجأ الرسول إلى ذلك

الحل ليبطل ميزة المشركين الكبرى وهي الخيل، فقد كان لديهم مائتان من الفرسان عليهم مقاتلون ذوو خبرة وبسالة وقوة، مثل خالد بن الوليد وضرار ابن الخطاب وعكرمة بن أبي جهل. وبالفعل لم يستطع المشركون اقتحام صفوف المسلمين خلال الدور الأول من المعركة، بل انهزم المشركون وأخذوا يتهاربون وكاد أبو سفيان يخسر المعركة، وهنا وقع المسلمون في الخطأ الذي حذر منه الرسول أشد التحذير، إذ إن الرماة غرهم النصر الأول فخالفوا أمر قائدهم عبدالله بن جُبير، واندفعوا يطمعون في نصيب من الغنائم، ولم تفت هذه الفرصة خالد بن الوليد القائد المطبوع، فاندفع بخيله فاجتاح بقية الرماة وانصب بخيله على من بقوا في مواقعهم منهم، دون أن ينطلقوا في إثر الهاربين من رجال العدو، فاضطربت صفوف المسلمين وداخلتهم خيل العدو وتفرقوا وضاع الحزم. وتبين الرسول خطورة الموقف فثبت مكانه ثباتاً يروع النفس، وفي وقت من الأوقات من هذا الدور الثاني من المعركة كان يقاتل وحده حتى ثاب إليه قليل من المسلمين، وجعلوا ينادون المسلمين فعادوا إليه وتجمعوا حوله وأصيبت شفته ودخل زرد المِغفر في وجنتيه وشج في رأسه، فلم يبال بذلك وثبت لا يتزعزع، وما أسرع ما تلاحق به المسلمون وأحاطوا به ودفعوا عنه وهو يقاتل، فلما استطاع بثباته إعادة المسلمين إلى الثبات، بعد أن قتل منهم من قتل، لم يفكر لحظة في العودة إلى المدينة والقتال فيها (كما كان الرأي أولاً) ولو غيره لفعل ذلك، ولكن رسول الله أدرك ببصيرته أن أحسن ما يفعله الآن هو السير بالمسلمين إلى لِحْف جبل أحد، ويجعلوه وراء ظهورهم والاعتصام به والثبات هناك إلى آخر النهار حتى لا يعطي المشركين فرصة للتفكير في دخول المدينة، ولو دخلوها في تلك الظروف لما اقتصر الأمر على القتال في الأزقة، كما كان سيحدث لو أن المسلمين رسموا خطتهم على هذا الأساس، فإن أهل المدينة الآن غير مستعدين للقتال بداخلها ولا هم أعدوها لذلك، ومعظم مقاتلي المسلمين في خارج البلد. ثم إن النساء والولدان كانوا دون حماية، فلو دخل المشركون لاجتثوا المسلمين اجتثاثاً واحتلوا البلد وأرغموهم على التسليم

بما يريدون، وهذا هو الذي حذره الرسول ﷺ ، فقرر أن يثبت بمن معه محتمين بأحد فيمسكوا المشركين هناك إلى آخر النهار، وقد نجح الرسول في ذلك، وفوّت على المشركين الفرصة وجعل الدور الثالث من المعركة نصراً للمسلمين بعد أن كانوا أشرفوا على الهزيمة.

وبينما كان رسول الله ﷺ ينظر هذا النظر البعيد ويعمل على المحافظة على قوة الإسلام في المدينة سليمة لا تمس، ويحرص أشد الحرص على تلافي الخطأ الذي وقع فيه بعض المسلمين عندما خالفوا أوامره، فاستطاع بسرعة بديهته وبعد نظره تحويل الهزيمة إلى نصر. كان أبو سفيان ـ وهو هنا أذكى من كان في قريش من الرجال ـ لا يفكر إلا في الثأر لبدر ويحرص أشد الحرص على قتل رسول الله ﷺ ظناً منه أن ذلك ميسور له، وحسباناً منه أن مصير الإسلام كله مرهون بحياة محمد، غافلاً أشد الغفلة عن أنه يحارب عقيدة قُدِّر لها بفضائلها الذاتية وصدقها وحتمية نصرها، أن تغير صورة الحياة والمجتمع في جزيرة العرب كلها أولاً ثم فيما يستطيع المسلمون ادخاله في دين الله من أرض الله، وعندما ترددت في ميدان المعركة صيحة تقول إن رسول الله ﷺ قد قتل، نجد أبا سفيان يستطيره الفرح ويمضي يسأل: «يا معشر قريش، أيكم قتل محمداً؟ قال ابن قميئة: أنا قتلته، قال: نُسَوِّرك[1] كما تفعل الأعاجم بأبطالها، وجعل أبو سفيان يطوف بأبي عامر الفاسق في المعارك /ويسأل/ هل يرى محمداً /بين القتلى/، فمر بخارجة بن زيد بن أبي زهير الخزرجي، فقال: يا أبا سفيان، هل تدري من هذا القتيل؟ قال: لا، قال: هذا خارجة بن زيد بن أبي زهير الخزرجي. هذا سيد بلحارث بن الخزرج...»[2] ولم يلبث أن استبان خطأ ظنه وأن محمداً لم يقتل، وقال له خالد بن الوليد: «رأيته أقبل في نفر من أصحابه مصعدين في الجبل». «قال أبو سفيان: هذا حق، كذب ابن قميئة. زعم أنه قتله»[3].

---

(١) أي نلبسك سواراً من ذهب في ذراعك.

(٢) الواقدي، المغازي، ١/٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٣) الواقدي، مغازي، ١/٢٣٧.

وإلى آخر يوم أُحد كان المشركون ما يزالون يرجون قتل رسول اللّه ﷺ واحداً بعد واحد فيخيبون، ويلقون منهم في هذه المحاولة مصرعه من حان حيْنه، وقد دل الرسول يوم ذلك على بسالة وثبات وهدوء جنان وثقة في اللّه وفي النفس لا ندري كيف لم يتفطن إليها أولئك الذين يزعمون أنهم يسيرون على سنته ويتبعون غَرْزَه، وقد استهلك في الذود عن رسول اللّه من المسلمين نفر يمكن اعتبار حكاياتهم مُثُلاً تحتذى في البسالة والفداء، ويهمنا هنا أن نذكر مشهداً واحداً من عشرات، نرويه هنا لندل على أن كفار قريش لم يفطنوا إلى وجهِ العبرة في استبسال أصحاب محمد ﷺ فغابت عنهم بذلك عبرة الإسلام كله، وقتل الكثيرون منهم عن الشرك بعد ذلك ودخل الإسلام منهم كثيرون، بعد أن انتصر الإسلام وتجلى نوره، قال الواقدي: «وكان عباس بن عبادة بن نضلة، وخارجة ابن زيد بن أبي زهير، وأوس بن أرقم بن زيد. وعباس رافع صوته يقول: يا معشر المسلمين! اللّه ونبيكم! هذا الذي أصابكم بمعصية نبيكم! فيُوعدكم النصر فما صبرتم!. ثم نزع مِغفره عن رأسه وخلع درعه فقال لخارجة بن زيد: هل لك في درعي ومَغْفَري؟ قال خارجة: لا! أنا أريد الذي تريد، فخالطوا القوم جميعاً، وعباس يقول: ما عذرنا عند ربنا أن أصيب رسول اللّه ومنا عين تطرف؟ يقول خارجة: لا عذر لنا عند ربنا ولا حجة. فأما عباس فقتله سفيان بن عبد شمس السُّلمي، ولقد ضربه عباس ضربتين فجرحه جُرْحَين عظيمين، فارتُثَّ يومئذٍ جريحاً، فمكث جريحاً سنة ثم استبل، وأخذت خارجةَ بن زيد الرماحُ، فجرح بضعة عشر جرحاً، فَمَر به صفوان بن أمية، فعرفه، فقال: هذا من أكابر أصحاب محمد وبه رمق. فأجهز عليه، وقتل أوس بن أرقم[1]».

تتمة الخبر تدل على تفكير القرشيين خلال ذلك الثلث الأخير من المعركة: «وقال صفوان بن أمية: من رأى خبيب بن يساف؟ وهو يطلبه ولا

(١) الواقدي، مغازي ١/٢٥٨.

يقدر عليه، وَمثَّل يومئذ بخارجة وقال: هذا ممن أغرى بأبي يوم بدر - يعني أمية ابن خلف - الآن شَفَيت نفسي حين قَتَلت الأماثـل من أصحاب محمـد، قتلت ابن قوقل وقتلت أبا أزيهر وقتلت أوس بن أرقم[1].

وهكذا انجرف القرشيون في الاتجاه الذي وضعهم فيـه رسول الله ﷺ: طريق محاولة القضاء على قوة المسلمين العسكرية وقتل أكثر ما يستـطيعون قتله منهم. وكان رسول الله يعرف أنه بعـد أن نجح في تجميـع المسلمين، والثبـات بهم أسفل أحد، لم يعد من الممكن للمشركين أن يصلوا إلى ما يـريدون. فقـد تجمـع المسلمون بعضهم إلى بعض، وشملتهم روح الفـداء فمضوا يضـربـون ضـرب المستبسل، ولم يعـد المشركـون يبلغـون منهم مبلغـاً يـذكـر، وإذا كـان المشركون قد أصابوا منهم عدداً في فوضى الدور الثاني من المعركة، عندمـا ترك الرماة مواقعهم واندفعت خيل المشركين تكر عـلى المسلمين، فـإن الموقف تغـير الآن، فثبت المسلمـون وتحصنوا. وفي وسـطهم رسول اللّه لا يستـطيع أحـد الوصول إليه، فظل المشركون يكرون على المسلمـين مرة بعـد مرة أخـرى دون جدوى حتى انتهى النهار. وغريب في الأمر أن رغبة المشركـين في الوصـول إلى رسـول الله للقضاء عليـه، كانت من أكـبر أسباب هـزيمتهم، فـإنهم تـدافعـوا يبحثون عنه وقـد أعماهـم ذلـك عن كل شيء غيـره واستمروا في هـذا المطلب الـوعر، حتى انقضى الـوقت دون أن يفكروا في دخـول المدينـة وتخريبهـا، ولـو فعلوا لكـان ذلك عمـلاً منهم شديـد الخطورة عـلى المسلمـين، ولكن مـواهب الرسول ﷺ فعلت الأعاجيب وغيَّرت اتجاه التاريخ، فلم يزد المشركوُن على أن قتلوا نحو سبعين من المسلمين. وما سبعون رجلاً بالنسبة إلى جماعة كان عددها إذ ذاك يقترب من المائة ألف؟

ولدينا خبران عند الواقدي، أولهما يدل دلالة بينة على أن محمداً صلوات الله عليه قصد بالفعل إلى إمساك المشركين عند الجبـل حتى لا يدخلوا المـدينة،

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

فانصرفوا بذلك إلى قتال أهل الجاهلية، وهو قتال مبارزة رجل برجل لا قتال معارك، تتلاقى فيها صفوف الرجال على تعبئة ولها غاية وخطة ونظام، وذلك القتال النظامي أمر لم يعرفه الجاهليون، وقد عرفناه عند محمد ﷺ في بدر ونحن نراه الآن في أحد، وسيتجلى بأنصع صورة في الخندق، فكأن رسول الله ﷺ هو أول من أدخل العرب حرب المعارك المنظمة، وأول من صَفّ الصفوف وعَدَّها وسواها وقسمها وأعطى لكل قسم منها أمراً يقوم به حتى يكون النصر، وهذا من توجيه الله إياه، فما دخل رسول الله قبل ذلك قتالاً ولو علمه أحد قتال المعارك ولا يجوز لنا ـ أحسب ـ أن نصف رسول الله ﷺ بأنه قائد عسكري، لأن القيادة العسكرية هدفها النصر على العدو وتحطيمه وتخريب دياره، وما كان هكذا قتال الرسول صلوات الله عليه، إنما هو قتال لنصر الدعوة... فهو جزء من رسالته كنبي مرسل، والله سبحانه وتعالى وجّهه في أداء رسالته بحسب ما يرى، وفي أحيان كثيرة أخذ الرسول برأي أصحابه في خطط المعارك لأنهم أعرف بها، وقد أجمل الله سبحانه وتعالى طبيعة قتال محمد عندما قال له في سورة الأنفال: **﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، وليُبلي المؤمنين منه بلاء حسناً، إن الله سميع عليم﴾**[1] وفي هذه الآية كما نرى فصل الخطاب في هذا الموضوع. ولتذكر في مجال ما أدخله محمد ﷺ من صف الناس للقتال وتسوية صفوفهم قول الله تعالى في سورة الصف: **﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾**[2]وفي ثبات المسلمين عند اللقاء وأنفتهم من الفرار نذكر قول الله سبحانه وتعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دُبُره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾**[3]ثم نقرأ الفقرة التالية من كلام الواقدي في تفاصيل

(١) الأنفال ٨/١٧.

(٢) الصف ٦١/٤.

(٣) الأنفال: ٨/١٥ ـ ١٦.

وقعة أحد، والكلام هنا على لسان ضرار بن الخطاب وهو من كبار فرسان قريش الذين كروا على المسلمين عندما لمحوا خلو جبل عينين من الرماة قال: «فانتهينا إلى الجبل (عينين) فلم نجد عليه أحداً له بال، وجدنا نُفَيراً فأصبناهم، ثم دخلنا العسكر، والقوم غارون ينتهبون العسكر، فاقحمنا الخيل عليهم فتطايروا في كل وجه، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا، وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج قَتَلة الأحبة فلا أرى أحداً. قد هربوا. فما كان حلب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها، فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان (وهم رَجَّالة) فصبروا لنا، وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرسي وترجلت. فقتلت منهم عشرة[1]، ولقيت من رجل منهم الموت الفاقع حتى وجدت ريح الدم، وهو معانقي، ما يفارقني حتى أخذته الرماح من كل ناحية ووقع. فالحمد لله الذي أكرمهم بيدي ولم يُهنِّي بأيديهم»[2]. فهذا تصرف ناس يبيعون أنفسهم في سبيل الله ويترامون على الموت في مشهد تذهل منه العقول: فرسان كروا على رجالة فأذهلوهم فهربوا لأول وهلة، ثم ثابت إليهم نفوسهم وذكروا ما أمرهم به ربهم فعادوا يترامون على الموت. فهذا إذن توجيه من الله، وروح بثها القرآن في ناس عرفوا كيف يتمثلونه وائتسوا برسولهم في ذلك فكان خُلُقُهم القرآن. فلا يتحدثن أحد هنا عن محمد القائد العسكري، لأن القائد هو القرآن والموجه للرسول هو الله سبحانه أما الدافع لبقية المؤمنين فهو القرآن والإيمان بالله ورسوله إيماناً شاملاً عميقاً لا يثبت أمامه شيء.

وكذلك لا يصح أن يقال «محمد الدبلوماسي» أو محمد السياسي، لأن كلا الدبلوماسية والسياسة من مطالب إقامة الملك الدنيوي الخالص، وهما تأذنان لصاحبها في الكذب والالتواء والخداع والغدر، ما دام ذلك يؤدي إلى كسب القضية، وما عرفنا أن محمداً أجاز لنفسه أن يأتي من ذلك كله شيئاً،

(١) الواقدي، مغازي ١/٢٨٣.

(٢) والثابت من روايات الثقات أن ضرار بن الخطاب قتل ثلاثة من المسلمين فقط، انظر الواقدي: ١/٢٨٢.

وخلاصة القول في ذلك أن محمداً صلوات الله عليه، كان نبياً ورسولاً، فهو يتصرف في حدود النبوة وأداء الرسالة بأسلوب المجاهدين في سبيل الله ولا يصح أن يوصف لهذا إلا بما وصفه به ربه في الآيات ٤٥ ـ ٤٧ من سورة الأحزاب: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيراً. وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾.

ولقد قال الله سبحانه وتعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ ومن ثم فلا يجوز أن يسمى بغيرها، ولا يجوز أن يقال: الله الفنان مع أن خلقه سبحانه وتعالى كله فن، ولا يجوز أن يقال إن الله المهندس مع أن الكون كله هندسة، وقد أمر الله بألا يدعى إلا بأسمائه التي سمى نفسه بها في القرآن، حتى لا يختلط الأمر ويتخطى الناس الحدود في الكلام عنه سبحانه، وكذلك الحال مع نبيه صلوات الله عليه، لا يصح أن يوصف بأوصاف الساسة والملوك وأصحاب الدول وقادة الحروب، حتى لا يشوب ذلك شخصه الكريم ويلتبس الأمر على الناس في هذا المقام. هذا كله مع إمكان الناس الاقتداء به والعمل بعمله في كل مطلب، فهو كان يتصرف في شئون البشر تصرف الرجال ويسمو به مع ذلك، ويرتفع بأسلوبه وطريقته وروحه والله من ورائه لهذا ينصره، ولو فعل أي مسلم فعله لكان نصر الله من ورائه، وما هزم المسلمون أبداً، ولكنهم لسوء حظهم أخذوا من السنة ـ أحياناً كثيراً ـ ظاهرها، وموهوا الأمر على أنفسهم فخدعوها، وخادعوا الله وهو خادعهم والله سبحانه ينصر من ينصره ولا يخذله أبداً.

وقد استطردنا مع هذه المعاني بمناسبة معركة أُحُدٍ وما جرى فيها لأنها معركة توالى فيها النصر والهزيمة، وتعاقبت فيها المواقف بعضها وراء بعض على شكل تتبين لنا منه أحوال الجانبين من مسلمين ومشركين، وما كان من تصرف محمد ﷺ حتى انتهى ذلك اليوم العسير لصالح الإسلام وأهله، بفضل إيمان محمد وأصحابه وحسن بصيرته وثابت عزيمته ولا يحسبن أحد أننا إذ نقول إن هُدى

اللّه هو الذي كان يوجه محمداً ﷺ في حروبه إن ذلك كان مقصوراً عليه فإننا لا ينبغي أن ننسى أن تَقَبُّل الهدى في ذاته ملكة، فإن المهتدي يـرى الهدى ويختـاره ويتحمل مسئولياته، فلم يكن أيسر عـلى محمد عنـدما انقضّت عـلى قوتـه خيل المشركين من أن يعود مسرعاً بقومـه إلى المدينـة ليحاربـوا في أزقتها، ولكن قـوة إيمـانه كشفت لـه عما ينبغي عليـه عمله في ساعـة العسرة، فثبت هـذا الثبـات العظيم ثم قرر ـ دون دهش أو ذهـول ـ أن يتجه نحـو الجبل ليحمي ظهـره به ويثبت هناك ليمسك المشـركين عنـد الجبل ويحـول بينهم وبين دخـول المدينـة، وتلك هي ملكة القيادة التي اوتيهـا محمد، وهي نـابعة من إيمـانه لا من المهـارة العسكرية، وهو هنا لم يتحيل أو يتظاهر كما قد يفعل القائد العسكـري الصرف الذي لا أرب له إلا النصر في النهاية مهما كانت الوسيلة، وهو لم يجبن أو يفـر أو يتقهقر شأن من يطلب نجاة نفسه، وليس كل فرار هزيمة ولا كل فـرار انكساراً ولا كل تقهقر خوفاً، والقائد العسكري يختار من المسالك مـا يشاء لكي يصـل إلى النصر في النهاية، وما هذا شأن محمد ولا ينبغي لـه فهو شـاهد (أي نمـوذج وقدوة) ومبشر (للمؤمنين) ونذير (للمشركين) وداع إلى الله بإذنه في كـل حال، وهو في هذا كله سراج منير، أي نور يهتدي به النـاس، وبفضل هذا النور يبشر المؤمنـين بأن لهم من الله فضـلاً كبيراً، وهـذا جـانب من تفسـير هـذه الآيـات العظيمة نستخرجه من عبرة التاريخ.

والآن لننـظر كيف انتهى يوم أحـد لنرى كيف تبـين المشركـون أن هدى محمد وبصيرتـه كسبت له اليـوم وضيعت عليهم ثمرة النصر، فلم يخـرجوا من قوتهم الضخمة إلا بقتل عدد من المؤمنـين، وسنأتي هنـا ببضع روايـات ساقهـا الواقدي على علاتها، ونرتبها نحن على النحـو الذي يتفق مـع نسق التاريـخ، فقد سئل عمرو بن العاص: كيف كـان افتراق المسلمـين والمشركـين يوم أحـد فقال: «لما كَرَرنا عليهـم أصبنا من أصبنا منهم، وتفرقوا في كل وجه وفـاءت لهم فئة بَعْدُ، فتشاورت قريش فقالوا: لنا الغلبة، فلو انصرفنا! فإنه بلغنا أن ابن أُبَيّ

انصرف بثلث الناس، وقد تخلف ناس من الأوس والخزرج، ولا نأمن أن يكروا علينا وفينا جراح، وخيلنا عامتها قد عُقِرت من النبل. فمضوا، فما بلغنا الرَوْحَاء حتى قام علينا عدة منها، ومضينا[١].

وفي رواية أخرى تلي هذه في الأهمية من ناحية سياق الحوادث: نقرأ عند الواقدي «لما تحاجزوا أراد أبو سفيان الانصراف، وأقبل يسير على فرس له حواء[٢] أنثى، فأشرف على أصحاب النبي ﷺ في عرض الجبل، فنادى بأعلى صوته: أُعلُ هُبل! ثم يصيح أين ابن أبي كبشة (يريد رسول اللّه ﷺ) أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ يوم بيوم بدر ألا إن الأيام دول، وإن الحرب سجال، وحنظلة بحنظلة[٣]. . . (ثم قال بعد ذلك أبو سفيان مخاطباً عمر): أنشدك بدينك هل قتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت عندي أصدق من ابن قُميئة - وكان ابن قُميئة أخبرهم أنه قتل النبي ﷺ - ثم قال أبو سفيان ورفع صوته: إنكم واجدون في قتلاكم عيثاً ومثلاً، ألا إن ذلك لم يكن عن رأي سراتنا. ثم أدركته حمية الجاهلية فقال: أما إذا كان ذلك فلك فلم نَكْرَهه. ثم نادى: ألا إن موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول[٤] !».

وبقية هذه الرواية تعطينا وصف الحالة في معسكر المسلمين بعد نهاية المعركة: «قد انصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا في الرحيل، فأشفق رسول الله ﷺ والمسلمون، فاشتدت شفقتهم من أن يُغير المشركون على المدينة فتهلك الذراري والنساء، فقال رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: ائتنَا

---

(١) الواقدي/ مغازي ١/ ٢٩٩.

(٢) حواء أي لونها بني يضرب الى السواد.

(٣) حنظلة الأول هو ابن أبي سفيان وقد قتله المسلمون في بدر، وأما حنظلة الثاني فهو حنظلة بن عبد عمرو وكان من أصدق المؤمنين وقد استشهد في أحد وهو ابن أبي عامر بن صيفي من بني ضبيعة، من بني مالك بن الأوس، وكان من أعداء الإسلام ولهذا لقبه المسلمون بأبي عامر الفاسق. وكان يلقب نفسه بأبي عامر الراهب.

(٤) الواقدي، مغازي: ١/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

بخبر القوم، فإن ركبوا الإبل وجَنّبوا الخيل فهو الظعن (الرحيل) وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهي الغارة على المدينة، والذي نفسي بيده، لئن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم!» وتبعهم سعد حتى وصلوا العقيق، فرآهم يركبون الإبل ويتركون الخيل جانباً فعرف أنهم ظاعنون إلى مكة، ثم يسترسل سعد بن أبي وقاص فيقول: «فوقفوا وقفة بالعقيق وتشاوروا في دخول المدينة، فقال صفوان بن أمية: قد أصبتم القوم، فانصرفوا فلا تدخلوا عليهم وأنتم كالُّون، ولكم الظفر، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم. قد وليتم يوم بدر، والله ما تبعوكم والظفر لهم، فقال رسول الله ﷺ: نهاهم صفوان[1]».

وإذن فقد أفلح رسول الله ﷺ في صرف قريش عن محاولة دخول المدينة، ورجع القوم دون أن يبلغوا أرباً عسكرياً ذا بال. فلا زالت المدينة سليمة لم تمس وهي قوية متماسكة ملتفة حول رسولها لم يفقد من كبار رجالها إلا حمزة بن عبد المطلب ومُصعب بن عمير، وكانت عدة القتلى كلهم ٧٤، منهم أربعة من قريش والباقي من الأنصار، وكانت أحفل بطون الأنصار بالشهداء هم بنو عبد الأشهل من الخزرج فقد استشهد منهم اثنا عشر رجلاً.

وقد تبينت قريش أنها لم تصب من المدينة شيئاً كثيراً، ورأى رسول الله ﷺ أن يطمئن اطمئناناً تاماً إلى أن القرشيين لن يعودوا إلى المدينة. وكان على الحق في حذره هذا، وعلى عهدنا به كان سباقاً إلى العمل، ففي صبيحة اليوم التالي ليوم أحد، وعلى رغم الجراحات البالغة التي كان أصحابه (وهو نفسه) يعانون منها، شرع في اتباع الكفار مطارداً لهم بعيداً عن المدينة، وتلك هي غزوة حمراء الأسد. وقد عانى صلوات الله عليه وأصحابه من ذلك وصباً شديداً، ولكن لا بد مما ليس منه بد، فدعا أصحابه للخروج رغم جراحاتهم، وقَصَر الخروج على من اشترك في أحد، ومضوا يلاحقون العدو، ومر وهو في طريقه في أعقابهم بنفر من خزاعة على رأسهم مَعبِد بن أبي معبد الخزاعي،

(١) الواقدي، مغازي: ١/٢٩٨.

وكانت خزاعة حِلْفاً دائماً لرسول الله ﷺ، عيناً لأمة الإسلام على عداتها أينما كانوا، فذهب معبد وتسمع على القوم «ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشاً بالروحاء وهم يقولون: لا محمداً أصبتم ولا الكواعب أردفتم، فبئس ما صنعتم! فهم مجمعون على الرجوع، ويقول قائلهم فيما بينهم: ما صنعنا شيئاً! أصبنا أشرافهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم، قبل أن يكون لهم وفر - والمتكلم بهذا عكرمة بن أبي جهل - فلما جاء معبد إلى أبي سفيان قال: هذا معبد وعنده الخبر، ما وراءك يا معبد؟ قال تركت محمداً وأصحابه خلفي يتحرقون عليكم بمثل النيران، وقد أجمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً، ولمن أصبتم من أشرافهم. قالوا: ويلك! ما تقول؟ قال: والله ما نرى أن نرتحل حتى نرى نواصي الخيل!»[١] وما زال معبد حتى ألقى في قلوبهم الخوف، فعاد صفوان ينصحهم بالعودة إلى مكة بما قدر لهم من الظفر، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «أرشدهم صفوان، وما كان برشيد، والذي نفسي بيده لقد سَوَّمْتُ لهم الحجارة، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب! فانصرف القوم سراعاً خائفين من الطلب لهم[٢]» وكان رسول الله على الحق في تقديره، وكان قد وصل بأصحابه إلى موضع حمراء الأسد في خلف القوم، فلكي يستوثق من أن القرشيين لن يعودوا جعل أصحابه يجمعون حطباً كثيراً، وعندما جن الليل أوقدت النيران فكانت أكثر من خمسمائة أضاء لها الليل، وانتشر الخبر في كل اتجاه، فرهبت القبائل وأسرع القرشيون عائدين إلى مكة، وقد بلغ خوفهم من المسلمين كل مبلغ، وقد بدأت غزوة حمراء الأسد في الثامن من شوال ٣ هـ/٢٤ مارس ٦٢٥ م. واستمرت خمسة أيام وعاد رسول الله إلى المدينة.

وجدير بالملاحظة أن أربعاً من غزوات الرسول الكبرى كانت في عام ميلادي وثلاثة شهور من يناير ٦٢٤ إلى مارس ٦٢٥ م . فكانت نخلة في يناير ٦٢٤ م

(١) الواقدي، مغازي: ١/٣٣٨ - ٣٣٩.

(٢) الواقدي، مغازي: ١/٣٣٩.

وبدر في مارس من نفس السنة ثم كانت أحد وحمراء الأسد في مارس ٦٢٥ م. وهذا جهد في الغزوات لم يعرفه العرب إلا مع الإسلام، فكان رسول الله في ذلك صاحب القدوة الرفيعة في الجهاد وبذل النفس، فلا عجب والحالة هذه أننا نرى أهل الجيل الأول من أمة الإسلام يأتسون بنبيهم في ذلك النشاط الواسع، والاقبال على الجهاد في غير تراخ أو خوف فكانت معجزة الفتوح الكبرى الأولى.

وأما قريش فلم يكن لها بهذا النشاط العسكري عهد، فقد كانوا ـ وظلوا حتى فتح مكة ـ على أسلوب الجاهلية في الحرب: أسلوب فرسان لا ينهضون للحرب إلا مختالين مغرورين بأنفسهم أو طالبين ثأراً، أما ترى أبا سفيان يتواعد مع المسلمين على اللقاء بعد أحد في عام. وحتى حان موعد العام من بدر كان الرسول قد خرج أو أرسل خمس غزوات وسرايا هي حمراء الأسد وقَطَن وبئر معونة والنضير والرجيع؟ ثم خرج الرسول مبادراً إلى بدر الموعد في ذي القعدة سنة أربع / أبريل ٦٢٦م.

وهكذا تكون موقعة أُحُد التي يقال إنها هزيمة للمسلمين قد مضت بغير كسب يُذكر لقريش، فلا هم أصابوا محمداً ﷺ، ولا هم أذلوا المسلمين باقتحام بلدهم وسبي نسائهم، ولا هم فكوا حصار مدينتهم، فظلت متاجرهم معطلة وازدادت حالتهم الاقتصادية سوءاً، وأقاموا منجحرين في مدينتهم لا يدرون ما يصنعون، وقد انصرفت عنهم معظم القبائل في حين تابع رسول الله ﷺ غزواته وسراياه. لا ليضرب القبائل ويصيب المغانم كما يظن الكثيرون من المستشرقين، ولا ليتلافى تجمع بعض الأعداء عليه كما تذهب مراجعنا التقليدية، ومعظم مؤرخينا القدامى لم يزد ادراكهم لمرامي رسول الله وغاياته البعيدة غير ذلك، وهو في رأينا كلال منهم عن إدراك حركة تاريخية كبرى غيرت مصائر البشر.

الدور الثالث من الصراع بين قريش والإسلام

من حمراء الأسد إلى الخندق :

قبل أن يعود القرشيون إلى مكة كانوا قد تبينوا أنهم لم يكسبوا غير نصر محدود يتلخص في إدراك بعض الثأر لما أصابهم يوم بدر، وإذا كان إدراك الثأر بالمفهوم الجاهلي هو أن تقتل من الخصم نظير من قتل أو من يعادله، فإن القرشيين أحسوا أنهم حتى في موضوع الثأر لم يشفوا غليلهم، فهم لم يصيبوا محمداً ﷺ ولا أبا بكر ولا عمر ولا عليًا ، وهم لم يصيبوا من يعتبرونهم خصومهم الحقيقيين وأندادهم إلا حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وهنا أيضاً نجد أن ختام الحساب لم يكن ليرضي قريشاً، فإن مصعب بن عمير من بني عبد الدار، وبنو عبد الدار بالذات كانوا أحفل بطون قريش الكافرة بالخسارة في أُحُد، فقد قتل منهم أحد عشر رجلاً كانوا في معسكر المشركين، وهم يتناوبون على لواء قريش أو يدافعون عنه، وكانوا أصحاب اللواء في الجانبين. وإذا نحن أخذنا حمراء الأسد وما وقع فيها في الحساب، فإن النتيجة تكون أن القرشيين عادوا إلى مكة مسرعين خائفين في حين أن المسلمين طاردوهم وضربوا معسكرهم في الطريق إلى مكة، وأشعلوا نيرانهم في ظلام الليل، فكان لهذا العمل رهبة في قلوب الأعداء، ثم عاد المسلمون بعد ذلك إلى مكة رافعي الرؤوس ظاهرين على عدوهم، ثم لم يلبثوا أن ضربوا بني النضير ضربتهم القاصمة فتخلصوا من عدو خطير كامن معهم داخل معقلهم، وأخافوا بذلك كل من كانت تحدثه نفسه بخيانة أمة المدينة أو نقض ميثاقه معها أو مخالفة أعدائها عليها، ثم أن المسلمين أصابوا من بني النَّضير أموالاً وأراضي وسلاحاً انتفعوا بها كلها في مواصلة الجهاد.

وكان ما فعله رسول الله ﷺ في حمراء الأسد قد ألقى الرهبة في قلوب أعداء أمة الإسلام، فزاد أمن المسلمين في بلدهم وازدادت مخاوف قريش، وقد عبر عن ذلك أحد المسلمين بقوله: «فإذا أمسوا أمرنا (رسول الله) أن نوقد

النيران، فيوقِد كل رجل ناراً، فلقد كنا تلك الليالي نوقد خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا في كل وجه، حتى كان مما كبت الله تعالى بعدونا»[1].

أما قريش فقد تبينت بعد قليل أنها لم تحسن الانتفاع بحملتها الكبيرة التي اشترك فيها ٣٠٠٠ مقاتل من بينهم ٧٠٠ دارع ومائتا فارس من قريش وحلفائها. ويصور لنا ذلك ما قاله رئيس من رؤساء خزاعة ـ وكان حليفاً لأمة المدينة، فقد مر بالقرشيين وهم عائدون من حمراء الأسد فوجدهم يقول بعضهم لبعض: «لا محمداً أصبتم ولا الكواعب أردفتم، فبئس ما صنعتم»، وإرداف الكواعب هنا لا يراد به مجرد سبي النساء، بل المراد به الإذلال والإشعار بالمهانة، وكان سبي النساء أسوأ ما يمكن أن يصيب قوماً من العرب. وهنا نفهم ما أراده رسول الله ﷺ عندما تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق الخزاعيين بعد أن انهزم قومها وسَبَى المسلمون نساءهم، فلم يشأ رسول الله أن يُشْعِر بني المصطلق بالمهانة، فلما تزوج جويرية أم المؤمنين، أسرع المسلمون فأطلقوا سراح من كانوا سبوهن من نساء بني المصطلق، لأن كل الذي أراده رسول الله من غزوهم هو أن يشعرهم أن منطقتهم تقع في دائرة سلطان أمة المدينة، ولا معنى لهذا لأن يدبروا عليه أو يحالفوا عدواً، فلما انتهت الوقعة دون أن ينال بني المصطلق هوان وصاهرهم رسول الله، تمهد الطريق لدخول بني المصطلق في الإسلام. وبنو المصطلق من خزاعة، وكان أكبر قبيل من خزاعة ـ هو قبيل كعب ـ حلفاء للرسول ﷺ وأمة الإسلام، وقد خرج رئيسهم الحارث بن أبي ضرار والد جويرية أم المؤمنين عن اجماع قومه، فرأى الرسول أن يعيده إلى صف خزاعة بغزوه غزوة بني المصطلق التي تسمى المريسيع باسم ماء كان في مواطن بني المصطلق على شاطىء البحر بين المدينة ومكة. وإذن فقد عرف رسول الله كيف يجعل هذا الفريق من

---

(١) الواقدي: المغازي، ١/٣٣٨.

خزاعة عبرة لمن يعتبر، وكان أكثر ما حبب الناس في رسول الله ﷺ وفخر عامة القرشيين به ـ دون الرؤساء ـ هي معاملته الكريمة لبني المصطلق بعد هزيمتهم. وتزايد شعور عامة أهل مكة من القرشيين بالميل إلى رسول الله والإسلام بعدها. وكان أبو سفيان رغم ما تظاهر به من النصر قد رأى يوم أحد أن قريشاً ليست نداً لأمة الإسلام، وإذا كان قومه قد قتلوا أربعة وسبعين من المسلمين فقد قُتِل منهم ـ رغم ما حدث ـ فوق الأربعة وعشرين، ثم توالت غزوات المسلمين وانتصاراتهم وزادت قوتهم، واشتروا خيلاً وركب الكثيرون منهم، ولهذا تردد أبو سفيان في الخروج للقاء المسلمين عند بدر الصفراء كما كان وعدهم يوم أحد.

وكان موضع بدر الصفراء مكان سوق «مجمعاً يجتمع فيه العرب وسوقا تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثماني ليال خلون منه، فإذا مضت ثماني ليال منه تفرق الناس إلى بلادهم»[1]. ويضيف الواقدي هنا: «فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ، وجعل يحب أن يقيم رسول الله ﷺ وأصحابه في الموعد، ولا يوافقون الموعد»[2]، وجعل يظهر للوافدين على المدينة أنه ينوي الخروج للقاء المسلمين في جمع كثيف على أمل أن يثبط ذلك من همة المسلمين.

ولكن رسول الله لم يقعد بل خرج بأصحابه إلى موضع بدر الصفراء، وقد أيد فكرة الخروج أبو بكر وعمر، بل خرج المسلمون ببضائع لهم ليتجروا فيها في سوق بدر الصفراء، «فانتهوا إلى بدر ليلة هلال ذي القعدة، وقام السوق صبيحة الهلال (سنة ٤ هـ/ ابريل ٦٢٦ م) فأقاموا ثمانية أيام والسوق قائمة، وكان رسول الله ﷺ قد خرج في ١٥٠٠ رجل من أصحابه، وكانت الخيل ١٠ أفراس: فرس لرسول الله ﷺ، وفرس لأبي بكر، وفرس لعمر، وفرس لأبي قتادة، وفرس لسعيد بن زيد، وفرس للمقداد، وفرس للحباب بن

(١) الواقدي: مغازي ١/ ٣٨٥.
(٢) الواقدي: مغازي ١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

المنذر، وفرس للزبير، وفرس لعبّاد بن بشر». وكان أبو سفيان يظن أن المسلمين لن يخرجوا، فاقترح على أصحابه أن يخرجوا مسافة ليلة أو ليلتين من مكة حتى يقال أن قريش قد خرجت وأن المسلمين خافوا من اللقاء «فيكون هذا لفا عليه. وإن كان قد خرج أظهرنا أن هذا عام جدب، ولا يُصْلِحنا إلا عام عشب» فوافقوه على ذلك وخرجوا في الفين وخمسين خروجاً كاذباً انتهوا فيه إلى مَجَنّة ثم عادوا، وكان العام عام جدب، فكان طعامهم الدقيق (السويق) يذيبونه في الماء، فسمي جيشهم جيش السويق.

وفي تفاصيل سرية بئر معونة درس عظيم من دروس السيرة، فقد خرجت جماعة المسلمين في المحرم سنة ٤ هـ / يوليو ٦٢٧ م. ولم تعد فقد استشهد رجالها جميعاً ونحن نقرأ عند الواقدي وغيره، «وكان من الأنصار سبعون رجلاً شَبَبَة يُسمُّون القراء. كانوا إذا أمسوا انتحوا ناحية من المدينة فتدارسوا وصَلُّوا. حتى إذا كان وجه الصبح استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب، فجاءوا به إلى حُجَر رسول الله ﷺ، وكان أهلوهم يظنون أنهم في المسجد، وكان أهل المسجد يظنون أنهم في أهليهم، فبعثهم رسول الله ﷺ فخرجوا فأصيبوا في بئر معونة»[1] ويقال إنهم كانوا سبعين ولكن الثابت أنهم كانوا أربعين، غدرهم بنو عُصَيَّة بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة من بني مازن بن منصور من قيس عَيْلان وأبناء عمهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يقودهم رجل منهم يسمى عامر بن الطفيل، وهؤلاء كانوا جيران بني أسد، وكلهم من أعراب مضر الذين كانوا يرعون في مرتفعات غربي نجد، وكان رسول الله لا يثق فيهم ويخاف غدراتهم على المسلمين، وهم يدخلون في جملة أعاريب نجد. ومصيبة كهذه أي استشهاد أربعين من رجال أمة المدينة دفعة واحدة ـ لو وقعت في أي جماعة كان لا بد أن تهز كيانها، ولكننا نقرأ أخبار أمة المدينة فنجد انها لم تتأثر شعرة بما حدث لأهل بئر معونة، فقد كان بنيانها صلباً

---

(١) الواقدي، مغازي، ١/٣٤٧.

متيناً، وما كان الموت في سبيل الله إلا إحدى الحسنيين اللتين يشتاق إليهما كل أهل الجماعة، ولكن رسول الله وجد عليهم وجداً شديداً، وظل يذكرهم ويترحم عليهم.

ولم يكن الشباب الذين خرجوا لنشر الإسلام في سرية بئر معونة قد تعلموا شيئاً من نظم الحرب عند السابقين من أهل الأمم. ولكننا نجد أفرادها يتصرفون تصرفاً عسكرياً بالغ النظام والضبط. فقد ثبتوا وانتخبوا منهم رئيساً وتشاوروا فيما بينهم حين أحيط بهم، وأحسوا ألا مفر لهم من الاستشهاد، واستقبلوا الموت في جلال يروع النفس، لأنهم كانوا ينتسبون إلى أمة جعلها رسول الله ﷺ أمة جيشاً أو جيشاً أمة، (وهكذا كان ينبغي أن تكون أمة الإسلام أبد الدهر حتى تؤدي رسالتها كاملة).

ثم انظر إلى روح التضحية والفداء والمبادرة إلى ما يرضاه رسول الله ﷺ (إيماناً بأنه الواجب)، في خبر مما حدث بعد إخراج الرسول لبني النضير من المدينة، وإفاءة الله سبحانه أموالهم لرسول الله. فقد رأى الرسول ﷺ أن أموال بني النضير في إفاءة الله عليه، فهي له من دون بقية المؤمنين، فلم يبد واحد من المسلمين معارضة وتركوا الأموال لرسول الله يتصرف فيها لصالح الأمة، فاشترى بمعظمها سلاحاً وخيلاً.

وهكذا رأى الناس أن أمة الإسلام هي الأقوى، فها هي تبادر إلى الموعد على أهبة القتال، في حين خرج القُرشيون خروجاً مُشيناً لم يخف على أحد. وقد أحست قريش بالخجل مما فعلت، وخافت على اسمها بين الناس، ثم إن بقاء طريق التجارة مقفلاً كان يضطرهم إلى الخروج، وهذه كلها كانت أسباب خروج المشركين وحلفائهم للغارة على المدينة في غزوة الأحزاب.

وفي أثناء خروج رسول الله ﷺ وقع حادث صغير يدل على مدى ما وصلت إليه المدينة من القوة بعد أُحُد، فإن المسلمين قابلوا في طريقهم جمعاً من بني ضمره «(بن بكر بن عبد مناة من كنانة) على رأسهم شيخ يسمى مخشي بن

عمرو، وكان هذا الرجل قد حجز بين المسلمين وجماعة من تجار قريش، فيهم أبو سفيان قبل بدر، وتوسط بين الفريقين وصرفهما عن القتال، وذلك في غزوة الأبواء أو وَدَّان في ربيع الأول سنة ٢ هـ/ سبتمبر ٦٢٣ م. ووادع الرسول يومئذ بني ضمرة، ثم التوت بنو ضمرة مع بقية بني بكر بن عبد مناة وأصبحوا أحلافاً لقريش على أمة المدينة، وسيظهر ذلك جلياً بعد الحُدَيبية، عندما نجد بني بكر بن عبد مناة يعلنون أنهم يدخلون في حلف قريش عندما دخلت خزاعة في حلف أمة الإسلام، وكان عدوان بني بكر هؤلاء على بني كعب من خزاعة، هو الذي أخرج رسول الله ﷺ من المدينة لفتح مكة عام الفتح.

وكان رسول الله يعرف ما تنطوي عليه ضمرة وشيخها عندما لقيهم مَخْرَجَه إلى بدر الموعد، فقال مخشي بن عمرو الضمري وكأنه دهش لرؤية رسول الله ومن معه من المؤمنين: «لقد أُخبرنا أنه لم يبق منكم أحد! فما أعلمكم إلا أهل الموسم، فقال رسول الله ﷺ لِيُرْفَع ذلك إلى عدوه من قريش[1]: ما أخرجنا إلا موعد أبي سفيان وقتال عدونا، وإن شئت - مع ذلك - نَبَذْنَا إليك وإلى قومك العهد[2] ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا. (فخاف) الضمري (وقال) بل نكف أيدينا عنكم ونتمسك بحلفك[3]» ويبلغ هذا الكلام معبد بن أبي معبد الخزاعي حليف أمة المدينة، مثله في ذلك مثل بقية بني كعب الخزاعيين فأسرع به إلى مكة. ويبدو أن شيوخ البدو هؤلاء من بني بكر ابن عبد مناة وخزاعة وبني أسد ولحيان وضمرة وزغبة ورعل، وبقية بطون مضر قد سرهم هذا الصراع بين مكة والمدينة فأصبحوا يجوسون الفيافي طلباً للأخبار ليطيروا بها أسرع من الطير إلى مكة أو المدينة يؤججون النار بين الجانبين، فأما قريش فكانت تنخدع بكلامهم، بل كانت تهبط إلى مستواهم فكانت تؤجرهم

(١) أي أن رسول الله قال ما قال لكي تبلغ مقالته قريشاً، وكان مَخْشي بن عمرو الضمري من حلفائها وعيونها في السر. وكلام النص في المتن للواقدي.

(٢) أي أنهينا حلفنا معك ومع قومك.

(٣) الواقدي، مغازي، ٢/ ٣٨٨ وما بين أقواس الفاظ أضفتها للتوضيح والبقية لمحمد بن عمر بن واقد.

على ذلك، وقد كانت قريش دائماً تؤدي إلى هذه القبائل إتاوات وأموالاً لتضمن سلامها وسلامة متاجرها، وكانت تستخدم هذه القبائل في تحقيق مآربها، وقد رأينا أمثلة لذلك فيما مر، وهنا في غزوة بدر الموعد نرى أبا سفيان يقول لشيخ من شيوخ أولئك الأعراب وهو نُعَيم بن مسعود الأشجعي «الأرض مثل ظهر الترس ليس فيها لبعير شيء، وإنما يصلحنا عام خصب غَيداق ترعى فيه الظهر والخيل ونشرب اللبن، وأنا أكره أن يخرج محمد وأصحابه ولا أخرج فيجترئون علينا، ويكون الخُلْف من جانبهم أحب إليَّ، [فاذهب إلى محمد وأصحابه وخَذِّلهم عن الخروج]، ونجعل لك عشرين فريضة، عشراً جذاعاً وعشراً حِقاقاً[1] وتوضع لك على يدي سهيل بن عمرو ويضمنها لك، قال نعيم: رضيت[2]. . . ». أما رسول الله ﷺ فكان لا يدفع لهؤلاء البدو شيئاً ولا يؤدي إليهم إتاوة، وإنما هو كان يدعوهم للإسلام، فإن قبلوا كانوا من أمة الإسلام يخدمونها ويصدقون معها مثلهم في ذلك مثل غيرهم من المؤمنين، فإذا أبوا إلا الإقامة على الشرك عرض عليهم الحلف أن يَصْدُقُوه ولا يُخفوا عنه شيئاً ولا يعينوا عليه عدواً، فكانوا يقبلون ذلك، فإذا نقضوا العهد كان لا بد من تأديبهم كما فعل مع بني المصطلق، وكان إذا تحدث مع أولئك الأعراب تكلم في حزم ووضوح، وكان في العادة يزن كل كلمة يقولها ويعرف أين تذهب، وقد رأينا كيف كان كلامه لمخشي بن عمرو الضمري.

وهذا الموقف من محمد رسول الله ﷺ من الأعراب هو السبب في مأساتي بئر معونة والرجيع، وهما سريتان قُتل في الأولى أربعون من أتقياء شباب الأنصار، وكان أبو البراء عامر بن مالك مُلاعب الأسنة قد طلب إلى الرسول أن يبعث نفراً من المسلمين ليدعوا بني سُلَيم بن منصور إلى الإسلام وضَمِن له جوارهم، فخرجوا إلى بني سُليم حيث غدروا بهم وقتلوهم. وبعد ذلك

---

(١) الإبل الجذاع التي دخلت السنة الخامسة من عمرها والحقاق ما دخلت الرابعة.

(٢) الواقدي، مغازي ١/٣٨٥ ـ ٣٨٦.

بقليل، وقبل أن يُقتل أصحاب بئر معونة، أرسل بنو لحيان إلى عَضْل والقارة يعرضون عليهم أن يبعثوا إلى رسول الله رسلاً فيكلموه، فيخرج إليهم نفراً من أصحابه يدعونهم إلى الإسلام «فنقتل من قتل صاحبنا، ونخرج بسائرهم إلى قريش بمكة فنصيب بهم ثمناً، فإنهم ليسوا لشيء أحب إليهم من أن يؤتوا بأحد من أصحاب محمد يمثلون به ويقتلونه بمن قتل منهم في بدر»، وتم هذا بالفعل، وأرسل إليهم رسول الله جماعة من الدعاة على رأسهم مَرثد بن أبي مَرْثد الغنوي فغدروهم وأسروا بعضهم وباعوهم لأهل مكة فقتلوا منهم اثنين، وقد غضب رسول الله ﷺ على أولئك الأعراب من أهل أطراف نجد وقال: «اللهم أشدد وطأتك على مضر! اللهم عليك ببني لحيان وَزِغْب ورِعْل وذكوان وعُصَيَّة، فإنهم عصوا الله ورسوله، اللهم عليك ببني لحيان وعضل والقارة»[1] ومُضر التي دعا عليها رسول الله هنا هي مضر قيس عيلان لا مضر الياس.

ومن هذه الأخبار يتجلى كيف كان رسول الله ﷺ يعامل هؤلاء الأعراب، فهو لا يصانعهم ولا يتعامل معهم إلا على شرط الإسلام بل كان لا يقبل من أحد منهم هدية إلا إذا أسلم، وقد عرض عليه أبو البراء مُلاعب الأسِنَّة هدية فرسين وراحلتين فردها وقال: «لا أقبل هدية مشرك» ثم عرض عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يبعُد[2] أما قريش فقد كانت تسايرهم وتفعل فعلهم وتهبط إلى مستواهم حتى لقد اشتروا منهم اثنين ممن أسروهم غدراً من رجال سرية الرجيع هما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقتلوهما في خبر طويل.

ولهذا فقد كان الاعراب لا يوقرون قريشاً ويسخرون منها، وعندما خاف القرشيون لقاء المسلمين في بدر الصفراء وبعثوا يستعينون بالاعراب زاد استخفافهم بهم، فقد رأوا خوف قريش وثبات أمة الإسلام، ولهذا فعندما قررت قريش أن تخرج لغزوة الخندق، قال صفوان بن أمية لأبي سفيان: «قد

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ص ٣٤٩ وما بعدها

(٢) نفس المصدر، ص ٣٥٠.

والله نهيتك يومئذ أن تَعِد القوم، وقد اجترأوا علينا ورأوا أننا قد اخلفناهم وإنما خَلَّفَنَا الضعف عنهم، فأخذوا (أي القرشيون) في الكيد والنفقة في قتال رسول الله ﷺ، واستجلبوا مَنْ حولهم من العرب وجمعوا الأموال العظام، وضربوا البعث على أهل مكة فلم يترك أحد منهم إلا أن يأتي بما قل أو كثر، فلم يُقبل من أحد منهم أقل من أوقية لغزوة الخندق، وقال معبد بن أبي معبد الخزاعي وقد سبق أن ذكرناه، وهو شيخ بني كعب من خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، قال ساخراً من قريش يتوقع لها الهزيمة:

تهوَى على دينِ أبيها الأتْلَد   إذ جعلت ماءَ قُدَيْد(1) موعد
وماءَ ضَجْنَان لها ضحى الغَدِ   إذ نَفَرتِ من رُفْقَتي محمد
وعَجوة موضوعةٍ كالعَنْجد

الدور الرابع من الصراع بين قريش والإسلام:
مِن بَدر المَوعِد الى غزوَة الأحزاب أو الخندَق:

كانت غزوة بدر الموعد في ذي القعدة ٤ هـ/ أبريل ٦٢٦ م وكانت الخندق في ذي القعدة سنة ٥ للهجرة/ أبريل ٦٢٧ م. فبينهما عام هجري، وهو عام ميلادي إلا أياماً، وفي خلال هذا العام خطت المدينة خطوات واسعة نحو القوة واتساع الرقعة والهيبة في شمال الجزيرة ووسطها جميعاً، فإن مأساتي بئر معونة والرجيع، كانتا دافعتين لرسول الله ﷺ لتمكين قبضة المدينة على الحجاز حتى أحواز مكة وعلى قبائل العرب فيما بين الحجاز ونجد، فأرسل رسول الله عبدالله بن عتيك وأصحابه ليقضي على أبي رافع اليهودي، وكان عدواً لدوداً للإسلام، يؤلب عليه ويثير الناس على أمة المدينة، وكان يسكن خيبر، فقتل في خيبر وبين أهله (ذو الحجة ٣ هـ/ مارس ٦٢٦ م)، ثم خرج رسول الله ﷺ بنفسه في غزوة ذات الرقاع، وهو جبل في مطالع نجد على نحو

(1) قديد بليدة على الطريق من مكة إلى المدينة وهي غير بعيدة عن بدر الصفراء.

خمس عشرة ليلة من المدينة كانت تنزل عنده بطون من أنمار وثعلبة وكانوا أعراباً يغيرون على الناس في نواح سادها الأمن والهدوء بعد أن دخلت حلف المدينة وانتشر فيها الإسلام، فأراد رسول الله ﷺ أن يطمئن من ناحيتها، وكان رسول الله حريصاً على أن يخرج في هذه الغزوات بنفسه فيكون لمسيره من الهيبة ما يجذب الناس للإسلام فيدخلوا فيه، ثم أن قريشاً كانت تسمع بأخبار مسيره فتعلم أنها قِبَلَ رجل دائم الحركة والنشاط في سبيل دعوته، فيزداد خوف رؤسائها منه ويتزايد حب غير الرؤساء واعجابهم به، فإنهم كانوا يشعرون أن رسول الله واحد منهم، عِزُّه عزهم وقوته قوتهم، وكان الكثيرون جداً منهم تواقين إلى الإنضمام إلى محمد ﷺ ، ودخول الإسلام لولا هذا النفر العنيد من شيوخهم، ولم يقتصر ذلك الميل إلى الإسلام على القرشيين بل كان هناك عرب كثيرون بلغتهم أنباء رسول الله وما هو عليه من كريم السجايا، وما تتمتع به أمته من رخاء وقوة وأمان فكانوا ينتظرون الفرصة ليدخلوا في دينه رغباً والتماساً للبركة. وكان رسول الله في هذه المغازي يزيد إيمان أصحابه عمقاً، ويؤكد شعورهم بالولاء للدين والقوة وخلوص النية له والتضحية بالنفس في سبيله، ومن دلائل ذلك ما حدث في غزوة ذات الرقاع تلك: فإن عباد بن بشر كان يَحْرُس المسلمين مع عمار بن ياسر ذات ليلة، فاقترب من المعسكر رجل من الأعداء يطلب امرأته وقد كان المسلمون قد أسروها، وكان عباد بن بشر يصلي فرماه الرجل بسهم أصابه فلم يقطع صلاته، ورماه بثان أصابه أيضاً واستمر يصلي، ثم رماه بالسهم الثالث فأرداه وقد ختم صلاته، وأدركه عمار ابن ياسر وهو ينزع فقال له: «أي أخي: ما منعك أن توقظني به (أي تنبهني إليه) في أول سهم رمى به؟ قال: كنت في سورة أقرأها وهي سورة الكهف، فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها، ولولا أن خشيت أن أضيِّع ثَغْراً أمرني به رسول اللّه ﷺ ما انصرفت ولو أُتِي على نفسي[1]». ولم يمت عباد، فقد مدَّ اللّه في أجله وعاش بعد ذلك.

---

(١) الواقدي. مغازي: ١/٣٩٧، وقد قيل إن الأنصاري الشهيد عمارة بن حزم.

وكذلك كان ﷺ يرى في تلك المغازي مناسبة للتبسط في الحديث مع من لا تتاح له فرص الحديث معه من أصحابه في المدينة والاسترسال معهم في بسائط شئونهم ونصحهم، فهنا في ذات الرقاع يروي جابر بن عبدالله أحاديث جرت بينه وبين الرسول منها: «إنّا لمع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من أصحابه بفرخ طائر، ورسول الله ﷺ ينظر إليه، فأقبل أبواه أو أحدهما حتى طرح نفسه في أيدي الذي أخذ فرخه، فرأيت الناس عجبوا من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: أتعجبون من هذا الطائر؟ أخذتم فرخه فطرح نفسه رحمة لفرخه. والله لَرَبُّكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه[(١)]».

ثم تكون غزوة دومة الجندل، وهي الجوف اليوم، وهي على نحو ٦٠٠ كيلومتر عن المدينة، فخرج إليها ﷺ وتجشم مشقة الذهاب والإياب (ربيع أول - ربيع ثان ٥ هـ/أغسطس - سبتمبر ٦٢٦ م). قال الواقدي: «قالوا: أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أدنى الشام، وقيل له إنها طرف من أفواه الشام فلو دنوت منها كان ذلك مما يفزع قيصر» ثم قيل للرسول إن بدومة الجندل جمعاً كثيراً وإنهم يظلمون من مَرّ بهم من الصنافطة (الذين يجلبون الميرة والمتاع إلى المدينة) وكان بها سوق عظيم وتجار، وضوى إليهم قوم من العرب كثير وهم يريدون أن يدنوا من المدينة فقرر الرسول الخروج إلى دومة الجندل، مما يدل على الآفاق التي كان الرسول يتطلع إليها وهو بعد لم يفرغ من أمر مكة، والقارىء لهذه التفاصيل يشعر أن أمر مكة ومشركيها لم يكن ليشغل اهتمامه كله.

ثم تكون غزوة المريسيع إلى بني المصطلق، وهي غزاة طويلة حافلة بالأحداث والنوازل التي تستخرج منها الأحكام. ولم تكن منازل بني المصطلق أو بَلْمُصطلق بالبعيدة عن المدينة، ولكنها كانت على إحدى الطرق الرئيسية من مكة إلى الشام، فقد كانوا ينزلون بناحية من ناحية الفُرُع الغنية بالماء ومسايل

(١) الواقدي، مغازي: ١/٣٩٨.

الماء غير بعيدة عن الصفراء والمسيجيد، وكان بنو المصطلق بطناً من خزاعة وكانوا حلفاء لبني مَدْلج، وكانت خزاعة في جملتها في حلف رسول الله ﷺ، فشذ عنهم سيد بني المصطلق الحارث بن ضرار وأراد أن يخرج عن الحلف، ولو تُرك على حاله لخرج جزء من الطريق بين مكة والشام عن سيطرة المدينة، وهذا ما لم يكن الرسول يريده، فعجل بالمسير إلى المريسيع، وكان الحارث بن ضرار رجلاً مغروراً بنفسه، حَرَّضَ قومه على الخروج فاستجابوا له، وما نظن أن الحارث كان يجرؤ على المسير إلى المدينة، فهو وقومه لا يبلغون هذا المبلغ، ولكن مجرد خروجه عن اجماع قومه كان انحرافاً عن الطريق لا بد أن يقوَّم. وجدير بالذكر أن رسول الله عندما أراد أن يستعلم عن أمور خزاعة بعث بُرَيْدة ابن الحُصيب الأسلمي الخزاعي، وكان هؤلاء الأسالمة أحلافاً لرسول الله ﷺ، حيث كانوا مثلهم في ذلك مثل بني اسلَم (بفتح اللام)، وكانوا بطناً من بلي بن إلحاف بن قضاعة القديمة، تفرقوا في نواح كثيرة من الحجاز حيث استضعفهم الأوس والخزرج في سهل المدينة. وأساءت استخدامهم قريش، فلما قامت أمة المدينة سارعوا بالإنضمام إليها، ووجدوا في ذلك العزة والمنعة إلى جانب الدين، وقد كان لبني أسلَم الخزاعيين وبني أسلَم القضاعيين في ظل الإسلام دور عظيم.

وكانت غزوة المريسيع في شعبان سنة ٥ هـ/ يناير ٦٢٧ م، قبل الخندق بثلاثة شهور، وقد ضرب المسلمون بني المصطلق ضربة حاسمة بالغة الشدة، ولم يكن من ذلك بد لأن الظروف كلها كانت تنبىء بأن قريشاً لا بد مدبرة أمراً، وكان لا بد أن يظل أحلاف المدينة في سلام معها وولاء لها، وإلا وجدت قريش في ذلك مجالاً وسيعاً للإضرار بأمة الإسلام والإفلات من الحصار، ولكن الرسول بعد أن تحققت له الغاية من ضربة بني المصطلق بادر إلى التخفيف عنهم، فاصهر إليهم باصطفاء جويرية بنت الحارث وأداء كتابتها عنها وتزوجها. فأطلق المسلمون ما كانوا قد أحرزوه من سبي بني المصطلق.

وقد أفادت المدينة من وراء ذلك النشاط الواسع قوة كبرى، فاستقر نفوذها في شمال شبه الجزيرة ووسطها كله، وهابتها القبائل هيبة شديدة ودخل في حلفها منها من دخل وأسلم من أسلم.

وفي أثناء ذلك كانت قريش في ضيقها وحيرتها من أمرها، فإن الحصار عليها شديد، وهي لم تكسب من معركة أُحُدٍ شيئاً ذا بال، ثم جاءت حمراء الأسد ثم بدر الموعد فَخَنِسَت وانكمشت في عقر دارها وساورها الخوف على مصيرها، ربما للمرة الأولى منذ حرب الفجار الثالثة ولكنها لم تكن تستطيع المقام على هذه الحال، فهي قبيلة كبيرة غنية ذات صيت بعيد وجاه عظيم، ورجالها أعلام لهم مكانتهم وتجارتهم، وقد قضت قريش فوق القرن والنصف في بناء نفسها وبلوغ ذلك المبلغ. وكان لها نظام قوي صلب وتماسك يقوم على تقاليد وقواعد وعقل وحكمة وتدبير، وكل ذلك جعل لها جاهاً عظيماً عند العرب وهيبة بالغة في قلوبهم، والآن يجدون ذلك كله مهدداً بالزوال، بل هو يتلاشى يوماً بعد يوم، وما كان القرشيون بالجبناء ولا قليلي الحيلة، فما زالت قريش مجتمعة القوة وهي تستطيع الآن أن تضرب، وفي التأخر مزيد من المضرة بها ولا ريب، ولا بد لها أن تضرب قبل أن يضيق عليها الخناق وتصبح الحركة عسيرة عليها.

تلك هي مقدمات غزوة الأحزاب التي حولتها حكمة الرسول إلى غزوة الخندق، وهي آخر محاولة لقريش للوقوف في وجه أمة المدينة الناهضة، ولم تكن قريش بالمغامرة فيها ولا المتهورة، فقد أعدت نفسها أحسن استعداد أمكنها، وأحكمت أمرها وجمعت أحلافاً أقوياء لهم صالح مباشر في القضاء على أمة المدينة وأحكمت خطة المسير والتوقيت، وقاد قواتها مع حلفائها أبو سفيان صخر بن حرب قيادة فيها حزم ومعرفة وذكاء، ولكن فاتها أن القوة التي خرجت قريش لتقيس نفسها إليها كانت تفوقها من كل ناحية، بل كانت قوة من طراز جديد لم تعرفه قريش ولم تكن تتوقعه، فسواء أكان ذلك متصلاً

بطبيعة بناء قوة الإسلام التي خرجت قريش وأحلافها للقضاء عليها، أم كان متصلاً بنظامها الداخلي لأن العقيدة التي تُوَجِّه رجالها، والقانونَ الأخلاقي الذي كان يُحكم تصرفات أفرادها، والأهدافَ التي كانت تحارب في سبيلها وطريقةِ القتال التي دربت نفسها عليها، في ذلك كله كانت المدينة تفوق مكة بمراحل كثيرة. وفوقَ ذلك كله كانت شخصية قائد جماعة المدينة وموجه الأمر فيها واتجاهات فكره وأسلوبه في العمل، والغايات التي كان يرمي إليها ومستوى العلاقات بين محمد رسول الله وصحابته كباراً وصغاراً، ثم الولاء المطلق للعقيدة والرسول صلوات الله عليه وسلامه، في كل ذلك كانت المدينة تختلف اختلافاً بيناً عن قريش وأحلافها. فهؤلاء يمثلون عصر الجاهلية بكل عقليته وأسلوبه في العمل وأهدافه ونظرته إلى الحياة، والمدينة تمثل الإسلام وهو بناء عقيدي حضاري وإنساني جديد وبعبارة واحدة نقول: أمامنا في معركة الخندق عصر عتيق كان كل ما فيه قد وهن واهترأ وفقد حيويته يحاول أن يقف أمام عصر جديد كل ما فيه جديد، وهو قوي شاب صلب متماسك قام ينشيء لأهل الدنيا كلهم نظاماً جديداً.

هذا عن الصورة العامة للصراع الذي دار بين الجبهتين في موقعة الأحزاب التي تحولت إلى معركة خندق أو معركة الحصار بتعبير عملي دقيق.

ويتجلى لنا طابع القوة في تنظيم أمة الإسلام في ثلاث نواح: الأولى تماسك الجماعة والتفافها حول قائدها وطاعتها له وثقتها فيه. ومن جانبه أيضاً نجد الثقة في الأمة كاملة، فهو يصدر الأمر ناظراً دائماً لما فيه صالح الجماعة. ففي سرية أبي سلمة بن عبد الأسد إلى قَطَن (وقد جاءت بعد حمراء الأسد في المحرم ٤ هـ/ يونيو ٦٢٥ م) يستدعي رسول الله ﷺ أبا سلمة بن عبد الأسد وكان قد أَبَلَّ من حين قريب من جراح أصابته في أحد ويقول: «أخرج في هذه السرية، فقد استعملتك عليها » وعقد له لواء وقال: «سِرْ حتى تَرِدَ أرض بني أسد، فأغر عليهم قبل أن تلاقي جموعهم عليك» فأذعن للأمر وخرج معه

طواعية مائة وخمسون من المسلمين فيهم من المهاجرين من صميم قريش ومن بني فهر ومن الأنصار، كلهم أعلام من الصحابة من أهل الدين والورع والبسالة والإيمان المتين. وأبو سلمة يمضي معهم قائداً مطاعاً ومقاتلاً عارفاً بشئون الحرب، فهو يصل إلى حيث وجهه الرسول، فيفرق رجاله ثلاث فرق لتغير على كل أرض بني أسد: وأوعز إليهم ألا يمضوا في طلب وألا يبيتوا إلا عنده إن سَلِموا، وأمرهم ألا يفترقوا، واستعمل على كل فرقة عاملاً منهم»، ويقوم كل فريق منهم بما ذهب لأجله ويعودون بالمغنم، فيمضي بهم أبو سلمة عائداً وبعد سير ليلة يقول: «اقتسموا غنائمكم، فأعطى أبو سلمة الطائيَّ الدليل (أي الذي دل المسلمين على أرض بني أسد) رِضاهُ من المغنم، ثم أخرج صَفِيًّا لرسول الله ﷺ عبداً، ثم أخرج الخمس، ثم قسم ما بقي بين أصحابه فَوُفُوا سُهمانهم، ثم أقبلوا بالنَعَم والشاه يسوقونها حتى دخلوا المدينة» وقد نَفر على أبي سلمة جرحُه القديم بعد العودة إلى المدينة ومات منه لثلاث من جمادي الآخر سنة ٤ هـ. فهذا نظام تام لا يصدر إلا عن رجال لهم ثقة كاملة في أنفسهم وفي قيادتهم. ورسول الله ﷺ يثق تماماً في أنهم سيقومون بالمطلوب منهم دون وصاة. ولو كانت دولة عريقة ذات تقاليد عسكرية عتيقة لما سار الأمر فيها بهذا النظام، فما بالك ونحن في جماعة حديثة التكوين حرة يحكم أمرها الإيمان الكامل والقدرة الحسنة والتضحية بالنفس في سبيل الجماعة وعقيدتها.

دُروسٌ وَعِبَر:

ويسأل عمر رسول الله عما سيفعل بأموال بني النضير، فيشير رسول الله ﷺ إلى الآيتين السادسة والسابعة من سورة الحشر، **﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب، ولكن اللّه يسلط رسله على من يشاء واللّه على كل شيء قدير. ما افاء اللّه على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دُولة بين الأغنياء**

منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[1] وبناء على ذلك كان عمر بن الخطاب يقول: كان لرسول الله ﷺ ثلاث صفايا، فكانت بنو النضير حبساً لنوائبه، وكانت فدك لابن السبيل وكانت خيبر قد جزأها ثلاثة اجزاء، فجزآن للمهاجرين وجزء كان ينفق منه على اهله، فإذا فضل رده على فقراء المهاجرين.

ومع ذلك يعرض رسول اللّه هذا الأمر ـ أمر مصير أموال بني النضير ـ على المهاجرين والأنصار وكان حريصاً دائماً على أن يتصرف في شئون الدنيا برأي الأمة، وكانت الأمة في نفس الوقت تسترشد بهديه وصدقه واخلاصه، ويخير الانصار بين أمرين: إما أن يشتركوا مع المهاجرين في نصيب من هذا الغنى ويظل المهاجرون نازلين بمساكنهم التي نزلوا فيها على الانصار عند هجرتهم، أو يقسم هذا المال على المهاجرين ويتركوا ما نزلوا فيه من مساكن الأنصار وأموالهم، فيكون رد الانصار بل يقسم المال عليهم ويظلوا معنا في مساكننا، وذلك أقصى الايثار، وهذا دليل على المستوى الاخلاقي الرفيع الذي وصل إليه اهل امة الإسلام.

وسنرى بعد كلامنا على ما وقع في غزوة الخندق، الكثير من دلائل التطور العسكري، ولكن نقرأ معاً هذا الخبر التالي عما حدث قبل أن يصدر سعد بن معاذ حكمه فيما يعمل ببني قريظة قال الواقدي: «واقبل سعد إلى رسول الله ﷺ والناس حول رسول ﷺ جلوس، فلما طلع سعد قال رسول الله ﷺ قوموا إلى سيدكم، فكان رجال من بني عبد الاشهل يقولون: فقمنا له على ارجلنا صفين، يحييه كل رجل منا حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ» وهذا مظهر عظيم من مظاهر تبجيل القضاء: أن يأمر رسول الله الحاضرين بأن يقفوا جميعاً لسيدهم، والقاضي عندما يسير لمجلس قضاته ويجلس فيه يكون سيد الحاضرين في موضع الحكم. ثم يتقدم سعد (وهو مريض) وينظر إلى بني قريظة ويؤكد

---

(١) سورة الحشر ٥٩/٦ ـ ٧.

لهم أنه سيحكم بما يرضي ضميره. (وكان بنو قريظة حلفاءه، وله ولابيه تعامل وصداقة معهم قبل الإسلام) ثم ينظر إلى رسول الله ويقـول: وعلى من هـا هنا مثـل ذلك؟ أي هـل تقبلون حكمي بنفس راضية كـما اقـر بنـو قـريـظة بـأنهم يقبلونه، فقال رسول الله ﷺ ومن معه: نعم: وهذا من أجمل مشـاهد احتـرام القضـاة والقضاء: رسـول الله ومن بعده يعـدون بأن يـرضـوا بحكم القـاضي ويسلموا به ثم يكون الحكم في بني قريظة بعد ذلك بما نعرفه جميعاً.

وهـذه هي الجماعـة التي انشأهـا رسـول الله ﷺ بهـدى من ربـه، فهي جماعة جديدة من كل ناحية، جماعة منظمة متماسكة متآخيـة تسير على هـدى من عقيدة سامية وتمضي في آثار أصلح قدوة عرفها التاريخ.

هنا يتجلى لنا كيف كانت الهوة شاسعة بين قريش وامة المـدينة، وقـريش إلى ذلك الحين كانت أعلى من في الجزيرة، حضارة وعلماً ونظامـاً وفهماً وتـرابطاً وإدراكـاً لروح الجمـاعة ومسئـوليتها، فجـاءت هذه الامـة على ذلـك المستوى الرفيع الذي يفوق كل ما عرفته الانسانية من تنظيم إلى ذلك الحين، بل إلى يومنا هذا، وإذا كان بعض الناس يرون أن الشورى أو ما يسمونه بالديمقراطية هي ميزة العصر، فقد عرفنا أن الشورى كانت بنص القرآن قاعدة من قواعد التنظيم في امة المدينة، واضيف إلى ما يعرف الناس من آي القرآن الكريم في هذا المعنى ذلك الشاهد الجديـد آتي به من كـلام الواقـدي عن غزوة الخنـدق: فبعد أن خطب رسول الله ﷺ الناس عندما سمع بخبر مسير الاحزاب نحو المدينة يقول الـواقدي: «وشـاورهـم رسول الله ﷺ، وكـان رسول الله يكـثر مشـاورتهم في الحرب، فقال: أنبرز لهم من المدينـة أم نكون فيهـا ونخندقها علينا، أم نكون قريباً ونجعل ظهورنا إلى هذا الجبـل؟ فاختلفـوا فقالت طـائفة: نكـون مما يـلي بُعاث إلى ثَنية الوداع إلى الجُرف. فقال قائل: ندع المـدينة خلوفـاً؟ (أي خلف ظهورنا) فقال سَلْمان: يا رسول الله: إنا إذا كنا بـأرض فارس وتخـوفنا الخيـل خنـدقنا علينـا، فهل لـك يا رسـول الله في أن نُخَندق؟ فـأعجب رأي سلمـان

المسلمين، وذكروا حين دعاهم النبي ﷺ يوم أحد أن يقيموا ولا يخرجوا، فكره المسلمون الخروج وأحبوا الثبات في المدينة[1]».

وهذا مثال من مشاورة الرسول لاصحابه، فهو هنا يطرح الامر عليهم ويدعهم يتبادلون الرأي في حرية تامة، وعندما اقترح سلمان الخندق ـ وقد سبق أن ذكره رسول اللّه ـ «أعجب رأي سلمان المسلمين» فلم يقتصر الاعجاب هنا على رسول الله بل شمل المسلمين، أي أن الرأي كان لما تقرره الجماعة. والحرب كانت أخطر شئون المدينة في هذه المرحلة من تاريخها، فإذا كان رسول ﷺ يشاور المسلمين في أهم شيء فما بالك بالعادي من شئون الدنيا؟ وإذا كان يأخذ برأي أصحابه الذي اجمعوا عليه واتفقوا على تنفيذه معاً فكيف يقول ناس اليوم أن الشورى ليست ملزمة للإمام؟ . واذن فنحن فعلاً أمام أمة جديدة من كل ناحية.

أما قريش فقد ظلت مكانها، وعندما قررت أن تتصرف وتعمل شيئاً تخرج به من الحصار المضروب عليها وتستعيد به مكانتها في شبه الجزيرة، تصرفت على النحو الجاهلي الذي خلفته أمة الإسلام وراءها بمراحل شاسعة، وهو تصرف التظاهر والخداع والكسل مع العجز الظاهر عن معرفة قيمة الوقت وكيف يتم الانتفاع به على أحسن الوجوه.

انقضى بين أحد والخندق أكثر من سنتين هجريتين، فقد كانت أحد في ١٠ رجب سنة ٣ هـ وكانت الخندق في ذي القعدة سنة ٥ هـ وكان أمام قريش متسع من الوقت لإحكام أمرها إذا كانت تريد أن تحارب أمة الإسلام في المدينة وتنتصر عليها، وكانت تعرف أن هناك قبائل كثيرة حاقدة على المدينة راغبة في إيذائها، لأن المدينة كانت قد اصبحت مركزاً عمرانياً زاهراً يفيض بالخيرات، وإلى جنوبها من ناحية العقيق يمتد حمىً واسع ترعى فيه سوائم الامة مما يصير لها من الاخماس، وقد أنشأ هذا الحمى رسول الله ﷺ في عودة الناس من

(١) الواقدي، مغازي ٢/٤٤٤ ـ ٤٤٥.

المريسيع واستعمل عليه بلال بن الحارث، وحرم الرعي في حمى النقع على عامة المسلمين إلا المرأة الضعيفة والرجل الضعيف أي الفقير، وكانت المدينة لا تؤدي إلى أحد من الأعراب اتاوة، ولا يجرؤ واحد منهم أن يعترض لها عيراً أو يصيب لها شيئاً إلا وجد رجال المسلمين في إثره، ولم يتعود الاعراب ذلك وخاف بعضهم خوفاً شديداً، ثم أن توقف قوافل التجارة؛ أصابهم بضرر كبير، ومع ذلك فقد كانوا عاجزين عن المساس بأي شيء للمدينة، بل كانت توجس خيفة من أن تلقى العقاب الشديد إذا هي فكرت في القيام بما لا ترضى عنه المدينة بما في ذلك مؤازرة قريش أو الدخول في حلفها.

يَهود المَدينَة وَالإسْلام :

ويستوقف نظرنا أن قريشاً لم تتحرك للعمل إلا بعد أن حركها إلى ذلك المهاجرون من بني النَّضير إلى خيبر، عندما نفاهم رسول الله من المدينة حين خانوا العهد بينهم وبينه ودبر واحد منهم اغتياله. فلما استقر المخرَجون من بني النضير في خيبر جعل رؤساؤهم دأبهم التدبير على الرسول ﷺ وأمة المدينة، ثم كونوا وفداً من رؤسائهم وبعض الأوس ممن كان مُعادِياً للإسلام، ورجال هذا الوفد هم حُيي بن أخطب وكنانة بن أبي الحُقَيق وهوذَة بن قيس الوائلي من بني خطمة وأبو عامر الراهب وهو أبو عامر بن عبد عمرو بن صَيفيّ، الذي سماه المسلمون بالفاسق وكان من بني ضُبيعة من الأوس، وذهب رجال هذا الوفد إلى مكة، وجالسوا رؤساء قريش وحرضوهم على قتال محمد رسول الله، وتحالفوا معهم على النصرة فتحمست قريش وقررت الخروج، ثم ذهب ذلك النفر إلى غَطَفان ودعوهم إلى قتال المسلمين، «فجعلوا لهم تمر خيبر سنة وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا، فأنعمت بذلك غطفان ولم يكن أحد أسرع إلى ذلك من عيينة بن حصن[1]».

---

(١) الواقدي، مغازي ٢/٤٤٣.

والخبر على هذه الصورة غير مقنع، ويبدو وكأنه مفتعل، وإن الإنسان ليتعجب كيف أساغ الواقدي هذا التفسير لخروج قريش مع حلفاء لها للحرب مع المدينة، فإن الذين خرجوا إلى الحرب بناء على هذا الخبر كانوا بني النضير من اليهود، فهم الذين حركوا قريشاً ثم غطفان ولكننا لا نجد لبني النضير أو لغطفان بعد ذلك أثراً في القتال، حتى ما وعدوا به غطفان من اعطائها تمر المدينة لمدة سنة غير معقول قطعاً، لأن بني النضير لا يملكون خيبر إنما هم كانوا لاجئين إليها بعد إخراجهم من المدينة، ثم إننا لا نعرف إن كانوا قد وفوا بذلك لغطفان بعد الخندق.

وإنما الحقيقة أن قريشاً كان لا بد لها من أن تتحرك لانقاذ نفسها من الضياع، فإن تجارتها واقفة وعلاقاتها بالقبائل تضعف وتنقطع وما بنته قريش خلال قرن ونصف يوشك أن يتقوض كله، فلم يكن لقريش بد من العمل السريع، وهي لا زالت تحتفظ بالجانب الأكبر من قوتها وثروتها، ثم إن ما وهن وَرَثَّ من علاقاتها بالقبائل كان من الممكن أن يعود إذا هي خرجت عن ركودها وحزمت أمرها وقررت أن تتفق مع من يريد من القبائل، للتصدي لأمة الإسلام.

لا يمكن أن يكون لبني النضير من دور في تحرك قريش وأحلافها للخروج لحرب المدينة إلا دور التحريض، وهذا يستطيعه أي أحد، وقد فعله قبل ذلك كعب بن الأشرف وأبو رافع وكلاهما من اليهود فلقيا جزاءهما العاجل العادل من أمة الإسلام، والآن يتحرك بنو النضير من منفاهم في خيبر للتحريض على المدينة ويكون لتحركهم أثر بعيد، وإن كنا لا نستطيع القول أن ذلك التحرك كان هو الدافع المباشر لخروج قريش وأحلافها، وتجمعهم لمهاجمة المدينة في ذلك الوقت بالذات.

ولكن الواقدي يورد هنا ملاحظة تكشف لنا عن حقيقة هامة من حقائق حياة يهود الجزيرة، لم يشر إليها أحد ممن أنفقوا جهوداً كبيرة في دراسة موضوع

يهود الجزيرة وموقفهم من الإسلام وموقف الإسلام منهم (كما يتجلى من القرآن الكريم)، ثم موقف أمة المدينة كما يتجلى فيما كان بينها وبين هؤلاء اليهود منذ أن كانت أمة الإسلام في المدينة.

قال الواقدي راوياً عن رواته: «لما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير ساروا إلى خيبر. وكان بها من اليهود قوم أهلُ عَدد وجَلَد، وليست لهم من البيوت والأحساب ما لبني النضير. كان بنو النضير سِرُّهم، وقريظة من ولد الكاهن من بني هارون، فلما قدموا أخرج حُيَيّ بن أَخْطَب، وكنانة بن أبي الحقيق، وهوذة بن الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي من الأوس من بني خطمة، وأبو عامر الراهب في بضعة عشر رجلاً إلى مكة يدعون قريشاً وأتباعها إلى حرب محمد ﷺ فقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمداً. قال أبو سفيان هذا الذي أقدمكم ونَزَعكم؟ قالوا: نعم، جئنا لنحالفكم على عداوة محمد وقتاله. قال أبو سفيان: مرحبا وأهلا، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد..»[1].

وإذن فقد كان بنو النضير أعلى يهود الجزيرة مركزاً وأكبرهم مقاماً، ويليهم بنو قريظة فهم من ولد الكاهن (كوهين) من بني هارون، فهم على ذلك من أبناء الأسباط، فسبط هارون واحد من الأسباط الاثني عشر، فهو هارون والد لوط. ومن المعروف أن يهود المدينة كانوا على نوعين: نوع عبرانيون من بني إسرائيل أي من بني الأسباط ونوع عرب تهوَّدوا. وأقوى أولئك الذين تهودوا وأصبحوا في مستوى اليهود الأصلاء المهاجرين، بنو ثعلبة ابن حارثة بن عمرو بن امرىء القيس وهم ينحدرون من عمرو مزيقياء رأساً، فلا هم أوس ولا هم خزرج، وهؤلاء كانوا سادة المدينة قبل أن يدخلها الأوس والخزرج مقبلين من اليمن. والأوس والخزرج عندما قدموا دخلوا في حلف يهود المدينة، وهم كانوا سادة السهل أولاً، وكان رئيس ثعلبة هؤلاء الفِطْيَوْن وهو عامر بن ثعلبة. وكان سيد السهل، وكان يفرض على كل من نزل في

(١) الواقدي، مغازي: ٢/٤٤١ - ٤٤٢.

السهـل ما يسمى في التـاريخ القـديم باسم، قـانون الليلة الأولى Jus primae noctis ومعناه أنه لرئيس الجماعـة أن يقضي الليلة الأولى مع كـل عروس قبـل زوجها إذا أراد ذلك، وكان هذا عرفاً قديماً جـداً عند بعض الجمـاعات، ومـع أننا نستبعد أن يكون الفِطْيَون عامر بن ثعلبة كـان يمارس هـذا الحق مع الأوس والخــزرج، إلا أن القصص الشعبي يـزعم ذلــك، وينسب إلى مـالــك بن العجلان شيخ بني عـوف بن الخزرج بن الحـارث أنه هـو الذي ثـار بالأوس والخزرج على سلطان اليهود وحاربهم وانتزع لهم السيادة على السهل، وانزل اليهود إلى مرتبة الحلفاء في السهل. ومالك هذا هو الذي قاد الخزرج ضد الأوس في حـــرب بُعـــاث، فـــانضمت اليهـــود إلى الأوس، وبـفضـلهم انـتصـــر الاوس عـلى الخزرج في بعـاث، ومن ذلـك الحـين انعقـد الحلف بـين الاوس واليهود، وهو حلف سيكون له أثره في سير الحـوادث في المدينـة، إلا فيما يتعلق بحلف عبـد الله بن أبي بن سلول مع بني قينقـاع اولاً ثم ببني النضير، وأخيـراً ببني قريظة، فلما انتهى أمر هؤلاء انتهى أمر عبدالله بن أبيّ بن سلول، ولم يكن في الخزرج أحد يؤيد اليهود كـما كان يؤيـدهم عبدالله بن أبيّ بن سلول، وكـان اليهود يعتزون بتأييد عبدالله بن أبي حتى خذلهم مرة بعد أخرى وتبين لهم أنه لا ينفع في وقت شدة. وقد كان موقف ابن سلول هذا منفراً لكل أحلاف اليهود من الأنصار، فنجدهم جميعـاً يتبرأون من حلفهم وخـاصة بعـد الخندق عنـدما دخلت في الإسلام مجموعة البطون المسماة بأوس مناة قبل الإسلام، ثم أصبحت تسمى أوس الله بعد الخندق، وهم أمية ووائل وعطية وخطمة وواقف.

ولكننا لا نجد بني ثعلبة على حال من القوة بعـد الهجرة، فقـد دخلوا في الخزرج، ثم إننا نلاحظ أن واحداً من كبارهم كان يسمى أبا زيد بن عزرة (أو عزرا) بن عمرو بن أخـطب بن محمود وهـو من أحفاد الفِـطْيون. وآل أخـطب كـانوا من رؤسـاء بني النَّضـير ورئيسهم حُيي بن أخـطب وهـو والـد صفيـة أم المؤمنين.

وهذا كله يلقي ضوءاً جديداً على ما كان بين الرسول ﷺ وبني النضير بعد موقعة أحد، فقد كانوا شديدي العداوة للإسلام والغيرة منه، وبعد أن انصرف المشركون بعد أحد أراد الرسول أن يستعين بشيء من المال منهم، فقد دفع عنهم وحمى لهم منازلهم وأموالهم، ولكنهم تنكروا له ودبروا قتله مما انتهى بإخراجهم من المدينة وقد خرجوا تاركين أموالهم وبيوتهم ونخلهم ولكنهم تكلفوا تجلداً غريباً: «وحملوا النساء والصبيان، فخرجوا على منازل بلحارث بن الخزرج، ثم على الجبلية (موضع بالمدينة) ثم على الجسر، ثم مروا بالمصلى، ثم شقوا سوق المدينة، والنساء في الهوادج عليهن الحرير والديباج، وقُطُف الخز الخُضْر والحُمر، وقد صَفَّ[1] لهم الناس، فجعلوا يمرون قطاراً في إثر قطار فحُمِلوا على ستمائة بعير. يقول رسول اللّه ﷺ : هؤلاء في قومهم بمنزلة بني المغيرة[2] في قريش»[3] وجعل بعض المسلمين من أمثال حسان ابن ثابت، يتحسرون على ذهابهم ويذكرون مآثره لهم ووقف الضحاك بن خليفة يشهدهم، ثم قال وهو يراهم خارجين: «واصباحاه، نفسي فداؤكم! ماذا تحملتم به من السؤدد والبهاء والنجدة والسخاء؟» [4] ونُعيم بن مسعود الأشجعي قال في نفس الموقف: «فِدَى لهذه الوجوه التي كأنها المصابيح ظاعنين من يثرب! من للمُجْتَدي الملهوف؟ ومن للطارق السَّغْبان؟ ومن يسقي العُقَار؟ ومن يطعم الشحم فوق اللحم؟ ما لنا بيثرب بعدكم مقام!»[5] فيرد عليه أبو عبس بن جبر: «نعم. فالحقهم حتى تدخل معهم النار»[6] ثم يقول الواقدي: «مروا يضربون بالدفوف ويزمرون بالمزامير، وعلى النساء المعصفرات وحُلي الذهب، مظهرين ذلك تَجَلُّداً. قال: يقول جبار بن صخر: ما رأيت زَهَاءهم لقوم زالوا

---

(١) أي اصطفوا.

(٢) بنو المغيرة هم بنو مخزوم.

(٣) الواقدي، مغازي: ١/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

(٤) الواقدي، مغاي: ٣٧٥.

(٥) الواقدي: مغازي: ٣٧٥

(٦) الواقدي: مغازي: ٣٧٥.

من دار إلى دار، ونادى أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، ورفع مسك الجمل وقال: هذا مما نُعِده لخفْض الأرض ورفعها فإن يكن النخل قد تركناها، فأنا نَقْدُم على نخل بخيبر[1]» . . .

من هنا نفهم ولو جانباً من جوانب اعتداد بني النضير بأنفسهم واستعادتهم بعض قوتهم بعد أن استقروا في خيبر، ثم اجتهادهم في تأليب الناس على أمة المدينة، فإن أبا رافع سلام بن أبي الحُقيق الذي زعم أنه يعتد بما خرج به قومه من ذهب وفضة وخز ويقول إنه يعد ذلك لخفْض الأرض ورفعها، هو ابن عم كنانة بن أبي الحُقيق أحد الساعين في تأليب القرشيين ثم غطفان على رسول الله ﷺ، فبنو النضير كانوا منذ خرجوا مزمعين الانتقام من أمة المدينة حاسبين أنهم سيعودون إلى الانتصار بفضل مالهم الذي أطلقه لهم رسول الله ﷺ وظنوا أنهم يَخْفِضُون الأرض ويرفعونها به.

وكان معهم في ذلك التأليب هوذة بن قيس الوائلي من الأوس من بني خطبة، والغالب أنه كان يهودياً، فإن هوذة تعريب يهوذا وخطمة وهم بنو جُشم ابن مالك بن الأوس، كانوا من أوس مناة الذين لم يسلموا إلا بعد الخندق، وكان رئيس أوس مناة أبا قيس بن الأسلت الشاعر وهو من بني وائل، ولم يسلم إلا بعد الخندق فأسلم بقية أوس مناة بإسلامه وأصبحوا يسمون أوس الله كما ذكرنا.

وكان مع أولئك المؤلبين على المسلمين، أبو عامر عبد عمرو أو عمرو من بني عمرو بن عوف بن قيس الذي يقال إنه كان قد تنصر وسمي بالراهب، وقد سماه المسلمون بأبي عامر الفاسق، وهو شخصية كأنها الشبح معادية للإسلام أشد العداوة في غير طائل، فقد أكل قلبه الحسد من محمد صلوات الله عليه عند الهجرة وانتشار الإسلام، فخرج إلى مكة وانضم إلى الكفار وكان له أثر سيء في أحد، ثم يختفي ليظهر الآن بين المؤلبين على رسول الله، ثم يختفي

(٧) الواقدي: مغازي: ٣٧٥.

بعد ذلك كأنه غرق في ليل التاريخ، وإن كان ذكره قد بقي في ابنه حنظلة بن أبي عامر من شهداء أُحُد وهو حنظلة الغسيل الذي غسلته الملائكة وهو الذي عناه أبو سفيان في خطابه لرسول الله ﷺ «حنظلة بحنظلة»، فهو الأول أما الثاني فحنظلة بن أبي سفيان نفسه وكان قد قتل في بدر.

ولكن الذي يستوقف النظر هو أن هؤلاء المؤلبين جميعاً ـ بما فيهم رجال بني النضير ـ يختفون بعد ما كان منهم من التحريض والتأليب، فلا نجد لهم في قتال الخندق إسماً ولا ذكراً.

قُريش وَأحلافها يَسيرونَ إلى المَدينَة :

وإذن فقد تحركت قريش بعد طول انتظار، ولكنها إذ تحركت لم يظهر عليها ما يدل على أنها تعلمت من الماضي شيئاً. فبينما كانت أمة الإسلام قد دخلت في عصر جديد من الانتظام والتماسك وإحسان التدبير والإعداد لكل شيء، ظلت قريش قبيلة جاهلية تخرج للقتال بالإبل والخيل والأموال وتجمع الحلفاء والأنصار وتسير بغير نظام، ولو أن رجال قريش تعلموا من رسول الله شيئاً لاستدعوا حلفاءهم وتدارسوا خطة العمل، ورتبوا صفوفهم وقسموا مسئولياتهم وعرفوا كيف سيهاجمون المدينة. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، ولم يكن من الممكن فيما نعتقد أن يحدث، فهذه جماعة تَخَشَّبت أو تحجرت على ما هي عليه، وقد سبق أن عرضنا لذلك التحجر، ونضيف الآن أن من أسبابه الخيلاء والكبرياء، فهؤلاء سادة بدو، يخرجون للقتال سادة ويلاقون الموت سادة، وتلك هي خيلاء الجاهلية وكبرياؤها، وقد كانت مقبولة مستحسنة بمقاييس الجاهليين قبل الإسلام كما نرى في تفاصيل أيام العرب، ولكن الإسلام جاء بفكر جديد وقيم ومقاييس جديدة بهتت إلى جانبها كل صور الجاهلية حتى ما كان منها مستحسناً قبل ذلك.

ولكننا نحس شكاً وتخوفاً في قول أبي سفيان لمن جاءوا يعرضون الحلف

عليه لقتال الإسلام: «هذا الذي أقدمكم ونزعكم!» وفيه كذلك شيء من السخرية بأولئك القوم، وهي سخرية معقولة من رجل مثل أبي سفيان الذي كان يختلف اختلافاً كبيراً عن بقية رؤساء قريش، فهذا الرجل كان وثنياً ولكنه كان بارد المزاج لا يكاد يؤمن بشيء، وهو واقعي مادي، يحسن النظر لنفسه ولمصالحه دون نظر إلى حماس أصحابه من زعماء القرشيين وغرورهم، وهو دون شك كان أوسع ذكاء من كل زملائه، وذكاؤه هذا هو الذي أنقذ قريشاً وجنبها تصادماً لم يكن محمد ﷺ راغباً فيه.

وسياق الأخبار بعد ذلك يترك في النفس أشياء كثيرة، فالنصوص تقول إن قريشاً أخرجت لحفاتها خمسين من رجالها ودخلوا جميعاً تحت أستار الكعبة وألصقوا أكبادهم بها وتعاهدوا على قتال محمد ﷺ حتى الموت، وانظر مثلاً إلى الفقرة التالية: على لسان بعض زعماء قريش «قد جاءكم رؤساء يثرب وأهل العلم والكتاب الأول، فسلوهم عما نحن عليه ومحمداً ...» فأما أن اليهود الذين جاءوا وكلهم من بني النضير كانوا أهل العلم بالكتاب في نظر القرشيين فمعقول، ولكن أكان هوذه بن قيس الوائلي وأبو عامر الراهب رؤساء أهل يثرب؟.. ربما إذا قلنا ان هؤلاء هم الذين بقوا على الكفر من أهل يثرب. وسنلاحظ فيما بعد أن بطون أوس الله جميعاً لن تحرك ساكناً، بل لن يسمع لها صوت طوال قتال الخندق.

وبعد ذلك نجد القرشيين يسألون اليهود وكأنهم في حيرة من أمر الإسلام، أو كأنهم لم يتأملوا مرة في آية واحدة من القرآن، وإلا فانظر الحجج التي يدلون بها ليعرفوا إذا كانوا هم على الدين الصحيح أم الدين الذي يدعو إليه محمد هو الصحيح: فهم يسألون من أتاهم من اليهود «أنتم أهل الكتاب الأول والعلم، أخبرونا عما أصبحنا نحن فيه ومحمد، فنحن عمار البيت، وننحر الكلوم ونسقي الحجيج، ونعبد الأصنام» وهذا الوصف لديانتهم سواء أكانوا قد قالوه حقاً أم لم يقولوه فهو يصور واقعهم ومفهومهم للدين، وهذا

المفهوم كله مظاهر عبادات لا عبادات. اسم الدين ولا دين، فهم يعمرون البيت أي يعتنون بالكعبة وما حولها، وينحرون الذبائح ويسقون الحجيج، ويعبدون أصنامهم عبادة زائفة لا قلب فيها ولا إيمان، كلها ظواهر ومظاهر يقومون بها تأييداً لجاههم مرة ووسيلة لكسب المال تارة أخرى، وهنا يكمن الفارق الشاسع بين ما كانوا يحسبون أنه دين ودين محمد، فدين محمد إيمان كامن في القلب وصادر عنه، وعبادات هي الشكل المنظور لفضائل ومكارم وقانون أخلاقي يتجه إلى خير الناس أجمعين، فهو يسوي بينهم ويعطف غنيهم على فقيرهم ويجعل منهم أمة واحدة، متآخية متعاونة تؤمن بالله سبحانه ورسوله ﷺ، هذا هو الذي لم يفهمه هذا النفر من زعماء قريش قط، وهو سبب شقوتهم وسبب هذه الأزمة التي كانوا يعانونها.

وانظر إلى أولئك اليهود والمفروض أنهم أصحاب دين سماوي ويعرفون أن الدين الحقيق بهذا الإسم، يبدأ قبل كل شيء بالإيمان بالله الواحد سبحانه، وهم في إجابتهم على أسئلة القرشيين يكذبون على أنفسهم ويخدعون غيرهم ويصدق عليهم قول الله تعالى في القرآن الكريم في سورة البقرة (آية ٩ وما بعدها) ﴿يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ والخط الذي وضعناه تحت الآية العاشرة من سورة البقرة هو أوضح تفصيل لحالة يهود بني النضير وما كانوا يفعلون. ويذكر علماء أسباب النزول أن هذه هي المناسبة التي أنزل الله فيها الآية ٥١ من سورة النساء: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ والطاغوت ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ وفي هذا الموقف نجد صفوان بن أمية معارضاً بعض الشيء لزعامة أبي سفيان، وذلك طبيعي، فصفوان بن أمية بن خلف مقروح، فقد قتل أبوه أمية بن خلف سيد قومه بني جمح المعروف بالغطريف في موقعة بدر، وفي نفس اليوم قتل أخوه علي بن أمية بن خلف، وفي موقعة أحد قتل عمه أُبَي بن خلف. وبعد مقتل أبي جهل كان صفوان بن أمية وسهيل بن

عمرو يمثلان الجبهة الجامدة الحاقدة من قريش، في حين كان أبو سفيان صخر ابن حرب يمثل ناحية الخبث والمكر والدهاء والواقعية والبرود. وصفوان يقول في هذه المناسبة: «يا معشر قريش إنكم قد وعدتم هؤلاء القوم لهذا الوقت وفارقوكم عليه، ففوا لهم به لا يكون هذا كما كان: وعدنا محمداً بدر الصفراء فلم نف بموعده، واجترأ علينا بذلك، وقد كنت كارهاً لميعاد أبي سفيان يومئذ».

نجحت إذن جماعة بني النضير ومن معها في تشجيع القرشيين على الخروج، وليست لدينا تفاصيل عن استعدادهم وتعبئتهم كيف كانت، ولكنهم على أي حال أوعبوا وخرجوا هم وأحابيشهم بأقصى ما يستطيعون من قوة، فكان جمعهم أربعة آلاف سيرد تفصيلهم فيما بعد.

ومن مكة وقريش اتجه نفر المؤلبين إلى بني سليم بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس عيلان. وهؤلاء بنو سليم كانوا من صميم البدو وأكثرهم جفوة، وإن لم يعدلوا في ذلك غطفان أو هوازن. وكانت منازل بني سليم في مواضع متفرقة شرقي جبل السراة، ولكن كتلة كبيرة منهم كانت تنزل على طريق التجارة من مكة إلى العراق، وكان بنو سليم هؤلاء إحدى بطون البدو الضاربة فيما بين جبل السراة، ومطالع نجد، وكانوا يروحون ويجيئون في نواحي الحجاز، فيما بين مكة والمدينة شمال المدينة يرون ذلك حقاً لهم، فلما قامت أمة الإسلام عمل رسول الله ﷺ على إخضاع الداخلين منهم في أرض الحجاز لسلطان الأمة، فغزاهم مرتين، مرة في غزوة قرقرة الكدر، وهي موضع معدن أي موضع كانت فيه بعض خامات معدن أي حديد، على ثمانية برد من المدينة، والبريد فرسخان[1] والفرسخ ثلاثة أميال فالمسافة إذن ٤٨ ميلاً عربياً، والميل العربي طوله نحو ١٨٠٠ متر فالمسافة على ذلك ٨٥ أو ٨٦ كيلومتراً

(١) هذا كان طول البريد من شرق الدولة الاسلامية، أما في غربها الشام ومصر وما يليها غرباً أربعة فراسخ. والمعروف أن البريد مقياس قبسه العرب من الرومان ولفظه عندهم Veredus وطوله محطتان من محطات الطريق.

وكانت غزاة الكدر بعد بدر بقليل في المحرم ٣ هـ/ يوليو ٦٢٤ م. وقد هرب بنو سليم أمام المسلمين تاركين جانباً كبيراً من نعمهم. فغنم المسلمون ٥٠٠ بعير، فآلمت هذه الضربة بني سليم ومن كان معهم من غطفان، ثم قصد المسلمون منزلاً آخر من منازلهم في بحران وهو موضع بناحية الفرع على الطريق الجانبي من مكة إلى المدينة، وهذه المرة أسرعوا بالهرب فلم يؤخذ منهم شيء، ولكن بني سليم أدركوا أن الحجاز وما بين مكة والمدينة بصفة خاصة، لم يعد كلأ مباحاً لهم يلجونه كيف شاءوا، وهذا شيء جديد بالنسبة لأولئك البدو، فحقدوا على المدينة، وما كادت جماعة المؤلبين تؤكد لهم أن قريشاً خارجة لقتال محمد رسول الله حتى انضم إلى ذلك الحلف غير المقدس.

وانضم إليهم عيينة بن حصن وقومه من فزارة وهي بطن من ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان، وكان رسول الله ﷺ يلقبه بالأحمق المطاع، وكان عماده الحقيقي على خيبر ويهودها، فلما غزا رسول الله خيبر واستولى عليها، انكسر عيينة وأصبح أحمق فقط، إذ لم يعد له سلطان ولا طاعة على أحد، ومع ذلك فقد كان الرسول يتجافى عن أخطائه ويفتح له باب العودة إلى حلف المدينة، ثم استعمله أخيراً في كسر غرور أعراب آخرين أقوى منه وأعنف وهم بنو تميم، أضخم جماعات الأعراب الضاربين حول نجد، وكان عيينة قبل الخندق شديد الخوف من رسول الله ﷺ، مع أنه لم يغز غطفان إلا مرة واحدة في غزوة ذي أمر، ولم يكن الغزاريون هم المقصودين في هذه الغزاة بل ذهبت الغزوة لتأديب بني ثعلبة ومحارب (ربيع الأول ٣ هـ/ رمضان ٦٢٤م.).

وكان بيان جماعة قريش ومن خرجوا بها إلى الأحزاب كما يلي:

ـ قريش وأحابيشها	٤٠٠٠ مقاتل، منهم ٣٠٠ فارس قائدهم أبو سفيان، و١٠٠٠ بعير
ـ سليم بن منصور	٧٠٠ مقاتل يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب

- أسد بن ربيعة بن نزار		يقودهم طلحة بن خويلد الأسدي، ولم تحدد النصوص عددهم

- فزارة		١٠٠٠ مقاتل يقودهم عيينة بن حصن

- أشجع بن ريث بن غطفان		٤٠٠ مقاتل يقودهم بن رخيلة أو رجيلة

فمجموع من خرجوا للهجوم على المدينة يقاربون العشرة آلاف إذا افترضنا أنه لا بد أن يكون قد انضم إلى هذا الجمع نفر من الأعراب وشذاذ البوادي، ومهما كان الرأي في تكوينها فهذه قوة ضخمة بالنسبة لجزيرة العرب في تلك المدة. ومن هذه القوة عدد لا بأس من الفرسان، فقريش وحدها كان معها ٣٠٠ فرس وفارس، ولا بد أن الأعراب الآخرين كان لهم فرسان، بل إن معظم محاربي الأعراب كانوا من الفرسان، لأن حربهم هي الضربات السريعة ثم الفرار، وهذا لا يتيسر إلا بخيل. أضف إلى ذلك أن بلاد أولئك الأعراب هي بلاد الخيل: بلاد الأعالي والرمال والدهأس والعشب الكافي للخيل، فهنا أعالي نجد وهي من نوع من أعظم خيول الدنيا، وهنا تجود الأفراس في أكثر البيئات الطبيعية مناسبة لها، وسنرى أن رسول الله ﷺ بعد الخندق وقريظة يرسل جماعة ليشتروا للمدينة خيلاً من نجد يطلقها في الأحياء، وهنا يحدث التطور العسكري الحاسم في التاريخ الحربي للمدينة، إذ إنها ستصبح بهذه الخيل قوة ضاربة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الجزيرة، وسيحدث فرسان أمة الإسلام مع الفتوح الإسلامية الكبرى أعظم تطور في تاريخ العسكرية في الدنيا: قوة الخيل العربية الصغيرة الحجم نسبياً البالغة القوة السريعة الجري، الطيعة في يد الفارس الشجاع التي تتحول مع فارسها إلى كائن حي واحد له ذكاء الإنسان وقوته وإيمانه - في حالتنا هذه - وقوة الحصان وسرعته وعصبيته واندفاعه، «كجلمود صخر حطه السيل من عل» كما يقول امرؤ القيس في وصفه فرسه، وامرؤ القيس كندي من أطراف نجد، وكذلك حصانه، هنا نصل إلى عمق جديد في إدراك معاني الشعر الجاهلي ونصل في نفس الوقت إلى شأو بعيد في فهم الفتوح الإسلامية الكبرى.

وقوة كهذه كان لا بد لها من تنظيم وترتيب وخاصة في السلاح والأزواد والماء للناس والخيل، وكان لا بد كذلك من إنشاء قيادة أو هيئة مشتركة من أولئك الرؤساء ورجالهم حتى يمكن تحويل تلك الوحدات العسكرية إلى جيش واحد له قيادة وخطة وتزويد منظم وكاف بالطعام والماء، وكان لا بد من ترتيب أمر الخيام والخدم والآنية والأسلحة الاحتياطية وما إلى ذلك مما لا تستغني عنها جيوش بهذا الحجم. ولم يفكر أحد من القرشيين وحلفائهم في شيء من ذلك فيما نعلم، فكانت النتيجة أن هذه القوة كلها لم تكوّن جيشاً واحداً أو قوة ضاربة واحدة كما تقول. بل ظلت جماعات من المغيرين تتحرك وتعمل بلا خطة ولا نظام. وقاست من قلة الطعام ومن صعوبة الحصول على الماء، وقضت على ما بقي من عزم رجالها في النهاية أعاصير هبت ودامت أياماً، والأعاصير في ناحية مثل العقيق والغابة وزغابة شمال غربي المدينة ـ حيث نزلت تلك القوات ـ وكانت أقل عنفاً وخطورة من الرياح في الرمال السافية، ومع ذلك فإن الرياح عندما هبت واستمرت أياماً، أسرع حلفاء قريش بالرحيل ثم رحل القرشيون أنفسهم منهزمين فكان انهزامهم هذا إعلاناً بعجز قريش وتفوق أمة المدينة عليها في كل ناحية. وفي معركة الخندق تحدد مصير قريش ومصير أمة الإسلام أيضاً.

أما في أمة المدينة فقد كان الأمر على خلاف ذلك من كل ناحية، فهنا جماعة من المؤمنين أصحاب إيمان واحد وفكر واحد، وهم لا يقاتلون دفاعاً عن حشاشات أنفسهم أو عن حرمهم فحسب بل يقاتلون في سبيل عقيدة، وأقصى أماني الواحد منهم أن يستشهد في سبيل عقيدته وأمته.

وهنا رياسة حكيمة بعيدة النظر لا يخيفها شيء. والقائد هنا هو رسول الله ﷺ، وهو ليس قائد جيش بل قائد إيمان وهو هاد إذا استعملنا اللفظ القرآني في وصفه، ثم إنه لا ينفرد برأيه بل هو يشاور أصحابه، ويحب أن يشاورهم ويأخذ بالرأي السليم إذا جاء من أحدهم. وفكرة الخندق بالذات التي

يسرت على المسلمين دفع الكفار، خطرت ببال رسول اللّه ولكن الذي وضعها موضع الشورى مسلم كان حديث العهد بالإسلام إذ ذاك، وهو سلمان الفارسي. ومن دلائل تقدير الرسول ﷺ لأصحابه وآرائهم أنه قبل الفكرة وقام على تنفيذها بأسلوبه الرفيع في التوجيه والتنظيم فعرف كيف يجعل أصحابه ينفذون فكرة الخندق على نحو أعجز المهاجمين أمامه وأدى في النهاية إلى فشلهم وارتدادهم منهزمين.

والخطوة الأولى في تنفيذ فكرة الخندق كذلك تدارسها مع أصحابه، فعرفوا في أناة وحزم، كيف يحفرون الخندق ويحددون اتساعه وعمقه على نحو يحول بين الخيل وبين القفز فوقه، والخطوة الثانية كانت تحديد مكان الخندق وامتداده، فإن الخندق لم يكن يدور حول سهل المدينة كله. فهذا لم يكن ميسوراً، وإنما جمع الرسول ﷺ بين حفر الخندق في الجبهات المفتوحة المكشوفة من المدينة وتحصين البيوت وتشبيكها بعضها ببعض في بقية المواضع، ثم جعل لنفسه قيادة مركزية في لحف جبل سلع أو ربما إلى شماله، وأنشأ مركز رقابة فوق الجبل جعل فيه أبا بكر الصديق، ثم نظم أصحابه فرقاً مقاتلة من الفرسان والرجالة، بعضها ثابت وبعضها متنقل، وتخير من رجاله نفراً من أهل اليقظة والسرعة والبسالة والمعرفة بشئون الحرب وجعلهم على رأس فرق سريعة التنقل feying units أو فرق تقوم بالمهام الشاقة task forces، وقد أحسن إعداد هذه الفرق وأدارها بحساب وحزم وتدبير محكم وجعل عليها شباباً من خيرة المسلمين من أمثال عباد بن بشر ومحمد بن مسلمة وأُسيد بن حضير وجابر بن عبداللّه وأشباههم من شبان المسلمين وأنجادهم.

ولكن أكثر ما دفع الناس إلى العمل والاستبسال فيه والحرص على سلامة الخندق هو عمل رسول الله ﷺ مع الناس في كل مرحلة من مراحل العمل، ومبادرته إلى القتال والحراسة وتنبيه الناس وتوجيههم في كل حين، حتى كان يستغرق في النوم إذ مس جسده الأرض أو اتكأ على حجر. قال ابن أبي

مبرة عن بعض رواته ممن رأوا النبي ﷺ أثناء هذه المعركة الطويلة التي استمرت عشرة أيام وربما أكثر: وكان رسول اللّه ﷺ يدع الغلمان والصغار يعملون مع المسلمين قال: «ولما لَحَمَ الأمر، أَمَرَ من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الأطام مع الذراري، وكان المسلمون يومئذٍ ثلاثة آلاف. فقد كنت أرى رسول اللّه ﷺ وأنه ليضرب مرة بالمعول ومرة يغرف بالمسحاة التراب ومرة يحمل التراب في المِكتل، وقد رأيته يوماً بُلغ منه، فجلس رسول اللّه ﷺ ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر، فذهب به النوم. فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه يُنحيان الناس أن يمروا به فينبهوه وأنا قربت منه ففزع ووثب فقال: ألا أفزعتموني! فأخذ الكرزن يضرب به وإنه ليقول. . .[1]».

بل كان يستريح في خيمته لحظة من الوقت ثم يسمع هيعة فينهض ويضع درعه وسلاحه ويمضي للقتال، فإذا زال الخطر عاد إلى راحته حتى يسمع صوتاً فينهض مرة أخرى، وفي مرة يعود إلى قبته راضي النفس وهو يقول: «رجعوا مغلولين، قد كثرت فيهم الجراحة، ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس. فكانت أم سلمة تقول قد شهدت مع مشاهد فيها قتال وخوف ـ المريسيع وخيبر، وكنا بالحديبية، وفي الفتح وحنين ـ وذلك أن ـ لم يكن من ذلك شيء أتعب لرسول اللّه ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق. وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحَرَجة، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري، والمدينة تُحرس حتى الصباح، يسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفا، حتى ردهم اللّه بغيظهم لم ينالوا [وكفى اللّه المؤمنين القتال][2]».

وكانت لدى المسلمين خيل ربما بلغت العشرة، ولكن طعامها كان قليلاً، ثم إن القتال دون الخندق يحتاج إلى نبل ورماة، وكان النبل قليلاً فاستعان المسلمون بالحجارة. جمعوها وسوموها حتى صارت تلالاً، وصاروا يرمون بها في توفيق كبير.

---

(١) الواقدي، مغازي ٢/٤٥٣.

(٢) الواقدي، مغازي ٢/٤٦٧ ـ ٤٦٨.

هذا عن جبهة المسلمين، تلك القوة التي كان على المكيين وحلفائهم أن يتغلبوا عليها، فماذا فعلوا؟

نلاحظ باديء ذي بدء أن جماعة ممن كانوا قد اتفقوا مع قريش على المسير لم يواصلوا السعي إلى النهاية، وعادوا إلى ديارهم بعد أن قال لهم رئيسهم قولاً عظيم المعنى بالنسبة لنا في هذا المقام «وخرج الحارث بن عوف يقود قومه بني مرة (بن الحارث بن عوف)، وهم أربعمائة. لما أجمعت غطفان السير أبى الحارث ابن عوف المسير وقال لقومه: تفرقوا في بلادكم ولا تسيروا إلى محمد، فإني أرى أن محمداً أمره ظاهر لو ناوأه من بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة، فتفرقوا في بلادهم ولم يحضر واحد منهم، وهكذا روى الزهري وروت بنو مرة[1]» وقد رجح الرواة أن بني مرة لم يرتدوا وإنما اشتركوا مع الأحزاب.

بنو قريظة ينقضون العهد:

ولا ندري على وجه التحديد متى كان نقض بني قريظة للعهد مع رسول الله ﷺ، والغالب أن ذلك كان بعد تمام الخندق، ومعرفة الأحزاب أن الخندق يحرز دور بني قريظة، ولو أحرزها ووقف حرس المسلمين دون الخندق من ناحيتهم، وهي الركن الجنوبي الشرقي من سهل المدينة، فيما بين وادي مهزور لما فكر اليهود في الانقلاب على المسلمين كانت بقية هذا الركن قد صارت لأمة المدينة بعد اجلاء بني قينقاع وبني النضير.

ويفهم من النصوص أن انقلاب بني قريظة جاء مفاجأة للمسلمين وأن رسول الله ﷺ عندما بلغه الأمر أرسل السعدين، سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير إلى بني النضير لإقناعهم بالبقاء على العهد، فأبى بنو قريظة من ذلك، وكان حيي بن أخطب رئيس بني النضير وأكبر المؤلبين على المسلمين، قد استطاع أن يقنع كعب بن أسد القرظي رئيس بني قريظة بقطع

(١) الواقدي، مغازي ٢/٤٤٣.

العهد مع المسلمين. فأما سعد بن عبادة فكان من بني بلحارث من الخزرج، وأما سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير فمن بني عبد الأشهل من الأوس، فلم يوفق هذا الوفد في إقناع كعب بن أسد القرظي بتغيير موقفه، وهذا غريب لأن ذلك الرجل كان شديد التمسك بالعقد مع المسلمين أول الأمر وكان يشعر بالرهبة والخوف من المسلمين، بعد ما رأى من استعدادهم واقبالهم على حفر الخندق والاجتهاد في الحراسة والاستعداد للحرب، فقد قال بعد أن بذل حيي ابن أخطب أقصى ما استطاع في اقناعه، وأكد له أن عشرة آلاف من قريش وكنانة «(بني أسد بن خزيمة بن مدركة) وغطفان قدموا لمهاجمة المدينة ولكن كعب بن أسد القرظي كان خائفاً، ولهذا فقد كان رده الأول عندما دعاه حيي ابن أخطب: ويحك، جئتني والله بذل الدهر وبسحاب يرعد ويبرق وليس فيه شيء، وأنا في بحر لجيّ، لا أقدر على أن أريم داري، ومالي معي والصبيان والنساء فارجع عني»ولكن يبدو أن زعماء اليهود الآخرين فيما عدا الزبير بن باطا كانوا ميالين إلى الانضمام إلى الأحزاب وفعلاً صارحوا حيياً بهذا، والغريب أن هذا الرجل بعد أن قرر نقض العهد كشف وجهه عن عداوة شديدة فدعا بالكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ بينهم فشقه حيي» وقد توقع الزبير بن باطا الشر وأنذر بهلاك اليهود ولكنه بقي مع قومه.

تلك كانت فرصة كبيرة لقريش وحلفائها لو أنها وقفت بالفعل كما تقول النصوص إلى جانب قريظة، فمن الواضح أن بني قريظة نقضوا العهد ـ وما كان رسول الله لينقضه دون داع وهو في حاجة إلى سكون اليهود ووفائهم بعهدهم.

وما كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه لينقض عهداً بينه وبين قوم ما داموا يقيمون عليه. ثم إن وجود الأحزاب حول المدينة لم يكن يؤدي إلى أي تغيير في العلاقات بين أمة المدينة ويهود بني قريظة، خاصة وأن ناحيتهم لم تكن محمية بخندق، وقد بلغ الرسول أن حييا بعد أن نقض العهد أرسل إلى قريش

يطلب إليهم أن يبعثوا بألف رجل يغيرون على المدينة، وكذلك إلى غطفان، ورسم أن تكون الغارة ليلاً، فجاء رسول الله ﷺ الخبر بذلك فعظم البلاء فكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم بن قريش الأشهلي في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة يحرسون المدينة ويظهرون التكبير ومعهم خيل المسلمين فإذا أصبحوا أمنوا، فكان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يقول: لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان. ولقد كنت أوفى على سلع فانظر على بيوت المدينة فإذا رأيتهم هادين حمدت الله عز وجل، فكان مما رد الله به قريظة عما أرادوا أن المدينة كانت تحرس.

ولكن يبدو أن حُيَيا لم يبعث إلى قريش أو إلى غطفان بشيء، وإنما هو قطع الحلف وبادى بالعداوة ليجد نفسه في أشد الخوف من المسلمين. وقد حاول رئيس من رؤسائهم وهو نَبّاش بن قيس أن ينوش أطراف المسلمين، فخرج بالليل في جماعة من قومه، فاصطدموا بقوة من قوات الحراسة تحت قيادة سلمة بن أسلم بن حُرَيش، فردهم على أعقابهم فانجحروا في حصنهم وجعل المسلمون يطوفون حول الحصن ورعب اليهود وخافوا البيات، «وهدموا قَرْني بئر لهم وهوّروها (هدموها) عليهم، فلم يقدروا أن يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفاً شديداً[1]».

الأحزاب أمام الخندق:

وضاعت على قريش هذه الفرصة كما ضاع غيرها، لأن القرشيين لم يجتمعوا مع حلفائهم ويرسموا خطة للعمل، بل إنهم لم يحسنوا توقيت قدومهم، فقد كان الوقت ربيعاً (أبريل ٦٢٧) وكانت زروع المدنيين وكلها شعير وتبن على وشك النضج، فسارعوا وحصدوها وأدخلوها مدينتهم دون خسارة، وتركوا الأرض خارج المدينة بلقعا ليس فيه غناء كبير، ثم إنهم إذا

(١) الواقدي، مغازي: ٢/٤٦٢.

جاءوا هم وحلفاؤهم عسكروا كلهم عند مدخل المدينة الشمالي الغربي من طريق التجارة، وهو المدخل التقليدي، وضربوا معسكراتهم بعضها إلى جوار بعض من الغابة إلى العقيق، معولين على أن تكون حربهم حرب غارات، وعندما وجدوا الخندق بهتوا ولم يعرفوا ماذا يصنعون، ولم يكونوا إلى ذلك الحين يعرفون كيف يرسمون خطة قتال: إنما هي المبارزات والغارات والكر والفر. ومن الواضح أن الخندق أفسد عليهم كل شيء فوقفوا بعيداً عنه يحاولون اقتحامه في محاولات فردية أو في جماعات صغيرة، وتلاشت القيادة وضاع الحزم وأصبحت الحملة الضخمة مجرد مظاهرة لا طائل وراءها، وفيما يلي نص أورده الواقدي يصور لنا حالة قريش وأحلافها أثناء هذه الحملة، وهو وصف يدل على أن القرشيين إلى ذلك الحين لم يكونوا يعرفون من شئون الحرب فوق ما يعرف غيرهم من بدو الصحراء، وتلك في الحقيقة هي صورة قريش وقوتها العسكرية، و قد كانت كافية ومعقولة لو أن قريشاً خرجت لتلقى جماعة من البدو أمثالها، كما كانت الحالة في أيام العرب السالفة، ولو لم تكن القوة التي ذهبت قريش وأحلافها للقضاء عليها قوة المدينة بعقليتها الجديدة ونظرتها الجادّة إلى الحياة وقيادتها الحكيمة السليمة وإيمانها القوي ونظامها الذي لم تعرفه الجزيرة قبلاً، لو لم يكن هذا كله لخرجت قريش وأحلافها بالنصر الذي أرادوا، وقوة قوامها ١٠٠٠٠ مقاتل منهم نيف وألف فرس ومعهم نحو الألفي بعير لم تكن بالقوة الهينة بمقاييس العصر الجاهلي ولكنها كانت أهون شيء عندما واجهت المدينة، وهذه وحدها ملاحظة تدل على أن الصراع لم يكن بين الأحزاب وخصوم لهم بل كان في حقيقته صراعاً بين عصر ولى وفات بكل نظمه وقيمه ومنابعه وعقليته وعصر جديد يختلف عنه من كل ناحية. وهذا الذي تبينه القرشيون وسيعبر عنه أبو سفيان في خطاب أخير يوجهه إلى رسول الله ﷺ قبل الإنسحاب بذيول الهزيمة، وخطاب أبي سفيان هذا ارهاص بما سيتبينه هرقل بن هرقل عندما يواجه العرب بقوات الروم التي حطم بها قوى الساسانيين مرة بعد أخرى، ولكنه وقف عاجزاً أمام المسلمين فقد انسحب هزيماً حطيماً من

الشام وهو يقول: وداعاً يا بلاد الشام، وداعاً لا لقاء بعده.

أما النص الذي أشرنا إليه فهو كما يلي نقلاً عن الواقدي وسنقسمه إلى فقرات بحسب موضوع كل فقرة منه:

١ - «قالوا: وكان القوم جميعاً وافوا الخندق من قريش وسليم وغطفان وأسد[١] عشرة آلاف، فهي عساكر ثلاثة، ويحتاج الأمر الى أبي سفيان.

٢ - فنزلت قريش برومة ووادي العقيق في أحابيشها ومن ضوى إليها من العرب.

وأقبلت غطفان في قادتها حتى نزلوا بالزغابة إلى جانب أحد[٢].

٣ - وجعلت قريش تسرّح ركابها في وادي العقيق في عِضاهِه، وليس هناك شيء للخيل إلا ما حملوه معهم من علف، وكان علفهم الذرة.

٤ - وسرّحت غطفان إبلها إلى الغابة في أثلها وطرفائها في عضاه الجُرف.

٥ - وقدموا في زمان ليس في العرض[٣] زرع، فقد حصد الناس قبل ذلك بشهر. فأدخلوا حصادهم وأتبانهم. وكانت غطفان ترسل خيلها في أثر الحصاد - وكان خيل غطفان ثلاثمائة - بالعِرض، فيمسك[٤] ذلك من خيلهم، وكادت إبلهم تهلك من الهزال. وكانت المدينة ليالي قدموا جديبة[٥]».

(١) أسقط الواقدي هنا بني مرة الذين ذكرناهم مع أنه سبق ورجح أنهم حفروا الخندق مع الأحزاب وإن كان رجال بني مرة يزعمون أن قائدهم الحارث بن عوف المري رجع بقومه ايماناً منه بأن العرب لن تغلب محمداً ﷺ على ما ذكرناه ويذكر الواقدي تأييداً لحضور بني مرة أن حسان بن ثابت هجاه بشعر ثم أضاف مزيداً حضورهم. «فكان هذا أثبت عندنا أنه شهد الخندق في قومه، ولكنه كان أمثل تقية من عيينة» (مغازي: ٢/٤٤٤).

(٢) رومة هي بئر رومة وإلى شمالها زغابة وإلى جنوبها الغابة ووادي العقيق وكل هذه مواضع شمال غربي سهل المدينة فيما يلي المدخل من الطريق التجاري إلى السهل.

(٣) الجرف هي الأرض الممتدة من مخرج سهل المدينة إلى أحد، ويلي ذلك العرض وهي المساحة المزروعة حتى قرب جبل أحد، وسطح أحد يسمى الوطاء.

(٤) أي يسد من رمق الخيل ويمسكها من الموت.

(٥) الواقدي: مغازي ٢/ ٤٤٤.

وغالب الأمر أن قريشاً وأحلافها قدروا على سنن الجاهليين في حروبهم أنها غارة يوم أو يومين على الأكثر، فلما وصلوا فوجئوا بالخندق، ووجدوا أنفسهم أمام مشكلة عسكرية لا عهد لهم بها، ولو أن قيادتهم كانت حكيمة لكانت لها من أول الأمر عيونها التي تبلغها بأحوال المدينة وما يجري فيها، وكان لديهم متسع من الوقت لذلك، فإن المسافة من مكة إلى المدينة لم تكن لتقطع في تلك الأيام - بالنسبة لجيش كبير كهذا - في أقل من عشرة أيام. فكان في إمكانهم أن يستعلموا عن أمر الخندق في أي مرحلة من مراحل الطريق. وحتى لو أنهم وصلوا ووجدوا الخندق ودرسوا الموقف، لم يكن بهم بأس بالعودة والتريث للتدبير والاحتشاد للوضع الجديد، ولكن كبرياءهم وغرورهم وجهلهم كل هذه أضلتهم، فوقفوا أمام الخندق حائرين ثم حاولوا اقتحامه فرادى مرة بعد مرة ومضت الأيام ونفدت الأقوات على غير طائل.

والمسألة لم تكن في الحقيقة مسألة الخندق، فإن عرض الخندق كان كما تقول النصوص بسطة، والبسطة طول قامة رجل، ومهما قلنا فيه فهو متران، وقد كانت فيه في أول الأمر أجزاء أقل من ذلك عرضاً، فعاد عليها المسلمون يوسعونها، وإنما المسألة هنا كانت مسألة القيادة واليقظة والبديهة وروح القتال والفداء. فبينما نظم المسلمون أنفسهم تنظيماً محكماً: فهناك قوة رئيسية عند قبة الرسول في لحف جبل سلع من شماله - وهي مركز قيادة المسلمين - يقودها رسول الله ﷺ يساعده عباد بن بشر في الغالب وسعد بن أبي وقاص أحياناً وهناك فرق يقودها رجال ذوو بسالة وصدق من أمثال محمد بن مسلمة وزيد بن ثابت وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ، وهناك فرقة انجاد سريعة دائمة مستعدة للتدخل في أي وقت وأي موضع، يقودها سلمة بن أسلم بن حريش. وهناك شباب مستعد للفداء يبعثه الرسول ﷺ في عاجل أمره، مثل خوات بن جبير الذي كلفه الرسول بأن يستطلع أمر بني قريظة ليلاً بعد أن نافقوا، فلم يكتفِ بما أمره به الرسول، بل يقتل الحارس الذي لقيه على حال من الفجاءة والغرة حتى يصبح الرجل وقد وجىء جنبه في الليل ويصيح: السبع! يحسب

أن وحشاً نهش كبده. ويظفر المشركون مرة بموضع متضايق من الخندق تطفره خيلهم ويحاولون ذلك فيرميهم أسيد بن حضير وأصحابه بالنبل والحجارة حتى يجهضوهم، ثم يستدعي الرسول سلمان الفارسي ويوسعون ذلك الموضع حتى يستوي مع بقية الخندق ولا تعود خيل المشركين تستطيع أن تطفره أي تعبره قفزاً.

وفي إحدى مناسبات المراماة يصاب سعد بن معاذ بسهم في أكحله، رماه به رام نابه من رماة قريش هو حبان بن العرقة فما يبالي سعد بن معاذ، ويمضي في القتال، وتلك هي الإصابة التي أودت بحياته بعد القضاء على بني النضير.

وتطفر خيل للمشركين فوق الخندق فلا يراع المسلمون قط؛ ويبرز علي ابن أبي طالب فيقتل عمرو بن عبد ودّ فارس قريش، ويفر الباقون فزعين حتى ليسقط نوفل بن عبدالله في الخندق فيقتله المسلمون رمياً بالحجارة. هذا وكان في العابرين فرسان مثل عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب فلا يثبتون للمسلمين ساعة حتى يولوا الأدبار غير مصدقين بالنجاة.

وهناك رواية يرويها الواقدي ويرددها كاتبه محمد بن سعد، يفهم منها أن قادة المشركين كانوا يتناوبون قتال المسلمين. كل واحد يوماً ورواية ابن سعد هنا «وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً، ويغدو خالد بن الوليد يوماً ويغدو عمرو بن العاص يوماً، ويغدو هبيرة ابن أبي وهب يوماً ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً، ويغدو ضرار بن الخطاب الفهري يوماً، فلا يزالون يجيلون خيلهم ويتفرقون مرة ويجتمعون أخرى ويناوشون أصحاب رسول الله ﷺ، ويقدمون رماتهم فيرمون». وبقية هذه الرواية عند الواقدي: «حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفاً شديداً، ويقدمون رماتهم وكان معهم رماة: حبان بن العرقة وأبو أسامة الجشمي[1]»: ولم يحدث أن أجمعوا أمرهم وهجموا هجمة واحدة فطفروا الخندق وقاتلوا المسلمين

---

(١) الواقدي، مغازي: ٢/٤٦٨.

بالسيف إلا في المرة التي ذكرناها والتي قتل فيها عمرو بن عبد ود، قتله علي بن أبي طالب. وكان عمرو فارساً لا يشق له غبار كان يستصغر علياً يطلب لقاء أبي بكر أو عمر ويسميهما شيخي قريش، وهي تسمية غريبة نسمع بها أول مرة، فيأبى عليٌّ إلا أن يلقاه ويقول له الفارس المشرك إنه يكره أن يقتله فيكون رد عليٍّ: ولكني أنا أحب أن أقتلك! ويقتله.

وفي هذه الحالات كلها ترى رسول الله ﷺ دائماً في مواجهة العدو على فرسه وعليه الدرع والمغفر آية في البسالة وثبات الجنان، فلا يجرؤ واحد من الكفار أن يصوب إليه سهماً لعظيم هيبته، ويراه أصحابه على هذه الهيبة التي تروع النفس فيزدادون استبسالاً.

ويريد رسول الله ﷺ أن يقصر فترة الحصار، فهو يرى أن قريشاً قد انخذلت وما هي بصانعة شيئاً، ولكنها تطاول تحاشياً للارتداد دون نتيجة، ولكن غطفان بدو وهم لا يكترثون للبقاء تجاه الخندق في خيامهم، فهم هكذا في بلادهم، ويعرف الرسول أن رجلاً مثل عيينة بن حصن يقاتل في سبيل المال، إذ لا إيمان عنده ولا مأرب في نفسه غير المغنم، ويريد الرسول أن يشتري راحة أصحابه بشيء من عرض الدنيا، فقد تعبوا من طول القتال والسهر والحراسة والجوع والبرد، ويذهب الواقدي إلى أن الرسول بعث من يأتيه بعيينة بن حصن، فيأتي ذلك الاعرابي المراوغ (دون أن يبلغ حلفاءه وربما كان معه الحارث بن عوف شيخ بني مرة)، فعرض عليهما ثلث ثمر المدينة على أن ينصرفوا عن الحصار تاركين قريشاً ومن معها. ولكننا عندما نمعن النظر في الخبر نستبين من سياقه أن محمداً ﷺ لم يرسل إلى هذين الاعرابيين، ولكن كانا هما اللذين سعيا إليه يعرضان عليه الإنصراف عن الحصار إذا أعطاهما الرسول ثلث تمر المدينة (لهذه السنة). والخبر كما يرويه الواقدي غير مقبول لأن عادة رسول الله ﷺ لم تجر بمساومة عدو على الإنصراف مقابل مال أو طعام، ثم إنه لم يكن ليقوم بشيء من ذلك إلا بعد مشاورة أصحابه، وخاصة الأنصار، لأنهم

أصحاب زروع المدينة ونخلها وتمرها، والذين يوردون مثل هذا الخبر يقولون في رواياتهم عن أن رسول الله ﷺ كان رئيساً مطلقاً للمدينة يتصرف في شئونها وأموالها كما يرى، وذلك غير صحيح لأنه لم يتصرف في أي أمر من أمور الجماعة إلا في حدود أنه نبيها ورسولها وهاديها، ولا يتصرف في أمر من أمورها إلا بحسب ما يرتضيه أهلها بعد مشاورة وتراض، وبقية الخبر - حتى برواية الواقدي - تؤيد ما نقول.

والذي نراه ويتفق مع سير الحوادث هو أن يكون عيينة بن حصن هو الذي سعى للقاء رسول الله ﷺ ليفوز منه بشيء بعد أن رأى أن حلفاءه من الأعراب لم يصلوا ولن يصلوا إلى شيء، وأنهم لا بد منصرفون عن قريب، وكان عيينة عمره كله بدوياً خفيفاً سريع التصرف لا يكاد يفكر إلا في مغنم مادي سريع يصل إليه، وما كان رسول الله ليستدعي هذا الرجل ويعرض عليه شيئاً خاصاً، وقد رأينا أن غطفان لم يكن لها إلى الآن دور يذكر في الحصار أو القتال وقد أدت حكمة رسول الله ﷺ وتماسك أهل المدينة إلى الكشف عن حقيقة غطفان ووزنها في مثل الصراع الدائر، ربما كانت غطفان تستطيع أن تفعل شيئاً في ظروف الصراع القبلي في شبه الجزيرة العربية، ولكن الموقف الراهن كان يتخطى كل شيء عرفته غطفان أو عيينة بن حصن والحارث بن عوف. وسنرى بعد قليل أن غطفان أقبلت ثم انصرفت وكأنها لا أقبلت ولا انصرفت.

نقول إذن - إذا كان ولا بد أن نضع هذا الخبر موضع الاعتبار - ذلك الشيخ القبلي عندما أحس أن الهجوم على المدينة لم يؤد إلى شيء، سارع إلى المدينة أملاً في أن يحصل من أهلها على شيء في مقابل انصرافه، وقد رأى رسول الله ﷺ أن يكون كلامه أمام أنصاره جميعاً وكان ذلك. ورفض أهل المدينة بلسان أسيد بن حضير وعباد بن بشر وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وعلى أيديهم لقي عيينة ما يكره وعاد أدراجه بأقل من خفي حنين، لأن حنيناً لم يجر عليه أكثر من العودة بلا جدوى أما عيينة فقد عرف قدر نفسه وعاد إلى قومه يتمطى يجر أذيال المهانة والشعور بالصغار.

وفي بقية الخبر ملاحظات ولمحات تزيدنا بصراً بما نحن بصدده من التعريف بموقف قريش من الإسلام، ووضع قريش بين الأعراب بعد خمس سنوات من صراعها مع أمة المدينة. قال الحارث بن عوف يخاطب صاحبه عيينة: «ما حضرتُ إلا كرهاً لقوم غلبوني وما مقامنا بشيء، مع أن قريشاً إن علمت بما عرضنا[1] على محمد عرفت انا قد خذلناها ولم ننصرها!» قال عيينة: «هو والله ذلك!»، وفي سياق الحديث يقول عيينة: «إنا والله ما جئنا ننصر قريشاً، ولو استنصرنا قريشاً ما نصرتنا، ولا خرجت معنا من حَرَمِها، لكن كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكر، مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة، مع أننا ننصر حلفاءنا من اليهود فهم جلبونا إلى ما ها هنا» قال الحارث: «قد والله ابت الأوس والخزرج إلا السيف. والله لتقاتِلُنَّ عن هذا السعف ما بقي منها رجل مقيم. وقد أجدب الجَنابُ وهلك الخف والكُراع»، قال عيينة: «لا شيء» فلما أتيا منزلهما جّاءتهما غطفان فقالوا: «ما وراءكم؟ قالوا: لم يتم الأمر. رأينا قوماً على بصيرة وبذل أنفسهم دون صاحبهم، وقد هلكنا وهلكت قريش، وقريش تنصرف ولا تكلم محمداً، وإنما يقع حَرُّ محمد ببني قريظة. إذا ولينا جثم عليهم فحصرهم جمعه حتى يعطوا بأيديهم، قال الحارث: بعداً وسحقاً، محمد أحب إلينا من اليهود»[2].

وهذه المقتبسات تكشف لنا عن كثير من حقائق الموقف خارج المدينة بما لا يحتاج منا إلى تعليق أو زيادة، ولا معنى هنا لأن نشير إلى الخبر الطويل الذي تورده المراجع عن نعيم بن مسعود الأشجعي وما كان له من دور قصصي في حرب الأحزاب عن المدينة، فما كانت المدينة بحاجة إلى توسط هذا الرجل، فقد كانت قريش استبانت ألا فائدة في استمرار الحصار واستقر عزمها على العودة أدراجها، وكانت غطفان قد سبقتها إلى ذلك كما رأينا.

---

(١) هذا يؤيد ما قلناه من أن عيينة هو الذي قصد رسول الله ﷺ ليعرض عليه أن ينصرف مقابل شيء من تمر المدينة.

(٢) الواقدي، مغازي: ٢/٤٧٩ - ٤٨٠.

ولكننا نخرج من الخبر بأن قريشاً وحلفاءها خسروا المعركة حتى قبل أن تهب الرياح. ولقد اشتد بهم البرد مع أن الوقت كان في شهر أبريل، ولكن ذلك كثير الحدوث في الليل، ثم هبت رياح جعلت تقتلع خيامهم وتطفىء نيرانهم حتى صعب عليهم إيقاد النيران، وتلفتت قريش ذات صباح فإذا غطفان وبنو سليم قد انصرفوا، ويبدو أن الأعراب تفاهموا على ذلك دون علم قريش وكان الرسول ﷺ قد توقع رحيل الأعراب بعد أن رفض أن يجيب عيينة ابن حصن إلى ما سأل، فأرسل رجلاً من أصحابه هو حذيفة بن اليمان ليستطلع أمرهم، وانصرف هو إلى الصلاة ودخل حذيفة معسكر الأحزاب: «وإن الريح تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قراراً ولا بناء» ثم رأى حذيفة كيف أقلعت الأعراب من السحر «ثم مضوا فلحقوا الأنفال والعسكر مع ارتفاع النهار بمَلَل، فغدوا إلى السيالة» وكانت غطفان لما ارتحلت «وقف مسعود بن رخيلة في خيل من أصحابه، ووقف الحارث بن عوف في خيل من أصحابه ووقف فرسان من بني سليم في أصحابهم، ثم تحملوا جميعاً في طريق واحدة وكرهوا أن يتفرقوا حتى أتوا على المِرَاض، ثم تفرقت كل قبيلة إلى محالها - رملل والسيالة قرب المدينة في الطريق منها إلى مكة، أما المراض فليس على الطريق وهي تقع على ستة وثلاثين ميلاً بناحية الطرف، وهي على الطريق إلى نجد -، فكأن أولئك الأعراب ساروا معاً حتى أصبحوا بمبعدة من المدينة ودخلوا في رمالهم فتفرقوا، وقد فعلوا ذلك خوفاً من قريش في الغالب، ولعلهم خافوا أن يكون بينهم وبين القرشيين مشادة وتلاح، وربما ما هو أسوأ فانصرفوا متسللين.

وعلى أثر ذلك قرر أبو سفيان الرحيل، فدعا أصحابه بالرحيل، وقال لهم إنهم لم يجدوا عوناً من قريظة، ووقع بينهم شر، «وقد لقينا من الريح ما ترون، والله ما يثبت لنا بناء ولا تطمئنُّ لنا قِدْر، فارتحلوا فإنني مرتحل» ولم يعجب ذلك عكرمة بن أبي جهل فقال له: «إنك رأس القوم وقائدهم، تقشع وتترك الناس؟ فاستحى أبو سفيان، فأناخ جمله ونزل عنه. وأخذ بزمامه وهو يقوده

وقال ارحلوا! قال: فجعل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خف العسكر، ثم قال لعمرو بن العاص: يا أبا عبدالله لا بد لي ولك أن نُقيم في جريدة من خيل بإزاء محمد وأصحابه، فإنا لا نأمن أن نُطْلَبَ حتى ينفذ العسكر فقال عمرو: أنا أقيم، وقال لخالد بن الوليد: ما ترى يا أبا سليمان، فقال: أنا أيضاً أقيم، فأقام عمرو وخالد في مائتي فارس، وسار العسكر إلا هذه الجريدة على متون الخيل»[1] وكانت غطفان وبنو سليم وبنو مرة قد رحلوا.

وقبل أن ينصرف أبو سفيان مع جماعة الفرسان التي بقيت معه لتحمي ظهور المشركين، رأى أن يكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً. وقد أورد لنا الواقدي نص الكتاب، ثم أورد بعد ذلك زيادة في كتاب أبي سفيان إلى رسول الله نسبها إلى رجل يسمى ابراهيم بن جعفر، وهذا اسندها إلى أبيه، ولسنا نجزم بصحة النصين، ولكنهما أياً كان موقعهما من الصحة يصوران حالة الحيرة والغيظ والشعور بالهزيمة الذي استولى على رئيس قريش عندما تبين أن الفرصة التي طالما عوَّل عليها قد أفلتت من بين يديه وأنه يعود إلى مكة بغير شيء. أما ما كتب به إليه رسول اللّه ﷺ فلا نرى أن يصح وهو لا يشبه ما يصدر عنه في مثل هذه الظروف، فما كان رسول الله بالذي يتشفى أو يهدد، وإنما كان رأيه في مثل هذا الظرف أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا كان هناك موضع للإشعار بالقوة فيكون النص على قوة الله سبحانه، فهو الذي يكتب لدينه ولرسوله النصر ويقضي بحوله على الأوثان.

وإليك ما كتب به أبو سفيان وأرسله مع أبي أسامة الجُشَمِي قال الواقدي: حدثنا موسى بن محمد بن ابراهيم، عن أبي وجزة، قال: لَمّا مَلَّت قريش المقام، وأجدب الجناب، وضاقوا بالخندق، وكان أبو سفيان على طمع أن يُغير على بيضة المدينة، كتب كتاباً فيه:

«باسمك اللهم.

---

(١) الواقدي، مغازي: ٢/ ٤٩٠.

فإني أحلف باللات والعُزّى، لقد سرت إليك في جمعنا وإنا لا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلك، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، وجعلت مضايق وخنادق، فليت شعري، من علمك هذا؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أُحُد تُبقر فيه النساء»[1].

وبعث بالكتاب مع أبي أسامة الجشمي.

وأما رد رسول ﷺ وهو رد نستبعد صدوره عن الرسول فهو بحسب رواية الواقدي:

«من محمد رسول اللّه إلى أبي سفيان بن حرب، أما بعد، فقديماً غرك بالله الغرور أما ما ذكرت أنك سرت إلينا في جمعكم، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمرٌ، اللّه يحول بينك وبينه ويجعل لنا العافية حتى لا تذكر اللات والعزى. وأما قولك: من علمك الذي صنعنا من الخندق، فإن اللّه تعالى ألهمني ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك، وليأتين عليك يوم تُدافعني بالراح، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهُبل، حتى أذكِّرك ذلك»[2].

ويضيف الواقدي بعد ذلك زيادة لا معنى لها منسوبة إلى من يسمى ابراهيم بن جعفر عن أبيه، وسياقها يدل على أنها إكمال لخطاب أبي سفيان إلى رسول الله ﷺ: «ولقد علمت أني لقيت أصحابك بأحياء وأنا في عير لقريش فما حَصَّ أصحابك منا شعرة ورضوا بمدافعتنا بالراح، ثم أقبلتُ في عير قريش حتى لقيت قومي، فلم تلقنا، فأوقعت بقومي ولم أشهدها من وقعة، ثم غزوتكم في عقر داركم فقتلتُ وحرقت ـ يعني غزوة السويق ـ ثم غزوتك في جمعنا يوم أحد، فكانت وقعتنا فيكم مثل وقعتكم بنا ببدر، ثم سرنا إليكم في جمعنا ومن تألب إلينا يوم الخندق فلزمتم الصياصي وخندقتم الخنادق»[3].

---

(١) الواقدي، مغازي: ٢/٤٩٢.

(٢) الواقدي، مغازي: ٢/٤٩٢ ـ ٤٩٣.

(٣) الواقدي، مغازي: ٢/٤٩٣.

وهذه الزيادة بادية الافتعال، فإن عيراً لقريش لقيت المسلمين عند موضع يسمى أحياء وعلى المشركين أبو سفيان وكان ذلك في سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ وكانت في شوال سنة ١ هـ / أبريل ٦٢٣م. وقد كانت اليد العليا فيها للمسلمين، فهي السرية التي رمى فيها سعد بن أبي وقاص بقوسه فأصاب كثيراً من أصحاب أبي سفيان، ولم يكن بين الجانبين إلا ذلك، وموضع أحياء قريب من بطن رابغ، ثم يشير أبو سفيان بعد ذلك إلى بدر ثم إلى أُحُد، وغريب منه أن يشير إلى الخندق بقوله: ثم سرنا إليكم في جمعنا ومن تألب إلينا يوم الخندق، لأن تسمية يوم الخندق لم تكن إلا بعد ذلك بزمن.

على أي حال انتهت محاولة قريش حشد أكبر قوة تستطيعها وجمع من يتيسر لها جمعه من أحلافها إلى فشل ذريع، ولم يكن سبب الفشل كما قلنا هو الخندق، فإن الخندق في ذاته لا يمنع العدو منعاً حاسماً، إنما هو كان عاملاً معطِّلاً فحسب ولقد عبرته خيل المشركين أكثر من مرة فما استطاعت أن تفعل شيئاً وردت على أعقابها بخسائر، إنما الأهم من الخندق هي تلك الروح التي كانت أمة المسلمين تقاتل بها عن نفسها ثم حكمة القيادة ويقظتها، ففي أثناء مدة الحصار ما بين عشرة أيام وعشرين ـ لم نشهد لأبي سفيان أي أثر بينما نرى رسول الله ﷺ في كل حين، فهو يقظ مبادر لا تغفل عينه لحظة، وهو لا ينام ساعة حتى ينهض ويبرز إلى الميدان وعينه على كل طرف من أطراف المدينة وخندقها، وما من مرة شد المشركون على الخندق وبدا الخطر إلا كان الرسول بنفسه مسارعاً إلى الموقف يتلافاه خيفة ولا يعود ليصيب شيئاً من الراحة إلا بعد أن يرد المهاجمين على أعقابهم. والخندق هنا ما كان إلا عقبة أفسدت خطط المشركين ولكنهم لو كانوا على عزم صادق لعبروه، ولعلهم لو عبروه لهلكوا على أيدي المسلمين في أزقة المدينة، فقد رأينا بذلهم وسرعتهم إلى القتال وبسالتهم فيه، ولقد انقلبت بنو قريظة على المسلمين وليس بينهم وبين المسلمين خندق فهم يستطيعون أن يتحركوا، حتى كان المسلمون هم الذين ساروا إليهم وأخذوهم باليد.

إنما يهمنا أمر الخندق هنا لأنه تجديد في فن القتال عند العرب تقبلته أمة المدينة من عضو من أعضائها ونفذته على أحسن ما يكون التنفيذ، وسلمان الفارسي الذي نقل هذه الفكرة إلى المسلمين أتى بها من تجارب قومه الفرس، وكانت قريش متصلة بالفرس فكيف لم تعرف الخنادق؟ لم تعرفها لأنها كانت جماعة جمد تفكيرها وتوقف عندما ابتكر لها المؤسسون الكبار الذين أقاموا صرحها وآخرهم عبد المطلب بن هاشم، وعندما أتاهم رسول الله ﷺ بالدين الجديد والفكر الجديد والعصر الجديد جمدوا مكانهم ولم يستطيعوا حراكاً ويصدق عليهم هنا قول الله سبحانه وتعالى في سورة الشعراء مصوراً جمود الجامدين والتزامهم ما وجدوا عليه آباءهم: ﴿**واتل عليهم نبأ ابراهيم، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين، قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون؟ قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون**[1]﴾.

إن القرآن الكريم يتحدث هنا عن الجمود الديني، عن وقوف الجماعة عند مستوى فكري لا تتعداه لأنها تعجز عن ذلك، وهذا هو الجمود الحضاري أو التحجر petrificotion الذي يتحدث عنه المؤرخون، وآرنولد توينبي يتحدث حيناً عن الحضارات المتحجرة petrificd civilizationes وهي غير الحضارات البائدة extinct civilizationcs لأن الحضارات البائدة لا تعود إلى الحياة أما المتحجرة فهي تعاني مما يسمى بالركود الثقافي cultural lag ، وهو جمود يصيب الجماعات لتوقف فكرها عن التطور ووقوفه عند وضع تتحجر عنده ولا تتعداه، وهذا لا يمنع أن يتفكك التحجر وتدب الحياة في الذهن المتبلد، وهو ما كان رسول اللّه ﷺ يحاوله، وقد صبر صبراً جميلاً على القرشيين حتى تمكن في النهاية من إيقاظ أذهانهم وقلوبهم من السبات الذي استراحوا إليه. وغريب في الأمر أن يكون أبو سفيان هو من أوغل رجال قومه في الوثنية الجاهلية، كان هو أول من

---

(١) الشعراء ٢٦/٦٩ - ٧٤.

تحرك ذهنه وصحا فرأى بصيصاً من النور الجديد، ولكنه لم يره بعين القلب الواعي بل بعين الذهن الصاحي. وكان أبو سفيان أذكى رجال قومه دون شك، لأنه أدرك وهو عائد يجر أذيال الخيبة من حملته الكبرى على الخندق ألا سبيل إلى التغلب على محمد وأمة الإسلام، وإن نجاة قريش من الهلاك مرهون بقدرتها على التفاهم مع أمة المدينة، وقد قلنا هنا، محمداً دون أن نشفعه بالتصلية لأننا أردنا أن نصور فكر أبي سفيان من ناحية محمد، فإن أبا سفيان استسلم في النهاية لمحمد ولكنه لم يستسلم لرسول الله حتى بعد الفتح، ومن المفكرين المسلمين من يرى أن أبا سفيان أسلم ولم يؤمن قط، وبعضهم يدفع عنه البقاء على الوثنية من جانب التقى، احتراماً لصحابته للرسول على مذهب الداعين إلى التوقف عن الحكم على الصحابة لعظم مقامهم عند الله سبحانه وتعالى، فهذا التوقف عندهم عاصمة من قاصمة وقد كتب في هذا المعنى نفر من جلة علمائنا منهم ابن حزم في رسالة التفضيل بين الصحابة وأبو بكر بن العربي في العواصم من القواصم.

لقد كتب واحد من كبار المستشرقين وهو فلهاوزن كتاباً مشهوراً عندهم عنوانه: «محمد واليهود في المدينة»، تحسر في ختامه على مصيرهم وقال: «إنهم لو وجدوا زعيماً من بينهم يقوم لهم بالدور الذي قام به أبو سفيان لقريش لنجوا من الهلاك، أي لتصالحوا مع الرسول صلوات الله عليه ودخلوا في جماعته وكتبوا لأنفسهم بذلك حياة جديدة كما فعلت قريش[1]»، فلننظر ما الذي فعله أبو سفيان للنجاة بقريش من مصير شبيه بمصير يهود المدينة.

(١) A.J. Wensinek, Mohammed en de Joden te Medina: Leiden 1928. وهو بالهولندية ولكن أجزاء كثيرة منه ترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية.

الفصل الثالث

قُرَيش
في الطّريق إلى الإسلَام

حتى مسير قريش وأحلافها إلى المدينة في ذي قعدة سنة ٥ هـ أبريل ٦٢٧ م. كان رجالها يأملون في إحراز نصر نهائي حاسم على الإسلام والمسلمين وجماعات البدو التي سارت معهم، وخاصة من غطفان وسليم بن منصور كانت تمني نفسها بفوز عظيم وغنيمة وافرة، فإن الأمل في اقتحام المدينة ونهبها وسلب خيراتها كان عظيماً، وكان كل المشتركين في هذا الهجوم يعرفون أنهم يقومون بعمل خطير يقضي على ما توهموا أنه فتنة وقلب للأوضاع، ولكنهم جميعاً كما رأينا لم يقدروا الظروف الجديدة حق قدرها، وساروا في جحفل لجب ولكن دون استعداد كامل وتقدير محكم، وهنا كانوا كما قلنا جاهليين يعيشون في عصر مضى كانت الحروب فيه ضربات يقوم بها فرسان ذوو خيلاء وكبر وغرور، وكان أقصى ما يهمهم قتل كبار الرجال لكسر الشوكة ونهب العدو وسلب سلاحه اظهاراً للقوة ثم سبي نسائه والتصرف فيهن بالتسري أو البيع، رمزاً للمهانة وثلم الشرف وفضيحة العدو حتى يشتهر الأمر في العرب ويمضي في تصويره الشعراء، حتى تكون هزيمة الخصم مادية ومعنوية.

ولكن الأسبوع الأول لمعركة الخندق دل القرشيين وحلفاءهم على أن مثل هذا النوع من الصراع انتهى عصره. وخطاب أبي سفيان الذي أتينا به دون أن نقطع بأصالة نصه ـ يفصح عن شعور الحيرة واليأس وخيبة الأمل (وجعلت مضايق وخنادق. من علمك هذا) وقد قلنا إن المسألة لم تكن مسألة خندق أو شق في الأرض حفره المسلمون، بل هي مسألة عقل جديد وفكر جديد، فإن المسلمين لو شاءوا أن يخوضوا مع المشركين معركة قتل ودماء

لخاضوها وكسبوها، ولكن المسلمين تخطوا في هذه الحرب مرحلة عصر ظواهر الكبرياء والـوحشية والجشـع والاذلال ودخلوا عصر القـوة المعنويـة والتفوق الفكري والصراع من أجل المبادىء لا من أجـل الأحساب والأعـراق، وهذا الطراز من الصراع سنراه من الآن فصاعداً: سنراه في الحديبية وفي فتح مكة وفي المحاولة الأولى لفتح الطائف. وفي الأخبار التي يقصها الـواقدي في تفـاصيل الخندق حكاية هي أشبه بالرمز على ما نقول، فقد «حمل الزبير بن العوام على نوفل ابن عبدالله بن المغيرة بالسيف حتى شقه باثنين وقطع أندوج سرجه ـ والأندوج اللِّبد الذي يكون تحت السرج ـ ويقال إلى كاهل الفرس، فقيل له: يا أبا عبـدالله ما رأينا سيفاً مثل سيفك! فيقول: والله ما هو بالسيف ولكنها الساعد»[1] وهنا أيضـاً نستـطيـع أن نقـول: والله مـا هـو بـالخنـدق ولكن بـالـروح التي وراء الخندق، وما كان الخندق إلا شقاًعرضه بسطة أي قامة رجل، ولكن هذا الشق كان يفصل عالمين، وفارقاً بين روح التشفي والانتقـام والفروسيـة الفارغة والجشع والاختلاف والفوضى وعدم الاستعداد خارج الخندق، والإيمان والوحدة والروح والعقيدة الـرفيعة والنـظام والاستعداد وروح البـذل وحكمة القيادة داخله.

ومؤرخونا القدامى ـ وما أكثر ما يفـوتهم لباب الحـوادث ـ ويتابعهم في ذلـك الكثيـرون من المحـدثـين ـ ومـا أكـثر مـا يفـوتهم إدراك صميم الهـدى المحمدي ـ يصورون نصـر الخندق وكـأنه مجرد نصر قـوة على قـوة، ويقتصر تصويرهم على صورة الرسول القائد، الـذي يروح ويغـدو ويصدر الأوامـر، ويفوتهم أن الذي كان يقود هنا، والذي انتصر هنا هو الهَدْيُ الرفيع الذي كان محمد صلوات الله عليه يسير بأمته في طريقه، وهل كان لدى الرسول سجن يعاقب فيه المخالفين؟ ولكن القرآن والهدى النبوي والمثال المحمدي، أيقظت في الناس ضميراً هو أقوى من أي سلطان، وانظر إلى حديث أبي لبابة بن عبد المنذر

---

(١) الواقدي، مغازي ٢/٤٧٢.

في خبر بني قريظة تخرج منه بجانب كبير من المعاني التي نشير إليها في سياقنا هذا.

والخبر بتمامه يعطينا مثالاً من طريقة محمد ﷺ في تربية أمته: فنرى في الجزء الأول منه كيف أنه لم يكن يجبر أحداً من أصحابه على شيء، مادام الصحابي يتصرف في حدود حقه، حتى لو رفض لرسول اللّه طلباً، وفي الجزء الثاني من الخبر نرى نفس الصحابي عندما أحس أنه وقع في خطأ في حق الرسول والجماعة بادر بعقاب نفسه بنفسه، بل إنه عندما نزلت آية قرآنية تبشر الصحابي بعفو الله من العقاب الذي فرضه على نفسه، أبى أبو لبابة إلا أن يكون رسول الله ﷺ هو الذي يفك وثاقه استبلاغاً منه في إظهار الندم لما بدر منه وإليك نص الخبر بتمامه كما يرويه الواقدي، ومساق الخبر عنده أوفى منه عند غيره.

«حدثني مَعْمَر بن راشد، عن الزهري، عن ابن المسيب قال: كان أول شيء عتب فيه رسول الله ﷺ على أبي لبابة بن عبد المنذر أنه خاصم يتيماً له في عذق. فقضى رسول الله ﷺ بالعذق لأبي لبابة، فصيّح اليتيم واشتكى إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي لبابة: هب لي العذق يا أبا لبابة ـ لكي يرده رسول الله ﷺ إلى اليتيم ـ فأبى أبو لبابة أن يهبه لرسول الله ﷺ فقال: يا أبا لبابة، أعطه اليتيم ولك مثله في الجنة، فأبى أبو لبابة أن يعطيه.

قال الزهري: فحدثني رجل من الأنصار قال: لما أبى أن يعطيه قال ابن الدحداحة ـ وهو رجل من الأنصار: أرأيت يا رسول الله أن ابتعتَ هذا العَذْق فأعطيته هذا اليتيم، ألِيَ مثله في الجنة؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. فانطلق ابن الدحداحة حتى لَقِيَ أبا لبابة فقال: أبتاع منك عَذْقَك بحديقتي، وكانت له حديقة نخل، قال أبو لبابة: نعم، فابتاع ابن الدحداحة العذق بحديقة من نخل، فأعطاه اليتيم، فلم يلبث ابن الدحداحة أن جاء كفار قريش إلى أحد، فخرج ابن الدحداحة، فقُتل شهيداً، فقال رسول الله ﷺ، رُب عَذْقٍ مذلَّلٍ

لابن الدحداحة في الجنة»[1].

فهذا رجل يحكم له الرسول بشيء يجد أن لـه فيه حقـاً، ثم يرق رسـول الله لليتيم صاحب العذق عنـدما بكى لفقـدان ما كـان يظن أن لـه فيه حقـاً، فيطلب الرسول إلى أبي لبابة أن يهب له العذق، فيرفض أبـو لبابـة فلا يغضب الرسول، فيعود ويسأل أبا لبابة أن يتنازل عن العذق ويكون لـه مثله في الجنة، فيرفض، ويدعو الرسول حتى يتقدم ابن الدحداحـة فيستبدل العـذق بحديقـة له، يأخذها أبو لبابة بعد أن يرد العذق على اليتيم.

وعندما حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة وكان أبو لبابة حليفاً لهم، وتبين لليهود أنهم لن يستطيعوا الثبات، يطلبون إلى رسول الله أن يكون أبو لبابـة هو رسـول التفاوض بينهم وبـين المسلمـين، ويـذهـب أبـو لبـابـة فينصـح اليهـود بـالإستسلام لـرسول الله، ويشـير بيـده إشـارة معنـاهـا أنهم إذا لم يستسلمـوا فسيكون القتل مصيرهم، ولم يكن الرسـول قد قـال له من ذلـك شيئاً ولا هـو عوّل عليه، إنما هو سيحكم فيه سعد بن معاذ وسعد يقضي بما يرى إذا ارتضـاه اليهـود، ثم أحس أبو لبـابة أنـه بفعله هذا قـد خان الـرسول ونسب إليـه ما لم يكن، وتخطى حدود مهمته، وأدركه الندم وسالت دموعه، وأسرع إلى المسجد من طـريق لا يراه فيـه أحد، فـربط نفسه إلى اسـطوانـة فيه عـرفت فيـها بعـد باسطوانة التوبة وبلغ ذلك الـرسول ﷺ فقـال: «دعوه حتى يحـدث الله فيه مـا يشاء، لو كان جاءني استغفرت له، فـأما إذ لم يأتني وذهب فدعوه! قال أبـو لبابة: فكنت في أمر عظيم خمس عشرة ليلة »[2] وكان ربطه نفسه في وقت حر شديد وانقطع خلال خمس عشرة ليلة عن الطعـام، ويقال وعن الشـراب أيضاً ولكن هذا متعذر، فلا يصبر الإنسان على العطش هذه المدة، وقال للناس: «لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله علي. فلم يزل كذلك حتى ما يسمـع الصوت من الجهد، ورسول اللّه ﷺ ينظر إليه بكرة وعشية، ثم تاب اللّه عليه،

---

(١) الواقدي، مغازي: ٢/٥٠٥.

(٢) الواقدي، مغازي: ٢/٥٠٧.

فنودي: إن اللّه قد تاب عليك! وأرسل النبي ﷺ ليطلق عن رباطه، فأبى أن يطلقه عنه أحد غير رسول اللّه ﷺ، فجاء رسول اللّه ﷺ بنفسه فأطلقه»[1].

فهذا المثل يريك قوة الضمير الـذي أيقظه الإسـلام في المسلمين، وهـذا الضمـير هو الـذي بث في المسلمين القـوة والنظام والـطاعـة والاقدام وروح التضحية والتماسـك فأصبحـوا قوة لا قبـل لقريش أو لغيـرها بهـا. فكأن قـوة الإسلام كلها انبثت في قلب كل مسلم على حدة، فأين تـطيق قريش أو غيـرها الثبات لهذه القوة؟

وليست لـدينا أخبـار عما فعلت قـريش حتى نصل إلى حـديث الحديبيـة ولكن الأخبار عن المسلمين كثيرة، ومن هذه الأخبـار نتبين أن قـريشاً قبعت في دارها بعد فشل محاولة الخندق مستكينـة لا يدري رؤسـاؤها مـاذا يفعلون. لقد انتقلت القيادة والمبادرة منها إلى أمة المدينة، وفي العادة عندما تحس جماعـة أثناء صـراع أنها فقدت الأمـل في النصر، فإنها تقبـع في دارها وتتحصن في عقـرهـا وتقصر عن الأفعـال وتكتفي بردود الأفعـال، وتحملهـا الأحـداث معهـا كـأنها سفينة تحطمت أشرعتها وتكسرت مجاديفها وكلت قواها وتركت نفسها للتيار.

وفي نفس الوقت نجد المدينة وقد تحولت إلى مركز نشـاط واسع المـدى. فقد أحست بقوتها وأدرك أهلها أن ما وعدهم بـه الله ورسولـه كان حقـاً. وأن الله سبحانه منَّ عليهم فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين.

فـلا يكاد المشـركون ينصـرفون حتى يسـير الرسـول ﷺ إلى بني قـريـظة ليحاسبهم على ما كان منهم من خيـانة المسلمـين ونقض الحلف والإنضمام إلى الاعـداء في وقت الشـدة، ولم يكن هنـاك مفـر من ذلـك وينـتهـي الأمـر بـاستسـلامهم، ويقبلون أن يحكم فيهم حليفهم القـديم سعـد بن معـاذ بن النعمان نقيب بني عبد الأشهل وسيد الأوس جميعاً،وطالما اعتزت اليهود بالأوس

(١) الواقدي، مغازي: ٢/٥٠٧ ـ ٥٠٨.

قبل الإسلام، ويقضي سعد بن معاذ فيهم بقتل الرجال وسبي النساء والذرية واقتسام الأموال بحسب ما يرى رسول الله ﷺ، وبذلك تكون أمة الإسلام قد خلصت من جماعات اليهود الخطرة الثلاث الكبرى المعاندة الحاقدة المتخونة (ذو القعدة - ذو الحجة ٥ هـ/ مايو ٦٢٧ م)، وقد كسبت أمة الإسلام من ذلك إلى جانب الأمن مالا استخدمه الرسول في شراء خيل وسلاح للمسلمين[١] حتى يتلافى ناحية النقص في القوة العسكرية للمسلمين، وتنتهي بذلك الميزة التي ظلت قريش تعتز بها على المسلمين حتى الخندق. أما بعد الخندق فستكون خيل المسلمين أقوى خيل في شبه الجزيرة.

ولم يكن تصرف رسول الله ﷺ في هذا الباب نابعاً من اعتبارات عسكرية، بل كان صادراً عن تفكير نبي مرسل وشاهد ومبشر ونذير وداع إلى الله باذنه وسراج منير. فهذه القوة العسكرية لن تستعمل في الغزو أو العقاب أو مد السلطان أو الغارة والسلب وفرض الطاعة أو الاتاوات، بل ستستخدم للإنذار والتحذير وسيكون تصرف النبي بقوة جماعته العسكرية تصرف الشاهد، والشاهد هنا هو النموذج والمثال والقدوة، وانظر إلى هذا المعنى القرآني في قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً[٢]﴾ و﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً [٣]﴾ و(هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس[٤]﴾ ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم﴾[٥] و﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾[٦].

والسرايا والغزوات بعد الخندق تنطق بذلك، فعندما سمع رسول الله

---

(١) الواقدي، مغازي: ٢/٥٢٣

(٢) النساء ٤/٤١.

(٣) البقرة ٢/١٤٣ والمراد لتكونوا نماذج ومثلاً للناس وليكون الرسول نموذجاً ومثلاً لكم.

(٤) الحج ٢٢ /٧٨.

(٥) آل عمران ٣/١٤٠.

(٦) المائدة: ٥/٨.

ﷺ أن أعرابياً جلفاً يسمى خالد بن نبيج من هذيل ثم من لحيان، تحدثه نفسه بالعدوان على المدينة وإثارة الشغب في المنطقة الواقعة بينها وبين مكة، عرف أنه أمام بدوي جاهلي إذا هو ترك وشأنه لتأتى منه أذى كبير، خاصة وهو يقيم في نواحي عُرَنَة جنوبي عَسْفان قريباً من أبواب مكة، ولا يستبعد أن يستثير قريشاً، ويدفعها إلى مغامرة حمقاء، وكان رسول الله قادراً على أن يبعث نحوه سرية ضخمة تنزل ببني لحيان ضربة قاصمة خاصة وأن لحيان كان لها عدوان سابق على المسلمين، ولكن لحيان وغيرها من قبائل الأعراب كانت قد غفلت وأدركت أنها لا تستطيع ممارسة أعمال الأعراب مع أمة المدينة، فيجيء هذا الجاهل الذي كان يقول: «لم يلق محمد أحداً يشبهني» فيكون علاج مثل هذا الرجل أن يقضي عليه وحده، فيرسل رسول الله إليه سرية من رجل واحد هو عبدالله بن أنيس، يخرج بسيفه ليس معه شيء غيره، فيذهب الرجل فيقضي على هذا المشاغب ويعود (ذو الحجة ٥/ مايو ٦٢٥ م).

ويبلغ الرسول شيء مثل ذلك عن بني بكر بن كلاب وبني محارب وموطنهم بالربذة، أنهم يمارسون أعمال البدو في منطقة داخلة في نطاق أم المدينة، فيندب بعثاً صغيراً من نحو ثلاثين رجلاً، فيه رجال صناديد منهم عباد ابن بشر وسلمة بن سلامة بن وقش والحارث بن خزمة وعليهم محمد بن مسلمة وكلهم من فرسان المدينة الذين تربوا على يد محمد ﷺ، أخذوا عنه دروس النظام والطاعة والدقة في التنفيذ والحزم، وهم يخرجون هذه المرة فوارس، فيضربون ضربة موجعة سريعة هي في ذاتها نذير، ويعودون بخمسين ومائة بعير وثلاثة آلاف شاة. ولم تكن المدينة بحاجة إلى ذلك المغنم اليسير، ولكن فقدانه موجع لهؤلاء الأعراب وكاف لردهم إلى السكون والتعقل (المحرم ٦ هـ/ يونيو ٦٢٧ م).

وفي غزوة بني لحيان (ربيع الأول ٦ هـ/ يوليو ٦٢٧ م) نحس إحساساً عميقاً بحيوية المدينة وقدرتها على القيام بما تريد دون أن تحسب لقريش أي

حساب. فقد كان رسول الله ﷺ قد وجد وجداً شديداً على عاصم بن ثابت وأصحابه، وهم الذين استشهد معظمهم وأسر بعضهم في سرية الرجيع (صفر سنة ٤ هـ/ يوليو ٦٢٥) وهم جماعة مرثد بن أبي مرثد الغنوي، فخرج في مائتي رجل من أصحابه معهم عشرون فرساً ـ وخرج بهم حتى وصل إلى بطن غران حيث كانت مصارع أصحابه فترحم عليهم، وكان خبيب بن عدي وزيد بن الدَّثنَّة من جماعة بعث الرجيع أسيرين في مكة لأن اللحيانيين الذين غدروا بالبعث باعوهما من أهل مكة فابتاع خبيباً حجي بن إهاب بثمانين مثقالاً وأما زيد بن الدثنة فقد اشتراه صفوَان بن خلف من قتلى بدر. فأما خبيب بن عدي فقد حُبس في بيت امرأة يقال لها ماوية مولاة لبني عبد مناف، وأما زيد بن الدثنة فقد حبس عند ناس من جمح وتلك ظاهرة جديدة علينا من ظواهر تنظيم مكة، فها هم المكيون يشترون اثنين من أعدائهم ليقتلوهما ببعض من قتل منهم في بدر، وقد اشتروهما من بدو بني لحيان الذين غدروهم، وكان أولئك الأعراب قد دبروا خداع رسول اللّه ﷺ، فبعثوا إليه من يعلن حاجتهم إلى من يعلمهم الدين، وكان غرضهم الحقيقي أن يأسروا من يستطيعون أسره من صحابة رسول اللّه ﷺ فيصيبوا بهم ثمناً. وهذا هو الذي حدث: غرر المسلمون وقتل عامتهم إلا خبيب ابن عدي وزيد بن الدثنة فاشترتها قريش، وكان الذي تولى ذلك صفوان بن أمية.

وهذا الخبر نخرج به بحقيقتين تتعلقان بأحوال قريش في الفترة بعد أحد، فهي تشعر أنها لم تصل إلى ما تريد من الانتقام من المسلمين، وبدلاً من أن تواجه المسلمين في معركة صريحة، تتواطأ مع الأعراب لتنال بالغدر ما لم تنل بالقتال لأنها كانت تشعر أنها أضعف من المسلمين ولا تثبت لهم في لقاء.

والحقيقة الثانية هي احتجاز الأسرى عند قوم من المجاهيل حتى يحين موعد قتلهم، فلماذا لم يحتجز صفوان خبيباً في داره مقيداً بالأغلال ولماذا يدعه في بيت ماوية التي ذكرناها؟ ومن الممكن تفسير حجز عبدالله بن الدثنة عند ناس من جمح بأن جمحاً قوم صفوان وهو كان إذ ذاك رئيسهم.

وقد تجمعت قريش لشهود قتل خبيب، والمشهد نفسه ينم عن نفسية قريش إذ ذاك، قال الواقدي: «فأخرجوه (خبيب بن عدي) بالحديد حتى انتهوا به إلى التنعيم، وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة، فلم يتخلف أحد: إما موتور فهو يريد أن يتشافى بالنظر من وتره، وإما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله. فلما انتهوا به إلى التنعيم، ومعه زيد بن الدثنة، فأمروا بخشبة طويلة، فحفر لها، فلما انتهوا بخبيب إلى خشبته قال: هل أنتم تاركي فأصلي ركعتين؟ قالوا نعم، فركع ركعتين أتمهما من غير أن يُطوِّل فيهما[1]». . وهذا المشهد في ذاته ينطق بتهافت همم القرشيين، فكل الذي استطاعوه هو أن يشتروا من الأعراب اثنين من المسلمين ويقتلوهما على هذه الصورة الأليمة. وموقف خبيب بن عدي يوم استشهاده كان رمزاً على القوة المعنوية الرفيعة التي كان عليها المسلمون إذ ذاك، فقد استقبل الموت مستبشراً حتى إنه لم يطل صلاته خشية أن تظن قريش أنه جزع من الموت، وقد أرادت قريش أن تفتنه عن دينه فأبى في عزة وإيمان. والحوار بين القرشيين وبينه يتجلى لنا حروفاً من نور ينبىء عن روعة الاسلام.

قال الواقدى: «قالوا (يريد رواته): «فلما صلى الركعتين حملوه إلى الخشبة، ثم وجهوه إلى المدينة وأوثقوه رباطاً ثم قالوا: ارجع عن الإسلام نُخَلِّ سبيلك.

قال: لا والله وما أحب أني رجعت عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعاً!

قالوا: افتحب أن يكون محمد في مكانك وأنت جالس في بيتك؟

قال: والله ما أحب أن يُشاك محمد بشوكة وأنا جالس في بيتي.

فجعلوا يقولون: ارجع يا خبيب!

قال: لا أرجع أبداً!

قالوا: أما واللات والعزى، لئن لم تفعل لنقتلنك!

(١) الواقدى، مغازى: ١/٣٥٨

فقال: إن قتلي في الله لقليل »[1].

وقد أعطى القرشيون غلماناً من أبناء من قتل ببدر حراباً وأمروهم أن يطعنوا خبيباً ففعلوا. ولم يقتلوه بطعناتهم وإنما زادوا ألمه، وقد حكى واحد من الغلمان وهو عقبة بن الحارث بن عامر، وكان من أولئك الغلمان، فقال فيما بعد: «والله ما أنا قتلت خبيباً. إن كنت يومئذ لغلاماً صغيراً، ولكن رجلاً من بني عبد الدار، يقال له أبو ميسرة عوف بن السباق أخذ بيدي فوضعها على الحربة، ثم أمسك بيدي، ثم جعل يطعن بيده حتى قتله»[2].

والمشهد نفسه يدل على تردي قريش ونسيانها تقاليدها القديمة، فهذه ليست قريش العزيزة التي عرفناها قبل الإسلام. ولكن الحقد وعمى البصيرة والشعور بالضعف هبط بالقرشيين إلى ذلك المستوى. ويتأكد لنا هذا المعنى إذا قرأنا الواقدي: وكان الذين أجلبوا على قتل خبيب، عكرمة بن أبي جهل وسعيد بن عبدالله بن قيس والأخنس بن شريق.

وأما زيد بن الدثنة فقد جعل صفوان بن أمية غلامه نسطاس يقتله، وكان قد ثبت ثبات صاحبه وأذهل القرشيين بثباته وإخلاصه لدينه وحبه لنبيه، وفي ذلك يقول الأخنس بن شريق: «ما رأينا والدا قط يجد بولده ما يجد أصحاب محمد بمحمد ﷺ».

ورغم الشرك والحقد فقد تأثر الكثيرون من القرشيين بمشهد استشهاد خبيب وابن الدثنة، ويرد الكثيرون منهم ذلك إلى خوفهم من دعوة خبيب بن عدي، لأن خبيباً قبل أن يموت دعا على قريش فقال اللهم احصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً.! فدعوتهم فيما زعموا تلك الدعوة، ولكننا نقول إنها رهبة هذا المشهد. ويهمنا هنا أن نذكر ما قاله معاوية بن أبي

(١) الواقدي، مغازي: ١/ ٣٦٠.
(٢) الواقدي: مغازي ١/ ٣٦١.

سفيان، وكان قد حضر المشهد وهو صبي، قال: لقد حضرت دعوته (دعوة خبيب) ولقد جبذني يومئذ أبو سفيان جبذة، فسقطت على عجب ذنبي (آخر عموده الفقري) فلم أزل أشتكي السقطة زماناً فكأن أبا سفيان روعه المشهد فلم يحب أن يشهده ابنه فجبذه وألقاه على الأرض. وكان أبو سفيان لا يشارك قريشاً في تلك العداوة العمياء.

وستسترد قريش شعور الإنسانية بعد أن تسلم، فعكرمة بن أبي جهل مثلاً، الذي كان من أكبر الداعين إلى هذه البشاعة، سيحارب في سبيل الإسلام في بسالة وطلباً للشهادة حتى ينالها، وصفوان بن أمية أسلم وهاجر إلى المدينة وحسن إسلامه.

ونعود إلى غزوة بني لحيان التي استطردنا عنها، فنقول إن تفاصيلها تدل على ضعف لقريش بالغ، وعجز منها عن مواجهة الإسلام بَيِّن. وهذه الغزاة كان قد دفع إليها وجد رسول الله ﷺ لما أصاب أصحاب الرجيع وخاصة من أسر منهم في مكة، فأراد ـ وخبيب وزيد بن الدثنة لا زالا في الأسر ـ أن يعاقب أعراب لحيان الذين فعلوا بأصحابه ذلك، فخرج في مائتين من أصحابه فيهم عشرون فارساً، وأغذ السير حتى بلغ إلى بطن غران حيث استشهد أصحاب بئر معونة، ثم مضى حتى بلغ عسفان على أبواب مكة ليرى القرشيون أنهم وبلدهم في متناول يده، وكان ذلك في الشهر الحرام ولم يكن رسول الله ليفتح مكة على أهلها فيه، ولكنه وقف عند عسفان، ثم نادى أبا بكر فارسله في جماعة حتى أتى كراع الغميم فلم يجد من قريش حركة، وقد أمسكهم الخوف من الخروج إليه، وقال رسول الله ﷺ: إن ذلك يبلغ قريشاً فيذعرهم ويخافون أن نكون نريدهم، وما كان الرسول ليتجاوز هذا في الشهر الحرام، ولو أراد أن يرهب قريشاً حتى تفرج عن صاحبيه لفعل، ولكنه ﷺ كان يرى أن وقت مكة لم يحن بعد، وأنه لو تهددهم فربما وقعت حرب ومات فيها كثيرون ونال مكة ضرر بالغ، وما كان يريد ذلك، ثم أنه ﷺ كان لا يفعل شيئاً إلا وفق خطة مرسومة، فاكتفى بذلك وعاد، وإن كان القرشيون قد خافوا فعلاً، ولكنهم سكتوا حتى انصرف عنهم إلى المدينة،

وهنا تحركوا وقتلوا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة.

وقد حدثت بعد ذلك غزوة الغابة (ربيع ثانٍ سنة ٦/ اغسطس ٦٢٧ م). وكان الدافع إليها أن عيينة بن حصن وقد رأى أنه اشترك في الخندق وعاد بصفقة الخاسر ـ يستطيع أن يمارس مع المدينة غارات البدو، فأغار على سرح المدينة من ناحية الشمال وسرق هو وأربعون من أصحابه عدداً من لقاح رسول الله ﷺ، بلغ عشرين لقحة، واللقحة الناقة الحامل ذات اللبن، وكان ذلك يوم ثلاثاء وفي يوم الأربعاء التالي كان الرسول ﷺ على صهوة جواده في إثر الغزاة، وكان أبو ذر الغفاري وابنه ينامان مع ابل الحمى وحذره الرسول من ذلك، فلما كانت غارة عيينة قتل ابن أبي ذر. ويستوقف نظرنا هنا حسن استعداد المدينة لمثل هذه الطارئة ومبادرتها لادراك السراق. وكان عيينة ينوي أن ينهب إبلاً لعبد الرحمن بن عوف فأخطأ وأغار على لقاح الرسول في الليل، فما كاد يفوز بمغنمه حتى وجد رجال المدينة في أعقابه، وقد عقد الرسول لواء للمقداد بن عمرو وأمره بطلب الغزاة حتى يلحق به في أصحابه، وفي تفاصيل هذه الغارة من نجدة المسلمين واستبلاغهم في الجهد ما يدعو إلى العجب. فهذا المقداد بن عمرو يعدو حتى يدرك مؤخرة اللصوص ويقتل منهم رجلاً يسمى مسعدة، ولا يريد أن يشغل نفسه فيغطيه ببرده ليعرف أن سلبه له ثم يواصل الطرد، ويلحق به أبو قتادة ثم سلمة بن الأكوع هذا العداء الرامي الذي يسبق الخيل ويرمي فلا يخطيء، ثم يلحق بهم الرسول ﷺ في الناس، ويحسُّ عيينة بن حصن أنه تعرض لما لا يستطيعه فيجد في الهرب وهو يرجو أن ينجو من أيدي المسلمين، ويقتل ابنه في الطرد، ويرى من نجدة المسلمين ما لا يجعله يفكر في أن يفعل مثل هذه الفعلة أبداً، فهذا المقداد بن عمرو وذاك محرز ابن نضلة وثالث هو عكاشة بن محصن ومن الأنصار سعد بن زيد وهو أميرهم في هذه الغزاة، وينجو عيينة بجلده ولكنه يفقد ولده ويقتل ثلاثة من رجاله ويستعيد المسلمون من اللقاح عشرة، وهذا أمر لم تكن الأعراب تعرفه: أن

يلحقهم من يغيرون عليه ويطردهم هذا الطرد ويستعيد منهم نصف المسروق ويلجئهم إلى الإسراع إلى عقر منازلهم. وكان هذا آخر ما حاوله ذلك الإعرابي الجلف عيينة قبل خيبر، بل إن هذا الدرس الذي تلقاه في غزوة الغابة هو الذي أوقفه وشل حركته في خيبر، فلم يجرؤ على انجاد أحلافه من يهود خيبر، وسقطت خيبر وهو ينظر، وعندما سقطت انتهت في نفس الوقت قوة غطفان وكسرت شوكتها، فإن خيبر كانت مركزها العمراني، وبدون مركز عمراني لا تعمر جماعة بدوية طويلاً، وهذا هو الذي جعل عيينة بعد خيبر يتجه إلى المدينة طائعاً صاغراً هذه المرة لأن رسول الله عرف كيف يذعره ثم يقص جناحيه، وسيسلم هذا الرجل إسلاماً سطحياً ولكن الرسول يقبله، لأنه لم يكن ينظر إلى عيينة بذاته بل إلى غطفان وهي قبيل من العرب عظيم. فإذا كان عيينة قد أسلم على حرف، فإن معظم غطفان أسلموا عن قلب، وهذا هو لباب الأمر، وإن الإنسان لا يملك وهو يتأمل تصرف الرسول ﷺ إلا أن يقضي عجباً من رجاحة عقله وحسن تقديره العجيب، فإنه يرسل عيينة هذا مع قومه من غطفان لادخال أعراب تميم في الإسلام، والاعرابي لا يفله إلا اعرابي مثله، وعلى يد عيينة وغطفان كان دخول تميم وغطاريف تميم الإسلام، وكانوا يحسبون أن ربك لم يخلق في أرضه أعز منهم ولا أبلغ خطاباً ولا أحسن شعراً فانقادوا للإسلام وطاعوا وقد بهرتهم المعجزة من كل جانب! وسبحان من اصطفى محمداً لأعظم رسالاته فنهض بها نهوضاً يفوق المأمول في أنظارنا، ولكن الله سبحانه وتعالى أعرف حيث يضع رسالاته، تعالى جده وجل جلاله ولا معبود سواه.

فتح خيبر :

تعتبر الفترة القصيرة الممتدة من غزوة الخندق أو الأحزاب (ذو القعدة سنة ٥ هـ/ أبريل ٦٢٧ م) وفتح خيبر (سنة ٧ هـ/ يونيو ٦٢٨ م) من

أحفل فترات السيرة بالتوفيقات للإسلام وأهله والتغيرات الحاسمة في الحجاز ونجد وشمال شبه الجزيرة كله. فإن رسول الله ﷺ رأى أن انكسار الأحزاب وانصرافهم عن مكة نهاية القوة الفعلية لقريش، وأن خير ما يفعله معها هو أن يدعها وشأنها دون أن يزيد في التضييق عليها حتى تلقى بيدها طائعة، فقد توقفت تجارتها أو كادت، وتوقفت كذلك ركبان الحجيج إلى الكعبة وتعطلت الأسواق فلم يعد يرتاد عكاظ وذا المجاز ومجنة إلا جماعات قلائل من أعراب الحيرة يمتازون فيها بما يتيسر لهم، وتوقفت النجدية وركدت رياح مراكز كانت عامرة بالحركة والنشاط مثل قرن منازل وغمر ذي كندة وذات عرق وغيرها مما كان من قبل عامراً بالحركة، ويتوقف نشاط الطريق النجدية بعد توقف الجادة، وهي طريق التجارة الرئيسية من اليمن إلى مكة إلى الحيرة، وأحست قبائل شمال الحجاز ووسط شبه الجزيرة بأنها تختنق، فهذه الطرق كانت الشرايين التي تصلها بالدنيا خارج منازلها وكانت كذلك مصدر السلاح والماعون لها، فبدأ ينتابها ذلك القلق الذي ينتاب جماعات البشر عندما تستشعر خطراً على المصير. . وكانت أكثر القبائل قلقاً هي قبائل أعراب أطراف نجد من أمثال سليم ومحارب ولحيان وعضل والقارة، وكلها من أصاغر قبائل مضر ابن قيس عيلان، وأما كبار قبائل الأعراب من مثل غطفان وهوازن فقد زاد اضطرابها وقلقها، لأن إحساسها بالخطر كان أكبر، وغطفان بالذات أحست أنها ضربت ضربة أليمة بانهزام الأحزاب، وقد كانت هي منها، ولكنها تصرفت أثناءها تصرفاً ضعيفاً بدائياً مخادعاً، وظنت أنها تكسب بأساليب الأعاريب ولكنها عندما عادت إلى منازلها أحست بأن خسارتها أفدح من خسارة قريش، وهذا في الغالب هو الذي دفع بعيينة بن حصن إلى اقتراف حماقة الإغارة على سرح المدينة وسرقة عشرين لقحة من لقاح حمى رسول الله ﷺ، فعرف الرسول كيف يعاقبه على تلك الجناية التي اقترفها في أرض الإسلام، وذلك في غزوة الغابة وقد ذكرناها، وقد رأى عيينة أثناءها من عزم المدينة ومبادرتها وأحكام قيادتها، وإخلاص رجالها ما أفزعه ففرَّ من منازل قبيلته

محتمياً بتأييد خيبر وأهلها لا يكاد يريم من فرط الفزع .

ورأى الرسول أن يمهد أمر نواحي الشمال والشمال الشرقي ويزيل العقبات والأعداء من هناك، وأحسب أن أمر خيبر تقرر في خطة الرسول صلوات الله عليه ووضعها في حيث تكون من توقيت التنفيذ .

وبدأ الرسول فأرسل عكاشة بن محصن في سرية الغمر أو غمر ذي كندة، وكانت من منازل الطريق النجدية الكبرى وحولها أعاريب شتى من محارب ولحيان فأزعجتهم الغارة عن منازلهم وأزاحتهم عن الطريق (ربيع الأول سنة ٦ هـ/أغسطس سبتمبر ٦٢٧م .)، ثم أرسل محمد بن مسلمة في عشرة أنفار إلى بني ثعلبة وبني عوال عند ذي القصة على شاطىء البحر فتجمع عليهم الأعراب وقتلوا منهم ثلاثة، وكادوا يقتلون محمد بن مسلمة (ربيع الآخر سنة ٦هـ/ أغسطس ـ سبتمبر ٦٢٧م .) وبادر الرسول في نفس الشهر فأرسل أبا عبيدة عامر ابن الجراح ليؤدب بني ثعلبة وأخلافهم من أغار، ففروا أمامه واستاق المسلمون فاظفروا به من نعمهم . وفي الشهر التالي، (جمادى الأول سنة ٦هـ/ سبتمبر ٦٢٧م .) حاولت قريش أن تسير عيرا لها إلى الشام عن طريق النجدية فبادر الرسول ﷺ وبعث زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب لانتظارها عند العيص في طريق العودة . وتلك أول مرة نسمع فيها أن القوة العسكرية للمدينة ضمَّت هذا العدد الكبير من الفرسان، فأخذ المسلمون العير بما فيها «وأخذوا يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية، وأسروا ناساً ممن كان في العير معهم، منهم أبو العاصي بن الربيع[1]» وتلك هي المناسبة التي أعلن فيها أبو العاصي بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ إسلامه في خبر معروف، فقد ذهب إلى مكة فأدى ما عليه من الحقوق وأعلن إسلامه، ثم لحق بالمدينة حيث رده رسول الله على زوجه .

والذي يهمنا هنا هي يقظة الرسول ﷺ وحرصه على أن يضيق الحصار

---

(١) الواقدي، مغازي : ٢/٥٥٣ .

على قريش تعجيلاً لانضمامها للإسلام. وجدير بالملاحظة أن الواقدي يقول: «ويقال إن هذه العير أخذت طريق العراق ودليلها فرات بن حيان العجلي»(١) وهو الخبير بطريق العراق وهو كان الذي قاد سرية ذي قرد التي أقفلت طريق العراق دون المكيين على ما ذكرناه. . ثم أن قريشاً تلقت هذه الضربة ولم تتحرك مما يدل على بالغ ضعفها وعجزها أمام المدينة.

وعقب ذلك أرسل الرسول زيداً بن حارثة في بعثة إلى الطرف وهو ماء على نحو ٣٦ ميلاً (حوالي ٦٥ ك. م.) شمالي المدينة، ليزيد في أدب بني ثعلبة ولا تحدد المراجع من بنو ثعلبة المرادون هنا، والغالب أن المراد بنو ثعلبة بن دودان بن أسد، وهم أبناء عمومة بني الهون بن خزيمة وهم القارة وبني أسد بن خزيمة، وكانوا جميعاً من أعراب أطراف نجد وكان معظمهم يدخلون ضمن أحابيش قريش وكان الرسول ﷺ حريصاً على أن يردهم إلى النظام والسكون بين الحين والحين، فهؤلاء هم أعاريب مضر الذين كانوا يعيشون على النهب والغارة، وكان لا بد من إدخالهم في العصر الجديد ونظامه، وبنو ثعلبة هؤلاء هم أصحاب الثعلبية، وهي واحة صغيرة على الطريق بين مكة والكوفة في مداخل نجد.

ثم تكون سرية زيد بن حارثة إلى حِسْمَى في جمادى الآخرة سنة ٦ هـ/ اكتوبر - نوفمبر ٦٢٧ م. وهي سرية حافلة بالأحداث والمعاني، وقد أشبعنا الكلام فيها في سيرة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه. والذي يهمنا منها هنا أن أهل هذا الإقليم حِسْمَى، ويقع شرقي خليج العقبة، دخلوا الإسلام وطاع كل من فيه للمدينة بعد ضربة موجعة قام بها زيد بن حارثة، وعندما أعلن القوم إسلامهم واختبرهم زيد بن حارثة بقراءة أم الكتاب، أمر الرسول بأن يرد عليهم ما أخذ من سبيهم عدا القتلى الذين تنازلت القبائل الضاربة هناك عن حقها في دياتهم، وفيها من غطفان وبني عذرة ووائل وسلامان وبهراء. وكان الذي أعلن هذا التنازل أبو زيد رفاعة بن زيد الذي أخذ كتاب أمان من

(٢) الواقدي، مغازي: ٢/٤٥٤.

رسول الله ﷺ، وقد كانت الغنيمة وافرة في هذه السرية: ألف بعير وخمسمائة شاة، ولم تكن المدينة بحاجة إلى ذلك، ولكن الأعراب لا يرجعون إلى رشدهم إلا بمثل هذه الضربات.

وفي سياق هذه البعوث التي كان الرسول يبعث بها إلى الشمال، نجد رسول الله يبعث عبد الرحمن بن عوف في بعث عدته ٧٠٠ رجل إلى دومة الجندل (شعبان سنة ٦ هـ/ ديسمبر ٦٢٧ - يناير ٦٢٨ م.) وهذا جيش كبير، وقد سبقته سرية مماثلة إلى وادي القرى مكنت للمسلمين من ذلك الموقع الرئيسي على الطريق إلى الشمال.

فأما سرية عبد الرحمن بن عوف هذه إلى دومة الجندل فتدلنا على بعد نظر الرسول ﷺ وترابط خطواته ومراحل أعماله، فهو إلى الآن لم يستول على خيبر، أم مراكز شمال وسط الجزيرة، ولكنه يريد أن تكون دومة الجندل في يده حتى إذا اتجه إلى خيبر كان واثقاً من أن أحداً لن يعينها أو يعين أهلها. ولا ننسى كذلك أن مكة كانت على خريطة أعمال الرسول، ولكنه الآن يستوثق من الأقاصي لتتيسر الأداني، كانت دومة كأنها إمارة، وكان في أهلها نصارى كثيرون ممن يدخلون فيمن يعرفون في نصوصنا بعرب الضاحية، والمراد ضاحية قضاعة وهم عرب الأطراف، وهم غير عرب الروم من أمثال غسان وأهل البلقاء.

والطريقة التي أرسل بها الرسول صلوات الله عليه هذه السرية تستوقف النظر، فهو يستدعي عبد الرحمن بن عوف ويقول له: وتجهز فإنني باعثك في سرية من يومك هذا أو من غد إن شاء الله، ويصدع عبد الرحمن بالأمر، ولكنه يجب قبل أن يخرج أن يصلي مع الرسول في المسجد، وكان أصحابه قد سبقوه إلى الخروج وانتظروه عند الجرف من شمالي المدينة. ويقول له الرسول: ما خلفك عن أصحابك؟ قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السحر فهم معسكرون بالجرف، وكانوا سبعمائة نفر فقال: «أحببت يا رسول الله أن يكون

آخر عهدي بك وعليّ ثياب سفري» وتسأل الآن: من الذي أمر أولئك الرجال وهم سبعمائة بالخروج من السحر، مع أن الرسول لم يأمر عبد الرحمن بن عوف إلا الأمس؟ لا بد أنه كان هناك تنظيم وينفذ أوامر الرسول، فهؤلاء الرجال لا بد أن يكونوا قد خرجوا على أمر، ولا بد أن الرسول قبل أن يختار الأمر أمر من رآه من أصحابه ليعد - أو ليعدوا - الناس، وهذه نواح من التنظيم النبوي تغيب عن أنظار الكثيرين، فهم يرون كل شيء يسير بنظام ودقة وحسن استعداد فيأخذون ذلك على أنه يتم من تلقاء نفسه دون أن يكون وراءه إعداد وتنظيم. وهل يخرج جيش كهذا إلا على استعداد وتعبئة؟ وهل يترك واحد منهم بيته وأهله إلا إذا كان وراءه من قادة الأمة من يرعاهم أثناء غيابه.

ثم انظر إلى رسول الله ﷺ يعمم بيده عبد الرحمن بن عوف قبل خروجه: «وعلى عبد الرحمن بن عوف عمامة قد لفها على رأسه. قال ابن عمر: فدعاه النبي ﷺ فأقعده بين يديه، فنقض عمامته بيده، ثم عممه بعمامة سوداء، فأرخى بين كتفيه منها، ثم قال: هكذا فاعتم يا ابن عوف[1]».

ثم تأمل التوجيه الرفيع الذي يكشف عن لباب دعوة الإسلام، فإن رسول الله ﷺ يقول لعبد الرحمن بن عوف: أغز باسم الله، وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله، لا تغُلَّ ولا تغدر ولا تقتل وليداً[2] فالرسول هنا يعد قادته شكلاً وموضوعاً، لباساً وروحاً، وحتى لو قلنا إن حكاية العمامة السوداء إضافة عباسية أتت فيما بعد فيبقى هذا الأسلوب الرفيع في إعداد الرسول لأمته وقادتها.

وقد تركنا وراءنا قريشاً في مكة محصورة مضيقاً عليها مأخوذة عليها الطريق كأن زمانها ولى وفات، ولكننا ننسى في هذا السياق أن الرسول ﷺ من قريش، وعبد الرحمن بن عوف من قريش وكذلك أبو بكر وعمر وبقية معظم

---

(١) الواقدي، مغازي: ٢/: ٥٦٠ - ٥٦١.

(٢) الواقدي، مغازي ٢/٥٦١.

قادة أمة الإسلام، فهذه إذن قريش الجديدة تولد في ظل الإسلام بينما قريش الكافرة تموت في شعاب مكة، وهذا أروع شيء في تاريخ قريش: لقد ماتت وولدت في آن معاً، وسبحان ربك بارىء الكون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي.

إن قريشاً الإبنة التي ولدت في نور الإسلام ونمت في دفئه تتخطى أمها طولاً وعرضاً، وتحنو عليها وتأسى لحالها، ورسول الله ﷺ يرعى قريشاً الوليدة بهذه الروح الرفيعة وينظر إلى الغد، يوم تفتح البنت العفية ذراعيها لتتلقى في ذراعيها الأم المريضة المتعبة التي أعياها الخوف وشلل الذهن وتوقف الفكر ووقر السمع وعمى البصر، وتهدهدها في رفق وتسجيها وتفتح ذراعيها المنضامتين المتخشبتين على صدرها، لينطلق أبناؤها الصغار الذين كادت تقتلهم في حضنها، لينطلقوا ويقفوا إلى جوار إخوانهم الذين سبقوهم وتبوأوا الدار والإيمان، ترى هل يكون هذا معنى جديد نستنبطه من قول الرسول صلوات الله عليه يوم فتح مكة: اذهبوا فأنتم الطلقاء؟

ولكننا لا نريد أن ننقل من الآن إلى تتبع تاريخ قريش الوليدة، قريش الإسلام مخافة أن تأخذنا السيرة النبوية بفتنتها فننسى قريشاً الأم قريشاً الوثنية، فلنعد إليها ولنمض معها حتى تلتقي القريشان عند فتح مكة.

ونستكمل خبر سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل لنتابع شهود التحول العام في جزيرة العرب أثناء صراع القرشيين، فنجد ابن عوف يصل إلى دومة الجندل وعلى رأسها رجل يسمى أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانياً، وقد فكر أول الأمر أن يقاوم المسلمين بالسيف ثم عاد إلى رشده فدخل الإسلام وطاع لأمته وكتب عبد الرحمن إلى رسول الله ﷺ بذلك. وقال إنه يرغب في الزواج منهم، فكتب رسول الله إليه: إذا استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم أو سيدهم، ففعل وتزوج تماضر بنت الأصبغ بن عمرو ملكهم، وواضح أن رسول الله أراد بذلك أن يرتبط رئيس دومة الجندل بواحد من كبار

المسلمين برابطة العهد، فيكون ذلك مؤيداً لإسلامه وإسلام قومه. وقد أنجب عبد الرحمن من تماضر ابنه أبا سلمة، وأصبح هذا الموقع المتطرف إلى الشمال من شبه الجزيرة من دار الإسلام، وانقطع أمل قريش في أن يكون لها فيه حلف أو قوة أو عون.

ويبدو أن أوان دخول خيبر في دار الإسلام كان قد اقترب في تقدير رسول الله ﷺ. وقد سبق أن أشرنا إلى أن خطواته كلها كانت مقدرة بحساب على أساس خطة عامة تؤدي إلى دخول شبه الجزيرة كله في الإسلام، لتكون بعد ذلك قاعدة لنشر الإسلام في الخافقين، ويبدو أن بعض زعماء العرب شعروا بذلك فقد كان أولئك الزعماء نتيجة لحياة التحدي الدائم الذي كانت قبائلهم تعيشه في شبه الجزيرة، كان عندهم حس مرهف برياح الأحداث المقبلة قبل أن تعصف، ويتجلى لنا ذلك في حديث السرية التي بعثها رسول الله ﷺ يقودها علي بن أبي طالب إلى بني سعد بفدك في شعبان سنة ٦ هـ/ ديسمبر ٦٢٧ - يناير ٦٢٨ م.) والأغلب أن بني سعد المقصودين هنا هم بنو سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن كنانة فهؤلاء أبناء عمومة بني ثعلبة بن دودان ابن أسد أصحاب الثعلبية الواقعة إلى جنوب فدك في الطريق من مكة إلى الكوفة، وتلك هي الجهة التي توجه إليها علي في هذه السرية بأمر الرسول ﷺ، وهم كذلك أبناء عمومة الهون بن خزيمة بن كنانة وهم القارة من كبار أعاريب نجد الذين تكلفت أمة الإسلام جهداً شاقاً في ترويضهم وإدخالهم الإسلام، وكان على رأس بني سعد هؤلاء رجل يسمى وبر بن عليم.

وكان الرسول يتوقع أن يقوم بنو سعد بإمداد يهود خيبر فتعجل بإرسال عليّ إليهم، وقد صدق تقدير الرسول لأن سرية علي - وعدتها مائة رجل - صادفت عند موضع يسمى الهَمَج (ماء بين خيبر وفدك) عيناً ليهود خيبر كانوا قد أرسلوه إلى بني سعد فأرسل بنو سعد «يعرضون عليهم نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويقدمون عليهم»، وغيرهم المقصودون هنا

هم غطفان، وعندما ضغط المسلمون على هذا الجاسوس أو الرسول أقر بحقيقة مهمته، فأمنه المسلمون على أن يدلهم على منازل بني سعد ففعل، ونذر بنو سعد بالمسلمين ففروا على وجوههم تاركين نعمهم فأصاب منها المسلمون خمسمائة بعير وألف شاة.

وها هنا حكاية صغيرة تدل على ما بلغ إليه أمر أمة المدينة من القوة والهيبة في شبه الجزيرة قبيل الحديبية وفتح خيبر. قال الواقدي في المغازي: «حدثني أُبير بن العلاء، عن عيسى بن عُلَيْلة عن أبيه عن جده قال: إني لبوادي الهمج إلى بديع[1] ما شعرت إلا ببني سعد يحملون الظعن وهم هاربون، فقلت: ما دهاهم اليوم؟ فدنوت إليهم، فلقيت رأسهم وبر بن عُليم، فقلت: ما هذا المسير؟ قال: الشر. سارت إلينا جموع محمد وما لا طاقة لنا به قبل أن نأخذ للحرب أهبتها، وقد أخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خيبر، فأخبرهم خبرنا، وهو صنع بنا ما صنع! قلت: ومن هو؟ قال: ابن أخي، وما كنا نعد في العرب فتى واحداً أجمعَ قلباً منه فقلت: إني أرى أمر محمد أمراً قد أمن وغلظ: أوقع بقريش فصنع بهم ما صنع، ثم أوقع بأهل الحصون بيثرب[2]، قينقاع وبني النضير وقريظة، وهو سائر إلى هؤلاء بخيبر، فقال لي وبر: لا تخش ذلك. إن بها (بخيبر) رجالاً وحصوناً منيعة وماء واتِنا (دائماً) لا دنا منهم محمد أبداً، وما أحراهم أن يغزوه في عقر داره! فقلت وترى ذلك؟ قال: هو الرأي لهم فمكث علي عليه السلام ثلاثاً، ثم قسم الغنائم، وعزل الخمس وصَفَّى النبي ﷺ لقوحاً تدعى الحِفِدَة قدم بها»[3].

وفي حديث سرية أم قرفة التي كانت في رمضان سنة ٦ هـ / يناير - فبراير ٦٢٨ م. نرى شيئاً جديداً وهو أن المدينة الآن هي التي تتولى أمر تجارة نفسها

(١) بديع: أرض من فدك.
(٢) أهل الحصون بيثرب هم يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة كما يتضح من النص. وقد ذكر السمهودي في وفاء الوفاء ٣٠ أطماً للأوس والخزرج و ٥٩ أطماً لهؤلاء اليهود.
(٣) المغازي: ٢/٥٦٣.

دون أن تلقي بـالاً إلى مكة، ولم يكن ذلـك بالأمـر اليسير، لأن القبـائـل عـلى الطريق وخاصـة غطفـان وبطونها تعـودت أن تتولى مكـة هذه التجـارة، وتمنح القبائل إتاوات وخفارات. أما المدينة فلا تعـطي شيئاً، إنمـا هي تريـد أن تسير تجـارتها آمنـة بين القبـائل بـالهيبة والحق، لأن أداء الإتـاوات للبدو الكفـار غير جائز، ولو كانـوا مسلمين فـربما لم يكن في ذلـك بأس، ففيـه معايش لأعـراب فقراء في حاجة إلى المعونة، أما أن يظلوا كفاراً وحلفاء كفار فلاسبيل إلى أن ينالوا شيئاً. وما دامت المدينة لا تؤدي شيئاً فلا بد من الغارة على متاجرها وتجارها، وقد سبق أن اعتدى نفر من جذام ضاربون بناحية حِسْمَى على دحية الكلبي صاحب رسول اللّه ﷺ، وهو عائد من بلاد الروم في شعبان سنة ٦ هـ. وخلصه منهم نفر من بني الضبَيب كانوا أحلافاً للمدينة. وقد خاف الجذاميون من مَغَبَّة ذلك فوفد منهم على رسول الله ﷺ وفد على رأسه رفاعة بن زيد الجذامي فأسلموا وكتب لهم النبي كتاباً أورد لنا الواقدي نصه وهوَ: «بسم الله الرحمن الرحيم. لرفاعة بن زيد إلى قومه عامة وَمَنْ دخل معهم يدعوهم إلى الله ورسوله، فمن أقبل منهم فهو من حزب الله وحزب رسوله، ومن ارتد فله أمان شهـرين» ثم يستطرد الـواقدي فيقول: «فلما قدم رفاعة عـلى قومـه بكتاب النبي ﷺ قـرأه عليهم، فأجـابوه وأسرعوا. ونفذوا إلى مصاب دحية الكلبي، فوجدوا أصحابه قد تفرقوا[1]».

وما دام الإسلام قـد كسب ركيزة في حسمى فقـد بادر الـرسول ﷺ إلى إتمام العمل بتأديب من اعتدوا على المسلمين ـ متمثلين في شخص دحيـة ـ وهم قوم من جذام ومن انضم إليهم من فـزارة وبطون أخـرى من غطفـان، كان لا يرضيهم أن تمر تجـارة المسلمين ورجـالهم دون إتاوة يؤدونها لهم غـير عالمـين أن نـظاماً جـديداً قـد قام، وأن عهـد الإتاوات قـد انتهى وحل محله عهـد سـلام الإسلام pox islamica وعماده الدخول في الإسلام، ومن لم يدخل فيه فأمامه

---

(١) الواقدي. مغازي ٢/٥٥٧ والمراد بمصاب دحية المكان الذي أصيب فيه.

شهران مهلة ليروي الأمر كما جاء في كتاب رسول الله ﷺ لرفاعة بن زيد الجذامي.

وكان رسول الله قد أراد أن يكمل العمل بالسيطرة على بقية الأعراب الذين ينزلون في أطراف نجد على الطريق إلى العراق، فأرسل زيد بن حارثة في خمسمائة رجل قبل ذلك في جمادى الآخرة سنة ٦، لكي ينظروا في أمر غطفان ووائل ومن جاورهم من سلامان[١] وبهراء بن عمرو بن الحافي بن قضاعة، فاستعان زيد بدليل من بني عذرة أخرجه على منازل القوم من خلف، فأغار زيد وأصحابه عليهم وقتلوا نفراً من بني سعد هُذيم وقتلوا الهنيد وابنه اللذين قادا العدوان على المسلمين وأغاروا على نِعَمهم وغنموا ألف بعير وخمسة آلاف شاة ومن النساء مائة من النساء والصبيان، فرجع بقية القوم ممن كانوا دخلوا في الإسلام مع رفاعة بن زيد الجذامي يقودهم حيان بن ملة، فقالوا لزيد إنهم أسلموا، فامتحن زيد رئيسهم حيان بقراءة أم الكتاب فلما قرأها صدق زيد إسلامه، ثم أسرع نفر آخر من زعمائهم فيهم أبو زيد بن عمرو وأبو أسماء ابن عمرو وسويد بن زيد وأخوه وبرذع بن زيد إلى رفاعة بن زيد يستغيثون به، لأنه هو الذي أخذ أمان رسول الله ودخل هو وقومه في الإسلام، فسار معهم رفاعة حتى دخلوا المدينة، ولقوا النبي ﷺ وقالوا إنهم أسلموا وطاعوا، فقال رسول الله ﷺ فما أصنع بالقتلى؟ فطلب رفاعة أن يطلق لهم الرسول الأحياء ويتنازلون عن ديات القتلى، ويرد عليهم ما غنم زيد بن حارثة منهم، فقبل الرسول ونادى عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه لكي يبعثه إلى زيد بن حارثة، وها هنا ملاحظة فإن علياً قال لرسول الله: «يا رسول الله لا يطيعن زيد» وتلك عبارة تدل على أن زيداً لم يكن على وئام مع علي، وسنرى قرب وفاة الرسول ﷺ أن بقية كبار القرشيين من أصحاب رسول الله، كانوا غير راضين عن زيد ابن حارثة لا يعجبهم أن يقود السرايا من دونهم. وكان الرسول كما سنرى يعلم

(١) الغالب أن المراد هنا سلامان بن سعد هذيم من بني أسلم بن الحافي بن قضاعة.

ذلك بدليل أنه لم ينكر ما قال علي، بل أعطاه سيفه علامة. فلما وصل علي إلى زيد وأبلغه رسالة رسول الله قال زيد: علامة من رسول الله؟ قال عليّ هذا سيف رسول الله فعرفه زيد وأمر بإطلاق أسرى القوم وسبيهم. فرد المسلمون من المغنم ما لم يكونوا قد تصرفوا فيه.

التمهيد للحديبية:

من الواضح أن رسول الله ﷺ كان يمهد لخطوة حاسمة مع قريش بمكة، وكان يرى أن يمهد لذلك بأن يدخل كل شمال شبه الجزيرة في أمان الإسلام، فمن دخل فيه راضياً فقد كرمه الله، ومن أصر على الخلاف فلا بد من فتح بصيرته أو تنحيته عن طريق الإسلام أو أخذه بالعنف إن كان من أهل العنف والعدوان، وكل السرايا والغزوات السابقة على عمرة الحديبية، لم تخرج غاياتها عن هذه. وكان من البيِّن أن الأعراب لن يكفوا عن الغدر والعدوان إلا إذا أخذوا بعنف، والأمر معهم لم يكن تأديباً أو انتقاماً أو عقاباً، بل كان نقلة اجتماعية حضارية من البداوة والفوضى والعدوان على المسافرين أو القوافل واهتبال غرة الحضر وحواشيهم، مما كان أسلوب حياة وعرفاً جارياً عند الأعراب يقدمون عليه دون تفكير في عقاب أو خوف من مغبة قصاص، فعلى ذلك جبلوا وبه عاشوا، وقبلهم الناس على هذا الوضع فصانعوهم بالأحلاف والإتاوات والخفارات والضربات العنيفة ما تيسر. ولم تكن شريعة الإسلام أو اخلاقياته تسمح بالمصانعة على الباطل أو تشجيع أهل الغارة بالخوف منهم ومصانعتهم، إنما هو تخييرهم بين الإسلام أو الكف عن العدوان، فإذا لم يسلكوا هذا المسلك أو ذاك، فهناك الضربات الموجعات التي ترد الجاهل إلى رشاده، ويستمر الأمر على ذلك حتى يكون فتح مكة وتنزل سورة براءة، ولا يقبل من الكفار بعد ذلك إلا الإسلام ويُعطي المعارضين مهلة أربعة أشهر في شبه الجزيرة فإما دخلوا في الإسلام أو يأذنوا بحرب من الله ورسوله.

وكانت خيبر تعتبر عقبة كبيرة في هذا السبيل، ولم يكن هناك أمل في أن

يدخل يهودها في الإسلام أو يكفوا عن الأذى، فلم يبق إلا أن يقضي على مقاومتها وعنادها وتدخل في أمان أمة الإسلام، وكان ذلك واضحاً لأهل المدينة وللاعراب من أحلاف خيبر ومصانعيها ولأهل خيبر أنفسهم، وكان هؤلاء يجدون في أنفسهم قوة تستعصي على الإسلام وأهله، ولم يزل ذلك دأبهم حتى لقوا أهل المدينة في القتال، فَفُلَّتْ مقاومتهم وخارت قواهم وألقوا بيد وهم صاغرون كما فعل بنو قريظة من قبل. وبسقوط خيبر ينكسر ظهر جماعة البدو الكبرى وهي غطفان ومن انضوى إليها. وتأمن المدينة من ناحية الشمال كله وتستطيع توجيه قواها كلها نحو مكة، وهذا هو ملخص التطور السياسي والعسكري والاجتماعي والديني في شمال شبه الجزيرة من نهاية معركة الخندق أو الأحزاب في ذي القعدة سنة ٥ هـ/أبريل ٦٢٧ م حتى فتح مكة في رمضان سنة ٨ هـ/ يناير ٦٣٠ م.

وقد أتينا بأمثلة تؤيد ذلك كله فيما روينا من أخبار الغزوات والسرايا إلى الأعراب في نجد وشمال شبه الجزيرة والحجاز، وليس هنا موضع إحصاء هذه الغزوات والسرايا واحدة واحدة، فهذا موضعه السيرة النبوية الشريفة، وإنما أشرنا إلى ما أهمنا منها. ورأينا كيف توالت السرايا والغزوات: بعد بني قريظة ذهبت سرية محمد بن مسلمة إلى القُرَطَاء وهم بطن من بني بكر بن كلاب من هوازن، وكانوا ينزلون البكرات في نواحي ضربة على بعد سبع ليال (= حوالي ٢١٠ كيلومترات) من المدينة وعادت بغنيمة وافرة من الأبل والشياه، ثم كانت سرية عبدالله بن عتيك بن قيس للقضاء على عدو لدود للإسلام والمسلمين من يهود بني النضير الذين لجأوا إلى خيبر، وهو أبو رافع سلام بن أبي الحقيق. وقد أتت فكرة القضاء عليه من ناحية الخزرج، فقد رأوا أن إخوانهم الأوس قد أزالوا من الطريق كعب بن الأشرف وكان عدواً للإسلام يهودياً، فأرادوا أن يضاهوا إخوانهم في خدمة الإسلام وأمته بالقضاء على أبي رافع سلام، وكان معتصماً في خيبر وكان واسع النشاط في إيذاء الإسلام وأمته، مجتهداً في التحريض عليها، فاستأذن نفر من الخزرج على رأسهم عبدالله بن عتيك بن قيس، النبي

ﷺ في القضاء على أبي رافع في عقر بيته، وكانوا خمسة نفر: أربعة من الخزرج وواحداً من موالي الخزرج وهو خزاعي بن أسود وهو من بني أسلم الخزاعيين: والخزاعيون أبناء عمومة الأوس والخزرج، وإن كان ابن حزم ونَفر آخر من النسابة قد جهدوا في ربط خزاعة إلى شجرة عدنان عن طريق علك بن عدنان. وفي أيام الرسول ﷺ كانت خزاعة كلها إلى جانب الأوس والخزرج، وقد دخلت خزاعة في الإسلام وأوعبت، وكان لذلك فيما بعد أثر بعيد في سير الحوادث في تاريخ المسلمين. وقد استطاع أولئك النفر القليلون من الخزرج أن يقتحموا على أبي الحقيق داره داخل خيبر ويقضوا عليه في بيته وبين أهله، وكان الذي تولى قتله عبدالله بن أنيس رغم أنه كان ضعيف البصر جداً لا يكاد يرى في الليل، وقد قتله ليلاً وقد كسرت ساقه وهو ينزل السلم بعد أن قام بعمله، وكان السلم عجلة أي جذع منقور على هيئة درجات السلم.

ثم تلا ذلك غزوة بني لحيان، وهم من الأعراب من مضر نجد، وقد نذروا بمسير الرسول إليهم فتفرقوا في الجبال. وفي هذه الغزاة نقرأ أن رسول الله ﷺ عندما أخطأه من غِرَّتِهم ـ بني لحيان ـ ما أراد قال: لو أننا هبطنا عُسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة فخرج في مائتي راكب من أصحابه حتى نزل عسفان، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم ثم كرا، وراح رسول الله ﷺ قافلاً، فكان جابر بن عبد الله يقول: «سمعت رسول الله ﷺ يقول حين وجه أهل هذه السرية يدعو قائلاً آيبون تائبون إن شاء الله، لربنا حامدون. أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال[1]». والحديث عن غزوة بني لحيان عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبدالله ابن أبي بكر بن مالك. وقال ابن سعد: «فبعث أبا بكر في عشرة فوارس لتسمع به قريش، فيذعرونهم، فأتوا الغميم ثم رجعوا ولم يلقوا أحداً»[2].

وقد روى الواقدي الخبر ببعض خلاف، فقال إن سبب خروج رسول

---

(١) هذه السرية لم تؤرخ وقد أسقطها بعض أصحاب المغازي.
(٢) رواه عن ابن سعد ابن سيد الناس في عيون الأثر ٢/٨٣.

الله لغزو بني لحيان أنه وجد وجداً شديداً على عاصم بن ثابت وأصحابه، وكانوا لا يزالون أسرى بيد القرشيين، وكان الشهر شهر محرم، فكانوا ينتظرون انسلاخ الشهر ليقتلوهم »ورواية الخبر على هذه الصورة لا تصح، لأن رسول الله لو كان خرج ليستنقذ عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي لفعل، أما أن يجد وجداً شديداً عليهما ثم يكتفي بالوقوف عند عسفان وإرسال بعث صغير إلى كرام الغمام لمجرد ارهاب أهل مكة فتصرف لا يشبه تصرف رسول الله ﷺ، وإنما الأصح ما يقوله ابن سعد وهو أن الغارة كانت وجهتها بني لحيان، فلما هربوا أراد رسول الله أن يختبر قوة قريش على رد الفعل لأنه كان يقدر أنه خارج للعمرة عن قريب.

ويستوقف نظرنا هنا أن قريشاً لم تتحرك. قعد بها الخوف عن التحرك، ولا تحرك أحد من أحلافها، وهذا يفسر لنا كل تصرف الرسول ﷺ في غزوة الحديبية. فقد خرج رسول الله وهو يعرف يقيناً أنه يذهب إلى بلد لا حول له ولا طول. بلد فقد قوته ووقف عاجزاً لا يملك إلا بقية من عزة النفس، ولهذا فقد خرج الرسول معتمراً بلا سلاح، وحتى لو أنه أراد دخول مكة بالقوة في هذه الحالة لدخل، بل دهش بعض أصحابه لعدم دخوله ومنهم عمر بن الخطاب، فلج في الكلام والاحتجاج حتى كاد يقع في الخطأ، والرسول صلوات الله عليه يصبر على ما يقول ولا يزيد على أن يقول: «إني رسول الله والله لن يضيعني». وعندما أخذ الرسول بيعة الرضوان أخذها عندما سمع أن عثمان قد قتل، ولو قتل عثمان لكانت الحرب، ولكن عثمان لم يقتل، فانقضى التفكير في الحرب، ثم كانت المفاوضات، وكان رسول الله فيها كريماً الكرم كله، حليماً الحلم كله، وكان أحرص على الحفاظ على كرامة قريش وماء وجهها من زعمائها، فسلم لهم بكل ما رأوا أنه يحفظ لهم احترامهم وسط الناس، واتفق معهم على أن يعود للعمرة من قابل.

وإذن فقد كان لا بد من هذا الاقتراب من مكة في المحرم سنة ٦ هـ/

يونيو ٦٢٧ م. لكي تتم غزوة الحديبية كما تمت في ذي القعدة من نفس العام/ مارس ٦٢٨ م. وإن القارىء للسيرة النبوية ليقرأ أن رسول الله قال بعد أن هرب بنو لحيان: لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة «وكان قد اقترب منها في مائتين فحسب من أصحابه ومن عسفان يبعث فارسين أو أبا بكر في عشرة من أصحابه إلى كراع الغميم فلا يلقوا كيداً، فيأمر بالعودة إلى المدينة وهو يقول: آئبون تائبون. . . الخ» إن من يقرأ هذه الأخبار دون بصر بالسيرة في جملتها ودون فهم للشخصية المحمدية لن يرى في مثل هذا الخبر شيئاً، وهو كما رأينا تصرف من الرسول محسوب مقصود، إذ ما كان محمد ﷺ ليتحرك حركة مثل هذه دون حساب وتقدير، وما كان ليقول شيئاً إلا وله معنى في الصميم، وهنا فقط نفهم نحن على ضوء التاريخ لماذا دعا محمد في هذه المناسبة بالذات دعاءه المشهور آئبون تائبون عابدون، لربنا حامدون، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال، اللهم بلغنا بلاغاً صالحاً يبلغ إلى خير، مغفرة منك ورضوانا «هذا الدعاء الذي لم يعرف الواقدي وأصحابه كلهم عنه إلا أن محمداً قاله هنا أول مرة، إنما قاله محمد ﷺ وبصيرته ترى ماذا يحدث في عمرة القضية وهي الخروج إلى الحديبية واداء العمرة، والأهل والمال هنا هم أهل محمد من قريش ومالهم في مكة. وكان محمد حريصاً على سلامتهم لأنه يدخرهم للإسلام بعد فتح مكة. فتصور والله نفاذ البصيرة وبعد مطارح التفكير والتدبير!.

ونعود إلى حديث المواجهة بين القرشيين لنقول إن تلك الأمثلة الثلاثة التي ضربناها، تبين لنا الاتجاهات الثلاثة التي سار فيها نشاط المدينة قبل الحديبية وهي:

١ - التمهيد للقضاء على مهد العداوة اليهودي الباقي في خيبر.

٢ - كسر شوكة قبائل الأعراب في وسط الجزيرة العربية وشمالها، حتى إذا

توجه نحو مكة فعل ذلك دون أن يشغله عن ذلك شاغل أو يهدد المدينة شيء.

٣ ـ ادخال قبائل الطرق التجارية في أمة المدينة: إسلاماً أو حلفاً أو موادعة حتى تنفتح طرق المدينة كلها إلى الشمال والشمال الشرقي.

وسنرى مصاديق أخرى على ذلك عند كلامنا على مواجهة القرشيين الحاسمة في الحديبية.

ونقف هنا لحظة عند سريتي عبدالله بن رواحة للقضاء على أسير بن زارم في خيبر في رمضان سنة ٦/ يناير ـ فبراير ٦٢٨ م والثانية في الشهر التالي وهو شوال. الأولى كانت لاستطلاع أحوال خيبر ودرس أحوال أسير بن زارم فيها، وأسير كان خليفة أبي رافع بن أبي الحقيق في زعامة خيبر، وكان رجلاً شجاعاً جريئاً، وكان يتحدث في أن يخرج إلى غطفان فيجمعها ويسير بها لغزو المدينة، فيصل الخبر إلى رسول الله ﷺ بواسطة خارجة بن حسيل الأشجعي، وأشجع كانت من صغار قبائل الحجاز التي انضوت تحت ذراع المدينة دون مشقة، مثلها في ذلك مثل غفار ومزينة، أما خزاعة فلها شأن آخر نتحدث عنه إن شاء الله في الفقرة التالية، فيندب الرسول عبدالله بن رواحة في نفر قليل مستطلعاً، ثم يرده مرة أخرى في ثلاثين رجلاً فيقضون عليه.

وأُسَيرُ يُكتَب في بعض نصوصنا (اليُسَيْر) وإذن فهو اليعازر وهو اسم يهودي يتردد في العهد القديم وحوليات اليهود ولا زال مستعملاً إلى اليوم.

والآن ننتقل إلى الحديبية أو عمرة القضية أي عمرة الاتفاق أو المعاهدة كما نقول بلغة اليوم.

غـزوة الحديبية

بنو عامر بن لؤي يتولون قيادة مكة :

خرج رسول الله ﷺ للعمرة في ذي القعدة سنة ٦ هـ/ مارس ٦٢٨ م. بناء على تقدير سابق دقيق، وقد رأينا كيف مهد رسول الله لذلك أثناء غزوته لبني لحيان، فاختبر قوة رد فعل قريش، إذا هي علمت أن المسلمين وصلوا بخيلهم إلى كراع الغميم على أميال شمال مكة، فلم ير أن قريشاً تحركت أو صدر عنها أي رد فعل فأيقن بضعفها وعجزها عن المقاومة، ومن ثم فقد آن أوان أداء العمرة تمهيداً للحج. وسنرى فيما بعد حديثاً لرسول الله ﷺ يؤيد هذا المعنى.

والذي يستوقف نظرنا، ونحن ندرس قريشاً أن هذه القبيلة التي كانت تقف على رأس قبائل شبه الجزيرة وترتبط مع معظمها بأحلاف واتفاقات، وقفت الآن وحيدة لا يؤيدها أحد، ولا تفكر قبيلة مهما بلغ حجمها في تأييدها ومناصرتها كأنها قد سقطت فجأة من الحساب. وإذا كان المسلمون قد قطعوا خيوطها مع الشمال والشمال الشرقي، فما بال قبائل الشرق والجنوب: ما بال هوازن وتميم وحنيفة وعبد القيس وقبائل اليمن وحضر موت وعمان وكلها كانت تحضر الأسواق ومواسم الحج. بل ما بال الحج قد تضاءل إلى درجة لا تسمع معها عنه؟ أكانت أسواق مكة تعقد؟ أكان موسم الحج يحفل بالناس؟ هنا لا تنبئنا مراجعنا بشيء، لأن نظر المؤرخين كله، اتجه الآن إلى أمة المدينة وأصحاب السيرة على الخصوص، سقطت قريش من اعتبارهم فلم تعد تذكر إلا في مناسبات احتكاك أمة الإسلام بها، وسيعود ذكر قريش إلى الظهور مع الحديبية، وهي ميدان المواجهة الكبيرة الأولى بين قريش والإسلام بعد أن انحسم الأمر بينهما أثناء الخندق وبان للناس أجمعين، أن قريش الإسلام غلبت قريش الجاهلية، وأن مهاجري قريش إلى المدينة على قلتهم العددية قد أصبحوا اليوم بفضل الإسلام ومحمد صلوات الله عليه، قادة الجزيرة

وأصحاب الكلمة فيها، ودامت لهم السبل حتى كان القرشي الواحد من المهاجرين إلى المدينة يمضي إلى الشام بما معه من تجارة، فإذا اعتدت عليه إحدى القبائل لم يلبث أن ينال المعتدي العقاب الرادع كما حدث في خروج زيد ابن حارثة إلى الشام ومعه تجارة لأصحاب النبي ﷺ في رجب سنة ٦ هـ / ديسمبر ٦٢٧ م، فلما كان في منازل بني فزارة من بني بدر من غطفان أخذوه فضربوه وضربوا أصحابه حتى ظنوا أنهم قد قتلوا، ولكن زيداً أبَلَّ مما أصابه ولحق بالنبي ﷺ، فعجل الرسول بإرساله في سرية إلى هؤلاء القوم، فأوقع بهم وقعة شديدة وغنم منهم وأسر وتلك هي السرية المعروفة بسرية بني أم قرفة، وكان من أسرهم بنت أم قرفة، وهي امرأة من فزارة عجوز كانت تسب النبي ﷺ ويبلغه ذلك، فأخذ سلمة بن الأكوع ابنتها سبية وقبض المسلمون على العجوز السليطة وقتلوها، وعندما وصل الجمع المظفر إلى المدينة أخذ الرسول ابنة أم قرفة وأهداها لصاحبه حزن بن أبي وهب فأنجب منها بنتا ليس له منها ولد غيرها.

حتى ثقيف حليفة قريش وصاحبة الصهر الوثيق معها، سنرى بعد قليل أنها تراخت عن نصر قريش، فلم يأت منها لنصر قريش أثناء الحديبية إلا واحد من صغار رجالها هو عروة بن مسعود الثقفي، وكان حليفاً لقريش ينزل مكة في جوار سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف وهي تعد في عماته[1]، وقد أتى مع من أطاعه من قومه وهم قليل، بل إن زعيم الأحابيش، وهم أوثق أحلاف قريش وأقربهم منزلاً، وقفوا موقف الحياد بين محمد رسول الله وقريش بل إنه طلب إليها أن تأذن لرسول الله ولأصحابه بدخول مكة للاعتمار.

ولكن استجابة الأعراب أو عدم استجابتهم ليست بقياس سليم للتأييد وعدمه، فالأعراب، وخاصة صغار قبائلهم معنيون بأمر أنفسهم لا يعرضون أنفسهم لأي مغامرة غير محمودة العواقب، ومن دلائل ذلك ما يرويه الواقدي من أن الأعراب القريبين من المدينة المعروفين بدخولهم في حلفها، عندما رأوا

---

(١) ابن حزم، الجمهرة: ٢٦٦.

رسول الله ﷺ يخرج إلى مكة معتمراً وهو وأصحابه دون سلاح أرتابوا في الأمر وأيقنوا بأن قريشاً ستقضي عليه وعلى أصحابه، قال الواقدي: «فجعل رسول الله ﷺ يمر بالأعراب فيما بين مكة والمدينة فيستنفرهم، فيتشاغلون له بأموالهم وأبنائهم وذراريهم - وهم بنو بكر (بن عبد مناة بن كنانة) ومزينة وجهينة - فيقولون فيما بينهم: أيريد محمد أن يغزو بنا إلى قوم مُعَدين مؤيّدين في الكراع والسلاح، وإنما محمد وأصحابه أكلة جزور الن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً! قوم لا سلاح معهم ولا عدد وإنما يقدم على قوم حديث عهدهم بمن أصيب منهم ببدر[1]».

وهذا التراخي من جانب بعض الأعراب جعل محمداً ﷺ يحذر البدو طول طريقه، ولقد كان آمناً لخزاعة وبطونها لأنهم حلفاؤه وحلفاء أمة الإسلام، ثم إن خزاعة وخاصة بنو كعب أسلمت ودخلت الإسلام، وكان بنو المصطلق من خزاعة قد أعوجوا على رسول الله ﷺ فكانت غزوة المريسيع، وبها استقام أمر خزاعة كلها للإسلام وأمته. وما عدا خزاعة فكان الرسول في ريب منهم. وعندما وصل رسول الله إلى الروحاء، وهي قريبة جداً من المدينة وفي منطقتها لقي جماعة من بني نهد بن زيد بن ليث بن عبد مناة (بني خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر) وبنو عبد مناة جميعاً وخاصة بنو بكر منهم كانوا مباعدين للإسلام وأهله مقاربين لقريش وأهل الكفر - فدعاهم إلى الإسلام «فلم يستجيبوا له وانقطعوا من الإسلام»[2]، ثم أرادوا مع ذلك استرضاء الرسول ﷺ فبعثوا عند مرور الرسول قرب ديارهم برجل منهم معه لبن هدية، فأبى قبوله وقال: «لا أقبل هدية مشرك»[3]، ولكنه أذن لأصحابه في شراء اللبن فاشتروه وشربوا منه، ثم أتوا المسلمين بثلاثة أضبّ» (جمع ضب) ليبيعوها منهم، فسأل المسلمون الرسول ﷺ إن كان يحل لهم أن يشتروا ما صاده غيرهم وهم حرم، فقال: «كلوا، فكل صيد ليس لكم حلال في

---

(١) الواقدي، مغازي ٢/٥٧٤ - ٥٧٥.

(٢) الواقدي، مغازي ٢/٥٧٥.

(٣) الواقدي، مغازي ٢/٥٧٥.

الاحرام تأكلونه. إلا ما صدتم أو صيد لكم[٤].

وكان بعض المسلمين قد انتظر بالإحرام حتى يقرب من مكة، فصاد بعضهم حماراً وحشياً وطبخوه، ولحقوا برسول الله فعرضوا عليه منه، وقدموا له ذراعاً فأكلها «حتى أتى على آخرها وهو محرم» لأن المسلمين المحرمين لم يصيدوه ولا صيد لهم، فأكله ليس حراماً على المحرمين.

وكان ذلك عند الأبواء، مما يدل على أن رسول الله ﷺ سلك بمن معه الطريق الفرعي ناحية البحر، وكان يستحبها في روحاته إلى مكة وعودته إلى المدينة.

وعند ودان ـ وهي قريبة من الأبواء أهديت لرسول الله ﷺ هدية أخرى من قوم لم تحددهم المراجع، ولكن لا شك أنهم من أهل الإسلام لأن الرسول كما رأينا كان لا يقبل هدية مشرك. والهدية كانت جزراً ومائة شاة وبعيرين يحملان لبناً.

ونحن نقرأ أخبار هذا المسير ونشعر أن رسول الله والمسلمين يسيرون في أمن وهدأة، كأنهم لم يعودوا يخشون أحداً في الحجاز فهم بغير سلاح، ولكن أحداً لا يعرض لهم أو يجافيهم، بل إن الهدايا تأتيهم في كل موضع فيقبلون أو لا يقبلون، ولا أحد يذكر قريشاً أو يحسب لها حساباً، ففي ودان هذه أهدي لرسول الله إلى جانب هدية إيماء بن رحضة التي ذكرناها «ثلاثة أشياء: معيشا وعترا وضغابيس، وجعل رسول الله ﷺ يأكل من الضغابيس والعتر وأعجبه وأمر به فأدخل على أم سلمة زوجته، وجعل رسول الله ﷺ يعجبه هذه الهدية ويرى صاحبها أنها طريفة»، والمعيش هو الخبز في الغالب، والعتر نبات يؤكل، فإذا طال وقطع أصله خرج منه شبه اللبن، والضغابيس كما في القاموس جمع ضغبوس وهي صغار القثاء أي أنها الخيار، واللطيف هنا هو إقبال النبي عليها وحرصه على أن يري صاحبها أنها طريفة.

---

(٤) الواقدي، مغازي: ٥٧٥.

وعندما يصل رسول الله والذين معه إلى الجُحفة، قرب رابغ البحر الحالية يحدث شيء غريب، وهو أنه ﷺ يبعث رجلاً ليأتي بالماء من وادي الخرار غير بعيد من الجحفة. فلا يكاد الرجل يسير قليلاً حتى يدركه الخوف فلا يستطيع أن يتقدم. ويعود إلى رسول الله ويبلّغه ذلك، فيبعث غيره فيحدث له مثل ذلك، فأرسل الرسول رجلاً من أصحابه «وخرج السُّقّاء معه، وهم لا يشكون في الرجوع لما رأوا من رجوع النفر، فوردوا الخرّار فاستقوا ثم أقبلوا بالماء، ثم أمر رسول الله بشجرة، فقُمَّ (كنس) ما تحتها فخطب الناس فقال: أيها الناس إني كائن لكم فَرَطاً، وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنته بين أيديكم، ويقال: تركت فيكم كتاب الله وسنة نبيه[1]..» والفرط هو السابق أي المتقدم وقد ورد اللفظ في حديث رسول الله ﷺ[2]. وحديثه هنا في موضعه، لأنه عندما رأى الخوف يستولي على بعض الناس طمأنهم إلى أن لديهم ما إن تمسكوا به لم يخافوا شيئاً: الكتاب والسنة.

والآن والمسلمون في طريقهم إلى مكة، أي وقريش المسلمة في طريقها إلى قريش الكافرة، ننتقل إلى معسكر هذه لنرى ماذا صار إليه أمرها.

قُريش قبل الحُدَيبيَّة:

من الواضح أن مسير محمد ﷺ والمسلمين نحو مكة أفزع أهلها، وأحس زعماء القرشيين وخاصة رؤساء كعب بن لؤي وعامر بن لؤي (وفيهما تتمثل المقاومة للإسلام) أن مصيرهم في الميزان، فاجتمع زعماؤهم للتشاور في أمرهم، وكان زعماؤهم في ذلك التحرك صفوان بن أمية بن خلف (جمح) وسهيل بن عمرو (عبد شمس) وعكرمة بن أبي جهل (مخزوم)، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش وانضم إليهم نفر من الثقفيين. واستقر رأيهم على إرسال فرقة استطلاع من الفرسان تقف عند كراع الغميم، وجعلوا مركز

(١) الواقدي، المغازي، ٢/٥٧٨ ـ ٥٧٩.

(٢) انظر مادة فرط في لسان العرب، جـ ٢/١٠٧٩.

قيادتهم في بلدح، وهو واد يبعد عن مكة بنحو الخمسين كيلومتراً، والمسافة بين وادي بلدح وكراع الغميم لا تزيد على خمسة عشر كيلومتراً. وبلغ من اهتمام قريش للأمر أن وضعت نظاماً يضمن وصول الأخبار إليها في أقصر وقت. وقد وصفه لنا الواقدي بقوله: «ووضعوا العيون على الجبال حتى انتهوا الى جبل يقال له وزر وزع، كانت عيونهم عشرة رجال قام عليهم الحكم بن عبد مناف، يوحي بعضهم إلى بعض بالصوت الخفي: فعل محمد كذا وكذا! حتى ينتهي ذلك إلى قريش ببلدح. وخرجت قريش إلى بلدح فضربوا بها القباب والأبنية، وخرجوا بالنساء والصبيان فعسكروا هناك[1]»، وهذا تنظيم يدل على أن قريشاً لا زالت لها قيادة ذات تنظيم وترتيب وعقل، وقد قدروا أن يوقفوا محمداً وأصحابه عن هذا الموضع ليكون بينهم حوار وتفاوض بعيداً عن مكة، ولكن رسول الله ﷺ ـ لحكمة ارتآها ـ رأى أن يتخطى هذا الحد وينحدر حتى الحديبية ـ وهي ليست على الجادة، أي الطريق الرئيسي إلى مكة، وإنما هي موضع إلى غربي الطريق إلى الشمال قليلاً من مكة.

ومن الواضح أن قريشاً كانت قد اجتمعت وتشاورت، فيما ستعمل وهي تشعر تماماً أنها غير قادرة على مقاومة المسلمين. وكان كل غرض هذه القيادة هو الحفاظ على كرامة قريش ومكة وكيانها، وقد نجحت في ذلك لأن محمداً ﷺ كان يريد ذلك.

وكان رسول الله ﷺ قد اصطحب معه رجلاً من خزاعة يسمى بُسر بن سفيان الكعبي، تقول المراجع إنه وفد على المدينة وأسلم على يد الرسول، ثم أراد الرجوع إلى أهله بمكة في الغالب فقال له رسول الله يا بسر، لا تبرح حتى تخرج معنا، فإنا إن شاء الله معتمرون، فأقام بسر، وأمر رسول الله بسر بن سفيان أن يبتاع له بدناً، فكان بُسر يبتاع البُدْن ويبعث بها إلى ذي الجدر، حتى حضر خروجُه، فأمر بها فجلبت إلى المدينة، ثم أمر بها ناجية بن جُنْدب الأسلمي أن يُقَدِّمها إلى ذي الحُلَيْفة واستعمل على هديه ناجية بن جندب، وخرج أصحاب

---

(١) الواقدي، مغازي، ١/٥٧٩.

رسول الله ﷺ معه لا يشكون في الفتح، للرؤيا التي رأى رسول الله ﷺ ونلاحظ هنا أن صاحب هدى رسول الله كان خزاعياً، وأن عينه على كفار قريش كان أسلمياً من بني الحاف بن قضاعة مما يؤيد ما ذهبنا إليه من ارتباط هذه القبائل بالإسلام ورسوله.

ويختفي بسر بن سفيان الكعبي هذا ثم يظهر مرة أخرى ورسول الله يقترب بمن معه من كراع الغميم، حيث كانت طليعة قريش وعليها خالد بن الوليد، وإن كان تدخل المزيفين في النصوص الأصلية يحاول أن يشكك في أن خالداً كان على رأس خيل المشركين في ذلك الحين، بل هناك من يزعمون أنه أسلم مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة قبل الحديبية، وهذا غير صحيح، وها هنا مثال من تزييف الأخبار أو التدليس فيها، الذي لا نزال نعاني منه على كل خطوة من خطوات هذه الدراسة وغيرها مما نتولاه من أبحاث تاريخ الإسلام والمسلمين.

ثم يظهر بُسر بن سفيان الكعبي مرة أخرى بعد أن ضربت قريش خيامها ببلدح. وبعثت طليعتها إلى كراع الغميم. ظهر بسر الكعبي ليقدم لرسول الله صورة الأعداء ومعسكرهم، فلا يكون ظهوره هنا مجرد مصادفة بل هو حساب وتدبير.

وكان رسول الله ترك الكُديد وراءه ووصل إلى غدير الأشطاط فسأله: يا بُسر ما وراءك؟ قال: يا رسول الله، تركتُ قومك، كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، قد سمعوا بمسيرك ففزعوا وهابوا أن تدخل عليهم عنوة، وقد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، معهم العوذ المطافيل[1] قد لبسوا لك جلد النمور ليصدوك عن المسجد الحرام، وقد خرجوا إلى بلدح وضربوا بها الأبنية، وتركت عُمَّارَهم يطعمون الجزر أحابيشهم ومن ضوى إليهم في دورهم، وقدَّموا

(١) العوذ من الإبل جمع عائذ، وهي التي ولدت، والمطافيل جمع مطفل وهي التي لها طفل، وهذا كله كناية عن النساء والصبيان.

الخيل عليها خالد بن الوليد، مائتي فرس، وهذه خيلهم بالغميم، وقد وضعوا العيون على الجبال ووضعوا الأرصاد».

وهنا يبلغ الرسول ﷺ أصحابه بموقف قريش وإرسالها خالد بن الوليد في مائتي فارس لمواجهة المسلمين، ثم يخيِّر المسلمين بين أن يمضوا لوجههم، فإذا اعترضهم المشركون نازلوهم، أو يسلكوا طريقاً آخر ويتخطوا القوة القرشية، فإذا تبعهم من المشركين أحد قضوا عليه. ويأخذ الرسول في مناقشة أصحابه، وهنا يضيف أبو هريرة: «فلم أر أحداً كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول اللّه ﷺ. وكانت مشاورته لأصحابه في الحرب فقط». والذي يعنينا هنا هو حرص رسول اللّه على مشاورة أصحابه في كل ما يعرض لهم من شئون الدنيا، ولا معنى لقصر المشورة على الحرب فحسب، لأن شئون الدنيا تشمل الحرب وغير الحرب.

ومن باب الاحتياط ينادي الرسول عباد بن بشر، ولم تكن خيل المسلمين لتزيد على عشرين، وكان فيهم فرسان كثيرون ولكن رسول الله ﷺ جعل عباداً على خيل المسلمين، وكان عباد من فرسان بني عبد الأشهل الأوسيين، وكان فارساً مجاهداً من المعدودين من فرسان المسلمين، وكان أول ثلاثة من كبار فرسان الأنصار، والثلاثة كلهم من بني عبد الأشهل، وهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعباد بن بشر، وقد ظهر أمره وسطع أثناء الخندق، فقد كان قائد الفرقة الطيارة التي وقفت تحت تصرف الرسول ﷺ يبعث بها في كل مهمة فلا تعود إلا بخير، وقد استشهد رضي اللّه عنه في اليمامة.

ثم صلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف، وكانت تلك ثاني مرة يصليها في مغازيه، فقد صلاها قبل ذلك في ذات الرقاع وكانت هذه الصلاة الثانية بعسفان.

وكان رسول الله بعد أن شاور أصحابه قد استقر رأيه على أن يتخطى هذه الطليعة من الفرسان التي أرسلتها قريش دون أن يصدمها فيقضي عليها، فهو لم يخرج لقتال وإنما للعمرة، وقرر أن يسير بالليل ويكمن للراحة بالنهار، وتبدر منه هنا بادرة تدل على أنه ﷺ كان يعرف طرق الحجاز معرفة وثيقة، وقارىء السيرة ودارسها لا يزال يتعجب من معرفة الرسول للأرض والناس. قال لأصحابه: «تيامنوا في هذا العصَل (أي الرمل المتموج الملتوي)، فإن عيون قريش بمَرِّ الظَّهْران أو بِضَجْنان، فأيكم يعرف ثنية ذات الحنظل؟» ومن الواضح أن هذه الثنية كانت تقع في طريق صغير يتخطى مخرجُه كُراع الغميم ووادي بَلْدَح، فيخرج الرسول بمن معه في الصباح عند موضع الحديبية الذي كان رأيه قد استقر على الوقوف عنده، والحديبية بُعَيد سرف غرباً إلى الجنوب، وهي ليست على طريق الجادة وإنما إلى غربها، ومقابلها من ناحية الشرق التنعيم وهي ميقات حاج الشام. وتطوع بُرَيْدَة بن الحُصَيب الأسلمي (الخزاعي) ليدل الركب على طريق ثنية ذات الحنظل، وحاول فلم يستطع، ودهش لأنه كان يسلك طريقها مراراً في الجمعة الواحدة، وتطوع أسلُمي آخر فوقع له ما وقع للأول، وأخيراً تقدم أسلُمي خزاعي ثالث هو عمرو بن فُهم فسلك بالناس طريقها في غير عُسْر، ويستوقف نظرنا هنا معرفة خزاعة بطرق الحجاز، وهو أمر على أكبر جانب من الأهمية ويستوقف نظرنا بعد ذلك ثقة رسول الله في نفسه وإيمانه الثابت بأنه واصل إلى ما يريد بعون الله إياه. وفي أثناء الطريق - والركب على وشك الوصول إلى حيث يريد رسول الله، يندس بينهم أعرابي يبحث عن بعير له أضله ودخل العسكر فيما زعم، وكان رسول الله قد حَذَّر رجاله من مثل هذا الدسيس، ويدخل الرجل العسكر يبحث عن بعيره فلا يجده، ونفهم أن البعير الضائع حجة تعلل بها ليدخل العسكر، وينصرف عنه فيتردى من الجبل ويموت، وعندما نعلم أنه من ضمرة من بني بكر بن عبد مناة يتضح لنا أمره، فهو دسيس جاسوس من بني بكر بن عبد مناة يَتَنَطَّس أخبار العسكر لحساب قريش في الغالب، وهكذا نرى كيف كانت خزاعة دائماً

في جانب الإسلام ورسوله، وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة دائماً في جانب قريش وأهل الكفر، وسيتضح لنا ذلك جلياً في بقية أخبار الحديبية.

وهنا وقبل أن يصل ركب المسلمين إلى الحديبية، تبدر من رسول الله بادرتان تزيدان الناس تعلقاً به وإيماناً، الأولى كشفه الماء الوفير في موضع بئر جافة لم يكن فيها إلا وشل. فناول الرسول رجلاً من أصحابه يسمى ناجيه بن الأعجم سهماً فنزل به وآثار الماء وحفر الأرض فجاش الماء وروِيَ الناس، وشهد ذلك اثنان من المنافقين، هما عبدالله بن أبي بن سلول والجَد بن قيس، والأول من بني الحُبْلَى من الخزرج، والثاني من بني سَلمة من الخزرج وحاولا التقليل من شأن ما أجراه الله على يد رسوله، وقال ابن أُبَيّ: قد رأيت مثل هذا! وبلغت الرسول، فلم يزد على أن قال لابن أُبي: يا أبا الحُباب أين رأيت مثل ما رأيت اليوم؟ فقال: ما رأيت مثل هذا قط. قال رسول الله ﷺ، فلم قلت ما قلت، فقال ابن أُبَي: استغفر الله! قال ابنه يا رسول الله: استغفر له، فاستغفر له رسول الله ﷺ. وهذا العفو من رسول الله عن ابن أُبَيّ هو البادرة الثانية.

ووصل رسول الله ﷺ إلى حيث كان يريد وهو موضع الحديبية، وقد تغيرت الآن ملامح الموضع حتى نزوره لنستوثق من صلاحيته للنزول والاقامة فترة طويلة، ولكننا لا نحس أثناء مقام المسلمين في الحديبية أنهم في نقص من ماء أو طعام أو أنهم في خطر من هجوم أو بيات. حقاً لقد خرج الرسول ومن معه معتمرين بغير سلاح، ولكن السلاحَ كان معهم في مؤخرة الجيش، حتى إذا دعت إليه الحاجة وجده المسلمون حين يطلبونه، وكان الذي أشار بذلك سعد بن عبادة بن دُلَيم سيد بني كعب بن الخزرج بن حارثة الغِطريف، وهو في مكان سيد الخزرج جميعاً وإلى الحديبية بل إلى انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان هذا الرجل من أعاظم أصحاب رسول الله وأوثقهم إيماناً به وأجودهم رأياً وأسخاهم بماله، حتى أحس عمر بن الخطاب أنه ند له منافس في الجماعة، وكان لهذا أثره فيما حدث يوم السقيفة. وفي يوم السقيفة ضاعت

جهـوده وتضحياتـه سدى دون ذنب جناه. وسيكون لـذلك بـالغ الأثـر في بقية الخزرج جميعاً والأنصار بعد ذلك كما سنرى.

ومن الواضح أن الرسول صلوات الله عليه كان يعتد هنا بتـأييد خـزاعة جميعها، قال عنهم الواقدي: (. . وهذا أيضاً رأي كل مؤرخينا الـذين نعتمد عليهم): «وهـم عيبة نصح رسول الله ﷺ بتهامة، منهم المسلم ومنهم المُوَادع، لا يخفون عليه بتهامة شيئاً: فأناخوا رواحلهم عند رسول الله ﷺ.

وهنا تبدأ المواجهة بـين القريشـين: قريش الكفـار المسيطرين عـلى مكة وقريش المؤمنين الذين يشتركون في قيادة أمة الإسلام في المدينة بتوجيه من رسول الله ﷺ، بالاشتراك مع الأنصار ما بين أوس وخزرج. وَغَنَاء الأنصار هنا عظيم فهم متفانون في سبيل الدعوة فعلاً، وأسماء مثل سعد بن عبادة وأُسَيد بن الحضير وعبَّاد بن بشر والحُباب بن المنذر ومحمد بن مسلمة وأخيه محمود، أسماء كبيرة في تاريخ الإسلام في عصر الرسول ﷺ، ولكن المهاجرين يشفون عليهم ـ رغم قلة عددهم ـ في القيادات ـ ربما لأنهم أكثر خبرة في شئون العمل العام، وربما رجع ذلك أيضاً إلى أنهم كانوا متفرغين للدعوة، في حين أن الأنصار كانت لهم إلى جانبها مطالبهم العائلية والقَبَلية في مدينتهم، ولهذا كان المهاجرون حريصين على الصدارة مبادرين إلى القيادات، وخاصة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وعلي بن أبي طالب وسعد بن وقاص، وقد كان رسول الله ﷺ منصفاً كل الإنصاف في تصرفه مع الفريقين، ولكننا نلحظ هنا بين القرشيين أنفسهْم تيارات جانبية، فأبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص جماعة واحدة، وعلي بن أبي طالب يكاد أن يكون وحده يؤيده نفر من الأنصار، وتخفيفاً للمنافسة بين الفريقين كان يتولى قيادة السرايا أحياناً زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، فهو يقود ثلاث سرايا متوالية، ثم يقود عبد الرحمن بن عوف سرية دومة الجندل ويعقبه علي بن أبي طالب في سرية إلى فدك ثم تعود القيادة إلى زيد بن حارثة فيقود سرية إلى بني فزارة بن بدر من غطفان ليؤدبهم، وفي هذه السرية يكون قتل أم قرفة وقد ذكرناها. ويسر الرسول بنصر زيد فهو شديد الحب له، قالت عائشة رضي الله عنها: «فأتى

زيد فقرع الباب، فقام إليه رسول اللّه ﷺ يجر ثوبه عرياناً، ما رأيته عرياناً قبلها، حتى اعتنقه وقبله ثم سأله فأخبره بما ظفره اللّه به»[1] ولعل كبار الصحابة وجدوا من ذلك شيئاً، وسنرى مظاهر لذلك فيما سنروي مما وقع أثناء المراحل الأخيرة لمرض الرسول ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، وسنشهد بعد قليل أول خزاعي يظهر ويقوم بدوره في مجرى الحوادث، وربما لمحنا هنا أول ظواهر التساند بين خزاعة والأنصار، وهو تساند سيكون له أبعد الأثر في تاريخ الإسلام، عندما تنتقل الخلافة انتقالاً حاسماً من بني أمية إلى بني العباس ويكون لخزاعة ومواليها ومن أيدهم من الأنصار والهاشميين دور حاسم.

هذا الخزاعي هو بُدَيْل بن ورقاء سيد بني عامر بن لُحَيّ من خزاعة فيما يقول ابن حزم، وهو غير مصيب هنا، لأن صميم خزاعة أو نواتها الأولى على ما ذكرناه في الحقيقة يمنيٌّ، مثلهم في ذلك مثل الأنصار، أما القول بأن خزاعة هم بنو ملكان وبنو مالك وبنو أسلم بن أفصى بن لحي بن عامر بن قمعة بن الياس ابن مضر «ولكنهم تخزعوا أي انفصلوا عن قومهم وصاروا خزاعة فأمر مفتعل. وقد سبق أن فصَّلنا الكلام في ذلك في كلامنا على خزاعة: وقد رجحنا أن نواة خزاعة الأولى من اليمن وأنهم أبناء عم الأوس والخزرج، لأن الأوس والخزرج هم أولاد ثعلبة العنقاء بن مزيقياء الذي ذكرناه، فميل خزاعة إلى الأوس والخزرج طبيعي يقويه أن قريش مكة، قريش التي عادَت الإسلام وأخرجت رسوله وأصحابه من مكة لم تكن قريش بني هاشم، وإنما هي قريش بني عبد شمس ومخزوم وتيم بن عبد مناة وجمح وهصيص، أي قريش الأحلاف لا قريش حلف الفضول التي هي قريش بني هاشم وأحلافهم من زهرة بن الحارث بن فهم وتيم بن مرة (قبيلة أبي بكر) وعدي (قبيل عمر بن الخطاب)، وقريش الأخيرة هذه هي التي هاجر رجالها إلى المدينة وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، وهذه الهجرة قربت بين قريش بني هاشم وخزاعة التي سبق

(١) الواقدي، مغازي ٢/٥٦٥.

أن طردت من مكة مثلهم، فكأن قريشاً الوثنية التي بقيت في مكة ورثت كل عداوة خزاعة لقريش التي أخرجتها من مكة، لا عجب إذن أن نجد خزاعة إلى جانب رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار أي أهل أمة الإسلام. ومن ذلك الحين أصبحت خزاعة هاشمية الميول بالضبط، كما سيصبح الأنصار هاشميين في عواطفهم وميولهم، وفي الصراع بين قِسْمَي قريش: قريش التي عادت الإسلام أولاً ثم أسلمت عند الفتح متمثلة في بني أمية الأكبر وبني مخزوم وسهم وجمح وقريش الهاشمية التي آمنت وهاجرت وحملت عبء الإسلام مع الأنصار وخزاعة، وستنتصر في أيام الرسول ﷺ وإلى آخر خلافة عمر، ثم تميل الكفة إلى جانب قريش بني عبد شمس وأحلافهم من بداية خلافة عثمان ثم تكون الدولة الأموية، ثم تعتدل الكفة مرة أخرى بقيام الدولة العباسية، وهي ثمرة ثورة هاشمية اشترك فيها الهاشميون وأنصارهم من خزاعة والأنصار، ثم ستنقسم هذه الجهة المظفرة إلى قسمين: عباسي ينفرد بالسلطة نتيجة لنجاح إبراهيم الإمام بن محمد بن عبدالله بن عباس في الإنفراد بالأمر دون بقية الهواشم، ثم بقية بني هاشم التي خسرت هذه المعركة فستتحول إلى حركة شيعية عامة تضم مذاهب شتى، وستحوز السلطان في عصور وأقاليم شتى من بلاد الإسلام ولا زالت باقية إلى اليوم.

نعود إلى الحديبية حيث نزل رسول الله ﷺ والمسلمون، ويقبل عليهم سيد خزاعة بديل بن ورقاء، فلننظر كيف سيكون موقف هذا الخزاعي بين القُرَيْشَيْنِ، ولا ننسى أن نضيف هنا أن رسول الله لم يكد يستقر في الحديبية حتى أهدى إليه عمرو بن سالم وبُسر بن سفيان الخزاعيان غنماً وجزوراً، وأهدى عمر بن سالم لسعد بن عبادة جُزُراً «وكان صديقاً له» وقد قسمت الهدية على المسلمين. ونفهم من هذا أن محمداً ﷺ عندما اختار موضع الحديبية لنزوله عرض مقدماً أن ينزل بين أصدقاء وحلفاء، وفي هذا الموضع لا تستطيع قريش أو حلفاؤها مهاجمة المسلمين.

دخـل بديـل بن ورقاء الكعبي الخـزاعي على رسـول الله، وبديـل هـذا يصفه ابن حزم بأنه كـان أدهى العرب، وهـو ليس من بني كعب بن عمرو بن عامر بن لحي أحلاف النبي ولكنه من بني عـدي بن عمرو بن عـامر بن لحي[1] وكان حليفاً لقريش مقيماً في مكة وله دار كبيرة فيها، فـأبلغه أنـه يتجه من عنـد قومه بني كعب بن لؤي وبني عامر بن لؤي وأنهم قد استنفروا الأحابيش ومن أطـاعهم، معهم العُوذُ المـطافيل[2] النسـاء والصبيان ـ يقسمـون بـالله لا يُخَلُّونَ بينك وبين البيت حتى تبيـد خضراؤهم»[3]. وغريب هنـا ذكر عـامر بن لؤي، لأن عمود قريش الذي فيه البيت والعدد، وتتفرع منه فروعها الكبار هو عمود كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن كنانة بن النضر بن خزيمة، أما عـامر ابن لؤي أخوه فلا ذكر له بين فروع قريش ذات العدد والأهمية، وكل مـا يقال هنـا هو أن كعبـاً وعامـراً هما البـطاح في رأي المصعب الزبـيري، أما ابن حـزم فيقول إنهما الصريحان من ولـد لؤي بن غالب ولكنـه يجعل البيت والعـدد (أي القوة والكثرة) في بني كعب، وكلا النسابين لا يذكر لعـامر ولـداً. وكان رسـول الله يعلم من أمر قريش ما فيه الكفاية فقـد قال في رده عـلى بديـل ـ على روايـة الواقدي: «إنَّا لم نأت لقتـال أحد، إنمـا جئنا لنـطوف بهذا البيت، فمن صـدنا عنه قاتلناه، وقريش قـوم قد أضرت بهم الحـرب ونَهَكَتْهم فإن شـاءوا مادَدْتُهم مدة[4] يأمنون فيها، ويُخَلُّون فيـما بيننا وبـين الناس، والنـاس أكثر منهم، فـإن ظهر أمري على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيـما دخل فيـه الناس: أو يقـاتلون وقد جمعوا جمعاً، والله لأجهدن عـلى أمري هـذا حتى تنفرد سـالفتي أو ينفذ الله أمـره»[5]. وهذا القـول من رسول الله يـدل على معـرفة تـامة بـأحوال قـريش

---

(١) ابن حزم، الجمهرة ٢٣٩.

(٢) تعبير يراد به النساء والأطفال. (٣) الواقدي، مغازي: ٥٩٣.

(٤) أي عقدت معهم عقداً أو عهداً أو اتفاقاً أو هدنة لمدة معينة.

(٥) هذه رواية الواقدي، مغازي ٢/٥٩٣؛ أما ابن إسحاق ومن نقل عنه كابن هشام ٣/٣٢٣، وابن كثير، البداية والنهاية: ٤/١٦٥ فيجعلون هذه الكلمة في عسفان وأنه قالها لبسر بن سفيان الكعبي الذي ذكرناه. ورواية الواقدي أكثر انسجاماً ودقة.

ورغبته في رد زعمائها إلى الرشد، وكأنهم هم الآخرون أحسوا منه هذا الرفق بهم فتماسكوا وتشددوا في موقفهم وإن لم يصلوا إلى المواجهة الكاملة.

وعندما انقلب بديل بن ورقاء عائداً برسالته إلى قريش صَحِبه عمرو بن سالم الخزاعي صديق سعد بن عُبادة ومضى يؤكد أن رسول الله على حق، وأن قريشاً لن تفلح في موقفها من محمد ما دام هو لا يريد إلا العمرة ويبدي الاستعداد لعقد صلح معهم يمكنه من اداء العمرة بسلام.

ولكن موقف قريش من بديل بن ورقاء وهو صديق لهم وله في مكة دار كان غريباً يدل على إدراكهم لحقيقة شعور بديل نحوهم، وإسرافهم في التظاهر بالثبات: «فقال ناس منهم: هذا بديل وأصحابه، إنما جاءوا يرون أن يستخيروكم، فلا تسألوهم عن حرف واحد» كأن الأمر لا يهمهم. «وضاق بديل بعدم سؤالهم إياه عن محمد ﷺ وما يريد فقال: إنا جئنا من عند محمد، أتحبون أن نخبركم؟ قال عِكرمة بن أبي جهل والحكم بن العاص: لا والله ما لنا حاجة بأن تخبرنا عنه، ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عامه هذا أبداً حتى لا يبقى منا رجل، فقال عروة بن مسعود، وهو رجل من ثقيف كان حليفاً للقرشيين وصاحياً لهم: والله ما رأيت كاليوم رأياً أعجب، وما تكرهون أن تسمعوا من بديل وأصحابه؟ فإن أعجبكم أمر قبلتموه، وإن كرهتم شيئاً تركتموه. لا يفلح قوم فعلوا هذا أبداً». قال رجال من ذوي رأيهم وأشرافهم: صفوان بن أمية والحارث بن هشام (بن المغيرة المخزومي) أخبرونا بالذي رأيتم وسمعتم فأخبروهم بمقالة النبي ﷺ التي قال، وما عرض على قريش من المدة (الهدنة الموقوتة).. فعاد عمرو بن مسعود يقول: يا معشر قريش تتهمونني؟ ألستم الوالد وأنا الولد؟ وقد استنفرت أهل عكاظ لنصركم فلما بلحوا (امتنعوا) عليَّ نفرت إليكم بنفسي وولدي ومن أطاعني، فقالوا: قد فعلت. قال: إني ناصح لكم شفيق عليكم ولا أدخر عنكم نصحاً. وإن بديلاً قد جاءكم بخطة رشد لا يردها أحد أبداً إلا أخذ شراً منها... فاقبلوها منه

وابعثوني حتى آتيكم بمصداقهـا من عنده، فبعثته قريش إلى رسول اللّه ﷺ.

والتفاصيل القبلية التي لدينا عن سفارة عروة بن مسعود الثقفي لا توحي بالثقة، وشخصية عمرو هذا ـ كما لاحظنا ـ في خطابه لقريش لا تبدو شخصية لها وزن كبير، إنما هو رجل من عامة ثقيف ممن ضوى الى مكة، ثم أنه عندما عرض وساطته وعد قريشاً بأن يكون لها عيناً على رسول اللّه ﷺ وأصحابه، وفي الخبر تفاصيل كثيرة عن المغيرة بن شعبة لمجرد أنه كان ـ فيما يزعم الرواة ـ كان «قائماً على رأس رسول اللّه ﷺ» والمغيرة لم يبلغ قط عند رسول اللّه مثل هذا المبلغ، وأين هو ممن كان مع رسول اللّه من أفذاذ الرجال وكبار الصحابة، وإنمـا هم الرواة الذين لا يزالون يدفعون بمثل المغيرة في الأخبار بمناسبة وغير مناسبة حتى ذهبوا الى أنه كان من بين من نزل قبر الرسول الأكرم، بل حـاول ـ في بعض الأخبار ـ أن يكون آخر من رأى رسول اللّه مسجى في قبره، وهذا كله انعكاس قصصي نتيجة لما بلغه هذا الرجل من شهرة بالدهاء والقدرة أيام خلافة معاوية ابن أبي سفيان.

ويستوقف نظرنا أن الذين يقولون الكلام باسم المشركين في الحديبية ليسوا من بني عبد مناف، أي ليسوا من عمود نسب قريش الذي فيه البيت والعدد: عمود عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، بل عمود عامر بن لؤي: يمثلهم سهيل بن عمرو بن معيص بن عامر، وأحلافهم بني جمح بن هصيص بن كعب ابن لؤي يمثلهم صفوان بن أمية بن خلف الجمحي، وجمح خارجة عن عمود النسب القرشي مثلها في ذلـك مثل أختهـا سهم بن هصيص رهط عمرو بن العاص ـ فأين بنو عبد شمس وأحلافهم ممن كانوا إلى الآن يقولون الكلام باسم قريش.

نلاحظ هنا أن أبا سفيان صخر بن حرب بن أمية زعيم قريش بعد أبي

جهل، يختفي فلا يكون له أثر في الحديبية ولن تكون له يد فيما فعلته قريش من نسر الهدنة مع المدينة بمعاونة بني بكر بن عبد مناة أحلافهم في عُدوانهم على بني كعب الخزاعيين أحلاف الرسول ﷺ ، وبنو عامر بن لؤي كانوا قبيلة صغيرة من قريش ويَعُدُّهم المصعب الزبيري من بيوتات قريش. ويفرد لأنسابهم بابا[1] ولكننا وعندما نقرأ هذا الباب نجد أن بني عامر بن لؤي بعيدون بعداً واضحاً عن عمود نسب قريش، فمعظم أصهارهم من قبائل فهر وجذيمة بن مالك بن حسل والعَضَل (أو عَضْل) بن الديش بن الهون، وهذه ثلاث بطون من الأحابيش يضاف إليها الحيا والمصطلق من خزاعة. ونسب بني عامر بن لؤي مع خزاعة كبير، فكأن بني عامر بن لؤي كانوا يقفون بعيداً عن صميم قريش يؤيدهم بعض فروع قريش من غير عمود النسب الرئيسي مثل جمح بن عمرة بن هصيص وزعيماهم صفوان بن أمية بن خلف وسهيل بن عمرو زعيم عامر بن لؤي، وهما اللذان سيتوليان الكلام باسم مكة في الحديبية. وستبدر منهما بوادر الجلافة والنعرة القرشية التي سيتغاضى عنها الرسول، لأنه كان يقصد إلى عقد العهد لكي يتم عُمْرَته من قابل، ويبدو بوضوح أن أبا سفيان وقومَه من بني عبد شمس تركوا هذا الفريق من قريش يجربون حظهم في الرياسة، فعقدوا صلح الحديبية، بفضل الرسول وحلمه لا بفضلهم، ثم عجزوا عن الوفاء بالعهد، فكان أن قرر الرسول فتح مكة، ومن ذلك الحين يعود أبو سفيان إلى قيادة قريش، فيقودها بحذر ويجنِّبُها الصدام مع أمة الإسلام فتظل لها وحدتها وشخصيتها، وتدخل الإسلام دون هزيمة أو مهانة كما سنرى فكانت قيادة بني عامر بن لؤي قصيرة غير موفقة كما سنرى.

وتذهب الرواية إلى أن عمرو بن مسعود الثقفي بدأ كلامه مع رسول الله بمثل ما بدأ به بديل بن ورقاء، ثم يقول عبارة نجدها بالمعنى عند معظم رواتنا وإن اختلفت لفظاً. ونتابع رواية الواقدي فهي أكثر تفصيلاً، قال عروة بن

(١) نسب قريش للمصعب الزبيري، ص ٤١٢ وما بعدها.

مسعود الثقفي مخاطباً الرسول: «يا محمد إني تركت قومك، كعب بن لؤي وعامر ابن لؤي على أعداد[1] ماء الحديبية معهم العُوذ المطافيل، قد استنفروا لك أحابيشهم ومن أطاعهم، وهم يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم. وإنما أنت من قتالهم بين أحد أمرين: أن تجتاح قومك، ولم نسمع برجل اجتاح أصله قبلك، أو بين أن يخذلك من نرى معك، فإني لا أرى معك إلا أوباشاً من الناس لا أعرفهم من وجوههم ولا أنسابهم»، فغضب أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقال: امصص بظر اللات!، أنحن نخذله! وفي عبارة ابن هشام عن ابن اسحاق جملة تفسر لنا لماذا قال أبو بكر: «أنحن نخذله!» وهي قول عروة بن مسعود: «وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً»[2] وهذا كله كلام نتوقف عن قبوله لأننا نقرأ بعد ذلك أن أبا بكر الصديق سبق له أن أعان عروة بن مسعود في حمل دية، فأعانه الرجل بالفريضتين والثلاث وأعانه أبو بكر بعشر فرائض، والفريضة هنا هي الناقة أو الجمل في الدية، فكيف يكون هذا صنيع أبي بكر مع عروة ثم يضعه في الأوباش أو الأوشاب الذين لا يعرف وجوههم ولا أنسابهم؟

ولم يعلق رسول الله على هذا بشيء، وإنما هو قال لعروة نفس ما قاله لبُديل: أي أنه معتمرٌ غير مقاتل، وأنه قد أتى بالهدي لينحره، وكل ما سيفعله هو أنه سيدخل مع أصحابه ويطوفون بالبيت ثم ينحرون الهَدْيَ ويعودون وقد قضوا عمرتهم. وفي العرف الذي كان جرياً بين قريش وعامة العرب أنهم لا يمنعون عن البيت حاجاً أو معتمراً أياً كانت ظروف السياسة بينهم وبينه.

وعندما يعود عروة إلى قريش يتحدث إلى رجالها حديث رجل قد بَهَرَه ما رأى من هيبة رسول الله ﷺ بين أصحابه، وطاعتهم له ومحبتهم فيه ثم

---

(١) الأعداد جمع عد، بكسر العين، وهو الماء الذي له مادة لا تنقطع كماء العين والبئر و هذا يؤكد ما قلناه عن حسن اختيار رسول الله لمكان نزوله عند الحديبية!

(٢) ابن هشام، السيرة ٣/ ٢٧.

انتظامهم وحسن سمتهم، وهذا هو الذي ذكرناه آنفاً من أن رسول الله أدخل في جماعته نظاماً عظيماً وسمتاً جليلاً وروحاً من اتحاد الصف والتآخي والتفاني لم يعرفه العرب من قبل، وهذا ما بهر نظر عروة وجعله يغيِّر رأيه وينصح قريشاً بالاستجابة إلى ما يطلبه الرسول، قال: «يا قوم إني قد وفدت على الملوك، على كسرى وهرقل والنجاشي، وإني والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمد في أصحابه. والله ما يُشدُّون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيفْعَل. . .[1]» وختم كلامه قائلاً: «والله لقد رأيتُ نُسَيَّات معه إن كن ليسلمنه أبداً على أي حال، فروا رأيكم، وإياكم واضْجاع الرأي[2]، وقد عرض عليكم خطة فمادّوه[3]! يا قوم: اقبلوا ما عَرَض فإنني لكم ناصح، مع أني أخاف ألا تُنْصَروا عليه! رجل أتى هذا البيت معظِّماً له، معه الهديُ ينحره[4] وينصرف. فقالت قريش لا تكلم بهذا يا أبا يعفور! لم غَيْرُك تكلم بهذا لَلُمْناه، ولكن نرده عن البيت في عامنا هذا، ويرجع إلى قابل[4]».

وواضح من نهاية هذا النص أن القرشيين هم الذين اخترعوا ذلك الحل الوسط فقد كان الرسول ﷺ يريد أن يدخل مكة معتمراً ذلك العام، وكانت قريش تقول لا يدخل قط، وعندما أخذوا فكرة واضِحة عن موقفهم، وتبينوا صدق عزيمة محمد وأصحابه وقُدْرَتهم على دخول مكة بالقوة إذا أرادوا اخترعوا هذا الرأي الوسط الذي يُرضي الطرفين: إنهم يظهرون بهذا أمام الناس أنهم لم يرضخوا لما أراد المسلمون ولم يخافوا أمامهم، وكذلك المسلمون يعودون هذا العام إلى المدينة ثم يعتمرون في العام القادم، وسيرفض المسلمون هذا الحل لأنهم خرجوا للعمرة ولا بد أن يدخلوا مكة ليعتمروا، ولكن الرسول رأى ببعد

---

(١) الواقدي، مغازي ٢/٥٩٨.

(٢) أي التلكؤ فيه.

(٣) أي اعقدوا معه هدناً أو صلحاً لمدة معينة.

(٤) الواقدي، مغازي: ٥٩٨ ـ ٥٩٩.

نظره أن الرأي الذي تعرضه قريش لا بأس به إذا ارتبط باتفاق هدنة توقف أثناءها الحرب وتنفتح الطرق بين مكة والمدينة، فيقبل أهل مكة على الإسلام ويصغر حجم أعداء الإسلام من زعماء القرشيين، ويتمهد الطريق لفتح مكة دون قتال، وهذا ـ آخر الأمر ـ ما كان رسول الله ﷺ يرجوه وإن لم يتفطن إليه المسلمون وغير المسلمين إلا فيما بعد.

ثم يظهر على المسرح مكرز بن حفص بن الأخيَف، وهو من سادات بني عامر بن لؤي، من بني معيص، وكان رسول الله يعرفه كما يعرف كل قرشي فقال عندما رآه: إن هذا رجل غادر! وقال له مثل ما قال لصاحبيه، ثم يختفي مكرز دون أن يفعل شيئاً كأنه لم يجيء، ومن الواضح أنه وفد عيناً أو جاسوساً لقريش. وتفطن الرسول لأمره، ثم جاء الحُليس بن علقمة بن عمرو بن الأوقح وهو يومئذ سيد الأحابيش أكبر حلفاء قريش، ومن الواضح إن قريشاً رغم تظاهرها بالثبات كان ينتابها القلق من هذه القوة التي استقرت على أبواب دارها، وهي لا تعلم ما تريد بها ولا تملك من القوة ما تدفعها بها إذا أرادت شيئاً، فهي ترسل الرجل تلو الرجل ليستوضح لها الأمر، وهؤلاء الذين يذكرهم الرواة هم الظاهرون المعروفون، ولا بد أنه كان هناك جواسيس أُخَر طافوا بالمسلمين وحذروهم ونقلوا ما استطاعوا نقله إلى قريش من المعلومات عنهم، والحليس كان من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وكان الرسول يعرفه، فقد كان سيد الأحابيش، وهم مجموعة قبائل صغيرة من بني الحلرث ابن عبد مناة من كنانة بن قيس عيلان بن مضر مثل الديش والقارة والهون. وكان بنو عبد مناة بن كنانة منهم يخدمون الحجاج ويحرسونهم لقاء جعل ولهذا قال الرسول ﷺ عن الحليس حين رآه قادماً إنه في قوم يعظمون الهدي ويتألهون ومعناه هنا يحترمون الحجاج والمعتمرين، ولهذا طلب إلى أصحابه أن يبعثوا في وجهه الهدي أي الجمال والشياه والأعناز التي تخصص للتضحية بها اتماماً للعمرة ففعلوا، وكانت تلك الحيوانات قد هزلت وساء حالها لطول بقائها

مقيدة محبوسة وتساقط شعرها، فلما رأى الحليس ذلك عز عليه لأنه هو وقومه يتكسبون من خدمة الحاج والمعتمر، وهم الذين يصيبون معظم لحوم الأضاحي، ثم إنه سمع المسلمين يضجون بالتلبية مما يؤكد أنهم عمار البيت، ولم تعد له حاجة بعد ذلك للحديث مع رسول الله فقد أصبحت القضية قضيته، خاصة والأحابيش كانوا على علاقة صهر وثيقة مع بني عامر بن لؤي وأحلافهم الذين يتزعمون قريشاً الآن، فهؤلاء فيما رأى عمار من حقهم أن يطوفوا بالبيت، ومن حقه وحق جماعته أن يصيبوا منهم ما يتيسر لهم من الرزق، أما منعهم من الاعتمار فيضر بمصالح الأحابيش، فعاد مسرعاً إلى قريش ليقول لرجالها إنهم لا ينصفون إذ يصدون الناس عن البيت ويقطعون أرزاق الحجيج والعمار، وهذا يخالف ما عاهَدَت قريش الأحابيش عليه، وهكذا نرى كيف كان رسول الله بالغ بالفطنة والصدق وسَعَة الأفق فهو يجرد قريشاً من حججها وأنصارها، كل ذلك وهو يعلم ما يعلم من ضَعفِها وقلة حيلة رجالها إذ ذاك.

وقد خاطب الحليس القرشيين خطاب رجل يدافع عن مصالح قومه وقال في نهاية كلامه: «والله الذي نفسي بيده لَتُخَلُّن بينه وبين ما جاء له أو لأنْفِرن بالأحابيش نفرة رجل واحد». فردوا عليه قائلين: «إنما كل ما رأيت مكيدة من محمد وأصحابه، فاكفف عنا حتى نأخذ لأنفسنا بعض ما نرضى به».

فلما استوثق رسول الله من أن قريشاً قد جردت من آخر من بقي لها من أنصارها، تحرك للإتصال برجالها مباشرة وهو يعلم تماماً علام استقر رأيهم، ولم يكن عنده مانع من قبوله، ولكن كان لا بد لتثبيت ذلك من أن تقر به قريش صراحة وترتبط به على رؤوس الأشهاد، لا يتم ذلك إلا عن طريق مفاوضات مفتوحة.

وبدأ رسول الله ﷺ فأرسل رجلاً من خزاعة يسمى خراش بن أمية الكعبي على جمل لرسول الله ﷺ، فما كاد يُبَلِّغُهم الرسالة حتى نفروا في وجهه وعقروا جمله وكادوا يقتلونه، فعاد الخزاعي وهو لا يصدق بالنجاة، وطلب إلى رسول الله أن يبعث رجلاً «أمنع منه» فكلم الرسول في ذلك عمر، ولكن عمر قدَّر أن قريشاً لا بد معتدية عليه، فاعتذر عن عدم القدرة على القيام بالمهمة ورشح عثمان بن عفان، وكان عثمان رجلاً محترماً من القرشيين وله فيهم قرابة قوية تمنعه، وهذا يدلنا على أن قريش الكفار في مكة كان فيهم عصب ينزع إلى بني عبد شمس، ولا يزال عرق العصبية ينزع بكتلة قريش ـ فيما عدا بني هاشم ـ حتى ألقى الخلافة كلها بين يديها في ردة قبلية عصبية هي بلا شك نتيجة هذا الموقف المتشدد المعادي لبني هاشم، وهم عترة الإسلام وأهله وبيته.

ولا نستغرب والحالة هذه أن قريشاً تتشدد في موقفها كأنها أنست في عثمان عطفاً عليها: عرض عليهم عثمان أن يدخلوا في الإسلام فرفضوا ذلك، ثم ردد عليهم ما قاله رسول الله ﷺ آنفاً من أن تدع قريش عداءها لمحمد وتدع ذلك لمن هو أقوى منها من قبائل العرب، فإذا انتصر محمد كان هذا نصراً لهم، إذ هم قرشيون مثله ودخلوا فيما يدخل فيه الناس أو يقاتلوا إذا أحبوا، وهم وافرون جامُّون ـ أي مستريحون ـ «وأضاف إن الحرب نهكتكم وأذهبت بالأماثل منكم، وأخرى: إن رسول الله ﷺ يخبركم أنه لم يأت لقتال أحد، إنما جاء معتمراً معه الهدي عليه القلائد، ينحره وينصرف»[1] وأعاد عثمان هذا الكلام على كل من لقي من كبار القرشيين دون جدوى. وجدير بالملاحظة هنا أن عثمان يتكلم هنا بلسانه لا باسم المسلمين ـ وكان هذا هو الأمثل، فهو من كبار أعلام أمة الإسلام، أما إن يقول لهم أن رسول الله يقول لكم كذا وكذا ـ كما تزعم بعض

(١) الواقدي، مغازي ٢ / ٦٠١.

المراجع ـ فحيدة لا ندري ماذا نقول فيها، والذي يهمنا هنا أن وساطة عثمان انتهت عند ذلك، وأجاره ابن عمه ابان بن سعيد بن العاص.

ولكن عثمان لقي في مكة جماعات من المسلمين مستضعفين تحت سطوة زعماء قريش، وقد بعث نزول رسول الله بالحديبية الأمل في نفوسهم، وقال بعضهم: «اقرأ على رسول الله منا السلام، أن الذي أنزله بالحديبية لقادر أن يدخله بطن مكة! وكان على عثمان أن يعود إلى رسول الله فيبلغه نتيجة مسعاه، ولكنه لم يفعل، فكان ذلك باعثاً للمسلمين على إساءة الظن فيه، فحسبوا أنه انفرد بالطواف والعمرة وحده، ولكن تبين بعد ذلك أنه لم يفعل. وأحس رسول الله ﷺ أن الموقف يتطور وأن قريشاً عندما رأت الحسنى واللين طمعت وتشددت، فأخذ في الاستعداد للموقف بما يناسبه، وقد عرفنا رسول الله في حياته كلها مبادراً إلى العمل، لا يدع الظروف تقود جماعته أبداً، بل هو الذي يقود الأحداث ويجعل جماعته سيدة الموقف أبداً، وأمثال هذه الخصال المحمدية ورثها عنه رجاله الأماثل من طبقة أبي بكر وعمر وعلي وأبي عبيدة، وانظر مثلاً إلى أبي عبيدة في فتوح الشام، وكيف لم يدع المبادرة تفوته أبداً، وكأنه رضي الله عنه شهاب لا يهمد، فمن حمص إلى بصرى إلى فحل وبيسان ثم إلى اليرموك حيث يتمم النصر على ما نعلم، فإذا لم يكن الرسول صلوات الله عليه قد لقبه بأمين هذه الأمة، فهو والله أمينها بإيمانه وتفانيه وما تعلم على يدي رسوله الكريم، وهذا هو ما يفوتنا اليوم في صراعنا للأمم: لا نستقتل قط دون خروج زمام أمورنا في بلادنا من أيدينا، بل ندع الزمام يفلت ونعود علَى الناس بالمَلامة، وقد كانت أجيالنا السالفة في عصور الهزيمة تلقي كل اللوم على الدهر لأنهم كانوا أقل من تحمل المسئولية.

وكان رسول الله يأمر أصحابه بأن يتحارسوا بالحديبية، فلما اشتد الأمر أقام ثلاثة من أصحاب البأس والإيمان واليقظة من أصحابه على الحراسة، وهم أوس بن خَوْلي وعباد بن بشر ومحمد بن مسلمة، والثلاثة من أفذاذ الرجال وقد

مررنا بهم في أطواء هذه الدراسة مرة بعد أخرى، فحدث أن قريشاً أرسلت خمسين رجلاً ذات ليلة ليطوفوا بالمسلمين لعلهم يجدون فرصة، وكان على رأسهم مِكْرَز بن أبي حفص بن الأخيف بن علقمة من سادة بني عامر بن لؤي الذي سبق أن حاول التجسس لقريش، فما كان من محمد بن مسلمة إلا أن أخذ الخمسين رجلاً كلهم أسرى، فكان هذا العمل الرائع من محمد بن مسلمة عملاً حاسماً رد قريشاً إلى رشدها وأرغمها على أن تفتح عينيها وترى الموقف على حقيقته.

ذلك أن المكيين كانوا قد ظنوا أنهم يمسكون عثمان رهينة. وكان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ قد استاذنوا رسول الله في زيارة مكة في أمان قبائلهم، فأذن لهم فأمسكت بهم قريش وحسبت أنها تساوم عليهم، ويستوقف نظرنا أن معظم هذا النفر كانوا من بيوت حلف لَعَقة الدم المُنَاهِضِين لبني هاشم، كأنهم كانوا يشعرون أن تلك العصبية المناهضة لبني هاشم تنفعهم حتى في موقف كهذا. وهؤلاء النفر هم: كُرز بن جابر الفهري (من فهر) وعبدالله بن سهيل ابن عمرو (عبد شمس)، وعياش بن أبي ربيعة (مخزوم) وهشام بن العاص بن وائل (سهم بن عمرو بن هصيص) وحاطب بن أبي بلتعة (من لخم هو حليف بني أسد بن عبد العُزَّى وهو صاحب الحادث المعروف قبيل بدر) وأبو حاطب عمرو بن عبد شمس (من بني عامر بن لؤي) وعبدالله بن حذافة (بنو سهم) وأبو الروم بن عمير (من بني عبد الدار بن قصي) وعمير بن وهب الجمحي وعبدالله بن أبي أمية بن وهب حليف سهيل بن عمرو.

أليس هذا أمراً يستوقف النظر؟ أن تظل رابطة المنفعة التي ربطت هذه البيوت من قريش المعادية لبني هاشم وللإسلام، قائمة يخفت صوتها عندما يجيء الإسلام فيصبح صوتها لا يكاد يسمع إلى جانب جهارة صوت الإسلام، لترتفع مرة أخرى عندما يتولى واحد منها الخلافة (هو عثمان) تجد طريقها إلى

الظهور، وتدب دبيب الأفعى مخادعة للناس دون علم الخليفة الشهيد ذي النورين.

ونعود إلى الجماعة الذين أسرهم ذلك الصحابي الهمام الذي لم نقدره قدره وهو محمد بن مسلمة، فنقول إن وقوع الخمسين قرشياً أسرى بأيدي رسول الله وأصحابه رد قريشاً إلى عقلها فسعت إلى التفاهم مع رسول الله لتجنب نفسها وقومها أذى كان رسول الله يرجو أن يتداركها الله منه برحمته ومحكم تدبيره، وقد فعل!.

وهنا وقد وقع خمسون رجلاً من قريش في يد المسلمين تُبْدِي قريش رغبة في التفاهم، وترسل رسولاً يقول إنهم مستعدون لإطلاق سراح من عندهم من أصحاب رسول الله في مقابل إطلاق رسول الله لمن وقعوا في أسره. ويكون رسول الله إذ ذاك قد بادر إلى أخذ بيعة أصحابه على القتال. وهنا يتجلى لنا حرص رسول الله على أن يكون تصرفه في كل ما يتصل بأمور الجماعة الدنيوية قائماً على مشورتها وصادراً عن رأيها، وكان الرسول صلوات الله عليه يستطيع أن يفترض ـ وهو محق لو فعل ذلك ـ أن المسلمين موافقون على ما يفعل، ولكن الرسول هنا يقر مبدأ ويسير على قاعدة أساسية، وهو أن الرأي فيما أهم المسلمين من أمور دنياهم شورى بينهم، وهو يتمسك بذلك لأنه ﷺ كان يعرف أنه قدوة لأصحابه ولمن يجيء من المسلمين من بعده، فهو هنا يقرر قاعدة الشورى. لقد خرج من المدينة للعمرة، وقال لأصحابه ذلك، والآن تغير الموقف وأصبح هناك احتمال حرب، فلا بد أن يؤخذ رأي المسلمين، فمن يريد أن يحارب حارب ومن لم يرد يستطيع أن يفعل ما يريد، وهذا هو المعنى العظيم الذي تتضمنه بيعة الرضوان، فهي ليست مجرد أخذ موافقة المسلمين على حرب محتملة، وإنما هي اقرار لمبدأ أراد الرسول أن يكون قاعدة من قواعد العمل في أمته، وهو مبدأ شورى الجماعة، وقد سبق لرسول الله أن فعل ذلك عندما خرج إلى بدر، فقد خرج وخرّج الناس معه على أنهم يستولون

على عير لقريش، وعندما وصل الرسول إلى قرب سهل بدر، وبدا لـه الشر من ناحية القرشيين وجـد أن الموقف تغـير، فعقد مجلس شـورى وطلب للناس أن يقولوا رأيهم بكامل حريتهم، وكان عهد بيعة العقبة الثانية يلزم المسلمين جميعاً بالقتال في حالة الدفاع عن المدينة فحسب، وتأكد هذا في الصحيفة التي عـاهد الرسول فيها المهاجـرين والأنصار، أمـا الآن ومعه نفـر من الأنصار فـلا بد أن يُسْتَفْتَوا ما دام الأمر يتضمن تغييراً في شروط اتفاق وقاعدة جارية للعمل، وقد أدرك أهل المدينة من أصحاب الرسول الذين خرجوا معه إلى بدر أنهم المعنيون بـذلك، ورد الـرسول بـأنه بـالفعل يعنيهم ويسـألهم رأيهم في تغيـير نصـوص الاتفاق والقتال معه خارج المدينة وفي موقف ليس موقف دفـاع وإنما هـو موقف إعزاز لدين الله وكسر لشوكة الكفـر وأهله، فلما أيد الأنصـار هذا المبـدأ وأبدوا عظيم رغبتهم في نصرة الدين، قرر الرسول القتال برأي الجماعة.

ونحن نسجـل هنا هـذا الموقف ونقـرر هذه الحقـائق ليـرى المسلمـون أنهم يزعمون لأنفسهم أنهم يقتدون برسـولهم حق القدوة، ولكنهم في الحقيقـة لا يطبقونها، فلم نر أحداً من فقهائنا السابقين درس موضوع الشورى وقرر أنه سنة ثابتة وواجبة، فهذه هي الشورى يطبقها الرسول ﷺ تطبيقاً سلبياً مرة بعد أخـرى، ثم يزعم بعض النـاس أننا تعلمنـاها من الغـرب وها هي منصـوص عليها في القرآن الكريم ومطبقة أحسن التطبيق على يد رسوله، ولو أننا التـزمنا قرآننا وسنة نبينا لما سبقنا على وجه هـذه الأرض أحد إلى علم أو فضـل أو وجه من وجـوه السَّبْق والقوة والتقـدم، ولكننا التـزمنا بـالسنـة في صغـار الأمـور في الغالب ونسيناها في عظائمها.

وجلس رسول الله تحت شجرة الرضوان المشهـورة في السيرة يتلقى بيعـة الناس، وكانوا قد أقبلوا عليها فرحين مستبشرين، فلما رأى ذلك رجال قـريش من أمثـال سهيل بن عمـرو بن عبد ود بن عبد شمس سيد بني عامـر بن لؤي

وحويطب بن عبد العزى من بني عـامر بن لؤي أيضاً، «اشتد رعبهم وخـوفهم وأسرعوا إلى القضية[1]».

ويستلفت النظر من أخبار استعـداد المسلمين للفـداء استجابـة لما طلبـه إليهم رسول اللّه ﷺ خبرٌ ترويه أم عمار الأنصارية عن نفسها، وهي نسيبة بنت كعب بن عمـرو من بني مـازن بن النجـار، وهي صـحـابيـة صـادقـة بـاسلة لها مـواقف كثيرة في الـدفاع عن الإسـلام، وكان لهـا موقف مشهـور في معركة أحد، بل ستشتـرك في حروب الـردة وتخوض معـركة اليمـامة وتصاب يومئذ باثني عشر جرحاً، قالت عن حماس المسلمين للقتال يومئـذ: «فكأني أنظر إلى المسلمين قد تلبسوا السلاح، وهو معنا قليل إنما خرجنا عمَّاراً، فـأنا أنـظر إلى غُزَيَّة بن عمرو وقد توشح بالسيف فقمت إلى عمود كنا نستظل بـه فأخـذته في يدي ومعي سكين قد شددته في وسطي، فقلت: إن دنا مني أحد رجوت أن أقتله».

فلما رأت قـريش ذلك أطلقت من عنـدها من المسلمـين وفيهم عثمان، وأطلق الرسول مَن عنده من أسراهم، ورأت قريش أنها لن تستطيع شيئاً حيال المسلمـين، وأنَّ الأمر إذا استمـر على ذلـك لم تُحْمَد مَغَبَّتُـه، فـإن المسلمـين لن يصبروا على ذلك الموقف طـويلاً فسـارعت واجتمعت وتشاورت. وانتهى رأي رجالها في دار الندوة إلى قبول ما عرضه عليها رسول الله ويقول هنـا الواقـدي: «فقال أهل الرأي منهم: ليس خير من أن نصـالح محمـداً على أن ينصـرف عنا عامه هذا ويرجع من قابل، فيقيم ثلاثة وينحر هديه وينصرف ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا. فاجمعوا على ذلك. وقد أشرنا إلى أن زعـماء قريش كـانوا عـلى هذا الرأي منذ حين، ولكنهم الآن وقد أحسوا فعلاً أن المسلمين سيجتـاحونهم إذا شاءوا وأنه لا يمنعهم من ذلـك إلا حلم رسول الله ورغبتـه في تجنيب مكة ـ

(١) الواقدي، مغازي ٢/٦٠٤.

وفيها قومه ـ هذا المصير بادروا، إلى الإجابة، وكان اجتماعهم وتشاورهم واتخاذهم هذا القرار دون أن يقع بينهم خلاف يذكر، مما يدل على أن زعامة قريش لا زالت حتى ذلك الحين زعامة حقيقية حازمة منظمة، فلم يَحْدُث مثل هذا التعقل والتفكير والتدبير عندما قرر الرسول إدخال ثقيف والطائف في الإسلام، إنما كانت حرب وحصار، ثم رأت ثقيف أن الهزيمة تحل بها فاستسلمت، أما ما فعلت قبائل مثل غطفان وتميم فليس فيه أي تدبير أو إجماع رأي، ففي حالة غطفان لا نسمع بزعيم منهم له رأي إلا عُيَينة بن حصن الفزاري، ومع ذلك فقد كان رجلاً قلقاً طائشاً لا يثبت على حال، وكان إلى جانب ذلك منافقاً متقلباً يلقى الرسول يوماً ويحاربه بعد ذلك، ولم يحسب الرسول له كبير حساب، لأن رسول الله كان ينظر إلى بقية غطفان ويريد كسبها إلى الإسلام ولم ير أن يأخذها بجريرة شيخها الطائش، فتغاضى عنه حتى لا يغضب قومه ويسهل دخولهم الإسلام بعد ذلك، وهو لم يستخدم القوة مع غطفان، إنما هو قضى على مركز قوتها الحضاري وهو خيبر فانفرط عقد غطفان ودخلت في الإسلام ارسالاً ودخل عيينة في عداد من يأتمرون بأمر الرسول دون أن تكون له فيه كبير ثقة، وأما تميم فلم تكن لها جماعة موحدة أو رؤساء متحدون ولا رأي يعتز به إنما هم كانوا قبيلاً ضخماً من الأعراب لا يملكون إلا غروراً ناشئاً عن جهل، فلما جاء دورهم أرسل عليهم الرسول مثيلهم عيينة بن حصن وقومه فأخافوهم فعادوا إلى الرشد ودخلوا إلى الإسلام.

أما قريش التي بقيت على الكفر فلا زالت تحتفظ بنظامها وقيادتها. لقد صغر حجمها وتضاءلت قوتها ومَلَكَها الخوف فمنعها من إدراك كُنْه الإسلام وفضائله وما يمكن أن يعود عليها من خير إذا دخلت فيه، فوقفت مكانها جامدة الذهن من هذه الناحية واستمسكت قيادتها بصلف العنيد، الذي لم يبق له إلا الكبرياء وقد أحس زعماء قريش أن رسول الله لا يريد أن يحطم كبرياءهم فهو

يعاملهم برفق وأناة، واطمأنوا إلى أنه لن يأذن لأصحابه في اجتياحهم، فـأقبلوا على المفاوضة وهم عارفون بالمدى الذي يمكن أن يصلوا إليه، وندبوا للمفاوضـة ثـلاثة من رجـالهم هم سهيل بن عمـرو وحويطب بن عبـد العزى ومكـرز بن حفص، ويستلفت النـظر أن ثلاثتهم من عـامـر بن لؤي دون كعب بن لؤي، فسهيل بن عمرو هو ابن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وأمـا حويـطب فهو ابن عبـد العزى بن أبي قيس الـذي ينتهي نسبه إلى مالك بن حسل بن عامر بن لؤي وأما مكرز فهو من بني منقذ بن عمرو ابن معيص بن عامر بن لؤي فكأن الرياسة انتقلت كما قلنا من بني كعب بن لؤي - وفيهم عمود النسب النبوي ويمثلهم في جهة كفار قريش أبو سفيان صخر بن حرب - إلى بني عامر بن لؤي ولم يستلفت ذلك نظر مؤرخينا القدامى. ولكننا نلاحظ أن هذا القبيل من قريش بدأ يظهر أمره في قريش منذ أيام صحيفة مقاطعة بني هـاشم، فهشام بن عمـرو بن رجيعة كـان أول من نهض لنقض صحيفة المقاطعة وواجه أبا جهل وأنداده من المتشددين وتمكن من نقض الصحيفة بمعاونة نفر من القرشيين. والآن نرى بني عامر بن لؤي يتصدرون للزعامة، فأين إذن أبو سفيان بن حرب بن أمية الأكبر من بني عبد شمس بن عبد مناف؟ نعتقد أن أبا سفيان وقومه من بني عبد مناف الذين كانوا يمثلون بني كعب بن لؤي كانوا منذ حين أميل إلى التفاهم مع محمد ﷺ وأمة الإسلام. لقد كانت الرياسة لهم حتى الخندق، وبعد الخندق، وعندما تبينوا ألا قِبَل لقريش ومكة بأمـة الإسلام في المدينة مالوا إلى الموادعة، ولم يرض عن ذلك بنو عامر بن لؤي وتصدوا للرياسة فتركهم أبو سفيان وقومه يفعلون ما يستطيعون. وسيظل هذا القبيـل في قيادة قريش حتى ينتهي الأمر إلى نقض صلح الحديبية مع رسول الله، ويقرر الرسول فتح مكة، وهنا تعود القيادة إلى بني كعب بن لؤي، فيكون المتصدر للتفاهم مع رسول الله أبو سفيان بن حرب، ويحسِن التصرف فيما أراد، وسنرى أنه سيتفق مع الرسول ﷺ بصورة غير مباشرة على أن تسلُم قريش ومكة دون قتال، ويكون ذلك فعلاً، ويكون في ذلك إنقاذاً لقريش، بل بداية لعصر جديد من تاريخها في

ظل الإسلام. لأن قريش مكة عرفت كيف تنضم إلى قريش المدينة، فاتحد القريشان من جديد تحت راية الإسلام، وفي ظل محمد صلوات الله عليه، وستحافظ قريش على هذه الوحدة في ظل أبي بكر وعمر، ويجتهد بنو عبد شمس في بناء أنفسهم في ظل دولة الإسلام دون أن ينسوا حسدهم ومنافستهم لبني هاشم، وما تكاد الخلافة تصير إلى عثمان بن عفان ـ وهو من عبد شمس ـ حتى يبذل العبشميون كل ما يستطيعون لوضع أيديهم على أكبر نصيب من عَصَبَات القوة في دولة الإسلام، فإذا استوثقوا من ذلك بقيادة معاوية بن أبي سفيان نهضوا لمنازلة بني هاشم بعد مقتل عثمان، ولا يزالون يعملون حتى لا يستطيع علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين السيطرة على قريش كلها وعلى دولة الإسلام جميعها، معتمدين في ذلك على روابط العصبية التي ربطتهم إلى مخزوم وسهم وجُمَح ومرة بن عبد مناة، لأن بني هاشم وعلى رأسهم علي بن أبي طالب نسوا موضوع العصبية اتباعاً لما يفضي به الإسلام، فأحياه بنو عبد شمس وعادوا بدولة الإسلام إلى عصبية الجاهلية وحكموا الأمة بحد السيف، ولكن الإسلام غلاب، فلا زالت دعوة الهاشمية تستجمع القلوب حتى نهضت بعبء الدولة الهاشمية التي تحولت ـ بمؤامرة معروفة ـ إلى دولة عباسية غاصبة غاشمة. وتتحول الهاشمية الموتورة إلى شيعية بشتى مذاهبها، فيكون بنو عبد شمس مسئولين عن ذلك الانكسار البعيد المدى، الوخيم العواقب بالنسبة للقوة السياسية للمسلمين، أما قوتهم العقيدية المتمثلة في الأمة فظلت كتلتها باقية صلبة حتى يحدث الكسر الخطير الذي يحدثه الصفويون في جبهة الإسلام في النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي.

المفاوضة والصلح:

لم يكن رجال عامر بن لؤي موفقين في قيادتهم لقريش، وكان انتدابهم أنفسهم للتفاوض مع رسول الله ﷺ مسيئاً إليهم، ولولا كرم الرسول وسعة

قلبه واتساع ذهنه لما نجحت المفاوضة، ولكننا نعرف ما كان من أمر سُهيل بن عمرو وسوء حديثه للرسول وإصراره على عدم ذكر أنه رسول الله في نص القضية أو نص الصلح، ونحن نعرف أن رسول الله ﷺ كان طويل الأناة هادىء الطبع لا يرفع صوته في حديث، فانظر كيف يصف الواقدي شكل هذه المفاوضة: «فأتى سهيل إلى النبي ﷺ حين طلع قال: أراد القوم الصلح! فتكلم رسول الله ﷺ فأطال الكلام: وتراجعوا، وترافعت الأصوات وانخفضت».

«فحدثني يعقوب بن محمد عن عبد الرحمن بن عبدالله، عن الحارث بن عبدالله بن كعب قال: سمعت أم عمارة تقول: «إني لأنظر الى رسول الله ﷺ جالساً يومئذ متربعاً وإنَّ عبَّادَ بنَ بشر وسلمة بن أسلم بن حريش مقنعان بالحديد قائمان على رأس النبي ﷺ، إذا رفع سهيل بن عمرو صوته قالا: اخفض من صوتك عند رسول الله، وسهيل بارِكٌ على ركبتيه رافعٌ صوته كأني أنظر إلى عَلَم في شفته[1] وإلى أنيابه، وأنَّ المسلمين حول رسول الله ﷺ جلوس».

وعندما تم الاتفاق والمسلمون يسمعون، لم يطق عمر صبراً على ما يرى من حلم الرسول وطول أناته مع هذا الرجل، فقفز من مكانه واتجه إلى رسول الله، وقال: يا رسول الله! ألسنا بالمسلمين؟ قال رسول الله ﷺ: بلى! قال: فعلام نُعطَى الدنية في ديننا؟ ففهم رسول الله ما يقصد إليه عمر فقال: «أنا عبدالله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يُضَيِّعني» والحق أن جلافة عمرو بن سهيل تجاوزت المدى، وهو يطلب ويشتط معتمداً على كرم الرسول ورِفْقِه وطول أناته. وذهب عمر إلى أبي بكر وأراد أن يستثيره فكان رد أبي بكر: «إلزم غرزه (يريد طريقه) فإني أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن يخالف

(١) العلم: الشق في الشفة العليا، وذلك ما يعرف بفم الأرنب.

أمـر الله ولن يضيعـه» وبمثـل هـذه العبـارات والمـواقف استحق أبـو بكـر لقب الصـديق، وبمثل تلك المـواقف أيضاً استحق عمـر لقبه: الفـاروق، فقد كـان كالسيف يفرق الحق من الباطل.

وهـا هنا مـوقف يرينـا الفارق بـين القُرَيشـيْن. فمحمد وصحبـه ومنهم الكثيرون من قريش الإسـلام، قريش الهـدى والإيمان آيـة في الفضل والكـرم والبعد عن البغضاء والأحقاد، ورسول الله في هـذا المشهد لا يـزال يكرر: «أنا عبـدالله ورسولـه، ولن أخالف أمـره ولن يضيعني» ولـو أنصف أولـو الأمـر في تاريخ الإسـلام لجعل كلٌ منهم منهج حيـاته قـوله: «أنـا عبدالله، ولن أخـالف أمره ولن يضيعني».

وقد رأينا عمر وأبا بكر. فاستمـع إلى ثالث الثـلاثة الـذين جمعهم الإيمان والخـير والحب لرسـول اللّه وهو أبـو عبيدة عـامر بن عبـداللّه بن الجراح من بني الحارث من فهر، وغـريب أمر بني الحـارث بن فهر بن مـالك هؤلاء! فقـد اطّلَع هذا البيت من قريش من أعـلام الإيمان والإسـلام رجالاً لا يقـارنون إلا ببني هاشم فمنهم بعد أبي عبيـدة ـ وهو أعـظمهم ـ عمرو بن الحـارث بن زهير وهو بدري، وسهـل بن ربيعة بن عـامر وهـو ممن مشى في نقض الصحيفة، ثم أسلم وكان بدريًا، وعياض بن غَنْم الفاتح المشهور الذي فتح الجزيرة العراقيـة وأرمينية، وهو أول من جـاز الدرب إلى الروم، ومنهم هند بنت جـابر زوج أبي عبيدة، ومنهم نافـع بن عبد القيس من رجـال فتح مصر، وهـو فاتـح النوبـة، وابنه عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري أعظم فاتحي المغرب، ومن ولد هذا الأخير حبيب بن أبي عبيدة وابنه عبد الرحمن أول من حاول الاستقلال بافريقية وإقامة دولة محلية اسلامية فيها.

ويردد عمر عـلى أبي عبيدة مـا قالـه لأبي بكر فيقـول له أبـو عبيدة: «ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ما يقـول؟ تعوّذ بـالله من الشيطان واتّهم

رأيك!» قال عمر: «فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حياءً. فما أصابني شيء قط مثل ذلك اليوم، وما زلت أصوم وأتصدق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت يومئذ».

هذا في جانب قريش الإيمان والإسلام فماذا في جانب قريش الكفر والطغيان؟

هذا سهيل بن عمرو يتجنى ويتصلف معتمداً على كرم رسول الله، فقبل أن يكتب الكتاب اعتقد أن الأمر قد تم ومضى يشتط ويتطاول ويرفض أن يكتب أن محمداً رسول الله، وعندما يقبل ابنه أبو جندل، وكان من المسلمين عند قريش ثم هرب من مكة ويقبل إلى رسول الله مستجيراً أثناء مفاوضة الحديبية وكان متوشحاً سيفه «فرفع سهيل رأسه فإذا بابنه أبي جندل فقام إليه سهيل فضرب وجهه بغصن شوك، وأخذ بَلِبَّته. وصاح أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فزاد ذلك المسلمين شراً إلى ما بهم (وكانوا جميعاً قلقين بسبب كرم الرسول وطول أناته يتمنون لو أذن لهم فاجتاحوا مكة وقريشاً جميعاً) وجعلوا يبكون لكلام أبي جندل قال حويطب ابن عبد العزي لمكرز بن حفص (وكلاهما من المشركين وهما زميلا سهيل بن عمرو ولكنهما أقل جلافة منه)، ما رأيت قوماً قط أشد حباً لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد، وبعضهم لبعض، أما أني أقول لك: لا نأخذ من محمد نَصفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة. فقال مكرز: أنا أرى ذلك»، فكأن هذين الكافرين أحسا بقوة الإسلام والمسلمين بفضل إيمانهم وكرم نبيهم وطول أناته وبعد نظره، فهما يريان أن هذا المشهد كله لا بد أن ينتهي بنصر محمد والمسلمين معه، أما سهيل بن عمرو فلم يفتح عينيه بعد، فهو يريد أن يأخذ ابنه ليرده إلى الكفر، ويصيح مخاطباً رسول الله ﷺ: هذا أول ما قاضيتك عليه، ردوه! فقال رسول الله: إنا لم نقض الكتاب بعد! فقال سهيل: والله لا أكاتبك على شيء حتى ترده إليَّ! فرده رسول الله ﷺ، فكلم رسول الله ﷺ

سهيلاً أن يتركه ويأبى سهيل، فقال مكرز بن حفص وحويطب: يا محمد، نحن نُجيره لك، فأدخلاه فسطاطاً فأجاراه، وكف أبوه عنه، ثم رفع رسول الله ﷺ صوته فقال: يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً. إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً وإنا لا نغدر».

وهنا لم يطق عمر صبراً، للمرة الثانية، فعاد يكرر على رسول الله مقالته الأولى وقد غُمَّ عليه، وهو هنا يُعَبِّر عن شعور الكثيرين من المسلمين الذين لم يدركوا مرمى رسول الله ﷺ من وراء الصبر وضبط النفس مع هذا الكافر والمكابر اللجوج، فهو يتحدث إلى أبي بكر: فيقول أبو بكر: إنه رسول الله ولن يعصيه، ولن يضيعه، فدع عنك ما ترى يا عمر، قال عمر: فوثبت إلى أبي جندل أمشي إلى جنبه، وسهيل بن عمرو يدفعه وعمر يقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، وإنما هو رجل وأنت رجل ومعك السيف! فرأيت أن يأخذ السيف ويضرب أباه، فضنَّ الرجل بأبيه فقال: يا أبا جندل، إن الرجل يقتل أباه في الله، والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم في الله! فرجل برجل! قال: وأقبل أبو جندل على عمر فقال: ما لك لا تقتله أنت؟ قال عمر: نهاني رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره، قال أبو جندل: ما أنت بأحق بطاعة رسول الله مني!

وقال عمر ورجال معه من أصحاب النبي ﷺ: يا رسول الله ألم تكن حدثتنا أنك تدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة، وتُعَرِّف مع المعرفين (أي تقف بعرفات)؟ وهَدْيُنا لم يصل إلى البيت ولا نحن! قال رسول الله ﷺ: «قلت لكم في سفركم هذا؟ قال عمر: لا! قال رسول الله ﷺ أما إنكم ستدخلونه وآخذ مفتاح الكعبة وأحلق رأسي ورؤوسكم ببطن مكة وأُعَرِّف مع المعرفين».

قال الواقدي: «ثم أقبل رسول الله على عمر، فقال: أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب ﴿إذا جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾ ـ الأحزاب ٣٣/ ١٠ أنسيتم يوم كذا؟ وجعل رسول الله ﷺ يذكرهم أموراً أنسيتم يوم كذا؟ فقال المسلمون: صدق الله ورسوله يا نبي الله، ما فكرنا فيها فكرت فيه. لأنت أعلم بالله وبأمره منا! فلما دخل رسول الله ﷺ (مكة) عام القضية[1]، وحلق رأسه قال: هذا الذي وعدتكم، فلما كان يوم الفتح أخذ المفتاح فقال: أدعوا إليَّ عمر بن الخطاب! فقال: هذا الذي قلت لكم! فلما كان في حجة الوداع بِعَرَفة فقال: أي عُمَر! هذا الذي قلت لكم! قال: أي رسول الله! ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية! وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قَصُرَ رأيهم عما كان بين محمد ورَبّه. والعِباد يَعْجَلون، والله تبارك وتعالى لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد الله. لقد نظرت إلى سُهيل بن عمرو في حجه (في حجة الوداع) قائماً عند المنحر يُقرِّب إلى رسول الله ﷺ بُدْنَه ورسول الله ﷺ ينحرها بيده، ودعا الحلاق فحلق رأسه، وأنظرُ إلى سهيل يلقط من شعره، وأراه يضعه على عينيه، واذكر إباءه يوم الحديبية بأن يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، ويأبى أن يكتب أن محمداً رسول الله، فحمدت الله الذي هداه للإسلام، وصلوات الله وبركاته على نبي الرحمة هدانا به وأنقذنا من الهلكة[2]».

ولقد تابعت في هذا الحديث نص الواقدي، فإنه أبلغ من كل مقال في تصوير حال قريش المؤمنة تجاه قريش الكافرة، وأستطرد في حديث الحديبية حتى أفرغ منه، فأقول: إن سهيل بن عمرو هذا عند كتابة نص الاتفاق،

(١) عندما اعتمر بعد ذلك بسنة بناء على صلح الحديبية.
(٢) الواقدي، مغازي، ٢/ ٦٠٩ ـ ٦١٠.

وبعد أن استدعى الرسول علي بن أبي طالب ليكتب توقف سهيل في أن يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» وأصر عليّ أن يكتب باسمك اللهم، والمسلمون يضيق صدرهم بما يرون ويسمعون، ويتغاضى له الرسول عن ذلك ويأمر ـ علياً بأن يكتب باسمك اللهم! ثم يتوقف سهيل بن عمرو في أن يكتب: محمداً رسول الله، ويقول في جرأة الجاهل: لو أعلم أنك رسول الله ما حالفتك واتبعتك أفترغب عن اسمك واسم أبيك: محمد بن عبدالله؟ فضج المسلمون منها ضجة هي أشد من الأولى، حتى ارتفعت الأصوات وقام رجال من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: لا نكتب إلا محمد رسول الله!.

ثم اقرأ بقية الخبر عند الواقدي، لتعرف إلى أي مدى كان رسول الله ﷺ يفهم أصحابه ويحترم مشاعرهم ويجتهد في إقناعهم باللين والصبر، بأن ما سيبلغونه بالأناة والملاينة يزيد اضعافاً على ما يمكن أن يبلغوه بالعنف، وما داموا قد ارتضوه هادياً ورئيساً وبايعوه على الحرب والسلم وفوضوه في الأمر كله بعد المشاورة في بيعة الرضوان، فليتركوه يسير الأمور كما يرى.

قال الواقدي: فحدثني ابن أبي سَبْره، عن اسحاق بن عبدالله عن أبي فروة عن واقد بن عمرو، قال: حدثني من نظر إلى أُسَيْد بن حُضير وسعد بن عُبادة قد أخذا بيد الكاتب فأمسكاها وقالا: لا تكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا! علام نُعطَى هذه الدنية في ديننا؟ فجعل رسول الله ﷺ يخفضهم ويومىء بيده إليهم: اسكتوا! وجعل حويطب يتعجب مما يصنعون. ويقبل على مكرز بن أبي حفص ويقول: ما رأيت قوماً أحوط لدينهم من أولئك القوم! فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم. فنزلت هذه الآية في سهيل حين أبى أن يُقِرَّ بالرحمن: ﴿قل أدعو الله أو أدعو الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى﴾ (سورة ١٧ الإسراء ١١٠)، فقال رسول الله ﷺ: أنا محمد بن عبدالله، فاكتب فكتب: باسمك اللهم، هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبدالله وسهيل بن عمرو. اصطلحا على وَضع الحرب عشر سنين يأمن فيها

الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه لا إسلال ولا إغلال[1]، وان بيننا عبية مكفوفة[2] وأن من أحب أن يدخل في عهد محمد فعل، وأنه من أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل. وأنه من أتى إلى محمد منهم بغير إذن وليه رده إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم ترده، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ويدخل علينا قابل في أصحابه فيقيم ثلاثاً لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف في القرب» شهد أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ابن الأخيف.

ونقف هنا لحظة لنتأمل فيما أشرنا إليه من إطلاق الرسول ﷺ الحرية لأصحابه ليقول كل منهم رأيه كما يريد: فهذا عمر يعترض ورسول الله يجتهد في أن يهدىء من روعه ويطمئنه إلى أنه لا يرضى بدنية في دينه، وإنما هو يُحكِّم العقل وينظر إلى بعيد، وهو يثق في الله سبحانه وتوجيهه إياه، وهو سبحانه لن يضيعه. وهذان: أسيد بن الحضير وسعد بن عبادة يريدان أن يمنعا الكاتب (وهو علي بن أبي طالب) من أن يكتب إلا ما يقولون، ورسول الله يطيل معهم الأناة لأنه يعرف أنه يحقق بما يرى ويفعل للإسلام فوق ما يؤملان، وهو لا يغضب ولا يعبس ولا يأمر ولا ينهى، إنما هو يدع من يريد أن يقول رأيه ثم يقوله ثم بعد ذلك يكون رأي الأغلبية، والأغلبية قد فوضت رسول الله فهي راضية بما يرى: لا استبداد في جماعة الإسلام ولا رأي مفروض، وإنما هو الاقتناع والثقة بين الرسول والمسلمين. وقد رأينا أن رسول الله بعد أن اعتمر ثم حج بعد ذلك، حرص على أن يستدعي الذين كانوا يعارضون ليريهم أنهم لم يكونوا على صواب فيما رأوا، وأنه حقق كل ما وعد وكل ما يريدون في وقته وأوانه على

(١) الإسلال السرقة الخفية ،والمعنى المراد لا تدبير في الخفاء، والإغلال الخيانة.
(٢) أي يكف بعضنا عن بعض.

أحسن وجه، فأين هذا مما ستراه أمة الإسلام من عسف الأموية وطغيان العباسية؟ أين هذا من معاوية بن أبي سفيان الذي قتل رجالاً لأنهم اعترضوا على سب علي بن أبي طالب رضي الله عنه على المنابر، وأين هذا من أبي عبدالله السفاح وأخيه وأعمامه الذين افتتحوا عصرهم العباسي بمذابح شائنة لخصومهم السياسيين جميعاً، المسيء منهم وغير المسيء بل قتلوا في الطريق رجالاً من أوليائهم وبناة دولتهم منهم أبو سلمة الخلال الذي عرف بوزير آل محمد، لمجرد أنه ظن أن الدعوة هاشمية حقاً فكتب من تلقاء نفسه إلى الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر وآخرين من آل علي يعرض عليهم الخلافة غير عالم بما ائتمر عليه ابراهيم الإمام مع أبي مسلم الخرساني.

وما أكثر ما نبتعد عن خط الرسول ﷺ ثم نشكو! أن معظم مصائبنا آتية من أننا ندرس السنة درساً بالغاً ونؤلف فيها المجلدات فإذا جئنا إلى التطبيق انحرفنا عنها، ثم نطلب التوفيق من الله بعد ذلك! وهيهات!

ونلاحظ هنا أنه لم يوقع على هذه الوثيقة من الأنصار إلا واحد وذلك مفهوم، فإن الأنصار كانوا يرون أنها فرصة ضاعت عليهم، فرصة اجتياح مكة والقضاء على الأعداء بضربة واحدة، ولكن رأي الرسول وبصيرته وبعد نظره غلبت، فقبل الأنصار وإن غالبيتهم لغاضبون.

وبعد أن فرغوا من الكتاب احتفظ رسول الله بالأصل وأخذ سهيل نسخة. وما كاد العقد يتم حتى وثب مَن هناك من خزاعة وقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ونحن على من وراءنا من قومنا، ووثب بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة فقالوا: نحن ندخل مع قريش في عهدها وعقدها ونحن على من وراءنا من قومنا!

وكان هذا متوقعاً، فنحن نعرف ارتباط خزاعة بالفرع الهاشمي من قريش، وهو الذي انتقلت رياسته إلى المدينة متمثلة في محمد رسول الله ﷺ ثم

المهاجرين، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك وأشرنا كذلك إلى ميل بني بكر بن عبد مناة بن كنانة إلى بني عبد شمس بن عبد مناف منذ أيام حرب الفجار الثالثة.

ولكن حويطب بن عبد العزى استوقف نظره الأمر فقال لسهيل بن عمرو: بادأنا أخوالُك بالعداوة، وقد كانوا يستترون منا، قد دخلوا في عهد محمد وعقده. وكان حويطب هنا يعير سهيلاً بأن أمه من خزاعة وهي حُبّى بنت قيس بن ضبيش من بني عمرو بن خزاعة، وكذلك كان ثلاثة من أبناء عامر بن لؤي، وهم معيص وعويص ونعيم من أم خزاعية، أما أن خزاعة كانت تستتر من قريش أي تخفي ميلها لمحمد والإسلام فليس ذلك بصحيح، فالخزاعيون جميعاً كانوا مع محمد ظاهراً وباطناً ومعظمهم كان قد أسلم.

فرد عليه سهيل قائلاً: «ما هم إلا كغيرهم، هؤلاء أقاربنا ولَحْمَتُنا قد دخلوا مع محمد. قوم اختاروا لأنفسهم أمراً فما نصنع بهم؟ قال حويطب: نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بني بكر (بن عبد مناة بن كنانة) قال سهيل: إياك أن تسمع منك هذا بنو بكر، فإنهم أهل شؤم، فيثبوا بخزاعة، فيغضب محمد لحلفائه، فينقض العهد بيننا وبينه. قال حويطب: حظوت[1] والله أخوالك بكل وجه». فقال سهيل: «ترى[2] أخوالي أعز عليّ من بني بكر؟ ولكن، والله لا تفعل قريش شيئاً إلا فَعَلْتُه، فإذا أعانت بني بكر على خزاعة فإنما أنا رجل من قريش، وبنو بكر أقرب إلي في قدم النسب وإن كانت لهؤلاء الخَؤُولة، وبنو بكر من قد عرفت، لنا منهم مَوَاطن كلها ليست بحسنة، منها يوم عكاظ».

وهذا الحديث بين الرجلين يدل على عمق الروابط القبلية عند أولئك القرشيين وتعلقهم بالأنساب، فسهيل يدفع أول الأمر عن أخواله من خزاعة

(١) يريد: أيدتهم ودافعت عنهم.

(٢) يريد: أتحسب ان اخوالي... الخ.

ثم يقول إنه مع ذلك رجل من قريش يميل حيث تميل قريش، وأن قريشاً لو نصرت بني بكر بن عبد مناة بن كنانة فإنه مع قريش على أي حال، رغم أن كنانة كانت لهم مواقف سيئة من قريش كما فعلت في يوم عكاظ، وهو يوم من أيام الفجار، ويعرف بيوم عكاظ، وفيه تخلت بنو عبد مناة من كنانة عن أبناء عمومتها قريش وأيدت هوازن، فقتل في ذلك اليوم وفي يوم العبلاء الذي تلاه كثيرون من قريش ولم تنج قريش إلا بفضل العنابس من بني أمية الأكبر، وأحلافهم من بني مخزوم وتيم بن مرة، وتلك هي الأصول البعيدة لانقسام قريش إلى فرعين من بني كعب بن لؤي، هما بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو شمس بن عبد مناف وانضم إلى كل من الجانبين فريق من القرشيين. وأعجب من هذا أن عرق العصبية هذا ظل ينبض في هذا الفريق من بني قصي بن كلاب حتى أقاموا عليه دولة بني أمية، أما بنو هاشم فقد غلب عليهم الإسلام وأغناهم نسب رسول الله عن كل نسب، فكان هذا حسبَهم عند الله، أما عند الناس فقد نبض عرق الهاشمية في جمهور المسلمين غَضَباً لبني هاشم وما أصابهم من أعدائهم، ولم تعد الهاشمية عصبية قبلية بل محبة في محمد ﷺ وأَنَفَةً من أن يصيبهم هذا المكروه كله على أيدي فريق من قريش غلبت الدنيا عندهم على الدين، فاختاروا الدنيا وما كان أقصرها من دنيا! فإن هي إلا نيف وسبعون سنة هجرية حتى ذهبت بهم الدنيا التي تكالبوا عليها وصاروا حصيد السيوف، وقامت دولة الهاشمية التي انقلبت إلى عباسية طمعاً في الدنيا، فانتصر بنو العباس وما سعدوا، ودخلوا دولتهم يخوضون في بحر الدماء، ونادى مناديهم: لا عصبية بعد اليوم ولا نسب إلا في الإسلام، يريدون أن ينسى الناس بني هاشم، فصار العرب جميعاً من ذلك الحين ينسبون إلى آبائهم ولا يقال البكري أو الكعبي أو الثقفي، إلا عند الباحثين عن الأنساب من أهل العلم والمتمسكين بالأنساب من أهل البداوة والظعن، ولم يبق على التاريخ من نسب يذكره الناس جميعاً ويتبركون به غير نسب بني هاشم وعترة محمد صلوات الله عليه. وسبحان من خلق نبيه الأكرم عندما بدأ الخلق، وتبقى رايته ملاذاً

للناس عندما يُطوى الخلق كله ويُدعى للحساب.

هكذا انتهى هذا التواجه بين القُرَيْشَيْن بنصر مؤزر لقريش الإسلام على قريش الكفر، فإن الطريق عندما فتحت بين مكة والمدينة وتلاقى الناس، دخل في الإسلام جمهور من أهل مكة ممن كانوا يطوون أنفسهم على إيمانهم خوفاً من عصبية سادات الشرك في بلدهم، ويجمع الرواة على أن من أسلم فيما بين الحديبية وفتح مكة ـ على قصر المدة بينهما ـ زادوا أضعافاً على من أسلم قبلها. قال ابن اسحاق في تفسير قوله تعالى: ﴿فجعل الله من دون ذلك فتحاً قريباً﴾: صلح الحديبية. قال الزهري: فما فُتِح في الإسلام فَتْح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً والتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلِّم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك وأكثر. قال ابن هشام والدليل على ما قاله الزُّهري، أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة رجل في قول جابر، ثم دخل عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف»[1].

ومن جميل مذاهب أهل السيرة أنهم يتبعون حديث غزوة الحديبية بتفسير آيات من سورة الفتح، وهذه السورة الكريمة وما تضمنته من المعاني هي أبلغ تعبير عن نصر الإسلام ورسوله في غزوة الحديبية هذه. وقد رأينا أن ما أبداه رسول الله أثناءها من الصبر والحلم مع الكفار والمؤمنين على السواء، يؤكد لنا بعد نظره وصادق تقديره، فقد كان يعرف أن جعجعة سهيل بن عمرو وتمسكه بالكلمة والحرف وإصراره على الصغائر، إنما كان ستراً لما كان يشعر به هو وقومه من ضعف وخوف، حتى ما تمسك به صفوان من ضرورة رد من أتى محمداً ﷺ من المسلمين هارباً من الكفار رده عليهم، حتى هذا الشرط الذي

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٤/ ١٧٠.

أغضب الكثيرين من المسلمين تبين بعد قليل أن رسول الله كان بالغ الفطنة عندما سلم لصفوان الذي يبدو وكأنه تسليم لقريش بشيء هو ضرر للمسلمين، فقد روينا خبر أبي جندل بن صفوان بن أمية وكيف تمسك أبوه برده ـ وكان مسلماً ـ فرده الرسول ووعده بأن يجعل الله له مخرجاً وفرجاً قريباً، فيريد ربك أن يكون هذا الفرج أقرب مما تصور الناس، ذلك أن رجلاً يكنى أبا بصير واسمه عُتبة بن أسيد بن جارية كان حليفاً لبني زُهرة القرشيين، وكان قد أسلم، فهرب إلى المدينة لاجئاً إلى رسول الله وأمة الإسلام، وأرسلت بنو زُهرة في طلبه وفاءً بالشرط، فطلب رسول الله إلى أبي بصير أن يعود، فرضخ الرجل، واقتاده رجال قريش عائدين إلى مكة، فلما كان في بعض الطريق تمكن أبو بصير من قتل أحد آسريه، وأخذ سلاحه وسلبه وذهب إلى المدينة ليجد الباقين من آسريه يشكون أمره إلى الرسول، وأقبل أبو بصير في أثناء ذلك فقال لرسول الله: وَفَت ذِمتُك وأدّى الله عنك، وقد أسلمتني بيد العدو، وقد امتنعت بديني من أن أفتن أو يُعْبَث بي أن أكذّب بالحق، فقال رسول الله ﷺ: ويلُ أمِّه، محش حرب لو كان معه رجال! ثم خرج أبو بصير إلى العيص على ساحل البحر وثبت في موضع قرب طريق التجارة، وتأشب إليه جمع من المسلمين ممن هربوا من مكة عندما بلغهم أن رسول الله قال: ويل أمه، مِحَش حرب لو كان معه رجال! وخرج الرجل إلى ساحل البحر وتلاحق به من أحب من المسلمين فأصبحوا قرابة سبعين رجلاً ضيقوا على قريش، لا يتركون عيراً لها تمر إلا سطوا عليها، ولا يقع في يدهم قرشي كافر إلا قتلوه، حتى ضجت قريش وضاقت بأولئك الرجال. فأتوا إلى رسول الله يرجونه أن يضم أبا بصير ومن معه إليه وهم متنازلون عن المطالبة به.

وقد ثارت بهذه المناسبة مناقشات بين القرشيين، لأن الرجل الذي قتله أبو بصير وأخذ سلاحه وعاد إلى المدينة كان من عامر بن لؤي، فرأى صفوان ابن أمية أن ديته على رسول الله وقال: «والله ما صالحنا محمداً على هذا. قالت

قريش: قد برىء محمد منه، قد أمكن منكم صاحبكم فقتله بالطريق، فما على محمد في هذا؟ فقال سهيل: قد والله عرفتُ أن محمداً قد أوفى، وما أوتينا إلا من قبل الرسولين. قال: فأسند (سهيل بن عمرو) ظهره إلى الكعبة وقال: والله لا أؤخر ظهري حتى يُودَى هذا الرجل. قال أبو سفيان: إن هذا لهو السفه، والله لا يُودى! ثلاثاً (أي قالها ثلاثاً) وأني (أقول) قريش تديَه، وإنما بعثته (أي بعثت الرسول الذي قتل) بنو زهرة (لأن أبا بصير كان حليفها). فقال سهيل: قد والله صدقت! ما ديته إلا على بني زهرة، وهم بعثوه ولا يخرج ديته غيرُهم قَصْرَةً (أي أن ذلك الواجب مقصور عليهم) لأن القاتل (أبا بصير) منهم، فهم أولى مَنْ عَقَلَه. فقال الأخنس (بن شَريق - من بني زهرة) والله لا نديه، ما قَتَلْناه ولا أمرنا بقتله. قتله رجل مخالف لديننا متبع لمحمد، فأرسلوا لمحمد يَدِيَه. قال أبو سفيان لا! ما على محمد دية ولا غُرم، قد بَرِئَ محمد، ما كان على محمد أكثر مما صنع، لقد أمكن الرسولين منه. فقال الأخنس: إن وَدَته قريش كلها كانت زُهرة بَطْناً من قريش تَدِيه معهم، وإن لم تَدِه قريش فلا نديه أبداً. فلم تُخْرَج له دية حتى قدم رسول الله ﷺ عام الفتح[1]....».

وهكذا نرى أن قريشاً لا زالت رغم ما نزل بها من الهزائم وما ساء من حالها متماسكة فيما يتعلق بإقامة التقاليد القبلية والعرف القبلي في مجتمعها. فهذه المناقشة كلها تدور حول من يتحمل دية رجل منهم قتل ولا سبيل لهم إلى القاتل. بل إن بني زهرة عرضت أن تشارك قريشاً في أداء الدية مجتمعة، فأبى ذلك القرشيون، فلما فتحت مكة ودخل رسول الله البلد مظفراً، كان هو الذي ودى الرجل إحساناً منه وفضلاً.

ونلاحظ أثناء المناقشة أنَّ رأي أبي سفيان هو الذي غلب. وأبو سفيان وبيته من بني عبد شمس جميعاً تركوا بني عامر بن لؤي يتصرفون حتى يُنْقَض العهد بسوء رأيهم، وهنا يعود بنو أمية للقيادة لكي يُخْرِجوا بقريش الكافرة من

(١) الواقدي، مغازي ٢/٦٢٧.

الهلاك أو هكذا رجوا، لأن الذي أنقذ قريشاً ومكة كان رسول الله بأمر الله سبحانه، ولا يمنع ذلك من القول بأن أبا سفيان كان له في ذلك دور كبير كما سنرى.

وقبل أن ننتقل من هذه النقطة نقول إن أبا بصير ومن معه بالغوا في أذى قريش حتى ضجت منهم وعجزت أمامهم، فذهب رجالها إلى محمد ﷺ وسألوه بأرحامهم أن يضم أبا بصير وأصحابه إليه، لكي يقلعوا من مكانهم الذي استقروا فيه بالساحل. وفعل رسول الله، وأمر بالكتابة إلى أبي بصير، فوصله الخطاب وهو يجود بنفسه. مات في مكانه في العِيص على ساحل بحر القلزم مجاهداً أعداء الله. ودفنه أصحابه وأقاموا عند قبره مسجداً، وعادوا إلى المدينة، ومنهم الوليد بن الوليد بن المغيرة، وكان من خيرة المسلمين فلما مات استأذنت أم سلمة أم المؤمنين رسول الله في أن تبكيه فأذن لها، لأنها ابنة عمه فهي بنت مهشَّم بن أبي حذيفة بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وهي ابنة أخيه الوليد بن هشام، والوليد بن الوليد بن المغيرة هذا هو أخو سيف الله خالد بن الوليد. فانظر إلى تشابك أنساب قريش هذه، وأعجب كذلك عندما تَذْكُر أنَّ حَنْتَمَة أم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ابنة عم بعيدة لأم سلمة وخالد بن الوليد والوليد بن المغيرة الذي طلبت أم سلمة أم المؤمنين من رسول الله الإذن في أن تبكيه.

ولا يستتم كلامنا عن الحديبية ونصرالله فيها لقريش المؤمنة على قريش الكافرة، إلا بأن نشير إلى سورة الفتح وهي الثامنة والأربعون من سور القرآن الكريم نزلت ورسول الله عائد في الطريق من الحديبية إلى المدينة، وأول آياتها **﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً. هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات**

والأرض، وكان الله عليماً حكيماً﴾[1] وعندك بقية السورة في كتاب الله العزيز فاقرأها ليفتح الله عليك وعلينا من معاني الإيمان ما يملأ القلوب هدى وبصيرة.

الوَضع في الحجَاز وشمَال الجزيرة ووَسطها بَعدَ الحُديبيّة :

ترك رسول الله ﷺ قريشاً لشأنها، فقد أصبحت في حسابه ثمرة تينع ثم تسقط من تلقاء نفسها عندما يحين حينها، ومضى الإسلام ينتشر بين أهلها، وتضاءل أمر الشرك ورجاله حتى أصبحوا رمزاً بلا معنى. وقد شعروا هم بذلك ورأوا ضياع أمرهم، فلا سبيل لهم الآن إلى تتبع المسلمين في بلدهم أو فيما حولهم، وضاعت من أيديهم تجارة مكة بتوالي المحن والحروب وانقطاع الطريق، وتقطعت الأسباب التي كانت تضمن لهم سلامة متاجرهم في نواحي الجزيرة، وأخذت قبائل شبه الجزيرة تتطلع إلى النجم الجديد الصاعد في سماء جزيرتهم، نجم الإسلام ورسوله ﷺ.

ولم يبق لقريش من حلفاء إلا بنو بكر بن عبد مناة الكنانيون، وسنرى أنهم كانوا قبيلاً ضعيفاً لا يغني عن قريش شيئاً إذا جد الجد، ثم هوازن وكانت قبيلاً ضخماً من البدو متعدد البطون والأفخاذ والبيوت، يعيش في الرمال التي تلي جبال السراة شرقاً وتمتد منهم فروع إلى غربها قرب مكة. وكانت مكة مدينتهم ومركزهم المدني، وعليها كان عمادهم فيما لا غنى لهم عنه من آنية وسلاح وماعون وما إلى ذلك مما لا يصنع في الصحراء، ولكنهم كانوا كغيرهم من الأعراب يعيشون من يوم ليوم، فهم إلى هذه الساعة لم يحسوا بحرج مركز حلفائهم وأنصارهم القرشيين. وما داموا يلمون بمكة فيجدوا فيها ما هم بحاجة إليه من السيوف والآنية وآلة ركوب الخيل، وما دامت أمة الإسلام في المدينة لم تعرض لهم، فقد مضوا في حياتهم على عهدهم على الزمن الطويل. وسيظلون على هذه الحال حتى تفتح مكة وتدخل أمة الإسلام فيحسون أنهم

(١) الفتح، آية ٢.

حرموا من مركزهم المدني، وهنا يتحركون.

وبقيت للقرشيين كذلك ثقيف، وثقيف كانت قبيلاً قوياً غنياً معتزاً بالطائف معتصماً بها، يحسبون أن أحداً على وجه الأرض لا يملك لهم ضراً ما داموا متأشبين بجبالهم، ثم إنهم كانوا قبيلاً مقفلاً على نفسه إلى حد بعيد، فإن علاقات الصهر بينهم وبين غيرهم من العرب اقتصرت في الغالب على قريش ومكة. وهؤلاء أيضاً لم يعرض لهم الإسلام بعد، فإن الخط الذي رسمه رسول الله ﷺ جعل كل شيء بأوانه، فما دامت مكة قائمة على حالها فلا سبيل إلى ثقيف والطائف. وستفاجأ ثقيف بفتح مكة وضياع ذلك الحليف القوي إلى جانبها، ويومها ستشعر بأن يومها قد قرب وستأخذ في التفكير في شأن أمة المدينة وما يكون لها معها من شأن.

فإذا كان هذا هو الوضع في الحجاز وشمال شبه الجزيرة ووسطها، أوائل القرن السابع للهجرة (منعطف سنة ٦٢٨، ميلادية) فقد توجه الرسول صلوات الله عليه نحو خيبر ومن لاذ بها من غطفان وأسد وقبائل صغرى، ورأى أن يُدْخِلها أمة الإسلام حتى يحين موعد مكة، ورمى رسول الله ببصره إلى ما وراء جزيرة العرب شمالاً حيث الفرس والروم وعرب كثيرون، منهم عرب الضاحية وعرب الروم وعرب الحيرة وعرب كثيرون آخرون في بلاد الشام والعراق، فوالى سراياه بعد خيبر على شمال الجزيرة حتى مهده، ثم بعث في نفس الوقت برسله إلى من رأى البدء بهم من الملوك والرؤساء خارج الجزيرة يدعوهم إلى الإسلام.

فتح خيبر ونتائجه:

كان فتح خيبر في صفر أو ربيع الأول سنة ٧ للهجرة / يونيو ٦٢٨ م. تمهيداً لأمر شمال شبه الجزيرة، وقضاءً على قوة مجموعات قبائل الأعراب وأنصاف الأعراب الذين يسدون طريق المدينة إلى الشام، وتوسيعاً لرقعة أمة الإسلام حتى تكون في يدها تلك المجموعة من الواحات التي كانت إلى ذلك

الحين أوسع منطقة زراعية في شمال شبه الجزيرة ووسطها، حتى إنها كانت تسمى «ريف الحجاز» طعاماً وودكاً، والودك دهن اللحم، حقاً إن المدينة تقدمت تقدماً باهراً في ظل محمد ﷺ وأمة الإسلام من ناحية الزراعة والإنتاج، ولكن هنا في خيبر كانت وديان غنية واسعة تُزرع من عشرات السنين وربما مئاتها، هنا كان يزرع قمح كثير وشعير كثير ونخيل كثير وهنا أيضاً ثلاث تلال حصينة كلها مسلحة بالحصون والقلاع ومخازن السلاح والمؤن، وهنا كذلك ماء كثير، وتحيط بذلك تلال أخرى هي حافات حرة خيبر وهي لا ترام من جنوبها، والمدخل إليها من الشمال أو الشمال الشرقي وفي خيبر ألوف اليهود من أهل المال والثروة والجاه العريض والقوة وجاه المال. ومن حول خيبر قبائل من عتاة أعراب قيس عيلان: هوازن بحجمها الضخم، ثم أسد بشراستها وإيغالها في التوحش، وطيء المتحصنة بجبليها أجأ وسلمى، وهذه كلها كانت دروعاً لخيبر وخيبر رداءاً لها، وهي لهذا كله كانت فيما يرى أهلها وفيما يرى الناس لا ترام. وعندما تسامع الناس بأن محمداً ﷺ يقصدها، عجب الناس وسخر اليهود في خيبر وخارجها في الجزيرة من أمة الإسلام سخراً بالغاً، قال الواقدي: «وكان يهود خيبر يظنون أن رسول الله لا يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم. كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون: محمد يغزونا؟ هيهات هيهات! وكان من بمكة من اليهود حين تجهز النبي ﷺ إلى خيبر يقولون: ما أمنع والله خيبر منكم! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم: حصون شامخات في ذرى الجبال، والماء فيها واتن. إن بخيبر لألف دارع. ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب جميعاً إلا بهم، فأنتم تطيقون خيبر!» وهذه العبارة الأخيرة تؤكد ما قلناه هنا مرة بعد مرة من أن البدو يستمدون القوة دائماً من الحاضرة التي تكون في منازلهم أو قريبة منها، لأن الصناعة لا تكون إلا في مدينة أو مركز حضري، والبدو لا يستغنون عن المصنوعات وخاصة السيوف والدروع وآلة ركوب الخيل وآنية الطعام، فإذا حرموا من حاضرتهم لم يلبثوا أن تدهوروا واضمحل أمرهم بقلة

السلاح أو فقدانه وهذا هو ما أراده الواقدي بقوله: «ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم» ومن الواضح أن اليهود لم يكونوا يقاتلون مع أولئك الأعراب، بل المقصود أن هؤلاء البدو يحصلون من خيبر على السلاح الذي يمتنعون من العرب قاطبة به.

وشغل الناس في الجزيرة بخبر مسير محمد ﷺ إلى خيبر وانقسم الناس في ذلك، فقال ناس إن محمداً يغلِب وقال آخرون إن خيبر تغلب، بل تراهن الناس في ذلك، واقرأ هذا الكلام الذي يسوقه الواقدي على لسان جاسوس يهودي قبض عليه وأتي به إلى النبي، فكذب على المسلمين عندما سألوه، فلما شددوا عليه قال الحق. قال: «القوم (اليهود) مرعوبون منكم خائفون وجلون لما قد صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود، وأن يهود يثرب بعثوا ابن عم لي وجدوه بالمدينة، قد قدم بسلعة يبيعها، فبعثوه إلى كنانة بن أبي الحقيق يخبرونه بقلتكم وقلة حيلتكم وسلاحكم، ويقولون لهم فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم، فإنه (يريد رسول الله) لم يلق قوماً يحسنون القتال. وقريش والعرب قد سروا بمسيرة إليكم لما يعلمون من مَوَادِّكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم، وقد تنافست قريش وغيرها ممن يهوى هوى محمد. تقول قريش إن خيبر تظهر، ويقول آخرون: يظهر محمد، فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر[1]».

وهكذا يهبط قدر قريش مكة فلا يكون لها من دور في هذه المعركة الفاصلة، إلا أن تُسَرَّ بمسير محمد إلى خيبر أملاً في أن تنتصر عليه خيبر واليهود، وهذا الموقف وحده يدلنا على المدى الذي وصل به الحقد بقريش مكة، فقد أنساهم أنهم عرب. ومن هذه الوهدة سيستنقذهم الهادي المبارك محمد ﷺ.

وتنتهي غزاة خيبر بنصر مؤزر لله ورسوله والمؤمنين، ومكان التفصيل فيها في السيرة التي أعاننا الله على إتمامها وله الحمد والمنة. ولكن أصدق ما

---

(١) الواقدي، مغازي ٢ / ٦٤١.

يصور لنا جلال النصر الذي بلغه الإسلام بعد خيبر، هذه السطور التي ننقلها من الواقدي، وهي حديث جرى بين عيينة بن حصن الفزاري سيد غطفان والحارث بن عوف من سادة غطفان أيضاً، وكان عيينة بن حصن قد ضيَّع حلفاءه من يهود وخان عهده مع رسول الله، ثم ندم على ذلك بعد أن وجد نفسه في النهاية صفر اليدين« فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف قال: ألم أقل لك إنك تُوضِع في غير شيء! والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب، اليهود كانوا يخبروننا هذا. أشهد لَسَمِعتُ أبا رافع سلام بن أبي الحُقَيق يقول: إنا نحسِد محمداً على النبوة حيث خرجت من بني هارون، وهو نبي مرسل، واليهود لا تطاوعني على هذا، ولنا منه ذِبْحَان، واحد بيثرب وآخر بخيبر. قال الحارث، قلت لِسَلَّام: يملك الأرض جميعاً؟ قال: نعم والتوراة التي انزلت على موسى، وما أحب أن تعلم اليهود بقولي فيه»[1].

مُلاحظات عَلى عمرة القضيّة:

آمن رسول الله ﷺ من خطر اليهود وأحلافهم في الشمال وأصبح يستطيع أن يوجه جهده كله نحو مكة للفراغ من أمرها خاصة، وقد استسلمت فدك والرسول صلوات الله عليه في آخر مراحل معركة خيبر.

وعاد الرسول بعد ذلك إلى المدينة مظفراً وقد اتسعت رقعة أمة المدينة حتى شملت كل منطقة خيبر وما حاذاها إلى بحر القلزم، ومع خضوع خيبر خضعت غطفان وأسَدٌ وطيء بالإضافة إلى قبائل شمالي الحجاز: عُذْرة وجُذام وغِفَار وقَطَع من قضاعة وقبائل أخرى أصغر، وهذه كلها كانت دخلت في حلف المدينة، أسلم منها من أسلم وبقي على شركه أو نصرانيته من أهلها من بقي، ولكنها أصبحت داخلة في نطاق أمة المدينة على أي حال، وفي أثناء ذلك

(١) الواقدي، مغازي ٢/٦٧٧.

استمـر رسول الله يبعث بـالسرايـا لاستكمـال أمـر الإسـلام، فبعث عمـر بن الخطاب في سرية إلى تُربَـة شرقي الـطائف (شعبان ٧ هجـرية) للتـوثق من أمر بعض قبـائل هـوازن مثل بني نصر بن معـاوية وبني جُشم بن بكـر، وفي نفس الوقت تقريباً ذهبت سرية يقودها أبو بكر إلى هوازن أيضـاً، وهذه كلهـا أعمال كان لا بد منها لإحكام القبضة على قـريش مكة، ثم أرسـل بَشير بن سعـد إلى فَـدَك لضمان طـاعة قـوم من ذُبيان هم بنـو مرة بن عـوف بن سعد فلم يـوفق بشير، ثم أراد رسول الله أن يبعث الـزبير بن العـوام في سريـة لتأديب بني مـرة هؤلاء، ثم استبدل به غالب بن عبدالله الليثي، وكـان قائـداً ذا تجربـة وطالـع ميمون، وبعث معه نفـراً من كبراء الصحـابة منهم أبـو مسعود عقبـة بن عمرو وكعب بن عُجْرَة وأُسامة بن زيد وعُلية بن زيد، وقـد أبدى غـالـب خلال هـذه السرية من دلائل القدرة عـلى القيادة مـا يدل عـلى أن الرسـول أخرج من تحت يده قادة للرجال حقاً، وفي هذه السرية وقع أُسـامة بن زيـد في خطأين: الأول إنـه خالف أمـر قائـده، وكان قـد آخى بـين كـل اثنـين من رجـالـه وحـذرهم الافتراق، فخالفه أسامة وتبع رجلاً وقتله بعد أن قال لا إله إلا الله، وهـذا هو الخطأ الثاني، فلم يعجب ذلك رسول الله من عمل أسامة، فقال أسامة يلتمس لنفسه العذر: إنما قالها تعوذاً من القتل، فقال له رسول الله ﷺ عبـارته البـالغة العمق والحكمة والإعلام بروح الإسلام: «الا شققت قلبه فتعلم أصادقٌ هـو أم كـاذب». وكان أسـامة إذ ذاك في مـداخل شبـابه وعمـره ستة عشر عـاماً أو نحوها، وبمثل هذا التوجيه كان رسول الله يـربي ويعلم ويكوِّن، وأسـامة هـذا سيصبح عَشية مرض الرسول من أحب شباب الإسلام إلى رسول الله.

وكان توفيق غالب بن عبدالله هذا داعياً إلى إرسال الرسول إياه في سرية إلى مَيْفَعة من نواحي غربي نجد ينزلها قوم من بني عبد بن ثعلبة أهل قلق وغارة، فوفق غالب فيـما أرسله الرسـول له، وقـد أظهر المسلمـون في هذه الـسرية من حسن السمت والنظام وصدق الإيمان ما ينبىء حقـاً بأنهم نبت جـديد ظهـر في

رياض الإسلام. وغالب بن عبدالله الكناني الليثي من عظماء أهل الفتوح أيام الرسول ﷺ، فإلى جانب مهارته وحزامته وحسن تصرفه وبسالته، كان رجلاً قائداً ذا إيمان وثيق، وقد قاد سرايا ثلاث تعد من أحسن ما قام به المسلمون في العصر النبوي نظاماً وضبطاً وبلاغاً للغاية، ثم إن رسول الله ﷺ أرسله طليعة عند فتح مكة ليسهل لهم الطريق كما يقول الرواة. وقد استوقف نظري اختفاء اسم هذا الصحابي العظيم بعد فتح مكة، وهناك من يزعمون أنه قُتل في سريةٍ على بني مرة قرب فدك وليس لدينا ما يؤيد ذلك، ثم إن غالباً كان موجوداً ومشاركاً في فتح مكة.

ثم تكون عمرة القضاء أي عمرة قضاء ما تم الاتفاق عليه في الحديبية وتسمى لهذا عمرة القضية أي عمرة الصلح، والواقدي يسميها غزوة القضية، وكانت في ذي القعدة سنة سبع هـ/ مارس ٦٢٩ م.

وعمرة القضاء لم يكن فيها قتال، وهذا مفهوم، ولكن كان فيها تلاقي الخصوم: قريش الكفر وقريش الإيمان، والدراسة الملية هنا تكشف عن الكثير. والناس يتلاقون في الحرب ويتلاقون أيضاً في ميدان العقل والفكر، وهنا نشعر أننا أمام عقل وفكر وإيمان في ناحية، وضيق أفق وغرور وغضب في الناحية الأخرى، ولم تَعدَم قريشُ الكفر العقل والحكمة ولكنها كما ترى عقل جاهلي وحكمة جاهلية.

ونبدأ من البداية فنقول إن رسول الله حث على الإنفاق، أي أن من عنده مال ينفق على من ليس عنده والقادر يعين غير القادر، ويستوقف نظرنا هنا أن أمة المدينة لا تزال تعاني الفقر والحاجة وقلة السلاح رغم التوفيق الكبير الذي نالته والتنظيم واتساع الرقعة. ولكن أمة المدينة إلى يومها ذاك في معركة، والرجال يقاتلون جميعاً وليس يبقى من الجهد ما يكفي للتوسع في زرع وضرع أو صناعة شيء كثير. ولقد زرع أهل المدينة كل الأرض الغامرة في سهلهم،

ولكن زرعهم كـان زرعاً قليـلاً، فهو الشعـير في الغالب لسهـولة زرعـه وقرب مجتنـاه، أما القمـح فقليل والنخـل لا يؤتى إلا بعد سنـين، والأعناب في ذلـك الحين لم تكن بغذاء، إنما كان قوام حياة الناس على الماشية واللبن والتمـر وشيء من الدقيق، وكان المسلمون يبذلـون أقصى جهد في رعـاية المـاشية. ولا نـزال ونحن نقـرأ السيرة نصـادف أخبار الجـوع وقلة الطعـام، ورسول الله يبعث في القليـل من بركتـه فيكثر. ويسمـع الناس دعـاء الرسـول بالإنفـاق والتصدق، ويسألون نبيهم. بم نتصدق، فيقول: ولو بشق تمرة، ولو بمِشْقَصٍ (وهو نصل السهم دون سنه) أي قطعة خشب. وآيات القرآن تتنزل تُقَوِّي نفوس الناس وتبشرهم بالنصر وتحثهم على البذل مثل قول الله سبحانه وتعالى ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ البقرة ٢ / ١٩٥. ويسوق رسول الله معه الهدي في عمرة الحديبية، ستين بدنة وهي هنا عن نفسه وعن غير القادر من المسلمين، وعلى الهدي ذلك الأسلمي الذي نعرفه ولا نزال نلقاه ونحبه، ناجية ابن جُندُب الأسلمي ومعه أربعة من فتيان أسلم يرعون هدي الرسول، وصدق المصطفى: أسلَم سلمها الله.

وخرج الرسول من المدينة في هيئة ما أجملها، قاد مائـة فرس فلما وصـل ذا الحُليفة، قدَّمها أمامه وحمل معه السلاح والبِيض والدروع يسير بهـا بَشير بن سعـد فقيل لـه: يا رسـول الله، حملتَ السلاح وقـد شرطـوا علينا ألا نـدخـل عليهم إلا بسـلاح المسافـر، السيوف في القُرُب، فقال رسـول الله ﷺ إنـه لا نُدْخِلَها عليهم الحرم، ولكن تكون قريبة منا، فإن هاجنا هيـج من القوم كـان السلاح قريباً منا، قيل: يا رسول الله نخاف قـريش على ذلـك، فاسكت (أي سكت) الرسول وقدم البدن.

وكـان رسول الله ﷺ قـد أحرم من مسجـد المدينـة لأنه أزمـع السير عن طريق الفُرُع، وكان يحبه لأنه يمر فيه على الأبواء وفيها قبر أمه، ولو أزمع السـير عن طريق البيداء وهي الجادة لأهَلَّ من البيداء.

وكان محمد بن مسلمة قد سبق بالخيل حتى أدرك مَرَّ الظَّهران ومعه بشير ابن سعد بالسلاح، وهناك كانت طلائع قريش تنتظر، ويعلن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ يصبح بمَرِّ الظهران من غد، وتسرع طلائع قريش إلى مكة بالخبر، وهنا ينكشف الغطاء ويبدو على قريش الفزع من أن يكون محمد ﷺ قد أزمع ليدخلنها بالسلاح، «ففزعت قريش فقالوا: والله ما أحدثنا حَدَثاً، ونحن على كتابنا ومُدَّتنا (صلحنا إلى عشر سنين) ففيم يغزونا محمد في أصحابه»؟

وينزل رسول الله مَرَّ الظهران ويقدِّم السلاح إلى بطن يأْجَج على مقربة من أنصاب الحرم عند التنعيم قبالة موضع الحُدَيبية. وتبعث قريش مِكرز بن حفص بن الأخيف في نفر من قريش، حتى لقوه ببطن يأجَج «ورسول الله ﷺ في أصحابه والهدي والسلاح قد تلاحقوا فقالوا: يا محمد! والله ما عُرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافر، السيوف في القرب! فقال رسول الله ﷺ: لا ندخلها إلا كذلك»[1] وهنا فقط اطمأنت قلوب القرشيين، فمحمد لن يستعمل السلاح. وهذه درجة من الخوف ما وصلت إليها قريش قط منذ عرفناها إلى ذلك الحين.

ودخل محمد ﷺ ومن حوله أصحابه مكة وهو يلبي وهم يلبون من حوله والسيوف في أيديهم، واستمرت التلبية حتى استلم الركن. ولم يفته الحذر قط، فقد جعل أوس بن خَوْلِيّ مع مائتي رجل على السلاح، وأوس بن خولي وجه جميل رأيناه مراراً، ونحن نعرفه فهو من سادات بني سالم الحُبلي من الخزرج (وهم قوم عبدالله بن أبَيّ!). وهو كان آخر من نزل قبر الرسول من الأنصار.

ويقول رواتنا إن قريشاً خرجت إلى رؤوس الجبال. ولكن من قريش؟

---

(١) الواقدي: مغازي ٢/٧٣٤.

كـل البلد؟ تعتقد أن هـذا الخروج اقتصر عـلى رؤوس الكفر من أعـداء محمـد والإسلام، وهم نفر ليس بالكبير، من أمثال عِكْرِمة بن أبي جهل الذي نظر إلى المسلمين يطوفون بالبيت وهو معتصم بالجبـل يحمد الله عـلى أن أباه أبـا جهل قضى قبـل أن يرى هـذا المشهد العسـير عليه، وبـلالٌ على ظهـر الكعبة يؤذن. وكذلك كان صفوان بن أمية وخالـد بن أسيد بن أبي العـاص بن أمية بن عبـد شمس، أما سهيل بن عمرو ورجال معه فحين سمعوا بلالاً «ينهق فوق الكعبة» كما قالوا، فقد غطوا وجوههم حتى لا يروا هزيمة أنفسهم بأعينهم.

وطاف رسول الله ﷺ بـالبيت، وسعى بين الصفـا والمروة عـلى راحلته، فقد كان مجهـداً متعباً، ونحـر هَدْيَـه بيده عنـد المروة، وتقـدم خراش بن أميـة فحلق رأس الرسول هناك.

وبعد قضاء المناسك حدث حادث لـطيف لا بأس من إيـراده هنا، لأنـه يدل على خلق القرشيين الذين أسلموا وهاجروا مـع محمد ﷺ وأيـدوه وشهدوا معه المشاهد ليتجلى بذلك الفرق بين قريش الكفر وقـريش الإسلام. ذلـك أن عُمارة بنت حمزة بن عبد المطلب، كانت قد تُركت في مكة عند بعض عَمَّاتهـا. وكانت أمها سلمى بنت عُمَيس وهي خثعميـة يمنية من بني عمـرو بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا، من الأزد. فلما فرغ الرسول من عمـرته أتـاه عليّ بن أبي طالـب فقال له: علام تترك بنت عمنا يتيمةً بـين ظَهْرَي المشـركين؟ وعلي بن أبي طالب كـان ابن عمها لأن حمـزة بن عبد المـطلب أبوهـا، وحمزة استشهـد فأصبحت الـولاية عليهـا لأحد أعمـامها، وأقـربهم هنـا عـلي بن أبي طالب، فلم ينهه الرسول عن إخراجها، فذهب فأتى بها، وهنا تكلم فيهـا زيد ابن حـارثة، وكـان أخاً لحمـزة في الإسلام، إذ آخى الـرسول بينـه وبـين حمـزة وقال: أنا أحق بها فهي ابنة أخي، وسمـع بذلـك جعفر بن أبي طـالب، وكان قد عاد من الحبشة ولقي الرسول في خيبر، وجعفر كان زوج أسماء بنت عميس أخت سلمى، فعُمارة إذن ابنة أخت امرأته، ورأى أنه أحق برعـايتها من زيـد

ابن حارثة، وكأنه خاف أن يتزوجها زيد، وكان زيد مزواجاً مطلاقاً، وكان شديد السمرة قصيراً أفطس الأنف، وكان هذا بعض ما نَفَّر منه امرأته زينت بنت جحش في حديث طويل رويناه في سيرة المصطفى صلوات اللّه عليه في كلامنا عن زواج نبي اللّه من زينت بنت جحش، وعاد علي بن أبي طالب يعجب من ادعائهما الحق في هذه البنية وهي ابنة عمه وهو الذي أخرجها من بين أظهر المشركين، فقال رسول اللّه: أنا أحكم بينكم، ثم حكم بها لجعفر لأن خالتها امرأته «ولا تنكح امرأة على خالتها ولا على عمتها»، ثم عرضوا على رسول اللّه أن يتزوجها فأبى من ذلك، لأن عمارة ابنة أخيه في الرضاعة وهو حمزة ثم زوجها سلمة بن أبي سلمة بن عبد الأسد، وكان يقول: هل جزيت سلمة؟ إشارة إلى أن سلمة هو الذي زوجه أمه أم سلمة وهو ـ ﷺ زوجه عمارة. وهذه بتلك.

وكأنما أراد رسول الله أن يفسح المجال لنفسه في مكة، فلعل أهل العناد من القرشيين يرون سوء رأيهم في هذا الموقف الجامد المتحجر من الإسلام ورسوله، فخطب ميمونة بنت الحارث بن حَزْن الهلالية وهي أخت أسماء بنت عميس وسلمى وسلامة بنتا عميس لأمهن، وأمهن جميعاً هند بنت عوف بن الحارث الحميرية، فالأم واحدة والبنات كثيرات، وقد رزقت هند الحميرية هذه تسعاً أو عشراً من البنات كلهن تزوجن أكرم زيجات، ومن بنات هند هذه لبابة بنت الحارث وهي أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب وهي لبابة الكبرى، ولهن أخت أخرى تسمى لبابة الصغرى هي أم خالد بن الوليد، فانظر والله إلى تشابك أنساب هؤلاء العرب واشتباك قريش بالصهر مع القبائل في كل صقع من أصقاع الجزيرة. وكأن رسول الله عندما خطب ميمونة ـ وهي خالة خالد بن الوليد ـ قد أدناه من نفسه بذلك. فكأنه ﷺ قد أصهر إليه فكان ذلك من أسباب تعجيل إسلامه.

نقول إن رسول الله ﷺ خطب ميمونة، فلما انقضت الأيام الثلاثة التي كان القرشيون قد أذنوا للمسلمين بالبقاء في مكة خلالها أتاه عند ظهر اليوم

الرابع سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى، «ورسول الله ﷺ في مجلس من مجالس الأنصار يتحدث معه سعد بن عبادة، فقال (سهيل): قد انقضى أجلك فاخرج عنا. فقال النبي ﷺ: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، فصنعت لكم طعاماً؟ فقالا لا حاجة لنا في طعامك، اخرج عنا. ننشدك الله يا محمد والعهدَ الذي بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت[1]» وكان رسول اللّه توكيداً لحسن النية قد أقام في خيمة ضربت له، ولم ينزل في بيت من بيوت بني هاشم فغضب سعد بن عبادة من غلظة سهيل وحويطب «فقال لسهيل: كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا أرض أبيك. واللّه لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً[2]».

وأراد الرسول أن يحسم الخلاف، وكأنه أنف المقام بعد كلام هذين الغليظين فقال لسعد بن عبادة: يا سعد، لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا، وأُسكت الرجلين عن سعد، وأمر مولاه أبا رافع أن يؤذن بالرحيل، وقال: لا يبيتن بها أحد من المسلمين، وخرج ﷺ سريعاً إلى سَرِف وترك أبا رافع ليحمل إليه ميمونة، فاستطال المشركون على أبي رافع، وكظم أبو رافع غيظه، ولكنه أزمع إذا بطش به أحدهم أن يبطش به. ولكن أحداً لم يفعل وقال أبو رافع: «ما شئتم. هذه واللّه الخيل والسلاح ببطن يَأْجَج» وكانت تلك هي الأسلحة التي أعدها رسول اللّه ﷺ مخافة غدر المشركين.

ولحق أبو رافع برسول الله ومعه ميمونة، فبنى بها رسول الله ﷺ في سَرِف، ومن الفجر أدلج إلى المدينة. ومن غرائب الاتفاق أن ميمونة ماتت كذلك في سرف سنة إحدى وخمسين (٦٧١ م.) أو سنة ٦٣ هـ/ ٦٨٣ م. وهي سنة موقعة الحرة وهي مأساة من مآسي تاريخ صدر الإسلام.

وبعد عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة أقبل إليه خالد بن الوليد وعمرو بن

---

(١) الواقدي، مغازي: ٧٣٩ ـ ٧٣٠.

(٢) المصدر السابق: ٧٤٠.

العاص وصاحبهما عثمان بن طلحة فأسلموا، وكان إسلامهم في المحرم سنة ٨ هـ/ مايو ٦٢٩ م. ولأصحاب السيرة والتاريخ في إسلام عمرو وخالد كلام طويل فيه طعم القصص ويستوقف نظرنا في حديث إسلام خالد وعمرو أنه جاء من ناحية العقل أكثر مما جاء في البداية من ناحية القلب، فأما عمرو فقد ضاقت به الدنيا وهو يرى نصر الإسلام حتى ذهب إلى الحبشة، وهذا قصص فيما نحسب. ولكن الرجل وجد بذكائه بعد عمرة القضية أنه لا مفر له من الإسلام إن كان يرجو لنفسه صلاحاً، ويصور دافع الرجلين إلى دخول الاسلام في تلك المرحلة الأولى من تاريخهما الطويل ذلك الحديث بين عمرو وخالد وهما في الطريق إلى محمد، «قال عمرو عندما لقي خالداً: أبا سليمان؟ قال نعم. قال أين تريد؟ قال محمداً، دخل الناس في الإسلام فلم يبق أحد به طمع، والله لو أقمنا لأخِذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها، وقال عمرو: وأنا والله أردت محمداً وأردت الإسلام» وقد أتيت بهذه القطعة من حديث أظنه من كلام القصاص لأنني تنسَّمت فيه معنيين: الأول أنه يمثل يأس قريش أمام الإسلام، وأنه لم يبق أمام أي قرشي طامح سبيل إلى الحياة إلا به، والثاني هو أن هذين الرجلين اللذين سيدخلان الإسلام وكأنهما مضطران لن يلقيا محمداً حتى تتغير دنياهما، فأما خالد فيصبح سيف الله وسيف رسوله، ويتجلى عن واحد من أعاظم العسكريين في تاريخ الدنيا ويرفع راية الإسلام إلى شأو بعيد ويلحقه بأعاظم الجيل الأول من أجيال المسلمين، وأما الثاني ـ عمرو بن العاص ـ فسيسفر عن فاتح سياسي لا يُشق له غبار، وأما خالد فسيودع الدنيا وعلى رأسه نور اليرموك. وأما عمرو فقد أرادت له تصاريف السياسة أن يكون من حزب بني أمية بعد مجد أجنادين ومجد فتح مصر وبرقة، وتلك هي بركة المدرسة المحمدية التي لو بقيت روحها فينا لحلت بنا ـ نحن المسلمين ـ البركة والنعمة ولما بقيت نفس في هذا الكوكب إلا وَحَّدَت ودخلت دين الله وصلت على محمد.

وينبئنا عما كان ينتظر خالداً في الإسلام إصراره عندما وقف بين يدي

محمد ليدخل في الإسلام، أن يوعَد بالمغفرة عما سلف من أمره في عناد الإسلام فقال ﷺ: «اللهم اغفر لخالد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك!» وأمثال هذه المواقف ترينا حجم الشخصية المحمدية، فهذا خالد كله وهو ملء التاريخ يقف بين يدي الرسول يلتمس الدعاء له بالمغفرة، ورسول الله يدعو بها له في هدوء النفس المطمئنة وجلال الرسول الهادي البشير النذير.

وكان كل من الرجلين في مطالع حياته، وكان تركهما قريشاً نذيراً بما هي صائرة إليه، وعلامة على ما وصل إليه حالها بعد صلح الحديبية.

وأما عثمان بن طلحة فقد اندرج في غمار المسلمين، وهو يكمل هذه الكوكبة الرفيعة من بني عبد الدار الذين زانوا تاريخ الإسلام الأول، وحسبك منهم مصعب بن عمير. لقد قتل أبوه طلحة وعماه أبو سعد وكلاب كافرين في أحد، وأما هو فقد أكرمه الله بالإسلام وعاش حتى يشهد فتح مكة مع رسول الله ﷺ ويتسلم من يده الكريمة مفتاح الكعبة، أعطاه الرسول إياه التزاماً بشيمة الوفاء لبني عبد الدار أصحاب ولاية الكعبة بعد أن أباها الرسول على عمه العباس وكان فيها طامعاً.

وهنا موضع خبر وقع بُعَيد عودة الرسول ﷺ إلى المدينة من عمرة القضية، ذلك أن نفراً من بني كلاب بن عامر بن صعصعة، وهم أبناء عمومة بني هلال بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان، وفدوا على النبي وأسلموا وهاجروا إلى المدينة، وكانت هناك عداوة بين بني كلاب وخزاعة، فخاف الخزاعيون من أن يكون إسلام بني كلاب بن عامر بن صعصعة وهجرتهم مُبْعِداً لهم عن رسول الله، لأن الكثيرين منهم لم يكونوا أسلموا، وكذلك الكثيرون من الخزاعيين كانوا مقيمين في مواضعهم من البدو بين مكة والمدينة، فكلموا الرسول في ذلك فكتب لهم كتاباً في جمادي الأخر سنة ثمان، قال الواقدي: «وذلك أنه أسلم من العرب كثير، ومنهم من هو بَعْدُ مقيم على شركِه، ولما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية لم يبق من خزاعة، إلا مسلم

مصدِّق بالله قد أتوا بالإسلام (أي دخلوا فيه) وهو فيمن حولهم قليل، حتى قدم علقمة بن علاثة وابنا هوذة[1] وهاجروا، فذلك حيث كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة: بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى بُديل وبِشر وسَرَوات بني عمرو[2]. سلام عليكم، فإني أحمد الله إليكم. الله لا إله إلا هو، أما بعد فإني لم آثم بإلِّكم ولم أضَع في جنبكم. وإن أكرم تهامة عليَّ أنتم، وأقربهم رحماً، أنتم ومن تبعكم من المُطيِّبين، فإني قد أخذت لمن قد هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسي ـ ولو هاجر بأرضه ـ غير ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجاً، وإني لم أضع فيكم إذ سالمت، وأنكم غير خائفين من قِبَلي ولا محصورين. أما بعد، فإنه أسلم علقمة بن عُلاثة وابناه وتابعا وهاجرا على من تبعهما من عكرمة أخذت لمن تبعني منكم ما أخذت لنفسي، وإنَّ بعضَنا من بعض أبداً في الحل والحرم، وإنني والله ما كَذَبتكم، ولْيُحِبُّكم ربكم»[3].

وقد قال الرسول ذلك في كتابه لتطمئن خزاعة على مكانتها من رسول الله وأمة الإسلام، وكانت خزاعة قبل ظهور الإسلام ضياعاً بين أعراب الحجاز وتهامة، لأنها كانت من أنصار عبد المطلب وبنيه، وكانت كما رأينا ممن انضم إلى حلف المطيبين، وهو حلف بني عبد المطلب ومن معه، المناهضين للأحلاف أو لعقة الدم وهم عبد شمس ومن والاهم، وقد أخذهم رسول الله تحت جناحه فصاروا أحلاف أمة الإسلام. وأنت تراهم هنا قد أسلموا جميعاً، ولكنهم لم يستطيعوا الهجرة بجمعهم إلى المدينة فمنحهم رسول الله رتبة المهاجرين سواء هاجروا أم بقوا في مكانهم، مما يفهم منه أن الهجرة لم تكن في عصر النبي مجرد الهجرة إلى المدينة المنورة، بل الهجرة إلى الله ورسوله بالقلب

---

(١) هما خالد وحرملة ابنا هوذة بن خالد بن الخَيْبَر بن ربيعة بن عمرو فارس الضحياء، وسادة بني عمرو فارس الضحياء بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة أبناء عمومة بني هلال الذين ذكرناهم آنفاً، انظر ابن حزم ص ٢٨١.

(٢) بديل بن ورقاء من سادات بني كعب بن عمرو الخزاعيين وبسر أخوه. أما عمرو فهم أبناء عمرو ابن عامر بن ربيعة. فارس الضحياء من سادات بني عمرو بن كعب الخزاعيين.

(٣) الواقدي، مغازي: ٧٤٩ ـ ٧٥٠.

والإيمـان كذلـك، ويستتبع هـذا ترك البـداوة وأخلاقهـا والاستقـرار والتحضر وأخلاقهما، وهذا معنى بعيد من معاني الهجرة سنزيده إن شاء الله بياناً في كتابنا التالي عن قيام أمة الإسلام أعاننا الله على كتابته، وهو سبحانه من وراء القصد والنية.

وقبل أن أنتقل إلى فتح مكة وهي الخطوة الحاسمة التي خطاهـا الرسـول ﷺ في طريقه إلى توحيد شبه الجزيرة تحت راية الإسلام، وتحويلهـا إلى قاعـدة انتشار الإسلام في العالمين، أقف هنا وقفة قصيـرة عند حـادث صغير لـه مغزاه وقع في سرية الخَبْط. وهي سرية بعث فيها رسـول الله ﷺ أبا عبيـدة عامـر بن الجراح في نفر من خيرة المهاجرين والأنصار لتوكيد دخـول جُهَينة في الإسـلام، وجهينة كانت منازلها إلى الشمال من المدينة على ساحل البحر الأحمر حتى قـرب وادي القـرى، وكان رسـول الله قد أرسـل قبلها عمـرو بن العاص في سـريـة أخرى في نفس الإتجاه لكي يدخل قبيلة جُـذام في الإسلام أو في حلف المـدينة وأمانها، وكلا السريتين نتيجتان لما لقي المسلمون في مؤتة حيث اجتمعت قبائل من عرب الروم أو نصارى العرب مع الروم أنفسهم وأنـزلوا بـالمسلمين هـزيمة مؤتة. وكأنما رأى الرسول أنه لا يمكن لقـاء الروم في صـراع فاصـل إلا بعد أن تدخل مجمـوعة القبـائل المحـالفة لهم مثـل غسان أو الضـالعة معهم مثـل لخم وجذام وهي من القبائل العربية الضاربـة في الشمال وَبـلِيّ وعُذرة وبَلقـين (بنو القين) وتسمى هذه القبـائل في العـادة باسـم عـرب الروم أو نصـارى العرب. وربما كانت النصرانية منتشـرة في بلاد غسـان، أما عنـد سواهـا ممن ذكرنـا من العرب فقد كانت هناك نصرانية قليلة. ودليل ذلك أننـا نجد كنـائس في البلاد التي سادها الغساسنة، أما بقية القبائل فلا نجد فيهـا كنائس إلا في بـلاد طيء حيث نجد كنيسة، ولكننا لا نجد هناك أحباراً أو قسيسين، وأقصى ما نستـطيع أن نقوله إنهم كانوا نصارى بالاسم والميل لا بالإيمان، أو ربما كـانت نصرانيتهم سياسية، أي أن قولهم أو قول بعضهم بالنصرانية كان جزءاً من التأثر بالروم أو القوم بما يقولون.

في هذه السرية نشهد ظاهرة ستبدو لنا جلية عند وفاة الرسول ﷺ في ٨ هـ سبتمبر ٦٣٢ م وهي أن عمر بن الخطاب ـ وكانت له في جماعة المهاجرين مكانة إلى جانب أبي بكر ـ لم يكن على وفاق مع سعد بن عبادة وجماعة كبيرة من الأنصار. ولقد كان رسول اللّه ﷺ ـ رأس أمة الإسلام كلها حريصاً على القضاء على بقايا العصبيات في أمة الإسلام. وكانت هناك بالفعل بقايا استطاع ﷺ معالجتها بحكمته وفطانته وإيمانه ولكنها ظلت نائمة ولم تظهر إلا بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى. ولم يسلم من هذه النزعات من كبار أصحاب الرسول ﷺ إلا ناس من أمثال أبي بكر وأبي عبيدة وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

والحادث الذي نشير إليه يتلخص في أن الطعام عند أهل السرية كان قليلاً حتى اضطروا إلى أكل الخَبْط، وهو نباتٍ حريف تتورم منه الشفاه. فلما اشتد بهم الأمر تقدم قيس بن سعد بن عبادة، وكان من رجال السرية، وعرض على أحد الجهنيين أن يشتري منه جزراً أي إبلاً للذابح بتمر من تمر المدينة، ولم يكن مع قيس تمر وإنما هو اشترى الجزر دَيْناً، أي أنه وعد الجهني بأن يعطيه حقه عندما يعود إلى المدينة، وسقين من التمر من مقابل كل جزور والوسق حِمل الجمل. فاعترض عمر على الصفقة لأن قيساً في رأيه لا يملك المال وإنما يملكه أبوه. ولا يستطيع الرجل أن يشتري شيئاً بمال أبيه دون إذن الأب وضمانه، وقال عمر: واعجباً لهذا الغلام! لا مال له يَدَّان في مال غيره، ولكن الجهني عندما عرف نسب قيس أمضى الصفقة واشترط أن يشهد عليها شهود فشهد نفر من كبار الأنصار والمهاجرين، وقبل الناس ذلك إلا عمر فقد امتنع من الشهادة لأن الصفقة في اعتباره لم تكن مشروعة. ووقعت بين الاثنين ملاحاة أغلظ فيها قيس لعمر في الكلام.

والحقيقة أن عمر لم يكن له أن يدخل في هذا الأمر، إنما أمره إلى أبي عبيدة أمير السرية وله مكانته الكبرى في الدين والورع زيادة على إمارته، وقد تدخل أبو عبيدة في الأمر عندما بلغت الجزر التي نحرها قيس ثلاثاً، لأنه لم ير

أن يتمادى قيس في الإنفاق من مال أبيه دون إذن.

فلما عادت السرية إلى المدينة وأبلغ قيس أباه ما فعل، استحسنه الأب وأمضاه، وكان قيس قد قال لأبي عبيدة قبل عودتهم: أترى أن أبا ثابت (والد قيس وهو سعد بن عبادة) وهو يقضي دين الناس ويحمل الكل ويطعم في المجاعة، لا يقضي سقة (أي وسق) تمر لقوم مجاهدين في سبيل الله؟ وقد مال أبو عبيدة إلى رأيه ولكنه انضم في النهاية الى عمر. وقد أيد سعد ابنه وأعطاه أربع حوائط (حدائق) لكي يكون له مال ينفق منه كما يريد. وأراد قيس أن يثبت لأبي عبيدة وبقية أهل السرية كيف أنه كان صادقاً فيما توقع من اقرار أبيه لعمله فطلب إلى أبي عبيدة أن يشهد على عقد تنازل أبيه له عن الحدائق. فشهد، أما عمر فرفض، مما يدل على أنه كان بين عمر وسعد شيء من عدم التراضي، وهو أمر سيتجلى فيما جرى في سقيفة بني ساعدة، فانظر في مقابل ذلك ما قاله الرسول تعليقاً على الحادث كله: إنه (بيت سعد بن عبادة) بيت جود وهذا مقال من إنصاف الرسول للناس، ودقة حكمه على الأمور فهو لم يثبط همة الغنى فيما فعل ولم ينظر إليه على أنه تصرف فيه غرور وإنما امتدح البيت كله في كلمة قصيرة أسعدت الأب والابن وأجازت ما فعلاه جميعاً.

الفصل الرابع

فَتْحُ مَكَّةَ
وَدُخول قُريش في الإسلام
وَوُصُولها إلى قيَادَة أمّة الإسلام

فتـح مَكّـة :

كان فتح مكـة في رمضان سنـة ٨ هـ/ ينايـر ٦٣٠ م. حادثـاً فاصـلاً في السيرة النبوية وتاريخ العرب جميعـاً، إذ به انتهت تلك الحـرب الطويلة المـدى بين الإسلام وقريش. وبدخـول مكة وقـريش أمة الإسـلام انحسم الخلاف في أمر الإسلام بين العرب، فأقبلوا يدخلون في الإسلام جماعات ووفوداً وأفـراداً، فأما من كان ذا إيمان من العرب فقد دخل الإسلام عن إيمـان، وأما من لم يكن ذا إيمـان فقد اقتنـع بالأمـر الواقـع واستسلم ودخل الإسـلام وانضـم إلى أمية. هذه قريش كلها تنضوي تحت لـواء محمد صلوات الله عليـه وسـلامـه. فـأي برهان هو في نظر أولئك الأعراب أكبر من هذا على صدق محمـد فيما كـان يقول ويدعو له.

وكـان رسول الله ﷺ واثقـاً في أن ما وقـع في الحديبيـة كان آخـر مظهـر لمقاومة قريش مكة لـلإسلام، فقـد وجد في ذلـك اللقاء أمـامه رجـالاً انهكتهم الحـرب وأفقرهم خـوف التجـارة وهـاضت جنـاحهم قلة النصـير فلم يبق من المكـابرين منهم إلا العـداوة وشقشقة اللسـان والحرص عـلى ماء الوجه. وكان رسول الله حريصاً أشد الحرص على ألا يجردهم من ذلك وفي قـرارة نفسه كـان يحس أن معـظمهم سيدخلون الإسـلام إذا أتيحت لهم فرصـة لدخـولـه دون الشعـور بالهوان، فكان حـريصاً عـلى أن يعطيهم هـذه الفرصـة حتى إذا دخلوا الإسـلام لم يدخلوه حـطاماً، بـل ناسا كـرماء ينتفعـون بالإسـلام وينتفع بهم الإسلام ولهذا فسنجده حليماً معهم الحلم كله كريماً معهم الكرم كله.

وقد رأينا أنه عندما عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية مع قريش دخلت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة في حلف قريش وعقدها. ودخلت خزاعة كلها في عهد رسول الله ﷺ وعقده، وكانت خزاعة كما ذكرنا مرة بعد أخرى مع رسول الله ﷺ منذ استقر في المدينة وأخذ يبني جماعته بها. ويذهب المؤرخون إلى أن خزاعة أسلمت منذ مر الرسول الكريم بمنازلها وهو في طريقه إلى يثرب مهاجراً. وهو تزيد لا معنى له بل يذهب المؤرخون إلى أن خزاعة كانت في حلف عبد المطلب بن هاشم، ولقد أورد الواقدي نص كتاب الحلف الذي عُقد بين عبد المطلب بن هاشم والخزاعيين، وهو كتاب منتحل دون أدنى شك وضعه الخزاعيون بعد أن أسلموا في عقد رسول الله وأمة المدينة. فلم يكن الجاهليون يكتبون أحلافهم في صحائف أو على العظام أو لحاء الشجر إنما كانت هناك طقوس لعقد الأحلاف تتم عند أصنام المعبودات ويقسم الحيان على ما يريدون أن يتحالفوا عليه ثم يقدموا ذبائح عند النصب أو يغمسوا أيديهم في دم أو طيب. وأبسط ما يدل على زيف هذا الكتاب هو أن فيه نص الكتاب الذي سيعطيه رسول الله (الآن) لخزاعة وهو في طريقه لفتح مكة.

ولكن الكتاب بين عبد المطلب وخزاعة إذا كان زيفاً، فإن الحلف بين خزاعة ورسول الله حقيقة دفعت إليها تصاريف السياسة. وما قدره الله في عمله من الخير للخزاعيين. وقد تحدثنا عن خزاعة في القسم الأول من هذا الكتاب وحققنا أمر نسبها إلى حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء ابن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وإذا كنا نشك في مساق هذا النسب الذي يربط نواة خزاعة إلى الأزد فقد بينا أنه انضافت إلى نواتهم جماعات من إلياس بن مضر إما مباشرة عن طريق أفصي بن عامر أم غير مباشرة عن طريق خندف امرأة مضر، ولكن عداد خزاعة النهاية في عرب اليمن وهم كذلك أبناء عمومة الأوس والخزرج، فهؤلاء فيما يقول النسابة أولاد عمرو بن ثعلبة العنقاء أخي حارثة بن عمرو جد خزاعة فيما يقول الرواة. وقد بيَّنا

في القسم الأول بطلان ما زعمه ابن حزم في الجمهرة من أنهم - قطعاً - من أبناء لحي بن عامر بن قمعة بن الياس بن مضر، وهو زعم أوقعه في أخطاء كثيرة في مساقات أنسابه، ونحن لا نأخذ بصحة معظم الأسماء الواردة في شجرات الأنساب هذه، فكلها رسوم هندسية نسقها الرواة لتأييد علاقات عصبية ومصالح سياسية أو لنقض مصالح أخرى ظهرت بعد الإسلام، وانما نحن نأخذ بمعناها جملة، فليس من الضروري أن نقول إن خزاعة من الأزد، ولكن لا بد أن نقرر أن أصلهم من اليمن شأنهم في ذلك شأن كندة وشأن غسان وشأن الأوس والخزرج وقد نصر الله رسوله الأكرم بالأوس والخزرج ونصره بخزاعة، ومن هنا جاء الحديث النبوي الذي يقول إن الإسلام يمان وهو حديث موضوع أيضا، ولكن في معناه ومغزاه حقيقة تاريخية.

والحقيقة التاريخية هنا هي أن خزاعة أصبحت بفضل الحلف مع رسول الله وأمة الإسلام بالمدينة أقوى قبائل المنطقة الممتدة من مكة إلى المدينة، ولم تأت هذه القوة من التأييد المستمر الذي قدمته أمة الإسلام إلى خزاعة، بل نتجت أيضاً من الحاح المسلمين على توجيه الضربات إلى القبائل الموالية لقريش أو التي كانت مناوئة للإسلام ولخزاعة أيضاً في تلك المنطقة مثل لحيان ومحارب والدئل وعضل والقارة، وكلها كانت قبائل بدوية. ومثال ذلك بعض بني سليم ابن منصور وكانت منازلهم عند معدن بني سليم بين مكة والمدينة عند ما يعرف اليوم بمهد الذهب، وكذلك بعض بني هلال بن عامر بن صعصعة من أعراب أطراف نجد الغربية، وتدخل مع هؤلاء جماعات من قيس عيلان عاشت بعض فروعها في الحجاز، وكانت هذه كلها تنسب نفسها إلى مضر، وتدخل في هذه القبائل غطفان بفروعها العديدة. وكانت لا تكف عن الغارة والتدبير على المسلمين، وخلال الفترة من واقعة الخندق في ذي القعدة سنة ٥ / أبريل ٦٢٧ م. إلى الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ هـ/ مارس ٦٢٨ م. لم توقف أمة المدينة ضرباتها على أولئك البدو حتى انكسرت شوكتهم وضعفت قواهم ولم تعد

منافسة لخزاعة، وذلك كله زاد الخزاعيين تعلقاً بالإسلام ورسوله، فقد وجدوا في ظل الإسلام من العزة والمنعة ما لم يعرفوه من قبل، وتحققت تحت سمعهم وأبصارهم كل كلمة قالها الله في قرآنه والرسول في حديثه وزالت عن خزاعة وصمة أو مسحة الذل والضعف التي كانت قد لصقت بهم بعد أيام عبد المطلب وعلو نجم خصوم بني هاشم من بني عبد شمس وأحلافهم، وكان الخزاعيون كما سبق أن ذكرنا أنصاف حضر Semi - nmads أو متنقلين بين الإستقرار إذا وجدوا الماء الوافر أو المطر المتصل والظعن إذا عز الماء واضطرتهم ظروف المناخ وتصاريف صراع القبائل إلى الظعن والتنقل، وهم في هذا كله يشبهون بقية العرب الراجعين إلى أصول يمانية: الأزد في عمان وفي جبال السراة وكندة على أطراف نجد والأوس والخزرج في المدينة وبنو غسان وبنو لخم في الشام. فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه واستظلوا بأمانة هاجر منهم إلى المدينة واستقر فيها من هاجر واستقر، وظل الباقون في مواضعهم فيما بين مكة والمدينة مستقرين آمنين في بلادهم مستمسكين بالعروة الوثقى وهي عروة الإسلام.

ولم يعز بالإسلام قوم من خزاعة كما عز بنو أسلم بن لحي الذين ينسبهم ابن حزم في شطحة من شطحاته القليلة إلى عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر، وهم في الحقيقة أزد يمانيون قد ربط النسابون نسبهم بنسب مضر من باب التبرك والتشرف بالانتساب إلى قوم محمد ﷺ على ما قلناه، وقد رأينا من بني عدي الخزاعيين هؤلاء بديل بن ورقاء وعرفنا صدق إسلامه وولائه لرسوله في محادثات الحديبية، ويصفه ابن حزم بأنه كان أدهى العرب وابنه عبدالله وهو صحابي سينضم إلى شيعة علي ويقتل في معارك صفين، وأخوه نافع بن بديل صحابي من شهداء بئر معونة، ومن أكابر الخزاعيين وصحابة الرسول بريدة بن الحصيب الأسلمي الخزاعي وكان فارساً نجداً شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، وآخر مشاهده في حياة الرسول أنه كان صاحب لواء أسامة بن زيد في سريته التي أمر بها رسول الله وأنفذها أبو بكر بعد انتقال الرسول إلى الرفيق

الأعلى، وكان بريدة عندما سمع بوفاة الرسول قد عاد بلواء أسامة وجعله على باب أسامة بن زيد، حتى إذا نفذ البعث أخذه وقال تحته في أُبْنَى من قرى البلقاء وعاد بعد ذلك إلى المدينة وأخمل أمره كما أخمل أمر أسامة بن زيد بعد بعثة هذا ويقال إن بريدة هذا أسلم على يد الرسول ﷺ وهو مهاجر من مكة إلى المدينة مع أبي بكر، هذا مستبعد وإنما أتت هذه الجلالة كلها لبريدة بن الحصيب من أولاده وأحفاده الذين هاجروا مع مواليهم إلى البصرة ثم إلى خراسان واستقروا بمرو، وكانوا من أعيان العرب بها وأنكروا ظلم بني أمية ودخلوا في شيعة الهاشميين وكان فيهم ثلاثة من نقباء الدعوة الهاشمية التي تحولت إلى دعوة عباسية، ومن هنا ازداد ذكر بريدة طيباً بفضل صحبته للنبي وبفضل ما قسم لأحفاده ومواليي بيته من القدر العظيم في مرو، ومن هنا لا نتعجب عندما نقرأ أن رسول الله ﷺ قال لبريدة بن الحصيب وللحكم بن عمرو الغفاري أنتما عينان لأهل المشرق.

وقد تأكدت مكانة الخزاعيين عندما اعتدت بنو بكر بن عبد مناة على بني كعب وهم بيت كبير من أسلم، فكان ذلك كما سنرى بعد قليل السبب المباشر في مسير الرسول إلى مكة فاتحاً، وفي طريق محمد ﷺ إلى مكة يمر بمنازل خزاعة وهم أنصاره واولياؤه، ويلقاه بريدة بن الحصيب عند غدير الأشطاط وهي منزل كان على الطريق الرئيسية من مكة إلى المدينة وتسمى بالجادة أو الطريق طريق البيداء، وتقع على ثلاثة أميال شمالي عسفان أي على خمسة كيلومترات منها على وجه التقريب ويقول له: يا رسول الله، هذه أسلم وهذه محالها وقد هاجر إليك من هاجر منها، وبقي قوم منهم في مواشيهم ومعاشهم فقال رسول الله ﷺ وأنتم مهاجرون حيث كنتم، ويدعو العلاء بن الحضرمي (كاتبه) ويأمره بأن يكتب من املاء الرسول كتاب اقرار لخزاعة في منازلها وتأمين لهم فيها على مثال ما سيكتبه الرسول لكل من جاءه مبايعاً مسلماً منيباً من وفود العرب في عام الوفود، ورسول الله في هذه الكتب أراد أن يقر كل قوم في

أرضهم ومرابعهم ويؤمنهم فيها ليقيم السلام بينهم، وهو لم يعط في كتبه كلها أحداً أرضاً إلا أن تكون أرضاً غامرة لا يطلبها أحد فهو يريد عمارها، لأن رسول الله لم يكن ليتصرف إلا فيما ملكت يمينه، لأنه صلوات الله عليه رمز الحق والشرع، والشرع لا يجيز للرجل أن يتصرف إلا فيما يمتلك فعلاً وشرعاً أما ما يقال من أن الرسول أعطى بني تميم الداريين أرضاً في فلسطين ولم تكن قد فتحت بعد، وأعطى الرهاويين أرضاً في الجزيرة فأحاديث لا تصح، ولكن مؤرخينا يرددونها دون تفكير بل ذكرها بعض الفقهاء وحاولوا أن يجدوا لها تبريراً.

ونص الكتاب الذي كتبه العلاء بن الحضرمي عن رسول الله لبني أسلم الخزاعيين: «هذا كتاب من محمد رسول اللّه لأسلم، لمن آمن منهم باللّه أو شهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فإنه آمن بأمان الله وله ذمة الله وذمة رسوله، وأن أمرنا وأمركم واحد على من وهمنا من الناس. بظلم اليد واحدة والنصر واحد، ولأهل باديهم مثل ما لأهل قرارهم، وهم مهاجرون حيث كانوا.».

ويبدو أن التحمس للإسلام ورسوله والولاء لهما كان قد أصبح أمراً عاماً مشتركاً بين الخزاعيين كباراً وصغاراً. فقد حكى الواقدي في كلامه عن فتح مكة أن رجلاً من كنانة يسمى أنساً بن زنيم الديلي هجا أو سبَّ رسول الله ﷺ فسمعه غلام من خزاعة فوقع به فشجه فكان ذلك من أسباب وقوع القتال بين بني بكر وخزاعة.

وتذهب النصوص إلى أن بني بكر بن عبد مناة ـ عدا مدلج ـ عندما قرروا الإيقاع بخزاعة وأيدهم جماعة من قريش في ذلك فيهم صفوان بن أمية بن خلف ومكرز بن حفص بن الأخيف وحويطب بن عبد العزى ونفر آخر من بني عامر بن لؤي ومن لف لفهم، وقد وافقوا على أن يشتركوا في الغارة متنقبين حتى لا يعرف أمرهم، وهذا مستغرب لأن أولئك الرجال كانوا كفاراً وأعداء

للإسلام فعلاً، ولكنهم لم يكونوا حمقاً إلى الحد الذي يجعلهم يقعون في خطأ فاحش كهذا، ومثلهم - مهما تنقب - لا يخفى أمره إذا اشتركوا في قتال، ولكن من الثابت أن أبا سفيان لم يشترك في تلك الحماقة، فمن قائل أنه لم يعلم بها ومن قائل أنهم حدثوه في أمرها فنصحهم بألا يقدموا عليها. ومن الواضح أن ذلك الرجل كان قد أيقن الآن وأكد ألا قِبَل له ولا لقومه بمحمد أو أمة المدينة واتجه تفكيره إلى موادعة المسلمين، وإن لم يدخل الإيمان قلبه. أما محاربة المسلمين فأمر لم يكن يخطر له على بال. على هذا الرأي كانت بقية بني كعب بن لؤي وهم قلب قريش البطاح وبيتها وعددها. ثم كان ما كان من عدوان بني بكر بن كنانة على الخزاعيين، ذلك الاعتداء البشع الذي يتجلى فيه الحقد العميق الذي كانت بنو بكر تحمله لخزاعة التي أصبحت سيدة الحجاز وتهامة من دون بني بكر وبقية كنانة وكانوا يحسبون أنفسهم قبل الإسلام أعز من خزاعة وأكرم وأمنع فوجدوا أنفسهم يتضاءلون إلى جانب خزاعة التي عزت بالإسلام. وحقد هذا القبيل من كنانة على خزاعة يعدل حقد قريش الكفر على الإسلام الذي أنزلها من صدارة الجزيرة العربية وانتزع منها الفضل والشرف والثروة والمكانة الدينية، وقديماً قالوا إن الحقد أسوأ دليل وأشأم ناصح.

لقد انقضَّ نوفل بن معاوية الدؤلي وقومه من بني بكر بن عبد مناة على الخزاعيين وهم في منازلهم غارُّون مطمئنون لا يتوقعون شراً من أحد في ظل صلح الحديبية ومدته عشر سنين. لم ينقض منها إلا سنة وثمانية شهور أو تسعة فنحن الآن في شعبان سنة ثمان في الغالب وربما يكون الذي أجج حقد زعماء القرشيين المقيمين على كفرهم، هو التوفيق الذي لا يكاد يصدق الذي حققته أمة الإسلام خلال هذه الفترة القصيرة. ويكفي فتحها لخيبر وضم أراضيها وما بينها وبين المدينة من أراض إلى أمة الإسلام وما استتبعه ذلك من كسر شوكة غطفان وأسد وبني طيء وامتداد نطاق أمة الإسلام إلى فدك شمال شرقي خيبر وإلى تيماء ووادي القرى شمالي الحجاز.

وهذا يفسر لنا كيف أن نوفل بن معاوية الـدؤلي وقومـه من بني بكر بن عبد مناة انقضوا على الخـزاعيين وأنـزلوا بهم مـذبحة بشعـة، وكان الهجـوم في موضع من منازل خزاعة قريب من مكة. ونحن نعرف أن المركز الكبـير لخزاعـة كان عند غدير الأشطاط، على نحو يومين شمالي مكة أي سبعين كيلومتراً عـلى وجه التقريب، وقـد أسرع النـاجون من تلك المـذبحة إلى مكـة ليحتموا بـدار شيخهم بـديل بن ورقـاء، وكان لـه في مكة دار واسعـة، وكـان من أصحـاب المكـانة هنـاك، وكانت هنـاك دار رجل آخـر من سـراة خـزاعـة يسمى رافعـاً الخزاعي، ولم نستطع التعرف على رافع هذا فيما بين أيدينا من المراجع، وتسلل زعماء القرشيين من بني عامر بن لؤي إلى منازلهم «يظنون ألا يعرفوا وإلا يبلغ هذا محمداً ﷺ» كما يقول الواقدي[1] وعنـدما بلغ النـاجون مكـة وتخطوا الحرم ظنوا أن ذلك يوقف نوفلاً فصاحوا: يا نـوفل إلهك! الهك! قـد دخلت الحرم، قال: لا إله اليـوم يا بني بكـر (يخاطب قـومه) قـد كنتم تسرقـون الحاج، أفـلا تدركون ثأركم من عدوكم! لا يريد أحدكم أن يأتي امـرأته حتى يستـأذنني، لا يؤخر أحد منكم بعد يومه هذا ثأره.

ولم يكد القرشيون يفرغـون من فعلتهم هذه حتى أدركـوا جسيم خطئهم فيما فعلوا. فإذا صدق الرواة في كل ما قالوا عن نقض النفر الذين ذكرناهم من قريش للعهد، فإن ذلك يـدل على أن القبيلة كـانت قد فقـدت وحدتهـا الأولى وقدرتها على تسيير أمورها كلها في الطريق الذي ترتئيه أغلبية أهل الرأي منها كما كان عهدنا بها دائماً، والذي يدعونـا إلى الشك في صحـة بعض ما تقصـه علينا المراجع من أمر نقض قريش للعهد بالطريقة الجـافة القصيـرة النظر التي تصرف بها من يقال أنهم اشتركوا في عدوان بني بكر بن عبد مناة على خزاعة، هو تبرؤ أبي سفيان من جريرة هذا العمل وقوله إنه تم بدون علمه، وهو بالفعل لم تكن لـه يد فيـه، فكيف يفعل بنـو عامـر بن لؤي ذلك ويعـرضوا أمن قـريش كلها

---

(١) الواقدي مغازي ٢/٧٨٤.

للخطر دون أن يكون هناك اعتراض قوي من جانب الفريق الأعقل من القرشيين، وفيهم أبو سفيان رأس بني أمية وأحلافهم، ثم إن الواقدي يأتينا بخبر يدعونا إلى مراجعة أنفسنا في التسليم بأن هذا الفريق من قريش قد شارك في العدوان على خزاعة بالطريقة التي تذكرها الروايات، وهي طريقة بعيدة كل البعد عما نعرفه من تصرف القرشيين والخبر يقول: حدثني عبدالله بن عامر الأسلمي عن عطاء بن أبي مروان، قال: قال رسول الله ﷺ لعائشة: قد حرت في أمر خزاعة. قال ابن واقد فقالت عائشة: يا رسول الله، أترى قريشاً تجترىء على نقض العهد بينكم وبينهم وقد أفناهم السيف؟ فقال رسول الله ﷺ: ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى بهم. قالت عائشة: خير أو شر يا رسول الله؟ قال: خير![1] ومعنى ذلك أن رسول الله لم يكن متأكداً مما قاله له الخزاعيون. ولكن القرشيين إذا كانوا قد نقضوا العهد مع قريش، فيكون ذلك لخير أراده الله بهم. وهذا صحيح وذلك كله لا يمنع من القول بأن عدواناً ما من بني بكر بن عبد مناة قد وقع على نفر من خزاعة وهم مسلمون، وما دام هذا العدوان قد حدث وما دام الخزاعيون قد طلبوا النصرة من رسول الله ﷺ وهو رأس أمة الإسلام ومن ضوى إليها واستظل بعهدها وآمن، فقد كان لا بد أن يسير المسلمون لنصرة المؤمنين على الكفار المعتدين، وما دام المعتدون في عقد قريش وعهدها فإن القصاص يشمل قريشاً ومكة، خاصة وأن رسول الله ﷺ لم يزمع من بادىء الأمر قصاصاً بل علاجاً حاسماً لداء قريش وشفاء لها من الأزمة الخانقة التي كانت تعانيها. فقد كان الرسول يعرف أن معظم المكيين قد أسلموا أو يريدون الدخول في الإسلام ولم تبق على العناد منهم إلا طائفة من الزعماء، وليس من حق أولئك الزعماء أن يمنعوا الخير عن بقية الناس، ومكة كانت ضرورية للإسلام كما كان الإسلام ضرورياً لها، وقرار رسول الله ﷺ بفتح مكة كان قرار خير ورحمة ورفق. وكان في نفس الوقت اكمالاً لجانب كبير

(١) الواقدي، مغازي ٢/٧٨٨.

من الرسالة المحمدية، وفيه الخير كل الخير لكل مكي بمن فيهم أولئك المعاندون.

وكان طبيعياً أن يحس المكيون أنهم كسروا العهد مع محمد، وأن خزاعة لا بد مستجيرة به، وأنه لن يتأخر عن نصر خزاعة، ويتصدى لعلاج الموقف أبو سفيان صخر بن حرب، وينتهي دور بني عامر بن لؤي في قيادة قريش بعد أن جروا قريشاً معهم إلى هذا المأزق العسير.

وهنا نجد أنفسنا أمام معضلة من معضلات السيرة، فإن رواتنا يقصون علينا أخبار ذهاب أبي سفيان إلى المدينة، وما لقيه هناك من إعراض الناس أجمعين حتى رسول الله ﷺ يقول له بعد أن أجار بين الناس: أنت تقول ذلك يا أبا سفيان أي أنك أجرت نفسك. وما دام رسول الله لم ينكر الجوار فمعنى ذلك أنه لن يقصد أبا سفيان وقومه بأذى.

ويروي الواقدي رواية نستطيع أن نستنتج منها أشياء قليلة. ولكننا في حاجة إليها، لأننا في الحقيقة لا نرى شيئاً واضحاً من خلال الضباب الكثيف الذي يلف الحوادث السابقة على فتح مكة.

يقول الواقدي: «لما صاح (أبو سفيان يجير بين الناس) لم يقرب النبي ﷺ، وركب راحلته وانطلق إلى مكة، وكان قد حُبِس وطالت غَيْبَته، وكانت قريش قد اتهمته حين أبطأ أشد التهمة، وقالوا: والله إنا لنراه قد صبأ واتبع محمداً سراً وكتم إسلامه فلما دخل على هند ليلاً (يريد زوجته) قالت: لقد حُبِست حتى اتهمك قومك، فإن كنت مع طول الإقامة قد جئتهم بحجج فأنت الرجل، ثم دنا منها فجلس مجلس الرجل من المرأة، فجعلت تقول: ما صنعت؟ فأخبرها الخبر، وقال: لم أجد إلا ما قال لي عَليّ. فضربت برجليها في صدره وقالت: قُبِّحتَ من رسول قوم»[1]. . .

---

(١) الواقدي، مغازي ٢/٧٩٥.

ونسأل الآن: من هي قريش التي كانت ترجو أن يوفق أبو سفيان في الحصول على موافقة رسول الله على موالاه؟ والجواب أنه لا يصدق أن كل قريش كانت تخشى مسير الرسول إلى مكة، فالكثيرون جدا من المكيين كانوا قد أسلموا فهم يحبون مجيء رسول الله والإسلام.

وهذا الخبر غير مقبول لأن أبا سفيان ذهب إلى المدينة في سفارة عامة تتصل بمصير مكة كلها. فإن الصلح بين مكة والمدينة قد انتقض وأبو سفيان ذهب إلى المدينة لينظر في إمكان إصلاح ما فسد ومد المدة. وقد عاد من المدينة فكان لا بد أن يجتمع بأهل مكة بمجرد عودته ويطلعهم على ما وصل إليه وينتشر الخبر ويعرفه الناس، لأن الأمر كان خطيراً يتصل بمصير مكة كلها، فلا معنى إذن للقول بأن هند امرأة أبي سفيان لم تعرف الخبر إلا من زوجها وهما في حال خلوة. والحقيقة أن أبا سفيان أخبر أهل مكة بما فعل في المدينة، وما نصحه به علي بن أبي طالب فسألوه إن كان رسول الله قد أجاز إجارة أبي سفيان بين الناس. فقال لا. قالوا ويلك، والله إن زاد الرجل على أن لعب بك! قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

لم يطمئن القرشيون إذن إلى أن أبا سفيان أتى بنتيجة، ولكن مجرى الأخبار يدل على أنهم لم يتوقعوا سوءًا لا ولاهم جزعوا عندما علموا أن رسول الله سائر إليهم بالجيش، وإنما هم سكنوا واستكانوا حتى دخل المسلمون المدينة سلماً بدون قتال.

إذا ذكرنا خوف القرشيين عندما سار إليهم الرسول في غزوة الحديبية وكيف أرسلوا طلائع تستكشف الأخبار، وخرجت لهم طليعة بقيادة خالد بن الوليد، ووقفت قوة منهم عند كراع الغميم وكيف كانوا يقسمون ألا يدخلها عليهم المسلمون أبداً، وكيف كان تشددهم في مفاوضات الحديبية. إذا ذكرنا ذلك كله كيف وقفت قريش ساكنة ورسول الله ﷺ يسير نحوهم في عشرة آلاف رجل نصفهم تقريباً من قبائل لا يستطيع القرشيون أن يطمئنوا إليها،

هـذا بالإضـافة إلى المهـاجرين والأنصـار ورجـال أمـة المـدينـة. فكيف سكن القـرشيون واطمـأنوا وهم يعـرفون أن هـذا الجيش اللَّجب في الـطريق إليهم؟ وأكثر من ذلك: لقـد تم للمسلمين دخـول مكة بسـلام تام تقـريباً لم تشبـه إلا مناوشة صغيرة لقيتها قوة خالـد بن الوليـد وهي داخلة مكة من الجنـوب. وإنه لمن غرائب الأمور أن تكون قوة خالد بن الـوليد بـالذات هي التي استخـدمت القوة، وخالد قبل عامين اثنين كان رئيس الـطليعة التي خـرجت لتستطلع أمـر المسلمين في غزوة الحديبية.

لا يسع المؤرخ في هذه الحالة إلا أن يفترض أن شيئاً ما قد حـدث، وأن اتفاقاً قد تم على أن تعتبر مكة مدينة مفتوحة ليدخلها المسلمون دون قتال، هنـا لا بد أن ننظر إلى سفارة أبي سفيان إلى المـدينة نـظرة أخرى، فـإن سياق الخـبر عنـد مؤرخينا يـدل على أنها لم تـوفق إلى شيء، وأن أبا سفيـان ذهب وعاد دون نتيجة. ولكن واقع الحوادث يدل على أنه عـاد بنتيجة هي أفضـل مما ذهب من أجله فقد ذهب ليفاوض رسول الله ﷺ في أمر مد المدة أي تجديد الهدنة وانتهى الأمر بدخول المسلمين مكة دون قتال ثم دخولها في الإسلام.

هنا لا بد أن نفسر مـا جرى لأبي سفيـان في المدينـة تفسيراً جـديداً فـإن الـرجل لم يجـد من أحد ممن لقيـه هناك عـداوة. حقـاً لقـد رفض كـل من أراد التحدث إليهم أو التشفع بهم لدى رسول الله، أن يقـدم إليه أي خـدمة ولكن أحداً كذلك لم يلقه بعداوة أو سوء مقال وعلي بن أبي طالب نصحه بأن يجير بين الناس «فقام أبو سفيان في المسجد فقال، أيها الناس إني قد أجرت بين الناس! ثم ركب بعيره فانطلق».

ونلاحظ هنا أنه أجار بـين الناس ثم انـطلق راجعاً إلى مكـة ومعنى ذلك أن الإجارة لم تكن للإقامة في مكـة، بل لشيء آخـر أي أنه بـذلك جعـل نفسه

---

(١) ابن سيد الناس. عيون الأمر جـ ٢ ص ١٦٥.

جاراً لأمة المدينة، أي أنه عصم نفسه وأصبح له حق الجوار، ورسول الله لم ينكر ذلك، إنما كان كل ما قاله له «: أنت تقول ذلك يا أبا سفيان؟» وهذا قول لا يعني الرفض أو القبول، ولكن أبا سفيان فسره على أنه اقرار للإجارة.

والسؤال الآن: ما معنى هذه الاجارة؟ لقد بارح الرجل المدينة ومضى فانتهى بذلك حقه في الجوار في المدينة، ولكن الذي نستنتجه هو أن أبا سفيان طلب الإجارة لنفسه بصفته سفيراً لأهل مكة، وإجارة السفير معناها إجارة أهل مكة جميعاً، وهذا هو الذي نفهمه من واقع الأحداث فإن أهل مكة اعتبروا أنفسهم في جوار رسول الله أي في حمايته ولهذا قروا مكانهم آمنين ساكنين عندما بلغهم أن رسول الله والمسلمين في الطريق إليهم، وكذلك اعتبروا إجارة أبي سفيان لنفسه إجارة لأهل مكة جميعاً، فهو سفيرهم والمتحدث باسمهم، وقد كان أبو سفيان قد وفد إلى المدينة لتجديد الصلح بعد أن أهدرته قريش ولم يوافق الرسول ﷺ على ذلك وقرر المسير إلى مكة، ولكنه اعتبر طلب أبي سفيان إجارة أمة المدينة إعلاناً لاستسلامه واستسلام قومه معه، فهو سفيرهم والمتحدث باسمهم. وعندما عاد أبو سفيان إلى مكة واجتمع بأصحابه وأعلن إليهم نتيجة ما وصل إليه أنكر بعض المتطرفين منهم ذلك وحاولوا الاعتراض. ولا بد أن نتصور هنا أن أبا سفيان أفهمهم بأن الاستسلام هو الحل الوحيد الباقي أمامهم لأنهم لا يستطيعون الوقوف في وجه المدينة، وإذا هم حاولوا التعرض لجيش المسلمين فإن النتيجة ستكون القضاء عليهم والحاق الضرر البالغ ببلدتهم، ورسول الله لا يريد ذلك ولو صفاءً، ولكنه قبل ـ ضمناً ـ أن تكون مكة وأهلها في جواره وجوار أمة الإسلام.

وليس لدينا نص صريح يؤيد هذا التصور، ولكن الذي يؤيده، هو الواقع التاريخي الذي كان. فقد وقف أهل مكة ساكنين وقد فتحوا أبواب مدينتهم ودخل المسلمون دخولاً سلمياً منظماً. وعندما دخلوا نادى مناديهم أن من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل بيته وألقى سلاحه فهو آمن. أما إعلان

الرسول أن من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، فهو ليس تكريماً خاصاً لأبي سفيان كما يظن وإنما هو توكيد للحقيقة التي ذكرناها وهي أن أبا سفيان في جوار أمة الإسلام وجواره، هذا ينسحب على مكة بما فيها ومن فيها إلا من أقدم على نقض الجوار.

وقد دخل الرسول ﷺ مكة سلماً فلم يقع إلا القتال اليسير في ناحية الجنوب. وبذلك تكون سفارة أبي سفيان هي التي هيأت الطريق لدخول مكة، وأهلها في أمة الإسلام. وقد سبق أن لاحظنا أن هذا ما كان الرسول يرجوه. فقد ظل يضيق على مكة ويقطع تجارتها وأواصر صداقاتها وأحلافها حتى افتقرت وضعفت ولم تعد تستطيع المقاومة. فلما أحس الرسول بذلك اختبر قوة المكيين في غزوة الحديبية، ثم قام بالعمرة. وفي الفترة بين صلح الحديبية والعمرة انفتح الباب بين مكة والمدينة وزال الحرج عن أهل مكة في دخول الإسلام فدخلوه أفواجاً، وحقت كلمة الله سبحانه. والمسلمون عندما ساروا إلى مكة كانوا يعرفون أنهم يسيرون نحو بلد اسلم معظم أهله واشرأبت نفوسهم لدخول أمة الإسلام، ولا بد أن قادة أمة الإسلام أفهموا رجالهم ذلك فتم الفتح على الصورة الكريمة الحاسمة التي تم بها.

والآن وقد قدمنا تصورنا العام لهذا الحدث العظيم. فلنقف بعض الوقت عند التفاصيل:

١ ـ عندما أزمع رسول الله فتح مكة لم يعلن حتى عن خروجه، وأبو بكر لم يعرف ذلك إلا عن طريق عائشة، وكل ما علمه هو أن الرسول خارج للغزو أما وجهته فلم يعلمها إلا فيما بعد.

٢ ـ ومع ذلك فإن النصوص تقول إن الرسول دعا ربه قبل خروجه فقال: اللهم خذ على قريش أبصارهم فلا يروني إلا بغتة ولا يسمعون بي إلا بغتة.

٣ ـ وأخذ الرسول بالأثقاب أي أمر بحراسة مخارج الطرق من المدينة إلى كل وجه، وعهد إلى عمر بن الخطاب في ذلك الأمر، فلا يخرج رجل من المدينة قط، ومعنى ذلك أن الخبر كان معروفاً بالمدينة، والذي قصد إليه الرسول هو ألا يخرج أحد بالخبر إلى أهل مكة.

وهذا كله يعني ضمناً أن رسول الله أعلن نيته على الفتح لكبار أصحابه الموكلين بالتنظيم والحاملين للمسئولية من بعده.

٤ ـ وفي هذه المناسبة وقعت حادثة حاطب بن أبي بلتعة الذي كتب رسالة إلى قريش جعلها مع امرأة من مزينة، ويفهم من هذا الخبر أنه كان من المعروف في المدينة كلها أن رسول الله يريد مكة ولم يلبث الرسول بناء على ما يقوله رواتنا أن أعلن نيته إلى أبي بكر وطلب إليه أن يكتمها. وسر الحرص على الكتمان هنا هو ألا يتسرع أحد.

٥ ـ ولكي تظل وجهته سراً أرسل جماعة يقودها أبو قتادة بن ربعي إلى بطن إضم ـ ماء على الطريق بين مكة واليمامة ـ ليظن الناس أنه ذاهب في ذلك الوجه. وتقول النصوص إن ظنون الناس ذهبت إلى أن الرسول خارج إما إلى قريش أو إلى هوازن أو إلى ثقيف، ولكن معرفة حاطب بالأمر تدل على أن الرسول لم يكتم الخبر إلا ريثما استقر عزمه، وهنا أعلنه ولكنه أراد أن يظل الأمر في المدينة فقط فلا يخرج الخبر منها إلا في وقت متأخر، ويؤيد ذلك قول الواقدي لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى قريش وعلم بذلك الناس كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ.

٦ ـ وتقول النصوص إن حاطباً كتب إلى ثلاثة نفر من قريش: صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل، فلماذا لم يكتب إلى أبي سفيان بن حرب وهو الذي كان إذ ذاك رأس قريش؟

٧ ـ وتقول النصوص إن الخروج كان يوم الأربعاء ١٠ رمضان سنة ٨ هـ والعاشر من رمضان هنا يقابل ١ يناير ٦٢٨ م، وهو يوم اثنين لا يوم أربعاء.

٨ ـ ويروي الواقدي أن الرسول قال عند خروجه: إني لأرى السحاب تستهل بنصر بني كعب، وهذا تصريح لا لبس فيه، فبنو كعب الخزاعيون هم ضحية عدوان بني بكر بن عبد مناة ومن أيدهم من قريش.

٩ ـ وكان رسول الله قد بعث إلى كل من أسلم ومن كان في حلف الأمة من القبائل رسلاً يعلمونهم أنه خارج للغزو، والنصوص تقول إن الرسل لم يصرحوا بوجهة الغزو ولكن ذلك مستبعد، فإن القبائل لا تشترك في غزو إلا إذا عرفت الوجهة.

١٠ ـ ونخرج من ذلك أن الكتمان والتعمية لم تستمر إلا قليلاً، ثم لم يلبث الأمر أن شاع، وهذا هو البيت الأساس في أن رسول الله ﷺ لم يشتد غضبه على حاطب بن أبي بلتعة. ومنذ خروج الرسول من المدينة على الأقل عرف الناس أجمعين إلى أين يقصد، بدليل أن بعض جماعات القبائل انضمت إلى الجيش على الطريق والقبائل التي أرسل إليها الرسول واستجابت هي: أسلم من خزاعة ـ جهينة ـ غفار ـ ضمرة ـ أشجع ـ مزينة ـ سليم بن منصور ـ بنو كعب بن عمرة (من بني كعب بن خزاعة وهم المعتدى عليهم).

١١ ـ عسكر الرسول عند بئر أبي عنبة خارج المدينة وهناك فرق الرايات والألوية، وإليك بيان الألوية والرايات وأسماء حامليها:

المهاجرون: ٣رايات مع الزبير وعلي وسعد بن أبي وقاص:

الأوس:	بنو عبد الأشهل	راية مع أبي نائلة
	بنو ظفر	راية مع قتادة بن النعمان

	بنو ظفر	راية مع قتادة بن النعمان
	بنو ظفر	راية مع أبي برده بن نيار
	بنو معاوية	راية مع جبر بن عتيك
	بنو خطمة	راية مع أبي لبابة بن عبد المنذر
	بنو أمية	راية مع مبيض أو نُبَيْض
	بنو ساعدة	راية مع أبي أسيد الساعدي
الخزرج:	بنو الحارث بن الخزرج	راية مع عبدالله بن زيد
	بنو سلمة	راية مع قطبة بن عامر بن حديدة
	بنو مالك بن النجار	راية مع عمارة بن حزم
	بنو مازن بن النجار	راية مع سليط بن قيس
	بنو دينار بن النجار	راية يحملها؟

وهذا بيان ناقص جداً فيما يتصل بالمشتركين في الفتح من الخزرج، فلا شك أنهم كانوا أكثر من ذلك بكثير، خاصة وأن عدد الأنصار المشاركين في الفتح كانوا ٤٠٠٠ أي خمس رجال الفتح في حين أن المهاجرين بلغوا سبعمائة أي أقل من العشر، فيهم ٣٠٠ فارس. أما فرسان الأنصار فكانوا ٥٠٠ فارس.

ويبدو أن هذا التقدير لأعداد المهاجرين مبالغ فيه بعض الشيء فمهما تصورنا زيادة أعداد المهاجرين إلى المدينة فإن عدد الرجال المقاتلين منهم لا يمكن أن يصل إلى هذا العدد، ويمكن قبول هذا الرقم إذا تصورنا أنه يضم كل من هاجر إلى المدينة من المسلمين لا من قريش فحسب.

أما مساهمات القبائل الأخرى فكانت تشمل نصف الجيش الإسلامي على وجه التقريب. ومن المفيد هنا أن نذكر أسماء القبائل التي اشتركت وأعداد من اشترك منها وقادة قواتها، لأن ذلك يدل على أن كفة المدينة كانت قد ثقلت

فعلاً في الحجاز وشالت كفة قريش، وكانت هي الراجحة فيما مضى،وهذا يفسر لنا من بعض الوجوه لماذا وجد القرشيون الكفار أن أسلم الحلول لهم ولمدينتهم هو أن يعلنوها مدينة مفتوحة، ويدعوا المسلمين ليدخلوها دون قتال كما دعاهم إلى ذلك أبو سفيان.

وإليك بيان المشتركين من القبائل من غير قريش والأنصار:

مزينة ١٠٠٠ مقاتل منهم ١٠٠ دارع في ٣ ألوية:

لواء مع النعمان بن مقرّن

لواء مع بلال بن الحارث

لواء مع عبدالله بن عمرو

أسلَم (من خزاعة) ٤٠٠ منهم ٣٠ فارساً في لواءين:

لواء يحمله بريدة بن الحُصيب

لواء يحمله ناجية بن الأعجم

جهينة ٨٠٠ معهم ٥٠ فارساً في أربعة ألوية:

لواء مع سُوَيْد بن صخر

لواء مع ابن مكيث

لواء مع أبي زرعة

لواء مع عبدالله بن بدر

كعب بن عمرو (من خزاعة) .. ٥٠٠ فيهم ٣ ألوية:

لواء مع بشر بن سفيان

لواء مع ابن شريح

لواء مع ابن عمرو بن سالم ولم يكن خرج معه من المدينة لقيه قومه بقديد

وهذا أيضاً بيان ناقص، فهؤلاء جميعاً لا يكونون الخمسة آلاف الذين

تكـون منهم الجيش بالإضـافة إلى المهـاجرين والأنصـار، ولكن هـذا لا ينقض الحقيقة القائلة بأن جيش الأمة الإسلامية الـذي سار لفتـح مكة كـان مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل خمسهم من الأنصار وأقل من العشر كانـوا من المهاجـرين، والمهاجرون والأنصار كانوا يكونـون القوة الحقيقيـة لجيش الإسلام، ومـا سوى هؤلاء (بـاستثناء الخـزاعيين) لم يكن الـرسـول ﷺ يعـول عليهم كثيـراً ولكنـه دعـاهم وسمح لهم بـالانضمام إلى الجيش لكي، يشعـرهم بالاشتـراك في قـوة الإسلام. وشيئاً فشيئاً سيصبحون من جند الأمة الإسـلامية، ورسـول الله ﷺ كـان وثيق الإيمان في قـوة الإسلام عـلى غزو قلوب النـاس. وكان بعيـد النـظر طويل الأناة جداً في معـاملة الناس؟ وسنـرى كيف أنه سيسلك مـع القرشيـين المكيين وسواهم ممن دخل أمة الإسلام عام الفتح وبعده أكرم المسالك وخاصـة خلال عام الوفود وهو عام ٩ للهجرة.

١٢ ـ ولم يقف أحـد إلى جانب قـريش حتى بنو بكـر بن عبد منـاة وهم الذين نقضوا العهد، لم يحركوا ساكناً والرسول في طريقه إلى مكة، مما يدل على أن قريشاً كانت قد جـردت من كل نصـير لها. وسيكـون بعد فتـح مكة قتال، بين الإسلام وهوازن ثم ثقيف، ولكن لا هؤلاء ولا أولئك تحركوا لنصرة قريش وإن كانت المصادر تشير إلى حديث لبعض سادة القبائل في هذا المعنى ولكنها مجرد إشارات أشبه بالشائعات. والثابت على أي حال أن هوازن عندما سمعت بتحرك الرسول ﷺ ملكهـا الخوف واهتمت بـأن تعرف ما إذا كان هذا المسير موجهاً إليها.

والذي يستوقف النظر ويهز المشاعر هو تلك الرياسة المهابة به التي كانت لرسول الله ﷺ فهذا أضخم جيش عرفته الجزيرة في تاريخها ولكنه يسير في نظام وهيبة، ويمر الجيش اللجب بالمنزل بعد المنزل وبمنـازل القبائـل فلا عـدوان ولا نهب ولا حتى مفاخرة، بل بلغ من حرص الرسول على النظام وتمكنه من فرضه أن الجيش عندما مر بين العرج والطلوب «نظر (النبي) إلى كلبة تهر على أولادها

وهم حولها يرضعون، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له جعيل بن سَراقة ان يقوم حذاءها كي لا يعرض لها أحد من الجيش ولا لأولادها[1]». وهذا في ذاته دليل على حنو الرسول ﷺ وإنسانيته ويدعو إلى التفكير في أولئك الذين يزعمون أن الرسول ﷺ كان يكره الكلاب أو ينفر منها ويفضل عليها القطط.

١٣ ـ وكان النبي قد رأى أن الحزامة تقضي بأن يدعو الأعراب من أحلاف الأمة حتى يكونوا في عداد المقاتلين النظاميين فلا يتصرفون على هواهم ولهذا فقد طلب إلى من يريد المشاركة منهم أن يفد إلى المدينة أوائل رمضان. وعندما خرج بالناس من المدينة ترك الناس على علاتهم حتى وصل الصلصل على سبعة أميال (حوالي ١٢ ك) من المدينة وهنا أراح ونظم الناس وركب الإبل والخيل من معهم ابل وخيل، وأرسل الزبير بن العوام طليعة في مائتي فارس، وبعد قليل عندما وصل إلى البيداء لَمَّح إلى وجهته تلميحاً فقال: «إن السحاب تستهل بنصر بني كعب» (من خزاعة) وهم الذين وقع عليهم عدوان بني بكر بن عبد مناة وحلفائهم من القرشيين ونادى مناديه: «من أحب أن يصوم فليصم ومن أحب أن يفطر فليفطر» وتلك رخصة منه سيجعلها عزيمة عندما يقترب من مكة للتخفيف من جهد الناس وهم مقبلون على فتح، فمع أن الوقت كان شتاء إلا أن السير في الشمس مجهد، وعند العرج «يصب الماء على رأسه ووجهه ليخفف من العطش[2]».

١٤ ـ ومع وضوح التلميح الذي صدر عن رسول الله، إلا أن هوازن ملكها الفزع وخافت أن يكون المسير إليها فترسل عيناً يتبع المسلمين، ويكتشفه بعض المسلمين والجيش يمضي بين العرج والطلوب، ويمسكون به فيزعم أنه عابر سبيل من غفار فلا يزال المسلمون يستجوبونه حتى يفصح عن حقيقة نفسه بعد أن رأى العزم من المسلمين على

---

(١) الواقدي، مغازي ٢/٨٠٤.

(٢) الواقدي، مغازي ٢/٨٠١.

استخراج الحقيقة، فأقر بحقيقة نفسه، وكان الذي استجوبه هنا رسول الله ﷺ نفسه وقد كشف الرجل الكثير، فعرف الرسول أن هوازن كانت تخشى أن يكون مسيره إليها وأن جاسوسها هذا كان عليه أن يراقب الجيش من بعيد، فإذا سلك وادي سرف كان معنى ذلك أن رسول الله يفضي إلى بلاد هوازن ويهاجمها، وإذا تابع طريق الجادة فتكون وجهته مكة وقريش، وعلم الرسول كذلك أن هوازن هي التي انتابها الخوف فبعثت تحرض العرب و«أجلبوا في العرب، وبعثوا إلى ثقيف، فأجابتهم فتركت ثقيفاً على ساق قد جمعت الجموع، وبعثوا إلى الجرش (من أقصى مخاليف اليمن إلى الشمال) في عمل الدبابات والمنجنيق وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعاً».

قال رسول الله ﷺ: وإلى من جعلوا أمرهم.

قال: إلى فتاهم مالك بن عوف (شيخ هوازن وقائدها في حنين).

قال رسول الله ﷺ: وكل هوازن قد أجابت إلى ما دعا إليه مالك.

قال: قد أبطأ من بني عامر أهل الجد والجلد.

قال: من؟

قال: كعب وهلال.

قال رسول الله ﷺ: ما فعلت هلال؟

قال: ما أقل من ضوى إليه منهم. وقد مررت أمس بمكة، وقد قدم عليهم سفيان بن حرب، فرأيتهم ساخطين لما جاء به، وهم خائفون وجلون.

فقال رسول الله (ﷺ): حسبنا الله ونعم الوكيل، ما أراه إلا صدقني (يقصد الجاسوس).

قال الرجل: فينفعني ذلك؟

فأمر رسول الله ﷺ خالداً بن الوليد أن يحبسه، وقد حاول الرجل

الفرار ولكن خالداً قبض عليه واستبقاه، ثم أسلم بعد ذلك واستشهد في حنين.

المهم أن رسول الله هنا سأل عن ثقيف وهوازن وهلال، ولكنه لم يسأل عن قريش كأنه كان يعرف حقيقة موقفها. وكان الرجل هو الذي تطوع فقال له إنه مر بمكة ووجد قريشاً ساخطة على ماجاءهم به أبو سفيان. ومع أن النصوص تقول هنا إن أبا سفيان عاد إلى مكة صفر اليدين إلا أننا نرى هنا أنه عاد بشيء، وهم لم يطمئنوا إلى ما قال لهم ولهذا فقد كانوا خائفين وجلين، والذي جاءهم به هو الاتفاق على التسليم وعدم القتال أي اعتبار مكة مدينة مفتوحة بحسب التعبير الحديث، ومن الطبيعي أن يكونوا ساخطين لذلك ولكنهم راضون به، ومن الطبيعي أن يكونوا ساخطين وجلين، فإن أي مدينة في الدنيا لا تكون خائفة وجلة وجيش عدته عشرة آلاف مقاتل في الطريق إليها. حقاً إنها استسلمت ولكن من يطمئن إلى الجنود وفيهم من الأعراب ألوف؟

وإذن فالأدلة كلها تدل على أن أبا سفيان حصل لمكة وقريش من رسول الله على أمان، وعندما نادى في الناس أنه يجير بين الناس فلم تكن الإجارة له شخصياً، بل كانت إجارة لمكة وقريش ويكون علي ابن أبي طالب عندما نصح أبا سفيان بأن يجير بين الناس قد فعل ذلك برأي الرسول ﷺ، لأنه لم يكن يريد تحطيم قريش ولا إيذاء مكة، وكان إدخال مكة في جوار أمة الإسلام يوافق رأي الرسول، وعندما قال الرسول لأبي سفيان: أنت تقول ذلك يا أبا سفيان أراد أن يقول له: إنك طلبت الإجارة، ولكنك أنت لست كل قريش، فعليك أن تضم القرشيين إلى رأيك، ويكون أبو سفيان عندما عاد قد جاءهم بهذا الجوار، الجوار يسخطهم وإن كان يؤمنهم، وقوم مثل القرشيين لا

يستسلمـون دون سخط بعد العـزة والكبريـاء وشمـوخ الأنـف، يقفـون ساكنين. ومن نيف وعام فحسب عندمـا سار الـرسول إليهم معتمـراً في ١٤٠٠ رجل غير مسلمـين أخذتهم العـزة وأقسموا ألا يـدخلونها عليهم قط، وخرجوا للقائه معهم النساء والاطفال (العـوذ المطافيـل): ويومهـا قال الرسول: ويح قريش، أكلتهم الحرب إذ لو خلوا بيني وبـين العرب إلى آخر حديثه الذي رويناه آنفاً، أما الآن فإن تعليقه: حسبنا الله ونعم الـوكيل، ومعنـاه حسبي الله في قـريش، حتى هـذا لا يـرضيهم والمـراد سادتهم المعاندون.

١٥ ـ وإذن فيكون أبو سفيان بن حرب قد أنقذ قريشاً بذهابـه إلى مكة. حقـاً إن الرسول ما كان ليأذن بأن يصيب مكة بأذى، ولكن استسـلام قريش سهل له هذه المهمة وطمأنه على مصير القرشيين ممن أسلم وآمن وطوى إسـلامه. وفي سـورة الفتح آيـات (٢٢ ـ ٢٥) تشير إلى ذلـك صـراحـة ونصهـا ﴿ولو قـاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبـار ثم لا يجـدون وليـاً ولا نصيراً. سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكـة من بعد أن أظفـركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيـراً، هم الذين كفـروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء. لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾. حقاً إن الآيات تشير إلى ما كان في الحديبية، ولكن المؤمنين الذين كانوا في مكة ولا يعلم المؤمنون بأمرهم كانوا لا يزالون موجودين عند فتح مكة.

١٦ ـ وعنـدما مـر رسول الله ﷺ بقـديد لقيـه بنو سليم بن منصـور وهم بـين التسعمائة و الألف مع كل منهم رمحـه وسلاحـه، ومن كان فـارساً فمعـه فرسه، فشكوا إليه أنه يقصيهم ويستغشهم مع أنهم أخواله، وغريب منهم

أن يمتوا إليه هنا بالخئولة فيذكرون أن أم هاشم بن عبد مناف هي عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان من بني سليم، وبنو هلال ابن فالج هؤلاء غير بني هلال بن عامر بن صعصعة الذين تزوج الرسول منهم امرأتين، هما زينب بنت خزيمة بن الحارث، وميمونة بنت الحارث، وكلتاهما من أمهات المؤمنين. وسألوه أن يقبلهم في صفوف رجاله ليرى حسن بلائهم، فقبلهم الرسول وجعلهم في المقدمة مع خالد بن الوليد، ولم يكن بنو سُليم من قبل بأهل إيمان صحيح، وقد طالما آذوا أهل الإسلام، ولكن هذه كانت ساعة الرضى والعفو والتصافي، وما داموا قد أظهروا حسن النية فلماذا يرفضون؟

وقد غاظ قبول رسول الله لبني سليم عيينة بن حصن شيخ فزارة وغطفان، وكان عندما سمع بخروج رسول الله إلى مكة قد عمل باللحاق به مع نفر من قومه وسار في المؤخرة، وكان رسول الله يسير مع أبي بكر وعمر، وكان العباس بن مرداس شيخ بني سليم قد لقي الرسول عندما هبط من المشلل في طريقه إلى قديد ومعه آلة الحرب، والحديد ظاهر علينا والخيل تنازعنا الأعنة، فصففنا لرسول الله ﷺ - والمتكلم هنا هو العباس بن مرداس - (فقال العباس) يا عيينة «هذه بنو سليم قد حضرت بما ترى من العدة والسلاح وإنهم لأحْلاس الخيل ورجال الحرب ورعاة الحدق فقال عيينة بن حصن[1]: أقصر أيها الرجل فإنك تعلم لنحن أفرس على متون الخيل وأطعن بالقنا وأضرب بالمشرفية منك ومن قومك». وقد حسم الرسول هذا التنازع بين الشيخين القبليين بإشارة بيده وهكذا نرى هؤلاء الأعراب يتنافسون على المكانة عند رسول الله والمؤمنين، والرسول يهذب من طباعهم ويؤدبهم بأدبه ويكفيهم عن

(١) في الأصل المطبوع العباس بن مرداس ولا يستقيم به الكلام والغالب أنه وهم من الناسخ فصوبناه على ما ترى في المتن وقد اختلط الأمر على المحقق الأريب هنا والعبارة في الأصل قلقة أي حال.

ذلك التنافس الجاهلي.

١٧ ـ وبعد هذا يظهر في النصوص تحريف الأخبار الذي يقصد منه إلى تعظيم أمر العباس بن عبد المطلب، والغض من شأن أبي سفيان. والأخبار تقول إن العباس لقي رسول الله ﷺ عند الجحفة. قال ابن هشام (لا ابن اسحاق) «لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله ﷺ راض فيما ذكر ابن شهاب الزهري»[1]. ولسنا نعلم كيف يكون الرسول راضياً عنه وهو يعلم أنه إلى ذلك الحين كان مقيماً على حاله في مكة مرابياً، وكان أول ربا وضعه رسول الله ﷺ في خطبة الوداع ربا العباس، ولو كان أقلع عنه من زمن لما كانت بالرسول حاجة إلى أن يسقطه في خطاب خطير مثل حجة الوداع. وسنستطرد مع الأخبار لنرى كيف أن سلطان بني العباس قد عمل عمله في إظهار العباس بأنه كان من أقرب الناس إلى رسول الله، وأنه أفضل من أبي سفيان مع أنهما من حيث السابقة إلى الإسلام سواء، كلاهما أسلم عند الفتح بل قد رأينا أن أبا سفيان بسياسته وحسن تصرفه كان صاحب الفضل في تمام فتح مكة على الصورة الكريمة التي تم بها، دون أن تكون هناك حرب أو مهانة لقريش.

١٨ ـ ويقول الوقداي: «واجتمع المسلمون بمرّ الظهران ولم يبلغ قريشاً حرف عن مسير رسول الله ﷺ إليهم فقد اغتموا وهم يخافون بغزوهم رسول الله ﷺ، فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران عشاء، أمر أصحابه أن يوقدوا النيران فأوقدوا عشرة آلاف نار. فأجمعت قريش بعثة أبي سفيان ابن حرب يتحسب الأخبار فقالوا: إن لقيت محمداً فخذ لنا منه جواراً إلا أن ترى رقة من أصحابه فأذنه بالحرب، فخرج أبو سفيان وحكيم ابن حزام، فلقيا بديل بن ورقاء فاستتبعاه فخرج معهما، فلما بلغوا الاراك من مر الظهران رأوا الأبنية والعسكر والنيران وسمعوا صهيل

(١) سيرة النبي لابن هشام ٤/٤٢.

الخيل ورغاء الإبل، فافزعهم ذلك فزعاً شديداً وقالوا: هؤلاء بنو كعب جاشتها الحرب (أي جمعتها وساقتها)، فقال بديل: هؤلاء أكثر من بني كعب! فتنجّعت هوازن على أرضنا (أي دخلتها) والله ما نعرف هذا، أن هذا العسكر مثل حاج الناس».

وهذا كلام لا يساق إلا على افتراض الغفلة في القارىء، فكيف يصدق أن قريشاً على ما نعلم من يقظتها وفطنة رجالها يخفى عليها أمر مسير رسول الله وجيشه الضخم حتى بلغ مر الظهران، مع أن هوازن وهي دون قريش يقظة وتنظيماً أحست بذلك وأرسلت عيناً لها ليتبع جيش الإسلام ويعرف إلى أين يمضي، حتى غطفان وسليم بن منصور عرفتا بالأمر وقد رأينا إسراعهما للانضمام إلى جيش الإسلام وتنافسهما في ذلك، ثم أن ابن اسحاق قرر صراحة أن رسول الله أعلم الناس بأنه سائر إلى مكة قبل فصوله عن المدينة، فقد قال برواية ابن هشام: «ثم أن رسول الله ﷺ أعلم الناس بأنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ. وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها»[1] وكان من الطبيعي أن ينتشر الخبر بعد ذلك ويعلمه كل الناس.

وأما حكيم بن حزام فهو ابن خويلد بن بني أسد بن عبد العزى وهو ابن أخي خديجة أم المؤمنين وقد تأخر إسلامه فعلاً، إلا أن إسلامه صح بعد ذلك. أما القول بأن أبا سفيان وحكيم اصطحبا بديل بن ورقاء فأمر لا يصح، فبديل كان من زعماء خزاعة وهو من بني عمرو الخزاعيين وهم أبناء عمومة بني كعب الخزاعيين المعتدى عليهم وهو كان صاحب البيت الذي لجأ إليه الخزاعيون في مكة عندما اعتدي عليهم، وكان في الذين ذهبوا يبلغون النبي خبر العدوان وهو مسلم صحيح الإسلام من زمن طويل فكيف يصطحبه أبو سفيان كأنه كان من حزبه من المشركين.

وأما أن قريشاً قالت لأبي سفيان عند خروجه أن يأخذ لها جواراً من

(١) ابن هشام سيرة النبي ٤/٣٩.

رسول الله، فنحن نعرف أنه غير معقول لأن أبا سفيان كما رأينا كان قد أخذ بالفعل الجوار لقريش عندما ذهب إلى المدينة، وبقية الخبر التي تقول إن قريشاً قالت له أنه إذا آنس رقة أي ضعفاً من أصحاب الرسول أن يؤذنه بالحرب فأبعد عن الصواب من أي شيء سواه، وقد سبق أن رأى رجال قريش بأنفسهم أثناء مفاوضات الحديبية حب أصحاب محمد لمحمد وتفانيهم في سبيله واستعدادهم لخوض المعارك بإشارة منه.

١٩ ـ وكل هذا التمويه تمهيداً لما يأتي بعد ذلك مما يرويه الواقدي وغيره، فكلهم يقولون إن العباس بن عبد المطلب بعد أن لحق بالرسول وأسلم وأصبح في جملة رجاله: «ركب بغلة رسول الله الدل»(!) وخرج في ظلام الليل «عسى أن يصيب رسولاً إلى قريش يخبرهم أن رسول الله داخل عليهم في عشرة آلاف، فسمع صوت أبي سفيان فقال: أبا حنظلة! فقال أبو سفيان: يا لبيك أبا الفضل! قال العباس: نعم! قال أبو سفيان: فما وراءك؟ قال العباس هذا رسول الله في عشرة آلاف من المسلمين فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك! ثم أقبل على حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء فقال: أسلما فإني لكما جار حتى تنتهوا إلى رسول الله فإني أخشى أن تقتطعوا دون النبي ﷺ قالوا فنحن معك. فخرج بهم العباس حتى أتى رسول الله ﷺ فدخل عليه وقال: يا رسول الله: أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد أجرتهم وهم يدخلون عليك. قال رسول الله ﷺ أدخلهم فدخلوا عليه فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، وقال: تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله! فأما حكيم وبديل فشهدا وأما أبو سفيان فقد شهد أن لا إله إلا الله فلما قال: وأني رسول الله قال: والله يا محمد إن في النفس من هذا لشيئاً يسيراً بعد، فأرجئها. ثم قال للعباس قد أجرناهم اذهب بهم إلى منزلك[1]».

---

(١) الواقدي، مغازي: ٢/٨١٥.

وهكذا يصبح العباس الذي أسلم بالأمس وكان إلى قبل الأمس كافراً مرابياً داعية للإسلام وصاحب سلطان فيه، وأبو سفيان وهو إلى هذه الساعة كان أهم من العباس وله في توجيه الحوادث يد أصبح تابعاً يسير ذليلاً وراء العباس! أما حكاية أن أبا سفيان توقف عن أن يشهد أن محمداً رسول الله فأشبه بالفكاهة، فما دام الرجل قد شهد أن لا إله إلا الله فإن ذلك يستتبع الشهادة بأنه رسول الله فهو الذي حمل إلى الناس رسالة الوحدانية ومن غير المعقول أن أبا سفيان يرى رسول الله في هذا الموضع الجليل ثم يعتذر عن عدم الإيمان بأنه رسول الله، وحتى لو سلمنا بأن الإسلام لم يكن دخل قلبه فإن هيبة رسول الله وصحابته وجيشه لا بد أن تكون قد أخذت ببصره وعقله ولا يمكن في هذه الحالة أن يتأخر عن الشهادة فقد كان أفطن من هذا وأحصف ولكنها «وكالة الأنباء العباسية» توجه الأخبار هذا التوجيه إعلاء لشأن بني العباس على بني أمية، وإذا كان أمثال الواقدي[1] قد سلموا بذلك خوفاً من خليفة بني العباس فما عذرنا نحن وقد أعفانا الله من ذلك الخوف؟ ولكن أخانا الدكتور هيكل في حياة محمد يأخذ به ويرويه بل يقول: «وتدخل العباس موجهاً القول إلى أبي سفيان أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تغرب عنقه، ولم يجد ابو سفيان أمام هذا إلا أن يسلم فتوجه العباس بالقول إلى النبي عليه السلام وقال: يا رسول الله إن أبا سفيان يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً قال رسول الله: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل داره فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن[2]. . . »

والدكتور هيكل يروي هذا الكلام ثم يقول إن هذه الوقائع وارد عليها

---

(١) الواقدي، مغازي ٢/٨١٥.

(٢) محمد حسين هيكل، حياة محمد ص ٤٢٣.

اتفاق المؤرخين دون أن يسأل نفسه، هل كان من المعقول أن يأمر الرسول بضرب عنق أبي سفيان إذا لم يسلم في التو واللحظة، والإسلام كان يمهل الناس ليفكروا ويتدبروا ورسول الله لم يكن يقهر أحداً على الإسلام وفي القرآن آية تقول إنه لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، وبعد عامين من فتح مكة ستنزل سورة براءة التي تنهي الكفر والشرك في جزيرة العرب ولكنها تمهل الكافرين أربعة أشهر يحق عليهم بعدها العقاب.

ولكن هيكلاً وطه حسين والعقاد ليسوا بمؤرخين إنهم رجال أدب ومفكرون نقرأهم للأسلوب وقوة العارضة وحسن السياق ولكننا قط لا نقرؤهم للتاريخ، فإن التاريخ علم له أصول ومناهج لا نتطلبها إلا من المؤرخ المتخصص لهذا الفن، وهذا كذلك هو موقف أهل الغرب من الأدباء الذين كتبوا في التاريخ، هذا موقف الإنجليز من ماكولي والفرنسيين من ڤولتير والألمان من فردريش شيلر.

والذي يهمنا هنا هو أن سياق الأخبار على هذا النحو يؤخذ على أنه محاولة من بني العباس لتبييض وجه العباس والغض من شأن بني أمية، وقد ذهبوا في ذلك إلى حد القول بأن أبا سفيان عندما لقي الرسول في هذه المرة كان في جوار العباس لا جوار الرسول ﷺ، وهذا تجوز في الكلام غير محمود حتى لو لم نعلم علم اليقين، كما رأينا أن أبا سفيان كان في جوار الرسول ﷺ وأمة الإسلام منذ أعلن أنه في جوارهم ورسول الله لم يرد هذا الجوار، وقد شمل مكة ومن فيها. وطريف من الأمر أن العباس ـ كما تقول الأخبار ـ طلب من رسول الله أن يخلع على أبي سفيان شرفاً، فقال إن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وكان أولى بالعباس أن يطلب هذا الشرف لنفسه، فيقول الرسول مثلاً: ومن دخل دار العباس فهو آمن، ولا نحسب أن العباس كان يكون سعيداً بذلك لأن ذلك كان يفترض أنه كان على العباس بناء على ذلك أن يطعم ويسقي ويؤوي من دخل داره، وما كان العباس الضنين بماله أن يرضى بذلك قط، أما أبو سفيان

فمهما قلنا فيه فقد كان سيداً جاهلياً يطعم ويسقي ويقوم بمطالب الرياسة مثله في ذلك مثل أبي جهل رغم موقفه من الإسلام، واقرأ «المحبر» و«المنمق» لمحمد بن حبيب النسابة تجد فيه عن العباس وأبي سفيان كلاماً يؤيد ما نقول.

٢٠ ـ ثم يروي الواقدي رواية أخرى نجدها أيضاً عند ابن سعد والطبري وابن هشام في الحط من شأن أبي سفيان وتجعل العباس ينقذه من القتل على يد عمر، وتصوره مسكيناً ذليلاً يرتجف فرقاً من الموت لا يحميه إلا العباس الذي أصبح بين عشية وضحاها في مقدمة أصحاب رسول الله ﷺ.

٢١ ـ وبقية الخبر بعد ذلك لا تخلو من سذاجة وهي تدل على انعدام ملكة النقد عند مؤرخينا القدامى، فهم يرددونها جميعاً على عواهنها، وخلاصتها أن رسول الله ﷺ أمر العباس أن يأخذ أبا سفيان ويحبسه «بمضيق الوادي إلى خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها»، ونحن لا نعرف أين هو ذلك المضيق ولا ما هو خطم الجبل المقصود هنا، ولكن الزرقاني صاحب الشرح المعروف على المواهب اللدنية للقسطلاني يقول: إن خطم الجبل هو أنف الجبل، وهذا هو تفسير الماء بعد الجهد بالماء كما يقولون، فإننا نعرف أن الخطم عامة هو الأنف ولكن الذي لا نعرفه ولا نفهمه هو أنف الجبل، والقسطلاني كتب شرحاً للسيرة يسمى المواهب اللدنية، ثم جاء الزرقاني فكتب شرحاً للشرح، فهو شرح على شرح على صياغة معدلة محرفة لسيرة ابن اسحق وقد ضاع نص المواهب اللدنية، فنحن لا نعرفه إلا من شرح الزرقاني له وكل من الرجلين يعرف كل كبيرة وصغيرة ولا يقول: لا أعرف قط، فإذا غم عليه اسم موضع قال لك موضع بين مكة والبصرة! واذهب أنت وليعنك الله سبحانه على العثور على ذلك المويضع في مسافة تزيد على الألفي كيلومتر.

والخبر يقول إن العباس (العظيم) وقف على مرتفع في المضيق وإلى جانبه أبو سفيان ضئيلاً متخوفاً، وكلما مرت فرقة من فرق الجيش كبرت ثلاثاً، وسأل أبو سفيان من هؤلاء؟ فيجيب العباس هؤلاء بنو فلان، هؤلاء بنو علان كأن العباس الذي أسلم ولحق بالرسول قبل أبي سفيان ربما بساعات قد أحاط بتكوين جيش الإسلام قطعة قطعة وجماعة جماعة بمجرد إسلامه، كأنه هو صاحب هذا الجيش ومرتبه وصاحب قياده، وهذا في النهاية هو ما يرمي إليه أصحاب هذه التحريفات.

٢٢ ـ وندع هذا كله لنقول إن رسول الله ﷺ دخل مكة دخولاً سلمياً هادئاً منظماً على نحو ربما كان فريداً في بابه في التاريخ، فضلاً عن العصور القديمة والوسيطة، فأما في العصرين القديم والوسيط فلم يحدث قط أن دخل جيش ـ أيا كان ـ مدينة إلا نهبها وعصف بأهلها حتى الجيوش العائدة إلى بلادها كانت تنهب بلادها نفسها وفي مواكب الملوك والسلاطين كان الناس يقفلون البيوت خوفاً من معرة الجند، وأما في العصر الحديث فلم تسلم مدينة قط دخلها جيش مهما كان نظامياً من سلب ونهب وقتل وانتهاك أعراض. ولكن جيش الإسلام دخل مكة دخولاً هادئاً منظماً لأنه لم يكن جيش دولة وإنما كانت أمة مؤمنة تحولت إلى جيش إيمان ومحبة وسلام، ورسول الله دخل مكة دخول نبي الإسلام يحمل معه السلام، وإن الإنسان ليعجب من هذا النظام الجليل الذي دخلت به الجيوش الأربعة وعليها الزبير بن العوام وخالد ابن الوليد وأبو عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن عبادة، وقد جعله الرسول صاحب رأيه الجيش الذي هو فيه اعزازاً للأنصار، ثم بدرت من سعد بن عبادة بادرة زهو ربما لم يكن وراءها شر، فقد قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، وخافها المسلمون وأبلغوا الرسول فأخذ منه الراية وأعطاها لابنه قيس، ولم يغضب سعد فإن الراية إذا كانت في يد ابنه فهي لم تخرج من يده، ولم يحدث قتال إلا في جيش

خالد الذي دخل من الجنوب أي من الليط، لأن الخائفين المفزعين الذين سنشير إليهم تجمعوا هناك.

وهذا التنظيم كله وضعه النبي ﷺ عندما وقف الجيش بذي طوى موضع بشمال مكة، ثم تقدم بمن معه إلى اذافر، ومن ثم سارت الجيوش في نظام تام. وكان أبو سفيان وحكيم بن خزام قد سارا في طرق مكة يصيحان في الناس ألا يخافوا، فمن دخل داره فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فعجل الناس بدخول بيوتهم، ودخلت الجيوش دخولاً سهلاً لا عنف فيه.

وقبل أن يدخل الرسول في نفر من أصحابه في آخر الجيش وقف بذي طوى وتوسط الناس وأن عثنونه (لحيته) ليمس واسطة الرمل أو يقرب منه تواضعاً لله سبحانه وتعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين، ثم قال: العيش عيش الآخرة ثم تحرك ودخل مكة حتى وصل الحجون حيث كان الزبير بن العوام قد عزز راية الرسول وضرب له قبة، ومر الرسول في طريقه بشعب بني هاشم أي حيهم، وكانت فيه داره، ودُعي إلى دخول الشعب والنزول في أحد دور بني هاشم فقال قوله المشهور وهل أبقى لنا عقيل من دار، وعقيل كان أخاً لعلي بن أبي طالب وكان قد بقي في مكة وباع ديار بني هاشم داراً داراً وأبى رسول الله أن ينزل في أي بيت وإنما استقر في قبته فكانت هي منزله أثناء مقامه عند الفتح ولم يكن رفض الرسول النزول في أحد بيوت بني هاشم راجعاً إلى أن عقيلاً باعها، وإنما كانت للرسول من وراء ذلك حكمة أبعد، فقد خشي إن هو نزل في بيت من بيوت بني هاشم أن يدخل المسلمون بيوت الناس، فآثر النزول في القبة التي ضربت له محافظة على بيوت المكية من معرة نزول المقاتلين فيها.

٢٣ ـ وأما البقية الباقية من قريش الكفر فكانت قد تجمعت جنوبي مكة تريد

أن تقاوم الفتح وأمر الله، وكانوا على أي حال قلة تستوقف النظر بقلتها. مدينة كبيرة لم يكن أهلها ليقلون عن خمسين أو ستين ألفاً تدخل في الإسلام أو تستظل بأمان الإسلام وتظل ثابتة مكانها حتى يأذن الله بإسلامها، فلا يشذ عن إجماع ملئها إلا نحو عشرين إنساناً يذكرهم المؤرخون بالاسم ويتتبعون مصائرهم حتى أسلموا إلا اثنين أو ثلاثة اختفوا أو ماتوا على الشرك وتواروا في ظلام التاريخ. مدينة كاملة كانت بالأمس معقل العداء للإسلام تقف ساكنة هادئة وجيوش الإسلام ـ عدوها بالأمس فيما كان أهلها يتصورون ـ تدخل البلد وتسير فيه آمنة كأنه بلد إسلامي منذ الأمد الطويل، في جنوبي المدينة فقط وفي ركن صغير منها وقف نفر من أهل العداوة والإسلام هم من ذكرنا من بني عامر بن لؤي، وواحد فقط من غالب بن لؤي هو عكرمة بن أبي جهل ومعهم أحابيشهم أي أنصارهم، تترسوا هناك يقولون لخالد بن الوليد وهو كان المكلف بالدخول من الجنوب، لا تدخلها علينا أبداً! ويشاء حظهم أن يكون الداخل عليهم من هذه الناحية هو خالد بن الوليد وهو قائد موهوب لا يتردد في إبادة العدو إبادة إذا اقتضى نظره العسكري، لأنه كان يرى دائماً أنه قائد عسكري، ورسالة القائد العسكري عنده هي النصر وتحطيم العدو، فما قالوها حتى ذهبوا بددا، وفي برهة من الزمان يهلك منهم ٢٤ رجلاً من قريش وأربعة من هذيل «وانهزموا أقبح الانهزام حتى قتلوا بالحزورة وهي كانت سوق مكة إلى جوار الحرم، وقد دخلت فيه من زمن بعيد ـ وهم مولون في كل وجه وانطلقت منهم جماعة فوق رؤوس الجبال واتبعهم المسلمون، فجعل أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام يصيحان: يا معشر قريش علام تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن، فجعل الناس يقتحمون الدور ويغلقونها عليهم ويطرحون السلاح في الطرق حتى يأخذها المسلمون» ومن أذاخر يرى رسول الله ﷺ لمعان السيوف فيقول

«ما هذه البارقة؟ ألم أنه عن القتال؟ قيل يا رسول اللّه خالد بن الوليد قوتل. ولو لم يقاتل ما قاتل، فقال رسول الله ﷺ ففي الله خيراً[1]».

ويمر رسول الله وهو داخل ببنات سعيد بن العاص وهو أبو أحيحة بن أمية بن عبد شمس رأس الكفر والعداوة لرسول الله، وقد مات كافراً، وقد نشرن رؤوسهن يضربن بخمرهن رؤوس الخيل، كأنهن يندبن حظهن ويحسبن أن هذه نهاية الدنيا فيأسى رسول الله لحالهن وتأخذه بهن رقة، وبعد قليل يسلمن ويصلح إسلامهن ويجدن في ظل الإسلام من الكرامة ما لم يكن يخطر لهن على بال.

وينتهي رسول الله ﷺ إلى الكعبة ويراها ومعه المسلمون، ولقد كان قد رآها بعد هجرته في عمرة القضية، ولكنها اليوم تحت راية الإسلام ويستلم الركن بمِحْجنه ويكبر فيكبر المسلمون وراءه تكبيراً تترنح له أركان مكة، حتى يشير إليهم الرسول بيده أن اسكتوا فيسكتون «والمشركون فوق الجبال ينظرون» ثم يطوف بالبيت على راحلته وقد أخذ بزمامها محمد بن مسلمة ويأمر بالأصنام حول مكة فتهدم ويكمل الرسول طوافه، ثم يؤتى له بماء من زمزم فيشرب، ثم ينظر إلى هُبل يهدم، ثم يطلب مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة فيأتيه به فيأمره أن يدخل ويزيل كل ما بداخلها من تصاوير وفيها صورة لعيسى بن مريم وأمه السيدة مريم، وصورة لإبراهيم يستقسم بالأزلام فتزال هذه الصور ثم يدخل الرسول فيصلي ركعتين ثم يخرج وقد تطهرت الكعبة وأصبحت كعبة الإسلام حقاً، ثم يخرج فيقف على باب الكعبة ويقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده! ماذا تظنون وماذا تقولون قالوا: نظن خيراً ونقول خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت! فيقول رسول الله ﷺ: أقول كما قال أخي يوسف ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم

---

(1) الواقدي، مغازي: ٢/٨٢٦.

الراحمين[1]﴾ إلا أن كل رِبا في الجاهلية أو دم أو مال أو مأثُرةٍ، فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وفي قتيل العصا والسوط الخطأ شبه العمد، الدِّية مُغَلَّظة مائة ناقة، منها أربعون في بطونها أولادها، إن اللّه قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها، كلكم من آدم وآدم من تراب، وأكرمكم عند الله اتقاكم. ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد كائن بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من النهار يقصرها رسول الله ﷺ بيده هكذا[2]، ولا ينفر صيدها ولا يعضد عضاها[3] ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ولا يختلى خلاها... إلا الأذخِر فإنه حلال، ولا وصية لوارث، وأن الولد للفراش وللعاهر الحجر، ولا يحل لامرأة تعطي من مالها إلا باذن زوجها، والمسلم أخو المسلم والمسلمون إخوة، والمسلمون يد واحدة على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، يرد عليهم أقصاهم ويعقد عليهم أدناهم ومُشِدُّهم على مضعفهم[4]، ومسيرتهم على قاعدهم ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد، في عهده، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا جلب ولا جنب[5] ولا تؤخذ من صدقات المسلمين إلا في بيوتهم وبأفنيتهم، ولا تنكح المرأة على عمتها وخالتها[6]...» إلى آخر هذا الخطاب القصير الذي يبين بعض حدود الإسلام ويضع حداً لبعض ممارسات الجاهلية التي تخالف الإسلام.

وهكذا تطهرت الكعبة وعادت إلى الإسلام ملة ابراهيم وأذن من فوقها بلال وآمن الناس وسعدوا بأن مدينتهم دخلت عالم الإسلام هذا الدخول

---

(١) سورة يوسف: ١٢/٩٢.
(٢) أي يشير بأصبعه إنها ساعة قصيرة.
(٣) أي لا يقطع نباتها الصغير.
(٤) شدّ على العدو: هجم عليه، وضعف أي صار ضعيفاً
(٥) أي أن المصدق وهو الذي يراقب اخراج الصدقات ويأخذ نصيب الله ورسوله منها، لا يبقى مكانه ويطلب إلى الناس أن يأتوه بالصدقة كأنه جامع ضرائب بل يذهب إليهم بنفسه.
(٦) الواقدي، مغازي: ٢/٨٣٥ ـ ٨٣٧.

السّلمي الآن، ولا شك أن ألوفاً بعد ألوف أسلمت في هذه المناسبة لأن الدين ظاهروا الإسلام بالعداء ورفضوا الدخول في أمته، كانوا نفراً يعد على أصابع اليدين، وهم معروفون لنا بأعيانهم وقد قصَّ علينا المؤرخون قصة كل منهم وما جرى له ومعظمهم لم يلبث أن أسلم أو استأمن وأسلم وحسن إسلامهم، ورجال مثل عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية بن خلف وسهيل بن عمرو أصبحوا من خيرة المسلمين، وسنلم بذكرهم في الفصل التالي. لقد أبى رسول الله ﷺ إلا أن يرد مفتاح الكعبة لبني عبد الدار أصحاب ذلك المفتاح من قديم، وقد مثلهم هنا عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وهو مسلم قديم، كان قد هاجر إلى المدينة مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وظل المفتاح في يدهم بعد ذلك قروناً متطاولة وأقر الرسول العباس بن عبد المطلب على السقاية كما كانت قبل الفتح.

وقد جعل رسول الله مكة حراماً لا يحل فيه القتل أو العدوان لأحد، وكان ذلك في يوم الفتح وبعد خطاب رسول الله الأول، وقدْ ذكرنا معظمه، ثم اعتدى الخزاعيون على رجل كان لهم عنده ثأر ثاني يوم من أيام الفتح فأعاد رسول الله توكيد حرمة مكة إلى يوم القيامة والمدينة أيضاً كان جوفها حرام منذ العام الثاني للهجرة، الذي كتب فيه جزء من الصحيفة وبذلك أصبح للأمة الإسلامية مدينتان محرمتان، هما مكة والمدينة، ولم يغير رسول الله ﷺ مقامه من المدينة إلى مكة وفاء منه لأهلها، ولكن مكة كانت أحب بلاد الله إليه فهي مهده وفيها الكعبة والحرم وهي مقصد الحجاج. وقد جدد رسول الله انصاب الحرم يوم الفتح على يد رجل من العارفين بمواضع مكة هو تميم بن أسد الخزاعي. وقد جدد هذه الأنصاب عمر بن الخطاب ثم عثمان ثم معاوية عندما حج. ونص الخطبة التي ألقاها رسول الله ﷺ يوم دخوله مكة وتطهيره الحرم لا يتضمن عبارة «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فإن الذي قاله بحسب رواية الواقدي، «ماذا تقولون وماذا تظنون؟ قالوا: نظن خيراً ونقول خيراً: أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت! فقال رسول الله ﷺ فإني أقول كما قال أخي يوسف

﴿لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ (سورة يوسف ٩٢/١٢) إلا أن كل ربا في الجاهلية وكل دم أو مال أو مأثرة فهو تحت قدمي إلاسدانة الكعبة الخ[١]» فمتى قال رسول الله عبارة اذهبوا فأنتم الطلقاء قالها بعد ذلك لأنه كان يريد ـ وقد دخل ـ مكة أن ينتصف بنو كعب الخزاعيون من بني بكر بن عبد مناة للذي فعلوه بهم. وقد نص الواقدي على ذلك صراحة فقال «يا معشر المسلمين كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر فخبطوهم ساعة وهي الساعة التي أحلت لرسول الله ﷺ لم تحل لأحد قبله، وكان رسول الله ﷺ نهى أن يقتل من خزاعة أحد[٢]» ويضيف ابن سيد الناس عن ابن اسحاق، أن نفراً من أوباش قريش حاولوا التصدي للمسلمين فسلك الرسول عليهم الأنصار، فعصفوا بهم، فقال أبو سفيان لرسول الله أبيحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم فكرر رسول الله عليه مقالته وهو داخل مكة من دخل داره فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قال فغلق الناس أبوابهم[٣]» وتؤكد رواية الواقدي هذا المعنى فتقول: إن هذا القتال هو الذي كان من ناحية الليط حيث دخل خالد، وقد ذكر الواقدي أن الذين تجمعوا هناك كانوا نفراً من الحاقدين الخائفين من أمثال سهيل بن عمرو فبدرهم خالد وتبعهم حتى الحزورة وهو سوق مكة «وانطلقت طائفة منهم فوق رؤوس الجبال واتبعهم المسلمون، فجعل أبو سفيان بن حرب وحكيم بن خزام يصيحان: يا معشر قريش: علام تقتلون أنفسكم من دخل داره فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن، فجعل الناس يقتحمون الدور ويلقون السلاح حتى يأخذها المسلمون[٤]». وهنا وبعد أن يهدأ الحال ويطمئن الخائفون ويقتنع أهل مكة بأن ما أتاهم به أبو سفيان يكون هو الأمان أوان إعلان الرسول لأهل مكة أنهم

(١) الواقدي ٢/٨٣٥ ـ ٨٣٦.
(٢) الواقدي ٢/٨٣٦.
(٣) ابن سيد الناس، عيون الأثر ٢/١٧٤.
(٤) الواقدي ٢/٨٢٦.

طلقاء، قال ابن سيد الناس راوياً عن ابن اسحاق:- «ولما نزّل رسول الله مكة واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده، فلما خف طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له فدخلها، فوجد بها حمامة من عيدان «من خشب» فكسرها بيده ثم طرحها، ووقف على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. ألا وقتيل الخطأ شبيه العمد لسوط والعصى، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، ألا يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالإباء. الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى..﴾ الآية ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم، قالوا خيراً: أخ كريم وابن أخ كريم، ثم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء[1]».

وهذه كلمة تروع النفس حقاً وهي دليل على ما وهب الله رسوله من سمو النفس وسماحة الخلق، ولكن لها في هذا الظرف بالذات معنى آخر لو تفطن إليه الناس لزاد اعجابهم بمحمد صلوات الله عليه. ذلك أن قواعد الحرب في الجاهلية، أي قبل الإسلام في جزيرة العرب وخارجها كانت تجعل أهل أي بلد يُفتح في موضع الأسرى بيد القائد الفاتح ورجاله، فالقائد الروماني مثلاً كان إذا فتح بلداً أصبح البلد ملكه أو ملك أمة الرومان وكل من فيها أسرى، وعندما غزا الرومان مصر أو الشام أو آسية الصغرى أو بلاد اليونان أصبحت هذه البلاد كلها بما فيها ومن فيها ملكاً لدولة الرومان، وفرضوا عليها إتاوة وسخروا أهلها لخدمة الرومان وأصبح الجندي الروماني سيداً وأصبح للحاكم الروماني حق السلب والنهب والقتل حتى يصدر القائد الأمر للجنود

(١) ابن سيد الناس عيون الأثر: ٢/ ١٧٨.

بالتوقف عن النهب، والرومان هنا أفضل من غيرهم لأنه كان لهم قانون، وأما الفرس والأشوريون والبابليون فكانوا ينهبون ويقتلون قدر ما استطاعوا، وحتى القبائل العربية كانت إذا أغارت إحداها على الأخرى أسرت من وقع في أيديها من خصومها، ويمسكون البلد رهينة بين أيديهم وأهلها أسرى، فلما فتح رسول الله مكة أراد تطبيقاً لشرع الإسلام وإنسانيته أن يقول لأهل مكة إنكم لستم أسرى ولا عبيد غالب، وبلدكم ليس ملكاً لي أو لأي واحد من قوادي ورجالي. وهذا هو الذي أراد رسول الله أن يتفاداه عندما عزل سعد بن عبادة عن حمل راية واحد من جيوش الفتح، عندما بلغه أنه قال اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، فقد حسب هذا الرجل رغم إسلامه أن الأمر هنا أمر فتح وغلب واستحلال حرمات، وهذا هو المعنى التاريخي لقول محمد عليه ألف صلاة وسلام لأهل مكة اذهبوا فأنتم الطلقاء، أي أنه ليس غزواً ولا ملكاً ولا غلباً ولا سيادة غالب على مغلوب، إنما هو فتح أي فتح القلوب للإسلام، والآية القرآنية تقول «إذا جاء نصرالله والفتح» أي أن الإسلام ينتصر أولاً ثم لا تكون غلبة أو سيادة وإنما فتح للقلوب لينفذ إليها الإسلام، وهذا الفتح الإلهي لا يكون بين يوم وليلة فمن الناس من يفتح الله عليه ويهديه ساعة الفتح، ومن الناس من يحتاج إلى وقت حتى يناله الهدى، ومنهم من لا يهتدي أبداً، فكُلّ وما قدر له وما كتب له عليه، ولكل إنسان وضع وتقنين في شرع الله، فأما من اهتدى وأسلم راضياً مختاراً فهو أخ مسلم ومواطن في الأمة وأما من أراد مهلة فيمهله الرسول، ثم تجيء صورة براءة فيجعل المهلة للكافر الوثني أربعة أشهر وبعدها يجوز عليه القتل، أما الرجل من أهل الكتاب فعليه الجزية والطاعة حتى يهتدي إن أراد الله به الخير.

وقد طبق الرسول هذا المعنى الذي ذكرناه في الطليق والطلقاء مع أكثر من واحد ممن لم يشأ أن يسلم عند الفتح، منهم سهيل بن عمرو بن عبد ود شيخ بني عامر بن لؤي الذي حاول أن يقود قريشاً في آخر محاولاتها للوقوف في

وجه الإسلام، وتصرف على النحو الجافي مع رسول الله ﷺ في محادثات الحديبية، وكان من الطبيعي أن يخاف هذا الرجل على نفسه خوفاً شديداً بعد الفتح وتوقع أن يعاقبه الرسول على ما بدا منه خاصة وأنه لم يسلم، ولم يكن الرجل بالضعيف أو المنافق ليعلن إسلاماً كاذباً فاختفى، قال الواقدي على لسان سهيل: «وأرسلت إلى ابني عبدالله بن سهيل أن أطلب لي جواراً من محمد، وأني لا آمن أن أقتل، وجعلت أتذكر أثري عنه محمد وأصحابه، فليس أحد أسوأ أثراً مني، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدراً واحداً وكلما تحركت قريش كنت فيها، فذهب عبدالله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تؤمنه فقال نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر! ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: من لقي سُهَيل بن عمرو فلا يُشد النظر إليه، فليخرج، فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سُهَيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن بنافع! فخرج عبدالله إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ فقال سهيل: كان والله براً صغيراً وكبيراً؛ فكان سهيل يقبل ويدبر وخرج إلى حُنين مع رسول الله ﷺ وهو على شركه حتى اسلم بالجِعرَّانة[1]».

ولقد ترك رسول الله ﷺ سهيلاً لنفسه، فإن شاء أسلم وإن لم يشأ فهذا مصيره، بل امتدحه وقال: إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام. وأثرت الكلمات في نفس الرجل، وأحس أن من يقول مثل هذا الكلام لا بد أن يكون صادقاً وما دام صادقاً فهو نبي، وما دام نبياً فلا بد من الإيمان به، ومن هنا فإن سهيلاً عندما أسلم كان من أحسن الناس إسلاماً، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وبدت على بعض القرشيين بوادر الشك والارتداد، قام هذا الرجل فيهم خطيباً وقال: يا معشر قريش، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد، والله إن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس

(١) الواقدي، مغازي ٢/٨٤٦ - ٨٤٧.

والقمر من طلوعهما إلى غروبهما، وفي أيام عمر أقبل فوجد الناس ينتظرون أدوارهم ليدخلوا على عمر، وعمر يبدأ بالمسلمين الأولين وأصحاب السابقة فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا! فقال لهم سهيل بن عمرو: أيها القوم، إني والله قد أرى ما في وجوهكم، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم، دعي القوم ودعيتم، فأسرعوا وابطأتم، أما والله لَمَا سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تتنافسون عليه! ثم قال أيها الناس، إن هؤلاء سبقوكم بما ترون، فلا سبيل والله إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله أن يرزقكم الشهادة، ثم نهض، فقام، فلحق بالشام».

وهذه هي الغاية التي رمى إليها رسول الله ﷺ بهدى من ربه عندما قال للقرشيين: اذهبوا فأنتم الطلقاء أي اذهبوا فأنتم أحرار ولا إسار لي عليكم ولا بأس عليكم في أنفسكم وفي أموالكم، فلينظر كل منكم ما هو فاعل، أي أنه رد الناس إلى أنفسهم فالذين اهتدوا منهم مثل سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل فقد كانوا من أعاظم الناس إسلاماً، وأما من أسلم على حرف بقيت في قلبه غلواء الجاهلية كما رأينا من كلام أبي سفيان، فلم يسعدوا بقلوبهم هذه الجافية قط، ومن هؤلاء القرشيين الذين أسلموا عند الفتح، من ظل جاهلياً في تصرفه وطريقته في الكلام والعمل وإن أسلم وآمن فعلاً، ومثال هؤلاء حويطب بن عبد العزى وكان إلى حين الفتح من ألد أعداء الإسلام، ولكنه أسلم وآمن، قال المصعب الزبيري «وكان أحد من دفن عثمان بن عفان رحمة الله عليه، وباع من معاوية داراً بالمدينة بأربعين ألف دينار فاستشرف الناس لذلك (أي تعجبوا منه) فقال: وما أربعون ألف دينار لرجل له أربعة عيال[1]!» ومثاله أو قريب منه عبدالله بن مخرمة فقد ظل على جلافته وكان له ابن يسمى نوفلاً بن مساحق بن عبدالله بن مخرمة، قال المصعب الزبيري «وكان من أشراف

---

(١) المصعب الزبيري، نسب قريش، ص ٤٢٧.

قريش، وكانت له ناحية من الوليد بن عبد الملك وكان الوليد يعجبه الحمام ويتخذ له ويطيره، فأدخل نوفل بن مساحق عليه وهو عند الحمام فقال له الوليد: إني خصصتك بهذا المدخل لأنسي بك». فقال: «يا أمير المؤمنين، إنك والله ما خصصتني ولكن خسستني إنما هذه عورة، وليس مثلي يدخل على مثل هذا»، فسيره إلى المدينة وغضب عليه وكان يلي المساعي «أي الصدقات» فأخذه بعض الأمراء بالحساب، فقال له: أين الغنم؟ قال: اكلناها بالخبز وقال: فأين الابل؟ قال حملنا عليها الرجال، قال وكان لا يعرف إلى الأمراء من المساعي شيئاً: يقسمها ويطعمها(1)، فهذا رجل أسلم وظل جاهلياً وحرم بشاشة الإيمان فلم تمس قلبه قط.

ومن القرشيين من خاف على نفسه فهرب وأبعد في الهرب، ومن هؤلاء هبيرة بن أبي وهب وهو يومئذ زوج أم هاني بنت أبي طالب (أخت علي كرم الله وجهه)، فقد هرب مع عبدالله بن الزبعري حتى أتيا نجران، ودخلا فيها حصناً من شدة الخوف وجعلا يقولان إن قريشاً قد قتلت وإن محمداً سائر بجيوشه إلى نجران، وبعث حسان بن ثابت إلى ابن الزبعري بِشِعْرٍ يخوفه به ورأى ابن الزبعري الذي طالما هجا الإسلام ورسوله ألا مهرب له من أمر اللّه فأزمع العودة وعجب من أمره هبيرة بن أبي وهب، فما كان يحسبه يدخل الإسلام قط بعد الذي فعل وقال له: يا ليت أني رافقت غيرك. والله ما ظننت أنك تتبع محمداً وعاد ابن الزبعري وأسلم وأكرم الرسول مثواه، أما هبيرة فقد ظل على كفره حتى مات بنجران، وأما أم هاني امرأته فأسلمت عند الفتح وغريب من الأمر أن هذه السيدة الكريمة التي طالما أمن الرسول إليها واطمأن في بيتها بعد موت السيدة خديجة رضي الله عنها، وفي بيتها كان رسول الله ليلة أسري به ومع هذا فهي لم تسلم إلا عند الفتح والله سبحانه يهدي من يشاء متى يشاء.

بل أسلمت هند بنت عتبة أليست هند هذه صاحبة الافاعيل بجثمان

---

(1) نفس المصدر ص ٤٢٧.

حمزة هي زوج أبي سفيان؟ فأكرمها الرسول وقبل إسلامها.

أما عكرمة بن أبي جهل فقد هرب إلى البحر يريد أن يركب سفينة ليهرب من رسول الله، وكانت امرأته أم حكيم قد أسلمت فطلبت الأمان لزوجها من رسول الله ﷺ فأمنها فخرجت في طلب زوجها وعادت به فأسلم ولقي من رسول الله كرامة عظيمةً وبلغ من اكرام الرسول إياه حين أهل عليه ليسلم أن قام إليه واعتنقه وأمر أصحابه ألا ينادوه بعكرمة بن أبي جهل، بل بعكرمة بن أبي الحكم وأمرهم ألا يسبوا أبا جهل وقال كلمة بليغة: فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت! فلا عجب إن كان إسلام عكرمة عميقاً خالصاً حتى قال: يا رسول الله لا أدع مالا أنفقت عليك إلا أنفقت مثله في سبيل الله، وقد كان من أمراء جيوش أبي بكر في حرب الردة وخرج في بعض تلك الجيوش ومعه خباء عظيم وثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة، فانتهى إليه فإذا بخباء عكرمة، فسلم عليه أبو بكر وجزاه خيراً وعرض عليه المعونة فقال: لا حاجة لي فيها، معي ألفا دينار فدعا له بخير، فسار إلى الشام واستشهد في اجنادين وقيل في اليرموك أو في يوم الصفر، وحضر يوم فحل فكان من أعظم الناس بلاء، وأنه كان يركب الأسنة حتى جرحت صدره ووجهه، فقيل له: اتق الله وارفق بنفسك فقال: كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزى، فأبذلها لها افاستبقيها الآن عن الله ورسوله إلا والله أبداً، فلم يزود إلا إيماناً حتى قتل رحمه الله تعالى[1]».

وكان رسول الله ﷺ بعد أن دخل مكة فاتحاً يعامل الناس وكأنه إلى جانب نبوته حكيم يداوي النفوس، فهو يخاطب كل واحد على قدر عقله وبالطريقة التي يفهمها. ذكر الواقدي في خبر إسلام صفوان بن أمية بن خلف بعد أن حكى قصة تأمين عمير بن وهب إياه وعوده من الشعيبة إلى مكة في

(١) ابن الأثير: أسد الغابة: ٤/ ٧٠ ـ ٧٢.

أمانه قال: «يا محمد إن عمير بن وهب جاءني ببردك وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك فإن رضيت أمراً وإلا سيرتني شهرين. قال: انزل أبا وهب: قال: لا والله حتى تبين لي، قال: بل تسير أربعة أشهر. فنزل صفوان، وخرج رسول الله قِبل هوازن، وخرج معه صفوان وهو كافر وأرسل إليه يستعيره سلاحه فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها فقال طوعاً أم كرهاً؟ قال رسول الله ﷺ عارية مؤداة! فأعاره فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين، فشهد حنيناً والطائف، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجِعرانة فبينا رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شعب «مساحة مسورة بسياج» مُلِىء نعماً وشاء ورعاء، فأدام إليه النظر، ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: أبا وهب، يعجبك هذا الشعب؟ قال: نعم. قال: هو لك وما فيه، فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأسلم مكانه[(1)]».

وهكذا عرف الرسول كيف يقنع هذا القرشي الجافي بمنطقه، فإن صفوان إلى ذلك الحين كان بعيداً عن أن يتأثر أو يقتنع بالقرآن وإلا فقد كان دخل في الاسلام وإنما هو يقتنع بأن محمداً نبي لأنه يجود دون تردد بذود نَعَمٍ وشاء. ولقد أعطاه الرسول من غنائم حنين حتى قال: أعطاني رسول الله يوم حنين، فما زال يعطيني حتى أنه لأحب الناس إليَّ. وقد حسن إسلام صفوان بن أمية بعد ذلك وعندما سمع أن الهجرة إلى رسول الله واجبة، تحمل على نفسه وهاجر إلى المدينة ووجد الرسول أن الهجرة تشق عليه، فقال له لا هجرة بعد الفتح ثم قال ارجع أبا وهب إلى أباطح مكة فَقَروا على سكناكم «مواضعكم»، فرجع إلى مكة وأقام بها حتى مات.

ومن صفوان هذا واثنين آخرين من مسلمي الفتح استقرض رسول الله مالاً بعد تمام الفتح ليعطي أهل الضعف والحاجة من المسلمين، وقد رأينا أن

(1) الواقدي، مغازي ٢/ ٨٥٤ ـ ٨٥٥.

الرسول استقرض سلاحاً من صفوان بن أمية عند الخروج إلى حنين، وفي ذلك قال الواقدي، بعد السنة استقرض رسول الله ﷺ من ثلاثة نفر من قريش: من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم، فأقرضه، واستقرض من عبدالله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم، واستقرض من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم فكانت ثلاثين ومائة ألف فقسمها رسول الله ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف[1] قال «فأخبرني رجل من بني كنانة: كانوا مع رسول الله ﷺ في الفتح إنه قسم فيهم دراهم، فيصيب الرجل خمسين درهماً أو أقل أو أكثر، ومن هذا المال بعث إلى بني جذيمة».

وهذه الأخبار تدل على أن سراة القرشيين المكيين كانوا لا يزالون إلى الفتح في سعة من المال، بل كانوا أغنى من أثرياء أهل المدينة، فلم نعلم أن رسول الله ﷺ استقرض مالاً بهذا الحجم من سعد بن عبادة أو غيره وكان سعد بن عبادة من أكثر الناس بذلاً في سبيل الله، وقد روينا، كثيراً من أمثلة عطائه في سبيل الله ومن سماحة يده ما جعل رسول الله ﷺ يقول: خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام، وسعد بن عبادة كان فيما نعلم أغنى الأنصار ومع ذلك فإنه لم يملك من المال السائل هذا المبلغ وهذا المال وما اتصف به القرشيون من الجود به، كان من الوسائل التي استعادت به قريش مركزها في الإسلام بعد أن كادت تفقده بعد فتح مكة. وقد رأينا مثلاً من ذلك فيما حكيناه عن عكرمة بن أبي جهل بعد إسلامه.

حتى هَبّار بن الأسود ووحشي قاتل حمزة عفا رسول الله عنهما بعد إسلامهما فأما هبار فهو الذي عَسّ «تتبع» بابنة النبي ﷺ زينب وضرب ظهرها بالرمح وكانت حبلى فسقطت. فأهدر النبي ﷺ دمه، ومثل هذه الجريمة لا تنسى ولكن رسول الله غفرها لصاحبها بالإسلام عندما دخل عليه هبار وأسلم وكذلك كان الحال مع وحشي، وقد كان غضب النبي عليه شديداً لما صنع

(١) الواقدي، مغازي ٢/٨٦٣.

بحمزة رضي الله عنه. ولكن رسول الله تناسى له جرمه وعافاه بالإسلام وعاش حتى يستشهد في قتال مسيلمة في اليمامة.

أما الذين قتلوا يوم الفتح بأمر الرسول ﷺ فكانوا الأراذل حقاً ممن عظمت جرائمهم دون أمل لهم في صلاح حال، من أمثال ابن خطل الذي ارتد وقتل مسلماً غدراً بعد إسلامه، وجاريتيه فَرْتنا[1] وأرنب وكانتا فاسقتين وكانتا تنشدان الشعر وتغنياه في ذم الإسلام ورسوله، وسارة مولاة عمرو بن هاشم وكانت مغنية نواحة في مكة ووفدت على الرسول في المدينة، فلم يعنف معها وأعطاها وقر بعير طعاماً، فعادت إلى مكة واستمرت على ما هي عليه فقتلت عند الفتح، وبقيس بن صبابه وكان امرءاً خليعاً سكيراً وقد غشته نفسه بعد الفتح فخرج سكران يهذي بشعر فيه عدوان على الإسلام، فانقض الناس عليه وهبروه بالسيوف وهذا الرجل كان قد اعتبط مسلماً غدراً بعد أن أخذ الدية عن أخ له قتله المسلم خطأ.

وعندما رأى الرسول من اقبال القرشيين رجالاً ونساء على الإسلام عند الفتح، طابت نفسه عن قومه ونسي لهم ما كانوا فعلوه به وبالمسلمين بل استمر في اعزازهم، وذلك دليل أصالته وكرم نفسه. روى الواقدي بسنده أن رسول الله لما فتح مكة جلس عبد الرحمن بن عوف في مجلس فيه جماعة منهم سعد بن عبادة، فمر نسوة من قريش على هذا المجلس، فقال سعد بن عبادة: قد كان يذكر لنا عن نساء قريش حسن وجمال، ما رأيناهن كذلك. فغضب عبد الرحمن حتى كاد أن يقع بسعد وأغلظ عليه، ففر منه سعد حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ماذا لقيت من عبد الرحمن فقال رسول الله ﷺ وماله؟ فأخبره بما كان قال، فغضب النبي ﷺ حتى كان وجهه ليتوقد، ثم قال:

---

(١) اسمها في النصوص هكذا فرتنى وهي جارية رومية أو من بلاد الروم في الغالب والراجح أن أصل اسمها Fortuna أي حظ أو نصيب وهو اسم للنساء معروف عند الروم.

رأيتهن وقد أصبن بآبائهن وأبنائهن وإخوانهن وأزواجهن. خير نساء ركبن الابل نساء قريش: أحناهن على ولد، وأبذلهن لزوج بما ملكت يد.

وبهذه المناسبة نذكر أشياء مما وقع لنا في الكتب من أوصاف رسول الله ﷺ في هذا المعنى، وهو يعيننا على تصور هيئته ﷺ عند هذا الفتح العظيم المبارك. قال الواقدي: «وكان أبو الطفيل عامر بن واثلة يقول: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فما أنسى شدة بياضه وسواد شعره وإن من الرجال لمن هو أطول منه، ومنهم من هو أقصر منه، يمشي ويمشون حوله قال: فقلت لأمي: من هذا؟ فقالت رسول الله. قيل له ما ثيابه؟ قال: لا أدري».

قال: «وحدثني عبدالله بن يزيد عن ربيعة بن عباد قال: دخلنا بعد فتحها بأيام ننظر ونرتاد وانا مع أبي، فنظرت إلى رسول الله ﷺ، فساعة رأيته عرفته وذكرت رؤيتي إياه بذي المجاز، وأبو لهب يتبع أثره يومئذ، ورسول الله ﷺ يقول: لا حلف في الإسلام ولن يزيد حلف الجاهلية الإسلام إلا شدة. وكانت أم هانيء تحدث تقول: ما رأيت أحداً كان أحسن ثغراً من رسول الله ﷺ، وما رأيت بطن رسول الله ﷺ إلا ذكرت القراطيس المثنية بعضها على بعض تعني عكنه[1] وقد رأيته قد دخل يوم الفتح، قد ضفر رأسه بضفائر أربع[2]». ثم أضاف عن أم سلمة بعد السند: «ضفرت رأس النبي ﷺ بذي الحليفة أربع ضفائر، فلم يحله حتى فتح مكة ومقامه بمكة، حتى حين أراد أن يخرج إلى حنين حله وغسلت رأسه بسدر[3]».

وبهدي الله وحكمة نبيه وبعد نظره كان فتح مكة خيراً على الإسلام وعلى أهل مكة ممن عادوه وأبغضوه، وقد كانوا يحسبون أن ذلك الفتح هو نهاية عزهم ومجدهم، فأراد الله سبحانه أن يكون ذلك بداية عز لهم جديد، ويتجلى

(١) العكن هو ما انطوى وتثنى من لحم البطن. القاموس المحيط ١/٣٢٥.

(٢) الواقدي، بمغازي ٢/٨٦٧ ـ ٨٦٨.

(٣) الواقدي، مغازي ٢/٨٦٨.

لنا ذلك من خبر جليل المعنى يرويه الواقدي بمناسبة اعطاء رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار، قال: وكان رسول الله ﷺ قال لعثمان يوماً، وهو يدعوه إلى الإسلام (أيام كان بمكة قبل الهجرة) ومع عثمان المفتاح: لعلك سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت! فقال عثمان: لقد هلكت إذا قريش وذلت؟ فقال رسول الله ﷺ بل عمرت وَعَزَت يومئذٍ[1].

وهذا الخبر الذي أختم به هذا الفصل هو بداية الفصل التالي من هذه الدراسة عن قريش والإسلام.

مَوقف كبار القرشيّين مِن الإسلام بَعد الفَتح :

دخلت مكة نطاق أمة الإسلام، ولكن معظم أئمة الكفر فيها ظلوا على موقفهم من الإسلام زماناً، وبعضهم ظل على مكانه من الكفر إلى أن مات لأن الأمر عندهم كان معقداً، فهم نفروا من الإسلام لأنه هدد مكانتهم في مجتمعهم الجاهلي وأنذرهم بالحرمان مما كانوا يتمتعون به من سيادة وسلطان وصدارة في المجتمع ورياسة بين الناس، وكانوا يرون في جاهليتهم رخصة في العدوان على الضعفاء وتعدي الحدود، ونفروا من محمد لأنه كان إلى ما قبل النبوة واحداً من أترابهم وأندادهم بل كان بعضهم ممن أوتي مالاً، يرى أنه أعز منه مكاناً، وقد وقع في خاطرهم أن النبوة التي ينادي بها محمد إنما هي حيلة منه لكي يعلو عليهم ويجعلهم من أتباعه، ومن هذا الطراز كان سهيل بن عمرو الذي أبى أن يكتب في وثيقة الحديبية أن محمداً رسول الله، وتمسك بأن يكون محمداً ابن عبدالله فحسب، وفي إحساسه أنه عندما يتمسك بذلك يتمسك بعلو كعبه على محمد وأن عبد اللّه بن عبد المطلب في زعمه وتصوره أقل من عمرو بن عبد شمس بن عبد وَد وصفوان بن أمية لم ينس قط أنه ابن أمية بن خلف بن

---

(١) نفس المصدر، ٢/ ٨٣٧ـ ٨٣٨.

وهب سيد جمح وكان محمد يعرف ذلك ولكنه كان يملي لهم ويعرف أن في نفوس بعضهم جوانب من الخير سيزكيها الإسلام عندما يدخلون فيه ويتعرفون على فضائله ومزاياه وشمائل رسول اللّه الكريم، ومعظمهم هداه اللّه وأسلم وصلح إسلامه وبعضهم أسلم بشفتيه ولم يتعد الإسلام شفتيه، وسنرى نماذج من هؤلاء جميعاً فيما يلي من الكلام.

وحجة أخرى ظل نفر من القرشيين متشبثين بها لأن عقولهم لم تستطع أن تتجاوزها، وهي القول بأن محمداً ساحر، وكل ما يأتي به فهو من عمل السحر، وما دام أولئك النفر قد تحصنوا في ذلك الكهف الأسود فلم يعد هناك شيء يستطيع اقناعهم بالخروج منه: فالقرآن سحر وحديث الرسول سحر وما يصل إليه الإسلام من توفيق، إنما هو من عمل السحر وقد ضاعت هذه الجماعة بلا أمل وإن نطقت بكلمة الإيمان، بالضبط كما ظل نفر من أهل المدينة متشبثين بعداواتهم للإسلام وإن تعوذوا بالنفاق، وحديث عبدالله بن أبي وعناده للإسلام وموته كافر القلب معروف، والجد بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان من بني عدي من بني سلمة كان أوغل من ابن أبي في الإنكار والعداوة وإن تعوذ بالإسلام، وقد أوجز ابن حزم كل الإيجاز في الكلام عنه ولم يزد على أن قال «تُكُلِمَ فيه». وقد روى الواقدي في المغازي من دلائل دَغَلِه وسوء نيته الكثير.

وقد أطال رسول اللّه المكث بمكة عند الفتح، فقد قضى فيها خمس عشرة ليلة على قول، وعشرين على قول آخر. وقد استخدم هذه المدة خير استخدام، فأمر بتكسير كل الأصنام التي كانت في البيوت، وبعد تحطيم أصنام الكعبة أرسل سرايا لهدم أصنام الآلهة خارج مكة مثل العزى وسواع ومناة. وأتم القضاء على معارضة بني جذيمة من كنانة، وكانوا ينزلون قريباً من معدن بني سليم بن منصور ومنازلهم إلى الجنوب الشرقي من المدينة، وفي أثناء مقامه بمكة كان نصر حنين وهزيمة هوازن ثم حصار الطائف فلم يخرج إلى الجعرّانة ويريح بها ليقسم الفيء

إلا بعد أن استقبل وفد هوازن ودخلوا الإسلام على يديه، فرد عليهم سبيهم، وفي مسيره إلى الجعرانة تهافت عليه الأعراب يطلبون عطاءه لما رأوا من كرمه وسخاء يده، يقول الواقدي، «وجعلت الأعراب في طريقه يسألونه وكَثَّروا عليه حتى اضطروه إلى سَمُرَة فخطفت رداءه فنزعته عن مثل شِقة القمر (يريد جسده الكريم) فوقف رسول اللّه ﷺ يقول أعطوني ردائي، اعطوني ردائي! لو كان عدد هذه العضاة نَعَماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً». فردوا عليه رداءه.

وكانت معركة حنين أول اختبار لقريش بعد الإسلام، وعندنا أخبار عن بعض من أسلم من زعماء قريش ولكننا لا نعلم موقف البقية من الإسلام وكانت أمامهم على أي حال مهلة أربعة أشهر منحهم إياها الله سبحانه وتعالى (في أول سورة براءة) ليهديهم، وتوكيداً لخلق الرسول الكريم معهم وأملاً في أن يدخلوا الإسلام أذِنَ لبعض من بقي على الكفر منهم أن يخرجوا مع المسلمين.

وقد أضفى رسول الله ﷺ فضله على زعماء كفار قريش وتغاضى لهم عن الكثير، ولم يكن يضير أمة الإسلام في شيء أن يتأخر بعض كبار القرشيين في دخول الإسلام ما داموا قد أصبحوا داخل نطاق الأمة، ولا يستطيعون أن يضروها دون أن يتعرضوا للعقاب، ثم إن خروجهم على الأمة كان محدوداً بالمهلة التي اعطاهم إياها رسول اللّه ﷺ خاصة وأن غالبية أهل مكة من قريش وغيرها قد دخلوا الإسلام وصدقوا في إسلامهم.

وليس لدينا إلا النزر اليسير من المعلومات عن أولئك النفر من أهل العناد من القرشيين وما كان يجري بينهم من كلام يكشف عن حقيقة دخائلهم، والاغلب أنه كانت هناك أخبار كافية، ولكنها اندرست وأهملها أصحاب التاريخ إكراماً لأبناء أولئك المعاندين وأحفادهم، ومعظمهم كان قد حسن إسلامه وأصبح ذا مكانة في الجماعة الإسلامية في العصر الراشدي وما تلاه من عصري بني أمية وبني العباس.

فلم يعد من المستحسن جرح إحساس الأولاد والأحفاد بترديد ما يسيء إلى إحساسهم، وقد رأينا أن ابن حزم مثلاً عندما جاء ذكر الجد بن قيس بن خنساء بن سنان وكان من كبار المنافقين من بني عدي بن غنم بن كعب بن سلمة من الخزرج اكتفى بأن قال «تكلم فيه» وذلك مراعاة لذكرى ابنه محمد ابن الجد بن قيس وابن أخيه الطفيل بن مالك بن خنساء وهو بدري عَقَبي ومن شهداء الخندق ونفر آخر كثير من بني سلمة، كانوا بدريين وأولادهم وأحفادهم كانوا من كبار أهل التقوى والإيمان والعلم، ولرسول الله ﷺ في ذلك مذهب جميل فقد رأى أن الكثيرين من المسلمين يسبون أبا جهل بعد أن أسلم ابنه عكرمة وحسن إسلامه، فقال لهم ﷺ كلمة هي من جماع كلمه وحكمه وآدابه ﷺ «لا تسبوا الميت، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يصل إلى الميت». ومن مذاهبه الجميلة في ذلك ما يرويه الواقدي من أن المسلمين اشتد حنقهم على الهوازنيين والثقفيين الذين كادوا أن يلحقوا بالمسلمين أشد الضرر في أول يوم من حنين، فلما تغير الحال وصارت الكرة للمسلمين حنقوا عليهم، فانقضوا عليهم «فقتلوهم حتى أسرع المسلمون في قتل الذرية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ (وهو في المعركة بعد)، فقال ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية! ألا لا تقتل الذرية! ثلاثاً، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله، أليس إنما هم أولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ أوليس خياركم أولاد المشركين كل نِسمة تُولد على الفطرة حتى يُعرِب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصِّرانها[(١)]».

ولكن تفاصيل أخبار كبار القرشيين هؤلاء إذا كانت قد اخفت عنا حقيقة ما كان يجري داخل نفوسهم، فإن لدينا من أخبار غيرهم ما يغني في هذا الموطن من رؤساء غطفان وبني مرة وقشير من غير القرشيين. فقد روى هنا الواقدي ويا له من كنز حافل بالأخبار والحقائق خبراً يصور لنا السبب في الموقف العجيب الذي وقفه عيينة بن حصن وصاحبه الأقرع بن حابس

---

(١) الواقدي، مغازي ٣/ ٩٠٥.

التميمي من الإسلام، فدخل فيه على حرف، ثم حاربه دون أن يخرج عن الإسلام صراحة ولم يزل على خلقه هذا حتى كان فتح مكة فدخل في جملة أصحاب محمد ﷺ ولكن قلبه ظل وثنياً حتى ضجر به أبو بكر، فقد روى الواقدي في أخبار سرية الجَناب التي قادها بشير بن سعد على أرض غطفان سنة سبع للهجرة، والجَناب في أرض غطفان من أدنى عوالي نجد، فقد اشتدت وطأة بشير ابن سعد وأصحابه على فزارة من غطفان،(وعيينة فزاري) حتى أدركه الهلع فانكفأ هارباً فإذا هو في ذلك إذ مر بمنازل بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، وكان شيخها الحارث بن عوف المري ـ وكان له حليفاً ـ قد دخل الإسلام فمر به عيينة ابن حصن يركض فقال له الحارث «أمالَكَ بعد أن تُبصر ما أنت عليه إن محمداً قد وطىء البلاد وأنت مُوضع في غير شيء، قال الحارث: فتنحيت عن سَنَن(طريق) خيل محمد حتى أراهم ولا يروني، فأقمت من حين زالت الشمس إلى الليل ما أرى احداً ولا طلبوه إلا الرعب الذي دخله، قال (الحارث): فلقيته بعد ذلك فقال الحارث: فلقد أقمت في موضع حتى الليل ما رأيت من طلب، قال عيينة هو ذاك اني خفت الإسار، وكان أثري عند محمد ما تعلم في غير موطن، قال الحارث: أيها الرجل، قد رأيت ورأينا معك أمراً بينا في بني النضير ويوم الخندق وقريظة وقبل ذلك قينقاع وفي خيبر أنهم كانوا أعز يهود الحجاز كله، يقرون لهم بالشجاعة والسخاء... ثم قد رأيت حيث نزل بهم (محمد) كيف ذهبت تلك النجدة وكيف أديل عليهم فقال عيينة: هو والله ذاك ولكن نفسي لا تقرني فقال الحارث: فادخل مع محمد! قال: أصير تابعاً قد سبق قوم إليه فهم يُزرون بمن جاء بعدهم يقولون: شهدنا بدراً وغيرها! قال الحارث: وإنما هو ما ترى فلو تقدمنا إليه لكنا من عِلية أصحابه. قد بقي قومه (أهل مكة) على بعدهم منه في موادعة (يشير إلى صلح الحديبية) وهو موقع بهم وقعة ما وطىء له الأمر، قال عيينة: أرى والله[1]»!

والحديث بين الرجلين يصور لنا «العقدة التي تكونت في نفوس أولئك

(١) الواقدي، مغازي ٢/ ٧٣٠.

المعاندين من ناحية محمد ﷺ، فهم جميعاً مثل عيينة خائفون منه يترقبون، والإيمان بعيد جداً من قلوبهم لأن الخوف من محمد والكراهة له والحسد لما وفق إليه، كان يأخذ عليهم طرق التفكير جميعاً فهذا الرجل ـ عيينة ـ يركض بفرسه خائفاً من بشير بن سعد وثلاثون فرساً معهم، ثم إنهم لم يكونوا في طلبه ولكنه يجري خوف الإسار، ومع أن الحارث بن عوف المري كان يرى الدخول في أمر محمد، إلا أنه كان يتردد وينتظر ما يكون بينه وبين قريش (وكان ذلك قبل فتح مكة) ولعله كان يرجو أن تنتصر قريش على أمة الإسلام وبقية الخبر ـ ولم نأت بها هنا لطولها وانما نكتفي بالقول بأنهم جميعاً كانوا حتى فتح مكة يفكرون في السير إلى المدينة مجتمعين ومهاجمة الإسلام في عقر داره.

وعيينة في كلامه يفصح عن نفس الشعور الذي كان يملأ نفوس زعماء المكيين الذين أقاموا على الكفر، فهم يحسبون أنهم إذا دخلوا الإسلام كانوا تابعين لغيرهم، وهذا أمر لا يريدونه فهم ما يزالون سادة في مجتمعهم رغم تدهوره، ثم إنهم لا يريدون الدخول في الإسلام لأن أوان ذلك قد تأخر في ظنهم وأصبحت لهم في أمته مكانة وسابقة، فإذا دخل هؤلاء الرؤساء الإسلام لم يكن لهم مفر من أن يكونوا بعد هؤلاء السابقين وهو أمر لا تقبله نفوسهم.

وكان رسول الله ﷺ يدرك هذا من دواخل نفوسهم فقد منحه الله سبحانه من سعة الإدراك، ونفاذ البصيرة ما يبعث على العجب. وما نقول هذا لمجرد التمدح في المصطفى فما هو بحاجة إلى مدحنا أو مدح أحد من العالمين بعد أن امتدحه ربه سبحانه وتعالى، وهذه بينات الواقع التاريخي بين أيدينا أبلغ من كل مقال.

فانظر إلى تصرف الرسول الكريم مع كبار القرشيين الذين طاعوا لأمة الإسلام عند فتح مكة دون أن يدخلوا في الدين، فقد أذن لهم في أن يشتركوا في القتال مع المسلمين في حُنَيْن، وما كان قبل ذلك يسمح قط لغير المسلم بأن يشترك في جيوش الإسلام. ولكنه فتح أمامهم بهذه السماحة الباب ليحضروا

مشاهد الإسلام إلى جانب أهل السابقة إلى الإسلام لكي يريهم أن الباب لا زال مفتوحاً أمامهم، ليكسبوا شرف الاشتراك في الجهاد. ومع أن هؤلاء القرشيين جميعاً - وكان عدد من اشترك منهم في حنين ألفين - خيبوا ظن الرسول وكانوا في مقدمة الفارين للصدمة الأولى لأنهم لم يعرفوا بعد ضراوة جهاد المؤمنين، وكادوا يجرون الهزيمة على المسلمين، مع ذلك فإن رسول الله لم يغضب عليهم ولا وجه إليهم كلمة عتب. بل هذا هو يعطيهم بسخاء من مغانم حنين. وَحَبَس في نفس الوقت العطايا عن كبار الأنصار لا ضَنّاً بها عليهم بل لكي يُشعِرَ أولئك المعاندين بأنهم قد امتازوا بشيء ويتخلصوا من شعور المهانة الذي كان يملأ نفوسهم، وشعور المهانة هذا، أوجد في نفوسهم شعوراً من النفور من الإسلام، فأراد الرسول أن يزيل هذا النفور، ولم يدرك الأنصار أول الأمر مغزى ما رمى إليه الرسول، ووَجِد بعضهم في نفسه حتى بَيَّنَ لهم الرسول ما رمى إليه في خطابه المشهور إلى الأنصار، وهو متداول في أيدي الناس، وأوفى صورة له نجدها في مغازي الواقدي (٩٥٨/٣) ولا يمنعنا من إيراده إلا الخوف من التطويل. ولكننا نقف عند العبارة التي تعنينا في موقفنا هنا: «وجدْتم في أنفسكم يا معشرَ الأنصار في شيء من الدنيا تَألّفت به قوماً ليُسْلِموا ووَكِلْتكم إلى إسلامكم..» فهذا كان غرض رسول اللّه: استئلاف قلوب المشركين بالمال. فهم لا زالوا بعد جفاة تقنعهم الدنيا. أما الأنصار فإيمانهم وحب رسول اللّه إياهم أغلى عندهم من كل شيء. وقد بلغ رسول اللّه ما أراد من صواب القول والتصرف في هذه المناسبة، فقد رقق المال قلوب المشركين ومست كلماته الرسول قلوب الأنصار وخرج الإسلام ورسوله فائزين في الحالين.

والحق أن رسول الله ﷺ عندما كان يكرم صفوان بن أمية أو سهيل بن عمرو أو حُويطِب بن عبد العزى وغيرهم من أئمة الكفر، كان يعرف أنهم سيدخلون الإسلام، بعضهم عن إيمان وبعضهم عن استسلام أو تسليم لأمر واقع ولا حيلة لهم في دفعه. وكان الرسول يرجو أن تمس بشاشة الإيمان قلوبهم، وقد حدث هذا وخاصة مع رجل له حسب ومحتد مثل عكرمة بن أبي

جهل، والإيمان فيها يقولون حسب ونسب، وعكرمة بن أبي جهل، رأس مخزوم بعد أبيه، أما صفوان بن أميـة بن خلف فكان من جمح وسهيل بن عمـرو كان سيد بني عامر بن لؤي وكذلك كان حويطب بن عبد العزى من عامر بن لؤي فلا عجب أن أحداً من هؤلاء لم يحسن إسلامه كما حَسُن اسلام عكرمة بن أبي الحكم عمرو بن هشام و«خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام» كما قال الرسـول الصادق ﷺ.

ولكن الرسول عنـدما كـان يغض الطرف عن هَفَـوات صفوان بن أميـة وفعاله، لم يكن ينظر إليهم بل إلى قريش من ورائهم، فأولئك أفراد أمـا قريش فقبيلة رفيعة المكانة ولها قدرها. وغـالبية قـريش كانت قـد دخلت الإسلام عن نيـة صادقـة واعتزاز بـأن رسـول الله ﷺ من شجـرة قـريش ومن أبنـاء مكـة. فالمراعاة هنا لم يكن يقصد منها في النهاية إلا قـريش القبيلة، وكان لهـا في نفس النبي مكـان أي مكان كـما سنرى. وإكـرام السادة القـدامى ثم إسـلامهم من شأنه أن يعطي إيمان بقية القرشيين بُعداً وعُمقاً جديدين. وهذا كان له فيما بعد أثـر حاسم، وقـريش التي عاملهـا رسول الله ﷺ بهـذه الإنسانيـة الإسـلاميـة ستحمل عن جدارة لواء الإسلام، ففي قريش هذه أخلاق سيادة وتقاليد جـاه وحسـب وسؤدد، والجمـاعة الإسـلامية في حـاجة إلى رؤوس ورجـال من هـذا الطراز. وما كان شيء من ذلك كله بخاف على رسول الله، ولدينا خبر طـريف يرويه الواقدي عن إسلام صفوان بن أمية يقول: «ويقال إنه (أي صفوان) طاف مـع النبي ﷺ والنبي يتفحص الغنائم (غنـائم هـوازن) إذ مـر بشعب (قـطيـع ماشية) مما أفاء الله عليه فيه غنم وابل ورعاؤهـا مملوء فأعجب صفـوان، وجعل ينظر إليه، فقال رسول الله ﷺ أعجبك يا أبـا وهب هذا الشعب؟ قـال: نعم! قال هو لك وما فيه. فقال صفوان: أشهد ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبي أشهد أنك رسول الله[1]!» وهكذا اقتنع الرجـل في لحظة بشيء من النِّعم أو

(١) الواقدي، مغازي ٣/٩٤٦.

بلُعاعة من لُعاعات الدنيا كما قال الرسول ﷺ في خطابه إلى الأنصار. ولم يقتنع هذا الرجل بالقرآن الكريم عشرين سنة! وسبحان من خلق الناس معادن! وصلوات الله على من أجرى الله الإيمان والحكمة على فؤاده وعقله ولسانه.

ومثل هذا يقال عن صبر الرسول على أعراب أجلاف مثل عُيَيْنَة بن حصن والأقرع بن حابس وعامر بن عوف النصري. فقد طالما صبر الرسول على عيينة وأغضى عن أفاعيله ولكنه كان ينظر إلى مَن ورائه من غطفان. ومن وراء الأقرع بن حابس كان رسول الله ينظر إلى تميم، ومن وراء عامر بن عوف النصري كان ينظر إلى هوازن، ومن وراء أبي مِحْجَن الثقفي كان ينظر إلى ثقيف وهؤلاء الأفراد زوائل، أما القبائل فهي الباقيات. ومنها ومن أمثالها ومن قريش ستكون النواة العربية لأمة الإسلام. وإليك حكاية يرويها ابن اسحاق والواقدي قالا: إن وفد هوازن عندما أتى الى الجِعِرَّانة يطلب إلى رسول الله إطلاق سبيهم أيقن الرسول أن قريشاً والمهاجرين والأنصار سيستجيبون إلى ما كان يرجو من إطلاق السبي وأما الأقرع بن حابس فقد قال: أما أنا وبنو تميم فلا! وقال عيينة ابن حصن: أما أنا وفزارة فلا! وقال عباس بن مرداس السُّلَمي أما أنا وبنو سُلَيم فلا! قالت بنو سُليم: ما كان لنا فهو لرسول الله فقال العباس: وَهَّنتُموني! ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً في الناس فقال لهم: إن وفد هوازن أتاه يطلب إطلاق السَّبْي فخيَّرهم الرسول بين الغنائم والسبي قال الواقدي: فلم يعدلوا بالنساء والأبناء شيئاً، فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه أن يرده فليرسل إليَّ ومن أبى منكم وتمسك بحقه فليرد عليهم، وليكن علينا (أي على الرسول) ست فرائض من أول ما يفيض الله علينا! »قالوا: يا رسول الله رضينا وسلمنا! وهكذا تمسك الزعماء بالجاهلية وتمسكت الجموع بالإسلام! ومع ذلك فلم يشأ الرسول أن يفرض عليهم شيئاً إلا بعد أن جعل الناس جميعاً على الجلية ووكلهم إلى نفوسهم وطلب إلى الناس أن يردوا السبي طواعية، ولكل من رَدّ ست ناقات عن كل سبية أطلقها. وهنا أيضاً أكدت الجموع أنها تختار الإسلام. وردت السبايا

دون مقابل ودخلت هوازن الإسلام عن حب وإيمان فكأنها لم تهزم في حنين أو أوطاس، وإنما نصرها اللّه من عنده بفضل نبيه ورسوله بعد الهزيمة. وأما مالك ابن عوف النصري قائد هوازن فقد لقي من الرسول كرامة لم يكن ينتظرها، فإن الرسول أوقف من أسر من أهله وما أخذ من ماله، وقال إنه يطلق سراحهم إذا أسلم مالك، وقال إنه يرد عليه ماله ويعطيه مائة من الخيل. فلما عرف مالك ذلك هرب من ملجأه في الطائف ووفد على الرسول ﷺ وأسلم واستعاد ماله وأهله وتولى مغازاة ثقيف، ونهب سَرْحهم فيغنم ما يستطيع ويرسل خمس مغنمه إلى رسول اللّه: مرة مائة، ومرة ألفاً. وقد استاق لهم ألفي شاة في غزاة واحدة، فكان عمل مالك بن عوف هذا من آكد الأسباب في إسلام ثقيف والطائف فهم كانوا يعتصمون من أمة الإسلام بقريش من ناحية وببعض القبائل ممن كان على رأيهم من هوازن وبعض بني سليم بن منصور من ناحية أخرى. فهذه مكة قد دخلت الإسلام وانتهت مقاومة قريش، وها هي هوازن ومن لف لفها قد دخلوا الإسلام وناصبوا ثقيفاً العداء فلم تستطع الصبر على هذه الحال، ولم يبق لها عن الإسلام والاستسلام مندوحة.

وكان عروة بن مسعود شيخ ثقيف أسرع أهل قبيله إلى إدراك الحقيقة وكان بطبعه رجلاً ميالاً إلى الدين، وقد قال فيه رسول الله ﷺ عندما أهل عليه في قضية الحديبية: هذا رجل يتألّه وكان رئيس الأحلاف من ثقيف، فلما رفع رسول الله الحصار عن الطائف ومضى إلى الجِعرانة خرج عروة بن مسعود وذهب إلى اليمن ليتعلم صنع العرادات والمنجنيقات وأدوات حرب الحصار، فلما عاد وسمع عن صنع رسول الله ﷺ مع هوازن وكفار مكة، وقع الإسلام في قلبه فخرج إلى رسول الله ﷺ، واستأذن الرسول في أن يعود إلى الطائف ليدعو أهله للإسلام، وكان الرسول يعرف أن وقت الهدى للثقفيين لم يكن قد حل بعد، فقد كان تعلقهم بربتهم اللات شديداً وكان خوفهم من الإسلام قد زادهم استمساكاً بها، وحسبوا أنهم إذا فرطوا في ذلك ضاعوا، فلما أتاهم عروة

بالإسلام وقال لهم في كلام كثير: فما حملني على الإسلام أني رأيت أمراً لا يذهب عنه ذاهب، فاقبلوا نُصحي ولا تستعصوني فوالله ما وفد وافد على قوم بمثل ما وفدت به عليكم! فاتهموه واستغشوه وقتلوه، فما راعهم بعد ذلك إلا ومالك بن عوف النصري شيخ هوازن ينحى عليهم بالمغازاة والنهب ووجدوا أنفسهم في أضيق من سم الخياط. وكان أبو مُلَيح بن عروة وابن أخيه قارب بن الأسود قد غضبا لمقتل عروة بن مسعود الثقفي فلحقا بمحمد ﷺ واسلما ثم لم يلبث رجال الأحلاف ورجال عبد ياليل أن وجدوا ألا مهرب لهم من أمر اللّه، فسار منهم وفد إلى رسول اللّه وأسلموا ودخلت ثقيف في أمة الإسلام وكان ذلك في عام ٩ للهجرة وهو عام الوفود، عام إسلام بقية شبه الجزيرة.

وكان رسول الله ﷺ قد أقام على مكة قبل مغادرته إياها رجلاً من بني عبد شمس هو عتاب بن أسيد وكان اختياراً موفقاً لأن عتابا كان من ذؤابة آل عبد شمس، فلا يقال إنه جعل على مكة رجلاً من بني هاشم. وكان عتاب قد أسلم عند الفتح، فلا فضل له على أحد من مسلمي الفتح فلا يخشى المكيون أن يمتن عليهم بأنه من أهل السابقة والصدارة في الإسلام. ورزقه الرسول عن عمله درهمين في اليوم وقد سعد بها الرجل وقال: فلا أشبع الله بطناً لا يشبعه كل يوم درهمان! ولم يكن الأمر في هذه المرحلة مِنْ تطور أمة الإسلام أمر ولاية ورياسة، وإنما هو إشعار لأهل مكة بأنهم قد صاروا جزءاً من أمة الإسلام، ولهذا لم يعلق أحد من القرشيين على ذلك بكلمة وظل عتاب على أمره حتى توفي يوم توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه. ولما كان عتاب حديث العهد بالإسلام فقد أقام الرسول معه أبا موسى الأشعري ليعلم الناس الدين.

وكان رسول الله يدعو أهل الإسلام إلى الهجرة إلى دار الهجرة، فهاجر من أهل مكة إلى المدينة بشر كثير. ولكن نفراً من كبار المكيين استحبوا أن يقيموا بمكة وصعبت عليهم الهجرة، فأذن لهم رسول الله في ذلك. ومن هؤلاء صفوان بن أمية وكان قد حضر مع رسول الله ﷺ معركة حنين وهو على دينه.

لأن رسـول الله أمهله مدة أربعـة أشهر، وكـان في هذه الـوقعة أبـو سفيـان بن حرب وسهيل بن عمرو وغيرهمـا من أئمة الكفـر، ولم يكن قد أسلم منهم غـير أبي سفيان، وقد روى الواقدي خبراً ينم عن طبيعة إسلام أولئك النفـر في تلك المرحلة الأولى من حياتهم مـع الإسلام قـال: «فلما كانت الهـزيمة حيث كـانت (يريد أول معركة حنين) والدائرة على المسلمين فتكلموا بما في أنفسهم من الكفر والضّغن والغش. قـال أبو سفيـان بن حرب: لا تنتهي هـزيمتهم دون البحـر! قال: يقول رجل من أسلم يقال له أبا مقيت: أما والله لولا أني سمعت رسـول الله ﷺ ينهى عن قتلك لقتلتك! وقال: صرخ كَلَدَة بن الحَنبل وهو كلدة بن الحنبل أخو صفوان لأمه، أسود من سودان مكة: الا بَطُل السحر اليوم! فقـال صفـوان: اسكت فضَّ الله فـاك، لأن يـربنِي رَبٌّ من قـريش أحب إليَّ من أن يَـرُبنِي رب من هـوازن. قـال: وقـال سهيـل بن عمـرو: لا يجتبـرهـا محمـد وأصحابه: قال يقول له عكرمة هذا ليس بقول وإنما الأمر بيد اللّه وليس إلى محمد من الأمر شيء. إن أديل عليه اليوم فإن له العاقبة غداً. قال: يقول سهيل: إن عهدك بخلافه لحديث! قال: يا أبا يزيد: إنا كُنّا واللّه نُوضِع في غير شيء، وعُقولنا عقولنا تعبد الحجر لا ينفع ولا يضر!

فهـذا كـلام نـاس كـانـوا إلى ذلـك الحـين بعيـدين جـداً عن الإسـلام والإيمان، وربما كان أقربهم إلى الاسلام عكرمة. فهذا أسلم للّه ولم يسلِّم بعـد لمحمد، وقد فقد ثقته في الأحجار لأنها لا تنفع ولا تضر ونقل الثقة إلى اللّه فهو الخالق الذي ينفع ويضر، ومحمد عنده ليس له من الأمر شيء. وبعد قليل سيريد اللّه بعكرمة مزيداً من الخير، فيرى أن محمداً أعظم مما قدر، ولا يزال الأمر به حتى إذا أصيب في اجنادين وحضره الموت نظر إلى أبي عبيدة وهو يجود بنفسه شهيداً، ويقول أليست هذه ميتة يرضى عنها رسول اللّه! وأما أبو سفيان فقد كان لا يزال حاقداً على محمد ﷺ يتمنى قلبه أن يتشفى فيه، ومثله في ذلك صفوان بن

أمية بن خلف. وأما كلدة بن الحنبل أخو صفوان لأمه، فكان متعلقاً بعذبحكاية السحر وهو يحس أن محمداً ﷺ قد انهزم وبطل سحره، فأكذبه الله بعد ذلك بنصر محمد النصر المؤزر بقية اليوم. ولا ندري ماذا قال بعد.

ورغم ذلك كله فقد حرص رسول الله على الحفاظ على قريش ما أمكنه ذلك، فبعد فتح مكة يؤثر عنه أنه قال: «لا تُغْزَى قريش بعد اليوم إلى يوم القيامة[1]».

وكان رسول الله ﷺ يعلم أن ائمة الكفر عندهم مال فلم يمسه، ولما كان قد منع أصحابه من أن يمسوا شيئاً من أموال أهل مكة. وكان فيهم الكثير من الضعفاء أي الفقراء، فاستسلف أو استقرض ﷺ لهم مالاً من سراة قريش. استقرض من صفوان بن أمية ٥٠,٠٠٠ درهم فأقرضه، ومن عبد الله بن أبي ربيعة ٤٠,٠٠٠ درهم، ومن حويطب بن عبد العزى ٤٠,٠٠٠ درهم. فكانت (جملة ما استسلف) ١٣٠,٠٠٠ درهم فقسمها ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف[2] وردها بعد ذلك. وقبل أن يخرج إلى حنين كان صفوان بن أمية قد استأذنه وطلب منه أن يمهله حتى يدخل الإسلام، فأمهله أربعة أشهر، وعندما أزمع الخروج الى حنين خرج معه صفوان وهو كافر وأرسل إليه يستعيره سلاحاً، فأعاره سلاحاً: مائة درع بأداتها فقال: طوعاً أو كرهاً؟ فقال رسول الله ﷺ «عارية مؤداة»، فأعاره فأمره ﷺ فحملها إلى حنين فشهد حنيناً والطائف، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة[3]، ولنلاحظ هنا أن صفوان كان عدواً مغلوباً مستأمِناً، وكل قوانين الحرب في الدنيا إلى يومنا هذا تجعل سلاح المغلوب ملكاً للغالب، وأن الأمان في هذه الحالة لا يشمل السلاح،

---

(١) الخبر رواه الواقدي، مغازي ٨٦٢/٢ والتعليق على الحديث من الواقدي.

(٢) الواقدي، مغازي ٨٦٣/٢ وأهل الضعف أو الضعفاء هنا هم الفقراء.

(٣) الواقدي، مغازي ٨٥٤/٢.

وكان من حق رسول الله ﷺ ـ بكل مقياس ـ أن يأخذ هذا السلاح للمسلمين بل كان لا بد أن يأخذه إذ كيف يجوز لرجل ممن غُلبوا واستسلموا من الكفار، ـ الذين ظلوا على كفرهم ـ أن يملكوا سلاحاً قد يستخدمونه ضد المسلمين؟ ولكن كرم الرسول تجاوز ذلك أيضاً رغبة منه في الحفاظ على كرامة القرشيين، وقد أثبتت الأيام أنه على حق. فصفوان هذا عندما تقوم حركة الرِّدة يقوم في أهل مكة مقاماً عظيماً ويطلب إليهم أن يظلوا مع الأمة والجماعة، فظلوا إلى جانب أبي بكر. وعكرمة بن أبي جهل يخرج لحرب الردة وينفق على نفسه ورجاله من ماله، ويسأله أبو بكر إن كان يريد عوناً فيقول إنه لا حاجة به إلى عون، فقد جهز نفسه بماله ومعه فوق ذلك ألفا دينار لنفقته وهذا كله لأن رسول الله ﷺ احتفظ لهؤلاء الرجال بشرفهم وكرامتهم، فدخلوا الإسلام كرماء شرفاء وثبتوا معه شرفاء كرماء. فتصور لو أن رسول الله لم يكن بهذا من فعله فكيف كان ينتظر الكرامة والشهامة والشرف من قوم أذل نفوسهم وكسر شرفهم؟

رَسُول الله وَقُرَيش :

وطبيعي أن يظل رسول اللّه يحب قومه قريشاً، فهم آله ولا يتنكر الكريم لأهله قط. وإذا كان قد حاربهم فللدين وعلى الدين، وعندما انتصر عليهم وطاعوا للدين بقي الحب في نفسه فهو قرشي ولدينا دلائل على هذه القرشية الكريمة بلا عصب وإنما هو اعتزاز الرجل الشريف بأهله الأشراف، وهذه مسألة لا وجود فيها للعصب أو العصبية وإنما هي مظهر لكرامة الإنسان عند الرجل الكريم.

روى الواقدي بسنده قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة جلس عبد الرحمن ابن عوف في مجلس فيه جماعة، منهم سعد بن عبادة، فمر نسوة من قريش على ذلك المجلس، فقال سعد بن عبادة: قد كان يُذكر لنا عن نساء قريش حسن وجمال، وما رأيناهن كذلك، قال: فغضب عبد الرحمن بن عوف حتى كاد أن يقع بسعد وأغلظ له، ففر منه سعد حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

الله! ماذا لقيتُ من عبد الرحمن! فقال رسول الله ﷺ: وماله؟ فأخبره بما كان قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى كأن وجهه ليتوقد، ثم قال: رأيتَهُن وقد أصِبْنَ بآبائهن وأبنائهن وأخواتهن وأزواجهن. خير نساء ركبن الابل نساء قريش! أحناهن على ولد وأبذلهن لزوج بما ملكت يد[1].

وليس أدل على ما كان عليه رسول الله ﷺ من رأي كريم في قريش من وصاته لعتاب بن أسيد عندما ولاه على مكة، فقد خلف معه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري يعلمان الناس القرآن والفقه في الدين، وقال له: «أتدري على من استعملتك؟ قال: الله ورسوله أعلم! قال: استعملتك على أهل الله» يريد أهل بيت الله، وفي ذلك من التكريم لقريش ما فيه.

ومن دلائل الذكاء المفرط عند رسول الله ﷺ أن قال بعد ذلك يوصي عتابا: «بلغ عني أربعاً: لا يصلح شرطان في بيع، ولا بيع وَسَلف، ولا بيع ما لم يُضمن، ولا تأكل ربح ما ليس عندك[2]» وقد اهتم رسول اللّه بهذه التوصيات من المعاملات لأن عتاباً تولى بلداً أهله تجار، ومن ثم فقد رسم له منهجاً في تنظيم البيوع على أساس الإسلام، فقد كانت الأمور التي حذره رسول الله عنها من أساليب القرشيين في البيوع في الجاهلية وكلها أساليب تؤدي إلى الربح غير الحلال، وهذه أنواع من البيوع والتعامل في المال يعرفها فقهاؤنا ويعرفون حكم الإسلام فيها وعلّة ذلك الحكم، والذي يهمنا هنا هو أن الرسول يعرف أن القرشيين تجار وأن تجارتهم قد أصابها ضرر، وأنه لا بد من تشجيعهم لكي يعودوا إلى تجارتهم حتى لا يحتاجوا، ولكنه أراد لهم أن يتاجروا ويتبايعوا على حكم الإسلام حتى لا يقعوا في الجاهلية مرة أخرى.

وهذا العطف كله نابع من إنسانية محمد ﷺ فلم يكن رفقه قاصراً على قريش بل على أصحابه أجمعين، فقد سار ﷺ إلى الجِعِرَّانَة بعد أن رفع الحصار

(١) الواقدي، مغازي: ٢/٨٦٧.
(٢) الواقدي، مغازي ٣/٩٥٩.

عن الطائف والى جواره أبو رُهْم الغفاري «وفي رجليه نعلان له غليظتان، اذ زحمت ناقته ناقة رسول اللّه ﷺ ويقع حرف نعله على ساقه فأوجعه، فقال رسول اللّه ﷺ أوجعتني، أَخّر رِجْلك! وقرع رجله بالسوط، قال (أبو رهم) فأخذني من أمري ما تقدم وما تأخر» ووصل الرسول الى الجِعِرّانة وانصرف أبو رُهم الى شأنه وخاف أن يعتب عليه رسول اللّه فخرج يرعى غنم المسلمين، فاذا بمن يقول له طلبك رسول اللّه! فذهب اليه الرجل وهو خائف يترقب، فقال له الرسول: «انك أوجعتني برجلك فقرعتك بالسوط، فخذ هذه الغنم عوضاً من ضربتي، قال أبو رهم: فرضاه عني كان أحب اليّ من الدنيا وما فيها[1]».

ومثله حدث لأبي حَدْرَد الأسلمي مع رسول اللّه: فقد زحم للرسول في المُراكبة، فدفع الرسول رجله بِمْحجَن. ثم روّى الرسول الأمر في الليل فبعث الى أبي حدرد يسترضيه عن دفعه اياه بالمحجن وعوضه بثمانين شاه حقائقة أي كثيرة الصوف، ومثل ذلك وقع لأبي زرعة الجهني مما رواه الواقدي وأهل السير[2].

وكانت هذه وأشباهها مظاهر من ذلك الأدب المحمدي الرفيع والرفق الذي يشمل هوازن كلها، وثقيفا كلها ويألم لضربة أو دفعة بمحجن أصاب بها أحداً من أصحابه، وهذه كلها شمائل محمدية لو وعاها حكام الاسلام لما كان في الدنيا مثلهم حكام! لظلت أمة الاسلام في مثل العزة التي كانت عليها في خلال حياة محمد، ولو كان هذا المثال المحمدي قائماً في خلد معاوية لما أمر بقتل حجر بن عديّ عقاباً له على الشهامة وانكاره سب رجل من أكرم الناس على اللّه ورسول اللّه هو علي بن أبي طالب؟ وهل دار شيء من ذلك بخلد أبي العباس السفاح - وهو يزعم أنه ابن عم رسول اللّه ﷺ وهو يأمر بقتل أبي سلمة الخلال عقاباً له على الاخلاص لآل محمد وهو الذي كان أبو العباس نفسه يسميه وزير آل محمد؟

لا هذا كان ولا ذاك، انما هي النفوس ارتدت الى الجهالة والبصائر عشيت

(١) الواقدي، مغازي: ٣/ ٩٣٩.
(٢) نفس المصدر ٣/ ٩٤٠ - ٩٤١.

فلم تر النور المحمدي وتحجرت القلوب وحق عليها الخزي والعذاب ولو غيروا ما بأنفسهم لتغير تاريخ الإسلام وصدق الله سبحانه: لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ ولو أن المسلمين ذكروا المثال المحمدي في كل عمل يعملونه ولو أنهم لزموا غرز رسول الله فعلاً لكانوا أبد الدهر أعز الناس وأكرم الناس وأعلم وأقوى الناس.

ضعف مركز القرشيين في الأمة عقب فتح مكة:

الآية الخامسة من سورة القصص (٢٨) من مشهورات آيات الكتاب الكريم التي تجري بها ألسنة الناس في كل حين، لأنها من آيات القدرة الإلهية ذات الصدى والرجع على مدى التاريخ: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ القصص ٢٨ / ٥ وما من جماعة مستضعفة نظر الله إليها ونصرها على الجبابرة الا جعلها بنصره على رأس الناس ومن أظهر الأمثلة على ذلك في تاريخنا أن جماعة الموحدين أصحاب الدولة المشهورة في المغرب الإسلامي كتب تاريخ نصرها بقلم مؤرخها عبد الملك بن صاحب الصلاة وجعل عنوان التاريخ: «المن بالإمامة على المستضعفين في الأرض».

ولا بد أن هذه الآية ترددت في قلوب المؤمنين وهم عائدون إلى المدينة بعد أن نصرهم الله نصره المؤزر وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، ولكن زعماء قريش الذين أسلم بعضهم واستسلم بعضهم الآخر كانوا جِدَّ بعيدين عن هذه المعاني. ورغم حرص الرسول صلوات الله عليه على جبر ما انكسر من عزة نفوسهم لم يكن في خاطر معظمهم إلا أنه نصر الأوس والخزرج على قريش أو نصر اليمن على مضر فقد كان إحساس أولئك الناس بالعصبية القبلية كان قوياً جداً.

وفي موقعة حنين تأكد هذا الشعور بالانغلاب في نفوس القرشيين

وكذلك تأكد الشعور بالغَلب والنصر في نفوس بعض الأوس والخزرج وقد اشترك في حنين ألفان من قريش فيهم سراتهم «على غير دين ركباناً ومشاة ينظرون لمن تكون الدائرة فيصيبون من الغنائم ولا يكرهون أن تكون الصدمة ـ أي المصيبة ـ لمحمد ﷺ وأصحابه. وخرج أبو سفيان بن حرب في أثر العسكر، كلما مر بترس ساقط أو رمح أو متاع من متاع النبي ﷺ حمله، والأزلام في كنانته حتى أوقر جمله. وخرج صفوان ولم يسلم وهو في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ فاضطرب خلف الناس ومعه حكيم بن حزم وحويطب بن عبد العُزَّى، وسُهَيْل ابن عمرو وأبو سفيان بن حرب والحارث بن هشام، وعبدالله بن أبي ربيعة، ينتظرون لمن تكون الدائرة، واضطربوا خلف الناس والناس يقتتلون فمر به (صفوان) رجل فقال: أبشر أبا وهب! هزم محمد وأصحابه! فقال له صفوان: إنَّ ربًّا من قريش أحبّ إليّ من رب من هوازن ان كنت مربوبا[1]». والرب هنا هو السيد.

وكان العهد بقريش والقتال قد بعد وأين هم من رجال أمة المدينة الذين قضوا السنوات العشر الماضية في ميادين القتال حتى كسبوا دربه في القتال النظامي، وموقعة حنين هي الثالثة والسبعون في سجل مغازي رسول اللّه، فليس غريباً أن يكون المسلمون يوم هوازن أصحاب خبرة وتجربة مكنتهم من احتمال صدمة هوازن التي هبت اعصاراً، ثم عادوا فتجمعوا وحملوا على عدوهم ففازوا بنصر لا كفاء له وأكبر دليل عليه أن كل الذين قتلوا من المسلمين في هذه المعركة الهائلة التي بدأت في خوانق وادي حنين وانتهت في بسائط سهل أوطاس كانوا أربعة، فقد ذكرهم الواقدي بالاسم. وفي حنين استمر القتل في بني نصر والرباب ـ من هوازن ـ وصاح صائح: «يا رسول اللّه هلكت بنو رباب، ويقول رسول اللّه ﷺ اللهم أجبر مصيبتهم[2]».

---

(١) الواقدي، مغازي ٣/٨٩٤ ـ ٨٩٥.

(٢) الواقدي، مغازي ٣/٩١٦.

والذي حدث في حنين أنه كان قتال جيش نظامي مع جيش قبلي من الأعراب، فان أمة المدينة كانت كلها جيشاً من المواطنين والراغبات من المواطنات ولا اعفاء من فرض القتال الا للصغير غير القادر على حمل السلاح والمريض البادي المرض، وغزوة تبوك التي وقعت بعد حنين كانت الاختبار الحاسم. وسورة براءة التي نزلت بعد تبوك مباشرة، وكانت كذلك آخر ما نزل من القرآن حسمت الموضوع: لا تخلف عن القتال الا بعذر يقبله الله ورسوله، فقد كانت أمة الاسلام في أيام غزوة تبوك قد قضت الأعوام العشرة السابقة عليها في ميدان القتال واكتسبت خبرة وتجربة وأصبحت أمة مقاتلة أو ما يسمى في مصطلحنا المعاصر جماعة مناضلة Militant group ومحمد صلوات الله عليه علم أفراد الأمة النظام والطاعة ودربهم على الحرب النظامية، واستمع لما يقوله الواقدي عن موقعة حنين تفهم حقيقة الوضع. قال: «ولما كان من الليل، عمد مالك بن عوف الى أصحابه فعبأهم في وادي حنين وهو واد أجوف ذو شعاب ومضايق. وفرق الناس فيه، وأوعز الى الناس أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة واحدة. وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه وصفهم صفوفاً في السحر ووضع الألوية والرايات في أهلها: مع المهاجرين لواء يحمله عليّ عليه السلام، وراية يحملها سعد بن أبي وقاص، وراية يحملها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي الأنصار رايات، مع الخزرج لواء يحمله الحباب بن المنذر، ويقال لواء الخزرج الأكبر مع سعد بن عبادة، ولواء الأوس مع أسيد بن حضير وفي كل بطن من الأوس والخزرج لواء وراية[1]...» فهذا اذن جيش فيه قواد، وتحت القواد قواد ولكنه ليس جيشاً محترفاً انها أمة جيش أو جيش أمة، فالذي يحمل اللواء قائد وهو بمثابة الضابط العظيم الذي لا تظل له هذه الدرجة إلا أثناء المعركة، وبعدها يعود مواطناً عادياً. والجيش على هذه الصورة وحدة عسكرية ذات قيادة واحدة ووجهة واحدة ونظام محكم، أما مالك بن عوف النصري فسيّد قبلي يقود قومه على أسلوب

(١) الواقدي، مغازي ٣/٨٩٥.

الجاهليين يخبئهم في بطن الوادي ويوصيهم بأن يكروا على المسلمين كرة رجل واحد وقد كروا فعلاً وزعزعوا بعض الصفوف عند الصدمة الأولى ولكن الذين زعزعوا كانوا خيل بني سليم بن منصور فولوا وتبعهم أهل مكة وبعض الناس منهزمين لا يلوون على شيء. «قال أنس، فسمعت رسول الله ﷺ والتفت عن يمينه ويساره والناس منهزمون وهو يقول: يا أنصار الله وأنصار رسوله! أنا عبد الله ورسوله صابر! قال ثم تقدم بحربته أمام الناس فوالذي بعثه بالحق، ما ضربنا بسيف ولا طَعَنَّا برمح حتى هزمهم الله ثم رجع النبي ﷺ الى العسكر وأمر أن يُقتل من قُدِر عليه منهم وجعلت هوازن تُوَلي وثاب من انهزم من المسلمين»[1].

والذي حدث أن هوازن هجمت في عنف ولكن دون وزن عام أما المسلمون فكانوا جيشاً نظامياً، ولكن الجانب الذي كان فيه بنو سليم وأهل مكة كان قبلياً جاهلياً فولوا منهزمين وفي هزيمتهم كادوا يلحقون الفزع في قلوب المسلمين، فولت منهم جماعة في إثر المنهزمين ولكن رسول اللّه ثبت، ونادى رجال جيشه المؤمنين النظاميين فانتبهوا إليه وعادوا. وكان رسول الله يعرف رجاله، فأمر العباس بن عبد المطلب بأن ينادي: «يا معشر الأنصار يا أصحاب السَّمُرَة، قال فاقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّت الى أولادها يقولون: يا لبيك يا لبيك فيذهب الرجل منهم فيثني بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقدِّمها في عنقه، ويأخذ ترسه ودرعه ثم يقتحم عن بعيره فيخلي سبيله في الناس، ويؤمّ الصوت حتى ينتهي إلى رسول اللّه ﷺ ٥٩٣[2]».

وهكذا عاد جيش المسلمين النظاميين فَتَراصَّ رجاله وثبتوا للعَدو، ولم يلبثوا أن مزقوه إرباً. وهذا هو المنتظر عند لقاء قوة من البدو وغير النظاميين لا يجمعهم الا العصب، وجيش من المؤمنين المدربين النظاميين. والمهم عندنا أن قريش الكفر التي أسلم منها من أسلم وبقي على شركه من بقي قد تفرقت بدداً ولم

(١) الواقدي، مغازي ٨٩٧/٣ ـ ٨٩٨.
(٢) الواقدي، مغازي ٨٩٨/٣ ـ ٨٩٩.

يعد منها إلى الميدان أحد، وبذلك كانت نهاية قريش الجاهلية، فقد عرف رجُالها أين يكونون من أهل الإسلام وقد ذكرنا أن نفراً من زعمائهم لم يدخلوا المعركة قط، إنما وقفوا يتفرجون بين الجاهلي الشامت أو الساخر أو الحاقد. وكل تلك لمحات نرى فيها قريش الجاهلية وهي تختفي مع الجاهلية، لتولد من جديد في ظل الاسلام وتحت راية محمد.

حتى خالد بن الوليد على عظيم شأنه لا نجد له أثراً في هذه الواقعة، ولقد كان الرسول ﷺ قد جعله على رأس أحد الجيوش التي دخلت مكة عند الفتح، وكان مدخله من الجنوب من ناحية الخندمة والليط، وتلك هي الناحية الوحيدة التي وقع فيها قتال، لقد قال المؤرخون في ذلك وأكثروا ولكن تفسيره عندنا أن خالدا لم يكن قد تعلم القتال على شرط الاسلام: قتال فتح لا قتال نصر بأي سبيل، فهو قد وجد معارضة أمامه فاكتسحها وقد أنكر الرسول ذلك ولكنه لم يفعل أكثر من الإنكار لأنه في الحقيقة كان يرجو أن يطوّع ملكة خالد العسكرية للاسلام ولهذا فقد جعله على مقدمته عندما سار لحصار الطائف.

وكان رسول الله ﷺ قد خبر خالدا عندما بعثه الى بني جذيمة من كنانة أسفل مكة، فقد تصرف خالد عند ذلك تصرفا لم يعرفه المسلمون الى ذلك الحين: قتل قوماً على الظن وهم يظهرون الاسلام، وقد رفض من تحت إمرته من الأنصار أن يقتلوا الناس، ولكن بني سليم ـ وعهدهم بالإسلام قريب ـ قتلوا أسراهم استجابة لخالد، وقد أنكر رسول الله فعل خالد، وأرسل علي بن أبي طالب ـ وهو فارس الإسلام قلباً ولساناً وعلماً ـ فأصلح الخطأ. ولكن الرسول مع ذلك لم يطل غضبه على خالد بل صبر عليه لأنه كان يعلم ما عنده ويريد أن يطوع ملكاته للاسلام، وما فعله رسول الله ﷺ مع خالد يعطينا صورة واضحة عن أسلوبه ﷺ في تطويع قريش وملكاتها للاسلام لأنه بعث حقاً ليتمم مكارم الأخلاق، ولقد أدبه ربه فأحسن تأديبه وتصدى هو لتأديب الناس فأحسن أيما احسان.

قريش تتجه إلى الاشتراك في قيادة أمّة الإسلام :

وقد حسب ناس من رؤوس مكة أن قبيلتهم قريشا قد انحدر مقامها بين القبائل، وظنوا أن بلدتهم مكة انحدرت درجات بعد أن أصبحت تابعة وكانت متبوعة، وما ذلك الا لأنهم كانوا لا يزالون ينظرون الى الدنيا والناس بعيون الجاهليين ولم يدر أحد منهم أن الله سبحانه عندما سمى مكة في القرآن الكريم أم القرى فهي عنده سبحانه أم بلاد الدنيا، ولن تزال كذلك أبد الدهر، وما أراده الله بقريش من الكرامة يخالف الذي كانوا يظنون، لأن قريش الكفر اذا كانت قد ماتت فان الله سبحانه أخرج من صلبها قريش الايمان، ومن يكون محمد رسول الله الا ذؤابة قريش وخياراً من خيار؟ ومن أولئك الذين يقودون أمة الاسلام في معاوج العز والسيادة بعد رسول الله ﷺ إلا القرشيين؟ ولله سبحانه في خلقه شئون وله في تصاريفه عجب يخفى على البصائر والأبصار.

ولقد وجد القرشيون المكيون صعوبة كبيرة في الإندراج في المجتمع الإسلامي، وبعضهم لم يحاول الاندراج. وباستثناء خالد بن الوليد الذي اختاره الرسول للقيادات مرة بعد مرة، أو عمرو بن العاص الذي قاد سرية ذات السلاسل وبدرت منه أثناءها بوادر لم يحمدها المسلمون مثل اصراره على الإمارة على أبي عبيدة وصلاته دون اغتسال مخافة البرد لولا هذان فإننا لا نكاد نقرأ عن كبار المكيين الذين فتحت عليهم مكة شيئاً ذا بال. ولقد كانت غزوة تبوك عسيرة على أمة الاسلام، عانى المسلمون فيها الكثير ووقعت فيها من الأحداث ما أراده الله ليكون بعدها موضوع موعظة وتوجيه وبعضها الآخر موضع تشريع كما نجد في سورة التوبة. ولقد قصد الله فيها الى لوم من تخلفوا وانذار آخرين ممن أخذت عليهم في إيمانهم وسلوكهم مآخذ. ولكننا لا نجد للقرشيين غير المهاجرين فيها ذكراً، وقد كان المأمول بعدما أسبغ الله ﷺ عليهم من الكرامة بعد حنين أن يكون لهم مقام ولو قليل في تبوك وما تلاها من سرايا، وكان في بعضها مجال عظيم للقرشيين لو أرادوا فقد بعث الرسول ﷺ بعد تبوك الى شمال الحجاز وشمال

الجزيرة جملة من السرايا وقد قصد في بعض سراياه في هذه الحقبة الأخيرة جماعات من نصارى العرب وعرب الروم وعرب الضاحية من تيماء الى الشمال وهنا كان مجال عمل عظيم للقرشيين الذين كانوا أهل معرفة بهذه النواحي ورجال مثل أبي سفيان صخر بن حرب وصفوان بن أمية بن خلف وسهيل بن عمرو كانوا يعرفون هذه النواحي أكثر مما يعرفها من قصدها وقاد السرايا إليها من المسلمين، ولكن كبار المكيين سكنوا فلا نسمع لهم ذكراً في ذلك كله، وإذا حدث وكان لبعضهم ذكر من مثل خالد بن الوليد الذي قاد السرية إلى نجران فإن الأمر لا يتعدى الذكر، ولا نسبة قط بين ما فعله خالد في هذه السرية، وهي بداية الاتجاه المركز الى اليمن وبين ما فعله علي بن أبي طالب وهو مثال القرشي المهاجر قديم الاسلام.

ولكن عندما ينتقل رسول اللّه الى الرفيق الأعلى وترتج المدينة، وتنتقل الرجة الى مكة، عندما اختفى عتاب بن أُسَيْد الذي أقامه النبي على مكة هنا يقوم سهيل بن عمرو خطيباً فيقول: يا معشر قريش، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد، واللّه إن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر من طلوعهما الى غروبهما، فاستمعت له قريش وثبتت على الإسلام، وواضح أن الرجل قام هذا المقام عن اقتناع وعقل معاً، فأما الاقتناع فقد رأى بعينه قوة المسلمين يوم حنين ثم إن إكرام الرسول إياه، كان له في نفسه عميق الأثر، وأما العقل فلأن مكة كانت مدينة غير حصينة ولو ارتدت قريش ومال عليها المسلمون ميلة لأصابوها بقاصمة الظهر. ومع ذلك فقد قلنا إن سواد قريش وأهل مكة كانوا قد أسلموا وثبتوا على الإسلام.

وهذا الموقف من سهيل بن عمرو كان بداية عودة قريش إلى الصدارة والرياسة في جماعة الاسلام، وهذه العودة كانت خيراً على قريش أفراداً وخيراً على الإسلام، ولكنها كانت نهاية قريش القبيلة كما سنرى.

القرشيّون يخرجون الأنصار من الرياسة والقيادة :

تعودنا على أن ننظر إلى ما وقع في يوم السقيفة على أنه أمر طبيعي، وأن مبايعة أبي بكر كانت النتيجة المنطقية التي كان ينبغي أن ينتهي إليها الاجتماع مع أن الاجتماع كله . على الصورة التي وصل بها إلينا تم على نحو هو أشبه بالمصادفة، فإن الأنصار عندما رأوا أن رسول اللّه ﷺ قد توفي اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، ومعهم كبيرهم سعد بن عبادة للنظر فيما يمكن أن يصير إليه أمرهم، فالمدينة مدينتهم والبلد بلدهم، ولهم فيه الغالبية لكنها كانت في نفس الوقت مركز أمة الإسلام التي شملت الآن شبه الجزيرة كلها، وكانوا يعيشون في ظل رسول اللّه وفي أمان الإسلام فماذا يكون موقفهم اليوم وقد مضى الرسول إلى ربه؟ هل يتفرق أمر الجماعة فيقروا هم في مدينتهم ويعود القرشيون المهاجرون إليهم إلى مدينتهم مكة، ويتفرق غيرهم من المهاجرين إلى قبائلهم ومنازلهم وينفرط بذلك أمر الأمة مع بقاء الجماعات الداخلة في تكوينها على الإسلام؟ وهذا يتجلى لنا من أقدم ما لدينا من أخبار هذا الاجتماع، فقد رواه ابن سعد بسند وأتانا به البلاذري في انساب الأشراف. قال ابن سعد: «بينا المهاجرون في حجرة رسول اللّه ﷺ وقد قبضه الله إليه وعلي بن أبي طالب والعباس متشاغلان به، إذ جاء معن بن عدي وعويم بن ساعدة فقالا لأبي بكر: «باب فتنة إن لم يغلقه اللّه بك فلن يغلق أبداً. هذا سعد بن عبادة الأنصاري في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يبايعوه»، فمضى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح حتى جاءوا السقيفة، وإذا سعد على طُنْفُسه متكئاً على وسادة وعليه الحمى فقال له أبو بكر: ما ترى يا أبا ثابت؟ فقال: أنا رجل منكم فقال الحباب بن المنذر: منا أمير ومنكم أمير فإن عمل المهاجري شيئاً في الأنصار رد عليه الأنصاري. وإن عمل الأنصاري شيئاً في المهاجرين رد عليه المهاجري، وأنا جذيلها المحكّك وعُذيقها المرجَّب، إن شئتم فرزنا، فرددناها جذعة، من ينازعني؟» فأراد عمر أن يتكلم فقال له أبو بكر: على رسلك. ثم قال أبو بكر:

نحن أول الناس إسلاماً وأوسطهم داراً وأكرمهم انساباً، وأمسهم برسول الله ﷺ رحماً، وأنتم إخواننا في الإسلام وشركاؤنا في الدين نصرتم وأويتهم وآسيتم فجزاكم الله خيراً. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، ولن تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، فقد يعلم ملأ منكم أن رسول الله ﷺ قال: «الأئمة من قريش» فأنتم أحقاء الا تقسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم» (البلاذري: ١/٥٨١ - ٥٨٢)، وهنا يطمئن خاطر الحباب بن المنذر الذي كان الخوف على مصير الأنصار قد استبد به وجعله يقول ما قال. فيطامن من غلوائه ويقول: «ما نحسدك ولا أصحابك، ولكننا نخشى أن يكون الأمر في أيدي قوم قتلناهم، فحقدوا علينا» (البلاذري ١/٥٨٢) ويزيده أبو بكر اطمئناناً فيقول: فليس بعد المهاجرين الأول عندنا أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور»، وتكلم النعمان بن بشير وهو من خيرة الأنصار من بني الحارث من الخزرج فيكشف عن حقيقة ايمان الأنصار وجميل مذهبهم فيقول: «يا معشر الأنصار انا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به الا رضى ربنا وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضا، فان الله وليّ المنة بذلك. الا أن محمد ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يراني الله انازعهم هذا الأمر أبداً، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم[1].

وانتهى اجتماع السقيفة بمبايعة أبي بكر بما يشبه الاجماع، وانصرف الأنصار وهم يحسبون أن الأمر سيكون على ما قال أبو بكر قسمة بين المهاجرين والأنصار، فالمهاجرون هم الأمراء أي أصحاب الرياسة والأنصار هم الوزراء والشركاء: لا يتركون في مشورة ولا تقضى دونهم الأمور.

والذي نلاحظه هو أن الأنصار عندما اجتمعوا الى سعد بن عبادة لم تكن فكرة رياسة أمة الاسلام بعد وفاة الرسول ﷺ في اذهانهم. انما هم اجتمعوا

(١) الطبري: تاريخ ٣/٢٢١.

بدافع الخوف على مصيرهم بعد رسول الله، وكان محباً لهم كثير الحدب عليهم منصفاً اياهم في كثير من الحالات التي وقع عليهم فيها اعتداء من المهاجرين وخاصة من عمر بن الخطاب، الذي كانت تبدر منه بدرات تدل على تحامل على بعض كبار الأنصار، وخاصة سعد بن عبادة وابنه قيس. وقد كان عمر حريصاً أشد الحرص على أن يكون هو وأبو بكر وأبو عبيدة أقرب الناس الى رسول الله ولم يقتصر موقفه هذا على الأنصار بل شمل كل من كان يخشى تقدمهم عليه من غير الأنصار من أمثال علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة.

ومن هنا فإننا نرى أن عمر وأبا بكر عندما قصدا السقيفة قصداها وفي ذهنها تصميم على إن تكون لهما السيطرة على مصائر الأمة بعد وفاة الرسول. والنصوص تقول أن عمر عندما كان يسرع الى السقيفة كان يزور كلاماً يقوله أي يرتب في نفسه كلاماً يقوله وعندما تكلم أبو بكر رضي عمر لأن أبا بكر قال بأسلوبه الذكي الانساني ما كان يمكن أن يقوله هو بطريقة أخرى، وخلاصة ما قاله هذا وما كان يريد أن يقوله ذاك أن السيادة في الأمة ينبغي أن تبقى في يد القرشيين، أما الزعم بأن رسول الله ﷺ قال إن الامامة في قريش فغير صحيح، ولا يمكن أن يكون أبو بكر قد قال هذا القول فهو رجل صادق بل صديق، ولكنها وضعت فيها بعد لتأكيد ما كانت قريش تتمسك به من السلطة في أمة الاسلام وكان ذلك من خير الاسلام ولكنه في النهاية لم يكن من خير قريش. فان القرشيين كانت فيهم ملكات سياسة وقيادة، وقد نفعوا أمة الاسلام بذلك ولكنهم استهلكوا أنفسهم ودفعوا بأنفسهم في منازعات وحروب مهلكة انتهت أول الأمر بضياع معظم قريش وبزوال فروعها التي ظلت في ميدان السياسة، لم يبق من قريش في النهاية الا بيت علي بن أبي طالب وهو قسم من الهاشميين.

وقد انفض اجتماع السقيفة على أن يكون الأنصار شركاء القرشيين في تسيير أمور الأمة، فالقرشيون أمراء والأنصار وزراء ولا يفتاتون بمشورة ولا تقضى دونهم الأمور.

ولكن الذي حدث بعد ذلك هو أن الأنصار أسقطوا من الحساب اسقاطا لا يمكن إلا أن يكون مقصوداً، فقد بعث أبو بكر أحد عشر قائداً للقضاء على حركة الردة وليس بينهم من الأنصار واحد ثم أرسل أربعة جيوش الى الشام لم يوضع على رأس واحد منها أنصاري وبدلاً من أن تكون قيادة الدولة شورية جماعية كما كانت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أصبحت في الحقيقة وواقع الأمر فردية وأبو بكر وعمر سارا على قاعدة الشورى، وفي أيام عثمان انتهت فعلاً الشورى وتمهد الطريق لملك معاوية والأمويين.

وقد تنبه الى هذه الحقيقة واحد من أهل الرعيل الأول من المؤرخين وهو أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي فاتانا بأخبار سكت عنها غيره، فقال ان الأنصار غضبوا لبيتين من الشعر استشهد بهما أبو بكر، قال:

«فاعتزلت الأنصار عن أبي بكر، فغضبت قريش واحفظها ذلك فتكلم خطباؤها، وقدم عمرو بن العاص فقالت له قريش: قم فتكلم بكلام تنال فيه من الأنصار، ففعل، فقام الفضل بن العباس فرد عليهم، ثم صار الى علي فأخبره وانشده شعرا قاله، فخرج علي مغضبا حتى دخل المسجد، فذكر الأنصار بخير، ورد على عمرو بن العاص قوله، فلما علمت الأنصار ذلك سرها وقالت ما نبالي بقول من قال مع حُسن قول علي، واجتمعت الى حسان بن ثابت، فقالوا: أجب الفضل فقال ان عارضته بقوافيه فضحني، فقالوا فاذكر عليا فقط فقال:

جزى الله خيراً - والجزاء بكفه	أبا حسن عنا ومن كأبي حسن
سبقت قريشا بالذي أنت أهله	فصدرك مشروح، وقلبك ممتحن
تمنت رجال من قريش أعزة	مكانك. هيهات الهزال من السمن[1]

وفي خبر آخر عند اليعقوبي أيضاً نقرأ أنه عندما عهد أبو بكر الى خالد بن الوليد وغيره من غير الأنصار في قيادة الجيوش التي خرجت لحروب المرتدين:

---

(١) اليعقوبي، تاريخ ٢/١٢٨.

«قام ثابت بن قيس بن ثابت بن شماس فقال: يا معشر قريش أما كان فينا رجل يصلح لما تصلحون له؟ أما ذلك والله ما نحن عميا عما نرى ولا صما عما نسمع ولكن أمرنا رسول الله بالصبر، فنحن نصبر، وقام حسان فقال:

يـا للرجـال لخلفـة الأطـوار ولمـا أراد القـوم بـالأنصـار
لم يدخلوا منا رئيساً واحداً يا صاح في تقصى ولا أمرار

فعظم على أبي بكر هذا القول فجعل على الأنصار ثابت بن قيس، وأنقذ خالداً على المهاجرين[1] وثابت بن قيس الشماس كان من رؤوس الأنصار فهو من بني كعب من الخزرج، وقد استشهد مع من استشهد في يوم اليمامة، يقول ابن حزم في الجمهرة إنه ممن شهد لهم بالجنة [2].

وجدير بالملاحظة أن الأنصار نفس بعضهم على بعض عقب وفاة الرسول ﷺ فكره الكثيرون من الأوسيين أن يترأس واحد من الخزرج، وانضم أسيد بن الحضير الى أبي بكر، أما بشير بن سعد الذي أيّد رياسة القرشيين فكان أول من بايع أبا بكر من الأنصار والسبب معروف فهو والد أم خارجة التي تزوجها أبو بكر، وهي من بني حارثة الخزرجيين وكان أبو بكر قد نزل في منازلهم بالسنح.

المهم أن الأنصار أخرجوا من قيادة الأمة وانحصر الأمر في قريش، وهم عندما غضبوا لذلك تجمعوا حول علي بن أبي طالب وكان أول الأمر معارضاً لخلافة أبي بكر ثم بايعه بعد ذلك وليس لدينا ما يدل على أن العلاقة كانت ودية بينه وبين عمر، وموقف عمر من الأنصار ورأسهم سعد بن عبادة معروف وهذا التعاطف بين علي وآله والأنصار استمر يقوى مع الزمن حتى أصبحت المدينة معقل العلويين ثم تبعتها مكة عندما غادرها رؤوس القرشيين ـ من غير بني هاشم ـ لتولي القيادة وشيئاً فشيئاً أصبح الحجاز كله هاشمي الميول معارضاً لبني أمية ثم لبني العباس وفروع قريش الحاكمة بنو أمية أولاً ثم بنو العباس ـ

(١) اليعقوبي، تاريخ/٢/ ١٢٩.
(٢) الجمهرة: ٣٣٦.

أصبحت تنظر الى الحجاز - خاصة مكة والمدينة - نظرتها الى اقليم معاد لهم مؤيد لخصومهم. واذا كان الأمويون قد رموا مكة بحجارة المنجنيق وأسهم النار حتى اشتعلت استار الكعبة. فان الذي فعله بهم العباس كان أشد، وأنه لمن عجائب تصاريف التاريخ أن قريشاً التي بدأ نجمها يصعد بفضل مكة أصبحت تكرهها وتهاجمها. والأنصار أحباء رسول الله انهزموا في الصراع السياسي داخل أمة الاسلام فجعلوا يهاجرون الى الأمصار، وهناك لقوا من الكرامة وحب الناس ما لم يكونوا يجدونه في وطنهم والمسئولية في ذلك ترجع الى هذا النهم إلى السلطان الذي استبد بقلوب غالبية القرشيين وقريش في تشبثها بالسلطان قضت في النهاية على قريش.

أبو بكر يستدعي رؤساء مكة ويسند إليهم الرئاسات:

لا يحب أهل التقى من المسلمين الخوض في حديث سقيفة بني ساعدة وما جرى فيها، وحسنا يفعلون فإن الذي حدث وما قيل يوم السقيفة حدث في ظرف عصيب لا يستبعد معه أن تصدر عن أحد من الناس بادرة يدفع اليها الدَّهَش أو الفزع أو عدم استيعاب الموقف. ثم أن رواة الأخبار عن هذا اليوم العصيب وأهمهم هنا سيف بن عمر وأبو مخنف، لا يطمئن الخاطر الى كل ما يقولون، والذي يهمنا ونحمد الله عليه أن الأمر انتهى الى أبي بكر، وأبو بكر رزقه الله من إيمان دونه رواسي الجبال وجنان ثابت لا تنال منه الخطوب ثم خلق كريم جميل ومنطق بليغ يتنزل على القلوب وبهذا جمع الأمة الى لوائه ورأب الصدع ووحد الصفوف، فاندرج حديث السقيفة وأصبح ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين.

ولكننا ونحن الآن بصدد التأريخ لقريش والإسلام لا نملك إلا أن نقول من واقع ما حدث، إن قريشاً انتفعت بما وقع في السقيفة من حيث لا تحتسب، حقاً أن أبا بكر لم يتصرف قط على أنه قرشي وانما تصرف دائماً على أنه خليفة رسول الله ولزم غرز رسول الله وطريقه وما حدث لم يكن من صنعه وانما هي طبيعة القرشيين وما جبلوا عليه من حب السيادة والرياسة، وما انفردوا به من

معرفة بشئون الحياة وسياسة الناس، ربما نتيجة لاشتغالهم بالتجارة ونحن نعرف أن رسول الله ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى وقد بدأت بوادر الفتنة في جزيرة العرب، فقد كان ذو الحمار عبهلة بن كعب المشهور باسم الأسود العنسي قد ظهر في قبيلة مذحج وانضمت إليه نجران في اليمن وتحرك طليحة بن خويلد الأسدي في طيىء وأسد ومن لف لفهم وقدموا في جمعهم حتى بلغوا الربذة في أحواز المدينة، وأعانهم على ذلك أن منازل عبس وذبيان كانت تقع في هذه المنطقة من عوالي نجد أي مداخلها، ويصف لنا الطبري الموقف في عبارة موجزة عن السري الوالبي وسيف بن عمر وهما من اسنادهما أكبر رواته عن هذه الأحداث فيقول:

١ ـ مات رسول الله ﷺ واجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة بن خويلد الأسدي إلا من خواص أقوام في القبائل الثلاث.
٢ ـ فاجتمعت أسد بسُمَيْراء في عوالي نجد، وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة (المدينة).
٣ ـ وطيء على حدود أرضهم بجبلي طيء وهما الجزء الشمالي مما يعرف اليوم بجبل (شمر).
٤ ـ واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة وعبس بالأبرق من الربذة (جنوب شرقي المدينة).
٥ ـ وتأشب اليهم ناس من كنانة.

٦ ـ فلم تحملهم البلاد وافترقوا فرقتين، فأقامت فرق منهم بالأبرق وسارت الأخرى الى ذي القصة (على نحو ستين كيلومترا شمال شرقي المدينة).
٧ ـ فأمدهم طليحة بحبال فكان حبال على أهل ذي القصة من بني أسد ومن تأشب من ليث والديل ومدلج.
٨ ـ وكان على مرة بالأبرق عوف بن فلان بن سنان.
٩ ـ وعلى ثعلبة وعبس الحارث بن فلان، أحد بني سبيع.

١٠ ـ وقد بعثوا وفودا فقدموا المدينة، فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم ما خلا عياشا (حرصاً على ماله؟) فتحملوا بهم على أبي بكر على أن يقيموا الصلاة وعلى أن يؤتوا الزكاة فعزم الله لأبي بكر على الحق، وقال: لو منعوني عقالا لجالدتهم عليه وكانت عُقل الصدقة مع الصدقة (أي أنه لا يتنازل حتى عن الحبل التي تربط به إبل الصدقة، وقد يكون المراد الإبل نفسها).

١١ ـ فردهم، فرجع وفد من بلي المدينة من المرتدة إليهم فأخبروا عشائرهم بقلة أهل المدينة...[١]».

وإنما أتيت بهذه العبارة على طولها لكي أبين للقارىء أن نطاق هذه الثورة (فيما عدا الأسود العنسي) كان حوالي نجد ابتداء من جبل شمر ويتصل القوس فيسير جنوبي المدينة حتى يصل بلاد ليث من كنانة ومدلج قرب ساحل البحر الأحمر.

وحدث ذلك كله وأسامة بن زيد وجيشه في سريتهم إلى البلقاء جنوبي الشام في صميم بلاد نصارى العرب.

والدارس لسيرة الرسول ﷺ يتبين أن هذه المناطق بالذات ـ وهي مناطق اعادت أعاريب نجد.واعراب الحجاز كانت دائماً مناطق قلق واضطراب على الإسلام وأهله. ونحو ثلث الغزوات والسرايا كان موجهاً إليها. هنا كانت قبائل كبار الأعراب من أسد وغطفان ومحارب والديل وعضل والقارة من أهداب قيس عيلان والفروع الفقيرة من مضر بحكم فقر المواطن، وهؤلاء هم الذين دعا رسول الله ﷺ عندما قال: اللهم على مضر، والمراد أعاريب مضر من أبناء قيس عيلان، أما عرب مضر فهم أبناء إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهم فرع مضر الذي انحدرت منه كنانة وقريش وهؤلاء الأعاريب كلهم كانوا عالة على خيبر وفدك وتيماء والمدينة ومكة، وعندما قامت أمة المدينة اتجهوا بمطالعهم نحوها. فهذا مركز مدني عظيم قام غربي بلادهم واتسع حتى دخلت

(١) الطبري، تاريخ ٣/٢٤٤ ـ ٢٤٥.

فيه خيبر ونطاق الواحات شمالي الحجاز، وطوال الفترة المدنية من العصر النبوي عرف أهل المدينة بهدى محمد ﷺ وقيادته كيف يسودون هؤلاء الأعراب، ومعظم كبار المغازي والسرايا التي اتجهت إلى هذه النواحي قادها رجال المدينة ممن تربّوا في مدرسة محمد صلوات الله عليه التي قامت على الاتحاد والنظام والطاعة والصدق في القتال: هنا كانت مجالات أعاظم قواد الأنصار: سعد بن عبادة واسيد بن الحضير والحباب بن المنذر بن الجموح وعباد بن بشر ومحمد بن مسلمة وأبو قتادة بن ربعي وسلمة بن الأكوع.

وكان من المنتظر أن يكون هؤلاء بالذات قادة الجيوش التي تذهب إلى هذه النواحي، فقد داستها خيولهم ودوختها، وكان لقادتهم فيها هيبة، وفي قلوب أهلها خشية فكيف لا نجد في قيادة الجيوش، التي وجهت لحرب أهل الردة واحداً من هؤلاء؟

وعندما اقتربت جموع الأعراب من المدينة وأصبحت على أميال منها، تحرك أبو بكر بعد أن شدد في حراسة المدينة خوف البيات: فعبّى الناس ثم خرج على تعبينة من أعجاز ليلته يمشي، وعلى ميمنته النعمان بن مُقَرِّن وعلى ميسرته عبدالله ابن مقرن وعلى الساقة سويد بن مقرن معه الركاب، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم فما ذَرَّ قَرن الشمس حتى ولوهم الأدبار»[1].

فأما أسلوب القتال ونظامه وطريقته في مباغتة الأعداء فتلك كلها دروس تعلمها أهل المدينة أيام رسول الله ﷺ ولكن أين القواد؟ وكيف نجد على القيادة بني مقرن هؤلاء؟ لقد كانوا من قدماء أهل الإسلام وهم مزنيون، ولكن أحداً منهم لم يل للرسول جيشاً وكيف يظل اجلاء قادة الأنصار وبعضهم كانوا فعلاً من أصحاب المواهب العسكرية النادرة، مثل محمد بن مسلمة والحباب بن المنذر

---

(١) الطبري، تاريخ ٣/٢٤٦.

وعباد بن بشر وبشير بن سعد وأسيد بن الحضير بعيداً عن القيادة؟ هؤلاء لم يكونوا قط في جيش أسامة بن زيد فلا ذكر لهم فيه وإنما كانوا في المدينة. أما غيابهم عن القيادات فهو - استنتاجاً - صدى لما حدث في السقيفة وتلك بداية قصة طويلة تحتاج إلى من يؤرخ لها، قصة الأنصار بعد رسول الله ﷺ.

ثم يعبىء أبو بكر جيوش حرب الردة وهي أحد عشر جيشاً لا نجد في قيادة أحدها انصارياً واحداً؛ بل نجد فيهم من القرشيين خالد بن الوليد وعكرمة ابن أبي جهل وعمرو بن العاص وخالد بن سعيد والعلاء الحضرمي وعندما تنحى الأنصار أو نحوا عن القيادات كانت تلك هي الفرصة التي أتيحت لقريش لكي يتولى رجالها القيادات.

وقد كان أبو بكر قد قال للانصار في خطابه الذي حسم به الموقف والنزاع يوم السقيفة: وأنتم يا معشر الأنصار من لا يُنْكَرُ فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام. رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس من المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور[1]».

وهذا العهد لا ينقضه ما بدر عن سعد بن عبادة والحباب بن المنذر لأن كلام أبي بكر هذا كان بعد الاتفاق والتراضي ثم إن نفراً من الأنصار كانوا أول من دعوا إلى بيعة أبي بكر وأيدوها يوم السقيفة وعلى رأسهم بشير بن سعد وأسيد ابن الحضير وبقية الأنصار بايعوا دون اعتراض.

فلننظر كيف تم تطبيق ما قاله أبو بكر من أن الأنصار لا يفتاتون بمشورة ولا تقضى دونهم الأمور. لدينا هنا نصان انفرد بهما رجل من جملة المؤرخين الأول الذين لم يلقوا من المؤرخين إلى اليوم ما هم جديرون به من تقدير، ذلك هو

---

(١) الطبري، تاريخ: ٣/٢٢٠ رواية أبي مخنف.

محمد بن عبدالله الأزدي المتوفى سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٥ ـ ٨٤٦ م صاحب كتاب فتوح الشام، وهو كتاب لم يتنبه إلى أهميته إلا القليلون، لأنه نشر من نحو مائة وثلاثين سنة (١٨٤٥ م) في الهند نشرة ناقصة حافلة بالأخطاء على يد مستشرق يسمى وليم تاسوليس ثم أعيد نشره في القاهرة على مخطوطة جيدة بعناية دار سجل العرب سنة ١٩٧٠، وعليها اعتمد البحاثة المحقق أحمد عادل كمال في كتابه القيم عن فتوح الشام[١]، والأزدي مؤرخ فقط يميل بعض الميل إلى تعظيم شأن قومه الأزد ولكنه معتدل منصف في جملته ثم ان الموضوع الذي نحن بصدده بعيداً عن الأزد كل البعد ومن ثم فاننا نعتبر روايته عن فتوح الشام وبداية الفتوح بوجه عام ـ وثيقة تكمل ما كتبه الطبري والبلاذري وغيرهما عن الفتوح.

وقبل أن نورد نص الأزدي الذي رد على سؤال طالما حير أذهان الباحثين وهو: كيف عادت قريش إلى ولاية معظم الأمر في تاريخ الاسلام، بُعيد وفاة الرسول صلوات الله عليه بعد أن كانت هي بالذات قد رصدت نفسها للقضاء على الاسلام؟ نقول إن الرسول وكبار صحابته من المهاجرين كانوا قرشيين. ولكنه ﷺ سار في توجيه أمور الأمة مسارا اسلامياً خالصاً لافضل فيه الا للاسلام والتقوى والاخلاص يستوي في هذا القرشي وغير القرشي، والعربي وغير العربي وجماعة النابهين من أصحاب الرأي والشفوف من الصحابة كانت تضم من الأنصار أكثر ما ضمت من المهاجرين وكان فيها من غفار وأسلم وجهينة وليث وخزاعة نفر يعتز بهم تاريخ الاسلام وعندما انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى صارت الخلافة الى أبي بكر لا لأنه قرشي بل لأنه كان أولى المسلمين إذ ذاك بمواصلة عمل الرسول، ولم تكن معارضة بعض الأنصار إلا خوفاً من الضياع في بحر العرب والاسلام الذي كان يتسع يوماً بعد يوم، وقد رأينا أن المعارضين من الأنصار اطمأنوا وسلموا عندما قال لهم أبو بكر إنهم يلون المهاجرين الأولين دون

---

(١) عنوانه: الطريق الى دمشق (دار النفائس) وهو أحسن ما لدينا عن فتوح هذا البلد العزيز، والأستاذ أحمد عادل كمال مؤرخ محقق وهو من أعاظم مؤرخي الفتوح الاسلامية في عصرنا.

غيرهم من أهل الاسلام وأنهم الوزراء لا يفتاتون بمشورة ولا تقضى دونهم الأمور.

ولا بد قبل أن نورد نص عبدالله الأزدي من بعض الملاحظات. لاحظنا أن الأمور لم تكد تستتب لأبي بكر حتى يختفي الأنصار من القيادات أو يكادون وجيوش حروب الرده كانت أحد عشر جيشا لم يقد واحداً منها أنصاري، بل قفز القرشيون فأصابوا منها خمس قيادات على الأقل. حقاً كان في جيش خالد الذي توجه إلى بني أسد وصاحبهم طليحة بن خويلد الأسدي ما بين أربعمائة وخمسمائة من الأنصار، أميرهم ثابت بن قيس ويحمل رايتهم أبو لبابة بن عبد المنذر وهما صحابيان، جليلان ولكن لم تسبق لأحد منهما قيادة سرية أو بعث ولا بد أن الكتلة المقاتلة في كل من الجيوش الأحد عشر كانت من الأنصار فقد كانوا الى الآن صخرة الاسلام التي تتحطم عندها الأمواج، ولكننا نجد فطاحلهم بعيدين عن القيادات.

هنا نورد نص الأزدي الذي يقدم تفاصيل مجلس عقده أبو بكر من كبار أصحابه وأهل شوراه لكي يتخذ قراراً في شأن مواصلة الفتوح خارج الجزيرة العربية وهي خطة حاسمة وخطيرة. ولم يكن أبو بكر يستطيع أن يتخذ فيها قراراً دون مشورة طويلة. وخبر هذا المجلس يقول صراحة إن أبا بكر دعا الى المجلس كبار أصحاب شوراه وهم كما يذكرهم الأزدي عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعبدالله بن أبي أوفى الخزاعي «ووجوه المهاجرين والأنصار الذين شهدوا بدرا فاجتمعوا اليه، وعبدالله بن أبي أوفى الخزاعى هذا صحابي معروف، اسمه كما يقول ابن حزم علقمة بن خالد بن الحارث بن أسيد، له صحبة آخر الصحابة موتا بالكوفة[1]». وهو راوي هذا الخبر وهو مصدق فيه لأنه حضره بنفسه وأغلب

(١) ابن الأثير، أسد الغابة: ١٨٢/٣، وهو يذكر هنا أن عبدالله بن أبي أوفى أقام في المدينة حتى توفي رسول الله ﷺ فتحول الى الكوفة، وهذا غير معقول، لأن الكوفة لم تكن قد انشئت عند وفاة النبي. والأصح أن يقال إنه توجه الى الكوفة بعد تأسيسها.

الظن أنه حضر هذا المجلس لأنه خزاعي من أسلم وكانت أسلم ركناً هاما من أركان جماعة الاسلام اذاك حتى ليقال إن ثلث المسلمين الذين خرجوا لغزوة الحديبية كانوا من أسلم، ويلاحظ أن أحداً من كبار الأنصار لم يذكر بالاسم بين أهل الشورى هؤلاء إلا عبدالله بن أبي أوفى الخزاعي، وقد تكلم في هذا المجلس أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وأيدوا فكرة الغزو إلى الشام ثم تكلم طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد ابن زيد بن نفيل، ولم يتكلم علي الا بعد أن لاحظ أبو بكر سكوته ودعاه إلى الكلام فتكلم مؤيداً. ولكن أحداً من كبار الأنصار لم يتكلم وقد جرت عادتهم في مثل هذه المجالس أيام رسول الله أن يتكلموا، والحباب بن المنذر بالذات كانت له كلمة في كل مناسبة من مناسبات الحروب لأنه كان موهوباً في الأمور العسكرية. ولم نسمع هنا عن محمد بن مسلمة وكان معظم الوقت على حرس رسول الله وبشير بن سعد وله دور في كل غزاة من غزوات الرسول، وهو ومحمد بن مسلمة قادا البعوث والسرايا فاين هما اليوم؟

واقع الأمر يدل على أنهم لم يحضروا هذا الاجتماع ولم يسمع لهم رأي وحتى أسيد بن الحضير وكان سيد الأوس وقد مال يوم السقيفة إلى أبي بكر دون سعد بن عبادة وكان حرياً أن يكون في هذا المجلس. ولو حضر واحد من هؤلاء لما فات الأزدي أن يذكره فانهم عُمُد الأنصار والأنصار كانوا الى يوم السقيفة صخرة جيوش الاسلام. ويوم حنين يوم هرب القرشيون المكيون مع بني سليم عند الصدمة الأولى مع هوازن كانت دعوة رسول الله الى الأنصار دون غيرهم، فما أن سمعوا صوته حتى ثابوا الى رشدهم وعادوا الى رسول الله (ﷺ) فصدموا هوازن صدمة دامية فتحطمت قواها وتم للاسلام نصر كامل، فلم يفقد المسلمون في هذه المعركة إلا أربعة نفر رغم الفرار الأول فكيف لا يوجد أولئك الأبطال اليوم وكيف يغيبون فلا يكون لهم رأي ولا تكون لهم قيادة جيش واحد، لا من جيوش الردة ولا من جيوش فتوح الشام؟

ولم يأسف أبو بكر على غياب الأنصار ولا أسف عمر. ولم يبلغنا فيما بين أيدينا من الأخبار أن أبا بكر حاول استرضاء الأنصار. ولم يَسْعَ الأنصار من ناحيتهم إلى استرضاء أبي بكر وبقية المهاجرين، بل انصرفوا للجهاد دون أن تكون لهم قيادة من القيادات الكبيرة، فخرج من أراد الخروج منهم في جيوش حروب الردة ومات الكثيرون جداً منهم في هذه الحروب، وخاصة في حرب مسيلمة الكذاب في معارك اليمامة وكانت من أشد المعارك التي خاضها المسلمون، لأن مسيلمة وأصحابه تحصنوا في واد ضيق داخل حديقة أي بستان له سور عالٍ، وكان كبار الأنصار هم الذين اقتحموا ذلك الحصن المنيع ومات منهم في تلك المعركة الشديدة نفر عظيم، ومات بعضهم في حروب الشام، وبعضهم في فتوح العراق، ويبدو أنهم وقد خذلوا في المعركة السياسية تماسك بعضهم ببعض وقد اتعظوا بما أصابهم يوم السقيفة نتيجة الاختلاف فيما بينهم، فأصبحوا يخرجون في حروب الردة جماعات متميزة بنفسها تطلب الشهادة ولدينا عن ذلك أخبار كثيرة تؤيد هذا الموقف، نذكر منها خبر عباد بن بشر. وكان من كبار بني عبد الأشهل من الأوس فهذا الرجل حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان من أحب الناس إلى رسول الله وفي يوم السقيفة كان معتدلاً عاقلاً، وهو الذي تكلم بعد سعد بن عبادة والحباب بن المنذر وأبي بكر وأبي عبيدة فسأل قومه أن يتركوا الرياسة للمهاجرين، فهم قوم النبي ﷺ وأحق بالأمر بعده وكان حقيقاً لهذا بأن يعرف له أبو بكر وعمر هذا الفضل، وأن يعهدا إليه في شيء من القيادات أو أن يجعلوه من أهل شوراهما، فلم يحدث ذلك، فانظر إلى هذا الرجل يوم اليمامة، وقد اشتاقت نفسه إلى الشهادة حتى رأى في نومه رؤيا مبشرة بذلك، قال أبو سعيد الخدري - وقد شهد اليمامة - في خبر رواه حفيده لمحمد بن واقد وهو الواقدي ورواه كاتبه محمد بن سعد في الطبقات قال: «فأنظر إليه يوم اليمامة وإنه ليصيح بالأنصار: احْطموا جفون السيوف وتميزوا من الناس! وجعل يقول: اخلصونا، اخلصونا! فأخْلَصوا: اربعمائة رجل من الأنصار ما يخالطهم أحد يقدمهم عباد بن بشر وأبو دجانة والبراء بن مالك، حتى انتهينا إلى باب الحديقة

فقاتلوا أشد القتال، وقتل عباد بن بشر رحمه الله، فرأيت بوجهه ضرباً كثيراً، ما عرفته إلا بعلامة كانت في جسده»[1].

ومن الأنصار من نجا من الموت في حروب الردة واشترك في الفتوح ثم فوجىء بفتنة عثمان فقرروا اعتزال الحياة السياسية جملة ومن هؤلاء محمد بن مسلمة فارس رسول الله وقائد حرسه وطليعة جيشه في أكثر من مناسبة، فهذا الفارس العظيم لم يحفل لاستبعاده من أهل شورى أبي بكر ومضى يجاهد حتى كانت الفتنة، فاعتزل في البيداء قريباً من المدينة وقد روى خبر اعتزاله ابن سعد عن ابن حصين الثعلبي عن ابن حذيفة بن اليمان وكان حذيفة صاحبه ومن المعتزلين معه، قال: فخرجت فيمن خرج من الناس (من المدينة) فأتيت أهل ماء، فإذا أنا بفسطاط مضروب متنحىً تضربه الرياح، فقلت لمن هذا الفسطاط قالوا لمحمد بن مسلمة، فأتيته فإذا هو شيخ، فقلت له: يرحمك الله: أراك رجلاً من خيار المسلمين، تركت بلدك ودارك وأهلك وجيرانك، قال: تركته كراهية الشر، ما في نفسي أن تشتمل عليَّ مصر من أمصارهم حتى تنجلي عما انجلت. وظل في معتزله هذا حتى مات، ويروى عنه حديث يقول إن رسول الله ﷺ أعطاه سيفاً وقال له: «إذا رأيتَ من المسلمين فتتين تقتتلان فاضرب به الحجر حتى تكسره ثم كف لسانك ويدك حتى تأتيك منية قاضية أو يد خاطئة، فلما قتل عثمان، وكان من أمر الناس ما كان، خرج إلى صخرة في فنائه فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره»[2].

وقد حاول أبو بكر استرضاء بعض كبارهم ببعض صغار الأعمال دون كبارها فرفضوا، ويصور لنا هذا الموقف أبو الهيثم بن التيهان، وهو من طلائع المسلمين في المدينة فهو من النفر الثمانية الذين أسلموا على يد الرسول قبل العقبة الأولى، كان في حياته كلها من أقرب صحابة رسول الله إليه، وقد حضر

---

(١) ابن سعد، الطبقات، جـ ٣، القسم الثاني ص ١٧.

(٢) ابن سعد الطبقات: جـ ٣ قسم ٢ ص ٢٠.

معه المشاهد كلها، «وبعثه رسول الله ﷺ إلى خيبر خارصاً (أي جامعاً لضريبة التمر والحبوب التي قررها الرسول ﷺ على أهل خيبر بعد استسلامهم) فلما توفي رسول الله عليه السلام بعثه أبو بكر (كذا والأصح بعث إليه) فأبى، فقال: قد خَرَصتُ لرسول الله، فقال إني كنت إذا خرصت لرسول الله فرجعت دعا الله لي، قال فتركه»[1] وفي هذه العبارة ما فيها.

ومن مظاهر أسف الأنصار على ما حدث في السقيفة وما بعدها، زهدهم في الدنيا وإنفاقهم مالهم في سبيل الله وقد طالما قرأنا عن المال الكثير الذي تحصل لعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وغيرهم من المهاجرين من أموال المغانم والفيوء والأرزاق التي قدرت لهم من بيت المال على أساس القاعدة العمرية وهي قاعدة السبق إلى الإسلام، والمكان من رسول الله ﷺ. ففاز المهاجرون الأولون وأمهات المؤمنين بأنصبة كبيرة جداً وصغرت نتيجة لذلك بقية أنصبة الأنصار لأنهم أسلموا متأخرين عن هؤلاء ولم يشفع لهم في ذلك ما كان من فضلهم العظيم على الإسلام وأهله، فاقرأ كيف توفي أسيد بن الحضير فارس بني عبد الأشهل الأوسيين الذي تفيض السيرة النبوية بذكر أعماله وبذله في سبيل الإسلام بل كان هذا الرجل ذا فضل عظيم على أبي بكر، فهو رأس الأنصار الذين قرروا تأييد أبي بكر يوم السقيفة وحسموا بإخلاصهم للإسلام الموقف لصالح المهاجرين: «هلك أسيد بن الحضير وعليه أربعة آلاف درهم دينا وكان ماله يغل كل عام ألفاً فأرادوا بيعه، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فبعث إلى غرمائه فقال: هل لكم أن تقبضوا كل عام ألفاً فتستوفونه في أربع سنين قالوا: نعم يا أمير المؤمنين فأخروا ذلك فكانوا يقبضون في كل عام ألفاً» وكانت وفاة أسيد في شعبان سنة ٢٠ هـ ، والفتوح في عنفوانها وناس كثيرون من المهاجرين ممن يجيئون بعد أسيد بن الحضير بمراحل يتولون القيادات بل الولايات ويرتعون في الأموال والسلطان، أما أسيد بن الحضير الذي قال فيه الرسول ﷺ نعم الرجل

(١) نفس المصدر ص ٢٢.

أسيد بن الحضير، فيموت مديناً دون أن تسند إليه قيادة واحدة.

وكان الفقر وقلة المال نصيب الكثيرين من أكابر الأنصار رغم ما أصابوا من المغانم أيام رسول الله ﷺ. ومن الأمثلة البارزة في ذلك سهل بن حنيف صاحب الموقف المشهور يوم أحد وقد حضر هذا الرجل المشاهد كلها مع رسول الله ولكن الرسول ﷺ استثناه يوم قسم غنائم بني قريظة هو وأبو دجانة سماك بن خرشة فأعطاهما مع من أعطى من المهاجرين لأنهما كانا فقيرين[1] كما يقول ابن سعد، ولم يجد سهل بن حنيف إنصافاً إلا في خلافة علي بن أبي طالب، فأكرمه ورفع مقداره، وكان سهل من كبار أصحابه، وقد توفي في صفين سنة ٣٨هـ وصلى عليه علي ودفن في الرحبة وكبر علي عليه ست تكبيرات لأنه بدري[2].

ولن نشير هنا إلى موقف عمر من سعد بن عبادة سيد الخزرج يوم السقيفة، فهذا الموقف معروف وهو معقول إلى حد ما بعد موقفه يوم السقيفة ولكنه لا يستحق ما لقي من المهانة على يد عمر، بل كان هناك اتجاه إلى استعمال القوة معه لارغامه على المبايعة لأبي بكر لولا تدخل بشير بن سعد، ووصل به الأمر في أول خلافة عمر إلى حد نفهم منه أنه أُخرج طريداً من المدينة إلى الشام حيث مات في حوران على صورة أليمة، فيما يرويه البلاذري في أنساب الأشراف[3] أما الحباب بن المنذر صاحب الموقف المعروف يوم السقيفة فمن الطبيعي أن يختفي تماماً بعد بيعة أبي بكر، وربما يصور لنا مصير الأنصار ومسلكهم بعد رسول الله ﷺ ما أثر عن أبي دجانة سماك بن خرشه، وكان من أعاظم المحاربين وأهل البسالة والنجدة في الأنصار، فهذا الرجل الذي كان علماً في بدر واحد والخندق وحنين لم ينل قيادة ولا رياسة، واقرأ كيف انتهت حياته مجاهداً أيام أبي بكر. قال ابن سعد بسنده: «دخل على أبي دجانة وهو

---

(١) انظر طبقات ابن سعد جـ ٣، قسم ٢ ص ١٢٥ وما بعدها.

(٢) انظر طبقات ابن سعد جـ ٣ قسم ٢، ص ٤٠.

(٣) انظر طبقات ابن سعد جـ ٣ قسم ٢، ص ١٤٥ وأنساب الأشراف للبلاذري جـ ١/ص ٢٥٠.

مريض وكان وجهه يتهلل: فقيل له: ما لوجهك يتهلل فقال ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: أما إحداهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وأما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً. قال محمد بن عمر: وشهد أبو دجانة اليمامة، وهو فيمن شرك في قتل مسيلمة الكذاب وقتل أبو دجانة يومئذ شهيداً سنة عشرة في خلافة أبي بكر الصديق ولأبي دجانة عقب اليوم بالمدينة وبغداد»[1].

أبو بكر يَدعو اشراف قريش مِن أهل مكّة ليَستعين بهـم في الفتوح :

غاب هؤلاء جميعاً، أو قل أخرجوا فمن الذي تولى مكانهم؟ القرشيون! فأما من كان منهم موجوداً وله مكانه في جماعة الإسلام من أمثال أبي عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ومن في طبقتهم فقد أصبحوا في مقدمة أهل الشورى والقيادة ولحق بهم من أسلم قبل فتح مكة بقليل، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ولم يلبث أن خطا المسالمة الذين اسلموا يوم فتح مكة أو بعده، فقد تقدموا وحلوا محل الأنصار وصار منهم من أربى على قدماء المهاجرين في المكانة ومثلهم في ذلك يزيد بن أبي سفيان وأخوه معاوية. ولم يأت هذا مصادفة ولا نحن نستنتجه استنتاجاً، بل لدينا خبر ذو أهمية كبرى أورده عبدالله الأزدي في فتوحه، وقد رأيت أن آتي هنا بنصه كاملاً، لأنه يرينا كيف دخل هؤلاء ومتى وكيف وصلوا إلى القيادات والرياسات.

والآن نورد نص الأزدي قال محمد بن عبدالله الأزدي: أنه (أبو بكر) لما تلقى كتاب أبي عبيدة قائد جيوش الفتح في الشام يستمده حوالي ١٢ شوال سنة ١٢هـ/ ٢٩ ديسمبر ٦٣٣ م اجتمع إليه أشراف المهاجرين والأنصار وأهل السابقة منهم فدعا أبو بكر بأشراف أهل مكة، فقال له عمر بن الخطاب لأي شيء دعوت

---

(١) ابن سعد الطبقات جـ ٣ القسم الثاني ص ١٠١ ـ ١٠٢.

بأهل مكة مع المهاجرين والأنصار؟ قال أبو بكر: لأستشيرهم في هذا الأمر الذي كتب إلينا فيه فقال عمر: فأما المهاجرون والأنصار فأهل المشورة والاستنصاح، وأما رجال أهل مكة الذين كنا نقاتلهم لتكون كلمة اللّه هي العليا ويقاتلون ليطفئوا نور اللّه بأفواههم جاهدين على قتلنا وذلنا. إنا قلنا ليس مع اللّه آلهة أخرى، وقالوا مع اللّه آلهة أخرى. فلما أعز اللّه دعوتنا وصدق أحدوثتنا ونصرنا عليهم تريد أن تقدمهم في الأمور وتستشيرهم فيها وتستنصحهم دون من هم خير منهم فما نَصَحْنا إذن بصلحائنا الذين كانوا يقاتلونهم في اللّه حين تُقدِّمهم دونهم أفلا تراهم إذ وضعهم عندنا جهادهم إيانا وجهدهم علينا واللّه لا نفعل ذلك أبداً. فقال له أبو بكر: إنه قد حَسُن إسلامهم ولقد كنت أريد أن أدينهم وأنزلهم بالمنازل التي كانوا بها في قومهم من الشرف فأما إذ ذكرت ما ذكرت فإن الرأي في هذا رأيك».

وبلغ هذا الكلام أشراف قريش فشق ذلك عليهم، وقال الحارث بن هشام (بن المغيرة بن عمر بن مخزوم): إنك يا عمر قد كنت في شدتك علينا قبل الإسلام مصيباً، فأما الآن فقد هدانا الله إلى الإسلام فلا نراك في شدتك علينا إلا قاطعاً. وجثا سهيل بن عمرو على ركبتيه وقال: إياك يا عمر نخاطب وعليك نعتب. فأما خليفة رسول الله فبريء عندنا من الضغن والحقد والقطيعة، ألسنا إخوانكم في الإسلام وبني أبيكم في النسب فإنكم إن كان اللّه قدم لكم في هذا الأمر قدماً صالحاً لم نؤت مثله لقاطعوا أرحامنا مستهينون بحقنا. وقال عكرمة بن أبي جهل: إنكم وإن كنتم تجدون في عداوتنا قبل اليوم مقالاً فلستم اليوم بأشد على من ترك هذا الدين وعادى المسلمين منا، فقال لهم عمر: إني والله ما قلت ما بلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام وتحرياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين. قال سهيل: فإن كنتم إنما فضلتمونا بالجهاد في سبيل الله، فوالله لنستكثرن منه، واشهدكم أني حبيس في سبيل الله. والله لأقفن مكان كل موقف وقفته على حرب رسول الله

ﷺ موقفين على أعداء الله، ولأنفقن مكان كل نفقة أنفقتها على حرب رسول الله ﷺ نفقتين في سبيل الله، قال عكرمة: أنا أشهدكم أني حبيس في سبيل الله. فقال أبو بكر: اللهم بلغ بهم أفضل ما يأملون وأجزهم بما كانوا يعملون. قد أصبتم فأرشدكم الله»[1].

ولا بد أن نلاحظ هنا أن هذا المجلس إذا كان قد حدث، فلا بد أنه كان في بداية حروب الردة لا في بداية فتوح الشام، لأن عكرمة بن أبي جهل اشترك في محاربة أهل الردة وكان قائداً لواحد من جيوش المسلمين. وهذا الخلط في تاريخ المجلس لا يضعف أهميته، لأن الخلط في التواريخ كثير ومألوف عند مؤرخينا.

وليس من الضروري أن يكون هذا نص الكلام الذي دار في هذا المجلس كلمة كلمة، لأن المقصود هو المعنى، والمعنى هنا حقيقة. فهؤلاء القرشيون أدركوا في وقت متأخر حقيقة الإسلام والفضل في ذلك يرجع إلى رسول الله ﷺ الذي أحسن استقبالهم وأكرمهم فأزال من نفوسهم الضغينة والحقد وأشعرهم بالندم على ما فات فثبتوا مكانهم ينتظرون فرصة مناسبة يدلون فيها على صدق إيمانهم واستعدادهم للبذل في سبيل الإسلام. وليس معنى ذلك أننا نقول أنهم رأوا فرصة فانتهزوها، فليس لدينا ما يدل على ذلك، ولسنا كذلك نقول أنه لولا حدوث الفراغ بغياب سادات الأنصار عن القيادات لما دخل سادات قريش، فإن كتابة التاريخ لا تقوم على فروض، وليس من الصواب كذلك أن يقال هنا أن فلاناً أخطأ أو فلاناً أصاب، فإننا لا نعرف في مسار التاريخ في موقف كهذا إن كان هناك محل للحكم بخطأ أو صواب، ثم أين هو المقياس الذي نقيس به أعمال رجال مثل أبي بكر وعمر؟ أضف إلى ذلك أن حقائق القضية كلها ليست لدينا، فمن يدري فلعل الأنصار هم الذين

---

(١) محمد بن عبدالله الأزدي، فتوح الشام، ص ٤٥.

اختاروا هذا الموقف من القيادة والسياسة، لقد كانوا أسعد الخلق مع رسول الله ﷺ، وقد دامت سعادتهم به ومعه ثلاث عشرة سنة من التوفيق والنصر والسمو الروحي وأي شيء يطلبه الإنسان في هذه الدنيا بعد عشر سنوات يقضيها في صحبة خير البشر يتمتع فيها بالعمل معه في سبيل الإسلام والاقتباس من أنواره في سبيل الخير والإسلام؟ واقرأ والله تفاصيل غزوة الغابة التي كانت في ربيع الثاني سنة ستة للهجرة، «أغسطس ٦٢٧ م» لترى كيف كان الأنصار في أقصى درجات السعادة وهم يجاهدون مع رسولهم الأكرم الأعز أنهم ليطيرون طيراناً كأنهم كلهم شباب في مداخل العمر تسبح بهم الخيل سبحاً بين يدي الرسول ﷺ وإن أحدهم وهو سلمة بن الأكوع ليسبق أسرع الهجن على قدميه في طلب العدى وكل مأربه نظرة رضا أو دعوة يفوز بها من الرسول الأكرم[(١)]. فلما توفي الرسول وكان ما كان يوم السقيفة ورأوا تمسك المهاجرين بالرياسة انصرفت أنفسهم عنها وزهدوا فيها، كما رأينا في موقف بشير ابن سعد. ومن الواضح أن الأنصار جملة لم يكونوا بأهل اهتمام بالرياسة فلم نلحظ فيهم شيئاً من ذلك أيام الرسول ﷺ، حتى سعد بن عبادة ولم تكن العلاقات طيبة بينه وبين كبار المهاجرين لم تطمع نفسه إلى رياسة بعد السقيفة وإنما كان قُصارى أمله أن يرضى عنه رسول اللّه ﷺ، في حين أن أبا بكر وعمر كانا دائماً إلى جانب الرسول يشتركان معه في المشورة وتبادل الرأي ويسارعان في التنفيذ. وكان الأنصار - فيما يبدو - في الواقع يرون أن صلتهم الأساسية التى تهمهم هي الصلة برسول اللّه ﷺ والإسلام. أما المهاجرون فكانوا يتصرفون بعد رسول اللّه وكأنهم رؤساء الجماعة وانظر مثلاً موقف عمر بن الخطاب من قيس ابن سعد بن عبادة في سرية الخَبْط حيث تطوع قيس بشراء جزر أي جمال للمسلمين من رجل جهني على أن يؤدي له الثمن تمراً فيما بعد فأنكر عمر ذلك عليه وقال أنه لا يجوز له أن يشتري بمال أبيه دون أن يستأذنه وأصر على ذلك حتى

(١) أحسن وصف لها وأكثره تفصيلاً نجده عند الواقدي (مغازي: ٢/٥٣٧ - ٥٤٩) وانما اخترتها لأنها من صغار المغازي التي يتسع وقت الرسول فيها للحديث مع كل واحد من أفراد جماعته.

مال إلى رأيه أبو عبيدة وكان أمير الجماعة، وعندما عادت السرية استحسن سعد ابن عبادة تصرف ابنه ووهبه حائطاً أي حديقة، كي يكون له مال ينفق منه دون الرجوع إلى أبيه، وقد أيد الرسول ﷺ تصرف قيس بن سعد وأبيه وأثنى على سعد ابن عبادة. وبصفة عامة نستطيع القول أن سعد بن عبادة لم يكن على علاقات طيبة مع عمر بن الخطاب وبعد توقف التآخي نلاحظ بصورة عامة أن العلاقات بين المهاجرين والأنصار لم تكن وثيقة بالشكل الذي نتصوره. وأبو بكر وحده ينفرد بعلاقات ممتازة مع الأنصار بسبب ما كان في خلقه من لين ومحبة للناس.

والذي يعنينا هنا هو أن قريشاً عادت فأخذت مكاناً في صدارة أمة الإسلام، الذي حاربته وظنت أنه نهايتها ويشاء ربك أن يكون مولداً جديداً لها ولا مجال هنا لسوء الظن والقول بأن القرشيين دخلوا الدين وطلبوا الاشتراك في الفتوح طمعاً، فالحق أن معظم أولئك الرجال صدقوا فعلاً فيما قالوه لأبي بكر، أما ما كان بعد ذلك من غلبة الطموح السياسي على فريق بني أمية وأحلافهم أثناء خلافة عثمان فتلك قصة اخرى لها ظروفها وعواملها التي ظهرت خلال السنوات الأخيرة من خلافة عمر، وتجلت طوال خلافة عثمان وما تلاها من فترة جددت الخصومة القديمة بين أبناء هاشم بن عبد مناف وأبناء أخيه عبد شمس، واتجهت بتاريخ أمة الإسلام كله اتجاهاً أسيفاً. واقرأ معي هذه الفقرة من كتاب نسب قريش لأبي عبدالله المصعب الزبيري لترى مثالاً يؤكد لك صدق هؤلاء القرشيين عندما تكلموا بما تكلموا به مع أبي بكر وعمر في المشهد الذي رويناه بنصه تقريباً، والخبر هنا يتعلق بأولاد أبي أحيحة سعيد بن العاص، وبعضهم كان من ألد خصوم الإسلام حتى فتح مكة، قال: فولد أبو أحيحة سعيد بن العاص: أحيحة وبه كان يكنى، والعاصي قتله علي بن أبي طالب يوم بدر كافراً، وعبدالله وكان اسمه الحكم فسماه رسول الله ﷺ عبدالله وأمره أن يعلم الكتابة بالمدينة وكان كاتباً قتل يوم مؤتة شهيداً، وسعيد بن سعيد قتل يوم الطائف شهيداً وعَمْراً قتل يوم اجنادين شهيداً وأمهم صفية بنت المغيرة بن

عبدالله بن عمر بن مخزوم وأبان بن سعيد قتل يوم أجنادين شهيداً وعبيدة قتله الزبير بن العوام يوم بدر كافراً، وفاختة تزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس فولدت له مريم، فولدت مريم القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف فبقية عقب أبي العاصي بن الربيع من ولدها، انقرض ولد أبي العاصي بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف من زينب بنت رسول الله ﷺ وأم بني سعيد هؤلاء هند بنت المغيرة بن عبدالله بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم. وخالد بن سعيد (بن العاصي) وهو أبو أحيحة ونحن بصدده قتل بمرج الصُفَّر[1] وكان إسلام خالد بن سعيد متقدماً يقولـون كان خامساً، وأسلم أخوه عمرو وهاجروا جميعاً إلى أرض الحبشة وكان ممن قدم على رسول الله ﷺ في السفينتين «من الحبشة»[2]. فهذه مصائر بيت واحد من بيوت أولئك الذين أسلموا عند الفتح وأتيحت لهم الفرصة للوصول الى الاشتراك في فتوح الإسلام فانظر كم شهيداً منهم جاد بنفسه في سبيل الإسلام!

أما مصير سهيل بن عمرو وبيته فيقول فيه المصعب الزبيـري: «وخرج سهيل بجماعة أهله الى الشام، فجاهدوا حتى ماتوا كلهم هناك فلم يبق من ولده أحد الا فاختة بنت عتبة بن سهيل. قدم بها على عمر (بن الخطاب) وكـانت تسمى الشريدة، فزوجها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة وكان أيضاً يقال له الشريد[3]».

وأما عكرمة بن أبي جهل، فيقول عنه وعن أولاده المصعب الزبيري «ولما ندب أبو بكر الناس لغزو الروم وقدم الناس فعسكروا بالجُرف على ميلين من المدينة، خرج أبو بكر الصديق يطوف في عسكرهم ويقوي الضعيف منهم، فبصر

---

(١) كان ينبغي ان يضيف هنا: شهيداً لأنه استشهد في فتوح الشام».

(٢) المصعب الزبيري، نسب قريش، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٣) المصعب الزبيري، نفس المصدر ٤١٩.

بخباء عظيم حوله ترابط ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة، فانتهى الى الخباء، فإذا خباء عكرمة فسلم عليه فجزاه أبو بكر خيراً وعرض عليه المعونة فقال: أنا غني عنها معي ألف دينار فاصرف معونتك الى غيري، فدعا له ابو بكر بخير، ثم استشهد عكرمة يوم اجنادين ولم يترك ولدا وأمه: أم مجالد احدى نساء بني هلال ابن عامر[1]».

وهذا الاهمال لأمور السياسة من جانب الأنصار يبدو وكأنه نتيجة لما انتهت اليه الأمور يوم السقيفة؛ فان رؤساء الأنصار الذين كانت نفوسهم تطمح للرياسة خرجوا من السقيفة وهم يشعرون أنهم انهزموا وزهدوا نتيجة لهذا في الاشتراك في الادارة والحرب ومن أمثلتهم، سعد بن عبادة بن دليم والحباب بن المنذر، وبعضهم لم تطمح نفسه للرياسة لأنه لم يكن يهتم بها كما رأينا في موقف بشير بن سعد والأحداث على أي حال سارت بسرعة كبيرة لم تسمح لأبي بكر وعمر في اعادة النظر ومحاولة استرضاء الغاضبين من زعماء الأنصار، خاصة وقد وعد أبو بكر في السقيفة أن يكون الأمر بين المهاجرين والأنصار قسمة عادلة بحق النصف وألا يُفتاتون بمشورة ولا تقضى دونهم الأمور، وكان يرجى من أبي بكر أن يسعى اليهم ويترضاهم ويعطيهم نصيباً من القيادة، ولكن ظروف حرب الردة لم تسمح بذلك فيما يبدو، وما دمنا لا نملك تفاصيل يعتمد عليها في معرفة حقيقة ما جرى أثناء اختيار قيادات جيوش الردة، فلنكتف بالقول بأن الأنصار تُركوا جانباً فلم يكن لهم نصيب من القيادات وإن كان لهم الحظ من الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.

وربما كان الأفضل لأمة الإسلام لو أن الأمور جرت على ما قبله المهاجرون والأنصار معاً يوم السقيفة، من أن يكون الأمر شورى بين رؤساء المسلمين من مهاجرين وأنصار كما كان الأمر أيام رسول الله ﷺ، فقد كان الرسول نبي الجماعة وهاديها ورأسها ولكنه لم يكن يفضل أحداً على أحد. والقيادة كانت جماعية تقوم على الشورى ولو ظلت قيادة الأمة جماعية يتولاها

---

(١) المصعب الزبيري، نسب قريش ص ٣١١.

جماعة من الصحابة، فلا تكون مهمة رئيسها إلا تنفيذ ما يستقر عليه أمر الجماعة، لكان هذا أسلم لأمة الإسلام وأسلم لقريش كذلك فإن انفراد قريش بالأمر حمّلها من الأمر جسيماً وفرض عليها مسئولية فرحت بها أول الأمر، ولكنها لم تلبث أن ناءت بعبئها وكانت فيها نهايتها.

الفصل الخامس

قريش تفقد قيادة أمة الإسلام

قُريش وَالرياسَة في أمَّة الإسْلام :

هكذا عادت قريش إلى رياسة أمة العرب ودولتهم، لقد روينا خبر بداية الاستيلاء على السلطان وبقية الخبر لا نجد صعوبة في تتبعها خلال خلافة أبي بكر وعمر، ولقد بدأت عملية سيطرة قريش على مصائر أمة الإسلام وكأنها مصادفة، نتيجة لما كان من اهمال أولي الأمر للأنصار، ولقد أبدى أبو بكر يوم السقيفة ذكاء بعيداً وحسن تصور لمسيرة الأحداث بعد موت الرسول ﷺ، ومن الواضح أن أبا بكر أنقذ الأمة من التفرق في هذا الظرف العسير ثم دل بعد ذلك على حكمة بالغة في مواجهته لحركة الردة وقضائه عليها بسرعة لا تكاد تصدق وما إن رأى أبو بكر حماس الناس في الحجاز وما حوله للاشتراك في الدفاع عن أمة الإسلام حتى أسرع في تكوين الجيوش وإقامة القواد دون نظر إلى استرضاء غاضب أو استقدام عازف عن القيادة ولم تكد حروب الردة تنتهي، حتى دفع أبو بكر العرب في حروب فارس والروم، وقد رأينا في الفقرة السابقة حسن بلاء الأنصار في حروب الردة، فكيف لو كان لهم من القيادة النصيب الذي يستحقونه على أساس قول أبي بكر أن يكون الأمر قسمة بين المهاجرين والأنصار كشق الأبلمة ولكن الأمور سارت في طريقها المقدر، ولقد كان أسامة فاتح باب الفتوح بالتوفيق الذي بلغه في مسيره إلى أُبْنَى من بلاد بلقاء الشام كما أمره رسول الله ﷺ، وقد كان حرص أبي بكر على إرسال بعث أسامة عظيماً، وكانت فرحته عظيمة بعودته أيضاً ولكن يستوقف النظر أن أبا بكر لم يجعله على شيء من فتوح الشام، بل كان أول من اختاره لقيادة بعث الى

الشام رجلاً صالحاً من أبناء أبي أحيحة سعيد بن العاص، وهو خالد بن سعيد وهو من قدماء المسلمين وصالحيهم ولكنه لم يشارك في شيء من نشاط المغازي ولم يكن خالص النية في بيعة أبي بكر إذ أنه تأخر عنها وقال كلاماً ساء أبا بكر وعمر خاصة، ولكنه يتولى رغم ذلك البعث الأول الذي بعث به أبو بكر إلى الشام، ولقد طلب إليه أبو بكر أن ينتظر بمن معه عند مؤتة ليكون رداء للقوات التي سيبعث بها، ولكن خالداً تسرع وأوغل في بلاد الروم حتى بلغ مرج الصفَّر جنوب شرق دمشق وهناك دهمه الروم وهزموا جيشه وفر هارباً بحشاشة نفسه، ليشترك بعد ذلك في جيش يزيد بن أبي سفيان ويستشهد في معركة أجنادين. وأنه لما يستوقف النظر أن يختار أبو بكر ستة قواد: اثنين منهم لفتح العراق هما خالد بن الوليد وعياض بن غنم، وأربعة لفتح الشام هم يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة، فإذا فهمنا تفضيل أبي بكر للخمسة الأول فأي فضل على أسامة بن زيد يكون لشرحبيل بن حسنة، وهو صحابي فاضل ولا شك، ولكن لم تكن له سابقة قيادة ولا دربة حرب وهو على عظيم فضله كان مولى حليفاً لبني زهره، ولا ندري كيف أخذه أبو بكر وترك أسامة فلم يظفر بقيادة إلى أن مات.

ولكن الأمور تتجه في أمة الإسلام اتجاهاً ينتهي بالرياسة إلى بني أمية ولن ندخل في تفاصيل ذلك فهو معروف شائع في الكتب جميعاً، ولا حاجة بنا في هذه الدراسة إلى الدخول في تفاصيل فتنة عثمان وما تلاها من الأحداث الجسيمة، التي ألقت بزمام الأمور في النهاية في يد بني أمية بقيام الدولة الأموية في دمشق في عام الجماعة سنة ٤١ هـ/٦٦١ م. لا مفر لنا من الإيجاز الآن وإلا استطال البحث إلى ما لا نهاية ونحن هنا ندرس تاريخ قريش لا تاريخ الإسلام كله، وحسبنا في ذلك تعيين الاتجاهات العامة والمراحل الحاسمة في تاريخ قريش بعد الإسلام.

ودون دخول في التفاصيل نستطيع أن نقول إنه عندما توفي عمر بن

الخطاب كان معاوية بن أبي سفيان أقوى رجال الدولة، وأكثرهم مالاً وأعظمهم ولاية. والظاهرة معروفة من قديم الزمان ألف فيها المقريزي كتابه المسمى «بالنزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم»، فإذا أضفنا إلى ذلك أن عمرو بن العاص عامل مصر حليف معاوية وصاحبه وسليل بني سهم بن هصيص حلفاء بني أمية في حلف لعقة الدم أعداء حلف الفضول وأصحابه تبينا أن جبهة معاوية وعمرو أي جبهة الشام ومصر كانت أقوى جبهة وأغنى في دولة الإسلام عند موت عمر بن الخطاب، ولقد زاد معاوية قوة في الشام خلال خلافة عثمان، وازداد جمعه بانضمام عمرو بن العاص إليه، ومن الواضح أن تطور الأمور على هذا النحو يرجع إلى أن معاوية وبني أمية وأحلافهم كانت تغلب عليهم من أول الأمر نزعة السياسة والاتجاه إلى القوة والرياسة، وهذا ظاهر في حالة عمرو بن العاص من أيام الرسول ﷺ، وظاهر في حالة معاوية بن أبي سفيان الذي لبس ثياب رجال الملوك واتخذ هيئتهم وزعم لعمر بن الخطاب أن هذا مجرد مظهر وأنه يتخذه لتكون له هيبة في قلوب المحكومين ورهبة عند الأعداء، ومن بادىء الأمر أخذ معاوية يستدعي آله ويسند إليهم الأمور ويعطيهم الأموال، واستشرى الأمر في أيام عثمان عندما أخذ معاوية يغدق الأموال على الجند ورؤسائهم خاصة، حتى اصطنعهم وصاروا رجاله. أما بنو هاشم فقد حافظوا على الاتجاه الديني الذي عرفوه في أيام الرسول ﷺ وخليفتيه أبي بكر وعمر ورأسهم في ذلك علي بن أبي طالب، وكان عمر قد اشتد مع الناس وحملهم على الجادة حتى تعبوا من حكمه واستطالوا أيامه كما يقول المؤرخون وفي أثناء اجتماع أهل الشورى رفض عليّ ما اشترط عليه عبد الرحمن بن عوف التزام طريق الشيخين، فلم يوافق على ذلك لا لأنه كان لا يرى ذلك بل لأنه وهو من أكابر أصحاب رسول الله وأهل العلم والفقه في الإسلام، يريد أن يحتفظ بشخصيته المستقلة فتحول عنه عبد الرحمن بن عوف إلى عثمان بن عفان وكان يعرف مقدماً أن عثمان سيقبل، وكانت الغالبية لا تريد رجلاً يسير فيهم في شدة عمر، وأحس علي بن أبي طالب بذلك، ويؤثر عنه أنه قال إن قريشاً

تكرهني لا كرهاً فيّ وإنما رغبة في أن يصيبوا شيئاً من غنى العيش الذي اجتمعت لهم أسبابه، وكأنما كان علي يريد أن يمسك بقرني ثور ضجر من النير واحب أن ينطلق. ولم يكن يستطيع بداهة أن يقف في وجه التيار وحده. وخسر المعركة السياسية وإن لم يخسر العسكرية، وكان من الممكن أن يفيء الناس إليه من جديد، ولكن الموت الغادر عاجله فانفسح المجال أمام معاوية، وخلا له الميدان وكانت الحرب قد طالت والفتنة قد ثقلت وطأتها على الناس ومالت بهم أنفسهم إلى المسالمة وخاف الصلحاء على مصير الأمة من استمرار الفتنة، ثم إن مكاسب السياسة وسلطان الرياسة لم يكونا عندهم بشيء يذكر، اذا اقتضىٰ الأمر الحفاظ على وحدة الأمة.

وكان صلحاء الناس قليلين، أما الغالبية فتسارعت إلى طلب الدنيا وحازوها وأصبح في استطاعة معاوية أن يعطيهم منها، فاستقام له الأمر وأصبح صاحب السلطان المطلق في دولة الإسلام وما دام معاوية ومن إنضم اليه من طلاب السلطان قد ملكوا زمام القوة، فلم تكن لهم القدرة على الوقوف عند الحد المأمون بعد أن ذاقوا طعم السلطان المطلق وأصبح عمادهم الوحيد على القوة ولم يعد لبني أمية أنصارهم صبر على المخالفة، فجرى القتل ظلماً على الناس وبعد مقتل حُجَر بن عدي وأصحابه قال القائل: لا زالت العرب تقتل بعد ذلك أبداً. ومن مصرع حجر إلى مصرع الحسين وآله رضي اللّه عنهم خطوة، والسلطان غلاب ونشوته تطيش لها العقول وتضل البصائر وطريق الدم بلا نهاية فغرق بنو أمية. سفيانيون ومروانيون ـ في الدماء وسالت دماء الخوارج وقُضي على كل معارض وبعد استشهاد الحسين تحرك الندم في قلوب الكثيرين من المسلمين وبدأوا يتجمعون تحت راية الدعوة لآل علي فاشتد حماس الناس للدعوة الهاشمية وصارت ناراً تحت الرماد، وأصبحت الهاشمية لواء يستظل به كل راغب في العدل وكاره للملك العضوض، وثاب نفر من الأنصار المنهزمين إلى رشدهم وتصدوا لبني أمية فأكلتهم السيوف في وقعة الحرة يوم الأربعاء ٢٨ ذو الحجة سنة

٦٣ هـ، وما كان حواراً بين فريقين من أسرة واحدة تحت سقيفة بني ساعدة، تحول إلى اقصاء عن السلطان للمغلوبين من الأنصار بعد فوز القرشيين، ثم أصبح اليوم مذبحة، ففي يوم الحرة كانت نهاية القوة السياسية للأنصار في قلب الدولة، فتفرقت بقيتهم في الأمصار ووجدوا عند الناس كرامة ومحبة، ففيهم الكثير من الصحابة والتابعين وكانت من بينهم بيوت لها شأن، فعلا شأنها في الأمصار وخاصة في مصر والمغرب والعراقين وخراسان، وانضم إليهم في خراسان حلفاء بيت علي بن أبي طالب وأحلاف الرسول من خزاعة وأسلم، وتجمعت تلك القوى كلها في خراسان وفي ساحة السياسة كان الفوز للأمكر والأدهى اما في ساحة الحرب فكان النصر للأقوى فآلت الخلافة إلى العباسيين بعد ثورة داخلية عربية في مجموعها، فقد كان الصراع بين عرب وعرب وما كان الموالي إلا مرجحين للكفة واختيار أبي مسلم لقيادة الجبهة العباسية كان حيلة، وأبو مسلم كان مجرد راية لم تلبث أن تحطمت وخلص السلطان لبني العباس، في حين بدأت الدعوة الشيعية تتحول إلى لواء يتجمع حوله الداعون الى العدل والراغبون في التفكير عما أصاب آل البيت برد الأمر إليهم. وسرت دعوة آل البيت في جماهير الناس ولقيت منهم قبولاً عاماً. فالمعتدلون الذين وقفوا عند الميل العاطفي والبعد عن العنف صاروا هاشميين في عواطفهم واتجاهاتهم، وأما المتحمسون والمتطرفون والمغامرون وطلاب السلطان، فقد تخطوا نطاق العاطفة وطلبوا السياسة والقوة عن طريق تنظيمات مستورة، لم تلبث أن تحولت إلى ما يسميه بعض المؤرخين أنه أكبر مؤامرة في التاريخ يريدون بذلك الدعوة الفاطمية.

نهـاية الوحـدة القرشـيّة :

في غضون ذلك ماذا أصاب قريشاً؟

الـذي أصابهـا أنها انتهت كوحـدة قبلية ومجتمـع صغير متمـاسـك بقـوة العصبيـة ووضوح الهـدف والغايـة، وقـد ذهب ابن خلدون إلى أن القبيلة «أو

حلف القبائل» إذا وصل إلى السلطان وتحول إلى دولة انحلت قوته وضعف بنيانه بضياع العصبية وغلبة الترف على رجالهم واستنامتهم إلى مهاد الدعة والترف، وهذا كلام لا يصدق إلا على الأحلاف القبلية الضخمة مثل حلف قبائل صنهاجة الجيل الأول الذي أقام دولتي بني زيري في المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن الهجري الرابع، وحلف صنهاجة الجيل الثاني أو صنهاجة الصحراء الذي أقام دولة المرابطين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وحلف قبائل مصمودة الذي أقام دولة الموحدين في القرن السادس الهجري، لأن هذه جماعات قبلية ضخمة جداً تقيم الدولة بسواعد رجالها وتبقى منها بعد ذلك جماعات ضخمة تتولى السلطان وتنتقل من البداوة إلى الحضارة وتتأثر طبائع أفرادها بهذا التحول، ومثلها في ذلك مثل قبائل الأتراك السلاجقة وقبائل الأتراك العثمانية فكلا هاتين القبيلتين أقام الدولة، ثم تولى من بقي منهم وهم كثيرون أمورها واستمتع بثمراتها ، وأدى بهما هذا الاستمتاع إلى الضعف ثم التدهور والضياع.

ولكن قريشاً كانت قبيلة صغيرة جداً، وهي لم تقم الدولة بنفسها، بل أقام الدولة غيرها، وهيأت لها الظروف سبيل الوصول إلى السلطان في دولة الإسلام بفضل ما كان عليه قادتها من الميل إلى السياسة والسعي نحو القوة ولقد كان القرشيون في الجاهلية تجاراً مهرة أو بارعين فاتسعت أذهانهم وعظمت أحلامهم وتدربت أو تعودت على معاملة الناس وسياستهم بتدبير شئون المال لهم، وربطوا ذلك بالحج وشئون الديانة الوثنية، فجعلوا مكة محجاً للعرب أجمعين واستفادوا من نظام الأسواق ليجعلوا أسواقهم في الحجاز في موسم الحج. ونهاية العام القمري مجمع العرب ومصب أموالهم، فنالوا بذلك رياسة فكرية دينية مالية، ولكنهم لم يتجهوا في الجاهلية إلى طلب الرياسة السياسية في شبه الجزيرة لأن الرياسة السياسية في تلك العصور ما كانت لتتم إلا بالقوة العسكرية، وكانت قريش أقل حجماً وأضعف قوة من الوصول إلى ذلك.

ثم وقفت قريش من الإسلام موقفها الذي فصلناه أثناء وفي صراعها مع الإسلام انقسمت قسمين: صغير دخل في الإسلام وكبير عاداه، مما أضعف قواها، واستطاع سادتها الوثنيون المحافظة على سيطرتهم على مكة، وظلت كتلة القبيلة متماسكة فيها حتى فتح مكة، فدخلت بقية قريش الإسلام دفعة واحدة عند الفتح كما رأينا.

وقد خسرت قريش في صراعها مع المدينة رياستها الدينية، وعلى الرغم من بقاء الكعبة محجاً لمن استطاع الوصول إليها من العرب، فإن الرياسة الدينية انتقلت إلى المدينة بفضل الإسلام، وابتداء من عمرة القضاء أو عمرة القضية انتقلت الكعبة إلى الإسلام وفقد القرشيون جاههم الديني، وتلاشى هذا السلطان الديني عند فتح مكة ودخول الكعبة أمة الإسلام، وتحول الحج من حج وثني إلى حج الإسلام فتلاشى بذلك إلى غير رجعة عماد القوة الرئيسي الذي أقام عليه عبد المطلب جاه قريش. وفي اثناء الصراع مع أمة الإسلام فقدت قريش معظم أموالها، وفقدت بذلك عماداً من أقوى عمد قوتها وجاهها.

وقد أعاد الرسول صلوات الله عليه وحدة قريش وأدخلها كلها في الإسلام جملة. وبعد وفاة الرسول مباشرة ونتيجة لما وقع في سقيفة بني ساعدة حدث أول انكسار خطير وعميق في وحدة قريش بعد الإسلام، لأن الاتجاه إلى إبعاد علي بن أبي طالب وبني هاشم عن السلطان أحدث صدعاً خطيراً في كيان قريش، ولم يظهر ذلك الصدع في صورته الخطرة أيام أبي بكر وعمر، ولكنه ظهر في خلافة عثمان.

فتنة عُثمان

ثورة مِن جماعات كبيرة مِن العرَب عَلى رياسة قريش:

والذي ظهر في خلافة عثمان يمكن اعتباره على وجه من الوجوه ثورة من العرب على قريش، لأن أقواماً ضخمة من العرب خاضت معارك القتال في

حروب الردة وفي الفتوح، واستشهد منهم ألوف ولكن الرياسة ظلت دائماً بيد قريش. ولنذكر الألوف الذين استشهدوا في معارك فتح العراق، ويكفي هنا أن نذكر معركة الجسر في شعبان ١٣ هـ/ ٢٢ أكتوبر ٦٣٤م التي استشهد فيها أربعة آلاف عربي جلهم من ثقيف وشيبان وتميم، وفقد أربعة آلاف آخرون من نفس القبائل، وكان من بين الشهداء رجل مثل أبي عبيد بن مسعود الثقفي الذي هجم وحده على الفيل وضرب خرطومه وبرك عليه الفيل فقتله، وقد ظل عمر يبكي الى آخر حياته كلما ذكر أبا عبيد. وحتى في معركة البويب (رمضان ١٣هـ/ نوفمبر ٦٣٤م) التي أخذ المسلمون فيها بثأرهم وانتصروا على الفرس، كانت ضريبة الدم التي دفعوها باهظة من القبائل التي ذكرناها مضافاً اليهم بجيلة وكنانة والأزد وتنوخ، وهذه القبائل هي التي تحملت معظم الخسائر ـ في هذه المعركة ـ ولم تخسر قريش الا أعداداً لا تذكر. فقد كانت لها في معظم الأحوال الرياسة والنصيب الأكبر من المغنم ويكفي أن نذكر ما أصاب المثنى بن حارثة الشيباني، فقد كان هذا الرجل ـ مهما قلنا في كفايته العسكرية ـ قريباً جداً من المثل الأعلى الإسلامي اخلاصاً وصدقاً وتفانياً وايثاراً ثم يعزل ويحل محله قرشي ويهمل دون أي تعويض.

ولكن قيادة قريش كانت موفقة رغم انكار جماعات من العرب لرياستها فتم فتح العراق وهزيمة الفرس وفتح الشام، ولكن معظم الفضل يرجع الى الجنود البواسل الذين خاضوا هذه المعارك وجادوا بدمهم دون تردد، ولقد أشرنا الى عظيم فداء الأنصار في حروب الردة لكي يكتب النصر كله لخالد بن الوليد ويكون منه بعد ذلك ما يكون.

ولم يكن العرب الذين خاضوا هذه المعارك لينفسوا على قريش مكانة ولا رياسة ولا مالا، ما دامت الفتوح الكبيرة في طريقها، والمشارك فيها يغنم بعد رضى الله وعظيم ثوابه مغانم وافرة، فمن أدرك ثواب الآخرة فطوبى له ومن عاش وجد عنده مالاً وافراً ينفق منه عن سعة وقد قُدِّر دخل المقاتل العربي العادي

خلال العصر العمري بثلاثة آلاف دينار في العام، فتعود هذه الجندي الانفاق عن سعة وأحس انه سيجد عوضاً طيباً من خيرات الدنيا إذاانسأ اللّه في أجله، فأنفق على أهله عن سعة وأغناه ذلك عن النظر إلى السلطان أو السياسة فتركها لأهلها من قريش ومَنْ ارتضتهم قريش معها في الرياسات وتدبير الأمور.

وكان أبو بكر الصديق قد ساوى بين الناس في تقدير الأرزاق والأعطيات، وقال قولته المشهورة: هذا معاش والتسوية فيه أحسن، ثم جاء عمر وله نظرة أخرى،فأعاد تقدير الأرزاق بحسب السابقة في الإسلام والقرابة من رسول الله ﷺ، فاختلفت حظوظ الناس، وجاءت أرزاق من أسلموا عند الفتح وعام الوفود وما بعد ذلك قليلة، فلا سابقة لهم في إسلام ولا قرابة من رسوله .ولم ينتبه أحد إلى ذلك في حينه، فقد كانت الغنائم وافرة والوارد كثيراً وعرب تميم وشيبان وبكر والأزد وبقية اليمن ومن إليهم لم يشعروا بالتفاوت في الأرزاق، لأنها مهما بلغت كانت قليلة جداً بالنسبة إلى مغانم المحاربين من الأسلاب والأخماس.

ولكن الأمر بدأ يتغير من منتصف خلافة عثمان، فبعد معركة نهاوند لم تعد هناك مغانم ذات بال، فقد انتهى العرب إلى آخر المدائن الغنية في فتوحهم، سواء في الشرق أم الغرب. ففي الشرق وجدوا أنفسهم مشتبكين في حروب مع جماعات قبلية من إيرانيين وأتراك وفي الغرب لم تكن هناك وراء إفريقية بلاد فيها ملوك أو قصور أو أموال، إنما هي قبائل متأبدة في الجبال وغاية ما يكون منها ماشية وسبي، والماشية لا تجد من يشتريها. والسبي أين يباع؟ ولم يكن العرب قد عزموا على فتح بلاد دولة الروم في آسيا الصغرى ليجدوا مغانم ذات قيمة ومنذ السنوات الأولى لخلافة عثمان انحسرت موجة الغنائم الوافرة، والعربي بطبيعته متلف للمال، فهو لم يدخر شيئاً، وفجأة وجد أن الفيض قد غاض وهنا بدأ يتنبه إلى قلة نصيبه من الأرزاق وهي المرتبات.

هذا هو الذي حرك الناس للفتنة على عثمان، ولكن تلك الحركة ما

كانت لتبلغ المبلغ الذي بلغته لولا ما أصاب قريشاً نفسها من تفكك، ومع التفكك ضاعت الهيبة، ومن هنا تجرأ الناس على قريش والخليفة القرشي. ولقد كانت قريش تحكم الناس وتجد عندهم الطاعة والتسليم إلى آخر أيام عمر بن الخطاب، لأن القرشيين كانوا إلى ذلك الحين قوة معنوية كبرى تحنو لها جباه أغنى العرب وغير العرب. وقد روى الطبري باسناد مختلط خبراً من فتوح أرمينية يبدو لنا وكأنه رمز على ما نقول، فقال بعد أن دخل عبد الرحمن بن ربيعة وسراقة بن عمرو بلاد أرمينية، أن المسلمين اجتازوا الباب من هناك أي باب أرمينية في جبال آذربيجان، فتعرض لهم ملك الناحية وكان فارسياً يسمى شهربراز: وسأل قائدهم ما تريد قال «عبد الرحمن بن ربيعة»: أريد بلنجر وهي عاصمة أرمينية قال شهر براز إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب، قال عبد الرحمن بن ربيعة لكنا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم، وتالله إن معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الابعاد لبلغت بهم الروم قال: وما هم؟ قال: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر، بنية، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية فازداد حياؤهم وتكرمهم، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم، ولا يزال النصر لهم حتى يغيرهم من يغلبهم، وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيرهم، فغزا بلنجر غزاة في زمن عمر لم تئم فيها امرأة ولم ييتم فيها صبي وبلغت خيله في غزاتها «البيضاء» على رأس مائتي فرسخ من بلنجر. ثم غزا فسلم، ثم غزا غزوات في زمن عثمان، وأصيب عثمان حين تبدل أهل الكوفة في إمارة عثمان لاستعماله من كان ارتد استصلاحاً لهم[1] فلم يصلحهم ذلك، وزادهم فساداً أن سادهم مَنْ طلب الدنيا وعضّلوا بعثمان حتى جعل يتمثل.

وكنت وعمراً كالمسمِّن كلبه   فَخَدشه أنيابه وأظافره[2]»

(١) يريد مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن على شاكلته ممن أساءوا إلى عثمان وهبطوا بسمعة قريش.

(٢) الطبري، تاريخ ١٥٨/٤.

أما سر هذا السلطان المعنوي العظيم الذي كان لعمر فهو إخلاصه البالغ للإسلام والمسلمين، وجمعه قريشاً تحت جناحه وأخذه بحجزها حتى لا تقع بين رجالها الفتنة فتضيع، والأخبار في هذا أكثر من أن تحصى ولكن ها هنا خبرين أسوقهما مما فعل عمر وأبو عبيدة في عام الرمادة وهو عام ١٨ للهجرة، وقد أصابت أهل المدينة مجاعة وشدة. قال الطبري باسناده «أصابت الناس في إمارة عمر رضي الله عنه سنة بالمدينة وما حولها فكانت تسفي إذا ريحت(١) تراباً كالرماد، فسمي ذلك العام عام الرمادة فآلى عمر الا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس من أول الحيا «المطر»، فكان بذلك حتى أحيا الناس من أول الحيا، فقدمت السوق عُكة من سمن ووَطْب من لبن فاشتراها غلام لعمر بأربعين درهماً ثم أتى عمر فقال «يا أمير المؤمنين قد أبر للّه يمينك وعظم أجرك. قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن فابتعتها بأربعين، فقال عمر: أغليت بهما فتصدق بهما فإني أكره أن آكل اسرافاً، وقال عمر كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يُعنيني ما يمسهم»(٢).

وإليك الخبر الثاني الذي يعطيك مثالاً آخر بليغاً من علو طبقة القرشيين الذين تولوا أمر الناس بعد رسول الله ﷺ وعرفوا كيف يرتفعون بقريش ويؤكدون للناس ـ بخلقهم لا بسلطانهم ـ أن قريشاً جديرة بقيادة العرب في نور الإسلام، وقد عرف رجالها كيف يتمثلون أخلاقيات الإسلام ويضربون المثل العظيم للقيادة الإسلامية الرشيدة، وبهذا المثال قامت قريش بعد عثرتها وعرفت كيف تستعيد مركزها في أعين العرب، قال الطبري باسناده «كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم (في عام الرمادة) فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة عامر بن الجراح في أربعة آلاف راحلة من طعام، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة، فلما فرغ ورجع إليه أمر له بأربعة آلاف درهم، فقال لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين، وإنما أردت الله وما قبله

---

(١) أي تهب عليها إذا هبت الريح.

(٢) الطبري، تاريخ ٤/٩٨.

فلا تدخل على الدنيا، فقال خذها، فلا بأس بذلك إذ لم تطلبه، فأبى فقال: خذها فإني قد وَلِيت لرسول اللّه ﷺ مثل هذا، فقال لي مثل ما قلت لك، فقلت له كما قلت لي، فأعطاني، فقبل أبو عبيدة، وانصرف إلى عمله وتتابع الناس واستغنى أهل الحجاز وأُحيوا من أول الحيا[1]».

بمثل هذا الخلق الرفيع والتهمم بشئون الناس أصبحت قريش إلى آخر خلافة عمر سيدة العرب وقائدة دولة الإسلام الناشئة، وزاد في جاه قريش أن معظم قادة الفتح كانوا منها، فإلى جانب أسماء كبار الفاتحين الأول، أبي عبيدة عامر بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص، برزت أسماء عبدالله بن عامر بن كريز «من بني عبد شمس» وعياض بن غنم بن زهير الفهري وعبداللّه بن سعد بن أبي السرح ونافع بن عبد القيس الفهري ثم ابنه عقبة بن نافع واضرابهم ممن اثبتوا دون مجال للشك أن قريشاً هي قاعدة العرب ومناط وحدتهم ورمز مجدهم. وإلى هذه الفترة يرجع تميز قريش على غيرها من قبائل العرب في القيادة والسياسة والحرب، ولم يؤكد هذه المعاني أحد كما أكدها عمر بن الخطاب فإلى جانب مزاياه العديدة المعروفة للناس تميز عمر بشعور عربي غالب، فكان يرى أن العرب أياً كانت قبائلهم أهل العز والشرف والسؤدد وقاعدة الاسلام، وهو في هذا الاتجاه يسوي بين العرب جميعاً، فهو الذي أيد المثنى بن حارثة الشيباني وأشاد به، وهو الذي اختار أبا عبيد بن مسعود بن عمر الثقفي وسعد بن عبيد الأنصاري حليف بني فزارة لقيادة بعض القوات الذاهبة الى العراق، بل جعل أبا عبيد بن مسعود بن عمرو قائداً للجيش، وعندما خاطبه الناس في ذلك وقالوا له: أَمِّر عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار، كان جواب عمر: «لا واللّه لا أفعل، ان اللّه إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء، فأولى بالرياسة

---

(١) الطبري، نفس المصدر والجزء ص ٩٨.

منكم من سبق إلى الدفع، وأجاب إلى الدعاء! والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً، ثم دعا أبا عبيد وسليط (بن قيس) وسعد (بن عبيد الأنصاري حليف بني فزارة) فقال: أما أنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها إلى ما لكما من القدمة. فأمّر أبا عبيد على الجيش وقال لأبي عبيد اسمع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين، فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف[1]، وبمثل هذا الانصاف والفهم وروح الأبوة والرياسة ساس عمر الناس، وتأكدت بعد أبي بكر أهلية قريش للرياسة واستمر علو شأنها، ولم يتطاول على منافستها أحد، وكان عمر أيام الرسول شديد العصبية لقريش، ولكنه عندما تولى الخلافة نسي عصبيته القرشية وانتقل بحماسة إلى العرب جميعاً.

ولكن قريشاً لم تستمر على هذه الخطة، لأن استمرارها كان يتطلب رجالاً من طراز أبي بكر وعمر، وكان رجل من هذا الطراز موجوداً وهو علي بن أبي طالب، ولكن التيارات داخل جماعة الشورى التي اختار رجالها عمر بن الخطاب انتهت بالخلافة إلى عثمان بن عفان، وكان صحابياً جليلاً ومؤمناً عظيماً ولكنه لم يكن بطبعه مؤهلاً لقيادة الأمور في الظروف الصعبة التي تولى فيها، فالفتوح في طريقها وقبائل العرب في حركة دائمة داخل الدولة، وكانت السيطرة على حركة الفتوح والهجرة الواسعة النطاق تحتاج إلى يقظة بالغة وادراك دقيق لحقائق المناسبة التي كانت أمة الإسلام تعيشها إذ ذاك، ولسنا هنا بسبيل نقد أعمال عثمان أو ابداء الرأي في سياسته وطريقته في اختيار رجاله واعماله والحكم على تصرفات أولئك الرجال، ولكننا ننبه إلى أثر ذلك كله في ظهور الفتنة في منتصف خلافته ثم اتساع مداها بعد ذلك حتى أدت الى قتله في ١٧ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ / ١٦ يونيو ٦٥٦ م وهو حادث بالغ الخطورة والأثر في مسار تاريخ الإسلام وتاريخ قريش.

---

(١) الطبري، تاريخ: ٣/٤٤٥.

ولن ندخل هنا في تفاصيل ما حدث، فهذا يخرج عن نطاق هذا البحث من ناحية، ثم إنه يدخل بنا في مناقشات ومتاهات لا بد من التعرض، لها من قراءة سليمة مستوفية للنصوص، وهنا ليس موضع هذه الدراسة إنما سيكون موضعها كتابنا عن علي بن أبي طالب إذا مد الله في العمر ويسر الأسباب.

والذي يعنينا هنا ونحن نؤرخ لقريش، هو أن الذي حدث ـ أياً كان الرأي فيه ـ أضر بقريش في جملتها ضرراً بالغاً: أضر بالهاشميين وبالعبشميين كما أضر بالوحدة القرشية لأن قريشاً استمدت قوتها وهيبتها ـ عليها قام سلطانها بعد الرسول ﷺ من وحدتها وظهورها أمام العرب جبهة واحدة تملك القيادة وتسير بها في الطريق السوي كما حدث أيام أبي بكر وعمر، فالذي حدث الآن هو أن وحدة قريش تصدعت وبصرف النظر، عمن كان على حق ومن لم يكن في الحوادث التي سبقت مقتل عثمان، فإن أمر الخلاف بين عثمان ونفر من الصحابة، وإنكار هذا النفر لمسلك عثمان أوجد الطريق للكارهين لسيادة قريش من العرب لكي يرفعوا رؤوسهم في وجهها والجرأة عليها، وقريش كانت رئيسة العرب بعد الإسلام وحتى لو كانت رياستها سليمة عادلة ومنصفة، فإن الرياسة في ذاتها تخلق الخصوم والأعداء وخاصة في نفوس العرب، وهم قوم أهل أنفة وكبرياء يعسر عليهم الانصياع بعضهم لبعض، إذ إن طمع العربي يجعله يشعر أن وجود أية رياسة عليه عدوان على شخصيته وكرامته وهذا أمر شائع في الجماعات القبلية جميعاً، حيث تأبى الوحدات القبلية سيادة بعضها على بعض ويحس شيوخها أن مجرد قبولهم لأي صورة من صور رياسة واحد منهم على الباقين فيه عدوان عليهم مهما كان نوع هذه الرياسة ومهما بلغ من عدلها أو استقامتها. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك في مقدمته في حديثه عن العرب أولاً ثم عن البربر ثانياً ولسنا بحاجة إلى ذكر إشارة ابن خلدون في هذا المقام، فتلك الحقيقة الخاصة بطبيعة القبائل ورياستها حقيقة مسلم بها في علمي التاريخ والاجتماع.

وكانت أنظار العرب كلها متجهة لقريش متحفزة لإنكار رياستها إذا

وجدت إلى ذلك سبيلاً والدولة بعد ذلك حديثة والنظام جديد واندراج العرب في نظام سياسي واحد كان شيئاً لم يألفه العرب في الجاهلية، وكانت أيسر وجوه التصدع في صفوف القيادة القرشية كافية لأن تفتح الطريق أمام الكارهين لقريش والمبغضين لرياستها لتحديها، وكانت المناقشات التي دارت بين عثمان وعلية الصحابة، وما وجهوه إليه من نقد تصل إلى الناس مع ما لا بد منه من تضخيم وتشويه وتحريف، وإذا كان كبار الصحابة أنفسهم لم يسمحوا لأنفسهم بإطلاع الناس على ما يثور بين رجال القيادة القرشية من خلاف، فإن رجالاً من كبار الصحابة من غير قريش لم يطيقوا الصبر على ما رأوه مما تصوروه أنه انحراف عن الجادة وتحدثوا به في أوساط الناس، ويكفي أن نشير هنا إلى عبدالله بن مسعود وعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري، وذلك إلى جانب الكثيرين من الأنصار الذين لم يكونوا راضين عن الوضع أصلاً وهؤلاء جميعاً كان لهم عند العرب قدر ومكانة فهم صحابة أجلاء وهم في نظر العرب الذين أسلموا عام الوفود أو بعده، أصحاب سابقة في الإسلام ولا يقلون عن قريش مكانة، فإذا تكلموا في نقد قريش وسوء تصرف بعض رجالها وما كان من انحراف عثمان في رأيهم عن الجادة وتركه أهل بيته يتصرفون في شئون الدولة وأموالها، فإن الناس يصغون لهم ويرون معهم أن قريشاً لا حق لها في هذا الانفراد برياسة المسلمين ما دام الخليفة الثالث منهم قد انحرف عن سواء السبيل .

وأسوأ من ذلك بالنسبة لمصير قريش نقد كبار القرشيين بعضهم لبعض واجتهادهم في إظهار معايب عثمان وأخطائه وخطورة انفراد بني أمية بقيادة أمة الإسلام، وهؤلاء النفر من الصحابة قرشيون وغير قرشيين والذين تكلموا في عثمان وآل بيته كانوا في الحقيقة يضعفون من شأن قريش جملة ويغرون الناس بها ويؤكدون في أذهانهم أن إمامة الأمة تكون في الأصلح من المسلمين قرشياً أو غير قرشي، وهنا نظن أنه نشأت عبارة الأئمة من قريش التي تحولت إلى حديث نبوي نجده مروياً في معظم الصحاح، والعبارة في ذاتها لا يمكن أن تكون

حديثاً نبوياً لأن رسـول الله ﷺ الذي عـانى ما عـانى من عناد القيـادة القرشيـة وأنانيتها، ورأى بنفسه أن غير القرشيين كانوا اسرع فهما للإسلام وأعمق إيمـاناً به من القيادة القرشية في مكـة، ما كـان ليقول الأئمـة من قريش لا عـلى معنى أن الإمامة هي الإمامة الدينية، أي إمامة الصلاة، أو الإمامة السياسية. فأما الإمامة الدينية فقد أناب الرسول عن نفسه في المدينة عند خروجه منها إمامـاً أنصارياً، أو رجلاً ضريراً من المهاجرين هو عبدالله بن أم مكتوم، وأما الإمامة بمعنى الرياسة السياسية فقد كان هم الرسول متجهاً إلى بناء المسلمين أمة وأفراداً بناء داخلياً أي إيقاظ الضمير والإحساس بفضيلة الأمة، وفضيلة كل فرد من أفرادها عنـد كل مسلم، والقـرآن يقصد إلى ذلـك في المكان الأول بتـوجيهه الكلام إلى الإنسان تارة وإلى جماعة المؤمنين تـارة أخرى، لأن الغـاية الأسـاسية هي بناء المؤمن الصحيح، وهو أساس أمـة المؤمنين القـوية المتمـاسكة بـالإيمان القائمة على وحدة الإيمان المرتبطة بحبل الله المعتصمـة به والله سبحـانه يتكفـل بهدايتها إلى الطريق السوي ويمكّنها من اختيار قيادتها الصالحة وقـد حدث هـذا عندما توفي الرسول ﷺ ، فإن الأمـة عرفت طـريقها واستقـر أمرهـا على قيـادة جماعية يرأسها أبو بكر وهو أصلحها لتولي أمورهـا. وأبو بكـر لم يتجه إلى حكمْ الناس بل اتجه إلى مواصلة السير بالجماعة في طـريق الرسـول ﷺ دون نظر إلى رياسة أو مظهر رياسة، وكان الرأي للأمة أثناء خلافته، وعلى نفس الطريق وإنما بأسلوب آخر ـ سار عمر، فإن عمر لم يكن يحكمُ الناس وإنما كان يضرب المثل ويمثل القدوة. ولم يكن عمـر رغم عروبتـه الظاهـرة يتحيز لقـريش، بل لمـا فيه صالح الأمة، وقد رأينا مثلاً واحداً في اختياره لعبيـد بن مسعود الثقفي للقيـادة وتفضيله على السابقـين من المهاجـرين والأنصار لأنـه كان أسـرع منهم انتدابـاً لنفسه للحرب، وقد فصلنا موقف عمر في تلك المناسبة.

التصدّع الخطر في القيادة القرشيّة :

والذي حدث عند مجيء عثمان كـان شيئاً جـديداً لم تـرض عنه الأمـة،

فلم يعد الخليفة أو الإمام قدوة في نظر الجميع، بل أطلقت شكوك كبيرة حول ملكاته وقدراته الإدارية وكان البادئون بالشك قدماء المهاجرين والأنصار، وهم كانوا في مجموعهم يمثلون قيادة الأمة على اعتبار أنهم أعرف الناس بطريق رسول اللّه ﷺ وأقدرهم على السير فيه. أي أنهم كانوا ممن تستمع الأمة الى ما يقولون. ولا يهم هنا عدد الذين لم يكونوا راضين عن عثمان وإدارته من هؤلاء، لأن المهم هو أن القضية طرحت، والشك في قدرات القيادة القرشية تطرق إلى القلوب وتلقته اذان صاغية من العرب ممن كانوا على شيء من المعرفة بشئون السياسة والحكم من أمثال أزد يمامة وعبد القيس وشيبان وبكر وتغلب وغسان، وهؤلاء جميعا دخلوا الإسلام متأخرين سنة تسع للهجرة وربما قبلها بقليل، ولم يكن لقريش عليهم فضل ولم يكن يبرر طاعتهم لقريش إلا إذا استطاعت قريش أن تثبت لهم أنها أصلح الفئات لقيادة أمة الإسلام. أما الآن وقد تسرب الشك الى النفوس وتسامع الناس بما يقال من أن الخليفة القرشي عثمان يدير شئون الدولة لصالح بيته، فإن المناخ السياسي في الدولة بدأ يتغير، وسواء أصدقت تلك الشائعات أم لم تصدق، فالمهم أنها أصبحت مطروحة بين الناس، وأيدها نفر من الصحابة، واعين أم غير واعين.

واستمع إليهم الناس ووجدت عند الكثيرين منهم قبولاً، والدولة وسياستها كانت أموراً جديدة جداً على العرب جميعاً بمن فيهم القرشيون، ولم يعرف أهل القيادة والقدرة أن أي كلمة منهم كان لا بد لها أن تحدث صدى خطيراً في أذهان الناس. وعمرو بن العاص مثلاً عندما كان يوجه النقد الشديد لعثمان كان لا يعرف أنه بنقده هذا يمهد لقتل عثمان، ويكفي أن نضرب هنا مثالاً بموقف خزاعة، وخزاعة كانت قبيلاً هاماً جداً في ذلك الحين، لقد كانت خزاعة قبيلة يمنية الأصول وميولها من أول الأمر كانت يمنية، وكانت نافرة من قريش، لأن قريشاً أخرجتها من مكة، بل أشاع القرشيون في الجاهلية ما شاءوا من الأقوال للإزراء بخزاعة. وأقوالهم في عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي الذي

قيل إنه أول من غير دين اسماعيل ودعا العرب الى عبادة الأصنام وأحفاده من بني قُمير بن حُبْشية بن سلول، وابنه أبو غبشان حُلَيِّل بن حبشية بن سلول الذي يقال إنه باع مفتاح الكعبة من قصي بن كلاب بزق خمر. كل هذه الأقوال التي كانت تطلقها قريش في مجالسها عن خزاعة كانت تحدث شدوخاً عميقة في نفوس الخزاعيين.

خزاعة هذه التي خاصمت قريشاً بسبب ما فعلته فيها أيام قصي بن كلاب، كسبها عبد المطلب بن هاشم إلى جانبه وثبتت بعد ذلك مع الهاشميين وقيل إن عبد المطلب عقد معهم حلفاً وكتب كتاباً، ثم انضمت خزاعة إلى الإسلام وأخلصت لله ورسوله وانضم الفريق الأقوى منها، فريق بريدة بن الحصيب الأسلمي إلى رسول اللّه وصار من علية أصحابه، وكان الخزاعيون من بني كعب بن عمرو «عيبة نصح» لرسول اللّه وهم الذين دخلوا في حلف أمة الإسلام بعد صلح الحديبية في حين انضم بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة الى قريش، وكان عدوان هؤلاء على بني كعب الخزاعيين هو الذي حرك مسير رسول اللّه ﷺ لفتح مكة، وفي مسيره إليها لقيه بنو كعب عند قديد وأظهروا ما عرفوا به من الولاء فاعتبرهم جميعاً مهاجرين أي من قومه سواء هاجروا إلى المدينة أم لزموا مواضعهم، وبعد فتح مكة دخل فريق عدي بن عمرو بن عامر بن لحي بزعامة بديل بن ورقاء في الإسلام.

وطوال أيام الرسول ﷺ في المدينة كان بريدة بن الحصيب الأسلمي من أقرب الناس الى علي بن أبي طالب الذي كان يمثل الفرع الهاشمي بين الصحابة، وكان صاحب لوائه في مسيرته الى اليمن، وعندما صارت الخلافة لعثمان خرج بريدة بن الحصيب وقومه الى البصرة، وكان لهم بعد ذلك دور عظيم في تاريخ خراسان.

هؤلاء الخزاعيون لم يرضهم عثمان ولا سياسته، وما شاع وذاع بين

العرب من تحكيمه آل بيتـه من بني أمية في رقـاب المسلمين وهم معـذورون إذا صدقوا ما ترامى إليهم وساء ظنهم في قيادة قـريش الأمويـة، وكان معـظم أهل الأخمـاس من أهل البصـرة تبعاً لـرأي خزاعـة وسيدهـا بـريـدة بن الحصيب، وعندما رحل بريدة ومن معه إلى خراسان كانوا قد نفضوا أيديهم من قريش بني أمية، وإن ظل ولاؤهم لقـريش بني هاشم وسيكـون لذلـك أبعد الأثـر في قيام الدعوة الهاشمية التي تحولت إلى عباسية على ما هو معروف.

وهذا ما كان من شأن خزاعة ـ نتيجة لاستبداد بني أمية ـ على عظيم صلتها بقريش، فإن خزاعة مهما كان من أمرها هي حجازية، فما بالنا بتميم وغطفان وهوازن وبقية فروع قيس عيلان بن مضر من عرب وأعاريب، وكلهم كانـوا منكرين لمكانة قريش بين العرب ثم سيادتها للعرب برسول الله ﷺ، بل ما بالنا بموقف من لم يكونوا مضريين أصلاً مثل الازد وبقية قبـائل اليمن ممن ظلوا في منازلهم في اليمن ونواحي الجنوب أو هاجروا منها إلى الحجـاز وباديتي الشـام والعراق ونجد ؟

هؤلاء جميعاً ـ وعلى درجة متفاوتة ـ أحسوا بتصدع جبهة قريش ونزعوا ثقتهم منها، والحقيقة هي أن جبهة قريش تصدعت أثناء خلافة عثمان، وإذا كانت قريش هي قيادة العرب أو صفوتها القائدة فإن التصدع هنـا تصدع في القيادة والرأس وهو أخطر أشكال التصدع في الرياسات والقيادات، وتصدع بناء الدول بالتالي. وقد تحدثنا بتفصيل في ذلك في كتابنا الحضارة في مجال عرضنا لآراء المؤرخ المعاصر أرنولد توينبي عندما تعرض في دراسته المشهورة للتاريخ لموضوع تصدع الأمم والجماعات والدول وتـدهورهـا[1]، وهو الـذي يسميه تـوينبي بتصدع الصفوة القائدة وتصدع جبهة قريش وهي الصفوة القائدة أدى بالضرورة إلى تصدع جبهة العرب، وهم كانوا الفئة القائدة في أمة الإسلام، وأعقب ذلك بدايات تصدع أمة الإسلام جملة. وفتنة عثمان كانت بداية الصدع الخطير في بناء

(١) انظر كتابنا: الحضارة، الكويت ١٩٧٧ ص ٢٥٢ وما يليها.

أمة الإسلام، وهو تصدع لم يرأبه أحد قط بل تزايد مع الزمن، وكـانت أولى ضحاياه قريش نفسها: هي التي انشقت على نفسها ومهـدت الطريق بـذلك لضياع أمرها جملة.

ونقف لحـظة عند ما ذكرنـاه وما يسمى عـادة بفتنة عثمـان، فإن دارس التاريخ الإسلامي يعرفها ويراها فيما كان من قيام الناس على عثمان وقتله، ثم ما كان من الحروب الأهلية بين علي ومعاوية، التي انتهت بقيام الدولة الأموية. وقيامها كان صدعاً هائلاً في جبهة قريش وشدخاً خطيراً في بناء أمة العرب، لأنه أعز فريقاً من قريش والعرب وأذل فريقاً، وإذا كانت أمة العرب إذ ذاك من القوة بحيث لم تشعر شعوراً عميقاً بالكسر الذي أصابها فإنها لم تلبث أن شعرت به عندما هدأ حماس الفتوح وتناثر العرب في نـواحي دولة الإسـلام الكبرى. هنـا وبعد سقوط دولة بني أمية لم يكن في الحقيقة قد بقي لقريش إلا الإسم العظيم والجاه المنمق. أما قريش القائدة، قريش الصفوة فقد تلاشت مع الأيام

قـُريش تهـْدم قـُريشـًا:

وفي الصراع السياسي المحتدم بين بني أميـة وخصومهم، أسـاءت قريش إلى نفسها أضعاف ما أساء إليهـا غيرهـا، فإن السيـاسة أعمت عيـون بني أمية تماماً وأنستهم قرشيتهم فكانوا شراً على قريش من ألد أعدائها، ولننظر مثلاً فيما فعله يزيد بن معاوية ورجاله للقضاء على عبدالله بن الزبير، ومن انضم إليه من أهل الحجاز ومكة والمدينة، وفيهم قرشيون كثيرون، فقد أحب يزيـد أن يبعث جيشاً على رأسه عمرو بن سعيد بن العاص وكـان عامله عـلى الحجاز ثم عـزله وأراد الآن أن يعيده فقال: «قد كنت ضبطت لك البلاد، وأحكمت لك الأمـور فأما الآن إذ صارت إنما هي دماء قريش تهراق بالصعيد، فلا أحب أن أكـون أنا أتولى ذلك، يتولاها منهم من هو أبعد منهم مني قال: فبعثني (يزيـد) بذلـك

الكتاب إلى مسلم بن عقبة المري ـ وهو شيخ كبير ضعيف مريض ـ فدفعت إليه الكتاب فقرأه وسألني عن الخبر فأخبرته، فقال لي مثل مقالة يزيد، أما يكون بنو أمية ومواليهم وأنصارهم بالمدينة ألف رجل! قال: قلت: بلى يكونون قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار! ليس هؤلاء بأهل أن ينصروا حتى يجهدوا أنفسهم في جهاد عدوهم وعز سلطانهم، ثم جاء حتى دخل على يزيد فقال: يا أمير المؤمنين لا تنصر هؤلاء فهم الأذلاء دعهم يا أمير المؤمنين حتى يُجْهِدوا أنفسهم في جهاد عدوهم وعز سلطانهم، ويستبين لك من يقاتل منهم على طاعتك ويصبر عليها أو يستسلم: قال ويحك إنه لا خير في العيش بعدهم فأخرج فأنبئني نبأك فخرج مناديه فنادى: سيروا إلى الحجاز على أخذ اعطياتكم كملاً ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل وساعته، فانتدب لذلك اثني عشر ألف رجل(١).

ويزيد بن معاوية بن أبي سفيان القرشي يرسل هذا الجيش للقضاء على من خلع طاعته من أهل المدينة وعلى رأسهم عبدالله بن حنظلة الغسيل، فحنظلة الغسيل هو ابن حنظلة بن عبد عمرو أبي عامر الفاسق، وكان حنظلة الغسيل هذا من خيرة المسلمين على خلاف أبيه أبي عامر الفاسق من بني عمرو ابن عوف الأوسيين وقد استشهد حنظلة في أحد وقيل إن الملائكة غسلته فسمي بحنظلة الغسيل، وابنه عبدالله هذا قاد أهل المدينة في وثوبهم على يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هجرية، فوثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومن معهم في المدينة من بني أمية، فحاصرهم الناس في دار مروان بن الحكم «حصاراً خفيفاً»، والآن يريد أن يعاقب أهل المدينة فلا يجد من يختاره ليقوم بذلك الآن إلا مسلم بن عقبة ابن رباح وهو من بني مرة بن سعد بن ذبيان، وذبيان من أعاريب نجد من قيس عيلان بن مضر، ويزيد لا يأنف أن يقول له هذا المري الذبياني أن المحاصرين من بني أمية في المدينة «هؤلاء هم الأذلاء» مع أن ذبيان كانت من أشد قبائل أعاريب نجد حسداً لقريش وعناداً للإسلام، وهذا الرجل سار في ناس كثيرين من

---

(١) الطبري ٥/٤٨٢ ـ ٤٨٣ وما بعدها.

أعاريب نجد من عبس وذبيان وغطفان ليفتكوا بأهل المدينة من الأنصار ومن انضم اليهم من القرشيين في الثورة على يزيد، ومسلم بن عقبة المري بعد أن قتل عبدالله بن حنظلة وقطع رؤوس من معه من الأنصار دعا الناس للبيعة على أنهم خَوَلٌ ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم ما شاء[1] يزيد ينسى هنا أنه يذل الأنصار ونفراً من قريش وهم قومه.

ومسلم بن عقبة المري الذبياني كان يحارب أهل المدينـة ومكة وفي نفسه مرارة بالغة على قريش، ومن المؤكد أنه كان يعبر عن حقد القبائل غير القرشية على قريش. ومن أوضح الدلائل على ذلك هذا الخبر الذي يرويه الطبري عن عوانة بن عبد الحكم قال: وأما عوانة بن الحكم فذكر أن مسلم بن عقبة بعد أن انتصر على أهل المدينة «بعث عمرو بن محرز الأشجعي (من أشجع بن ريث بن غطفان) فأتاه بمعقل بن سنان (القرشي) فقال له مسلم: مرحباً بأبي محمد: أراك عطشان قال: أجل قال: شُوبوا له عسلاً بالثلج الذي حملتموه معنا ـ وكان له صديقاً قبل ذلك ـ فشابوه له فلما شرب معقل قال له: سقاك الله من شراب الجنة: فقال له مسلم: أما والله لا تشرب بعدها شراباً أبداً حتى تشرب من شراب الحميم: قال أُنشدك الله والرحم: فقال له مسلم: أنت الذي لقيتني بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد فقلت: سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفراً! نرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق، ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين! فيم غطفان وأشجع من الخلع والخلافة أني آليت بيميني لا ألقاك في حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت: ثم أمر فقتل[2]».

فكأن مسلم بن عقبة المري الذبياني. وهو من ذبيان من قبائل أعاريب

---

(١) الطبري ٥/٤٩٥.
(٢) الطبري ٥/٤٩٢ ـ ٤٩٣.

نجد الحاقدة على قريش، كان يشتد على قريش لأن بعض القرشيين كانوا يرون أن أعاريب غطفان وأشجع ومن إليها لا دخل لهم في شئون السياسة وليس لهم أن يتدخلوا في شئون تولية الخلفاء وعزلهم، فهذا شأن قريش وحدها.

وإليك برهاناً على حقد مسلم بن عقبة المري على قريش: قال هشام (بن السائب الكلبي) حدثني عوانة (بن الحكم) قال: دعا الناس مسلم بن عقبة بقباء إلى البيعة (ليزيد) وطلب الأمان لرجلين في قريش: ليزيد بن عبدالله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوي (من بني عدي قوم عمر بن الخطاب) فقال: بايعا: فقال القرشيان نبايعك على كتابِ الله وسنة نبيه، فقال: لا والله لا أقيلكم هذا أبداً: فقدّمهما فضرب أعناقهما: فقال له مروان: سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا ليُؤَمِّنا فضربت أعناقهما: فنخس بالقضيب في خاصرته ثم قال: وأنت والله لو قلت بمقالتهما ما رأيت السماء إلا برقة [1]. ومروان هذا هو مروان بن الحكم سيد بني مروان وبني أمية كلها، يخاطبه هذا المري الذبياني بهذه الجرأة التي لا تخلو من احتقار.

بل هناك ما هو أدل من ذلك على حقد ذلك الرجل على قريش طُراً وإليك هذا الخبر يرويه الطبري: «قال هشام وذكر عوانة أن فيمن خرج عمرو بن عثمان لم يكن فيمن خرج من بني أمية (للقاء مسلم في المدينة) وأنه أتي به يومئذ إلى مسلم بن عقبة، فقال يا أهل الشام تعرفون من هذا: قالوا لا، قال هذا الخبيث ابن الطيب: هذا عمرو بن عثمان بن عفان ابن أمير المؤمنين، هيه يا عمرو! إذا ظهر أهل المدينة قلت: أنا رجل منكم، وإن ظهر أهل الشام قلت أنا ابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان فأمر به فنتفت لحيته. ثم قال: يا أهل الشام إن أم هذا كانت تُدْخل الجُعل في فيها ثم تقول يا أمير المؤمنين حاجيتك ما في فمي؟ وفي فمها ما ساءها وناءها فخلى سبيلها وكانت أمه من دوس[2]».

(١) الطبري ٥/٤٩١ ـ ٤٩٢: يريد ما رأيت السماء إلا طرفة عين.

(٢) الطبري ٥/٤٩٤.

وبعد وقفة الحرة في ٢٨ ذي الحجة ٦٣ هـ واستسلام المدينة وإذلال أهلها أنصاراً ومهاجرين، اتجه مسلم بن عقبة إلى مكة ليستولي عليها ويقضي على عبدالله بن الزبير الذي كان يسميه الكافر، توفي في المحرم سنة ٦٤ هـ فدعا الحصين بن نمير السكوني (والسكون من كندة) «فقال له يا ابن برذعة الحمار، أما والله لو كان هذا الأمر إليّ ما وليتك هذا الجند، ولكن أمير المؤمنين ولاك بعدي وليس لأمر أمير المؤمنين مرد. خذ عني أربعاً: أسرع السير، وعجل الوقاع وعمّ الأخبار ولا تمكن قرشياً من أذنك، ثم أنه مات فدفن بقفا المشلل»[١].

وهنا يتجلى لنا سبب كراهة مسلم بن عقبة المري وخليفته لأهل المدينة ومكة. فهي في لبابها عداوة لقريش إنها مظهر من مظاهر حقد أعاريب قبائل قيس عيلان بن مضر على قريش سليلة الياس بن مضر، وإذا أضفنا إلى ذلك أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي أوصى ابنه يزيد باستخدام مسلم بن عقبة إذا عصاه أهل الحجاز تبينا كيف أن جشع السياسة استولى على عقل معاوية بن أبي سفيان وجعله لا يحفل لمصير قريش ليحافظ على عرشه لنفسه ولابنه، فلو قلنا هنا أن قريشاً هي التي هدمت قريشاً ما جاوزنا الحقيقة، وإنه لمن العجيب أن تحافظ قريش الكافرة في الجاهلية على وحدتها وتسير في طريقها قوة واحدة مجتمعة، ثم تجيء الخلافة بعد ذلك وما تعنيه من قوة سياسية ومال وجاه، فتعمي عيون القرشيين وينتابهم هذا السعار الذي رأينا بعض أطرافه. والأمر هنا لا يقتصر على بني أمية وما فعلته ببني هاشم، بل إن الذي قاد الجيش الذي قتل الحسين بن علي وآله كان يقوده عمر بن سعد بن أبي وقاص وهو قرشي، والحسين وآله الذين استشهدوا في يوم كربلاء كانوا قرشيين، استشهدوا وماتوا على أيدي قرشيين بسبب السياسة ومطامعها.

وسنرى شبه ذلك في تصرف ابراهيم الإمام بن علي بن عبدالله بن

---

(١) الطبري ٥/٤٩٦.

عباس الذي دبر مع أبي مسلم أمر نقل الدعوة من بني علي إلى بني العباس، فقد أوصاه بأن يتحاشى المضريين جميعاً من أهل خراسان وأن يعتمد على الأزد والموالي، وهنا أيضاً نرى كيف أن قريشاً هدمت قريشاً.

انتِقال وَلَاء المسُلمين الىَ قريش بَني هَاشِم يش بني عبد
وَنهَاية قـُريش بَني عَبدشمسْ :

إذن فإننا نستطيع أن نقول وبدون دخول في التفاصيل إن فتنة عثمان كانت بداية النهاية بالنسبة لسيادة قريش، حقاً أن دولة بني أمية قامت واستمرت معها سيادة قريش في عالم الإسلام، ولكن بني أمية لم يكونوا كل قريش، أما بقية قريش ومعها بقية أمة الإسلام فقد استبد بها الضيق ببني أمية، وما زال الضيق يتزايد حتى كانت الثورة العباسية، وهي كانت من ناحية القيادة ثورة قرشية، أما من حيث تكوين صفوفها وطبيعة الغالبية العظمى ممن حملوا لواءها فقد كانت ثورة على قريش كلها وحرباً على قيادتها لدولة الإسلام، وليس بغريب والحالة هنا أن نجد موقف العرب والمسلمين من بني أمية وسيادتهم يعود بذاكرة المسلمين وعواطفهم إلى موقف الجانب الفاضل من قريش، ـ جانب حلف الفضول ـ من الجانب الطامح والطامع من قريش الذين كان يمثلهم بنو عبد شمس وبنو مخزوم وهم جماعة الأحلاف أو لعقة الدم، فكأن الصدع القديم في صفوف قريش الجاهلية قد عاد إلى الظهور في قريش الإسلام، ولكن التصدع هنا كان عميقاً واسع الشقة لأن موضوع الخلاف بين الجانبين في الجاهلية كان يسيراً هيناً وهو سيادة مكة، أما الآن فإن موضوعه سيادة دولة الإسلام، وإذا كانت أمة الاسلام في هذا الصراع الجديد لم تقف وراء بني هاشم وقوفاً واضحاً صريحاً أول الأمر حتى مقتل علي بن أبي طالب، فقد تجمعت القلوب كلها إلى جانب بيت علي وبني هاشم جملة بعد مصرعه الأثيم، وهذه النهاية الحزينة هي التي جمعت القلوب حول أبناء علي، وبان بوضوح أن قريشاً تتصدع خاصة وأن مواقف بعض كبار الصحابة من القرشيين من أمثال

الزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله زعزعت في أذهان الناس الصورة الجميلة التي نشأت عن سياسة أبي بكر وعمر، ثم قتل الزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله في صراع سياسي صريح على السلطان وهما يقاتلان زعيماً صحابياً قرشياً ثالثاً هو علي بن أبي طالب، ثم استشهد علي بن أبي طالب وبقي معاوية ابن أبي سفيان سيد الموقف، فالتقط الخلافة وكأنها هدية سيقت إليه، وقد تسنم ذروة الخلافة غير واثق من نفسه أول الأمر وتركته الأمة يستقر ويثبت دعائم سلطانه لا تسليماً له، بل رغبة في المحافظة على وحدة الأمة التي تصدعت وهددتها الأخطار. فاستمرأ معاوية المرعى وتحول إلى حاكم مستبد وتعدى هو ورجاله على الأموال والأبشار وأخاف الأمة وظهر في نظرها في مظهر الطاغية المستبد، وإذا كان معاوية قد مثل إذ ذاك زعامة قريش فقد خاب ظن الناس في هذه الزعامة، وكانت تلك هي أقوى ضربة أصابت زعامة قريش، فقد نزع الناس ثقتهم منها وإن ظلت الآمال معلقة بالجانب المنهزم من قريش جانب الهاشميين.

ثم كانت واقعة كربلاء أيام يزيد واستشهد جماعة من أهل البيت على رأسهم الحسين بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء على يد رجال يزيد بن معاوية سليل بيت عبد شمس، وقد كان بيت علي بن أبي طالب قرشياً ولكنه كان شيئاً آخر أعظم من ذلك في نظر الأمة، إنهم آل البيت، آل بيت رسول الله ﷺ، وآل بيت كل مسلم، فإن العدوان عليهم كان عدواناً على كل مسلم على حدة وهو عدوان على عترة الرسول ﷺ، وهذا العدوان قد تم على يد الرياسة السياسية القرشية وتم على صورة لم تكن لتخطر قط ببال مسلم، وقريش في الجاهلية وفي عنفوان عدائها للإسلام لم تجرؤ على أن تمس رسول الله ﷺ بأذى يذكر، ولكن بني أمية القرشيين المسلمين أقدموا على ما لم يقدم عليه أبو جهل الكافر، فلا عجب إن تلاشت هيبة قريش من نفوس الناس وعادت إلى أذهان النابهين من أفراد الأمة ذكريات موقف الغالبية من الزعامة القرشية من علي بن أبي طالب وقوله إن قريشاً تكرهني، فانفضت

القلوب من حول الزعامة القرشية الأموية والتفت حول الهاشميين لا على أنهم من قريش بل على أنهم عترة الرسول وأهل بيته ورمز للمظلومين من رجال أمة الإسلام.

وقد ارتبطت بالزعامة القرشية الأموية مظالم وبشاعات أخرى زادت أمة الإسلام نفوراً منها، فكان استشهاد الحسين رضي الله تعالى عنه في العاشر من المحرم سنة ٦٣هـ وغزو المدينة على يد رجل من ذبيان كاره لقريش ورياستها، وقد رأينا ماذا فعل هذا الرجل بالأنصار والقرشيين بما فيهم أمويون، ثم حصار مكة على يد رجل من السكون من كندة، وكل هذا كان بأمر الخليفة الأموي القرشي وكانت موقعة الحرة ومصارع أجلاء الصحابة من الأنصار ونفر من المهاجرين، واقتحم جند بني أمية مدينة الرسول ﷺ وقتلوا وسَبَوْا واستهانوا بحرمة الكعبة، فكأن قريشاً الوثنية أدركت في ذلك اليوم من الإسلام ما لم تدركه من المدينة يوم أحد. وتفاصيل هذه الأخبار كلها واردة عند الطبري وغيره بتفاصيل كثيرة وليس إلى الشك سبيل في أن هذه الأحداث أياً كانت الدوافع إليها كانت كلها بعيدة الأثر عميقة الشدوخ في تاريخ الإسلام كله. فاستشهاد الحسين رضي الله عنه كان المولد الحقيقي لحركة الشيعة، فما من حادث نزل بآل البيت كان أوجع للمسلمين من ذلك الخطب الجليل، وما من مسلم إلا أصيب في صميم نفسه في ذلك اليوم فانعقدت على أثر هذه الجريمة عقدة الشيعية وأصبح لديها سبب واضح ملموس، وكاف لجمع القلوب وكسب الأنصار، لأن العدوان على الحسين وآله على النحو البشع الذي وقع به كان صرخة الثورة على الحكم الأموي، لأن المسلمين إذا سكتوا على ذلك استشرى الشر وعم البلاء فلم ينج منه مسلم وارتبطت هذه الفعلة البشعة بأسماء قادة عرب من قريش، فإن الخليفة الذي تمت بأمره قرشي وعبيد الله بن زياد الذي قام بالتنفيذ منسوب إلى قريش وإلى بيت السفيانيين من بني أمية، وكان قائد الجيش الذي فتك بالحسين عمر بن سعد بن أبي وقاص قرشي وهو ابن واحد من أجل

الصحابة. كان هؤلاء هم الذين مثلوا السلطان القرشي إذ ذاك، فقد حلت تبعة الجريمة كلها على قريش وكان المصابون فيها من قريش أيضاً.

ولن ندخل في تفاصيل تلك الحادثات الشنيعات، فكلها أياً كان نصيب الروايات التي أتتنا بخبرها من الصحة أو المبالغة فإنها كلها تشين قريشاً وتدل على أن قريشاً بالفعل لم تحسن قيادة العرب فقد انحرفت عن الطريق لأول محنة واختبار. والكلام هنا لا ينصب على بني أمية بل على العرب جميعاً في قيادة قريش لأن الأمور إذا كانت قد صارت إلى بني أمية ثم إلى يزيد بن معاوية منهم، فهذا كان نتيجة تصرف قريش ورأيها، فمن قريش كان عثمان، وقريش كانت تستطيع حماية عثمان لو أرادت، وقريش هي التي أيدت أول الأمر اختيار علي بن أبي طالب، وقريش هي التي اختلفت حوله والناس لها في ذلك كله لقريش تبع، وعندما كان رأس قريش أبو بكر رشدت ورشد الناس معها، وعندما كان رأسها عمر رشدت وهديت ولكن قريشاً في جملتها كانت متجهة اتجاهاً ظاهراً نحو السلطان، وتلك كانت تركة السقيفة، فإذا كان أبو بكر وعمر قد استطاعا أن يغلبا الدين على الدنيا في حكومتيهما فإن بعض أهل الشورى لم يكن منهم من قوة العزم والزهد في الدنيا ما يمكنهم من أن يكونوا شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، ولقد كانوا حقاً خيرة المسلمين من قريش وكان فيهم من يستطيع أن يسير في الأمة بهدى الرسول، ولكنهم مالوا إلى غير ذلك قصداً وهم يعلمون، ونحن هنا لا نقول رأياً بل نحكم بالواقع والنتائج، لأن الأمور إذا كانت قد سارت في طريق الوبال، فإن الذين اتخذوا القرار في اجتماع الشورى كان يمكن أن يكونوا قد جانبهم الصواب عند اتخاذه، وإلا فكيف سارت الأمور في هذا الاتجاه الخطر إذا كانوا قد اتخذوا القرار عن تقدير سليم لمسؤليتهم ونحن نكتب مثل هذا التاريخ لندل المسلمين على ما يمكن أن يكونوا قد وقعوا فيه من خطأ لعلهم ينتفعون بما يقرأون، وإذا كنا نكتبه لمجرد التماس الأعذار لمن تقع عليهم المسئولية، فإننا لن نرشد بعد ذلك أبداً.

وليس من المعقول أن تقع الأمة كلها في هذا الشر ثم لا يكون هناك مسئول إلا أن تكون لعنة من الله قد قدرت علينا وحاشى لله أن يكون ذلك، فنحن بعد أمة الإسلام وأمة الله وأولى الناس بالرحمة إذا كنا نستحقها.

وإذا أردت أن تستبين وجه الحق فيما نقول فإنني أضرب مثلاً واحداً من الواقع، فإننا إذا كنا لا نعلم على وجه الحق ماذا دار في اجتماع الستة، فإن لدينا حادثاً نعرفه ويمكننا الاستفادة منه، فقد كان سعد بن أبي وقاص أحد الستة، وقد ألقى بصوته في الناحية التي ارتضاها، ثم كان ابنه عمر بن سعد ابن أبي وقاص من قادة بني أمية، وعبيد الله بن زياد عندما أراد أن يسيره لقتل الحسين وآله بدأ فأقامه عاملاً على الري، وهي ولاية واسعة غنية جنوبي بحر قزوين عرفت كذلك باسم طبرستان، وفي مكان مدينة الري تقوم اليوم طهران، فلما صار عمر بن سعد بن أبي وقاص صاحب هذه الولاية وتعلق قلبه بما سيناله فيها من خير ورزق، أمره عبيدالله بن زياد بأن يمضي بأربعة آلاف للقاء الحسين ومن كان معه من آل البيت وأنصارهم وهم لا يزيدون على مائة مقاتل وأراد عمر ابن سعد بن أبي وقاص أن يعفيه عبيد الله بن زياد من محنة قتل الحسين فقال له عبيدالله: على أن ترد لنا عهدنا أي أن تتنازل عن ولاية الري، أي أنه خيره بين الولاية مع الجريمة أو تجنب الجريمة ولا ولاية. وهنا نجد هذا الرجل محيراً بين الدين والدنيا وبين الضمير والكسب، وأخيراً زلت به نفسه إلى الدنيا عندما رأى إصرار عبيدالله بن زياد، يقول الطبري راوياً عن أبي مخنف: «فلما رآه قد لج قال: فإني سائر قال: فأقبل في أربعة آلاف حتى نزل بالحسين من الغد من يوم نزل الحسين نينوى، غير بعيد من موضع كربلاء»[1].

فهذه صورة من الواقع تريك حقيقة مواقف بعض هؤلاء الرجال وتوزع أنفسهم بين الدين والدنيا، وقد يكون شعورهم بهذا التوزع قليلاً لأنهم جميعاً

(١) انظر التفاصيل عند الطبري: ٥/٤٠٩ وما بعدها.

كانوا يحسبـون أنهم على بينـة من أمرهم أو أنهم كـانوا إلى جـانب الحق وهم في الحقيقة بعيدون عنه. ونادراً ما كانوا يدركون ذلك أو يعترفون به. وأن الإنسان ليدهش كيف كان القـوم جميعاً يحسبـون أنفسهم على الحق ويستعينـون بالله في أمورهم،حتى الذين ذهبـوا لقتل الحسـين كانـوا يتحدثـون عن التقى والإيمـان ويسـألون الله التـوفيق فيما هم بسبيله، وهـذه حالـة من خداع النفس لا تكـاد تصـدق. ثم نجيء نحن بعد ثـلاثة عشر قـرنـاً من هـذه الأحـداث فنتعصب جانب دون جانب ونقطع بأن الحق كله كان هنا وأن الباطل كله كان هناك، وهو موقف فيـه أيضاً الكثـير من خداع النفس أو التمـاس السلامـة، ولكنه لا يحترم الحقيقة التاريخية ولا يعـين القارىء عـلى الرؤيـة الواضحـة وبدون رؤيـة واضحة لا تاريخ جديراً بأن يسمى تاريخاً.

والذي يستوقف النظر ويدعو إلى العجب أن قريشاً التي حسبت الإسلام سيـاسة أول الأمـر، فأحجمت عن الـدخول فيـه كما رأينـا في حالـة أبي جهـل وأصحابه، لم يتغير موقفها هذا بعـد دخولـه. فقد جهـد الرسـول طوال الفتـرة المكية في إقناعهم بأنه ليس طالب ملك أو سلطان سياسي أو مال، وإنما هو داع إلى هداية، فأصروا على موقفهم وكان هذا فـراق ما بينهم وبينـه حتى هجرتـه، فلما أنشأ الرسول الكريـم أمته في المدينة حرص على أن يجعلها بناءً دينياً أخلاقياً معنوياً، جانب السياسة والكسب المادي فيه قليل وهو حتى بعد أن أدرك النصر المؤزر وتم له فتح مكة وأتته القبائل طائعة مسلمة لم يغير الأمر من دين إلى سياسة وفي كل تصرف من تصرفاته ظل دائماً الداعي إلى الله بـإذنه، البشـير النذيـر والسراج المنير، وانظر إليه في مكة بعد فتحها تر فيه النبي المرسل ولا ترى فيه الـرئيس الـدنيـوي قط وأصحابنـا الـذين يتحـدثـون عن محمـد رئيس الدولة يُشبهون أولئك القرشيين في تصورهم السياسي في دعوة محمد، ويستـدل بعضهم على أن محمداً أقام دولة الإسلام بأنه كان له صلوات الله عليه «عمال» على مكة واليمن واليمامة والبحرين مثلاً، ولفظ عـامل هنـا يؤخذ بمعنـاه الذي

كان له بعد الرسول وهو الحاكم أو الوالي، والحقيقة أن العامل أيام الرسول هو العامل على الصدقات أي المشرف على إخراج الناس إياها المتقبل لما يخص الله ورسوله والجماعة منها، وكذلك ما يخص العاملين أو العمال من الصدقات وهو جد قليل فعمال محمد صلوات الله عليه لم يكونوا حكاماً، وأوضح مثل لذلك هو عتاب بن أسيد الذي أقامه على مكة وهو ابن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ولم يكن حاكماً على مكة وإنما مجرد عامل على صدقات أهلها، ولم يكن لديه أي تكليف سياسي حتى إنه عندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وارتجت مكة وتفاقمت حركة المتنبئين وأهل الردة لم يقم عتاب بأي دور سياسي إذ لم تكن له وظيفة سياسية، وإنما قام بذلك رؤساء قريش وسادتها الحقيقيون بعد أن أسلموا وأعلنوا أنهم يقفون إلى جانب الأمة وأبي بكر، ولم يحفل أحد منهم بعتاب أو يقم له وزناً بل لم يطالبه أبو بكر بأي دور سياسي، وعندما توافد كبار القرشيين على أبي بكر ليشتركوا في حروب أهل الردة لم يتحرك عتاب ولا ساءله أبو بكر في ذلك، بل تركه على عمل الصدقة حتى مات أبو بكر وعندما قام أهل الردة لم يعتد أحد منهم على المصدقين أو العمال، لأنهم لم يكونوا ولاة ولا حكاماً، وأبو بكر نفسه لم يكتب إلى أحد منهم كتاباً يكلفه فيه بأي عمل سياسي أو عسكري.

وذلك كله ناتج من أن الرسول في إنشائه الأمة لم يجعلها قط دولة، ولم يحولها من أمة الإيمان إلى دولة السلطان، لأن مناط قوة الأمة في إيمانها وتآخيها وتمسكها بحبل الله وعروته الوثقى التي لا انفصام لها، فكل فرد من أفراد الأمة خادم لهذا المثل الأعلى ورسول الله كان يُؤمِّر من يشاء من أصحابه على سراياه وبعوثه، فإذا انتهت السرية انتهت معها الإمارة وعاد الأمير عضواً عادياً في الأمة لا لقب يحمله ولا راتب يفرض له، والجماعة تسوس نفسها بالخير والبر ومراعاة المثل الأعلى وهو الله سبحانه والأسوة الحسنة في ذلك هي الرسول صلوات الله عليه، فهو المثل الأعلى في صورة إنسان من البشر. وعندما اتسع

نطاق الأمة وشملت شبه الجزيرة كلها وأقبلت الوفود إلى رسـول الله أتت لتعلن دخولها في الدين والخضوع لشريعته، ولم يطالب رسول الله وفداً من الوفـود بأن يقر بطاعة سياسية لشخصه، وأمامك كتبه التي أعطاها لمن طلب ذلك ممن وفدوا عليه لا تجد فيها أي معنى سياسي، إنما هي تثبيت لقواعد الإسلام في قلوب الناس وحض لهم على التمسـك بتلك القواعـد، وتثبيت لحقوق كـل قوم في أرضهم التي كانت لهم وتأمين لهم فيها وتحريم العدوان عليهم. إذ إن المفروض والمطلوب من المؤمنين أن يسـوسوا أنفسهم بـأنفسهم وأن تكون فيهم أمـة أي جماعة منهم تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتواصـل الجهاد في سبيـل الله، فإذا كانت هناك قيادة فهي قيادة جماعية وقيـادة أبي بكر كـانت جماعيـة وهو نفسـه لم يتصور أنه صار رئيساً يأمر وينهي، ولم يفكر في أن يكون له راتب، بل لم يخـطر بباله أن ينقطع للإمامة وإنما كان الناس هم الذين طلبوا إليه ذلك طواعيـة دون أن يروا فيه حاكماً ومُعَيَّناً، ومضى يسوس جمـاعتهم سياسـة جماعيـة، يستشير في كل حين ويأخذ بما يشير به الناس عليه.

وعمر أيضاً سار على مذهب القيادة الجماعية وهو لم يمارس سلطانَـه على أنه رئيس بل مستحث للناس على المسارعة إلى القيـام بالـواجب، وعندمـا دعا الناس إلى التطوع لفتوح فارس اختـار من تقدم متـطوعاً، واختـار أبا عبيـد بن مسعود، وعندما طلبوا إليه أن يؤمر عليهم واحداً من أهل السابقة إلى الإسـلام أبى وقال كلمته التي سبق أن ذكرناها: لا والله ما أفعل إن الله رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو فإذا جبنتم وكرهتم اللقـاء فأولى بـالريـاسة منكم من سبق إلى الدفع وأجـاب إلى الدعـاء والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتـداباً. وبـالفعل ولى أبا عبيد بن مسعود بن عمرو وهو من بني غيرة بن عوف من ثقيـف، وليست لدينا حالة واحدة اعتسف فيها عمر بن الخطاب طـريقه وتصـرف برأيـه دون استشارة، وقد حدث مراراً أن استشار ولم يأخذ برأي من أشاروا عليه ولكنه كان يعـرف ويعتـرف في تلك الحـالات بـأنـه يـتصـرف عـلى مـسئوليتـه

ويتحمل هذه المسئولية، وكان شعوره بالأمة ومسئوليته عنها وأمامها عظيماً عميقاً، لقد روينا كيف اختار أبا عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي لقيادة الحرب في العراق مع المثنى بن حارثة ولكنه إذ بعثه أمره بأن يستشير قال: «اسمع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف[1]». وعندما اختار عمر أبا عبيد بن مسعود اختاره على مسئوليته وأبو عبيد أعجبه اختيار عمر إياه فتفانى إلى النهاية وأخذ عن عمر درس الإخلاص للأمة والإحساس بأنه جزء منها لا تميزه القيادة عن إخوانه المسلمين بشيء، فقد حكى الطبري بأسناده قال «لما هزم جالنوس (قائد الفرس) وأصحابه دخل أبو عبيد باروسما ونزل هو وأصحابه قرية من قراها، فاشتملت عليهم، فصُنع لأبي عبيد طعام فأتي به، فلما رآه قال: ما أنا بالذي آكل هذا دون المسلمين! فقالوا له: كُلْ فإنه ليس من أصحابك أحد إلا وهو يؤتى في منزله بمثل هذا أو أفضل، فأكل فلما رجعوا إليه (أي أصحابه) سألهم عن طعامهم، فأخبروه بما جاءهم من الطعام»[2].

وهذه القدوة الحسنة أخذها الناس عن عمر وهذه أيضاً هي روح القيادة بمعناها الإسلامي الذي أخذه عمر عن رسول الله ﷺ وأخذه الناس عن عمر: فإذا كان رسول الله يوم فتح مكة قد أعفى قريشاً من كل مسئولية عن موقفها المعادي للإسلام قبل الفتح وترك لها الباب مفتوحاً لتدخل دين الله فدخلت، فإن أبا بكر هو الذي أخذ بيد زعماء الكفر السابقين وعهد إليهم في القيادات فبدأت قريش تستعيد رياستها للعرب، وبفضل أبي بكر أهلت قريش نفسها لتستحق هذه القيادة في ظل الإسلام ثم جاء عمر فضرب ذلك المثل الرائع في

---

(١) الطبري، تاريخ ٣/٤٤٥.
وتفسير هذه: لا تسرع إلى الحركة حتى تتبين طريقك لأن الحرب لا تنفع فيها السرعة الموجاء وإنما يصلح لها الرجل الصبور الذي يروي أمره ويعرف متى ينتهز الفرصة ومتى يكف.
(٢) الطبري، ٣/٤٥٢.

القيادة القرشية، ومعظم ما تمتعت به قريش من جاه بين العرب والمسلمين، راجع إلى المثل العظيم الذي ضربه أبو بكر وعمر، وإليك مثل رائع عن اقتداء الناس بعمر في خلقه وقيادته وإخلاصه للمسلمين الصادقين وتفانيه في حبهم، قال الطبري في حديثه عن معركة القرقس بين العرب والفرس وتسمى قس الناطف والجسر والمروحة أيضاً، وهي معركة خسرها المسلمون، ولكن تصرف المسلمين فيها كان أروع من كل نصر، قال الطبري: «فلما رأى أبو عبيد ما يصنع الفيل قال: هل لهذه الدابة من مقتل، قالوا نعم: إذا قُطع مشفرها ماتت فشد على الفيل فضرب مشفره فقطعه، وبرك عليه الفيل فقتله». وقال أيضاً «فرجعت الفرس (أي كروا على المسلمين وحصروهم في موضع ضيق يحيط به الماء وأصابوا منهم مقتلة كبيرة) ونزل المثنى بن حارثة أُلَيْس، وتفرق الناس فلحقوا بالمدينة (أي فروا حتى دخلوا المدينة) فكان أول من قدم المدينة بخبر الناس عبدالله بن زياد بن الحصين الخطمي، فأخبر الناس» ثم يقول الطبري بعد اسناد آخر عن عائشة رضي الله عنها «سمعتُ عمر بن الخطاب عندما قدم عبدالله بن زيد فنادى: الخبر يا عبدالله بن زيد: قال: أتاك الخبر يا أمير المؤمنين فلما انتهى إليه أخبره خبر الناس. فما سمعت برجل حضر أمراً فحدث عنه كان أثبت خبراً منه فلما قدم فلُّ الناس (أي فلول المنهزمين) ورأى عمر جزع المسلمين من المهاجرين والأنصار من الفرار، قال: لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فئتكم. إنما انحزتم إليّ» وفي خبر آخر «أن معاذاً القارىء أخا بني النجار كان ضمن من شهدها ففر يومئذ فكان إذا قرأ هذه الآية ﴿ومن يُولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾[1] بكى، فيقول له عمر: لا تبك يا معاذ! وأنا فئتك وإنما انحزتَ إليّ».

---

(١) سورة الأنفال ٨/١٦.

أبو بكر كان يعرف مطامع القرشيين ويحذرهم منها :

وهذا التراث العظيم الذي خلفه عمر لقريش، من خلق سام وإسلام شامل عميق وفهم وثيق لمعنى الرياسة والقيادة ومسئولياتها، ضيعته قريش في برهة زمان أو في لا زمان «كما يقول الإنجليز»، فإن عمر رضي الله تعالى عنه توفي طعيناً شهيداً في ٢٩ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ/ ٦ نوفمبر ٦٤٤ م. وبدأ اجتماع أهل الشورى، وخلال الأيام القليلة التي دامتها مشاورات أهل الشورى بدأ الصدع الخطير الذي لم يرأب حتى اليوم لأن أهل الشورى فيما يبدو لم يقدروا خطورة الأمر الذي وكل إليهم: أمر اتخاذ القرار فيه، ولا شك في أن كلا منهم كان يعرف أصحابه حق المعرفة ويعرف من أقدرهم على ولاية أمر الأمة وأن الهوى مال بهم عن هذه الغاية، وما نقول هذا من عندنا ولكن سبقنا أبو بكر الصديق إلى قول مثله، فقد خاطب أولئك القوم يحذرهم من الهوى وهو على فراش موته بعد أن وقع اختياره على عمر، فقد روى الطبري بسند يرجع إلى عبد الرحمن بن عوف: قال الطبري إنه (أي عبد الرحمن بن عوف) «دخل على أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه في مرضه الذي توفي فيه فأصابه مهتماً: فقال عبد الرحمن أَصْبَحْتَ والحمدلله بارئاً! فقال أبو بكر رضي الله عنه أتراه ؟ قال: نعم، قال: إني وليت أمركم خيركم في نفسي، فكلكم وَرِمٍ أنفه من ذلك،) يريد أن يكون الأمر له دونه)، ورأيتم أن الدنيا أقبلت ولم تقبل وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد المصنوع (وسائد) الديباج وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذري (في أذربيجان) كما يألم أحدكم أن ينام على حسك، والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا وأنتم أول ضال بالناس غدا فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالاً. يا هادي الطريق إنما هو الفَجر أو البجر (الأمر العظيم) فقلت له (والمتكلم هنا عبد الرحمن بن عوف) خَفض عليك رحمك الله، فإن هذا يهيضك (يضعفك) في أمرك. إنما الناس في أمرك بين رجلين: إما رجل رأى ما رأيت فهو معك وإما

رجل خالفك فهو مشير عليك وصاحبك (يريد عمر) كما تحب ولا نعلمك أردت إلا خيراً ولم تزل صالحاً مُصلحاً وأنك لا تأسى على شيء من الدنيا»[1].

وكلام أبي بكر يدل دلالة واضحة على أنه يعرف ما كان يجري في أذهان أصحابه، فكلهم كان يريدها لنفسه وكلام عبد الرحمن بن عوف ليس فيه تسليم بما أمر به أبو بكر من اختيار عمر. فإذا كانت هذه هي حقيقة الموقف بالنسبة لعمر فكيف والله يرشحون علياً أو أي رجل آخر كان من الممكن أن يحملهم على الطريق. ولسنا هنا في موقف المفاضلة بين صحابي وصحابي فكلهم عندنا من أهل الرضا، ولكن الذي وقع بالفعل أنهم رشحوا عثمان، وهم يعرفون أن إمارة عثمان هي إمارة بني أمية والرجل كان محاطاً بأهله دائماً قبل خلافته وبعدها، فقد كانوا دائماً أهل رأي ومشورة ولم يكن هناك شك في أنه سيستعين بهم، وكانت في الكثيرين منهم كفاية في شئون الحرب والإدارة، وكان فيهم تطلع للرياسة وهذه صفة قديمة معروفة في بني عبد شمس جميعاً. وأبو بكر وعمر اختارا منهم الكفاة لأعاظم المسئوليات، ولكن أبا بكر وعمر كانا أقوى من أن يصرفهما عن الجادة إنسان فلم يكن هناك ضير في الانتفاع بهم، وأما عثمان فكان بعيداً عن ذلك ثم أنه كان عليل الصحة، عالي السن ولأسابيع فحسب من ولايته أحسَّ الذين اختاروه أنهم لم ينصفوا في الاختيار.

أجل ولم ينصفوا قريشاً بذلك وهذا هو الذي يعنينا في هذا المقام، لأن قريشاً استحوذت على الرياسة بفضل المثل العظيم الذي ضربه أبو بكر وعمر وكان لا بد لقريش أن تسير في هذا الطريق إذا أرادت أن تدوم لها الرياسة، أما وقد عجزت عن ذلك وقصرت فيه وأسلمت قيادة الأمة إلى بيت شديد العصبية القبلية، شديد التهافت على الدنيا والسلطان والجاه فقد مهدت الطريق بذلك لضياع أمرها.

---

(١) الطبري، تاريخ ٣/٤٢٩ ـ ٤٣٠.

وقد ضربنا لذلـك أمثلة أوضحها مـا كان من أمـر استشهاد الحسـين بن علي وآله في كربلاء، ومع أن الذين حسبـوا أنفسهم المنتصرين في تلك المأساة كانوا قـرشيين، إلا أنـه غاب عنهم أن هيبـة قريش انصـدعت في ذلك اليـوم، لأنها انقسمت على نفسها انقساماً خطراً واستعان بعضها على بعض بجند مرتزق من أجلاف الأعراب واستحل بعضهم بعضهم دماء بعض فهانت دماؤهم جميعـاً على الناس، ولا يقال هنا إن عرب الشام انتصروا على عرب العراق من أنصار علي بن أبي طالب لأنهم كانوا أشجع أو أشد إيماناً بقضيتهم، وإنما نقول إن ذلك يرجع إلى أن جند الشام كان جنداً نظامياً مدرباً في حين أن جند علي بن أبي طالب كانوا رجالاً متطوعـين من أهل الكـوفة في الغـالب فهم يحاربـون احتساباً، حرب المتحمس غير المتمرن للحرب، والحرب حرفة كغيرها، يحسنها المتدرب عليها المجرب فيها، وقد كان رسول الله ﷺ يعرف هذه الحقيقة، فهو يوم استقر في المدينة وبدأ ينشيء الأمة عرف أنها لا بد أن تكون أمة مناضلة أي ما يسمى في مصطلح اليوم بلفظ «مليتانت» وإلى هذا الإدراك البعيد يرجع اهتمامه الدائم بتدريبه رجال الأمة على القتال واختيار المؤهلين بطبعهم للقيادات، وقبل معركة بدر كان المسلمون قد خاضوا ثماني معارك وثامنتها وهي سرية نخلة كانت أبعدها مدى وأطولها نجعة فقد وصلت إلى حدود حرم مكة وكان فيها قتال وقتل مع قريش، وبعدها مباشرة نزلت آية القتال. والثلاثمائة ونيف الذين ساروا للقتال في بدر كانوا جيشاً نظامياً مدرباً على الحرب عارفاً بما ينبغي لها، بل كان فيهم رجال عمليات عسكرية أو تكتيكيون كما نقول ذوو فهم لطبيعة الحرب وأساليب إدارة المعارك، وخبر الحُباب بن المنذر بن الجموح في وضع خطة المعركة معروف، وكان هناك بشير بن سعد وكان من الموهوبين في قيادة الحروب وقد وصل بـه الرسول ﷺ إلى مستوى رفيع من المهارة العسكرية، هذا إلى جانب الإيمان الذي لا غنى عنه، أما القرشيون فكانوا سادات أهل فروسية ونخوة ولا زيادة، ولهذا فإن المعركة لم تدم في حقيقة الأمر إلا بعض ساعات وبقيتها إلى الظهـر كانت معركة أبي جهل أي معركة القضاء عليه، فقد أصر المسلمون على قتله واستأسد

قومه للدفاع عنه وقتل منهم سبعة عشر رجلاً في معركة الدفاع عنه وأخيراً سقط، وعندما سقط سقطت معه الجاهلية.

مسؤولية علي بن أبي طالب

وقد تعودنا أن نلقي مسؤولية الفتنة كلها على بني أمية ويفوتنا هنا أن نذكر أن علي بن أبي طالب عندما قامت الفتنة الحقيقية عقب مبايعته بالخلافة في ١٧ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ كان ولي أمر هذه الأمة، ولا بد أن يكون له جانب من المسؤولية عما حدث، فإن بداية الفتنة عليه كانت انكار طلحة والزبير وبعض أتباعهما للبيعة التي أعطوها إياه في المدينة وقد فعلا ذلك بمجرد وصولهما إلى البصرة. ولحقت بهما عائشة رضي الله عنها. وعندما أصر علي على عزل ولاة عثمان تصدى له معاوية وتشجع بما فعل طلحة والزبير وعائشة. وقد تسرع علي بن أبي طالب فخرج بمن معه إلى الكوفة ليقضي على فتنة طلحة والزبير في البصرة. وقد غاب عنه أن مركز الفتنة الحقيقية كان في دمشق ولم يضر علياً شيء مثل الذهاب إلى الكوفة، ولو أنه تدبر أمره لبقي مكانه في قاعدة خلافته وندب الناس لقتال معاوية، بل ربما كان أحجى لو أنه دعا معاوية مثنى وثلاثاً وأطلق له بعض الوقت ليروي أمره، وفي نفس الوقت كان يستطيع أن يستدعي الناس لنصرته، ولم يكن موقف علي في المدينة إذ ذاك بأسوأ من موقف أبي بكر عند الردة، ولكن أبا بكر ظل مكانه ودعا الناس فلبوا دعوته فرتب الجيوش واختار القادة وبقي هو في قاعدة خلافته، لأن بقاء رئيس الأمة في عاصمته أعون على النصر، ولو تريث علي شيئاً وبعث يدعو الناس للبيعة فقد كانت المدينة لا زالت مركز كبار الصحابة وكان هناك الأنصار مستعدين لتأييده وفي مثل هذه المواقف لا ينفع الرئيس شيء مثل الروية والتدبر والثبات في موضعه ليتجمع حوله الناس، وللمدينة هيبتها ومعظم العرب كانوا مستعدين لنصرته، ولم يكن الناس في كل مكان راضين على ولاة عثمان، ولو بقي علي في

المدينة لاحتفظ بوزنه لأنه بين قوم لهم في الإسلام سابقة وفضل، وكان معه من قريش عدد عظيم، ومهما بلغ من أمر طلحة والزبير فـما كانـا فيما نـظن بمهددين لعلي في المدينة، فلو أقام وتأهب وجمع إليه الناس لتكفلت هيبتـه وهيبة الخـلافة ومكانة المدينة بكسب المعركة، ومن المكاسب على أي حال أن جلة قريش كانوا في الحجاز، بل إن بعض بني أمية وخاصة مروان بن الحكم وبقية آل بيته لم يكونوا راضين عن معاوية وما فعل ومن المعروف على أي حال أن صاحب السلطان إذا أقام في عاصمته كان ذلك أضمن لقوته واستمرار هيبتـه، وهيبة ولي الأمـر هي أكبر عماد له في تثبيت سلطانه.

أما وقد خرج من المدينة فقد تـرك وراءه قاعـدة خلافتـه وسلطانه وهيبـة المدينة ومكة والأنصار وجلة المهاجرين وذهب إلى جماعات من المقاتلة معظمهم من تميم وكندة والأعاريب لم يعـرفوا رسـول الله ﷺ ولا امتلأت قلوبهم بهيبـة الصحـابة وجـلال المدينـة، والحق أن عليّ بن أبي طـالب عندمـا وصـل ذا قار واستقر بها يستعد لدخول الكوفة نشعر أن الأمـر خرج من يـده. وكل يـوم يرد عليه ناس لا يدري حقيقـة ما في نفـوسهم ونجده بعـد أن ترك قـاعدة سلطانـه يحاول أن يقنع الناس ويجمعهم تحت رايته ليقضي على الفتنـة، ولكن أي ناس، لقـد كان عـرب الكـوفـة إلى الأمس القـريب ينـظرون إلى قـريش نـظرتهم إلى القـائـد، أمـا الآن وقـد تـرك عـلي قـاعـدتـه وألقى بنفسـه بينهم فهم يتعللون ويتتايعون ثم يجرؤ ناس منهم عليه من أمثال مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي وشبث بن رِبعي والأشعث بن قيس الكندي ويجترئون عليه بما لا يليق، فعندما تبينت لعلي خدعة التحكيم نهى أصحابه هؤلاء عن الاستجابة لها فيقول له «مِسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي ثم السنبسي، في عصابة معهما من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا علي أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفـان، إنه علينـا أن نعمل بمـا في كتاب الله عـز وجل فقبلنـاه والله لتفعلّنها أو لنفعلنها بك.

قال: فاحفظوا عني نهيي إياكم واحفظوا مقالتكم لي. أما أنا فإن تطيعوني تقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم! قالوا لـه: فابعث الى الاشتر فليأتك[1]».

فهل كان يمكن أن يسمع علي بن أبي طالب مثل هذا الكلام لـو أنه بقي في المدينة في دار الهجرة وقاعدة الدولة وبين جلة الصحابة والمهاجرين والأنصار الذين يعرفون قدره وإن اختلف بعضهم معه في الرأي، ولكنه الآن مع أولئك الأجلاف الذين خدعهم معاوية وأصحابه بمكيدة الاحتكام إلى كتاب الله، وهل كان علي منذ تولى الخلافة إلا على كتاب الله.

وكما قلنا إن طلائع العصيان الجاهل على علي بدأت بعد استقراره في الكوفة، بين ناس من العرب لا يعرفون قدره وليس لديهم أي تقدير لمركز الخلافة وصاحبها، ومن هنا فقد جرؤوا عليه وتطاول بعضهم عليه منذ البداية وظن بعضهم أن الخليفة محتاج لعونهم معتمد عليهم، وصدرت عن بعضهم أقوال مثل: قال قائل: «علام قتلنا الشيخ (يريد عثمان) إذ اليمن لعبيد الله بن عباس والحجاز لقثم (بن العباس) والبصرة لعبدالله (بن عباس) والكوفة لعلي[2]» وكلما طال به الأمر في ذي قار ثم في الكوفة اشتد النقد وتبين على أنه دخل فيما يشبه المغامرة، ويسيطر على الموقف من دونه رجال من أمثال مسعر بن فدكى الذي ذكرناه ثم يخرج عليه الخوارج ويبايعون من دونه عبدالله بن وهب الراسبي والأمر يزيد بعد ذلك سوءاً.

ونحن منذ خرج علي من المدينة نرى قريشاً تقاتل قريشاً وجماعات العرب يلتفون حول هـذا وذاك من رجالات قريش، والقصة طويلة وردت إلينا في روايات شتى والذي يعنينا من أمرها في بحثنا هذا أن قريشاً فقدت هيبتها جملة، ففي كل جانب من المتقاتلين من قريش جماعة من العرب يملكون زمام الأمر. ونضيف هنا أنه حتى عندما ينتصر معاوية لا يحسب هذا النصر لقريش.

---

(١) الطبري: ٤٩/٥.

(٢) الطبري، تاريخ ٤٩٢/٤.

والنصوص كثيرة عن جرأة هؤلاء الأعراب على علي وتصورهم أنهم عماده بل هدده بعضهم بتسليمه إلى أعدائه، وما كان شيء من ذلك ليحدث لو أن علياً قرّ في مكانه في المدينة، واستدعى الأنصار والناس ليؤيدوا خليفة المسلمين وهنا كان يستطيع أن يرسل رجلاً يختاره على رأس جيش ليقضي على معاوية في الشام فتنتهي الفتنة، أما ذلك الخروج من المدينة إلى الكوفة والإعتماد على جماعات من العرب ما كان لهم قط أن يكونوا أصحاب الرأي في ذلك الموقف الحرج فقد أضر بقضية علي وبمركز الخلافة ضررا بليغاً، ويبدو على الجملة أن السياسة لم تكن ميدان علي بن أبي طالب إنما هو رجل فضيلة وفضل وعلم وبسالة في القتال، ولا شك في أن علياً شعر بخطئه في الخروج من المدينة إلى الكوفة عندما استقر هناك وسط أولئك الأعراب، ولم يكن الكثيرون منهم مقاتلين، وإنما هم كانوا راحلين من قلب الجزيرة إلى الكوفة ليتوجهوا منها إلى المهاجر حيث يلحقون بذويهم وأبناء قبائلهم فيها. فالموجودون منهم في الكوفة اليوم قد لا يكونون موجودين غداً. أما أهل الكوفة أنفسهم فلم يكونوا بمقاتلين ولا كانوا على استعداد ليقاتلوا في سبيل علي، إنما هم أهل معايش ومتاجر وخدمة، وهؤلاء لا شأن لهم بقتال وإذا كانت تصرفات بني أمية وتهافتهم على السلطان قد كانت ذات أثر بعيد في سقوط هيبة قريش وافتراق أمرها، فلا بدّ أن نضيف هنا أن عليّ بن أبي طالب لولا أنه خرج من مدينة الرسول ﷺ وترك هيبتها وراءه لما تيسر لهم ذلك.

بنو أميّة ونصيبهم في القضاء على هيبة قريش:

ونأتي هنا في سياق هذا الكلام على خروج الأمر من يد قريش بلمحات من عدوان أعاريب نجد أعداء قريش على المدينة وأهلها، واجترائهم على الكعبة المكرمة بأوامر من الخلافة الأموية، لنرى كيف أن آل سفيان وآل مروان قد ضحوا بشرفهم جملة لكي يصلوا إلى ما اعتقد رجالهم أنه نصر لهم وفوز بالسلطان والرياسة وهو في الحقيقة عين الهزيمة.

ذلك أن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ظن أنه عندما أرسل مسلمَ بن عقبة المري ثم الحصين بن النَمر الكندي لاقتحام المدينة وقتال الأنصار ثم انتهاك حرمة مكة في ذي الحجة سنة ٦٣ هـ، ظن أنه يكسب كسباً سياسياً عظيماً أو عندما نفذ ذلك المري الكافر الجافي القلب ما أمر به يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان، وقام بهذه الشناعة التي هي وصمة في جبين المسلمين جميعاً. كان في الحقيقة يحطم قريشاً بقريش ويشفي غليله بالعبث بالقرشيين، فلننظر الآن موقف هذا الرجل من سادته بني أمية، ولنذكر هنا أن أهل المدينة الذين أنكروا بيعة يزيد بن معاوية لم يكونوا كلهم من الأنصار بل كان فيهم قرشيون ومهاجرون أيضاً، والمعرة التي لحقت بأهل المدينة نتيجة لموقعة الحرة تلحق هؤلاء جميعاً. وكان مروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان ونفر من بني أمية في المدينة فدعاهم مسلم بن عقبة المري إلى خيانة أهل المدينة والانضمام إليه والإشارة عليه بما يعرفون من عورات المدينة، فأما مروان بن الحكم فلم يرض، وأما عبد الملك بن مروان فقد استجاب ودخل في خدمة رجل مرة. قال الطبري راوياً عن ابن مخنف وعبد الملك بن نوفل: «وقد كان أهل المدينة قد اتخذوا خندقاً في جانب المدينة ونزله منهم جمع عظيم وكان عليهم عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف ابن عم عبد الرحمن بن عوف المري، وكان عبدالله بن مطيع على ربع[1] آخر من جانب المدينة، وكان معقل بن سنان الأشجعي على ربع آخر في جانب المدينة وكان أمير جماعتهم عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري[2] في أعظم تلك الأرباع وأكثرها عدداً».

قال هشام (بن السائب الكلبي) «وأما عوانة بن الحكم الكلبي فيذكر أن عبدالله بن مطيع كان على قريش من أهل المدينة. وعبدالله بن حنظلة الغسيل

---

(١) المراد بالربع هنا قسم من المدينة.

(٢) هو ابن حنظلة بن أبي عامر الراهب الذي يسميه المسلمون بالفاسق وقد قتل حنظلة هذا في موقعة أحد وقيل إن الملائكة غسلته فسمي بغسيل الملائكة.

على الأنصار، ومعقل بن سنان على المهاجرين[1]».

وقد انهزم أهل المدينة في ذلك اليوم الأسود لأنهم كانوا مؤمنين متطوعين يقاتلون جنداً مرتزقاً مدرباً على الحرب مزوداً بالحراب والنّبل أضعاف ما كان عند أهل المدينة، وقد أصاب القرشيين: أمويين وهاشميين من أهل المدينة في ذلك اليوم قدر ما أصاب الأنصار، واقرأ الخبر التالي «قال هشام: حدثني عوانة قال: دعا النّاسَ مسلم بن عقبة المري بقباء إلى البيعة، وطلب الأمان لرجلين منْ قريش: ليزيد بن عبدالله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوي ولمعقل بن سنان الأشجعي، فأتى بهما [الصواب بهم] بعد الوقعة بيوم، فقال بَايعا فقال القرشيان: نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه، فقال: لا والله لا أقيلكم هذا أبداً فقدمهما فضرب أعناقهما، فقال له مروان (بن الحكم): سبحان الله اتقتل رجلين من قريش أتيا ليؤمنا فضربت أعناقهما فنخس بالقضيب في خاصرته، ثم قال وأنت والله لو قلت بمقالتهما ما رأيت السماء إلا برقة.[2]

بل حدث لقريش ما هو أسوأ من ذلك على يد هذا الرجل، وجدير بالذكر هنا أن هذا المري ينتسب إلى مُرة بن عوف بن سعد بن ذبيان من غطفان فهو إذن ابن عم عيينة بن حصن الفزاري، وطالما لقيت فزارة ومرة الهوان على يد قريش قبل الإسلام وبعده، فقد أتى بيزيد بن زمعة (من بني أسد بن عبد العزى) «فقال: بايع قال: أبايع على سُنة عمر، قال اقتلوه. قال: أنا أبايع، قال لا والله لا أقيلك ٦٦٧ع فكلمه مروان بن الحكم لعهد كان بينهما، فأمر بمروان فوجئت عنقه ثم قال: بايعوا على أنكم خَوَلٌ ليزيد بن معاوية ثم أمر به فقتل»[1].

(١) الطبري، ٥/٤٨٧.
(٢) الطبري، ٥/٤٩١ ـ ٤٩٢.
(٣) الطبري، ٥/٤٩٢ ـ ٤٩٣.

وإذن فهذا الرجل المري الغطفاني يتغالى في تشدده نكالاً بقريش، فقد أهان مروان بن الحكم وقتل هذين القرشيين، وواحد منهما أراد أن يبايع يـزيداً فلم يأذن له وقتله ولم يرض إلا أن يبايع الناس قرشيين وغـير قرشيـين على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية، والغرض الحقيقي وراء هذا التشدد هو أنه أراد أن يذل القرشيين بنفسه وأن يحكم عليهم بأن يصيروا عبيداً. وما نقول هذا من عندنـا ولكن، إليك خبر يكشف عن هذه الحقيقة فقـد كان واحـد من الرجـال الذين قتلهم مسلم بن عقبة المري على هذه الصورة، معقل بن سنان الأشجعي وكان معقل بن سنان هذا قد أنكر خلافة يزيد بن معاوية وقال كلمة مهينة في حقـه، ثم أضاف إليها عبارة لم يغفرها له هذا المري الغطفاني، فقد روى الطبـري عن هشـام بن السائب الكلبي عن عـوانة بن الحكم، أن مسلم المـري عندمـا قدم معقل بن سنان للقتل قال له: «أنت الذي لقيتني بطبريـة ليلة خرجت من عنـد يزيد (بن معاوية) فقلت: سرنا شهـراً ورجعنا من عنـد يزيـد صفْراً نـرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق ونبـايع لـرجل من أبنـاء المهاجـرين: فيمَ غطفـان وأشجع من الخَلْعِ (وفي رواية من الخلق) والخـلافة: إني آليت بيميني لا ألقـاك في حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت: ثم أمر به فقتل».

إذن فهو ثأر مبيت عنـد أبناء هـذه القبائـل الحاقـدة على قـريش الناقمـة عليها أدركته على يد قريش نفسها، فتميم والأزد من نـاحية تتشفى من قـريش بقتل الحسين وآله، وكندة وطيء من ناحية أخرى تتلذذ بالاستبداد بعلي بن أبي طالب، وهذا هو المري الغطفاني يتشفى من رجل لأنه قال وما لغطفان وأشجع من الخلافة والخلع.

وكل ذلك فعلته قريش بنفسها!

وقد روى الطبري عن الواقدي خبراً إن صح فهو بمثـابة تقـرير لمـا فعلته قريش بنفسها، فقد روى أن عمرو بن العاص كان مختلفاً مع عثمان ناقـماً عليه

بسبب عزله إياه عن مصر، فمضى يحرض على عثمان، ثم اعتزل في بيت له في جنوبي فلسطين وظل يحرض على عثمان، فلما بلغه خبر مقتل عثمان قال لرجل كان معه يسمى سلامة بن روح الجذامي «أنا أبو عبدالله، إذا حككت قرحة نكأتها إني كنت لأحرض عليه حتى اني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل، فقال له سلامة بن روح الجذامي: يا معشر قريش إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه. فما حملكم على ذلك فقال: أردنا أن نخرج الحق من حافرة الباطل، وأن يكون الناس في الحق شرعاً سواء»[1].

والحقيقة أن قريشاً عندما استولت على الأمر وتورطت في السياسة عجزت عن القيادة واختلف بعضها مع بعض واحتربت فيما بينها فجرؤ عليها الناس وضاع أمرها، وقد روى الطبري باسناده في أثناء القتال بين علي ومعاوية في صفين، أن علياً كان يرجو أن يتوقف معاوية وأصحابه عن القتال ويسلموا له لتجتمع الكلمة، فأقبل رجل من غير قريش يسمى كعب بن سور فنصح علياً بأن يكر بمن معه على أعدائه فيفنيهم، فقال له أصحاب علي من القرشيين: «يا كعب إن هذا أمر بيننا وبين اخواننا وهو أمر ملتبس. لا والله ما أخذ أصحاب محمد ﷺ منذ بعث الله نبيه طريقاً إلا علموا أين مواقع أقدامهم حتى حدث هذا فإنهم لا يدرون أمقبلون هم أم مدبرون! إن الشيء يَحْسُن عندنا اليوم ويقبح عند إخواننا، فإذا كان من الغد قبح عندنا وحسن عندهم وإنا لنحتج عليهم بالحجة فلا يرونها حجة، ثم يحتجون بها على أمثالها، ونحن نرجو الصلح إن أجابوا إليه وتموا وإلا فإن آخر الدواء الكي[2]».

---

(١) الطبري، ٤/٣٥٦.

(٢) الطبري، ٤/٤٩٥.

الفصل السادس

الأُمويّون والعبّاسيّون ونصيبهم في القضاء على هيبة قُريش وبقاء الفرع العلويّ

بنو أميّة ومسؤوليتهم في إضعاف قريش :

كان العصر الأموي تجربة عسيرة جداً للعرب وقريش. لقد توقفنا في عرضنا عند بداية الفترة المروانية بولاية مروان بن الحكم في ٣ ذي الحجة سنة ٦٤ هـ/٢٢ يوليو ٦٨٤ م. لأن مسار الأحداث إلى الآن في قيادة الفرع السفياني انتهى إلى ما يشبه الطريق المسدود، ومؤتمر بني أمية في الجابية لم يكن اجتماعاً عربياً ولا إسلامياً، إنما هو اجتماع قبلي قاده شيخ مرواني ضعيف الانتماء والإيمان والأمر، وقرر المصير فيه شيخ من شيوخ القبائل البدوية التي أصبح رجالها نتيجة لفشل قريش في إدارة الدولة أصحاب الأمر في مصائر الخلافة، وقد رأينا العوامل التي حركت هؤلاء الشيوخ البدويين الذين تحولوا إلى قادة سياسيين وعسكريين، في حين أن نفراً كبيراً من أهل عشيرتهم من رجال القبائل أصبحوا جنداً مرتزقة يخدم من يدفع وتراجع في نفوسهم الوازع الديني وانمحت من أذهانهم فكرة صالح الجماعة الإسلامية، ومن حسن الحظ أن هؤلاء كانوا قلة بالنسبة لمجموع العرب. أما البقية فقد واصلت الفتوح غير مكترثة للسياسة.

ولم نكن نتوقع من هذا الطراز من الرجال أن يكونوا قادة أمة أو ساسة دولة، وإنما كان شأن هؤلاء في أيام أبي بكر وعمر أن يُوَجهوا التوجيه الصحيح فيطيعوا ويصبحوا قادة وجنوداً بواسل تأتمر بأمر أصحاب الأمر في دولة الإسلام، وسَيُرَدُّ هؤلاء إلى هذا الوضع عندما يتولى خليفة قوي مثل عبد الملك بن مروان

وابنه الوليد، وستحقق القيادة القرشية المروانية على أيديهم فتوحاً عظيمة، ولكن هؤلاء القادة والجند من العرب سواء أكانوا في السياسة أو خارجها لم يعودوا قط إلى ما كانوا عليه أيام أبي بكر وعمر: مجاهدين في سبيل الأمة توجههم القيادة الحكيمة، إنهم اليوم شركاء الخلفاء في الحكم ولهم كلمة ودالة ونزوات لا بد أن تتغاضى عنها القيادة المروانية القرشية، فهي لم تعد السيدة المطلقة في الدولة، وخلفاء بني مروان يجتهدون في السيطرة على مسار الأمور بأساليب سيئة وخبيثة، غريبة عن طبيعة الإسلام أما الأمة الإسلامية المؤمنة ـ عربها وغير عربها ـ فقد نفضت أيديها من السياسة والخلافة وأسلمت قيادها لأهل العلم والتقى والإيمان من أهل الورع والعلم والفقه، ومن بداية خلافة معاوية بن أبي سفيان خلعت الأمة في الواقع ودون الإسم والظاهر بيعة الخلفاء أو الولاء لهم، ولم يعلن هذا الخلع إلا الخوارج على درجات وصور مختلفة بحسب مذاهبهم من حرورية ونجدات متطرفين إلى صفرية أنصاف متطرفين إلى إباضية معتدلين: خارجين على الدولة ولكنهم مهادنون للأمة غافرون لها طاعة الأئمة الجائرين إدراكاً منهم لصعوبة الخروج الصريح على الدولة والأمة معاً وحمل السلاح في وجهها.

وفي جانب آخر مضى الهاشميون يرتبون أمورهم في الخفاء لأن تجاربهم في العصر السفياني اقنعتهم بخطر المجابهة السافرة والتعرض لسيوف الجند العربي المرتزقة التي كانت تضرب في غير رحمة وأحياناً بلا دين أو عقيدة.

وقد بدأ المروانيون بالقضاء على دعوة للإمامة قادها قرشي من بني عبد العزى بن قصي هو عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد وأمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين من بني تيم بن مرة، وعبدالله بن الزبير كان خليفة مناوئاً في مكة والحجاز مدى ثلاثة عشر عاماً، وأقام بالبيت متحصناً فيه فسمي بالعائذ، وهو كان بطبعه بعيداً كل البعد عن خِلال الخلافة، وقد جاء حين من الدهر

طاعت له معظم ولايات الدولة. لا حباً فيه ولكن كراهة ببني أمية جملة. وهو - عبدالله بن الزبير - السبب فيما أصاب البيت المعظم في مكة على يد مسلم بن عقبة المري والحصين بن نمير الكندي، وهو أيضاً كان سبب هلاك الألاف من المسلمين الذين وقفوا معه في الحجاز أو مع أخيه مصعب في العراق، ومهما كان الرأي في خلافة عبدالله بن الزبير فهي محسوبة على قريش، كما كان موقف أبيه الزبير بن العوام من علي بن أبي طالب محسوباً عليها أيضاً، وإذا كانت قيادة قريش قد تهدمت فإن المسئولين عن ذلك قرشيون فقد طاعت الأمة لقريش أيام الرسول وأيام أبي بكر وعمر ثم وقعت المنافسات على الخلافة بعد عمر وتزعزعت وحدة قريش واهتزت زعامتها على ما حكيناه.

انتهت دعوى ابن الزبير واستقر الأمر لمروان بن الحكم وبيت مروان، ولكن نصر البيت المرواني كان هزيمة لقريش، فلكي ينتصر مروان كان لا بد من تحطيم قوة القيسيين الذين مالوا إلى تأييد ابن الزبير، وقد تم ذلك في موقعة مرج راهط التي انتصر فيها الكلبيون - وهم بنو كلب بن وبرة القضاعيون الذين إنتسبوا بعد الإسلام في اليمن - على الضحاك بن قيس الفهري ومن معه من القيسية (المحرم سنة ٦٥ هـ) وكان البيت السفياني قد عرف من أيام ولاية يزيد ابن أبي سفيان أخي معاوية الأكبر، كيف يجمع عرب الشام جميعاً - كلبية وقيسية أو مضرية - حول رايته. وتحويلهم إلى قوة عسكرية مرتزقة متحدة تحت رايته وبفضل هذه القوة انتصر معاوية ثم ابنه يزيد على كل من ناوأهم. أما بعد معركة المرج فقد انكسرت وحدة القوة العربية التي شدت أزر بني أمية. وثارت الفتنة في طول الدولة وعرضها بين القيسية والكلبية أو بين مضر واليمن. وفي خراسان بالذات، حيث تجمع أكبر عدد من مهاجرة العرب إلى الأمصار بلغت عداوة الجانبين أحدهما ضد الآخر مبلغاً كان له أسوأ الأثر على مصير العروبة في خراسان وإيران كلها. وقد كان عرب خراسان وما حولها من ولايات سجستان وكرمان ومكران وطبرستان وجُرجان والجبال، قد تكاثروا وغلبوا على أهل البلاد، وأخذ

الإيرانيون يتكلمون العربية أي يستعربون، ولو أن الأمور استمرت على هذا المنوال لتعربت إيران كما تعرب العراق والشام ومصر، ولما كانت هذه الظاهرة الإيرانية الخطرة التي كسرت وحدة أمة الإسلام ووقفت بالعروبة عند الخليج وشرقي العراق، ولأصبح شرق العالم الإسلامي كله عربياً كما هو الحال بالنسبة لغربه.

وقد كانت خراسان وما يليها شرقاً من بلاد طخارستان وجنوباً من بلاد سجستان وكرمان وشمالاً من بلاد ما وراء النهر، هي الصخرة التي تحطمت عليها الدولة الأموية، فهنا في الجناح الشرقي لدولة الإسلام تجمعت جموع العرب الذين كانوا يشدون ظهر هذه الدولة، أما عرب الشام فقد كانت الغالبية العظمى منهم من جذام ولخم وقضاعة وفروعها (وأهمها هنا كلب بن وبرة وتنوخ، وهؤلاء انضموا لتلك الدولة وأصبحوا مادة لجيوشها وعرفوا بعرب الشام أو الشامية. وفي مصر كانت أعداد غفيرة من قبائل قيسية انضمت إليها جماعات يمنية، وكانت الحروب بينهم مستمرة ولكنها لم تشتد إلى الحد الذي يعرض سلامة الدولة للخطر. أما المغرب فقد نزلت به جماعات كثيرة من العرب معظمها من تميم. وفيما يلي نهر شلف (الخط الممتد جنوب مدينة الجزائر)، لم يكن هناك إلا قليل من العرب، ولم يكن للدولة عليهم سلطان كبير إلا أن دعوة الخوارج وصلت إليهم من وقت مبكر فأصبحوا في عداد الخارجين عن سلطان الدولة الأموية، وخاصة بعد الفتنة المغربية الكبرى التي انفجرت سنة ١٢٢ هـ في خلافة هشام بن عبد الملك، وقضت في النهاية على كل سلطان لدولة الخلافة شرقي نهر شلف، وإن كانت الجماعات العربية التي استقرت هناك تحولت إلى عرب بلديين محليين كانت لهم الزعامة في الكثير من القبائل البربرية، وهؤلاء ذابوا مع الزمن في كتلة السكان وأصبحوا عرباً مغاربة بلديين. أما الأندلس فقد اشتدت فيها الحروب الأهلية بين العرب طوال فترة الولاة من ٩٥ إلى ١٣٨ هـ حتى دخل البلاد عبد الرحمن بن

معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل.

والناظر في تاريخ الدولة الأموية يرى بوضوح أنها لم تكن لها سياسة عربية مستقرة، وإذا كان عرب خراسان وفارس وما وراء النهر هم الذين استنفدوا أكبر جانب من قوة الدولة الأموية، فقد كانت حروبهم ومنازعاتهم وعداواتهم ترجع مسئولية معظمها إلى سياسة خلفاء بني أمية. وعلى الجملة فإننا نستطيع القول إن دولة بني أمية هي المسئولة الأولى عن إضعاف العرب وتمهيد الطريق لحروبهم جملة من ميدان السياسة الإسلامية.

ذلك أن الذين هاجروا من العرب إلى العراق وبلاد المشرق، كانوا كثيرين جداً وكانت فيهم قوة وعزيمة وبسالة كانت كفيلة جداً بأن تجعل ذلك الجانب الشرقي لمملكة الإسلام قاعدة القوة لدولة الإسلام ومنطلقها لنشر الإسلام في القارة الآسيوية ولكن الأمويين - والعباسيين بعدهم - كانوا محطمين محزبين لقوة العرب في تلك الجبهة الشرقية الأساسية.

وعندما نقرأ تاريخ العصر الأموي يستوقف نظرنا سوء تدبير الخلافة الأموية لأمور العرب هناك، وقد كانت جموع أولئك العرب كثيرة جداً، وكان مركز تجمعهم الكبير الأول هي البصرة على أبواب المشرق، ولم تكن البصرة - ومثلها الكوفة - أول الأمر مدينة بمعنى الكلمة بل كانت مركز تجمع للعرب: يهاجرون من مواطنهم في الجزيرة إلى البصرة أو الكوفة وهناك يستقرون حتى يعرفوا إلى أين يتجهون في هجرتهم، وكل قبيلة كانت تستعلم أين ينزل السابقون من أهلها لتلحق بهم. وكانت البصرة هي المركز الأول والأكبر، لأن ولاية البصرة كان يتبعها كل فارس وخراسان وطخارستان وما وراء النهر، أما الكوفة فلم يكن يتبعها إلا شمال العراق وبلاد طبرستان جنوبي بحر قزوين.

وكان ولاة البصرة قد قسموها إلى خمسة أخماس، والخمس قطعة من

البلد تسكنها جماعات عربية من قبائل معينة، وأخماس البصرة كانت خمس أهل العالية، وكانت تنزله القبائل المهاجرة من الحجاز وعوالي نجد أي الأراضي الممتدة من جبال السراة أي مرتفعات نجد، والمراد بهم أعاريب نجد (هوازن وغطفان وعبس وذبيان وأسد ومحارب ومن إليهم)، وكانت أعدادهم في البصرة والشرق قليلة فضمهم رجال بني أمية في خمس واحد من أخماس البصرة ثم من أخماس خراسان، وكانوا في البصرة والمهاجر أحلاف بني أمية، ولهذا فقد كان الأمويون يفضلون اختيار ولاة خراسان منهم، وخلال العصر الأموي كان حوالي ٧٠٪ من ولاة خراسان منهم، وكان الذي رفع مكانتهم قتيبة بن مسلم الباهلي فكانوا «شعاره ودثاره» كما يقول الطبري.

وكانت الكتلة الثانية من عرب خراسان هم الأزد، فقد كثرت هجرة الأزد اليمنيين إلى خراسان أثناء ولاية المهلب بن أبي صفرة وكان بعد مقتل المهلب وتعيين سليمان بن عبد الملك التميمي مكانه من أكبر الأسباب في انصراف اليمنيين في خراسان عن بني أمية وميلهم إلى الدعوة العباسية.

وهناك خمس تميم، وكانت أعدادهم كثيرة جداً في خراسان وكان لهم نصيب كبير في الفتوح وخاصة أيام عبدالله بن عامر بن كريز، لكن التميميين على كثرتهم كانوا مستضعفين يستعملهم الولاة لأنهم كانوا أقل مهاجرة عرب خراسان تحضراً، وكان سليمان بن عبد الملك قد قربهم إليه بعد نكبة قتيبة بن مسلم الباهلي، وولّى واحداً منهم خراسان وهو وكيع بن سود قاتل قتيبة، ، ولكن خلفاء سليمان انقلبوا على التميميين وأساءوا إليهم، وهذا كان سبب ميلهم إلى دعوة بني العباس، ومنهم كان الحارث بن سريج الذي انقلب على الدولة وانضم إلى الترك وحارب الأمويين، وسببوا للعرب أذى كبيراً.

وهناك خمس بكر بن وائل وكانوا كثيرين في خراسان وكان مركزهم هراة، ولم يحسن ولاة بني أمية معاملتهم. [1]

ولو أنه كانت لبني أمية سياسة عربية رشيدة لطال عمر دولتهم، ولكن بني أمية لم تكن لهم سياسة واضحة رشيدة في أي أمر من أمور الدولة، إنما كان الميزان عندهم هوى الخليفة وبغض بني هاشم والاجتهاد في القضاء عليهم، وكل ذلك جعل جماعات عرب خراسان أكثر ميلاً إلى الدعوة الهاشمية التي تحولت إلى عباسية كما نعرف.

وعلى ذكر السياسة الرشيدة ينبغي أن نلاحظ أن خلفاء بني أمية والعباسيين من بعدهم، لم يكن لهم أي اهتمام بالمرافق العامة، والمراد هنا الطرق ورعاية المدن والموانيء ومعاونة الفلاحين بشق القنوات وإقامة الجسور والعناية بها. وقد كانت للرومان عناية شديدة بهذه النواحي، فقد أنشأ الرومان من الطرق المرصوفة آلاف الكيلومترات لربط أجزاء الدولة بعضها ببعض، ولتسهيل سير الجيوش والتجار. فأما دول العرب فلم يكن لها اهتمام بذلك وإن كان بعض الأمويين والعباسيين قد اهتموا بشق بعض الترع في العراق، ولكن هذه لم تكن جزءاً من سياسة عامة، حتى طرق الحج إلى الحجاز لم يعنوا بها عناية منتظمة، وطريق زبيدة المشهور عنيت به السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد من باب التقى لا من باب السياسة، وكانت هناك عناية بشئون الحرمين، ولكنها كانت قليلة وغير كافية، ولا نجد في نظم الدولة الأموية ثم العباسية بعدها إدارات للمدن والعناية بطرقها ومرافقها وتزويد أهلها بالمياه وحمايتهم من الحريق، وكل هذه المرافق كانت موضع عناية الرومان، ولها موظفون مسئولون عنها، وكان لكل مدينة مجلس بلدي Municipo مسئولاً عنها. أما دولتا الأمويين والعباسيين فلم يوجد عندهم شيء من ذلك، بل لم تكن لهم عناية بأسواق التجارة وطرقها أو المواني ودور صناعاتها - فيما عدا - دور الصناعة الخاصة بالقوات البحرية للدولة، أما موانى التجارة وسفنهم وحماية أموالهم فلا وجود لعناية بها على الحقيقة.

ويستوقف النظر أن رسول الله ﷺ كانت له عناية كبيرة بشئون المدينة وعمارتها وأسواقها والجسور على وديانها، وهو الذي أنشأ الاحماء لإبل الصدقة وخيلها وماشيتها وهي جزء من بيت المال،وقد اهتم أبو بكر وعمر بالاحماء فلما جاء عثمان وأراد الزيادة فيها احتج عليه الناس، ولم يكن الدافع للاحتجاج الحرص على أموال الجماعة بقدر ما كان غضباً لبعض القبائل التي كان توسع الاحماء في أراضيها، وعلى أي حال فحتى هذه توقفت العناية بها بعد عثمان، ولم تعد للدولة الأموية والعباسية بعدها أي عناية بالمرافق، والمرافق هي مصالح الناس، فلا غرابة في أن يشعر الناس أن الدولة الأموية ثم العباسية من بعدها قد قامت لخدمة أصحابها فحسب، وذلك كان من أكبر أسباب سقوط الدولة الأموية أولاً ثم انصراف الناس عن الدولة العباسية بعد ذلك.

ولكن أسوأ ما فعله الأمويون هو إذكاء العداوات والخصومات بين عرب خراسان والمشرق خاصة، ظناً منهم أن ذلك يقوي دولتهم، ولكنهم حطموا بذلك درع قوتهم وهم العرب وجعلوهم يميلون إلى دعاة الدعوة العباسية. فلما قامت ارتد معها إلى المشرق آلاف بعد آلاف من العرب، فعادت النزعة اليمنية إلى الظهور واشتد الصراع بين القيسية واليمنية في نواحي الدولة كلها وخاصة في ايران والمغرب والاندلس كما قلنا.

وقد استمر عرب إيران يتقاتلون حتى أفنى بعضهم بعضاً خلال معظم العصر الأموي، وفي أثناء هذه الحرب الأهلية العربية المدمرة دخل دعاة بني العباس واجتذبوا اليمنيين والخزاعيين الساخطين على مضر. وكان الانقلاب العباسي، وقد ضمت جيوش المؤيدين للعباسيين الجانب الأكبر من بقايا عرب إيران وخراسان خاصة، واتجهت ألوف منهم نحو العراق والمشرق تحت رايات العباسيين تاركة منازلها في إيران خالية. وأصبحت أعداد العرب في إيران ضئيلة جداً، والعرب في كل مكان خيرة التعريب وعصب السنة والجماعة.

وبينما كانت اللغات الإيرانية والنزعة الإيرانية تحتضران في أواخر أيام الوليد بن عبد الملك وأيام قتيبة بن مسلم عبقري باهلة ومحمد بن القاسم فتى ثقيف انتعشتا في أيام سليمان أخيه وخلفه، ونفخ دعاة العباسيين في نيران الفتنة وخاصة بعد مقتل يزيد بن المهلب وانكسار شوكة الأزد، وكانوا بجموعهم الضخمة العمود الفقري للعروبة في الجناح الشرقي لدولة الإسلام.

وهذه النتيجة كلها ثمرة لعجز الفرع الأموي من قريش عن قيادة الجماعة الإسلامية جملة، فبنو أمية العبشميون شقوا عصا العرب تمكيناً لسلطانهم واستمروا على سياستهم المدمرة للعرب إلى آخر أيامهم، ثم جاء دعاة الهاشميين فأكملوا ظاهرة تصدع كلمة العرب وتضعضع قواهم واضعاف دولة الإسلام نتيجة لذلك، فإذا كان الأولون زلزالاً صدع بنيان أمة الإسلام المكين، فإن الآخرين ـ دعاة الهاشميين ـ كانوا البركان الذي يأتي أحياناً بعد الزلزال، فتقضي الحمم والنار على ما بقي قائماً. ولقد قرأت ما كتبه شباب من مؤرخي العرب اليوم وشيوخهم عن طبيعة الدعوة العباسية وما يقولونه من أن الثورة العباسية لم تكن حركة موالٍ إيرانيين كما زعم فان فلوتن ودوزى ويوليوس فلهاوزن، وإنما هي ثورة عربية قام بها عرب ضد عرب في الجناح الشرقي لدولة الإسلام يحسبون ان ذلك كشف جديد يغير صورة التاريخ، وما هو بالكشف وإنما هو معروف من قديم الزمان، وإذا كنا قد عثرنا على مؤيدات واضحة له عند ابن أعثم الكوفي والأزدي وفي كتاب أخبار العباس وولده ومؤلفه مجهول، فإنه كان حقيقة معروفة عند الطبري واليعقوبي والبلاذري، واقرأ قائمة نقباء الحركة العباسية وقادة الجيوش تَرَ أنهم عرب ليس فيهم من الموالي إلاّ نزر يسير، وهذا بديهي لأن الصراع في حقيقته كان صراعاً بين بني أمية ومن انضم إليهم من العرب، وبني هاشم ومن مال ميلهم من العرب أيضاً. وقد كانت نهاية الثورة بانتصار الفرع الهاشمي ثم العباسي على الفرع الأموي وأنصاره راجعة الى تأييد الأزد وثقيف وتميم وخزاعة خاصة، وأما الموالي فكان دورهم صغيراً جداً، وحل

بنو العباس محل بني أمية ولكن الأمر الذي يستوقف النظر في قيام الدولة العباسية هو أن قائد الجيوش العباسية وذراع الثورة وأداتها الكبرى لم يكن عربياً بل مولى هو أبو مسلم الخراساني، ثم إن القوات العربية التي سارت من مواقعها في خراسان وبلاد الترك إلى العراق لتزيل ملك بني أمية في العراق ثم في الشام لم تعد إلى المشرق بعد ذلك، وخلا مكانها وعجزت بقية العرب ـ خميرة التعريب ـ عن تعريب العناصر الإيرانية فينبض عرق الإيرانية من جديد وخاصة عند أنصار النظام الساساني الذي أزاله العرب، فانطوت قلوبهم على كراهية العرب الذين أزالوا بيتهم المالك الذي كانوا يعتزون به ويستبدون بالناس باسمه، وهذا هو المهم ولباب الموضوع فنهضوا من جديد ونفخوا في رماد المجد الإيراني الذاهب ليبعثوا فيه الحياة من جديد وشجعهم على ذلك أن العرب الفاتحين تقبلوا إسلام الكثيرين من الفرس دون تحقق من سلامة صِدْقه أو العناية بتعليم أولادهم العربية وتنشئتهم على الإسلام. ولنضف إلى ذلك أن العرب ارتكبوا أخطاء سياسية كبيرة أثناء الفتوح فأقروا بعض كبار رجال الأكاسرة من طبقة الأساورة في رياساتهم وعهدوا إليهم في الوظائف والأعمال الادارية والمالية منخدعين بإسلام ظاهري نطقوا به بشفاههم دون قلوبهم، وأسوأ من ذلك إقرارهم حكام القرى والكور ممن دخل في الإسلام في وظائفهم، وهؤلا هم الأصبهبذون، واحدهم أصبهبذ ـ فمضوا يرهقون الناس بالضرائب كما كان الحال قبلاً ولا يقدمون للدولة إلا ما ينص عليه الشرع، وساعده في ذلك بعض ولاة العرب ورجالهم في خراسان وقد كان فيهم فساد كثير يصل إلى نهب الناس. فساءت صورة الحكم الإسلامي في إيران أثناء العصر الأموي، وكرهت الجماهير بني أمية ورجالهم وتعلقت نفوسهم بخليفة عادل يطبق عليهم شرع الإسلام، واجتمعت آمالهم حول علي بن أبي طالب لأنه كان شخصية جليلة حقاً، ومثالاً للفارس المسلم المؤمن، فلما قتل اتجهت قلوبهم إلى ابنه الحسين فلما قتله الأمويون على الصورة البشعة المعروفة أصبح دم الحسين الشهيد هو صوت المعركة ولواءها. ولهذا يعتبر العاشر من المحرم سنة ٦٣ هـ. أشد أيام التاريخ الإسلامي حسماً، فهو يوم

تصدع وحدة العرب وبدء ظهور الإيرانيين على مسرح السياسة الإسلامية.

وموالي إيران هنا انتصروا دون أن يخوضوا حرباً مع العرب، وأيدت الخلافة العباسية ذلك بالاستكثار بعد ذلك من جند الموالي ورجالهم والاعتماد عليهم، واتخذوا قاعدتهم في بغداد خارج النطاق العربي ثم اتجه العباسيون إلى إهمال ذكر الأنساب العربية، فالرجل أصبح يذكر منسوباً إلى بلده وينتهي الأمر بانهزام العرب وضعف جبهة العروبة في مركز الدولة. لم يهزمهم الإيرانيون أو الفرس أو الموالي وإنما كانوا هم الذين هزموا أنفسهم، وهي ظاهرة ما أكثر ما حدثت في تاريخ العرب وصراع هاشم وعبد شمس، وهو صراع كان محدوداً وغير خطر في الجاهلية، أخذ شكلاً خطراً بعد الإسلام وقيام الخلافة وقاضياً على قوة قريش في النهاية ومؤذناً بنهاية سيادة العرب في دولة الإسلام، وتلك هي النتيجة الفاصلة حقاً في تاريخ المسلمين.

وسواء نظرنا إلى السياسة العربية للدولة الأموية أو للسياسة العربية للدولة العباسية فسنجد في الصميم انها كانت سياسة مدمرة للسيادة العربية عامة والقرشية خاصة، وكلما مضينا مع التاريخ العباسي فإننا نجد السيادة القرشية تتراجع. حقاً إن الخليفة كان قرشياً، ولكن قريشاً كانت تتراجع وتخرج من ميدان السيادة والقيادة ليتحول القرشيون في النهاية إلى طبقة من الأشراف أو النبلاء إذا شئت لا شأن لها بسياسة أو سيادة، وإنما هم زينة في المجتمع وعنوان شرف ولا زيادة، وفي مكان سيد الدولة القرشي يظهر شيخ قريش في بغداد وواسط والبصرة والكوفة والفسطاط، وهو رجل من المياسير الأجلاء الذين يزينون المجتمع ويتقاضون رواتب من الدولة لأنهم ذوو القربى ولهم مال معلوم في بيت مال المسلمين دون ان يكون لهم أي وزن سياسي. وفي سيرة الإمام الشافعي - وهو قرشي - نقرأ أن أمه خافت إن هي طال مقامها بابنها في منازل خزاعة في طبرستان أن يفقد حقه في بيت المال، فسارعت به إلى بغداد.

أما فيما يتعلق بالدولة العباسية فإن الخليفة يتحول مع الزمن إلى شخصية

غير عربية في السياسة والروح، وليس عبثاً أن تكون أم أبي جعفر المنصور كانت جارية مغربية لأن معظم أمهات الخلفاء سيصبحن من الآن فصاعداً غير عربيات، وشيئاً فشيئاً تقل حتى تتلاشى النسبة القرشية بل العربية في دماء الخلفاء، ولا يبقى من سمات القرشية والعروبة إلا الإسم واللسان وقريش بهذا تتحول إلى ذكرى، وتحضرني بهذه المناسبة حادثة صغيرة يرويها ادوارد جبيون في تاريخه الممتع لتدهور الدولة الرومانية وسقوطها، فهو يحكي أن شيخاً وقف في مجلس الشيوخ أيام الامبراطور هادريان (١١٧ ـ ١٣٨ ق.م.) وقال: أيها الرومان فلم يرد عليه أحد ولا فهم كلامه أحد، فلم يعد في المجلس رومان يفهمون اللاتينية الفصيحة، لأن كل الجالسين كانوا غير رومان يحملون أسماء رومانية، وضعهم في مجلس الشيوخ القادة المتنافسون على تاج الامبراطورية.

وقصة تدهور السلطان القرشي العباسي قصة طويلة محزنة، وأكثر ما يستوقف نظر المؤرخ فيها هو هذا الهوان الذليل الذي وصلت إليه القيادة القرشية العباسية، وأن الإنسان ليأسى ـ دون أن يدهش ـ كيف انحدرت القيادة القرشية من الأوج الذي كانت فيه أيام أبي بكر وعمر وتهبط إلى الدرك الذي وصلت إليه ابتداء من أيام المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ /٨٤٧ ـ ٨٦١م) وهو الخليفة الذي يدخل التاريخ على أنه أول خليفة قرشي قتله ابنه، ثم يجيء بعده ابنه المنتصر، أول خليفة صعد الى كرسي الخلافة على جثة أبيه وقتيله، والمستعين الذي لم يكتف الأتراك بخلعه ونفيه بل أصروا على قتله، ثم المعتز الذي وصف لنا ابن الأثير مشهد مهانته وذله على يد جنده الأتراك في صورة مللناها لكثرة ما قرأناها[1] فهذا الرجل الذي لا بد أن يعتبر ـ رسمياً ـ شيخ قريش في عصره، فقد ظل خليفة لمدة ثلاث سنوات (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩م) يُجَرُّ من رجله ويضرب بالدبابيس ويقطع قميصه ويقام في الشمس في الدار فيمضي يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر، وعبد مملوك يلطمه فيتقي بيده وفي النهاية يضعونه

(١) أنظر ابن الأثير، الكامل: ٧/ ٦٧ ـ ٦٨.

في سرداب ويقفلون عليه ويختفي من صفحات تاريخ لم يدخله، وهذا ما وصل إليه حفيد قصي المَجَمِّع وعبد المطلب الجليل، وهذا ما فعلته الخلافة بهذا الفرع من قريش: جروا وراءها وطلبوها ونسوا دينهم من أجلها وخاضوا بحار الدم في سبيلها ليذلوا المسلمين بها ويذلوا هم أنفسهم بها أيضاً، وأمة الإسلام التي سعوا إلى دوسها بأقدامهم ظلت بعيدة عنهم وأصبحت فقيرة منهوبة ولكنها مؤمنة، مظلومة ولكنها عزيزة مجردة من حقها ولكنها كريمة رافعة الرأس بإيمانها وعلمائها وقرآنها وحديثها.

فلننظر الآن في أمر البيت الثاني من بيوت قريش الذي اجتمعت على حبه أمة الإسلام حباً في رسولها ﷺ: البيت الهاشمي العلوي الذي حكم عليه بيت عبد شمس بالموت وفشل الجلاد الأموي في تنفيذ العقوبة، فأراد الحظ أن تتكرر المحاولة الشريرة الغبية على يد الهاشميين العباسيين.

وثب العباسيون على الخلافة ونالوها بالدهاء والسيف، وقد أسرفوا في العنف والقتل والعدوان على الدماء والأموال حتى أخرجوا أنفسهم في أحيان كثيرة عن الإسلام بواقع تصرفهم، وإن ظلوا يحكمون معظم أمصاره بقوة السلاح والذكاء والجهد المبالغ فلم تجهد أسرة من أسر الخلافة في المحافظة على ما صار إليها من دار الإسلام قدر ما جهد العباسيون وخاصة خلال العصر العباسي الأول، حقاً إن الخلافة كانت دائماً شقاء لمن طلبها بعد أبي بكر وعمر، ولكن الأمويين في المشرق كانوا يعرفون أنهم خلفاء بالقوة لا بالحق، وعمادهم الحقيقي كان على القادة العسكريين ورجال السياسة الذين أيدوا دولتهم، وكانوا واقعيين، لهم في المكان الأول الثمرات الملموسة للخلافة من السيادة على الناس والتمتع بالأموال والخيرات، ولا يعنيهم في كثير رضى الناس أو عواطفهم، بل لم تكن تعنيهم ناحية الشرعية، وقد وصل الى هذه الشرعية أي تسليم الناس بأنهم خلفاء مرضيون ثلاثة منهم عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ثم عمر بن عبد العزيز، فأما الأولان فقد استحقا الشرعية وتأييد المسلمين ورضاهم بالفتوح وصرف الهمة في

الجهاد وتوسيع نطاق الإسلام وتعريب الدولة، وأما الثالث فقد استحق الشرعية بالسلوك الإسلامي الخالص، وهو عمر بن عبد العزيز الذي أثبت للناس أن أمة الإسلام أمة مؤمنة حكيمة وأنها مستعدة لإعطاء رضاها كله لمن يلتزم حدود الإسلام ويقوم بحقه، وهذا المثل الذي ضربه عمر بن عبد العزيز في خلافته القصيرة زاد في زعزعة قواعد الملك الأموي لأنه كشف للناس أخطاء غيره من خلفاء بني أمية كشفاً جلياً، ولهذا فإن الناس استقبلوا خلفه وهو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم استقبالاً سيئاً جداً، وأيد هو سوء ظنهم بمسلكه الأموي البعيد عن خلق الإسلام، وتدهور بعد ذلك الملك الأموي تدهوراً سريعاً انتهى بزواله. واستراحت أمة الإسلام كلها بسقوط هذا البيت العبشمي القرشي ورأوا في ذلك عدلاً من الله سبحانه ورحمة بأمة الإسلام.

وفيما يتعلق بمصائر قريش رأينا أن الأمويين لم يظهروا أي حرص للمحافظة على مكانة قريش، فقد رأينا كيف أنهم لم يكونوا يهتمون إلا ببيتهم الأموي. وفي سبيل بيتهم سلطوا رجال أعاريب مضر على المدينة ومكة ومن فيها من القرشيين بل أهين الخليفة عثمان بن عفان وهو شهيد بني أمية على يد مسلم بن عقبة المري ولم يعترض الخليفة يزيد على ذلك بكلمة. أما المروانيون فهم الذين استعانوا من أول الأمر في حربهم مع عبدالله بن الزبير بالكلبيين القضاعيين المنتسبين في اليمن بتوجيه من الخليفة معاوية بن أبي سفيان وهزيمة القيسية في مرج راهط كانت في الحقيقة ذات أثر بعيد في توهين أمر قريش لأن القيسية كانت مضرية على أي حال وبعد انتصار مرج راهط وانتهاك حرمة المدينة ومكة أصبحت صلة البيت المرواني بالقيسية عامة واهية، وفي أيام سليمان بن عبد الملك بدأ الانحراف عن اليمنية وموالاة القيسية.

ولم تطرب أمة الإسلام لقدوم بيت بني العباس، وهم بيت قرشي ثان دخل الميدان يعلن بصوت جهير وقلب جريء أنه وحده صاحب الحق في الولاية والوصاية على هذه الأمة، فهم الورثة الشرعيون لملك رقبة أهل القبيلة

جميعاً. قال داوود بن علي في خطبة افتتاح ملك ابن أخيه أبي العباس السفاح من منبر الكوفة: «فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم. . .» وهي مقالة لم يرض عنها مسلم لأنه اذا كان ولا بد أن يرد الأمر إلى بيت النبوة وآل محمد ﷺ فأين منها ـ والله ـ أولاد العباس.

أما آل علي فقد كان قيام دولة بني العباس إيذاناً بعذاب لهم شديد، وإنه لمن غرائب ما يذكر أن أحسن تاريخ لآل علي بن أبي طالب وما جرى عليهم بسبب قرابتهم منه، كتاب محزن يسمى «مقاتل الطالبيين» كتبه أبو الفرج الأصفهاني، وهو تاريخ جنائزي يقص علينا كيف انكسر في معارك هي في الحقيقة مذابح ظهر البيت القرشي الأكبر الذي كان يحق له أن يحوز الخلافة إذا كان ولا بد أن يحوز هذه الأمانة الكبرى بيت واحد من بيوت المسلمين.

والحقيقة أن البيت العلوي كتب عليه منذ بيعة السقيفة أن يجاهد ليحتفظ برأسه فوق الماء وأيدي الظالمين تدفعه فيه، وإذا كان بيت بني أمية قد عرف كيف يفقد الناس الثقة في بيتهم القرشي الكبير، فإن بني العباس أثبتوا الأمة الإسلام أن الهاشمية ليست في ذاتها دليل تقى وإيمان، لأن المؤامرة التي دبرها محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ثم ابنه ابراهيم الإمام على أبناء علي ليسرقوا الخلافة سرقة من يد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، مؤامرة ظاهرة الوضاعة تدل على تهالك مخز على الدنيا. ورغم المقاتل والمذابح انجلى الأمر عن أن البيت الوحيد الذي بقي في الميدان هو بيت علي بن أبي طالب المنحدر من عترة رسول الله ﷺ.

وبعد خيبة الأمل المضاعفة في القرشيين اتجه المسلمون بآمالهم إلى البيت العلوي، وقد أصبحت الآن تجمعهم إلى بقية المسلمين أكثر من واشجة، فهم مظلومون كبقية أمة الإسلام، وهم مستضعفون مهضوم حقهم كبقية المسلمين، وهم غير آمنين لا على النفس ولا على المال، كبقية المسلمين وفيهم

التقى والورع والخوف على مصير الاسلام، وهم آخر الأمر أو أوله بتعبير أصح بيت النبي وعترته وهو صلوات اللّه عليه عزاء كل مسلم عن متاعب هذه الدنيا.

العلويون آل البيت:

وأول ما يستوقف النظر في أمر العلويين هو أنهم تمسكوا بصورة أساسية بمبدأ الوراثة في الخلافة، فهم أصحابها في اعتقادهم وهي تنتقل من الأب إلى الإبن، ولا ندري إن كان علي بن أبي طالب نفسه قد فكر في أنه ستكون للمسلمين رياسة فردية بعد وفاة الرسول، فيبدو أن هذه الفكرة نشأت عند أبي بكر وعمر وإن كانت القرائن تدل على أنهما كانا يريان أن القيادة لا بد أن تكون جماعية شورية مع وجود الخليفة، أما ما يقال من أن الأنصار اجتمعوا في السقيفة لمبايعة سعد بن عبادة بن دليم الساعدي الخزرجي فأمر مشكوك فيه، والواضح أمامنا أن الخزرج اجتمعوا للنظر في أمر أنفسهم بعد وفاة الرسول. والرجل نفسه لم يقل إنه يرشح نفسه لخلافة رسول الله ﷺ في قيادة أمة الإسلام، وعندما سأله أبو بكر لأول دخوله السقيفة قال: «إنما أنا رجل من المسلمين». والأغلب أن عامة كبار المسلمين كان تفكيرهم أن تستمر قيادة الجماعة في صورة جماعية، وقد استمر ذلك بعد وفاته، فكانت الأمور تدرس بين شيوخ الجماعة والخليفة ينفذ ما تستقر عليه الأمور، وتشاور المسلمين مع خليفتهم في عظائم الأمور أيام أبي بكر وعمر معروف، وكان من الممكن أن تستمر هذه السياسة ومن أسف أن المسلمين لم يناقشوا هذه المسائل الأساسية أيام الشيخين. وقد سبقت المسلمين في ذلك أمم، فإن اليونان والرومان سبقوا إلى هذه النظم والعصر الجمهوري في تاريخ الرومان يبلغ فوق القرون الخمسة، وهي فترة طويلة جداً بمقاييس العصور الماضية، وهي تدل على صلاحية القيادة الجماعية، وإذا نحن ذكرنا أن نظام الخلافة الشورية لم يستمر في تجربتنا السياسية إلا نحو ثلاثين سنة بعد وفاة الرسول ﷺ، تبينا أنه ربما كان الأوفق أن يؤخذ برأي الحباب بن المنذر بن الجموح الذي قال: منا أمير ومنكم أمير، مع بقاء وحدة

الأمة، لأن الأميرين هنا يمثلان البرايتورين Praetorii اللذين سميا فيما بعد بالقنصلين Consuli عند الرومان وكانا ينتخبان للحكم لمدة عام، أما قاعدة الحكم الأساسية فهي الهيئة المئوية عند الرومان Comitia centuriata ثم الهيئة التنفيذية Comitia Curiata ولكنهما هيئة منتخبة أو هيئة تمثل البيوت الكبرى في المجتمع الروماني، ثم أضيف إلى كل قنصل من القنصلين مساعد كبير لشئون المال يسمى الكويستور Quaestor ، ثم زيد في كبار الموظفين المنتخبين آخرون مع الزمن، وكلهم يعملون لمدة عام أو عامين، وقادة الحكم هما الهيئتان الرئيسيتان المئوية والتنفيذية.

وهذا الذي أقوله هنا مجرد تذكير بتجارب أخرى سابقة كان من الممكن أن يصنع المسلمون مثلها، والقرآن الكريم يدعو إلى ذلك ولا يدعو أبداً إلى أن يرأس الأمة رئيس واحد منفرد بالأمر. فالأمة في القرآن هي القاعدة وحاملة لواء الدين، وآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشير إلى ضرورة وجود هيئة ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أما القائم بالتنفيذ فقد تركه القرآن للمسلمين يرون رأيهم فيه، وإذا قرأنا رسائل الرسول إلى رؤساء العرب الذين أتوا يدخلون الإسلام على يديه، وجدنا أنه لا يمانع في أن يستمر أصحاب الأمر في كل قبيلة أو ناحية رؤساؤها الذين ترضى عنهم جماعاتهم، ولا وجود لفكرة السلطة المركزية في كتب الرسول ﷺ لأن أهم شيء عنده كانت وحدة الأمة والتفافها حول راية الإسلام واستمرارها في إقامة شريعته مع الجهاد في سبيل الله، ولو أن المسلمين اتجهوا بفكرهم إلى القيادة الجماعية، لكان هذا أسلم لأن هذه القيادة توزع السلطات بين عدد كبير من رؤساء المسلمين وترضي طموحات الكثيرين إلى السلطان، وتؤجل إلى تاريخ متأخر صراع المطامح الفردية أي الانفراد بالحكم، وما ضر أمة الإسلام شيء مثل الاتجاه السريع إلى الحكم الفردي بعد سقيفة بني ساعدة، وأمة الإسلام كانت أيام الرسول ﷺ أمة صاحبة سلطان وسيادة

ورسالة، وكان لا بد أن تستمر الأمة محتفظة بسلطانها وكل أفرادها كان ينبغي أن يظلوا سادة. هنا كان كل أصحاب القدرات والكفايات والطموحات يجدون مكاناً وفرصة للعمل وخدمة النفس والجماعة، وقد كانوا هكذا أيام الرسول ﷺ: كانوا جميعاً يعملون متكاتفين متآخين والأمة تفيد منهم جميعاً، وكان الرسول يسيِّر أمورهم بالهيبة والإخلاص والعدل والصدق في تنفيذ أحكام الإسلام عبادة وشريعة والمحافظة على مكارم الأخلاق، وهي كانت أساس العلاقات جميعاً في أمة الإسلام، سياسة واجتماعية واقتصادية.

ولكن اجتماع السقيفة انتهى بأن تكون قيادة الأمة لأبي بكر على أن يكون الأمر شورى بين المهاجرين والأنصار كشق الأفلجة، ولكن الذي حدث، هو أن الأنصار استبعدوا في واقع الأمر من القيادة وترك السلطان في يد أبي بكر، ولا معنى لامتداح هذا الواقع في ذاته على أساس أن الذي وقع عليه الاختيار كان أبا بكر ومن بعده عمر، وخلافتهما معاً لا تزيد مدتها على اثنتي عشرة سنة هجرية، والحكم على أي نظام للحكم في أي دولة من الدول لا يكون صواباً على أساس أنه سار سيراً طبيعياً لهذه الفترة القصيرة، فإذا اضطرب أمره وساء أثره وتدهورت شئون الجماعة بعد ذلك بشكل خطير، فهذا يدل على أن النظام في ذاته لم يكن صالحاً، وقد تولى عثمان الخلافة على نفس الأساس بناء على اختيار الستة، والتزم هو بالسير على سياسة أبي بكر وعمر ورغم تقاه فإنه انحرف أو بدَّل كما تقول المراجع. فقد كانت هناك قاعدة أساسية في هذا النظام تقول إن الخليفة المختار إذا انحرف، كان للأمة أن تقومه، ولكن معنى ذلك التقويم وطريقته وحدوده تُركت في القضاء بلا تحديد، والثائرون على عثمان لم يعرفوا كيف يقوموه هو نفسه لم يسلم قط بأنه «بدّل» او انحرف وتشبث بالمنصب ثم إن أحداً لم يقدر مدة لهذه الولاية، وعثمان عندما رأت الأمة أنه انحرف رفض أن ينصاع لما طلبت إليه الأمة على لسان الثائرين عليه وكبار الصحابة لأنه أخذ الولاية على أنها لمدى الحياة ورفض ولاية الأمة وأنكر حقها في محاسبته، وعندما

أتت الأمة تطلب إليه أن يعتزل قال: «لا أخلع سربالاً سربلنيه اللّه» «ولا أنزع قميصاً قَمَّصنيه اللّه»، ومعنى ذلك أنه بعد أن تولى بإرادة أهل الشورى المفوضين من الأمة، أصبح يرى أنه مختار من اللّه، وأن ثوب الخلافة أتاه من اللّه، فهو إذن يحكم بحق إلهي. وهذا يبدو أنه خطأ من عثمان ولكنه خطأ من النظام نفسه، إذ أنه كان خالياً من الضوابط والتحديدات، وآل عثمان عندما تعصبوا له افترضوا أن عثمان والخلافة معه حق له ولآل بيته لأنهم كانوا قد تحولوا الى أسرة حاكمة، وقالوا إنهم ليسوا أولياء دم عثمان الرجل فحسب، بل عثمان الخليفة أيضاً ولهذا رفضوا الطاعة للخليفة الجديد ومضوا يتهمون الخليفة المنتخب الجديد بأنه مشترك في قتل قريبهم وهم يحاربونه على هذا الأساس في الظاهر، أما الباطن فهو أنهم رأوا أن الخلافة إذا كانت قد صارت الى واحد منهم فقد أصبحت حقاً بينهم، ومنطقهم هذا هو الذي انتصر في النهاية، وساعدهم على ذلك خذلان نفر من الصحابة لعلي بن أبي طالب ونزعهم بيعته وزعمهم أنهم بايعوا بالقوة وأحلوا لأنفسهم خلعه، والنظام في آخر الأمر أصبح ملكية وراثية في بيت واحد.

وما دام الأمر قد أصبح ملكاً في بيت واحد، فقد تغير معنى الخلافة ورياسة الأمة تغيرات جوهرية أخرجته عن شورية الإسلام، وما دام قد خرج عن شورية الإسلام فقد أصبح السؤال: أي بيت من بيوت المسلمين أحق بهذا الملك؟

وكان من الطبيعي أن تجيب الأمة على هذا السؤال بانتخاب علي بن أبي طالب ومبايعته، فنهض بنو أمية ينازعونه هذا الحق، وقالوا بالخلافة الوراثية في بيتهم، وكان من الطبيعي أن يرد آل علي: نحن الأحق، فنحن بيت الرسول ﷺ ورأسنا علي بن أبي طالب أقدم الصحابة صحبة وأكثرهم بذلاً في سبيل الإسلام وأوسعهم به علماً، وعليّ كان أقضى الصحابة والقضاء أعلا الولايات. هذا هو الذي قالوه وتمسكوا به وطالبوا به، وأصبحت المسألة في الواقع نزاعاً بين آل علي وآل أمية، وما دام بيت أمية هو الذي انتصر في الصراع السياسي

والعسكري واستبد بالخلافة والملك وحاز السلطان وحصل على البيعة بالصورة التي ارتآها وقدر عليها، فقد أصبح كل طالب للخلافة من دونه خارجاً على النظام وأصبح من واجب أصحابه في رأيهم، محاربة المنافس والطامع والقضاء عليه.

وعندما انتقلت الخلافة بنفس طريقة الغضب والخداع إلى بيت بني العباس، وحازوا القوة وانتزعوا بها البيعة فقد أصبح العلويون المطالبون بالخلافة خارجين على القانون، وأصبح من حق صاحب السلطة ـ في رأيه ـ أن يقضي عليهم محافظة على النظام الشرعي القائم من عدوان مدعين يهددون أمن البيت المالك ونظامه.

وهذا بوضوح ومنطقية تاريخية واقعية هو وضع البيت القرشي العلوي من ذلك الحين، وأصبح نتيجة المطالبة بالخلافة بيتاً خارجاً على النظام وخارجاً على القانون ومحاربته حلال والقضاء عليه واجب لصالح الجماعة في رأي أصحاب السلطان.

ولكن العلويين تمسكوا دائماً بأن الخلافة من حقهم وأن وثوب غيرهم عليهم عدوان، ولما كان هذا هو رأي جانب كبير جداً من المسلمين، وهم على حق في ذلك، لأنه ما دامت رياسة الجماعة تُوَلَّى إلى رجل وآل بيته فإن علياً وآل بيته أولى.

هنا تكمن مأساة ذلك البيت القرشي الجليل، وهي مأساة فُرِضت عليه فرضاً بمنطق الاختيار في السقيفة، فقد تقرر مبدأ الخلافة في شخص واحد، ثم أصبح في شخص وآل بيته، ومن هنا نفهم كيف أن مذاهب الخوارج التي لم تعترف بمبدأ الوراثة في بيت واحد، نصت على ألا يكون الإمام المختار من قبيلة ذات عصبية كبيرة حتى يسهل عزله إذا انحرف ورفضوا مبدأ الوراثة في الخلافة لئلا تتحول الولاية إلى ملك وراثي.

وبعد ما عانته الأمة من بني أمية وبني العباس أصبحت غالبية المسلمين تؤيد حق البيت العلوي، وأصبح هناك في اعتبار تلك الغالبية خليفتان، خليفة ذو حق مشروع وهو الرضى من آل علي، وخليفة رسمي مفروض على الناس بالقوة وهو البيت القائم أموياً أو عباسياً، وتلك هي الأرضية التي وقف عليها بنو العباس عندما مكروا مكرهم وحازوا الخلافة على أن مرشحهم هو الرضي من أهل البيت. وإذا سرنا خطوة أخرى مع منطق السياسة الواقعية أو سياسة الأمر الواقع أو الريال بوليتيك Real politik قلنا إن الذي وقع هو الأمر المحتوم أو imperative لأن الأمر ما دام قد أصبح سياسة، فإن منطق السياسة هو الذي يسود، ومنطق السياسة يقول إن الذي يحوز القوة ـ والحكم ـ هو الأقوى أو الأذكى أو الأوسع حيلة. والسياسة في تلك العصور لا تعرف الحق ولا تعرف الأخلاق في معظم الأحيان.

وإذن فمنذ قيام الحكم الأموي أصبح البيت العلوي خارجاً على القانون، وحتى لو أعلن ممثله أنه لا يريد الحكم ولا يشتغل بالسياسة كما كان الحال مع جعفر الصادق بن محمد الباقر، فقد كان طول حياته موضع شبهة وخوف من جانب العباسيين، ويكفي أنه كان يلقب علناً بالإمام أي رأس أمة الإسلام، وهو في هذه الحالة إمام محروم أو إمام محكوم عليه بالموت مع وقف التنفيذ، وإذا كان قد مات في فراشه في المدينة سنة ١٤٨ هـ/ ٧٥٦ م، فقد كان ذلك مصادفة.

ولكن بقية أئمة بيت علي الذين كان من الممكن أن يطلبوا الخلافة قتلوا بالسيف أو السم.

وبعد مقتل محمد النفس الزكية بن عبدالله المحض بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب في السنة التي ذكرناها ثم مصرع أخيه ابراهيم في باخمرا في نفس السنة تفرق إخوتهما من أبناء عبدالله بن الحسن وأمعنوا في الرحلة ليكونوا

بمنأى من أيدي العباسيين، فذهب يحيى إلى طبرستان حيث أنشأ دولة، وذهب أخوه أدريس إلى المغرب الأقصى حيث أقام الدولة الأدريسية، ولحق به أخوه سليمان بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى غرب المغرب الأوسط، حيث أنشأ هو وأولاده دويلات صغيرة.

ولا أظن أن في بيوت قريش بيتاً هو أكثر نسلاً من بيت علي بن أبي طالب، فأولاده كثيرون، ومعظم أولاده، صبيان وبنات، ومن هؤلاء تفرع مئات انتشروا في عالم الإسلام كله، والقليلون منهم لم يعقبوا، وأقل من هؤلاء هم العلويون الذين لم يطلبوا الخلافة، وقد قتل منهم الكثيرون جداً في هذا المطلب، ونجح الكثيرون أيضاً في إنشاء بيوت إمارة في نواحي عالم الإسلام حتى تعد بيوتهم بالعشرات معظمها في اليمن وعسير وبلاد الديلم وهي طبرستان والمغرب، هذا إلى الفاطميين في المغرب ومصر، وسنتحدث عنهم.

وأهم ما نشير إليه هنا هو أن هذا البيت بشتى فروعه ظل مرشحاً من أمم الإسلام جميعاً للرياسة والإمارة أو الخلافة، ومنهم من نشأت منه بيوت شرف وسرو مثل بني طباطبا وهم من أبناء ابراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب.

ومعظم أفراد هذا البيت كانوا من أفاضل الناس، ولكن كان منهم أيضاً الكثيرون ممن لم تحمد سيرتهم. وباستثناء هؤلاء القليلين كان العلويون في شتى بلاد الإسلام موضع تكريم الناس ومحبتهم، ومن هؤلاء الهواشم العلويين كانت الدول الكثيرة التي ظلت تحمل اسم قريش على رؤوس الناس عبر القرون.

وإذا كانت محاولات قريش إنشاء دول كبرى تمثلت في بني أمية وبني العباس والفاطميين، لم تحقق رجاء الناس في العدالة والحكم الإسلامي الصالح، إلا أن العباسيين منهم حملوا اسم قريش على رؤوس الناس في مشرق

الـدولـة الإسـلاميـة حتى منتصف القـرن السـادس الهجــري / الثـالث عشر الميلادي، وإن لم تحمد سيرة أكثرهم وخاصة بعد خلافة المتوكل على الله.

ولكن بيوتاً قرشية هاشمية علوية أخرى، أنشأت دولاً عرفت كيف ترفع اسم قريش في نواحي عالم الإسلام إلى يومنا هذا.

أما بنو عبد شمس من قريش، فقد كانت لهم بعد زوال دولة بني أمية في المشـرق، دولة كبـرى في الأنـدلس ودويـلات أخـرى أو إمـارات صغيـرة قـام معظمها في أفريقية.

الفصل السّابع

نهُوض البَيت العَلوي وَإحيَاؤه لِقرُيش وأهمّ الدّول التي أنشأتها قريش على طول التَاريخ بَعدَ الدّولتَين الأمويّة وَالعبّاسيَّة

تمهيد

دامت السيادة لقريش في المشرق إلى سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م، ولكنها كانت سيادة اسمية مثلها الخليفة العباسي الذي انتهى دوره في قيادة دولة الإسلام في أيام المتوكل على الله العباسي (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١). فقد كانت في هذا الرجل بقية من نخوة عربية وميل إلى ارم ما وهي من أمر البيت العباسي واتجاه إلى إعادة الثقة إلى العرب وإعادة القوة والجلالة إلى قريش كي يعتز بالعرب، ولكن المتوكل كان أقل من أن ينهض بمثل هذا العمل الضخم، فقد كان طائشاً أهوج سكيراً مقبلاً على لذاته، وكان دافعه إلى التخلص من الأتراك والعودة إلى العرب صادراً عن خوف من الأتراك ورغبته في تأمين ملكه منهم بعد أن استبدوا بالخلافة. ثم إن تدبيره المؤامرة لإيقاع مذبحة بالقادة الأتراك كان تدبيراً صبيانياً مكشوفاً، وكانت كراهيته لابنه المنتصر أمراً عجيباً. فقد كان أحرص ما يكون على إهانة ابنه هذا والإساءة إليه، فانضم المنتصر إلى الأتراك ودبر معهم قتل أبيه، وتم ذلك وعاد السلطان للأتراك، وكانت تلك آخر محاولة عباسية للتخلص من سلطان الأتراك، وبعد ذلك تتدهور الخلافة العباسية إلى درك سحيق وتدخل في دور النزع الطويل. وعلى أيدي القادة الأتراك مات قاتل أبيه، واختار القواد أحمد بن محمد المعتصم بالله خليفة، وتولى عرش الخلافة باسم المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ/ ٨٦٢ - ٨٦٦ م) ومن ذلك الحين إلى نهاية الدولة العباسية في بغداد لم يعد لقريش من الخلافة إلا اسمها. وخرج هذا البيت القرشي من نطاق القوة

والرياسة الفعلية لدولة الإسلام في المشرق، حتى احترام الناس وإجلالهم لهم فقدوه، فإن الأخطاء والجرائم التي ارتكبها العباسيون للوصول إلى الحكم والجرائم الأخرى التي قارفوها للبقاء فيه، كل هذه ابغضت البيت العباسي إلى الناس. أضف إلى ذلك ما كان منهم من ميل عن العرب ونفور منهم وتفضيلهم غير العرب عليهم ولجوئهم إلى العرب أحياناً للإستعانة بهم في إصلاح أمر بيتهم أو تدعيم الخلافة لواحد منهم ولا زيادة، كل هذا باعد بين العباسيين والناس بشتى أجناسهم وطوائفهم، فلم يعد للناس أمل إلا في العلويين ـ أهل بيت النبي ـ، واتجه المسلمون إلى تأييد كل طالب للملك ثائر على العباسيين من بيت علي بن أبي طالب.

وشيئاً فشيئاً وبعد العصر البويهي، وفي منتصف العصر السلجوقي يتحول الخليفة العباسي إلى أمير من جملة الأمراء المتنافسين على السلطان في العراق، فكانت له أرضه واقطاعه وجباياته واتاواته على الناس، وقد يزور الناس الخليفة للتبرك وقد يشاهدونه في شرفة قصره للفرجة كما نرى في رحلة ابن جبير ولكنه لم يعد رمزاً لشيء جدي. وهكذا عاش الخلفاء العباسيون إلى آخر أيامهم في بغداد وليس لهم من جاه القرشية وجلال الهاشمية إلا ذكرى مجد قديم ذهب مع أمس الدابر.

أما الجلالة الهاشمية فقد انتقلت إلى بيوت الأشراف من الهواشم، واستقرت بصفة خاصة في فروعهم التي لم تتوقف عن المطالبة بحقها في السلطان يوماً، وغالبيتهم العظمى من العلويين من نسل علي بن أبي طالب عن طريق ابنيه الحسن والحسين. ولكنهم بعد مذابح كثيرة نزلت بهم، مالوا إلى الهدوء والبعد عن السياسة، وهؤلاء الأشراف نجدهم في كل بلاد الإسلام من غرب الصين إلى المحيط الأطلسي، فلكل بلد من بلاد الإسلام أشرافه من أصحاب العمائم الخضر، ولا يمكن التحقق من نسب بيت من هذه البيوت، فإن دعوى الأنساب

أسرار لا يعلم حقيقتها إلا اللّه سبحانه، ولا نستطيع أن ننكر على بيت دعواه الهاشمية إلا إذا كانت لنا على ذلك حجة بالغة، وفي حالات معينة معروفة تثبت دعوى الهاشمية ثبوتاً قاطعاً، كما هو الحال في أمر الأدارسة والأشراف السعديين والعلويين الفلاليين وبعض بيوت أشراف الحجاز. والتسليم بالدعوى في كل هذه الحالات اسلم ما لم يقم دليل قاطع بالبطلان، وبالنسبة لمؤرخ قريش يستوي صاحب الحق في النسب ومدعيه بالباطل. فإذا صدق كان ذلك دليلاً على طول عمر قريش واستمرار القوة والسيادة في بعض بيوتها اما إذا كذب كان ذلك دليلاً على استمرار جاه البيت وشرفه، لأن الناس لا تنتسب لبيت إلا إذا كان هذا الانتساب يخلع على صاحبه جلالة وشرفاً، ولم تعرف أمة الإسلام في تاريخها جلالة هي أرفع من جلالة القرشية الهاشمية، والانتسابات لبيوت قريش على طول التاريخ الإسلامي كثيرة جداً وإثبات دعواها بالغ العسر، ولهذا كانت في كل بلد من بلاد الإسلام نقابة أشراف ولها نقيب يعتبر رأس أشراف أهل البلد وإن لم يكن له في السياسة أي نصيب، وهذه النقابات هي التي تتحرى عن الأصول والأنساب وتجيز الانضمام للنقابة لمن تتحقق من صحة نسبه، والأشراف في المفهوم العام هاشميون علويون ولكن يدخل معهم القرشيون من الهواشم جملة وأحياناً يسمى نقيب الأشراف شيخ قريش. وقد تتجه همة بعض أولئك القرشيين لطلب السلطان وإذا ساعدت الظروف ووُجد فيهم من له ميل وأهلية لشئون الحكم والسياسة، وهنا تقوم دولة قرشية هاشمية في الغالب يطول عمرها أو يقصر، ولكن الدول التي يقيمونها في العادة تكون صغيرة لا تتميز عن غيرها بشيء، لأن القرشية فقدت هذه الهالة التي أحيطت بها خلال العصر الراشدي، ولم يبق منها في قلوب المسلمين من الجاه إلا الحب العميق الذي يكنه المسلمون جميعاً لرسول اللّه ﷺ النبي القرشي الذي اصطفاه اللّه من بيت بني هاشم، وأمره أن يبلغ رسالته إلى الناس. لتشمل أهل الأرض أجمعين. وقد يوفق طالب السلطان من بني هاشم في إنشاء دولة أو لا يوفق.

ولدينا أمثلة كثيرة من هذه التوفيقات السياسية التي أدركها القرشيون في عالم الإسلام على مدار العصور الماضية بل إلى يومنا هذا. وسأنفق بقية هذا البحث في دراسة أهم الدول القرشية التي قامت خلال التاريخ، وكلها هاشمية إلا دولة بني أمية العبشميين، وأسرة يقال إنها مروانية في بلاد الفور في جنوب غربي السودان النيلي.

وسأكتفي هنا بالدول القرشية الكبرى أو التي تميزت بطابع خاص، أو قامت بعمل عظيم. لأن احصاء الدول القرشية على طول التاريخ وعرضه عسير كل العسر، والتأريخ لها أعسر. والذي نريد أن نظهره للناس هي حيوية الأرومة القرشية والهاشمية خاصة. فهذه القبيلة تعتبر من أصغر القبائل المعروفة في التاريخ حجماً، ولكنها دون شك أعظمها كلها. فقريش أنشأت لغة تعتبر من كبريات لغات البشر، وحملت عبء نشر الإسلام وأقامت حضارته، ومن بين أظهرها ظهر سيد الأنبياء وخاتم النبيين ﷺ، ورغم ما أصابها على طول التاريخ فقد بقيت بيوت من قريش تحكم أمماً كثيرة من كبريات الأمم إلى يومنا هذا. وهذه ظاهرة فريدة في بابها في التاريخ وسندع دولتي الأمويين والعباسيين فقد تحدثنا عنهما بما فيه الكفاية في تضاعيف هذا البحث.

الدولة الأموية الأندلسية

وأقدم المحاولات القرشية بعد الأمويين المشارقة والعباسيين هي محاولة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل، وتمكنه من إنشاء الدولة الأموية الأندلسية في سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٦، وهي من أعاظم دول الإسلام وهي كذلك أنجح محاولة للحكم قام بها رجل عبشمي من غير بني هاشم، لإنشاء دولة ذات كيان وشخصية ووظيفة وتاريخ بعد أن ماتت الدولة الأموية المشرقية.

ولا يرجع توفيق هذه الدولة إلى محبة كانت عند الناس لبني أمية، بل لأن عبد الرحمن بن معاوية كان من أعاظم الموهوبين في شئون السياسة والحرب وقيادة الناس وقد أعانته بالفعل ظروف موانية، ولكن فضله يتجلى في أنه استطاع الإفادة من الظروف التي وجدها إلى درجة باهرة، وإذا نحن قسنا توفيق هذا الرجل في الظروف التي قامت فيها دولته بمعاوية بن أبي سفيان أو مروان ابن الحكم لوجدناعبد الرحمن بن معاوية يشف عليهما شفوفاً واضحاً، لأن كلا من معاوية ومروان أقام دولته وهو بين رجال بيته وتحت يده قوة عسكرية تؤيده، ثم إن أهل المشرق كانوا بعد مقتل عثمان في شوق الى الخروج من الفتنة وجمع الكلمة، وأمة الإسلام في المشرق كانت لا زالت بخير، وقد استطاعت الأمة أن تغلب العقل على العاطفة وأيدت أقوى طلاب الحكم وأصلحهم بعد استشهاد علي بن أبي طالب، فعلت ذلك محافظة على الوحدة لا تسليماً بحق معاوية. أما عبد الرحمن بن معاوية الداخل فقد أقام دولته بيمينه فعلاً، وقد أعانه في ذلك موالي بني أمية وكانوا في الحقيقة جماعة قوية تجمعها مصالح مشتركة إلى جانب الولاء للبيت الأموي، ولكن إقامة الدول ليست أصعب خطوة في تاريخها، وإنما المهم هو الاستمرار وتدعيم البناء وتهيئة السبل والوسائل لاستمرار الدولة على حال القوة والسيادة والقيام بمطالب الحكم ومسئولياته على نحو يستأهل تأييد الناس ويؤدي بهم إلى الرضى والتسليم، فقد طلب الخلافة مثلاً عبد اللّه بن الزبير في المشرق، قبل قيام دولة عبد الرحمن الداخل بما يقرب من نصف القرن وكان عبداللّه بن الزبير صحابياً ابن صحابي، وقد قام في المدينة المنورة واعتصم بمكة ودخلت في طاعته مصر والعراق وربما خراسان، ولكن الرجل نفسه لم يكن مؤهلاً للرياسة أو السياسة، وقد كان له عضد قوي في أخيه مصعب بن الزبير وأيدته القيسية كلها، ولكنه لم يفد من تلك الظروف بل جعلها ـ بِضَعْف تفكيره السياسي ـ موضع ضعف في حركته، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن البيت الأموي تميز دائماً بوحدة عاطفية عصبية كانت من أكبر عناصر قوته في صراعه السياسي مع منافسيه سواء قبل الإسلام أو بعده، فلم تتفكك وحدة البيت المرواني في

المشرق إلا بعد ضربات عنيفة تلقاها البيت نتيجة لأخطاء بالغة وقع فيها بعض خلفاء بني أبي سفيان بن حرب، ثم بعض بني مروان بن الحكم، وأخطر هذه الضربات هي الخلافات الحادة التي وقعت بين أفراد البيت المرواني، وما استتبعته هذه الخلافات من إضعاف الرابطة التي كانت تربط البيت المرواني بالقبائل الشامية العربية الكبيرة ما بين قيسية ويمنية، أي أن بنيان الدولة تصدع في صفوته وقيادته، ومثل هذه الصدوع تكون في العادة مؤذنة بانهيار النظام السياسي الذي تقوم عليه، فهو صدع رأسي يصعب التئامه.

أما دولة بني أمية الأندلسيين فقامت على وحدة البيت المرواني الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل في الأندلس، وقامت كذلك على تأييد جماعات موالي بني أمية، وهي جماعات صغيرة من ناحية العدد، ولكنها كانت أقلية قوية واعية إلى أن أساس قوتها هي قوة البيت المرواني وضرورة إلتفافها حوله لتستمر هيبته وسلطانه.

جماعة الموالي الأندلسيين هذه لم تكن كلها موالي خلفاء البيت الأموي ولا موالي البيت جملة، بل يدخل فيها موالي قريش بمن فيهم موالي بني هاشم، وفيهم قلة من موالي رسول الله ﷺ.

وموالي بني أمية الأندلسيون لم يكونوا كلهم من غير العرب بل كان فيهم عرب. والولاء هنا انتساب، ففي جماعات الجند العربي الفاتح للمغرب والأندلس كانت فصائل من الجند العربي تدخل في ولاء الخليفة القائم بالأمر ليكون هذا الولاء عنصراً من عناصر قوتها وضماناً لحسن معاملة أفرادها من جانب الحكام والولاة، وبعضهم اكتسب هذا الولاء منذ كانوا في المشرق وقبل اندراجهم في جيوش الفتح، وبعضهم كان من بربر المغرب، فكان بعض شيوخ القبائل البربرية يدخلون في ولاء الخلفاء أو عمالهم مثل عقبة بن نافع وحسان بن النعمان وموسى بن نصير، فتدخل القبيلة كلها في هذا الولاء الذي

يأخذ هنا معنى الحلف أو الأُخوة التي تترتب على هذا النوع من الأحلاف فيقال في هذه الحالة ان الرجل أخو بني فلان.

وهذا الولاء كان يرفع أصحابه درجة على غيرهم من جماعات العرب والبربر المندرجة في الجيش. وقد تكونت في المغرب والأندلس جماعات من أولئك الموالي، أما موالي المغرب فقد تلاشوا أثناء الفتنة المغربية الأولى التي كانت في المغرب الإسلامي كله احتجاجاً على تصرفات حكام العرب وخاصة القيسية منهم، وكانت بداية هذه الفتنة سنة ١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م في خلافة هشام ابن عبد الملك وولاية عبيد الله بن الحبحاب على المغرب والأندلس، وما دامت الفتنة المغربية قد قامت على بني أمية فقد كان من الطبيعي أن يختفي أولياؤها ومواليها. أما في الأندلس فقد ظلت البلاد تابعة لبني أمية بالإسم رغم افتراق الكلمة والحروب الأهلية بين العرب بعضهم وبعض، وبين العرب والبربر، والفتنة هناك لم تأخذ صورة ثورة على بني أمية وحكمها فحسب، بل أخذت كذلك صورة نزاع على السلطان بين الكلبية والقيسية، وكلاهما كان في وقت أو آخر من صنائع بني أمية، أو بين العرب والبربر، وهنا نجد أن العرب جميعاً في الأندلس يتمسكون بطاعة بني أمية، وتنتهي فتنة عصر الولاة في الأندلس بنصر العرب وهزيمة البربر، فأما العرب فقد التقوا حول راية الوالي الأموي، وكان في الغالب منتخباً من الجند المحليين، وكان زعماؤهم في ذلك موالي بني أمية.

وعندما وصل عبد الرحمن الداخل إلى المغرب ونزل في كنف قبيلة نفزة البربرية في المغرب الأوسط، أو في ناحية طنجة، وأرسل مولاه إلى الأندلس يستطلع له الأحوال فيه، رحب به موالي بني أمية من العرب والبربر جميعاً، لأن رجال البربر توقعوا أن ينقذهم هذا التمسك بالولاء الأموي من الوهدة التي ترددوا فيها من انتصار العرب عليهم في وقعة أقوة برطورة، وبهذا اتفق موالي بني أمية جميعاً على تأييد عبد الرحمن وعاونوه بإخلاص على إقامة إمارته في ١٤ مايو ٧٥٨م.

وقد تجلت موهبة عبد الرحمن الداخل السياسية في أنه بعد انتصاره وإقامة دولته، ظل يحتفظ بهؤلاء الموالي وظل يعتمد عليهم في الإدارة والحرب. وهو لم يعاملهم بالطريقة غير المعقولة التي عامل بها أبو العباس عبدالله السفاح وأبو جعفر المنصور نقباء الدعوة العباسية ودعاتها، فبينما اتجه العباسيان إلى القضاء على النقباء والدعاة أو إهمالهم، والاعتماد على جند مرتزق مع الاعتزاز ببعض قادة العرب ونفر من الموالي نجد عبد الرحمن الداخل يحفظ لبيوت الموالي مكانتها ويجعل منها بيوتاً مساندة للحكم الأموي، ومن هذه البيوت اختار رجال دولته. وكان معظم رؤساء بيوت الموالي هؤلاء رجالاً ممتازين ذوي مواهب وعقول، فوضعوا أيديهم في أيدي بعضهم بعضا، واجتهد كل بيت من بيوتهم في بذل أقصى الجهد في خدمة الأمير في وظائف القيادة والحجابة والوزارة وولاية النواحي حكومة المدن وما إليها.

واجتهد كل بيت من بيوت هؤلاء الموالي الأندلسيين في أن يكون له تخصص في ناحية من نواحي خدمة الدولة دون اهمال النواحي الأخرى، فاشتهر بيت بني مُغِيث ومؤسسه عبد الكريم بن مغيث الرومي مولى عبد الرحمن الداخل في القيادة العسكرية، وكذلك بيت بني عَبْدَه (ومؤسسه حسان بن أبي عبده) وبيت بني بُخت (مؤسسه يوسف بن بُخت) في الإدارة والوزارة، وبيت الزجالي في الكتابة، وهكذا نجد الأمير المرواني مُحاطاً دائماً ببيوت موالية له مخلصة في خدمته على رأسها رجال ذوو مواهب وملكات، وفي كل بيت من الكهول والشباب المدربين المستعدين للخدمة العدد الوفير، فيختار منهم الأمير من يشاء دون أن يخشى انقلاباً أو خيانة، لأن هذه البيوت أصبح مثلها بيوت الأشراف التي كانت تحيط بالأسر المالكة في الغرب، وتساندها وتسد خللها وتجمع شملها وترأب صدوعها وتكسب لها ولاء الناس.

وإلى هذه البيوت من الموالي وسياسة بني مروان معها نشأ نظام تعدد الوزارة في الأندلس، فإن الأمير كان يرقي من يشاء من رجال هذه البيوت إلى مرتبة الوزارة، فإذا غضبت عليه وأراد إدالته بغيره أقاله فلزم بيته مع لقبه

ونعمته وقد يعيده إلى الخدمة فيها بعد، ومن النادر جداً في تاريخ المروانيين الأندلسيين أن نسمع عن نكبة وزير، فإن نظام الإقالة من الخدمة مع الإبقاء على النعمة أصبح نظاماً متبعاً في الدولة الأموية الأندلسية.

وبفضل هذا النظام صلح أمر البيت القرشي المرواني في الأندلس، ورضي عنه الناس وطال عمره، لأن الحكم لم يكن هناك استبدادياً فردياً قط، بل كان شورياً في جماعة صغيرة معينة إنضم إليها فقهاء المالكية الذين أيدوا البيت المرواني فكافأهم الأمراء على ذلك بحصر القضاء والفتيا فيهم، وقامت دولة المالكية إلى جانب دولة المروانية وشد الوزراء أزر البيت وسدوا خلل الحكم وقدم له الممتازون من أهل الفقه إلى جانب بيوت الموالي أو بيوت أهل الحكم أو بيوت الأسر الموازية خدمات لا تحصى.

بفضل هذا النظام في الحكم الفريد في بابه في تاريخ الدول الإسلامية استطاع بنو أمية الأندلسيون أن يطيلوا عمر دولتهم على حال مشكورة من القوة والسيطرة على شبه جزيرة ايبريا، وهي من أعسر بلاد الله على الحكم وأصعبها على التوحيد تحت نظام سياسي واحد، ومن الواضح أن هذا النظام لم يكن السبب الوحيد في نجاح رجال البيت الأموي الأندلسي، لأن رجال البيت المرواني في جملتهم تمتعوا بنصيب كبير من القدرة والحزم والقدرة على سياسة الأمور. ولكننا نستطيع القول بأن نظام الحكم الجماعي هذا كان من أقوى الأسباب في اتصال سلسلة الأمراء الأكفاء في البيت المرواني، فمن الثابت أن رجال هذه البيوت لهم فضل كبير في سد خلل الحكم وتلافي أضرار شطحات الأمراء وميلهم إلى التعدي والاستهتار بالقانون بالعرف والتقاليد، وكثيراً ما تدخلوا في اختيار الخليفة وأحسنوا الاختيار، فقد كان الحكم بن هشام الملقب بالربضي مستبداً غاشماً أول حكمه، ولو ترك على حاله لأصاب البيت الأموي بلاء شديد لأن أهل الأندلس كانوا شعباً عنيداً قوي الشكيمة شديد المراس

عنيف المقاومة جريئاً على الدول والحكام. وقد كاد أهل المربض (الضاحية الجنوبية) في قرطبة يطيحون به في ثورتهم الثانية عليه سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٧ م. ولم ينج الأمير من الهلاك وقصره من الخراب إلا بفضل الحاجب القائد عيسى ابن شهيد الذي لجأ إلى حيلة خسيسة ولكنها فعالة، إذ أمر فرق الصقالبة من حرس الأمير بالهجوم على بيوت الثائرين وإلقاء النار فيها وفيها أسر الثائرين ونساؤهم وعيالهم، فما راعهم إلا والنار مندلعة في بيوتهم وهم يهاجمون القصر فتركوا ما كانوا فيه وارتدوا لانقاذ ذويهم، وهنا ركب خيالة الجند أقفيتهم وكادوا يفنونهم. وقد نجحت الإمارة بهذه الفعلة ولكن ثمن النصر كان فادحاً فيما بعد، لأن حقد أهل قرطبة والأندلس جميعاً على العسكر الأموي أصبح عميقاً وشاملاً، واستمر عبر الأجيال حتى كان من أكبر أسباب ضياع أمر الخلافة القرطبية المروانية.

وقد تكررت أعمال النابهين من رجال هذه البيوت في تلافي أخطاء الأمراء، وتلافي نتائج الكثير من اتجاهاتهم إلى الظلم ولكن الامراء أنفسهم ظلوا دائماً على مستويات طيبة من اليقظة والقدرة، وإذا كان رجال مثل الحاجب القائد أبي العباس أحمد بن أبي عبدة قد أنقذ الإمارة القرطبية من الضياع تحت ضغط الثائرين والواثبين الذين غصت بهم الأندلس أثناء إمارة الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢ م). فإن الأمير عبدالله نفسه كان من أفذاذ الأمراء. كان عاقلاً عنيداً حكيماً لا يميل إلى راحة أو يستنيم لكفاية وزير أو حاجب، وقد ظل طوال سنين إمارته الثلاثين ثابتاً لخصوم الإمارة ـ حتى في الوقت الذي ضاق فيه نطاقها حتى اقتصرت على ولاية قرطبة ـ ظل هذا الرجل الصلب راسخاً كالطود حتى أعيى خصومه والخارجين عليه واستنفد قواهم، فهلك بعضهم في أيامه وتهيأت البقية للاستسلام حتى أمنت إلى أمير شريف مأمون الجانب سليم الذمة بعد وفاة الأمير عبدالله، وكان هذا الأمير هو عبد الرحمن بن محمد حفيد عبدالله، الذي أنهى مقاومة الثائرين

وتلقى استئمانهم وبر لهم بما وعد من الأمان، فاستقر له الأمر وعاد ملك البيت المرواني يظل الأندلس الإسلامي كله. ولهذا وجد عبد الرحمن أنه جدير بلقب الخلافة، إذ رأى نفسه أحق بها من معاصريه العباسيين والفاطميين، فنادى بنفسه خليفة في ذي الحجة ٣١٦هـ / أوائل ٩٢٩م. وبذلك عادت الخلافة إلى البيت المرواني بعد إختفائها ١٨٤ سنة قمرية، وهذا في ذاته حدث فريد في بابه، وهو من أنصع الأدلة على حيوية الفرع المرواني من آل أمية القرشيين، ويزيد في وضوح هذا المعنى أن الخليفة الأموي المشرقي الذي انتهت الخلافة الأموية المشرقية في أيامه، وهو مروان بن محمد لم يكن بالخليفة الضعيف أو العاجز أو القاعد، بل كان نشيطاً عنيداً حتى سمي بالحمار لعناده وإصراره، وقد فقد الخلافة، لأن زمان بني مروان في المشرق كان قد ولى ونخر في عظام ملكهم سوس الفساد وانشقت عصا جندهم العربي ودأب مروان هذا على القضاء على اليمنية فأساء إلى نفسه وبيته بذلك أكبر اساءة لأن اليمنيين كانوا في الواقع دعامة البناء العسكري للبيت الأموي، وهذا يفسر لنا اجتهاد العناصر اليمنية في خراسان في القضاء على دولة مروان بن محمد، أما مروان بن محمد نفسه فقد ظل يناضل في عناد حتى قتل في صعيد مصر، ولم يكن مقتله نهاية البيت المرواني فقد تجدد في حديث اسطوري الطابع في نواحي شرق السودان النيلي شمال شرق نيجيريا وتجددت الخلافة الاموية نفسها في صورة تاريخية تدعو إلى الاعجاب على يد الأمير عبد الرحمن الداخل في الأندلس ثم على يد حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد ابن عبد الرحمن الأوسط، الذي أخذ يوم إعلانه خلافته لقب الناصر لدين الله، وطريف من الأمر أن أبا حيان بن خلف بن حيان مؤرخ البيت الأموي الأندلسي لا يذكر عبد الرحمن الثالث إلا بلقبه الكامل: «الناصر لدين الله أمير المؤمنين» إعزازاً له وتقديراً. وبيت بني مروان في الأندلس كسب بفضل امرائه وخلفائه ورجاله إجلال أهل الأندلس جميعاً، فتعلقوا به وفاخروا به على نحو لم تظفر به دولة من دول الإسلام بعد الخلفاء الراشدين ومن أنصع الأدلة على ذلك حماس رجال مثل ابن حزم وابن حيان للبيت الأموي بعد زواله.

وبفضل تلك الجلالة التي كسبها البيت المرواني القرشي في الأندلس، عاد اسم قريش إلى العلو في عالم الإسلام علواً كبيراً.

وكان أمراء بني مروان الأندلسيين عرباً خالصين، ولا نقصد هنا عروبة الدم، فإن أمهات كل من تولى عرش قرطبة كن غير عربيات، حتى أم عبد الرحمن الداخل كانت بربرية، كلهم ولدوا لأمهات أولاد معظمهن جليقيات أي من إقليم جليقية شمالي غرب شبه الجزيرة، أو بشكونسيات أو صقلبيات، ولكننا نقصد ناحية القلب واللسان والعقل والثقافة والروح فقد كان بنو أمية الأندلسيون عرباً لساناً وفكراً وأسلوب حياة، وقد اتبعوا في ترتيب قصورهم وشئون إدارتهم تقليداً شرقياً يسمى بالتقليد الشامي، يقوم على اللغة العربية والاعتماد على رجال عرب الشام وأبنائهم، حتى موالي بني أمية كان الشاميون منهم يفضلون على من سواهم.

وقد حسب المستشرق الاسباني الموهوب خُليان ريبيرا نسبة الدم العربي في دماء عبد الرحمن الناصر، فجاءت واحداً على ستة عشر، ولكن الرجل كان عربياً فحلاً فصيحاً ظاهر القرشية رغم أن أمه كانت جارية جليقية تسمى مارية، يحرفها بعض المؤرخين إلى ماوية وكذلك كان ابنه الحكم المستنصر، وهو ابن جارية مشهورة تسمى مرجان أصلها بشكنسية الأصل، وقد حكى ابن حيان في الجزء الخامس من تاريخه «المقتبس» من أمرها عجباً وهذه هي صبح البشكنسية التي قامت بدور سيء في تمكين الطاغية المستبد المخرب محمد بن أبي عامر من السلطان في دولة بني أمية.

وكانت لبني مروان الأندلسيين نتيجة لروحهم العربي الإسلامي هذا عناية فائقة بالعلوم والكتب، ويندر أن نجد منهم واحداً غير شاعر، ومنهم الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر، وهو خليفة فقيه عالم توسع في العناية بمكتبة القصر حتى صارت دار كتب تقع فهارسها في ٤٤ كراسة في كل كراسة منها خمسون ورقة، والفهارس كما هو واضح لشتى العلوم والفنون، فكأن

فنون الكتب في هذه المكتبة العامرة كانت ٤٤ فنا ومجموع كتب المكتبة قرابة المائة ألف كتاب على الأقل، لأن كل فهرس كان فيه خمسون ورقة ومجموع الأوراق ٢٢٠٠ ورقة وهي ٤٤٠٠ صفحة، ولم يكن في هذه الصفحات إلا عناوين الكتب فحسب، فإذا حسبنا أن كل صفحة ضمت عشرين عنواناً فهذه ٨٨٠٠٠عنوان، وهذه في الحقيقة أضخم مكتبة واحدة سمعنا عنها في التاريخ الى العصر الحديث، ولقد حدثونا عن ملايين الكتب في مكتبات بغداد والقاهرة، ولكنها كلها مبالغات لا تصدق، ولكن هنا رقماً حقيقياً لعدد الكتب في مكتبة القصر بقرطبة، وقد جمعها واهتم بها وأمر بتجليد كل كتبها خليفة مرواني قرشي هو الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله.

وهذا لا يمنع من القول بأن بني أمية الأندلسيين كانوا اسباناً في نفس الوقت، كانوا أبناء الوطن الأيبيري مع قرشيتهم. الأندلس كان وطنهم وهم كانوا المسئولين، وكان عليهم أن يخلصوا له ويدفعوا عن أهله ويطبقوا شرع الإسلام فيما خضع لهم من أرضه، وهذه فضيلة من كبرى فضائلهم وسبب من أكبر أسباب طول عمر دولتهم. كانت القرشية والإسلام الدينية والفكرية واللغوية والمعنوية، أما الايبيرية فكانت وطنهم الذي أحبوه وارتبطوا به ودافعوا عنه، وكانت أمهاتهم ايبيريات وكذلك كان الكثير من خدمهم فنشأوا يتكلمون الاسبانية لغة ثانية يتكلمون بها بسيولة في بيوتهم ومع نسائهم ومع أهل وطنهم ومن الثابت لدينا أنهم جميعاً، ابتداء من هشام الرضي كانوا يتحدثون أي اللغتين شاءوا بنفس السيولة. ولدينا أوصاف مشاهد من مجالس الأمراء والخلفاء والقضاة تؤيد ذلك وكانت لبعضهم ألقاب إسبانية فمن أحفاد هشام الرضي هذا كان عالم مؤرخ اعتمد عليه أبو حيان يسمى معاوية الشبانسي أو ابن الشبانسية، وهذا اللفظ تحريف للفظ اسباني هو سابينتيا Sabientia أي التبحر في العلم ومن أحفاد الحكم الربضي رجل يسمى عبدالله ابن عبد العزيز تولى الوزارة ذات مرة وكان بخيلا فلقبه أصحابه بالبطره شك وهما لفظان إسبانيان Piedra Seca أي الحجر اليابس كما يقول ابن حزم.

وهذه العصبية الإسبانية هي التي مدت لذلك البيت خيوطاً في الأندلس فاختلطوا بالناس وفهموهم وارتبطوا بالأرض والناس فازدادت دولتهم تمكنا، وأصبحت دولة نابتة في التربة الإسبانية، واغلة عروقها في الأرض الأندلسية، ولم يكونوا كالكثيرين من أصحاب دول الإسلام في مواضع أخرى: محتلين أجانب وكان لا بد أن تعصف بهم الرياح كما تعصف بأي أجنبي مستبد.

كان بنو أمية الأندلسيون جميعاً ممثلين للعروبة والقرشية في الأندلس، كانوا يمثلون العروبة لساناً وفكراً وعصبية عربية إسلامية من طبقة عالية وبفضلهم وبفضل حرصهم الشديد على العروبة والإسلام أخذ الأندلس صورة بلد عربي وإن كان معظم سكانه غير عرب من ناحية الأصول، ولكنهم استعربوا على دين ملوكهم وأصبحوا من أشد الناس اعتزازاً بالأندلس العربي والإسلام الأندلسي، وكانت عصبيتهم الأندلسية هذه تستلفت الأنظار وتثير الخواطر عليهم حيثما حلوا، وابن حزم نفسه عندما يتحدث عن نفسه وأهل بيته وتربيته في كتابه المبدع «طوق الحمامة» يصور نفسه فيه في صورة رجل عربي نشأ نشأة أندلسية، فهو إلى سن العشرين كان لا يحسن الصلاة حتى لقد خجل من نفسه عندما دخل المسجد مرة، فلم يعرف كيف يصلي صلاة الجنازة لأنه في صباه عاش حياة أندلسية إسبانية بين نساء البيت وجواريه وكلهن إسبانيات. على أيديهن تربى، كما يقول هو بنفسه ولكنه عندما أحس بجهله بالإسلام وبالثقافة العربية أكب على الدراسة بذكاء العربي ومثابرة الاسباني فبلغ من المعرفة بالعربية والإسلام والفقه وتاريخ العرب درجة عالية، وأصبح بذلك من مفاخر التاريخ الفكري العربي ومن مفاخر الفكر الإسباني كذلك، فهو عند الاسبان مفكر وفيلسوف اسباني وعالم بشئون الأديان يكتب بالعربية، وهو عندنا منارة العلم العربي الإسلامي الاندلسي وأحسن كتاب كتب عن ابن حزم كتبه عالم اسباني معاصر هو ميجل آسين بلاثيوس. وابن حزم نفسه كان من أشد الناس تعلقاً بجانبه، الإسباني وهو القائل:

أيا جوهر الصين سحقا، فقد ∴ غنيت بياقوتة الأندلس

وكتابه «رسالة في فضل الأندلس» خير شاهد على ذلك. وهو في نفس الوقت من أشد المتحمسين للبيت المرواني الأندلسي لا يزال يلهج لسانه بالثناء عليه، وهو يرى أن مجد الأندلس العربي الإسلامي كان معقوداً بلواء المروانيين، فلما انكسر اللواء انكسر الجيش كله، وحُقَّ له أن يقول ذلك، فقد قاله أيضاً أحد ملوك النصرانية وهو سانشو الأول الكبير ملك نَبرَّة، فقد هاله تدهور الأندلس السريع بعد سقوط البيت المرواني سنة ٤٢٣/١٠٣١م. فقال ما معناه إن الأندلسيين خيبوا ظنه لأن قوتهم كلها كانت في ملوكهم.

والدور الذي قام به بنو مروان الأندلسيون في تاريخ الإسلام عظيم، ولكن دورهم في تاريخ أوروبا أعظم. فهم أسرة من الملوك والقادة القرشيين الأوروبيين. ولقد أقاموا دولتهم القرشية والأندلس قد مال ميزانه فعدلوه وحملوا لواء المجد والسؤدد والقوة ثلاثة قرون وتزيد: من ١٣٨ هـ إلى ٤٢٣هـ / ٧٥٦ ـ ١٠٣١م. كلها ـ خلا ثلاثةً وعشرين عاماً هجرية ـ سنوات صعود وقوة وعزة وكرامة وعروبة وإسلام، فقارن بذلك بني أمية المشارقة الذين انتهى عصر قوتهم الحقيقي سنة ٩٦ هـ/ ٧١٥ م. بوفاة الوليد بن عبد الملك، أي أن عصر قوتهم لم يزد على ست وأربعين سنة هجرية (٤٥ سنة ميلادية) وانقطع الرجاء فيهم بوفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م. أي بعد ٨٥ عاماً هجرية من قيام دولتهم، فأين هؤلاء من بني مروان الأندلسيين الذين ظلوا على حال القوة من ١٣٨هـ إلى ٤٢٣هـ أي ٢٨٥ سنة هجرية (٧٥٦ ـ ١٠٣١م أي ٢٧٥ سنة ميلادية؟ وأين منهم بنو العباس الذين قامت دولتهم سنة ١٣٢هـ ودخلت في دور الضعف من بداية عهد المتوكل سنة ٢٣٢هـ أي قرن هجري واحد وبقية تاريخهم نزع طويل طافح بالمآسي والمخازي. ولنضف إلى هذا أن بني أمية الأندلسيين شادوا ملكهم في ثغر من ثغور الإسلام، وأقاموا دولتهم بين فكي الأسد في قلب الغرب الأوروبي المسيحي، وساسوا أمورهم

وشقوا طريقهم بقوة وحزم واصرار وإذا إعتبرناهم بيتاً مالكاً أوروبياً نجدهم أذكى وأقدر وأطول عمراً من معاصريهم الأوروبيين من الكارولنجيين خلفاء قارله وشارل مارتل والتيوتون الأوتونيين أباطرة الدولة الرومانية المقدسة ومن بيتي هيو كابيه ثم أنجو ملوك فرنسا.

وفي التاريخ العالمي تحتل قريش مكاناً صدراً برسول الله ﷺ وصحبه وبالراشدين بفضل فتوحهم العظيمة في القارات الثلاث، وبالأمويين المشرقيين بفضل فتوحهم أيضاًوبالعباسيين لأنهم أنشأوا دولة غير باهرة سياسياً وعسكرياً ولكنها باهرة ثقافياً وحضارياً، ثم ببني أمية الأندلسيين بصفة خاصة لأنهم أنشأوا دولة أوروبية عربية مسلمة باهرة سياسياً وفكرياً تضاهي عظيمات الدول في الغرب الأوروبي.

دَولة الأدارسَة في المغرب الأقصىَ وَالسّليمانيّين في غرب المغرب المتوسّط :

من مأثور الإمام علي بن أبي طالب قوله: السيف أنمى للعدد. يريد أن من يخوضون المعارك ويتعرضون للسيف وتصيبهم المقتلة بعد المقتلة يزداد عددهم، وذلك صحيح تدل عليه زيادات السكان بعيد الحروب كما حدث بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، كأن الإنسان يشعر بغريزة المجموع أن جنسه أو قبيله يستشري الموت فيه فيجتهد في التعويض، وهذا أيضاً ظاهر في أجناس الحيوان التي يزداد اقبالها على التكاثر بعد الأوبئة والآفات.

ولا يصدق ذلك على قوم كما يصدق في العلويين، فإن علي بن أبي طالب أنجب ما يزيد على الخمسة عشر من الذكور غير الإناث، ولم ينجب منهم نسلاً ذكوراً إلا الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية، وكان نسل هؤلاء الثلاثة قليلاً فلما استشهد علي بن أبي طالب وتنازل ابنه الحسن وبقي الحسين ومحمد بن

الحنفية، ويبدأ الصراع الدموي الطويل بين بني أمية وبني علي، وخاض الأمويون في دماء الهاشميين العلويين خوضاً، وسقط من العلويين في المذابح العشرات، حتى لقد قتل مع الحسين في كربلاء أربعة من إخوته دون من استشهد من بنيه وبني أخوته، ولم يكن الحسن قد أنجب إلا ثلاثة من الذكور، هم الحسن وزيد وجعفر، فما هو إلا أن استعر القتل في آل علي حتى تفجر آل الحسن تفجراً فأنجب الرجال والنساء منهم العشرات حتى غدا الحسنيون وحدهم قبيلاً ضخماً كأنهم الشعب، ثم لم يلبث أن جاراهم الحسينيون فزادوا عليهم، ولم تقصر بقية فروع العلوية في ذلك، وكانت الوقائع بينهم وبين الأمويين أولاً ثم العباسيين بعد ذلك دافعاً بالأحفاد وأحفاد الأحفاد الى التفرق في فجاج الأرض، فانتشر العلويون في كل بقاع الدنيا حتى لم يخل من رجالهم ونسائهم قطر بل بلد. وقد انقرض الأمويون الذين تجردوا لإبادتهم بإنقراض بيتهم الأموي الأندلسي وانحصر العباسيون في بغداد والعراق وبعض الحجاز، ثم انقرضوا بعد ذلك فلم يبق منهم من يذكر إلاّ في بيت خلفائهم في مصر.

أما العلويون الذين تجرد هؤلاء للقضاء عليهم فقد كثروا كثرة غريبة ونبضت أعراقهم في كل ناحية واختلطوا بالناس في كل مكان وصاهروا الناس وأصبح الكثيرون منهم من صميم أهل النواحي وجمهورها، فاستشرت بيوتهم وتعددت أسماء أسراتهم حتى أصبح من أعسر الأمور ضبط فروعهم وإحصاء أسراتهم وقد انفقت من الوقت شيئاً لا يصدق في عمل شجرات أنساب لكي أحصي بيوت القرشيين التي وصلت إلى السلطان في نواحي دولة الإسلام شرقاً وغرباً، فترامى بي الأمر ورأيت أنني أجاوز به القصد وأخرج عن طوق قوتي المقصود، فاقتصرت وإلا ما فرغت أبداً ولقد قدرت أثناء هذا البحث أن الدول التي أنشأها القرشيون ـ العلويون خاصة ـ في نواحي الأرض جميعاً كبيرة وصغيرة تبلغ دون المائة، وانتهيت بها في الاحصاء إلى ما بعد المائتين وما بقي عليٌّ كان أعظم ورأيت أن هذه نتيجة يتحقق بها دون حاجة إلى مزيد من الاستقصاء جانب

من جوانب هذا البحث، وهو أننا لا نعرف قبيلة من قبائل التاريخ مهما تضخم حجمها لم تنشىء من البيوت الحاكمة على مر العصور قدر ما أنشأ أبناء قريش. والغالبية العظمى من أولئك القرشيين من بني هاشم وأبناء علي خاصة ما بين حسنيين وحسينيين وزيديين وجعفريين وعقيليين. فكأن الله زاد في بركة المصطفى صلوات الله عليه بالزيادة في أهل عترته حتى لم يحرم منهم فج من فجاج أرض الله، ونحن لم نحص ما أنشأته قبائل من الجرمان والمغول والترك لكي نعقد المقارنة بينها وبين قريش على كبر الفرق في الحجم واتساع البلاد وثروتها. ولكننا نقول غير مجازفين إن قبيلاً مما خلق الله لم ينشىء من الدول قدر ما أنشأت قريش، فلم يخل من دولهم عصر ولا مكان، وإلى أيامنا هذه لا زال بيتان على الأقل من بيوت بني هاشم حكاماً على شعبين من شعوب العرب المعاصرين، هما بيت الهواشم أصحاب الأردن وبيت الشرفاء العلويين في المغرب الأقصى.

وفي خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري عندما وهن أمر الدولة العباسية وتزعزعت قواعد سلطانها بعدما كان من حرب الأمين والمأمون، ووقوع النفور بين المأمون وأهل بغداد والعراق بعد أن ولى المأمون الفضل بن سهل وهو فارسي أمر بغداد والعراق وأقام هو تخوفاً على نفسه في خراسان، في هذه الظروف تتابع خروج العلويين على بني العباس، إحساساً منهم بأن ساعتهم قد حانت. وقبل وفاة المأمون بثلاث سنوات أي سنة ١٩٩ هـ/ ٨١٤ قام محمد بن اسماعيل ابن ابراهيم الملقب بطباطبا، وقد أطلق عليه هذا الاسم للكنة كانت في لسانه في صغره وهو حفيد ابراهيم بن الحسن بن الحسن وأيد الناس حول البصرة ابراهيم طباطبا هذا وانضم إليه ثائر من المتشيعين هو أبو السرايا بن منصور كبير الشيبانيين فتمكن من الانتصار على الفضل بن سهل ولكنه توفي يوم انتصاره ويقال إن أبا السرايا قتله، فاتجه أبو السرايا لتأييد داعية آخر هو علوي الحسن بن الحسن بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب واشتدت الحرب بينه وبين قواد بني العباس وخاصة هرثمة بن أعين. وهنا نجد العلويين يثيرون ما يشبه الزلزال تحت أقدام العباسيين، فقد نجم منهم ثائر في كل بلد من أقصى

خراسان الى أقصى المغرب ولم تنج المدن المقدسة بالحجاز من هذه النار، فقام في مكة والمدينة ثلاثة من الثائرين العلويين في آن واحد، وريع المأمون لكثرة خروج العلويين وتأييد الناس إياهم رغم الخسائر التي وقعت فيهم فلجأ إلى التظاهر بالرغبة في رد الأمر إلى آل علي وآمن علي الرضا بن الإمام جعفر الصادق وزعم أنه جعله ولي عهده، وكانت مكيدة ظاهرة انتهت باغتيال علي الرضا، واستمرار بني العباس في الخلافة وقبيل ذلك ومنذ فشل ثورتي محمد وابراهيم ابني الحسن بن الحسن بن الحسن بن أبي طالب، تنبه العلويون إلى أن أي محاولة لطلب الخلافة في الحجاز أو العراق لا أمل فيها، واتجهت أبصارهم الى نقل مركز الدعوة والثورة إلى الأطراف، إلى طبرستان حيث الموالون للعباسيين قليلون، وإلى اليمن حيث لم يكن لبني العباس من السلطان إلا ظل زائل، أو إلى المغرب الأوسط أو الأقصى وكانا خارجين عن أراضي الدولة العباسية، وكان سلطانها على المغرب لا يتعدى مجرى نهر شلف الذي يجري في مجراه الأعلى من الجنوب الى الشمال جنوبي مدينة الجزائر الحالية على وجه التقريب.

في هذه النواحي كلها، حيث كان الناس يتعلقون بآل البيت تعلقاً شديداً ويرون فيهم الأمل الباقي لهم من الأمن والاستقرار والحكم الصالح أنشأ العلويون أعظم دويلاتهم وأبعدها أثراً أو شرفاً في تاريخ الإسلام، أما الدولة الفاطمية التي قامت في إفريقية ثم انتقلت إلى مصر بعد ذلك فلها شأن خاص، ولهذا فستنفرد التجربة الفاطمية بفقرة خاصة بها من ذلك البحث عن قريش.

وتعتبر الدول الثلاث الكبرى التي أنشأها العلويون في المغرب الأقصى وبلاد الديلم ثم في اليمن أنجح تجاربهم السياسية على الإطلاق، وأدلها على طبيعة البيت العلوي في جملته بعد الصدمات العنيفة التي واجهته في تاريخه السياسي الأول، ونقصد بذلك استشهاد علي بن أبي طالب وما أحاط بخلافته

قبل ذلك من ظروف سيئة وعسيرة على الفهم، ثم تنازل الحسن واستشهاد الحسين بن علي وآله في كربلاء. فهذه النكسات الثلاث أفهمت العلويين أن ما يقوله الناس في قلب الدولة من محبتهم وتحمسهم لهم لا يمكن التعويل عليه عندما يجد الجد وينهض المُطَالب العلوي لإقامة دولته، هنا تبتعد عنه الغالبية ولا يبقى معه إلا القليلون.

والى هذا اليأس من الناس يرجع ما نلاحظه من سكون الغلويين من أيام عبد الملك بن مروان الى نهاية الدولة الأموية. وانصراف بعض كبرائهم عن السياسة وتوجه جهودهم نحو العلم كما نرى في حالة جعفر الصادق الذي كان أصلح العلويين للمطالبة بالخلافة في وجه بني العباس، بل هو تعمد أن يعرف الناس عنه عزوفه عن السياسة عندما أحرق كتاب أبي سلمة الخلال حفص بن سليمان وزير آل محمد وكبير دعاة العباسيين حين عرض عليه الخلافة. بل هو لام ابن عمه محمد النفس الزكية عندما ترامى اليه أنه يفكر في القيام في وجه بني العباس وتنبأ له بالهزيمة والموت إذ لا شيعة له ولا دعوة منظمة. والعلويون الحسينيون على أي حال ظلوا ساكنين حتى بان ضعف العباسيين وكثر وثوب الحسنيين فتحركوا فيمن تحرك، ولكنهم لم يغامروا بأنفسهم مغامرة الحسنيين واتجهوا الى الاختفاء والتنظيم السري، وفي طي الخفاء دبروا أمر حركتهم وأمهل كبارهم أنفسهم إمهالاً طويلاً، فلما ظهروا ظهروا في هيئة بالغة التنظيم وأقاموا الدولة الفاطمية.

وأما الحسنيون فكانوا أنشط وأجرأ فمن صفوفهم خرجت معظم الحركات العلوية التي زلزلت الأرض تحت أقدام بني العباس فمنهم عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو عبدالله المحض وهو والد محمد النفس الزكية الذي قام على المنصور وقتل بالمدينة، وابراهيم الذي قام بعده بقليل على أبي جعفر وقتل في باخمرا، وحديث عبدالله المحض مع أبي جعفر المنصور حديث طويل فَصَّلَه الطبري في الجزء السابع من تاريخه ونحن نقرأه فنحس وكأننا أمام

ثعلبين كل منهم أشد مكراً من الآخر. وإننا لنتعجب كيف وصل أولئك القرشيون في الدهاء هذا المبلغ البعيد، وكلمة واحدة من عبدالله المحض هذا تدلنا على أغوار نفسه، فقد ظل أبو جعفر المنصور يحاوره ليقر له بمكان أبنائه المختفين وخاصة محمد النفس الزكية وابراهيم، وكان عبدالله يفضل العذاب على أن يدل على مكان ابنيه فتضيع عليهما فرصة الخروج على بني العباس والوصول الى الخلافة، وضاق به أبو جعفر فحبسه وأخذ أمواله وجعل يبيعها شيئاً فشيئاً والرجل مصرٌّ على صمته، فحدّث رجل يسمى الحارث بن إسحاق بن حنين قال: «دخلت على عبدالله بن حسن وهو محبوس، فقال: هل حدث اليوم من خبر، قلت نعم! قد أُمِرَ ببيع متاعك ورقيقك، ولا أرى أحداً يُقْدِم على شرائه! فقال: ويحك يا أبا حنين، والله لو خرج بي وبناتي مسترقين لاشترينا[1]!».

وسوء الظن هذا بالناس وبالحظ هو الذي يفسر لنا لماذا أبعد الحسنيون في الرحلة واختاروا أبعد المواطن عن متناول بني العباس ليجربوا حظهم، وكان أحسنهم نصيباً في ذلك إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ربما لأنه اختار بلداً قصياً جداً عن بني العباس، ثم إن حركته قامت بين أقوام من البربر الذين طال شقاؤهم بالحروب والقلق منذ قيام الفتنة المغربية على بني أمية، وكانت نفوسهم تهوى الى زعيم ذي ايمان وجاه تطمئن اليه نفوسهم ويخرجون به من متاهات السياسة ومضانك الزندقة، فكان هذا الزعيم هو إدريس هذا، ولم يكونوا ليجدوا له مثيلاً فهو من عترة رسول الله ﷺ، وهو قد أتاهم صبياً صغيراً يحضنه ويرعاه مولى من جنسهم ويتكلم لغتهم، وكانت دعوة هذا المولى واسمه راشد لهم أن يشاركوه في رعاية هذا الصبي الكريم ويقوموا معه بأمره، فعطفت عليه قلوبهم وتبنوه وأيدوا دعوته.

وكانت حاجتهم اليه مثل حاجته اليهم، وكان هذا من أسعد اللقاءات التاريخية: لقاء طرفين كل منهما يحل للآخر مشكلته ويفتح أمامهما معاً أبواب

(١) الطبري: ٧/٥٢٥.

العمل والحياة. ولو أن إدريس هذا وصل الى المغرب في جمع من قومه لما تيسر أمره على النحو الذي كان يسبب ما لا بد منه ـ بالنسبة للعرب ـ من اختلاف الكلمة والحسد كما حدث للقاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا وهو من أحفاد ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قتيل باخمرا سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢م.

ولم يكن إدريس هو العلوي الوحيد الذي فر إلى المغرب، فقد لحق به حسنيون آخرون فروا الى المغرب الأقصى، وأنشأوا فيه الدولة الادريسية فتجمع في هذا الصقع من بلاد الاسلام ادريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب وسليمان أخوه أو أبناء سليمان هذا، ويقال إن سليمان نفسه قتل في معركة فخ مع من قتل من العلويين وان الذين خرجوا كانوا أولاده، ولكنهم لم يخرجوا الى المغرب الا بعد مقتل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن أبي طالب، الذي خرج على الخليفة الهادي العباسي في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ/ابريل ٧٨٦م، وقتل في وادي فخ على نحو ١٠ كيلومترات شرقي مكة، وكانت هذه الواقعة من أشد ما أصاب بني هاشم وأعمقه وقعاً في تاريخ الحركة الشيعية، وهي التي قال فيها شاعر الشيعة:

فلأبكين على الحسين ... بِعَوْلَة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة(١) الذي ... واروه ليس بذي كفن
تُركوا بفخ غدوة ... في غير منزلة الوطن
كانوا كراماً هُيِّجُوا ... لا طائشين ولا جُبَن

وقد صدق الشاعر في البيت الأخير من قصيدته، فإن الحقيقة هي أن الحسين بن علي هذا قد أحرج إحراجاً شديداً، بسبب ما كان رجال بني العباس يفعلونه ببني علي، فقد تنافس الناس في الإساءة اليهم بتأليب الخلفاء عليهم، وكان والي المدينة إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب،

(١) هو الحسين بن علي قتيل فخ الذي ذكرناه في المتن.

وكان قد جعل العلويين يضمن بعضهم بعضاً وفرض عليهم أن يعرضوا أنفسهم عليه كل يوم ليطمئن إلى حالهم، كما تفعل مراكز البوليس اليوم مع المشبوهين والخارجين من السجون، وكان أحدهم إذا غاب عن هذا العرض المشين ضمنه الحاضرون، وكان الذي يلقاهم ليستوثق من أمرهم نائبا من نواب العامل يسمى خليفته، وكان الحسين بن علي بن الحسن الذي نحن بشأنه ويحيى بن عبد الله بن الحسن الذي سيفر الى بلد الديلم كفيلين بالحسن بن محمد بن عبدالله بن الحسن، فغاب هذا الأخير ثلاثة أيام، فأصر الوالي عمر بن عبد العزيز على احضاره وأغلظ لكفيليه، فضاقت نفساهما ونفوس العلويين بهذا الهوان وقرروا الخروج بمنى أو بمكة في الموسم، وخرج العلويون بالفعل وخلعوا طاعة الهادي العباسي في موسم الحج سنة ١٦٩ هـ، وسير الخليفة لحربهم محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس وكان من أكبر قواد الدولة العباسية، وكانت الوقيعة بفخ ولم تكن بمذبحة دامية مثل كربلاء أو باخمرا، ولكن صداها كان بعيداً جداً، لأن الناس أجمعين كانوا قد ضاقوا بهذا العدوان المستمر على آل البيت والإصرار على إنزال المهانة بهم، وقد قتل في المعركة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ابن الحسن ونفر من آل بيته، وجرح في المعركة يحيى بن عبدالله بن الحسن الذي أنشأ دولة علوية في بلاد الديلم، وفيها قتل أخوه سليمان وفر أبناؤه الى المغرب الأوسط، ويقال إن أخاهما ادريس اشترك في الوقعة ولكننا نستبعد ذلك لأنه كان إذ ذاك صغيراً جداً، وقتل فيها رجل من العلويين شديد السواد هو الحسن بن عبدالله الأشتر ـ الذي قتل بكابل ـ بن محمد ـ قتيل المدينة سنة ١٤٥هـ ـ بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان يلقب بأبي الزفت لشدة سواده فهو شهيد بن شهيد بن شهيد، وقد أحزن الناس جميعاً مقتله، وقد حمل رأس الحسين الشهيد هذا الى الهادي رجل من اتباعه يدعى يقطين بن موسى فنفر منه وغضب عليه وحزن على مصاب هذا المسكين[1].

(١) الطبري: ١٩٢/٨ وما بعدها.

وقبل أن نمضي مع ادريس الى مهربه نضيف ملاحظة لها أهميتها بالنسبة لما ندرسه من أمر قريش. فإن الناس يحسبون أن ضعف بني العباس واستبداد جندهم بهم لم يكن الا بعد أيام المعتصم ولكن الحقيقة التي تتجلى للقارىء المتأمل فيما يقرأ، هي أن تدهور الدولة العباسية ووقوع خلفائها تحت رحمة الجند يرجع الى أواخر أيام المهدي والهادي، وهما الثالث والرابع من خلفاء بني العباس، واليك خبر يؤكد لك ما نقول.

فقد ذكر الطبري نبأ وفاة الخليفة المهدي في ذي الحجة سنة ١٦٩ هـ، في ماسبذان من نواحي خراسان، وكان معه ابنه الأصغر هارون (الرشيد فيما بعد)، أما ولي عهده موسى الهادي فكان في بغداد خليفة لأبيه فحار هارون فيما يفعل وخاف ان علم الجند بموت المهدي شغبوا، ونصحه يحيى بن خالد وقال: «ولا آمن اذا علم الجند أن يتعلقوا بمحمله ويقولوا: لا نخليه حتى نُعطى (الرواتب) لثلاث سنين وأكثر ويتحكموا ويشتطوا ولكن أرى أن يوارى رحمه الله ها هنا ونوجه نُصَيْرا (أحد رجاله) الى الهادي بالخاتم والقضيب والتعزية... وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز: مائتين مائتين، وتنادي فيهم بالقفول، فإنهم إذا قبضوا الدراهم لم تكن لهم همة سوى أهاليهم وأوطانهم»، وقد أراد يحيى بن خالد البرمكي أن يتخلص الخليفة من الجند فيسبقونه الى بغداد، فأعطاهم المال وأذن لهم في القفول فتسارعوا الى بغداد، فلما وصلوا بغداد بلغهم خبر موت الخليفة المهدي وولاية الهادي، فشغبوا على الربيع بن يونس الوزير «وأخرجوا من كان في حبسه، وأحرقوا أبواب دوره في الميدان، وحضر العباس بن محمد وعبد الملك بن صالح ومحرز بن ابراهيم ذلك، فرأى العباس أن يرضوا وتطيب نفوسهم، وتفرق جماعتهم باعطائهم أرزاقهم، فبذل ذلك لهم فلم يرضوا، ولم يثقوا لما ضمن لهم من ذلك حتى ضمنه محرز بن ابراهيم، فقنعوا بضمانه وتفرقوا، فوفى لهم بذلك، وأعطوا رزق ثمانية عشر شهراً، وذلك قبل أن يقوم هارون[1]»، فانظر والله

(١) الطبري، تاريخ: ١٨٧/٨ ـ ١٨٨.

خوف رجال الدولة من الجند واستبداد الجند بهم في أول عهد الهادي الذي نقول إنه عهد قوة البيت العباسي ، فكأننا لا نقول الحقيقة عندما نقول إن ضعف خلفاء بني العباس ووقوعهم تحت رحمة الجند بدأ في أيام المتوكل، لأن الدولة العباسية كانت ضعيفة البنيان واهية الأركان من يوم ولادتها، وهي لم تكن دولة ذات قوة وسلطان إلا في عهد أبي جعفر المنصور وبه بدأت قوتها وانتهت في نفس الوقت، فقارن بذلك قوة الدولة الأموية في الأندلس وعظم سلطان خلفائها وقبضهم بيد حازمة على جندهم وهيبة الجند لهم. ومن هنا نستطيع القول بكثير من التحفظ إن الأمويين على الجملة كانوا أقوى على السياسة وضبط الأمور من الهاشميين جملة أياً كانت مواضع دولة هؤلاء وأولئك.

ونعود الى ادريس عبدالله فنقول إنه هرب بعد معركة وادي فج الى مصر ثم المغرب متنكراً. وأبعد في الهرب حتى وصل طنجة وكانت أبعد ما تكون من حدود دولة بني العباس التي وقفت عند وادي شلف وكان معه مولاه راشد وكان من عظماء الموالي وأهل الصدق والإخلاص مع آل البيت، وليس هناك ما يمنع من قبول ما يقال من أن أصله من أبناء سبي افريقية وأنه كان يعرف لغة المصامدة وهم أعظم قبائل المغرب الأقصى.

وكانت الأحوال في تلك الناحية من المغرب الأقصى مضطربة اضطراباً شديداً، فإن ناحية طنجة وما حولها كانت على إسلام سني صحيح لأنها كانت منذ الفتح الأول ثغر الغرب وباب الأندلس، فكثر مرور العرب واستقرارهم بها ولكن لم يكن عليها سلطان لأي دولة إنما كان أصحاب السلطان فيها هم البربر، ومعظمهم هنا من قبيلتي نفزة وأوربة، وإلى جنوب سهل طنجة وسبتة كانت تقع جبال الريف وكانت تسكنها قبائل مصمودية برنسية كثيرة أقواها برغواطة وغمارة، وبرغواطة كانت من القبائل التي أوعبت في الفتنة المغربية وقامت على العرب وأخرجت من كان من العرب في بلادها في عنفوان الفتنة المغربية التي شارك في صنعها دعاة الخارجية ما بين صفرية وأباضية.

وهؤلاء الخوارج الذين انهزموا في قلب الدولة فطلبوا الأمان والنجاة في أطرافها، كانوا جميعاً أعداء لقريش، وكانوا ينكرون ما يقوله القرشيون من أن الإمامة فيهم، وكل زعمائهم الأُول كانوا متشددين في إنكارهم إمامة قريش ومثلهم الكبير المعروف لنا هو عبدالله بن وهب الراسبي الأزدي الملقب بذي الثّفنات، وهو أول خليفة اختاره الخوارج أيام خروجهم على عليّ بن أبي طالب، ومن أمثلتهم أبو راشد نافع بن الأزرق الحنفي منشىء فرقة الخوارج المتشددة الذي أعلن الحرب على المسلمين جميعاً وأباح قتالهم بالسيف لأنهم خضعوا لسلطان الخلفاء الظلمة فأعانوهم بخضوعهم بهذا على ظلمهم، وفي رأيه أنهم كفرة حربهم حلال، وعبدالله بن أباض التميمي منشىء فرقة الأباضية، وزياد ابن الأصفر التميمي منشىء فرقة الصفرية. هؤلاء جميعاً كانوا لا يعترفون برئاسة قريش، وكانوا يقولون بإمامة الأصلح من المسلمين «ولو كان عبداً ذا زبيبة»، وهذه الآراء تعجب غير العرب ممن أحرج صدورهم بنو أمية وعمالهم بسوء تصرفهم ولهذا فقد استجابوا لهذه الدعوات فهي تفتح لهم في أمة الاسلام أبواباً واسعة من القوة والسلطان لا تسمح به لهم دولة الجماعة التي خضعت للسلطان الأموي والعباسي، فأقبل على تلك المذاهب الخارجية الكثيرون منهم واعتقدوا أنها أقرب الى روح الإسلام، وكانت الظروف العامة في أخريات الحكم الأموي تشجع على مثل هذا التفكير.

ولم يكن الإيمان قد استقر في قلوب البربر على أصوله إلى ذلك الحين. فقد كانوا حديثي العهد بالإسلام، إذ إنهم لم يدخلوا فيه إلا قبيل نهاية القرن الهجري الأول، ثم جاءهم هؤلاء الدعاة بدعوة الخارجية وحق الجماعة في أن تختار رئيسها عربياً كان أم غير عربي، ونجم في قبيلة مدغرة أو مطغرة ثائر يسمى ميسرة الفقير، وكان طالب عالم، ولكنه لم يحصل إلا قليلاً، وعندما قامت الفتنة المغربية تزعمها في قومه وسار لحرب العرب، ومات قبل أن يلقاهم، فتولى أمرهم زعيم آخر يسمى خالد بن حميد الزناتي.

ومن مدغرة انتقلت الثورة على حكام العرب إلى برغواطة، وكانت حلفاً بربرياً برنسياً ضخماً يسكن جبال الريف وساحل المحيط الأطلسي المعروف بتامسنا ويمتد حتى سلا وآزمور وأنفى (وهي اليوم الدار البيضاء) وآسفي، فظهر فيهم رجل قليل العلم ذو طموح سياسي واسع، وادعى النبوة وزعم أنه نبي مرسل يوحى إليه قرآن في سور، وكان اسمه صالحاً، وقد ظهر آخر خلافة هشام بن عبدالملك سنة ١٢٧ هـ، وزعم أنه المهدي وأنه يظل في قومه حتى مجيء عيسى عليه السلام، وتبعه قومه في نحلته هذه الغريبة التي هي من نتائج الجهل بالإسلام وما أدخله دعاة الخارجية في عقول هؤلاء الناس من أفكار مضطربة أو مشوشة فسروها هم على هواهم، وقد طالت رياسة صالح هذا سبعا وأربعين سنة، وزعم أنه صالح المؤمنين الوارد ذكره في القرآن الكريم، وعندما أراد أن يصير الأمر من بعده لابنه الياس دون أن يناقشه أحد من قومه زعم أنه خارج إلى المشرق وأوصى لابنه الياس ليحكمهم هو وأولاده حتى يعود هو إليهم في حكم السابع من أهل بيته واختفى بالفعل وتولى أمرهم ابنه الياس. وصالح والياس هذين هما اللذان وضعا المذهب الذي عرف بزندقة برغواطة، ويبدو ان أخبار زندقة برغواطة مبالغ فيها وأن أبناء صالح البرغواطي عدلوا عن مذهبهم واقتربوا من الإسلام الصحيح، وإن ظلوا منحرفين ولو كانوا زنادقة تماماً حقاً لما حالفهم خلفاء بني أمية الأندلسيون، وقد كان بنو أمية من أكثر الدول تمسكاً بالإسلام السني الحنيف على مذهب مالك إمام دار الهجرة. ومعلوماتنا عن البرغواطيين اتباع صالح هذا ترجع الى تقرير عنهم وعن ديانتهم رفعه إلى الخليفة الحكم المستنصر الأموي وَافدٌ منهم على الحكم المستنصر يسمى زمور بن صالح ابن هاشم بن وراد وقد أتانا بنص هذا التقرير أبو عبيد البكري في الجزء الخاص بالمغرب من كتابه «المسالك والممالك» وأتانا به أيضاً ابن عذارى المراكشي في البيان المغرب وابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه[١].

---

(١) أنظر ابن خلدون: العبر ٦/٢٠٧ ـ ٢٠٨.

ويهمنا أن نذكر أن دعوى النبوة هذه كانت بغرض جمع صفوف البرغواطيين حول صالح هذا واقامة كيان سياسي يحكم النواحي التي ذكرناها من جبال الريف، ولهذا فقد كان تمسك البرغواطيين بآل صالح البرغواطي شديداً، وبفضله استطاعوا أن يسودوا منطقة الريف وريف تامسنا وبلاد غمارة التي تقع جنوبي جبال الريف وتسمى بلاد الهبط أو هبط غمارة وتشمل المجرى الأعلى لنهر سبو وفروعه الكثيرة وقد نشر البرغواطيون سلطانهم وأرهبوا من حولهم من القبائل وسادوهم وعسفوهم.

تلك كانت الأحوال من ذلك الطرف القصي من غربي بلاد المغرب حين وصل ادريس بن عبدالله مع مولاه راشد.

وفي طنجة دعا له مولاه راشد، ولكن طنجة كانت معبراً الى الأندلس، وكانت متجراً وملتقى قبائل تروح وتجيء، والدعوة تحتاج إلى قرار وأهل استقرار يسمعون ويستجيبون ويتجمعون، فتركها راشد ومضى بادريس إلى بلدة صغيرة عند ملتقى طرق وتؤدي اليها وديان بين جبال، والبلدة كانت من قديم الزمان مركزاً تجارياً عرف عند الرومان باسم Volubulis ومنه جاء الاسم العربي وليلي، وتلك البلدة كانت المركز المدني لجزء كبير من قبيلة أَوْرَبة، وهي إحدى القبائل البرنسية الكبيرة التي كان لها شأن كبير في الفتح الإسلامي، فقد قاد ملكها كَسِيلة المقاومة ضد الإسلام أول الأمر ثم أسلم وحالف الوالي دينار أبا المهاجر، فلما عزل أبو المهاجر وجاء عقبة بن نافع أساء معاملته فانتفض عليه، وألب عليه القبائل، وخاض مع المسلمين معركة تهودة التي استشهد فيها عقبة سنة ٦٣ هـ. ولكن المسلمين عادوا فقتلوا كسيلة وانتصروا عليه بقيادة زهير بن قيس البلوي، وعلى إثر هذه الوقيعة تحطمت قوة أَوْرَبة في المغرب الأوسط وبقي لها فرع كبير حول وليلي في جنوبي جبال الريف إلى جوار منازل قبيلة غمارة، وكانت غمارة قبيلاً مصمودياً عظيماً يسكن جنوبي جبال الريف وينساح في السهول جنوبها فيما يعرف ببلاد الهبط أو عبط غمارة. وغمارة وأَوْرَبة هما اللتان حملتا عبء دولة

الأدارسة. وفي غمارة تنبأ أنصار رجل يسمى حاميم بن عبدالله بن جر بن عمر ابن زحفو بن آزروال سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م. وقد قضى على فتنته المرابطون وقد اشتهرت القبيلة بالسحر والساحرات.

لم يطل انتظار ادريس وراشد في وليلى لأن رؤساء أَوْرَبة التفوا حول ادريس وتيمنوا بنسبه الشريف. وقد علا شأن أَوْرَبة بهذا التأييد فسارعت غمارة وانضمت اليها وكان الغماريون أكثر عدداً من الأوربيين وقد اشتد بهم ساعد ادريس.

وإلى هنا نجد ادريس بن عبدالله بن الحسن هاشمياً منفرداً بين البربر فلا نسمع بانضمام عرب إليه، حتى ابن عمه سليمان وأولاده الذين نزلوا ناحية تلمسان لم ينضموا إليه إلا حين غزا بلادهم واقرهم على ما في ايديهم.

كان لتلك البداية أثر بعيد في مستقبل الدولة الادريسية، لأن ادريس وآله ـ بحكم الضرورة ـ كان لا بد أن يعتمدوا على البربر ويصاهروهم ويندرجوا فيهم، ويصبحوا وكأنهم منهم وإن كان الأدارسة رؤساءهم، ونتيجة لذلك لم تصبح الدولة الادريسية دولة عربية وسط البربر، كما كانت دولة بني أمية الأندلسيين دولة عربية في محيط ايبيري فارتبط البيت الادريسي بالناس وصار لادريس أولاد كثيرون من نساء بربريات من مختلف القبائل.

وقد أبدى إدريس نشاطاً عظيماً عندما أدرك سن الرشد وتولى الحكم بنفسه، فتجرد لحرب الزنادقة ومن بقي على الكفر من نواحي شمالي المغرب الأقصى وانشاء دولة كبيرة وأظهر براعة كبيرة في الحروب كان الحكم فيها جماعياً، أي أن ادريس كان لا بد أن يشاور الناس ويأخذ برأيهم ولا يخالف أقوالهم، ولم يقع في الخطأ الذي قصم ظهر معظم الدويلات المغربية وهو الاشتطاط في جمع الضرائب، وما دام كل رجال ادريس من البربر وكذلك جنوده فانه لم يفكر في أن يجبي منهم الا الشرعي والمعقول من الجبايات، فرضي الناس عن الحكم ونبتت في قلوبهم محبته وعلا أمره وقامت، دولته في شمال المغرب الأقصى عربية اللسان

والرياسة، بربرية البنيان والى هذا ترجع قوتها فهذه الدولة كانت دائماً دولة صغيرة المساحة نسبياً وكانت كذلك متواضعة مالياً، ولكن رصيدها من محبة الناس كان عظيماً، وزاد في صلابة تكوينها، انها كانت دولة سُنية يُقضى في بلادها بمذهب مالك، وهذا طبيعي لأن العلويين أنفسهم لا يكونون شيعة بل الشيعة أنصارهم، وهذه السنية كانت كذلك من عمد قوة دولة الادارسة. وقد حكم ادريس الأول هذا فترة قصيرة: من ٤ رمضان سنة ١٧٢ هـ الى أول جُمادى الآخرة سنة ١٧٧ هـ. لكنه وضع أساس دولة قرشية هاشمية فريدة في بابها فهي دولة عربية هاشمية لا نسمع عن أمرائها ظلماً أو تعدياً أو طمعاً في مال أحد او قتلاً غادراً لرجال دولتهم، ثم هي كذلك جماعية في رياستها، وربما كانت دولة الأدارسة أقرب دولة إلى الإسلام «بعد الراشدين» إلى المثال الإسلامي الصحيح.

وقد مات ادريس في ريعان شبابه مات فجأة وربما يكون قد مات بالسم على يد رجل دسيس عليه من العباسيين، ولا يصح أن يقال إن هذا الدسيس كان مرسلاً من قبل ابراهيم بن الأغلب، لأن ولاية ابراهيم بن الأغلب لم تبدأ إلا سنة ١٨٤هـ.

وليس أدل على تعلق الناس بهذا البيت الأدريسي من أن رجال دولته سعدوا عندما أبلغهم راشد أن إدريس ترك جارية من جواريه «وتسمى كنزة» حاملاً فاجتمع رأيهم على أن ينتظروا بالجارية حتى تلد، فإن ولدت ذكراً بايعوه، وبالفعل وضعت كنزة ذكراً فسموه ادريس بن ادريس، وكل ذلك بإرشاد راشد الذي جمع رؤساء البربر حوله، وعندما مات راشد سنة ١٨٦ هـ، ثبت القوم على ولائهم للصبى الهاشمى العلوى، وتولى رعايته شيخ من شيوخهم يسمى أبا خالد بن يزيد بن العباس العبدى، وعندما بلغت من إدريس الحادية عشرة بايعوه البيعة الثانية وأعلنوه أميراً. وكان ذلك سنة ١٨٨ هـ. ومما يدل على جماعية الرياسة في هذه الدولة قول ابن خلدون: «ولم يزل كذلك إلى أن بايعوا لادريس فقاموا بأمره وجددوا بأنفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته وافتتحوا بلاد المغرب

كلها واستوثق لهم الملك بها»[1]. وواضح هنا أن إدارة الدولة ورياستها كانت جماعية ولم يظهر الضعف في هذه الدولة إلا إثر قدوم نفر من عرب الأندلس إلى وليلى ودخولهم في خدمة ادريس وكانت قد أوفت سنة على إدارة راشد واستطاع أن يدبر أمر نفسه فاستوزر عربياً يسمى مصعب بن عيسى الأزدي، ولم يلبث أبو خالد بن يزيد بن العباس العبدي الذي حمل عبء الدولة سنوات طويلة أن قتل وانفرد هذا الأزدى بالوزارة وتكاثر العرب في حاشية ادريس ورجاله، فاتخذ منهم بطانة برئاسة مصعب بن عيسى الأزدي الذي يلقب بالملجوم (ولا زالت أسرة الملجوم باقية في المغرب الأقصى الى اليوم)، وقد ساعد هؤلاء العرب على استكمال الطابع العربي لهذه الدولة، ومن حسن الحظ أن عددهم لم يزد على خمسمائة فبقي البربر على مراكزهم في دولة ادريس واستمر تأييدهم لها، وعلى الرغم مما يقوله ابن خلدون أن ادريس الثاني «اعتز بهؤلاء العرب واستفحل بهم سلطانه»[2] الا أننا لا نجد لذلك صدى في سير الأمور في الدولة فيما عدا مقتل اسحاق بن ابراهيم رئيس أوربة، وربما يكون للعرب دخل فيه ولكننا لا نستطيع تأييد ذلك فربما كان مقتله على يد الغماريين لأن غمارة ستفرض من ذلك الحين سلطانها على دولة بني إدريس، وابن خلدون نفسه يقول إن دولة الأدارسة هي غُمارة.

على أي حال نجد ادريس الثاني هذا يواصل جهود أبيه في حرب الزنادقة ومن لم يسلم من البربر حتى جعل شمالي المغرب الأقصي منطقة اسلام، ثم اختط مدينة فاس في سهل يسمى تكزاز ـ على نهير فاس المتفرع من سبو ـ وأقام هذه المدينة في موضعها الراهن في ذلك السهل بين جبلى زرهون وتلاغ بادئاً بعدوة الأندلس على إحدى ضفتي النهر سنة ١٩٢ هـ. ثم بنى فيها مسجد الشرفاء ثم نشأت في عصره عدوة القرويين وبنى فيها مسجد القرويين، ومن العدوتين تكونت فاس تلك المدينة العظيمة التي أصبحت منذ إنشائها قاعدة من قواعد

---

(١) ابن خلدون، العبر: ١٣/٤.

(٢) نفس المصدر ١٤/٤.

الحضارة العربية الإسلامية في المغرب، وهذه ثاني مدينة باقية ينشئها الهاشميون، الأولى هي بغداد والثانية هي فاس، وقد قدر لفاس من طول العمر والازدهار ما قدر لبغداد: هذه في المغرب وتلك في المشرق، والاثنتان إلى يومنا هذا من عظام مدن الدنيا، والحق أن خريطة الدنيا لا تزال تحمل اعلام العمران القرشي فيما أنشأه القرشيون ما بين أمويين وعباسيين من مدن الأندلس حيث نجد مرسية والمرية ومدينة سالم وبلد وليد وكلها منشآت نشأت في ظلال حكم بني أمية الأندلسيين، إلى جانب ما عمروه من قديم المدن مثل قرطبة واشبيلية وسرقسطة وبلنسية، وفي المغرب نجد فاساً هذه ثم تيطاوين أو تطوان وحجر النسر، وقبل ذلك القيروان وتونس وبعدها المهدية ـ من إنشاء الفاطميين ـ ثم الفسطاط ومنشئها عمرو بن العاص القرشي والقاهرة وعشرات المدائن غيرها ما بين مستحدث وجديد وإذا كنا نتكلم عن كبار الدول التي أنشأتها قريش فلا بد أن نذكر المدن أيضاً لأن المدن مركز عمران وإشعاع حضاري، وفي هذا المجال لا تزال فاس مدينة المولى ادريس تتألق إلى يومنا هذا واحدة من أجمل مدائن الدنيا وأحفلها بتاريخها العلمي والحضاري.

وقد سبق أن ذكرنا تعمير قريش لمكة على يد قصي بن كلاب، وكيف أصبحت على يد القرشيين أعظم مركز عمراني في الجزيرة العربية، وعندما هاجر رسول الله ﷺ النبي القرشي إلى المدينة وجدها سهلاً فسيحاً بين حرتين تتناثر فيها منازل القبائل مثل يثرب والسنح وقباء ورابخ فأصبحت في عصره المبارك مدينة واحدة تمدنت وعظمت وأصبحت قاعدة أمة الإسلام التي ملأت فيما بعد طباق الأرض إسلاماً ونوراً وعلماً، ولا زالت مكة والمدينة إلى يومنا هذا من أعاظم بلاد الدنيا وهي أكرمها على الله وأحبها إليه والى الناس، والفاتحون من القرشيين هم الذين اختطوا البصرة والكوفة والفسطاط، وبنو العباس بنوا الهاشمية، وواسط بنيت على يد الحجاج أيام بني أمية، فأي قبيلة هذه قريش التي قدر لها أن تنشىء على وجه الأرض من الدول ومراكز العمران ما لم تنشئه عظام الدول، هذا

إلى ما شَرفت قريش به من نزول القرآن الكريم بلسانها العربي المبين وكان لها من فضل في النهوض بهذا اللسان العربي المبين قبل الإسلام وبعده، وهي أيضاً التي طورت الكتابة العربية من الرسم السابق لها الذي نشأت به في شمال الجزيرة إلى رسمها الذي كتب به القرآن الكريم.

وبعد أن أتم ادريس إنشاء فاس ومسجديها: الشرفاء ثم القرويين استمر في جهاده لتوسيع رقعة الإسلام السني الصحيح في المغرب، فحارب برغواطة وغزا بلادها وكسر ظهر زندقتها، ورد الضالين من أهل برغواطة وغمارة إلى الإسلام، ثم مضى إلى غربي المغرب الأوسط حيث كان أبناء عمومته أبناء سليمان بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قد أنشأوا دويلات صغيرة في إقليم تلمسان وما حولها، فأدخل تلمسان ونواحيها في دولته دون أن يمس أصحابها من بني عمومته بسوء، فاشتد ساعدهم وقامت دولهم في المغرب الأوسط ثم عاد إلى فاس ثم اتجه بغزواته إلى الجنوب وأوغل في بلاد جنوبي المغرب الأقصى حاملاً لواء الإسلام والعروبة، وعاد إلى تلمسان حيث بنى جامعها الباقي إلى اليوم، وهو من أجمل مساجد الإسلام، يقول ابن خلدون: «ثم خرج غازياً المصامدة سنة سبع وتسعين (ومائة)فافتتح بلادهم ودانوا بدعوته، ثم غزا تلمسان جدّد بناء مسجدها وأصلح منبرها، وأقام بها ثلاث سنين وانتظمت كلمة البرابرة وزناتة ومحا دعوة الخوارج منهم، واقتطع المغربين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى شلف، ودافع ابراهيم بن الأغلب عن حماه بعدما ضايقه بالمكادة، واستقاد الأولياء واستمال بهلول بن عبد الواحد المطغرى بمن معه من قومه عن طاعة ادريس الى طاعة هارون الرشيد، ووفد عليه بالقيروان، واستراب ادريس بالبربر فصالح ابراهيم بن الأغلب وسَكّن من غربه، وعجز الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير بالغض من ادريس والقدح من نسبه الى أبيه ادريس بما هو أوهى من خيوط العنكبوت، وهلك ادريس سنة ثلاث عشرة ومائة

وقام بالأمر من بعده ابنه محمد[1].

وابنه محمد هذا تولى الإمامة في ربيع الأول ٢١٣ هـ وأقدم لأول ولايته على عمل سياسي لم يسبق إليه سابق قبله أو يلحق فيه لاحق بعده، ويقول إنه عمله بنصيحة جدته كنزة: لقد قسم بلاد دولته بين أخوته اقطاعيات أو ولايات، وكل أخ ينفرد بالسلطان في ولايته ويتصرف فيها تصرف صاحب الملك في ملكه باقياً على الولاء لأخيه الإمام صاحب فاس، وهو مسؤول عن كل شيء في ولايته ولا يلزم إلا بأداء جانب من الجبايات إلى أخيه، ونحن لا نعرف شيئاً عن تفاصيل هذا التقسيم الذي اعتبره الناس في أيامه مضعفاً للدولة ومفرقاً لأمرها، وربما كان هذا صحيحاً، ولكن أصح من ذلك أنه إذا كان قد أضعف سلطان الدولة المركزية في وقت كانت الدول تعتمد فيه أولاً وآخراً على السلطان المركزي، ولكنه في واقع الأمر زاد ارتباط الناس بهذه الأسرة العلوية لأن الإمام محمد بن ادريس لم يكن له جيش مرتزق، وكان اعتماده على جند البربر من أهل القبائل وكذلك كان إخوته الذين فرقهم، فنزل كل منهم بين القبائل التي تولى أمر ناحيتها واعتمد عليهم وصاهرهم، وأصبح هو وأهل بيته ومن لحق بهم عرباً قرشيين متبربرين محتفظين بعروبتهم ولغتهم وعاملين على تعريب النواحي التي نزلوا فيها، وهذا كله مدَّ للبيت الادريسي جذوراً طويلة في كل نواحي المغرب الأقصى، لأن الإخوة الذين فرقهم في النواحي كانوا ثمانية، ونواحيهم تشمل المغرب الأقصى كله من سبته وطنجة إلى بلاد السُّوس الأقصى جنوبي المغرب الأقصى حتى تخوم الصحراء ومن المحيط الأطلسي إلى نهر المولوية، وقد ترك أبناء عمه أولاد سليمان بن عبدالله على نواحيهم في المغرب الأقصى فيما يلي بلاده شرقاً.

وقد رحبت كل ناحية ومن فيها من القبائل بمن وفد إليهم من أهل البيت، فإن الولاة الجدد لم يذهبوا عمالاً معهم جند وحرس بل نزلوا في القبائل وصاهروها واعتزوا بأهلها واعتز بهم أهلها، وبدأت عملية اختلاط أو

(١) ابن خلدون تاريخ ٤/١٤.

ميتامورفوزيس علوية بربرية فريدة في بابها، ونحن نستبين هذه النتيجة من وجود الأسر الكثيرة التي تنتمي إلى بيت بني ادريس في كل نواحي المغرب، ونحن لا نسمع بأن أي قبيلة من القبائل رفضت العلوي الأدريسي الذاهب اليها، بل قبلهم الناس طواعية، ولم يكن الكثير من هذه النواحي داخلاً في نطاق الدولة الادريسية إلا بالاسم والطاعة المعلنة تبركاً بآل البيت فزادت هذه الطاعة ظهوراً وعمقاً، فكل ناحية اعتبرت واليها أميرها وأخلصت له إلى درجة أن بعض الإخوة أحب أن ينفصل عن أخيه ويستقل نهائياً، وأيدته قبائل الناحية في ذلك، ولكن كل هذه المحاولات فشلت وبقيت هذه الدولة العلوية وكأنها اتحاد إمارات علوية، أو كأنها دولة اقطاعية واسعة إمامها علوي وأمراء الاقطاع في النواحي علويون. ونظراً لكثرة محاولات الإخوة الانفصال عن فاس وامتناعهم عن إرسال جانب من جباياتهم إلى الحكومة المركزية، فقد ظلت الدولة الإدريسية ضعيفة عسكرياً ومالياً في عاصمتها ونواحيها، ولكنها قوية من حيث التحام الحاكم بالمحكوم في بلادها وتفرق السلطة بين الوالي أو الإمام العلوي ورؤساء القبائل في كل ناحية.

وبين أيدينا الآن كتب كثيرة عن فروع البيت الإدريسي في المغرب الأقصى وغربي المغرب الأوسط، وهي لا تحصى كثرة ولا بيت منها كان خميرة تعريب وإسلام سني صحيح وتمسك بالعروبة واعتزاز بها وهذا توفيق من اللّه في إداء الرسالة الاسلامية والعربية عظيم لم يوفق إليه بيت حاكم إسلامي، وأذكر هنا كيف كان خلفاء العباسيين يستهلكون أنفسهم في حرب إخوتهم وأعمامهم الخارجين عليهم، الساعين في القضاء عليهم وكل منهم يعتز على أخيه أو ابن عمه وبجند مرتزق، ويكفينا أن نذكر هنا حالة الأمين والمأمون العباسيين التي أحدثت صدعاً لم يرأب قط، وانتهت آخر الأمر بأن جعلت السلطان في دولة بني العباس كلها للجند التركي المتغلب، ومما يحزن النفس أن هذا تم على يد خليفة عربي عباسي هو المعتصم.

وفي دولة الادارسة لا تسمع بمثل هذا التصدع وحروب الإخوة والأعمام إلا فيما ندر، لأن هذا البيت الهاشمي العلوي عندما اعتز بمن نزل فيهم من قبائل البربر، وجد عندهم من المحبة والتأييد ما أغنى رجاله عن التناحر فيما بينهم على السلطان المركزي، ولم يصابوا بآفة استخدام الجند المرتزقة فما كان لهم سبيل إليه بحكم اعتزازهم بالبربر وهم مسلمون أحرار لا يقاتلون مرتزقين، قد يقاتلون عن عصبية ولكنهم لم يقاتلوا في العصور الإسلامية عن ارتزاق وكان اعتزاز البربر بهم مغنياً لهم عن طلب الترف المسرف الذي يؤدي إلى فساد النفوس. وظل الأدارسة رغم علو المكانة يعيشون عيش من معهم وحولهم من البربر، وكانت جماعية الحكم في دولة الأدارسة وما تفرع منها حامية البيت من الفساد، فما من رجل منهم مال إلى متاع الدنيا في إسراف إلا عزلوه، وأكبر مثال لذلك ما كان من أمر يحيى بن يحيى بن محمد بن محمد بن ادريس الذي تولى الإمامة حوالي سنة ٢٤٤ هـ فأساء السيرة وكثر عيبه في الحرم وثارت به العامة لمركب شنيع أتاه. وتولى كبر الثورة عبد الرحمن بن أبي سهل الخزاعي وأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين، فتوارى ليلتين ومات أسفاً لليلته، وانقطع الملك من عقب محمد بن ادريس، وبلغ الخبر في شأن يحيى إلى ابن عمه علي بن عمر صاحب الريف، واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر والموالي فجاء إلى فاس ودخلها وبايعوه، واستولى على المغرب» /ابن خلدون، العبر ٤/١٥/ ويلاحظ القارىء هنا كيف أن أهل البلد ثاروا على المفسد المنحرف وطردوه، ثم أن أهل الدولة من العرب والبربر والموالي «هم الذين استدعوا ابن عمه علي بن عمر بن ادريس الثاني وولوه مكانه، مما يدل على جماعية الحكم، وقد انتقلت الإمامة الإدريسية بهذا من فرع إلى فرع دون طول لجاجة أو حرب أهلية»، ونتابع روايتنا لعبارة ابن خلدون، ففيها لمحات وإشارات تعيننا على مزيد من الفهم لطبيعة هذه الدولة الإدريسية، قال بعد ذكر تولية علي بن عمر« إلى أن ثار عليه عبد الرازق الخارجي. خرج بجبال مديونه، وكان على رأي الصفرية فزحف إلى فاس

وغلب عليها ففر إلى أوْربة، وملك عبد الـرازق عدوة الأنـدلس، وامتنعت منه عـدوة القرويـين وولوا عـلى أنفسهم يحيى بن القاسم بن ادريس، وكـان يعرف بالعذّام» وهنـا أيضاً نـلاحظ أن الناس أنفسهم هم الـذين استدعـوا يحيى بن القاسم بن ادريس (وكان يلي طنجة وسبته وقلعة حجـر النسر وتطوان من أيـام أقطع جده محمد بن ادريس هذه الـولاية لأخيـه القاسم)، «فجـاءهم في جموعه وكـان بينه وبـين الخـارجي حـروب، ويقال إنه أخـرجـه من عـدوة الأنـدلس واستعمل عليها ثعلبـة بن محارب بن عبـدالله / الأزدي / وكان من أهـل الربض بقـرطبة، من ولـد المهلب بن أبي صفرة ثم استعمـل ابنه المعـروف بعبـود من بعده، ثم ابنه محـارب بن عبود، بن ثعلبـة، إلى أن اغتالـه الربيـع بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومائتين وقام بالأمر مكانه يحيى بن ادريس بن عمـر صاحب الـريف. (وهكـذا انتقلت الإمـامـة من بيت القـاسم بن محمـد بن ادريس واستقرت في بيت عمر بن ادريس دون حـروب)، وهو ابن أخي علي بن عمر. فملك جميع أعمال الأدارسة وخطب له على سائر أعمال المغرب وكان أوسع بني ادريس ملكاً وأعظمهم سلطانـاً وكان فقيهـاً عارفـاً بالحـديث ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة[1]».

وهكـذا ورغم تنقل الملك من فرع من فروع البيت الأدريسي إلى فـرع، نجد أن هذا البيت يزداد قوة وثباتاً، لأنه في الحقيقة يعتمد على الأمة المغربيـة، فهي التي ترعى هذا الملك الأدريسي وتحـافظ عليـه لأن البيت الأدريسي احتفظ بعروبته ولكنه اختلط بالناس وصاهرهم واعتمد عليهم واعتز برأيهم، فـأصبح بيتاً محلياً قومياً، وإلى هذا يرجـع طول عمـره وبعد تـأثيره، فـما من بيت حاكم إسـلامي حكم في مصر من الأمصار وكـان له الأثـر البعيـد في التعـريب ونشر الإسلام السـني ما كان لبيت الأدارسة هذا.

وفي أواخر القرن الهجري الثالث «سنـة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٩م» قامت الـدولة

(١) ابن خلدون، العبر، جـ ٤ ص ١٥، ١٦.

الفاطمية في افريقية (وهي ما يعرف اليوم بتونس واقليم طرابلس من أقاليم ليبيا وإقليم الزاب وهو شرقي الجمهورية الجزائرية إلى نهر شلف مجتمعة في وحدة سياسية واحدة تعرف بافريقية)، والدولة الفاطمية دولة هاشمية قرشية أخرى ولكنها كانت تختلف عن الدولة الادريسية اختلافاً تاماً كما سنرى، وكان في خلفائها طموح إلى ملك المغرب كله، فاستعانوا بقبائل من صنهاجة المغرب الأوسط، لكي يمدوا سلطانهم حتى بلغوا المغرب الأقصى وهنا بدأ الصراع بينهم وبين الأدراسة وكانت بداية الصراع أن زحف رجل من صنائع الفاطميين يسمى مصالة بن حبوس كبير قبيلة مكناسة وصاحب تاهرت على المغرب الأقصى واقتحمه على يحيى بن ادريس بن عمر بن محمد إقتحاماً قبلياً عنيفاً سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧م وهزم يحيى ابن ادريس وانتهى الأمر بيحيى هذا إلى قبول الدخول في طاعة عبيدالله المهدي وانتهى الأمر به بعد مكابدة أهوال إلى خروجه وبقية آل بيته إلى قلعة حجر النسر جنوبي بصرة المغرب في جبال الريف سنة ٣١٧ هـ/ ٩٢٩م. وهنا ينتهي الدور الأول من تاريخ الأدارسة وهو دور طويل بدأ سنة ١٧٣هـ أي أنه استمر ١٤٤ سنة هجرية هي أطول من عمر الدولة الأموية المشرقية بكثير، فإن هذه لم تدم أكثر من ٩٢ عاماً هجرياً، وهذه الفترة أيضاً أطول من عصر القوة في عمر دولة بني العباس وهو لا يزيد على مائة سنة.

الدور الثاني من تاريخ الأدارسة :

ولكن الدولة الإدريسية عادت مرة أخرى الى الظهور، فإن من تجمعوا من الأدارسة في قلعة حجر النسر بزعامة بيت مشهور منهم يعرف ببيت بني محمد تمكنوا من العودة الى السلطان في شمال المغرب الأقصى، ودخلوا في صراع طويل مع الفاطميين مرة ومع الأمويين الأندلسيين مرة أخرى، حتى انتهى عمر دولتهم السياسية نهائياً على يد المنصور محمد بن أبي عامر المستبد بأمر الخليفة الأموي القرطبي في نهاية القرن الرابع الهجري، وبذلك تكون الدولة الادريسية قد

عمرت في المغرب حوالي ٢٢٠ سنة ولم تصل دولة مغربية الى هذا العمر قبل العصر الحديث.

واذا نحن ذكرنا أن دولة بني أمية الأندلسيين كانت تحكم الأندلس في حين أن دولة الشرفاء الأدارسة حكمت المغرب الأقصى، وانهما تعاصرتا ردحاً من الزمن طويلاً، تبينا أن هاتين الدولتين القرشيتين: واحدة أموية عبشمية والثانية هاشمية علوية قد قدمتا للإسلام والعروبة أجل الخدمات، وقد تعاصرت الدولتان خلال النصف الثاني من القرن الهجري الثاني، ثم خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين فكان ذلك خيراً للاسلام وبركة، لأن الدولتين جهدتا في الدفاع عن الإسلام: واحدة منهما وقفت كالطود الشامخ أمام ضغط المسيحية والثانية أمام مذاهب الزندقة والإنحراف عن الإسلام في المغرب، وعند التأمل العميق يتبين لنا أن الأندلس الأموي القرشي أنفق حياته في الذياد عن نفسه ولكنه في نفس الوقت كان يذود عن الإسلام في الأندلس ويحول بين طوفان النصرانية الغربية والتدفق على الأندلس.

أما دولة الأدارسة فقد استهلكت نفسها في نشر الإسلام في المغربين الأقصى والأوسط، ووفقت في المحافظة على سنية الاسلام المغربي، فلولا دولة الأدارسة لما كان هناك سنة وجماعة في المغرب الأقصى بل في المغرب كله، لأن الإسلام السني في افريقية تمكن من طرد المذهب الشيعي ودولته من بلاد افريقية وإعادتها الى السنة المالكية بعد ان انتقل الفاطميون الى مصر، وقد كانت عودة السنة والجماعة الى افريقية والمغرب الأوسط على يد بني زيرى الصنهاجيين خلفاء الفاطميين في المغرب أولاً ثم اعداؤهم فيه بعد ذلك عملاً فاصلاً في تاريخ المغرب كله لأن ذراع السنة امتد من افريقية حتى التقى بذراع السنة في المغرب الأقصى، والاثنان معاً أكملا عودة المغرب الأوسط الى مذهب السنة، وبذلك عادت وحدة الإسلام المغربي من بلاد ليبيا إلى ساحل المحيط ونازلا في الصحراء إلى بلاد افريقية المدارية والاستوائية. وهذه حقيقة من أعظم حقائق التاريخ الإسلامي.

لأن المغرب بهذا أصبح جناحاً قوياً للسنة والجماعة في الغرب وخاصة بعد أن انتهى أمر الدولة الفاطمية في مصر وعادت مصر إلى السنة، فاستقام أمر السنة ووحدة الاسلام من حدود العراق إلى المحيط الأطلسي، ومثل هذه النتيجة الباهرة لم يوفق إليها أهل الإسلام في المشرق، فظلت كتلة الشيعة الصماء في إيران تقسم وحدة المشرق الإسلامي وتهدده بأشد المخاطر. والإسلام المغربي بحربه مع الزندقة والانحراف ثم نشره الاسلام في نواحي المغرب وخاصة في قلب بلاد المصامدة في جبال درن وبلاد السوس، صان وحدة الإسلام كله والفضل في ذلك لعمل هاتين الدولتين معاً «الأندلسية والأدريسية» وثبتت أقدام الإسلام في الطرف المغربي القصي لدولة الإسلام، وإذا كان الأندلس قد سقط في المعركة فلأن أهله ألغوا الخلافة القرطبية بقرار أحمق اتخذه أهل قرطبة برياسة شيخهم أبي الحزم أبي الوليد بن جمهور سنة ٤٢٣هـ /١٠٣١ م بالغاءالخلافة وإخراج بقية الأمويين من بلادهم بدلاً من اختيار أموي صالح للرياسة وتأييده والوقوف معه لتنهض الدولة الأموية، وهي رمز الوحدة والقوة من جديد، ولكن هكذا كان ولا سبيل إلى رد ما فات. ومن يوم زوال الخلافة القرطبية القرشية لم تقم للأندلس قائمة، كأنما انقصم ظهره، وبالفعل كان الأمويون ظهر الأندلس الاسلامي وعموده الفقري، فلما انكسر لم يعد في العودة الى سابق القوة - بل البقاء - أمل ولكن الأندلس الاسلامي عندما زال واندثر كان قد قام بوظيفة كبرى للاسلام كله، لقد حمى الاسلام المغربي حتى ثبت واستقر ولم يعد الى زواله من سبيل، وبعد سقوط الأندلس بدأت فعلاً معركة المغرب مع النصرانية، ولكن اسلام المغرب كان قد استقر وقوي عوده فاستطاع أن يتحمل الصدمات النصرانية الغربية وحده، وهكذا بتدبير خفي لطيف من الله سبحانه تعاون بنو أمية وبنو هاشم على صيانة الجناح الغربي لدولة الاسلام وحمايته من العدوان الغربي المسيحي، وبالفعل لم تكد معركة الأندلس تقارب نهايتها بعد محاولات بني مرين لانقاذ غرناطة حتى بدأ الهجوم على المغرب، وقد قادت ذلك الهجوم إسبانيا والبرتغال.

ونكتفي بهذا القدر عن دولة الأدارسة فليس هذا تاريخاً لها، وقد رويته كاملاً في ايجاز في التاريخ العام للمغرب الاسلامي الذي أعان اللّه على الفراغ منه، وأظن أنني بينت ـ بما يتفق وحجم هذا الكتاب وغايته ـ الدور العظيم الذي كان لهذا البيت القرشي الادريسي الهاشمي في بناء الجناح الغربي لدولة الاسلام. وهو كما رأينا دور جليل يعيننا على ما نحن بصدده من تقدير دور قريش في التاريخ الاسلامي والتاريخ العالمي جميعاً وننتقل الآن إلى دور آخر لقريش.

الدول العلوية من بني سليمان بن عبدالله المحض في المغرب الأوسط:

كان المظنون الى حين قريب أن هجرة ادريس بن عبداللّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الى المغرب الأقصى كانت حدثا فريداً منقطعاً بذاته وإن قيام الدولة الادريسية في المغرب الأقصى كان نتيجة لانتساب راشد مولاه الى البربر فيقال إنه هرب بادريس الى بلاد قومه، ولكن قراءة ثانية لما بين أيدينا من النصوص تدل على أن المغربين الأوسط والأقصى كانا متّجه أبصار العلويين بعد معركة وادي فخ سنة ١٦٩ هـ، فهذان المغربان كانا خارجين عن دولة العباسيين التي وقفت عند حدود ولاية أفريقية كما ذكرنا، فلا حرج على أي طالب للسلطان أن يجرب حظه في أي موضع شاء وراء ذلك غرباً، فهو لا يكون بهذا بمنزلة الخارج على سلطان الدولة العباسية أو مقتطع شيئاً من أرضها.

ففي نفس الوقت الذي لجأ فيه ادريس بن عبداللّه المحض الى المغرب الأقصى ظهر في غربي المغرب الأوسط (وهران وما يليها غرباً) أخوه سليمان، وربما كان اللاجئون الى المغرب أولاد سليمان هذا لأن سليمان هلك في معركة فخ مع من هلك من كبار العلوية في الغالب، وابن خلدون يقول ناقلاً عن ابن حزم دون تحقيق، إن سليمان فر الى تاهرت بعد موت أخيه ادريس الأول فيما بين سنتي ١٧٧ و٢١٣ هـ/ ٧٩٣ و٨٢٨م «فاستنكره البربر وطلبه ولاة الأغالبة فكان

في طلبهم (إياه) تصحيح نسبه. ولحق بتلمسان وملكها[1]. وليس لدينا ما يضعف هذا الخبر الا قوله أن ولاة الأغالبة طلبوه، فان دولة الأغالبة قامت سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م في القيروان على يد ابراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمى في الفترة التي يقول ابن خلدون إن عمال الأغالبة طاردوا سليمان في تاهرت وكانت دولة الأغالبة إذ ذاك في دور التأسيس، وكان ابراهيم بن الأغلب مشغولاً بأمر خصومه ومنافسيه في افريقية ثم ان منطقة تاهرت كانت أبعد ما تكون عن بلد الأغالبة، فكيف يطلبونه أو يطلبه عمالهم؟

ولكن الذي يمكن قوله هو أن سليمان أو أبناءه لحقوا بتاهرت فلم يكتب لهم فيها توفيق، فانتقلوا الى تلمسان، وتلمسان كانت دار اسلام من زمن بعيد. وهي مدينة قديمة اسمها عند الرومان بوماريا Pomaria وكانت في منطقة تسيطر عليها قبائل زناتية مثل جراوة ونفوسة، فلقيت دعوة سليمان أو بنيه بها قبولاً من بربر تلمسان وقد حفزهم النسب العلوي الهاشمي الى التماس البركة فيه، ويمكن القول أن صاحب الأمر منهم كان محمد بن سليمان بن عبدالله، فتمهد له الأمر هناك ولم يتيسر له انشاء دولة، وإنما هو أقام فيها شيئاً يشبه الامارة الصغيرة أو المشيخة، فساد أهلها وتيمنوا به وصاهروه واستقرت قدمه وضربت جذوره، وخلفه على تلمسان ابنه محمد بن محمد بن سليمان بن عبدالله المحض. وغريب من ابن خلدون في هذه المناسبة أنه يذكر أن سليمان عندما مات خلفه ابنه محمد على تلمسان على سنته ثم افترق بنوه على ثغور المغرب (الأوسط) فاقتسموا ممالكه ونواحيه، فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد بن محمد[2] فكيف يكون محمد بن محمد بن سليمان هو محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد بن محمد ؟ وما هي هذه الأسماء كلها التي ترد في النسب؟ فهل المراد هنا محمدا آخر من أحفاد سليمان بن محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد بن محمد؟ وهذا على أي حال مستبعد لتعدد الأسماء في هذا النسب مما يعني تأخر المدة.

(١) ابن خلدون، التاريخ ١٧/٤.
(٢) ابن خلدون، تاريخ ١٧/٤.

على أي الأحوال نستطيع القول إن أبناء سليمان أو ابنه محمد انتشروا في المغرب الأوسط، وكانت لهم فيه امارات أو دويلات صغيرة كثيرة. يقول ابن خلدون «ثم افترق بنوه ـ بنو محمد ـ على ثغور المغرب الأوسط واقتسموا ممالكه ونواحيه فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد القاسم بن محمد بن أحمد (وقد ناقشنا اسمه وشككنا فيه وأظن أن الذي يتكلم عنه ابن خلدون هنا ـ أقصد القاسم ـ هو الذي يدعي بنو الواد نسبه، فان هذا أشبه من القول بأن القاسم بن ادريس هو الذي قام بهذه الدعوى[١] وكانت أرْشكول[٢] لعيسى بن محمد بن سليمان وكان منقطعاً إلى الشيعة (أي الى العبيديين الفاطميين في افريقية ثم في مصر) وكانت جراوة لادريس بن محمد بن سليمان ثم لابنه عيسى، وكنيته أبو العيش، ولم تزل إمارتها في ولده، ووليها بعده ابنه ابراهيم بن عيسى ثم ابنه يحيى بن ابراهيم، ثم أخوه ادريس بن ابراهيم، وكان ادريس بن ابراهيم صاحب ارشقول منقطعاً الى عبد الرحمن الناصر. . . وكانت تِنِس لابراهيم بن محمد بن سليمان ثم لابنه محمد من بعده. . . وكان من ولد ابراهيم هذا احمد بن عيسى بن ابراهيم صاحب سوق ابراهيم. . . قال ابن حزم: وهم في المغرب كثير جداً، وكان لهم منها ممالك وقد بطل جميعها، ولم يبق منهم بها الا رئيس بنواحي بجاية. . . الخ»[٣].

فهذه الجماعة الادريسية الحسنية انتشرت في نواحي المغرب الأوسط الغربي وكان معظم سكانه زناتية، فعربتهم وصححت اسلامهم على طريق أهل السنة وكان للحسنيين هؤلاء أثر بعيد جداً في تعريب هذه النواحي حتى تندوف في داخل الصحراء الكبرى. وينبغي أن نحسب هنا حساب أبنائهم وأحفادهم واصهارهم من البربر الذين استعربوا، فكان هذا الفريق من قريش

---

(١) أتيت بهذه العبارة لاستلفت النظر الى أن بني عبد الواد أو بني يغمراس بن زيان الذين حكموا المغرب الأوسط فيا بعد يدعون لأنفسهم نسباً علوياً هاشمياً وهم في الحقيقة من صميم البربر.
(٢) تكتب أيضاً أرشقول وهي الى غرب وهران من موانئ المغرب الأوسط.
(٣) ابن خلدون: ٤/١٧.

صاحب اليد الطولى في تعريب هذا الجانب الكبير من العالم الإسلامي وهم في مجموعهم نماذج للدويلات القرشية الصغيرة التي حفل بها العالم الإسلامي في كل ناحية من نواحيه.

العَلَويّون الحسنيّون وإسلام بلاد الدّيلم وَدهستان وَجرجان :

وكما كانت فروع العلويين الحسنيين هم الذين وسعوا نطاق الإسلام وثبتوا دعائمه في المغرب الأقصى وغرب المغرب الأوسط، فقد قام حسنيون آخرون بدور يماثل هذا في طبرستان جنوبي بحر الخزر وهو قزوين، وما يلي بحر الخزر شرقاً وغرباً من بلاد جرجان ودهستان والدامغان وجيلان، وقد كانت هذه البلاد الجبلية الوعرة قد تخلفت دون اسلام أثناء أعمال الفتوح الكبرى، فإن طبرستان جنوبي بحر الخزر - وهي منطقة الري التي تقوم فيها طهران حالياً - تضم بلاداً واسعة انصرف المسلمون عنها بخراسان وسجستان وما يليهما شرقاً، لأنها كانت عند القسمية بين ولايتي البصرة والكوفة قد وقعت من نصيب الكوفة، والكوفة كانت ولاية ضعيفة نسبياً إذا قورنت بولاية البصرة التي كانت تشمل معظم العراق وما يليه شرقاً بما في ذلك بلاد ما وراء النهر، فلم تستطع ولاية الكوفة أن تواصل أعمال الفتوح بنفس القوة التي سارت بها ولاية البصرة، ثم إن الولايتين كان يحكمهما رجل واحد في معظم العصر الأموي وكانت احداث خراسان الخطيرة قد استنفدت جهود الفاتحين والولاة، وكذلك انصرفت الجهود الى الفتوح في بلاد التركستان وهي ما وراء النهر.

فلما قامت الدولة الطاهرية في خراسان سنة ٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م أيام المأمون هدأت أحوال المشرق، واستطاع أبو الطيب طاهر بن الحسين أول الطاهريين أن يلتفت إلى بلاد طبرستان وشرقي بحر الخزر. وفي أيام محمد بن طاهر بن أبي العباس عبد الله بن طاهر، وهو خامس الأمراء الطاهريين «٢٤٨ - ٢٥٩ هـ / ٨٦٢ - ٨٧٣ م» صاحب خراسان كان يتولى أمور

طبرستان ابن عم له يسمى سليمان بن عبد الله بن طاهـر نائبـاً عنه، ووقعت بينه وبين بيت من بيوت الطبريين يسمى بيت بني رستم خصومـة، فبحث محمد وابراهيم ابنـا رستم عن شخصية عـربية تقـودهم في صراعهم ضـد ولاة الطاهريين العباسيين أصحاب خراسان، واستقر رأيهم على الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب وكان من بين العلويين الذين سـالموا العباسيين ودخلوا في خدمتهم فولوه المدينة وكان له فيها أثر غير محمود، فقد أعان أبا جعفر المنصور على ابن عمه عبدالله المحض وبنيه وآله الذين ذكرنا بعض أخبارهم، ثم انتقل الحسن بن زيد هذا الى الري وهناك استنجد به محمد وجعفر ابنـا رستم على محمد بن طاهر، فأتاهم ورأسهم وتمكن من الانتصار على نواب الطاهريين والاستقلال بطبرستان وجرجان.

وقد طالت الحرب بين أولئك الزيـديين والطاهريين حتى نهايـة الدولـة الطاهرية في حدود سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩م.

وكان الديلم وهم أهل طبرستان لا يزال معظمهم على الكفر فاستطاع أولئك الزيديون ادخالهم في الاسلام وأكملوا اسلام جرجان ودهستان وما بين نهر سيحون وبحر قزوين من البلاد جنوبي خوارزم وتلك بلاد واسعة كانت غفلا من الاسلام، فدخلت فيه على أيدي أولئك العلويين الزيديين المجاهدين برئاسة شيخهم الحسن بن زيد الذي ظل أميراً على طبرستان حتى رجب سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٤ م.

وقد لقب بداعي طبرستان لاجتهاده في نشر الاسلام وبث الدعوة الزيدية في تلك البلاد.

وعندما اشتد ساعد يعقوب بن الليث الصفار في سجستان تطلع الى تلك البلاد، بلاد طبرستان وكبار قواعدها من مثل الري وآمـد وقزوين، فثبت لـه الحسن بن زيد هذا ثم ابنه واستمرت الحروب طويـلاً بين الجـانبين. وخلف

الحسن بن زيد في القيادة والامامة أخوه محمد بن زيد بن الحسن بن الحسن الأطروش.

وعندما قتل محمد بن زيد دخل بلاد الديلم زعيم علوي آخر هو الحسن بن علي بن الحسين بن عمر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فكأن الزعامة هناك انتقلت من الحسنية الى الحسينية، والحسن هذا يلقب بالأطروش أو بداعي الطالقان وكان مذهب الشيعة الزيدية قد انتشر في طبرستان وجرجان فدخل في المذهب الحسن الأطروش رغم حسينيته. وقد طال أمر الزيديين في طبرستان ومرت بهم صروف طويلة حتى انتهى أمرهم سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م ومما يستلفت النظر أن أحداً لم يكتب لنا تاريخ أولئك العلويين على نحو يستوفي اعمالهم ويظهر عظيم غنائهم في نشر الاسلام وكان لهم أثر بعيد في إكمال اسلام الناس من ناحية وتثبيت دعائم المذهب الزيدي من ناحية أخرى[١].

وإنما وقفنا بهم هذه الوقفة القصيرة لأنهم بيت هاشمي قرشي كان له دور عظيم في نشر الإسلام، وتاريخهم يدل كذلك على حيوية البيت العلوي ما بين حسنية وحسينية، وكأنما كان اجتهاد بني أمية وبني العباس في استئصال آل البيت كان دافعاً إياهم الى الاستمساك بالبقاء والاجتهاد في إثبات حقهم في الرياسة، والحق أن الإنسان ليتعجب من حيوية الحسنيين خاصة الذين ظهروا في كل مكان، كأنهم موج متدفق لأول ما بدت دلائل الضعف على بني العباس. وفي أيام المأمون كانت موجات العلويين في كل نواحي الدولة الإسلامية أشبه بالطوفان وقد ذكرنا ذلك فيما سبق.

وقد أورد ابن خلدون في تاريخه موجزاً بدول العلويين في فصل جامع عنوانه الخبر عن نسب الطالبيين وذكر المشاهير من أعقابهم[١]، وهو فصل

(١) انظر موجزاً لتاريخهم الحافل في طبرستان وبلاد الديلم عن ابن خلدون، تاريخ ٤/٢٢ ـ ٢٨.
(٢) ابن خلدون، تاريخ ٤/١١٣.

جامع أقامه ابن خلدون على أساس شجرة نسب علي بن أبي طالب التي أوردها ابن حزم في الجمهرة، وأنت ترى في هذا الفصل الذي اقتصر فيه ابن خلدون على دول المشاهير منهم، أن هذه الدول تكاد تعجز الباحث عن تتبع تواريخها، فهي عشرات الدول في كل بلاد مملكة الإسلام بما في ذلك بلاد غانة أي افريقية المدارية والاستوائية، ولم يورد ابن خلدون - طبعاً - ما ظهر من دول العلوية بعد حتى أيامه في بلاد السودان وآسيا وخاصة جنوبها وجنوبها الشرقي، ويبدو أن الأمر لم يقتصر على تصدي العلويين للإمامة حيث وجدوا فرصة لذلك، بل إن الناس أنفسهم كانوا إذا وجدوا بينهم علوياً يتوسمون فيه الخير يقدمونه، وذلك لا يمنع من أن يقوموا عليه بعد ذلك، ولكن العلويين كانوا مقدمين على غيرهم اذا كان الأمر أمر إمامة، ولهذا تعددت دولهم وشملت العالم الإسلامي كله وعصوره كلها الى يومنا هذا، وإنه لعجيب أن ينجب علي بن أبي طالب أولاداً كثيرين من نساء شتى فلا تكون الذرية الضخمة والإمامة بشتى صورها إلا في أبناء ثلاثة منهم: اثنان من اولاد فاطمة هما الحسن والحسين وواحد من غيرها وهو محمد بن الحنفية، ومن أولئك الثلاثة جاء فيض يشبه السيل، فهم - حرفياً - الوف، وذلك رغم من قتل منهم وهم كثيرون جداً. ولقد انقطع أو خفي نسل القرشيين جميعاً إلا من نسل رسول الله ﷺ من هؤلاء الثلاثة، وقد جعل الله سبحانه من البركة فيهم ما لم يجعل في أحد من بني آدم، وما بقي من قريش أحد يعرف ويذكر على تحقيق إلا من عترة المصطفى صلوات الله عليه من بنت واحدة.

الزيديون في اليمن :

ومن هذه الدول القرشية لم نذكر إلى الآن إلا ثلاثة كباراً هم بنو أمية في الأندلس وبنو ادريس في المغرب الأقصى - ومعهم بنو أخيه سليمان في المغرب الأوسط - ثم العلويون الحسنيون في بلاد الديلم وطبرستان وجرجان، والدولة الأولى أموية وهي دولة جهاد وسياسة وعروبة، قامت في التاريخ العالمي بدور

كبير، لأنها قامت على أرض أوروبية. والثانية - الادريسية - دولة علوية سنية ذات فضل عظيم في تثبيت دعائم الإسلام على مذهب السنة والجماعة في المغرب، مع جهد عظيم في التعريب، والثالثة دولة الحسينين في بلاد الديلم وهي دولة نشر للإسلام في نواح من مملكة الإسلام لم يكن قد انتشر الدين فيها فعرف أولئك الحسينيون كيف يدخلون أهلها جميعاً في الدين.

والدولة الرابعة من دول قريش التي نذكرها هي دولة الزيدية في اليمن وهي تتميز على غيرها من دول القرشيين بأنها قامت على العلم، فإن الإمام الذي أقامها كان عالماً اشترط على نفسه عندما شرع في إقامة إمامته أن يلتزم بعماد من الإسلام لم يلتفت إليه أحد من رجال دول الإسلام في العصور الوسطى وهو احترام الأمة والتزام مبادىء الإسلام السمح فكراً وعملاً، وذلك في البداية على الأقل، فإن المؤسس الحقيقي لتلك الدولة الزيدية كان إماماً عالماً مجاهداً نجداً، هو الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين القاسم الرسي الذي بدأ إمامته في اليمن سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م.

وقد قامت الدولة الزيدية في اليمن على مذهب وضعه الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان عالماً مفكراً مجتهداً انصرف أول أمره إلى طلب العلم، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أئمة العلويين من أبناء الحسين بن علي رضي الله عنه، وقد اتفق زيد بن علي زين العابدين مع غيره من العلوية في أن أولى الناس بإمامة الأمة بعد رسول الله ﷺ هو الإمام علي، ولكنه لم ينكر إمامة الشيخين ولا هو رضي بالقدح فيهما، ثم قال إن الإمامة في بيت علي ولكنها ليست ميراثاً من أب لابن وليست سراً ينتقل في الأصلاب بإرادة إلهية كما يقول الإمامية الإسماعيلية، ولكن يتولاها أفضل الموجودين من بيت علي رضي الله عنه علماً وفضلاً وإيماناً، فجمع الرجل بذلك بين شيء ترضى عنه الشيعة وشيء ترضى عنه السنة.

لهذا فقد لقي المذهب الزيدي قبولاً حسناً عند عامة المسلمين، ثم إن

زيد بن علي بن الحسين وضع أسس مذهب فقهي ووضع كتباً قام عليها المذهب الزيدي، وأكمل عمله غيره ممن تولوا الإمامة أو الفقه على مذهب الزيدية، ويستوقف النظر أن زيداً وهو من أبناء الحسين بن علي وضع أساس المذهب الزيدي، أما الذي أكثر التأليف في المذهب وأقام إمامته فكان رجلاً حسنياً هو الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي، فهو على هذا، مذهب حسيني حسني في آن معاً.

والإمام زيد بن علي زين العابدين مؤسس المذهب الزيدي وصاحب الفضل في قيام دولة الزيدية في اليمن كان من أبطال آل البيت في صراعهم للوصول إلى السلطان، وكان زيد مباعداً للسياسة منصرفاً إلى العلم شأنه في ذلك شأن أخيه محمد الباقر بن علي زين العابدين وبقية آل الحسين بن علي حتى جعفر الصادق، ولكن الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي «١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢م» آذاه وأحرجه ونال منه دون داع وكان هشام نفسه يحكم في ظروف سيئة، فإن الأرض كانت تميد تحت أقدام بني أمية واتسع نطاق الثورات عليهم في كل نواحي دولتهم، وأدت الحروب والثورات - إلى جانب سوء تصرف الخلفاء السابقين عليه من بني أمية - إلى هبوط خطر في إيرادات الدولة، وإصلاحات عمر بن عبد العزيز التي هزت المالية الأموية هزاً عنيفاً لم تجد الإداري المالي الذي يعيد التوازن الاقتصادي للدولة، ثم جاءت الفتن بين جند الدولة من قيسية ويمنية، واضطرب الأمر في يد هشام اضطراباً مخيفاً وانصب جانب كبير من غضب هذا الخليفة الأموي على زيد بن علي زين العابدين هذا، لأنه كان يتمتع بمكانة رفيعة ومهابة عظيمة في قلوب الناس، فتعمد هشام أن يهينه امام الناس فلم يجد زيد بداً من الرد على الخليفة المستهين بكرامات الناس، فدعا للبيعة لنفسه، وذهب الى الكوفة حيث تجمع حوله ناس كثيرون وبايعوه، وأغلب الظن أن زيداً كان يعلم أنه مقتول فقد كان أعلم الناس بقلة القيمة العملية للمبايعات التي كان يتلقاها بالألوف. وعندما سير والي

العراق لهشام بن عبدالملك قواته للقاء قوات زيد انفضّ الناس من حوله إلا ٢١٨ رجلاً فيما يقال وكان اللقاء قرب الكوفة وكان لقاء انتحار معروف النتيجة، وكان استشهاد زيد بن علي زين العابدين سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠[١].

وكان هذا الموت العنيف لزيد دافعاً للناس إلى مزيد من التعلق به وبآرائه، وبالفعل كانت آراء زيد بن علي زين العابدين السياسية أحسن ما وصل إليه الناس إلى أيامه من القول بحرية الناس في اختيار الإمام من بيت علي، ولم يكن حصر الإمامة في بيت علي بقيد يذكر على حرية الناس في الاختيار، فإن العلويين كانوا كثيرين جداً ولا يعدم الناس فيهم رجلاً صالحاً للإمامة ما دام الإمام زيد لا يشترط الوراثة، وكان الإمام زيد يرى أن تكون المفاضلة بين المرشحين على أساس صالح الجماعة الإسلامية، ونفى زيد القول بعصمة الأئمة وأباح للأمة الحق في خلع الإمام إذا لم يحسن السياسة، والمذهب الزيدي على هذا أقرب الآراء إلى مذهب أهل السنة الذين كانوا يرون أن الخلافة حق مطلق للأفضل بين المسلمين. ولا يؤمن الزيديون بالتقية أي بحق الانسان في إنكار مذهبه والظهور بغيره خوفاً على حياته، ولا يرون ضرورة لاختفاء الأئمة وإنما الإمام عندهم يكون صريحاً معلناً في مكان وظروف تضمن سلامته وسلامة جماعته، وزيد بن علي بن الحسين كما رأينا أعلن نفسه إماماً ودعا الناس إلى بيعته جهاراً دون أن يستتر أو يتوقى.

ولا غرابة إذن في أن ينتشر المذهب الزيدي انتشاراً واسعاً ويوجد لنفسه انصاراً في كل بلاد المسلمين، وقد لجأ الكثيرون من آل البيت إلى نواح قصية من الدولة الإسلامية وأعلنوا عن أنفسهم فيها، وبعضهم طلب الخلافة وبعضهم لم يطلبها. والأدارسة الذين مررنا بهم كانوا في الحقيقة زيديين مذهبياً

---

(١) انظر عن زيد بن علي رسالة الأستاذ ابراهيم الوزير بيروت ١٩٧٠، واقرأ في هذا الكتاب تأييد عدد عظيم من علماء المسلمين لدعوة زيد بن الحسين ومنهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت: ص ١٢ ـ ١٣.

دون أن ينتبهوا لذلك لأن مذهب الزيدية استلزم وقتاً طويلاً لكي يعرفه الناس حق المعرفة وهو لم يظهر كمذهب قائم بذاته له فقهه ونظره إلى أمور المسلمين بما فيها التشريع إلا من أوائل القرن الهجري الثالث.

وصاحب الفضل في تثبيت قواعد هذا المذهب وإقامة إمامة على أساسه رجل من آل الحسن بن علي بن أبي طالب هو يحيى بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن القاسم الرَّسي (نسبة الى الرس قرية صغيرة على الطريق بين مكة والكوفة الى الشمال الغربي من مدينة الرياض الحالية)، والقاسم الرَّسي هو ابن ابراهيم طباطبا الذي أشرنا إليه، وهوابن إسماعيل بن علي بن إبراهيم بن عبد اللّه المحض قتيل باخمرا قرب الكوفة سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢م وقد ذكرنا قيامه في الكوفة بعد مقتل أخيه محمد النفس الزكية.

ويحيى بن الحسين هذا الذي نحن بصدده كان حنيفاً، ولكنه أخذ المذهب الزيدي عن أبيه الحسين وذهب إلى اليمن واستقر في صعده سنة ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م. وتلقب بالإمام الهادي إلى الحق، وفي خطاب إمامته الذي ألقاه في ٦ صفر سنة ٢٨٤ هـ أعلن أسس إمامته، وهي إلى ذلك الحين أقرب أسس أعلنها إمام إلى روح الإسلام بعد الأسس التي قامت عليها خلافة الراشدين. وقد قال فيه: «أيها الناس إنني أشترط لكم أربعاً على نفسي: الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ. والأثرة لكم على نفسي فيما جعله بيني وبينكم، وأوثركم فلا أفَضَّلُ عليكم، وأقدمكم عند العطاء قبلي، وأتقدم عليكم عند لقاء عدوي وعدوكم. وأشترط لنفسي عليكم اثنتين: النصيحة لله سبحانه وتعالى في السر والعلانية، والطاعة لأمري على كل حالاتكم ما اطعت الله. فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم، وإن ملت وحدت عن كتاب الله وسنة نبيه فلا حجة لي عليكم. فهذه هي سبيلي أدعو الله على بصيرة، أنا ومن اتبعني[1]».

(١) اورده الدكتور حسن سليمان محمود في كتابه: تاريخ اليمن السياسي في العصر الاسلامي بغداد سنة ١٩٦٩ ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

وهذا كلام رجل جاد يعني ما يقول وهو لم يقل هذا الكلام سياسة منه أو استجلاباً لرضى الناس، بل كان الرجل بالفعل إماماً في العلم وله تآليف فقهية كثيرة وفتاوى مشهورة بين أهل اليمن إلى يومنا هذا، وقد أحصى الأستاذ عبدالله محمد الحبشي من مؤلفاته سبعة وسبعين كتاباً ورسالة، وترجم له وذكر مؤلفاته معاصره علي بن محمد العباس من القرن الثالث الهجري وقام بتحقيقه ونشره في بيروت د. سهيل زكار سنة ١٩٧٢، ولم نسمع بمثل هذا البحر في العلم والوفرة في التأليف لرئيس آخر من رؤساء الإسلام.

ولم يذهب الإمام يحيى إلى اليمن طالباً للإمامة وإنما كان أهل صعدة في اليمن، هم الذين استدعوه ويقال إنه وصل صعدة سنة ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م وكانت سنه إذ ذاك خمساً وثلاثين سنة إذ إنه ولد في جبال الرس سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م، وبدأ لأول وصوله في تأسيس إمامته في شمال اليمن ثم تمكن من دخول صنعاء، ولكنه لم يلبث أن ارتد عنها ولو أن هذا الإمام قام في غير اليمن لكان له شأن أكبر مما كان له، ولكن اليمن من أصعب بلاد الله على الحكم لأن أهلها من أشد الناس شكيمة واعتزازاً بأنفسهم حتى ليخيل لمن يقرأ تاريخ اليمن أن كل يمني إمام في نفسه، ومن ثم فإن نفسه لا ترضى له البيعة لغيره، وقد استطاع الإمام يحيى بن الحسين تثبيت مركزه في شمال اليمن وقضى معظم أيامه في حرب المنافسين له، ومحاولة القضاء على دعوة القرامطة في تلك البلاد، واستمر عقبه يحكمون شمال اليمن، واليمن كله في فترات قصيرة إلى العصر الحديث. وقد تولى الأمر من أئمة هذا البيت فوق الخمسين إماماً، ظلوا يحكمون في صعدة ونجران خاصة حتى سنة ١٩٦٢ عندما قامت هناك الثورة العسكرية التي انهت حكم الأئمة الزيديين بعدما حكمت في اليمن ١٠٦٥ سنة ميلادية، وهذا أطول عمر لدولة في التاريخ، بما في ذلك دول الصين التي اشتهرت بطول العمر.

وابتداء من القرن العاشر الهجري وفي حكم الإمام يحيى شرف الدين

(٩١٢ ـ ٩٦٥ هـ/ ١٥٦٠ ـ ١٥٥٧ م)، ونتيجة لغزو الأتراك العثمانيين لليمن اتسع سلطان الأئمة الزيود وامتد نفوذهم لأنهم هم الذين تولوا المقاومة للحكم العثماني، وبعد خروج الأتراك العثمانيين اتسع نفوذ الأئمة حتى شمل اليمن كلها، وفي سنة ١٢٦٩ هـ ، /١٨٥٢م قامت عليهم ثورة إمامية أيضاً قادها الإمام المنصور محمد بن علي الوزير ووقعت بلاد اليمن بعد ذلك في فوضى شاملة استمرت مائة وعشر سنوات ميلادية، وعندما انتهى الحكم العثماني الثاني لليمن سنة ١٣٣٧، /١٩١٨، تمكن الإمام المتوكل يحيى بن محمد حميد الدين (١٣٣٧ ـ ١٣٦٧ هـ) من السيطرة على اليمن كلها شمالاً وجنوباً بمساعدة الانجليز الذين احتلوا عدن سنة ١٢٥٣ هـ/١٨٣٧ م وهذا الاحتلال الانجليزي لعدن هو بداية انقسام اليمن إلى شمالي وجنوبي، والإمام المتوكل يحيى بن محمد حميد الدين من سلالة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرُسي وقد طال حكم هذا البيت وتقادم به العهد وجمد تماماً وربط نفسه ربطاً قوياً برؤساء القبائل، فلم تفلح ثورة ١٩٤٨ التي قادها آل الوزير واستمرت فترة قصيرة من الزمن، عاد بعدها الإمام يحيى إلى السلطان في البلاد حتى قضت عليها نهائياً ثورة عبد الله السلال بتأييد جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٢ م.

وهذه التجربة الهاشمية القرشية تستحق الدراسة، وهي لم تدرس إلى الآن حق الدراسة نظراً لطول عمرها وتقلب الأحوال فيها خلال ذلك الحكم الطويل، ولقد تعاقبت على وسط اليمن وجنوبه دول كثيرة مثل بني زريع وهم بنو الكرم في عدن، ودولة بني نجاح/وهم أحباش/ والكُدَراء دولة بني مهدي في زبيد. والصليحيين الشيعة في صنعاء وهم حلفاء الفاطميين، وبني رسول في زبيد وعدن وتعز وبقية بلاد الساحل، وغيرهم كثيرون، ويلاحظ بصورة عامة أن الأئمة الرسيين كانوا في الغالب سادة صعدة وبلاد الداخل في حين تعاقبت الدول على السهول الساحلية وعدن، وحتى العثمانيون لم يمتد سلطانهم قط إلى

الداخل، وتاريخ اليمن على أي حال في حاجة إلى من يكتبه ولو على وجه الاختصار، لأنه بلد واحد في نظر التقسيم العام لبلاد الإسلام، ولكنه في واقع التاريخ أيمان كثيرة وقد اهمتنا الإشارة إلى دولة آل الرسي نظراً إلى أنها كانت إمامة قرشية قامت على أساس إسلامي سليم، ولكن النظم تشيخ مع الزمن ويدخل عليها الفساد ولا بد من تجديدها وإعادة النظر فيها بين الحين والحين.

الدولة الفاطمية في افريقية ومصر والشام :

كان ينبغي في سياق هذه الدراسة أن نقف طويلاً عند الدولة الفاطمية ذات الصيت البعيد، وهي دولة هاشمية قرشية، إمامها عبيد الله المهدي الذي ينتسب إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق سادس الائمة من ولد الحسين ابن علي بن أبي طالب، وفي صحة انتسابه خلاف كثير، ولكننا نبهنا في هذه الدراسة على أننا لا نناقش الأنساب، فما دام رجل يقول إنه هاشمي فلا مجال للمناقشة في هذه الدعوى لأن صحة الأنساب لا يعلمها إلا الله سبحانه، وقد يكون ادعاء الهاشمية والزعم بالانتساب إلى بني هاشم وآل البيت أدل على صواب ما نقول به في هذا البحث من جلال اسم بني هاشم وقريش، فإن دعوى هذا الانتساب، هي التي هيأت للداعي سواء أكان صادقاً أم غير صادق التأييد الذي استند إليه في إقامة دولته.

ويتضح لنا هذا بصورة خاصة في قيام الدولة الفاطمية في افريقية سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٩ م. فإن رجال قبيلة كتامة البرنسية من البربر الذين استمعوا إلى أبي عبدالله الداعي وصدقوه، لم يناقشوا في صحة نسب الإمام المستتر الذي دعاهم إلى الدخول في طاعته عبدالله الداعي، وحتى عندما نجح أبو عبدالله الداعي الشيعي في القضاء على الدولة الأغلبية وأعلن الخلافة الفاطمية في القيروان سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٩ م. لم يكن الداعي يعرف الإمام عبيدالله المهدي شخصياً ولم يره عياناً ويتعرف عليه، إلا عندما استنقذه من أسر بني

مدرار في سجلماسة سنة ٢٩٧ / ٩١٠ م.

ولكننا لن نقف طويلاً عند الدولة الفاطمية فهي حقاً دولة طويلة التاريخ متسعة الرقعة، ولكنها في مجموعها لم تزد على أنها دولة سياسية هدفها الرئيسي هو تثبيت السلطان السياسي لأسرة علوية ومد رقعته دون أن يكون لها في ذاتها محتوى حضاري أو رسالة تتصل بالعروبة والإسلام، وقد رأينا أن دولة بني أمية في الأندلس كانت دولة جهاد ومثاغرة وعروبة وإسلام، ودولة الأدارسة لها دور عظيم جداً في تثبيت دولة السنة والجماعة في المغرب، ودولة العلويين في طبرستان قامت بنشر الإسلام وتصحيح مذاهب الناس في مساحة واسعة من بلاد الإسلام، ودولة آل الرسي في اليمن إمامة تميزت بسلامة الأسس التي قامت عليها وإن تفرقت بها السبل وصروف الأيام فيما بعد.

أما الدولة الفاطمية فلم يكن لها دور حقيقي في تاريخ الإسلام العام، فإن حال افريقية بعدها أصبح أسوأ مما كان عليه قبلها من كل ناحية، ثم انها بحملاتها المتكررة على المغربين الأوسط والأقصى أثارت العصبية القبلية بين البربر، وأضرت بالمغرب كله ضرراً بليغاً، بل امتد اذاها إلى دولة الإسلام في الأندلس، لأن تطلعها إلى المغرب الأقصى وتدخلها في شئونه اضطر الأمويين الأندلسيين من أيام الناصر لدين الله إلى الالتفات إلى الجنوب وتوجيه جانب كبير جداً من قواهم إلى المغرب مما أضعف جبهتم الشمالية أمام النصارى.

أما في بلاد الشام فلم يكن للفاطميين فيه دور متميز، إنما هم دخلوا هناك في زمرة المتنازعين على السلطان في بلاد لم تكن بحاجة إلى طامعين جدد يدخلون حلبة التطاحن.

فهي على هذا دولة قرشية كبيرة ولكنها ليست عظيمة، ومذهبها الإسماعيلي نفسه كما يصوره كبار دعاتها مثل القاضي النعمان بن محمد متطرفون جداً في الدعوة الإسماعيلية ذات الاتجاه البعيد عن صفاء الإسلام،

وهـذا التعقيد الشـديـد في المـذهب الإسمـاعيـلي الـذي قـامت عليـه الـدولـة الفاطمية، ودعا إليه دعاتها، هو الذي باعد بين عامة المصريين ودعوى الشيعة جملة، وقد نفر أهل افريقية نفوراً شديداً من المذهب الإسماعيـلي ووقف فقهاء المالكية من كل مذاهب الشيعة موقفاً حاسماً كان له أبعد الأثر في مركـز الدولـة الفاطمية في افريقية وبقية المغرب، لأن فقهاء المالكية المغاربة كانوا متشددين في مـذهبهم متمسكين بكـل تفاصيله، وكـان فيهم إلى جانب ذلـك علماء أجـلاء متمكنين من مذاهب السنة استطاعوا الثبات لكل دعوات الإسماعيلية وأثبتـوا بطلان ما عداها، واجتهـدوا في نفس الوقت في بث النفـور والكراهـة من كل انحراف عن المذهب السني، فلم تضـرب مذاهب الإسمـاعيلية بجـذورها في التربة المغربية، وما كادت الدولة الشيعيـة تنتقل إلى مصر حتى تـلاشى المذهب من المغـرب، إلا فيما يتعلق ببعض شكليـات أرغم على التـظاهر بهـا نوابهم في المغرب وهم بنو زيري بن ماد الصنهاجيون، ثم تلاشى المذهب وكل ذكر لـه في أفريقية والمغرب في أيام المعز بن تميم الصنهاجي عندما قطع علاقاته بالفاطميين في مصر سياسياً ودينياً.

وقـد تناولت بـالتفصيل الـدور الذي كـان للدولة الفـاطمية في المغـرب (٢٩٧ ـ ٣٦٢ هـ/ ٩٠٩ - ٩٧٣م) في كتابي عن تاريخ المغرب من قبيل الفتح الاسـلامي إلى قيام الـدولة السعدية، وهـو في مجمـوعـه دور سيء، لأن أهـل افريقية نفروا من الدعوة الفاطميـة نفوراً شـديداً، وقـادهم في ذلك شيـوخهم المالكيون الذين اعتبروا المذاهب الشيعية كلها خارجة على الاسلام، وخلال ما يزيد قليلاً على ستين سنة لم يوفق الفاطميون في إقامـة جسور تفـاهم مع شعب افـريقية، وفي أيـام الخليفة الفـاطمي الثاني وهـو القائم أبـو القـاسم محمـد بن عبدالله المهدي (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ ٩٣٤ - ٩٤٥م) قامت ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار وكان معلم صبيان سنياً من بني يفرن من زناتة، ولكن دعاة الشيعة زعموا فيما بعد أنه كـان خارجيـاً صفريـاً نكاريـاً يكفر أهـل

الدين ويستبيح الأموال، والحقيقة إن حركة ابي يزيد هذا تمثل استياء الناس في افريقية من الحكم الفاطمي، فإن الأمر لم يقتصر على النفور العام من المذهب الشيعي الاسماعيلي، بل إن سياسة الفاطميين المالية كانت سياسة استغلال مالي بشع لم يعرفه أهل المغرب إلى ذلك الحين، فلم يدعوا شيئاً لم يفرضوا عليه مالاً، وابتكروا من الجبايات ما لم تعرفه دولة اسلامية اخرى إلى ذلك الحين، وزاد الفاطميون نهماً إلى المال حاجتهم إلى الجند المرتزق وانصرافهم إلى الانفاق في شراء الصقالبة والعبيد السود ليكونوا جندهم وحرسهم الخاص، ثم ما انفقوه من أموال جسيمة في انشاء حصن خاص لهم خارج القيروان، اتسع حتى صار مدينة عرفت بالمنصورية، ولم تكفهم هذه فأنشأوا المهدية على ساحل البحر في موضع منيع داخل في الماء وحصنوه بالأسوار والأبراج المنيعة الباقية إلى اليوم، وجعلوا عليها أبواباً هائلة من ناحية البر، وقد قصروا السكنى فيها على أنفسهم وخدمهم وجندهم، وجعلوا أهل الأسواق خارج الأسوار، وعندما اشتدت ثورة أبي يزيد ولقيت التأييد من معظم قبائل البربر الزناتية وكثير من الصنهاجية، لجأ الخليفة الفاطمي القائم بجنده إلى المهدية سنة ٣٣٣ هـ /٩١٤م، ولم تنج البقية من الفاطميين إلا بفضل أسوار المهدية، فقد اجتمع كل أهل افريقية إلى أبي يزيد فيما عدا قبيلة كتامة. ولكن أبا يزيد نفسه كان رجلاً مسناً غير قادر على ضبط أمور الجماعات الغفيرة التي انضمت اليه، فخرج الكثيرون عليه وأثرت فيهم دعاية الفاطميين من أنه خارجي نكاري، وعندما استوثق الخليفة الفاطمي الثالث أبو طاهر اسماعيل المنصور بن أبي القاسم محمد القائم (٣٣٤ - ٣٤١ هـ/٩٤٥ - ٩٥٢) من انصراف معظم جماعة أبي يزيد عنه، وأنه بقي في جماعة مبعثرة من هوارة خرج بجنده وهاجمه وشتت جموعه، فارتد إلى القيروان حيث خافه اهلها واقفلوا أبوابها، فارتد بمن معه الى الجبال وكان ذلك سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧م وقبض المنصور على أبي يزيد وقتله وانتهت ثورته، ولكن ذلك لم يعن أن أهل افريقية عادوا الى طاعة الفاطميين، بل ازدادوا نفوراً منهم، وتأكد الفاطميون من أن افريقية والمغرب ليسا لهم موطناً، فاشتد اهتمامهم بغزو مصر للانتقال اليها،

وأطمعهم فيها ضعف الأخشيديين واضطراب أمورهم بعد موت كافور الأخشيدي.

وعندما توفي المنصور وجاء ابو تميم معد المعز بالله رابع خلفاء الفاطميين واقدرهم (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٥ م)، بدأ الاستعداد الفعلي لغزو مصر، فضاعف نشاطه في غزو المغرب الأقصى بغرض جمع الأموال لأنهم لم يستطيعوا إقرار سلطانهم في المغرب الأوسط وعجز عن مغالبة الادارسة في المغرب الأوسط وتصدى له الأمويون الاندلسيون وحلفاؤهم من الادارسة والزناتيين. وحتى بعد انتصار جنود الفاطميين على الادارسة وأسرهم يحيى بن يحيي بن عمر ابن محمد وخروج بقاياهم من فاس ولجوئهم إلى قلعة حجر النسر، لم يطمئن الفاطميون إلى أمر المغرب الأقصى، لأن المنصور محمد بن أبي عامر صاحب الأمر في دولة بني أمية الأندلسية ٣٦٦ - ٣٩٩ هـ/٩٧٦ - ١٠٠٨م) تصدى لهم بكل عنف ووالى ارسال الجيوش الى المغرب الأقصى. وهنا، ومن أوائل ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م استقر رأي المعز على الانتقال الى مصر فجمع كل ما استطاع من جند ومال، وأرسل جوهر الصقلي الى مصر فدخلها وقضى على بقايا الأخشيديين ودخل الفسطاط في ١٦ شعبان في ٣٥٨ هـ/ يوليو ٩٦٩م. وأعطى المصريين أماناً شاملاً على أموالهم وأنفسهم وعقيدهم وقال في أمانه «وهي إقامتكم على مذهبكم، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من اداء الفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم، وفقهاء الأنصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتاواهم، وأن يجري الأذان والصلاة وصيام رمضان وفطره وقيام لياليه، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصه ونبيه ﷺ في سنته، وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه»(١) وهذا التسليم للمصريين بما طلبوا من البقاء على السنة دون أن تتدخل الدولة في شئون عقيدتهم يدل أولاً: على أن

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، بتحقيق د. جمال الدين الشيال ج ١ ص ٦٩ - ٧٠.

الفاطميين تعلموا درساً من تجربتهم في افريقية والمغرب، وما تبينوه من أن مذهب السنة والمال عند الفاطميين كانت مقدمة على المذهب، حقاً انهم انشأوا نظاماً للدعاية للمذهب الاسماعيلي واتخذوا الجامع الأزهر مركزاً لها وأقاموا تنظيم الدعاة وعلى رأسه داعي الدعاة، وكان في الغالب رجلاً ذكياً واسع الاطلاع والمعرفة، كما نجد عند القاضي النعمان بن محمد، ولكنهم لم يجتهدوا في نشر المذهب الفاطمي في مصر اجتهاداً يثير مشاعر الناس ويؤثر في السياسة والجباية، فظل الخلفاء ورجالهم على مذهبهم واتبعهم ودخل في نحلتهم من طلب أموالهم، وبقيت كتلة الشعب المصري سنية لم تمس، وإذا كان المذهب الاسماعيلي قد لقي قبولاً وانتشاراً في بلاد الشام إبان العصر الفاطمي، فإن السبب في ذلك لا يرجع إلى إجتهاد الفاطميين بل إلى استعداد كان في بعض جماعات أهل الشام للدخول في المذهب الاسماعيلي، فلا شك في أنه كانت هناك نواة اسماعيلية نمت وازدادت عدداً وقوة بتشجيع الفاطميين، بل بلغ الأمر ان نشأ في بلاد الشام مذهب الدروز المتفرع عن الشيعة الاسماعيلية، وهو قد نشأ بلا شك حول نواة دينية غريبة عن الاسلام كانت هناك، وعرف حمزة الدرزي كيف ينميها ويضبطها في مذهب إسلامي على حرف، والمذهب على أي حال أشبه برابطة عشايرية بين قبيل من أهل الشام.

والمال والحصول عليه هو مفتاح السياسة الفاطمية دون نظر إلى النتائج. فهذا البلد الذي كان إلى ذلك الحين بلداً غنياً أو رخي الحال على الأقل كما تدل على ذلك صفحات كتاب سفر نامة الذي كتبه ناصرى خسرو، الذي زار مصر أيام الخليفة المستنصر، وإذا كنا لا نسلم بكل ما يقوله ناصرى خسرو، لأنه كان اسماعيلياً بل هو داعية اسماعيلي، فإننا نأخذ بجملة كلامه. وبما قاله المقريزي بعد ذلك من أن رخاء مصر تلاشى شيئاً فشيئاً خلال العصر الفاطمي الطويل، فقد جعلوا دأبهم وضع أيديهم على مصادر الثروة وفرضوا على الصناع اتاوات، وبلغ من عسف أحد وزرائهم ـ وهو ابن كلس ـ ان

سياسته أدت إلى خراب صناعة النسيج في مدن بحيرة المنزلة في شمال الدلتا، فقد اثقل عليها هذا الرجل بالمطالب حتى افلس معظم المصانع، وكانت هذه الناحية من اغنى نواحي مصر بما كانت تصنعه وتصدره من النسيج العظيم القدر والقيمة.

وباستمرار هذه السياسة المالية سنة بعد سنة أخذت أرض مصر تتلف وتبور، لأن الزراعة لم تعد تفي بحاجات الفلاحين، فنزح الكثيرون عن قراهم هرباً من الجبايات الثقيلة، هذا مع عظيم نفقة الدولة على جندها الكثير، فقد اسرف الفاطميون في شراء الجنود أو اصطناعهم، وقد ذكر ناصرى خسرو من اصناف هذا الجند المرتزق نحو تسعة اصناف يبلغ مجموع رجالها ـ حسب تقديره ـ ٢١٠ آلاف رجل، وهي مبالغة ولا شك، ثم يضيف «ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان، ولكل جندي منه مرتب شهري على قدر درجته، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد من الرعايا أو العمال، ولكن هؤلاء يسلمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة، وتصرف أرزاق الجند من الخزانة في وقت معين، بحيث لا يرهق وال أو واحد من الرعية بمطالبة الجند»[1].

ومعنى هذا أن الولاة والعمال كانوا يسلمون أموال نواحيهم إلى الخليفة الفاطمي في القاهرة، وهو الذي يؤدي رواتب الجنود بخلاف ما كان متبعاً في غير مصر من أن امراء الدولة وولاتها كانوا يجمعون لحسابهم أموال نواحيهم ويدفعون منها أموال فرق الجند التابعة لهم (وكلهم جند السلطان) ويرسلون الى الخليفة أو السلطان قدراً ويحتفظون بالباقي. وكلا السياستين كانت ضارة بالناس في نهاية الأمر . . . والمهم هنا أن الفاطميين كانوا يجمعون من مصر هذه الأموال الكثيرة ثم ينفقون منها على جندهم الكثير في حروبهم في بلاد الشام خاصة. ومعظم أموال الفاطميين ضاعت في حروبهم مع العباسيين والقرامطة ورؤساء نواحي الشام دون ان يصلوا الى نتيجة تذكر، فقد كان سلطانهم على بعض

(١) ناصري خسرو، سفر نامة ٩٤ - ٩٥.

نواحي الشام دائماً ضعيفاً وحتى جنوب الشام وفلسطين خاصة ـ والمفروض أنها كانت من أملاك الفاطميين ـ لم يكن لهم هناك سلطان حقيقي.

وكذلك كان انفاق الفاطميين على قصورهم وخدمهم وحشمهم كثيراً جداً، فقد كان أهل بيتهم ـ وكلهم أمراء ـ كثيرين، ولكل منهم قصر أو أكثر، حافلة بالخدم والحشم والجواري، وكانوا جميعاً ينفقون عن بذخ ومن غير حساب. هذا مع إهمال المرافق، فالترع والقنوات اهملت، والطرق لم يعد يعنى بها أحد، فاقتصرت العناية على المرافق البلدية اي التي كان يقوم بها أهل النواحي دون السلطانية، وهي الجسور والترع الكبيرة التي تمر في عمالات كثيرة.

ونتيجة لذلك كله أن مصر الغنية افلست وانتهى رخاؤها التاريخي الذي استمر من أيام الفراعنة، وفي حكم الخليفة الفاطمي المستنصر أبي تميم معد (٤٢٧ - ٤٨٧ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) نصل إلى القاع، وهو ما يسمى بالشدة العظمى أي المجاعة الكبرى التي استمرت ثماني سنوات، وتفاصيلها معروفة شائعة، وهي ترد عادة إلى هبوط الفيضان سبع سنوات متوالية، وهذا أمر مستبعد، ولكن الحقيقة هي أن هذا الافلاس كان نتيجة السياسة الفاطمية المالية والادارية الفاسدة، فإن عسف الناس ونهب أموالهم وسرقة الفلاحين مع إهمال المرافق، كان لا بد أن ينتهي إلى هذه النتيجة، حتى طول حكم الخليفة المستنصر لا يرجع إلى استقرار الأمور بل يرجع إلى زهد الناس في الخلافة، فالخليفة كان مطالباً بأموال كثيرة جداً، والعائد إليه قليل، حتى أصبح ـ الخليفة المستنصر ـ كالمتسول.

وفي النهاية استعان الخليفة المستنصر ببدر الدين الجمالي حاكم عكا، فاقبل إلى مصر سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م وتولى الوزارة، وكان إدارياً حازماً عارفاً بشئون الادارة والمال فتحسنت الأحوال وتوقف التدهور، ولم يصل بدر الجمالي إلى تلك النتيجة إلا بعد أن تخلص من ناس كثيرين، وازهق أرواح

المئات من الطفيليين الذين كانوا يحتكرون السلطان ويمتصون دماء الناس وثروة البلاد (١).

وقد تحسن الحال بعض الشيء، ولكن الدولة الفاطمية كان قد انتهى أمرها ودخلت في دور النزاع الطويل والاخير، ثم آل الامر فيها إلى الفوضى الشاملة ووقوع الحروب بين الوزيرين شاور وضرغام وكلاهما من رؤساء البدو، وفي عهد الخليفة الفاطمي الرابع عشر وهو ابو محمد عبد الله العاضد (٥٥٥ ـ ٥٦٧هـ / ١١٦٠-١١٧١م) كان أمر نور الدين محمود الاتابك قد اشتد، ووصلت حركة النهوض والتجمع الاسلاميين إلى ذروتها بتوحيد الموصل والشام، ثم تمكن نور الدين من ضم مصر إلى جبهة الكفاح ضد الصليبيين على يد قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وعلى يد صلاح الدين كانت نهاية الدولة الفاطمية وبداية الدولة الأيوبية.

وللمؤرخين القدامى والمحدثين آراء شتى في الدولة الفاطمية معظمها لا يقوم على تحقيق للواقع، بل يعتمد على أقوال يصعب اثبات صحتها. ولكن حقيقة الدولة الفاطمية هي التي ذكرناها، وما ظهر من رخاء في أيامها الاولى وما خلفته من مبان ومنشآت قليلة وفقيرة تؤيد ما ذكرناه، وهو أن الدولة الفاطمية في المغرب ومصر كانت تجربة سياسية غير موفقة وإن كانت طويلة المدى، ومعظم ما نسمعه خلاف ذلك يرجع إلى اهتمام الفاطميين بالوصاية لانفسهم ومذهبهم، فكان تاريخهم على جملته كالطبل؛ دوي بعيد ومحصول قليل.

ونختتم هذا الكلام بأن الدولة الفاطمية التي قامت على أساس الدعوة الاسماعيلية الواسعة تجلت في النهاية عن دولة شديدة الانحراف عن الطريق الاسلامي السوي، ولهذا فقد كان نجاحها الديني قليلاً جداً، ونتيجة لذلك

---

(١) انظر ابن ميسر، تاريخ مصر، تحقيق ايمن فؤاد سيد. القاهرة ١٩٨١ ص ٣٩ وما يليها.

كان نجاحها السياسي واهياً أو وهمياً، والدولة الفاطمية كانت لهذا في دورها المغربي شبحاً زائلاً، وفي دورها المصري وهماً ضخماً لا يقوم على حقيقة.

وإذا كانت الدول الحسنية الهاشمية التي ذكرناها دولاً عربية جديرة بأن تكون قرشية من حيث طريقة مواجهة المشاكل بالصدق والبسالة كما رأينا فإن الدولة الفاطمية بأسلوب دعوتها المعوج، وطريقة خداع دعاتها للناس وجمعهم أموال الناس باسم الزكاة ثم اختفاء إمامهم في مكان لا يعلمه إلا كبير الدعاة المسمى بالوصي ثم قيام الدولة في افريقية قياماً مفتعلاً، كل هذه كانت أساليب غير عربية ولا قرشية، أما دورها في تاريخ مصر فدور سيء، وهي الدولة التي قضت على رخاء هذه البلاد، ولهذا فقد كانت الدولة الفاطمية دولة غير عربية أو قرشية في روحها وتنظيمها وأساليب حكمها وعلاقاتها بالناس، وعلى الرغم من أننا نعرف عن الدولة الفاطمية أكثر مما نعرف عن غيرها لوفرة الكتابات عنها، فإنها لا زالت إلى الآن - وبحسب معلوماتنا - من أغرب الكيانات السياسية التي قامت في عالم الاسلام وأبعدها عن روح الاسلام والعروبة وطبيعة القرشية.

دُوَل الشرفاء في مكّة وَالمَدينَة وَالحجاز وَمَا تفرّع عَنها:

في التنظيم الاداري للدولة العباسية لاول قيامها كان الحجاز ولاية واحدة يليها رجل واحد مركزه المدينة وتتبعه مكة، ولكن كان لكل من البلدين والٍ أو أمير. ولكن عندما ضعفت الدولة العباسية انقسمت ولاية الحجاز إلى امارتين: إمارة مكة، وكانت تتبعها قرى الطائف وجدة وبطن نخله وعُسْفَان وَمرّ الظَّهران، وإمارة المدينة وكانت تتبعها قرى خيبر وفدك وينبع وناحية الفُرُع ووادي القرى ومدين وتيماء صاعداً إلى ايلة. وبصفة عامة تستطيع أن تقول إن الحجاز كان امارتين: شمالية قاعدتها المدينة وتشمل الحجاز، وجنوبية قاعدتها مكة وتشمل تهامة وتمتد حتى حدود عسير.

وولاية الحجاز كلها - بامارتيها معاً - هي الولاية الاسلامية الوحيدة

التي حكمها ـ باستثناءات قليلة ـ قرشيون خلال صدر الاسلام، وأول والٍ على مكة كان عتاب بن اسيد من بني امية، وكان العباسيون يولون على الحجاز رجالاً من بينهم، وانتقل مركز الولاية إلى مكة. وإلى سنة ٢٧٩ كان الحجاز تابعاً لبغداد، إذ في هذه السنة فوض الخليفة المعتمد، أبو العباس أحمد بن المنتصر (رجب ٢٥٦ ـ رجب ٢٧٩ هـ / يونيو ٨٧٦ ـ سبتمبر ٨٩٢ م) أمر ولاية الحجاز الى أحمد بن طولون والي مصر، فبدأت تظهر في التنظيم الاسلامي العام الوحدة السياسية التي عرفت بدولة مصر والشام ويدخل فيها الحجاز، واستمر ذلك حتى سنة ٣٥٨ هـ ـ ٩٦٩م عندما انفرد بالسلطان في امارة مكة جعفر بن محمد ابن الحسين أول شرفاء مكة الذين ظلوا يتعاقبون على حكم مكة حتى سنة ١٩٢٤/١٣٤٣ عندما دخلت مكة وبقية الحجاز قوات الملك عبد العزيز آل سعود، وكان الحسن بن علي آخر أشراف مكة قد ولّي في ٦ شوال سنة ١٣٢٦ هـ/ أكتوبر ١٩٠٨ من قبل السلطان عبد الحميد، ثم استقل وأعلن نفسه ملكاً على الحجاز وخليفة على المسلمين ـ كما سنرى.

والحسين بن علي هو آخر خط طويل من الشرفاء الذين كانت لهم الصدارة في مكة حتى في أيام العباسيين، وهؤلاء الأشراف هم الموسويون، وهم من سلائل موسى ابن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب. والغالب عليهم ـ حتى قيام الدولة الأيوبية وامتداد سلطانها على الحجاز ـ المذهب الزيدي، وهو أقرب المذاهب الشيعية الى مذاهب أهل السنة.

أما امارة المدينة فكانت أقل أهمية من الناحية الادارية من امارة مكة. وأمراؤها كانوا حسينيين من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب، والغالب على أمرهم ـ من بداية العصر الفاطمي على الأقل ـ المذهب الاسماعيلي، ولهذا فقد كانت علاقاتهم بالفاطميين دقيقة ومعقدة أيضاً، ومعظم أمرائها من آل المهنا من أحفاد الحسين بن علي، وساءت العلاقات بينهم وبين الحاكم بأمر الله الفاطمي، مما جعل الحاكم بأمر الله الفاطمي يأمر أمير مكة الحسن بن جعفر السليماني أن

يغير على المدينة ويضم امارتها لامارته ففعل سنة ٣٩٠ هـ، ولكنها عادت الى آل مهنا بعد ذلك واستقلت عن مكة. وعندما ينتهي أمر الدولة الفاطمية وتجيء الدولة الأيوبية ينضم اليهم آل مهنا، فيقوم الأيوبيون بتثبيتهم في الامارة، وواحد من أمرائهم وهو أبو فليتة حضر مع صلاح الدين فتح انطاكية سنة ٥٨٤ هـ/ وخلفه عليها ابنه سالم، ووقعت بينه وبين قتادة أمير مكة حرب، انهزم فيها سالم ابن أبي فليته وانتصر فيها سالم عند ذي الحليفة سنة ٦٠١ هـ، وقد توجه سالم هذا الى مصر سنة ٦١٠ هـ ليشكو من عدوان قتادة على بلاده، ومات في طريق عودته الى المدينة وخلفه ابنه شيحه الذي ظل على المدينة حتى قتل سنة ٦٤٧ هـ وخلفه ابنه عيسى، ولم تدم امارته أكثر من سنتين. اذ قبض عليه أخوه جماز سنة ٦٤٩ هـ وظل جماز يحكم حتى سنة ٧٠٤ هـ. ومعظم أمراء المدينة من الأشراف من عقبه. ولم يكن لأمراء المدينة من الهيبة والاستقرار ما كان لأمراء مكة، وواحد منهم وهو الحسن بن الزبير اعتدى في يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ٩٠١ هـ على الحرم النبوي ونهب ما في الحجرة الشريفة من نفائس. وبعد ذلك بقليل سنة ٩٢٣ هـ. تدخل الحجاز تحت حكم سلاطين الدولة العثمانية فيجعلون امارة المدينة تابعة لامارة مكة، ويثبتون ولده الثاني محمد بن بركات الذي سنتحدث عنه، ولم يختف ذكر آل مهنا من امارة المدينة مع ذلك، ولكن أمرهم خمل الى جانب الموسويين أصحاب مكة. وهم الذين يعنوننا في هذه الدراسة، لأن الملك يتصل في اعقابهم في المملكة الأردنية الهاشمية الى اليوم.

* * *

ونعود الآن الى مكة لنتتبع خيط الموسويين فنجد أنهم بيوت متوالية فكلها ترجع الى نسب حسني واحد ولكنها دول متعاقبة، وأول من يؤسس بيتاً قوياً طويل العمر منهم هو جعفر بن محمد بن الحسن الذي ينتهي نسبه الى محمد بن موسى بن عبيد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وأجداد هذا كانوا في اليمامة وقاعدتهم كانت الخضرمة من قرى اليمامة كما جاء في معجم البلدان

لياقوت. وقد ظلوا الى أيام محمد وابراهيم ويوسف وعبدالله أبناء الأخيضر محمد.

وقد بقي فرع منهم باليمامة وهم أولاد يوسف بن الأخيضر محمد. فأما عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو أخو يوسف الذي ذكرناه، فقد هاجر بعض أولاده الى اذنه من بلاد الثغر بين دار الاسلام وبلاد الروم، الا ثلاثة من أبناء عبد الرحمن بن أبي الفاتك عبدالله بن داوود بن سليمان بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب، وهم نعمة وعبد الحميد وعبد الحكم (أو عبد الحكيم)، وقد سكنوا أمج قرب مكة، ومنهم جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وجعفر هذا تغلب على مكة وتولى أمرها في أيام محمد بن طغج الأخشيد والي مصر المستبد بها، ثم ثبته فيها القائد جوهر والي المعز لدين الله الفاطمي بعد دخولـة مصر واستقراره فيها سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩م.

وجعفر بن محمد بن الحسن هذا هو أول من أنشأ أسرة ثابته في امارة مكة من الأشراف الحسنيين، وكل بيوتهم التي ستتوالى على حكم مكة ـ والحجاز كله أحياناً ـ من عقبه.

وبيوت اشراف مكة الحسنيين كثيرة، وكذلك كانت الحروب بينهم والمحن التي مرت عليهم سواء من خلافات بعضهم مع بعض، أو تدخل أصحاب مصر من الفاطميين والأيوبيين والمماليك في شؤونهم، ولكن الامارة ظلت فيهم من منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي / إلى أن استولى الملك عبد العزيز ابن سعود على مكة وبقية الحجاز سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤م.

وفي نفس الحركة استولى الملك عبد العزيز على عسير من الأدارسة وهم فرع من الأدارسة الحسنيين الذين قامت دولتهم التي ذكرناها في المغرب الأقصى. فقد عاد رجل منهم الى الجزيرة العربية ونزل عسير وفيها أقـام دولة ادريسية. وفي

امارة أبي الفتوح الحسن بن عيسى بن جعفر بن محمد بن الحسن الذي تولى أمر مكة سنة ٣٨٤ هـ وقع بينه وبين الفاطميين خلاف شديد، إذ ارسل اليه الخليفة الحاكم بأمر اللّه سجلا ليقرأه في المسجد الحرام وفيه البراءة من ابي بكر وعمر وسب بعض الصحابة وبعض أزواج النبي ﷺ، فأبى من ذلك وأعلن الخروج على طاعة الفاطميين، ثم خطب بالخلافة لنفسه وتلقب بالراشد باللّه، وسار الى مدينة الرملة بفلسطين، فدخل في طاعته صاحبها ثم انضم اليه حسان بن مفرج شيخ قبيلة طيء، فخافه الحاكم بأمر اللّه، وبعث الى عماله وانصاره في فلسطين وشمال الجزيرة يحرضهم عليه، وتخلى عن أبي الفتوح الكثير من أنصاره، فوجد أبو الفتوح أن الحكمة تقضي بأن يكتفي بامارة مكة، وظل أميراً على مكة الى سنة ٤٣٠ هـ.

وخلفه شكر بن أبي الفتوح الذي تمكن من ضم المدينة الى امارته وظل يحكم الى سنة ٤٥٣ هـ، وكان شكر بن أبي الفتوح هذا شاعراً وبطلاً مغامراً، وهو صاحب الجازية بطلة احدى حلقات ملاحم الهلالية، والاسطورة تقص كيف عشق شكر بن أبي الفتوح الجازية وهي من بني هلال وكيف احتال عليه بنو هلال ليفرقوا بينه وبين الجازية، فهام على وجهه عشقا، وحاول دخول مكة فأبى صاحبها أن يفتح له الباب، وظل يقول الأشعار في صاحبته حتى مات، والجازية ايضاً لم تسعد بحياتها بعد تغريبها عن أهلها الى مصر ثم الى المغرب، فقد زوجوها من رجل آخر رغماً عنها، ولم تلبث هي الأخرى أن ماتت.

والحقيقة التاريخية هي أن شكر بن أبي الفتوح مات أميراً على مكة من غير عقب فتولى أمرها عبد له يسمى تاج المعالي، فتغلب عليه وانتزعها من يده رجل يسمى محمد بن أبي الفاتك، وهو من احفاد سليمان بن موسى بن عبداللّه بن موسى بن عبد اللّه بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وفي سنة ٤٥٥ هـ دخل مكة علي بن محمد الصليحي وهو رأس اسرة الصليحيين من أنصار الفاطميين، ولكن بني جعفر استطاعوا العودة الى إمارة

مكة بصلح من الصليحيين في نفس السنة، وكان الذي تولاها منهم القاسم بن محمد من أبناء جعفر بن محمد بن الحسن، وقد حكم من سنة ٤٨٧ الى سنة ٥١٨ هـ.

وابنه أبو فليته بن القاسم بن محمد تمكن من انشاء بيت بني فليته، وهم أكبر بيوت أشراف مكة من أبناء جعفر بن محمد المذكور، وقد تعرضت مكة في أيام بني فليته لمحن شتى من أشدها فتنة بين عيسى بن فليته وعمه القاسم بن هاشم بن فليتة، وفي ولاية عيسى بن القاسم بن فليته انقرضت دولة الفاطميين في مصر وحل محلها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ منشىء الدولة الأيوبية، وهو فاتح القدس ومعيد مذهب السنة الى مصر، ونتيجة لذلك قام الخليفة العباسي بتولية داوود بن عيسى بن فليته سنة ٥٧٠ هـ.

وتعاقب على مكة ولاة من رجال العباسيين والأيوبيين حتى تمكن أبو قتادة وهو من أبناء جعفر بن محمد بن الحسن من تولي أمر مكة سنة ٥٩٧ هـ، وبعد منازعات طويلة مع رجال الأيوبيين استقر أمر مكة في يد راجح بن قتادة سنة ٦٣٠ هـ بصلح مع علي بن رسول من أمراء أسرة بني رسول السنيين في اليمن وهم حلفاء الأيوبيين واتباعهم، وقد طالت الفتنة بين راجح بن قتادة وبني رسول من ٦٣٠ الى ٦٦٧ هـ. حتى انقضاء أيام الأيوبيين. وقد بذل غانم بن إدريس بن قتادة جهداً عظيماً في المحافظة على امارته، ولكن أمره لم يستقر لأن جُماز بن شيحة صاحب المدينة، تقرب من سلطان مصر المملوكي فولاه مكة الى جانب المدينة وما زال أبو نُمى محمد الملقب بالأول حتى استرد امارة مكة في طاعة المماليك.

وفي سنة ٧٠١ هـ. تنازل محمد أبو نمى الأول عن الامارة لابنيه رُميثة وحميضة. فنافسهما أخواهما عطيفة وأبو الغيث ووقعت الحرب بينهم. وأيد الظاهر بيبرس عطيفة وأبا الغيث واعطاهما حكم مكة وأخذ حميضة ورميثة معه الى مصر سنة ٧٠١ هـ. عندما حج الى بيت الله. ولكن الفتنة لم تنته فعاد، رميثة وحميضة الى الحجاز، وحاربا أخويهما، وانتهى الأمر بانتصار رميثة بن أبي نمى محمد ٧٣٥

هـ. وخلفه ابنه عجلان بن رميثة سنة ٧٤٥ هـ.

وتستمر فترة الفوضى والاضطرابات والحروب الأهلية في إمارة مكة حتى حصلت الامارة سنة ٨٢٩ هـ لبركات بن الحسن بن عجلان بن رميثة فأنشأ بيت بركات.

وفي أواخر أيام قانصوه الغوري آخر سلاطين المماليك صار الامر إلى ابي نمى محمد بن بركات الملقب بابي نمى الثاني فأقره السلطان سليم الأول العثماني بعد غزوة مصر سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م. وهنا تدخل إمارة مكة في فترة طويلة من القلق والفوضى نتيجة للمنافسات الشديدة بين امراء الحسنيين من ناحية وسوء سياسة العثمانيين من ناحية اخرى، ولكن الامر ظل في معظم الاحيان لبني جعفر بن محمد بن الحسن.

وتولى مكة الامير غالب بن مساعد بن سعيد بن سعد من احفاد بركات ابن الحسن بن عجلان الذي ذكرناه. وقد تولى سنة ١٢٠٢ هـ وفي أيامه ظهر أمر الحركة السلفية في نجد، وتطلع الامام محمد بن سعود لضم الحجاز إلى إمارة نجد، وتمكن من ذلك، فطلبت الدولة العثمانية من محمد علي باشا والي مصر التوجه بحملة إلى الحجاز، لاسترداد الحرمين الشريفين من أيدي السعوديين السلفيين، فأرسل محمد علي أُولى حملاته المشهورة على الحجاز ثم توجه بنفسه سنة ١٢٢٨ هـ، ومنها ارسل ابنه ابراهيم إلى نجد، ومن نجد وصل المصريون إلى الاحساء والقطيف، وتولى امر الحجاز ونجد خورشيد باشا سنة ١٨٣٠م، واستمر إلى سنة ١٨٤٠ م. عندما انسحبت القوات المصرية من الجزيرة العربية.

ولم تنقطع إمارة بني جعفر الحسنيين اثناء الحكم المصري، فقد رشح محمد علي الشريف عون من احفاد الشريف غالب لامارة مكة وايدته الدولة العثمانية ثم خلفه حفيده محمد بن عبد المعين بن عون (١٢٧٢ هـ). وخلفه

ابنه عبد الله باشا بن محمد بن عبد المعين، وهو أول شريف من أشراف مكة، يحمل لقب الباشوية وخلفه في سنة ١٢٩٤ ابنه حسين باشا بن محمد بن عبد المعين وهو الشهير بالشهيد.

ثم تولى الإمارة عبد المطلب بن غالب سنة ١٢٩٧ هـ / ١٨٨٠ م، ولكن الامر عاد إلى بيت الشريف عون سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ فتولاها عون الرفيق باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون، وخلفه في سنة ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٥ م الشريف علي باشا بن عون الرفيق وفي سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م خلفه ابنه الشريف حسين بن علي آخر شرفاء مكة العلويين.

* * *

وإنما بذلت هذا الجهد الشاق في تتبع تاريخ هذا البيت الحسني العلوي الهاشمي القرشي وتصاريف الزمان به، لاخرج ببضع حقائق تهمنا ونحن ندرس تاريخ قريش: الاولى هي حيوية ذلك البيت الحسني، فقد استطاع البقاء تلك القرون الطويلة وصمد لكل ما مر به من المحن دون أن يفنى او يتلاشى، فالتاريخ الذي أوجزت هنا حافل بالمتاعب مثقل بالمحن والدماء والموت، ولكن حيوية البيت الحسني العلوي كانت أقوى، وكلما أهلك الدهر منهم بيتاً نشأت بيوت واتصل النسب، ولا مدخل هنا لتزييف النسب، فإن العلويين يحفظون تواريخ بعضهم البعض بغاية الحرص والدقة، هناك وفي كل قطر عربي أو إسلامي نقابة العلويين التي تحفظ شجرات الأنساب وتبعد الدخلاء. وأفراد هذه النقابات يتصل بعضها ببعض ويعرف المتخصصون فيها بالمضاهاة والمقارنات حقيقة كل نسب يُدَّعَى. هذا إلى جانب اعتقادنا في القاعدة التي طالما ذكرناها هنا، والتي تقول إن التثبت العلمي الذي لا يداخله الشك في صحة أي نسب أمر بالغ العسر، وكما توجد دلائل كثيرة تؤكد صحة الانساب فهناك شواهد اخرى تؤكد عدم صحتها، والاسلم هنا هو التسليم بصحة النسب المدعى إذا لم يكن هناك دليل قاطع على كذبه، وخاصة إذا أيد

صحته شيوخ نقابات العلويين أو الاشراف، إلى جانب ذلك لا بد أن نذكر أن العلويين لديهم الوسائل التي يحمون بها نسبهم من الدخلاء، فكل خطوط الانساب محفوظة متتبعة، والمتخصصون يعرفون نقط الضعف كلها، كما سنرى في حالة الشرفاء السعديين الذين سيذهب منافسوهم الاشراف العلويون المناصرون لهم إلى تزييف نسبهم.

والحقيقة الثانية هي كثرة الخلافات والمنازعات بين رجال البيت الواحد، وقد رأينا أن أمر أحد من الشرفاء لا يكاد يستقر في الإمارة، حتى ينجم له المنافسون والاعداء من اخوته وبني عمومته خاصة، وهذا مع قلة المكافأة في النهاية، فإننا نفهم حرص آل الهايسبورج أو البوربون على الوصول إلى رئاسة البيت، لأن الرياسة هنا تعني املاكاً وقصوراً وأموالاً وعروشاً كبيرة ذات جاه وسلطان، ولا يقارن بشيء من هذا كله ما يحصل عليه صاحب الإمارة في مكة، ففي تلك العصور لم تكن هناك أموال كثيرة ولا ثروات طائلة، ولا قصور ولا عروش ذات سلطان واسع وأراض عظيمة، والمتنافسون على العروش هناك يتنافسون حول مغانم تستحق العناء. أما في الحجاز فلا أراض ولا خيرات ولا مغانم، إنما هو شرف ولاية الحجاز والاضطلاع بمسئولية امان الحرم والحجاج، وحتى هذا كان المتنافسون جميعاً أضعف من أن يقوموا به، ولم يكن الحَرَمَان أشد تعرضاً للاذى مما كانا عليه في تلك العصور، خاصة وأن مكة كان لها امير والمدينة لها أمير، والحاج الذي كان يريد أن يزور الحرم النبوي بعد الحج كان لا بد له من مغامرة، لأنه ينتقل من ولاية أمير إلى ولاية أمير هو عدو له، وقبائل الاعراب الجائعة تحوم حول الحرمين وبينهما باحثة عن فرص للطعام والمال، لأنها في تلك العصور كانت في حالة جوع دائم. هذا كله إلى جانب تدخلات المصريين من ايوبيين ومماليك ثم الأتراك، وكل ذلك كان يجعل الإمارة بلاء على صاحبها وعذاباً، فما الذي جعل أولئك الناس يستهلكون في سبيل الإمارة مع تراكم الأخطار وترادفها مع قلة الجدوى في النهاية؟ والجواب

على هذا السؤال عـام، ولا يمكن إلا أن يكون عـاماً، لأنـه يتلخص في حُمى الرياسة التي استولت على العرب جميعاً بعد الإسـلام وظهور الخـلافة والإمـامة وهما ملك في النهاية. فقد كانت الرياسة عند العرب الجاهليين شـرفاً وسؤدداً وحكماً قبلياً جماعياً مع تحمل تكاليف الشرف والرياسة وكلها نفقات مالية أو عينية باهظة، من طعام وماء وعطاء وتحمل ديات وما الى ذلك، وقد رأينا بعض رؤساء قريش منهم المطلب بن هاشم، ينزل عن الرياسة لابن أخيه عبد المطلب دون تردد، وأبو طالب في رياسته كان أشبه بكبير المشيخة ولا سلطة في يديه ولا حل ولا عقد، لأن القبيلة كانت تعتمد في قوتها العسكرية على أفرادها وهم أبنـاء أعمام، ولا يمكن قهرهم على التقاتل في سبيل هـذا الشيخ أو ذاك. أمـا بعد الاسلام فقد دخلنا في طور الدول والأموال الكثيرة والعسكر المأجور،وفي صراع الخلافة والامارة تقطعت الأرحام وضعف العصب، وبريق السلطان والغنيمة، وهو بريق كاذب في معظم الأحيان ـ أعشى العيون وأمـات القلوب، فأنـدفع الطامعون في الرياسة في هذا السباق المحموم نحو الموت. وقرون باسرها ضاعت في هذا التسابق الأعمى نحو الهلاك والجري وراء سراب القوة والسلطان. وفي كل هذه القصـة الطويلة الحـزينة لم يبق حيـاً في أجسام المتقـاتلين إلا عصب الهاشمية، وما عدا ذلك فقد عصفت به رياح المطامع، والحجاز لم يعرف الهدوء والاستقرار الا بعد أن دخل الدولة السعودية الجامعة للشمل الضامنة لـلأمن والأمان والحامية للحرمين.

ونتابع قصـة هواشم مكـة الى نهايتها. وسنتحـدث هنا بتفصيـل، لأن التفاصيل بهذا الخصوص موجودة، وهي مليئة بالعبر والدروس.

قلنا إن الشريف حسين بن علي آخر من تولى امارة الحجاز من أسرة عون وهي آخر أسر شرفاء مكة الحسنيين. وكانت ولايته سنة ١٣٢٦ هـ/١٩٠٨م. في ظروف عسيرة كانت تتطلب من المعرفة بأحوال السياسة العالمية أكثر مما كان هو وأفراد بيته يملكون، ففي تلك السنة كـانت ثورة رجـال الاتحاد والـترقي على

السلطان عبد الحميد وارغامهم إياه على اعلان الدستور، وكان علي باشا والد الشريف من رجال السلطان عبد الحميد والعاملين معه فيما كان يدعو الى عمله من العودة بالدولة العثمانية الى نصابها الأول: دولة اسلامية عامة مجاهدة كما كانت قبل أن يستولي السلطان سليم على مصر والشام والعراق وانتزاعه الخلافة الاسلامية لبيته ونقلها الى استانبول وجعلها خلافة عثمانية، كان الأتراك العثمانيون أنفسهم يفكرون في اتجاه آخر هو اتجاه عصبية تركية طورانية تسخر كل شعوب الاسلام لخدمة الشعب التركي الطوراني وكان الشريف علي قد حصل على الباشوية ورتبة الوزارة ودخل في صراع السياسة العثمانية الذي أدى الى قيام رجال جمعية الاتحاد والترقي بخلع السلطان عبد الحميد، وتولية عبد المجيد مكانه. واذا كان الشريف علي قد فهم دهاليز السياسة العثمانية، فانه قطعاً لم تكن لديه فكرة عن تيه السياسة العالمية الذي كان اذ ذاك يمر بأكثر الحلقات تعقيداً في تاريخه. فقد كان ضعف الدولة العثمانية قد وصل الى آخر دركاته، وبدا بوضوح أن تفكك الدولة العثمانية على وشك الوقوع. وكانت أوروبا كلها تنتظر وقوع ذلك من أمد طويل، وكانت روسيا تتحفز للانقضاض على الآستانة وما بقي للدولة العثمانية من أراض لافتراسها والقضاء عليها قضاء نهائياً. ولم يكن يحول بين روسيا وذلك إلا انجلترا وفرنسا اللتان وقفتا لها بالمرصاد. وكانت فرنسا قد اقتطعت من بلاد الدولة العثمانية ايالة الجزائر منذ ١٨٣٠ م ثم تونس سنة ١٨٨١ م، وفي نفس الوقت كانت بريطانيا قد استولت على مصر في سبتمبر ١٨٨٢، وبعد ذلك بسنوات نزلت قوات ايطاليا أراضي ايالة طرابلس الغرب، وهي ما يعرف الآن بليبيا (عدا فزان) وبدأت تتوغل فيها رغم مقاومة سنوسية تركية شارك فيها بعض العرب والمصريين.

ولم يبق للدولة العثمانية في الحقيقة إلا الاستانة والأناضول وبلاد الشام والعراق.

وكان واضحاً أن أوروبا مقبلة على حرب كبرى، لأن اتجاه ألمانيا

القيصرية كان يخيف انجلترا وفرنسا، ولعب ادوارد السابع ملك بريطانيا دوراً سيئاً في توجيه بلاده، نحو حلف فرنسا ومعاداة ألمانيا مدفوعاً في ذلك بعوامل الحقد على ابن عمته القيصر ولهلم قيصر ألمانيا وبروسيا، وكانت السياسة البريطانية تتخبط تخبطاً خطراً لأن انجلترا كانت تحمل على كاهلها عبء امبراطورية واسعة وتستغل بلاد هذه الأمبراطورية أسوأ استغلال، وشعور العداء نحو الانجليز كان عاماً في الدنيا كلها بما في ذلك الولايات المتحدة. ولا شك أن الاتفاق الودي الذي عقد بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤، وبمقتضاه اطلقت يد انجلترا في مصر، وفرنسا في المغرب الأقصى، كان اتفاقاً خسيساً غير اخلاقي، فقد كان في الحقيقة اتفاقاً بين لصين كبيرين هما فرنسا وبريطانيا اللتان كانتا تتحدثان ـ كلاماً ـ عن الحرية والعدالة، وهذا الاتفاق بالذات كان من أكبر أسباب الحرب العالمية الأولى، لأن المانيا التي كانت تطمع في أن يكون لها نصيب من المغرب الأقصى تأكدت الآن أن فرنسا وانجلترا لن تسمحا لها قط بأن يكون لها أي نصيب في البحر المتوسط. وهذا بدوره دفع المانيا إلى التقرب من تركيا، ونتيجة ذلك انتعشت مشروعات سكة حديد الحجاز والاهتمام بالطرق والتفكير في مد خط بغداد والبصرة، وقد ظهرت هذه النزعة بصورة خاصة في أيام السلطان عبد الحميد الذي كان يميل بعواطفه نحو ألمانيا ويشك الشك كله في انجلترا وفرنسا.

وقد اعلن السلطان عبد الحميد الدستور العثماني سنة ١٨٧٦، وهذا الدستور يجعل الدولة العثمانية دولة اتحادية بين الاجناس التي تتألف منها، واعترف الدستور بحقوق هذه الأجناس وأكبرها وأهمها بالنسبة لعبد الحميد كانوا العرب.

من هنا جاء اهتمام الدولة العثمانية بالحجاز والعراق وبلاد الشام، وأهم ناحية من بلاد العرب أهمية للدولة العثمانية كان الحجاز بسبب وجود الحرمين الشريفين فيه. لهذا اهتمت الدولة بأمير الحجاز الشريف علي بن عون بن

محمد بن عبد المعين فمنحته لقب الوزارة والباشوية .

وعندما خلف الحسين بن علي والده سنة ١٣٢٦/١٩٠٨ م كان يقارب الستين، وكان له اربعة اولاد: علي وعبدالله وفيصل وزيد، وعلي كان مريضاً بالسل فلم يكن له دخل بشئون الإمارة فأصبحت ولاية العهد لعبد الله الذي تعلم في الاستانة ونشأ في ظروف جديدة سادت الدولة العثمانية في أيام السلطان عبد الحميد، إذ أصبح للعرب مكانة ممتازة في الدولة العثمانية ولم يكن ذلك صادراً عن تقدير حقيقي من السلطان عبد الحميد للعرب، فقد كان عبد الحميد رجلاً جامد العواطف مهتماً في المكان الاول بشئون عرشه المزعزع ودولته المتهاوية، وكان رجال الاتحاد والترقي على شاكلته في ذلك. وعبد الله كان دائماً القوة الحقيقية التي وجهت شئون إمارة مكة، لأن الحسين والده كان رجلاً مسناً واسع المطامح، ولكن لم تكن لديه الجرأة على عمل شيء كبير. أما ابنه عبدالله فقد ولد مغامراً، وتعلم الكثير من اتصاله بالبلاط العثماني مثله في ذلك مثل صنوه نوري السعيد. ورجال السلطان رشحوا عبدالله لعضوية برلمان الدولة العثمانية الجديد وهو مجلس المبعوثان، وهذا فتح لعبد الله آفاقاً واسعة، فقد كان شديد المكر وكان لا يشك في أن الدولة العثمانية تقترب من نهايتها، فرشح والده فيما بينه وبين نفسه ليكون خليفة المسلمين الجديد عندما تسنح الظروف. وكان أبوه يسايره في مطامعه بحذر، ولهذا فقد اكتفى باعلان نفسه ملكاً، وتصور فعلاً أنه ملك له مكانة في العالم الاسلامي، ولكنه كما قلنا كان حذراً، فلم يقطع صلاته بالدولة العثمانية. وقد ظهر فيما بعد أنه كان يتلقى إعانات مالية من أربع جهات أوروبية في نفس الوقت: المانيا وبريطانيا وحكومة الهند وتركيا (وظل يتقاضى إعانة مالية من المانيا حتى منتصف ١٩١٥م).

وفي فبراير ١٩١٤ وقبيل قيام الحرب العالمية الاولى زار الامير عبد الله القاهرة وهو في طريقه إلى الأستانة لحضور مجلس المبعوثان، ونزل ضيفاً على الخديوي عباس حلمي وكان مثله ثعلباً ماكراً. وزاره الفيلد مارشال كتشنر في

قصر الضيافة، وفي اليوم التالي ذهب عبد الله لرد الزيارة. وكان يعرف خطورة ما هو مقدم عليه، فقد قال هو فيما بعد إنه تعمد أن يرد الزيارة في الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي،لأن القاهرة كانت حافلة بجواسيس الاتراك، ولكن هؤلاء الجواسيس كانوا شديدي الحرص على نوم القيلولة، فلا يستيقظون ويواصلون اعمالهم إلا مع المغرب. قال وزموند ستيوارت في كتاب: تاريخ الشرق الاوسط الحديث: (١).

«جلس كتشنر مع ضيفه يتناولان الشاي على انفراد، وفي أثناء ذلك أثار بأدب قضية الحجاز، فقد كان المعروف أن حال الحجاز مضطرب لأن رجال تركيا الفتاة الذين كانت خطتهم تجديد الأمبراطورية، قرروا توسيع سكة حديد الحجاز بمدها من المدينة إلى مكة، ومد فرعين لها من المدينة إلى ينبع ومن مكة إلى جدة وعينوا حاكماً جديداً على الحجاز ليتعاون مع الأمير حسين. بيد أن الأمير حسين كان يكره هذا الحاكم، ويعارض توسيع السكة الحديد لأنها تقوي سيطرة الأتراك على مكة، وقد أيده سكان الحجاز في ذلك لأن السكة الحديدية تجعل الحج أسهل وأقل كلفة وهم يريدون الافادة من بقائه صعباً وباهظ التكاليف».

انتهز عبد الله فرصة إثارة قضية الحجاز فوجه إلى كتشنر السؤال الصريح التالي: «ما هو موقف بريطانية من ثورة عربية؟»

كان عبد الله يرتدي ثياب الامير الابن الثاني لرئيس ديني ادعاءاته أكثر من قوته. أما كتشنر، الأميرال والفيلد مارشال، فقد كان أهم حاكم في الشرق الأوسط، ولا يستطيع أن يجيب عن سؤال صريح بصراحة، ولذلك اكتفى بقوله «إن الصداقة التقليدية بين تركيا وبريطانيا تجعل من المستحيل على البريطانيين أن يتدخلوا في شئونها الداخلية. والاضطراب في الحجاز شأن داخلي».

(١) الترجمة العربية بقلم زهدي جاد الله ص ١٩٤.

«بيد أن عبدالله في رده على هذا الجواب الرسمي ذكّر كتشنر بما قامت به حكومة الهند البريطانية من بسط حمايتها على الكويت وقال: الم يكن ذلك تدخلاً في الشئون العثمانية؟ ابتسم الرجل الانجليزي ابتسامة حذرة، انتهت بها المقابلة دون أن يعد بشيء».

«على أن كتشنر كان يعرف العالم الاسلامي. بدأ كضابط صغير بالقاء نظرة إلى فلسطين، وقاد الجيش المصري بلقب سرداد فاحتل السودان، وعمل في الهند حيث كان عدد من خير الفرق العسكرية مؤلفاً من المسلمين، فرأى أن الانشقاق العربي قد يكون مفيداً لبريطانيا في ظروف خاصة. لذلك أمر السكرتير الشرقي، رونالد ستورس، بتقديم يخت بريطاني لنقل عبد الله إلى تركيا، وأن تستمر الاتصالات غير الرسمية بهذا المبعوث الصريح من مكة»

«لم تكن مكة أبداً مركزاً للخلافة، ولكنها احتفظت بمقام فريد بين المدن الاسلامية لأنها المكان الذي ولد فيه النبي، وفيها الكعبة محج المسلمين وقبلتهم في صلاتهم، أي إن مقامها ديني، لا سياسي ولا ثقافي. أما عائلاتها المتزعمة التي تدعي التحدر من نسل الحسن بن الحسن بن علي، ويعرف افرادها بالهاشميين، فقد اصبح بعض رجالها زعماء اقطاعيين يزداد نفوذهم كلما ضعفت السلطة الخارجية وبالعكس».

«حاول السلطان عبد الحميد أن يخفف من أهمية الهاشميين لا أن يتملقهم. ولكن الخمس عشرة سنة التي قضاها الامير حسين في القسطنطينية جعلت منه رئيس إقليم كبير المقام. كان العقل الذي وراء لسانه الطلق حاداً. قدّر ذلك العقل ضعف الامبراطورية العثمانية إذ انفصلت عنها الشعوب البلقانية واحداً بعد الآخر، وقدر قوة بريطانية التي اخذت مصر، وازدهار الخديوي الذي يحميه البريطانيون، ودرس العالم الذي يحكم من ساحة البرلمان. وبعد أن قدر ودرس سأل نفسه سؤالين: كيف يمكن أن يحافظ على وضعه وكيف يمكن أن يُحسِّنَه؟ لم يعامله عبد الحميد بخشونة، بل إن هذا

السجان أظهر له الاحترام وجعله مستشاراً له. ولكن عبد الحميد الذي كان يود العرب قد انتهى. وأظهر رجال تركيا الفتاة شيئاً قريباً من العنصرية التركية حتى قبل أن يتسلموا الحكم، فعاملهم العرب بالمثل».

«هنا تناقض آخر: كما أن دعاة القومية التركية كانوا من اطراف الأمبراطورية، كذلك أصبحت القومية العربية ـ غير المعروفة في صحراء العرب ـ عقيدة رجال من لبنان وسوريا. فقد أنشأ اللبنانيون الصحف ودور النشر الكبيرة في مصر، ومنهم من ألف المعاجم والموسوعات باللغة العربية، وأعجب كثيرون منهم بما فعله لورد كرومر في مصر فأرادوا توسيع الاستقلال الذي حصلوا عليه سنة ١٨٦٠ ولو عنى ذلك تحالفاً مع دولة غربية ضد الاتراك، وكان تأكيدهم أنهم عرب لا عثمانيون قد سهل عليهم الانفصال عن إمبراطورية لها ارتباط وثيق بالاسلام».

«أمل الأمير حسين الطامح أن يستعمل الانشقاق والكبرياء العربيين في تحقيق احلامه، وقد كانت مرنة تمتد من مشروع معتدل لمملكة مستقلة في الحجاز إلى تصورات خيالية، هي فرض ضريبة على كل المسلمين في العالم بصفته خليفة عربياً».

وإذا كان العنصر الأساسي في السياسة هو حسن التقدير، تقدير مركزك وقواك ومراكز الآخرين وقواهم وتقدير الظروف العامة التي تحيط بك واحتمالات النجاح أو الفشل في كل خطوة تخطوها، فإن الحسين بن علي لم يحسن تقدير أي شيء، فقد تصور نفسه في وضع أكبر بكثير من حقيقتها، فما كان في الحقيقة إلا والياً صغيراً من الولاة الخاضعين للدولة العثمانية، وإذا كان هو والي الحجاز، فإنه لم يكن بحال راعي الحرمين، لأن راعيهما كان خليفة آل عثمان، وهو ممثله فحسب ثم أن أمور الحرمين كانت مضطربة جداً أثناء ولايته، والعدوان على الحجاج كان مستمراً حتى قل عدد الحجاج إلى درجة استوقفت الأنظار، وكان الأعراب في الحجاز في حالة من الضنك والعوز جعلتهم يعتدون

مرة بعد أخرى على الحجاج دون أن يستطيع الحسين بن علي حيالهم شيئاً، بل إن تفكيره لم يزد على تفكيرهم كثيراً، وعندما أدخل العمال الأتراك خط سكة الحديد من القدس إلى مكة فالمدينة، كان الحسين بن علي يحرض الأعراب على تدمير القضبان والمحطات، وقد رحبوا بذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن سكة الحديد ستسهل الحج على الحجاج وتوصلهم إلى مكة والمدينة آمنين، فلا يستطيعون ابتزازهم وفرض الاتاوات عليهم ونهبهم، ولم يكن تفكير الحسين بن علي بأعلى من ذلك فقد كان يخشى أن سكة الحديد تسهل على الأتراك الوصول الى الحجاز ومكة والمدينة. وأنه لمما يدعو الى التعجب ويثير الألم أن سكة حديد الحجاز التي أنشأها الأتراك قام بتدميرها الأعراب ومن ورائهم الشريف حسين.

وهذه أيضاً صورة من صور سوء التقدير، فإن الحسين بن علي كان في حيرة دائمة من أمره لا يدري إلى أي ناحية يميل، مع أنه رسمياً موظف عثماني صدر بتعيينه فرمان عثماني بتاريخ أول نوفمبر ١٩٠٨. وهو يتمنى أن يعلن استقلاله عن الدولة العثمانية، ولكنه في نفس الوقت يقود حملة على الإدريسيين أصحاب عسير، ويخطب في أبها مذكراً الناس بأفضال العثمانيين عليهم. وهنا نجد أن ابن سعود كان أوضح وأسلم نظراً من الشريف حسين، فقد أدرك بذكائه أن الأتراك لن يستطيعوا السيطرة على نجد أو مساعدة أهلها، وان الإنجليز لن يجرؤوا على دخول الجزيرة، ولكنهم أقوياء وعندهم أموال وأسلحة، فوقف على الحياد بين الأتراك والإنجليز طول الحرب، بل إن الادريسي صاحب عسير كان أسلم موقفاً من الشريف حسين، فقد وقف على الحياد أيضاً ولكن في المعسكر العثماني. أما مبارك الكبير أمير الكويت فقد دفعه الخوف من العثمانيين من ناحية ومن ابن سعود من ناحية أخرى الى طلب وضع بلاده تحت الحماية البريطانية ليضمن سلامة بلاده وقد رحبت بريطانيا بهذا الطلب وأدخلت الكويت تحت حمايتها لتستطيع مواجهة أي خطر الماني أو عثماني على رأس الخليج.

وفي مثل تلك الحالة التي كان فيها الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية، فإن أحسن ما كانت الوحدات السياسية الصغرى تستطيع عمله، هو السكون والحذر والاجتهاد في النجاة من الضواري المتقاتلة، فقد كان الصراع فعلاً صراع ضوار، وانجلترا وفرنسا كانتا تواقتين إلى سحق المانيا والانقضاض على تركيا وتمزيقها وروسيا كانت في حالة سيئة جداً، وكل شيء كان يدل على أن ساعة القيصرية قد دنت، وذلك لم يمنعها من التوغل في بلاد ما وراء النهر والوصول إلى نهر جيحون. وفي مثل هذه المعمعة ما عسى أن يستطيع الحسين ابن عليّ وأولاده؟ ومع ذلك فقد ألقى الرجل وأولاده أنفسهم فى الميدان. وكان يدير المعركة ضد تركيا في الشرق الأوسط السير هنري مكماهون الذي أصبح مندوباً سامياً لبريطانيا في مصر مكان كتشنر الذي عين قائداً عاماً للقوات البريطانية، وانتدبوه في مهمة للذهاب إلى روسيا التي انضمت إلى الحلفاء. وكان طريق بحر إيجة والمضايق التركية قد أقفل، فذهب في بارجة عن طريق بحر الشمال وهناك غرقت به البارجة في نفس اليوم الذي أعلن فيه الحسين بن علي الثورة على الأتراك.

وكانت انجلترا وفرنسا في حالة سيئة جداً في أوائل ١٩١٤ فإن الألمان على الجبهة الغربية كانوا في عنفوان قوتهم، أما على الجبهة الشرقية فكانت روسيا تتلقى هزيمة بعد هزيمة، ولهذا فإن الشريف حسين بن علي وابنه عبد الله لم يعرفا مقدار الفرصة التي أتاحاها لبريطانيا، عندما عرضا فكرة ثورة عربية تكسر ظهر القوة التركية في الشرق الأوسط وتوقف خطر زحف الأتراك على مصر، وكانت بريطانيا إلى جانب ذلك في حاجة إلى أي نصر يرفع معنوياتها ومعنويات حلفائها. واللورد اسكويت رئيس الوزراء استقال ليحل محله جورج لويد السياسي الماكر، وأخذ معه رجلاً ذا ميول يهودية هو آرثر جيمس بلفور وزيراً للخارجية. وهنا كانت فداحة الخطأ الذي وقع فيه الشريف حسين وابنه عندما وافقا على إعلان الثورة على الأتراك. وكانت في الحقيقة ثورة هزيلة جداً لم يشترك

فيها الا أقل من ألفي جندي مسلحين بأسلحة بالية، ومعظم هؤلاء كانوا سوريين وفلسطينيين ممن استهوتهم فكرة إقامة دولة عربية تشمل جزيرة العرب وبلاد الشام وربما العراق. وكان جمال باشا حاكم ولاية الشام، ومن أكبر رجال حركة الاتحاد والترقي قد أحس خلال ١٩١٥ أن عرب الشام متمردون على العثمانيين، فقبض على زعماء المتذمرين وشنقهم علناً في دمشق فأثار ذلك ثائرة بقية أهل الشام، وتشجع الملك حسين وابنه عندما تقاطر على مكة هؤلاء الغاضبون ومعظمهم كانوا فلسطينيين، وهذا ما أثار غضب الأتراك، لأن الدولة العثمانية لم تسىء قط الى عرب فلسطين إلا بالقدر الذي كانت تسيء به إلى كل رعاياهم ومنهم الأتراك.

وهؤلاء الشوام - ومعظمهم فلسطينيون - هم الذين تحمسوا للثورة، وأرسل الملك حسين ابنه فيصل ليكون مع أولئك الثوريين وهناك كون لنفسه الحاشية التي ستقف الى جانبه في دمشق أولاً ثم في بغداد.

وفي أثناء ذلك أدرك الجنرال هنري مكماهون المغزى الذي يكمن وراء الثورة العربية على الأتراك، ومنذ البداية وافق على مطالب القوميين العرب موافقة شكلية، فلم يكن في الحقيقة إلا استعمارياً بريطانياً، وجد أمامه جماعة من المتحمسين والخياليين تملأ رؤوسهم - في رأيه - خيالات وأوهام، فوافقهم عليها حتى يدخلهم الشرك، وافق على تأييد قيام دولة عربية دون أن يلتزم بحدود، بينما كان القوميون العرب يتمسكون بحدود واضحة لدولتهم: من أطنة ومرسين إلى جزيرة العرب ومن شرقي إيران الى خط ممتد من رفح إلى العقبة. وقد أدرك العرب ما وراء تشجيع السير هنري مكماهون لهم من خداع. وهنا نعود الى دزموند ستيوارت فنجده يقول - مصوراً الوضع في الجانب العربي بالنسبة الى فيصل بن الحسين والمترددين عليه: (ومن ضمنهم كثيرون من الضباط العرب في الجيش العثماني)«ومن هنا جاء التحول الى الثورة في سنة ١٩١٥. ذلك بأن جمال باشا، حاكم الشام العثماني، اكتشف خلايا انفصالية في سوريا ولبنان، فحاكم

أعضاءها محاكمة سريعة وشنقهم فوراً وعلناً وأثارت جثث العرب المتدلية من المشانق، العرب المترددين وجعلتهم يكفون عن اعتبار الأتراك اخوانهم في الدين، وما كان فكرة أصبح قضية تستحق أن يقاتلوا في سبيلها ويموتوا».

«لكن حتى حين ثارت العواطف من جهة، وألحت الحاجة من جهة أخرى، اشتدت المساومة بين العرب الذين وصفهم سترابو قبل ألفي سنة بأنهم تجار، وبين البريطانيين الذين وصفوا مؤخراً بأنهم أصحاب متاجر، وكانت المساومة تتعلق بالمنطقة التي على البريطانيين أن يعتبروها بعد الحرب دولة عربية مستقلة، ويعترفوا بحدود هذه الدولة».

قرر الشريف حسين أن يستثير العرب في الشمال، واتصل بأعضاء جمعيتين سريتين احداهما مدنية والأخرى عسكرية، تسعى كلتاهما للانفصال عن الأتراك. كان مبعوثه الى دمشق ولده الثالث فيصل. أصر الشوام ـ والكلمة تشمل جميع أولئك الذين يعيشون فيما دعي فيها بعد سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ـ وهذا الخطاب من رجل، المفروض أنه محترم مثل الجنرال هنري مكماهون يعطينا فكرة عن المستوى الأخلاقي الذي كان رجال الاستعمار مستعدين للهبوط اليه. فهذا كلام أفاق كذاب غشاش لا جنرال في جيش وممثل دولة عظمى، كتبه وهو يعرف أنه كذب خالص ليخدع به شيخاً جاهلاً بشؤون الدنيا ليخدعه ويسخره لغاية حقيرة، وهي خيانة أهل دينه وطعنهم في الظهر أملاً في سراب خادع. ونعود الى دزموند ستيوارت فنقرأ كيف كان مكماهون يتصرف، فقد قرر ارسال خطاب اليهم يشجعهم ويعدهم بانشاء الدولة العربية التي كانوا يحلمون بها عن نية سيئة وخداع، قال دزموند ستيوارت بهذا الخصوص:

«وافق القوميون العرب على قيدين لاستقلالهم: معاهدة دفاعية تربط الدولة العربية المقبلة ببريطانيا، ومنح بريطانيا أفضلية في هذه الدولة».

«لم يكن ممثل بريطانيا في القاهرة رجلاً قوياً متخفياً وراء «القنصل العام»

الضعيف، بل كان سير هنري مكماهون المندوب السامي، المسؤول عن محمية مصر الذي يمثل جيلاً يرى أن قيام الشعوب الملونة بحكم نفسها أمر لا يزال مستحيلاً، ولذلك تردد مكماهون في الموافقة على الأهداف الثورية البعيدة للقوميين العرب، ولكن المأزق الحرج الذي كانت فيه بريطانيا، جعل ما عرف «برسائل مكماهون» بين مكة والقاهرة شيئاً ممكناً، تلك الرسائل التي منعت بريطانيا نشرها عشرات السنين. في ذلك الوضع الحرج لجأ مكماهون في مخاطبة الحسين إلى عبارات التبجيل كما يتضح من مقدمة أول رسالة بعث بها إليه:

«إلى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف، السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رجال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين».

«بيد أن الحسين الذي كان بائع سجاد بارعاً، لم يفته إدراك المراوغة وراء هذا الحشو من الكلام. ذلك أن مكماهون ركز على حلم الحسين بالخلافة كي يتفادى مسألة الحدود. وقد عاتبه بقوله: «إن هدفنا، أيها الوزير المحترم، التأكد من أن الأحوال الضرورية لمستقبلنا يمكن ضمانها على أساس من الحقيقة لا العبارات والألقاب المنمقة».

«في ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ أرسل مكماهون المذكرة التي حددت الشروط التي سيبدأ العرب بموجبها ثورتهم في اللحظة الملائمة. أوضح المندوب السامي أولاً أن تردده الظاهر في بحث مسألة الحدود (أشار إليها في رسالة سابقة) «بالتفاصيل») إنما سببه شعوره بأن ذلك البحث لم يحن وقته، لكن بما أن الحسين يعده أمراً جوهرياً، فإنه مفوض من قبل حكومته البريطانية بإعطاء العرب بعض الضمانات.

«تقول المذكرة إن بريطانيا تتعهد بالإعتراف باستقلال العرب وبالدفاع عنه، ضمن المنطقة التي حددها الشريف حسين مع بعض التحفظات التي يتعلق أهمها بالأراضي في آسيا الصغرى وسوريا وبالكويت، الذي تربطه ببريطانيا معاهدة، وحماية الأماكن المقدسة والإستعانة بالمستشارين البريطانيين، ونوع خاص من الإدارة لمقاطعتي بغداد والبصرة».

«حددت التحفظات الخاصة بآسيا الصغرى وسوريا في الجملة المهمة التالية: «إن مقاطعتي مرسين واسكندرونة، وأقساماً من سوريا واقعة إلى الغرب من مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب، لا يمكن أن يقال إنها عربية صرفة، ولذلك يجب أن تستثنى من التخطيط المقترح».

«كان سير مكماهون في استثنائه مرسين واسكندرونة لا يفكر في تركيا التي انتهت اليها هاتان المقاطعتان فيما بعد، بل في فرنسا حليفة بريطانيا، التي كانت لديها خطط لها. ثم إنه بتحديده الغامض لأقسام من سوريا غربي مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب، إنما كان يشير إلى المنطقة التي ليست لدى فرنسا خطط لها فحسب، بل لها أيضاً ارتباطات قديمة بها منذ أيام لويس الرابع عشر، وهو جبل لبنان الذي أكثرية سكانه من الموارنة المسيحيين الذين وإن كانوا يتكلمون العربية ليسوا من أصل عربي، الذين وإن كان الدين يربطهم بروما والتاريخ بفرنسا، تمتع الموارنة في متصرفيتهم، بسبب تدخل الأمبراطور نابليون الثالث باستقلال ذاتي ستين عاماً (قضى على هذا الاستقلال حين نشبت الحرب العالمية الأولى). لم يذكر المندوب السامي فلسطين التي كان العرب تسعة أعشار سكانها، ولو أنه أراد استثناءها من المنطقة العربية التي ستصبح مستقلة، لأشار إليها باسمها التقليدي أو بوضعها العثماني: النصف الشمالي جزء من ولاية بيروت، والنصف الجنوبي متصرفية القدس».

«تم التوصل إلى اتفاق حول هذه الخطوط في أوائل ١٩١٦ وبدأت الثورة في يونيو. جاءت الثورة متأخرة. لو أن الانفصال العربي لقي تشجيعاً مبكراً،

وفي مناطق أكثر حساسية من الحجاز، في سوريا مثلاً الواقعة على حدود الأناضول الجنوبية، لربما ألحق بالأتراك ضرراً أكبر. ذلك بأن معظم الجيش العثماني الرابع في دمشق كان من العرب، وكان كثيرون من ضباطه في الجمعية العسكرية السرية التي كانت تعمل للانفصال عن تركيا. ولكن جمال باشا اكتشف في سنة ١٩١٥ إلى أي حد كان الثوريون العرب يضعفون معنويات رجاله، فنقل الجنود العرب فوراً إلى غاليبولي حيث أحسنوا القتال، وأحضر إلى سوريا مكانهم جنوداً يتكلمون اللغة التركية».

«أما المنطقة الثانية فهي العراق ـ الذي كان مكتب القاهرة مهتماً به ـ وهو ولاية عثمانية أخرى أهم للأتراك من الحجاز. هنا ضُيِّعت الفرصة أيضاً. غزا العراق جيش من الهند البريطانية، وكان يظن أن هذا الوادي الخاوي صالح للفائض من سكان الهند، ولذلك كان قواد الجيش الغازي غير مضطرين إلى التسرع في عرض الاستقلال على العراقيين، كما كانوا ينتظرون أن يكون غزو العراق عن طريق البصرة نزهة، أما الواقع فكان نشوب حرب طويلة ضارية وقف فيها العراقيون يراقبون».

«كان ثمن الثورة بالنسبة إلى العرب غالياً في المدى الطويل والقصير، دفعوا جميعاً هذا الثمن مع أن أقل من عشرة بالمائة منهم اشتركوا في الثورة. حتى في الحجاز لم يكن الرأي العام وراء الحسين، ولكن خروجه على الأتراك وما تبعه من فرار الضباط العرب وبعض الضباط الأكراد من الجيش العثماني حطم ما تبقى من الفكرة العثمانية وفتح الطريق في المدى البعيد إلى تركيا التركية. أما في المدى القصير فإن جمال باشا قضى بقسوة على الذين شعر نحوهم بالإزدراء الذي شعر به البريطانيون نحو الإرلنديين الكاثوليك، فعذب في فلسطين العرب الذين افترض أنهم موالون لقضية الحلفاء وشنقهم، وعَرّض لبنان الذي لا شك في تعاطفه مع الغرب لمجاعة أودت (بناء على إحصاء قام به المبشرون الأميركيون) بنحو ربع سكانه أو ثلثهم».

«كـانت الثورة العـربية ذات قيمـة كبيرة للحلفـاء. ذلك بـأن رفض أمير أقدس مدينة إسلامية للجهاد، ساعد على منع حـركة تمـرد في الجيش الهندي. ثم إن احتلال مكة وجـدة اضطر الأتـراك وحلفاءهم الألمـان إلى إرسال الجنـود والذخائر إلى الجنوب وإهمال خططهم الأخـرى ضد قنـاة السويس. بـدا عرب الحجـاز في نظر رونـالد ستـورس جبناء وغـير منـظمـين. لا ريب أنهم كـانـوا يختلفون عن الجيوش الأوروبية، ولا يعرفون شيئاً عن الفنون الحربية الغربيـة، لأن خبـرتهم كانت مقصـورة على الغـارات البدويـة التقليديـة التي يزيـد فيهـا الصـراخ عـلى القتـل. يضـاف إلى هـذا أن المنـازعـات بـين قبـائلهم جعلت تـوحيدهم صعبـاً، حتى إذا وحـدوا أصبـح من الصعب قيـادتهم وإبقـاؤهم في مكان واحد. ولكن قوتهم كأفـراد واعتزازهم بـرجولتهم جعـلاهم يبدعـون في نوع من القتال قام فيه الاندفاع والبـراعة، لا روح الفـريق والانضباط، بـدور رئيسي. كـانت قبائـل الحجاز صـورة لأبطال هـذا القرن، للمغـاويـر ورجـال العصابات، الذين ظهروا فيما بعد.

«كـانت الثورة العـربية ذات قيمـة للحلفاء، وخصـوصاً لبـريـطانيـا التي بالغت في تقدير فتح جبهة جديدة في بحر مجهـول، فجاءت الثـورة مقويـاً حين كانت المعنويات العامة منخفضة. إن نهوض أبنـاء الصحراء الشجعـان لتأييـد بريطانيا عوض من المذابح المستمرة في الجبهة الغربية[1]».

وليت الحسين بن علي وأنصاره كسبوا فخر هذا العمل الذي قاموا بـه في نظر الإنجليز والفرنسيين الذين قدموا إليهم ـ دون أن يتنبهوا ـ خدمة لا تقدر. «ذلك أن البطل الحقيقي لهـذه المأسـاة كان ـ في نـظر الغرب ـ رجـلاً انجليزيـاً غريب الأطوار هو الكولونيل لورنس. كان مثله في ذلك مثل الجنـرال تشارلس جوردون الذي دفع حياته ثمناً لاستيلاء بريـطانيا عـلى السودان دون أن يكـون هذا قصده. فإن الكولونيل لورنس نشأ ابن سِفاح من مربية انجليزية عاشـرت

---

(١) دزموند ستيوارت ١٩٨ ـ ٢٠١.

واحداً من كبار الملاك الانجليز من أصل ايرلندي، وبسببها هجر امرأته وبناته الأربع، فخرج الولد الى الدنيا دون مركز اجتماعي محترم، وان كان لدى أمه من المال ما أنفقت منه لتخريج ابنها ضابطاً. ثم ذهب الى بلاد العرب مغامراً، وهناك وجد مجالاً لولعه بالظهور بمظهر الشخصية العجيبة، وقد زعم أنه معجب بالعرب والبدو وطريقتهم في الحياة، وما كان في الحقيقة إلا استعمارياً كذاباً، وقد تواترت أخباره إلى انجلترا، وكذلك صوره في ملابس عربية كان يتعمد أن تكون جميلة غالية الثمن. كان قفطانه دائماً من الحرير الخالص ومن فوقه جبّة أنيقة من الصوف ويضع على رأسه عقالاً عربياً أحمر مذهباً، وفي حزامه خنجر ذهبي. وكان ضابط مخابرات، وكان رؤساؤه في المخابرات البريطانية يعطونه ما يريد وكان تأثير الذهب الذي كان يوزعه على فقراء البدو كبيراً، أما كبار العرب فقد زعم لهم أنه مسلم مبغض للانجليز، وكان يتكلم عربية غير صحيحة، ولكنه بدا على أي حال للأمير عبدالله بن الحسين وأخيه فيصل وسيلة جيدة للاتصال بالانجليز».

وأنما لجأت لنقل تلك الفقرة الطويلة من مؤلف غربي هو دزموند ستيوارت لأنني أردت أن أقرب القارىء قدر المستطاع مما يمكن أن يكون حقيقة ما جرى. ونحن هنا نتتبع تصاريف الأمور مع أسرة عربية هاشمية، ألقت بنفسها في بحر لا تحسن السباحة فيه، ولا هي قد رأت اعماقه، فكانت النتيجة ما رأيت من العواقب الوخيمة التي يمكن أن تنتج عن قلة التدبر، فان حركة الحسين بن علي وأولاده لم تأت الذين قاموا بها بجزء ولو ضئيل من الآمال التي علقوها عليها، واذا قلنا إن الأمر انتهى آخر المطاف بتتويج فيصل ملكاً على العراق في ٢٣ أغسطس ١٩٢١ بعد اخراجه من دمشق، واعلان عبدالله أميراً على ما عرف اذ ذاك بشرق الأردن ابتداء من ابريل ١٩٢١ بصورة مؤقتة، ثم نهائية في مايو ١٩٢٣م، فإن نظرتنا إلى ما سمي بالثورة العربية لا ينبغي أن تقف عند هذا الحد، بل علينا أن نستطرد مع الأحداث لتكتمل لدينا صورة هذه الثورة وما أدت اليه، ففي يوليو

سنة ١٩٢٢ قرر مؤتمر الصلح الأوروبي في سان ريمون وضع فلسطين والأردن تحت الانتداب البريطاني، ومن ذلك الحين يبدأ في الحقيقة إنشاء إسرائيل. وقد أشرنا فيما سبق إلى أن بريطانيا كانت تتفاهم مع الصهيونية العالمية على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود، وفي النهاية أصبحت إسرائيل هي معضلة العرب الكبرى، وهي نتيجة مباشرة لهذه الخطوة الخاطئة التي خطاها الحسين بن علي، لأن تركيا لم يكن قد انقطع الرجاء فيها، والجنرال الألماني ليمان فون ساندرز استطاع بالفعل ان يعد نواة جيش تركي تشترك فيه فرق عربية، وفي معارك جاليبولي في سنة ١٩١٥ تمكن قائد تركي تتلمذ على يد ليمان فون ساندرز من إحراز انتصار عظيم على الانجليز والفرنسيين، وهذا القائد هو مصطفى كمال الذي كان إلى ذلك الحين لا يسيء الظن بالعرب. وكان جمال باشا في بلاد الشام يستطيع على الأقل أن يهدد مركز الإنجليز في مصر بإستمرار. وكل شيء كان ممكناً أن ينزل بالانجليز والفرنسيين قبل التدخل الأمريكي في الحرب العالمية الأولى، وروسيا كانت في وضع سيء جداً أمام الألمان على الجبهة الشرقية وهنا، في ذلك الظرف قام الحسين بن علي بحركته فهدم الجبهة التركية الشرقية هدماً، وتبين الأتراك أن العرب هم سبب الهزيمة، ورجل مثل مصطفى كمال نفض يده من العرب من ذلك الحين، وكان لذلك نتائجه الوخيمة، وترددت على ألسنة الأتراك عبارة «عرب خيانت» أي خيانة العرب. وهكذا ـ وإرضاء لمطامح حفنة من العرب وأوهام حفنة من الخطباء المتحمسين على منابر دمشق دفع العرب، كل العرب ثمناً باهظاً ولا زالوا يدفعونه. و٥ يونيو ١٩١٦ كان دون شك يوماً مشؤوماً، ففي ذلك اليوم غرق كتشنر ببارجته في البحر الشمالي واجتمع ١٥٠٠ جندي من العربان وأطلقوا النار على الحامية التركية في جدة، وأعلن الحسين بن علي الثورة على الأتراك، وهجمت قوة عربية على المباني الحكومية في جدة. وتقدمت قطع من الأسطول البريطاني وأطلقت القنابل على الميناء مساعدة للحلفاء العرب. وتلك هي بداية ما سماه أمين سعيد بالثورة العربية الكبرى.

لقد تقاسمت فرنسا وانجلترا ميراث الدولة العثمانية في البلاد العربية

(عدا الجزيرة)، وحولتها إلى مستعمرات تحت أسماء شتى، وتربع أحد أبناء الحسين بن علي ملكاً على العراق وأصبح ابن ثان هو عبد الله أميراً على شرق الأردن وكلاهما تابع لبريطانيا، أما سوريا فقد أصبحت مستعمرة فرنسية وإن كان وضعها الرسمي أنها بلد تحت الانتداب، أما لبنان فقد احتلته فرنسا تحت نفس الاسم، وبدأت تحدث فيه تغييراً جوهرياً، وهذا التغيير أصبح فيما بعد من أكبر مشاكل لبنان: تقديم الأقلية المارونية على بقية طوائف السكان واختصاصهم بالتعليم، والعناية وإفهامهم أنهم ليسوا عرباً بل فينيقيون كاثوليك لا ينتمون إلى عالم العرب بل إلى عالم الغرب، وظن الموارنة أن ذلك فيه خير كثير لهم ولم يفطنوا إلى أن ذلك سيجعلهم في يوم ما في وضع شاذ غير مقبول، لا قومياً ولا عقلياً، فإن الأمور تتجه دائماً بطبعها إلى التوازن، ولا يصح في النهاية إلا الصحيح، وإلى يومنا هذا يعاني لبنان من هذا الوضع غير الطبيعي الذي فرضته فرنسا ولا تزال تؤيده.

ومع ذلك وباستثناء ما فعلته فرنسا بلبنان ـ فقد تبين مع الزمن أن الاستعمار مرض قابل للشفاء، أما البلية العضال فهي ما حدث لفلسطين، فإن اليهود كانوا في ذلك الحين أي أثناء الحرب العالمية الثانية قد أحسوا أن فرصة تحقيق حلم تيودور هيرتسل قد حانت، فالانجليز في حالة يرثى لها من الإفلاس والإرهاق، وأي معاونة من الماليين اليهود كان لها تأثيرها، وكانت البيوت المالية الصهيونية قد بلغت درجة خطيرة من القوة نتيجة للمتاجرة في السلاح وإقراض المال لدول الحلفاء بأسعار عالية، وتنبه إلى ذلك صهيوني واسع الذكاء هو حايم وايزمن، وهو روسي من مواليد مدينة مينسك، وكان يتقن الروسية والألمانية والعبرانية والبديشية (إلى جانب الانجليزية والفرنسية) ولكن ميله إلى الثقافة الألمانية كان عظيماً، مثله في ذلك مثل أفراد أكبر كتلة يهودية في أوروبا هي كتلة يهود المانيا. وكان يهود روسيا أكثر عدداً ولكنهم كانوا في وضع سيىء بسبب نفور الروس منهم واضطهادهم إياهم، وقد تعلم حايم

وايزمن في سويسرا واتصل أثناء تعليمه بكـل الماليـين اليهود في أوروبـا واتصل بصهيوني أمريكي خطر هو لويس براند آيس مستشار الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون. وعندما أصبح لويس براند آيس رئيساً للمحكمة العليا في الـولايات المتحدة سنة ١٩١٦، وهي ثالث وظيفة كبرى في الإدارة الأمريكيـة، أصبح في وضع يمكنه من التأثير بصورة مباشـرة في السياسـة الأمريكيـة، اتصل بـه حايم وايزمن وبدأ الإثنان العمل مشتركين مع بقية يهود أوروبا في تحقيق الحلم الذي كان تيودور هيرتسل قد مات دونـه، وهو إنشـاء دولة اسرائيلية في فلسطين، وبإيعاز من حايم وايزمن وافق اللورد بلفور على مسودة تصريحـه المشؤوم في ١٨ يوليو ١٩١٦، واشترك في المؤامرة رجـال بنوك روتشيلد ولـوسيان رولف وكلود مونتفيوري وسير ماتيـو ناتـان وصمويـل مونتـاجيو، وكلهم من كبـار الماليـين، وانجلترا باعت فلسطين لليهود لقاء المال. وفي ٢ نوفمبر ١٩١٧ صدر تصريـح بلفور، وما كان من الممكن إصداره أبداً أيام السلطان عبد الحميد الثـاني، لأن هذا الرجل الذي يحمل عليه العرب حملة ظالمـة رفض أن يمنح اليهـود أي حق في فلسطين، عندما عرض عليه ذلك تيودور هيرتسل عن طريق وسيط صهيوني يسمى نفلسهكي في سنة ١٨٨١، وكانت تركيا إذ ذاك غارقة في الـديون إذ قـدر دينها بمبلغ ١٠٦ ملايين من الجنيهات الـذهبية، وقـد عرض مـالي يهودي وهـو صمويل موناجيو أن تتولى البنوك اليهودية معاونـة تركيـا للتخلص من ديونها في مقـابل أي تصـريح من السلطان يعـطي اليهـود الحق في الهجـرة إلى فلسـطين واستيطانها بجماعات كبيرة، وكان حايم وايزمن وأخوه صمـويل متلهفـين على ذلك لكي يخلصوا يهود روسيا من الوضع الـذي كانـوا فيه، ويقـول وايزمن في مذكراته إن السلطان لو كان وافق لأطلقت روسيا في السنة الأولى مليون مهاجر صهيوني إلى فلسطين ولكن السلطان رفض، وجاء رفضه وثيقة كافية لرفع مقام هذا الرجل في أعيننا، قال لنِفلسكي: إذا كان هيرتسل صديقك بقدر ما هـو صديقي فانصحه ألا يتقدم خطوة اخرى في هذا الشأن. لا أستطيع أن أبيع قدماً واحدة من البلد، لأنه ليس ملكي بل ملك شعبي، لقد حاز شعبي هذه الدولة

وغذاها بدمه، وسنغطيها مرة أخرى بدمائنا قبل أن نسمح بتمزيقها. لقد قدّمت فرقتان من مقاتلي سوريا وفلسطين تضحية كبرى وقاتلتا معنا دفاعاً عن بلدنا، وهلك رجالهما إلى آخر رجل دون أن يتراجع واحد منهم أو يستسلم، بل ماتوا جميعاً دفاعاً عن دولتهم. إن الشعب التركي هو مالك هذه الدولة لا أنا. لا أستطيع التخلي عن جزء منها، ويستطيع اليهود أن يوفروا أموالهم. حين نقسم الدولة قد يأخذون فلسطين مقابل لا شيء، لكن الآن لن نقسم إلا جثتنا لأنني لن أسمح أبداً بتشريحنا أحياء» وهذه العبارة - التي تعين في الحقيقة موقفاً - تنطق بأن سلالة أورخان وعثمان - مهما حدث لها كانت سلالة نبيلة، وهي أقرب إلى الروح التركية التي نعرفها من كل مواقف مصطفى كمال، لأن مصطفى كمال لم يحرر في النهاية إلا أرض الأناضول من الاستعمار، وكل بلاد الدنيا - التي هي أقل من تركيا - تحررت مع الزمن من الاستعمار، لأن الاستعمار كان مرضاً له ظروفه، وعندما زالت الظروف زال. أما الماضي التركي الجليل الذي ازدراه مصطفى كمال وألقى به إلى الأرض في سبيل مظهر من التفرنج، كانت له أهميته الكبرى للشعب التركي ويكفي أن اليونان - وهي دولة من أصغر بلاد أوروبا حجماً - تستقل عن تركيا ولا ترضى بأن يكون أتراك قبرص مثلاً في وضع اليونان فيها، مع أن قبرص أولاً وآخراً أرض تركية وإن سكنتها أعداد كبيرة من اليونانيين، ومن فجر الإسلام إلى معاهدة برلين ١٨٧٨ لم تخرج قبرص إلا في النادر عن أرض الإسلام.

الذي يهمنا هنا هو أن نذكر أن مأساة فلسطين - إلى حد بعيد - نتيجة لما سمي بالثورة العربية الكبرى، وهي في جملتها مظهر من مظاهر انعدام التقدير الذي ذكرناه عند العرب أوائل القرن العشرين. وإننا لنقرأ الآن أخبار إقامة دولة فيصل في سوريا وما أحيطت به من حماس ساذج، ثم دولته في العراق التي لم يحكمها في الحقيقة منذ قيامها إلى زوالها في يوليو ١٩٥٨ إلا رجل واحد كردي الأصل هو نوري السعيد درس العسكرية في المدرسة الحربية في الآستانة فيما

بين سنتي ١٩٠٨ و١٩١٢، ثم درس في كلية الأركان هناك حتى سنة ١٩١٥ ثم اشترك في الحرب البلقانية، وفي سنة ١٩١٦ انضم إلى فيصل بن الحسين في دمشق ثم في بغداد. نوري السعيد تسلم فيصل من الكولونيل لورنس الذي كانت أوروبا تسميه صانع الملوك. ولكن مغامرة انجليزية أخرى تسمى جرترود بل زعمت أنها هي التي صنعته، وكتبت مرة من بغداد إلى أحد أصدقائها في لندن تقول انها لن تشترك بعد ذلك في صنع الملوك لأن ذلك عمل شاق. وهكذا أصبحنا مضغة في فم هذه السيدة.

* * *

ومرة أخرى أقول إنني وقفت هنا هذه الوقفة الطويلة لأن هذه هي المرة الأولى التي نعرف فيها إلى درجة لا بأس بها من الدقة، مدى الأضرار التي ارتكبها بناة الدول في تاريخنا لكي يحوزوا الملك على حساب خسائر فادحة للشعب العربي. وإذا كنتَ من الذين يتألمون بسبب وجود الكتلة الإيرانية وسط الجناح الشرقي لدولة الإسلام وما ترتب على ذلك من الأضرار للأمة العربية على طول تاريخها، فاعلم أن المسؤولين عن ذلك ليسوا هم الإيرانيون بل العرب، لأن الايرانيين كانوا قد استعربوا إلى حد بعيد قرب نهاية الدولة الأموية، ولغتهم الإيرانية كانت في طريق الاختفاء، ولكن البيت العباسي عندما دبر مؤامرة الإستيلاء على الحكم من الأمويين، اختار أن يبث دعايته في عرب خراسان، وعلى رأس الدعاة وضع رجلاً فارسياً مجهول النسب مبغضاً للعرب هو أبو مسلم الخرساني، وهذا الرجل ضرب العرب بعضهم ببعض بتوجيه من إبراهيم بن علي ابن عبدالله بن عباس المعروف بابراهيم الإمام. وأبو مسلم سخر من العرب واستعان عليهم برجال من الفرس، مثل خالد بن برمك وآل سهل، وفوق المائة ألف عربي ـ كانوا نواة التعريب في إيران ـ غادروا مواقعهم في خراسان وما وراء النهر واتجهوا الى الشرق ليقيموا دولة بني العباس. وإيران خلت من هذه الكتلة العربية الضخمة، وهي خيرة التعريب فتوقفت العملية وبدأت إيران تعود

إيرانية، وأسطورة أبي مسلم والفرس الذين أقاموا الدولة العباسية رفعت معنويات الفرس، وثقة بني العباس في وزرائهم الفرس واعتمادهم على الجند الفارسي ثم تصفيتهم لمن أبقى عليه سيف أبي مسلم من العرب أعطى الدولة العباسية طابعاً فارسياً. ونواة التشيع الصغيرة تمت في إيران حتى أصبحت ورماً خبيثاً، واللغة الإيرانية انتعشت بفضل العرب والإسلام وظهر شعراء الفرس يؤججون هذه النار، واللغة الفارسية أصبحت اللغة الغالبة على الجناح الشرقي لدولة الإسلام، حتى سلاطين مغول الهند كتبوا بالفارسية. والدولة الإسلامية العربية التي كانت قوية متقدمة على ضفاف البحر المتوسط أصبحت دولة آسيوية يسودها آسيويون. وكانت مهمة الدولة الإسلامية الأولى هي إزالة الدولة البيزنطية من الوجود ليفتح الطريق أمام الإسلام إلى أوروبا والعناصر الصقلية، فتأخر ذلك إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وتم على يد الأتراك بعد فوات الأوان. فقد كانت الدولة البيزنطية قد قامت بمهمتها التاريخية الكبرى قبل أن تزول. . ونشرت الإسلام بين الروس-الصقالبة وأهل شرق أوروبا، وتحدد بذلك مصير دولة الأتراك العثمانيين قبل أن تقوم.

ولنذكر إلى جانب ذلك أن غرب الدولة الإسلامية كله ظل سنياً ثم لقد استعرب بفضل هجرات العرب وخاصة بنو هلال وبنو سليم بن منصور الذين قدموا لأمة الإسلام خدمة لا تقدر، ولولاهم لما كان لدينا ذلك المغرب العربي الزاهر السني الخالص.

وقبل أن نترك دولة شرفاء الحجاز وما تفرع منها لا بد أن نضيف أن الله عوضنا عن اخطاء الشرفاء الأول، باعتدال ميزان الدولة الهاشمية في الأردن منذ ١٩٥٢ عندما صار عرش المملكة الأردنية الهاشمية إلى الملك حسين بن طلال بن عبد الله بن الحسين. فهناك قام ملك هاشمي واسع العلم والثقافة والأفق السياسي يسوس مملكته الهاشمية بحكمة ويقودها وسط بحر متلاطم من العواصف في مواجهة مصاعب لا تتصور. وهنا نجد صورة جميلة من الهاشمية

القرشية التي وصلت الى أواخر القرن العشرين بسلام، بعد أن مرت بأزمات ومهالك ومضانك كما رأيت فيها قصصنا من تاريخ أشراف مكة. هنا شهادة صادقة بعبقرية قريش وقدرتها على مغالبة الأيام. وفي الفصل التالي عن دول الشرفاء في المغرب الأقصى سنرى مصاديق أخرى على هذه العبقرية القرشية الهاشمية.

دُوَل الشرفاء في المغرب الأقصى: السّعديّون وَالعَلوَيون:

تاريخ الشرفاء السعديين والعلويين الذين توالوا على حكم المغرب الأقصى وبعض المغرب الأوسط في بداياته أشبه بالقصة أو الأسطورة في بداياتها ولكنها اسطورة جميلة لا بأس بقبولها، ومن الأسف أن مؤرخي المغرب في نهايات القرون الوسطى ومطالع الأعصر الحديثة - في جملتهم - مداحون متزلفون يصعب جداً أن نقبل كلامهم على علاته. وقد نشر في السنوات الأخيرة نص مناهل الصفا في تاريخ الشرفا للقشتالي، فأعاننا كثيراً على تبين خيط الحوادث واستطعنا أن نصحح به الكثير مما كان يحيرنا من كلام اليفرني في نزهة الحادي، ولكن دليلنا الرئيسي هنا هو كتاب الاستقصا في معرفة دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد بن حماد الناصري السلاوى الذي يعتبر بحق من أكابر أعلام مؤرخي المغرب (٢٢ ذو الحجة ١٢٥٠ - جمادي الأول ١٣١٥ هـ/ ٢٠ أبريل ١٨٣٥ - ١٣ أكتوبر ١٨٩٧ م). خاصة وهو يعتمد فيما كتب من تاريخ الشرفاء على مصدر اسباني لا بأس به هو كتاب:

Manuel.P.Castellanos, Descripcion historia de Marruccos y breve resena de sus dinastras (Santiago 1878, Orihucla 1894, Tanger 1898)

ومانويل كاستيانو كان مندوباً اسبانياً يتردد في السفارات على بلاد المغرب، فأتقن العربية وعرف شئون المغرب الأقصى ووضع فيه هذا الكتاب الذي يقع في ثلاثة مجلدات، طبع كل منها في بلد من بلاد اسبانيا كما نرى في بيان سنوات طبع

أجزائه. والسلاوى هنا ربما كان من أوائل مؤرخينا الذين اعتمدوا في مؤلفاتهم على مراجع غير عربية.

والذي يهمنا هنا هي بدايات السعديين والعلويين وأصلهم الشريف لأننا نؤرخ لقريش لا لهاتين الدولتين الكبيرتين في جملته لأن تاريخهما حافل، ومراجع ذلك التاريخ كثيرة جداً في اللغتين الفرنسية والانجليزية، لأن المغرب العربي جغرافياً - امتداد للغرب الأوروبي وواجهته الأطلسية ثم واجهته المتوسطية جعلت تاريخه دائماً متداخلاً في تاريخ الغرب الأوروبي، وذلك في ذاته ميزة لطيفة من ميزات التاريخ المغربي عموماً.

والأسرتان السعدية والعلوية الفلالية أبناء عمومة فهما ترجعان إلى محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأصلهما من أشراف الحجاز، وكلاهما من بيت من الأشراف كان ينزل قرب ينبع.

ونسب الأسرتين طويل وواحد حتى نصل إلى محمد بن القاسم بن محمد الذي انجب أولاداً كثيرين منهم اثنان، أحمد بن محمد وقاسم بن محمد، فأما أحمد فهو جد الشرفاء السعديين، وأما قاسم بن محمد فهو جد الشرفاء العلويين. ويبدو أن البيت هاجر إلى المغرب في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) في أعقاب هجرة العرب الهلالية واستقرار بطونهم في المغرب كله بعد حروب ومغامرات وتصاريف طويلة، ومن فروع بني هلال التي استقرت في جنوبي المغرب الأقصى بنو حسان وعرب المعقل من بني هلال، وهؤلاء الأخيرون استقروا في حوض نهر درعة وأنشأوا لأنفسهم فيه وطناً، وتوافد عليهم العرب من نواحي المغرب ومن جزيرة العرب،ومن المرجح أن هجرة الأشراف تمت من ينبع الى بلاد عرب المعقل، ربما في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي وظلوا في موطن واحد لا نعرفه حتى افترقوا بعد وفاة محمد بن القاسم بن الحسن. فأما أحمد - وأولاده أجداد السعديين - فقد استقروا في بلاد السوس عند

تارودانت على وادي درعة، وأما أبناء قاسم بن محمد فقد استقروا في سجلماسة التي تعرف أيضاً ببلاد تافلالت، ولهذا يلقبون بالفلاليين.

وكانت بلاد المغرب كله قد تعرضت للغزو البرتغالي والإسباني ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي بعد سقوط غرناطة كما سنرى. واحتل البرتغاليون مراكز على السواحل المغربية الأطلسية، ومما احتلوه أغادير أو رأس غير ومن هناك هددوا مراكش، وكان الوطاسيون قد عجزوا عن الدفاع عن جنوب المغرب، فتجمعت قبائل جنوبي المغرب الأقصى تحت لواء واحد من أحفاد أحمد بن محمد بن القاسم، وهو محمد بن محمد بن عبد الرحمن الذي نهض لمدافعة البرتغاليين واستطاع هو وحلفاؤه تحرير أرض المغرب من العدوان الأوروبي، ولهذا سبقوا أبناء عمومتهم أحفاد قاسم بن محمد بن القاسم الذين استقروا في سجلماسة حتى ساءت أحوال المغرب الأقصى خلال القرن السابع عشر الميلادي وتقاسم السلطان فيه رجال زاوية بو حسون السملالي، وكانوا تنظيماً صوفياً سياسياً يسيطر على جنوبي المغرب الأقصى في بلاد السوس وتافلات وما حولها ورجال زاوية الدلاء أو الديلة، وكانوا أصحاب السلطان على منطقة وادي سبو، في حين أن بقايا الوطاسيين كانوا يحكمون منطقة مراكش.

وكان ظهور السعديين وتوليهم السلطان في المغرب في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، وقد حكموا من سنة ١٥٥٣ إلى ١٦٥٤ ميلادية ثم أعقبهم العلويون الفلاليون الذين يحكمون الغرب الى اليوم.

وقد تمتع آل البيت في المغرب كله بجاه ديني واجتماعي عظيم، وخاصة في المغرب الأقصى منذ أيام الأدارسة. وقد أتمت دولة المرابطين الصنهاجية ثم دولة الموحدين المصمودية عمل الأدارسة في القضاء على بقايا الزندقة والمذاهب المنحرفة عن السنة في المغرب الأقصى.. وفي أواخر أيام الموحدين (دامت

دولتهم من أوائل القرن السادس الهجري إلى الربع الأخير من القرن السابع الهجري (القرنان الثاني عشر والثالث عشر الميلاديان) كانت بلاد المغرب كلها قد تحولت إلى بلاد سنة وإيمان صحيح، وقد انتهت دولة الموحدين سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م. عندما دخل أبو محمد عبد الحق بن أبي خالد محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد الحريني مدينة مراكش. وجدير بالذكر أن اللَّذيْن أسسا دولة الموحدين وهما محمد بن تومرت الهرغي وعبد المؤمن بن علي الكومي ادعيا نسباً شريفاً حسنياً، ومع أن هذه النسبة ظاهرة الاختلاق، فإن نسب كليهما في المصامدة عريق ومعروف، إلا أن ذلك الانتساب في ذاته يدل على ما كان النسب الهاشمي القرشي يتمتع به من جاه عظيم في ذلك الجانب من عالم الإسلام.

وكان بنو مرين الذين خلفوا الموحدين بربراً زناتيين مستعربة وقد حكموا المغرب، وحاولوا إنقاذ ما بقي من الأندلس بالمساهمة في الجهاد في الأندلس وإرسال قوة من الغزاة وفي أيامهم ونتيجة للصراع الطويل بين صنهاجة وزناته ثم بين صنهاجة ومصمودَ، من ناحية وزناتة من ناحية أخرى، ثم مع العرب الهلالية الذين انتشروا في المغرب كله على نطاق واسع، وأنشأوا لأنفسهم فيه أوطاناً واسعة في كل ناحية من نواحي المغرب تقريباً، نتيجة لذلك كله ضعفت الروح القبلية البربرية في المغرب ضعفاً زائداً، وعجز بنو مرين عن بسط سلطانهم على المغرب الأوسط، وفي نواحي السوس استبدت قبيلة هنتانة المصمودية بالسلطان المحلي، وسيطر عرب المعقل على وادي أم الربيع في حين سيطر بنو حسان من عرب المعقل من بني هلال على وادي درعة، وتكاثروا فيه وأصبحوا قوة يحسب لها كل حساب.

وفي ذلك العصر اشتد هجوم البرتغاليين والإسبان على سواحل المغرب بعد سقوط غرناطة وتصفية الوجود السياسي الإسلامي في الأندلس سنة ٩٧٨ هـ / ١٤٩٢ م.

فأما الإسبان فقد ثبتوا أقدامهم في طنجة وسبتة ومليلة والقصر الصغير أو قصر ماسة في شمال المغرب الأقصى، أما البرتغاليون فقد تزايد خطرهم على سواحل المغرب الأطلسية وفي سنة ١٤٧١ م، استولوا على سبتة وبعد ذلك وفي نفس السنة استولوا على أصيلا والعرائش وأغاروا على القصر الكبير، وقبل ذلك بسنتين استولوا على آنفا وهي الدار البيضاء. وفي سنة ١٥١٣م استولوا على آزمور، وبعد ذلك بسنة استولوا على مازاغان، وفي سنة ١٥١٩ م استولوا على ثغر العجوز، وكانوا قد استولوا على ثغر أغادير سنة ١٥٠٥م وعلى ثغر ماسة جنوبي المغرب الأقصى سنة ١٤٩٨م. وفي كل بلد من هذه البلاد أنشأوا قلعة تسمى الفرونتيرة fronteiras وضعوا فيها حامية وانشأوا سوقاً، ومن ثغر أغادير أخذوا يتوغلون في الداخل حتى وصلت طلائعهم حوز مدينة مراكش.

وقد عجز المرينيون عن مدافعة أولئك الغزاة النصارى، وكان العصب القبلي قد ضعف في المغرب نتيجة للصراعات التي ذكرناها، واحتاج أهل المغرب إلى روح معنوي جديد يرفع من قواهم، وإلى لواء يجتمعون حوله ليدفعوا عن بلادهم هذا الخطر المتزايد.

فأما القوة المعنوية فقد وجدوها في الطرق الصوفية وخاصة الشاذلية والقادرية وما تفرع منها مثل التيجانية والجزولية، قد لقيت قبولاً عظيماً من الناس، فتجمع أهل المغربين الأوسط والأقصى تحت لواء مشيخات الطرق الصوفية التي حلت محل العصبيات القبلية، وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي انتشرت الزوايا الصوفية في كل بلاد المغربين الأوسط والأقصى، وقام على رأس كل زاوية مقدم يتبعه عدد من الإخوان، وكانوا في نفس الوقت طلاباً وجنداً. وشعر سلاطين بني مرين في أواخر أيامهم بالخوف من الصوفية فدبروا مقتل الشيخ الجزولي، فقتل ودفن في شيشاوة بالمغرب الأقصى، فأثار هذا الحادث شعور الصوفية بالعداء نحو المرينيين ومن ناحية أخرى تزايد الخطر البرتغالي وتبين أن بني مرين من الوطاسيين عاجزون عن حماية دار الإسلام.

في ذلك الحين كانت أسرة الأشراف الحسنيين التي انحدرت عن أحمد بن قاسم التي ذكرناها قد استقرت في بلاد السوس وبدأت تجمع الأنصار، وهذه هي أسرة الشرفاء السعديين الذين ينسبهم القشتالي مؤرخ البيت السعدي إلى رجل من شرفاء الحجاز يسمى محمد بن سعد، في حين يذهب خصومهم إلى القول بأنهم يسمون السعديين نسبة الى بني سعد بن بكر، لأنهم فيما قيل من أحفاد حليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ، ولكننا نرجح أنهم شرفاء من ناحية ينبع كما قلنا، وقد استقروا في السوس وقضوا زماناً طويلاً قبل أن يظهر أمرهم. وقد ذكرنا نسبهم فيما سلف ولا معنى لإنكار أصلهم الهاشمي الحسني.

وكان عجز المرينيين قد تجلى للناس وسيطر عليهم بنو وطاس وخاصة يحيى بن أبي زكريا الوطاسي. وفي مايو ١٤٦٥ قتل آخر سلاطين المرينيين وتولى الأمر أول الوطاسيين وهو محمد الشيخ، ولكن سلطانه لم يتعد موقع فاس.

ولكن الوطاسيين أثبتوا أنهم ليسوا خيراً من المرينيين، فقد تقدم البرتغاليون بجيش من ٣٠،٠٠٠ مقاتل جاؤوا على ظهر ٤٧٧ سفينة واحتلوا أصيلا في مايو ١٤٧١ م، وعقد معهم محمد الشيخ صلحاً، وفي ٢٩ أغسطس ١٤٧١، احتل البرتغاليون طنجة وأنشأوا في أصيلا وطنجة القلاع المسماة فروتنيرات، وأنشأوا في دواخل البلاد وكالات Feitories يقيم في كل منها وكيل feitar على رأس حامية، وكانت الوكالة تغير على الأراضي المجاورة وتأسر الناس وتنهب أموالهم وترغمهم على بيع القمح والجلود والأصواف بأبخس الأسعار. وكانت الغارات البرتغالية تتوغل في الداخل إلى عمق ٣٠ كيلومتراً، ولم يلبث إقليم دكالة كله أن أصبح خاضعاً لهم، وضوى إليهم بعض ضعاف الزراع والرعاة فوضعوهم تحت حمايتهم واستخدموهم وسموهم العرب المسالمة mo-ros de la paz وكان البرتغاليون يستخدمون أسرى المسلمين في بناء القلاع وحمل البضائع.

هذه المهانة الكبرى للإسلام وأهله أثارت عواطف الناس وزادتهم يأساً من المرينيين والوطاسيين وجعلتهم يتجهون بآمالهم نحو الصوفية وشيوخهم.

وفي السنة التي قتل فيها آخر المرينيين وهي ١٤٦٥م. حدث شيء يشبه الارهاص باتجاه الحكم في المغرب الأقصى إلى الشرفاء. ذلك أن الناس اكتشفوا في وليلى مدفن المولى ادريس وهو ادريس الأول، مؤسس بيت الأدارسة فأبقوه مكانه وأقاموا عليه ضريحاً، واستيقظت في البلاد كلها دعوى الشرفاء وتفاءلوا بهم خيراً في الظروف العصيبة التي كانت البلاد تمر بها. ولكن أمير بني وطاس تمكن من إقتحام فاس على الإمام الإدريسي.

في ذلك الحين كان محمد بن سعد الملقب بالقائم بأمر الله أو بالمهدي قد كسب ثقة واحد من أكبر مشايخ الصوفية في السوس وهو سيدي عبد الله المبارك، فنادى به قائداً لحركة الجهاد في منطقة السوس، وتجمع الناس حوله فأنشأ قوة عسكرية كبيرة وسار إلى الشمال فترك إقليم حاحة وتجمع حوله أهله من العرب والبربر، فوضع لهم نظاماً قبل أن يتوفى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦م. في بلدة أفغول. كانت دولة الشرفاء السعديين قد تأسست، وخلفه ابناه أحمد الأعرج ومحمد الملقب أيضاً بالمهدي، واتخذامركز أعمالها في تارودانت عاصمة السوس وأعلنا الجهاد على البرتغاليين الذين كانوا يسيطرون على ميناء آنفا وهي الدار البيضاء وما يجاورها جنوباً من بلاد الساحل، وتزايدت جموعهما، فخالفهما صاحب مراكش، ولم يلبث هذا الأمير أن قتل فقام رجال السعديين بإعلان أحمد الأعرج سلطاناً على مراكش وإقليمها، وهكذا قامت دولة جديدة قرشية هاشمية هي دولة الشرفاء السعديين في بلد له تاريخ قديم في الولاء لآل البيت منذ أيام الأدارسة، وقد قامت الدولة الجديدة على العصب الديني وعلى حاجة الناس الماسة إلى زعيم سياسي ديني يستطيع قيادتهم في تحرير بلادهم من الإحتلال البرتغالي الصليبي. وجدير بالذكر هنا أن البرتغاليين والإسبان كانوا

قد تشجعوا على غزو بلاد المغرب بتـأييد وتحـريض من البابـا، الذي أبـاح لهم حرب أهل المغرب والإستيلاء عـلى بلادهم وتحـويلها إلى بـلاد نصرانيـة ليتموا بذلك ما بدأوه في الأندلس.

وبدأ السعديون في مقاومـة البرتغـاليين وقـائدهم نـونيو مـاسكارينيـاس Nunho Mascarenhas وقد حاول بقايا الوطاسيين منافسة السعديـين ولكن سلطانهم الأخير محمد الملقب بالبرتقالي، قتل سنة ١٥٢٥ م فانتهت بذلك الدولة الوطاسية وخلا الميدان للسعديين.

وقد تعرضت دولة السعديين أول قيامها لمتاعب جمة، فخاضت صـراعاً طويلاً مـع بقايـا الوطـاسيين، ثـم تعـرضت لصراع داخـلي بين الأخـوين أحمد الأعرج ومحمد المهدي، وقد انتصر أحمد الأعرج وتوفي سنة ١٥٥٧ وخلفـه ابنه مولاي عبد الله الغالب بالله (١٥٥٧ ـ ١٥٧٤) الذي حكم المغرب الأقصى كله رغم مـطامع البـرتغاليـين من ناحيـة والأتراك العثمـانيـين أصحـاب تلمسـان والمغـرب الأوسط من نـاحيـة أخـرى، وقـد جعـل عبـد الله الغـالب مـراكش عاصمته، وبذلك عادت قاعدة القطر المغربي إلى مراكش بعد غيبة ثلاثة قرون.

ولكن أخـاه عبد الملك الـذي خلفه هـو الـذي كسب لأسـرة الشـرفـاء السعديين أكبر نصر خلد ذكرها في صفحات التـاريخ، هـو نصر وادي المخازن الذي كسبه أبو مروان عبد الملك بن محمد المهدي بن عبد الله بن سعـد، وكان أميراً مغامراً، هاجر إلى الترك طالباً نصرتهم على أخيه عبد الله، في حين هاجـر أخوه الثاني محمد المتوكل إلى الاسبان ثم البرتغاليين طالباً عونهم للحصـول على العرش، وهكذا نرى كيف أن الملك والوصول إليه كانا دائماً الداء الأكبر الذي آذى دول المسلمين.

وقـد تمكن محمد المتـوكل من إقنـاع الملك سباستيـان ملك البرتغـال من

أسـرة آفيس بإرسـال جيش معه لانتـزاع العرش من يـد أخيه أبي مـروان عبـد الملك، فأعد هذا الملك جيشاً نصرانياً فيه سبعة آلاف مقاتل برتغالي وألفان من الإسبان وعدد من فـرسان الإنجليـز والإيطاليـين، ونزل ذلـك الجيش في ميناء القصر الكبير، وتقدم للقائه عبد الملك السعدي مـع قوات من الأتـراك وجيش قوي من العبيد وهم القـوة العسكريـة التي أنشأهـا السلطان السعدي الغـالب بالله واعتمد عليها، لأن قوات المرابطين والصـوفية تخلت عنـه بسبب تحالفـه المستمر مع الاسبـان. وفي ١٥٧٨م دارت معركـة حاسمـة من معارك تـاريخ الإسلام في واد قريب من نهر لوكوس يسمى وادي المخازن، اشترك فيهـا سان سباستيان ملك البرتغال ومحمد المهدي المطالب بعرش المغرب والملك أبو مروان عبد الملك السعدي قائد جيوش المسلمين، فأما ملك البرتغال فقد قتل، وأما محمد المهدي فقد غرق، وأما عبد الملك الذي كسب نصر معركة وادي المخازن فقد كان على فراش الموت ولم يمهله القدر حتى يسمع أنباء النصر الذي كسبه. وكانت تلك المعركة التي تسمى عند المسلمـين بمعركـة وادي المخازن، وعنـد البرتغاليين باسم معركة الملوك الثلاثة، نهاية لكل مطامع البرتغاليين في أرض المغرب والمسلمين. وبذلك كانت نجاة ذلك القطر الإسلامي العظيم من شر الاحتلال النصراني في الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادي على يـد سلطان قرشي هاشمي، في حين أن نجاة المغرب الأوسط (وهو جمهورية الجزائر الحالية) من شر الاحتلال الاسباني في نفس العصر، قد تمت على أيدي الأتراك العثمانيين. وجنى ثمار النصر أحمد بن عبد الملك الذي لقب بالمنصور الذهبي (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣م.) وهو أبعد ملوك هذه الأسرة صيتاً وأشهرهم. وقد حصل من هذه المعركة على غنائم كبيرة ووقع في يده أسـرى كثيرون فـداهم أهلهم البرتغاليون بذهب كثير، ثم حاول أحمـد المنصور الـذهبي غزو مملكـة صنغَى المـدارية الإسـلامية وكسب من ذلـك ذهبـاً كثيـراً أيضـاً ـ ومن هنـا فقـد سمي بالذهبي ـ ولكن المحاولة نفسها كانت سيئة النتائج للمغرب ولإفريقيـة المدارية الإسلامية.

وقد ارتفع صيت السعديين في أوروبا عقب هذا النصر ولم تعد دول الغرب تفكر في غزو المغرب، وأرسلت السفراء إلى مراكش والقناصل لموانيء الغرب، واشتهر أحمد المنصور بالغنى وكثرة الذهب فلقب كذلك بالذهبي.

وقد بلغت دولة السعديين أوجها في عصر أحمد المنصور الذهبي (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣م) الذي يعتبر من أعاظم ملوك المغرب، وكان سلطاناً طموحاً فيه لمحات من العبقرية تذكرنا بالعظماء من ملوك قريش أمثال معاوية ابن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك وعبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر وأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد وأبي عبد الله المأمون والمعز لدين الله الفاطمي، فكان واسع الطموح متجدد النشاط ميالاً إلى الفخامة والولع بمظاهر العظمة الملوكية، وقد كان يبهر سفراء الغرب الأوروبي بما يبدي من مظاهر بذخه وجلال عرشه واستقبالاته، ولكنه يخيب رجاءنا في نفس الوقت بسياسة العنف التي اتبعها مع أهل بلده، وسوء رأيه في بعضهم واتجاهه إلى استغلاب أهل الوديان ومن يستطيع التغلب عليهم من أهل ما سماه بلد المخزن، أي البلاد التابعة للحكومة واعتباره بقية بلاد المغرب من الجبال العالية وأهلها أهل خروج عن الطاعة، وتسميته بلادهم ببلاد السيبة وإعلانه الحرب عليها، ويحيرنا في أمره كذلك هذا الأسلوب العنيف القصير النظر الذي اتبعه في غزو بلاد السودان وهي مملكة صُنْغَى.

عاش احمد المنصور الذهبي في القرن السادس عشر ولكنه حكم بلاده بأسوأ مما حكمها به أعراب زناته وبني يفرن، فقد اكترى جيشاً رهيباً من المرتزقة واشترى ألوف العبيد وصنع منهم قوة إرهاب لا قوة حكم، وتصرف في أموال بلاده ـ وهي أموال الأمة ـ تصرف السفيه وخرب مملكة إسلامية لا ذنب لها وهي مملكة صُنْغَى لكي يحصل على تبر الذهب، وحصل عليه ثم أنفقه في شر الوجود، وأرهب رعيته وسامها الخسف، ورعيته هي شعب المغرب الأقصى وهم من أعز

خلق الله حمية وعزة وكرامة، وجبى الأموال في غير رحمة حتى أصبحت تسمى بالنوائب والضريبة أصبحت تسمى نائبة، وهذه كلها حقائق ينبغي أن أنبه إليها وأنا أعلم أن بعض المثقفين من أهل المغرب الأقصى لا يحبون هذا الكلام لأنهم لا زالوا يجهلون أن الحقائق وحدها هي التي تنفع، ومع ذلك فأنا هنا أؤرخ لقريش لا للمغرب، فأنا أكشف حقائق الحكم في عصر ملك قرشي أتيحت له فرصة من ذهب فأحالها إلى تراب، وبهر الدنيا بمنظره وذهبه وأتعس أمته بظلمه وغروره وسوء فهمه لطبيعة الإسلام ومذاهبه في الحياة وأمور الناس.

على أي حال يمكن القول.إن ظروفه كانت عسيرة، ولم يحاول من جانبه أن يفهم طبيعة العالم الغربي الذي واجهه وحالف بعض بلاده وحارب بلاده الأخرى. ولو تنبه أحمد المنصور الذهبي إلى ركائز قوة الغرب من علوم وأسلحة وبحريات وسياسات دولية ووضع نظام بلاده على هذا الأساس، فربما كان طليعة ملوك الإسلام في مواجهة الغرب الأوروبي بأساليبه، وفي هذه الحالة كان المغرب يكون في طليعة بلاد الإسلام في مواجهة الغرب والأخذ بأسباب القوة الحديثة، فقد حكم المنصور في عنفوان عصر النهضة الأوروبية، وإسبانيا في أيامه لم يكن لها من القوة ما تواجه به المغرب، وفرنسا كانت غارقة في الحروب الدينية. وانجلترا كانت مستعدة لمحالفته وتبادل المنافع معه للاستعانة به على عدوتها فرنسا. أي انه لو تدبر أمره بعقل وحكمة لكان من أكابر رجالات الدنيا في أيامه.

ولكن هكذا كان، وضاعت الفرصة. وما أكثر الفرص التي ضيعها العرب والمسلمون في تاريخهم. ولم يكد أحمد المنصور الذهبي يتوفى سنة ١٦٠٣ م. حتى قامت الحرب بين أبنائه الثلاثة: مولاي زيدان الذي أعلن نفسه سلطاناً في فاس، وأبي فارس الذي أعلن نفسه في مراكش والشيخ المأمون وهو في الأصل كان ولي العهد ولكنه أحرج صدر أبيه بنزواته وثوراته فسجنه.

وقد استمرت الحرب بين الاخوة سبع سنوات، حتى خلص الأمر لمولاي زيدان في مراكش وحدها وحكم من ١٦١٣ إلى ١٦٢٨ حكماً مضطرباً قلقاً حافلاً بالثورات والمآسي. ولقد استولى الاسبان على العرائش سنة ١٦١٠م، وأقاموا قلعة عند مصب نهر سبو لكي يمنعوا سفن المغرب من الخروج إلى عرض البحر للتعرض لسفن أهل الغرب وقد سمى الاسبان هذه القلعة باسم سان ميجيل دى أولترامار San Miguel de Ultramar وسماها أهل المغرب بالمعمورة، وهي اليوم المهدية. وعلى أثر ذلك هبت الجماعات الصوفية في كل مكان في المغرب منادية بطرد المعتدين النصارى، وبان لها كلها عجز البيت السعدي عن حماية البلاد، وانتقلت القيادة إلى الجماعات الصوفية.

ففي إقليم تافللت وعاصمته سجلماسة في جنوب البلاد ظهر شيخ صوفي يسمى باحلى تبعه صوفيون محاربون كثيرون، واتخذ مركزه في وادي سَوْرَة حوالى ١٦٩٣ وسار نحو سجلماسة واستولى عليها وعجز مولاي السلطان زيدان عن التصدي له، وتقدم فعبر الجبال بجموعه ودخل مراكش ووجد مولاي زيدان نفسه عاجزاً عن الثبات أمامه، فاستعان عليه بزعيم صوفي آخر يسمى يحيى بن عبد الله الحاص وتمكن هذا الأخير من إقتحام مراكش وقتل المحلي، وظل الحاص في مراكش حتى قام عليه سنة ١٦٢٧ شيخ صوفي أكبر وأقوى وأشهر وهو أبو الحسن السملالي المعروف بأبي حسون وأصله من ماسة. وقد أنشأ هذا الرجل في بلاد السوس إمارة صوفية ومد سلطانه على جنوب الأطلسي وظل سيداً لنواحي جنوبي المغرب حتى قيام دولة الشرفاء العلويين.

أما في شمال المغرب فقد سادت الفوضى إذ تنازعت السلطان فيه ثلاث قوى: الأولى هي بقايا قوة السعديين في فاس وسلطانهم عبد الملك بن زيدان السعدي، والثانية جماعة مهاجري الأندلس الذين نزلوا مصب نهر أبي الرقراق وأنشأوا في حوضه دويلة قاعدتها رباط الفتح. وهؤلاء المهاجرون كانوا من بين

مسلمي الأندلس الذين طردهم ملك اسبانيا فيليب الثالث بين سنتي ١٦٠٩ م و١٦١٤م، وكان أصل هذه الجماعة التي نزلت عند رباط الفتح ببلدة تسمى في النصوص الاسبانية بأندلس سلا والى جوارهم كانت جماعة من غزاة الأسبان أصلهم من بلدة تسمى اورانشو Hornacho في اقليم الجوف الأندلسي المعروف باسم استرامادورا Estramadura أي الناحية بالغة الجفاف، ولذلك عرفوا باسم الأرناشيروس ويسمون في النصوص باسم نصارى الجديك، وقد رحب بهم مولاي زيدان وابنه عبد الملك من بعده، حاسبين أنهما يجدان فيهم جندا يستعينان بهم في حروبهما، ولكن أولئك الموريسكيين لم يكن لهم هم الا محاربة نصارى الجديك. وعندما ألح عليهم مولاي زيدان في ضرورة معاونته عسكرياً تمردوا عليه ووقعت الحرب بينه وبينهم، وظهر من بين الصوفية زعيم قوي هو أبو عبد الله العياش، تجمع اليه المجاهدون وساد فاس وسيطر عليها وتجرد هذا الرجل لحرب النصارى، وتمكن من الاستيلاء على بعض قواعد الاسبان حتى قتل في حربه للموريسكيين النازلين بسلا المعروفين بأندلس سلا. وكان هؤلاء قد استجاشوا بنفر آخر من الصوفية يسمون أهل زاوية الدلاء نسبة الى موقع زاويتهم الأساسية «دلاء» في اقليم تادلا شرقي فاس. واقليم تادلا جبلي سكانه من البربر، ولهذا يسمى أهل زاوية الدلاء ببربر الدلاء.

وبعد موت العياشي في المحرم سنة ١٠٥١ هـ، أصبح السلطان في فاس وتادلا وحوض نهر سبو لأهل زاوية الدلاء، ومؤسس زاويتهم هو الشيخ أبو بكر بن محمد المعروف بحيي بن سعيد بن أحمد بن عمر بن يسرى المجاض، ثم خلفه ابنه وكان من كبار أهل الطريق، وقد شهد له بالكرامات أعلام الصوفية في عصره مثل الحافظ أبي العباس المقري والحافظ أبي العباس بن يوسف الفاسي والامام أبي محمد بن عباس والفقيه العلامة أبي عبدالله محمد مياره. وقد عظم أمر أهل زاوية الدلاء وعجز عن محاربتهم السلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدي حتى زال سلطانه تقريباً أمامهم.

ظهور الشرفاء العلويين :

وبينما كان أمر السعديين في هبوط وزوال بدأ صعود نجم جماعة جديدة من الأشراف العلويين الحسنيين، هم الأشراف العلويون وأصلهم من أشراف الحجاز ومن مدينة ينبع كذلك. وقد ذكرنا أنهم أبناء عمومة السعديين، ومن الممكن أن يكون أجدادهم قد وفدوا الى المغرب الأقصى في نفس الوقت الذي وفد فيه السعديون في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وربما في القرن الذي تلاه، ونزلوا ناحية تافلالت خلال القرن الثاني عشر أو الثالث عشر الميلادي، وظلوا يعيشون وسط قبائل العرب والمغاربة هناك غير ناظرين الى ملك أو رياسة، حتى دفعتهم ظروف تدهور السعديين الى ذلك دفعاً. وكانوا طوال تاريخهم في نواحي تافلالت يتمتعون بمكانة مرموقة، فكانوا شرفاء يحترمهم الناس لنسبهم الشريف، وكانوا أهل دين وعلم وعقل وحكمة، فلا عجب ان كانوا رؤساء أهل سجلماسة وتافلالت علماً ومكانة وشرفاً.

وأول من يذكر من كبار رؤسائهم في النصوص المولى محمد بن الشريف السجلماسي. وقد قضوا زماناً طويلاً في مهدهم الجديد في تافلالت حتى كسبوا صيتاً بعيداً واشتهروا بالدين والشهامة والعلم وأصبحت لهم رياسة على اقليم تافلالت وتجمعت حولهم قوة عسكرية، ودارت مكاتبات بين شيخهم محمد بن الشريف السجلماسي والسلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدي، وتمت بينه وبين شيوخ العلويين السجلماسيين مهادنة، فالسعديون في مراكش وما حولها الى الساحل والفلاليون في تافلالت ونواحيها، أما حوض نهر سبو أي منطقة فارس وما يليها غرباً وشمالاً فكانت أولا تحت سلطان أهل زاوية أبي عبد الله العياشي ثم صارت الى أهل زاوية الدلاء، أما السواحل فكان معظمها بيد الاسبان في حين أن مناطق الجبال كلها تقريباً كانت بلاد سبية، أي بلاد تنفرد بها قبائلها دون طاعة لسلطان.

ومعنى ذلك أن بلاد المغرب فقدت وحدتها السياسية واحتاج الأمر الى من

يجمع شملها، وقد ضعفت دولة السعديين ضعفاً زائداً أيام السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان. وقد قتله أخواله من عرب الشبانات من عرب المعقل، وعلى اثر ذلك استولى على السلطان في مراكش الرئيس عبد الكريم بن القائد أبي بكر الشباني ثم الحريزي رئيس عرب الشبانات المعروف بَكَرّوم الحاج، لفترة قصيرة ثم عاد السلطان في مراكش بعدها الى السعديين.

وفي أثناء ذلك توفي المولى محمد بن الشريف العلوي الفلالي وخلفه ابنه محمد بن محمد، وكان أهل زاوية الدلاء يبسطون سلطانهم على جزء من سجلماسة، فجمع مولاي محمد بن محمد الشريف العلوي رجاله وأزاح رجال زاوية الدلاء عن سجلماسة سنة ١٦٣٨، ولم يستطع الامتداد شمالاً أو غرباً فاتجه برجاله شمالاً بشرق واستولى على وجدة وأخذ يغاور ناحية تلمسان ومن هناك حاول الاستيلاء على فاس، وكان أهلها قد ضاقوا بأهل زاوية الدلاء، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على الدلائيين سنة ١٦٤٩ واضطروا إلى العودة إلى تافلالت.

ولكن ابنه مولاي الرشيد كان أحسن حظاً، فقد تجرد لحرب أهل زاوية الدلاء وتمكن في يونيو ١٦٦٦م من دخول فاس حيث أعلن نفسه سلطاناً، وبهذا قامت الدولة العلوية الشريفة معتمدة على قوة عسكرية منظمة، وقد انضم الشرفاء الأدارسة إليه، وتمكن من تخليص منطقة فاس من أهل زاوية الدلاء. وفي سنة ١٦٦٨م تمكن من الاستيلاء على زاويتهم الرئيسية وتدميرها، ثم دخل مراكش في السنة التالية ١٦٦٩م، وقضى على قوة عرب الشبانات وأنهى دولة السعديين وتغلب كذلك على أهل زاوية السوس أتباع أبي الحسن السملالي، وبذلك يكون السلطان الرشيد أول العلويين الفلاليين قد تمكن من إعادة توحيد الوطن المغربي فيما عدا منطقة الريف وما يليها شمالاً. وفي هذه الفترة وأثناء صراع طويل بين الفرنسيين والانجليز تمكن الانجليز من الاستيلاء على صخرة جبل طارق سنة ١٦٦١م، بعد زواج ملكهم شارل الثاني من

الأميرة كاتارينا وريثة عرش البرتغال، فصارت له صخرة جبل طارق ووراثة وبهذا يبدأ احتلال الانجليز لها. وقد طال الصراع بين الرشيد والشيخ أعراس رئيس قبائل الريف وشمال المغرب الأقصى، وتحالف الشيخ أعراس مع الفرنسيين ليستعين بهم على الشريف الرشيد وأعطاهم مركزاً تجارياً في المزمة وهي الحسيمة وتسمى عند الفرنسيين باسم اليوزيم، وتمكن السلطان رشيد من بسط سلطانه على الشمال وتوحيد المغرب الأقصى. وكان مقام السلطان رشيد مراكش وفيها مات على اثر سقوطه من على جواده سنة ١٦٧٢م، وكانت سنه لا تجاوز الثانية والأربعين ولكنه تمكن من إقامة دولة الشرفاء العلويين الفلاليين الذين لا يزالون يحكمون المغرب إلى اليوم.

وقد قام أخوه وخليفته مولاي اسماعيل بتثبيت دعائم هذا الملك. وحكم مولاي اسماعيل طويلاً من سنة ١٦٧٢م إلى ١٧٢٧م، واشتهر أمره سلطاناً قوياً نشيطاً جليل الهيئة، وقد طار صيت مولاي الشريف العلوي في أوروبا وفرنسا خاصة حتى قيل إنه كان على وشك أن يتزوج إحدى بنات ملك فرنسا. وقد أصبح السلطان إسماعيل أسطورة عند الغربيين، فقد كان رجلاً ضخماً طوالاً عريض المنكبين تزيده ملابسه ضخامة هيئة ومنظر، وكان سريعاً إلى الغضب والحركة، ويقال إنه كان يقتني ٥٠٠ امرأة من بينهن انجليزية وفرنسية، أنجب منهن فيما يقال ٧٠٠ ولد. لكنه على أي حال حمى حوزة بلاده وأنشأ قوة عسكرية عظيمة، واستعاد من الإسبان كل المواقع التي كانوا يحتلونها على الساحل الغربي المغربي وخلص المغرب من الفوضى وقضى على سلطان أصحاب الزوايا. وقد اعتمد مولاي اسماعيل على قوة مدربة من العبيد، السود كان يستجلبهم من السودان الغربي ويحسن تدريبهم في مركز كبير في مشرع الرمل بين سلا ومكناس. وكان الواحد منهم إذا أتم تدريبه أقسم على البخاري بالإخلاص ولهذا فقد سموا البخاريين أو البواخر. وكان له منهم ١٥٠,٠٠٠ رجل، منهم ٧٥,٠٠٠ يقيمون بصفة دائمة في مشرع الرمل

و٢٥ ألفاً في مكناس، وكانت المقام المفضل لمولاي اسماعيل، ويعتبر مولاي الشريف اسماعيل من أجلاء ملوك المسلمين، وهو يقف على مستوى واحد مع أعاظم حكام المسلمين خلال العصر الأخير من عصور القوة الاسلامية أي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، من أمثال السلطان أكبر واسماعيل الصفوي ومحمد الفاتح وسليم الأول وسليمان القانوني، وقد واجه كل المصاعب التي أحاطت بالمملكة المغربية ببسالة وثبات وتصميم وتمكن من اخراج الإنجليز من طنجة واستعادة الشاطىء الأطلسي للمغرب، وواجه الأتراك العثمانيين سادة الجزائر في عصره وحمى حوزته، وان صعبت عليه استعادة سبتة ومليلة والحسيمة من الإسبان (على ساحل البحر المتوسط) ومازغان من البرتغاليين على شاطىء الأطلسي، هذا الى جانب توحيده الكامل لبلاده والقضاء على استقلال بلاد السيبة ووضع حداً لإفساد أهل الحرابة الذين كانوا يقطعون الطرق ويقلقون الأمن ويروعون الناس ويؤذونهم، وقد قضى عمره متنقلاً بجيوشه من غرب بلاده الى شرقها ومن شمالها الى جنوبها. ونثر فيها الحصون والقلاع وشكها بالمقاتلة، فأمنت السبل واطمأن الناس ونعمت البلاد بالرخاء.

ولكن مولاي اسماعيل كان بالغ الغاية في الاستبداد، فهو لا يستشير ولا يشار عليه، والشيء يخطر بباله فينفذه في الحال، ويغضب فيجهل على الناس وقد يقطع الرقاب، وهذه صفة نجدها ـ على درجات متفاوتة من الظهور ـ عند الكثيرين من أكابر ملوك القرشيين والمسلمين من أمثال أبي جعفر المنصور وعبد الرحمن الناصر الأندلسي وظهير الدين بابر وجلال الدين أكبر والسلطان سليم الأول العثماني والظاهر ركن الدين بيبرس، ويبدو أن كثرة المشاغل والأخطار وتوالي الأعداء تنزع من قلوبهم الرحمة والصبر وطول البال والاحساس بآلام الناس، وأخبار مولاي اسماعيل في ذلك كثيرة. وقد لاحظ عليه هذه الظاهرة الكثيرون من سفراء الفرنسيين الذين زاروه، ولكنه على أي حال حمى حوزة بلاده ووحد دولته ورفع هيبة السلاطين في المغرب بعد طول ضعف وتدهور

واستخفاف، والدول في تلك العصور ربما كانت تحتاج الى مثل هذه الصفات.

وهذا الملك القرشي الهاشمي الهمام كان معاصراً للويس الرابع عشر، فقد حكم من سنة ١٦٧٢ الى ١٧٢٧م. وحكم لويس الرابع عشر من سنة ١٦٣٨ الى ١٧١٥م، وتشابه الرجلان في الاستبداد والاعتزاز بالملك واتساع النشاط، ولكن مولاي اسماعيل يَفْضِلُ لويس الرابع عشر في كثير، فان كل حروب مولاي اسماعيل كانت دفاعاً عن بلاده وحوزتها ووحدتها، بينما كانت كل حروب لويس الرابع عشر حروب غرور وعدوان وخيلاء، وقد خسرت فرنسا والفرنسيون من جراء ذلك خسائر فادحة، ومهما نقول في اعتزاز مولاي اسماعيل بنفسه وملكه وسلطانه فقد سلم من ذلك الغرور المقيت الذي ينفر الانسان من لويس الرابع عشر، وبينما كان لويس الرابع عشر جامداً كالصخرة، كانت في مولاي اسماعيل رقة تبدو عليه اذا هادنته الأيام وصفت نفسه، وقد أنشأ الكثير من المساجد والمدارس، ومرجع ذلك كله الى الاسلام والهاشمية. وكما بدأ لويس الرابع عشر في انشاء قصور فرساي كان مولاي اسماعيل صاحب الفضل في تعمير مكناس وانشاء عمائرها البديعة وأسوارها السامقة وبواباتها التي تعتبر من مفاخر العمارة الاسلامية، ولا زالت مكناس الى يومنا هذا بموقعها ورياضها وحدائق زيتونها (مكناس الزيتون) تبهر أعيننا وتذكرنا بمولاي اسماعيل. وهذه هي ثاني مدينة عظيمة يعمرها القرشيون الهاشميون في المغرب الأقصى: الأولى فاس الأدارسة والثانية مكناس العلويين، وكلتاهما من مفاخر حضارة الاسلام.

والى هذا الأساس المكين الذي وضعه مولاي اسماعيل لدولة الشرفاء العلويين، يرجع الفضل في بقاء هذه الدولة القرشية الهاشمية الى يومنا هذا واحدة من أعاظم دول الاسلام، وثانية الدول الهاشمية التي لا زالت تمثل قريشا في عالمنا الراهن. ولقد طال عمر هذه الدولة ـ ويطول ان شاء الله ـ وتعاقبت عليها صروف الدهر وتقلبت عليها السنون بين سعود ونحوس، ويكفيها أنها صمدت لمحنة الإحتلال الفرنسي وأخرجت منه القطر المغربي سالماً على يد ملك

قرشي هاشمي وبطل من أبطال التحرير العربي الإسلامي هو مولاي محمد بن يوسف المعروف في حوليات الإسلام المعاصر بمجمد الخامس. وفي سبيل حرية بلاده نفي إلى مدغشقر ثم عاد منتصراً لكي يجمع شتات شعبه ويستكمل استقلال بلاده ويفتح في تاريخه عصراً جديداً زاهراً من التقدم والازدهار، ويخلفه في القيادة ابنه الحسن بن محمد بن يوسف وهو الحسن الثاني. وهو رمز من رموز وحدة شعبه وعلم من أعلام التقدم والنهوض في عالم العرب.

وعلى ذكر هؤلاء الملوك الثلاثة القرشيين الهاشميين: الحسين بن طلال ملك الأردن ومحمد بن يوسف وابنه الحسن الثاني بن محمد ملكي المغرب نقف بهذا البحث عن قريش في التاريخ، بدأناها وقريش قبيل صغير منحدر من فلسطين في ثنايا قبيلتها الأم كنانة من قبيل الياس بن مضر قبل البعثة المحمدية ربما بسبعة قرون أو ثمانية، فقد دخلت مضر كلها الجزيرة فيمن دخلها مع أولاد إسماعيل عليه السلام في موجة العرب المستعربة، وتتبعنا تاريخها منذ ظهورها على مسرح الأحداث من أيام فهر بن مالك بن النضر بن كنانة الى عصرنا هذا خلال ما يزيد على ستة عشر قرناً، ورأينا كيف استطاعت هذه القبيلة أن تغالب الأحداث: تعلو حيناً وتهبط حيناً آخر، تطفو على سطح الماء حيناً وتغوص حيناً، ولكنها لا تغرق قط بفضل الحيوية النابضة في كيانها وقدرتها على مغالبة الفناء، ونبهنا في كل حين إلى أسباب الصعود وأسباب الهبوط، وانتهينا الى أيامنا هذه حتى وقفنا عند الدولتين الكبيرتين الباقيتين لقريش: دولة الهواشم الحسنيين في الأردن، ودولة الشرفاء العلويين في المغرب الأقصى، ووقفنا عند محمد الخامس والحسين بن طلال والحسن بن محمد، وهم من عترة رسول اللّه محمد بن عبداللّه ابن عبد المطلب رسول اللّه ورحمته المهداة، وعند ذكر أولئك الثلاثة من ملوك عصرنا نقف بهذا الحديث الذي طال، قصصنا فيه قصة ـ قريش ـ أصغر قبيلة في التاريخ، التي جعلها الاسلام ورسوله ﷺ أعظم قبائل التاريخ، هنا نقف بالحديث عند ذكر المصطفى صلوات اللّه عليه وحفيديه الحسن والحسين، وهو

أجمل ما نقف عنده فقد كتب اللّه لقريش البقاء على الأيام بفضل محمد صلوات اللّه عليه والحسن والحسين، وهل هناك ختام مسك هو أجمل من ذكر المصطفى صلوات اللّه عليه وسبطيه الشهيدين ريحانتي أهل الجنة؟

تم التاريخ
والحمدلله سبحانه
بعد ظهر الثلاثاء
الخامس والعشرين من
ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ
الثامن عشر من ديسمبر ١٩٨٥م.

مصادر الكتاب

أولاً : مصادر عربية :

- **ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨ هـ) :**

أ) اعتاب الكتاب، بتحقيق صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦١ م.

ب) الحلة السيراء، بتحقيق د. حسين مؤنس.

- **الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن حمد بن أبي الفتح (ت ٨٥٠ هـ) :**

المستطرف في كل فن مستظرف ـ جزءان، المطبعة التجارية الكبرى (بدون تاريخ طبع).

- **ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الجزري (ت ٦٣٠ هـ) :**

أ) أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ٧ مجلدات، كتاب الشعب ـ القاهرة ١٩٧٠ م.

ب) الكامل في التاريخ ـ ٩ أجزاء، المكتبة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ.

- **الإدريسي، أبو عبدالله محمد اللواتي الطنجي (ت ٥٦٠ هـ) :**

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ١٥٠ جغرافيا).

- **أرنولد، توماس :**

أ) الخلافة، ترجمة جميل معلي، دار اليقظة بدمشق ١٩٤٦ م.

ب) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين، مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٤٧ م.

- الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم (ت ٩٤٥ هـ):
تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، دار التحرير للطبع والنشر ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م.
- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد (ت ٢٥٠ هـ):
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ـ جزءان، دار الأندلس (بدون تاريخ طبع).
- الإسفرائيني، أبو المظفر (ت ٤٧١ هـ):
التبصير في الدين وتمييز الفرق الناجية عن الفرق الهالكين، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري، مطبعة الأنوار، الطبعة الأولى ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م.
- اسماعيل، محمود:
الحركات السرية في الإسلام، مطبعة روز اليوسف ١٩٧٣ م.
- الأشرف، أبو العباس إسماعيل:
فاكهة الزمان ومفاكهة الآداب والفتن في أخبار من ملك اليمن، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ١٤٠٩ تاريخ).
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٣٢٤ هـ):
مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ـ جزءان، تصحيح: هـ. ريتر، مطبعة الدولة، استانبول سنة ١٩٢٩ م.
- ابن الأصبغ، عرام (ت في القرن الثالث الهجري):
أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من الحياة، نوادر المخطوطات، بتحقيق عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ):
أ) الأغاني ـ ٢٤ جزءاً، الأجزاء ١ ـ ١٦ مطبعة دار الكتب سنة ١٩١٣ م ثم ابتداء من الأجزاء ١٧ ـ ٢٤ بتحقيق علي محمد البجاوي وعبد الكريم ابراهيم، الهيئة العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي ١٣٨١ هـ / ١٩٧٠ م.
ب) مقاتل الطالبيين، بتحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م.

- الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦ هـ):
الأصمعيات، بتحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٨ م.

- الأفغاني، سعيد:
أسواق العرب، دار الفكر ـ دمشق (الطبعة الثانية) ١٩٦٠ م.

- الأكوع، محمد بن علي:
الوثائق السياسية اليمنية، دار الحرية ـ بغداد سنة ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م.

- الألوسي، محمود شكري:
تاريخ نجد، بتحقيق محمود بهجة الأثري، بغداد سنة ١٣٤٧ هـ.

- أمين، صالح محمد:
النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، مكتبة نهضة الشرق ـ القاهرة (الطبعة الأولى) سنة ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م.

- انطوان، نعمان:
الطائر الغريد في وصف البريد، مطبعة المقتطف، القاهرة ١٩٨٠ هـ.

- الأهدل، الحسين بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٥٥ هـ):
تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٧٧٥ تاريخ تيمور).

- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ):
أ) الجامع الصحيح، بريل ـ ليدن سنة ١٨٦٢ م.
ب) كتاب التاريخ الكبير ـ ٥ أجزاء، دار الكتب العلمية ـ بيروت (بدون تاريخ طبع).

- بخيت، عبد الحميد:
الخلافة الإسلامية (عصر الراشدين)، دار العلم العربي ـ القاهرة ١٩٥٣ م.

- البرادي، أبو القاسم ابراهيم (عاش في القرن الثامن الهجري):
الجواهر المنتقاة، القاهرة سنة ١٨٨٤ م.

- بروكلمان، كارل:
تاريخ الشعوب الإسلامية (العرب والأمبراطورية العربية)، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي دار العلم للملايين، بيروت ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨م.
- البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩ هـ):
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ـ ٣ أجزاء تحقيق علي محمد البجاوي مطبعة دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤ م ـ ١٣٧٣ هـ
- البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ):
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ـ ١١ جزءاً تحقيق عبد السلام محمد هارون.
مطبعة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر سنة ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م.
البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت ١٠٣٧ هـ):
الفرق بين الفِرَق، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
مطبعة المدني ـ القاهرة ـ بدون تاريخ طبع.
- ابن بكار، الزبير (ت ٢٥٦ هـ): جمهرة نسب قريش وأخبارها
تحقيق محمود محمد شاكر.
مطبعة المدني سنة ١٣٨١ هـ
- البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ):
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضيع ـ ٤ أجزاء ـ تحقيق مصطفى السقا.
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥ م.
- البكري، صلاح:
تاريخ حضرموت السياسي ـ جزءان، المطبعة السلفية ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هـ
- البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ):
أ) أنساب الأشراف:
الجزء الأول، بتحقيق محمد حميد الله، دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٥٥ م.
الجزء الأول ـ القسم الثالث، بتحقيق عبد العزيز الدوري، بيروت ١٩٧٨ م.

الجزء الأول ـ القسم الرابع، بتحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٩ م.
الجزء الخامس، مطبعة القدس ١٩٣٦ م، والمطبعة المصرية بالقاهرة ١٩٣٢ م.
الجزء الحادي عشر، مطبعة يولس أبل ـ غريغر ولد سنة ١٨٨٣ م.
الأجزاء: ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٤٨٥٦ تاريخ).
ب) فتوح البلدان، المطبعة المصرية، القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٥٠ هـ.

- بلياييف، ي. أ:
العرب والإسلام والخلافة العربية، ترجمة: أنيس فريحة، بيروت ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣ م.

- بندقجي، حسين حمزة:
جغرافية المملكة العربية السعودية، الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٧ م.

- بيضون، ابراهيم:
الحجاز والدولة الإسلامية، بيروت ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣ م.

- بيغوليفسكيا، نينافكتورفنا:
العرب على حدود بيزنطة وإيران (من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي)، ترجمة صلاح الدين عثمان، الكويت ١٩٨٥ م.

- ترسيس، عدنان:
اليمن وحضارة العرب، دار مكتبة الحياة ـ بيروت (بدون تاريخ طبع)

- تزيني، طيب:
مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، دمشق ١٩٧٥ م.

- ابن تيمية، تقي الدين:
السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار الكاتب العربي، مصر ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٥ م.

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩ هـ)
لطائف المعارف، تحقيق ابراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي.

دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ سنة ١٩٦٠ م.

ـ ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ)
مجالس ثعلب (قسمان)، تحقيق عبد السلام محمد هارون.
دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨ م

ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)
أ) البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي.
دار صعب ـ بيروت سنة ١٩٦٨ م
ب) الحيوان ـ سبعة أجزاء، مكتبة الحلبي ـ الطبعة الأولى ـ سنة ١٣٥٩هـ مطبعة البابي ـ ١٩٤٠م.
ج) رسائل الجاحظ (جزءان)، تحقيق عبد السلام هارون.
مطبعة الخانجي ـ القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥

ـ الجاسر، حمد:
في شمال غرب الجزيرة، منشورات دار اليمامة، الرياض ـ الطبعة الأولى ١٩٧٠ م.

ـ جب، هاملتون:
دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرين، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٤ م.

ـ جمعة، محمد محمود:
النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم الإسلامية، القاهرة سنة ١٩٤٩ م.

ـ الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس (ت ٣٣٠ هـ):
الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة البابي الحلبي ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨ م.

ـ جواد علي:
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ ١٠ أجزاء، دار العلم للملايين ـ بيروت،

الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٠ م.

- الجوزي، بندلي:
تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، الجزء الأول من تاريخ الحركات الاجتماعية، مطبعة بيت المقدس سنة ١٩٢٨ م.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧ هـ):
أ) سيرة عمر بن عبد العزيز، نشر محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد، القاهرة ١٩٢١ م.
ب) صفة الصفوة (٣ أجزاء)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بمدينة حيدر آباد الدكن بالهند، سنة ١٣٥٥ هـ.
جـ) القصاص والمذكرين، تحقيق مارلين سوارتز، دار المشرق - بيروت، (بدون تاريخ طبع).

- الجوهري، يسري عبد الرازق:
أ) الوطن العربي (دراسة في الجغرافية التاريخية والاقليمية)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٧٩ م.
ب) جغرافية الشعوب الإسلامية، منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٨١ م.

- الحارثي، سالم بن حمد بن سليمان:
العقود الفضية في أصول الأباضية، عمان ١٩٨٣ م.

- ابن حبيب، أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥ هـ):
أ) كتاب المحبر، تحقيق ايلزة ليشتنشترن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بمدينة حيدر أباد الدكن بالهند، سنة ١٩٤٢ م.
ب) المنمق في أخبار قريش، بتحقيق خورشيد أحمد فاروق والكتابان مطبوعان بمطبعة الجامعة العثمانية بالهند سنة ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م.

- حتي، فيليب:
أ) تاريخ العرب (مطول)، ٣ أجزاء، الجزء الأول، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - بيروت الطبعة الثالثة ١٩٥٨ م.

ب) العرب (تاريخ موجز)، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٤٦ م.

- ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد (ت ٨٥٢ هـ):
الإصابة في تمييز الصحابة (٤ أجزاء)، دار الكتاب العربي (بدون تاريخ طبع).

- الحداد، محمد يحيى:
تاريخ اليمن السياسي، الجزءان: الأول والثاني، دار وهدان للطباعة والنشر، القاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م.

- ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد هبة الله (ت ٦٥٥ هـ):
شرح نهج البلاغة (٢٢ جزءاً)، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٥ م.

- الحربي (ولد سنة ١٩٨ هـ):
المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة - الرياض سنة ١٩٦٩ م.

- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ):
أ) جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف - القاهرة ١٩٨٢ م.
ب) الفِصَل في الملل والأهواء والنحل (٥ أجزاء)، المطبعة الأدبية بالقاهرة سنة ١٣٢١ هـ.

- حسن، حسن ابراهيم:
تاريخ الإسلام السياسي، (٤ أجزاء) طبعات كثيرة عن النهضة المصرية، القاهرة.

- حسونة، محمد أحمد:
أ) الجغرافية التاريخية الإسلامية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٠ م.
ب) دراسات في العالم العربي، النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٨ م.

- الحسيني، عبد المحسن:
الأقسام الجغرافية للجزيرة العربية، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، المجلد الحادي عشر ١٩٦٤ م.

- حسين، مولوي س. أ. ق:
الإدارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي، مطبعة الآداب ١٩٥٨ م.

- حفني، عبد الحليم:
شعر الصعاليك (منهجه وخصائصه) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ م.

- حلمي، محمد:
الخلافة والدولة في العصر الأموي، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٧٤ م.

- حمدان، جمال:
أ) أنماط من البيئات، مطبعة لجنة البيان العربي ـ القاهرة (بدون تاريخ طبع).
ب) العالم العربي، القاهرة ١٩٧١ م.

- ابن حميد السالمي، نور الدين عبدالله:
تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، جزءان، مطبعة الشباب، القاهرة ١٣٥٠ هـ.

- حميد الله، محمد:
مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤١ م، وأعيد طبعه مراراً بعد ذلك.

- الحنفي، قطب الدين (ت ٩٨٨ هـ):
تاريخ القرطبي المسمى كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة، شرح وتعليق محمد ضاهر بن الكردي، المكتبة العلمية بمكة المشرفة ١٩٧٠ م.

- أبو حنيفة، أحمد بن داوود الدينوري (ت ٢٨٢ هـ):
الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٠ م.

- حوراني، جورج فاضلو:
العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر، الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٥٨ م.

- الحوفي، أحمد محمد:

أدب السياسة في العصر الأموي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٦٠ م.

- ابن حوقل، أبو القاسم (من علماء القرن الرابع الهجري):
صورة الأرض ـ جزءان، ليدن ـ الطبعة الثانية ١٩٣٨ م.

- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبدالله بن عبدالله (ت ٣٠٠ هـ):
المسالك والممالك، بريل ـ ليدن سنة ١٨٨٩ م.

- الخصّاف، أبو بكر أحمد بن عمر بن مهير الشيباني (ت ٢٦١ هـ):
أدب القاضي، شرح الجصاص أبو بكر أحمد بن علي الرازي، تحقيق فرحات زيادة، قسم النشر بالجامعة الأمريكية، القاهرة ١٩٧٩ م.

- الخضري، محمد:
تاريخ الأمم الإسلامية ـ جزءان، المكتبة التجارية ـ القاهرة.

- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ):
أ) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة بولاق (٧ أجزاء).
ب) المقدمة، المطبعة الأزهرية ـ القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ.

- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم (ت ٦٨١هـ):
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (٦ أجزاء)، بتحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٤ م.

- خليف، يوسف:
الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٩ م.

- ابن خميس، عبدالله بن محمد:
المجاز بين اليمامة والحجاز، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض (بدون تاريخ طبع).

- الخوارزمي، أبوعبدالله محمد بن أحمد يوسف الكاتب (ت ٣٨٧ هـ):
مفاتيح العلوم، مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة (الطبعة الثانية)، سنة ١٩٨١ م.

- ابن خياط، خليفة (ت ٢٤٠ هـ):
أ) تاريخ خليفة بن خياط، الجزء الأول، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب في النجف الأشرف، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧ م.
ب) الطبقات، تحقيق سهيل زكار، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق سنة ١٩٦٦ م

- دائرة المعارف الإسلامية:
جماعة من المستشرقين، ترجمة عبد الحميد يونس وآخرين، القاهرة ١٩٣١ م، والطبعة الثانية صدر منها إلى الآن خمسة أجزاء، لم يترجم منها شيء.

- دبوز، محمد علي:
تاريخ المغرب الكبير (٣ أجزاء)، إحياء الكتب العربية، القاهرة (طبعة أولى)، سنة ١٩٦٣ م.

- الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد (ت ٦٧٠ هـ):
طبقات المشايخ بالمغرب (جزءان)، تحقيق ابراهيم طلاي، طبع الجزائر سنة ١٩٧٤ م.

- ابن دقماق، ابراهيم بن محمد بن أيدمر (ت ٨٠٩ هـ):
الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المطبعة الكبرى - بولاق - القاهرة سنة ١٨٩٣ م.

- الدمشقي، شمس الدين أبي عبدالله محمد أبي طالب الأنصاري (ت ٧١٧ هـ):
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة ليبزج سنة ١٩٢٣ م.

- الدوري، عبد العزيز:
مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، منشورات مكتبة المثنى بغداد - سنة ١٩٤٩ م.

- ابن الديبع الشيباني، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٩٤٤ هـ)
قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٢٢٤ تاريخ).

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ):
أ) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام - ٤ أجزاء مكتبة القدس - القاهرة سنة

١٣٦٧هـ.

ب)دول الإسلام ـ جزءان، دائرة المعارف النظامية ـ حيدر آباد الدكن، سنة ١٣٣٧ هـ ـ الطبعة الأولى.

جـ) سير أعلام النبلاء: ٣ أجزاء، تحقيق صلاح الدين المنجد دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٦٢ م.

د) العبر في خبر من غبر ـ جزءان، تحقيق صلاح الدين المنجد، دائرة المطبوعات والنشر ـ الكويت ـ سنة ١٩٦٠م.

ـ الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ)

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مراجعة علي سامي النشار، مطبعة النهضة المصرية سنة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٨ م.

ـ الرازي، أحمد بن عبدالله (ت ٤٦٠ هـ):

تاريخ صنعاء اليمن، مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٥٣٧٨ تاريخ).

ـ ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٣٩٠ هـ):

الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل ـ ليدن سنة ١٨٩١ م.

ـ الريس، محمد ضياء الدين:

أ) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، مطبعة الأنجلو المصرية ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٦١ م.

ب) النظريات السياسية الإسلامية، مكتبة دار التراث ـ القاهرة ـ الطبعة السادسة.

ـ زامباور:

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ـ جزءان، ترجمة زكي محمد حسن وآخرين، جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة سنة ١٩٥١ م.

ـ زلهايم، رودولف:

فتنة عبدالله بن الزبير، ترجمة حسام الصغير، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، جزء ٤، مجلد ٤٩، سنة ١٩٧٣م.

- زيدان، جورجي:
أ) تاريخ التمدن الإسلامي، مطبعة الهلال، القاهرة. الطبعة الخامسة بإشراف د. حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٧.
ب) العرب قبل الإسلام، الجزء الأول.
- سالم، السيد عبد العزيز:
أ) دراسات في تاريخ العرب ـ جزءان، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧ م.
ب) تاريخ الدولة العربية (تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية) مطبعة مؤسسة الثقافة الجامعية، القاهرة.
جـ) تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة مؤسسة الثقافة الجامعية، القاهرة ١٩٧٣ م.
- السجستاني، أبو حاتم (ت ٢٥٠ هـ):
المعمرون والوصايا، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦١ م.
- السخاوي، شمس الدين (ت ٩٠٢ هـ):
التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٥٨ م.
- السدوسي، مؤرج بن عمرو (ت ٢٣٠ هـ):
حذف من نسب قريش، نشر صلاح الدين المنجد، دار المدني ـ مصر ١٩٦٠ م.
- سرور، محمد جمال الدين:
الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة، القاهرة ـ دار الفكر العربي ١٩٦٠ م.
- ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠ هـ):
الطبقات الكبرى (٩ أجزاء)، بتحقيق إدوار سخاو ـ يوليوس ليرث، مطبعة بريل ـ ليدن سنة ١٣٣٥ هـ، وعلى أساسها عملت دار الشعب طبعتها في ثمانية أجزاء، وقد اعتمدنا عليها.
- سعداوي، نظير حسان:
نظام البريد في الدولة الإسلامية، دار مصر للطباعة ـ القاهرة ١٩٥٣ م.

- سليمان، حسين محمود:
ثقيف من ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية، رسالة ماجستير، كلية الأداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٢ (رقم ١٠٤٢).

- ابن سلام الاباضي (ت ٢٧٣ هـ):
الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، تحقيق ف. شفارتز وسالم بدر يعقوب، دار إقرأ للنشر والتوزيع، بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م.

- ابن سلام الجمحي، محمد (ت ٢٣١ هـ):
طبقات الشعراء، بتحقيق الأستاذ الشيخ محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية في جزأين، القاهرة.

- ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت٢٢٤هـ):
الأموال، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١ م.

- ابن سمرة الجعدي، عمر بن علي (عاش في القرن السادس الهجري):
طبقات فقهاء اليمن وعيون من أخبار سادات رؤساء الزمن، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥٧ م.

- السمهودي، نور الدين علي بن أحمد (ت ١٠١١ هـ):
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ، جزءان، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣٢٦ هـ.

- السيابي، سالم بن حمود:
أ) الزلة الوعثاء عن اتباع أبي الشعثاء، مطابع سجل العرب، القاهرة ١٩٧٩ م.
ب) الحقيقة والمجاز في تاريخ الأباضية باليمن والحجاز، مطابع سجل العرب بالقاهرة سنة ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.
جـ) طلقات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الأباضي، مطابع سجل العرب، القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.

- السيد، رضوان:
الأمة والجماعة والسلطة، دار إقرأ للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت ١٩٨٤م.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨ هـ):
المخصص (٥ مجلدات)، مركز الموسوعات العالمية، بيروت ١٩٧٥ م.
- سيف ابـن عمر (ت ٢٠١ هـ):
الفتنة ووقعة الجمل، جمع وتصنيف أحمد راتب عرموس، دار النفائس، بيروت سنة ١٩٧٢ م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ):
تاريخ الخلفاء، المطبعة اليمنية، القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ
- الشافعي، أبو عبدالله محمد بن إدريس (ت ٢٦٤ هـ):
الأم - سبعة أجزاء، المطبعة الأميرية - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٣٢١ هـ.
الشريف، أحمد ابراهيم:
دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الفكر العربي بالقاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨ م.
- الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت ٧٩٢ هـ):
السير، طبع حجر بالقاهرة (بدون تاريخ طبع).
- الشهر ستاني، محمد بن عبد الكريم (ت ٤٥٨ هـ):
الملل والنحل - جزءان، تحقيق محمد بن فتح الله بدران، مطبعة الأزهر - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٥١ م.
- صادق، دولت أحمد:
جغرافية العالم (دراسة إقليمية) الجزء الأول (آسيا وأوربا)، مكتبة الأنجلو - سنة ١٩٦٥م.
صالح، صبحي:
النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٥م.

- الصوافي، صالح بن أحمد:
الإمام جابر بن زيد العماني وآثاره في الدعوة، مطبعة الألوان الحديثة سنة ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٦هـ):
أدب الكتاب، تصحيح محمد بهجة الأثري.المطبعة السلفية ـ القاهرة سنة ١٣٤١ هـ.

- ضرار، صالح:
العرب من معين إلى الأمويين، دار مكتبة الحياة ـ بيروت (بدون تاريخ طبع).

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ):
أ) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (١٠ أجزاء)، دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م
ب) اختلاف الفقهاء، نشر يوسف شاخت، مطبعة بريل ـ ليدن سنة ١٩٣٣ م.

- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد (ت ٥٢٠ هـ):
سراج الملوك، المطبعة المحمدية التجارية، القاهرة ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٣٥ م.

- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ):
الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة سنة ١٣٨١ هـ/١٩٦٢ م.

- طلس، محمد أسعد:
عصر الاتساق (تاريخ بني أمية)، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨م.

ابن طولون، شمس الدين (ت ٩٥٣ هـ):
قضاة دمشق (الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام) «مرفق به كتاب القضاة الشافعية لمحيي الدين النعيمي». تحقيق صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي ـ دمشق سنة ١٩٥٩م.

ابن ظهيرة، جمال الدين محمد جاد الله بن محمد نور الدين (القرن العاشر الهجري):
الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف. مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ لطبعة الثانية سنة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م.

العباسي، أحمد بن عبد الحميد (ت القرن العاشر الهجري):
شرح شواهد التلخيص (المسمى معاهد التنصيص - جزءان - المطبعة البهية - القاهرة سنة ١٣١٦ هـ.

ابن عبد البر، (ت ٤٦٣ هـ):
الاستيعاب في أسماء الأصحاب «مرفق بكتاب الإصابة لابن حجر» - ٤ أجزاء.
دار الكتاب العربي - بدون تاريخ طبع.

ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبدالله (ت ٢١٤ هـ):
أ) سيرة عمر بن عبد العزيز، تعليق أحمد عيد، مطبعة وهبة - بدون تاريخ طبع.
ب) فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٦١ م
جـ) فتوح أفريقية والأندلس مع ترجمة فرنسية وتعليقات، عمل ألبرت جاتو - مدينة الجزائر سنة ١٩٤٧ م.

- عبد الحكيم، محمد صبحي:
الوطن العربي - أرضه وسكانه وموارده، الأنجلو بالقاهرة سنة ١٩٨٠ م.

- ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد (ت ٣٢٨ هـ):
العقد الفريد (٤ أجزاء) - المطبعة الأزهرية - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م

- عبدالله، أمين محمود:
الجغرافية التاريخية لحوض البحر الأحمر، المطبعة الحديثة - القاهرة ١٩٧١ م

- أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ):
نقائض جرير والفرزدق - ٣ أجزاء، تحقيق أنطوني بيفان، ليدن ١٩٠٩ م.

- العبيدي، عبد الجبار:
تاريخ الطائف حتى الفتح الإسلامي.

- العجلاني، منير:

عبقرية الإسلام في أصول الحكم، دار الكتاب الجديد ـ بيروت. الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥م.

ـ العدوي، ابراهيم أحمد:
أ) الأمويون والبيزنطيون (البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية).
مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة.
ب) النظم الاسلامية (مقاومتها الفكرية ومؤسساتها التنفيذية في صدر الإسلام والعصر الأموي). مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة سنة ١٩٧٢ م.

ـ ابن عرنوس، محمود بن محمد:
تاريخ القضاء في الإسلام، مطبعة الحلبي ـ مصر.

ـ عروة والسموأل: ديوانا عروة بن الورد بن زياد العبسي (ت ٥٩٦هـ)، وغريض بن عادي الغساني (ت ٥٦٠ هـ)، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٤ م.

ـ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١ هـ):
تهذيب تاريخ دمشق الكبير ـ ٧ أجزاء ـ دار المسيرة ١٩٧٩ م.

ـ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت ٣٩٥ هـ):
كتاب الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة ١٩٦٦ م.

ـ العلوي، هادي:
في السياسية الإسلامية (الفكر والممارسة)، دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت سنة ١٩٧٤م.

ـ العلي، صالح أحمد:
محاضرات في تاريخ العرب ـ الجزء الأول. مطبعة المعارف ـ بغداد ـ العراق ـ سنة ١٩٥٥م.

ـ ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ):
شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨ أجزاء) مكتبة القدسي ـ القاهرة ١٣٥٠ هـ.

- عمارة، محمد:
الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية، دار الهلال ـ سنة ١٩٨٣م.
- ابن العمري، شهاب الدين:
التعريف بالمصطلح الشريف مصر ـ ١٣١٢ هـ.
- عوض، ابراهيم نجيب محمد:
القضاء في الإسلام (تاريخه ونظامه).
مطبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية سنة ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م.
- غنيم، أحمد محمد:
تطور الملكية الفردية، الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة بدون تاريخ طبع.
- الفاسي، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢ هـ):
أ) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (جزءان) دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٦ م.
ب) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٨ أجزاء)، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٩ م.
- الفاكهي:
المنتقى في أخبار أم القرى
منتخبات من «تاريخ مكة» ومن «شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام» للفاسي، ومن كتاب «الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف» لابن ظهيرة، ليبزج سنة ١٨٥٩.
فانسينك، أ. ي:
المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، بريل ـ ليدن سنة ١٩٦٣ م.
- فخري، أحمد:
أ) اليمن (ماضيها وحاضرها)، مطبعة الرسالة ـ القاهرة سنة ١٩٥٧ م.
ب) دراسات في تاريخ الشرق القديم، مطبعة الأنجلو المصرية بالقاهرة ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٣٦ م.

- أبو الفدا، عماد الدين بن إسماعيل بن نور الدين (ت ٧٣٢ هـ):
أ) تقويم البلدان، باريس سنة ١٨٤٠ م.
ب) المختصر في أخبار البشر، (٣ أجزاء) المطبعة الحسينية (بدون تاريخ طبع).
- ابن فرحون، برهان الدين ابراهيم (ت ٧٩٩ هـ):
تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، جزءان، المطبعة البهية، القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ.
- فروخ، عمر:
تاريخ الجاهلية، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٤ م.
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني (من أهل القرن الثالث الهجري):
مختصر كتاب البلدان، بريل - ليدن سنة ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٥ م.
- فلهوزن، يوليوس:
أ) الخوارج والشيعة، وكالة المطبوعات - الكويت، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٨م.
ب) تاريخ الدولة العربية، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨ م.
- الفيروز أبادي، مجد الدين (ت ٨١٦ هـ):
القاموس المحيط (٤ أجزاء)، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة الخامسة سنة ١٩٥٤ م.
- ابن فهد، نجم الدين عمر بن الحافظ (ت ٨٨٥ هـ):
إتحاف الورى بأخبار أم القرى «ثلاثة أجزاء» مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٢٢٠٤ تاريخ تيمور).
ابن القاسم، يحيى بن الحسين (ت ١١٠٥ هـ):
أنباء الزمن في تاريخ اليمن، مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ١٣٤٧ تاريخ).
قاسم، عون الشريف:
نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول (ﷺ) (دراسة وثائق العهد النبوي) دار الكتاب

اللبناني ـ بيروت ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م

ابن قتيبة، أبو محمد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ):

أ) الإمامة والسياسة ـ جزءان، تحقيق طه محمد الزيني، مطابع سجل العرب ١٩٦٧ م.

ب) الشعر والشعراء ـ جزءان، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف سنة ١٩٦٦ م.

جـ) عيون الأخبار (٤ أجزاء)، طبعة دار الكتب سنة ١٩٦٣ م.

د) المعارف، بتحقيق ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة دار المعارف سنة ١٩٣٤ م.

ابن قدامة المقدسي، موفق الدين عبدالله بن محمد (ت ٦٢٠هـ):

التبيين في أنساب القرشيين. مخطوط بدار الكتب المصرية:

الجزء الأول (برقم ٣٥٨٣٤ تاريخ ـ ميكروفيلم)

الجزء الثاني (برقم ٤١٤٠١ تاريخ ـ ميكروفيلم).

قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٢٨هـ):

الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي. دار الرشيد للنشر ـ العراق ـ سنة ١٩٨١.

القرافي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس (ت ٦٨٤هـ):

الأحكام في تمييز الفتاوي عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام. مطبعة الأنوار ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.

القرشي، يحيى بن آدم (ت ٢٠٣هـ):

الخراج، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس. دار الشروق القاهرة ١٩٨٧.

القرطبي، أبو عبدالله محمد بن فرج المالكي (ت ٤٩٧ هـ):

أقضية رسول الله (ﷺ). دار الوعي ـ حلب، سوريا ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٩٦هـ.

ـ القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ):

أ) صبح الأعشى، طبعة دار الكتب المصرية (١٠ أجزاء) ـ القاهرة سنة ١٩١٣ م

ب) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق ابراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة. الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ م.

- الكاشف، سيده إسماعيل:
عمان في فجر الإسلام، مطبعة سجل العرب، القاهرة ١٩٨٢ م.
- كاهن، كلود:
تاريخ العرب والشعوب الإسلامية (منذ ظهور الإسلام حتى بداية الأمبراطورية العثمانية)، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٧ م.
- الكتاني، عبد الحي:
التراتيب الإدارية، جزءان، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ):
البداية والنهاية، المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٣٢ م.
- كحالة، عمر رضا:
أ) جغرافية شبه الجزيرة العربية المطبعة الهاشمية ـ دمشق ـ سنة ١٩٤٤م.
ب) معجم القبائل العربية ـ دمشق ١٩٥٠.
- كرد، محمد:
الإدارة الإسلامية في عز العرب، مطبعة مصر ـ القاهرة ـ سنة ١٩٣٤م.
- ابن أبي كريمة، أبو عبيدة مسلم (ت ١٣٥هـ):
رسالة أبي كريمة في الزكاة للإمام أبي الخطاب المعافري، مطابع سجل العرب، القاهرة ١٩٨٢ م.
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ):
الولاة وكتاب القضاة، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨ م.
- ماجد، عبد المنعم:
تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. مطبعة مكتبة الأنجلو ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٨ م.
الماوردي، أبو الحسن علي محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ):
الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار التوفيقية للطباعة، القاهرة ١٩٧٨ م.

- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (ت ٢٨٥هـ):
تهذيب الكامل، تحقيق السباعي بيومي، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٢٣ م.

- متولي، محمد موسى:
حوض الخليج العربي - ثلاثة أجزاء، مطبعة دار الطباعة الحديثة - القاهرة.

- مدكور، محمد سلام:
القضاء في الإسلام، دار النهضة العربية - سنة ١٩٦٥م.

- مدور، جميل نخلة:
حضارة الإسلام في دار السلام، المطبعة الأميرية - القاهرة - سنة ١٩٣٦م.

- مراد، ياسين محمد:
- جغرافية العالم الإسلامي، دار العلم للطباعة - القاهرة - سنة ١٩٧٩م.

- المراكشي، ابن عذاري (ت أواخر القرن السابع الهجري):
البيان المغرب في أخبار المغرب، ليدن سنة ١٨٤٨ م - وأعاد طبعه في خمسة أجزاء إحسان عباس في بيروت سنة ١٩٧٤ م.

- المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١ هـ):
شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٧١ هـ.

- مروة، حسين:
النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية (جزءان) دار الفارابي - بيروت - الطبعة الرابعة - سنة ١٩٨١م.

- المسعودي، أبو الحسين علي بن الحميد بن علي (ت ٣٤٦ هـ):
مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ أجزاء)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة ببيروت سنة ١٩٨٢ م.

- مشرفة، عطية مصطفى:
القضاء في الإسلام، مطبعة دار الغد - الطبعة الثانية - سنة ١٩٦٦م.

- **المصعب الزبيري، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله (ت ٢٣٦هـ):**
نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٣ م.
- **مصلحة البريد:**
تاريخ البريد، المطبعة الأميرية ـ القاهرة ـ سنة ١٩٣٤م.
- **المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله البشاري (ت ٣٥٥هـ):**
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل ـ ليدن سنة ١٩٠٩ م.
- **المقدسي، مطهر بن طاهر (من علماء أواخر القرن الرابع الهجري)**
البدء والتاريخ ـ ٦أجزاء، طبع باريس سنة ١٨٩٩م.
- **المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ):**
أ) الخطط المقريزية، مطبعة النيل سنة ١٣٢٤هـ.
ب) النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم،بتحقيق د. حسين مؤنس. ذخائر العرب. القاهرة ١٩٨٧.
- **مليجي، أحمد محمد:**
النظام القضائي الإسلامي، دار التوفيق النموذجية للطباعة، القاهرة ١٩٨٤ م.
- **مؤلف مجهول:**
تاريخ أهل عمان، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور مطابه سجل العرب ـ القاهـرة سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م.
- **مؤلف مجهول:**
خلافة الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك. ليدن سنة ١٨٥٣ م.
- **مؤلف مجهول، أحد علماء الأباضية:**
كشف الغمة لأخبار الأمة. مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ١٢٩٦٨ ح).
- **مؤلف مجهول:**
نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدن والآفاق.
مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٢٦٥ جغرافيا).

- مؤلف مجهول:

العيون والحدائق في أخبار الحقائق، الجزء الثالث ليدن سنة ١٨٧١ م، ثم الجزء الرابع بتحقيق نبيلة عبد المنعم داوود ـ بغداد سنة ١٩٧٢ م.

- موسيل، الويس:

شمال الحجاز، مطابع رمسيس ـ القاهرة سنة ١٩٥٢ م.

- موسى، محمد يوسف،

نظام الحكم في الاسلام دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة، الطبعة الثانية ـ سنة ١٩٦٣م.

- مؤنس، حسين:

دراسات في السيرة النبوية، الزهراء للإعلان العربي ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥م.

- نافع، محمد مبروك:

عصر ما قبل الإسلام، مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢م.

- ابن النجار، محمد بن محمود (ت ٦٤٧هـ):

الدرة الثمينة في أخبار المدينة، مرفق بكتاب شفاء الغرام، القاهرة ١٩٥٦ م.

- النجار، حسين فوزي:

الإسلام والسياسة مطابع دار الشعب ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٧م.

- النجم، عبد الرحمن عبد الكريم:

البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، مطبعة الجمهورية ـ بغداد ـ سنة ١٩٧٣م.

- النجيرمي، أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله بن محمد (ت ٣٥٥ هـ):

أيمان العرب وطلاقتها، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٣٦٢ لغة).

- نخبة من علماء الهند:

الفتاوى الهندية (المسماة العالمكرمة)، المطبعة الأميرية/القاهرة/الطبعة الثانية سنة ١٣١٠هـ.

- النص، إحسان:
العصبية القلبية وأثرها في الشعر الأموي، رسالة دكتوراه ـ كلية آداب القاهرة سنة ١٩٦٢هـ برقم ٢٦١.

- النكدي، عارف:
القضاء في الإسلام، مطبعة الترقي ـ دمشق ـ سنةهـ ـ ١٩٢٢م.

- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبدالله (ت ٤٣٠ هـ):
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣٢ م.

- نيلسن، ديتلف وآخرون:
التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين، القاهرة ١٩٥٨ م.

- النووي، أبو زكريا محيى الدين بن شرف (ت ٦٧٦هـ):
تهذيب الأسماء واللغات، جزءان، المطبعة المنيرية بالقاهرة (د. ط.)

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ):
نهاية الأرب في فنون الأدب من ١ إلى ٢٣ بتحقيق محققين مختلفين الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦ م.

- هاشم، (مهدي طالب):
الحركة الأباضية في المشرق العربي (نشأتها وتطورها حتى نهاية ق ٣ هـ).
كلية الأداب ـ جامعة بغداد ـ ١٩٧٧، برقم ٩٥٣,٠٢ مكتبة آداب عين شمس.

- الهَجَري، أبو علي:
أبحاث في تحديد المواضع، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة الرياض، الطبعة الأولى ١٩٦٨م.

- ابن هشام، أبي محمد عبد الملك (ت ٢١٣هـ):
السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، دار مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٣٦ !

- هل، ي:
الحضارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي، دار الهلال سنة ١٩٧٩ م.
- الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ):
أ) الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير - الجزء الثاني، تحقيق محمد بن علي الأكواع، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧م.
ب) الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير - الجزء العاشر تحقيق محب الدين الخطيب الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧.
جـ) صفة جزيرة العرب - بتحقيق محمد بن علي الأكوع اليماني، دار اليمامة بالرياض بريل - ليدن سنة ١٨٨٤ م.
- هيكل، محمد حسين:
حياة محمد، دار الكتب المصرية (الطبعة الثالثة) ١٣٥٨ هـ.
- وات، مونتجمري:
البدو، ترجمة ابراهيم زكي خورشيد وآخرين، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١ م.
- الواسعي، عبد الواسع بن يحيى:
تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن، الدار اليمنية للنضر والتوزيع ١٩٨٢.
- وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦ هـ)
أخبار القضاة (٣ أجزاء)، عالم الكتب - بيروت (د. ط.)
- ولفنسون، اسرائيل:
تاريخ اليهود في بلاد العرب، مطبعة الاعتماد، القاهرة سنة ١٩٢٧ م.
- ولكنسون، ج. س:
بنو الجلندي في عمان، مطابع سجل العرب، القاهرة ١٩٨٢ م.
- وهبه، حافظ:
جزيرة العرب في القرن العشرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة -

الطبعة الخامسة سنة ١٩٦٧ م.

- ياقوت الحموي: شهاب الدين أبي عبدالله (ت ٦٢٦هـ):
معجم البلدان - طبعة الساسي ٦أجزاء. القاهرة ١٩٠٦.

- اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢هـ):
أ) البلدان - طبعة ليدن ١٨٩١، (مرفق بكتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته)
ب) تاريخ اليعقوبي - ٣ أجزاء، النجف - العراق سنة ١٣٥٨ هـ

- أبو يعلي: محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت ٤٥٨هـ)
الأحكام السلطانية، تصحيح محمد حامد الفقي مطبعة البابي الحلبي - الطبعة الثانية سنة ١٣٨٦ هـ-١٩٦٦م.

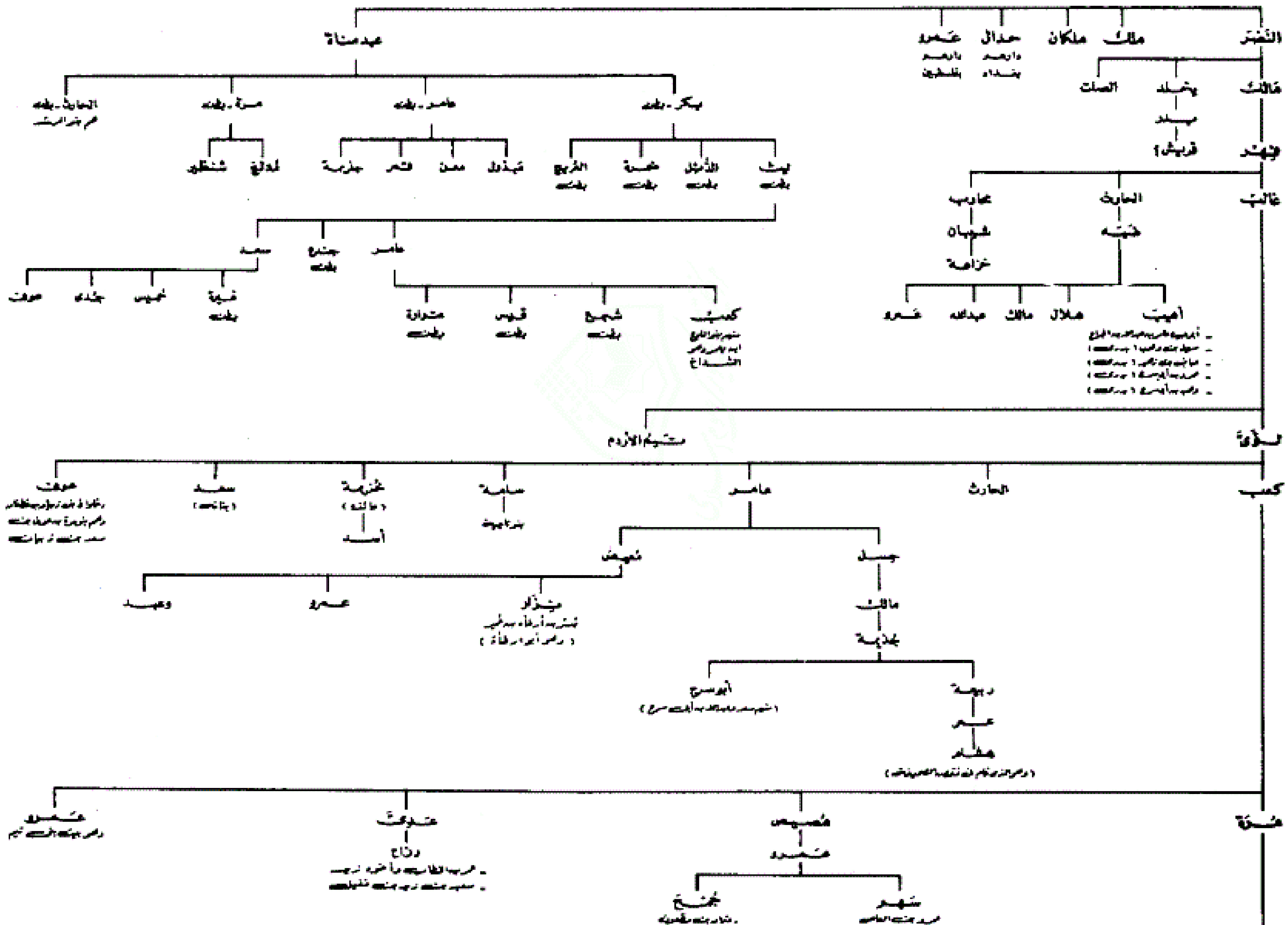
- أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ)
الخراج، المطبعة السلفية - القاهرة، الطبعة الثانية سنة ١٣٥٢هـ.

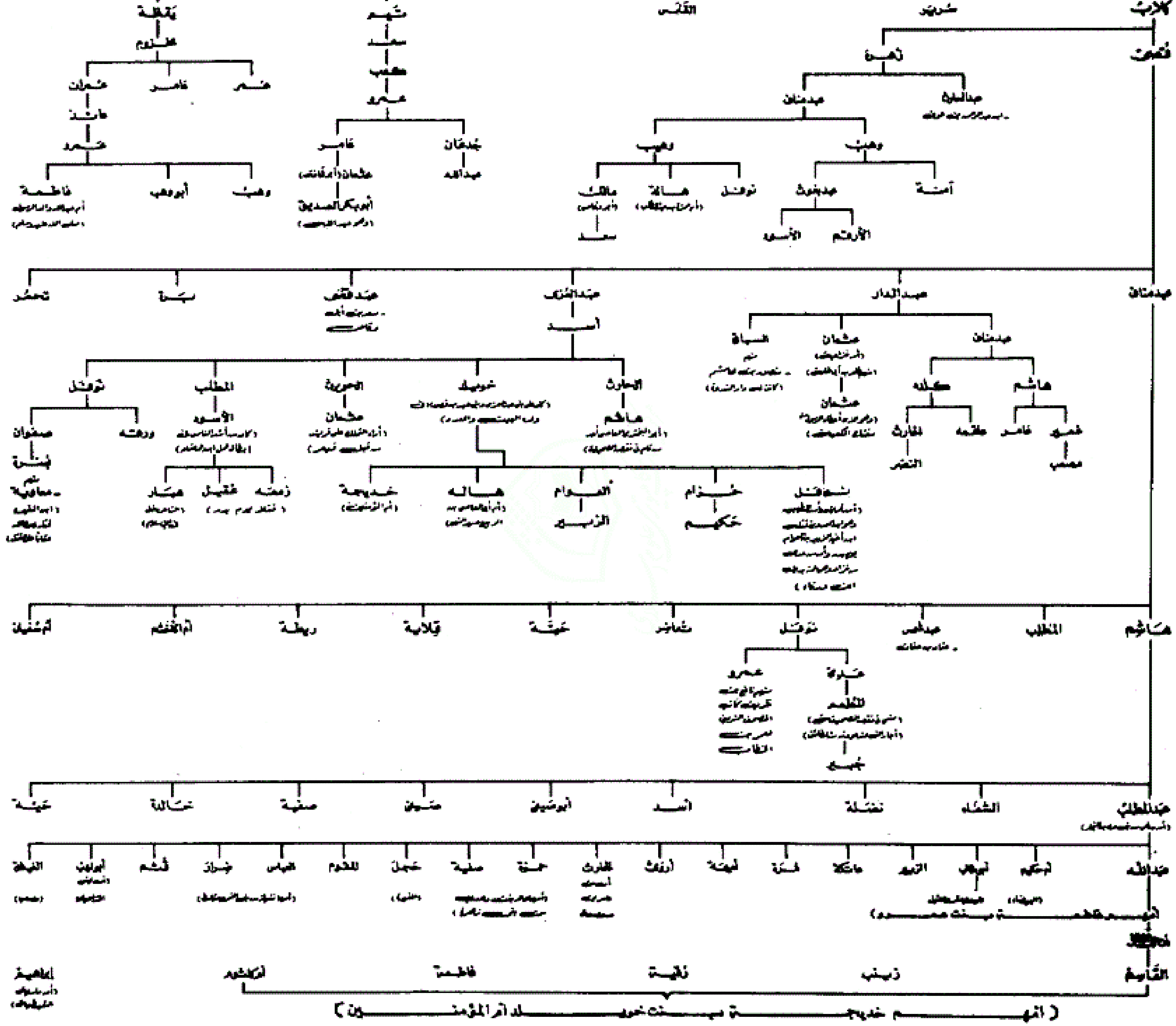
أنساب كِنانة وقُريش

عمود النسب النبوي الشريف باللون الأخضر. ذكرنا باللون الأحمر في شجرة النسب أسماء أهم الشخصيات القرشية التي يرد ذكرها في السيرة النبوية وبعض المعلومات عنهم.

كنانة

ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان




كلاب
قصي
زهرة
عبدمناف
عبدالحارث
وهب
وهيب
آمنة
عبديغوث
نوفل
هالة
مالك
الأرقم
الأسود
سعد
تيم
سعد
كعب
عمرو
جدعان
عامر
عبدالله
عثمان (أبوقحافة)
أبوبكر الصديق
يقظة
مخزوم
عمران
عامر
عمر
عائذ
عمرو
فاطمة
أبووهب
وهب
عبدمناف
عبدالدار
عبدالعزى
عبدقصي
برة
تخمر
عبدمناف
عثمان
السباق
هاشم
كلدة
عمرو
عامر
علقمة
الحارث
مصعب
النضر
أسد
الحارث
خويلد
الحويرث
المطلب
نوفل
هاشم
عثمان
الأسود
صفوان
ورقة
نوفل
خزام
العوام
هالة
خديجة
زمعة
عقيل
هبار
بشرة
معاوية
حكيم
الزبير
هاشم
المطلب
عبدشمس
نوفل
شقاوة
حية
قلابة
رقية
أم الحكم
أم سفيان
عدي
عمرو
المطعم
جبير
عبدالمطلب
الشفاء
نضلة
أسد
أبوصيفي
حية
صفية
خالدة
حية
عبدالله
أم حكيم
أبوطالب
الزبير
عاتكة
أروى
أميمة
أروى
الحارث
حمزة
صفية
حجل
المقوم
العباس
ضرار
قثم
أبولهب
الغيداق
محمد ﷺ
القاسم
زينب
رقية
فاطمة
أم كلثوم
إبراهيم
(أمهم خديجة بنت خويلد أم المؤمنين)
(أمهم فاطمة بنت عمرو)

الفهارس العامة

فهرس الأعلام

ت

ث

ج

ح

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

م

ن

هـ

و

ي

أمم - جماعات - قبائل

أ

ث

ج

ح

ش

ص

ض

ط

ك

ل

م

أماكن وبلدان

أ

ب

ت

ج

خ

ح

ث

د

ذ

ر

ز

س

ش

غ

ف

ن

الفهرس